

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ
مِنْ
أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف
الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن حنبل الشافعي

إعداد
أ. د. سيد محمد سادات الشافعي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضة
السعودية

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف
الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابجيني الشنقيطي

إعداد
أ. د. سيد محمد ساد آبي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي
مصر - المنصورة

دار الفضيحة
الرياض - السعودية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

الناسِر

دار الهدى النبوي
مصر - المنصورة

وزارة الفضيحة
الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب. ٥١١٤٢
تلفاكس ٢٣٣٣٠٦٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة مختصر الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ لَكُمُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفِرْقَانِ﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإنه لما كان كتاب الله هو العروة الوثقى وحبل الله المتين وهو النور الذي يبده ظلمات الكفر والجهل والمعصية والبدعة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [٥٦] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾ [المائدة].

وكنت ممن من الله عليهم بمعايشة كتاب الله وإطالة التأمل فيه ومحاولة الغوص وراء معانيه العظيمة وأوامره وأحكامه الرشيدة مع رغبة صادقة في معرفة زواجره ونواهيها، وكنت في سبيل ذلك كثير المداومة على مطالعة كتب التفسير التي ألفها علماءنا الأجلاء الفضلاء. وكنت بالفطرة شديد الميل إلى الوقوف عند التفاسير التي ركزت على تفسير القرآن بالقرآن باعتباره أفضل أنواع التفسير وأجلها قدراً، وكنت ولا زلت أتعنى أن يكون الاهتمام بهذا المنهج في التفسير هو ما تصرف فيه الأوقات، وما ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لمن يتصدى لتفسير كتاب الله وبيان معانيه وجعلها في متناول عامة المسلمين دعوة لهم لتكون مستند حركتهم، ومركز عملهم كيما يسعدوا في العاجل والآجل، لذلك وجدته مشدوداً إلى كتاب أحسبه فريداً من نوعه في هذا الباب لم تقع عيني على مثله هو (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) لشيخنا بل شيخ الجيل الذي وجد فيه وشيخ من أتى بعده الإمام العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ابن عمنا والمقدم فينا، وتأكد بعد المعاشة أن كثيراً من الناس قد لا يحسنون الغوص وراء معانيه ولا يجدون السباحة في بحره الزاخر، لطول نفس الشيخ في العلوم التي حواها كتاب الله فوقوفه الطويل عندها في مباحث متخصصة غاية ونهاية هي محل اهتمام من طلبة العلم الراسخين فيه حيث إن الشيخ رحمته الله كان يعلم يقيناً أن المستفيدين بالدرجة الأولى من الكتاب هم طلبة العلم، وكان رحمته الله لا يوزعه في طبعته الأولى إلا عليهم وبشرط أن يكونوا قد حصلوا على الأجزاء الأولى منه لأنه كان قد أفاض في

الكشف عن منهجه في مقدمة الجزء الأول من الكتاب، كما كان كثير الإحالة على الأجزاء الأخرى التي تقدمت لكل ما سبق ورغبة في جعل هذا التفسير الجليل في متناول عامة المسلمين من خلال التركيز على بيان معاني الآيات التي فسرهما الشيخ وفق منهجه سواء كان التفسير بنصوص القرآن أو الأقوال اللغوية والشواهد الشعرية التي تجلي حقيقة معنى الآية مع إيضاح رأي الشيخ في المسائل التي تتعلق بالموضوعات ذات العلاقة في الآية والاقتصار على ذلك باعتباره أبرز ما يحتاج إليه عامة الناس وقد اخترت له اسماً يطابق حقيقته ويتفق مع ما وضعه الشيخ اسماً لأصل الكتاب وهو «تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان» ولا يفوتني هنا التأكيد على أنني لم أكن لأجراً على مثل هذا العمل لولا ما لمست من تشجيع أخي الدكتور محمد المختار بن محمد الأمين ابن الشيخ بعد أن بينت له شدة اهتمامي بتيسير انتفاع عامة الناس بالكتاب إذ أنني حتى بعد موافقته ترددت كثيراً وأمضيت أكثر من سنتين في التردد بعدها شرح الله صدرى لهذا العمل الذي أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً للمسلمين.

وهنا ملاحظة قبل اختتام هذه المقدمة تتمثل في أن الشيخ ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن وإنما اقتصر تفسيره في كل سورة على الآيات التي فسرهما آيات أخرى من كتاب الله وربما كان غياب إدراك هذه الحقيقة مما حال بين الكثيرين من عامة الناس وبين الانتفاع به بصورة مثلى.

ومن باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فإني أتقدم لكل من ساعدني في اختصار هذا الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ. د. سيد بن محمد ساداتي الشنقيطي



مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي اصطفاه وجعله سيد ولد آدم أجمعين.

الحمد لله الذي أنزل على خاتم الرسل والأنبياء أكمل كتاب، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب، وأماط به عن نفائس العلوم وذخائرها الحجاب، وكشف به عن حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب، وأخلص به العبادة للعزيز الوهاب، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب، تحيى بوابل علومه القلوب النيرة أعظم مما تحيى الأرض بوابل السحاب، يتميز بتدبر آياته الخطأ من الصواب، والقشور من اللباب، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعاب ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا عَنْكَ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وعد الله متبعه ما هو خير وأبقى، وقال فيه: ﴿فَمَنْ آتَبَعْ هَذَا فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وأوعد المعرضين عنه من جميع الأحزاب بالنار، قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَانَارٌ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وهو عام للكفار، وشبه بالحرر المعرضين عنه من الكفرة، قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكُّرِ مُّعْرِضِينَ﴾ [٤٩] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ [المدثر]، فيكفي المعرض عنه أنه حمار، وأنه من حمير النار.

وبين تعالى أن المعرض عنه يحمل يوم القيامة ما لا يستطيع له حملاً، قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه]، فتح الله تعالى به قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقال فيه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه]، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على طول التكرار، ما تعاقب الليل والنهار، رفع الله تعالى به قوماً ووضع به آخرين، وقال: ﴿تَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكِتَابِ سَتَجِدُنَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَتْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]، وهو آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين، فكل الشر في الإعراض عنه، وكل الخير في الإقبال عليه، فطوبى لمن كان حجة له، وويل لمن كان حجة عليه ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آتَانَا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آتَانَاهُمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، ففيه للمطيع أعظم وعد، وللعاصي أشد وعيد.

ومع هذا كله، فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبر في آياته، غير مكترئين بقول من خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]، لا يتأدبون بأدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له، غير مكترئين بقول ربهم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ صَلَائِلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، بل المتأدب بأداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغموز فيه عند جلهم إلا من عصمه الله فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد كما قال الشافعي رحمه الله:

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

وإياك يا أخي ثم إياك، أن يزهك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه، ولا كثرة المعتقدين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلم أن العاقل الكيس الحكيم لا يكثر بانتقاد المتجانبين، واسمع قول الأديب الكبير محمد بن حنبل الشنقيطي الحسني رحمه الله:

لا تسو بالعلم ظنا يا فتى	إن سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهك أخي في العلم أن	غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضوا مرملا	صفر كف لم يساعده سبب
وتر الجاهل قد حاز الفنى	محرز المأمون من كل أرب
قد تجوع الأسد في آجامها	والذئاب الغبس تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله	مضض الميرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى	وإبار النحل مشتار الضرب

أما بعد: فإنا لما عرفنا إغراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم ونبذهم له وراء ظهورهم، وعدم رغبتهم في وعده، وعدم خوفهم من وعيده، علمنا أن ذلك مما يعين على من أعطاه الله علماً بكتابه أن يجعل همته في خدمته من بيان معانيه، وإظهار محاسنه، وإزالة الإشكال عما أشكل منه، وبيان أحكامه، والدعوة إلى العمل به، وترك كل ما يخالفه.

واعلم أن السنة كلها تدرج في آية واحدة من يحجره الزاخر، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ومن أهم المقاصد في ذلك، هذا الكتاب المبارك الذي هذه ترجمته، واعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران:

أحدهما: بيان القرآن بالقرآن، لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله - جل وعلا - من الله - جل وعلا -، وقد التزمنا أن لا نبين القرآن إلا بقراءة سبعية، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها، ولا نعتمد على البيان بالقراءات

الشاذة وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهداً للبيان بقراءة سبعية، وقراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف ليست من الشاذ عندنا ولا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات.

وثانيهما: بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة بالفتح في هذا الكتاب، فإننا نبين ما فيها من الأحكام، وأدلتها من السنة، وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين، ولا لقول قائل معين؛ لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله؛ لأن كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلامه ﷺ، ومعلوم أن الحق حق ولو كان قائله حقيراً.

ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالت، وذلك في قولها فيما ذكر الله عنها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، فقد قال تعالى مصداقاً لها في قولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وقد قال الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك، كتحقيق بعض المسائل اللغوية وما يحتاج إليه من صرف وإعراب، والاستشهاد بشعر العرب وتحقيق ما يحتاج إليه في المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث، كما ستراه إن شاء الله تعالى.

واعلم أن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جملاً من ذلك ليعلم بها الناظر كثرة ما تضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن، ويكون على بصيرة في الجملة من فائده قبل الوقوف على جميع ما فيه.

وبعد ذلك نذكر مقدمة في تعريف الإجمال والبيان، وما يحتاج إليه من مسائلهما من غير تطويل في ذلك، ثم نشرع - إن شاء الله - في المقصود مرتباً على ترتيب سور القرآن العظيم، ونرجو من الله الكريم على ما فينا أن نكون داخلين في قوله ﷺ، الثابت في صحيح البخاري من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وفي رواية له: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» كما نرجوه تعالى أن يوفقنا للعمل بما علمنا من كتابه، والتخلق بما فيه من المكارم، والتأديب بآدابه، وأن يعلمنا ما جهلنا، ويذكرنا ما نسينا منه، وأن يرزقنا إخلاص النية في جميع الأعمال، وأن يحفظنا بفضلته ورحمته من فساد القصد في الأعمال، إنه رحيم كريم.

اعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب اشتراك، سواء كان الاشتراك في اسم أو فعل أو حرف.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأنَّ القرء مشترك بين الطهر والحيض، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العدة الأطهار بقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فاللام للتوقيت ووقت الطلاق المأمور به فيه في الآية الطهر لا الحيض، وتدل له قرينة زيادة التاء في قوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، لدلالته على تذكير المعدود وهو الأطهار، فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء بلا هاء؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار وثلاث حيضات. وسترى بعض الكلام على هذه المسألة في هذه الترجمة وتحقيق المقام فيها بأدلته في سورة البقرة إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فإنَّ العتيق يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتقد من الجابرة وعلى الكريم وكلها قيل به في الآية وتصريح الله بأنه أقدم البيوت التي وضعت للناس في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، يدل للأول.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير]، فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره، وقد جاءت آية تؤيد أن معناه في الآية أدبر وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ﴾ [٣٣] وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ [٣٤] [المدرثر]، فكون عسعس في الآية بمعنى أدبر يطابق معنى آية المدرثر هذه كما ترى، ولكن الغالب في القرآن أنه تعالى يقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [١] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [٢] [الليل]. وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ [٣] وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [٤] [الشمس]. وقوله: ﴿وَالصُّبْحِ﴾ [٥] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٦] [الضحى]، إلى غير ذلك من الآيات، والحمل على الغالب أولى وهذا هو اختيار ابن كثير وهو الظاهر خلافاً لابن جرير. وسترى إيضاح هذا المبحث إن شاء الله في سورة التكوير.

ومن أمثلة الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فإنه مشترك بين قولهم عدل به غيره إذا سواه به ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

أي سويتهم بهم وبين قولهم: عدل بمعنى مال وصد ويدل للأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٧] إِذْ سَأَلْتُم مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٨] [الشعراء]. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧]، فإنَّ الواو في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ﴾ محتملة للعطف على ما قبلها وللاستئناف، ولكنه تعالى بيّن في سورة الجاثية، أن قوله هنا: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] معطوف ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وأنَّ قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧] جملة مستأنفة مبتدأ وخبر، فيكون الختم على

القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار، والآية التي بين بها ذلك هي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَفَلَبَّهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْرَةً﴾ [الباقية: ٢٣]، وسترى في سورة البقرة، الجواب عن آية النحل إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف أيضاً الاشتراك في الواو من قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فإنها محتملة للعطف فيكون الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابهة ومحتملة للاستئناف، فيكون الله تعالى مستأثراً بعلمه دون خلقه، وفي الآية قرائن ترجح أنها للاستئناف أوضحها ابن قدامة في روضة الناظر قال: وفي الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بعلم تأويل المتشابهة وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزِمُكَ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلا أنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو، وأما المعنى فلا أنه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً؛ ولأن قولهم: آمنا يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه إلى آخره. وسترى تمامه وتفصيله إن شاء الله في سورة آل عمران.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، فإن لفظة «من» مشتركة بين التبويض وابتداء الغاية، وقد قال الشافعي، وأحمد - رحمهما الله -: هي في هذه الآية الكريمة للتبويض، فاشتراطاً صعيداً له غبار يعلق باليد، وقال مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله -: هي لابتداء الغاية فلم يشترطاً ماله غبار، بل أجازا التيمم على الرمل والحجارة وقولهما أنسب؛ لأن قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة «من» لتوكيد العموم، والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص صريح في شمول النفي لجميع أفراد الجنس والتكليف بخصوص ما له غبار لا يخلو من حرج؛ لأن كثيراً من بلاد الله لا يوجد فيها إلا الجبال أو الرمال، وسيأتي تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالسنة في سورة المائدة، إن شاء الله تعالى.

والمقصود في الترجمة مطلق المثال، ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام في اسم جنس جمعاً كان أو مفرداً، أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف، فمثال الإبهام في اسم جنس مجموع قوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، فقد أبهمها هنا وذكرها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ومن أمثله في اسم جنس مفرد قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فقد أبهمها هنا وبينها بقوله: ﴿وَرَبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْنَوْا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ أُيُمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وتضمن لهم في الأرض ونرى فرعونك وهنكن ونؤودهما منهم ما كانوا يحذرون [١] [القصص]، ومن

أمثلته قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فقد بينها بقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [السجدة: ١٣] الآية، ونحوها من الآيات. ومن أمثلته قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فقد بين عهده بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] وبين عهدهم بقوله: ﴿لَأُكْفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية، ومن أمثلته قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ لأن الأشد يتناول البلوغ ويتناول ثلاثين سنة، وأربعين، وستين وغير ذلك؛ كما قيل فيه بكل ذلك ومن إطلاقه على الخمسين قول سحيم بن وثيل.

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذني مداورة الشؤون

ولكن الله تعالى بين أن المراد به في شأن اليتيم بلوغ النكاح بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في اسم جمع قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ ﴿٥٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان]، فالقوم: اسم جمع وقد أبهمه هنا وكذلك قوله في الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فإنه أبهم فيه القوم أيضاً ولكنه بين في سورة الشعراء، أن المراد بأولئك القوم بنو إسرائيل لقوله في القصة بعينها: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] الآية. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَقْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل]، فإنه أبهم هؤلاء القوم هنا ولكنه أشار إلى أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقرأ له: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطَ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٣٧﴾ إني وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في صلة موصول قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْثَى إِلَّا مَا بَيَّنَّ عَلَيْنَا﴾ [المائدة: ١] فقد أبهم هنا هذا الممتلئ عليهم الذي هو صلة الموصول ولكنه بينه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأَوْدَاجُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإنه أبهم هنا هؤلاء الذين أنعم عليهم، ولكنه بين المراد بهم بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَنُحِفِّي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ، في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه زينب بنت جحش حيث أوحى إليه ذلك وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا فَصَّي زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ زَوْجَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن وهو اللاتق بجنابه ﷺ، وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين من أن ما أخفاه في نفسه ﷺ، وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبه

لها وهي تحت زيد وأنها سمعته قال: «سبحان مقلب القلوب» إلى آخر القصة فإنه كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسوله ﷺ. وسترى إن شاء الله تحقيق المقام في هذه المسألة في سورة الأحزاب.

ومثال الإبهام في معنى حرف قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠]، فإن لفظة «من» فيه للتبعض ولكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبعض المأمور بإنفاقه مبهم هنا، وقد بينه تعالى بقوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، والغفو الزائد على الحاجة الضرورية، وسترى إيضاحه في أول سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير وهو كثير، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة العاديات: ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات]، فإن الضمير يحتمل أن يكون عائداً إلى الإنسان، وأن يكون عائداً إلى رب الإنسان المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات]، ولكن النظم الكريم يدل على عوده إلى الإنسان وإن كان هو الأول في اللفظ بدليل قوله بعده: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]، فإنه للإنسان بلا نزاع، وتفريق الضمائر بجعل الأول للرب والثاني للإنسان لا يليق بالنظم الكريم.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يذكر شيء في موضع ثم يقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين، ولكنه وقع سؤال عنهم وجواب في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] الآية، وسؤال فرعون هذا - لعنه الله - وإن كان في الأصل عن الرب جل وعلا، فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين كما ترى، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبينه هنا مع أنه وقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الأنعام: ١٧ - ١٩] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوي غير مراد بدليل قرآني آخر على أن المراد غيره ومثاله قوله تعالى: ﴿الطَّلَقُ مَرْكَانٌ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية، فإن ظاهره المتبادر منه أن الطلاق كله محصور في المرتين، ولكنه تعالى بين أن المراد بالمحصور في المرتين خصوص الطلاق الذي تملك بعده الرجعة بقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فإن المتبادر من مفهوم الغاية أنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التي

هي أحسن، ولكنه تعالى بين أن المراد بالغاية أنه إن بلغها يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد، وذلك في قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثاله قول أبي حنيفة رحمته الله: إن المسلم يقتل بالكافر الذمي مثلاً قائلاً: إن ذلك يفيد عموم النفس بالنفس في قوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكَ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، قرينة على عدم دخول الكافر؛ لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر، كما سترى تحقيقه في المائدة إن شاء الله تعالى، ومن أمثلته قول الحسن البصري رحمته الله: إن المراد بابني آدم في قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ أَنْبَىٰ عَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧] الآية، رجلان من بني إسرائيل فإن قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] الآية، دليل على أن ذلك وقع في مبدأ الأمر قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، أما في زمن بني إسرائيل فلا يخفى دفن الموتى على أحد، ولا يحتاج إسرائيلي البتة إلى تعلم دفن الميت من الغراب كما هو ظاهر، ومن أمثلته قول مجاهد رحمته الله: إن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلْ مِنْكُمْ مِثْلًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، أنه متعمد لقتله ناس لإحرامه، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يدل على أنه مرتكب معصية والناسي لإحرامه غير مرتكب إثماً حتى يقال فيه ليدوق وبال أمره، ومن أمثلته قول كثير من الناس: إن آية الحجاب أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، خاصة بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فإن تعليقه تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قرينة واضحة على قصد تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين: إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى طهارة قلوبهن، ولا إلى طهارة قلوب الرجال من الريبة منهن، وقد تقرر في الأصول أن العلة قد تعمم معلولها وإليه أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد تخصص وقد تعمم لأصلها لكنها لا تخرم

وسترى - إن شاء الله - تحقيق مسألة الحجاب في سورة الأحزاب، ومن أمثلته قول بعض أهل العلم: إن أزواجه صلى الله عليه وسلم، لا يدخلن في أهل بيته في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] الآية، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ثم قال بعده: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بَيْوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] الآية.

وأجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصص، وروي عن مالك: أنها ظنية الدخول، وإليه أشار في مراقبي السعود بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهم داخلات في الآية، وسترى - إن شاء الله - تحقيق ذلك في سورة الأحزاب.

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر وقوع شيء في القرآن، ثم يذكر في محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، فإنه لم يبين هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفردة؟ ولكنه بينها في الأعراف بقوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَتَمَّ نَظْرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فإنه بين كيفية إغراقه لهم في مواضع آخر كقوله: ﴿أَنِّي أَضْرِبُ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] الآية، وقوله: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] الآية، ومن هذا القبيل أن يذكر وقوع أمر من غير تعرض إلى كونه وقع أولاً بتنجز أو تعليق، ثم يبين ذلك في موضع آخر، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] الآية، فإنه لم يبين هنا هل ذلك الأمر بالسجود وقع أولاً بتنجز أو تعليق وقد بين في (الحجر) و(ص) أنه وقع أولاً معلقاً قال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١]. وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧٢].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يقع طلب لأمر، ويبين في موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَكُلَّ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] الآية، فإنه بين في الفرقان أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر أمر في موضع، ثم يذكر في موضع آخر شيء يتعلق بذلك الأمر، كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق: فمثال ذكر سببه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ولكنه بينه بقوله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لَيْسَ لَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]. وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. ومن أمثلة ذكر السبب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فإنه أشار هنا لسبب اسودادها بقوله: ﴿فَأَمَّا

الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية، وقد بيّنه في مواضع آخر كقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ونحوها من الآيات كما ستري - إن شاء الله - تحقيقه في آل عمران.

ومن أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، فإنه لم يذكر هنا مفعول بخشي، ولكنه أشار إليه في هود والذاريات وإيضاحه أن الإشارة في قوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، راجعة إلى ما أصاب فرعون من النكال والعذاب المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿١٥﴾ [النازعات]. فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح في سورة هود بأن فيما أصاب فرعون من العذاب آية لمن خاف عذاب الآخرة فصرح بأن الخوف واقع على عذاب الآخرة فهو المفعول، والخوف المذكور في هود هو الخشية المذكورة في النازعات فقوله في هود: ﴿وَمَا أَمْثَرُ فِرْعَوْنَ يَرِشِدُ﴾ ﴿٧﴾ يَدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ﴿٨﴾ [هود: ٩٧ - ٩٨]، إلى قوله: ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]. وقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] يدل على أن المفعول المحذوف في النازعات هو عذاب الآخرة لتصريحه تعالى به في نفس القصة في هود ويؤيده قوله تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [الذاريات] الآية؛ لأن قوله: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ [الذاريات: ٣٨]، معطوف على قوله: ﴿وَرَزَّكَانَا فِيهَا مَائَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات]، فيكون المعنى: وتركنا في قصة فرعون مع موسى وما أصابه من العذاب بسبب تكذيبه له آية للذين يخافون العذاب الأليم، ففيه بيان المفعول وأنه عذاب الآخرة، كما ذكر في هود، وسترى - إن شاء الله - إيضاحه في النازعات، ومثاله في أحد المفعولين قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، ونحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً فإن المفعول الثاني محذوف في جميعها، وتقديره اتخذتم العجل إلهاً ونكتة حذفه دائماً التنبيه على أنه لا ينبغي أن يتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً إله، وقد أشار إلى هذا المفعول في طه بقوله: ﴿فَكَذَّبْتَكَ أَتَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٧٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُمُ خُوراً فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴿٧٨﴾ [طه: ٨٧ - ٨٨].

ومثال ذكر ظرف المكان قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ [الفاتحة]، ثم بين في سورة الروم، أن السموات والأرض من الظروف المكانية لحمده جلّ وعلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٨] الآية. ومثال ذكر ظرف الزمان قوله تعالى في القصص: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] وقوله في أول سبأ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فبين أن الدنيا والآخرة من الظروف الزمانية لحمده، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿لِنُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإنه بين في النساء أن شهادة الرسول واقعة يوم القيامة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ﴿[النساء: ٤١]،
 ٤٢﴾، ومثال ذكر المتعلق قوله تعالى في النساء: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤] الآية. فإنه لم يبين هنا متعلق التحريض ولكنه بينه في الأنفال
 بقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية. ومن أمثلته قوله تعالى:
 ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ١٣] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ
 يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية. فإنه ذكر في البقرة لإتيانه جل وعلا يوم القيامة متعلقاً،
 وذلك في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية.
 فالجار والمجرور الذي هو قوله في ظلل يتعلق بقوله: يأتيتهم ومن أمثلته قوله: ﴿وَإِذَا
 أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] الآية. وقوله: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفِي يَوْمٍ وَاهٍ﴾
 ﴿[الحاقة: ١٦]﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فقد ذكر لانشقاقها متعلقاً في
 الفرقان في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَتُفْنَمُ﴾ [الفرقان: ٢٥] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعاني
 الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من
 معنى الآية، ومثاله قوله تعالى: ﴿لَا تُغْلِبُ أَكَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فقد قال بعض
 العلماء: إن المراد بهذه الغلبة، الغلبة بالحجة والبيان، والغالب في القرآن هو استعمال
 الغلبة في الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛
 لأن خير ما يبين به القرآن القرآن فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ﴾
 [آل عمران: ١٢] وقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤].
 وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا وَيَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِ بِأَكْفَادٍ مِائَةٍ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ يَأْتِ بِأَكْفَادٍ مِائَةٍ وَإِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية. وقوله: ﴿لَعَلَّ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾
 فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُسْتَغْلِبُونَ ﴿[الروم: ١-٤]، إلى
 غير ذلك من الآيات، وقد يكون المعنى المذكور متكرراً قصده في القرآن، إلا أنه ليس
 أغلب من قصد سواه، والاستدلال به مذكور في هذا الكتاب أيضاً، وهو دون الأول
 في الرتبة، فلا استدلال به شبه الاستثناس، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾
 [البقرة: ١٩]، فقد قال بعض أهل العلم: معناه مهلكهم. وإطلاق الإحاطة وإرادة
 الإهلاك متكرر في القرآن، إلا أنه ليس أغلب في معنى الإحاطة في القرآن ومنه قوله
 تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا أُنْجِيَتْ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَتَيْنَا بِكُمْ جَمِيعاً إِلَّا أَنْ يَحَاطَ
 بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، على أحد القولين وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢] الآية.
 وسترى هذا المبحث في سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن هذا النوع إطلاق الظلم على الشرك كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْسُوا إِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ﴾
 [الأنعام: ٨٢]. وقوله: ﴿إِنَّكَ الشَّرُّكَ لَظُلْمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴿البقرة: ٢٥٤﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]، كما ستره - إن شاء الله تعالى - في البقرة والأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك وهو من أهمها بيان أن جميع ما وصف الله به نفسه في هذا القرآن العظيم من الصفات كالاستواء واليد والوجه ونحو ذلك من جميع الصفات، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة صفات الحوادث سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وذلك البيان العظيم لجميع الصفات في قوله - جل وعلا -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت له الصفات على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وسترى - إن شاء الله - تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة الأعراف.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أنا إذا بيّنا قرآناً بقرآن في مسألة يخالفنا فيها غيرنا، ويدعي أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضاً، فإننا نبين بالسنة الصحيحة صحة بياننا وبطالان بيانه، فيكون استدلالنا بكتاب وسنة، فإن استدل من خالفنا بسنة أيضاً مع القرآن الذي استدل به، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح، وكذلك إذا استدل مخالفنا بقرآن ولم يقدّم دليل من سنة شاهدنا لنا ولا له، فإننا نبين وجه رجحان بياننا على بيانه.

مثال الأولى من هذه المسائل الثلاث قولنا: إن قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، بالخفض المفهومة مسح الرجلين في الوضوء تبينها قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب الصريحة في الغسل فهي مبينة وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فيفهم منها أن قراءة الخفض لأجل المجاورة للمخفض أو لغير ذلك من المعاني، كما ستره - إن شاء الله - مبيناً في المائدة، فيقول الشيعي القائل بمسح الرجلين في الوضوء: بل قراءة الخفض صريحة في المسح على الرجلين فهي مبينة أن قراءة النصب من العطف على المحل؛ لأن المجرور الذي هو برؤوسكم في محل نصب فنقول: السنة الصحيحة تدل على صحة بياننا وبطالان بيانك، كقوله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ» وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المصرحة بوجوب غسل الرجلين في الوضوء، ولنا أيضاً أن نقول: لو سلمنا أن قراءة وأرجلكم بالخفض يراد بها المسح، فلا يكون ذلك المسح إلا على خف؛ لأن من أنزل عليه القرآن ﷺ، قيل له: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» [النحل: ٤٤] ولم يمسح ﷺ، على رجله في الوضوء إلا على خفين، فتكون قراءة النصب مبينة لوجوب غسلهما، وقراءة الخفض مبينة لجواز المسح على الخفين، وسترى تحقيق هذه المسألة - إن شاء الله - في محلها من سورة المائدة.

ومثال المسألة الثانية من المسائل الثلاث المذكورة قولنا: إن الأظهر في القروء

في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أنها الأطهار بدليل قوله تعالى: ﴿فَطَلَّوْهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، والزم المأمور بالطلاق فيه زمن الطهر لا زمن الحيض، فدل على أن العدة بالطهر، وتدل له السنة الصحيحة كقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ» والإشارة في قوله «فتلك العدة» لزمن الطهر الواقع فيه الطلاق، وهو تصريح من النبي ﷺ، بأن الطهر هو العدة، وتدل له التاء في ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ كما تقدم، واستدل من يقول: بأن القروء الحيضات بكتاب وسنة أيضاً، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَلِسَ مِنَ الْمَيْحِضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أُرْبِتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤]، فإنه رتب العدة بالأشهر على عدم الحيض، فدل على أن أصل العدة بالحيض، وأن الأشهر بدل من الحيضات عند عدمها، وأما السنة فحديث اعتداد الأمة بحيضتين، وحديث «دعي الصلاة أيام أقرائك» وسترى تفصيل هذه المسألة وأدلة الفريقين في سورة البقرة - إن شاء الله. وقد ذكرنا أن كونها الأطهار أرجح دليلاً في نظرنا؛ لأن آيتها أصرح وحديثها المصرح بها أصح.

ومثال المسألة الثالثة من المسائل الثلاث المذكورة بياناً أن نائب الفاعل ربيون في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة البناء للمفعول بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها من الآيات، وبيانه أننا لو قلنا: إن نائب الفاعل ضمير النبي لزم على ذلك قتل كثير من الأنبياء في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة كآين وتصريح الله تعالى بأنه كتب الغلبة لنفسه ولرسله ينفي ذلك نفيّاً لا خفاء به، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ صريح في أنه لا مبدل لكون الرسل غالبين؛ لأن غلبتهم لأعدائهم هي مضمون كلمة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فلا شك أنها كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها كما ذكره القرطبي وغير واحد، ونفى عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيّاً باتاً بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقد أوضح تعالى أن المقتول من المتقاتلين ليس غالباً في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية [النساء: ٧٤]، حيث جعل الغالب قسماً مقابلاً للمقتول، ومعلوم ضرورة من اللسان الذي نزل به القرآن المقتول من المتقاتلين ليس بغالب، فهذا يبين بإيضاح أن نائب الفاعل ربيون، ويستشهد له بقراءة قتل بالتشديد؛ لأن التكرير المدلول عليه بالتشديد يدل على وقوع القتل على الربيين، ولأجل هذه القراءة رجح الزمخشري وابن جني والبيضاوي والألوسي وغيرهم أن نائب الفاعل ربيون، وقد قدمنا أننا لا نعتمد في البيان على القراءة الشاذة، وإنما نذكرها استشهاداً للبيان بقراءة سبعة كما هنا فيقول المخالف لنا في هذه المسألة كابن جرير، وابن إسحاق، والسهيلي - رحمهم الله - وغيرهم: قد دلت آيات أخر على أن نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ وهي

الآيات المصرحة بوقوع القتل على بعض الأنبياء كقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ونحوها من الآيات، وهي تبين أن القتل في محل النزاع واقع على النبي ﷺ فنقول: يجب تقديم بياننا على بيانكم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآيات المصرحة بقتل الكفار بعض الرسل التي هي دليل بيانكم أعم من محل النزاع؛ لأن النزاع في قتل الرسل في ميدان الحرب خاصة دون غيره، والآيات التي دلت على قتل بعض الرسل ليست واحدة منها في خصوص القتال البتة، والبيان لا يكون بالأعم؛ لأن الدليل على الأعم ليس دليلاً على الأخص؛ لإطباق العقلاء كافة على أن وجود الأعم لا يقتضي وجود الأخص؛ فمطلق قتل الرسول لا يدل على كونه في جهاد؛ لأنه أعم من كونه في جهاد أو غيره كما هو واضح، بخلاف البيان الذي ذكرنا بقوله: ﴿لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها، فإنه في محل النزاع؛ لأنه يصرح بأن الرسل غالبون، وهو نص في أن الرسول المقاتل غير مقتول؛ لأن المقتول غير غالب كما بينه بقوله: ﴿فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، كما تقدم، ومعلوم أنه لا يعارض خاص في محل النزاع بأعم منه.

الوجه الثاني: أن البيان الذي ذكرناه تتفق به آيات القرآن العظيم على أفصح الأساليب العربية ولم يقع بينها تصادم البتة، وما ذكره المخالف يؤدي إلى أن تناقضها ومصادمة بعضها لبعض؛ لأن الرسول الذي لم يؤمر بجهاد إذا قتل لم يكن في ذلك إشكال ولا مناقضة لقوله: ﴿لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، لأنه لم يؤمر بالمغالبة، فلا يصدق عليه أنه مغلوب ولا غالب لعدم وجود المغالبة من أصلها في حقه؛ لأنها إن عدمت من أصلها فلا يقال غالب ولا مغلوب؛ لأن الغلبة صفة إضافية لا تقوم إلا بين متغالبين بخلاف قتل الرسول المأمور بالمغالبة في الجهاد، فإنه مناقض لقوله: ﴿لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، والله يقول فيما وعد به رسله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

الثالث: أن جميع الآيات الدالة على قتل بعض الرسل المستدل بها على صورة النزاع كلها واردة في قتل الرسل في غير جهاد، كقتل بني إسرائيل أنبياءهم ظلماً في غير قتال، وسترى - إن شاء الله تعالى - تحقيق هذا المبحث في آل عمران، والصفافات والمجادلة، وربما كان في الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإننا نذكرها ونذكر القرآن الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها؛ لأن كل واحد منها صحيح، ومثاله قوله تعالى في أول الأنعام: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ بِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٣]، فإن فيه للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى وهو الإله، أي المعبود بحق في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

الثاني: أن قوله: في السموات وفي الأرض متعلق بقوله: يعلم سرهم وعليه فالمعنى وهو الله يعلم سرهم وجهرهم في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الفرقان: ٦].

الثالث: وهو اختيار ابن جرير أن الوقف على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ الآية [الملك: ١٦]، وسترى - إن شاء الله - إيضاحه في الأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه وأوضح عند السامع كقوله في حجارة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ الآية [الحجر: ٧٤]، فإنه تعالى بين في الذاريات في القصة بعينها أن المراد بالسجيل الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ ثَغْرَيْنَ ۖ لِنُنْزِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر وأن تراد به الأنثى، فيبين المراد منهما، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَنُفَسِّسَ﴾ الآية [البقرة: ٧٢]، فإن النفس تطلق على الذكر والأنثى، وقد أشار تعالى إلى أنها هنا ذكر بتذكير الضمير العائد إليها في قوله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية [البقرة: ٧٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها في موضع، فإنما نبين البقية المذكورة في المواضع الأخر، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧]، فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا ورجم الشياطين أيضاً كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكُبِ وَحِفْظًا ۖ إِنَّ كُلَّ شَيْطَانٍ فَاَرِدٍ﴾ [الصافات: ٧].

ومن أنواعها أن يذكر أمر أو نهى في موضع، ثم يبين في موضع آخر هل حصل الامتثال في الأمر أو النهي أو لا؟ وكذلك أن يذكر شرط ثم يذكر في موضع آخر هل حصل ذلك الشرط أو لا؟

فمثال الأمر قوله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فقد بين أنهم امتثلوا هذا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلى قوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومثال النهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤]، فقد بين أنهم لم يمتثلوا بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]، والمراد بعضهم.

ومثال الشرط قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزُودُوكُم مِّن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فقد بين في أول المائدة أنهم لم يستطيعوا بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِّن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقد بينه أيضاً بقوله في براءة والفتح والصف: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَلِمَةٍ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله في الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]، وصرح في النحل، بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥].

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك أن يحيل تعالى على شيء ذكر في آية أخرى، فإننا نبين الآية المحال عليها كقوله في النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمُ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُنَّ﴾ الآية [النساء: ١٤٠]، والآية المحال عليها هي قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومن أمثلته قوله تعالى في النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية [النحل: ١١٨]، والمراد به ما قص عليه في الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا كَلَّ ذِي طُفْرِ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦]. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرَ فَأَوْفِرْ مِّن حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإن محل الإتيان المعبر عنه بلفظة حيث المحال على الأمر به هنا أشير إليه في موضعين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿سَأَوْفِرْ حَرْثَ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ لأن قوله: ﴿فَأْتُوا﴾ أمر منه تعالى بالإتيان، وقوله: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ يعين محل الإتيان وأنه في محل حرث الأولاد وهو القبل دون الدبر فاتضح أن محل الإتيان المأمور به المحال عليه هو محل بذر الأولاد، ومعلوم أنه القبل، وسترى - إن شاء الله - تحقيق تحريم الإتيان في الدبر في سورة البقرة.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا وَعَدُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فقوله تعالى: ﴿بَشِرُوا﴾ أي جامعوهن، والمراد بـ ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الولد على التحقيق، وهو قول الجمهور، وعليه فالمعنى جامعوهن ﴿وَأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي ولتكن تلك المجامعة في محل ابتغاء الولد، ومعلوم أنه القبل دون غيره، وسترى إيضاحه - إن شاء الله تعالى - في محله.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر شيئاً له أوصاف مذكورة في مواضع أخرى، فإننا نبين أوصافه المذكورة في تلك المواضع كقوله تعالى: ﴿وَنَدَخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، فإننا نبين صفات ظل أهل الجنة المذكورة في غير هذا الموضع كقوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿وَزَلَّيْ تَمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٢٠]، ونحو ذلك، ومنها أيضاً

أن يذكر وصف الشيء، ثم يذكر نقيض ذلك الوصف لضد ذلك الشيء كقوله في ظل أهل النار: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [١٩] أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٢٠﴾ لَا ظِلِّ لِي وَلَا يَقِي مِنْ أَلْهَبٍ ﴿٢١﴾ [المرسلات]، مع ذكر أوصاف ظل أهل الجنة كما قدمنا.

ومن أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير تعالى في الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به في القرآن العظيم على شيء، فإننا نبين ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ [البقرة: ٢١، ٢٢]، فقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها في القرآن.

الأول: خلق الخلائق أولاً فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى، وقد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

الثاني: خلق السموات والأرض؛ لأن من خلق ما هو أكبر وأعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك، وأشار لذلك هنا بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [٧] الآية [النازعات]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، والآيات بمثل هذا كثيرة أيضاً.

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، وقد أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة أيضاً، وسترى إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة للبراهين الثلاثة المذكورة في محلها.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْتِرَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]، فقد صرح بدخول البدن في هذا العموم بقوله بعده: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

واعلم: أن مما التزمنا في هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مَبْنِيٌّ من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإننا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير

للمبين باسم الفاعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فقد أشار تعالى إلى أوقاتها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية [الروم]، على ما ذكره جمع من العلماء من أنها في أوقات الصلاة وكقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، على القول بأنها في الزكاة وأنها غير منسوخة، فإنها تشير لها آيات الزكاة كقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَمِمَّا أَرْجَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وكقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فإن القرآن زيد فيه على هذا الحصر تحريم الخمر فبين ما زاده ﷺ بالسنة الصحيحة، فمثل هذه المسائل نبينها بياناً تاماً بالسنة تبعاً للبيان القرآني.

واعلم: أن الغالب في الأمثلة التي ذكرناها تعددها في القرآن بكثرة، ومنها ما يتعدد من غير كثرة وربما ذكرنا فرداً من أفراد البيان لا نظير له كإشارته تعالى إلى أقل أمد الحمل بقوله: ﴿وَحَمْلُهُمْ وَفَصْلَتُهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]. مع قوله: ﴿وَفَصْلَتُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، فلم يبقَ للحمل من الثلاثين شهراً بعد عامي الفصال إلا ستة أشهر، فدل ذلك على أنها أمد للحمل يوضع فيه تاماً.

واعلم: أن أقسام البيان في هذا الكتاب المبارك بالنسبة إلى المنطوق والمفهوم أربعة؛ لأن كلا من المبين باسم المفعول والمبين باسم الفاعل قد يكون منطوقاً، وقد يكون مفهوماً، فالمجموع أربع من ضرب حالتي المنطوق في حالتي المفهوم.

الأولى: بيان منطوق بمنطوق كبيان قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]. وبقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣].

الثانية: بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، بمنطوق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثالثة: بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. بمفهوم آية الأنعام، فإن تحريم الدم مطلقاً منطوق هنا وقوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فبين هذا المفهوم أن المراد بالدم في الآية الأولى غير المسفوح، ومن أمثلته بيان قوله: ﴿وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]، بمفهوم الموافقة في قوله: ﴿فَعَلَيْنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن العبد الذكر كالأمة في ذلك يجلد خمسين جلدة، فبين هذا المفهوم أن المراد بالزاني خصوص الحر.

واعلم: أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعي وبعض الأصوليين قياساً،

وهو المعروف عندهم بالقياس في معنى الأصل، ويسمى مفهوم الموافقة، وإلغاء الفارق، وتنقيح المناط، وأكثر أهل الأصول على أنه مفهوم وليس بقياس، كما سترى تحقيقه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن أمثلة بيان المنطوق بالمفهوم قوله في الخمر: ﴿يَجُسُّ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، فإنه يدل على أنها نجسة العين؛ لأن الرجس هو المستقذر الخبيث ويدل عليه مفهوم قوله في شراب الآخرة: ﴿وَسَقَنَهُمْ رِيحَهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ فإن مفهومه أن خمر أهل الدنيا ليست كذلك كما قاله الفراء وغير واحد، وسترى إيضاحه في المائدة إن شاء الله تعالى.

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، على القول بأن المراد بالمحصنات الحرائر، كما روي عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها، ويدل لهذا أيضاً مفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَنِ اتُّخِفَ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ فَأَمْوَالُهُمْ فِي يَدَيْهِمْ يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْإِنْسَانِ فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِ الضَّالِّاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فمفهوم قوله: المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات ولو عند الضرورة، وهو بيان مفهوم بمفهوم كما ترى.

واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه -: أن هذا الكتاب المبارك تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها - وفي البعض تنبيه لطيف على الكل - والغرض أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة مما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه.



مقدمة في تعريف الإجمال والبيان في اصطلاح أهل الأصول

اعلم أولاً أن المجمل في اللغة: هو المجموع، وجملة الشيء مجموعه، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت فيه عبارات أهل الأصول، والتحقيق: أنه هو ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجح لواحد منهما أو منها على غيره، وعرفه في مراقي السعود بقوله:

وذو وضوح محكم والمجمل هو الذي المراد منه يجهل

واعلم أن المبهم أعم من المجمل عموماً مطلقاً، فكل مجمل مبهم، وليس كل مبهم مجملاً، فمثل قولك لعبدك: تصدق بهذا الدرهم على رجل، فيه إبهام وليس مجملاً؛ لأن معناه لا إشكال فيه؛ لأن كل رجل تصدق عليه به حصل به المقصود، والدليل على أن المجمل هو ما ذكرنا أن اللفظ لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره فهو النص نحو: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وإما أن يحتمل غيره، وهذا له حالتان:

الأولى: أن يكون أحد المحتملين أظهر.

والثانية: أن يتساويا بأن لا يكون أحدهما أظهر من الآخر، فإن كان أحد المعنيين أظهر فهو الظاهر ومقابله محتمل، وإن استويا فهو المجمل كما ذكرنا، وحكم النص أنه لا يعدل عنه إلا بنسخ، وحكم الظاهر أنه لا يعدل عنه إلا بدليل أقوى منه يدل على صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح، وحكم المجمل أن يتوقف فيه حتى يدل دليل مبين للمقصود من المحتملين، وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح هو المعروف في اصطلاح أهل الأصول بالتأويل، وسيأتي إيضاح أنواع التأويل كلها - إن شاء الله تعالى - في سورة آل عمران.

واعلم أن اللفظ قد يكون واضح الدلالة من وجه مجملاً من وجه آخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فإنه واضح في إيتاء الحق، مجمل في مقداره؛ لاحتماله النصف أو أقل أو أكثر، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد يجي الإجمال من وجه ومن وجه يراه ذا بيان من فطن

وأما البيان فهو لغة: اسم مصدر بمعنى التبيين، وهو الإيضاح والإظهار كالسلام بمعنى التسليم، والكلام بمعنى التكليم، والطلاق بمعنى التطلق، وقد يطلق على المبين والمبين؛ بالكسر والفتح، ومن أهل الأصول من يطلق البيان على كل إيضاح سواء أتقدمه خفاء أم لا، وكثير من الأصوليين لا يطلقون البيان بالاصطلاح الأصولي إلا على

إظهار ما كان فيه خفاء وعليه درج في مراقي السعود بقوله معرفاً للبيان في الاصطلاح:

تصيير مشكل من الجلي وهو واجب على النبي
إذا أريد فهمه وهو بما من الدليل مطلقاً يجلو العمي

فكل ما يزيل الإشكال يسمى بياناً في الاصطلاح بمعنى المبين بالكسر، وسترى - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك من أنواع البيان وأنواع ما به البيان ما فيه كفاية.

واعلم أن التحقيق جواز بيان المتواتر من كتاب أو سنة بأخبار الأحاد، وكذلك يجوز بيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا خلافاً لقوم منعوا ذلك زاعمين أن المنطوق أظهر من المفهوم والأظهر لا يبين بالأخفى، وحكاة الباجي عن أكثر المالكية وأجيب بأنه ما كل منطوق يقدم على المفهوم بل بعض المفاهيم أقوى دلالة على الأمر من دلالة المنطوق عليه، ألا ترى أن دلالة مفهوم حديث «في الغنم السائمة زكاة» عند من لا يرى الزكاة في المعلوفة أظهر في عدم الزكاة في المعلوفة، من دخولها في عموم منطوق حديث [في أربعين شاة شاة]؛ لأن المفهوم أخص بها وأقوى دلالة فيها من عموم المنطوق، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وبين القاصر من حيث السند أو الدلالة على ما يعتمد

فالبيان بالقاصر سنداً كبيان المتواتر بالأحاد، والبيان بالقاصر دلالة كبيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا، والمراد بقصوره في الدلالة أغلبية ذلك لا لزومه في كل حال كما أشرنا إليه آنفاً، وحكى القاضي الباقلاني عن جماعة من العراقيين أن المبين بالفتح إن كان وجوبه يعم جميع المكلفين كالصلاة فلا يبين إلا بمتواتر، وإليه أشار في (مراقى السعود) بقوله:

وأوجب عند بعض علما إذا وجوب ذي الخفاء عما

ولا يخفى سقوط هذا القول وأنه لا وجه لرد حديث صحيح دال على بيان نص من غير معارض بدعوى أنه لم يتواتر ومنع بيان المتواتر مطلقاً بالأحاد أشد سقوطاً.

واعلم أن الأصوليين اختلفوا في البيان بالقول هل هو أقوى من البيان بالفعل أو لا؟ قال مقيد - عفا الله عنه -: الظاهر أن التحقيق في ذلك هو ما حققه أبو إسحاق الشاطبي رحمته الله، وهو أن كل واحد منهما أقوى من صاحبه من جهة، فالفعل يبلغ من بيان الكيفيات المعينة المخصوصة ما لا يبلغه القول، والقول يبلغ من بيان الخصوص والعموم في الأحوال والأشخاص ما لا يبلغه الفعل.

مسائل تتعلق بالبيان

المسألة الأولى: إذا ورد بعد المجمل قول وفعل، فلا يخلو الأمر من واحدة من

ثلاث حالات:

الأولى: أن يتفق القول والفعل . **الثانية:** أن يزيد الفعل على القول .

الثالثة: أن يزيد القول على الفعل ، فإن اتفق القول والفعل معاً ، فالمتقدم منهما هو المبين والثاني تأكيد له ، كما لو قال بعد نزول آية القطع في السرقة : القطع من الكوع ، وقطع بالفعل من الكوع وإن جهل المتقدم فالبيان بأحدهما لا بعينه ، وقال الآمدي : يتعين المرجوح إن كان أحدهما أرجح ؛ لأن المرجوح لا يكون مؤكداً للمراجح .

قال القرافي : وهو غير متجه ؛ لأن الأضعف يزيد في رتبة الظن الحاصلة قبله كزيادة شاهد على أربعة وإن زاد الفعل على القول ، كبيانه ﷺ ، أن كيفية الصوم هي صوم كل يوم بانفراده من غير وصال بين يومين ، مع أنه ﷺ ربما واصل ، فإن البيان يكون بالقول والفعل يدل على مطلق الطلب في حقه ﷺ ، خاصة بنذب أو إيجاب تقدم القول أو تأخر ، وقال أبو الحسن البصري : المتقدم منهما هو البيان وألزم نسخ الفعل المتقدم مع إمكان الجمع ، قال المحلي : ولو نقص الفعل عن مقتضى القول كما لو طاف بعد نزول آية الحج طوافاً واحداً وأمر باثنين فقياس الأول أن القول هو البيان ونقص الفعل تخفيف عنه ﷺ ، تأخر الفعل أو تقدم ، وقياس ما لأبي الحسن أن البيان هو المتقدم ، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله :

والقول والفعل إذا توافقا	فانم البيان للذي قد سبقا
وإن يزد فعل فللقول انتسب	والفعل يقتضي بلا قيد طلب
والقول في العكس هو المبين	وفعله التخفيف فيه بين

المسألة الثانية: اعلم أنه لا يجوز تأخير البيان لمجمل أو ظاهر لم يرد ظاهره عن وقت الحاجة إلى العمل به ، وقال قوم : يجوز عقلاً لكنه لم يقع بالفعل ، وأجراه كثير منهم على الخلاف في مسألة التكليف بما لا يطاق ، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله :

تأخر البيان عن وقت العمل وقوعه عند المجيز ما حصل

وذكر بعض المتأخرين عن ابن العربي المالكي أنه قال في كتابه المحصول : لحظت ذلك مدة ثم ظهر لي جوازه ، ولا يكون من تكليف ما لا يطاق بل رفعاً للحكم وإسقاطاً له في حق المكلف ، قال مقيده - عفا الله عنه - : وبناء على أن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الفعل صرحوا بأن التخصيص بعد العمل بالعام نسخ في البعض ، وكذلك التقييد بعد العمل بالمطلق ؛ لأن كلا من التخصيص والتقييد بيان وهو لا يتأخر عن وقت الفعل ، فإذا تأخر تعين النسخ ، وإليه أشار في (المراقي) في التخصيص بقوله :

وإن أتى ما خص بعد العمل نسخ والغير مخصصاً جلى

وفي التقييد بقوله :

وإن يكن تأخر المقييد عن عمل فالنسخ فيه يعهد

تنبيه : فإن قيل : قد وقع تأخير البيان عن وقت الحاجة كما وقع في صبح ليلة

الإسراء، فإن جبريل عليه السلام، لم يبين للنبي ﷺ، كيفيتها ولا وقتها حتى ضاعت، فالجواب من وجهين أشار لهما العبادي في الآيات البيّنات:

أحدهما: أن وجوبها كان مشروطاً بالبيان قبل فوات وقتها ولم يبين له ﷺ؛ ولذا لم يفعلها أداء ولا قضاء. قال: ومن هنا يعلم أن الكلام في غير الوجوب المعلق على البيان، أما هو فلا يتصور فيه تأخير البيان عن وقت الفعل.

ثانيهما: أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء على أن ابتداء الوجوب من ظهر ذلك اليوم فما بعده دون ما قبله.

المسألة الثالثة: أما تأخير البيان إلى وقت الحاجة إلى العمل به فالتحقيق أنه جائز وواقع وهو مذهب الجمهور ومقابله ثلاثة أقوال آخر:

الأول: أنه لا يجوز مطلقاً.

الثاني: أنه يجوز في المجمع دون ماله ظاهر غير مراد، كالعام والمطلق.

الثالث: عكس هذا وهو جوازه فيما له ظاهر غير مراد دون المجمع وهو أبعدها، وإلى هذه الأقوال أشار في (المراقي) بقوله:

تأخيرهُ للاحتجاج واقع وبعضنا هو لذاك مانع
وقيل بالمنع بما كالمطلق ثم بعكسه لدى البعض انطق

أما تأخير أصل التبليغ إلى وقت الحاجة، فقال بعض العلماء بجوازه أيضاً، وخالف فيه بعضهم، وقال الفخر الرازي وابن الحاجب والآمدي: لا يجوز تأخير تبليغ القرآن قولاً واحداً لأنه متعبد بتلاوته، ولم يؤخر ﷺ، تبليغه بخلاف غيره، وقال بعض أهل الأصول: قد يمنع تعجيل التبليغ ويجب تأخيرهُ إلى وقت الحاجة إن كان يخشى من تعجيله مفسدة، قالوا: فلو أمر ﷺ، بقتال أهل مكة بعد سنة من الهجرة، وجب تأخير تبليغ ذلك للناس، لئلا يستعد العدو إذا علم ويعظم الفساد، ولذلك لما أراد عليه الصلاة والسلام قتالهم قطع الأخبار عنهم حتى دهمهم، وكان ذلك أيسر لغلبتهم وقهرهم، وإلى هذا أشار في (المراقي) بقوله:

وجائز عدم تبليغ له ودرء ما يخشى أبا تعجيله

والضمير في قوله: له عائد إلى الاحتياج في البيت المذكور قبله أي جائز تأخير التبليغ إلى وقت الاحتياج له.

المسألة الرابعة: لا يشترط في البيان أن يعلمه جميع المكلفين الموجودين في وقته، بل يجوز أن يكون بعضهم جاهلاً به ودليله الوقوع، فقد جاءت فاطمة الزهراء والعباس عليهما السلام أبا بكر عليه السلام يطلبان ميراثهما من النبي ﷺ، متمسكين بعموم ﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي آوَّلِدِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١] وعموم ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَنْبِيَاءُ ﴿النساء: ٣٣﴾، ولم يعلموا أنه ﷺ بين أن هذا العموم لا يتناول الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - بقوله: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث» الحديث، وإلى هذه المسألة أشار في (المراقي) بقوله:

ونسبة الجهل لذي وجود بما يخص من الموجود
وسميته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وهذا أوان الشروع في المقصود.



تَكْذِبَانَ ﴿١٢﴾ [الرحمن]. وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فخصهم باسمه الرحيم. فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين ما قررتم، وبين ما جاء في الدعاء المأثور من قوله ﷺ: «رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما؟». فالظاهر في الجواب - والله أعلم - أن الرحيم خاص بالمؤمنين كما ذكرنا، لكنه لا يختص بهم في الآخرة، بل يشمل رحمتهم في الدنيا أيضاً، فيكون معنى رحيمهما رحمته بالمؤمنين فيهما.

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين في الدنيا أيضاً: أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ لأن صلاته عليهم وصلاة ملائكته وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور رحمة بهم في الدنيا. وإن كانت سبب الرحمة في الآخرة أيضاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَفِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]، فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجارة للضمير الواقع على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم رحمة في الدنيا وإن كانت سبب رحمة الآخرة أيضاً. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ١١. لم يبينه هنا. وبينه في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٢. يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا الآية [الانفطار: ١٧ - ١٨]. والمراد بالدين في الآية الجزاء. ومنه قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي جزاء أعمالهم بالعدل.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾. وقد تقرر في الأصول، في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾. وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلاً في آيات آخر كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١]، فصرح بالإثبات منها بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فصرح بالإثبات بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٢٦]، وبالنفي بقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وكقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فصرح بالنفي منها بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبالإثبات بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا إِلَهِيَ فَطَرَنِي﴾ الآية [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء]. وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. أي لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في آيات آخر كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ الآية [هود: ١٢٣]. وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩]. وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١﴾﴾ [المزمل: ٩]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وإلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق عليه السلام؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم - أعني الفاتحة - بأن نسأله أن يهدينا صراطهم. فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين. وقد بين عليه السلام أن أبا بكر عليه السلام، من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم... الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق عليه السلام، على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق.

الثاني: قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم. وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ الآية [المائدة: ٧٥]، وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو لا؟.

الجواب: أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة، وهي: هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل؟ فذهب قوم إلى أنهن يدخلن في ذلك. وعليه: فمريم داخلة في الآية واحتج أهل هذا القول بأمرين:

الأول: إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع.

والثاني: ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكورة ونحوها، كقوله تعالى في مريم نفسها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢]. وقوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وقوله في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٢٤]. وقوله فيما كالجمع المذكر السالم: ﴿قُلْنَا أَهْلُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، فإنه تدخل فيه حواء إجماعاً.

وذهب كثير إلى أنهم لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل. واستدلوا على ذلك بآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضَوْنَ مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَنْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع. وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق. وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها، إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه.

وعلى هذا القول: فمريم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في مراقبي السعود بقوله:

وما شمول من للأنثى جنف وفي شبهه المسلمين اختلفوا

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. قال جماهير من علماء التفسير: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ اليهود و﴿الضَّالِّينَ﴾؛ النصارى. وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعاً مغضوباً عليهم جميعاً، فإن الغضب إنما خص به اليهود، وإن شاركهم النصارى فيه؛ لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمداً، فكان الغضب أخص صفاتهم. والنصارى جهلة لا يعرفون الحق، فكان الضلال أخص صفاتهم.

وعلى هذا فقد يبين أن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ اليهود. وقوله تعالى فيهم: ﴿قَبَلَهُمْ يَغْضِبُ عَلَى عَصِيٍّ﴾ الآية [البقرة: ٩٠]، وقوله فيهم أيضاً: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثْوًةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَعَالَ سِينَا لَهُمْ غَضَبٌ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٢].

وقد يبين أن الضالين النصارى، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين، ويفهم من مفهوم الآية - أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب - أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٢٩] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]... الآية. ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. عبر في هذه الآية الكريمة بـ«من» التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْبَقَرَةُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم.

وقال بعض العلماء: العفو: نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع. ومنه قول الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتني حين أغضب

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فنهاه عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ فيتعين الوسط بين الأمرين. كما بينه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد، فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل، فالمنع في محل الإعطاء مذموم. وقد نهى الله عنه نبيه ﷺ،

بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾؛ والإعطاء في محل المنع مذموم أيضاً، وقد نهى الله عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، وقد قال الشاعر:

لا تمدحني ابن عباد وإن هطلت يدها كالمزن حتى تخجل الديما
فإنها فلتات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله. كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْآقَرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]... الآية وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه في قوله: ﴿سَيُفْئِتُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]... الآية وقد قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تعد صنيعة حتى يصاب بها طريق المضنيع

فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن الله تعالى أننى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالظاهر في الجواب - والله تعالى أعلم - هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالاً، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً. وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة. كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب وترك الفرض لقوله ﷺ: «أبداً بمن تعول»، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم ماله، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضع نفقة واجبة، وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وأما على القول بأن قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ يعني به الزكاة، فالأمر واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾. لا يخفى أن الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾؛ محتملة في الحرفين أن تكون معطوفة على ما قبلها، وأن تكون استثنائية. ولم يبين ذلك هنا، ولكن بين في موضع آخر أن قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ وأن قوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾؛ استئناف والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو ﴿غِشْوَةً﴾؛ وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها. ولذلك يجب تقديم هذا الخبر؛ لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ كما عقده في الخلاصة بقوله:

ونحو عندي درهم ولي وطر ملتزم فيه تقدم الخبر

فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلُهُ اللَّهُ عَلَىٰ طَرِيقٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

بَصَرِهِ غَشَوَهُ [الجاثية: ٢٣]، والختم: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه، والغشاوة: الغطاء على العين يمنعها من الرؤية. ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص:

كما هو معروف في النحو. وأجاز بعضهم كونه معطوفاً على محل المجرور. فإن قيل: قد يكون الطبع على الأبصار أيضاً. كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَنْ يَسْمَعُوا﴾ [النحل: ١٠٨].

فالجواب: أن الطبع على الأبصار المذكور في آية النحل: هو الغشاوة المذكورة في سورة البقرة، والجاثية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ⑧.

لم يذكر هنا بياناً عن هؤلاء المنافقين، وصرح بذكر بعضهم بقوله: ﴿وَمِنَ حَوْلِكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّبِفُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِثْقَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. لم يبين هنا شيئاً من استهزائه بهم. وذكر بعضه في سورة الحديد، في قوله: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَى﴾. ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم والبكم والعمى. ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن معنى صممهم، وبكمهم، وعماهم، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم، وقلوبهم، وأبصارهم وذلك في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُتُوهُ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ مِن فَتَوِهِ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ﴾. الصيب: المطر، وقد ضرب الله في هذه الآية مثلاً لما جاء به محمد ﷺ من الهدى والعلم بالمطر؛ لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح، كما أن بالمطر حياة الأجسام. وأشار إلى وجه ضرب هذا المثل بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا يُغَذِّي رِيشَهُ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد أوضح ﷺ هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى المتفق عليه، حيث قال ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمٌ﴾، ضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لما يعتري الكفار

والمنافقين من الشبه والشكوك في القرآن، بظلمات المطر المضروب مثلاً للقرآن، وبين بعض المواضع التي هي كالظلمة عليهم؛ لأنها تزيدهم عمى في آيات آخر كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لأن نسخ القبلة يظن بسببه ضعاف اليقين أن النبي ﷺ ليس على يقين من أمره حيث يستقبل يوماً جهة، ويوماً آخر جهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وصرح تعالى بأن نسخ القبلة كبير على غير من هداه الله وقوى يقينه، بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبُرَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ لأن ما رآه ليلة الإسراء والمعراج من الغرائب والعجائب كان سبباً لاعتقاد الكفار أنه ﷺ كاذب؛ لزعهم أن هذا الذي أخبر به لا يمكن وقوعه. فهو سبب لزيادة الضالين ضلالاً. وكذلك الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم. فهي سبب أيضاً لزيادة ضلال الضالين منهم؛ لأن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٤]، قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة فكيف ينبت في أصل النار؟

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣١]؛ لأنه ﷺ لما قرأ قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المائدة: ٣٠]. قال بعض رجال قريش: هذا عدد قليل فنحن قادرون على قتلهم، واحتلال الجنة بالقوة؛ لقلة القائمين على النار التي يزعم محمد ﷺ، أنا سندخلها. والله تعالى إنما يفعل ذلك اختباراً وابتلاء، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَرَعَدٌ﴾. ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تفرع الأذان وتزعج القلوب. وذكر بعضاً منها في آيات آخر كقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً﴾... الآية [فصلت: ١٣]، أو كقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، أو كقوله: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِّ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة الطور، من حديث جبير بن مطعم: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٢٥]، إلى قوله: ﴿الْمُهَيَّيِّطُونَ﴾ [الطور: ٣٧]، كاد قلبي أن يطير إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره، التي خوفت المنافقين حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، والآية التي نحن بصدددها، وإن كانت في المنافقين، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَرَقٌّ﴾. ضرب تعالى المثل بالبرق؛ لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة. وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل

والشك والشرك. كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. قال بعض العلماء: محيط بالكافرين، أي مهلكهم، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي تهلكوا عن آخركم. وقيل: تغلبوا. والمعنى متقارب؛ لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه. وكذلك المغلوب. ومنه قول الشاعر:

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

ومنه أيضاً: بمعنى الهلاك قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾... الآية [الكهف: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾... الآية [يونس: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. أي يكاد نور القرآن لشدة ضوئه يعمي بصائرهم، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره، ولا سيما إذا كان البصر ضعيفاً؛ لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهاباً له. كما قال الشاعر:

مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفاش
وقال الآخر:

خفافيش أعمها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضعف، فشدّة ضوء النور تزيدها عمى. وقد صرح تعالى بهذا العمى في قوله: ﴿أَمَّنْ يَلْعَلْ أَنَا أَنزِلُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطراً]، إلى غير ذلك من الآيات. وقال بعض العلماء: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾؛ أي يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾. ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين؛ إذ كان القرآن موافقاً لهوائهم ورغبتهم عملوا به، كما كذبهم للمسلمين وإرثهم لهم. والقسم لهم من غنائم المسلمين، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم في الباطن، وإذا كان غير موافق لهوائهم، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [٥٨] وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لَقِي يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ [٥٩] [النور].

وقال بعض العلماء: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾؛ أي إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور قالوا: ما

أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه. وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١٣﴾ [الحج].

وقال بعض العلماء: إضائه لهم معرفتهم بعض الحق منه وإظلامه عليهم ما يعرض لهم من الشك فيه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١١٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ١١٥. أشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت، وبينها مفصلة في آيات أخر.

البرهان الأول: خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وكقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يَشِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿أَفَحَيُّهَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَئْسٍ﴾ [ق: ١٥]. وكقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج: ٥]. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: ٦٢].

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول، كما في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨]. وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ١١٦﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ١١٧﴾ [مريم]. ثم رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: ٦٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

البرهان الثاني: خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾؛ لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أخرى. وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ١١٨﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدَلًا يَحْيَى الْمَوْتَى﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ ١١٩﴾ [الإسراء: ٩٩]. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ تَمَنَّا بَنَاهَا ١٢٠﴾ [نوح: ٧٧] رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ١٢١﴾ ... الآية [النازعات] إلى غير ذلك من الآيات.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها؛ فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت، كما أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛

وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِمْ أَفْئِدَةٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا كَفَرُوا فَقُلْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَتْرَةٍ يَأْتِيهِمْ أَفْئِدَةٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا كَفَرُوا﴾ [٢٣]. وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْفُرُجُ﴾ [ق: ١١]، يعني خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاماً رميمات. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدَّتِهَا مَنَاقِبَ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا رِجٌّ رِجًّا﴾ [الروم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا مِّثْقَالًا سُقْنَاهُ إِلَىٰ بَحْرٍ مُّتَسِلٍّ فَتَوَلَّىٰ بِوَجْهِهِ الْكِبْرَىٰ وَلَآتِي بِأَفْئِدَةٍ مِّنْهُنَّ أَهْلًا كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. لم يصرح هنا باسم هذا العبد الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، وصرح باسمه في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَأَمَّا نَبَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. هذه الحجارة قال كثير من العلماء: إنها حجارة من كبريت. وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْرِئَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. لم يبين هنا أنواع هذه الأنهار، ولكنه بين ذلك في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، لم يبين هنا صفات تلك الأزواج، ولكنه بين صفاتهن الجميلة في آيات أخر كقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٥٨]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]. وقوله: ﴿وَكَاوِبُ أَرَاكٍ﴾ [النبأ: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة لجميل صفاتهن، والأزواج: جمع زوج بلا هاء في اللغة الفصحى، والزوجة [بالهاء] لغة، لا لحن كما زعمه البعض. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ «إنها زوجتي» أخرجه مسلم. ومن شواهد قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الآخر:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلي ثم تصدعوا

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي أمر به أن يوصل، وقد أشار إلى أن منه الأرحام بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]. وأشار في موضع آخر إلى أن منه الإيمان بجميع الرسل، فلا يجوز قطع بعضهم عن بعض في ذلك بأن يؤمن ببعضهم دون بعضهم الآخر. وذلك في قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [٥٥] أولئك هم الكافرين حقاً [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾. ظاهره أن ما في الأرض جميعاً خلق بالفعل قبل السماء، ولكنه بين في موضع آخر أن المراد بخلقه قبل السماء، تقديره، والعرب تسمي التقدير خلقاً كقول زهير: ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري وذلك في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]. ثم قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ الآية. في قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾؛ وجهان من التفسير للعلماء.

أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره. وقيل: لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله. وعليه فالخليفة: فعيلة بمعنى فاعل. وقيل: لأنه إذا مات يخلفه من بعده، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول. وكون الخليفة هو آدم هو الظاهر المتبادر من سياق الآية. ثانيهما: أن قوله: خليفة مفرد أريد به الجمع، أي خلائف، وهو اختيار ابن كثير. والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّفْقَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [القمر]، يعني وأنهار بدليل قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَبْنَا لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]. ونظيره من كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وكان بنو فزارة شرعم
وقول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا اسلموا إنا أخوكم
وقد سلمت من الإحن الصدور
وأشدد له سبويه قول علقمة بن عبدة التيمي:

بها جيف الحسرى فأما عظامها
فبيض وأما جلدها فصليب
وقول الآخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفو
فإن زمانكم زمن خميص

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتل الوجهين المذكورين. فاعلم أنه قد دلت آيات أخر على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده. كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْجِلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية.

ومعلوم أن آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس ممن يفسد فيها، ولا ممن يسفك الدماء. وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [فاطر: ٣٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾ الآية [النمل: ٦٢]. ونحو ذلك من الآيات. وللعلماء أقوال فيما يتعلق بكون هذه الآية أصل في وجوب نصب الخليفة، وخلاصة رأى الشيخ في المسألة هو:

ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء. فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر.

«قال مقيده - عفا الله عنه -: من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الله في أرضه. ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به، ومن أراد التفصيل فليعد إليه في أصل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. يعني مسميات الأسماء لا الأسماء كما يتوهم من ظاهر الآية. وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله: ﴿أُنَبِّئُكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، الآية كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي كانوا يكتُمون. وقد قال بعض العلماء: هو ما كان يضمه إبليس من الكبر. وعلى هذا القول فقد بينه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أو بعد خلقه؟ وقد صرح في سورة (الحجر وصر) بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم. فقال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر]. وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ﴾. لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتُم مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

تنبيه: مثل قياس إبليس نفسه على عنصره، الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم. ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار. وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود):

والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الاعتبار كل من وعى

فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس، وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه فاسد الاعتبار؛ لمخالفة النص الصريح كما تقدم قريباً.

الثاني: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة والنواة فيعطيكها نخلة. وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة. تعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين؛ فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعاً والفرع وضيعاً، كما قال الشاعر:

إذا افتخرت بأبَاء لهم شرف قلنا: صدقت ولكن بثس ما ولدوا
وقال الآخر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتَ﴾؛ لم يبين هنا ما هذه الكلمات، ولكنه بينها في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿يَنبَغِي إِسْرَؤِيلَ أَذْكُرُوا نَبِيَّ الَّذِي أَنعَمْتُ عَلَيْكَ﴾؛ لم يبين هنا ما هذه النعمة التي أنعمها عليهم، ولكنه بينها في آيات أخر. كقوله: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَاسْأَلُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَخِيفُكُم مِّنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ بِسُوءِ مَوَدَّتِهِمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ⑤ وَنُكَرَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ [القصص]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. لم يبين هنا ما عهده وما عهدهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، فعهدهم هو المذكور في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ وعهده هو المذكور في قوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية، وأشار إلى عهدهم أيضاً بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُسَيِّئُنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُوا﴾ [آل عمران: ١٨٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. الحق الذي لبسوه بالباطل: هو إيمانهم ببعض ما في التوراة، والباطل الذي لبسوا به الحق: هو كفرهم ببعض ما في التوراة

وجحدهم له، كصفات رسول الله ﷺ، وغيرها مما كتموه وجحدوه، وهذا يبينه قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية - والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها. وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه. فذكر أن من نتائج الاستعانة بها: النهي عما لا يليق وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلَكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣١] ولذا كان ﷺ، إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله، ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ الآية. المراد بالظن هنا؛ اليقين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ الآية. ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة. ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقد قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى عنهم مقررأ له: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفْعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٨]. وقال: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفْعِينَ﴾ [المدثر: ١٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الشفاعة بدون إذنه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٠]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]. إلى غير ذلك من الآيات وإدعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه، من أنواع الكفر به جل وعلا. كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنْفِثُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

تنبيه: هذا الذي قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعاً مطلقاً، يستثنى منه شفاعته ﷺ؛ لعمه أبي طالب في نقله من محل من النار إلى محل آخر منها. كما ثبت عنه ﷺ، في الصحيح، فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾. بينه بقوله بعده: ﴿يُدْخِلُونَ آبَاءَهُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَاذِرْفَنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمْنَكُمْ﴾. لم يبين هنا كيفية فرق البحر بهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ الآية [طه: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الآية. لم يبين هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بينها في مواضع أخر كقوله: ﴿فَأَنبَعُوثُهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [١٠] فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ [١١] قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [١٢] فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [١٣] وَأَزَلَّوْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ [١٤] وَأَفْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ [١٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ [١٦] [الشعراء]، وقوله: ﴿فَأَنبَعُوثُهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه]، وقوله: ﴿وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ يَحْدُ مَغْرُورُونَ﴾ [١٧] [الدخان]. وقوله: ﴿رَهَوًا﴾ أي ساكنًا على حالة انفلاقه حتى يدخلوا فيه إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾. لم يبين هنا هل وعده إياها مجتمعة أو متفرقة؟ ولكنه بين في سورة الأعراف، أنها متفرقة، وأنه وعده أولاً ثلاثين، ثم أتمها بعشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. الظاهر في معناه: أن الفرقان هو الكتاب الذي أوتي موسى، وإنما عطف على نفسه؛ تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ لأن ذلك الكتاب الذي هو التوراة موصوف بأمرين: أحدهما: أنه مكتوب كتبه الله لنبيه موسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وثانيهما: أنه فرقان، أي فارق بين الحق والباطل، فعطف الفرقان على الكتاب، مع أنه هو نفسه نظراً لتغاير الصفتين، كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
بل ربّما عطف العرب الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظ فقط، فاكثفوا بالمغايرة في اللفظ. كقول الشاعر:

إني لأعظم في صدر الكمي على ما كان في من التجدير والقصر
القصر: هو التجدير بعينه. وقول الآخر:

وقددت الأديم لراشيه وألفى قولها كذباً وميناً
والمين: هو الكذب بعينه. وقول الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها الناي والبعد
والبعد: هو النأي بعينه. وقول عنترة في معلقته:

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم والإقفار: هو الإقواء بعينه. والدليل من القرآن على أن الفرقان هو ما أوتيته موسى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ...﴾ الآية [الأنبياء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾ لم يبين هنا من أي شيء هذا العجل المعبود من دون الله؟ ولكنه بيّن ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَنِيهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقوله: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلًا أَزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ [طه: ٨٧ - ٨٨]، ولم يذكر المفعول الثاني للاتخاذ في جميع القرآن وتقديره: باتخاذكم العجل إليها. كما أشار له في سورة طه، بقوله: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى [طه: ٨٧ - ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾؛ أوضحه بقوله: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَاسَةً ظُلَّةً﴾ [الأعراف: ١٧١].

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا﴾. لم يبين هنا هذا الذي أتاهم ما هو، ولكنه بيّن في موضع آخر أنه الكتاب الفارق بين الحق والباطل. وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾. أجمل قصتهم هنا وفصلها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْعِنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾. لم يبين مقصودهم بقولهم: ما هي إلا أن جواب سؤالهم دل على أن مرادهم بقولهم في الموضع الأول ما هي أي: ما سنها؟ بدليل:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ الآية. وأن مرادهم بقولهم: ما هي في الموضع الآخر هل هي عاملة أو لا؟ وهل فيها عيب أو لا؟ وهل فيها وشي مخالف للونها أو لا؟ بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾. لم يصرح هل هذه النفس ذكر أو أنثى؟ وقد أشار إلى أنها ذكر بقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ النَّفُوسَ الْفَاسِقَةَ﴾ الآية. أشار في هذه الآية إلى أن إحياء قتيل بني إسرائيل، دليل على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من أحيوا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس، وقد صرح بهذا في قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كُفَّيْنٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ الآية. لم يبين هنا سبب قسوة

قلوبهم، ولكنه أشار إلى ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿فَسِمْ قُلُوبَهُمْ لِيَتَّقُوا لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً﴾ [البقرة: ١٣]. وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾. اختلف العلماء في المراد بالأماشي هنا على قولين:

أحدهما: أن المراد بالأمنية القراءة؛ أي لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها. وهذا القول لا يتناسب مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾، لأن الأمي لا يقرأ.

وثانيهما: أن الاستثناء منقطع، والمعنى لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أماناً باطلة، ويدل لهذا القول. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾. يعني: تقتلون إخوانكم، وبين أن ذلك هو المراد، كثرة ورود ذلك في القرآن نحو قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي لا يلزم أحدكم أخاه، وقوله: ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، أي بإخوانهم وقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي بأن يقتل البريء من عبادة العجل من عبده منهم، إلى غير ذلك من الآيات. ويوضح هذا المعنى قوله ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم، كمثل الجسد الواحد، إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. يتبين مما قبله أن البعض الذي آمنوا به هو فداء الأسارى منهم، والبعض الذي كفروا به هو إخراجهم من ديارهم وقتلهم ومظاهرة العدو عليهم، وإن كفروا بغير هذا من الكتاب وآمنوا بغيره منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾. لم يبين هنا ما هذه البيّنات ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ طَائِرًا فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآيَةٌ لِلْأَكْمَةِ وَالْأَنْبَرِ وَأَخِي الْمَوْكُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَيْنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. هو جبريل على الأصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ الآية [مريم: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لم يبين هنا ما هذه البيّنات وبينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ إِنِّي مَفْضَلْتُ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [١٣٧] وَزَجَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ الآية [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]. وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الآية [الشعراء: ٦٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿حُذُّوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَتَّقُوا وَاسْمَعُوا﴾. قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة ومنه قولهم: سمعاً وطاعة أي إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة؛ أي أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور]، وهذا قول الجمهور.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾؛ أي بأذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع. ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيُفَرِّقَ لَهُمْ جُلُودًا أُصْلَعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا بِآبِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح]. وقوله عن قوم نبينا ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلُونَ﴾ [فصلت]. وقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]. وقوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالأذان دون السمع بمعنى الإجابة.

قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾. معنى الآية: أن أحد المذكورين يتمنى أن يعيش ألف سنة وطول عمره لا يزحزحه؛ أي لا يبعده عن العذاب، فالمصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: ﴿أَنْ يُعْمَرَ﴾؛ فاعل اسم الفاعل الذي هو مزحزحه على أصح الأعراب وفي لو، ومن قوله: ﴿لَوْ يُعْمَرُ﴾؛ وجهان: الأول: وهو قول الجمهور أنها حرف مصدري، وهي وصلتها في تأويل مفعول به ليود، والمعنى: يود أحدهم أي يتمنى تعمير ألف سنة، ولو: قد تكون حرفاً مصدرياً لقول قتيلة بنت الحارث:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنت
أي: ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنت.

وقال بعض العلماء: إن لو هنا هي الشرطية والجواب محذوف وتقديره: لو يعمر ألف سنة، لكان ذلك أحب شيء إليه، وحذف جواب لو مع دلالة المقام عليه واقع في القرآن، وفي كلام العرب فمته في القرآن قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر]، أي لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، أي لكان هذا القرآن أو لكفرتم بالرحمن. ومنه في كلام العرب قول الشاعر:

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أي لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه. إذا عرفت معنى الآية فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبيناً أن الإنسان لو متع ما متع من السنين ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أن ذلك المتاع الفائق لا ينفعه، ولا يغني عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله. وذلك في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٥] ثَرُ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا

يُوعِدُونَ ﴿١٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكُونُ ﴿١٠٧﴾ [الشعراء]، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل. كفانا الله والمؤمنين شره.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠٢﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. ولكنه بين في مواضع آخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ سُلَيْمَانُ لِيَتَجَلَّ بِهِ ﴿١١٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٠٩﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٠٧﴾﴾ [القيامة]. وقوله: ﴿وَلَا تَعَجَّلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾. ذكر في هذه الآية أن اليهود كلما عاهدوا عهداً نبذوا عهداً منهم، وصرح في موضع آخر أن رسول الله ﷺ هو المعاهد لهم وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال]، وصرح في آية أخرى بأنهم أهل خيانة إلا القليل منهم. وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا به. وبين في موضع آخر أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ مَا مَكَتِ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُشْرِكُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾.

لم يبين هنا هذا الذي سأل موسى من قبل ما هو؟ ولكنه بيّنه في موضع آخر. وذلك في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ الآية [النساء: ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَمُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾: هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، والأمر في قوله: ﴿بِأَمْرٍ﴾.

قال بعض العلماء: هو واحد الأوامر. وقال بعضهم: هو واحد الأمور، فعلى القول الأول: بأنه الأمر الذي هو ضد النهي؛ فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله: ﴿فَقِيلُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة]، وعلى القول بأنه واحد الأمور: فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود

من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِ الْآفَصِرِ ﴿١١٤﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمُ﴾ الآية [الحشر: ٢، ٣]. إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ الآية.

قال بعض العلماء: نزلت في صد المشركين النبي ﷺ، عن البيت الحرام في عمرة الحديبية عام ست من الهجرة.

وعلى هذا القول: فالخراب معنوي، وهو خراب المساجد بمنع العبادة فيها.

وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية [الفتح: ٢٥].

وقال بعض العلماء: الخراب المذكور هو الخراب الحسي. والآية نزلت فيمن

خرب بيت المقدس وهو بختنصر أو غيره وهذا القول يبينه ويشهد له قوله - جلّ وعلا -: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عُلُّوا تَبَرُّكًا﴾ [الإسراء: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. هذا الولد المزعوم - على زاعمه لعائن الله

- قد جاء مفصلاً في آيات أخر كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَكُنْ لَهُمُ اللَّهُ آتٍ يُوَفِّكُونُ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ الآية [النحل: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. يفهم من هذه الآية أن الله علم أن من

ذرية إبراهيم ظالمين. وقد صرح تعالى في مواضع أخر بأن منهم ظالماً وغير ظالم. كقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]. وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ الآية [الزخرف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. ذكر في هذه الآية رفع

إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت. وبين في سورة الحج، أنه أراه موضعه بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ أي عينا له محله وعرفناه به. قيل: دله عليه بمزنة كان ظلها قدر مساحته، وقيل: دله عليه بريح تسمى الحجوج كنست عنه حتى ظهر أسه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ

أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾؛ لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل. ولم يبين هنا أيضاً هذا الرسول المسؤول الذي بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة، أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ. وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَرَزَقْنَاهُمْ وَلِلْكَتَبِ وَالْحِكْمَةِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٣٠﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿١٣١﴾ [الجمعة: ٢، ٣]، لأن الأميين العرب بالإجماع. والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ، إجماعاً. ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ﷺ وحده.

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلى الأسود والأحمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. لم يبين هنا ما ملة إبراهيم وبينها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [النحل].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله: ﴿فَلَا تَتُوتَنَّ إِلَّا وَآتَنَّهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ وصرح بذلك في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بين في سورة الأعلى أنه صحف، وأن من جملة ما في تلك الصحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأخيرة خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ] ﴿٧﴾ [الأعلى]. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِي الْأَصْحَفِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٩﴾ [الأعلى].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ لم يبين هنا ما أوتيه موسى وعيسى، ولكنه بينه في مواضع آخر. فذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى]. وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أمر الله النبي ﷺ، والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيه جميع النبيين وأن لا يفرقوا بين أحد منهم حيث قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾. ولم يذكر هنا هل فعلوا ذلك أو لا؟ ولم يذكر جزاءهم إذا فعلوه، ولكنه بين كل ذلك في غير هذا الموضع. فصرح بأنهم امتثلوا الأمر بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وذكر جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لم يبين

هنا الصراط المستقيم. ولكنه بينه بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية. أي خياراً عدولاً، ويدل لأن الوسط الخيار العدول. قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وذلك معروف في كلام العرب ومنه قول زهير:

هم وسط يرضى الأنام لحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢١٤﴾ يَوْمَ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكُونُونَ اللَّهُ حَاشِيًا ﴿٢١٥﴾ [النساء].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون. وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾؛ دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار؛ وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه. ومعنى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى.

وقوله: ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾؛ أشار إلى أن الرسول هو محمد ﷺ، بقوله مخاطباً له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية؛ لأن هذا الخطاب له إجماعاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾. أي صلاتكم إلى بيت المقدس على الأصح ويستروح ذلك من قوله قبله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية، ولا سيما على القول باعتبار دلالة الاقتران، والخلاف فيها معروف في الأصول.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَايَتُكَ قِتْلَةٌ تَرْضَاهَا﴾؛ بيّنه قوله بعده: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. لم يبين هنا ما اللاعنون، ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦٢]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. لم يبين هنا وجه كونهما آية،

ولكنه بين ذلك في مواضع آخر. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِجْسًا مِنْ كُلِّ نَجَسٍ يُهَيِّجُ ۝٢ بَصِيرَةً وَذَكَرْنَاهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ۝٣﴾ [ق]. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ۝٤﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٥﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [الملك]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْجُرُ ۝٧﴾ [الملك].

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَلَفَ الْأَيْلُ وَالنَّهَارُ﴾. لم يبين هنا وجه كون اختلافهما آية، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلُمٍ ۝٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظْلُمٍ تَبْصِرُونَ ۝٩﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّتِيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [القصاص]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لم يبين هنا كيفية تسييره، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۝١١﴾ حَتَّى إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا سَفَقْتُهُ لِبَكْرِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۝١٢﴾ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْغَمَقَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يُخْرَجُ مِنْ خِلَالِهِ ۝١٤﴾ [النور: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْزَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الآية. المراد بالذين ظلموا الكفار، وقد بين ذلك بقوله في آخر الآية ﴿وَمَا هُمْ بِخَافِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٥﴾ ويدل ذلك قوله تعالى عن لقمان مقررًا له: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله - جل وعلا -: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٦﴾ [يونس].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أشار هنا إلى تخاصم أهل النار. وقد بين منه غير ما ذكر هنا في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحَنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِ ۝١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْاَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۝١٩﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيَاطِينِ﴾. لم يذكر هنا ما يترتب على اتباع خطواته من الضرر، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة النور، بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الآية [النور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي يقولونه عليه بغير علم، ولكنه فصله في مواضع آخر فذكر أن ذلك الذي يقولونه بغير علم هو: أن الله حرم البحائر والسوائب ونحوها، وأن له أولاداً، وأن له شركاء، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. فصرح بأنه لم يحرم ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٠]. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ الآية [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات. ونزه نفسه عن الشركاء المزعومة بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، ونحوها من الآيات ونزه نفسه عن الأولاد المزعومة بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [سُبْحَنَهُ] الآية [البقرة: ١١٦]. ونحوها من الآيات فظهر من هذه الآيات تفصيل، ما أجمل في اسم الموصول الذي هو ما، من قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جميع أنواع الميتة والدم حرام، ولكنه يبين في موضع آخر أن ميتة البحر خارجة عن ذلك التحريم وهو قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]. إذ ليس للبحر طعام غير الصيد إلا ميتته. وما ذكره بعض العلماء من أن المراد [بطعامه] قديده المجفف بالملح مثلاً، وأن المراد [بصيده] الطري منه. فهو خلاف الظاهر؛ لأن القديد من صيده فهو صيد جعل قديداً، وجمهور العلماء على أن المراد بطعامه ميتته. منهم: أبو بكر الصديق، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أجمعين وعكرمة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير. وأشار في موضع آخر إلى أن غير المسفوح من الدماء ليس بحرام وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فيفهم منه أن غير المسفوح كالحمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم ليس بحرام، إذ لو كان كالمسفوح لما كان في التقييد بقوله: ﴿مَسْفُوحًا﴾.

فائدة: وقد جاء عن النبي ﷺ أن الله أحل له ولأمته ميتين ودمين. أما الميتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. لم يبين هنا سبب اضطراره، ولم يبين المراد بالباغي والعادي، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن سبب الاضطرار المذكور المخصصة، وهي الجوع وهو قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ﴾ [المائدة: ٣]، وأشار إلى أن المراد بالباغي والعادي المتجانف للإثم، وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ [المائدة: ٣]، والمتجانف المائل ومنه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة ناقتي وما قصدت من أهلها لسوائكا

فيفهم من الآية أن المباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها.
وقال بعض العلماء: الإثم الذي تجانف إليه المباغي هو الخروج على إمام المسلمين، وكثيراً ما يطلق اسم البغي على مخالفة الإمام، والإثم الذي تجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين، ويلحق بذلك كل سفر في معصية الله. اهـ.

وقال بعض العلماء: إثم المباغي والعادي أكلهما المحرم مع وجود غيره، وعليه فهو كالتأكيد لقوله: ﴿فَمِنْ أَضْطَرٍّ﴾؛ وعلى القول الأول: لا يجوز لقاطع الطريق والخارج على الإمام الأكل من الميتة وإن خاف الهلاك ما لم يتوبا، وعلى الثاني يجوز لهما أكل الميتة إن خافا الهلاك وإن لم يتوبا.

ونقل القرطبي عن قتادة، والحسن، والربيع، وابن زيد، وعكرمة، أن المعنى: غير باغ؛ أي في أكله فوق حاجته، ولا عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة، ويأكلها.
ونقل أيضاً عن السدي أن المعنى غير باغ في أكلها شهوة وتلذذاً، ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع.

وقال القرطبي أيضاً: وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين، ولا عاد عليهم، فيدخل في المباغي والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم، والغارة على المسلمين، وما شاكله، وهذا صحيح. فإن أصل البغي في اللغة قصد الفساد يقال: بغت المرأة تبغي بغاء إذا فجرت.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ [النور: ٣٣]، وربما استعمل البغي في طلب غير الفساد، والعرب تقول: خرج الرجل في بغاء إبل له؛ أي في طلبها، ومنه قول الشاعر:

لا يمنعك من بغا الخير تعقد الرثائم
إن الأشائم كالأيام من والأيامن كالأشائم

وذكر القرطبي عن مجاهد: أن المراد بالاضطرار في هذه الآية: الإكراه على أكل المحرم، كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعالى، وذكر أن المراد به عند الجمهور من العلماء المختصة التي هي الجوع كما ذكرنا.

وقد قدمنا أن آية ﴿فَمِنْ أَضْطَرٍّ فِي مَخْصَةٍ﴾ [المائدة: ٣]، مبينة لذلك وحكم الإكراه على أكل ما ذكر يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، بطريق الأولى، وحديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَى الْكَمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ لم يبين هنا هل هذا المصدر مضاف إلى فاعله فيكون الضمير عائداً إلى من آتى المال، والمفعول محذوفاً، أو مضافاً إلى مفعوله فيكون الضمير عائداً إلى المال، ولكنه ذكر في موضع آخر ما يدل على أن المصدر مضاف إلى فاعله، وأن المعنى على حبه أي حب مؤتي المال لذلك المال وهو قوله تعالى: ﴿كُنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]: ولا يخفى أن بين القولين تلازماً في المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَاسِ﴾. لم يبين هنا ما المراد بالباس، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البأس القتال، وهو قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٧]. كما هو ظاهر من سياق الكلام.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٨٧]. قال بعض العلماء: هي ثلاثة من كل شهر، وعاشوراء. وقال بعض العلماء: هي رمضان، وعلى هذا القول فقد بينها تعالى بقوله: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. لم يبين هنا هل أنزل في الليل منه أو النهار؟ ولكنه بين في غير هذا الموضع أنه أنزل في ليلة القدر، من رمضان وذلك في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [١٨٧]. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]؛ لأن الليلة المباركة هي ليلة القدر على التحقيق، وفي معنى إنزاله وجهان: الأول: أنه أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: أن معنى إنزاله فيها ابتداء نزوله كما قال به بعضهم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. ذكر في هذه الآية أنه - جلّ وعلا - قريب يجيب دعوة الداعي، وبين في آية أخرى تعليق ذلك على مشيئته - جلّ وعلا - وهي قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ...﴾ الآية [الأنعام: ٤١]. وقال بعضهم: التعليق بالمشيئة في دعاء الكفار كما هو ظاهر سياق الآية، والوعد المطلق في دعاء المؤمنين وعليه، فدعائهم لا يرد، إما أن يعطوا ما سألوا، أو يدخر لهم خير منه، أو يدفع عنهم من السوء بقدره.

وقال بعض العلماء: المراد بالدعاء العبادة وبالإجابة الثواب، وعليه فلا إشكال. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾؛ بينه قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ والعرب تسمي ضوء الصبح خيطاً، وظلام الليل المختلط به خيطاً، ومنه قول أبي داود الإيادي:

فلما أضاءت لنا سدفه ولاح من الصبح خيط أنارا
وقول الآخر:

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق والخيط الأسود جنح الليل مكتوم

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ أَلِفٌ مِّنْ أَتَقَىٰ﴾. لم يصرح هنا بالمراد بمن اتقى، ولكنه بينه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ مِّنْ ءَمَنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَانَ كَذِبًا﴾. والتبتين وعاقى المال على حبه، ذوى القربى واليتيمى والمسكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وعاقى الزكاة والمؤثقت يهدمهم إذا عهدوا والصديدين في البأساء والضمره ومن البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك

هُمْ الْمُنْفَوْنَ ﴿١٩٧﴾، والكلام في الآية على حذف مضاف أي ولكن ذا البر من اتقى، وقيل: ولكن البر بر من اتقى، ونظير الآية في ذلك من كلام العرب قول الخنساء:

لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت
أي ذات إقبال، وقول الشاعر:

وكيف تواصل من أصبحت
أي كخلالة أبي مرحب وقول الآخر:

لعمرك ما الفتیان أن تنبت اللحي
أي ليس الفتیان فتیان نبات اللحي.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه للعلماء:

الأول: أن المراد بالذين يقاتلونكم من شأنهم القتال، أي دون غيرهم، كالنساء، والصبيان، والشيخ الفانية، وأصحاب الصوامع.

الثاني: أنها منسوخة بآيات السيف الدالة على قتالهم مطلقاً.

الثالث: أن المراد بالآية تهيج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار، فكأنه يقول لهم: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم خصومكم، وأعداؤكم الذين يقاتلونكم، وأظهرها الأول وعلى القول الثالث، فالمعنى يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِن أُخِصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. اختلف العلماء في المراد بالإحصار في هذه الآية الكريمة فقال قوم: هو صد العدو المحرم ومنعه إياه من الطواف بالبيت. وقال قوم: المراد به حبس المحرم بسبب مرض ونحوه. وقال قوم: المراد به ما يشمل الجميع من عدو ومرض ونحو ذلك.

ولكن قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾؛ يشير إلى أن المراد بالإحصار هنا صد العدو للمحرم؛ لأن الأمن إذا أطلق في لغة العرب انصرف إلى الأمن من الخوف لا إلى الشفاء من المرض، ونحو ذلك، ويؤيده أنه لم يذكر الشيء الذي منه الأمن، فدل على أن المراد به ما تقدم من الإحصار، فثبت أنه الخوف من العدو، فما أجاب به بعض العلماء من أن الأمن يطلق على الأمن من المرض، كما في حديث «من سبق العاطس بالحمد أمن من الشوص، واللوص، والعلوص» أخرجه ابن ماجة في سننه فهو ظاهر السقوط؛ لأن الأمن فيه مقيد بكونه من المرض، فلو أطلق لانصرف إلى الأمن من الخوف.

وقد يجاب أيضاً بأنه يخاف وقوع المذكور من الشوص الذي هو وجع السن، واللوص الذي هو وجع الأذن، والعلوص الذي هو وجع البطن؛ لأنه قبل وقوعها به يطلق عليه أنه خائف من وقوعها؛ فإذا أمن من وقوعها به فقد أمن من خوف.

أما لو كانت وقعت به بالفعل فلا يحسن أن يقال: أمن منها؛ لأن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل، لا واقع بالفعل، فدل هذا على أن زعم إمكان إطلاق الأمن على الشفاء من المرض خلاف الظاهر.

وللعلماء أقوال أرجحها ما ذهب إليه الشيخ في قوله: الذي يظهر لنا رجحانه بالدليل من الأقوال المذكورة هو ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، أن المراد بالإحصار في الآية إحصار العدو، وأن من أصابه مرض أو نحوه لا يحل إلا بعمرة؛ لأن هذا هو الذي نزلت فيه الآية ودل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا آمِنْتُمْ﴾ الآية.

ولا سيما على قول من قال من العلماء: إن الرخصة لا تتعدى محلها، وهو قول جماعة من أهل العلم.

وأما قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فجمهور العلماء على أن المراد به شاة فما فوقها، وهو مذهب الأئمة الأربعة، وبه قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال طاوس، وعطاء، ومجاهد، وأبو العالية، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وقال جماعة من أهل العلم: إن المراد بما استيسر من الهدي، إنما هو الإبل والبقر دون الغنم، وهذا القول مروى عن عائشة، وابن عمر، وسالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

قال ابن كثير: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر.

ففي الصحيحين عن جابر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة».

قال مقيد - عفا الله عنه - لا يخفى أن التحقيق في هذه المسألة: أن المراد بما استيسر من الهدي ما تيسر مما يسمى هدياً، وذلك شامل لجميع الأنعام: من إبل، وبقر، وغنم، فإن تيسرت شاة أجزاء، والناقة والبقرة أولى بالأجزاء.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «أهدى ﷺ مرة غنماً».

قال مقيد - عفا الله عنه -: التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل الذي ذهب إليه ابن عباس (رضي الله عنه)، وهو أنه إن استطاع إرسال الهدي إلى الحرم أرسله، ولا يحل حتى يبلغ الهدي محله، إذ لا وجه لنحر الهدي في الحل مع تيسر الحرم، وإن كان لا يستطيع إرساله إلى الحرم نحره في المكان الذي أحصر فيه من الحل.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

لم يبين هنا ما هذا الفضل الذي لا جناح في ابتغائه أثناء الحج. وأشار في آيات آخر إلى أنه ربح التجارة كقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضْعَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ يَبْتَاعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ لأن الضرب في الأرض عبارة عن السفر للتجارة، فمعنى الآية يسافرون يطلبون ربح التجارة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَاعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ أي بالبيع والتجارة، بدليل قوله قبله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي فإذا انقضت صلاة الجمعة فاطلبوا الربح الذي كان محرماً عليكم عند النداء لها.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن غلبة إرادة المعنى المعين في القرآن تدل على أنه المراد؛ لأن الحمل على الغالب أولى، ولا خلاف بين العلماء في أن المراد بالفضل المذكور في الآية ربح التجارة، كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ لم يبين هنا المكان المأمور بالإفاضة منه المعبر عنه بلفظة حيث، التي هي كلمة تدل على المكان، كما تدل حين على الزمان. ولكنه يبين ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾... الآية، وسبب نزولها أن قريشاً كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة، ويقولون: نحن قطان بيت الله، ولا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم؛ لأن عرفات خارج عن الحرم وعامة الناس يقفون بعرفات، فأمر الله النبي ﷺ، والمسلمين، أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وهو عرفات، لا من المزدلفة كفعل قريش.

وهذا هو مذهب جماهير العلماء، وحكى ابن جرير عليه الإجماع، وعليه فلفظة (ثم) للترتيب الذكري بمعنى عطف جملة على جملة، وترتيبها عليها في مطلق الذكر، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكَرَّجَ رَبِّي﴾ (٣٢) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ (٤٤) يَسْمَا ذَا مَقَرٍّ (٥٥) أَوْ مَشْكِيماً ذَا مَقَرٍّ (٥٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَوَفَّاءُوا بِالْصَّعْرِ وَوَفَّاءُوا بِالْمَرْحَةِ (٥٧) [البلد].

وقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ الآية. من مزدلفة إلى منى، وعليه فالمراد بالناس إبراهيم.

قال ابن جرير في هذا القول: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْعَوْنَ فِي الْدِّينِ مَأْمُونًا﴾ لم يبين هنا سخرية هؤلاء الكفار من هؤلاء المؤمنين، ولكنه بين في موضع آخر أنها الضحك منهم والتغامز وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٦١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٦٢) [المطففين: ٢٩ - ٣٠]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. لم يبين هنا فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

يَضْحَكُونَ ﴿٢١٦﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ ﴿٢١٧﴾ [المطففين]. وقوله: ﴿أَهْؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَعْطُوا لِنَفْسِهِمْ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢١٨﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. لم يصف هذا الخير هنا بالكثرة وقد وصفه بها في قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾. لم يبين هنا هل استطاعوا ذلك أو لا؟ ولكنه بين في موضع آخر أنهم لم يستطيعوا، وأنهم حصل لهم اليأس من رد المؤمنين عن دينهم، وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾... الآية [المائدة: ٣]. وبين في مواضع أخرى أنه مظهر دين الإسلام على كل دين كقوله في براءة، والصف، والفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، لم يبين هنا ما هذا الإثم الكبير؟ ولكنه بين في آية أخرى أنه إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْغَيْبِ وَالنَّجْوَى وَمَعَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٢١٩﴾﴾ [المائدة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، ظاهر عمومه شمول الكتابيات، ولكنه بين في آية أخرى أن الكتابيات لسن داخلات في هذا التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، فإن قيل: الكتابيات لا يدخلن في اسم المشركات بدليل قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿مَنْ يَدْعُ إِلَى الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، والعطف يقتضي المغايرة. فالجواب أن أهل الكتاب داخلون في اسم المشركين كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفِّكُونَ ﴿٢٢٠﴾﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَبَّنَّهُمْ زَيْبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [التوبة].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَقَهَّرَ فَأَقْوَمَهُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ لم يبين هنا هذا المكان المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظة «حيث» ولكنه بين أن المراد به الإتيان في القبل في آيتين:

إحداهما: هي قوله هنا: ﴿فَأَتُوا حَرَمَكُمْ﴾؛ لأن قوله: ﴿فَأَتُوا﴾. أمر بالإتيان بمعنى الجماع وقوله: ﴿حَرَمَكُمْ﴾؛ يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد، كما هو ضروري.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَنَ بَشِيرُوهَنَ وَنَبْعُوهَنَ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمُ﴾. لأن المراد بما كتب الله لكم، الولد، على قول الجمهور، وهو اختيار ابن جرير، وقد نقله عن ابن عباس، ومجاهد، والحكم، وعكرمة، والحسن البصري، والسدي، والربيع، والضحاك بن مزاحم، ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل، فالقبل إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، بمعنى الجماع فيكون معنى الآية فالآن بأشروهن ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد، الذي هو القبل دون غيره، بدليل قوله: ﴿وَأَنْتَعُوهَنَ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمُ﴾؛ يعني الولد.

ويتضح لك من هذا أن معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ يعني أن يكون الإتيان في محل الحرث على أي حالة شاء الرجل، سواء كانت المرأة مستقلة أو باركة أو على جنب، أو غير ذلك، ويؤيد هذا ما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمُ حَرْثُ لَكُمُ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. فظهر من هذا أن جابراً رضي الله عنه يرى أن معنى الآية، فأتوهن في القبل على أية حالة شئتم ولو كان من ورائها.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمُ﴾. لم يصرح هنا بالمراد بما كسبته قلوبهم، ولم يذكر هنا ما يترتب على ذلك إذا حنث، ولكنه بين في سورة المائدة أن المراد بما كسبت القلوب، هو عقد اليمين بالنية والقصد، وبين أن اللازم في ذلك إذا حنث كفارة، هي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة ومن عجز عن واحد من الثلاثة فصوم ثلاثة أيام، وذلك في قوله: ﴿وَلَكِنَ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُهُ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾... الآية [المائدة: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾. ظاهر هذه شمولها لجميع المطلقات، ولكنه بين في آيات أخر خروج بعض المطلقات من هذه العموم، كالحوامل المنصوص على أن عدتهن وضع الحمل، في قوله: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجْصِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤]. وكالمطلقات قبل الدخول المنصوص على أنهن لا عدة عليهن أصلاً، بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَعُوهُنَّ وَسِرْجُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

أما اللواتي لا يحضن لكبر أو صغر، فقد بين أن عدتهن ثلاثة أشهر في قوله: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجْصِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤].

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾. فيه إجمال؛ لأن القرء يطلق لغة على الحيض، ومنه قوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك». ويطلق القرء أيضاً على الطهر ومنه قول الأعشى:

أفي كل يوم أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عزائكا
مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نساكا

وخلاصة قول الشيخ: وأدلة من ذهب إلى أن المراد بالقرء الطهر: هو الأظهر لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار؟ وهذه الآية، وهذا الحديث، دلا على أنها الأطهار. ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنة نبيه ﷺ، شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في محل النزاع؛ لأنه حديث متفق عليه مذكور في معرض بيان معنى آية من كتاب الله تعالى. وقد صرح فيه النبي ﷺ بأن الطهر هو العدة مبيناً أن ذلك هو مراد الله جل وعلا، بقوله: ﴿فَطَلَّوْهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فالإشارة في قوله ﷺ: فتلك العدة، راجعة إلى حال الطهر الواقع فيه الطلاق؛ لأن معنى قوله فليطلقها طاهراً؛ أي في حال كونها طاهراً، ثم بين أن ذلك الحال الذي هو الطهر هو العدة مصرحاً بأن ذلك هو مراد الله في كتابه العزيز، وهذا نص صريح في أن العدة بالطهر، وأنث الإشارة لتأنيث الخبر، ولا تخلص من هذا الدليل لمن يقول هي الحيضات إلا إذا قال: العدة غير القروء، والنزاع في خصوص القروء كما قال بهذا بعض العلماء.

وهذا القول يرده إجماع أهل العرف الشرعي وإجماع أهل اللسان العربي، على أن عدة من تعتد بالقروء هي نفس القروء لا شيء آخر زائد على ذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] وهي زمن التربص إجماعاً، وذلك هو المعبر عنه بثلاثة قروء التي هي معمول قوله تعالى: ﴿يَرْبِضَنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] في هذه الآية فلا يصح لأحد أن يقول: إن على المطلقة التي تعتد بالأقراء شيئاً يسمى العدة. زائداً على ثلاثة القروء المذكورة في الآية الكريمة البتة، كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَوِّلُ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن أزواج كل المطلقات أحق بردهن، لا فرق في ذلك بين رجعية وغيرها. ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البائن لا رجعة له عليها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وذلك لأن الطلاق قبل الدخول بائن، كما أنه أشار هنا إلى أنها إذا بانت بانقضاء العدة لا رجعة له عليها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُعَوِّلُ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ لأن الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه في الآية بثلاثة قروء.

واشترط هنا في كون بعولة الرجعيات أحق بردهن إرادتهم الإصلاح بتلك الرجعة، في قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾؛ ولم يتعرض لمفهوم هذا الشرط هنا، ولكنه صرح في مواضع أخرى: أن زوج الرجعية إذا ارتجعها لا بنية الإصلاح بل بقصد الإضرار بها؛ لتخالعه أو نحو ذلك، أن رجعتها حرام عليه، كما هو مدلول النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكِنُكُمْ ضَرَارًا لَعَنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعاً، كما دل عليه مفهوم الشرط المصرح به في قوله: ﴿وَلَا تُسْكِنُكُمْ ضَرَارًا﴾؛ الآية. وصحة رجعته حينئذ باعتبار ظاهر الأمر، فلو صرح للحاكم بأنه ارتجعها بقصد الضرر، لأبطل رجعته كما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ ذَرَّةٍ﴾. لم يبين هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء، ولكنه أشار لها في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَىٰ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، فأشار إلى أن الرجل أفضل من المرأة؛ وذلك لأن الذكورة شرف وكمال والأنوثة نقص خلقي طبيعي، والخلق كأنه مجمع على ذلك؛ لأن الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي، وذلك إنما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة، بخلاف الذكر فجعل ذكوره يكفيه عن الحلي ونحوه.

وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة وضعفها الخلقيين الطبيعيين، بقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ٨]؛ لأن نشأتها في الحلية دليل على نقصها، فلزم المرأة جبره، والتغطية عليه بالحلي كما قال الشاعر:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا
ولأن عدم إبانها في الخصام إذا ظلمت دليل على الضعف الخلقي، كما قال الشاعر:
بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب
ولا عبرة بنوادر النساء؛ لأن النادر لا حكم له.

وأشار بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، إلى أن الكامل في وصفه وقوته وخلقه يناسب حاله، أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقة.
ولهذه الحكمة المشار إليها جعل ميراثه مضاعفاً على ميراثها؛ لأن من يقوم على غيره مترقب للنقص، ومن يقوم عليه غيره مترقب للزيادة، وإيثار مترقب للنقص على مترقب الزيادة ظاهر الحكمة.

كما أنه أشار إلى حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُ لَكُمْ﴾؛ لأن من عرف أن حقله غير مناسب للزراعة لا ينبغي أن يرغم على الازدراع في حقل لا يناسب الزراعة. ويوضح هذا المعنى أن آلة الازدراع بيد الرجل، فلو أكره على البقاء مع من لا حاجة له فيها حتى ترضى بذلك، فإنها إن أرادت أن تتجامع لا يقوم ذكره، ولا ينتشر إليها، فلم تقدر على تحصيل النسل منه، الذي هو أعظم الغرض من النكاح بخلاف الرجل، فإنه يولدها وهي كارهة كما هو ضروري.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الطلاق كله منحصر في المرتين، ولكنه تعالى بين أن المنحصر في المرتين هو الطلاق الذي تملك بعده الرجعة لا مطلقاً، وذلك بذكره الطلقة الثالثة التي لا تحل بعدها المراجعة إلا بعد زوج.

وهي المذكورة في قوله: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية، وعلى هذا القول فقوله: ﴿أَوْ تَصْرِيفٌ يَخْسَنُ﴾؛ يعني به عدم الرجعة. وقال بعض العلماء: الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَصْرِيفٌ يَخْسَنُ﴾؛ وروي هذا مرفوعاً إليه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ شَرْيِخٍ يَخْسَنُ﴾.

لم يبين في هذه الآية ولا في غيرها من آيات الطلاق حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة، ولكنه يبين في موضع آخر أن حكمة ذلك أن المرأة حقل تزرع فيه النطفة كما يزرع البذر في الأرض، ومن رأى أن حقله غير صالح للزراعة فالحكمة تقتضي أن لا يرغم على الازدراع فيه، وأن يترك وشأنه؛ ليختار حقلاً صالحاً لزراعته وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ خَرْثُ لَكُمْ﴾ كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن الزوج لا يحل له الرجوع في شيء مما أعطى زوجته، إلا على سبيل الخلع، إذا خافا ألا يقيما حدود الله فيما بينهما، فلا جناح عليهما إذن في الخلع؛ أي: لا جناح عليها في الدفع، ولا عليه هو في الأخذ.

وصرح في موضع آخر بالنهي عن الرجوع في شيء مما أعطى الأزواج زوجاتهم، ولو كان المعطى قطاراً، وبين أن أخذه بهتان وإثم مبین، وبين أن السبب المانع من أخذ شيء منه هو أنه أفضى إليها بالجماع. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

[النساء]. وبين في موضع آخر أن محل النهي عن ذلك إذا لم يكن عن طيب النفس من المرأة؛ وذلك في قوله: ﴿إِنْ طَلَّقَ طَلِّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ قَسًا فَعَلُوهُ حَبَاقًا مَرْبُوعًا﴾ [النساء: ٤]. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيعَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

تنبيه: أخذ ابن عباس من هذه الآية الكريمة أن الخلع فسخ ولا يعد طلاقاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ ثم ذكر الخلع بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ فلم يعتبره طلاقاً ثالثاً، ثم ذكر الطلقة الثالثة بقوله: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية. وبهذا قال عكرمة وطاوس وهو رواية عن عثمان بن عفان وابن عمر، وهو قول إسحاق بن راهويه، وأبي ثور وداود بن علي الظاهري كما نقله عنهم ابن كثير وغيره، وهو قول الشافعي في القديم وإحدى الروایتين عن أحمد.

قال مقيد - عفا الله عنه -: الاستدلال بهذه الآية على أن الخلع لا يعد طلاقاً ليس بظاهر عندي؛ لما تقدم مرفوعاً إليه ﷺ من أن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله: ﴿أَوْ تَصْرِيفٌ يَخْسَنُ﴾ وهو مرسل حسن.

قال في فتح الباري: والأخذ بهذا الحديث أولى، فإنه مرسل حسن يعتضد بما أخرجه الطبري من حديث ابن عباس بسند صحيح. قال: «إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتيق الله في الثالثة. فإذا أن يمسكها فيحسن صحبتها، أو يسرحها فلا يظلمها من حقها شيئاً».

وعليه ففراق الخلع المذكور لم يرد منه إلا بيان مشروعية الخلع عند خوفهما ألا يقيما حدود الله؛ لأنه ذكر بعد الطلقة الثالثة. وقوله: فإن طلقها إنما كرره؛ ليرتب عليه ما يلزم بعد الثالثة، الذي هو قوله: ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾. ولو فرعنا على أن قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾. يراد به عدم الرجعة، وأن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ﴾. لم يلزم من ذلك أيضاً عدم عد الخلع طلاقاً؛ لأن الله تعالى ذكر الخلع في معرض منع الرجوع فيما يعطاه الأزواج. فاستثنى منه صورة جائزة، ولا يلزم من ذلك عدم اعتبارها طلاقاً، كما هو ظاهر من سياق الآية، وللعلماء أقوال في الخلع وأحكامه وخلاصة قول الشيخ:

قال مقيد - عفا الله عنه -: وكون الخلع طلاقاً ظاهر من جهة المعنى: لأن العوض المبذول للزوج من جهتها إنما بذلته في مقابلة ما يملكه الزوج، وهو الطلاق؛ لأنه لا يملك لها فراقاً شرعاً إلا بالطلاق، فالعوض في مقابله. ويدل له ما أخرجه البخاري في قصة مخالعة ثابت بن قيس زوجه من حديث ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه من خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» فإن قوله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»، فيه دليل على أن العوض مبذول في الطلاق الذي هو من حق الزوج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمُكُوهُنَّ مَعْرُوفٍ أَوْ مَرُوفٍ مَعْرُوفٍ﴾. ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ انقضاء عدتهن بالفعل، ولكنه بين في موضع آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرِيحٍ فِي ذَلِكَ﴾؛ لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ ثَلَاثَةٌ يَرِيضُ﴾. فاتضح من تلك الآية أن معنى فبلن أجلهن. أي: قاربن انقضاء العدة، وأشرفن على بلوغ أجلها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْتَدُوهُنَّ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها؛ لأجل الاعتداء عليها بأخذها ما أعطاها؛ لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه؛ ابتغاء السلامة من ضرره. وصرح في موضع آخر بأنها إذا أتت بفاحشة مبينة جاز له عضلها، حتى تفدي منه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْضُوهُنَّ إِنْ تَدَّهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]. واختلف العلماء في المراد بالفاحشة المبينة. فقال جماعة منهم هي: الزنا، وقال قوم هي:

النشوز والعصيان وبذاءة اللسان. والظاهر شمول الآية لكل كما اختاره ابن جرير. وقال ابن كثير: إنه جيد، فإذا زنت أو أساءت بلسانها، أو نشزت جازت مضاجرتها؛ لتفتدي منه بما أعطاها على ما ذكرنا من عموم الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَرَدُمْ أَنْ تَسْرَضُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الرجل إذا أراد أن يطلب لولده مرضعة غير أمه لا جناح عليه في ذلك، إذا سلم الأجرة المعينة في العقد، ولم يبين هنا الوجه الموجب لذلك، ولكنه بينه في سورة الطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرُّعٌ لَكُمْ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦]، والمراد بتعاسرهم: امتناع الرجل من دفع ما تطلبه المرأة، وامتناع المرأة من قبول الإرضاع بما يبذله الرجل ويرضى به.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَشْهُرَ وَعَشْرًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل متوفى عنها تعتد بأربعة أشهر وعشر، ولكنه بيّن في موضع آخر أن محل ذلك ما لم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً كانت عدتها وضع حملها، وذلك في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، ويزيده إيضاحاً ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيام، وكون عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها هو الحق، كما ثبت عنه ﷺ خلافاً لمن قال: تعتد بأقصى الأجلين. ويروى عن علي وابن عباس. والعلم عند الله تعالى.

تنبيهان:

الأول: هاتان الآيتان أعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَشْهُرَ وَعَشْرًا﴾ وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] من باب تعارض الأعمين من وجه، والمقرر في الأصول الترجيح بينهما، والراجح منهما يخص به عموم المرجوح كما عقده في (المراقي) بقوله:

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتماً معتبر

وقد بينت السنة الصحيحة أن عموم: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ [الطلاق: ٤] مخصص لعموم ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾. مع أن جماعة من الأصوليين ذكروا أن الجموع المنكرة لا عموم لها، وعليه فلا عموم في آية البقرة؛ لأن قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ جمع منكر فلا يعم بخلاف قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ [الطلاق: ٤] فإنه مضاف إلى معرف بآل، والمضاف إلى المعرف بها من صيغ العموم، كما عقده في (مراقي السعود) بقوله عاطفاً على صيغ العموم:

وما معرفاً بآل قد وجدا

أو بإضافة إلى معرف إذا تحقق الخصوص قد نفى

الثاني: الضمير الرابط للجملة بالموصول محذوف؛ لدلالة المقام عليه؛ أي والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشراً كقول العرب: السنن سنوان بدرهم؛ أي منوان منه بدرهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن المتعة حق لكل مطلقة على مطلقها المتقي، سواء أطلقت قبل الدخول أم لا فرض لها صداق أم لا؟ ويدل لهذا العموم قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمِّيْعَكَ وَأُسْرِيْعَكَ مَرَلًا جَمِيْلًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد تقرر في الأصول أن الخطاب الخاص به ﷺ يعم حكمه جميع الأمة إلا بدليل على الخصوص كما عقده في (مراقي السعود) بقوله:

وما به قد خطب النبي تعميمه في المذهب السني

وهو مذهب الأئمة الثلاثة، خلافاً للشافعي القائل بخصوصه به ﷺ إلا بدليل على العموم، كما بيناه في غير هذا الموضع. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن أزواج النبي مفروض لهن ومدخول بهن، وقد يفهم من موضع آخر أن المتعة لخصوص المطلقة قبل الدخول وفرض الصداق معاً؛ لأن المطلقة بعد الدخول تستحق الصداق، والمطلقة قبل الدخول وبعد فرض الصداق تستحق نصف الصداق. والمطلقة قبلهما لا تستحق شيئاً، فالمتعة لها خاصة لجبر كسرها وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فهذه الآية ظاهرة في هذا التفصيل، ووجهه ظاهر معقول.

وقد ذكر تعالى في موضع آخر ما يدل على الأمر بالمتعة للمطلقة قبل الدخول وإن كان مفروضاً لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمِّيْعَكَ وَأُسْرِيْعَكَ مَرَلًا جَمِيْلًا﴾ [الأحزاب: ٢١] لأن ظاهر عمومها يشمل المفروض لها الصداق وغيرها، وبكل واحدة من الآيات الثلاث أخذ جماعة من العلماء. والأحوط الأخذ بالعموم، وقد تقرر في الأصول أن النص الدال على الأمر مقدم على الدال على الإباحة، وعقده في (مراقي السعود) بقوله:

وناقـل ومثـبـت والأمر بعد النواهي ثم هذا الآخر

على إباحة... إلخ.

فقوله: ثم هذا الآخر على إباحة. يعني: أن النص الدال على أمر مقدم على النص الدال على إباحة، للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب. والتحقيق أن قدر المتعة لا تحديد فيه شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكُوفِيِّ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقَرِّي قَدَرُهُ﴾ فإن توافقا على قدر معين فالأمر واضح، وإن اختلفا فالحاكم يجتهد في تحقيق المناط، فيعين القدر على ضوء قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكُوفِيِّ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] هذا هو الظاهر وظاهر قوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ﴾ يقتضي وجوب المتعة في الجملة خلافاً لمالك ومن وافقه في عدم وجوب المتعة أصلاً، واستدل بعض المالكية على عدم وجوب المتعة

بأن الله تعالى قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قالوا: فلو كانت واجبة لكانت حقاً على كل أحد. وبأنها لو كانت واجبة لعين فيها القدر الواجب.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذا الاستدلال على عدم وجوبها لا ينهض فيما يظهر؛ لأن قوله: ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ٩١]، و﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد للوجوب وليس لأحد أن يقول لست متقياً مثلاً؛ لوجوب التقوى على جميع الناس. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْهُمْ﴾... الآية ما نصه: وقوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراف به ومعاصيه، وقد قال تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقولهم: لو كانت واجبة لعين القدر الواجب فيها، ظاهر السقوط. فنفقة الأزواج والأقارب واجبة ولم يعين فيها القدر اللازم، وذلك النوع من تحقيق المناط مجمع عليه في جميع الشرائع كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنِيتَهُمْ﴾.

المقصود من هذه الآية الكريمة، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران؛ والتقدم في الميدان. وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب] وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال؛ لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاة منه فهو ميت عن قريب، كما قال قعنب ابن أم صاحب.

إذا أنت لاقيت في نجدة
فإن المنية من يخشها
وإن تتخطاك أسبابها
وقال زهير:

رأيت المنيا خبط عشواء من تصب
وقال أبو الطيب:

وإذا لم يكن من الموت بد
ولقد أجاد من قال:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة

وهذا هو المراد بالآيات المذكورة، ويؤخذ من هذه الآية عدم جواز الفرار من الطاعون إذا وقع بأرض وأنت فيها، وقد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن الفرار من الطاعون وعن القدوم على الأرض التي هو فيها إذا كنت خارجاً عنها.

تنبيه: لم تأت لفظة (ألم تر) ونحوها في القرآن مما تقدمه لفظ ألم، معداة إلا بالحرف الذي هو إلى. وقد ظن بعض العلماء أن ذلك لازم والتحقيق عدم لزومه وجواز تعديته بنفسه دون حرف الجر، كما يشهد له قول امرئ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضَاعًا كَثِيرَةً﴾.

لم يبين هنا قدر هذه الأضاعاف الكثيرة، ولكنه بين في موضع آخر أنها تبلغ سبعمائة ضعف وتزيد عن ذلك. وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ مَسْجِدٍ سَائِلٌ فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾.

لم يبين هنا شيئاً مما علمه، وقد بين في مواضع آخر أن مما علمه صنعة الدروع كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾... الآية [الأنبياء: ٨٠]. وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْغَلِيدُ﴾ [١٠] أَيْ أَعْمَلُ سَيْفِي وَفَدَّرَ فِي السَّرْدِ [سبا: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يفهم من تأكيده هنا بأن واللام أن الكفار ينكرون رسالته كما تقرر في فن المعاني، وقد صرح بهذا المفهوم في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾... الآية [الرعد: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾. لم يبين هنا هذا الذي كلمه الله منهم وقد بين أن منهم موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. قال ابن كثير: منهم من كلم الله يعني موسى ومحمداً ﷺ، وكذلك آدم كما ورد في الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه.

قال مقبده - عفا الله عنه -: تكليم آدم الوارد في صحيح ابن حبان يبينه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وأمثالها من الآيات فإنه ظاهر في أنه بغير واسطة الملك، ويظهر من هذه الآية نهى حواء عن الشجرة على لسانه، فهو رسول إليها بذلك، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ما نصه: وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: نعم نبي مكلم، قال ابن عطية: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصية موسى. اهـ. وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ في سورة البقرة ما نصه؛ لأن آدم كان هو النبي ﷺ أيام حياته، بعد أن أهبط إلى الأرض، والرسول من الله جل ثناؤه إلى ولدوه، فغير جائز أن يكون معنياً وهو - الرسول ﷺ - بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: رسل. اهـ. محل الحجة منه بلفظه. وفيه وفي كلام ابن كثير المتقدم عن

صحيح ابن حبان التصريح بأن آدم رسول وهو مشكل مع ما ثبت في حديث الشفاعة المتفق عليه من أن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أول الرسل ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْنِ مِنْ بَنِيهِ﴾ [النساء: ١٦٣] والظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

الأول: أن آدم أرسل لزوجه وذريته في الجنة، ونوح أول رسول أرسل في الأرض، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: ويقول: «ولكن اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»... الحديث. فقله إلى أهل الأرض لو لم يرد به الاحتراز عن رسول بعث لأهل الأرض، لكان ذلك الكلام حشواً، بل يفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا. ويُستأنس له بكلام ابن عطية الذي قدمنا نقل القرطبي له.

الوجه الثاني: أن آدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾... الآية [يونس: ١٩]. أي: على الدين الحنيف أي حتى كفر قوم نوح، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ الآية. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

أشار في مواضع آخر إلى أن منهم محمداً ﷺ كقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] أو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١]. وأشار في مواضع آخر إلى أن منهم إبراهيم كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وأشار في موضع آخر إلى أن منهم داود وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَاتِنَا دَاوُدَ ذُرِّيًّا﴾ [الإسراء: ٥٥]. وأشار في موضع آخر إلى أن منهم عيسى بقوله: ﴿وَمَاتِنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتُّنَتِ﴾.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة أعني: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية. إشكال قوي معروف. ووجهه: أنه ثبت في حديث أبي هريرة المتفق عليه أنه ﷺ قال: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله» وثبت أيضاً في حديث أبي سعيد المتفق عليه «لا تخبروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة»... الحديث، وفي رواية «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، وفي رواية «لا تخيروني من بين الأنبياء». وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: وهذه الآية مشكلة، والأحاديث ثابتة بأنه النبي ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء ولا تفضلوا بين أنبياء الله»

رواها الأئمة الثقة، أي: لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان. اهـ.
قال ابن كثير في الجواب عن هذا الإشكال ما نصه: والجواب من وجوه؛ أحدها: أن
هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفي هذا نظر. الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم
والتواضع. الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند
التخاصم والتشاجر. الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصية. الخامس: ليس مقام
التفضيل اليك، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.
اهـ. منه بلفظه، وذكر القرطبي في تفسيره أجوبة كثيرة عن هذا الإشكال، واختار أن منع
التفضيل في خصوص النبوة، وجوازه في غيرها من زيادة الأحوال والخصوص
والكرامات فقد قال ما نصه: قلت وأحسن من هذا قول من قال: إن المنع من التفضيل
إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة
الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات.

وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها؛ ولذلك
منهم رسل وأولو عزم، ومنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم
درجات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآيَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].
قلت: وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ، والقول
بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل وأعطى من الوسائل، وقد أشار
ابن عباس إلى هذا فقال: إن الله فضل محمداً ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء
فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ
يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].
وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
[الفتح: ١، ٢]. قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
رَسُولٍ إِلَّا يُلَاقِي قَوْمَهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال الله عز وجل: لمحمد ﷺ:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] فأرسله إلى الجن والإنس، ذكره أبو محمد
الدارمي في مسنده، وقال أبو هريرة: خير بني آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ
وهم أولو العزم من الرسل، وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين، ومعلوم
أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل؛ فإن لمن أرسل فضل على غيره بالرسالة، واستووا
في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أمهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لا يخفاء به.
اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

واختار ابن عطية كما نقله عنه القرطبي أن وجه الجمع جواز التفضيل إجمالاً
كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ولم يعين ومنع التفضيل على طريق الخصوص
كقوله: «لا تفضلوني على موسى» وقوله: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن
مثنى» ونحو ذلك والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَثًّا وَلَا أَدْرَى لَهُمْ جَرْهُمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٦٢] يفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه المنّ والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور هنا في قوله: ﴿لَهُمْ جَرْهُمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْلُغُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة بأن الله ولي المؤمنين، وصرح في آية أخرى بأنه وليهم، وأن رسول الله ﷺ وليهم، وأن بعضهم أولياء بعض وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] الآية وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وصرح في موضع آخر بخصوص هذه الولاية للمسلمين دون الكافرين وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد]، وصرح في موضع آخر بأن نبيه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وبين في آية البقرة هذه، ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين، وهي إخراجهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] [١٢٦] [يونس]، وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه ﷺ وأنه أيضاً يتولى الصالحين وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ المراد بالظلمات الضلالة، وبالنور الهدى، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة؛ لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة؛ لإفراده النور، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: ولهذا وُحِدَ تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِكُمْ لِقَائِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٦] [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَجَمَلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ [ق: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتعدده وتشعبه منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قال بعض العلماء: الطاغوت؛ الشيطان ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم من أوليائه وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي

سَبِيلَ الطَّاغُوتِ فَقَبِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٨﴾ [النساء]، وقوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر ذلك للشيطان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَكُنَّ عَدُوًّا وَإِن تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُمْ لِيَاسُونَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء]، وقال عن خليله إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْتَنِي لَا تَعْْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ وَإِن أَطَعْتُمْهُمْ لَأَنكُم مَّشْرُوكٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْذِي يَفْعَلُ مَالَهُ رَبُّكَ النَّاسُ﴾. بين أن المراد بالذي: الذين بقوله: ﴿لَا يَدْعُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. لم يبين هنا سبب فقرهم؛ ولكنه بين في سورة الحشر أن سبب فقرهم هو إخراج الكفار لهم من ديارهم وأموالهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾. معنى هذه الآية الكريمة أن من جاءه موعظة من ربه يزجره بها عن أكل الربا فانهى أي: ترك المعاملة بالربا؛ خوفاً من الله تعالى وامتثالاً لأمره: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾؛ أي ما مضى قبل نزول التحريم من أموال الربا ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الله لا يؤاخذ الإنسان بفعل أمر إلا بعد أن يحرمه عليه، وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة فقد قال في الذين كانوا يشربون الخمر، ويأكلون مال الميسر قبل نزول التحريم: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

وقال في الذين كانوا يتزوجون أزواج آبائهم قبل التحريم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي: لكن ما سلف قبل التحريم فلا جناح عليكم فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال في الصيد قبل التحريم: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في الصلاة إلى بيت المقدس قبل نسخ استقباله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل النسخ.

ومن أصرح الأدلة في هذا المعنى أن النبي ﷺ والمسلمين لما استغفروا لقربائهم الموتى من المشركين وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة] وندموا على استغفارهم للمشركين أنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بُيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] فصرح بأنه لا يضلهم بفعل أمر إلا بعد بيان اتقائه.

قوله تعالى: ﴿يَمَحُؤُاَ اللّٰهُ الرِّبَاَ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة بأنه يمحى الربا أي: يذهب بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به كما قاله ابن كثير وغيره، وما ذكر هنا من محق الربا أشار إليه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوَا عِنْدَ اللّٰهِ﴾ [الروم: ٣٩] وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْأُطْيَبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَيْرَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] كما أشار إلى ذلك ابن كثير في تفسير هذه الآية.

واعلم أن الله صرح بتحريم الربا بقوله: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَاَ﴾ وصرح بأن المتعامل بالربا محارب الله بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ^(٢٧٦) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِنَّكُمْ لَفِي رُءُوسِ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(٢٧٧)﴾.

وصرح بأن أكل الربا لا يقوم، أي من قبره يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخطئه الشيطان من المس بقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

واعلم أن الربا منه ما أجمع المسلمون على منعه ولم يخالف فيه أحد وذلك كربا الجاهلية، وهو أن يزيده في الأجل على أن يزيده الآخر في قدر الدين، وربا النساء بين الذهب والذهب، والفضة والفضة، وبين البر والبر، وبين الشعير والشعير، وبين التمر والتمر، وبين الملح والملح، وكذلك بين هذه الأربعة بعضها مع بعض.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى يربي الصدقات وبين في موضع آخر أن هذا الإرباء مضاعفة الأجر، وأنه يشترط في ذلك إخلاص النية لوجه الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَدَّيْنْتُمْ بَيْنِيَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن كتابة الدين واجبة؛ لأن الأمر من الله يدل على الوجوب. ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾؛ لأن الرهن لا يجب إجماعاً وهو بدل من الكتابة عند تعذرهما في الآية فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً. وصرح بعدم الوجوب بقوله: ﴿فَإِن أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِنَ اٰمَنَتُهُ﴾؛ فالتحقيق أن الأمر في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ للنadb والإرشاد؛ لأن لرب الدين أن يهبه ويتركه إجماعاً، فالتدب إلى الكتابة فيه إنما هو على جهة الحيلة للناس قاله القرطبي. وقال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن ائتمنت ففي حل وسعة ابن عطية، وهذا القول هو الصحيح، قاله القرطبي أيضاً.

وقال الشعبي: كانوا يرون أن قوله: ﴿فَإِن أَمِنَ﴾... الآية، ناسخ لأمره بالكتب، وحكى نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروى عن أبي سعيد الخدري وذهب الربيع إلى

أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ثم خففه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ وتمسك جماعة بظاهر الأمر في قوله: ﴿فَاصْتَبُوهُ﴾ فقالوا: كتابة الدين واجب فرض بهذه الآية بيعاً كان أو قرضاً؛ لثلا يقع فيه نسيان أو جحود وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره. وقال ابن جريج: من أدا فليكتب ومن باع فليشهد. اهـ من القرطبي وسيأتي له زيادة بيان إن شاء الله قريباً.

تنبيه: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾. أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر كما قاله مجاهد والضحاك وداود والتحقيق جوازه في الحضر. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير. وفي الصحيحين أنها درع من حديد.

وروى البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس أنه ﷺ رهن درعاً عند يهودي بالمدينة وأخذ منه شعيراً لأهله. ولأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس مثل حديث عائشة فدل الحديث الصحيح على أن قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لا مفهوم مخالفة له؛ لأنه جرى على الأمر الغالب، إذ الغالب أن الكاتب لا يتعذر في الحضر وإنما يتعذر غالباً في السفر، والجري على الغالب من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كما ذكرناه في هذا الكتاب مراراً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. ظاهر هذا الأمر الوجوب أيضاً فيجب على من باع أن يشهد وبهذا قال أبو موسى الأشعري: وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي وابنه أبو بكر وعطاء وإبراهيم قاله القرطبي، وانتصر له ابن جرير الطبري غاية الانتصار وصرح بأن من لم يشهد مخالف لكتاب الله وجمهور العلماء على أن الإشهاد على المبايعه وكتابة الدين أمر مندوب إليه لا واجب، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾... الآية.

وقال ابن العربي المالكي: إن هذا قول الكافة قال: وهو الصحيح ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك قال: وقد باع النبي ﷺ وكتب، قال: ونسخة كتابه بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى العدا بن خالد بن هوزة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبداً أو أمة لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم للمسلم. وقد باع ولم يشهد واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد، ولو كان الإشهاد أمراً واجباً لوجب مع الرهن لخوف المنازعة. اهـ.

قال القرطبي بعد أن ساق كلام ابن العربي هذا ما نصه قلت: قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك وحديث العدا هذا أخرجه الدارقطني وأبو داود وكان إسلامه بعد الفتح وحنين، وهو القائل: قاتلنا رسول الله ﷺ يوم حنين فلم يظهرنا الله ولم ينصرنا. ثم أسلم فحسن إسلامه. ذكره أبو عمر وذكر حديثه هذا.

وقال في آخره: قال الأصمعي: سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال: الإباق والسرقة والزنى وسألته عن الخبثة فقال: بيع أهل عهد المسلمين.

وقال الإمام أبو محمد بن عطية: والوجوب في ذلك قلق، أما في الوثائق فصعب شاق، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستتلاف بترك الإشهاد. وقد يكون عادة في بعض البلاد. وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه فيدخل ذلك كله في الائتمان ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا، وحكى المهدوي والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وأسند النحاس عن أبي سعيد الخدري وأنه تلا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِيَ اؤْتِيَّتْ﴾ قال: نسخت هذه الآية ما قبلها.

قال النحاس: وهذا قول الحسن والحكم وعبد الرحمن بن زيد.

قال القرطبي: وهذا لا معنى له؛ لأن هذا حكم غير الأول وإنما هذا حكم من لم يجد كتاباً.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْرُوضَةً إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: فلم يطالبه برهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِيَ اؤْتِيَّتْ﴾ قال: ولو جاز أن يكون هذا ناسخاً للأول، لجاز أن يكون قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهَنَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣]. ناسخاً لقوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦]. ولجاز أن يكون قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَوَسِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢] ناسخاً لقوله عز وجل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ لم يتبين بآخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد بل وردا معاً، ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معاً جميعاً في حالة واحدة، قال: وقد روي عن ابن عباس أنه قال لما قيل له: إن آية الدين منسوخة قال: لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ، قال: والإشهاد إنما جعل للطمأنينة وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقاً منها الكتاب ومنها الرهن ومنها الإشهاد ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق النذب لا بطريق الوجوب فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد، وما زال الناس يتبايعون حضراً وسفراً وبراً وبحراً وسهلاً وجبلاً من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير. ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركة، قلت: هذا كله استدلال حسن وأحسن منه ما جاء من صريح السنة في ترك الإشهاد وهو ما أخرجه الدارقطني عن طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه قال: أقبلنا في ركب من الريزة وجنوب الريزة حتى نزلنا قريباً من المدينة ومعنا طعينة لنا، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الريزة وجنوب الريزة قال: ومعنا

جمل أحمر فقال: تبيعونني جملكم هذا؟ فقلنا: نعم قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: فما استوضعنا شيئاً وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا فتلاومنا بيننا وقلنا: أعطيتكم جملكم من لا تعرفونه، فقالت الطعينة: لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم. ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه فلما كان العشاء أتانا رجل، فقال: السلام عليكم أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا. وذكر الحديث الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، ... الحديث. وفيه فططق الأعرابي يقول: هلم شاهداً يشهد أنني بعثك قال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك بعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: بم تشهد؟ قال: بتصديقك يا رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. أخرجه النسائي وغيره. اهـ من القرطبي بلفظه.

قال مقيد - عفا الله عنه -: وفيما نقلنا الدلالة الواضحة على أن الإشهاد والكتابة مندوب إليهما لا فرضان واجبان كما قاله ابن جرير وغيره، ولم يبين الله تعالى في هذه الآية أعني: قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ اشتراط العدالة في الشهود ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذُوَى عَدْلِ مَنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢٢]. وقد تقرر في الأصول أن المطلق يحمل على المقيد كما بيناه في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

لم يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا؟ وأشار إلى أنه أجابه بقوله في الخطأ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥] الآية. وأشار إلى أنه أجابه في النسيان بقوله: ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإنه ظاهر في أنه قبل الذكرى لا إثم عليه في ذلك ولا يقدح في هذا أن آية ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنعام: ٦٨] مكية، وآية ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾ مدنية؛ إذ لا مانع من بيان المدني بالمكي كعكسه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله تعالى نعم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

لم يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا؟ ولم يبين الإصر الذي كان محمولاً على من قبلنا، وبين أنه أجاب دعاءهم هذا في مواضع آخر كقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾. إلى غير ذلك من الآيات. وأشار إلى بعض الإصر الذي حمل على من

قبلنا بقوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ لأن اشتراط النفس في قبول التوبة من أعظم الإصر، والإصر الثقل في التكليف ومنه قول النابغة.

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

يحتمل أن المراد بالتأويل في هذه الآية الكريمة التفسير وإدراك المعنى، ويحتمل أن المراد به حقيقة أمره التي يؤول إليها وقد قدمنا في مقدمة هذا الكتاب أن من أنواع البيان التي ذكرناها فيه أن كون أحد الاحتمالين هو الغالب في القرآن. يبين أن ذلك الاحتمال الغالب هو المراد؛ لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر التي يؤول إليها كقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]... الآية. وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ [يونس: ٣٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] إلى غير ذلك من الآيات. قال ابن جرير الطبري: وأصل التأويل من آل الشيء إلى كذا إذا صار إليه ورجع يؤول أو لا، وأولته أنا صيرته إليه، وقال: وقد أشد بعض الرواة بيت الأعشى:

على أنها كانت تأول حبها تأول رباعي السقاب فأصحابا

قال: ويعني بقوله: تأول حبها مصير حبها، ومرجعه وإنما يريد بذلك أن حبها كان صغيراً في قلبه فآل من الصغر إلى العظم، فلم يزل ينبت حتى أصبح فصار قديماً كالسقب الصغير الذي لم يزل يشب حتى أصبح، فصار كبيراً مثل أمه. قال وقد ينشد هذا البيت:

على أنها كانت توابع حبها توالى رباعي السقاب فأصحابا

وعليه فلا شاهد فيه، والرباعي: السقب. الذي ولد في أول التاج ومعنى أصبح انقاد لكل من يقوده، ومنه قول امرئ القيس:

ولست بلذي رثية إمر إذا قيد مستكرها أصحابا

والرثية: وجع المفاصل. والإمر: بكسر الهمزة وتشديد الميم مفتوحة بعدها راء هو الذي ياتمر لكل أحد؛ لضعفه وأشد بيت الأعشى المذكور الأزهري وصاحب اللسان:

ولكنها كانت نوى أجنبية توالى رباعي السقاب فأصحابا

وأطالا في شرحه وعليه فلا شاهد فيه أيضاً.

تنبيه: اعلم أن التأويل يطلق ثلاثة إطلاقات:

الأول: هو ما ذكرنا من أنه الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهذا هو معناه في القرآن.

الثاني: يراد به التفسير والبيان، ومنه بهذا المعنى قوله ﷺ في ابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقول ابن جرير وغيره من العلماء، القول في تأويل قوله تعالى: كذا وكذا أي: تفسيره وبيانه. وقول عائشة الثابت في الصحيح: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن تعني يمثله ويعمل به. والله تعالى أعلم.

الثالث: هو معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين، وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك، وحاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدل على ذلك، وهذا هو التأويل المسمى عندهم بالتأويل الصحيح، والتأويل القريب كقوله ﷺ الثابت في الصحيح: «الجار أحق بصقبه» فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفعة للجار، وحمل الجار في هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق وضربت الحدود، فلا شفعة.

الحالة الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلاً وليس بدليل في نفس الأمر، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد، والتأويل البعيد، ومثل له الشافعية، والمالكية، والحنابلة بحمل الإمام أبي حنيفة رحمه الله المرأة في قوله ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، باطل» على المكاتب، والصغيرة، وحمله أيضاً ﷺ المسكين في قوله: ﴿سِتِينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] على المد، فأجاز إعطاء ستين مداً لمسكين واحد.

الحالة الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلاً، وهذا يسمى في اصطلاح الأصوليين لعباً، كقول بعض الشيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] يعني عائشة رضي الله عنها، وأشار في (مراقي السعود) إلى حد التأويل، وبيان الأقسام الثلاثة بقوله معرفاً للتأويل:

واقسمه للفاسد والصحيح
مع قوة الدليل عند المستدل
وما خلا فلعبا يفيد

حمل لظاهر على المرجوح
صحيحه وهو القريب ما حمل
وغيره الفاسد والبعيد

إلى أن قال:

عليه لائح سمات البعد

فجعل مسكين بمعنى المد

كحمل مرأة على الصغيرة وما ينافي الحرة الكبيرة
وحمل ما ورد في الصيام على القضاء مع الالتزام

أما التأويل في اصطلاح خليل بن إسحاق المالكي الخاص به في مختصره، فهو عبارة عن اختلاف شروح المدونة في المراد عند مالك رحمته الله وأشار له في (المراقي) بقوله:
والخلف في فهم الكتاب صير إياه تأويلاً لدى المختصر
والكتاب في اصطلاح فقهاء المالكية المدونة.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾... الآية. لا يخفى أن هذه الواو محتملة للاستئناف فيكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ، وخبره يقولون، وعليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده، والوقف على هذا تام على لفظة الجلالة ومحتملة لأن تكون عاطفة، فيكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ معطوفاً على لفظ الجلالة، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم أيضاً، وفي الآية إشارات تدل على أن الواو استئنافية لا عاطفة، قال ابن قدامة: في روضة الناظر ما نصه: ولأن في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه متفرد بعلم المتشابه، وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو أما المعنى فلأنه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً؛ ولأن قولهم آمنا به، يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه لا سيما إذا تبعوه بقولهم: كل من عند ربنا، فذكرهم ربهم هاهنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنه صدر من عنده، كما جاء من عنده المحكم؛ ولأن لفظة أما لتفصيل الجمل فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إياهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة، وهم الراسخون. ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرناه. اهـ من الروضة بلفظه.

ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة، دلالة الاستفراء في القرآن أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبت لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله: ﴿لَا يَحِيطُ بِقَوْلِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. فالمطابق لذلك أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ معناه: أنه لا يعلمه إلا هو وحده كما قاله الخطابي وقال: لو كانت الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ للنسق لم يكن لقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ فائدة والقول بأن الوقف تام على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وأن قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء، للأدلة القرآنية التي ذكرنا.

وممن قال بذلك عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز،

وابن مسعود، وأبي بن كعب، نقله عنهم القرطبي وغيره، ونقله ابن جرير، عن يونس، عن أشهب، عن مالك بن أنس، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد.

وقال أبو نهيك الأسدي: إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم آمنا به كل من عند ربنا، والقول بأن الواو عاطفة مروي أيضاً عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد وغيرهم. وممن انتصر لهذا القول وأطال فيه ابن فورك ونظير الآية في احتمال الاستئناف والعطف قول الشاعر:

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة
فيحتمل أن يكون والبرق مبتدأ والخبر يلمع كالتأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله، ويحتمل أن يكون معطوفاً على الريح، ويلمع في موضع الحال على التأويل الثاني أي: لامعاً.

واحتج القائلون بأن الواو عاطفة بأن الله - سبحانه وتعالى - مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحهم بذلك وهم جهال.

قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمرو: هذا القول هو الصحيح فإن تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع. انتهى منه بلفظه.

قال مقبده - عفا الله عنه -: يجب عن كلام شيخ القرطبي المذكور بأن رسوخهم في العلم هو السبب الذي جعلهم ينتهون حيث انتهى علمهم، ويقولون فيما لم يقفوا على علم حقيقته من كلام الله - جلّ وعلا -: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ بخلاف غير الراسخين فإنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهذا ظاهر.

وممن قال بأن الواو عاطفة الزمخشري في تفسيره الكشاف. والله تعالى أعلم ونسبة العلم إليه أسلم.

وقال بعض العلماء: والتحقيق في هذا المقام أن الذين قالوا هي عاطفة، جعلوا معنى التأويل التفسير وفهم المعنى كما قال النبي ﷺ: «اللهم علمه التأويل» أي التفسير وفهم معاني القرآن، والراسخون يفهمون ما خوطبوا به وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه. والذين قالوا: هي استئنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يؤول إليه الأمر وذلك لا يعلمه إلا الله، وهو تفصيل جيد ولكنه يشكل عليه أمران: الأول قول ابن عباس رضي الله عنهما: التفسير على أربعة أنحاء: تفسير: لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير: لا يعلمه إلا الله. فهذا تصريح من ابن عباس أن هذا الذي لا يعلمه إلا الله بمعنى التفسير لا ما تؤول إليه حقيقة الأمر.

وقوله هذا ينافي التفصيل المذكور. الثاني: أن الحروف المقطعة في أوائل السور

لا يعلم المراد بها إلا الله إذ لم يقم دليل على شيء معين أنه هو المراد بها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا لغة العرب. فالجزم بأن معناها كذا على التعيين تحكم بلا دليل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وذكر أنهم وقود النار أي: حطبها الذي تتقد فيه، ولم يبين هنا هل فيه لذلك تكذيب لدعواهم أن أموالهم وأولادهم تنفعهم، وبين في مواضع آخر أنهم ادعوا ذلك ظناً منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأن الآخرة كاللدينا يستحقون فيها ذلك أيضاً فكذبهم في آيات كثيرة فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [سبا] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا وقوله: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَكِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] قياساً منه للآخرة على الدنيا. ورد الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: ٣٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح في موضع آخر أن كونهم وقود النار المذكور هنا على سبيل الخلود وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾. لم يبين هنا من هؤلاء الذين من قبلهم وما ذنوبهم التي أخذهم الله بها.

وبين في مواضع آخر أن منهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب، وأن ذنوبهم التي أخذهم بها هي الكفر بالله وتكذيب الرسل وغير ذلك من المعاصي، كعقر ثمود للناقة وكلوا قوم لوط، وكتطيف قوم شعيب للمكيال والميزان، وغير ذلك كما جاء مفصلاً في آيات كثيرة كقوله في نوح وقومه: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم هود: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم لوط:

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات وكفوله في قوم شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أن وقعة بدر آية؛ أي علامة على صحة دين الإسلام إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة القوية التي لم تتمسك به.

وصرح في موضع آخر أن وقعة بدر بينة؛ أي لا لبس في الحق معها وذلك في قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وصرح أيضاً بأن وقعة بدر فرقان فارق بين الحق والباطل وهو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدًا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾. لم يبين هنا كم يدخل تحت لفظ الأنعام من الأصناف.

ولكنه قد بين في مواضع آخر أنها ثمانية أصناف هي الجمل، والناقة، والثور، والبقرة، والكبش، والنعجة، والتميس، والعنز، كفوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. ثم بين الأنعام بقوله: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ وَمِنَ الْغَنَاءِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] يعني الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ الْعَمَزِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] يعني: التيس والعنز إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] يعني: الجمل والناقة ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] الثور والبقرة وهذه الثمانية هي المرادة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] وهي المشار إليها بقوله: ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ الآية [الشورى: ١١].

تنبيه: ربما أطلقت العرب لفظ النعم على خصوص الإبل، ومنه قوله ﷺ: «من حمر النعم» يعني: الإبل وقول حسان ﷺ:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء
أي: إبل وشاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

صرح تعالى: في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبة - جلّ وعلا - ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسوله ﷺ هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّقِ اللَّهَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَاطَنٌ لَّهُ إِنَّكَ عَلَىٰ عَيْنِ رَبِّكَ تُنْظَرُ﴾ [الحشر: ٧].

تنبيه: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله ﷺ هي اتباعه ﷺ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان محباً له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ومنه قول الشاعر:

لو كان صادقاً لأطعته
وقول ابن أبي ربيعة المخزومي:

ومن لو نهاني من حبه
وقد أجاد من قال:

قالت: وقد سألت عن حال عاشقها
فقلت: لو كان رهن الموت من ظمأ

وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد
قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

لم يبين هنا القدر الذي بلغ من الكبر، ولكنه بين في سورة مريم أنه بلغ من الكبر عتياً. وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] والعتي: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر. وقال ابن جرير في تفسيره: وكل مثناه إلى غايته في كبر أو فساد أو كفر فهو عات وعاس.

قوله تعالى عن زكريا: ﴿وَأَمْرَأَىٰ عَاقِرٌ﴾ لم يبين هنا هل كانت كذلك أيام شبابها، ولكنه بين في سورة مريم أنها كانت كذلك قبل كبرها بقوله عنه: ﴿وَكَانَتْ أَمْرَأَىٰ عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥].
قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾.

لم يبين هل المانع له من كلام الناس بكم طراً له، أو آفة تمنعه من ذلك. أو لا مانع له إلا الله وهو صحيح لا علة له. ولكنه بين في سورة مريم، أنه لا بأس عليه، وأن انتفاء التكلم عنه لا لبكم، ولا مرض وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]؛ لأن قوله سويّاً حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض، أي يتعذر عليك تكليمهم ولا تطبيقه، في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح، ما بك شائبة بكم ولا خرس، وهذا ما عليه الجمهور، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَابْتَغِ الْوَعْدَ﴾. وعن ابن عباس: أن سويّاً عائد إلى الليالي. أي: كاملات مستويات، فيكون صفة الثلاث، وعليه فلا بيان بهذه الآية لآية آل عمران.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِيرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾.

لم يبين هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنها هي السبب في وجوده من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بين في موضع آخر. أنها لفظة كن وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ وقيل: الكلمة بشارة الملائكة لها بأنها ستلده واختاره ابن جرير، والأول قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾.

لم يبين هنا ما كلمهم به في المهد. ولكنه بينه في سورة مريم بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ

إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنْ عِبَدَ اللَّهُ مَا تَلْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٣﴾ [مريم].
 قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾.

أشار في هذه الآية إلى قصة حملها بعيسى وبسطها مبينة في سورة مريم بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦، ١٧]. إلى آخر القصة وبين النفخ فيها في سورة التحريم والأنبياء، معبراً في التحريم بالنفخ في فرجها، وفي الأنبياء بالنفخ فيها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾. لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الخواريين مع عيسى. ولكنه بين في سورة الصف، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد ﷺ في نصرته الله ودينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾. لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله، وذلك في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وبين أن مكره بهم إلقاءه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾... الآية [النساء: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. قال: بعض العلماء أي: منجيك ورافعك إلي؛ أي في تلك النومة ويستأنس لهذا التفسير بالآيات التي جاء فيها إطلاق الوفاة على النوم كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ الآية [الانعام: ٦٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. لم يبين هنا ما وجه حاجتهم في إبراهيم، ولكنه بين في موضع آخر أن حاجتهم في إبراهيم هي قول اليهود: أنه يهودي، والنصارى إنه نصراني وذلك في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَتَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾. قال بعض العلماء: يعني إذا أخرجوا التوبة إلى حضور الموت فتابوا حينئذ، وهذا التفسير يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ﴾

الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴿١٨﴾ [النساء: ١٨]. وقد تقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لن يوفقوا للتوبة حتى تقبل منهم ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّهُمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]. [النساء: ١٣٧] فعدم غفرانه لهم لعدم هدايتهم السبيل الذي يغفر لصاحبه ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِدَاءٌ يُدْعَى بِهِ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة، أن الكفار يوم القيامة لا يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به. وصرح في مواضع أخر أنه لو زيد بمثله لا يقبل منه أيضاً كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]. وبين في مواضع أخر أنه لا يقبل فداء في ذلك اليوم منهم بتاتاً كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] والعدل الفداء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. صرح في هذه الآية، أنه غني عن خلقه، وأن كفر من كفر منهم لا يضره شيئاً، وبين هذا المعنى في مواضع متعددة، كقوله عن نبيه موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَفِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات، فالله تبارك وتعالى يأمر الخلق وينهاهم؛ لا لأنه تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٧].

وثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»... الحديث.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يدل على أن من لم يحج كافر والله غني عنه.

وفي المراد بقوله: ومن كفر أوجه للعلماء.

الأول: أن المراد بقوله ومن كفر أي: ومن جحد فريضة الحج، فقد كفر والله غني عنه، وبه قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد قاله ابن كثير. ويدل لهذا الوجه ما روي عن عكرمة ومجاهد من أنهما قالاً لما نزلت ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون. فقال النبي ﷺ: «إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَفِيرٌ﴾.

الوجه الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] أي: ومن لم يحج على سبيل التغليظ البالغ في الزجر عن ترك الحج مع الاستطاعة كقوله للمقداد الثابت في الصحيحين حين سأله عن قتل من أسلم من الكفار بعد أن قطع يده في الحرب: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلة قبل أن تقتله، وإنك بمنزلة قبل أن يقول الكلمة التي قال».

الوجه الثالث: حمل الآية على ظاهرها وأن من لم يحج مع الاستطاعة فقد كفر. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ملك زاداً وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهودياً أو نصرانياً؛ وذلك بأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَفِيرٌ﴾».

روى هذا الحديث الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما نقله عنهم ابن كثير وهو حديث ضعيف ضعفه غير واحد بأن في إسناده هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي، وهلال هذا.

قال الترمذي: مجهول، وقال البخاري: منكر الحديث، وفي إسناده أيضاً الحارث الذي رواه عن علي عليه السلام.

وقال الترمذي: إنه يضعف في الحديث. وقال ابن عدي: هذا الحديث ليس بمحفوظ، اهـ بالمعنى من ابن كثير.

وقال ابن حجر: في الكافي الشاف، في تخريج أحاديث الكشاف. في هذا الحديث أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي، حدثنا أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي رفعه: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». وقال: غريب وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يضعف، وأخرجه البزار من هذا الوجه، وقال: لا نعلمه عن علي إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن عدي، والعقيلي في ترجمة هلال، ونقلاً عن البخاري أنه منكر الحديث.

وقال البيهقي في الشعب: تفرد به هلال وله شاهد من حديث أبي أمامة، أخرجه الدارمي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة، أو سلطان جائر، أو مرض حابس، فمات فليمت إن شاء يهودياً، أو إن شاء نصرانياً» أخرجه من رواية شريك، عن ليث بن

أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط عنه، ومن هذا الوجه أخرج البيهقي في الشعب، وأخرجه ابن أبي شيبة، عن أبي الأحوص، عن ليث، عن عبد الرحمن مرسلًا لم يذكر أبا أمامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدي، وابن عدي أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزوم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. ونقل عن القلاس أنه كذب أبا المهزوم، وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه؛ لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيها من اتهم بالكذب.

وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أطاق الحج فلم يحج فسواء مات يهودياً أو نصرانياً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

أكثر العلماء على أنها منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال بعضهم: هي مينة للمراد منها فقوله حق تقاته. أي: بقدر الطاقة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. لم يبين هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنه بين في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمراً عظيماً حتى لو أنفق ما في الأرض كله؛ لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يقد ذلك شيئاً وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٦] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [١٧] [الأنفال].

قوله تعالى: ﴿وَسَوِّدْ وَجُوهٌ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْظِلُّهَا وَرَزَقَتُهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ عَالٍ مِنْ عَالٍ فَأَغْشَيْنَا وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور وهو قوله تعالى: ﴿وَرُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا قَدَرَةٌ ۖ أَثَلَتْهُمُ الْكُفْرُ الْفَجْرَةُ﴾ [عبس: ٤١].

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة، وهو الكفر بالله تعالى، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وأقبح صورة أن تكون الوجوه سوداً والعيون زرقاً، ألا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخيل في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقه العيون، واسوداد الوجوه في قوله:

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

ذكر هنا من صفات هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب أنها قائمة. أي: مستقيمة على الحق وأنها تتلو آيات الله آناء الليل وتصلي وتؤمن بالله وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وذكر في موضع آخر أنها تتلو الكتاب حق تلاوته وتؤمن بالله وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وذكر في موضع آخر أنهم يؤمنون بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم وأنهم خاشعون لله لا يشتركون بآياته ثمناً قليلاً. وهو قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. وذكر في موضع آخر أنهم يفرحون بإنزال القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. وذكر في موضع آخر أنهم يعلمون أن إنزال القرآن من الله حق، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٤]. وذكر في موضع آخر أنهم إذا تلى عليهم القرآن خروا لأذقانهم سجداً وسبحوا ربهم وبكوا، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّادًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [١٨] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [١٩] [الإسراء: ١٠٨]. وقال في بكائهم عند سماعه أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. وذكر في موضع آخر أن هذه الطائفة من أهل الكتاب، تؤتى أجرها مرتين وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥١] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [٥٢] وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [٥٣] أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [٥٤] [القصص: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

يعني: وتؤمنون بالكتب كلها كما يدل له قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥] وقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا عَرْشَهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. يعني عرضها كعرض السموات والأرض كما بينه قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وآية آل عمران هذه تبين أن المراد بالسماوات في آية الحديد جنسها الصادق بجميع السموات كما هو ظاهر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. المراد بالقرح الذي مس المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد من القتل والجراح، كما أشار له تعالى في هذه السورة الكريمة في مواضع متعددة كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُوتُمْ﴾ [١٢٤] وقوله: ﴿وَيَخِذْ مِنْكُمْ شَهِدًا﴾ الآية وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ

الَّذِينَكَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿١٠﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ نُفِذُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ﴾ ونحو ذلك من الآيات .

وأما المراد بالقرح الذي مس القوم المشركين فيحتمل أنه هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وعليه فالإشارة بقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَنَزَلْنَا بِاللَّيْلِ مَائِدًا سَالَتْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغَبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال]. ويحتمل أيضاً أنه هزيمة المشركين أولاً يوم أحد كما سيأتي قريباً - إن شاء الله تعالى -، وقد أشار إلى القرحين معاً بقوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا﴾ فالمراد بمصيبة المسلمين القرح الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار بمثليها قبل القرح الذي مسهم يوم بدر؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون.

وهذا قول الجمهور، وذكر بعض العلماء أن المصيبة التي أصابت المشركين هي ما أصابهم يوم أحد من قتل وهزيمة، حيث قتل حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون في أول الأمر هزيمة منكرة وبقي لواءهم ساقطاً حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية وفي ذلك يقول حسان:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وعلى هذا الوجه: فالقرح الذي أصاب القوم المشركين يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾... الآية. ومعنى تحسونهم: تقتلونهم وتستأصلونهم، وأصله من الحس الذي هو الإدراك بالحاسة فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل ومنه قول جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في أجم الحصيد

وقول الآخر:

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقول رؤية:

إذا شكونا سنة حسوسا تأكل بعد الأخضر اليبيسا

يعني بالسنة الحسوس: السنة المجدبة التي تأكل كل شيء، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن الآية قد يكون فيها احتمالان وكل منهما يشهد له قرآن، وكلاهما حق فنذكرهما معاً، وما يشهد لكل واحد منهما.

قال بعض العلماء: وقرينة السياق تدل على أن القرع الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم أحد؛ لأن الكلام في وقعة أحد ولكن التثنية في قوله: مثلها تدل على أن

القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر؛ لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثل ما أصيب به المسلمون، ولا حجة في قوله: ﴿تَحْسُونَهُمْ﴾؛ لأن ذلك الحس والاستئصال في خصوص الذين قتلوا من المشركين، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد، كما هو معلوم.

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الأفراد في قوله: ﴿قَرِحَ وَثَلُهُ﴾ وبين التثنية في قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ فالجواب - والله تعالى أعلم - أن المراد بالتثنية: قتل سبعين وأسر سبعين يوم بدر، في مقابلة سبعين يوم أحد، كما عليه جمهور العلماء.

والمراد بإفراد المثل: تشبيه القرع بالقرح في مطلق النكاية والألم، والقراءتان السبعيتان في قوله: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرِحٌ﴾ بفتح القاف وضمها في الحرفين معناهما واحد فهما لغتان كالضعف والضعف.

وقال الفراء: القرع بالفتح: الجرح، وبالضم ألمه. اهـ. ومن إطلاق العرب القرع على الجرح قول متمم بن نويرة التيمي:

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئ قرع الفؤاد فيجعا

قوله تعالى: ﴿أَمَرَ حَسْبَتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاهِرِينَ﴾. أنكر الله في هذه الآية. على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه، وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿أَمَرَ حَسْبَتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿أَمَرَ حَسْبَتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا تَصْمَلُونَ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَبْقُوا وَأَنْ يَقُولُوا أَمْسَا وَهُمْ لَا يُفْشِنُونَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿لَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة يأكل منها رغداً حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور، وأرغد عيش. كما قال له ربه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [البقرة]، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى [طه] ولو تناسلنا فيها لكننا في أرغد عيش وأتم نعمة، ولكن إبليس - عليه لعائن الله - احتال بمكره وخداعه على أبويننا حتى أخرجهما من الجنة، إلى دار الشقاء والتعب. وحيث أن حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكليف. فعلى العاقل منا - معاصر بني آدم - أن يتصور الواقع ويعمل، أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال العلامة ابن القيم تغمد الله برحمته:

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم
ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب
أعيننا دائماً.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

هذه الآية الكريمة على قراءة من قرأ ﴿قَاتَلَ﴾ بالبناء للمفعول يحتمل نائب الفاعل فيها أن يكون لفظة ربيون وعليه فليس في قتل ضمير أصلاً، ويحتمل أن يكون نائب الفاعل ضميراً عائداً إلى النبي، وعليه فمعه خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به اعتماده على الظرف قبله ووصفه بما بعده والجملة حالية والرباط الضمير وسوغ إتيان الحال من النكرة التي هي نبي وصفه بالقتل ظلماً، وهذا هو أجود الأعراب المذكورة في الآية على هذا القول، وبهذين الاحتمالين في نائب الفاعل المذكور يظهر أن في الآية إجمالاً. والآيات القرآنية مبينة أن النبي المقاتل غير مغلوب بل هو غالب كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. وقال قبل هذا: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠] وقال بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقوله: ﴿اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ الرُّومُ ۚ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ﴾ [الروم: ١-٤]، وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا سَفَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وبين تعالى أن المقتول ليس بغالب بل هو قسم مقابل للغالب بقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤] فاتضح من هذه الآيات أن القتلى ليس واقعاً على النبي المقاتل؛ لأن الله كتب وقضى له في أزاله أنه غالب، وصرح بأن المقتول غير غالب.

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين، غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميعهم، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا منهم بالقتال في سبيل الله؛ لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا مغلوب؛ لأنه لم يغلب في شيء وتصريحه تعالى بأنه كتب أن رسله غالبون شامل لغلبتهم بالسيف، كما بينا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن، وشامل أيضاً لغلبتهم بالحجة والبيان، فهو مبين أن نصر الرسل المذكور في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغُسَيْنِ﴾ [٧١] إِنَّهُمْ هُمُ الْمُغْصُورُونَ [٧٢] [الصفات] أنه نصر غلبة بالسيف والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد؛ لأن الغلبة التي بين أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر؛ لأنها نصر خاص، والغلبة لغة القهر، والنصر لغة إعانة المظلوم، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص.

وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير رحمته الله ومن تبعه في تفسير قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ﴾ ... الآية [غافر: ٥١]. من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور بالجهاد، وأن نصره المنصوص في الآية، حيثئذ يحمل على أحد أمرين:

أحدهما: أن الله ينصره بعد الموت، بأن يسلط على من قتله من ينتقم منه، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكريا وشعيا من تسليط بختنصر عليهم، ونحو ذلك.

ثانيهما: حمل الرسل في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] على خصوص نبينا ﷺ وحده، أنه لا يجوز حمل القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: أنه خروج بكتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل من كتاب، ولا سنة ولا إجماع، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جداً، غير معروف في لسان العرب، فحمل القرآن عليه بلا دليل غلط ظاهر، وكذلك حمل الرسل على نبينا وحده ﷺ فهو بعيد جداً أيضاً، والآيات الدالة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة، لا نزاع فيها.

ثانيهما: أن الله لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر الذي هو في اللغة إعانة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ... الآية [المجادلة: ٢١]، وقد رأيت معنى الغلبة في القرآن ومر عليك أن الله جعل المقتول قسماً مقابلاً للغالب في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، وصرح تعالى: بأن ما وعد به رسله لا يمكن تبديله بقوله - جل وعلا -: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ صَبَرُوا وَلَا يُدِيلُ لِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]. ولا شك أن قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] من كلماته التي صرح بأنها لا تبدل لها وقد نفى - جل وعلا -: عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيّاً باتاً بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ الآية [المجادلة: ٢١]. أن بعض الناس قال: أيظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم، وفارس، كما غلبوا العرب زاعماً أن الروم وفارس لا يغلبهم النبي ﷺ لكثرتهم وقوتهم فأنزل الله الآية، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والستان؛ لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها، ويدل له قوله قبله: ﴿أَوَلَيْكَ فِي الْأَدْنَىٰ﴾ [المجادلة: ٥٨] وقوله بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب، أننا نستشهد للبيان بالقراءة السبعية بقراءة شاذة، فيشهد للبيان الذي بينا به، أن نائب الفاعل ربيون، وأن بعض القراء غير السبعة قرأ قتل معه ربيون بالتشديد؛ لأن التأكيد المدلول عليه بالتشديد يقتضي أن القتل واقع على الربيين.

ولهذه القراءة رجح الزمخشري، والبيضاوي، وابن جني أن نائب الفاعل ربيون،

ومال إلى ذلك الألوسي في تفسيره مبيناً أن دعوى كون التشديد لا ينافي وقوع القتل على النبي؛ لأن كآين إخبار بعدد كثير أي: كثير من أفراد النبي قتل خلاف الظاهر، وهو كما قال، فإن قيل قد عرفنا أن نائب الفاعل المذكور محتمل لأمرين، وقد ادعيتم أن القرآن دل على أنه ربيون لا ضمير النبي لتصريحه بأن الرسل غالبون، والمقتول غير غالب، ونحن نقول: دل القرآن في آيات أخر، على أن نائب الفاعل ضمير النبي، لتصريحه في آيات كثيرة بقتل بعض الرسل كقوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] وقوله: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَاسِينَتِ وَيَآلَذَى قُلْتُمْ فَيَقْتُلْتُمُوهُمْ﴾، فما وجه ترجيح ما استدللتم به على أن النائب ربيون، على ما استدللنا به على أن النائب ضمير النبي فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ما استدللنا به أخص مما استدللتم به، والأخص مقدم على الأعم، ولا يتعارض عام وخاص، كما تقرر في الأصول، وإيضاحه أن دليلنا في خصوص نبي أمر بالمبالغة في شيء، فنحن نجزم بأنه غالب فيه تصديقاً لرنا في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] سواء أكانت تلك المغالبة في الحججة والبيان، أم بالسيف والسنان، ودليلكم فيما هو أعم من هذا؛ لأن الآيات التي دلت على قتل بعض الرسل، لم تدل على أنه في خصوص جهاد، بل ظاهرها أنه في غير جهاد، كما يوضحه.

الوجه الثاني: وهو أن جميع الآيات الدالة على أن بعض الرسل قتلهم أعداء الله، كلها في قتل بني إسرائيل أنبياءهم، في غير جهاد، ومقاتله إلا موضع النزاع وحده.

الوجه الثالث: أن ما رجحناه من أن نائب الفاعل ربيون، تتفق عليه آيات القرآن اتفاقاً واضحاً، لا لبس فيه على مقتضى اللسان العربي في أفصح لغاته، ولم تتصادم منه آيتان، حيث حملنا الرسول المقتول على الذي لم يؤمر بالجهاد، فقتله إذن لا إشكال فيه، ولا يؤدي إلى معارضة آية واحدة من كتاب الله؛ لأن الله حكم للرسل بالغلبة، والغلبة لا تكون إلا مع مغالبة، وهذا لم يؤمر بالمغالبة في شيء، ولو أمر بها في شيء لغلب فيه، ولو قلنا بأن نائب الفاعل ضمير النبي لصار المعنى أن كثيراً من الأنبياء المقاتلين قتلوا في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة (وكأين) المميزة بقوله: من نبي، وقتل الأعداء هذا العدد الكثير من الأنبياء المقاتلين في ميدان الحرب مناقض مناقضة صريحة لقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقد عرفت معنى الغلبة في القرآن، وعرفت أنه تعالى، بين أن المقتول غير الغالب، كما تقدم، وهذا الكتاب العزيز ما أنزل ليضرب بعضه بعضاً، ولكن أنزل ليصدق بعضه بعضاً، فاتضح أن القرآن دل دلالة واضحة على أن نائب الفاعل ربيون، وأنه لم يقتل رسول في جهاد، كما جزم به الحسن البصري وسعيد بن جبير، والزجاج، والفراء، وغير واحد، وقصدنا في هذا الكتاب البيان بالقرآن، لا بأقوال العلماء؛ ولذا لم ننقل أقوال من رجع ما ذكرنا.

وما رجح به بعض العلماء كون نائب الفاعل ضمير النبي من أن سبب النزول يدل على ذلك؛ لأن سبب نزولها أن الصائح صاح قتل محمد ﷺ وأن قوله: ﴿أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ يدل على ذلك وأن قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدل على أن الربين لم يقتلوا لأنهم لو قتلوا لما قال عنهم: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾... الآية. فهو كلام كله ساقط وترجيحات لا معول عليها، فالترجيح بسبب النزول فيه أن سبب النزول لو كان يقتضي تعيين ذكر قتل النبي لكانت قراءة الجمهور قاتل بصيغة الماضي من المفاعلة جارية على خلاف المتعين وهو ظاهر السقوط. كما ترى والترجيح بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ ظاهر السقوط؛ لأنهما معلقان بأداة الشرط والمعلق بها لا يدل على وقوع نسبة أصلاً لا إيجاباً ولا سلباً حتى يرجح بها غيرها.

وإذا نظرنا إلى الواقع في نفس الأمر وجدنا نبهم ﷺ في ذلك الوقت لم يقتل ولم يمت والترجيح بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ سقوطه كالشمس في رابعة النهار، وأعظم دليل قطعي على سقوطه قراءة حمزة والكسائي ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْحَسَدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوهُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] كل الأفعال من القتل لا من القتال وهذه القراءة السبعة المتواترة فيها. فإن قتلوكم بلا ألف بعد القاف فعل ماض من القتل فاقتلوهم أفتقولون هذا لا يصح لأن المقتول لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله. بل المعنى قتلوا بعضكم وهو معنى مشهور في اللغة العربية يقولون: قتلونا وقتلناهم يعنون وقوع القتل على البعض كما لا يخفى. وقد أشرنا إلى هذا البيان في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا مَأْوَاهُمْ وَمَا قُتِلُوا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا، ولم يبين هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليشطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] ولكنه بين في آيات أخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو وليشطوهم كقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]. وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْلِغَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المقتول في الجهاد والميت كلاهما ينال مغفرة من الله ورحمة خيراً له مما يجمعه من حطام الدنيا وأوضح وجه ذلك في آية أخرى بين فيها أن الله اشترى منه حياة قصيرة فانية منغصة بالمصائب والآلام بحياة أبدية لذيدة لا تنقطع ولا يتأذى صاحبها بشيء واشترى منه مالاً قليلاً فانياً بملك لا ينفد ولا ينقضي أبداً وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ

الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ أَلَيْسَ بِاللَّهِ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتُمْ رِجَالًا مَعًا وَمُلُكًا كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [الإنسان] وبين في آية أخرى أن فضل الله ورحمته خير مما يجمعه أهل الدنيا من حطامها، وزاد فيها الأمر بالفرح بفضل الله ورحمته دون حطام الدنيا وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس] وتقديم المعمول يؤذن بالحصص أعني قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] أي: دون غيره فلا يفرحوا بحطام الدنيا الذي يجمعونه. قال تعالى: ﴿لَنْ نَقْصُرَهُمْ فِي هَبْلِهِمْ وَلَيُنْزِلُنَّ عَلَيْكُمُ الْمَنَّانُ ﴿١٦١﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية.

قد قدمنا في سورة الفاتحة في الكلام على قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] أن الجموع المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة العقلاء من الذكور إذا وردت في كتاب الله تعالى أو سنة نبيه ﷺ تختلف العلماء فيها هل يدخل فيها النساء أو لا يدخلن؟ إلا بدليل على دخولهن. وبذلك تعلم أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يحتمل دخول النساء فيه وعدم دخولهن بناء على الاختلاف المذكور ولكنه تعالى بين في موضع آخر أنهم داخلات في جملة من أمر ﷺ بالاستغفار لهم وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية أن من اتبع رضوان الله ليس كمن باء بسخط منه؛ لأن همزة الإنكار بمعنى النفي ولم يذكر هنا صفة من اتبع رضوان الله، ولكن أشار إلى بعضها في موضع آخر وهو قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٦٢﴾﴾ فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فَفَضَّلَ لَهُمْ يَسَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ دُرُّ فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٣﴾﴾.

وأشار إلى بعض صفات من باء بسخط من الله بقوله: ﴿كَرِهُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٦٣] يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [المائدة] ويقول هنا: ﴿وَمَنْ يَفْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن ما أصاب المسلمين يوم أحد إنما جاءهم من قبل أنفسهم، ولم يبين تفصيل ذلك هنا، ولكنه فضله في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ اللَّهِ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾. وهذا هو الظاهر في معنى الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن.

وأما على القول الآخر فلا بيان بالآية، وهو أن معنى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أنهم خيروا يوم بدر بين قتل أسارى بدر، وبين أسرهم وأخذ الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل قدر الأسارى، فاختاروا الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل سبعون قدر أسارى بدر، كما رواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، وعقده أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

والمسلمون خيروا بين الفدا وقدرهم في قابل يستشهدا
وبين قتلهم فمالوا للفا لأنه على القتال عضدا
وأنه أدى إلى الشهادة وهي قصارى الفوز والسعادة

ونظمه هذا للمغازي جل اعتماده فيه على عيون الأثر لابن سيد الناس اليعمري، قال في مقدمته:

أرجوزة على عيون الأثر جل اعتماد نظمها في السير
وذكر شارحه أن الألف في قوله: يستشهدا مبدلة من نون التوكيد الخفيفة وأنها في البيت كقوله:

ربما أوفيت في علم ترفعن ثوبي شمالات
وعلى هذا القول: فالمعنى قل هو من عند أنفسكم حيث اخترتم الفداء واستشهدا قدر الأسارى منكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾. نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن ظن الموت بالشهداء، وصرح بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولم يبين هنا هل حياتهم هذه في البرزخ يدرك أهل الدنيا حقيقتها أو لا؟ ولكنه بين في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة] لأن نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من باب أولى كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الآية.

قال جماعة من العلماء: المراد بالناس القائلين: إن الناس قد جمعوا لكم، نعيم بن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة. كما أخرجه ابن مردويه من حديث أبي رافع ويدل لهذا توحيد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية.

قال صاحب الإتقان: قال الفارسي: ومما يقوي أن المراد به واحد قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ فوقعت الإشارة بقوله: ذلكم إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى جمعا لقال: إنما أولئك الشيطان. فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ. اه منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه يثلي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب، وبين في موضع آخر: أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال إلا بعد أن يبتليهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ١٧٩﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَاءُنا الضَّرَّةَ وَالسَّرَّةَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ١٨١﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَاسُنَا فَضَرَّعُوا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً إِذَا هُمْ مُتْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وبين في موضع آخر: أن ذلك الاستدراج من كيد المتين، وهو قوله: ﴿سَتَلِدْهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف].

وبين في موضع آخر: أن الكفار يغترون بذلك الاستدراج فيظنون أنه من المسارعة لهم في الخيرات، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيراً من ذلك الذي أوتوه في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ١٨٤﴾ شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨٥﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ١٨٦﴾ [مریم: ٧٧]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [سبا: ٣٥]. كما تقدم، والبأساء: الفقر والفاقة، والضراء: المرض على قول الجمهور، وهما مصدران مؤنثان لفظاً بألف التأنيث الممدودة.

قوله تعالى: ﴿لَتَنَلَوَنَّكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٨٧﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم، وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم إن صبروا على ذلك البلاء والأذى واتقوا الله، فإن صبرهم وتقاهم من عزم الأمور؛ أي من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها.

وقد بين في موضع آخر أن من جملة هذا البلاء: الخوف والجوع وأن البلاء في الأنفس والأموال هو النقص فيها، وأوضح فيه نتيجة الصبر المشار إليها هنا بقوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالتَّامِرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٨٨﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٨٩﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٩٠﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغاب: ١١].

ويدخل في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ الصبر عند الصدمة الأولى، بل فسره بخصوص ذلك بعض العلماء، ويدل على دخوله فيه قوله قبله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وبين في موضع آخر: أن خصلة الصبر لا يعطاها إلا صاحب حظ عظيم وبخت كبير، وهو قوله: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت].

وبين في موضع آخر: أن جزاء الصبر لا حساب له، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَبَنَدُكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ذكر في هذه الآية: أن من جملة ما يقوله أولوا الألباب: تنزيه ربهم عن كونه خلق السموات والأرض باطلاً، لا لحكمة سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وصرح في موضع آخر: بأن الذين يظنون ذلك هم الكفار، وهددهم على ذلك الظن السيئ بالويل من النار، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾. لم يبين هنا ما عنده للأبرار، ولكنه بين في موضع آخر أنه النعيم، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الإنفطار]. وبين في موضع آخر أن من جملة ذلك النعيم: الشرب من كأس ممزوجة بالكافور، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّسَاءِ

قوله تعالى: ﴿وَأَتَاوُاْ الْيَتَامَىْ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية.

أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإيتاء اليتامى أموالهم، ولم يشترط هنا في ذلك شرطاً، ولكنه بين بعد هذا أن هذا الإيتاء المأمور به مشروط بشرطين:

الأول: بلوغ اليتامى.

والثاني: إيناس الرشد منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتِلُواْ الْيَتَامَىْ حَقَّهُ إِذَا بَلَغُواْ الْنِكَاحَ فَإِنْ مَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْهُمْ رُّشَدًا فَأَدِّفُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وتسميتهم يتامى في الموضعين، إنما باعتبار يتهم الذي كانوا متصرفين به قبل البلوغ، إذ لا يتم بعد البلوغ إجماعاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ﴾ [الأعراف] يعني اللذين كانوا مسحوقين، إذ لا سحر مع السجود لله.

لم يبين هنا حكمة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث مع أنهما سواء في القرابة. ولكنه أشار إلى ذلك في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]؛ لأن القائم على غيره المنفق ماله عليه مترقب للنقص دائماً، والمقوم عليه المنفق عليه المال مترقب للزيادة دائماً، والحكمة في إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة جبراً لنقصة المترقب ظاهرة جداً.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن البنات إن كن ثلاثاً فصاعداً، فلهن الثلثان وقوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يوهم أن الاثنتين ليستا كذلك، وصرح بأن الواحدة لها النصف، ويفهم منه أن الاثنتين ليستا كذلك أيضاً، وعليه ففي دلالة الآية على قدر ميراث البنتين إجمال.

وقد أشار تعالى: في موضعين إلى أن هذا الظرف لا مفهوم مخالفته له، وأن للبنتين الثلثين أيضاً:

الأول: قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، إذ الذكر يرث مع الواحدة الثلثين بلا نزاع، فلا بد أن يكون للبنتين الثلثان في صورة، وإلا لم يكن للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن الثلثين ليسا بحظ لهما أصلاً، لكن تلك الصورة ليست صورة الاجتماع، إذ ما من صورة يجتمع فيها الابتان مع الذكر ويكون لهما الثلثان، فتعين أن تكون صورة انفردتهما عن الذكر. واعتراض بعضهم هذا الاستدلال بلزوم الدور قائلاً: إن معرفة أن للذكر الثلثين في الصورة المذكورة تتوقف على معرفة حظ الأنثيين؛ لأنه ما علم من الآية أن للذكر مثل حظ الأنثيين فلو كانت معرفة حظ الأنثيين مستخرجة من حظ الذكر لزم الدور ساقط؛ لأن المستخرج هو الحظ المعين للأنثيين وهو الثلثان، والذي يتوقف عليه معرفة حظ الذكر هو معرفة حظ الأنثيين مطلقاً، فلا دور لانفكاك الجهة، واعتراضه بعضهم أيضاً بأن للابن مع البنتين النصف، فيدل على أن فرضهما النصف، ويؤيد الأول أن البنتين لهما استحقاقاً مع الذكر النصف علم أنهما إن انفردتا عنه، استحققتا أكثر من ذلك؛ لأن الواحدة إذا انفردت أخذت النصف، بعدما كانت معه تأخذ الثلث، ويزيده إيضاحاً أن البنت تأخذ مع الابن الذكر الثلث بلا نزاع، فلأن تأخذه مع الابنة الأنثى أولى. فبهذا يظهر أنه - جلّ وعلا -، أشار إلى ميراث البنتين بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ كما بينا، ثم ذكر حكم الجماعة من البنات، وحكم الواحدة منهن بقوله: ﴿إِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ ومما يزيده إيضاحاً، أنه تعالى فرعه عليه بالفاء في قوله: ﴿إِنْ كُنْ﴾؛ إذ لو لم يكن فيما قبله ما يدل على سهم الإناث لم تقع الفاء موقعها كما هو ظاهرهما.

الموضع الثاني: هو قوله تعالى في الأخنتين: ﴿وَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ لأن البنت أمسّ رحماً، وأقوى سبباً في الميراث من الأخت بلا نزاع. فإذا صرح تعالى: بأن للأختين الثلثين، علم أن البنتين كذلك من باب أولى، وأكثر العلماء على أن فحوى الخطاب، أعني: مفهوم الموافقة الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق، من قبيل دلالة اللفظ لا من قبيل القياس، خلافاً للشافعي وقوم، كما علم في الأصول فالح تبارك وتعالى لما بين أن للأختين الثلثين، أفهم بذلك أن البنتين كذلك من باب أولى. وكذلك لما صرح أنه لما زاد على الاثنتين من البنات الثلثين فقط، ولم يذكر حكم ما زاد على الاثنتين من الأخوات، أفهم أيضاً من باب أولى أنه ليس لما زاد من الأخوات غير الثلثين؛ لأنه لما لم يعط للبنات علم أنه لا تستحقه الأخوات، فالمسكوت عنه في الأمرين أولى بالحكم من المنطوق به، وهو دليل على أنه قصد أخذه منه، ويزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وابن ماجه، عن جابر رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد، وإن عمهما أخذ مالهما، ولم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال ﷺ: «يقضي الله تعالى، في ذلك». فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «اعط ابنتي سعد الثلثين، واعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

وما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه، من أنه قال: للبنتين النصف؛ لأن الله تعالى، قال: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فصرح بأن الثلثين إنما هما لما فوق الاثنتين فيه أمور، الأول: أنه مردود بمثله؛ لأن الله قال أيضاً: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فصرح بأن النصف للواحدة جاعلاً كونها واحدة شرطاً معلقاً عليه فرض النصف.

وقد تقرر في الأصول أن المفاهيم إذا تعارضت قدم الأقوى منها، ومعلوم أن مفهوم الشرط أقوى من مفهوم الظرف؛ لأن مفهوم الشرط لم يقدم عليه من المفاهيم، إلا ما قال فيه بعض العلماء: إنه منطوق لا مفهوم وهو النفي والإثبات، وإنما من صيغ الحصر والغاية، وغير هذا يقدم عليه مفهوم الشرط قال في (مراقي السعود) مبيناً مراتب مفهوم المخالفة:

أعلاه لا يرشد إلا العلما	فما لمنطوق بضعف انتمى
فالشرط فالوصف الذي يناسب	فمطلق الوصف الذي يقارب
فعدد ثمة تقديم يلي	وهو حجة على النهج الجلي

وقال صاحب جمع الجوامع ما نصه: مسألة الغاية قيل: منطوق والحق مفهوم يتلوه الشرط، فالصفة المناسبة، فمطلق الصفة غير العدد، فالعدد، فتقديم المعمول... إلخ، وبهذا تعلم أن مفهوم الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أقوى من مفهوم الظرف في قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ الثاني: دلالة الآيات المتقدمة على

أن للبنتين الثلثين، الثالث: تصريح النبي ﷺ بذلك في حديث جابر المذكور آنفاً.
الرابع: أنه روي عن ابن عباس الرجوع عن ذلك.

قال الألوسي في تفسيره ما نصه: وفي شرح البيهقي نقلاً عن الشريف شمس الدين الأرموني أنه قال في شرح فرائض الوسيط: صح رجوع ابن عباس ﷺ عن ذلك فصار إجماعاً. اهـ. منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾. المراد في هذه الآية بالإخوة الذين يأخذ المنفرد منهم السدس وعند التعدد يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم، سواء إخوة الأم بدليل بيانه تعالى أن الأخوة من الأب أشقاء أو لا، يرث الواحد منهم كل المال، وعند اجتماعهم يرثون المال كله للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقال في المنفرد منهم: وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، وقال في جماعتهم: وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين. وقد أجمع العلماء على أن هؤلاء الإخوة هم الإخوة من الأب، كانوا أشقاء أو لأب. كما أجمعوا على أن قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الآية. أنها في إخوة الأم وقراً سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم. والتحقيق أن المراد بالكلالة عدم الأصول والفروع كما قال النباظم:

ويسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة
لا والد يبقى ولا مولود فانقطع الأبناء والجدود

وهذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأكثر الصحابة وهو الحق - إن شاء الله تعالى - .
واعلم أن الكلالة تطلق على القرابة من غير جهة الولد والوالد، وعلى الميت الذي لم يخلف والدًا ولا ولدًا، وعلى الوارث الذي ليس بوالد ولا ولد. وعلى المال الموروث ممن ليس بوالد ولا ولد، إلا أنه استعمال غير شائع واختلف في اشتقاق الكلالة.

واختار كثير من العلماء أن أصلها من تكالها إذا أحاط به، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، والكل لإحاطته بالعدد؛ لأن الورثة فيها محيطة بالميت من جوانبه لا من أصله ولا فرعه.

وقال بعض العلماء: أصلها من الكلال بمعنى الإعياء؛ لأن الكلالة أضعف من قرابة الآباء والأبناء.

وقال بعض العلماء: أصلها من الكل بمعنى الظهر وعليه فهي ما تركه الميت وراء ظهره، واختلف في إعراب قوله: كلاله. فقال بعض العلماء: هي حال من نائب فاعل يورث على حذف مضاف؛ أي يورث في حال كونه ذا كلاله أي قرابة غير الآباء والأبناء، واختاره الزجاج وهو الأظهر، وقيل: هي مفعول له؛ أي يورث لأجل الكلالة أي القرابة، وقيل: هي خبر كان، ويورث صفة لرجل، أي: كان رجل موروث ذا كلاله ليس بوالد ولا ولد، وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحُوا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا﴾. لم يبين هنا هل جعل لهن سبيلاً أو لا؟ ولكنه بين في مواضع آخر أنه جعل لهن السبيل بالحد كقوله في البكر: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ الآية [النور: ٢٢]. وقوله في الثيب (الشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) لأن هذه الآية باقية الحكم كما صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه وإن كانت منسوخة التلاوة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن حكم الرجم مأخوذ أيضاً من آية أخرى محكمة غير منسوخة التلاوة وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَفْسًا مِّنَ الْكِتَابِ يُكُونُونَ إِلَىٰ كُتُبِ اللَّهِ لِيُنْجِزَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٢٣]؛ فإنها نزلت في اليهودي واليهودي للذين زنيا وهما محصنان ورجمهما النبي ﷺ، فذمه تعالى في هذا الكتاب للمعرض عما في التوراة من رجم الزاني المحصن، دليل قرآني واضح على بقاء حكم الرجم، ويوضح ما ذكرنا من أنه تعالى جعل لهن السبيل بالحد قوله ﷺ الثابت في الصحيح: «خذوا عني: قد جعل الله لهن سبيلاً».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية. نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نكاح المرأة التي نكحها الأب، ولم يبين ما المراد بنكاح الأب هل هو العقد أو الوطاء، ولكنه بين في موضع آخر أن اسم النكاح يطلق على العقد وحده، وإن لم يحصل مسيس وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فصرح بأنه نكاح وأنه لا مسيس فيه.

وقد أجمع العلماء على أن من عقد عليها الأب حرمت على ابنه وإن لم يمسهما الأب، وكذلك عقد الابن محرم على الأب إجماعاً، وإن لم يمسهما وقد أطلق تعالى النكاح في آية أخرى مريداً به الجماع بعد العقد، وذلك في قوله: ﴿إِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُلُ لَهِ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]؛ لأن المراد بالنكاح هنا ليس مجرد العقد، بل لا بد معه من الوطاء كما قال ﷺ لامرأة رفاعة القرظي: «لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» يعني الجماع ولا عبرة بما يروى من المخالفة عن سعيد بن المسيب؛ لوضوح النص الصريح الصحيح في عين المسألة. ومن هنا قال بعض العلماء: لفظ النكاح مشترك بين العقد والجماع، وقال بعضهم: هو حقيقة في الجماع مجاز في العقد؛ لأنه سببه وقال بعضهم بالعكس.

تنبيه: قال بعض العلماء: إن لفظة (ما) من قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ مصدرية وعليه فقوله: من النساء متعلق بقوله: ﴿تُنكِحُوا﴾ لا بقوله نكح، وتقرير المعنى على هذا القول ولا تنكحوا من النساء نكاح آبائكم أي: لا تفعلوا ما كان يفعله آبائكم من النكاح الفاسد، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، والذي يظهر وجزم به غير واحد من المحققين أن ما موصولة واقعة على النساء التي نكحها الآباء، كقوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقد قدمنا وجه ذلك؛ لأنهم كانوا ينكحون نساء آبائهم

كما يدل له سبب النزول، فقد نقل ابن كثير عن أبي حاتم أن سبب نزولها أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته، فاستأذنت رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: ارجعي إلى بيتك فتزلي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.

قال مقيده - عفا الله عنه -: نكاح زوجات الآباء كان معروفاً عند العرب، وممن فعل ذلك أبو قيس بن الأسلت المذكور، فقد تزوج أم عبيد الله وكانت تحت الأسلت أبيه، وتزوج الأسود بن خلف ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت تحت أبيه خلف، وتزوج صفوان بن أمية فاخته ابنة الأسود بن المطلب بن أسد. وكانت تحت أبيه أمية، كما نقله ابن جرير عن عكرمة قائلًا: إنه سبب نزول الآية، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه بعده فولدت له مسافراً وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكانوا إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامها، وتزوج منظور بن زبان بن سيار الفزاري زوجة أبيه مليكة بنت خارجة، كما نقله القرطبي وغيره ومليكة هذه هي التي قال فيها منظور المذكور بعد أن فسخ نكاحها منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألا لا أبأ لي اليوم ما فعل الدهر إذا منعت مني مليكة والخمر
فإن تك قد أمست بعيداً مزارها فحي ابنة المري ما طلع الفجر

وأشار إلى تزويج منظور هذا زوجة أبيه ناظم عمود النسب، بقوله في ذكر مشاهير فزارة.

منظور الناكح مقتاً وحلف خمسين ما له على منع وقف

وقوله: وحلف... إلخ. قال شارحه: إن معناه أن عمر بن الخطاب حلفه خمسين يميناً بعد العصر في المسجد أنه لم يبلغه نسخ ما كان عليه أهل الجاهلية من نكاح أزواج الآباء، وذكر السهيلي وغيره أن كنانة بن خزيمة تزوج زوجة أبيه خزيمة فولدت له النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح» فدل على أن ذلك كان سائغاً لهم.

قال ابن كثير: وفيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، وأشار إلى تضعيف ما ذكره السهيلي ناظم عمود النسب بقوله:

وهند بنت مر أم حارثه شخيصه وأم عنز ثالثه
برة أختها عليها خلفا كنانة خزيمة وضعفا
أختها عاتكة ونسلها عذرة التي الهوى يقتلها

وذكر شارحه أن الذي ضعف ذلك هو السهيلي نفسه، خلافاً لظاهر كلام ابن كثير ومعنى الأبيات أن هند بنت مر أخت تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس هي أم ثلاثة من أولاد وائل بن قاسط وهم الحارث وشخيص وعنز، وأن أختها برة بنت مر كانت زوجة خزيمة بن مدركة، فتزوجها بعد ابنه كنانة، وأن ذلك مضعف، وأن أختها عاتكة بنت مر هي أم عذرة أبي القبيلة المشهورة بأن الهوى يقتلها، وقد كان من

مختلفات العرب في الجاهلية إرث الأقارب أزواج أقاربهم، كان الرجل منهم إذا مات وألقى ابنه أو أخوه مثلاً ثوباً على زوجته ورثها وصار أحق بها من نفسها، إن شاء نكحها بلا مهر وإن شاء أنكحها غيره وأخذ مهرها، وإن شاء عضلها حتى تفتدي منه، إلى أن نهاهم الله عن ذلك بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا... الآية. وأشار إلى هذا ناظم عمود النسب بقوله:

القول فيما اختلفوا واخترقوا ولم يقدر إليه إلا النزق

ثم شرع يعدد مختلفاتهم إلى أن قال:

وأن من ألقى زوج أبيه ونحوه بعد الثوى ثوباً يريه
أولى بها من نفسها إن شاء نكح أو أنكح أو أساء
بالعضل كي يرثها أو تفتدي ومهرها في النكحتين للردى

وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أن الاستثناء منقطع، أي لكن ما مضى من ارتكاب هذا الفعل قبل التحريم فهو معفو عنه كما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ الآية. يفهم منهن أن حليلة دعيه الذي تبناه لا تحرم عليه، وهذا المفهوم صرح به تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نِسَاءَ وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِئِنْ لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَتِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠].

أما تحريم منكوحة الابن من الرضاع فهو مأخوذ من دليل خارج وهو تصريحه ﷺ بأنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

اعلم أولاً أن لفظ المحصنات أطلق في القرآن ثلاث إطلاقات:

الأول: المحصنات العفاف. ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفَّحَاتٍ﴾ أي عفاف غير زانيات.

الثاني: المحصنات الحرائر. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَلَيْتِهِنَّ نِصْفٌ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي على الإماء نصف ما على الحرائر من الجلد.

الثالث: أن يراد بالإحصان التزوج. ومنه على التحقيق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِمَحْشَرَةٍ﴾. أي: فإذا تزوجن. وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ الإسلام بخلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: والأظهر والله أعلم أن المراد

بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷺ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّتِكُمْ﴾ والله أعلم. والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ أي تزوجن كما فسرهن ابن عباس وغيره. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ - أوجه من التفسير هي أقوال للعلماء، والقرآن يفهم منه ترجيح واحد معين منها.

قال بعض العلماء: المراد بالمحصنات هنا أعم من العفاف والحرائر والمتزوجات، أي حرمت عليكم جميع النساء إلا ما ملكت أيمانكم بعقد صحيح أو ملك شرعي بالرق، فمعنى الآية على هذا القول تحريم النساء كلهن إلا بنكاح صحيح أو تسر شرعي، وإلى هذا القول ذهب سعيد بن جبير وعطاء والسدي، وحكي عن بعض الصحابة واختاره مالك في الموطأ.

وقال بعض العلماء: المراد بالمحصنات في الآية الحرائر، وعليه فالمعنى وحرمت عليكم الحرائر غير الأربع، وأحل لكم ما ملكت أيمانكم من الإماء، وعليه فلا استثناء منقطع.

وقال بعض العلماء: المراد بالمحصنات: المتزوجات، وعليه فمعنى الآية وحرمت عليكم المتزوجات؛ لأن ذات الزوج لا تحل لغيره إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من الكفار، فإن السبي يرفع حكم الزوجية الأولى في الكفر، وهذا القول هو الصحيح، وهو الذي يدل القرآن لصحته؛ لأن القول الأول فيه حمل ملك اليمين على ما يشمل ملك النكاح، وملك اليمين لم يرد في القرآن إلا بمعنى الملك بالرق، كقوله: ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّتِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وقوله: ﴿وَالضَّاحِبِ بِالْجَنِبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] في الموضوعين، فجعل ملك اليمين قسماً آخر غير الزوجية. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣] فهذه الآيات تدل على أن المراد بما ملكت أيمانكم الإماء دون المنكوحات كما هو ظاهر، وكذلك الوجه الثاني غير ظاهر؛ لأن المعنى عليه: وحرمت عليكم الحرائر إلا ما ملكت أيمانكم، وهذا خلاف الظاهر من معنى لفظ الآية كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. يعني: كما أنكم تستمتعون بالمنكوحات فأعطوهن مهرهن في مقابلة ذلك، وهذا المعنى تدل له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فإفضاء بعضهم إلى بعض المصرح بأنه سبب لاستحقاق الصداق كاملاً، هو بعينه الاستمتاع المذكور هنا في

قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ... الآية. وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقِهِنَّ فِتْلَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. فالآية في عقد النكاح، لا في نكاح المتعة كما قال به من لا يعلم معناها، فإن قيل التعبير بلفظ الأجور يدل على أن المقصود الأجرة في نكاح المتعة؛ لأن الصداق لا يسمى أجراً، فالجواب أن القرآن جاء فيه تسمية الصداق أجراً في موضع لا نزاع فيه؛ لأن الصداق لما كان في مقابلة الاستمتاع بالزوجة كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ صار له شبه قوي بأثمان المنافع فسمي أجراً، وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن بلا نزاع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]؛ أي مهورهن فاتضح أن الآية في النكاح لا في نكاح المتعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الأمة لا يجوز نكاحها، ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة بدليل قوله: ﴿مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فمفهوم مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] فإن المراد بالمحصنات فيها الحرائر على أحد الأقوال، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن ولو كن كتابيات، وخالف الإمام أبو حنيفة رحمته الله فأجاز نكاح الأمة الكافرة، وأجاز نكاح الإماء لمن عنده طول ينكح به الحرائر؛ لأنه لا يعتبر مفهوم المخالفة كما عرف في أصوله - رحمته الله.

أما وطء الأمة الكافرة بملك اليمين، فإنها إن كانت كتابية فجمهور العلماء على إباحة وطئها بالملك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]. ولجواز نكاح حرائرهم فيحل التسري بالإماء منهم. وأما إن كانت الأمة المملوكة له مجوسية أو عابدة وثن ممن لا يحل نكاح حرائرهم فجمهور العلماء على منع وطئها بملك اليمين.

قال ابن عبد البر: وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، وما خالفه فهو شذوذ لا يعد خلافاً، ولم يبلغنا إباحة ذلك إلا عن طاوس.

قال مقيد - عفا الله عنه -: الذي يظهر من جهة الدليل - والله تعالى أعلم -، جواز وطء الأمة بملك اليمين وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية؛ لأن أكثر السبايا في عصره رحمته الله من كفار العرب وهم عبدة أوثان، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن ولو كان حراماً لبيته، بل قال صلى الله عليه وسلم: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة» ولم يقل حتى يسلمن ولو كان ذلك شرطاً لقاله، وقد أخذ الصحابة سبايا فارس وهن مجوس، ولم ينقل أنهم اجتنبوهن حتى أسلمن.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَقَلَّيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾. لم يبين هنا هذا العذاب الذي على المحصنات - وهن الحرائر - الذي نصفه على الإماء، ولكنه بين في موضع آخر أنه جلد مائة بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ﴾ [النور: ٦] فيعلم منه أن على الأمة الزانية خمسين جلدة، ويلحق بها العبد الزاني فيجلد خمسين، فعموم الزانية مخصوص بنص قوله تعالى: ﴿فَقَلَّيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ وعموم الزاني مخصوص بالقياس على المنصوص؛ لأنه لا فارق البتة بين الحرة والأمة إلا الرق، فعلم أنه سبب تشطير الجلد فأجري في العبد لاتصافه بالرق الذي هو مناط تشطير الجلد، وهذه الآية عند الأصوليين من أمثلة تخصيص عموم النص بالقياس، بناء على أن نوع تنقيح المناط المعروف بالغاء الفارق يسمى قياساً، والخلاف في كونه قياساً معروف في الأصول. أما الرجم فمعلوم أنه لا يتشطر، فلم يدخل في المراد بالآية.

تنبيه: قد علمت مما تقدم أن التحقيق في معنى أحصن أن المراد به تزوجن، وذلك هو معناه على كلتا القراءتين قراءته بالبناء للفاعل والمفعول، خلافاً لما اختاره ابن جرير من أن معنى قراءة أحصن - بفتح الهمزة والصاد مبنياً للفاعل - أسلمن، وأن معنى أحصن - بضم الهمزة وكسر الصاد مبنياً للمفعول - زوجن، وعليه فيفهم من مفهوم الشرط في قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾، أن الأمة التي لم تتزوج لا حدَّ عليها إذا زنت؛ لأنه تعالى علق حدها في الآية بالإحصان، وتمسك بمفهوم هذه الآية ابن عباس، وطاوس، وعطاء، وابن جريج، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي في رواية فقالوا: لا حد على مملوكة حتى تتزوج، والجواب عن هذا - والله أعلم - أن مفهوم هذه الآية فيه إجمال وقد بينته السنة الصحيحة، وإيضاحه أن تعليق جلد الخمسين المذكور في الآية على إحصان الأمة، يفهم منه أن الأمة التي لم تحصن ليست كذلك فقط، فيحتمل أنها لا تجلد ويحتمل أنها تجلد أكثر من ذلك أو أقل أو ترجم إلى غير ذلك من الاحتمالات، ولكن السنة الصحيحة دلت على أن غير المحصنة من الإماء كذلك، لا فرق بينها وبين المحصنة، والحكمة في التعبير بخصوص المحصنة دفع توهم أنها ترجم كالحررة، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالوا: سئل النبي ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، قال: «إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها ثم يبعوها ولو بضمير». قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة، أو الرابعة، وحمل الجلد في الحديث على التأديب غير ظاهر، لاسيما وفي بعض الروايات التصريح بالحد، فمفهوم هذه الآية هو بعينه الذي سئل عنه النبي ﷺ، وأجاب فيه بالأمر بالجلد في هذا الحديث المتفق عليه، والظاهر أن السائل ما سألته إلا لأنه أشكل عليه مفهوم هذه الآية، فالحديث نص في محل النزاع، ولو كان جلد غير المحصنة أكثر أو أقل من جلد المحصنة لبيته ﷺ.

وبهذا تعلم أن الأقوال المخالفة لهذا لا يعول عليها، كقول ابن عباس ومن وافقه المتقدم أنفأ، وكالقول بأن غير المحصنة تجلد مائة، وهو المشهور عن داود بن علي الظاهري، ولا يخفى بعده وكالقول بأن الأمة المحصنة ترجم وغير المحصنة تجلد خمسين، وهو قول أبي ثور، ولا يخفى شدة بعده. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهُ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن النشوز قد يحصل من النساء، ولم يبين هل يحصل من الرجال نشوز أو لا؟ ولكنه بين في موضع آخر أن النشوز أيضاً قد يحصل من الرجال، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾. وأصل النشوز في اللغة الارتفاع، فالمرأة الناشز كأنها ترتفع عن المكان الذي يضاجعها فيه زوجها، وهو في اصطلاح الفقهاء الخروج عن طاعة الزوج، وكأن نشوز الرجل ارتفاعه أيضاً عن المحل الذي فيه الزوجة وتركه مضاجعتها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾. لم يبين في هذه الآية الكريمة أقل ما تضاعف به الحسنة، ولا أكثره، ولكنه بين في موضع آخر أن أقل ما تضاعف به عشر أمثالها، وهو قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وبين في موضع آخر أن المضاعفة ربما بلغت سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، وهو قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الْأَرْضِ﴾. الآية.

على القراءات الثلاث معناه أنهم يتمنون أن يستولوا بالأرض، فيكونوا تراباً مثلها على أظهر الأقوال، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَذِيثًا﴾.

بين في موضع آخر أن عدم الكتم المذكور هنا، إنما هو باعتبار إخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فلا يتنافى قوله: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَذِيثًا﴾ مع قوله عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله عنهم أيضاً: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وقوله عنهم: ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤] للبيان الذي ذكرنا والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. بين تعالى في هذه الآية زوال السكر بأنه هو أن يثوب للسكران عقله، حتى يعلم معنى الكلام الذي يصدر منه بقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا

النَّسِيلِ ﴿٤٤﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب مع اشتراطهم الضلالة يريدون إضلال المسلمين أيضاً.

وذكر في موضع آخر أنهم كثير، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد، وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين، وإنما يقع منهم - أعني المتمنين الضلال للمسلمين - وهو قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَلَغْنَهُمْ كَمَا لَعَنَّاهُ أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

لم يبين هنا كيفية لعنة لأصحاب السبت، ولكنه بين في غير هذا الموضع أن لعنة لهم هو مسحهم قردة ومن مسحه الله قرداً غضباً عليه فهو ملعون بلا شك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا هُوَ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف]. والاستدلال على مغايرة اللعن للمسح بعطفه عليه في قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠] لا يفيد أكثر من مغايرته للمسح في تلك الآية، كما قاله الألوسي في تفسيره وهو ظاهر، وللعنة في اللغة: الطرد والإبعاد، والرجل الذي طرده قومه وأبعدوه لجناياته تقول له العرب: رجل لعين، ومنه قول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وفي اصطلاح الشرع: اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعلوم أن المسخ من أكبر أنواع الطرد والإبعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٥﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لا يغفر الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء، وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً. وذكر في مواضع أخرى أن محل كونه لا يغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك، فإن تاب غفر له كقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وما عطف عليه؛ لأن معنى الكل جمع في قوله: ﴿وَمَن يَقْعِلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق، وهو قوله في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

يُشْرِكْ بِهِ وَيَقْعِرُ مَا دُونَكَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾. وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ومأواه النار بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].

وذكر في موضع آخر أن المشرك لا يرجى له خلاص، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١] وصرح في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١] وقد صرح عنه ﷺ أن معنى بظلم بشرك.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أنكر تعالى عليهم في هذه الآية تزكيتهم أنفسهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ ويقولوه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٥﴾﴾ وصرح بالنهي العام عن تزكية النفس وأخرى نفس الكافر التي هي أخس شيء وأنجسه بقوله: ﴿هُوَ أَفْسَدُ بِكْرٍ إِذْ أُنْشِئُوا مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أُنْشِئَتْ آجِنَةٌ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. ولم يبين هنا كيفية تزكيتهم أنفسهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَذَلْنَاهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. وصف في هذه الآية الكريمة ظل الجنة بأنه ظليل، ووصفه في آية أخرى بأنه دائم، وهي قوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ووصفه في آية أخرى بأنه ممدود وهي قوله: ﴿وَبِظِلِّ تَمْدُدٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الواقعة: ٣٠]. وبين في موضع آخر أنها ظلال متعددة وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَغُيُوبٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١]. وذكر في موضع آخر أنهم في تلك الظلال متكئون مع أزواجهم على الأرائك وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، والأرائك: جمع أريكة وهي السرير في الحجلة؛ والحجلة بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة، وبين أن ظل أهل النار ليس كذلك بقوله: ﴿أَطْلُقُوا إِلَيَّ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦]، وأطلقوا: أطلقوا. لا ظليل ولا يغني عن اللهيب ﴿٣١﴾ [المرسلات: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ النَّعَالِ مَا أَصْحَابُ النَّعَالِ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١]، ولا بارد ولا كبري ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.

أمر الله في هذه الآية الكريمة، بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد للتنازع في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لأنه تعالى قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ؛ وأوضح هذا المأمور به هنا بقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] الآية، ويفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موبخاً للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مبيناً أن الشيطان أضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ١٠، وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومفهوم الشرط أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى. وهو كذلك، ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الإيمان؛ لأن الإيمان بالله هو العروة الوثقى، والإيمان بالطاغوت يستحيل اجتماعه مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر بالطاغوت شرط في الإيمان بالله أو ركن منه، كما هو صريح قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ ... الآية [البقرة: ٢٥٦].

تنبيه: استدل منكرو القياس بهذه الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنُزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ قُدْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، على بطلان القياس قالوا: لأنه تعالى أوجب الرد إلى خصوص الكتاب والسنة دون القياس، وأجاب الجمهور بأنه لا دليل لهم في الآية؛ لأن إلحاق غير المنصوص بالمنصوص لوجود معنى النص فيه لا يخرج عن الرد إلى الكتاب والسنة، بل قال بعضهم: الآية متضمنة لجميع الأدلة الشرعية، فالمراد بإطاعة الله العمل بالكتاب وإطاعة الرسول العمل بالسنة، وبالرد إليهما القياس؛ لأن رد المختلف فيه غير المعلوم من النص إلى المنصوص عليه، إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه، وليس القياس شيئاً وراء ذلك. وقد علم من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنُزَعْنَهُمْ﴾ أنه عند عدم النزاع يعلم بالمتفق عليه، وهو الإجماع قاله الألوسي في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ١١. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول ﷺ يصدون عن ذلك صدوداً؛ أي يعرضون إعراضاً. وذكر في موضع آخر أنهم إذا دعوا إليه ﷺ ليستغفر لهم لووا رؤوسهم، وصدوا واستكبروا، وهو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٢ [المنافقون].

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ١٣. أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله ﷺ في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً ويسلمه تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وبين في آية أخرى

أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والانتقياد التام ظاهراً وباطناً لما حكم به ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية [النور: ٥١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا سمعوا بأن المسلمين أصابتهم مصيبة؛ أي من قتل الأعداء لهم، أو جراح أصابتهم، أو نحو ذلك يقولون: إن عدم حضورهم معهم من نعم الله عليهم.

وذكر في مواضع آخر أنهم يفرحون بالسوء الذي أصاب المسلمين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُضِغْكُمْ سَيِّئُهُ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أن المنافقين إذا سمعوا أن المسلمين أصابهم فضل من الله، أي: نصر وظفر وغنيمة، تمنوا أن يكونوا معهم ليفوزوا بسهامهم من الغنيمة. وذكر في موضع آخر أن ذلك الفضل الذي يصيب المؤمنين يسوءهم لشدة عداوتهم الباطنة لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْأَلْهُمْ حَسَنَةً سَأَلُوكَ خَسَنَةً﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ سَأَلُوكَ خَسَنَةً﴾ [التوبة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه سوف يؤتي المجاهد في سبيله أجراً عظيماً سواء أقتل في سبيل الله، أم غلب عدوه، وظفر به. وبين في موضع آخر أن كلتا الحالتين حسنى، وهو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا آلًا إِنْ أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] والحسنى صيغة تفضيل؛ لأنها تأنيث الأحسن.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يصرح هنا بالذي يحرض عليه المؤمنين، ما هو، وصرح في موضع آخر بأنه القتال، وهو قوله: ﴿حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وأشار إلى ذلك هنا بقوله في أول الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أنكر تعالى في هذه الآية الكريمة على من أراد أن يهدي من أضله الله، وصرح فيها بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلى هداه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ويؤخذ من هذه الآيات أن العبد

وعلى هذا التفسير الذي دل له القرآن، فشرط الخوف في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معتبر أي: وإن لم تخافوا منهم أن يفتنوكم فلا تقصروا من كيفيتها، بل صلوا على أكمل الهيئات، كما صرح به في قوله: ﴿فَإِذَا أطمأننتم فأقيموا الصلوة﴾ وصرح باشتراط الخوف أيضاً لقصر كيفيتها بأن يصلها الماشي والراكب بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ [البقرة: ٢٣٩]. ثم قال: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢٣٩]. يعني فإذا أمنتهم فأقيموا صلاتكم كما أمرتم بركوعها وسجودها، وقيامها وقعودها، على أكمل هيئة وأتمها، وخير ما يبين القرآن القرآن، ويدل على أن المزداد بالقصر في هذه الآية القصر من كيفيتها كما ذكرنا، أن البخاري صدر باب صلاة الخوف بقوله: باب صلاة الخوف وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً﴾ وما ذكره ابن حجر وغيره من أن البخاري ساق الآيتين في الترجمة ليشير إلى خروج صلاة الخوف عن هيئة بقية الصلوات بالكتاب قولاً، وبالسنة فعلاً، لا ينافي ما أشرنا إليه من أنه ساق الآيتين في الترجمة لينبه على أن قصر الكيفية الوارد في أحاديث الباب هو المراد بقصر الصلاة في قوله: ﴿فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويؤيده أيضاً أن قصر عددها لا يشترط فيه الخوف، وقد كان ﷺ يقصر هو وأصحابه في السفر وهم في غاية الأمن، كما وقع في حجة الوداع وغيرها، وكما قال ﷺ لأهل مكة: «أتموا فإنما قوم سفر».

ومن رغب المزيد فليعد للأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً أي: شيئاً مكتوباً عليهم واجباً حتماً، موقوتاً أي: له أوقات يجب بدخولها ولم يشر هنا إلى تلك الأوقات، ولكنه أشار لها في مواضع أخر كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] فأشار بقوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر وأشار بقوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهو ظلامه إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] إلى صلاة الصبح وعبر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها من التعبير عن الشيء باسم بعضه.

وهذا البيان أوضحته السنة إيضاحاً كلياً، ومن الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلاة كما قاله جماعة من العلماء، قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّكُوتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾ [الروم]. قالوا: المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة. وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرَفْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وأقرب الأقوال في الآية أنه أشار بطرفي النهار إلى صلاة الصبح أوله وصلاة الظهر والعصر آخره؛ أي في النصف الأخير منه وأشار بزلف من الليل إلى صلاة المغرب والعشاء.

وقال ابن كثير: يحتمل أن الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس، وكان الواجب قبلها صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وقيام الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، وعلى هذا فالمراد بطرفي النهار والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والمراد بزلف من الليل قيام الليل.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن هذا الاحتمال الذي ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله بعيد؛ لأن الآية نزلت في أبي اليسر في المدينة بعد فرض الصلوات بزمان فهي على التحقيق مشيرة لأوقات الصلاة، وهي آية مدنية في سورة مكية وهذه تفاصيل أوقات الصلاة بأدلتها المبينة لها من السنة، ولا يخفى أن لكل وقت منها أولاً وآخرأ، أما أول وقت الظهر فهو زوال الشمس عن كبد السماء بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ فاللام للتوقيت ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء على التحقيق.

وأما السنة فمنها حديث أبي برزة الأسلمي عند الشيخين كان النبي ﷺ يصلي الهجير التي تدعونها حين تدحض الشمس... الحديث، ومعنى تدحض: تزول عن كبد السماء.

وفي رواية لمسلم: حين تزول، وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أنه خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمني جبريل عند باب البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس» الحديث أخرجه الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود وابن خزيمة والدارقطني والحاكم في المستدرک وقال: هو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٢). نهى الله تعالى المسلمين في هذه الآية الكريمة عن الوهن، وهو الضعف في طلب أعدائهم الكافرين، وأخبرهم بأنهم إن كانوا يجدون الألم من القتل والجراح فالكفار كذلك، والمسلم يرجو من الله من الثواب والرحمة ما لا يرجوه الكافر، فهو

أحق بالصبر على الآلام منه، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٣) ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ٣] وكقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْزُقَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ (١١٥) [محمد]... إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. ذكر في هذه الآية أن من فعل ذنباً فإنه إنما يضر به خصوص نفسه لا غيرها، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقوله: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾... الآية [فصلت: ٤٦] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أنه علم نبيه ﷺ ما لم يكن يعلمه، وبين في مواضع آخر أنه علمه ذلك عن طريق هذا القرآن العظيم الذي أنزله عليه كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلِينَ﴾ (١) [يوسف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من مناجاة الناس فيما بينهم لا خير فيه. ونهى في موضع آخر عن التناجي بما لا خير فيه، وبين أنه من الشيطان؛ ليحزن به المؤمنين وهو قوله تعالى: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَتِ الرُّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّهْيِ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١) ﴿إِنَّمَا التَّجَوَّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦) [المجادلة].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا. ولكنه أشار في مواضع آخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال بعض العلماء: إن الأمر بالمعروف المذكور في هذه الآية في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ يبينه: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ (٢) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣) [العصر]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرِّجْزُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] والآية الأخيرة فيها أنها في الآخرة، والأمر بالمعروف المذكور إنما هو في الدنيا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُواكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾. المراد في هذه الآية بدعائهم الشيطان المريد عبادتهم له، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ الْبَيْتَ إِذْ قَالُوا لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾... الآية [يس: ٦٠]. وقوله عن خليله إبراهيم مقررأ له: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ [مریم: ٤٤] وقوله عن الملائكة ﴿تَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾... الآية [سبا: ٤١] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ولم يبين في هذه الآيات ما وجه عبادتهم للشيطان ولكنه بين في آيات أخر أن معنى عبادتهم للشيطان إطاعتهم له واتباعهم لتشريع وإيثاره على ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى كقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْهُونَ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ لِيُحْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَهُمْ كَأَنَّ آبَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فإن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال له النبي ﷺ: «إنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم» وذلك هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً، ويفهم من هذه الآيات بوضوح - لا لبس فيه - أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثراً له على ما جاءت به الرسل. فهو كافر بالله، عابد للشيطان، متخذ الشيطان رباً وإن سمي اتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء؛ لأن الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَكَ لَا اتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

بين هنا فيما ذكر الشيطان كيفية اتخاذها لهذا النصيب المفروض بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّنَّهُمْ وَلَا تُصَلِّنَهُمْ وَلَا تُصَلِّنَهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ مَا أَمَرْتُ وَلَا تُؤْمِرْتُمْ فَلْيَعْبُدْكُمْ خَلَقَ اللَّهُ﴾ المراد بتبتيك أذان الأنعام شق أذن البهيرة مثلاً وقطعها ليكون ذلك سمة وعلامة لكونها بهيرة أو سائبة كما قاله قتادة والسدي وغيرهما، وقد أبطله تعالى بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. والمراد ببحرها شق أذنها كما ذكرنا والتبتيك في اللغة: التقطيع ومنه قول زهير:

حتى إذا ما هوت كف الوليد لها طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي: قطع، كما بين كيفية اتخاذها لهذا النصيب المفروض في آيات أخر كقوله: ﴿لَا تَقْدَرُ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١١٧﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١١٨﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآتِيَنَّكَ دُرَيْسُهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]. ولم يبين هنا هل هذا الظن الذي ظنه إبليس بني آدم أنه يتخذ منهم نصيباً مفروضاً، وأنه يضلهم تحقق لإبليس، أو لا ولكنه بين في آية أخرى أن ظنه هذا تحقق له وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]. ولم يبين هنا الفريق السالم من كونه من نصيب إبليس، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [النحل]، إلى غير ذلك من

الآيات ولم يبين هنا هل نصيب إبليس هذا هو الأكثر أو لا ولكنه بين في مواضع آخر أنه هو الأكثر كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢٣] وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَقْعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَظْلُوكُ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات]. وقد ثبت في الصحيح أن نصيب الجنة واحد من الألف والباقي في النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَنَنْصِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ﴾. قال بعض العلماء: معنى هذه الآية أن الشيطان يأمرهم بالكفر وتغيير فطرة الإسلام التي خلقهم الله عليها، وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَافْقَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] إذ المعنى على التحقيق لا تبدلوا فطرة الله التي خلقكم عليها بالكفر. فقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] خبر أريد به الإنشاء إيداناً بأنه لا ينبغي إلا أن يمثل حتى كأنه خبر واقع بالفعل لا محالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ الآية [البقرة: ١٩٧] أي لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون فيها من جدعاء» وما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار بن أبي حمار التميمي. قال: قال رسول الله ﷺ: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وأما على القول بأن المراد في الآية بتغيير خلق الله خصاء الدواب، والقول بأن المراد به الوشم، فلا بيان في الآية المذكورة، وبكل من الأقوال المذكورة. قال جماعة من العلماء، وتفسير بعض العلماء لهذه الآية بأن المراد بها خصاء الدواب يدل على عدم جوازها؛ لأنه مسوق في معرض الذم واتباع تشريع الشيطان، أما خصاء بني آدم فهو حرام إجماعاً؛ لأنه مثله وتعذيب وقطع عضو، وقطع نسل من غير موجب شرعي، ولا يخفى أن ذلك حرام.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية.

لم يبين هنا شيئاً من أمانيتهم، ولا من أمانتي أهل الكتاب، ولكنه أشار إلى بعض ذلك في مواضع آخر كقوله في أمانتي العرب الكاذبة: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا] وقوله عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُتَعَمِّدِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] ونحو ذلك من الآيات، وقوله في أمانتي أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ١٨]. ونحو ذلك من الآيات.

وما ذكره بعض العلماء من أن سبب نزول الآية أن المسلمين وأهل الكتاب

تفاخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾... الآية. لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله في حال كونه محسناً؛ لأن استفهام الإنكار مضمن معنى النفي، وصرح في موضع آخر: أن من كان كذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢] ومعنى إسلام وجهه لله إطاعته وإذعانه، وانقياده لله تعالى بامثال أمره، واجتناب نهيه في حال كونه محسناً؛ أي مخلصاً عمله لله لا يشرك فيه به شيئاً مراقباً فيه الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فالله تعالى يراه، والعرب تطلق إسلام الوجه، وتريد به الإذعان والانقياد التام، ومنه قول زيد بن نفيال العدوي:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرأ ثقالاً
قوله تعالى: ﴿وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يُتَمَى النِّسَاءِ﴾ الآية.

لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم في الكتاب ما هو، ولكنه بينه في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية. كما قدمناه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقوله هنا: ﴿وَمَا يُثَلَّ﴾ في محل رفع معطوفاً على الفاعل الذي هو لفظ الجلالة، وتقرير المعنى قل الله يفتيكم فيهن، ويفتيكم فيهن أيضاً: ﴿وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يُتَمَى النِّسَاءِ﴾ الآية. وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ الآية. ومضمون ما أفنى به هذا الذي يتلى علينا في الكتاب هو تحريم هضم حقوق اليتيمات فمن خاف أن لا يقسط في اليتيمة التي في حجره فليتركها ولينكح ما طاب له سواها، وهذا هو التحقيق في معنى الآية كما قدمنا، وعليه فحرف الجر المحذوف في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ هو عن أي: ترغبون عن نكاحهن لقلة مالهن وجمالهن؛ أي كما أنكم ترغبون عن نكاحهن إن كن قليلات مال وجمال فلا يحل لكم نكاحهن إن كن ذوات مال وجمال إلا بالإقساط إليهن في حقوقهن كما تقدم عن عائشة رضي الله عنها.

وقال بعض العلماء: الحرف المحذوف هو في، أي ترغبون في نكاحهن إن كن متصفات بالجمال وكثرة المال مع أنكم لا تقسطون فيهن، والذين قالوا بالمجاز واختلفوا في جواز حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معاً أجازوا ذلك في المجاز العقلي كقولك: أغناني زيد وعطاؤه، فإسناد الإغناء إلى زيد حقيقة عقلية، وإسناده إلى العطاء

مجاز، فجاز جمعها، وكذلك إسناد الإفتاء إلى الله حقيقي، وإسناده إلى ما يتلى مجاز عقلي عندهم؛ لأنه سببه فيجوز جمعهما.

وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في محل جر معطوفاً على الضمير، وعليه فتقرير المعنى قل الله يفتيكم فيهن ويفتيكم فيما يتلى عليكم وهذا الوجه يضعفه أوران:

الأول: أن الغالب أن الله يفتي بما يتلى في هذا الكتاب، ولا يفتي فيه لظهور أمره. الثاني: أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ضعفه غير واحد من علماء العربية، وأجازه ابن مالك مستنداً بقراءة حمزة، والأرحام بالخفض عطفاً على الضمير من قوله: تسألون به، وبوروده في الشعر كقوله:

فاليوم قربت تهجوناً وتشتمناً فاذهب فما بك والأيام من عجب
بجر الأيام عطفاً على الكاف، ونظيره قول الآخر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب مهوى نفانف
بجر الكعب معطوفاً على الضمير قبله، وقول الآخر:

وقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً
فقوله: ولا الأرض بالجر معطوفاً على الضمير، وقول الآخر:

أمر على الكتيبة لست أدري أحتفي كان فيها أم سواها
فسواها في محل جر بالعطف على الضمير، وأجيب عن الآية بجواز كونها قسماً، والله تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، كما أقسم بمخلوقاته كلها في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الآية [الحاقة].

وعن الأبيات بأنها شذوذ يحفظ، ولا يقاس عليه، وصحح العلامة ابن القيم رحمته جواز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وجعل منه قوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فقال: إن قوله: ﴿وَمَنِ﴾ في محل جر عطفاً على الضمير المجزوء في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وتقرير المعنى عليه حسبك الله؛ أي كافيك، وكافي من اتبعك من المؤمنين، وأجاز ابن القيم والقرطبي في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ أن يكون منصوباً معطوفاً على المحل؛ لأن الكاف مخفوض في محل نصب ونظيره قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

بنصب الضحاك كما ذكرنا، وجعل بعض العلماء منه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعَيشَ وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَهُمْ بَرَزَقِينَ﴾ [الحجر] فقال: ومن عطف على ضمير الخطاب في قوله لكم وتقرير المعنى عليه، وجعلنا لكم ولمن لستم له برازقين فيها معاش، وكذلك إعراب وما يتلى بأنه مبتدأ خبره محذوف أو خبره في الكتاب، وإعرابه منصوباً على أنه مفعول لفعل

محذوف تقديره، وبين لكم ما يتلى، وإعراجه مجروراً على أنه قسم، كل ذلك غير ظاهر.
وقال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ آيات
المواريث؛ لأنهم كانوا لا يورثون النساء فاستفتوا رسول الله ﷺ في ذلك فأنزل الله
آيات المواريث.

وعلى هذا القول فالمبين لقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو قوله:
﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآيتين. وقوله في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِي الْكَلَالَةِ﴾ والظاهر أن قول أم المؤمنين أصح وأظهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلنَّسْلِ بِالْقِسْطِ﴾. القسط العدل، ولم يبين هنا هذا
القسط الذي أمر به لليتامى، ولكنه أشار له في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَأَخْوَفُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿١٧٧﴾﴾ [الضحى]، وقوله: ﴿وَمَتَىٰ أَلْمَالُ عَلَىٰ حُجَّتِهِ ذَوَىٰ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].
ونحو ذلك من الآيات فكل ذلك فيه القيام بالقسط لليتامى.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن
الأنفس أحضرت؛ الشح أي: جعل شيئاً حاضراً لها كأنه ملازم لها لا يفارقها؛ لأنها
جبلت عليه. وأشار في موضع آخر: أنه لا يفلح أحد إلا إذا وقاه الله شح نفسه، وهو
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُّوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ومفهوم الشرط أن
من لم يوق شح نفسه لم يفلح وهو كذلك، وقيده بغض العلباء بالشح المؤدي إلى منع
الحقوق التي يلزمها الشرع، أو تقتضيها المروءة، وإذا بلغ الشح إلى ذلك، فهو بخل
وهو رذيلة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

هذا العدل الذي ذكره تعالى هنا أنه لا استطاع هو العدل في المحبة، والميل
الطبيعي؛ لأنه ليس تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع،
وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ
تَقُولُوا﴾؛ أي تجوروا في الحقوق الشرعية، والعرب تقول: عال يعول إذا جار ومال،
وهو عائل، ومنه قول أبي طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

أي: غير مائل ولا جائر، ومنه قول الآخر:

قالوا تبعنا رسول الله واطرحوا قول الرسول وعالوا في الموازين

أي: جاروا وقول الآخر:

ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد عال الزمان على عيالي

أي: جار ومال. أما قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
وقول جرير:

الله نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل
وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

فكل ذلك من العيلة، وهي الفقر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨]. فعال التي بمعنى جار واوية العين، والتي بمعنى افتقر يائية العين. وقال الشافعي رحمه الله: معنى قوله: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ؟﴾ أي يكثر عيالك من عال الرجل يعول إذا كثر عياله، وقول بعضهم: إن هذا لا يصح وإن المسموع أعال الرجل بصيغة الرباعي على وزن أفعل فهو معيل إذا كثر عياله فلا وجه له؛ لأن الشافعي من أدري الناس باللغة العربية؛ ولأن عال بمعنى كثر عياله لغة حمير، ومنه قول الشاعر:

وأن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشي وعيالا

يعني: وإن كثرت ماشيته وعياله، وقرأ الآية طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم التاء من أعال إذا كثر عياله على اللغة المشهورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الزوجين إن افترقا أغنى الله كل واحد منهما من سعته وفضله الواسع، وربط بين الأمرين بأن جعل أحدهما شرطاً والآخر جزاء. وقد ذكر أيضاً أن النكاح سبب للغنى بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه إن شاء أذهب الناس الموجودين وقت نزولها، وأتى بغيرهم بدلاً منهم، وأقام الدليل على ذلك في موضع آخر، وذلك الدليل هو أنه أذهب من كان قبلهم وجاء بهم بدلاً منهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وذكر في موضع آخر: أنهم إن تولوا أبلد غيرهم وأن أولئك المبدلين لا يكونون مثل المبدل منهم، بل يكونون خيراً منهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وذكر في موضع آخر: أن ذلك هين عليه غير صعب وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١]. ليس بمتنع ولا صعب.

قوله تعالى: ﴿أَيَنْتَفَعُونَ مِنْهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن جميع العزة له - جل وعلا - وبين في موضع آخر:

أن العزة التي هي له وحده أعز بها رسوله، والمؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] أي وذلك بإعزاز الله لهم والعزة الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي غلبني في الخصام، ومن كلام العرب من عزيز يعنون من غلب استلب ومنه قول الخنساء:

كَانَ لَمْ يَكُونُوا حَمَى يَخْتَشَى إِذَا النَّاسُ إِذَا ذَاكَ مِنْ عَزِيزَا
قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِن كُنتُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾. هذا المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقوله هنا: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ لم يبين فيه حكم ما إذا نسوا النهي حتى قعدوا معهم، ولكنه بيّنه في الأنعام بقوله: ﴿وَلَمَّا يُسْأَلُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

في معنى هذه الآية أوجه للعلماء:

منها: أن المعنى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يوم القيامة ﴿سَبِيلًا﴾ وهذا مروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما، ويشهد له قوله في أول الآية: ﴿فَاللَّهُ يَخْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾. وهو ظاهر.

قال ابن عطية: وبه قال جميع أهل التأويل كما نقله عنه القرطبي وضعفه ابن العربي زاعماً أن آخر الآية غير مردود إلى أولها. ومنها أن المراد بأنه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يمحو به دولة المسلمين ويستأصلهم ويستبيح بيضتهم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عنه رضي الله عنه من حديث ثوبان أنه قال: «وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم وإن الله قد أعطاني لأمتي ذلك حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [عافر: ٥١]. وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومنها: أن المعنى أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسلط العدو عليهم من قبلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً وهو راجع في المعنى إلى الأول؛ لأنهم منصورون لو أطاعوا، والبلية جاءتهم من قبل أنفسهم في الأمرين.

ومنها: أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً شرعاً، فإن وجد فهو بخلاف الشرع، ومنها: أن المراد بالسبيل الحجة أي: ولن يجعل لهم عليهم حجة، ويبينه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيْرًا ۚ﴾ [الفرقان] وأخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة منع دوام ملك الكافر للعبد المسلم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَىٰ يَرَوْنَ أَنَاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيْلًا ۚ﴾.

بين في هذه الآية الكريمة صفة صلاة المنافقين بأنهم يقومون إليها في كسل ورياء، ولا يذكرون الله فيها إلا قليلاً، ونظيرها في ذمهم على التهاون بالصلاة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَاتَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون]. ويفهم من مفهوم مخالفة هذه الآيات أن صلاة المؤمنين المخلصين ليست كذلك، وهذا المفهوم صرح به تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَا لُغْهِمَ بَحْرَةٌ وَلَا يَجْعَلُ لَغْوٍ لَّهُمْ أَجَلًا ۝﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في أسفل طبقات النار عياداً بالله تعالى. وذكر في موضع آخر أن آل فرعون يوم القيامة يؤمر بإدخالهم أشد العذاب، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وذكر في موضع آخر: أنه يعذب من كفر من أصحاب المائدة عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المائدة]. فهذه الآيات تبين أن أشد أهل النار عذاباً المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أصحاب المائدة، كما قاله ابن عمر رضي الله عنهما. والدرك: بفتح الراء وإسكانها لغتان معروفتان وقراءتان سبعيتان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا آلُفَجَلَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ الآية.

لم يبين هنا سبب عفوهم عنهم ذنب اتخاذ العجل إلهاً ولكنه بينه في سورة البقرة بقوله: ﴿فَتَوَبْنَا إِلَىٰ بَارِيكُم فَاتَّخَذُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُم فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ الآية.

لم يبين هنا هل امثلوا هذا الأمر، فتركوا العدوان في السبت أولاً، ولكنه بين في مواضع آخر أنهم لم يمتثلوا وأنهم اعتدوا في السبت كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]. وقوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

لم يبين هنا هذا البهتان العظيم الذي قالوه على الصديقة مريم العذراء، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أنه رميهم لها بالفاحشة، وأنها جاءت بولد لغير رشده في زعمهم الباطل لعنهم الله - وذلك في قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحِيَّةً فَأَلَّوْا يَمْرُؤَهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُورِيًّا﴾ [مريم] يعنون ارتكاب الفاحشة ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَلَّا بُرُوكَ أَمْرًا سَوَوْ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم] أي: زانية فكيف تفجرين ووالداك ليسا كذلك؟! وفي القصة أنهم رموها بيوسف النجار وكان من الصالحين، والبهتان أشد الكذب الذي يتعجب منه.

قوله تعالى: ﴿فِيُظَاهِرُ مِن الذِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

لم يبين هنا ما هذه الطيبات التي حرمها عليهم بسبب ظلمهم ولكنه بينها في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَعَلَى الذِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَةِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَائِي أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام].

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

لم يبين هنا ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون إنذارهم على السنة الرسل، ولكنه بينها في سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه] وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ مَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص].

قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

هذا الغلو الذي نهوا عنه هو وقول غير الحق، هو قول بعضهم إن عيسى ابن الله، وقول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو إله مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً كما بينه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وأشار هنا إلى إبطال هذه المفتريات بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾؛ وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَوَّاهٌ مِّدْيَنَةٌ كَانَا يَاسْجَانِ الطَّغَمَاءُ﴾ [المائدة: ٧٥] وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال بعض العلماء: يدخل في الغلو وغير الحق المنهي عنه في هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضاً، واعتمده القرطبي وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً

للتفريط والإفراط. وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبد الله. الحسنة بين سيئتين، وبه تعلم أن من جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى، ولقد أجاد من قال.

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم
وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى،
وقولوا عبد الله ورسوله».

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

ليست لفظة من في هذه الآية للتبعيض، كما يزعمه النصارى افتراء على الله، ولكن من هنا لابتداء الغاية، يعني أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حياً من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أحياه به، ويدل على أن «من» هنا لابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣].

أي: كائناً مبدأ ذلك كله منه جل وعلا ويدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب أنه قال: «خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه الصلاة والسلام»؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام، وهذه الإضافة للتفضيل؛ لأن جميع الأرواح من خلقه جل وعلا كقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾ [الحج: ٢٦] وقوله: ﴿نَافِثَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله، فيقال هذا روح من الله أي: من خلقه، وكان عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فاستحق هذا الاسم، وقيل: سمي روحاً بسبب نفخة جبريل عليه السلام المذكورة في سورة الأنبياء والتحريم، والعرب تسمي النفخ روحاً؛ لأنه ريح تخرج من الروح، ومنه قول ذي الرمة.

فقلت له ارفعها إليك وأحيها بروحك واقتته لها قيته قدرا

وعلى هذا القول فقوله «روح» معطوف على الضمير العائد إلى الله الذي هو فاعل ألقاها، قاله القرطبي والله تعالى أعلم.

وقال بعض العلماء: وروح منه، أي رحمة منه، وكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه، قيل: ومنه وأيده بروح منه، أي برحمة منه، حكاه القرطبي أيضاً، وقيل: روح منه، أي: برهان منه وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُّبِينًا﴾.

المراد بهذا النور المبين القرآن العظيم؛ لأنه يزيل ظلمات الجهل والشك كما يزيل النور الحسي ظلمة الليل، وقد أوضح تعالى ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ تُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثُونَ نِصَابًا﴾ الآية.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن الأختين ترثان الثلثين، والمراد بهما الأختان لغير أم، بأن تكونا شقيقتين أو لأب بإجماع العلماء، ولم يبين هنا ميراث الثلاث من الأخوات فصاعداً، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن الأخوات لا يزدن على الثلثين، ولو بلغ عددهن ما بلغ وهو قوله تعالى في البنات: ﴿إِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ومعلوم أن البنات أمس رحماً وأقوى سبباً في الميراث من الأخوات، فإذا كن لا يزدن على الثلثين ولو كثرن فكذلك الأخوات من باب أولى.

وأكثر علماء الأصول على أن فحوى الخطاب أعني: مفهوم الموافقة الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق، من قبيل دلالة اللفظ، لا من قبيل القياس، خلافاً للشافعي وقوم، وكذلك المساوي على التحقيق فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَا أَتَىٰ﴾ ... الآية [الإسراء: ٢٣] يفهم منه من باب أولى حرمة ضربهما وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] ... الآية [الزلزلة]. يفهم منه من باب أولى أن من عمل مثقال جبل يراه من خير وشر وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ... الآية [الطلاق: ٢] يفهم منه من باب أولى قبول شهادة الثلاثة والأربعة مثلاً من العدول، ونهيه ﷺ عن التضحية بالعوراء، يفهم منه من باب أولى النهي عن التضحية بالعمياء، وكذلك في المساوي، فتحريم أكل مال اليتيم يفهم منه بالمساواة منع إحراقه وإغراقه، ونهيه ﷺ عن البول في الماء الراكد، يفهم منه كذلك أيضاً النهي عن البول في إناء وصبه فيه، وقوله ﷺ: «من أعتق شركاً له في عبد» الحديث. يفهم منه كذلك أن الأمة كذلك، ولا نزاع في هذا عند جماهير العلماء وإنما خالف فيه بعض الظاهرية.

ومعلوم أن خلافهم في مثل هذا لا أثر له، وبذلك تعلم أنه تعالى لما صرح بأن البنات وإن كثرن ليس لهن غير الثلثين، علم أن الأخوات كذلك من باب أولى. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المائدة

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. لم يبين هنا ما هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية بهيمة الأنعام؛ ولكنه بيّنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبَحَ عَلَى النَّصَبِ﴾. فالمذكورات في هذه الآية الكريمة كالموقوذة والمتردية، وإن كانت من الأنعام؛ فإنها تحرم بهذه العوارض. والتحقيق أن الأنعام هي الأزواج الثمانية، كما قدمنا في سورة آل عمران، وقد

استدل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد من العلماء بهذه الآية على إباحة أكل الجنين إذا ذكيت أمه ووجد في بطنها ميتاً. وجاء عن النبي ﷺ «أن ذكاة أمه ذكاة له» كما أخرجه أبو داوود، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي سعيد. وقال الترمذي: إنه حسن، ورواه أبو داوود عن جابر عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾. يعني إن شئتم، فلا يدل هذا الأمر على إيجاب الاصطياد عند الإحلال، ويدل عليه الاستقراء في القرآن، فإن كل شيء كان جائزاً، ثم حرم لموجب، ثم أمر به بعد زوال ذلك الموجب، فإن ذلك الأمر كله في القرآن للجواز، نحو قوله هنا: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا بَشَرُوهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتَوْهُم﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولا ينقض هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية [التوبة: ٥]؛ لأن قتلهم كان واجباً قبل تحريمه العارض بسبب الأشهر الأربعة، سواء قلنا: إنها أشهر الإمهال المذكورة في قوله: ﴿فَيَسْجُحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] أو قلنا: إنها الأشهر الحرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]. وبهذا تعلم أن التحقيق الذي دل عليه الاستقراء التام في القرآن أن الأمر بالشيء بعد تحريمه يدل على رجوعه إلى ما كان عليه قبل التحريم من إباحة أو وجوب، فالصيد قبل الإحرام كان جائزاً؛ فمنع للإحرام، ثم أمر به بعد الإحلال بقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فيرجع لما كان عليه قبل التحريم، وهو الجواز، وقتل المشركين كان واجباً قبل دخول الأشهر الحرم، فمنع من أجلها، ثم أمر به بعد انسلاخها في قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٥]، فيرجع لما كان عليه قبل التحريم، وهو الواجب. وهذا هو الحق في هذه المسألة الأصولية.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذا أمر بعيد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السير أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه للوجوب؛ ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة؛ يرد عليه بآيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم. انتهى منه بلفظه.

وقد تقرر في الأصول أن الاستقراء التام حجة بلا خلاف، وغير التام المعروف، بـ «إلحاق الفرد بالأغلب» حجة ظنية، كما عقده في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال بقوله:

ومنه الاستقراء بالجزئي	على ثبوت الحكم للكلي
فلإن يعم غير ذي الشقاق	فهو حجة بالاتفاق
وهو في البعض إلى الظن انتسب	يسمى لحق الفرد بالذي غلب

فإذا عرفت ذلك، وعرفت أن الاستقراء التام في القرآن دل على ما اخترنا، واختاره ابن كثير، وهو قول الزركشي من أن الأمر بعد الحظر يدل على رجوع الحكم إلى ما كان عليه قبل التحريم، عرفت أن ذلك هو الحق. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ الآية.

نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار؛ لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعاً.

كما روى ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أسلم، قال: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه بالحديبية حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية». اهـ بلفظه من ابن كثير.

ويدل لهذا قوله قبل هذا: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ إِلَيْتَ الْحَرَامُ﴾، وصرح بمثل هذه الآية في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْتَدُوا﴾ الآية، وقد ذكر تعالى في هذه الآية أنهم صدوهم عن المسجد الحرام بالفعل على قراءة الجمهور ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة؛ لأن معناها: لأجل أن صدوكم، ولم يبين هنا حكمة هذا الصد، ولم يذكر أنهم صدوا معهم الهدى معكوفاً أن يبلغ محله، وذكر في سورة الفتح أنهم صدوا معهم الهدى، وأن الحكمة في ذلك المحافظة على المؤمنين والمؤمنات، الذين لم يتميزوا عن الكفار في ذلك الوقت، بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَىٰ مَعَكُوفًا أَن يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ لَعَلُّوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح]؛ وفي هذه الآية دليل صريح على أن الإنسان عليه أن يعامل من عصى الله فيه، بأن يطيع الله فيه.

وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

وهذا دليل واضح على كمال دين الإسلام، وحسن ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، مبين أنه دين سماوي لا شك فيه.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: لا يحملنكم شَنَاٰنُ قوم على أن تعتدوا، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

أي حملتهم على أن يغضبوا.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم، وعليه فلا تقدير لحرف الجر في قوله: ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾؛ أي لا يكسبنكم بغضهم الاعتداء عليهم.

وقرأ بعض السبعة «شَنَان» بسكون النون؛ ومعنى الشَنَان على القراءتين - أي بفتح النون، ويسكونها -: البغض. مصدر «شَنَاه» إذا أبغضه.

وقيل: على قراءة سكون النون يكون وصفاً كالغضبان، وعلى قراءة «إِنْ صَدُّوكُمْ» بكسر الهمزة؛ فالمعنى: إن وقع منهم صدمهم لكم عن المسجد الحرام، فلا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم بما لا يحل لكم.

وإبطال هذه القراءة بأن الآية نزلت بعد صد المشركين النبي ﷺ وأصحابه بالحديبية، وأنه لا وجه لاشتراط الصد بعد وقوعه - مردود من وجهين:

الأول منهما: أن قراءة «أَنْ صَدُّوكُمْ» بصيغة الشرط قراءة سبعية متواترة لا يمكن ردها، وبها قرأ ابن كثير، وأبو عمرو من السبعة.

الثاني: أنه لا مانع من أن يكون معنى هذه القراءة: إن صدوكم مرة أخرى على سبيل الفرض، والتقدير كما تدل عليه صيغة «إِنْ»؛ لأنها تدل على الشك في حصول الشرط، فلا يحملنكم تكرار الفعل السيء على الاعتداء عليهم بما لا يحل لكم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن المرتد يحبط جميع عمله برده من غير شرط زائد، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن ذلك فيما إذا مات على الكفر، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يَزِيدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ يُعِمْتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومقتضى الأصول حمل هذا المطلق على هذا المقيد، فيقيد إحباط العمل بالموت على الكفر، وهو قول الشافعي ومن وافقه، خلافاً لمالك القائل بإحباط الردة العمل مطلقاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ثلاث قراءات: واحدة شاذة، واثنان متواترتان.

أما الشاذة: فقراءة الرفع، وهي قراءة الحسن. وأما المتواترتان: فقراءة النصب، وقراءة الخفض.

أما النصب: فهو قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في رواية حفص من السبعة، ويعقوب من الثلاثة.

وأما الجر: فهو قراءة ابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر. أما قراءة النصب: فلا إشكال فيها؛ لأن الأرجل فيها معطوفة على الوجوه، وتقدير المعنى عليها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم.

وإنما أدخل مسح الرأس بين المغسولات محافظة على الترتيب؛ لأن الرأس يمسح بين المغسولات، ومن هنا أخذ جماعة من العلماء وجوب الترتيب في أعضاء الوضوء حسبما ذكر في الآية الكريمة.

وأما على قراءة الجر: ففي الآية الكريمة إجمال، وهو أنها يفهم منها الاكتفاء بمسح الرجلين في الوضوء عن الغسل كالرأس، وهو خلاف الواقع للأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء والتوعد بالنار لمن ترك ذلك، كقوله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار».

اعلم أولاً أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء، وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب صريح في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فهي تُفهم أن قراءة الخفض إنما هي لمجاورة المخفوض مع أنها في الأصل منصوبة بدليل قراءة النصب، والعرب تخفض الكلمة لمجاورتها للمخفوض، مع أن إعرابها النصب، والرفع.

وما ذكره بعضهم من أن الخفض بالمجاورة معدود من اللحن الذي يتحمل لضرورة الشعر خاصة، وأنه غير مسموع في العطف، وأنه لم يجز إلا عند أمن اللبس، فهو مردود بأن أئمة اللغة العربية صرحوا بجوازه. وممن صرح به الأخفش، وأبو البقاء، وغير واحد. ولم ينكره إلا الزجاج، وإنكاره له - مع ثبوته في كلام العرب، وفي القرآن العظيم - يدل على أنه لم يتبع المسألة تتبعاً كافياً.

والتحقيق: أن الخفض بالمجاورة أسلوب من أساليب اللغة العربية، وأنه جاء في القرآن لأنه بلسان عربي مبين.

فمنه في النعت، قول امرئ القيس:

كأن ثبيراً في عرانيين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل
بخفض «مزمل» بالمجاورة، مع أنه نعت «كبير» المرفوع بأنه خبر «كأن».

وقول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب
إذ الرواية بخفض «غير»، كما قاله غير واحد للمجاورة، مع أنه نعت «سنة» المنصوب بالمفعولية.

ومنه في العطف قول النابغة:

لم يبق إلا أسير غير منفلت وموثق في حبال القد مجنوب
بخفض «موثق» لمجاورته المخفوض، مع أنه معطوف على «أسير» المرفوع بالفاعلية.

وقول امرئ القيس:

وظل طهارة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل
بجر «قدير» لمجاورته للمخفوض، مع أنه عطف على «صفيف» المنصوب بأنه
مفعول اسم الفاعل الذي هو «منضج»، والصفيف: فعيل بمعنى مفعول وهو المصفوف
من اللحم على الجمر لينشوي، والقدير: كذلك فعيل بمعنى مفعول، وهو المجعول في
القدر من اللحم لينضج بالطبخ.

وهذا الإعراب الذي ذكرناه هو الحق؛ لأن الإنضاج واقع على كل من الصفيف
والقدير، فما زعمه «الصبان» في حاشيته على «الأشموني» من أن قوله «أو قدير»
معطوف على «منضج» بتقدير المضاف، أي وطابخ قدير... إلخ ظاهر السقوط؛ لأن:
المنضج شامل لشاوي الصفيف، وطابخ القدير. فلا حاجة إلى عطف الطابخ على
المنضج لشموله له، ولا داعي لتقدير «طابخ» محذوف.

وما ذكره العيني من أنه معطوف على «شواء»، فهو ظاهر السقوط أيضاً؛ وقد رده
عليه «الصبان»؛ لأن المعنى يصير بذلك: و صفيف قدير، والقدير لا يكون صفيفاً.
والتحقيق: هو ما ذكرنا من الخفض بالمجاورة، وبه جزم ابن قدامة في المغني.
ومن الخفض بالمجاورة في العطف قول زهير:

لعب الزمان بها وغيرها بعدي سوافي المور والقطر
بجرّ «القطر» لمجاورته للمخفوض مع أنه معطوف على «سوافي» المرفوع، بأنه
فاعل غير.

ومنه في التوكيد قول الشاعر:

يا صاح بلغ ذوي الزوجات كلهم أن ليس وصل إذا انحلت عرى الذنب
بجرّ «كلهم» على ما حكاه الفراء لمجاورة المخفوض، مع أنه توكيد «ذوي»
المنصوب بالمفعولية.

ومن أمثله في القرآن العظيم في العطف - كالأبي التي نحن بصدددها - قوله
تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكُونِ ۖ﴾ [الواقعة]، على قراءة حمزة،
والكسائي.

ورواية المفضل عن عاصم بالجر لمجاورته لأكواب وأباريق، إلى قوله: ﴿وَلَمَّحَ
طَبِيرٌ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ۖ﴾ [الواقعة] مع أن قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ﴾ [الواقعة] حكمه الرفع؛
فقليل: إنه معطوف على فاعل «يطوف» الذي هو ﴿وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧].

وقيل: هو مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل المقام عليه. أي: وفيها حور
عين، أو لهم حور عين.

وإذن فهو من العطف بحسب المعنى.

وقد أشد سبويه للعطف على المعنى قول الشماخ، أو ذي الرمة:

بادت وغير آيهن مع البلا إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج أما سواء قذاله فبدا وغيب ساره المعزاء

لأن الرواية بنصب «رواكد» على الاستثناء، ورفع مشجج عطفاً عليه؛ لأن المعنى لم يبق منها إلا رواكد ومشجج؛ ومراده بالرواكد أثافي القدر، وبالمشجج وتد الخباء، وبه تعلم أن وجه الخفض في قراءة حمزة والكسائي هو المجاورة للمخفوض، كما ذكرنا خلافاً لمن قال في قراءة الجر: إن العطف على أكواب، أي: يطاف عليهم بأكواب وبحور عين. ولمن قال: إنه معطوف على جنات النعيم، أي: هم في جنات النعيم، وفي حور على تقدير حذف مضاف، أي: في معاينة حور.

ولا يخفى ما في هذين الوجهين:

لأن الأول يرد بأن الحور العين لا يطاف بهن مع الشراب؛ لقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن].

والثاني فيه أن كونهم في جنات النعيم، وفي حور ظاهر السقوط كما ترى، وتقدير ما لا دليل عليه لا وجه له.

وأجيب عن الأول بجوابين:

الأول: أن العطف فيه بحسب المعنى؛ لأن المعنى: يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور. قاله الزجاج وغيره.

الجواب الثاني: أن الحور قسمان: ١ - حور مقصورات في الخيام، ٢ - وحور يطاف بهن عليهم. قاله الفخر الرازي وغيره، وهو تقسيم لا دليل عليه، ولا يعرف من صفات الحور العين كونهن يطاف بهن كالشراب، فأظهرها الخفض بالمجاورة، كما ذكرنا.

وكلام الفراء وقطرب، يدل عليه، وما رد به القول بالعطف على أكواب من كون الحور لا يطاف بهن يرد به القول بالعطف على ﴿وَلَدَنٌ مُّطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، في قراءة الرفع؛ لأنه يقتضي أن الحور يطفن عليهم كالولدان، والقصر في الخيام ينافي ذلك.

وممن جزم بأن خفض ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ لمجاورة المخفوض البيهقي في «السنن الكبرى»، فإنه قال ما نصه: باب قراءة من قرأ «وَأَرْجُلُكُمْ» نصباً، وأن الأمر رجع إلى الغسل وأن من قرأها خفضاً، فإنما هو للمجاورة. ثم ساق أسانيده إلى ابن عباس، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وعطاء، والأعرج، وعبد الله بن عمرو بن غيلان، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ، وأبي محمد يعقوب بن إسحاق بن يزيد الحضرمي أنهم قرؤوها كلهم: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالنصب.

قال: وبلغني عن إبراهيم بن يزيد التيمي أنه كان يقرؤها نصباً، وعن عبد الله بن عامر اليحصبي، وعن عاصم برواية حفص، وعن أبي بكر بن عياش من رواية الأعشى، وعن الكسائي، كل هؤلاء نصبوها.

ومن خفضها فإنما هو للمجاورة، قال الأعمش: كانوا يقرؤونها بالخفض، وكانوا يغسلون. اهـ كلام البيهقي.

ومن أمثلة الخفض بالمجاورة في القرآن في النعت قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يَوْمِ تُحِيطُ﴾ [هود: ٨٤] بـخفض محيط مع أنه نعت للعذاب. وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يَوْمِ السَّيْرِ﴾ [هود: ٢٦]، ومما يدل أن النعت للعذاب، وقد خفض للمجاورة، كثرة ورود الألف في القرآن نعتاً للعذاب. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٣١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [البروج] على قراءة من قرأ بـخفض «محفوظ» كما قاله القرطبي. ومن كلام العرب «هذا جحر ضب خرب» بـخفض خرب لمجاورة المخفوض مع أنه نعت خبر المبتدأ، وبهذا تعلم أن دعوى كون الخفض بالمجاورة لحناً لا يتحمل إلا لضرورة الشعر باطلة، والجواب عما ذكره من أنه لا يجوز إلا عند أمن اللبس هو أن اللبس هنا يزيله التحديد بالكعيبين، إذ لم يرد تحديد الممسوح، وتزيله قراءة النصب، كما ذكرنا. فإن قيل: قراءة الجرح الدالة على مسح الرجلين في الوضوء هي الميمنة لقراءة النصب بأن تجعل قراءة النصب عطفاً على المحل؛ لأن الرؤوس مجرورة بالباء في محل نصب على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن
وابن مالك وإن كان أورد هذا في «إعمال المصدر» فحكمه عام، أي: وكذلك الفعل والوصف كما أشار له في الوصف بقوله:

واجرر أو انصب تابع الذي انخفض كمبتغي جاء ومالاً من نهض
فالجواب: أن بيان قراءة النصب بقراءة الجرح - كما ذكر - تأباه السنة الصريحة الصحيحة الناطقة بخلافه، وبتوعد مرتكبه بالويل من النار، بخلاف بيان قراءة الخفض بقراءة النصب، فهو موافق لسنة رسول الله ﷺ الثابتة عنه قولاً وفعلاً.

فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها فأدركنا، وقد أرهقتنا الصلاة؛ صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فننادى بأعلى صوته: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار» وكذلك هو في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار»، وروى البيهقي والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن حارث بن جزء، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب، وبطون الأقدام من النار».

وروى الإمام أحمد، وابن ماجه، وابن جرير، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ويل للأعقاب من النار».

وروى الإمام أحمد عن معيقب، أن النبي ﷺ قال: «ويل للأعقاب من النار». وروى ابن جرير عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار»، قال: فما بقي في المسجد شريف ولا وضع إلا نظرت إليه يقلب عرقويه ينظر إليهما. وثبت في أحاديث الوضوء عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معد يكرّب: «أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً» على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه. ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به».

والأحاديث في الباب كثيرة جداً، وهي صحيحة صريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، وعدم الاجتزاء بمسحهما.

قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ الآية.

اعلم أن لفظة «من» في هذه الآية الكريمة محتملة لأن تكون للتبويض، فيتعين في التيمم التراب الذي له غبار يعلق باليد؛ ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية؛ أي مبدأ ذلك المسح كائن من الصعيد الطيب، فلا يتعين ما له غبار. وبالأول قال الشافعي، وأحمد، وبالثاني قال مالك، وأبو حنيفة رحمهم الله تعالى جميعاً.

فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في هذه الآية الكريمة إشارة إلى هذا القول الأخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ فقلوه: ﴿مَنْ حَرَجٍ﴾ نكرة في سياق النفي زيدت قبلها «من»، والنكرة إذا كانت كذلك، فهي نص في العموم، كما تقرر في الأصول، قال في (مراقي السعود) عاطفاً على صيغ العموم:

وفي سياق المنفي منها يذكر إذا بنى أو زيد من منكر

فالآية تدل على عموم النفي في كل أنواع الحرج، والمناسب لذلك كون «من» لابتداء الغاية؛ لأن كثيراً من البلاد ليس فيه إلا الرمال أو الجبال، فالتكليف بخصوص ما فيه غبار يعلق باليد، لا يخلو من حرج في الجملة.

ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» وفي لفظ: «فعمدته مسجده وطهوره»... الحديث.

فهذا نص صحيح صريح في أن من أدركته الصلاة في محل ليس فيه إلا الجبال أو الرمال أن ذلك الصعيد الطيب الذي هو الحجارة، أو الرمل طهور له ومسجد.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَارْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الآية.

لم يبين هنا شيئاً من ذلك الكثير الذي بينه لهم الرسول ﷺ مما كانوا يخفون من الكتاب، يعني التوراة والإنجيل، وبين كثيراً منه في مواضع أخر.

فمما كانوا يخفون من أحكام التوراة رجم الزاني المحصن، وبينه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَوِيقَ وَنَهُمْ وَمُهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران].

يعني يدعون إلى التوراة ليحكم بينهم في حد الزاني المحصن بالرجم، وهم معرضون عن ذلك منكرون له. ومن ذلك. ما أخفوه من صفات الرسول ﷺ في كتابهم، وإنكارهم أنهم يعرفون أنه هو الرسول، كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَكَاثِبُونَ مِمَّن قَبُلَ مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

ومن ذلك إنكارهم أن الله حرم عليهم بعض الطيبات بسبب ظلمهم ومعاصيهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُظَاهَرُ مِنْ أَلَدَيْنَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَيْرِ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

فإنهم أنكروا هذا، وقالوا لم يحرم علينا إلا ما كان محرماً على إسرائيل، فكذبهم القرآن في ذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الْأَطْعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران].

ومن ذلك كتم النصارى بشارة عيسى ابن مريم لهم بمحمد ﷺ، وقد بينها تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما أخفوه من كتبهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ الآية. قال جمهور العلماء: إنها ابنا آدم لصلبه، وهما هابيل، وقايل.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هما رجلان من بني إسرائيل، ولكن القرآن يشهد لقول الجماعة، ويدل على عدم صحة قول الحسن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءَ أَحْيَاهُ﴾، ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن حتى يدل عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفة منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح، ونبه عليه غير واحد من العلماء. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أنه كتب على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ولم يتعرض هنا لحكم من قتل نفساً بنفس،

أو بفساد في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، فبين أن قتل النفس بالنفس جائز، في قوله: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَنْفُسَ بِالنَّفْسِ﴾، وفي قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السنة، وحاصل تحرير المقام فيها أن الذَّكَرَ الحرَّ المسلم يقتل بالذَّكَرَ الحرَّ المسلم إجماعاً، وأن المرأة كذلك تقتل بالمرأة كذلك إجماعاً. وأن العبد يقتل كذلك بالعبد إجماعاً، وإنما لم نعتبر قول عطاء باشتراط تساوي قيمة العبدین، وهو رواية عن أحمد، ولا قول ابن عباس: ليس بين العبيد قصاص؛ لأنهم أموال، لأن ذلك كله يردّه صريح قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وأن المرأة تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قتلت بالمرأة فقتلها بالرجل أولى، وأن الرجل يقتل بالمرأة عند جمهور العلماء فيهما.

وللعلماء في المسألة أقوال يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى ﴿أَنْتُمْ مَنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. فاعلم أن مفهوم قوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾، هو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: المحاربة هي المخالفة والمضادة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض، يطلق على أنواع من الشر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَكَ فِي الْأَرْضِ يُفْسَدُ فِيهَا وَنُهَاكَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ لَا يَحِبُّ الْأَفْسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فإذا علمت ذلك فاعلم أن المحارب الذي يقطع الطريق، ويخيف السبيل، ذكر الله أن جزاءه واحدة من أربع خلال هي: أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض. وظاهر هذه الآية الكريمة: أن الإمام مخير فيها، يفعل ما شاء منها بالمحارب، كما هو مدلول، أو لأنها تدل على التخيير.

ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿فَقَذِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ مَسْكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِمَّا قُتِلَ مِنْ أَنْتُمْ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

واعلم أن الصَّلبَ المذكور في قوله ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾، اختلف فيه العلماء. فقيل: يصلب حياً، ويمنع من الشراب، والطعام، حتى يموت، وقيل: يصلب حياً، ثم يقتل برمح، ونحوه، مصلوباً، وقيل: يقتل أولاً، ثم يصلب بعد القتل، وقيل: ينزل بعد ثلاثة أيام، وقيل: يترك حتى يسيل صديده. والظاهر أنه يصلب بعد القتل زمناً يحصل فيه اشتهاً لذلك؛ لأن صلبه ردع لغيره.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، اختلف العلماء في المراد بالنفي فيه أيضاً، فقال بعضهم: معناه أن يُطلبوا حتى يقدر عليهم، فيقام عليهم الحد، أو يهربوا من دار الإسلام، وهذا القول رواه ابن جرير، عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس.

وقال آخرون: هو أن ينفوا من بلدهم إلى بلد آخر، أو يخرجهم السلطان، أو نائبه، من عمالته بالكلية، وقال عطاء الخراساني، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حيان: إنهم ينفون، ولا يخرجون من أرض الإسلام.

وذهب جماعة إلى أن المراد بالنفي في الآية السجن؛ لأنه نفي من سعة الدنيا إلى ضيق السجن، فصار المسجون كأنه منفي من الأرض، إلا من موضع استقراره، واحتجوا بقول بعض المسجونين في ذلك:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه، ولا يخفى عدم ظهوره.

واختار ابن جرير، أن المراد بالنفي في هذه الآية، أن يخرج من بلده إلى بلد آخر، فيسجن فيه، وروي نحوه عن مالك أيضاً، وله اتجاه؛ لأن التغريب عن الأوطان نوع من العقوبة، كما يفعل بالزاني البكر، وهذا أقرب الأقوال، لظاهر الآية؛ لأنه من المعلوم أنه لا يراد نفيهم من جميع الأرض إلى السماء، فعلم أن المراد بالأرض أوطانهم التي تشق عليهم مفارقتها. والله تعالى أعلم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾، فأمر بإقامة الحدود على المحارب إذا جمع بين شيئين، وهما: المحاربة، والسعي في الأرض بالفساد. ولم يخص شريفاً من وضع، ولا رفيعاً من دنياه. اهـ من القرطبي.

قال مقبده - عفا الله عنه -: ومما يدل على عدم اعتبار المكافأة في قتل الحزابة، إجماع العلماء على أن عفو ولي المقتول في الحزابة لغو لا أثر له، وعلى الحاكم قتل المحارب القاتل. فهو دليل على أنها ليست مسألة قصاص خالص، بل هناك تغليظ زائد من جهة المحاربة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة.

وأصل الوسيلة الطريق التي تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهي العمل الصالح بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ، وعلى هذا فالآيات المبينة للمراد من الوسيلة كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ قَحْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتُمْ مُرَادُونَ﴾ [الحشر: ٧]، وكقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالوسيلة الحاجة، ولما سأله نافع الأزرق هل تعرف العرب ذلك؟ أنشد له بيت عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة
إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قال: يعني لهم إليك حاجة، وعلى هذا القول الذي روي عن ابن عباس، فالمعنى: ﴿وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، واطلبوا حاجتكم من الله؛ لأنه وحده هو الذي يقدر على إعطائها. ومما يبين معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقوله: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله».

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق في معنى الوسيلة هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ وتفسير ابن عباس داخل في هذا؛ لأن دعاء الله والابتهال إليه في طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجاهل المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخط في الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى. واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَوْلُكُمْ يَشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وحبته ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمْعَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ... الآية [النساء: ١٢٣].

والظاهر أن الوسيلة في بيت عنترة معناها التقرب أيضاً إلى المحبوب؛ لأنه وسيلة لنيل المقصود منه، ولذا أنشد بيت عنترة المذكور ابن جرير، والقرطبي وغيرهما لهذا المعنى الذي ذكرنا. وجمع الوسيلة: الوسائل، ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا
وعاد التصافي بيننا والوسائل

وهذا الذي فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ يَنْتَفُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ؟... الآية [الإسراء: ٥٧]، وليس المراد بالوسيلة أيضاً المنزل التي في الجنة التي أمرنا ﷺ أن نسأل له الله أن يعطيه إياها، نرجو الله أن يعطيه إياها؛ لأنها لا تنبغي إلا لعبد، وهو يرجو أن يكون هو.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيَتْهُ هَذَا فَاخْذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. في هذه الآية الكريمة إجمال؛ لأن المشار إليه بقوله هذا، ومفسر الضمير في قوله: ﴿فَاخْذُوهُ﴾، وقوله: ﴿لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ لم يصرح به في الآية، ولكن الله أشار له هنا، وذكره في موضع آخر.

اعلم أولاً: أن هذه الآية نزلت في اليهودي واليهودية اللذين زنيا بعد الإحصان، وكان اليهود قد بدلوا حكم الرجم في التوراة، فتعمدوا تحريف كتاب الله، واصطلحوا فيما بينهم على أن الزاني المحصن - الذي يعلمون حده في كتاب الله التوراة: الرجم - أنهم يجلدونه ويفضحونه بتسويد الوجه والإركاب على حمار. فلما زنى المذكوران قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ في شأن حدهما، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه ذلك واجعلوه حجة بينكم وبين الله تعالى ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم فيهما بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن المراد بقوله: ﴿هَذَا﴾، وقوله: ﴿فَاخْذُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ هو الحكم المحرف الذي هو الجلد والتحميم كما بينا، وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَدَلِ مَوَاضِعِهِ. يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيَتْهُ هَذَا﴾؛ يعني المحرف والمبدل الذي هو الجلد والتحميم فخذوه ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بأن حكم بالحق الذي هو الرجم ﴿فَاخْذَرُوا﴾ أن تقبلوه.

وذكر تعالى هذا أيضاً في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُنْزِلُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ [آل عمران: ٢٣]، يعني التوراة ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني في شأن الزانيين المذكورين ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ وَنَهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي عما في التوراة من حكم رجم الزاني المحصن، وقوله هنا: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ وَنَهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، هو معنى قوله عنهم: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَمَا اسْتَحِفُّوْا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحرار والرهبان استحفظوا كتاب الله يعني استودعوه، وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه؟ ولكنه بين في مواضع آخر أنهم لم يمتثلوا الأمر، ولم يحفظوا ما استحفظوه، بل حرفوه وبدلوه عمداً كقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَدَلِ مَوَاضِعِهِ﴾، وقوله: ﴿تَجْمَلُونَ قُرْآنَ اللَّهِ لَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ كِتَابُ اللَّهِ إِنَّكُمْ بِشَيْءٍ مُتَعَدِّينَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ أَلَيْسَتْ لَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة: هل هي في المسلمين، أم في الكفار، فروي عن الشعبي أنها في المسلمين، وروي عنه أنها في اليهود، وروي عن طاوس أيضاً أنها في المسلمين، وأن المراد بالكفر فيها كفر دون كفر، وأنه ليس الكفر المخرج من الملة، وروي عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: ليس الكفر الذي تذهبون إليه، رواه عنه ابن أبي حاتم، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، قاله ابن كثير.

قال بعض العلماء: والقرآن العظيم يدل على أنها في اليهود؛ لأنه تعالى ذكر فيما قبلها أنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأنهم يقولون: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ يعني الحكم المحرف الذي هو غير حكم الله ﴿فَخُذُوهُ وَإِنْ لَّمْ تَوْتَوْهُ﴾ أي المحرف، بل أوتيتم حكم الله الحق ﴿فَاخْذُوا﴾، فهم يؤمرون بالحد من حكم الله الذي يعلمون أنه حق.

وقد قال تعالى بعدها ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ الْنَافِسِ﴾، فدل على أن الكلام فيهم، وممن قال بأن الآية في أهل الكتاب، كما دل عليه ما ذكر: البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم، وزاد الحسن، وهي علينا واجبة. نقله عنهم ابن كثير، ونقل نحو قول الحسن عن إبراهيم النخعي.

وقال القرطبي في تفسيره: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الْفَٰلِغُونَ﴾ و﴿الْفَٰسِقُونَ﴾ نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء، وقد تقدم. وعلى هذا المذهب. فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة. وقيل: فيه إضمار، أي ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر. قاله ابن عباس ومجاهد.

فالآية عامة على هذا، قال ابن مسعود، والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي معتقداً ذلك ومستحلاً له.

فأما من فعل ذلك، وهو معتقد أنه مرتكب محرم، فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

وقال ابن عباس في رواية: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار، وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل فهو كافر. فأما من حكم بالتوحيد، ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية، والصحيح الأول، إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة: واختاره النحاس. قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء:

منها: أن اليهود ذكروا قبل هذا في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هَادُوا﴾ فعاد الضمير عليهم.

ومنها: أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ﴾، فهذا الضمير لليهود بإجماع، وأيضاً فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص، فإن قال

قائل: «مَنْ» إذا كانت للمجازاة فهي عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها. قيل له: «من» هنا بمعنى الذي، مع ما ذكرناه من الأدلة. والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. فهذا من أحسن ما قيل في هذا.

ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات، أهى في بني إسرائيل؟ فقال: نعم هي فيهم، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل، وقيل: الكافرون للمسلمين، والظالمون لليهود، والفساقون للنصارى، وهذا اختيار أبي بكر بن العربي، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهو اختيار ابن عباس، وجابر بن زيد، وابن أبي زائدة، وابن شبرمة والشعبي أيضاً. قال طاوس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر.

وهذا يختلف: إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين، قال القشيري: ومذهب الخوارج أن من ارتشى، وحكم بحكم غير الله فهو كافر، وعزا هذا إلى الحسن والسدي، وقال الحسن أيضاً: أخذ الله على الحكام ثلاثة أشياء: ألا يتبعوا الهوى، وألا يخشوا الناس ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، انتهى كلام القرطبي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر المتبادر من سياق الآيات أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ نازلة في المسلمين؛ لأنه تعالى قال قبلها مخاطباً لمسلمي هذه الأمة ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوهُنَّ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية، وعليه فالكفر إما كفر دون كفر، وإما أن يكون فعل ذلك مستحلاً له، أو قاصداً به جحد أحكام الله وردها مع العلم بها.

أما من حكم بغير حكم الله، وهو عالم أنه مرتكب ذنباً فاعل قبيحاً، وإنما حملة على ذلك الهوى فهو من سائر عصاة المسلمين، وسياق القرآن ظاهر أيضاً في أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ في اليهود لأنه قال قبلها: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فالخطاب لهم لوضوح دلالة السياق عليه، كما أنه ظاهر أيضاً في أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في النصارى، لأنه قال قبلها: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة أخرى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ معارضة للرسول وإبطالاً لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر

مخرج عن الملة، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَخُذْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معتقداً أنه مرتكب حراماً فاعل قبيحاً فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل على أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكل هو ما رأيت، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ الآية، قد قدمنا احتجاج أبي حنيفة رحمته الله تعالى بعموم هذه الآية على قتل المسلم بالذمي. ونفس الآية فيها إشارة إلى أن الكافر لا يدخل في عموم الآية، كما ذهب إليه جمهور العلماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ﴾... الآية.

ومن المعلوم أن الكافر ليس من المتصدقين الذين تكون صدقتهم كفارة لهم؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، نبه على هذا إسماعيل القاضي في أحكام القرآن كما نقله ابن حجر في فتح الباري، وما ذكره إسماعيل القاضي من أن الآية تدل أيضاً على عدم دخول العبد، بناء على أنه لا يصح له التصديق بجرحه؛ لأن الحق لسيد غير مسلم؛ لأن من العلماء من يقول: إن الأمور المتعلقة ببدن العبد كالقصاص، له العفو فيها دون سيده، وعليه فلا مانع من تصدقه بجرحه، وعلى قول من قال: إن معنى ﴿فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ﴾، أن التصديق بالجناية كفارة للجاني، لا للمجني عليه، فلا مانع أيضاً من الاستدلال المذكور بالآية؛ لأن الله لا يذكر عن الكافر أنه متصدق؛ لأن الكافر لا صدقة له لكفره، وما هو باطل لا فائدة فيه لا يذكره الله تعالى في معرض التقرير والإثبات، مع أن هذا القول ضعيف في معنى الآية.

وجمهور العلماء من الصحابة، فمن بعدهم على أن معناها: فهو كفارة للمتصدق، وهو أظهر؛ لأن الضمير فيه عائد إلى المذكور، وذلك في المؤمن قطعاً دون الكافر، فلا استدلال بالآية ظاهر جداً.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخُذْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾. لم يبين هنا شيئاً مما أنزل في الإنجيل الذي أمر أهل الإنجيل بالحكم به، وبين في مواضع آخر أن من ذلك البشارة بمبعث نبينا محمد صلوات الله عليه، ووجوب اتباعه. والإيمان به كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا إِلَهِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَهُكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.



لطيفة لها مناسبة بهذه الآية الكريمة:

ذكر بعض العلماء أن نصرانياً قال لعالم من علماء المسلمين: ناظرني في الإسلام والمسيحية أيهما أفضل؟ فقال العالم للنصراني: هلم إلى المناظرة في ذلك، فقال

النصراني: المتفق عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه؟ فقال العالم: المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه؟ فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا، وترك اتباع محمد ﷺ؛ لأننا نحن وأنتم نتفق على نبوة عيسى، ونخالفكم في نبوة محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه؛ لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَبَشِّرِ الرَّسُولَ بِأَنِّي مِّنْ بَعْدِي أُتَمُّهُ أَهْمٌ﴾ [الصف: ٦]، فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ﷺ، فظهر أنكم أنتم الذين لم تتبعوا المتفق عليه ولا غيره. فانقطع النصراني.

ولا شك أن النصارى لو كانوا متبعين عيسى، لاتبعوا محمداً ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قد قدمنا أن هذه الآية في النصارى، والتي قبلها في اليهود، والتي قبل تلك في المسلمين، كما يقتضيه ظاهر القرآن.

وقد قدمنا أن الكفر، والظلم، والفسق كلها يطلق على المعصية بما دون الكفر، وعلى الكفر المخرج من الملة نفسه. فمن الكفر بمعنى المعصية. قوله ﷺ لما سأله المرأة عن سبب كون النساء أكثر أهل النار، أن ذلك واقع بسبب كفرهن ثم فسره بأنهن يكفرن العشير. ومن الكفر بمعنى المخرج عن الملة، قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ الآية [الكافرون]، ومن الظلم بمعنى الكفر قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ومنه بمعنى المعصية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]. ومن الفسق بمعنى الكفر قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. ومنه بمعنى المعصية قوله في الذين قذفوا عائشة، ﷺ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ومعلوم أن القذف ليس بمخرج عن الملة، ويدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآثَانِكَ عُصْبَةٌ مِّنْكَ﴾ [النور: ١١]. ومن الفسق بمعنى المعصية أيضاً، قوله في الوليد بن عتبة: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية [الحجرات: ٦].

وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فمن كان امتناعه من الحكم بما أنزل الله، لقصد معارضته ورده، والامتناع من التزامه، فهو كافر ظالم فاسق كلها بمعناها المخرج من الملة. ومن كان امتناعه من الحكم لهوى، وهو يعتقد قبح فعله، فكفره وظلمه وفسقه غير المخرج من الملة، إلا إذا كان ما امتنع من الحكم به شرطاً في صحة إيمانه، كالامتناع من اعتقاد ما لا بد من اعتقاده، هذا هو الظاهر في الآيات المذكورة كما قدمنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، ولكنه يبين في مواضع آخر أن ولاية بعضهم لبعض زائفة ليست خالصة؛ لأنها لا تستند على أساس صحيح - هو دين الإسلام -، فبين أن العداوة والبغضاء بين النصارى دائمة إلى يوم القيامة، بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكُمْ إِحْدَانَا مِثْلَهُمْ فَاسْتَوْصُوا حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، وبين مثل ذلك في اليهود أيضاً، حيث قال فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُقَيِّدُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَازِدَتِ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، والظاهر أنها في اليهود فيما بينهم، كما هو صريح السياق، خلافاً لمن قال إنها بين اليهود، والنصارى.

وصرح تعالى بعدم اتفاق اليهود معللاً له بعدم عقولهم في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

تنبيه: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أن اليهودي، والنصراني، يتوارثان. ورده بعض العلماء، بأن المراد بالآية، ولاية اليهود لخصوص اليهود، والنصارى لخصوص النصارى، وعلى هذا المعنى فلا دليل في الآية لتوارث اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَبَرٌّ مِنْكُمْ فَأَنذَرُكُمْ مِنْهُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أن من تولى اليهود والنصارى من المسلمين فإنه يكون منهم بتولية إياهم؛ وبين في موضع آخر أن توليهم موجب لسخط الله، والخلود في عذابه، وأن متوليهم لو كان مؤمناً ما تولاهم، وهو قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْا الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِزَةِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ونهى في موضع آخر: عن توليهم مبيناً سبب التنفير منه؛ وهو قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَاسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣].

وبين في موضع آخر: أن محل ذلك، فيما إذا لم تكن الموالاة بسبب خوف، وتقية، وإن كانت بسبب ذلك فصاحبها معذور، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَدَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهذه الآية الكريمة فيها بيان لكل الآيات القاضية بمنع موالاة الكفار مطلقاً وإيضاح؛ لأن محل ذلك في حالة الاختيار، وأما عند الخوف والتقية، فيرخص في موالاةهم، بقدر المدارة التي يكتفى بها شرهم، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة.

ومن يأتي الأمور على اضطرار فليس كمثل آتيها اختياراً

وفيه من ظواهر هذه الآيات أن من تولى الكفار عمداً اختياراً، رغبة فيهم أنه كافر مثلهم.

قوله تعالى: ﴿تَدْرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فُتَصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيقٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْأَذَى الْأَقْسَمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَاصْبِحُوا خَسِرِينَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، يعتذرون عن موالاته الكفار من اليهود بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر، أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم، كما قال الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بأخريتنا

يعنون إما بقحط فلا يميزونا، ولا يفاضلونا علينا، وإما بظفر الكفار بالمسلمين، فلا يدوم الأمر للنبي ﷺ وأصحابه، زعماً منهم أنهم عند قلب الدهر بنحو ما ذكر، يكون لهم أصدقاء كانوا محافظين على صداقتهم، فينالون منهم ما يؤمل الصديق من صديقه، وأن المسلمين يتعجبون من كذبهم في إقسامهم بالله جهد أيمانهم إنهم لمع المسلمين، وبين في هذه الآية: أن تلك الدوائر التي حافظوا من أجلها على صداقة اليهود أنها لا تدور إلا على اليهود، والكفار، ولا تدور على المسلمين، بقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾... الآية، و«عسى» من الله نافذة؛ لأنه الكريم العظيم الذي لا يطمع إلا فيما يعطي.

والفتح المذكور قيل: هو فتح المسلمين لبلاد المشركين. وقيل: الفتح الحكم، كقوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وعليه فهو حكم الله بقتل مقاتلة بني قريظة، وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير. وقيل: هو فتح مكة، وهو راجع إلى الأول.

وبين تعالى في موضع آخر أن سبب حلفهم بالكذب للمسلمين أنهم منهم؛ إنما هو الفرق أي الخوف، وأنهم لو وجدوا محلاً يسترون فيه عن المسلمين لسارعوا إليه، لشدة بغضهم للمسلمين، وهو قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ٥٦ تَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْتَرَاتٍ أَوْ مَذَخَلًا لَوْلَا إِلَهُهُمْ لَمَا يَجْمَعُونَ ٥٧﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] ففي هذه الآية بيان سبب أيمان المنافقين. ونظيرها قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦].

وبين تعالى في موضع آخر أنهم يحلفون تلك الأيمان ليرضى عنهم المؤمنون، وأنهم إن رضوا عنهم، فإن الله لا يرضى عنهم، وهو قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْفَاسِقِينَ ٥٨﴾ [التوبة: ٥٨].

وبين في موضع آخر: أنهم يريدون بأيمانهم إرضاء المؤمنين، وأن الله ورسوله

أحق بالإرضاء، وهو قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

وبين في موضع آخر أنهم يحلفون لهم ليرضوا عنهم، بسبب أن لهم عذراً صحيحاً، وأن الله أمرهم بالإعراض عنهم، لا لأن لهم عذراً صحيحاً، بل مع الإعلام بأنهم رجس، ومأوهم النار بسبب ما كسبوا من النفاق، هو قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ١٥].

وبين في موضع آخر أن أيمانهم الكاذبة سبب لإهلاكهم أنفسهم، وهو قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ... الآية [التوبة: ٤٢].

وهذه الأسباب لحلف المنافقين التي ذكرت في هذه الآيات راجعة جميعاً إلى السبب الأول، الذي هو الخوف، لأن خوفهم من المؤمنين هو سبب رغبتهم في إرضائهم، وإعراضهم عنهم بأن لا يؤذوهم؛ ولذا حلفوا لهم؛ ليرضوهم وليعرضوا عنهم؛ خوفاً من أذاهم، كما هو ظاهر.

تنبيه: قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾، فيه ثلاث قراءات سبعيات:

الأولى: "يقول": بلا واو مع الرفع، وبها قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر.
الثانية: "ويقول" بإثبات الواو مع رفع الفعل أيضاً، وبها قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي.

الثالثة: بإثبات الواو، ونصب يقول عطفاً على ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وبها قرأ أبو عمرو.
قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَيْدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَوَقَّعَ يَدَايَ اللَّهِ يَقُولُ يُجِيبُهُمْ وَيُجِيبُهُمْ أَدْلَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضاً عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم: الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب. والقسوة، والشدة على الكافرين. وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه ﷺ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهَنَّمَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٦]، وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَليظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ، بقوله: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد قال الشاعر في رسول الله ﷺ:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى بحد المشرفي المهند
وقال الآخر فيه:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
ويفهم من هذه الآيات أن المؤمن يجب عليه أن لا يلين إلا في الوقت المناسب
للين، وألا يشتد إلا في الوقت المناسب للشدة؛ لأن اللين في محل الشدة ضعف
وخور، والشدة في محل اللين حمق وخرق، وقد قال أبو الطيب المتنبي:
إذا قيل حلم قل فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب لو أطاعوا الله، وأقاموا كتابهم باتباعه، والعلم بما فيه؛ ليسر الله لهم الأرزاق وأرسل عليهم المطر، وأخرج لهم ثمرات الأرض.

وبين في مواضع أخر أن ذلك ليس خاصاً بهم، كقوله عن نوح وقومه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٦٦﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٦٧﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٦٨﴾﴾ [نوح] وقوله عن هود وقومه: ﴿وَيَقُومُوا رِجَالًا لَكُمْ تُدْرِكُهُمُ الْمَوْتُ وَأَنْهُمْ لَا يَدْفَعُونَهَا ﴿٦٩﴾﴾ وقوله عن نبينا عليه الصلاة والسلام وقومه: ﴿وَأِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَكُمْ إِذَا جَاءَ أَجَلُ مُسَمًّى ﴿٧٠﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. على أحد الأقوال، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٦﴾﴾ الآية [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢١٩﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا فَحْنُ رِزْقِكَ وَالْمَنْقِبَةُ لِلنَّقْوَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [طه] ومفهوم الآية: أن معصية الله تعالى سبب لنقيض ما يستجلب بطاعته، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، أن أهل الكتاب قسمان: طائفة منهم مقتصدة في عملها، وكثير منهم سيء العمل، وقسم هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام في قوله: ﴿فِيْنَهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢] ووعد الجميع بالجنة بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر]. وذكر القسم الرابع: وهو الكفار منها بقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦].

وأظهر الأقوال في المقتصد، والسابق، والظالم: أن المقتصد هو من امتثل الأمر، واجتنب النهي، ولم يزد على ذلك. وأن السابق بالخيرات هو من فعل ذلك، وزاد بالتقرب إلى الله بالنوافل، والتورع عن بعض الجائزات؛ خوفاً من أن يكون سبباً لغيره. وأن الظالم هو المذكور في قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

أمر تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، وشهد له بالامثال في آيات متعددة، كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ [الذاريات: ٥١]، ولو كان يمكن أن يكتنم شيئاً، لكتنم قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فمن زعم أنه ﷺ، كتنم حرفاً مما أنزل عليه، فقد أعظم الافتراء على الله وعلى رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾ (٧١).

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل عموا وصموا مرتين، تتخللهم توبة من الله عليهم، وبين تفصيل ذلك في قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، فبين جزاء عما هم وصممهم في المرة الأولى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، وبين جزاء عما هم، وصممهم في المرة الآخرة بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأَ﴾ [الإسراء: ٧]، وبين التوبة التي بينهما بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، ثم بين أنهم إن عادوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقام منهم بقوله: ﴿وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]، فعادوا إلى الإفساد بتكذيبه ﷺ، وكنتم صفاته التي في التوراة، فعاد الله إلى الانتقام منهم، فسلط عليهم نبيه ﷺ فذبح مقاتلة بني قريظة، وسبى نساءهم وذريتهم، وأجلى بني قينقاع، وبني النضير. كما ذكر تعالى طرفاً من ذلك في سورة الحشر. وهذا البيان الذي ذكرنا في هذه الآية ذكره بعض المفسرين، وكثير منهم لم يذكره، ولكن ظاهر القرآن يقتضيه؛ لأن السياق في ذكر أفعالهم القبيحة الماضية: من قتل الرسل، وتكذيبهم، إذ قبل الآية المذكورة: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

ومعنى ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ ظنوا ألا يصيبهم بلاء وعذاب من الله بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء؛ لزعهم الباطل أنهم أبناء الله، وأحباؤه، وقوله: ﴿كَثِيرٌ

مِّنْهُمْ أَحْسَنَ أَوْجِهَ الْإِعْرَابِ فِيهِ؛ أَنَّهُ بَدَلَ مِنْ وَאוِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعَمُوا وَصَكُّوا﴾، كَقَوْلِكَ: جَاءَ الْقَوْمُ أَكْثَرَهُمْ. وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾، قَرَأَهُ حَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ، وَأَبُو عَمْرٍو بِالرَّفْعِ، وَالْبَاقُونَ بِالنَّصْبِ، فَوَجْهٌ قِرَاءَةُ النَّصْبِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ الْحِسْبَانَ بِمَعْنَى الظَّنِّ، وَوَجْهٌ قِرَاءَةُ الرَّفْعِ، تَنْزِيلُ اعْتِقَادِهِمْ لَذَلِكَ - وَلَوْ كَانَ بَاطِلًا - مَنْزِلَةُ الْعِلْمِ، فَتَكُونُ أَنَّ مَخْفَفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٤).

أشار في هذه الآية، إِلَى أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ فَلَنَقُصَّ﴾ لَوْ تَابُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِّ، لَتَابَ عَلَيْهِمْ وَغُفِرَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُ اسْتَعْظَفَهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ اسْتَعْظَافٍ، وَالْطَّفْهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ غُفِرَ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَصَرَّحَ بِهَذَا الْمَعْنَى عَامًّا لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾... الآية [الأنفال: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَمُّ صِدِّيقَةٍ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أَنَّ عِيسَى وَأمَهُ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ، وَذَكَرَ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَانُوا كَذَلِكَ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يَصْرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَالْمُرَادُ بِصَرْفِهِمْ عَنْهُ، قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا -، وَعَلَى مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ لِعَائِنِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَشْنَعُ مِنْهُ وَلَا أَعْظَمُ، مَعَ ظُهُورِ أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ الْمُبِينَةِ لَهُ؛ وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرِهِمْ، كَيْفَ يُؤْفَكُونَ إِلَى هَذَا الْكُفْرِ مَعَ وَضُوحِ أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ؟!

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية.

قال بعض العلماء: الَّذِينَ لَعِنُوا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ: الَّذِينَ اعْتَدُوا فِي السَّبْتِ، وَالَّذِينَ لَعِنُوا عَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْمَائِدَةِ. وَعَلَيْهِ فَلَعِنَ الْأَوَّلِينَ مَسْخَهُمْ قَرْدَةً، كَمَا بَيْنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وَلَعِنَ الْآخَرِينَ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ فَإِنَّ أَعْدَابَهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ أَنَّهُ

مسخهم خنازير، وهذا القول مروى عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والباقر، نقله الألويسي في تفسيره، وقال: واختاره غير واحد. ونقله القرطبي عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وأبي مالك، وذكر أنه روي عن النبي ﷺ.

وقال بعض من قال بهذا القول: إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت، قال داود عليه الصلاة والسلام: «اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين»، فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا، قال عيسى عليه الصلاة والسلام: «اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، وألعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير».

وأن هذا معنى لعنهم على لسان داود، وعيسى ابن مريم. وفي الآية أقوال غير هذا تركنا التعرض لها؛ لأنها ليست مما نحن بصدده.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

قد قدمنا في سورة البقرة أن المراد بما عقدتم الأيمان، هو ما قصدتم عقد اليمين فيه، لا ما جرى على ألسنتكم من غير قصد نحو: «لا والله» و«بلى والله»، ومنه قول الفرزدق:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعد عاقدات العزائم
وهذا العقد معنوي، ومنه قول الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناب وشدوا فوقه الكربا

وقرأه حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بالتخفيف بلا ألف. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر (عاقدتم) بألف بوزن فاعل، وقرأه الباقر بالتشديد من غير ألف، والتضعيف والمفاعلة: معناهما مجرد الفعل بدليل قراءة ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بلا ألف، ولا تضعيف، والقراءات يبين بعضها بعضاً، و(ما) في قوله ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ مصدرية على التحقيق لا موصولة، كما قاله بعضهم زاعماً أن ضمير الربط محذوف.

وفي المراد باللغو في الآية أقوال أشهرها عند العلماء اثنان:

الأول: أن اللغو ما يجري على لسان الإنسان من غير قصد، كقوله: «لا والله» و«بلى والله».

وذهب إلى هذا القول الشافعي، وعائشة في إحدى الروايتين عنها. وروي عن ابن عمر، وابن عباس في أحد قوليه، والشعبي، وعكرمة في أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبي صالح، والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلابة، والزهري، كما نقله عنهم ابن كثير، وغيره.

القول الثاني: أن اللغو هو أن يحلف على ما يعتقد، فيظهر نفيه، وهذا هو مذهب مالك بن أنس، وقال: إنه أحسن ما سمع في معنى اللغو، وهو مروى أيضاً عن

عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس في أحد قوليه، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، ومجاهد في أحد قوليه، وإبراهيم النخعي في أحد قوليه، والحسن، ووزارة بن أوفى، وأبي مالك، وعطاء الخراساني، وبكر بن عبد الله، وأحد قوليه عكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسدي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيع، كما نقله عنهم ابن كثير.

والقولان متقاربان، واللغو يشملهما؛ لأنه في الأول لم يقصد عقد اليمين أصلاً، وفي الثاني لم يقصد إلا الحق والصواب. وغير هذين القولين من الأقوال تركته لضعفه في نظري. واللغو في اللغة: هو الكلام بما لا خير فيه، ولا حاجة إليه، ومنه حديث: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت، فقد لغوت، أو لغيت».

وقول العجاج:

ورب أسراب حجيح كظم
عن اللغا ورفث التكلم
قوله تعالى: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

لم يقيد هنا «رقبة» كفارة اليمين بالإيمان، وقيد به كفارة القتل خطأ. وهذه من مسائل المطلق والمقيد في حالة اتفاق الحكم، مع اختلاف السبب، وكثير من العلماء يقولون فيه بحمل المطلق على المقيد، فتقيد رقبة اليمين والظهار بالقيد الذي في رقبة القتل خطأ، حملاً للمطلق على المقيد وخالف في ذلك أبو حنيفة ومن وافقه.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب) في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]؛ ولذلك لم نطل الكلام بها هنا.

والمراد بالتحجير: الإخراج من الرق، وربما استعملته العرب في الإخراج من الأسر والمشقات، وتعب الدنيا ونحو ذلك، ومنه قول والده مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي من تعب أعمال الدنيا، ومنه قول الفرزدق همام بن غالب التميمي:

أبني غداة إنسي حررتكم
فوهبتكم لعطية بن جعال
يعني حررتكم من الهجاء، فلا أهجوكم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالنَّيْسُ وَالْأَصَابُ وَالْأَرْكَامُ رَجَسٌ﴾، يفهم من هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين، لأن الله تعالى قال: إنها رجس، والرجس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس. وقيل: إن أصله من الركس، وهو العذرة والتفن.

قال بعض العلماء: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه، أن خمر الدنيا ليست كذلك، ومما يؤيد هذا أن كل الأوصاف التي مدح بها تعالى خمر الآخرة منفية عن خمر الدنيا، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، وكقوله: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ٦٧]، بخلاف خمر الدنيا ففيها

غول يغتال العقول، وأهلها يصدعون أي يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها، وقوله ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] على قراءة فتح الزاي مبنياً للمفعول، فمعناه: أنهم لا يسكرون، والتزيف السكران، ومنه قول حميد بن ثور:

نزيف ترى ردع العبير بجيبها كما ضرج الضاري النزيف المكلم
يعني أنها في ثقل حركتها كالسكران، وأن حمرة العبير الذي هو الطيب في جيبها كخمرة الدم على الطريد الذي ضرجه الجوارح بدمه: فأصابه نزيف الدم من جرح الجوارح له، ومنه أيضاً قول امرئ القيس:

وإذ هي تمشي كمشي النزيف يصصره بالكشيب البهر
وقوله أيضاً:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت تراشي الفؤاد الرخص ألا تخترا
وقول ابن أبي ربيعة أو جميل:

فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
وعلى قراءة ﴿يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] بكسر الزاي مبنياً للفاعل، ففيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أنه من أنزف القوم إذا حان منهم النزف وهو السكر؛ ونظيره قولهم: أحصد الزرع؛ إذا حان حصاده، وأقطف العنب؛ إذا حان قطافه، وهذا القول معناه راجع إلى الأول.

والثاني: أنه من أنزف القوم إذا فئت خمرهم، ومنه قول الحطيئة:

لعمري لئن أنزفتما أو صحوتما لبئس الندامى أنتم آل أبجرا
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة يفهم من دليل خطابها - أي مفهوم مخالفتها - أنهم إن حلوا من إحرامهم جاز لهم قتل الصيد، وهذا المفهوم مصرح به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، يعني: إن شئتم، كما تقدم إيضاحه في أول هذه السورة الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ الآية.

ذهب جمهور العلماء إلى أن معنى هذه الآية الكريمة: ومن قتله منكم متعمداً لقتله ذكراً لإحرامه. وخالف مجاهد رحمته الله الجمهور قائلاً: إن معنى الآية: ومن قتله منكم متعمداً لقتله في حال كونه ناسياً لإحرامه، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون فيها قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول؛ وإذا عرفت

ذلك فاعلم أن في الآية قرينة واضحة دالة على عدم صحة قول مجاهد كَلَّه، وهي قوله تعالى: ﴿لَيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، فإنه يدل على أنه متعمد أمراً لا يجوز، أما الناسي فهو غير آثم إجماعاً، فلا يناسب أن يقال فيه: ﴿لَيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، كما ترى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ الآية. ظاهر عموم هذه الآية الكريمة يشمل إباحة صيد البحر للمحرم بحج أو عمرة، وهو كذلك، كما بينه تخصيصه تعالى بتحريم الصيد على المحرم بصيد البر في قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، فإنه يفهم منه أن صيد البحر لا يحرم على المحرم، كما هو ظاهر.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾. قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؛ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد. وبمن قال بهذا: حذيفة، وسعيد بن المسيب، كما نقله عنهما الألوسي في تفسيره، وابن جرير، ونقله القرطبي عن سعيد بن المسيب، وأبي عبيد القاسم بن سلام، ونقل نحوه ابن جرير عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر وابن مسعود.

فمن العلماء من قال: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي أمرتم فلم يسمع منكم. ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية، وهو ظاهر جداً ولا ينبغي العدول عنه لمنصف.

ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [الصبر]، فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الأمر ضلال من ضل؛ وقد دلت الآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمرُوا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده.

فمن ذلك ما خرجه الشيخان في صحيحيهما: عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها «أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً مرعوباً يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان

الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً»، أخرجه البخاري والترمذي.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنسي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ثم قال: كلا، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضهم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».

رواه أبو داود والترمذي: وقال: حسن، وهذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى يأتروهم على الحق أطراً».

ومعنى تأطروهم: أي تعطفوهم. ومعنى تقصرونه: تحبسونه.

والأحاديث في الباب كثيرة جداً، وفيها الدلالة الواضحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ويؤيده كثرة الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٣٤) [آل عمران: ١٠٤]، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩)، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينَ يَمَينِ يَمَانٍ كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

والتحقيق في معناها أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي: أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب، صالحهم، وطالحهم. وبه فسرهما جماعة من أهل العلم. والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك كما قدمنا طرفاً منها.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنَّمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِذَا لَمِنَ الْآيَاتِينَ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن كاتم الشهادة آثم، وبين في موضع آخر أن هذا الإثم من الآثام القلبية، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبِيٌّ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ومعلوم أن منشأ الآثام والطاعات جميعاً من القلب؛ لأنه إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُخْرِجُ الْمَوْتُ بِإِذْنِي﴾. معناه إخراجهم من قبورهم أحياء بمشيئة الله وقدرته، كما أوضحه بقوله: ﴿وَأُزَيَّرُ الْأَكْمَهَ وَالْأَنْبَرُ وَأُحْيَى الْمَوْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ بِالْبَيْتِ... الآية. لم يذكر هنا كيفية كفه إياهم عنه، ولكنه بينه في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَوُهُ وَلَكِنْ سُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيَّ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمُطَهَّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الآية. قال بعض أهل العلم: المراد بالإحياء إلى الحواريين الإلهام، ويدل له ورود الإحياء في القرآن بمعنى الإلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨] يعني ألهمها. قال بعض العلماء: ومنه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧]. وقال بعض العلماء معناه: أوحيت إلى الحواريين إحياء حقيقياً بواسطة عيسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.



باسم الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

في قوله تعالى: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف، والميل عنه، وعلى هذا

فقوله: ﴿بَرِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾، وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن «الباء» بمعنى «عن» أي يعدلون عن ربهم، فلا يتوجهون إليه بطاعة، ولا إيمان.

وثانيهما: أن «الباء» متعلقة بـ«يعدلون»، ومعنى يعدلون: يجعلون له نظيراً في العبادة، من قول العرب: عدلت فلاناً بفلان، إذا جعلته له نظيراً وعديلاً؛ ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

يعني أ جعلت طهية والخشاب نظراء وأمثالا لبني ثعلبة، وبني رياح، وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٧١﴾ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَصِبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساءوا بين المخلوق والخالق - فحبهم الله تعالى - كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٧٧﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وعدل الشي في اللغة مثله، ونظيره، قال بعض علماء العربية: إذا كان من جنسه، فهو عدل - بكسر العين - وإذا كان من غير جنسه، فهو عدل - بفتح العين - . ومن الأول قول مهلهل:

على أن ليس عدلاً من كليب إذا برزت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا اضطرب العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب غداة يلابل الأمر الكبير

يعني: أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب - الذي قتله جساس بن مرة البكري - لا يكافئونه، ولا يعادلونه في الشرف.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]؛ لأن المراد نظير الإطعام من الصيام، وليس من جنسه، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدِيلٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل: الفداء؛ لأنه كأنه قيمة معادلة للمفدى تؤخذ بدله.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَكُمْ﴾... الآية. في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير. وكل واحد منها له مصداق في كتاب الله تعالى:

الأول: أن المعنى: وهو الله في السماوات وفي الأرض، أي: وهو الإله المعبود في السماوات والأرض؛ لأنه - جلّ وعلا - هو المعبود وحده بحق في الأرض والسما. وعلى هذا فجملة «يعلم» حال، أو خبر، وهذا المعنى يبينه، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: وهو المعبود في

السماء والأرض بحق، ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره؛ لأنها وبال عليهم، يخلدون بها في النار الخلود الأبدي، ومعبوداتهم ليست شركاء الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، ﴿إِنْ مِنْ إِلَّا أَمْثَلُهُمْ ثَمَرُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَمَا يَنْجِي الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَسْمُوتُوا إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]. وهذا القول في الآية أظهر الأقوال، واختاره القرطبي.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أي: وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض؛ وبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الفرقان: ٦].

قال النحاس: وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية. نقله عنه القرطبي.

الوجه الثالث: وهو اختيار ابن جرير، أن الوقف تام على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلق بما بعده، أي يعلم سركم وجهركم في الأرض، ومعنى هذا القول: أنه - جل وعلا - مستقر على عرشه فوق جميع خلقه، مع أنه يعلم سر أهل الأرض وجهرهم لا يخفى عليه شيء من ذلك. وبين هذا القول، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفُّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ﴾ [١٧]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه]، مع قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا كُنَّا عَائِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧]. وسيأتي إن شاء الله تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة الأعراف.

واعلم أن ما يزعمه الجهمية من «أن الله تعالى في كل مكان» مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض؛ ضلال مبين، وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده - جل وعلا - أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حال فيها، أو في كل جزء من أجزائها. حاشا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السموات والأرض أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء «محيط بكل شيء»، ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء ﴿لَا يَمْرُؤُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣]، سبحانه وتعالى علواً كبيراً لا نحصى ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ زُلْزِلَا عَلَيْكَ كِتَابٌ فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوُا بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٧]. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار لو نزل الله عليهم كتابا مكتوباً في قرطاس، أي: صحيفة، إجابة لما اقترحوه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُؤُوفِكَ

حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿٣٩﴾ [الإسراء: ٣٩]، فعاینوا ذلك الكتاب المنزل، ولمسته أيديهم؛ لعاندوا، وأدعوا أن ذلك من أجل أنه سحرهم. وهذا العناد واللجاج العظيم والمكابرة الذي هو شأن الكفار بيّنه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٧٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْنُورَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات. وذكر تعالى نحو هذا العناد واللجاج عن فرعون وقومه في قوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٧٧﴾﴾. لم يبين هنا ماذا يريدون بإنزال الملك المقترح، ولكنه بيّن في موضع آخر أنهم يريدون بإنزال الملك أن يكون نذيراً آخر مع النبي ﷺ، وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨١﴾﴾. يعني أنه لو نزل عليهم الملائكة وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي، لجاءهم من الله العذاب من غير إمهال ولا إنظار؛ لأنه حكم بأن الملائكة لا تنزل عليهم إلا بذلك، كما بيّنه تعالى بقوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكُكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩١﴾﴾.

أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من شدة النور، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري. وهذه الآية الكريمة تدل على أن الرسول ينبغي أن يكون من نوع المرسل إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَ رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠١﴾﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار استهزءوا برسل قبل نبينا ﷺ، وأنهم حاق بهم العذاب بسبب ذلك، ولم يفصل هنا كيفية استهزائهم، ولا كيفية العذاب الذي أهلکوا به، ولكنه فصل كثيراً من ذلك في مواضع أخرى متعددة في ذكر نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وقومه، إلى غير ذلك.

فمن استهزأهم بنوح: قولهم له: «بعد أن كنت نبياً صرت نجاراً»، وقد قال الله تعالى عن نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [الغنكوت: ١٤]، وأمثالها من الآيات.

ومن استهزأهم بهود: ما ذكره الله عنهم من قولهم: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بِعَصِ الْهَيْئَةِ يَسُوءُ﴾ [هود: ٥٤]، وقوله عنهم أيضاً: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي الْهَيْئَةِ عَنْ قَوْلِكَ﴾ ... الآية [هود: ٥٣]. وذكر ما حاق بهم من العذاب في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ... الآية [الذاريات: ٤١]، وأمثالها من الآيات.

ومن استهزأهم ب صالح: قولهم فيما ذكره الله عنهم: ﴿يَصْلِحُ أَقْبَنَا بِمَا نَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولهم: ﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]. وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود: ٧٧]، ونحوها من الآيات.

ومن استهزأهم بلوط: قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل: ٥٦]، وقولهم له أيضاً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا آمَاطِرًا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات.

ومن استهزأهم بشعيب: قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]. وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. يعني أنه تعالى هو الذي يرزق الخلائق، وهو الغني المطلق فليس بمحتاج إلى رزق. وقد بين تعالى هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥١ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٢ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٣ [الذاريات]. وقراءة الجمهور على أن الفعلين من الإطعام، والأول مبني للفاعل، والثاني مبني للمفعول، كما بيناه، وأوضحته الآية الأخرى. وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش الفعل الأول كقراءة الجمهور، والثاني بفتح الياء والعين مضارع طعم الثلاثي بكسر العين في الماضي، أي: أنه يرزق عباده، ويطعمهم، وهو - جل وعلا - لا يأكل؛ لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من الغذاء؛ لأنه - جل وعلا - الغني لذاته، الغني المطلق، سبحانه وتعالى علواً كبيراً، ﴿يَتَأَمَّلُ النَّاسُ أَنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

والقراءة التي ذكرنا عن سعيد ومجاهد والأعمش، موافقة لأحد الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَضْكَمُ﴾ ٢ [الإخلاص]، قال بعض العلماء: ﴿أَضْكَمُ﴾ السيد

الذي يلجأ إليه عند الشدائد والحوادث. وقال بعضهم: هو السيد الذي تكامل سؤدده وشرفه وعظمته، وعلمه وحكمته، وقال بعضهم: ﴿الضَكَّةُ﴾ هو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وعليه: فما بعده تفسير له. وقال بعضهم: هو الباقي بعد فناء خلقه. وقال بعضهم: ﴿الضَكَّةُ﴾ هو الذي لا جوف له، ولا يأكل الطعام. وهو محل الشاهد. وممن قال بهذا القول: ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي؛ كما نقله عنهم ابن كثير، وابن جرير وغيرهما.

قال مقبده - عفا الله عنه -: من المعروف في كلام العرب، إطلاق الصمد على السيد العظيم، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له، فمن الأول قول الزبيرقان:

سيرا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيّد صمد
وقول الآخر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأتى السيّد الصمد
وقول الآخر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسّيّد الصمد
ومن الثاني قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

فإذا علمت ذلك، فالله تعالى هو السيد الذي هو وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات، وهو الذي تنزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية.

يعني أول من أسلم من هذه الأمة التي أرسلت إليها، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس، كما بينه تعالى بآيات كثيرة تدل على وجود المسلمين قبل وجوده ﷺ، ووجود أمته، كقوله عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ رَبِّيَ الْمَلِئِينَ﴾ [البقرة]، وقوله عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله عن لوط وأهله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِيهَا عَرِّبْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧). أشار تعالى بقوله هنا: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧) بعد قوله: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (٧) إلى أن فضله وعطاءه الجزيل لا يقدر أحد على رده، عمن أراده له تعالى. كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَإِنْ يَرْزُقْكَ بِشَيْءٍ فَلَا زَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الآية. قال جمهور علماء التفسير: المراد بالموتى في هذه الآية: الكفار، وتدل لذلك آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوْتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَيْتَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وبين في موضع آخر: أن حكمة عدم إنزالها أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها لنزل بهم العذاب العاجل، كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيبته، فعقروها ﴿وَقَالُوا يَصْطَلِحُ أَثْنَانَا يَمَّا نَعْدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وبين في مواضع أخرى أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها وغيرها، وتلك الآية هي هذا القرآن العظيم؛ وذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فإنكاره - جل وعلا - عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل على أنه أعظم وأفخم من كل آية، وهو كذلك. ألا ترى أنه آية واضحة، ومعجزة باهرة، أعجزت جميع أهل الأرض، وهي باقية تتردد في أذان الخلق غضة طرية حتى يأتي أمر الله، بخلاف غيره من معجزات الرسل صلوات الله عليهم وسلامه؛ فإنها كلها مضت وانقضت.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٠ - ٤١] الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين إذا أتاهم عذاب من الله، أو أتتهم الساعة أخلصوا الدعاء الذي هو مخ العبادة لله وحده، ونسوا ما كانوا يشركون به؛ لعلمهم أنه لا يكشف الكروب إلا الله وحده - جل وعلا.

ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله، ولم يبين هنا أيضاً إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على إخلاصهم، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم، ولكنه بين كل ذلك في مواضع أخرى.

فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك؛ كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي

الْفَالِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَبَقُوا فِيهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَالِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [القمان: ٣٢]... إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم إذا كشف الله عنهم ذلك الكرب، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِمَّا فِي يَدَيْهِ ثُمَّ أَنتُمْ شُرَكَاءُ﴾ [يونس: ٦٤]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى أن رجوعهم للشرك بعد أن نجاهم الله من الغرق من شدة جهلهم، وعماهم؛ لأنه قادر على أن يهلكهم في البر كقدرته على إهلاكهم في البحر، وقادر على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى، ويهلكهم فيه بالغرق، فجراتهم عليه إذا وصلوا البر لا وجه لها؛ لأنها من جهلهم وضلالهم، وذلك في قوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [١٨] أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا يَدًا نَبِيْعًا﴾ [الإسراء: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. وأمره في آية أخرى أن يصبر نفسه معهم، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، ونهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك وهي قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٢٨] [الكهف].

كما أمره هنا بالسلام عليهم، وبشارتهم برحمة ربهم - جل وعلا - في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية.

وبين في آيات أخر أن طرد ضعفاء المسلمين الذين طلبه كفار العرب من نبينا ﷺ فنهاه الله عنه، طلبه أيضاً قوم نوح من نوح، فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣). أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس؛ ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا ﷺ: أشرف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. قال: هم أتباع الرسل.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء؛ لأننا أحقّ منهم بكل خير، كما قال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾... الآية، إنكاراً منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحقّ بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ؟﴾.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٦) [مریم].

والمعنى: أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل، ومتاعاً من ضعفاء المسلمين اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير، وأن أتباع الرسول ﷺ لو كان خيراً ما سبقوهم إليه. ورد الله افتراءهم هذا بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا﴾ (٧٦) [مریم]، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّآ مُدْهَرٌّ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ ۖ شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١) [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ الآية.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يخبر الكفار، أن تعجيل العذاب عليهم الذي يطلبونه منه ﷺ ليس عنده، وإنما هو عند الله إن شاء عجله، وإن شاء أخره عنهم. ثم أمره أن يخبرهم بأنه لو كان عنده لعجله عليهم، بقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية. وبين في مواضع أخر أنهم ما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب، وأنهم إن عاينوا ذلك العذاب علموا أنه عظيم هائل لا يستعجل به إلا جاهل مثلهم؛ كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَنَّهُمْ مَعْدُودُونَ لِيَقُولُوا مَا يَجِدُشُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨) [هود]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥١) [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) [يونس].

وبين في موضع آخر أنه لولا أن الله حدد لهم أجلاً لا يأتيهم العذاب قبله، لعجله عليهم، وهو قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ

الْأَمْرُ) الآية، صريح في أنه ﷺ لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم، لعجله عليهم، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ؓ: أن النبي ﷺ أرسل الله إليه ملكَ الجبال، وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها - فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا».

والظاهر في الجواب: هو ما أجاب به ابن كثير - ﷺ - في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم تعجيله لعجله عليهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت، بل عرض عليه الملك إهلاكهم، فاختار عدم إهلاكهم. ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

بين تعالى المراد بمفاتيح الغيب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٤٩]، فقد أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أن المراد بمفاتيح الغيب: الخمس المذكورة في الآية المذكورة.

والمفاتيح: الخزائن، جمع مفتاح بفتح الميم، بمعنى المخزن، وقيل: هي المفاتيح جمع مفتاح، بكسر الميم، وهو المفتاح، وتدل له قراءة ابن السمين: مفاتيح بياء بعد التاء جمع مفتاح. وهذه الآية الكريمة تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وهو كذلك؛ لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم - جل وعلا.

وعن عائشة ؓ، قالت: «من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]» أخرجه مسلم. والله تعالى في هذه السورة الكريمة أمره ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولذا لما رُوِيَتْ عائشة ؓ بالإفك، لم يعلم أهي بريئة أم لا، حتى أخبره الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ مِزَانٌ مِّمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].

وقد ذبح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجله للملائكة، ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. ولما جاءوا لوطاً لم يعلم أيضاً أنهم ملائكة، ولذا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وقال هذا يوم عصيب [هود: ٧٧]، يخاف عليهم من أن يفعل بهم قومه فاحتشمتهم المعروفة حتى قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، ولم يعلم خبرهم حتى قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ... الآيات [هود: ٨١].

ويعقوب ﷺ ابضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهر الله خبر يوسف.

وسليمان ﷺ مع أن الله سخر له الشياطين والريح، ما كان يدري عن أهل مأرب قوم بلقيس، حتى جاءه الهدهد وقال له: ﴿أَحْطُتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَارٍ يَفِينِ﴾... الآيات [النمل: ٢٢].

ونوح عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام ما كان يدري أن ابنه الذي غرق ليس من أهله الموعود بنجاتهم، حتى قال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِكَ وَإِنَّ وَعْدَكَ أَلْحَقٌ﴾ [هود: ٤٥]، ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أخبره الله بقوله: ﴿قَالَ يَنْحُثِرُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنَا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقد قال تعالى عن نوح في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [هود: ٣١]، والملائكة عليهم الصلاة والسلام لما قال لهم: ﴿أُنَبِّئُوكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة، لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى، وهو تعالى يعلم رسله من غيبه ما شاء، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [إلا من أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ]... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن النوم وفاة. وأشار في موضع آخر إلى أنه وفاة صغرى، وأن صاحبها لم يمت حقيقة، وأنه تعالى يرسل روحه إلى بدنه حتى ينقضي أجله، وأن وفاة الموت التي هي الكبرى قد مات صاحبها؛ ولذا يمسك روحه عنده، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الآية. لم يبين هنا ماذا يحفظون. وبينه في مواضع آخر، فذكر أن مما يحفظونه بدن الإنسان بقوله: ﴿لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]، وقوله: ﴿إِذْ يَنْفَخُ الْنَّفْثَاتُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۖ قِيدٌ ۖ مَا يَلْفُظُونَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ ۖ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. نهى الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا. وبين ذلك كله

في موضع آخر، فيبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠].

وبين أن من جالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وبين حكم من جالسهم ناسياً، ثم تذكر، بقوله هنا: ﴿وَلَمَّا يُسَيِّئْكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما تقدم في سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾... الآيات.

قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في المواضع الثلاثة؛ محتمل لأنه كان يظن ذلك، كما زوي عن ابن عباس وغيره، ومحتمل لأنه جازم بعدم ربوبية غير الله، ومراده: هذا ربي في زعمكم الباطل، أو أنه جذب أداة استفهام الإنكار. والقرآن يبين بطلان الأول؛ وصحة الثاني. أما بطلان الأول، فالله تعالى نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عدة آيات، ونفى الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما.

وأما كونه جازماً موقناً بعدم ربوبية غير الله، فقد دل عليه ترتيب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ - إلى آخره - «بالفاء» على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥) فدل على أنه قال ذلك موقناً مناظراً ومحاجاً لهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾... الآية، وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

المراد بالظلم هنا الشرك كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

قال مجاهد وغيره: هي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟﴾ [الآية: ٨١]، وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨١).

والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم، كما في قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ لأن الأفلو الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها، وقد استدل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، بالأقول على انتفاء الربوبية في قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، فعدم إدخال هذه الحجة في قوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُكَ﴾ غير ظاهر، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. ذكر تعالى أن هؤلاء الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة لو أشركوا بالله لحبط جميع أعمالهم.

وصرح في موضع آخر بأنه أوحى هذا إلى نبينا، والأنبياء قبله - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه -، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، لقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]، على القول بأن «إن» شرطية، وقوله: ﴿لَوْ أَزِدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُلٍّ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. أي لا أحد أظلم ممن قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]. وقد بين الله تعالى كذبهم في افتراءهم هذا حيث تحدى جميع العرب بسورة واحدة منهم، كما ذكره تعالى في البقرة بقوله: ﴿فَأَتَوْا يُسُورَهُ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي يونس بقوله: ﴿قُلْ فَأَتَوْا يُسُورَهُ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وتحداهم في هود بعشر سُورٍ مثله في قوله: ﴿قُلْ فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَقْرَنِينَ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم به كله في الطور بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ١٦].

ثم صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلاق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ بَعْضٌ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية.

لم يصرح هنا بالشيء الذي بسطوا إليه الأيدي، ولكنه أشار إلى أنه التعذيب بقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، وصرح بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وبين في مواضع آخر أنه يراد ببسط اليد التناول بالسوء، كقوله: ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحة: ٢]، وقوله: ﴿لَنْ يَسْطَىٰ إِلَيْكَ يَدَاكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ الآية [المائدة: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار يأتون يوم القيامة كل واحد منهم بمفرده، ليس معهم شركاؤهم. وصرح تعالى بأن كل واحد يأتي فرداً في قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٩٥]. وقوله في هذه الآية: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي منفردين لا مال، ولا أناث، ولا رقيق، ولا خول عندكم، حفاة عراة غرلاً، أي غير مختونين، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقد عرفت من الآية

أن واحد الفرادي فرد، ويقال فيه أيضاً: فرد بالتحريك، ومنه قول نابغة ذبيان:

من وحش وجرة موشي أكارعه طايي المصير كسيف الصيقل الفرد
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الأنناد التي كانوا يعبدونها في الدنيا تضل عنهم يوم القيامة، وينقطع ما كان بينهم وبينها من الصلات في الدنيا، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَإِذَا خُتِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كافرين﴾ [الأحقاف]، وقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَلْوِينٍ﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْعَدُ لَكُمُ الْوَيْلُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ [الشعراء]، وقوله هنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَنًا﴾.

أي مظلماً ساجياً، ليسكن فيه الخلق فيستريحوا من تعب الكد بالنهار؛ كما بينه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ فَتَسْمَعُونَ أَوْ لَيْلٍ فَتَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ فَتَصْرُوكَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني بالنهار، ﴿وَمِن مَّآيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [نصلت: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن حكمة خلق النجوم هي الاهتداء بها فقط؛ كقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، ولكنه تعالى بين في غير هذا الموضع أن لها حكمتين أخريين غير الاهتداء بها، وهما: تزيين السماء الدنيا، ورجم الشياطين بها؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [١]، وَحَفَظْنَا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ [٢] لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِّن كُلِّ جَانِبٍ [٣] دُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ [٤] إِلَّا مَن خَلَفَ الْمَنَظْفَ فَنُتِمَّ شَأْبًا ثَاقِبٌ [٥]﴾ [الصفات]، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [نصلت: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ﴾ الآية.

لم يبين هنا كيفية إنشائهم من نفس واحدة، ولكنه بين في مواضع أخر أن كيفية: أنه خلق من تلك النفس الواحدة التي هي آدم: زوجها حواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿النساء: ١﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩].

قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرِكُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ الآية.

أشار في مواضع أخر إلى أن نفى الإدراك المذكور هنا لا يقتضي نفى مطلق الرؤية، كقوله: ﴿وَجِئُوا يَوْمَ الْحُجَّةِ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِقَةً ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين]، يفهم منه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه، وهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ الآية. يعني ليزعموا أن النبي ﷺ إنما تعلم هذا القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرآن من جبر ويسار، وكنا غلامين نصرانيين بمكة، وقد أوضح الله تعالى بطلان افتراءهم هذا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَىٰ ﴿١٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿١٥﴾ سَاطِلِيهِ سَفَرٌ ﴿١٦﴾﴾ [المدثر]، ومعنى ﴿يُؤْتَىٰ﴾: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿٥﴾﴾ قل أنزلهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿الفرقان: ٤ - ٦﴾، إلى غير ذلك من الآيات. وفي قوله: ﴿دَرَسْتَ﴾ ثلاث قراءات سبعيات: قرأه ابن كثير، وأبو عمرو: «دَارَسْتَ» بألف بعد الدال مع إسكان السين وفتح التاء؛ من المفاعلة بمعنى: دارست أهل الكتاب ودارسوك حتى حصلت هذا العلم. وقرأه بقية السبعة غير ابن عامر: «دَرَسْتَ» بإسقاط الألف، مع إسكان السين وفتح التاء أيضاً، بمعنى: درست هذا على أهل الكتاب حتى تعلمته منهم.

وقرأه ابن عامر: «دَرَسْتَ» بفتح الدال والراء والسين وإسكان التاء على أنها تاء التانيث، والفاعل ضمير عائد إلى الآيات المذكورة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾. قال القرطبي: وأحسن ما قيل في قراءة ابن عامر أن المعنى: ولثلا يقولوا انقطعت وانمحت، وليس يأتي محمد ﷺ بغيرها. اهـ.

وقال القرطبي: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ الواو للعطف على مضمير؛ أي نصرف الآيات، لتقوم الحجة وليقولوا: درست. وقيل: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ صرفناها.

قال مقيله - عفا الله عنه -: ومعناها آيل إلى شيء واحد، ويشهد له القرآن في آيات كثيرة دالة على أنه يبين الحق واضحاً في هذا الكتاب ليهدي به قوماً، ويجعله حجة على آخرين، كقوله: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿قُلْ

هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْجِدُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْجِعَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٣١]، كما قال هنا: ﴿وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فالأشقياء يقولون: تعلمته من البشر بالدراسة وأهل العلم، والسعداء يعلمون أنه الحق الذي لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل لكل نبي عدوًّا، وبين هنا أن أعداء الأنبياء هم شياطين الإنس والجن. وصرح في موضع آخر أن أعداء الأنبياء من المجرمين، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فدل ذلك على أن المراد بالمجرمين شياطين الإنس والجن. وذكر في هذه الآية أن من الإنس شياطين، وصرح بذلك في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]. وقد جاء الخبر بذلك مرفوعاً من حديث أبي ذر عند الإمام أحمد وغيره. والعرب تسمي كل متمرّد شيطاناً سواء كان من الجن أو من الإنس كما ذكرنا أو من غيرهما، وفي الحديث: «الكلب الأسود شيطان». وقوله: «شياطين» بدل من قوله: «عدوًّا»، أو مفعول أول «جعلنا»، والثاني «عدوًّا» أي جعلنا شياطين الإنس والجن عدوًّا.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن إطاعة أكثر أهل الأرض ضلال، وبين في مواضع أخرى أن أكثر أهل الأرض غير مؤمنين، وأن ذلك واقع في الأمم الماضية، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٦]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨٨]، إلى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

التحقيق أنه فصله لهم بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾... [الآية ١٤٥]. ومعنى الآية؛ أي شيء يمنعكم أن تأكلوا ما ذكيتكم، وذكرتم عليه اسم الله، والحال أن الله فصل لكم المحرم أكله عليكم في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾... الآية، وليس هذا منه.

وما يزعمه كثير من المفسرين من أنه فصله لهم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾... الآية [المائدة: ٣]، فهو غلط؛ لأن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من سورة الأنعام، وهي مكة. فالحق هو ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمٍهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه جعل في كل قرية أكبر المجرمين منها ليمكروا فيها، ولم يبين المراد بالأكابر هنا، ولا كيفية مكروهم. وبين جميع ذلك في مواضع أخرى: فبين أن مجرميها الأكابر هم أهل الترف، والنعمة في الدنيا، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبا: ٢٢]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

وبين أن مكر الأكابر المذكور: هو أمرهم بالكفر بالله تعالى، وجعل الأنداد له، بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبا: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَكْرُوهًا كَبَارًا﴾ [٢٣]، وقالوا: لَا نَذُرُّ إِلَهَتَكُمْ. الآية [نوح: ٢٢، ٢٣]. وأظهر أوجه الإعراب المذكورة في الآية عندي اثنان:

أحدهما: أن «أكابر» مضاف إلى مجرميها، وهو المفعول الأول لجعل التي بمعنى صير، والمفعول الثاني هو الجار والمجرور، أعني ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾.

وثانيهما: أن «مجرميها» مفعول أول، و«أكابر» مفعول ثان، أي جعلنا مجرميها أكابرها، والأكابر جمع الأكبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

يعنون أنهم لن يؤمنوا حتى تأتيهم الملائكة بالرسالة، كما أتت الرسل، كما بينه تعالى في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رُسُلًا﴾ الآية [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَكَةُ قِيلًا﴾ [الاسراء: ٩٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية.

جاء عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية الكريمة، فقيل: كيف يشرح صدره يا رسول الله ﷺ: قال: «نور يقذف فيه، فينشرح له، وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت». ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿يَمْعَثِرُ الْغَنَىٰ وَالْإِنْسَ الَّذِي يَأْتِيَكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية. قال بعض العلماء: المراد بالرسول من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم. ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ﴾ [٢٦] [الأحقاف].

وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس؛ لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: ﴿فَنَادَا صَاحِبًا فَقَاطِنًا فَقَرًا﴾ [القمر: ١٤].

واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية، من أن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب: غلط كبير، لا يجوز القول به؛ لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى؛ لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، والحلية المذكورة هي: اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً، كما ترى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [٣٦].

النفي في هذه الآية الكريمة منصب على الجملة الحالية، والمعنى أنه لا يهلك قوماً في حال غفلتهم، أي عدم إنذارهم، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على السنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؛ كما بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَلَنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عَمَلُوًّا﴾.

يبين في موضع آخر: أن تفاضل درجات العاملين في الآخرة أكبر، وأن تفضيلها أعظم من درجات أهل الدنيا، وهو قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ الآية.

اختلف العلماء في المراد بهذا الحق المذكور هنا، وهل هو منسوخ أو لا؟ فقال جماعة من العلماء: هذا الحق هو الزكاة المفروضة، وممن قال بهذا: أنس بن مالك، وابن عباس، وطاوس، والحسن، وابن زيد، وابن الحنفية، والضحاك، وسعيد بن المسيب، ومالك. نقله عنهم القرطبي، ونقله ابن كثير عن أنس وسعيد وغيرهما. ونقله ابن جرير عن ابن عباس، وأنس، والحسن، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وطاوس، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أنهم سيقولون: لو شاء الله ما أشركنا، وذكر في غير هذا الموضع أنهم قالوا ذلك بالفعل؛ كقوله في النحل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقوله في الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]. ومرادهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعه منه أن ذلك دليل

على رضاه بشرهم، ولذلك كذبهم هنا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَنْبُتُوا إِلَّا الظَّنُّ﴾... الآية، وكذبهم في الزخرف بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال في الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية. الظاهر في قوله: ما حرم ربكم عليكم، أنه مضمن معنى ما وصاكم به فعلاً، أو تركاً؛ لأن كلاً من ترك الواجب وفعل الحرام، حرام؛ فالمعنى وصاكم ألا تشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَا بِهِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ الآية.

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل؛ ونهى في سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المترقب المخوف منه، مع أنه غير واقع في الحال بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد أوضح رحمه الله معناه حين سأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وأخذ بعض أهل العلم من هذه الآية منع العزل؛ لأنه وأد خفي. وحديث جابر: «كنا نعزل والوحي ينزل»، يدل على جوازه. لكن قال جماعة من أهل العلم: إنه لا يجوز عن الحرية إلا بإذنها، ويجوز عن الأمة بغير إذنها، والإملاق: الفقر، وقال بعض أهل العلم: الإملاق: الجوع.

وحكاية النقاش عن مؤرج، وقيل: الإملاق: الإنفاق، يقال: أملك ماله بمعنى أنفقه، وذكر أن علياً قال لامرأته: أملقي ما شئت من مالك.

وحكي هذا القول عن منذر بن سعيد، ذكره القرطبي، وغيره، والصحيح الأول. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ الآية.

قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أنه إذا بلغ أشده فلا مانع من قربان ماله بغير التي هي أحسن، وليس ذلك مراداً بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أونس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ عَاسَتْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والتحقيق: أن المراد بالأشد في هذه الآية البلوغ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ عَاسَتْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦].

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة: كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية، وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة، ومن العلماء من قال:

إذا بلغت قامته خمسة أشبار، فقد بلغ، ويروى هذا القول عن علي، وبه أخذ الفرزدق في قوله يرثي يزيد بن المهلب:

ما زال مذ عقدت يداه إزاره فسمما فأدرك خمسة الأشبار
يدني خوافق من خوافق تلتقي في ظل معتبط الغبار مثار

والأشد، قال بعض العلماء: هو واحد لا جمع له كالآنك، وهو الرضا، وقيل: واحده شد، كفلس وأفلس، قاله القرطبي وغيره، وعن سيبويه أنه جمع شدة، ومعناه حسن؛ لأن العرب تقول: بلغ الغلام شدته، إلا أن جمع الفعل فيه على أفعل غير معهود، كما قاله الجوهري. وأما أنعم، فليس جمع نعمة، وإنما هو جمع نعم، من قولهم بؤس ونعم، قاله القرطبي. وقال أيضاً: وأصل الأشد من شد النهار إذا ارتفع، يقال: أتيته شد النهار، وكان محمد بن محمد الضبي ينشد بيت عترة:

عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظم
وقال الآخر:

تطيف به شد النهار ظعينة طويلة أنقاء اليدين سحوق
قال مقبده - عفا الله عنه -: ومنه قول كعب بن زهير:

شد النهار ذراعاً عيطل نصف قامت فجابوها نكد مثاكيل
فقوله: «شد النهار»، يعني وقت ارتفاعه، وهو بدل من اليوم في قوله قبله:

يومنا يظل به الحرباء مصطخداً كأن ضاحيه بالشمس محلول
فشد النهار بدل من قوله «يوماً»، بدل بعض من كل، كما أن قوله: «يوماً» بدل من «إذا» في قوله قبل ذلك:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقد تلفع بالقور العساقيل

لأن الزمن المعبر عنه «بإذا» هو بعينه اليوم المذكور في قوله «يوماً يظل» البيت. ونظيره في القرآن، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكَثِيرَىٰ ۖ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ ۖ يَوْمَ يَفِرُّ الْغَرَّةُ﴾... الآية [عبس: ٣٣، ٣٤]، وإعراب أبيات كعب هذه يدل على جواز تداخل البدل، وقوله: «ذراعاً عيطل» خبر كأن في قوله: «كأن أوب ذراعيها» البيت.

وقال السدي: الأشد ثلاثون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة، ولا يخفى أن هذه الأقوال بعيدة عن المراد بالآية كما بينا، وإن جازت لغة، كما قال سحيم بن وثيل:

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذني مداورة الشؤون

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ فَنَسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أخلّ بإيفائه من غير قصد منه لذلك، لا حرج عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك، ولكنه توعد بالويل في موضع آخر، ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى التَّالِسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالِينَ ۝٦﴾ [المطففين].

وذكر في موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي تَقِيمُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٢٥﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالعدل في القول، ولو كان على ذي قرابة، وصرح في موضع آخر بالأمر بذلك، ولو كان على نفسه أو والديه، وهو قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّيِمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا﴾ الآية. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالإيفاء بعهد الله، وصرح في موضع آخر أن عهد الله سيسأل عنه يوم القيامة، بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي عنه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم قطع عذر كفار مكة؛ لثلاث يقولوا: لو أنزل علينا كتاب لعلنا به، ولكنا أهدى من اليهود والنصارى، الذين لم يعملوا بكتبهم. وصرح في موضع آخر أنهم أقسموا على ذلك، وأنه لما أنزل عليهم ما زادهم نزوله إلا نفوراً وبعداً عن الحق، لاستكبارهم ومكرهم السيئ، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنْمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٦﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الآية.

قال بعض العلماء: إن هذا الفعل - أعني صدف - في هذه الآية لازم، ومعناه أعرض عنها، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال السدي: «صدف» في هذه الآية متعدية للمفعول، والمفعول محذوف، والمعنى أنه صدّ غيره عن اتباع آيات الله، والقرآن يدل لقول السدي؛ لأن إعراض هذا الذي لا أحد أظلم منه عن آيات الله صرح به في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، إذ لا إعراض أعظم من التكذيب، فدل ذلك على أن المراد بقوله: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أنه صدّ غيره عنها فصار جامعاً بين الضلال والإضلال.

وعلى القول الأول فمعنى «صدف» مستغنى عنه بقوله: «كذب»، ونظير الآية على

القول الذي يشهد له القرآن - وهو قول السدي - قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾،
اهـ. وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُنُّهُمْ عَلَانًا فَوْقَ الْمَذَابِ﴾ الآية [النحل: ٨٨].

وقد يوجه قول ابن عباس وقتادة ومجاهد بأن المراد بتكذيبه، وإعراضه؛ أنه لم
يؤمن بها قلبه، ولم تعمل بها جوارحه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (١٦١) ولكن
كُذِّبَ رَوَّلًا (١٦٢) [القيامة]، ونحوها من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب
بقلبه، وترك العمل بجوارحه. قال ابن كثير في تفسيره، بعد أن أشار إلى هذا: ولكن
كلام السدي أقوى وأظهر، والله أعلم، اهـ.

وإطلاق «صدف» بمعنى أعرض كثير في كلام العرب، ومنه قول أبي سفيان بن الحارث:
عجبت لحكم الله فينا وقد بدا له صدفنا عن كل حق منزل
وروي أن ابن عباس أشد بيت أبي سفيان هذا لهذا المعنى، ومنه أيضاً قول ابن الرقاع:
إذا ذكرن حديثاً قلن أحسنه وهنّ عن كل سوء يتقى صدف
أي: معروضات.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله - جل وعلا - وملائكته يوم القيامة،
وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً، وهو قوله تعالى:
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه - جل
وعلا - يأتي في ظلل من الغمام، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي
ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَأِكَةُ﴾... الآية [البقرة: ٢١٠]، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي
وصف بها نفسه يمر كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئاً من صفات
المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١٦٠) [طه].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية. قال بعض العلماء: المراد بالنسك
هنا: النحر؛ لأن الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بعبادة من أعظم العبادات: هي النحر،
فأمر الله تعالى نبيه أن يقول إن صلاته ونحره كلاهما خالص لله تعالى، ويدل على هذا
قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ (٢) [الكوثر]، وقال بعض العلماء: النسك جميع
العبادات، ويدخل فيه النحر. وقال بعضهم: المراد بقوله: «وانحر» وضع اليد اليمنى
على اليسرى تحت النحر في الصلاة، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الآية.

قال مجاهد، وقتادة، والسدي: «حرج» أي شك؛ أي لا يكن في صدرك شك في كون هذا القرآن حقاً، وعلى هذا القول فالآية، كقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] وقوله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ إِلَيْنَا يَوْمَ يُقْرَأُ الْكِتَابُ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٣٤].

والممتري: هو الشاك؛ لأنه مفتعل من المرية وهي الشك، وعلى هذا القول فالخطاب للنبي ﷺ.

والمراد نهى غيره عن الشك في القرآن، كقول الراجز:

* إياك أعني واسمعي يا جارة *

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُم مِّثْمًا وَكُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وقوله: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ١٢٠]. ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل شيئاً من ذلك، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره في ضمن خطابه ﷺ.

وجمهور العلماء: على أن المراد بالحرَج في الآية الضيق؛ أي: لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك؛ لأن تحمل عداوة الكفار، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ: «إِذَا يَثْلَغُوا رَأْسِي فِيدَعُوهُ خَبْرَةً»، أخرجه مسلم، والثلغ: الشدخ، وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل على هذا الوجه الأخير في الآية قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

ويؤيد الوجه الأخير في الآية أن الحرج في لغة العرب: الضيق، وذلك معروف في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿يَجْعَلُ صَدْرُ صَاحِبٍ حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ أي شديد الضيق، إلى غير ذلك من الآيات، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة، أو جميل:

فخرجت خوف يمينها فتبسمت
وقول العرجي:

عوجي علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلني تحرجي
والمراد بالإحراج في البيتين: الإدخال في الحرج، بمعنى الضيق كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يبين هنا المفعول به لقوله: ﴿لِنُنْذِرَ﴾، ولكنه بيّنه في مواضع آخر؛ كقوله: ﴿وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّذًا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات، كما أنه بين المفعول الثاني للإنذار في آيات آخر؛ كقوله: ﴿لِنُنْذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَٰوْنَ﴾ [الليل: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّذًا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿وَذِكْرٌ فَإِنَّا لَذِكْرَى لِّنُفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقوله: ﴿فَذِكْرٌ بِالْفُرْقَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ولا ينافي ما ذكرنا - من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين - أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٦١]؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.
ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُرْآنَ الَّذِي نُنْذِرُ بِهِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾... الآية [يس: ١١]؛ لأنهم هم المستفعدون به دون غيرهم.

وثانيهما: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين كقوله: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّذًا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله هنا: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، اهـ.

والإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ فَنَاقِلُونَ﴾. خوف الله تعالى في هذه الآية الكريمة الكفار الذين كذبوه ﷺ، بأنه أهلك كثيراً من القرى بسبب

تكذيبهم الرسل، فمنهم من أهلكها بياتاً، أي ليلاً، ومنهم من أهلكها وهم قائلون، أي في حال قيلولتهم، والقيلولة: الاستراحة وسط النهار. يعني: فاحذروا تكذيب رسولي ﷺ لئلا أنزل بكم مثل ما أنزلت بهم. وأوضح هذا المعنى في آيات أخرى كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام، وقوله: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىءُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنُفِكَ عَنْهَا مَسْكُونُهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ بَدْوٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠]، ثم بين أنه يريد تهديدهم بذلك، بقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ أَثْمَلَةٌ﴾ [محمد: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد هدد تعالى أهل القرى بأن يأتيهم عذابه ليلاً في حالة النوم، أو ضحى في حالة اللعب، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٧] أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [٨]. وهدد أمثالهم من الذين مكروا السيئات بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [٩] أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٧] [النحل].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٥].

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات، أو في حال القيلولة، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين.

وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١١] فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [١٢] لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ هَلْ كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٣] قَالُوا يَبُولُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٤] فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ﴾ [١٥] [الأنبياء].

قال ابن جرير رحمه الله: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، قال: قلت لعبد الله: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١]. لم يبين هنا الشيء المسؤول عنه المرسلون، ولا الشيء المسؤول عنه الذين أرسل إليهم. وبيّن في مواضع أخرى أنه يسأل المرسلين عما أجابتهم به أمهم، ويسأل الأمم عما أجابوا به رسلهم.

قال في الأول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال في الثاني: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٥] [القصص].

وبين في موضع آخر أنه يسأل جميع الخلق عما كانوا يعملون، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وهنا إشكال معروف: وهو أنه تعالى قال هنا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١] وقال أيضاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [١٤] [الصافات]، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أنه قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْسَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [١٦] [الرحمن].

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وسنزيده إيضاحاً هنا إن شاء الله تعالى.

اعلم أولاً: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأن السؤال المنفي فيها مفيد بكونه سؤالاً عن ذنوب خاصة؛ فإنه قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، فخصه بكونه عن الذنوب، وقال: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [١٦] [الرحمن]، فخصه بذلك أيضاً، فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموودة مثلاً ليس عن ذنب فعلوه فلا مانع من وقوعه؛ لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا﴾ [١٦] [الرحمن]، وقوله بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّقُونِي وَأُنِى إِلَهُينِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ... الآية [المائدة: ١١٦]، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ... الآية [المائدة: ١١٩]، والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات: المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأنه - جل وعلا - محيط علمه بكل شيء، ولا ينافي نفى هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنه نوع من أنواع العذاب، ويدل على هذا أن سؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع؛ كقوله: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [١٤] [الصافات]، ﴿لَا تَنْصَرُونَ﴾ [١٥] [الصافات]، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [١٥] [الطور]، إلى غير ذلك من الآيات، وبإقافي أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور - والعلم عند الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْثًا وَمَا كُنَّا بِغَائِبِينَ﴾ [٧].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه - جل وعلا - لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقيق، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى

ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَبُّهُمْ وَلَا حَمَاسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادُسُهُمْ وَلَا آدَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٨].

تنبيه: في هذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني، القائلين: إنه تعالى عالم بذاته، لا بصفة قامت بذاته، هي العلم، وهكذا في قولهم: قادر، مرید، حي، سمیع، بصیر، متكلم، فإنه هنا أثبت لنفسه صفة العلم بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلًا﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾... الآية [النساء: ١٦٦]. وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق، أي لا جور فيه، ولا ظلم، فلا يزداد في سيئات مُسيء، ولا ينقص من حسنات محسن.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعُهَا﴾... الآية [النساء: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، ولم يفصل الفلاح والخسران هنا.

وقد جاء في بعض المواضع ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة، وأن المراد بالخسران هنا كونه في الهاوية من النار، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٣﴾ فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٥﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿٦﴾﴾ [القارعة: ١-٦].

وبيّن أيضاً خسران من خفت موازينه بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ الآية. لم يبين هنا كيفية هذه المعاش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بيّن ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْقَيْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَّأْنَا وَقْصَبًا ﴿٢٨﴾ وَرَبَّوْنَا وَفَلَّا ﴿٢٩﴾ وَصَدَّقُوا عَلِيًّا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكُمُ آبَاءٌ ﴿٣١﴾ مَنَّمَا لَكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [عبر].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا شَوَقْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٢٩﴾ كَلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْنِ ﴿٣٢﴾ [طه].

وذكر كثيراً من ذلك في سورة النحل؛ كقوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ [النحل]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. قال بعض العلماء: معناه: ما منعك أن تسجد، و«لا» صلة، ويشهد لهذا قوله تعالى في سورة «ص»: ﴿قَالَ يَبَالِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقد أوضحنا زيادة لفظة «لا» وشواهد ذلك من القرآن، ومن كلام العرب في سورة البلد، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن إبليس - لعنه الله - خلق من نار، وعلى القول أن إبليس هو الجان الذي هو أبو الجن، فقد زاد في مواضع أخر أوصافاً للنار التي خلقه منها، من ذلك أنها نار السموم، كما في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ ﴿٧٧﴾ [الحجر]، ومن ذلك أنها خصوص المارج، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ ﴿١٥﴾ [الرحمن]، والمارج أخص من مطلق النار؛ لأنه اللهب الذي لا دخان فيه.

وسميت نار السموم؛ لأنها تنفذ في مسام البدن لشدة حرها، وفي (صحيح مسلم) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه عنها أيضاً الإمام أحمد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾.

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده؛ حيث كان قصده التعظيم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّثَوَّرًا﴾، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية، أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك؛ وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦].

وبين في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر - أعادنا الله والمسلمين منه - فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء بها كما في قوله تعالى: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَلَى الَّذِينَ يَنْكَرُونَ فِي الْأَرْضِ بَغْيَ الْحَقِّ﴾، ومن ذلك أنه من

أسباب الشواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَمُوتٌ دَائِبٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٥] [الصافات]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى، كما في قوله: ﴿لَا جَزَاءَ لَكُم مِّنْ اللَّهِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به، ولا يستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّوتِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، إلى غير ذلك من نتائج السيئة، وعواقبه الخبيثة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله - جل وعلا - يرفعه الله.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٨٧] [القصر]، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»، وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدور تبصر وجهه على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه إلى صفحات الجو وهو ضيع
وقال أبو الطيب المتنبي:

ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى للجيش وانحط القتام
قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [٤] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [٥].

لم يبين هنا في سورة الأعراف الغاية التي أنظره إليها، وقد ذكرها في «الحجر» و«ص» مبيّناً أن غاية ذلك الإنظار هو يوم الوقت المعلوم؛ لقوله: في سورة «الحجر» و«ص»: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [٣٧] إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [٣٨] [الحجر]، فقد طلب الشيطان الإنظار إلى يوم البعث، وقد أعطاه الله الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم.

وأكثر العلماء يقولون: المراد به وقت النفخة الأولى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَكْثَرَهُمْ شَكِيكٌ﴾. هذا الذي ذكر إبليس أنه سيوقع بني آدم فيه، قاله ظناً منه أنهم سيطيعونه فيما يدعوهم إليه حتى يهلكهم، وقد بين تعالى في سورة «سبا» أن ظنه هذا صدق فيهم، بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ [سبا: ٢٠]، كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْنِي مَازِدًا مَّذْهُورًا لَّئِنْ يَمَكَرْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَتَلَّكَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٨].

بين في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذهباً مذهباً، والمعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة، المطرود، وأنه أوعده بملء جهنم منه، ومن تبعه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [٨٨] لَأَتَلَّكَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [٨٩] [ص]،

وقوله: ﴿قَالَ آتَاهُ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْهُمْ فَلَئِنْ جَاءَ جَزَاءُ قَوْمِهِمْ ﴿١٦﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْطَلَتْ مِنْهُمْ يَصَوِّتُكَ وَلَيْلٍ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقُلُودُ ﴿١٨﴾ وَحَنُودٌ إِلَيْسَ أَجْمُودٌ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِنَّاكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

حذر تعالى في هذه الآية الكريمة بني آدم أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم، وصرح في موضع آخر، أنه حذر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه، ولم يُنبه ذلك التحذير من عدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَّكِدُ مِنْ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَوْ رُوحَكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوا فَجِئْتَهُ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا فعلوا فاحشة، استدلوا على أنها حق وصواب، بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأنهم ما فعلوها إلا لأنها صواب ورشد. وبين في موضع آخر: أن هذا واقع من جميع الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ مَا نُنْذِرُكُمْ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف].

ورد الله عليهم هذا التقليد الأعمى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَقْبَلُوا آيَاتِنَا مِنْ حَمَلِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [مهم على ما تفرغ من الآيات].

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء وجهان من التفسير:

الأول: أن معنى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي كما سبق لكم في علم الله من سعادة أو شقاوة، فإنكم تصيرون إليه؛ فمن سبق له العلم بأنه سعيد صار إلى السعادة، ومن سبق له العلم بأنه شقي صار إلى الشقاوة، ويدل على هذا الوجه قوله بعده: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، وهو ظاهر كما ترى، ومن الآيات الدالة عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: ١١٩]؛ أي ولذلك الاختلاف - إلى شقي وسعيد - خلقهم.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي كما خلقكم أولاً، ولم تكونوا شيئاً، فإنه يعيدكم مرة أخرى، ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن متم وصرتم عظاماً رميمات، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً، كقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا ﴿[الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقوله: ﴿يَكْنُتُهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلٍ﴾ [الحج: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه قد يكون في الآية وجهان، وكل واحد منهما حق، ويشهد له القرآن؛ فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ومن تلك الموالاة طاعتهم لهم فيما يخالف ما شرعه الله تعالى، ومع ذلك يظنون أنفسهم على هدى.

وبين في موضع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملاً، والعياذ بالله تعالى، وهو قوله - جل وعلا -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣٧﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٣٨﴾﴾ [الكهف].



تنبيه: هذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا يتفعه ظنه أنه على هدى؛ لأن الأدلة التي جاءت بها الرسل لم تترك في الحق لبساً ولا شبهة، ولكن الكافر لشدة تعصبه للكفر لا يكاد يفكر في الأدلة التي هي كالشمس في رابعة النهار؛ لجأاً في الباطل، وعناداً؛ فلذلك كان غير معذور. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ: أن يسأل سؤال إنكار: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، كاللباس في الطواف، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ كالأنعام، والحرث التي حرّمها الكفار، وكاللحم والدود الذي حرّمه بعض العرب في الجاهلية في الحج.

وصرح في مواضع أخرى: أن من قال ذلك على الله فهو مفتر عليه - جل وعلا -، كقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمَّا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ﴿١٣٨﴾﴾ [يونس]، وطلبهم في موضع آخر طلب إعجاز أن يأتوا بالشهداء الذين يشهدون لهم أن الله حرم هذا، ونهى نبيه ﷺ أن يشهد لهم شهود زور أن يشهد معهم، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رِسًا مَّقُولًا أَصْلَحْنَا

فَقَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ». لم يبين هنا السبب الذي مكنتهم من إضلالهم، ولكنه بين في موضع آخر: أن السبب الذي مكنتهم من ذلك هو كونهم سادتهم وكبراءهم، ومعلوم أن الاتباع يطيعون السادة الكبراء فيما يأمرونهم به، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٧) رَبَّنَا ءَاتِنِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ الآية [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]. وبسط ذلك في سورة «سبا» بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ أَخْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴿سبا: ٣١ - ٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ». بين تعالى في هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات: أن الاتباع يسألون الله يوم القيامة أن يضاعف العذاب للمتبعين، وبين في مواضع أخرى: أن مضاعفة العذاب للمتبعين لا تنفع الاتباع، ولا تخفف عنهم من العذاب، كقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْرِكَونَ﴾ (٣٩) [الزخرف]، وقوله هنا: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ... الآية، وقوله: ﴿وَقَالَ أُولَهُمْ لِأَخْرَجَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَلَوْ قُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣١)، وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٤٨) [غافر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ». ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه - جل وعلا -، ينزع ما في صدور أهل الجنة من الحقد والحسد الذي كان في الدنيا، وأنهم تجري من تحتهم الأنهار في الجنة، وذكر في موضع آخر أن نزاع الغل من صدورهم يقع في حال كونهم إخواناً على سرر متقابلين آمنين من النصب، والخروج من الجنة. وهو قوله تعالى، في «الحجر»: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٨) [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن بين أهل الجنة وأهل النار حجاباً يوم القيامة، ولم يبين هذا الحجاب هنا، ولكنه بينه في سورة الحديد بقوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُرُوجًا مِّنْ بَابٍ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾... الآية [الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمِهِمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الأعراف، يعرفون كلًّا - من أهل الجنة وأهل النار - بسيماهم. ولم يبين هنا سيما أهل الجنة، ولا أهل النار، ولكنه أشار لذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾... الآية [آل عمران: ١٠٦].

فبياض الوجوه وحسنها: سيما أهل الجنة، وسوادها وقبحها وزرقة العيون: سيما أهل النار. كما قال أيضاً في سيما أهل الجنة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (١٤)

[المطففين]، وقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة]، وقال في سيما أهل النار: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِئَاطَةً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ ... الآية [يونس: ٢٧]. وقال ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ ... الآية [عبس]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن أصحاب الأعراف قالوا للرجال من أهل النار يعرفونهم بسيماهم: لم ينفعكم ما كنتم تجمعونه في الدنيا من المال، ولا كثرة جماعتكم وأنصاركم، ولا استكباركم في الدنيا.

وبين في مواضع آخر وجه ذلك - وهو أن الإنسان يوم القيامة، يحشر فرداً، لا مال معه، ولا ناصر، ولا خادم، ولا خول - وأن استكباره في الدنيا يجزى به عذاب الهون في الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿وَنُرِيهِمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم]، وقوله: ﴿تَالْيَوْمِ نَحْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ الْكَافِرُ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ شَاءُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُعْعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار، إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقلوهم، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل، ويعملوا بما يرضي الله، ولم يبين هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا؟ وهل اعترفهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم؟ ولكنه تعالى بين ذلك كله في مواضع آخر، فبين أنهم لا يشفع لهم أحد بقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكَفَرُ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وبين أنهم لا يردون، في مواضع متعددة، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [السجدة]. فقوله: ﴿وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ... الآية. دليل على أن النار وجهت لهم، فلا يردون، ولا يعذرون، وقوله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَحَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا﴾ [فاطر: ٣٧]. فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا بالإمهال مدة يتذكرون فيها، وإنذار الرسل، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نَكُورُوا أَنْفُسَكُمْ إِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]، جواباً لقولهم: ﴿أَخْرِجْنَا إِلَىٰ

أَجْعَلِ قَرِيبٌ مِّنْ مَّوْتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ [إِسْرَاهِيم: ٤٤]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢]، بعد قوله تعالى عنهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]، وقوله: ﴿وَتَرْبُئُهُمْ بِعُرْضُونٍ عَلَيْهِمْ حَاشِيَعَيْنِ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ...﴾ الآية [الشورى: ٤٥]، بعد قوله: ﴿وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَزٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية، بعد قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ...﴾ الآية.

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا، وعلى وجوب العذاب، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا العادوا إلى الكفر والطغيان؛ وهو قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾... الآية [الأنعام: ٢٨]، وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد، فهو تعالى يعلم أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها؛ لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة، كما بينه بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ...﴾ الآية [التوبة: ٤٦]. وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون، لو وقع كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِلَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَمَيْنَاهُمْ لَكُنَّا بِهَمٍ مِّنْ ضَرٍّ لِّلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في مواضع أخرى: أن اعترافهم هذا بقولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ لا ينفعهم، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّعَفَوْا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك]، وقوله: ﴿لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. لم يفصل هنا ذلك، ولكنه فصله في سورة «فصلت» بقوله: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَلْأَسْبَابِ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فَفَضَّلْنَهُمْ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ عَلَى الْمَرْثَى يُقْبِضُ اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ الآية. هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ونحو ذلك؛ أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه - سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله - والله - جل وعلا - أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال. وحاصل تحرير ذلك أنه - جل وعلا - بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله - جل وعلا - عن مشابهة الحوادث في صفاتهم، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وثانيهما: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، فمن نفى عن الله وصفاً أثبتته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبتته له رسول الله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله - جل وعلا -، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله - جل وعلا -، ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]!

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ مع تنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن نفسه - جل وعلا - مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة: أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى وبين صفات خلقه؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة، وسنوضح - إن شاء الله - هذه المسألة إيضاحاً تاماً بحسب طاقتنا، وبالله - جل وعلا - التوفيق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة: أن رحمته - جل وعلا - قريب من عباده المحسنين، وأوضح في موضع آخر صفات عبده الذين سيكتبها لهم في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

ووجه تذكير وصف الرحمة مع أنها مؤنثة في قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولم يقل قريبة، فيه للعلماء أقوال تزيد على العشرة، نذكر منها - إن شاء الله - بعضاً، ونترك ما يظهر لنا ضعفه أو بعده عن الظاهر.

منها: أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم، فالتذكير باعتبار المعنى.

ومنها: أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث

فيها في الأنثى فتقول: هذه المرأة قريبتي أي في النسب، ولا تقول: قريب مني، وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكير والتأنيث، فتقول: داره قريب وقريبة مني، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقول امرئ القيس:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

ومنها: أن وجه ذلك إضافة الرحمة إلى الله - جل وعلا - .

ومنها: أن قوله ﴿قَرِيبٌ﴾ صفة موصوف محذوف؛ أي شيء قريب من المحسنين.

ومنها: أنها شبهت بفعيل بمعنى مفعول الذي يستوي فيه الذكر والأنثى.

ومنها: أن الأسماء التي على فعيل ربما شبهت بالمصدر الآتي على فعيل، فأفردت لذلك، قال بعضهم: ولذلك أفرد الصديق في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقول الشاعر:

وهن صديق لمن لم يشب، اهـ.

والظهير في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ كُنْ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرًا﴾ [التحريم: ٤] إلى غير ذلك من الأوجه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. على قراءة

عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء الموحدة، وإسكان الشين: جمع بشير؛ لأنها تنتشر أمام

المطر مبشرة به، وهذا المعنى يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾

[الروم: ٤٦]، وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، يعني برحمته المطر، كما جاء مبيناً في غير

هذا الموضع كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْئِدَتٍ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَعُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:

٢٨] وقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا نَقَالًا سَفَقْنَاهُ لِيلَةً مَمِيتَةً﴾ الآية.

بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح، ثم يسوقه إلى حيث يشاء

من بقاع الأرض، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبِّثُ سَحَابًا

فَسَقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَمِيتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ

زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ مَكَوٍ لِيُنذِرَكَ﴾. أنكر تعالى

في هذه السورة الكريمة على قوم نوح، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل؛ وبين في

مواضع آخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك، قال في عجب قوم نبيينا ﷺ من ذلك:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ

جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

فَقَالُوا أَأَشَرُّ مِنْ دُونِ الْكَافِرِينَ أَفَكَارُوا وَقَالُوا وَاسْتَعْصَمَ اللَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَ حِمْدِهِ﴾ [التغابن: ٦]، وقال: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ

بِالنَّذْرِ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿لَئِنْ أَتَيْنَاكُمْ شَيْئًا إِكْثَرَ إِذَا

لَخَيْرُونَ»، وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنْ لَّهٗ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩١].

ورد الله عليهم ذلك في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ الآية [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾. لم يبين هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ [القمر: ١١]، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا لِي ذُرِّيًّا فَاتَّخِذُوا لِي ذُرِّيًّا﴾ الآية. لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدل الواقع بين هود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وبين عاد، ولكنه أشار إليه في مواضع آخر كقوله: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِإِلَهِينَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٦]، إن نَقُولُ إِلَّا اتَّخَذَكَ بَعْضُ إِلَهِتِنَا يَسُوءَ قَالِ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآتَاهُوا آتِيَّ بَرِيٍّ يَمَنَّا تَشْكُرُونَ [٥٧] مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ [٥٨] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٩] [هود].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية. لم يبين هنا كيفية قطعه دابر عاد. ولكنه بينه في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاتَّبَعُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَلَيْهِمْ﴾ [الحاقة: ١١]، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ١١]، ونحو ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿فَقَفَرُوا لَنَا﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن عقرها باشرته جماعة، ولكنه تعالى بين في سورة القمر أن المراد أنهم نادوا واحداً منهم، فباشر عقرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَادَّأَوْا صَالِحًا فَطَاعُوا فَقَرَّ﴾ [٦٩]... [القمر].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِيَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا نَكِيدُ﴾ الآية. لم يبين هذا الذي يعدهم به. ولكنه بين في مواضع آخر أنه العذاب كقوله: ﴿وَلَا تَمْشُوا فِي سُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وقوله هنا: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ [٧٨]... لم يبين هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بين في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وهو قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ﴾... الآية [هود: ٦٧]، والظاهر أن الملك لما صاح بهم رجفت بهم الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله - جل وعلا - أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَكَانَ فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ﴾ الآية. بين تعالى هذه الرسالة التي أبلغها نبيه صالح إلى قومه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَأِلَّا تَتُوبَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَكْفُرُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةٌ

أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، اهـ. منه.

قوله تعالى: ﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَاتِي رِيقًا وَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣). بين - جل وعلا - الرسالات التي أبلغها رسوله شعيب إلى قومه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَالِإِيَّائِي أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنَقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي﴾ [هود: ٨٤]، ونحوها من الآيات، وبين نصحه لهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَاقَوْمُ لَا يَحْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أنكر نبي الله شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - الأسى؛ أي الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان لجأاً وعناداً، وإنكاره لذلك يدل على أنه لا ينبغي، وقد صرح تعالى بذلك فنهى نبينا ﷺ عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، ومعنى لا تأس: لا تحزن، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَقْرَبُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ الآية.

ذكر أنباءهم مفصلة في مواضع كثيرة، كالأيات التي ذكر فيها خبر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم، مع أمهم صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الآية.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير، بعضها يشهد له القرآن:

منها: أن المعنى فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي، ويروى هذا عن أبي بن كعب، وأنس، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) [يونس]، وقوله: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق، فآمنوا كرهاً، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعاً، ويروى هذا عن السدي، وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضاً، فما كانوا ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل؛ أي في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد، ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم

بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة، ووجهه ظاهر؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىهَا يَكْفُرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَنَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ تَرَضُّ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد تكون فيها أوجه من التفسير، كلها يشهد له قرآن، وكلها حق، فنذكر جميعها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ يَأْتِيَنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ الآية.

بين تعالى هنا أن فرعون وملاه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى، وصرح في النمل بأنهم فعلوا ذلك جاحدين لها، مع أنهم مستيقنون أنها حق لأجل ظلمهم وعلوهم، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَاتَيْنَا مُبْجَرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتٍ ۖ وَحَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ ﴿١٣٨﴾. ذكر تعالى هنا أن موسى نزع يده فإذا هي بيضاء، ولم يبين أن ذلك البياض خال من البرص، ولكنه بين ذلك في سورة «النمل» و«القصص» في قوله فيهما: ﴿فَخَرَجَ بِضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي من غير برص.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٣٩﴾.

بين هنا أن موسى لما جاء بأية العصا واليد قال الملأ من قوم فرعون: إنه ساحر، ولم يبين ماذا قال فرعون؟ ولكنه بين في «الشعراء» أن فرعون قال مثل ما قال الملأ من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْمَهُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

لم يبين هنا هذا السحر العظيم ما هو؟ ولم يبين هل أوجس موسى في نفسه الخوف منه؟ ولكنه بين كل ذلك في «طه» بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعِهِمْ يَحِيزُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ سَعَىٰ﴾ ﴿١٤١﴾ فَأَرَجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿١٤٢﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٤٣﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ﴿١٤٤﴾ [طه] ولم يبين هنا أنهم تواعدوا مع موسى موعداً لوقت مغالبتهم مع السحرة، وأوضح ذلك في سورة «طه» في قوله عنهم: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴿٥٩﴾ [طه: ٥٨، ٥٩].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأَصْلَحْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. لم يبين هنا الشيء الذي توعدهم بأنهم يصلبهم فيه، ولكنه بينه في موضع آخر، كقوله في «طه»: ﴿وَلَأَصْلَحْنَكُمْ فِي جُدُوحِ النَّحْلِ﴾... الآية [طه: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيْفَةً يَظُنُّوْا يُمُوتُوْنَ وَمِنْ مَعَهُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة؛ أي قحط وجذب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجذب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا من بعض الكفار مع نبينا ﷺ في قوله: ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيْفَةً يَقُوْلُوْا هَٰذَا مِنْ عَيْنِكَ﴾ [النساء: ٧٨] وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قَالُوْا أَطْرَقْنَا بِكَ وَيَمِنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وذكر نحو ذلك أيضاً عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوْا إِنَّا نَطْمِئِنُّ بِكُمْ لِيْنَ لَّا تَنْتَهُوْا لِرَجْمِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل، قال في «الأعراف»: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَرَقَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال في سورة «النمل» في قوم صالح: ﴿قَالُوْا أَطْرَقْنَا بِكَ وَيَمِنْ مَعَكَ قَالَ طَرَقَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]. وقال في «يس»: ﴿قَالُوْا طَرَقَكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كَانُوْا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ أَرْضٍ وَمَغْرِبَهَا﴾. لم يبين هنا من هؤلاء القوم، ولكنه صرح في سورة «الشعراء» بأن المراد بهم بنو إسرائيل، لقوله في القصة بعينها: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾... الآية [الشعراء]، وأشار إلى ذلك هنا بقوله بعده: ﴿وَكَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَكَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية.

لم يبين هنا هذه الكلمة الحسنى التي تمت عليهم، ولكنه بينها في القصص بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِيْنَ اسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِيْنَ﴾ ﴿٥﴾ ونَكْنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةً وَهُمْ مَنْ هُمْ وَخُودُهُمَا وَنَهْمُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعْ أَبْصَرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيَّ﴾. استدلل المعتزلة النافون لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة بهذه الآية على مذهبهم الباطل، وقد جاءت آيات تدل على أن نفي الرؤية المذكور، إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه - جل وعلا - بأبصارهم، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِي تَٰزِيَةً ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، وقوله في الكفار: ﴿لَا يَنْفَعُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَ يَدْعُوتُ لَمْخَجُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [المطففين]، فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه - جل وعلا -.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَّذِيْنَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم؛ وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقد توارث الأحاديث عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وتحقيق المقام في المسألة أن رؤية الله - جل وعلا - بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلاً في دار الدنيا قول موسى: ﴿رَبِّ ارْجِعْ أَبْصَرَ إِلَيْكَ﴾ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعاً فهي جائزة وواقعة في الآخرة كما

دلت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدنيا فممنوعة شرعاً كما تدل عليه آية «الأعراف» هذه، وحديث: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» كما أوضحناه في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾. بين في هذه الآية الكريمة سخافة عقول عبدة العجل، ويخهم على أنهم يعبدون ما لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، وأوضح هذا في «طه» بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه]، وقد قدمنا في سورة «البقرة» أن جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً حذف فيها للمفعول الثاني في جميع القرآن كما في قوله هنا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِبْلًا جَسَدًا﴾... الآية، أي اتخذوه إلهاً، وقد قدمنا أن النكتة في حذفه دائماً: التنبيه: على أنه لا ينبغي التلفظ بأن عبلاً مصطنعاً من جماد إلّه، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في «طه» بقوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن عبدة العجل اعترفوا بذنبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرح في سورة «البقرة» بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله - جل وعلا - عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٧٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْسًا قَالَ إِنَّمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَهْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. أوضح الله ما ذكره هنا بقوله في «طه»: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦، ٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي﴾ الآية.

أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ما اعتذر به نبي الله هارون لأخيه موسى عما وجهه إليه من اللوم، وأوضحه في «طه» بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه]، وصرح الله تعالى ببراءته بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ تَقْتُلُونَ بَنِيكُمْ الَّذِينَ قَالُوا بِإِيعَادِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٨٦]، قالوا لن نبرح عليك عنكهن حتى يرجع إلينا موسى [طه: ٨٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه ﷺ رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١٦٨﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَنَأْزِلَنَّهُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقيد في موضع آخر عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَلَئِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَاسْمِعُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الآية. لم يبين هنا كثرة كلماته، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، كقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية.

هذا الميثاق المذكور بيّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [٧٧] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٧٨].

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن معنى أخذه ذرية بني آدم من ظهورهم: هو إيجاد قرن منهم بعد قرن، وإنشاء قوم بعد آخرين، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَشْأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ونحو ذلك من الآيات: وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أن إشهادهم على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه وحده، وعليه، فمعنى ﴿قَالُوا بَلَى﴾، أي قالوا ذلك بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه، ونظيره من إطلاق الشهادة على شهادة لسان الحال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي بلسان حالهم على القول بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [١] وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ [العاديات] أي بلسان حاله أيضاً على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضاً.

واحتج من ذهب إلى هذا القول بأن الله - جل وعلا - جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف به - جل وعلا - في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية. فلو كان الإشهاد المذكور الإشهاد عليهم يوم الميثاق، وهم في صورة الذر لما كان حجة عليهم؛ لأنه لا يذكره منهم أحد عند وجوده في الدنيا، وما لا علم للإنسان به لا يكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسل بالميثاق المذكور كاف في ثبوته قلنا: قال ابن كثير في تفسيره: الجواب عن ذلك أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من التوحيد، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾... الآية، اه منه بلفظه.

فإذا علمت هذا الوجه الذي ذكرنا في تفسير الآية، وما استدلل عليه قائله به من القرآن، فاعلم أن الوجه الآخر في معنى الآية: أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الدر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق الذي نسيه الكل ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذا الوجه الأخير يدل عليه الكتاب والسنة:

أما وجه دلالة القرآن عليه، فهو أن مقتضى القول الأول أن ما أقام الله لهم من البراهين القطعية كخلق السماوات والأرض، وما فيهما من غرائب صنع الله؛ الدالة على أنه الرب المعبود وحده، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطروا عليها تقوم عليهم به الحجة، ولو لم يأتهم نذير، والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولا، ولم يقل حتى نخلق عقولا، ونصب أدلة ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾... الآية [النساء: ١٦٥]، فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم، هو إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها، بينها في «طه» بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِيرَ وَتَحْزَنَ﴾ [طه]، وأشار لها في «القصص» بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [٨] قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَ أَرْبَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٧] [الزمر: ١٧]. ومعلوم أن لفظة (كلما) في قوله: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾ [الملك: ٨] صيغة عموم، وأن لفظة (الذين) في قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] صيغة عموم أيضاً؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته.

وأما السنة: فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن الله أخرج ذرية آدم في صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق كما ذكر هنا، وبعضها صحيح. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: قال أبو عمر - يعني ابن عبد البر -: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة رضي الله عنهم، أجمعين وغيرهم، اهـ. محل الحاجة منه بلفظه، وهذا الخلاف الذي ذكرنا، هل يكتفى في الإلزام بالتوحيد بنصب الأدلة، أو لا بد من بعث الرسل لينذروا؟ هو مبنى الخلاف المشهور عند أهل الأصول في أهل الفترة: هل يدخلون النار بكفرهم؟ وحكى القرافي عليه الإجماع، وجزم به النووي في (شرح مسلم). أو يعذرون بالفترة؟ وهو ظاهر الآيات التي ذكرناها، وإلى هذا الخلاف أشار في (مراقي السعود) بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع

وقد حققنا هذه المسألة مع مناقشة أدلة الفريقين في كتابنا (دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولذلك اختصرناها هنا.

قوله تعالى: ﴿فَثَلَّهُ كَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾. ضرب الله تعالى المثل لهذا الخسيس الذي آتاه آياته فانسلخ منها بالكلب، ولم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه تعالى المثل به، وكذلك ضرب المثل بالذباب في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْطَّلُوبُ﴾ [الحج: ١٧]، وكذلك ضرب المثل ببيت العنكبوت في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وكذلك ضرب المثل بالحمار في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٩]، وهذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يستحي من بيان العلوم النفيسة عن طريق ضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة، وقد صرح بهذا المدلول في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هدد تعالى في هذه الآية الذين يلحدون في أسمائهم بتهديد:

الأول: صيغة الأمر في قوله: ﴿وَذَرُوا﴾ فإنها للتهديد.

والثاني: في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهدد الذين يلحدون في آياته في سورة حم «السجدة» بأنهم لا يخفون عليه، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي عَايَتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَفَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ الآية [فصلت: ٤٠]،

وأصل الإلحاد في اللغة: الميل، منه اللحد في القبر، ومعنى إلحادهم في أسمائه هو كاشتقاقهم اسم اللات من اسم الله، واسم العزى من اسم العزيز، واسم مناة من المنان، ونحو ذلك. والعرب تقول: لحد وألحد بمعنى واحد. وعليهما، القراءتان يلحدون بفتح الباء والحاء من الأول، وبضمها وكسر الحاء من الثاني.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ ... الآية.

هذه الآية الكريمة تدل على أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - جل وعلا -. وقد جاءت آيات أخر تدل على ذلك أيضاً كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهَا إِلَهُهُ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنها الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ... الآية.

هذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وقد أمره تعالى أن يقول: إنه لا يعلم الغيب، في قوله في «الأنعام»: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۚ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ ... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ... الآية [النمل: ٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمراد بالخير من هذه الآية الكريمة، قيل: المال، ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى المال في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]، وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: المراد بالخير فيها العمل الصالح، كما قاله مجاهد وغيره، والصحيح الأول؛ لأنه ﷺ مستكثر جداً من الخير الذي هو العمل الصالح؛ لأن عمله ﷺ كان ديمة، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبتته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ... الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أنه خلق حواء من آدم ليسكن إليها، أي: ليألفها ويطمئن بها، وبين في موضع آخر أنه جعل أزواج ذريته كذلك، وهو قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٦].

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، والقرآن يشهد لأحدهما:

الأول: أن حواء كانت لا يعيش لها ولد، فحملت، فجاءها الشيطان، فقال لها:

سمي هذا الولد عبد الحارث فإنه يعيش، والحارث من أسماء الشيطان، فسمته عبد الحارث فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي ولدًا إنسانًا ذكرًا جعلًا له شركاء بتسميته عبد الحارث. وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع، وهو معلول كما أوضحه ابن كثير في تفسيره.

الوجه الثاني: أن معنى الآية أنه لما أتى آدم وحواء صالحًا كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي بتصويرنا لأبيكم آدم؛ لأنه أصلهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده: ﴿فَعَتَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي شركوكم ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون ﴿١٩١﴾، وهذا نص قرآني صريح في أن المراد المشركون من بني آدم، لا آدم وحواء. واختار هذا الوجه غير واحد للدلالة القرآن عليه. ومن ذهب إليه الحسن البصري، واختاره ابن كثير - والعلم عند الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾ وإما يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٩٣﴾. بين في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلاء من شياطين الإنس والجن، فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته. وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه. قال في الأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾، وقال في الثاني: ﴿وَأَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٩٣﴾، وبين هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين:

أحدهما: في سورة «قد أفلح المؤمنون» قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَكْبَرُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٩١﴾ [المؤمنون]، وقال في الآخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ [المؤمنون].

وثانيهما: في حم «السجدة»، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه الله إلا لذي الحظ الكبير والبخت العظيم عنده فقال: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ [فصلت] ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَأَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ [فصلت].

قوله تعالى: ﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّهُمْ فِي الْكَيْدِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن إخوان الإنس من الشياطين يمدون الإنس في الغي، ثم لا يقصرون، وبين ذلك أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَنَّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم]، وقوله: ﴿يَنْمَعَشِرَ الْجَنُّ فَيَاسْتَكْثِرُونَ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وبين في موضع آخر أن بعض الإنس إخوان للشياطين، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية.

اختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال:

الأول: أن المراد بها خصوص ما شذ عن الكافرين إلى المؤمنين، وأخذ بغير حرب، كالفرس والبعير يذهب من الكافرين إلى المسلمين، وعلى هذا التفسير، فالمراد بالأنفال هو المسمى عند الفقهاء فيثاً، وهو الآتي بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، وممن قال بهذا القول عطاء بن أبي رباح.

الثاني: أن المراد بها الخمس، وهو قول مالك.

الثالث: أن المراد بها خمس الخمس.

الرابع: أنها الغنيمة كلها، وهو قول الجمهور، وممن قال به ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. قاله ابن كثير.

الخامس: أن المراد بها أنفال السرايا خاصة، وممن قال به الشعبي، ونقله ابن جرير عن علي بن صالح بن حي، والمراد بهذا القول: ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم.

قال ابن كثير: ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد، حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخو عمير، قتلت سعيد بن العاص. وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «أذهب فاطرحه في القبض»، قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخو وأخذ سلمي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سلبك»، وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه»، قال: فوضعت، ثم رجعت فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي، قال:

فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً. قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي فهو لك». قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات من القرآن: أصبت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي ﷺ فقلت: نفلنيه. فقال: «ضعه من حيث أخذته» - مرتين - ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية، وتمام الحديث في نزول ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَرْبُ وَالْمَيْسِرُ﴾ ... الآية [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به، وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه، ورواه ابن جرير من وجه آخر، اهـ. كلام ابن كثير.

قال مقيد - عفا الله عنه -: جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن هم الذين حُزنا الغنائم، وحويناها فليس لغيرنا فيها نصيب، وقالت المشيخة: إنا كنا لكم رداءً، ولو هزمتم للجأتكم إلينا. فاختصموا إلى النبي ﷺ. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن عبادة بن الصامت: أنها نزلت في ذلك. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وروى نحو ذلك أبو داود والنسائي، وابن حبان والحاكم، وابن جرير، وابن مردويه من طريق عن داود بن أبي هند، عن عكرمة عن ابن عباس. وعلى هذا القول الذي هو قول الجمهور، فالآية مشكلة مع قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

وأظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية: هو ما ذكره أبو عبيد ونسبه القرطبي في تفسيره لجمهور العلماء أن قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ ... الآية. ناسخ لقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ... الآية. إلا أن قول أبي عبيد: إن غنائم بدر لم تخمس؛ لأن آية الخمس لم تنزل إلا بعد قسم غنائم بدر، غير صحيح، ويدل على بطلانه ما ثبت في صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذ» الحديث. فهذا نص صحيح في تخميس غنائم بدر؛ لأن قول علي في هذا الحديث الصحيح «يومئذ» صريح في أنه يعني يوم بدر كما ترى.

فالحاصل أن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية. بينت أنه ليس المراد قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة، وأنها تعطى أربعة أخماس منها للغانمين، وقد ذكرنا آنفاً أن أبا عبيد قال: إنها ناسخة لها، ونسبه القرطبي للجمهور، وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في الكلام على قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. في هذه الآية الكريمة التصريح بزيادة الإيمان، وقد صرح تعالى بذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وتدل هذه الآيات بدلالة الالتزام على أنه ينقص أيضاً؛ لأن كل ما يزيد ينقص، وجاء مصرحاً به في أحاديث الشفاعة الصحيحة كقوله: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال حبة من إيمان» ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُضَيِّكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ألقي النعاس على المؤمنين ليجعل قلوبهم أمنة غير خائفة من عدوها؛ لأن الخائف الفزع لا يغشاه النعاس، وظاهر سياق هذه الآية أن هذا النعاس ألقي عليهم يوم بدر؛ لأن الكلام هنا في وقعة بدر، كما لا يخفى.

وذكر في سورة آل عمران أن النعاس غشيهم أيضاً يوم أحد، وذلك في قوله تعالى في وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا﴾... الآية [آل عمران: ١٥٤].

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَفَدِّ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... الآية. المراد بالفتح هنا في هذه الآية عند جمهور العلماء: الحكم، وذلك أن قريشاً لما أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنهم قطان بيت الله الحرام، وأنهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأن محمداً ﷺ فرق الجماعة، وقطع الرحم، وسفه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا الله أن يحكم بينهم وبين النبي ﷺ، بأن يهلك الظالم منهم، وينصر المحق. فحكم الله بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية. ويدل على أن المراد بالفتح هنا الحكم؛ أنه تعالى أتبعه بما يدل على أن الخطاب لكفار مكة، وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا فَبُؤْسٌ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدٌ﴾، وبين ذلك إطلاق الفتح بمعنى الحكم في القرآن في قوله عن شعيب وقومه: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين. ويدل على ذلك قوله تعالى عن شعيب في نفس القصة: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف]، وهذه لغة حمير لأنهم يسمون القاضي فتاحاً والحكومة فتاحة، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ بني عمرو رسولاً بأنني عن فتاحتكم غني

أي عن حكومتكم وقضائكم. أما ما ذكره بعض أهل العلم من أن الخطاب في قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ للمؤمنين، أي تطلبوا الفتح والنصر من الله، وأن الخطاب في قوله بعده: ﴿وإن تَنهَوْا فهو خيرٌ لكم﴾ للكافرين، فهو غير ظاهر، كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَوكُمُ وَأُولَدُكُمْ فَتَنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أمر تعالى الناس في هذه الآية الكريمة أن يعلموا أن أموالهم وأولادهم فتنة يختبرون بها، هل يكون المال والولد سبباً للوقوع فيما لا يرضي الله؟ وزاد في موضع آخر أن الأزواج فتنة أيضاً، كالمال والولد، فأمر الإنسان بالحدز منهم أن يوقعوه فيما لا يرضي الله. ثم أمره إن اطلع على ما يكره من أولئك الأعداء الذين هم أقرب الناس له وأخصهم به، وهم الأولاد والأزواج أن يعفو عنهم، ويصفح ولا يؤاخذهم، فيحذر منهم أولاً، ويصفح عنهم إن وقع منهم بعض الشيء، وذلك في قوله في التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَامْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٤] إِنَّمَا آمَنَوكُمُ وَأُولَدُكُمْ فَتَنَةً وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [١٥] [التغابن].

وصرح في موضع آخر بنهي المؤمنين عن أن تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكره - جل وعلا - وأن من وقع في ذلك فهو الخاسر المغبون في حظوظه، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون]، والمراد بالفتنة في الآيات الاختبار والابتلاء، وهو أحد معاني الفتنة في القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٦]. قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد وعكرمة، والضحاك وقتادة، ومقاتل بن حيان، وغير واحد: فرقاناً: مخرجاً. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة. وفي رواية عن ابن عباس فرقاناً: نجاة. وفي رواية عنه: نصراً. وقال محمد بن إسحاق: فرقاناً، أي فصلاً بين الحق والباطل، قاله ابن كثير.

قال مقيده - عفا الله عنه -: قول الجماعة المذكورة: إن المراد بالفرقان المخرج: يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾... الآية [الطلاق: ٢]. والقول بأنه النجاة أو النصر، راجع في المعنى إلى هذا؛ لأن من جعل الله له مخرجاً أنجاه ونصره. لكن الذي يدل القرآن واللغة على صحته في تفسير الآية المذكورة هو قول ابن إسحاق؛ لأن الفرقان مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف أي الفارق بين الحق والباطل، وذلك هو معناه في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ويدل على أن المراد بالفرقان هنا: العلم الفارق بين الحق والباطل، قوله

تعالى في الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾... الآية [الحديد: ٢٨].

لأن قوله هنا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] يعني: علماً وهدى تفرقون به بين الحق والباطل، ويدل على أن المراد بالنور هنا الهدى ومعرفة الحق، قوله تعالى فيمن كان كافراً فهداه الله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٢]. فجعل النور المذكور في الحديد: هو معنى الفرقان المذكور في الأنفال كما ترى. وتكفير السيئات والغفران المرتب على تقوى الله في آية الأنفال، كذلك جاء مرتباً أيضاً عليها في آية الحديد، وهو بيان واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. قد بينا قبل هذا الآيات المصرحة بكذبهم، وتعجيز الله لهم عن الإتيان بمثله، فلا حاجة إلى إعادتها هنا، وقوله هنا في هذه الآية عنهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ رد الله عليهم كذبهم وافتراءهم هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٥] قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [٦] [الفرقان] وما أنزله عالم السر في السموات والأرض فهو بعيد جداً من أن يكون أساطير الأولين، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا ضَلَّتْ أَلْسِنُهُ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِيزٍ مُبِينٍ﴾ [النحل: ١٦٥] إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا نُصَبِّحُ إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِطًا﴾ [٢١] جحارةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْنِنَتْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٢].

ذكر هنا في هذه الآية الكريمة ما يدل على أن كفار مكة في غاية الجهل حيث قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾... الآية، ولم يقولوا فاهدنا إليه، وجاء في آيات أخر ما يدل على ذلك أيضاً كقوله عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قُطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [١١] [ص]، وقوله: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ﴾... الآية [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى آتَمِّ مَعْدُودٍ لِيَقُولُوا مَا يَجِبُ﴾ [هود: ٨] وذكر عن بعض الأمم السالفة شبه ذلك، كقوله في قوم شعيب: ﴿فَأَسْفِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٧] [الشعراء]، وقوله عن قوم صالح: ﴿يَصْلُحْ أَتَيْنَا بِمَا نَكِيدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وسيأتي لهذا إن شاء الله زيادة إيضاح في سورة «سأل سائل».

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَوِّنُونَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بنفي ولاية الكفار على المسجد الحرام، وأثبتها لخصوص المتقين، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [٧] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَّكَ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [٨] [التوبة].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ الآية.

المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. قال بعض العلماء: والمقصود عندهم بالصفير والتصفيق التخليط حتى لا يسمع الناس القرآن من النبي ﷺ، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأَقْتُلَنَّكُمْ تَقِيلُونَ﴾ [فصلت].

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل شيء حواه المسلمون من أموال الكفار فإنه يخمس حسبما نص عليه في الآية، سواء أوجفوا عليه الخيل والركاب أو لا، ولكنه تعالى بين في سورة «الحشر» أن ما أفاء الله على رسوله من غير إيجاب المسلمين عليه الخيل والركاب، أنه لا يخمس، ومصارفه التي بين أنه يصرف فيها كمصارف خمس الغنيمة المذكورة هنا، وذلك في قوله تعالى: في شيء بني النضير: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، ثم بين شمول الحكم لكل ما أفاء الله على رسوله من جميع القرى بقوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧].

اعلم أولاً أن أكثر العلماء فرقوا بين الفبي والغنيمة، فقالوا: الفبي هو ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر، كفي بني النضير الذين نزلوا على حكم النبي ﷺ ومكنوه من أنفسهم وأموالهم يفعل فيها ما يشاء؛ لشدة الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم، ورضي لهم ﷺ أن يرتحلوا بما يحملون على الإبل غير السلاح، وأما الغنيمة فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر، وهذا التفريق يفهم من قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية، مع قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾... الآية: ظاهر في أنه يراد به بيان الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه كما ترى، والفرق المذكور بين الغنيمة والفبي عقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

في غزوة بني النضير

وفيئهم والفبي في الأنفال ما لم يكن أخذ عن قتال
أما الغنيمة فعن زحاف والأخذ عنوة لدى الزحاف

لخير مرسل إلخ.

وقوله: وفيئهم مبتدأ خبره لخير مرسل، وقوله: والفبي في الأنفال.. إلخ: كلام اعتراضي بين المبتدأ والخبر بين الفرق بين الغنيمة والفبي. وعلى هذا القول فلا إشكال في الآيات؛ لأن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ ذكر فيها حكم الغنيمة، وآية ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الحشر: ٧] ذكر فيها حكم الفبي. وأشير لوجه الفرق بين المسألتين بقوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]؛ أي فكيف يكون غنيمة لكم، وأنتم لم تتبعوا فيه ولم تتزعموه بالقوة من مالكيه.

وقال بعض العلماء: إن الغنيمة والفِيء واحد، فجميع ما أخذ من الكفار على أي وجه كان غنيمة وفيئاً، وهذا قول قتادة رحمته الله وهو المعروف في اللغة، فالعرب تطلق اسم الفِيء على الغنيمة، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

فلا وأبي جلييلة ما أفأنا من النعم المؤيل من بعير
ولكننا نهكنا القوم ضرباً على الأثباج منهم والنحور

يعني: أنهم لم يشتغلوا بسوق الغنائم ولكن بقتل الرجال، فقوله: أفأنا يعني غنمنا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ لأن ظاهر هذه الآية الكريمة شمول ذلك لجميع المسيبات ولو كن منتزعات قهراً، ولكن الاصطلاح المشهور عند العلماء هو ما قدمنا من الفرق بينهما، وتدل له آية الحشر المتقدمة، وعلى قول قتادة فآية الحشر مشكلة مع آية الأنفال هذه، ولأجل ذلك الإشكال قال قتادة رحمته الله تعالى: إن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية، ناسخة لآية ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾... الآية [الحشر: ٦]. وهذا القول الذي ذهب إليه رحمته الله باطل بلا شك، ولم يلجئ قتادة رحمته الله إلى هذا القول إلا دعواه اتحاد الفِيء والغنيمة، فلو فرق بينهما كما فعل غيره لعلم أن آية الأنفال في الغنيمة، وآية الحشر في الفِيء، ولا إشكال. ووجه بطلان القول المذكور: أن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾... الآية، نزلت بعد وقعة بدر، قبل قسم غنيمة بدر؛ بدليل حديث علي الثابت في صحيح مسلم، الدال على أن غنائم بدر خمست، وآية التخميس التي شرعها الله بها هي هذه، وأما آية الحشر فهي نازلة في غزوة بني النضير بإطباق العلماء، وغزوة بني النضير بعد غزوة بدر بإجماع المسلمين ولا منازعة فيه البتة، فظهر من هذا عدم صحة قول قتادة - رحمه الله تعالى - وقد ظهر لك أنه على القول بالفرق بين الغنيمة والفِيء لا إشكال في الآيات، وكذلك على قول من يرى أمر الغنائم والفِيء راجعاً إلى نظر الإمام، فلا منافاة على قوله بين آية الحشر، وآية التخميس إذا رآه الإمام. والله أعلم.



قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَتَنَةٌ فَنَقَتْ فَانْتَبَؤُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٩). أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالثبات عند لقاء العدو، وذكر الله كثيراً، مشيراً إلى أن ذلك سبب للفلاح؛ والأمر بالشيء نهي عن ضده، أو مستلزم للنهي عن ضده، كما علم في الأصول، فتدل الآية الكريمة على النهي عن عدم الثبات أمام الكفار، وقد صرح تعالى بهذا المدلول في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (٢٥) إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال]، وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضييق الأوقات؛ وهو وقت التحام القتال، دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال؛ ولا سيما في وقت الضيق، والمحِب الصادق في حبه لا ينسى محبوه عند نزول الشدائد.

قال عنترة في معلقته:

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل مني وبيض الهند تظفر من دمي
وقال الآخر:

ذكرتكم والخطى يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر
تنبيه: قال بعض العلماء: كل «لعل» في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة
الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء] فهي بمعنى «كأنكم تخلدون».
قال مقبده - عفا الله عنه -: لفظة «لعل» قد ترد في كلام العرب مراداً بها التعليل،
ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كفنا الحرب كانت عهودكم كشبه سراب بالمال متألق
فقوله «لعلنا نكف» يعني «لأجل أن نكف»، وكونها للتعليل لا ينافي معنى
الترجي؛ لأن وجود المعلول يرجى عند وجود علته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. نهى الله - جل وعلا - المؤمنين
في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبيناً أنه سبب الفشل، وذهاب القوة، ونهى عن
الفرقة أيضاً في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]،
ونحوها من الآيات، وقوله في هذه الآية: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم.
وقال بعض العلماء: نَصْرَكُمْ؛ كما تقول العرب: الريح فلان إذا كان غالباً، ومنه قوله:
إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاصفة سكون
واسم «إن» ضمير الشأن.

وقال صاحب الكشف: الريح الدولة، شبهت في نفوذ أمرها، وتمشيه بالريح في
هبوبها، ف قيل: هبت رياح فلان، إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره، ومنه قوله:
يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد قعود بين أذواي
أنظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾
إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان غرَّ
الكفار، وخدعهم، وقال لهم: لا غالب لكم وأنا جار لكم.

وذكر المفسرون: أنه تمثل لهم في صورة «سراقه بن مالك بن جعشم» سيد بني
مدلج بن بكر بن كنانة، وقال لهم ما ذكر الله عنه، وأنه مجيرهم من بني كنانة، وكانت
بينهم عداوة، ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَانُ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾، عندما رأى الملائكة وقال لهم:
﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فكان حاصل أمره أنه غرهم، وخدعهم حتى
أوردتهم الهلاك، ثم تبرأ منهم.

وهذه هي عادة الشيطان مع الإنسان كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ الآية [الحشر: ٥٩]. وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وكقوله: ﴿يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن ولاه غرار

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٣]. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه؛ وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُمْسِكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْتَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْثُ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٤].

قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أي حسبك الله، وحسبك أيضاً من اتبعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبي، وقال بعض العلماء: هو في محل خفض بالعطف على الضمير الذي هو الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه، فالمعنى: حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين؛ لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، فجعل الإتياء لله ورسوله، كما قال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصاً به وقال: ﴿إِلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٦] فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَنِ يَتُوكَلِّ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصِرِّهِمْ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٧]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه

بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فإن قيل: هذا الوجه الذي دل عليه القرآن، فيه أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ضعفه غير واحد من علماء العربية، قال ابن مالك في (الخلاصة):

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفص لازماً قد جعلاً
فالجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن جماعة من علماء العربية صححوا جواز العطف من غير إعادة الخافض، قال ابن مالك في (الخلاصة):

وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتاً
وقد قدمنا في «سورة النساء» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٧] شواهد العربية، ودلالة قراءة حمزة عليه، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

الوجه الثاني: أنه من العطف على المحل؛ لأن الكاف مخفوض في محل نصب، إذ معنى ﴿حَسْبَكَ﴾ يكفيك، قال في (الخلاصة):

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن
الوجه الثالث: نصبه بكونه مفعولاً معه، على تقدير ضعف وجه العطف، كما قال في (الخلاصة):

والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق والنصب مختار لدى ضعف النسق
الوجه الرابع: أن يكون ﴿وَمَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبهم الله أيضاً، فيكون من عطف الجملة، والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ فَآوَلَيْكَ مِنَ الْآزْوَاجِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٥].

لم يعين تعالى في هذه الآية الكريمة المراد بأولي الأرحام؛ واختلف العلماء في هذه الآية، هل جاء في القرآن ما يبين المراد منها أو لا؛ فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنها بيئتها آيات المواريث؛ كما قدمنا نظيره في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ومن أراد الزيادة فليرجع إلى الأصل.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التوبة

اعلم أولاً أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكتبوا سطر **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** في سورة «براءة» هذه في المصاحف العثمانية، واختلف العلماء في سبب سقوط البسملة منها على أقوال:

منها: أن البسملة رحمة وأمان، و«براءة» نزلت بالسيف؛ فليس فيها أمان، وهذا القول مروى عن علي رضي الله عنه، وسفيان بن عيينة.

ومنها: أن ذلك على عادة العرب إذا كتبوا كتاباً فيه نقض عهد، أسقطوا منه البسملة، فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه ليقراها عليهم في الموسم؛ قرأها، ولم يبسم على عادة العرب في شأن نقض العهد. نقل هذا القول بعض أهل العلم، ولا يخفى ضعفه.

ومنها: أن الصحابة لما اختلفوا هل «براءة» و«الأنفال» سورة واحدة أو سورتان؛ تركوا بينهما فرجة؛ لقول من قال: إنهما سورتان، وتركوا البسملة؛ لقول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان وثبتت حجتاهما في المصحف.

ومنها: أن سورة «براءة» نسخ أولها فسقطت معه البسملة. وهذا القول رواه ابن وهب، وابن القاسم، وابن عبد الحكم، عن مالك، كما نقله القرطبي.

وعن ابن عجلان، وسعيد بن جبير، أنها كانت تعدل سورة «البقرة»، وقال القرطبي: والصحيح أن البسملة لم تكتب في هذه السورة؛ لأن جبريل لم ينزل بها، فيها. قاله القشيري، اهـ.

قال مقيد - عفا الله عنه -: أظهر الأقوال عندي في هذه المسألة؛ أن سبب سقوط البسملة في هذه السورة؛ هو ما قاله عثمان رضي الله عنه لابن عباس.

فقد أخرج النسائي، والترمذي، وأبو داود، والإمام أحمد، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم في (المستدرک) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال - وهي من المثاني -، وإلى براءة - وهي من المائين - ففترتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ووضعتموهما في السبع الطول، فما حملكم على ذلك؟

فقال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من

يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآيات فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت «الأنفال» من أوائل ما أنزل بالمدينة، و«براءة» من آخر ما أنزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها، فظننت أنها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتها في السبع الطول، اهـ.

تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذا الحديث أن ترتيب آيات القرآن بتوقيف من النبي ﷺ، وهو كذلك بلا شك، كما يفهم منه أيضاً: أن ترتيب سورة بتوقيف أيضاً فيما عدا سورة «براءة»، وهو أظهر الأقوال، ودلالة الحديث عليه ظاهرة.

الثاني: قال أبو بكر بن العربي المالكي - رحمه الله تعالى -: في هذا الحديث دليل على أن القياس أصل في الدين. ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجأوا إلى قياس الشبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة «الأنفال» فألحقوها بها، فإذا كان القياس يدخل في تأليف القرآن، فما ظنك بسائر الأحكام.

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾:

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الكفار المعاهدين، وأنه بعد انقضاء أشهر الإمهال الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا عهد لكافر.

وفي هذا اختلاف كثير بين العلماء، والذي يبينه القرآن، ويشهد له من تلك الأقوال، هو أن محل ذلك إنما هو في أصحاب العهود المطلقة غير الموقته بوقت معين، أو من كانت مدة عهده الموقت أقل من أربعة أشهر، فتكمل له أربع أشهر، أما أصحاب العهود الموقته الباقي من مدتها أكثر من أربعة أشهر، فإنه يجب لهم إتمام مدتهم، ودليله المبين له من القرآن؛ هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو اختيار ابن جرير، وروي عن الكلبي، ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد، قاله ابن كثير. ويؤيده حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ، بعثه حين أنزلت «براءة» بأربع:

ألاً يطوف بالبيت عريان.

ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا.

ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

قوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾... الآية.

قال بعض العلماء: كان ابتداء التأجيل بالأشهر الأربعة المذكورة من شوال؛

وآخره سلخ المحرم، وبه قال الزهري - رحمه الله تعالى - ولكن القرآن يدل على أن ابتداءها من يوم النحر على الأصح من أنه يوم الحج الأكبر، أو يوم عرفة على القول بأنه هو يوم الحج الأكبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْعَثُ اللَّهُ رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾... الآية. وهو صريح في أن ابتداء الإعلام المذكور من يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، ولا يخفى انتهاؤها في العشر من ربيع الثاني.

قال ابن كثير: - في تفسير هذه الآية - وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال، وآخره سلخ المحرم، وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْعَثُ اللَّهُ رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْيَوْمَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾.

يفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية: أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ وهذا المفهوم في الآيتين صرح به - جل وعلا - في قوله: ﴿وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (٣١). قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾... الآية.

اختلف العلماء في المراد بالأشهر الحرم.

فقال ابن جرير: إنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الْدِينُ الْقَائِمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قاله أبو جعفر الباقر.

ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقه المحرم، وحكى نحو قوله هذا علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك.

ولكن السياق يدل على أن المراد بها أشهر الإمهال المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

قال ابن كثير، في تفسير هذه الآية: والذي يظهر من حيث السياق، ما ذهب إليه ابن عباس، في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها، الأشهر الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم قتالهم فيها، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوه؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، مع أن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه ﷺ من مكة، وصرح في مواضع أخر بأنهم أخرجوه بالفعل،

كقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقوله: ﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرِيْبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]، وقوله: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وذكر في مواضع آخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾. نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن موالة الكفار، ولو كانوا قرباء، وصرح في موضع آخر: بأن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ولو كانوا قرباء، وهو قوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

ذكر تعالى ما أصاب المسلمين يوم حنين في هذه الآية الكريمة، وذكر ما أصابهم يوم أحد بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَتْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وصرح بأنه تاب على من تولى يوم أحد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وأشار هنا إلى توبته على من تولى يوم حنين بقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٧) كما أشار بعض العلماء إليه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. أظهر الأقوال وأقربها للصواب في معنى ﴿يَكْنِزُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة، أن المراد بكنزهم الذهب والفضة وعدم إنفاقهم لها في سبيل الله، أنهم لا يؤدون زكاتها. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وأما الكنز؟ فقال مالك: عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى زكاته.

وروى الثوري، وغيره، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة، موقوفاً ومرفوعاً.

وقال عمر بن الخطاب نحوه: أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكرى به صاحبه، وإن كان على وجه الأرض، اهـ.

وممن روي عنه هذا القول: عكرمة، والسدي، ولا شك أن هذا القول أصوب الأقوال؛ لأن من أدى الحق الواجب في المال الذي هو الزكاة لا يكرى بالباقي إذا أمسكه؛ لأن الزكاة تطهره كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ ولأن الموارث ما جعلت إلا في أموال تبقى بعد مالكيها.

ومن أصرح الأدلة في ذلك: حديث طلحة بن عبيد الله وغيره في قصة الأعرابي أخي بني سعد، من هوازن، وهو ضمام بن ثعلبة، لما أخبره النبي ﷺ: بأن الله فرض عليه الزكاة، وقال: هل عليّ غيرها، فإن النبي قال له: «لا، إلا أن تطوع».

وقوله تعالى: ﴿رَسَّالُوكُمْ مَادَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقد قدمنا في «البقرة» تحقيق أنه ما زاد على الحاجة التي لا بد منها، وقوله: «ليس فيما دون خمسة أوسق»، الحديث؛ لأن صدقة نكرة في سياق النفي فهي تعم نفي كل صدقة. وفي الآية أقوال آخر:

منها: أنها منسوخة بآيات الزكاة؛ كقوله: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ﴾. وذكر البخاري هذا القول بالنسخ عن ابن عمر أيضاً. وبه قال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك، اهـ. وعن علي أنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما كان أكثر من ذلك فهو كنز، ومذهب أبي ذر رضي الله عنه في هذه الآية معروف، وهو أنه يحرم على الإنسان أن يدخر شيئاً فاضلاً عن نفقة عياله، اهـ. ولا يخفى أن ادخار ما أدت حقوقه الواجبة لا بأس به، وهو كالضروري عند عامة المسلمين.

فإن قيل: ما الجواب عما رواه الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه، قال: مات رجل من أهل الصفة، وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ؛ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، اهـ. وما رواه قتادة عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مثزرة دينار فقال رسول الله ﷺ: «كَيْة» ثم توفي آخر فوجد في مثزرة ديناران فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ». وما روى عبد الرزاق وغيره عن علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «تَبًّا لِلَّذِي تَبًّا لِلْفَضَّةِ»، يقولها ثلاثاً، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأَي مال نتخذ؟ فقال عمر رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك من رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأَي المال نتخذ؟ فقال: «لَسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً تَعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ». ونحو ذلك من الأحاديث.

فالجواب - والله تعالى أعلم -: أن هذا التغليظ كان أولاً ثم نسخ بفرض الزكاة كما ذكره البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابن حجر في (فتح الباري): قال ابن عبد البر: وردت عن أبي ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش؛ فهو كنز يذم فاعله، وأن آية الوعيد نزلت في ذلك.

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانع الزكاة، إلى أن قال: فكان ذلك واجباً في أول الأمر، ثم نسخ، ثم ذكر عن شداد بن أوس أنه قال: كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة ثم يخرج إلى قومه ثم يرخص فيه النبي ﷺ فلا يسمع الرخصة، ويتعلق بالأمر الأول، اهـ.

وقال بعض العلماء: هي في خصوص أهل الكتاب، بدليل اقترانها مع قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الآية.

فإذا علمت أن التحقيق أن الآية عامة، وأنها في من لا يؤدي الزكاة، فاعلم أن المراد بها هو المشار إليه في آيات الزكاة؛ وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن البيان بالقرآن إذا كان غير واف بالمقصود نتمم البيان من السنة، من حيث إنها بيان للقرآن المبين به، وآيات الزكاة كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾... الآية، وقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿أَنفِقُوا مِمَّنْ طَبِيعَتْ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَمْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، لا تفي بالبيان فنيئنه بالسنة، وقد قال ابن خويز منداد المالكي، تضمنت هذه الآية: زكاة العين، وهي تجب بأربعة شروط: حرية، وإسلام، وحول، ونصاب سليم من الدين، اه؛ وفي بعض هذه الشروط خلاف.



قوله تعالى: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية.

لا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من التشديد في الخروج إلى الجهاد على كل حال، ولكنه تعالى بين رفع هذا التشديد بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقُهُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]... الآية؛ فهي ناسخة لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَةُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فَلُوهُنَّ فِي الرِّقَابِ﴾. قال الشافعي، والليث: إن المراد بالرقاب المكاتبون.

وروي نحوه عن أبي موسى الأشعري، والحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، وابن زيد. ويدل لهذا القول قوله تعالى في المكاتبين: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي مَاتَكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال ابن عباس: الرقاب أعم من المكاتبين، فلا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة. وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، بأن من يؤذي رسول الله ﷺ له العذاب الأليم.

وذكر في «الأحزاب» أنه ملعون في الدنيا والآخرة، وأن له العذاب المهين، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمايرهم من الخبث؛ ثم بين أنه مخرج ما كانوا يحذرونه، وذكر في موضع آخر أنه فاعل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ [٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠]، وبين في موضع آخر شدة خوفهم، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين ما وجدوا شيئاً ينقمونه؛ أي يعيبونه ويتنقدونه إلا أن الله تفضل عليهم فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة.

والمعنى أنه لا يوجد شيء يحتمل أن يعاب أو ينقم بوجه من الوجوه، والآية كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْكُمْ إِلَّا أَنْتَ أَمَّا بِنَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَلَدْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

ونظير ذلك من كلام العرب؛ قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وقول الآخر:

ما نقموا من أمية إلا أنهم يضربون إن غضبوا
وقول الآخر:

فما بك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل
قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة شدة حر نار جهنم - أعادنا الله والمسلمين منها -، وبين ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَظَىٰ ﴿٥٦﴾ تَرَاعَةُ لِلشَّوَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [المعارج]، وقوله: ﴿كَلَّا فَضِئَتْ جُلُودُهُمْ بِذَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٥٩﴾ وَلَكُم مَقْتَبِعٌ مِنْ حَديدٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: ٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُخَلَّفِينَ﴾. عاقب الله في هذه الآية الكريمة: المتخلفين عن غزوة تبوك بأنهم لا يؤذن لهم في الخروج مع نبيه، ولا القتال معه ﷺ؛ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير.

وقد جاء مثل هذا في آيات أخر كقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْتِيَهُمْ دُرُوبًا فَتُبَعُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَنَقَلِبْ أَوْدَتَهُمْ وَأَبْصِرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات؛ والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو فيبقى مع النساء والصبيان، ومنه قول الشنفرى:

ولا خالف دارية متررب يروح ويغدو داهنا يتكحل

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْقَتْعِيِّنَ﴾ [٨١].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة فيها الأمر بالإيمان، والجهاد مع نبيه ﷺ، استأذن الأغنياء من المنافقين في التخلف عن الجهاد مع القدرة عليه، وطلبوا النبي ﷺ أن يتركهم مع القاعدين المتخلفين عن الغزو.

وبيّن في موضع آخر أن هذا ليس من صفات المؤمنين، وأنه من صفات الشاكين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك في قوله: ﴿لَا يَسْتَنْدِثُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [١١٤] إِنَّمَا يَسْتَنْدِثُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١١٥﴾، وبين أن السبيل عليهم بذلك، وأنهم مطبوع على قلوبهم؛ بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْدِثُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.

وبيّن في مواضع أخرى شدة جزعهم من الخروج إلى الجهاد، كقوله: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحَوْفُ سَلَفُواكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان، أنهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى، والوعد بالخلود في الجنات والفوز العظيم. وبيّن في مواضع أخرى، أن الذين اتبعوا السابقين بإحسان يشاركونهم في الخير، كقوله - جل وعلا -: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ لَمَّا بَلَغُوا نَبَأَهُمْ﴾ [الجمعة: ٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَّهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولا يخفى أنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو دليل قرآني صريح في أن من يسبهم ويبغضهم، أنه ضال مخالف لله - جل وعلا - حيث أبغض من رضي الله عنه؛ ولا شك أن بغض من رضي الله عنه مضادة له - جل وعلا - وتمرد وطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِفْقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ﴾ الآية:

صرح في هذه الآية الكريمة أن من الأعراب ومن أهل المدينة منافقين لا يعلمهم رسول الله ﷺ، وذكر تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٧٧]... الآية [الشعراء]، وذكر نظيره عن شعيب - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه - في قوله: ﴿يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨١]. وقد أطلع الله نبيه على بعض المنافقين كما تقدم في الآيات الماضية، وقد أخبر صاحبه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، بشيء من ذلك، كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾

الآية: لم يبين هنا هذه الموعدة التي وعدها إياه، ولكنه بيّنها في سورة «مريم» بقوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ [مريم].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾. هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذي هو من أنفسنا الذي هو متصف بهذه الصفات المشعزة بغاية الكمال، وغاية شففته علينا هو أعظم من الله تعالى، وأجزل نعمه علينا، وقد بيّن ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أمر تعالى في هذه الآية الكريمة فيه ﷺ، بالتوكل عليه - جل وعلا - . ولا شك أنه ممثّل ذلك، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، وهو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه.

كما بيّن تعالى ذلك في آيات أخرى، كقوله عن هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٩٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٩٦﴾ [هود]، وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوْا إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا كُنْتُ أَفْعَلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿١٧١﴾ [يونس]، وقوله تعالى عن جملة الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِدِّقَ عَلَى مَا ءَاذَيْنُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ على الله، قوله يوم حنين، وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الذين كفروا يعذبون يوم القيامة بشرب الحميم، وبالعذاب الأليم، والحميم: الماء الحار، وذكر أوصاف هذا الحميم في آيات أخرى،

كقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ؕ إِنِ ۙ﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمَا فِي رَبِّهِمَا فَلَازِمَ كَقِرُوا فُتِحَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۚ﴾ [الحج]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمَهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ... الآية [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَنَزَّلْنَاهُ عَلَيْهِ مِنْ لَّحِيمٍ ۝ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْمَيِّتُ ۝﴾ [الواقعة].

وذكر في موضع آخر أن الماء الذي يسقون صديد - أعادنا الله وإخواننا المسلمين من ذلك بفضلله ورحمته -، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِن رَّأْيِهِ جَهَنَّمَ وُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وذكر في موضع آخر أنهم يسقون مع الحميم الغساق، كقوله: ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۝ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۝﴾ [ص]، وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ۝﴾ [النبا]. والغساق: صديد أهل النار - أعادنا الله والمسلمين منها - وأصله من غسقت العين سال دمعها، وقيل: هو لغة، البارد الممتن، والحميم الآني: الماء البالغ غاية الحرارة، والمهل: دُرْدِيُّ الزيت أو المذاب من النحاس والرصاص، ونحو ذلك، والآيات المبينة لأنواع عذاب أهل النار كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية أن تحية أهل الجنة في الجنة سلام، أي يسلم بعضهم على بعض بذلك، ويسلمون على الملائكة، وتسلم عليهم الملائكة بذلك، وقد بين تعالى هذا في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿نَجِّنُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۝﴾ [يس]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعنى السلام: الدعاء بالسلامة من الآفات.

والتحية مصدر حياك الله بمعنى أطال حياتك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله فإذا فرج الله كربته، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه كأنه لم يكن فيه قط.

وبيّن هذا في مواضع أخرى كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَىٰ إِلَهِ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [الزمر: ٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [الزمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَعْمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَا بَاجَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝﴾ [فصلت]، والآيات في مثل ذلك كثيرة.

إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة عباده المؤمنين، بقوله في سورة هود: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٦﴾ [هود]، وقد قال ﷺ: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾. أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ أن يقول: إنه ما يكون له أن يبدل شيئاً من القرآن من تلقاء نفسه، ويفهم من قوله: ﴿مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾...، أن الله تعالى يبدل منه ما شاء بما شاء.

وصرح بهذا المفهوم في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَخْ ۝١٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝١٧﴾ [الاعلى].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة حجة واضحة على كفار مكة؛ لأن النبي ﷺ لم يبعث إليهم رسولاً حتى لبث فيهم عمراً من الزمن، وقدر ذلك أربعون سنة، فعرفوا صدقه، وأمانته، وعدله، وأنه بعيد كل البعد من أن يكون كاذباً على الله تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين، وقد ألقمهم الله حجراً بهذه الحجة في موضع آخر، وهو قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مَكْرُورٌ ۝١٦﴾ [المؤمنون]؛ ولذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، ومن معه عن صفاته ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان في ذلك الوقت زعيم الكفار، ورأس المشركين، ومع ذلك اعترف بالحق، والحق ما شهدت به الأعداء.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله، اه، ولذلك وبخهم الله تعالى بقوله هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ﴾.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للعالم بالنبات الناعم المختلط ببعضه ببعض، وعماً قليل يبيس، ويكون حصيداً يابساً كأنه لم يكن قط، وضرب لها أيضاً المثل المذكور في «الكهف» في قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّراً﴾ [الكهف: ٤٥]، وأشار لهذا المثل بقوله في «الزمر»: ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله في «الحديد»: ﴿كَمْثَلٍ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾... الآية [الحديد: ٢٠].

تنبيه: التشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب؛ لأن وجه

الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبّه به يمكن ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عمّا قليل يضمحل ويذول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة يجمع الناس جميعاً، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وصرح في «الكهف» بأن لا يترك منهم أحداً، بقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ الآية.

صرح في هذه الآية الكريمة، بأن كل نفس يوم القيامة تبلو، أي تخبر وتعلم ما أسلفت، أي قدمت من خير وشر، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَبْلُوْا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٢] وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٣] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [١٤] [الإسراء: ١٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نَوَيْلُنَا مَالٌ هَٰذَا الَّذِي كُتِبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما على قراءة تتلو بتاءين ففي معنى الآية وجهان:

أحدهما: أنها تتلو بمعنى تقرأ في كتاب أعمالها جميع ما قدمت، فيرجع إلى الأولى.

وثانيهما: أن كل أمة تتبع عملها، لقوله ﷺ: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبده؛ فيتبع من كان يعبد الشمس، الشمس... الحديث».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

صرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة، بأن الكفار يقرّون بأنه - جل وعلا - هو ربهم الرازق المدبر للأمور المتصرف في ملكه بما يشاء، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته، ومع هذا أشركوا به - جل وعلا -.

والآيات الدالة على أن المشركين مقرون بربوبيته - جل وعلا - ولم ينفعهم ذلك لإشراكهم معه غيره في حقوقه - جل وعلا - كثيرة، كقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿قُلْ لَيْنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٤] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنِّي تُسْهِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

والآيات المذكورة صريحة في أن الاعتراف بربوبيته - جل وعلا - لا يكفي في الدخول في دين الإسلام إلا بتحقيق معنى لا إله إلا الله نفيًا وإثباتًا، وقد أوضحناه في سورة «الفاتحة» في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

أما تجاهل فرعون لعنه الله لربوبيته - جل وعلا - في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؛ فإنه تجاهل عارف لأنه عبد مربوب، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ (الإسراء: ١٠٢)، وقوله: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾.

ألقم الله تعالى المشركين في هذه الآيات حجراً، بأن الشركاء التي يعبدونها من دونه لا قدرة لها على فعل شيء، وأنه هو وحده - جل وعلا - الذي يبدأ الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى، وأنه يهدي من يشاء.

وصرح بمثل هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْشُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ صَرًّا وَلَا فِئْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ (الفرقان: ٣) وقوله: ﴿بِقَائِهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا يَمَسُّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (النحل: ١٧)، وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ (الرعد: ١٦)، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ (الزمر)، وقوله: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ (الملك: ٢١)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (العنكبوت: ١٧).

والآيات في مثل ذلك كثيرة، ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر على شيء مع من بيده الخير كله المتصرف بكل ما شاء، لا تصدر إلا ممن لا عقل له؛ كما قال تعالى عن أصحاب ذلك: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لَكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧). صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن هذا القرآن لا يكون مفترى من دون الله مكذوباً به عليه، وأنه لا شك في أنه من رب العالمين - جل وعلا - وأشار إلى أن تصديقه للكتب السماوية المنزلة قبله وتفصيله للعقائد والحلال والحرام ونحو ذلك، مما لا شك أنه من الله - جل وعلا -؛ دليل على أنه غير مفترى، وأنه لا ريب في كونه من رب العالمين. وبين هذا في مواضع أخرى، كقوله: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصْصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (الشعراء)، وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، والآيات في مثل ذلك كثيرة.

ثم إنه تعالى لما صرح هنا بأن هذا القرآن ما كان أن يفترى على الله، أقام البرهان

القاطع على أنه من الله، فتحدى جميع الخلق بسورة واحدة مثله، ولا شك أنه لو كان من جنس كلام الخلق لقدر الخلق على الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك كلهم حصل اليقين، والعلم الضروري أنه من الله - جل وعلا -، قال - جل وعلا - في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ تحداهم أيضاً في سورة «البقرة» بسورة واحدة من مثله، بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، وتحداهم في «هود» بعشر سور مثله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ﴾ ... الآية [هود: ١٣]، وتحداهم في «الطور» به كله بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ١٣].

وصرح في سورة «بني إسرائيل» بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله بقوله: ﴿قُلْ لِّمَنِ احْتَمَعَتِ الْآلِهَةُ وَالْحِجُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، كما قدمنا، وبين أنهم لا يأتون بمثله أيضاً بقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. التحقيق أن تأويله هنا، هو حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة، كما قدمنا في أول «آل عمران»، ويدل لصحة هذا قوله في «الأعراف»: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَةٍ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَذَابِي﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكاراً لها، وإظهاراً لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الْكُفْرَانَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلِي دِينٍ﴾ [الكافرون: ١-٦]، ونظير ذلك، قول إبراهيم الخليل - وأتباعه - لقومه: ﴿إِنَّا بُرْءُوكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [المتحنة: ٤].

وبين تعالى في موضع آخر أن اعتزال الكفار، والأوثان والبراءة منهم؛ من فوائده تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة، وهو قوله في «مريم»: ﴿فَلَمَّا أَغْرَضْنَاهُمْ وَأَمَّا يَعْجِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهِيَ لَهُمْ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠].

وقال ابن زيد، وغيره: إن آية: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ﴾ ... الآية، منسوخة بآيات السيف.

والظاهر أن معناها محكم؛ لأن البراءة إلى الله من عمل السوء لا شك في بقاء مشروعاتها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ الآية.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار إذا حشروا استقلوا مدة مكثهم في دار الدنيا، حتى كأنها قدر ساعة عندهم، وبين هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله في

آخر «الأحقاف»: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَعَلَ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ﴾ الآية «الأحقاف: ٣٥»، وقوله في آخر «النازعات»: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزَتْ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِثَّةً أَوْ ضُفْحًا﴾ [٤٦] «النازعات»، وقوله في آخر «الروم»: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ... الآية [الروم: ٥٥].

وقد بينا بليّضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين هذه الآيات المقتضية أن الدنيا عندهم كساعة، وبين الآيات المقتضية أنها عندهم كأكثر من ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه]، وقوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [المؤمنون]؛ فانظره فيه في سورة: «قد أفلح المؤمنون» في الكلام على قوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [المؤمنون]. قوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أن أهل المحشر يعرف بعضهم بعضاً فيعرف الآباء الأبناء، كالعكس، ولكنه بين في مواضع آخر أن هذه المعرفة لا أثر لها، فلا يسأل بعضهم بعضاً شيئاً، كقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيًّا حِمِيًّا﴾ [المعارج: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون].

وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أيضاً، وجه الجمع بين قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ [الصفات]، في سورة: «قد أفلح المؤمنون»، أيضاً. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: بخسران المكذبين بلفظه، وأنهم لم يكونوا مهتدين، ولم يبين هنا المفعول به لقوله خسر، وذكر في مواضع كثيرة أسباباً من أسباب الخسران، وبين في مواضع آخر المفعول المحذوف هنا، فمن الآيات المماثلة لهذه الآية، قوله تعالى في «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِ اللَّهِ حَقٌّ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْزَرُنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى في «البقرة»: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة]، وقوله في «البقرة» أيضاً: ﴿الَّذِينَ عَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة]، وقوله في «الأعراف»: ﴿أَفَأَسْمَأُ مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف]، وقوله في «الأعراف» أيضاً: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف]، وقوله في «الزمر»: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر].

والآيات في مثل هذا كثيرة، وقد أقسم تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه إنسان؛ إلا بأربعة أمور:

الأول: الإيمان. الثاني: العمل الصالح.

الثالث: التواصي بالحق. الرابع: التواصي بالصبر.

وذلك في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر: ١، ٢] إلى آخر السورة الكريمة، وبين في مواضع آخر، أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٩]، وقوله في «المؤمنون»: ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: ٥٢] وقوله في «هود»: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٦١﴾ [هود: ٦١].

وزاد في مواضع آخر خسران الأهل مع النفس، كقوله في «الزمر»: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقوله في «الشورى»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وبين في موضع آخر أن خسران الخاسرين قد يشمل الدنيا والآخرة، وهو قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ ۝١١﴾ [الحج: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَتَوَقَّعُ ۚ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾.

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ أنه إما أن يريه في حياته بعض ما يعد الكفار من النكال والانتقام، أو يتوفاه قبل ذلك، فمرجعهم إليه - جل وعلا - لا يفوته شيء مما يريد أن يفعله بهم لكمال قدرته عليه، ونفوذ مشيئته - جل وعلا - فيهم. وبين هذا المعنى أيضاً في مواضع آخر، كقوله في سورة «المؤمن»: ﴿فَكَيْفَ تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَتَوَقَّعُ ۚ فَإِنَّا لَنُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ ۚ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ۝١١﴾ [المؤمن: ١١]، وقوله في «الزخرف»: ﴿فَكَيْفَ تَذْهَبُ ۚ إِنَّا نُنَقِّمُ ۝١١﴾ [الزخرف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: لم يأت في القرآن العظيم فعل مضارع بعد (إِنْ) الشرطية المدغمة في (ما) المزيدة لتوكيد الشرط، إلا مقترناً بنون التوكيد الثقيلة، كقوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَنُرِيكَ ۚ﴾ الآية، ﴿فَكَيْفَ تَذْهَبُ ۚ﴾ الآية [الزخرف: ٤١]، ﴿فَكَيْفَ تَقْفَنَّهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٥٧]، ﴿وَإِنَّا نَحْقَاقٌ مِنَ قَوْرٍ ۚ﴾ ... الآية [الأنفال: ٥٨].

ولذلك زعم بعض علماء العربية وجوب اقتران المضارع بالنون المذكورة في الحال المذكورة، والحق أن عدم اقترانه بها جائز، كقول الشاعر:

فلما ترينني ولي لمة فإن الحوادث أودى بها

وقول الآخر:

زعمت تماضر أنني إما أمت يسدد أبينوها الأصاغر خلتي
 قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أن لكل أمة
 رسولاً، وبين هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل:
 ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَا مَن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾
 [الزمر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقد بين ﷺ أن عدد الأمم سبعون أمة في حديث
 معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها على الله»،
 وقد بينا هذه الآيات في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، ووجه الجمع
 بينها وبين قوله: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، في سورة «الرعد» في الكلام
 على قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.
 أوضح الله تعالى معنى هذه الآية الكريمة في سورة «الزمر» بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ
 الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْيَتِيمَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
 ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ [الزمر].
 قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.
 صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن لكل أمة أجلاً، وأنه لا يسبق أحد أجله
 المحدد له، ولا يتأخر عنه.

وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿مَّا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾
 [الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقوله: ﴿وَلَنْ
 يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.
 قوله تعالى: ﴿أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَاَلَتْنِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار يطلبون في الدنيا تعجيل العذاب كفراً
 وعناداً، فإذا عاينوا العذاب آمنوا، وذلك الإيمان عند معاينة العذاب وحضوره لا يقبل
 منهم، وقد أنكر ذلك تعالى عليهم هنا بقوله: ﴿أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِؕ﴾، نفى أيضاً
 قبول إيمانهم في ذلك الحين بقوله: ﴿ءَاَلَتْنِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَتْ إِلَهِي قَدْ خَلَتْ
 فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ءَاَلَتْنِ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلَ وَكُنْتُ مِنَ
 الْمُنْشِقِينَ ﴿٩١﴾ [يونس]، وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ الثُّوبَةُ لِذُنُوبِكُمْ يُعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ
 أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ الآية [النساء: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات، واستثنى
 الله تعالى قوم يونس دون غيرهم: بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
 لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُ﴾. ذكر تعالى عن موسى في هذه الآية أنه قال: إن الله سبطل سحر سحرة فرعون.

وصرح في مواضع أخر بأن ذلك الذي قال موسى، إنه سيقع، من إبطال الله لسحرهم، أنه وقع بالفعل؛ كقوله: ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿فَقُلُّوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية أنه بوأ بني إسرائيل مَبُوءًا صدق.

وبين ذلك في آيات أخر كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَكَثِيرٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٣٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٩﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَرْكُزُ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٤٠﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٤١﴾ [الدخان] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾ [الدخان]. ومعنى ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾: نزلناهم منزلاً مرضياً حسناً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٤٢﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن من حقت عليه كلمة العذاب، وسبقت له في علم الله الشقاوة لا ينفعه وضوح أدلة الحق، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِ الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ [القمr: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرَّتْ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لَكُمْ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن إيمان قوم يونس ما نفعهم إلا في الدنيا دون الآخرة، لقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.

ويفهم من مفهوم المخالفة في قوله: ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أن الآخرة ليست كذلك، ولكنه تعالى أطلق عليهم اسم الإيمان من غير قيد في سورة «الصفات»، والإيمان منقذ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما أنه بين في «الصفات» أيضاً كثرة عددهم وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ فَآمَنُوا فَتَرْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٨﴾ [الصفات].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمناهم جميعاً، وهو دليل واضح على أن كفرهم واقع بمشيئته الكونية القدرية. وبين ذلك

أيضاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن من لم يهده الله فلا هادي له، ولا يمكن أحداً أن يقهر قلبه على الانسراح إلى الإيمان إلا إذا أراد الله به ذلك.

وأوضح ذلك المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِي لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً كما تقدم، في سورة «النساء».

والظاهر أنها غير منسوخة، وأن معناها أنه لا يهدي القلوب ويوجهها إلى الخير إلا الله تعالى، وأظهر دليل على ذلك أن الله أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. أمر الله - جل وعلا - جميع عباده أن ينظروا ماذا خلق في السماوات والأرض من المخلوقات الدالة على عظم خالقها، وكماله، وجلاله، واستحقاقه لأن يُعبد وحده - جل وعلا -.

وأشار لمثل ذلك بقوله: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وبيخ في سورة «الأعراف» من لم يمثل هذا الأمر وهدده بأنه قد يعاجله الموت فينقضي أجله قبل أن ينظر فيما أمره الله - جل وعلا - أن ينظر فيه لينبه بذلك على وجوب المبادرة في امتثال أمر الله - جل وعلا - وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

تنبيه: آية «الأعراف» هذه التي ذكرنا تدل دلالة واضحة على أن الأمر يقتضي الفور، وهو الذي عليه جمهور الأصوليين، خلافاً لجماعة من الشافعية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَفْهَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾. أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿فَأَفْهَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾... الآية [الروم: ٣٠].
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ الآية.

أوضح معناه أيضاً بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. لم يبيّن هنا ما حكم الله به بين نبيه وبين أعدائه، وقد بيّن في آيات كثيرة أنه حكم بنصره عليهم، وإظهار دينه على

كل دين، كقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح] إلى آخرها، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَكْرَمْتَ أَنِيتُهُ ثُمَّ قُضِيََتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

اعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالحروف المقطعة في أوائل السور اختلافاً كثيراً، واستقرأ القرآن العظيم يرجح واحداً من تلك الأقوال، وسنذكر الخلاف المذكور وما يرجحه القرآن منه بالاستقراء فنقول، وبالله - جل وعلا - نستعين:

قال بعض العلماء: هي مما استأثر الله تعالى بعلمه، كما بيناه في «آل عمران» وممن روي عنه هذا القول: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود رضي الله عنهم وعامر، والشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، واختاره أبو حاتم بن حبان.

وقيل: هي أسماء للسور التي افتتحت بها، وممن قال بهذا القول: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ويروى ما يدل لهذا القول عن مجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، قال الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر. ونقل عن سيويه أنه نص عليه. ويعتضد هذا القول بما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة «ألم» السجدة، و﴿هَذَا آقَ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١].

ويدل عليه أيضاً قول قاتل محمد السجاد بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يوم الجمل، وهو شريح بن أبي أوفى العبسي؛ كما ذكره البخاري في صحيحه في أول سورة المؤمن: يذكرني حاميم والرمح شاجرٌ فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وحكى ابن إسحاق أن هذا البيت للأشتر النخعي قائلاً: إنه الذي قتل محمد بن طلحة المذكور، وذكر أبو مخنف أنه لمدلج بن كعب السعدي، ويقال: كعب بن مدلج. وذكر الزبير بن بكار أن الأكثر على أن الذي قتله عصام بن مقشعر. قال المرزباني: وهو الثبت، وأنشد له البيت المذكور. وقبلة:

وأشعث قوام بآيات ربه	قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه	فخر صريعاً لليدين وللهم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً	علياً ومن لا يتبع الحق يندم

يذكرني حاميم... البيت، اه من فتح الباري.

فقوله: «يذكرني حاميم، بإعراب «حاميم» إعراب من لا ينصرف»، فيه الدلالة على ما ذكرنا من أنه اسم للسورة.

وقيل: هي من أسماء الله تعالى. وممن قال بهذا: سالم بن عبد الله، والشعبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وروي معناه عن ابن عباس رضي الله عنه، وعنه أيضاً: أنها أقسام أقسم الله بها، وهي من أسمائه، وروي نحوه عن عكرمة.

وقيل: هي حروف، كل واحد منها من اسم من أسمائه - جل وعلا -، فالألف من ﴿الْم﴾ [البقرة]، مثلاً: مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، وهكذا. ويروى هذا عن ابن عباس، وابن مسعود، وأبي العالية، واستدل لهذا القول بأن العرب قد تطلق الحرف الواحد من الكلمة، وتريد به جميع الكلمة كقول المراجز:

قلت لها قفي فقالت لي قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

فقوله: «قاف» أي وقفت، وقول الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فإ لا أريد الشر إلا أن تا

يعني: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكثى بالفاء والتاء عن بقية الكلمتين.

قال القرطبي: وفي الحديث «من أعان على قتل مسلم بشر كلمة» الحديث، قال سفيان: هو أن يقول في اقتل: اق، إلى غير ما ذكرنا من الأقوال في فواتح السور، وهي نحو ثلاثين قولاً.

أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. وحكى هذا القول الرازي في تفسيره عن المبرد، وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء وقطرب، ونصره الزمخشري في (الكشاف).

قال ابن كثير: وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية.

ووجه شهادة استقراء القرآن لهذا القول: أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه.

وذكر ذلك بعدها دائماً دليل استقرائي على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه حق.

قال تعالى في البقرة: ﴿الْعَمَّ﴾، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال في آل عمران: ﴿الْعَمَّ﴾، وأتبع ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿١﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، وقال في الأعراف: ﴿الْعَمَّ﴾، ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢]، وقال في سورة يونس: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال في هذه السورة الكريمة التي نحن بصدددها - أعني سورة هود - ﴿الرَّءُ﴾ ثم قال: ﴿كِتَابٌ أُخْصِتْ لَهُ مِنْ قَبْلِكَ وَأَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ١، ٢]، وقال في الرعد: ﴿الْعَمَّ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

وقال في سورة إبراهيم: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سورة الحجر: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وقال في سورة طه: ﴿طه﴾، ثم قال: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿٢﴾ [طه]، وقال في سورة الشعراء: ﴿طس﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ لَقَدْ بَنَعَ تَبْعٌ شِئْءٌ [الشعراء: ١ - ٣]، وقال في سورة النمل: ﴿طس﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وقال في القصص: ﴿طس﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ [القصص]، وقال في سورة الروم: ﴿الْعَمَّ﴾، ثم قال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ [الروم]، وقال في سورة لقمان: ﴿الْعَمَّ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ [لقمان] وقال في سورة السجدة: ﴿الْعَمَّ﴾ ﴿١﴾.

ثم قال: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ [السجدة]، وقال في سورة يس: ﴿يس﴾، ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ [يس]، وقال في سورة ص: ﴿ص﴾، ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿حم﴾، ثم قال: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١﴾ [المؤمنون]، وقال في فصلت: ﴿حم﴾، ثم قال: ﴿نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ [فصلت]، وقال في سورة الشورى: ﴿حم﴾ ﴿١﴾ عَسَى ﴿٢﴾، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وقال في سورة الزخرف: ﴿حم﴾ ﴿١﴾، ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ [الزخرف]، وقال في سورة الدخان: ﴿حم﴾ ﴿١﴾، ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ﴿٣﴾ ... الآية [الدخان: ١ - ٣]، وقال في سورة الجاثية: ﴿حم﴾ ﴿١﴾، ثم قال: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [الجاثية]، وقال في سورة الأحقاف: ﴿حم﴾ ﴿١﴾، ثم قال: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿٣﴾ [الأحقاف: ١ - ٣]، وقال في سورة ق: ﴿ق﴾، ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقد قدمنا كلام الأصوليين في الاحتجاج بالاستقراء بما أغنى عن إعادته هنا .
 وإنما أخرجنا الكلام على الحروف المقطعة مع أنه مرت سور مفتتحة بالحروف
 المقطعة؛ كالبقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس؛ لأن الحروف المقطعة في القرآن
 المكّي غالباً، والبقرة، وآل عمران مدينتان والغالب له الحكم، واخترنا لبيان ذلك سورة
 هود؛ لأن دلالتها على المعنى المقصود في غاية الظهور والإيضاح؛ لأن قوله تعالى:
 ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ بعد قوله: ﴿الر﴾ واضح جداً فيما
 ذكرنا، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُرْسِيُّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن
 من أجلها، هي أن يعبد الله - جل وعلا - وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء؛ لأن
 قوله - جل وعلا -: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا
 اللَّهَ... الآية، صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل
 أن يعبد الله وحده، سواء قلنا أن «أن» هي المفسرة، أو أن المصدر المنسبك منها ومن
 صلتها مفعول من أجله؛ لأن ضابط «أن» المفسرة أن يكون ما قبلها متضمناً معنى
 القول، ولا يكون فيه حروف القول .

ووجهه في هذه الآية أن قوله: ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فيه معنى قول الله تعالى
 لذلك الأحكام والتفصيل دون حروف القول، فيكون تفسير ذلك هو: ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ .

وأما على القول بأن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها مفعول له فالأمر واضح،
 فمعنى الآية أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به شيء،
 ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
 إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء]، ومعلوم أن لفظة «إنما» من صيغ الحصر،
 فكان جميع ما أوحى إليه منحصراً في معنى «لا إله إلا الله» وقد ذكرنا في كتابنا (دفع
 إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)؛ أن حصر الوحي في آية الأنبياء هذه في توحيد
 العبادة، حصر له في أصله الأعظم الذي يرجع إليه جميع الفروع؛ لأن شرائع الأنبياء
 كلهم داخلية في ضمن معنى «لا إله إلا الله» لأن معناها: خلع جميع المعبودات غير الله
 - جل وعلا - في جميع أنواع العبادات، وإفراده - جل وعلا - وحده بجميع أنواع
 العبادات؛ فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية .

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده
 كثيرة جداً، كقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾
 [الشحل: ٣٦]، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿ وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
 الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَعْبدُونَ ﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة، وسنستقصي الكلام عليه - إن شاء الله تعالى - في سورة «الناس»، لتكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآية.

هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى؛ لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى: الموت، ويدل لذلك قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَيَقُولُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرِّزَ قُوَّةٌ إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٥﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٦﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنصِلُكُمْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَعْنَا عَلَيْهِم بِرُكْنٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّحْمَةٍ لَّا يَكُونُوا لَأَكْلُوا مِن قَوْعِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبَرِّزْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَحْفِشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾. يبين تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يسر، والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوْهُ بِهِ فَسَمَّ وَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْصُرُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى.

تنبيه مهم: اعلم أن الله - تبارك وتعالى - ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمل خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون. وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتلاً للرجال، سفاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمة

ظلماً، وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك.

ولا شك - والله المثل الأعلى - أن رب السموات والأرض - جل وعلا - أشد علماً، وأعظم مراقبة، وأشد بطشاً، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه - جل وعلا - ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي؛ لأن قلبه، وخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله - جل وعلا -.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله - تبارك وتعالى - صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. وقال في الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝١﴾.

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى، أي يختبر بإحسان العمل؛ فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي ﷺ فقال: «أخبرني عن الإحسان»، أي وهو الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه، فبين النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

واختلف العلماء في المراد في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَسْتَفْشُونَ شِبَاهَهُمْ﴾، وفي مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾.

فقال بعض العلماء: معنى ﴿يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يزورون عن الحق، وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدوره، ومن أزور عنه وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه، بهذا فسر الزمخشري في (الكشاف).

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا المعنى معروف في كلام العرب، فهم يعبرون باعوجاج الصدر عن العدول عن الشيء والميل عنه، ويعبرون بإقامة الصدر عن القصد إلى الشيء وعدم الميل عنه.

فمن الأول قول ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي عدي الرباب.

خليلي عوجا بارك الله فيكما
تكن عوجة يجزيكما الله عنده
على دار مي من صدور الركائب
بها الأجر أو تقضى ذمامة صاحب
يعني: أثنا صدور الركائب إلى دار مي.

ومن الثاني قول الشنفرى.

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فإني إلى قوم سواكم لأميل
وقول الآخر:

أقول لأم زنباع أقيمي
صدور العيش شطر بني تميم

وقيل: نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة.

كان حلو المنطق، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأ رأسه وغطى وجهه لكيلا يراه النبي ﷺ فيدعوه إلى الإيمان. حكى معناه عن عبد الله بن شداد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في قوم كانوا يكرهون أن يجامعوا أو يتغوطوا وليس بينهم وبين السماء حجاب، يستحيون من الله.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطون رؤوسهم لأجل كراحتهم استماع كلام الله، كقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُهُمْ فِي مَاذَانِهِمْ وَاسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾... الآية [نوح: ٧].

وقيل: كانوا إذا عملوا سوءاً ثنوا صدورهم وغطوا رؤوسهم، يظنون أنهم إن فعلوا ذلك أخفوا به عملهم على الله - جل وعلا - ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ﴾... الآية.

وقرأ ابن عباس هذه الآية الكريمة: «ألا إنهم تشنوني صدورهم» وتشنوني مضارع اثنوني، ووزنه افعول من الثني كما تقول احلولى من الحلاوة، وصدورهم في قراءة ابن عباس بالرفع فاعل تشنوني، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى الله تعالى في أظهر القولين. وقيل: راجع إليه ﷺ كما مر في الأقوال في الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أنه خلق السماوات والأرض لحكمة ابتلاء الخلق، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ونزه نفسه تعالى عن ذلك، وصرح بأن من ظن ذلك فهو من الذين كفروا وهددهم بالنار، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝﴾ [ص: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

عَبَسَّا وَأَنكَبْنَا لَا تُرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿١٦﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَسْأَلُكُمْ إِنَّكُمْ أَعْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أُمَّةً مَّعْدُودَةً﴾. المراد بالأمة هنا: المدة من الزمن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي تذكر بعد مدة.

تنبيه: استعمل لفظ «الأمة» في القرآن أربعة استعمالات:

الأول: هو ما ذكرنا هنا من استعمال الأمة في البرهة من الزمن.

الثاني: استعمالها في الجماعة من الناس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُوتُ﴾ [القصاص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: استعمال «الأمة» في الرجل المقتدى به؛ كقوله: ﴿إِنَّا إِزْهَيْدَ كَانَتْ أُمَّةٌ﴾ [النحل: ١٢٠].

الرابع: استعمال «الأمة» في الشريعة والطريقة؛ كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقوله: ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ... الآية [الأنبياء: ٩٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [١٥]. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ولكنه تعالى بين في سورة بني إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته - جل وعلا - بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقد أوضحنا هذه المسألة غاية الإيضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية الكريمة؛ ولذلك اختصرناها هنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن هذا القرآن لا يكفر به أحد كائناً من كان إلا دخل النار. وهو صريح في عموم رسالة نبينا ﷺ إلى جميع الخلق، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذَكَّرَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿طَسَّ﴾ [القصاص]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿قَدْ يَكَايَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.

نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن الشك في هذا القرآن العظيم، وصرح أنه الحق من الله، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً، كقوله: ﴿الْعَمَّ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾... الآية [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿الْعَمَّ تَنَزَّلُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ١، ٢]، ونحو ذلك من الآيات، والمرية: الشك.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن أكثر الناس لا يؤمنون، وبين ذلك أيضاً في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿وَإِن تُلَاقُوا أَكْثَرَ مِن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، يضاعف لهم العذاب يوم القيامة؛ لأنهم يعذبون على ضلالهم، ويعذبون أيضاً على إضلالهم غيرهم، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل].

وبين في موضع آخر أن العذاب يضاعف للأتباع والمتبوعين، وهو قوله في الأعراف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَجَاءَنَّهُمْ عَذَابٌ صِغَةً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس، وقتادة، أن معنى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماعاً منتفعاً، ولا أن يبصروه إبصاراً مهتداً، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى، وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفَعَلَدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

الثاني: وهو أظهرها عندي أن عدم الاستطاعة المذكور في الآية، إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وذلك الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم كما دلت عليه آيات كثيرة، كقوله: ﴿بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰ بِكْفَرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَنزَاعَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَنَقَلُبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا، إذا كان شديد الكراهية والبغض له، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُوتُونَ بِالَّذِينَ نَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقوله: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصِيعُهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧].

الرابع: أن «ما» مصدرية ظرفية؛ أي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا، أي يضاعف لهم العذاب دائماً.

الخامس: أن «ما» مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم، وقد قدمنا في سورة النساء قول الأخفش الأصغر بأن النصب بنزع الخافض مقيس مطلقاً عند أمن اللبس.

السادس: أن قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلاً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وتكون جملة: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراضية، وتقرير المعنى على هذا القول: وما كان لهم من دون الله من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون؛ أي الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون ولياً لأحد.

ويشهد لمعنى هذا القول، قوله تعالى في الأعراف: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٩٥]، ونحوها من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال، وكلها يشهد له قرآن فنذكر الجميع، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الآية.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، وبيّن أنهما لا يستويان، ولا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الأصم والسميع. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة:

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ ﴿٢٧﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ ﴿٢٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ ﴿٣٠﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۖ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر]. وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ آخِزٌ بِمَا يَذْكُرُ أُولَآئِ الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد]. وقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقُتَمَ ۚ أَلَدَعَا إِذَا وَلُوا مَدِينَ ۖ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا زَكَّكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِي الرَّأْيِ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الملائكة من قوم نوح قالوا له: ما نراك اتبعك منا إلا الأسافل والأراذل. وذكر في سورة الشعراء، أن اتباع الأراذل له في زعمهم مانع لهم من اتباعه بقوله: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وبيّن في هذه السورة الكريمة: أن نوحاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أبى أن يطرد أولئك المؤمنين الذين اتبعوه بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبِّيهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكَبُ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ۖ ﴿٣٤﴾ وَيَقُولُ مَن يُضْرِبُ مِن اللَّهِ إِنَّ طَرَفَهُمْ﴾ [هود: ٢٩ - ٣٠]. وذكر تعالى عنه ذلك في الشعراء أيضاً بقوله: ﴿إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَأَنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِي فَعُيِّتَ عَلَيْكُمُ اللَّزِيمُ كُفُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ۖ ﴿٣٧﴾﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح: أنه قال لقومه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي﴾، أي على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إليّ من التوحيد والهدى، فخفي ذلك كله عليكم، ولم تعتقدوا أنه حق، أي مكنتي أن ألزمكم به، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها، ورحمني بليتائها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحاً جلياً لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله - جل وعلا - إليه.

وهذا المعنى صرح به - جل وعلا - عن نوح أيضاً في هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿وَلَا يَفْعَلُوا نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم ما لاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجره في مقابلة.

وبيّن في آيات كثيرة: أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كقوله في سبأ عن نبينا ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

وقوله فيه، أيضاً في آخر ص: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۖ ﴿٨٧﴾﴾ [ص].

وقوله في الطور والقلم: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور]. وقوله في الفرقان: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]. وقوله في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقوله عن هود في سورة هود: ﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقد بينا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧].

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض على ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

وللعلماء أقوال متعددة في المسألة يرجع لها في الأصل وخلاصة رأي الشيخ ما نصه: قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم -، أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية فالأولى له ألا يأخذ عوضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام، للأدلة الماضية. وإن دعت الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين؛ لأن الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على القيام بالتعليم لا من قبيل الأجرة. والأولى لمن أغناه الله أن يتعفف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه نوحاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين، وبين في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون] أنه أمره أن يسلكهم أي يدخلهم فيها، فدل ذلك على أن فيها بيوتاً يدخل فيها الراكبون؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمرُنَا وَفَكَرَ التَّشَوُّرُ فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ومعنى «اسلك» أدخل فيها من كل زوجين اثنين؛ تقول العرب: سلكت الشيء في الشيء: أدخلته فيه. وفيه لغة أخرى وهي: أسلكته فيه، رباعياً بوزن أفعل، والثلاثية لغة القرآن؛ كقوله: ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقوله: ﴿أَسْلَفَ يَدُكَ فِي حَبِيكَ﴾ [القصص: ٣٢]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿مَا سَلَكْنَاهُ فِي سَفَرٍ﴾ [المدثر]؛ ومنه قول الشاعر:

وكننت لزاز خصمك لم أعرد وقد سلوكوك في يوم عصيب
ومن الرباعية قول عبد مناف بن ربح الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشردا
قال مقيدة - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي أن أصل السلك الذي هو الخيط فعل
بمعنى مفعول، كذبح بمعنى مذبح، وقتل بمعنى مقتول؛ لأن الخيط يسلك أي يدخل
في الخرز لينظمه؛ كما قال العباس بن مرداس السلمي:

عين تأوبها من شجوها أرق فالماء يغمرها طوراً وينحدر
كأنه نظم در عند ناظمة تقطع السلك منه فهو منتشر
والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أمر نوحاً أن يحمل في السفينة أهله إلا من سبق عليه القول، أي سبق عليه
من الله القول بأنه شقي، وأنه هالك مع الكافرين.

ولم يبين هنا من سبق عليه القول منهم، ولكنه يبين بعد هذا أن الذي سبق عليه
القول من أهله هو ابنه وامرأته.

قال في ابنه الذي سبق عليه القول: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ
أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَالٍ بَيْنَهُمَا الْوُجُوهُ فَكَانَ مِنَ الْمُرْفِقِينَ﴾ وقال
فيه أيضاً: ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِثْنَهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. وقال في امرأته: ﴿ضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أن نبيه نوحاً - عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام -
أمر أصحابه الذين قبل له احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛
أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

ويبين في سورة الفلاح أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدا الله
الذي نجاههم من الكفرة الظالمين، ويسأله أن ينزلهم منزلاً مباركاً؛ وذلك في قوله:
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) وَقُلْ رَبِّ
أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (١٩) [المؤمنون].

ويبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله:
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ
تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُم مُّقْرِبِينَ
(١٣) وَإِنَّا إِلَهُكُم مُّقْبِلُونَ (١٤) [الزخرف].

وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر]، وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فلايات المبينة لها كقوله هنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] الآية.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [٥٨] ﴿إِلَّا مَالِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥٩]. وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [٦١] ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِن أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت].

والظاهر القول الأول: وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي «لما» كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَن جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيزٍ﴾ [٦١] ﴿فَلَمَّا رَآَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن إبراهيم لما سلم على رسل الملائكة وكان يظنهم ضيوفاً من الآدميين، أسرع إليهم بالإتيان بالقرى وهو لحم عجل حنيز - أي منضج بالنار - وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فقالوا: لا تخف، وأخبروه بخبرهم.

وبيّن في الذاريات أنه راغ إلى أهله - أي مال إليهم - فجاء بذلك العجل وبين أنه سمين، وأنه قربه إليهم، وعرض عليهم الأكل برفق فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وأنه أوجس منهم خيفة وذلك في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٦٢] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ [٦٥] فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ [٦٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ [٦٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... الآية [الذاريات: ٢٤ - ٢٨].

تنبيه: يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة.

منها: تعجيل القرى لقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَن جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيزٍ﴾.

ومنها: كون القرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحماً الفتى السمين المنضج.

ومنها: تقرب الطعام إلى الضيف.

ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق، كقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومعنى قوله: ﴿نَكَّرَهُمْ﴾؛ أي أنكرهم لعدم أكلهم، والعرب تطلق نكر وأنكر بمعنى واحد، وقد جمعهما قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وروي عن يونس: أن أبا عمرو بن العلاء حدثه: أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَتْلُوَنَّ إِلَدُ وَآنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْعًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢). بين الله - جل وعلا - في هذه السورة الكريمة ما قالته امرأة إبراهيم لما بشرت بالولد وهي عجوز، ولم يبين هنا ما فعلت عند ذلك، ولكنه بين ما فعلت في الذاريات بقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٧٣) [الذاريات]، وقوله: ﴿فِي صَرَفٍ﴾ أي ضجة وصيحة، وقوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ أي لطمته.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قُوَّةٍ لُوطٌ﴾. لم يبين هنا ما جادل به إبراهيم الملائكة في قوم لوط، ولكنه أشار إليه في العنكبوت بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَسْجِنَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

فحاصل جداله لهم أنه يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب، فأجابه عن هذا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢]. ونظير ذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات].

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِلْعَذَابِ عَذَابٌ عِزٌّ مَرْدُودٌ﴾ (٧٦).

هذا العذاب الذي صرح هنا بأنه آت قوم لوط لا محالة، وأنه لا مرد له بينه في مواضع متعددة، كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْشُورٍ﴾ (٨١) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢).

وقوله في الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَرَسِّينَ (٧٥) [الحجر]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرًا أَسْوَأَ...﴾ الآية [الفرقان: ٤٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٧٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٧٧) [الشعراء].

وقوله: ﴿لَنُرْسِلَنَّ عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن طِينٍ﴾ (٣٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٢) [الذاريات]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا بَيِّنَاتٍ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧). ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساء عظيمة ضاق صدره بها، وأشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته وكونه ضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب؛ أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم كما ظنه إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - وظن أن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه فيفعلون بهم فاحشة اللواط؛ لأنهم إن علموا بقدوم ضيف فرحوا واستبشروا به ليفعلوا به الفاحشة المذكورة، فمن ذلك قوله هنا: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبِيغَةِ آلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ زَانِيَةٌ﴾ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِن حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنُكَالُهُ مَا نُرِيدُ (٧٩) [هود: ٧٨ - ٧٩].

وقوله في الحجر: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٧٦] قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٨﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوْلَئِكَ نَتَهَلَّكُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ ﴿٨٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨٢﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿يَهْرَعُونَ﴾؛ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، ومنه قول مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي لا تهينون ولا تذلون بانتهاك حرمة ضيفي، والاسم

منه: الخزي - بكسر الخاء وإسكان الزاي - ومنه قول حسان في عتبة بن أبي وقاص:

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك ولقّاك قبل الموت إحدى الصواعق

وقال بعض العلماء: قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ من الخزية، وهي الخجل والاستحياء

من الفضيحة؛ أي لا تفعلوا بضيفي ما يكون سبباً في خجلي واستحيائي، ومنه قول ذي الرمة يصف ثوراً وحشياً تطارده الكلاب في جانب جبل من الرمل:

حتى إذا دومت في الأرض راجعة كر ولو شاء نجى نفسه الهرب

خزاية أدركته بعد جولته من جانب الحبل مخلوطاً بها الغضب

يعني أن هذا الثور لو شاء نجا من الكلاب بالهرب، ولكنه استحيا وأنف من

الهرب، فكر راجعاً إليها. ومنه قول الآخر:

أجاعلة أم الثوير خزاية على فراري أن لقيت بني عبس

والفعل منه: خزي يخزي، كرضي يرضى، ومنه قول الشاعر:

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت بها مرطاً أو زایل الحلي جيدها

وقول الآخر:

وأنني لا أخزي إذا قيل مملق سخي وأخزي أن يقال بخيل

وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] معناه أقسم بحياتك، والله - جل وعلا - له أن

يقسم بما شاء من خلقه، ولم يقسم في القرآن بحياة أحد إلا نبينا ﷺ وفي ذلك من التشريف له ﷺ ما لا يخفى.

ولا يجوز لمخلوق أن يحلف بغير الله، لقوله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله

أو ليصمت».

وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي لعمرك قسمي، وسمع من العرب تقديم

الراء على اللام في لعمرك فنقول فيها: رعملك، ومنه قول الشاعر:

رعملك إن الطائر الواقع الذي تعرض لي من طائر لصدوق

وقوله: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ [الحجر: ٧٢]؛ أي عماهم وجهلهم وضلالهم، والعمه: عمى

القلب، فمعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] يترددون متحيرين لا يعرفون حقاً من باطل، ولا نافعاً من ضار، ولا حسناً من قبيح.

واختلف العلماء في المراد بقول لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ في الموضوعين على أقوال:

الأول: أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط، ولم يرد إمضاء ما قال، وبهذا قال عكرمة وأبو عبيدة.

الثاني: أن المراد بناته لصلبه، وأن المعنى: دعوا فاحشة اللواط وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكافر المسلمة كان جائزاً في شرعه، كما كانت بنات نبينا ﷺ تحت الكفار في أول الإسلام كما هو معروف، وقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ عقدها الذي زفتها به أمها خديجة بنت خويلد ﷺ إلى زوجها أبي العاص بن الربيع، أرسلته إليه في فداء زوجها أبي العاص المذكور لما أسره المسلمون كافراً يوم بدر، والقصة مشهورة، وقد عقدها الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بقوله في غزوة بدر:

وابن الربيع صهر هادي الملة إذ في فداءه زينب أرسلت
بعقدها الذي به أهدتها له خديجة وزففتها
سرحه بعقدها وعهدا إليه أن يردها له غدا

الخ، القول الثالث: أن المراد بالبنات: جميع نساء قومه؛ لأن نبي القوم أب ديني لهم، كما يدل عليه قوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قراءة أبي بن كعب: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وروي نحوها عن ابن عباس، وبهذا القول قال كثير من العلماء.

وهذا القول تقربه قرينة وتبعده أخرى، أما القرينة التي تقربه فهي: أن بنات لوط لا تسع جميع رجال قومه كما هو ظاهر، فإذا زوجهن لرجال بقدر عددهن بقي عامة رجال قومه لا أزواج لهم فيتعين أن المراد عموم نساء قومه، ويدل للعموم قوله: ﴿لَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴿١٥٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، ونحو ذلك من الآيات.

وأما القرينة التي تبعده: فهي أن النبي ليس أباً للكافرات، بل أبوة الأنبياء الدينية للمؤمنين دون الكافرين، كما يدل عليه قوله: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقد صرح تعالى في الذاريات: بأن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد، وهم أهل بيت لوط، وذلك في قوله: ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٦١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِیْ بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوِیْتُ إِلَکَ رَبِّیْ سَدِیدٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا یَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَا رَبَّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ﴾. ذکر تعالى في هذه الآية الکریمة أن نبیه لوطاً وعظ قومه ونهاهم أن یفضحوه في ضیفه، وعرض علیهم النساء وترك الرجال، فلم یلتفتوا إلى قوله،

وتمادوا فيما هم فيه من إرادة الفاحشة فقال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ...﴾ الآية. فأخبرته الملائكة بأنهم رسل ربه، وأن الكفار الخبثاء لا يصلون إليه بسوء. وبين في القمر أنه تعالى طمس أعينهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه، أو أوله، ولكنه بين في القمر أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا مَالُ لُوطٍ لَّيْسَ لَهُمْ بِسِحْرِ﴾ [القمر: ٣٤]. ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في الحجر بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾. قرأه جمهور القراء: ﴿إِلَّا أَمْرًاكَ﴾ بالنصب، وعليه فالأمر واضح؛ لأنه استثناء من الأهل، أي أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسربها، واركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل على هذا الوجه قوله فيها في مواضع: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] والغابر: الباقي، أي من الباقيين في الهلاك.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿إِلَّا أَمْرًاكَ﴾ بالرفع على أنه بدل من «أحد» وعليه فالمعنى أنه أمر لوطاً أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحى إليه أنها هالكة لا محالة، ولا فائدة في نهيه عن الالتفات لكونها من جملة الهالكين.

وعلى قراءة الجمهور فهو لم يسر بها، وظاهر قراءة أبي عمرو وابن كثير: أنه أسرى بها والتفت فهلكت.

قال بعض العلماء: لما سمعت هذا العذاب التفت وقالت: واقوماه؛ فأدركها حجر فقتلها.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن وجه الجمع بين القراءتين المذكورتين أن السر في أمر لوط بأن يسري بأهله، هو النجاة من العذاب الواقع صباحاً بقوم لوط، وامرأة لوط مصيبتها ذلك العذاب الذي أصاب قومها لا محالة، فنتيجة إسراء لوط بأهله لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين، وما لا فائدة فيه كالعدم، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلاً، وأنه أسرى بها وهلكت مع الهالكين.

فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله؛ فلا فرق بين كونها بقيت معهم، أو خرجت وأصابها ما أصابهم.

فإذا كان الإسراء مع لوط لم ينجها من العذاب، فهي ومن لم يسر معه سواء، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرأه نافع وابن كثير «فاسر» بهمزة وصل؛ من سري يسري، وقرأه جمهور القراء: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقطع الهمزة، من أسرى الرباعي على وزن أفعل، وسرى وأسرى: لغتان وقرأتان صحيحتان سبعيتان، ومن سرى الثلاثية، قوله تعالى: ﴿وَأَيُّلَ إِذَا سِيرَ﴾ [الفجر]، فإن فتح ياء «يسري» يدل على أنه مضارع سرى الثلاثية، وجمع اللغتين قول نابغة ذبيان:

أسرت عليه من الجواز سارية تزجى الشمال عليها جامد البرد
فإنه قال: أسرت، رباعية في أشهر روايتي البيت. وقوله: سارية، اسم فاعل سرى الثلاثية، وجمعهما أيضاً قول الآخر:

حتى النضيرة ربة الخدر أسرت إليك ولم تكن تسري
بفتح تاء «تسري» واللغتان كثيرتان جداً في كلام العرب، ومصدر الرباعية الإساء على القياس، ومصدر الثلاثية السرى - بالضم - على وزن فَعَلَ - بضم ففتح - على غير قياس، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلي عنهم غيابات الكرى
قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن موعد إهلاك قوم لوط وقت الصبح من تلك الليلة، وكذلك قال في الحجر في قوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر]، وزاد في الحجر أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق، وهو وقت طلوع الشمس بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصُّبْحَ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾. اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة. والدليل على أن المراد بالسجيل: الطين. قوله تعالى في الذاريات في القصة بعينها: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [سورة هود] مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِفِينَ [الذاريات]، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن. والدليل على قوتها وشدتها: أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم، إلا لأن النكال بها بالغ شديد. وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا: السجيل والسجين: أختان، كلاهما الشديد من الحجارة والضرب. ومنه قول ابن مقبل:

ورجلة يضربون البيض ضاحية ضرباً تواصي به الأبطال سجيना
وعلى هذا، فمعنى من سجيل: أي من طين شديدة القوة. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾. في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء: اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن، وواحد يظهر أنه ضعيف.

أما الذي يظهر أنه ضعيف فهو أن المعنى: أن تلك الحجارة ليست ببعيدة من قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم.

قاله القرطبي وغيره؛ لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات، أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن: **فالأول منهما:** أن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا؛ فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذيبهم لوطاً عليه السلام، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الصافات: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَنهَا لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ [٧٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ [الحجر: ٧٧] وقوله: ﴿وَتَرْكَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

الوجه الثاني: أن المعنى: وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين الفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله. ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَئِسُّوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾ [محمد: ١٦] فإن قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾ ظاهر جداً في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

وللعلماء في عقوبة من ارتكب جريمة اللواط أقوال مبسطة في الأصل فليرجع إليها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن نبيه شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه أخبر قومه أنه إذا نهاهم عن شيء انتهى هو عنه، وإن فعله لا يخالف قوله.

وفهم من هذه الآية الكريمة أن الإنسان يجب عليه أن يكون منتهياً عما ينهى عنه غيره، مؤتماً بما يأمر به غيره.

وقد بين تعالى ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أي فلان! ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتبه، وأنهاكم عن المنكر وآتبه».

ومعنى قوله ﷺ: «فتندلق أفتابه»؛ أي تتدلى أوعاؤه.

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي

جاءهم وابن حيان، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». قاله صاحب (الدر المنثور)، اهـ. وقد قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وقد أجاد من قال:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض
ومعلوم أن عمل الإنسان بما ينصح به غيره أدعى لقبول غيره منه؛ كما قال الشاعر:
فإنك إذا ما تأت ما أنت أمر به تلف من إياه تأمر آتيا
قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه شعيباً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم الكفار.

وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع أخرى؛ كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾... الآية [النمل: ٤٩].

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءاً، ولا يشهدوا ذلك ولا حضوره خوفاً من عصبته؛ فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار، وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّيْ ﴿٦١﴾﴾ [الضحى]؛ أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين البتة؛ فكونه - جل وعلا - يمتن على رسوله ﷺ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ومن ثمرات تلك العصبية النسبة قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة أبشر بذاك وقر منه عيوناً
وقوله أيضاً:

ونمنعه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولهذا لما كان نبي الله لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس له عصبية في قومه الذين أرسل إليهم، ظهر فيه أثر عدم العصبية؛ بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ زُكِّي سَدِيدٌ﴾.

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصبية إخوانهم الكافرين. ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم لم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف؛ عرف النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين؛ فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبنو المطلب لم نفتق في جاهلية ولا إسلام» ومنع بني عبد شمس وبنو نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

وقال أبو طالب في بني عبد شمس وبنو نوفل:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجل غير أجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا بني خلف قيضا بنا والغياطل

والغياطل «بالغين المعجمة». ومراد أبي طالب بهم: بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي «القبيلة المشهورة من قبائل قريش». وإنما سموا الغياطل؛ لأن قيس بن عدي بن سعد بن سهم الذي هو من سادات قريش العظام، وهو الذي يعنيه عبد المطلب بقوله يرقص ابنه عبد الله وهو صغير:

كأنه في العز قيس بن عدي في دار سعد ينتدي أهل الندى
تزوج امرأة من كنانة تسمى «الغيطة» وهي أم بعض أولاده؛ فسمي بنو سهم الغياطل؛ لأن قيس بن عدي المذكور سيدهم.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثر حسن على الإسلام والمسلمين؛ وقد يكون من من الله على بعض أنبيائه المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم -، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وفي المثل: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار».

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بيا لبني فلان ونحوها.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في تلك الدعوة: «دعوها فإنها منتنة». وقوله ﷺ: «دعوها» يدل على وجوب تركها؛ لأن صيغة افعل للوجوب، إلا للدليل صارف عنه، وليس هنا دليل صارف عنه، ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة، وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد

تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد؛ فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصرّوا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ﴾. قيد تعالى خلود أهل الجنة وأهل النار بالمشيئة، فقال في كل منهما: ﴿السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ﴾، ثم بين عدم الانقطاع في كل منهما، فقال في خلود أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا﴾ [هود: ١٠٨]، ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَرُ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال في خلود أهل النار: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإنشاء: ٩٧]. ومعلوم أن «كلما» تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها.

وقد أوضحنا هذه المسألة إيضاحاً تاماً في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة النبا في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ١٣].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ إِنِّي بَرَأْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾. لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بينه في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مَضْرَإَ هَٰذَا إِنَّ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١]، وفي سورة النبا في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ١٣]. ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

بين الله - جل وعلا - أنه علم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث، وصرح بذلك أيضاً في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث.

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك: تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا، قالوا: لأنها إما حديث نفس أو ملك أو شيطان.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، ويدل على هذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا، كقوله: ﴿يَصْحَي السَّحْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وقوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَعَصِرُونَ﴾.

قال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث؛ لأنها يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله كذا، وقال رسوله كذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْخَبَرِ﴾ ... الآية [الزمر: ٢٣].

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] وقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزَرِّقَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي﴾ ... الآية.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن الآيات المذكورة تشمل ذلك كله: من تأويل الرؤيا، وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة، إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل على هذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا نَالَهُ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيرِ﴾ وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى]، أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهذاك إليها وعلمك بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم
يعني: أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بدلاً وهو لا يبغي بها بدلاً.
وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً،
وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته
اللائقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعاً له، وأقدر على القيام
بشؤونه وتدبير أموره، واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل -
صلوات الله عليهم وسلامه -، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ
الْمَقْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦١)
[الصافات]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيهما: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في
الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن إضلالاً؛ لأنه تغييب في
الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميماً وتمتج بالأرض، ومنه
بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَيْدَا ضَلَّلَنَا فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [السجدة: ١٠].

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾
[الأنعام: ٢٤]، أي غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
فقوله: مضلوه، يعني دافنيه، وقوله: بعين جلية، أي بخبر يقين، والجولان: جبل
دفن عنده المذكور.

ومن الضلال بمعنى الغيبة والاضمحلال؛ قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكرر مزبد قذف الأتني به فضل ضلالا
وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُمُوءِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّنَّهُمْ
بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥). أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى
يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به
في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه - جل وعلا - أنجز ذلك الوعد في قوله:
﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (١٩).

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ وَهُمْ لَمْ تُعْرِفُوهُ﴾.

وهذا الذي ذكرنا أن العامل في الجملة الحالية هو قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ أي لتخبرنهم ﴿بِأَثَرِهِمْ هَذَا﴾ في حال كونهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنك يوسف هو الظاهر. وقيل: إن عامل الحال هو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وعليه، فالمعنى أن ذلك الإحياء وقع في حال كونهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه ذلك.

وقرأ هذه الآية جمهور القراء ﴿غَيَّبَتِ الْجُبُ﴾ بالافراد، وقرأ نافع «غيابات الجب» بصيغة الجمع. وكل شيء غُيِبَ عنك شيئاً فهو غيابة، ومنه قيل للقبر غيابة، ومنه قول الشاعر: وإن أنا يوماً غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل والجمع في قراءة نافع نظراً إلى تعدد أجزاء قعر الجب التي تغيب الداخل فيها عن العيان. واختلف العلماء في جواب «لما» من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهٖ﴾ أم مثبت أم محذوف؟ فقيل: هو مثبت، وهو قوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ الآية؛ أي لما كان كذا وكذا يا أبانا، واستحسن هذا الوجه أبو حيان.

وقيل: جواب «لما» هو قوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾، والواو صلة. وهذا مذهب الكوفيين، تزداد عندهم الواو في جواب «لما» وحتى، وإذا وعلى ذلك خرجوا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَكَانَ لِلْيَمِينِ﴾ الآية [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، وقوله: ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَ وَهَآ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الآية، وقول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن حقف ذي ركام عقتل
أي لما أجزنا ساحة الحي انتحي.

وقيل: جواب «لما» محذوف، وهو قول البصريين، واختلف في تقديره. فقيل: إن تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى.

وقدره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فستهم. وقدره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها. واستظهر هذا الأخير أبو حيان: لأن قوله: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ يدل على هذا المقدر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته - عليه الصلاة والسلام - من الوقوع فيما لا ينبغي؛ حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.
 أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ زَوَدَتْكَ عَنْ نَفْسِي﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ الآية.
 وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقولها: ﴿الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.
 وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (١٨) **يُوسُفُ** أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (١٩).
 وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ فَمِيسُئُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الآية.
 وأما شهادة الله - جل وعلا - ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

قال الفخر الرازي في تفسيره: قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

وثانيها: قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

وثالثها: قوله: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ (٢٢) [الفرقان].

ورابعها: قوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته.

وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه، اهـ من تفسير الرازي، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَعَادُ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِعْرُكَ لِأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٧) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ** (٢٨) [ص]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين، كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال

الذين نسبوا إلى يوسف **الزُّنُوفَ** هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته؛ ولعلمهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه؛ كما قال الخوارزمي:

وكننت امرأة من جنود إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي
ثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء مما يقول هؤلاء الجهال، اه كلام الرازي.
ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف
الصالح! وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح.
وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة - إن شاء الله تعالى - .
فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات
المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾؟ قال جواب من وجهين:
الأول: أن المراد بهم يوسف بها خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى، وقال بعضهم:
هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي
لا يتعلق به التكليف؛ كما في الحديث عنه عليه السلام: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول:
«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك» يعني ميل القلب الطبيعي.
ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو
صائم، وقد قال عليه السلام: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة» لأنه ترك ما
تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله، وامتناعاً لأمره، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِ وَهَمَّ أَنْفَاسٍ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فِإِنَّ الْخِتَّةَ هِيَ الْآوَىٰ﴾ [النازعات].
وهم بنو حارثة وبنو سلمة بالفرار يوم أحد، كههم يوسف هذا، بدليل قوله: ﴿إِذْ
هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]؛ لأن قوله: ﴿وَاللَّهُ
وَلِيُّهُمَا﴾، يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك
العاصي إغراء على المعصية.
والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا
يشتيه: هذا ما يهمني، ويقول فيما يحبه ويشتيه: هذا أهم الأشياء إلي، بخلاف هم
امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها،
ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.
ومثل هذا التصميم على المعصية: معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت
في الصحيح عنه عليه السلام من حديث أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول
في النار» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حربصاً على
قتل صاحبه» فصرح عليه السلام بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.
وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل، كقول العرب: قتلت لـ
لم أخف الله، أي قاربت أن أقتله، كما قاله الزمخشري.
وتأويل الهم بأنه هم بضربها، أو هم بدفعها عن نفسه، فكل ذلك غير ظاهر، بل
بعيد من الظاهر ولا دليل عليه.

والجواب الثاني: وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

قال مقيده - عفا الله عنه -: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَمَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]؛ أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب؛ لأن جواب الشروط وجواب «لولا» لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كآلية المذكورة. وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]؛ أي إن كنتم صادقين فهااتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي لولا أن رآه هم بها، فما قبل «لولا» هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّيْهَا﴾ [القضص: ١٠]، فما قبل «لولا» دليل الجواب، أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب «لولا» وتقديم الجواب في سائر الشروط: وعلى هذا القول يكون جواب «لولا» في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو ما قبله من قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾. وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه: والذي أختاره أن يوسف ﷺ لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان؛ كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب «لولا» متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد.

بل نقول: إن جواب «لا» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكته وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج، ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: «هم بها»، هو جواب «لولا» ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب، وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة، لجواز أن يأتي جواب «لولا» إذا كانت بصيغة الماضي باللام، وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك. ولولا زيد أكرمتك. فمن ذهب

إلى أن قوله: «هَمَّ بها» نفس الجواب لم يبعد. ولا التفات لقول ابن عطية، أن قول من قال: إن الكلام قد تم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وأن جواب «لولا» في قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ وأن المعنى لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، فلم يهم يوسف ﴿﴾.

قال: وهذا قول يردده لسان العرب وأقوال السلف. اهـ.

أما قوله: يردده لسان العرب فليس كما ذكر، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾، إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة.

والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدرُوا جواب «لولا» محذوفاً ولا يدل عليه دليل؛ لأنهم لم يقدروا لـ «هَمَّ بها» ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه، اهـ. محل الغرض من كلام أبي حيان بلفظه.

وقد قدمنا أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب، وإن زعم بعض العلماء خلاف ذلك.

فبهذين الجوابين تعلم أن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بريء من الوقوع فيما لا ينبغي، وأنه إما أن يكون لم يقع منه هم أصلاً بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي «لولا» على انتفاء رؤية البرهان، وقد رأى البرهان فانتهى المعلق عليه، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همّه بها كما تقدم إيضاحه في كلام أبي حيان.

وإما أن يكون همّه خاطراً قليلاً صرف عنه وازع التقوى، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى كما أوضحناه، فبهذا يتضح لك أن قوله: «وهمَّ بها» لا يعارض ما قدمنا من الآيات على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغي.

فإذا علمت ممّا بينا دلالة القرآن العظيم على براءته مما لا ينبغي، فاعلم أن هناك أقوال للعلماء خلاف ما لا ينبغي فليرجع إليها في الأصل من أراد.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ ٢٦ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾. يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله

لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ لأن أولاد يعقوب لما جعلوا يوسف في غيابة الجب، جعلوا على قميصه دم سخلة؛ ليكون وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في دعواهم أنه أكله الذئب.

ولا شك أن الدم قرينة على افتراس الذئب له، ولكن يعقوب أبطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها، وهي عدم شق القميص، فقال: سبحان الله! متى كان الذئب حليماً كيساً يقتل يوسف ولا يشق قميصه؛ ولذا صرح بتكذيبه لهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن.

ومن أمثلة الحكم بالقرينة: الرجل يتزوج المرأة من غير أن يراها سابقاً؛ فتزفها إليه ولائد لا يثبت بشهادتين أن هذه هي فلانة التي وقع عليها العقد؛ فيجوز له جماعها من غير احتياج إلى بيّنة تشهد على عيناها أنها هي التي وقع العقد عليها؛ اعتماداً على قرينة النكاح.

وكالرجل ينزل ضيفاً عند قوم، فتأتيه الوليدة أو الغلام بالطعام؛ فيجوز له الأكل من غير احتياج إلى ما يثبت إذن مالك الطعام له في الأكل، اعتماداً على القرينة.

وكقول مالك، ومن وافقه: إن من شم في فيه ريح الخمر يحد حد الشارب، اعتماداً على القرينة؛ لأن وجود ريحها في فيه قرينة على أنه شربها، وكمسائل اللوث وغير ذلك.

وقد قدمنا في سورة المائدة صحة الاحتجاج بمثل هذه القرائن، وأوضحنا بالأدلة القرآنية؛ أن التحقيق أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا شرع لنا، إلا بدليل على النسخ غاية الإيضاح، والعلم عند الله تعالى.

وقال القرطبي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه، كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف في الحكم بها، قاله ابن العربي، اهـ كلام القرطبي، واختلف العلماء في الشاهد في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

فقال بعض العلماء: هو صبي في المهد، وممن قال ذلك: ابن عباس، والضحاك، وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس أيضاً، أنه رجل ذو لحية، ونحوه عن الحسن، وعن زيد بن أسلم، أنه ابن عم لها كان حكيماً، ونحوه عن قتادة وعكرمة، وعن مجاهد، أنه ليس بإنسي ولا جان، هو خلق من خلق الله.

قال مقيد - عفا الله عنه -: قول مجاهد هذا يرده قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَهَا؟﴾؛ لأنه صريح في أنه إنسي من أهل المرأة، وأظهر الأقوال: أنه صبي، لما رواه أحمد، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»، اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾. هذه الآية الكريمة إذا ضمت لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، والآية المذكورة هي قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ لأن قوله في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾، وقوله في الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، يدل على أن كيدهن أعظم من كيده.

قال القرطبي: قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾» اهـ.

وقال الأديب الحسن بن أية الحسني الشنقيطي:

ما استعظم الإله كيدهنه إلا لأنهن هن هنه

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمَنِئِنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي. فَاسْتَعْصَمْتُ. بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ثَنَاءً هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ عَلَى يَوْسُفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ فِيمَا بَيَّنَّهْنَ، ثُمَّ بَيَّنَّ اعْتِرَافَهُنَّ بِذَلِكَ عِنْدَ سُؤَالِ الْمَلِكِ لَهُنَّ أَمَامَ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّنَّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. لم يبيّن هنا هذا الذي أجمعوا أمرهم عليه، ولم يبيّن هنا أيضاً المراد بمكرهم؛ ولكنه بيّن في أول هذه السورة الكريمة أن الذين أجمعوا أمرهم عليه هو جعله في غيابة الجب، وأن مكرهم هو ما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيه يوسف، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة. مع أنه ﷺ لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكره، وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه.

والآيات المشيرة لإثبات رسالته، بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكنه علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَهْلُكُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦] وقوله:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذْ يَخْفَضُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [ص].
 وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات من أوضح الأدلة على أنه ﷺ رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾. قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعامر الشعبي، وأكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية أن أكثر الناس، وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته.

فالمراد بإيمانهم اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [يونس]، كقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فُلِيَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢٥﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَبْيِئُ مَلَائِكُتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات ومع هذا فإنهم قالوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [ص].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة، أي عبادة الله وحده لا شريك له، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

وفي هذه الآية الكريمة إشكال: وهو أن المقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها، وعليه فإن عامل هذه الجملة الحالية الذي هو يؤمن مقيد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة.

قال مقيد - عفا الله عنه -: لم أر من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي؛ لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان البتة شرعاً؛ أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرزاق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفر بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك فلا إشكال في تقييده به، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فهو الإسلام اللغوي؛ لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه، والعلم عند الله تعالى.

وقال بعض العلماء: «نزلت آية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ في قول الكفار في تلييتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» وهو راجع إلى ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية أن من أخبار المرسلين مع أممهم، وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين عبرة لأولى الأبواب، أي عظة لأهل العقول.

وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ ﴿١٧٧﴾ وبآلِ أَفْلَاقٍ ﴿١٧٨﴾ [الصافات]، كما تقدمت الإشارة إليه مراراً، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد، ولكننا لا نراها، ونظير هذه الآية قوله أيضاً في سورة «القمان»: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [القمان: ١٠].

واختلف العلماء في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على قولين: أحدهما أن لها عمداً ولكننا لا نراها، كما يشير إليه ظاهر الآية، وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، كما قاله ابن كثير.

وروي عن قتادة أيضاً، أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد أصلاً، وهو قول إياس بن معاوية، وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة «الحج» أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك، وهذا هو الأكمل في القدرة، اهـ.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن هذا القول من قبيل السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، والمراد أن المقصود نفي اتصاف المحكوم عليه بالمحكوم به، وذلك صادق بصورتين:

الأولى: أن يكون المحكوم عليه موجوداً، ولكن المحكوم به منتف عنه، كقولك: ليس الإنسان بحجر، فالإنسان موجود والحجرية منتفية عنه.

الثانية: أن يكون المحكوم عليه غير موجود فيعلم منه انتفاء الحكم عليه بذلك الأمر الموجودي، وهذا النوع من أساليب اللغة العربية، كما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، ومثاله في اللغة قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

أي لا منار له أصلاً حتى يهتدى به، وقوله:

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

يعني لا أرانب فيها ولا ضباب.

وعلى هذا فقوله: ﴿يَعْرِ عَمِدَ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي لا عمد لها حتى تروها، والعمد: جمع عمود على غير قياس، ومنه قول نابغة ذبيان:

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

والصفاح - بالضم والتشديد -: الحجر العريض.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ الآية. المراد بالسيئة هنا: العقوبة وإنزال العذاب قبل الحسنة، أي قبل العافية، وقيل الإيمان، وقد بين تعالى في هذه الآية أن الكفار يطلبون منه ﷺ أن يعجل لهم العذاب الذي يخوفهم به إن تمادوا على الكفر، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُغْلِبَ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وكقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وكقوله: ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿يَسْتَغْلِبُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُنْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النبي ﷺ كاذب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُمْ﴾ [هود: ٨]، وكقوله: ﴿يَصْلُحُ أَقْبَانًا يَمَا تَعْدَنَّا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿قَالُوا يَنْتَوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرَتْ جِدَالُنَا فَأَيْنَا يَمَا تَعْدَنَّا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، كما تقدمت الإشارة إلى هذا.

والمثلاث: العقوبات واحداثها مثله. والمعنى: أنهم يطلبون تعجيل العذاب تمرداً وطغياناً، ولم يتعظوا بما أوقع الله بالأسم السالفة من المثلاث، أي العقوبات، كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفراعون وقومه وغيرهم. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنه شديد العقاب، فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشدد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة. وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١٧٧] ﴿[الأنعام]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ عَادُوا آتَيْتِ أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [٥١] [الحجر]، وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾. أي إنما عليك البلاغ والإنذار، أما هدايتهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى، كما أن حسابهم عليه جل وعلا. وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي الرسول، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾... الآية [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقد أوضحنا أقوال العلماء وأدلتهم في هذه الآية الكريمة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾.

لفظة «ما» في هذه الآية يحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى، وعلى هذا فالمعنى يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة، وخداج، وحسن وقبح، وطول وقصر، وسعادة وشقاوة، إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ لأن «ما» فيه موصولة بلا نزاع، وكقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكَوْنِهِ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْتُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

ويحتمل أيضاً: أن تكون لفظة «ما» في هذه الآية الكريمة مصدرية، أي يعلم حمل كل أنثى بالمعنى المصدري، وقد جاءت آيات تدل أيضاً على هذا المعنى،

كقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون لها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن، فنذكر الجميع.

وأما احتمال كون لفظة «ما» في هذه الآية استفهامية، فهو بعيد فما يظهر لي، وإن قال به بعض أهل العلم، وقد دلت السنة الصحيحة على أن علم ما في الأرحام المنصوص عليه في الآيات المذكورة مما استأثر الله به دون خلقه، وذلك هو ما ثبت في صحيح البخاري من أن المراد بمفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [القصص: ٣٤]، والاحتمالان المذكوران في لفظة «ما» من قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ﴾... الآية، جاريان أيضاً في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فعلى كونها موصولة فيهما، فالمعنى يعلم الذي تنقصه وتزيده، وعلى كونها مصدرية، فالمعنى يعلم نقصها وزيادتها.

واختلف العلماء في المراد بقوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وهذه أقوالهم في الآية بواسطة نقل صاحب (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «هي المرأة ترى الدم في حملها».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قيل: «خروج الدم» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «استمساله».

وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قال: «أن ترى الدم في حملها»، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «في التسعة الأشهر».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «ما تزداد على التسعة وما تنقص من التسعة».

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قال: «ما دون تسعة أشهر» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فوق التسعة».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني «السقط» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: «ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه قال: «ما دون التسعة أشهر فهو غيض وما فوقها فهو زيادة».

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه قال: «ما غاضت الرحم بالدم يوماً إلا زاد في الحمل يوماً حتى تكمل تسعة أشهر طاهراً».

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله: «وَمَا يَقِضُ الْأَرْحَامُ» قال: «السقط» وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال: «إذا رأت الدم هش الولد، وإذا لم تر الدم عظم الولد»، اه من (الدر المنثور في التفسير بالمأثور).

وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد كنقصان إصبع وغيرها، وزيادة إصبع وغيرها.

وقيل: الغيض: انقطاع دم الحيض وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع، ذكر هذين القولين القرطبي.

وقيل: تغيض تشتمل على واحد، وتزداد تشتمل على توأمين فأكثر.

قال مقبده - عفا الله عنه -: مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض تنقص وتزداد أي تأخذه زائداً، فيشمل النقص المذكور نقص العدد ونقص العضو من الجنين ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل زيادة العضو وزيادة العدد وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله - جل وعلا - يعلم ذلك كله، والآية تشملها كله.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِيلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن السر والجهر عنده سواء، وأن الاختفاء والظهور عنده أيضاً سواء؛ لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر، ويعلم الخفي كما يعلم الظاهر، وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) [الملك]، وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَلَسَرَّ وَآخَفَى﴾ (٧) [طه]، وقوله: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَقْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا نُوَسِّوْهُ بِهِ نَقْسَةً﴾ [ق: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأظهر القولين في المستخفي بالليل والسار بالنهار، أن المستخفي هو المختفي المستتر عن الأعين، والسار هو الظاهر البارز الذاهب حيث يشاء. ومنه قول الأحنس بن شهاب التغلبي:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سار

أي ذاهب حيث يشاء ظاهر غير خاف.

وقول قيس بن الخطيم:

إني سربت وكنت غير سرور
وقيل: السارب؛ الداخل في السرب ليتوارى فيه، والمستخفي الظاهر من خفاء
يخفيه: إذا أظهره، ومنه قول امرئ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشي مجلب
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير ما
يقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا.

والمعنى أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من
الطاعة والعمل الصالح، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَ يَكْ
مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾... الآية [الأنفال: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى].

وقد بين في هذه الآية أيضاً أنه إذا أراد قوماً بسوء فلا مرد له، وبين ذلك أيضاً في
مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمْ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، ونحوها من
الآيات، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، يصدق بأن
يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمت البلية الجميع،
وقد سئل ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يري خلقه البرق خوفاً وطمعاً. قال
قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في
رزق الله. وعن الحسن: الخوف لأهل البحر، والطمع لأهل البر، وعن الضحاك:
الخوف من الصواعق، والطمع في الغيث.

وبين في موضع آخر: إن إراءته خلقه البرق خوفاً وطمعاً من آياته جل وعلا،
الدالة على أنه المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له. وذلك في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ
يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾... الآية [الروم: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [١٧].

وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يسجد له أهل السماوات والأرض طوعاً
وكرهاً وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال. وذكر أيضاً سجود الظلال، وسجود أهل
السماوات والأرض في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُونَهَا ظِلَالُهُمْ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [١٨] وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٩] إلى قوله: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠]، واختلف

العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين، فقال بعض العلماء: سجود من في السماوات والأرض من العام المخصوص؛ فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجوداً حقيقياً وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يسجدون كرهاً، أعني المنافقين لأنهم كفار في الباطن ولا يسجدون لله إلا كرهاً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُفْقَهُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، والدليل على أن سجود أهل السماوات والأرض من العام المخصوص، قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]. فقلوه: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور، وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما ذكره الفراء وقيل الآية عامة والمراد بسجود المسلمين طوعاً انقيادهم لما يريد الله منهم طوعاً، والمراد بسجود الكافرين كرهاً انقيادهم لما يريد الله منهم كرهاً؛ لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع، ومنه قول زيد الخيل:

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجداً للجوافر

ومنه قول العرب: أسجد إذا طأطأ رأسه وانحنى. قال حميد بن ثور:

فلما لوين على معصم وكف خضيب وأسوارها

فضول أزمته أسجدت سجود التصاري لأخبارها

وعلى هذا القول فالسجود لغوي لا شرعي، وهذا الخلاف المذكور جار أيضاً في سجود الظلال فقيل: سجودها حقيقي، والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكاً تدرك به وتسجد لله سجوداً حقيقياً، وقيل: سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك.

ونحن نقول: إن الله - جل وعلا - قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكاً يسجد به لله تعالى سجوداً حقيقياً والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة ولا يخفي أن حاصل القولين:

أحدهما: أن السجود شرعي وعليه فهو في أهل السماوات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع وعليه فهو باق على عمومته، والمقرر في الأصول عند المالكية والحنابلة وجماعة من الشافعية أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية وهو التحقيق خلافاً لأبي

حنيئة في تقديم اللغوية، ولمن قال يصير اللفظ مجملاً لاحتمال هذا وذاك وعقد هذه المسألة صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي إن لم يكن في مطلق العرفي
فاللغوي على الجلي ولم يجب بحث عن المجازي الذي انتخب

وقيل: المراد بسجود الكفار كرهاً سجود ظلالهم كرهاً وقيل: الآية في المؤمنين فبعضهم يسجد طوعاً لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرهاً لثقل مشقة التكليف عليه، مع أن إيمانه يحمله على تكلف ذلك والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿يَالْفُدُوءُ﴾ يحتمل أن يكون مصدرأ، أو يحتمل أن يكون جمع غداة، والآصال جمع أصل بضميتين وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق وحده، ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود؛ لأن المقصود من قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده، ويبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات؛ لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده كما يجب عليك ذلك، فأنتم سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿رَبِّقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا عليه ﷺ الإتيان بآية ينزلها عليه ربه، ويبين هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْآوَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات، ويبين تعالى في موضع آخر أن في القرآن العظيم كفاية عن جميع الآيات في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ويبين في موضع آخر حكمة عدم إنزال آية كناقصة صالح ونحوها بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَمُودُّو الْتَأَفَّةُ﴾ [الإسراء: ٥٩]، كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتُ﴾ الآية، جواب «لو» في هذه الآية محذوف. قال بعض العلماء: تقديره لكان هذا القرآن.

وقال بعضهم: تقديره لكفرتم بالرحمن، ويدل على هذا الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد قدمنا شواهد حذف جواب «لو» في سورة البقرة وقد قدمنا في سورة يوسف أن الغالب في اللغة العربية أن يكون الجواب المحذوف من جنس المذكور قبل الشرط، ليكون ما قبل الشرط دليلاً على الجواب المحذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

يبين في هذه الآية الكريمة أن الرسل قبله ﷺ من جنس البشرية يتزوجون ويلدون وليسوا ملائكة؛ وذلك أن الكفار استغربوا بعث آدمي من البشر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، فأخبر أنه يرسل البشر الذين يتزوجون ويأكلون كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. الظاهر أن قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، وأن المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل ويدل قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾... الآية [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. وقوله ﴿فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أنزل على نبيه ﷺ هذا الكتاب العظيم ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ عَائِينَ يَتَّبِعُ لِيُخْرِجَهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه، وقد بين تعالى هنا أنه لا يخرج أحداً من الظلمات إلى النور إلا بإذنه - جل وعلا - في قوله: ﴿بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ... الآية، وأوضح ذلك في آيات آخر كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولا إلا بلغة قومه لأنه لم يرسل رسولا إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بين في مواضع آخر أن نبينا ﷺ أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان، فهو ﷺ يجب عليه إبلاغ أهل كل لسان وقد قدمنا في سورة البقرة قول ابن عباس رضي الله عنه: «إن الله فضل محمداً ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتَ إِلَهٌ مِنْ دُونِي فَلْنَنْجِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] لِيَقْرِ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١، ٢] قالوا: فما فضله على الأنبياء قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وقال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، فأرسله إلى الجن والإنس ذكره أبو محمد الدارمي في مسنده كما تقدم، وهو تفسير من ابن عباس للآية بما ذكرنا والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

اختلف العلماء في معنى هذه الآية الكريمة فقال بعض العلماء: معناها أن أولئك الكفار جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوا عليها غيظاً وحنقاً لما جاءت به الرسل إذ كان فيه تسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم وممن قال بهذا القول عبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ أَلْنَامِلٌ مِنَ الْقَيْطِ﴾... الآية [آل عمران: ١١٩]. وهذا المعنى معروف من كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

تردون في فيه غش الحسود حتى يعض على الأكف

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه: قال القرطبي: ومنه قول الآخر أيضاً:

قد أفنى أنامله أزمة فأضحى يعض على الوظيفا

أي أفنى أنامله عضاً. وقال الراجز:

لو أن سلمى أبصرت تحذدي ودقة بعظم ساقبي ويدي
وبعد أهلي وجفاء عودي عضت من الوجد بأطراف اليدي
وفي الآية الكريمة أقوال غير هذا، منها أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا
بأيديهم إلى أفواههم من العجب، ويروى عن ابن عباس، ومنها أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم
أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله. ويروى
هذا عن أبي صالح، ومنها أن معنى الآية: أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم
بأفواههم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار، وعلى هذا القول ففي بمعنى الباء،
ويروى هذا القول عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا
بمعنى الباء قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة. وقال الشاعر:
وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنابس لست أرغب

يريد وأرغب بها قال ابن كثير: ويؤيد هذا القول تفسير ذلك بتمام الكلام وهو
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الظاهر عندي خلاف ما استظهره ابن كثير - رحمه الله تعالى -
لأن العطف بالواو يقتضي مغايرة ما بعده لما قبله فيدل على أنه المراد بقوله: ﴿فَرَدُّوا
أَيْدِيَهُمْ﴾... الآية، غير التصريح بالتكذيب بالأفواه والعلم عند الله تعالى، وقيل: المعنى أن
الكفار جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم، وعليه فالضمير الأول للكفار والثاني
لرسل، ويروى هذا عن الحسن، وقيل: جعل الكفار أيدي الرسل على أفواه الرسل
ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم، ويروى هذا عن مقاتل وقيل: رد الرسل أيدي الكفار في
أفواههم. وقيل غير ذلك، فقد رأيت الأقوال وما يشهد له القرآن منها والعلم عند الله تعالى.
تنبيه: جمع الفم مكسراً على أفواه يدل على أن أصله فوه فحذفت الهاء والواو
وعوضت عنهما الميم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾. صرح
تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار صرحوا للرسل بأنهم كافرون بهم، وأنهم شاكون
فيما جاءوهم به من الوحي، وقد نص تعالى على بعضهم بالتعيين أنهم صرحوا بالكفر به
وأنهم شاكون فيما يدعوهم إليه كقول قوم صالح له: ﴿أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ
مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢] وصرحوا بالكفر به في قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ كَذِبُونَ أَلَمْ نَرْسِلْ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ (٥١)
[الأعراف] ونحو ذلك من الآيات، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من
أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر عموم في آية ثم يصرح في آية أخرى بدخول بعض
أفراد ذلك العموم فيه كما هنا، وكما تقدم المثال له بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ
اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] مع قوله: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ﴾... الآية [الحج: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي. وقد نص في آيات أخر أيضاً على بعض ذلك مفصلاً كقوله عن قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ [٨٨] قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ... الآية [الأعراف: ٨٨، ٨٩] وقوله عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلَا لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُونُ﴾ [النمل] وقوله عن مشركي قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلِيقُوكَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء] وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾ [الأنفال] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣] وَلَنَسُجِّنَكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [١٤].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى رسله أن العقابة والنصر لهم على أعدائهم وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجِئَانَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٣] إِنَّهُمْ هُمُ الْمُصْرُورُونَ [١٤] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [١٥] [الصافات] وقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [١٦] [المجادلة] وقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٧] [الأعراف]. وقوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْهِمُونَ مَشْرُوقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. لم يبين هنا كيفية خيبة الجبار العنيد، ولكنه أشار إلى معنى خيئته وبعض صفاته القبيحة في قوله في سورة «ق»: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [٢٥] مَتَاعٍ لِلْغَيْرِ مُغْتَرِبٍ [٢٥] الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ [٢٦] [ق] والجبار المتعبر في نفسه، والعنيد المعاند للحق. قاله ابن كثير.

قوله تعالى: ﴿مِنْ زُرَّادٍ جَهَنَّمَ﴾... الآية. وراء هنا بمعنى أمام كما هو ظاهر، ويدل عليه إطلاق وراء بمعنى أمام في القرآن وفي كلام العرب فمعه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ زُرَّادُهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم ملك، وكان ابن عباس يقرؤها: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا»، ومن إطلاق «وراء» بمعنى «أمام» في كلام العرب قول لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقول الآخر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا
وقول الآخر:

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا باد
فوراء بمعنى أمام في الأبيات. وقال بعض العلماء: معنى «مَنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ»؛ أي من
بعد هلاكه جهنم، وعليه فوراء في الآية بمعنى بعد، ومن إطلاق وراء بمعنى بعد قول النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
أي ليس بعد الله مذهب، قاله القرطبي. والأول هو الظاهر وهو الحق.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، أي شديد الريح فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولم تبق له أثر، فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام وقرى الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها، كما تطير تلك الريح ذلك الرماد، وضرب أمثالا آخر في آيات أعمال الكفار بهذا المعنى كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَاسٍ يَغِيغُهُ الْفَيْحُ الْمَاءُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ...﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات. وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ونظيره قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم وهو قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٤]. وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل فما هو أصغر منها لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها أي فما هو أكبر منها هو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

إلى الطاعات كالصلوات والصدقات من قبل إتيان يوم القيامة الذي هو اليوم الذي لا بيع فيه ولا مخالّة بين خليلين فينتفع أحدهما بخلة الآخر، فلا يمكن أحداً أن تباع له نفسه فيفديها، ولا خليل ينفع خليله يومئذ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقْتُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّا قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. ونحو ذلك من الآيات، والخلال في هذه الآية، قيل: جمع خلة كقلة وقلال، والخلة: المصادقة، وقيل: هو مصدر خاله على وزن فاعل مخالّة وخلالاً، ومعلوم أن فاعل ينقاس مصدرها على المفاعلة والفعال. وهذا هو الظاهر، ومنه قول امرئ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلبي الخلال ولا قال
أي لست بمكروه المخالّة.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُنِي وَبَيْتِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بين في مواضع آخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض كقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مَحْسَنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مِيثٌ﴾ [الصافات: ١١٣] وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾... الآية [الزخرف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَبْعِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إن من تبعه فإنه منه، وأنه رد أمر من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له لأنه هو الغفور الرحيم. وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله: ﴿إِنْ تَعْبُدُونِي فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَقْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [المائدة] وذكر عن نوح وموسى التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح إنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ إلى قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وقال عن موسى: أنه قال: ﴿رَبَّنَا اجْعَلْ لَّنَا سَبِيلًا رَّبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أُمُورَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] والظاهر أن نوحاً وموسى - عليهما وعلى نبيينا الصلاة والسلام - ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله: ﴿وَأَرْحَمَ إِلَٰكُ نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَكُنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في الأعراف وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّارِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام - دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة أن يرزقهم الله من الثمرات. وبين في سورة البقرة

أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمناً وكافراً ثم يوم القيامة يعذب الكافر، وذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ءَمَنِ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. قال بعض العلماء: سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين، في هذا الدعاء بالرزق أنه دعا لذريته أولاً أن يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتٍ قَالَ لَا يَتَّٰلِ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦]، فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق خص المؤمنين بسبب ذلك فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ءَمَنِ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة، فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إماماً؛ ولذا قال له في طلب الإمامة ﴿لَا يَتَّٰلِ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٦] ولما خص المؤمنين بطلب الرزق قال له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱعْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو الله فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ ٱسْتَفْقَارًا لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف، وأوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧]، ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى مفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾. الإهطاع في اللغة: الإسراع، وقد بين تعالى في مواضع أخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين أي مسرعين، إذا دعوا للحساب، كقوله تعالى: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْنَٰثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلْعَذَابِ﴾ [القمر: ٧، ٨]. وقوله: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْنَٰثِ سِرَآءًا﴾ [المعارج: ٤٣]، ﴿ذَٰلِكَ حَسْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن إطلاق الإهطاع في اللغة بمعنى الإسراع قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

أي مسرعين إليه.

قوله تعالى: ﴿وَنَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٨﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن المجرمين وهم الكفار يوم القيامة يقرنون في الأصفاذ، وبين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذْ ٱلْقَوْمُ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَاكَ ثُبُورًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان] ونحو ذلك من الآيات.

والأصفاد: هي الأغلال والقيود، واحدها: صفد بالسكون، وصفد بالتحريك. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا
وقوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ۚ وَمَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۚ﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿وَنَعْنَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة تغشى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وَجْهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ... الآية [الأنبياء: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُدْرِكَ بِهِ وَمَن يَلْعَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩٠] وبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ ... الآية [هود: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَوَّلَ الْأَوَّلَ﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول، وبين هذا في مواضع آخر، فذكر الحكمة الأولى في سورة هود في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَضَّلْنَا مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ ١ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ ...﴾ الآية [هود: ١ - ٢]. كما تقدم إيضاحه، وذكر الحكمة الثانية في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذْكُرُوا آيَاتِنَا وَلِيَذْكُرُوا الْأَوَّلَ الْأَوَّلَ﴾ [ص] وهم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال. وواحد الألباب: لب بالضم، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿رَبِّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ٢﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم، وبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَٰ بُرْدٌ وَلَا نُنْكِرُ ۖ إِنَّا بِمَا نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ٧﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلٰى مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْضُرُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَكْفُلُ يَلَيْسَٰنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ ٧﴾

[الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعابن الحقيقة تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنه إذا عابن النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنهم إذا عابنوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عابنوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين.

وقرأ نافع وعاصم ﴿رُبَّمَا﴾ بتخفيف الباء، وقرأ الباقون بتشديدها، والتخفيف لغة أهل الحجاز، والتثنية لغة تميم وقيس وربيعة، ومن الأول قول عدي بن الرعاء الغساني: رُبَّمَا ضربة بسيف صقيل بين بصري وطعنة نجلاء والثاني كثير جداً ومنه قول الآخر:

ألا ربما أهدت لك العين نظرة قصارك منها أنها عنك لا تجدي

ورب في هذا الموضع قال بعض العلماء: للتكثير أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ ونقل القرطبي هذا القول عن الكوفيين قال: ومنه قول الشاعر:

ألا ربما أهدت لك العين ... البيت

وقال بعض العلماء: هي هنا للتقليل لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب فإن قيل: «ربما» لا تدخل إلا على الماضي فما وجه دخولها على المضارع في هذا الموضع؟ فالجواب أن الله تعالى لما وعد بوقوع ذلك صار ذلك الوعد للجزم بتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ...﴾ الآية [النحل: ١] ونحوها من الآيات، فعبر بالماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل. قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا وَيَلْعَبُوا فِي الْأُمَلِّ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا وَشَرَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات] وقوله: ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا يَكْفُرُ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقرر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أن من المعاني التي تأتي لها صيغة أفعال التهديد كما في الآية المذكورة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني اتركهم وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا الأمر والمضارع، فماضيه ترك ومصدره الترك واسم الفاعل منه تارك، واسم المفعول منه متروك. وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بآيات السيف والعلم عند الله. قال القرطبي: «والأمل الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن

الآخرة». وعن الحسن رحمته الله أنه قال: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل» وقد قدمنا علاج طول الأمل في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾. قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقولون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك، والجواب أن قولهم: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ يعنون في زعمه تهكماً منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهمين بالرسول عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع آخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقوله عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾. (لو ما) في هذه الآية الكريمة للتحضيض وهو طلب الفعل طلباً حثيثاً، ومعنى الآية أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم طلب تحضيض أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلاً على صدقه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبين طلب الكفار هذا في آيات آخر كقوله مع فرعون عن موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقَرَّبِينَ ۝٥٢﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالِ اللَّهِ وَالْمَلَكَةُ قَيْلًا﴾ [الاسراء: ٩٢] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن «لو» تتركب مع «لا وما» لمعنيين: الأول منهما التحضيض، ومثاله في «لو ما» في هذه الآية الكريمة ومثاله في «لولا» قول جرير:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمي المقنعا
يعني فهلا تعدون الكمي المقنع، المعنى الثاني: هو امتناع شيء لوجود غيره وهو في لولا كثير جداً، كقول عامر بن الأكواع رحمته الله:

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
ومثاله في «لو ما» قول ابن مقبل:

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري
وأما «هل» فلم تتركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض.

تنبيه: قد ترد أدوات التحضيض للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي أو ما في تأويله نحو: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ﴾ [يونس: ٩٨]، وقوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣]، وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وجعل بعضهم منه قول جرير:

تعدون عقر النيب

البيت المتقدم آنفاً. قائلاً: إن مراده توبيخهم على ترك عد الكمي المقنع في الماضي.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٨). بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق أي بالوحي وقيل بالعذاب، وقال الزمخشري: «إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار» قال: «ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ لأن التنوين في قوله: «إِذَا» عوض عن جملة، ففيه شرط وجزاء، وتقدير المعنى: ولو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين؛ أي مهملين بتأخير العذاب عنهم. وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لَوْمٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي نزل بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة مع كسر الزاي المشددة والملائكة بالنصب مفعول به لتنزل، وقرأ شعبة تنزل بقاء مضمومة ونون مفتوحة مع تشديد الزاي مفتوحة بالبناء للمفعول والملائكة بالرفع نائب فاعل تنزل، وقرأ الباقون تنزل بفتح التاء والنون والزاي المشددة أصله تنزل فحذفت إحدى التائين، والملائكة بالرفع فاعل تنزل كقوله: ﴿نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ﴾ [القدر: ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزداد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّمَا لِكِتَابٍ غَيْرِ زَلَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٠) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١١) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا مِثْلَهُ نَحْنُ الَّذِي نَحْفَظُونَ﴾ [القيامة] وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن وقيل الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَصْمُكُ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في السماء بروجاً. وذكر هذا أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]. والبروج: جمع برج.

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة، فقال بعضهم: البروج الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة، وعن أبي صالح أنها الكواكب

العظام وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس وممن قال به عطية، وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس. وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أطلق تعالى في سورة النساء البروج على القصور الحصينة في قوله: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد؛ لأن أصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، فالكواكب ظاهرة والقصور ظاهرة، ومنازل القمر والشمس كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّانِيهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه زين السماء للنظرين. وبين في مواضع أخر أنه زينها بالنجوم، وأنها السماء الدنيا كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾... الآية [الملك: ٥]، وقوله ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكَبِ﴾ [الصافات: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٧) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ (٨). وصرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ (٧) [الصافات] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَمْ يَشْهَبَا رَصْدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٣٢) [الشعراء] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سَمٌّ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعِيمُهُمْ بِشَاطِنٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨) [الطور: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات. والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ (٨) قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع، وجزم به الفخر الرازي أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ﴿وَيَقْدُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١٠) [الصافات] وقيل: الاستثناء متصل، أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإننا لم نحفظها من أن تسمع الخير من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٣٢) [الشعراء]، قاله القرطبي. ونظيره ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ [الصافات: ١٠] فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِثَلَا﴾ [الصافات: ٨].

تنبيه: يؤخذ من هذه الآيات التي ذكرنا أن كل ما يتمشدد به أصحاب الأقدار الصناعية من أنهم سيصلون إلى السماء ويبنون على القمر، كله كذب وشقشقة لا طائل تحتها، ومن اليقين الذي لا شك فيه أنهم سيقفون عند حدهم ويرجعون خاسئين أذلاء عاجزين ﴿ثُمَّ أُنْجِ الْأَبْصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١١) [الملك] ووجه دلالة

الآيات المذكورة على ذلك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن يطلق اسم الشيطان على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ومنه قوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» وقول جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزلي وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

ولا شك أن أصحاب الأقمار الصناعية يدخلون في اسم الشياطين دخولاً أولاً لعتوهم وتمردهم، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح بحفظ السماء من كل شيطان كائناً من كان في عدة آيات من كتابه، كقوله هنا: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] وقوله: ﴿وَحَفِظْنَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح بأن من أراد استراق السمع أتبعه شهاب راصد له في مواضع آخر كقوله: ﴿فَمَنْ يَسْمِعْ أَنَّىٰ يَحِثُّ لَمْ يَشْهَبَا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْفَ السَّمْعُ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [٨] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [١٠] [الصفات: ١٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوُونَ﴾ [٣٣] [الشعراء] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلٌُّ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِشَاطِنٍ مُبِينٍ﴾ [٣٨] [الطور] وهو تعجيز دال على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [١٢] جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ [١١] [صرا]. فقوله في هذه الآية الكريمة: فليرتقوا في الأسباب، أي فليصعدوا في أسباب السموات التي توصل إليها، وصيغة الأمر في قوله: فليرتقوا، للتعجيز، وإيرادها للتعجيز دليل على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً. وقوله - جل وعلا - بعد ذلك التعجيز ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [١١] يفهم منه أنه لو تنطع جند من الأحزاب الارتقاء في أسباب السماء أنه يرجع مهزوماً صاعراً داخراً ذليلاً، ومما يدل على أن الآية الكريمة يشار فيها إلى شيء ما كان يظنه الناس وقت نزولها إبهامه - جل وعلا - لذلك الجند بلفظة ما في قوله: ﴿جُنْدٌ مَا﴾ وإشارته إلى مكان ذلك الجند أو مكان انهزامه إشارة البعيد في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ ولم يتقدم في الآية ما يظهر رجوع الإشارة إليه إلا الارتقاء في أسباب السموات.

فالآية الكريمة يفهم منها ما ذكرنا، ومعلوم أنها لم يفسرها بذلك أحد من العلماء، بل عبارات المفسرين تدور على أن الجند المذكور الكفار الذين كذبوه ﷺ، وأنه ﷺ سوف يهزمهم، وأن ذلك تحقق يوم بدر أو يوم فتح مكة، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام، ففي كل حين تفهم منه أشياء لم تكن مفهومة من قبل، ويدل على ذلك حديث أبي جحيفة الثابت في الصحيح أنه لما سأل علياً عليه السلام هل خصهم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال له علي عليه السلام: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما

يعطيه الله رجلاً في كتاب الله وما في هذه الصحيفة الحديث. فقلوه ﷺ: إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله يدل على أن فهم كتاب الله تتجدد به العلوم والمعارف التي لم تكن عند عامة الناس، ولا مانع من حمل الآية على ما حملها عليه المفسرون.

وما ذكرنا أيضاً أنه يفهم منها لما تقرّر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع كما حققه بأدلتها الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن.

وصرح تعالى بأن القمر في السبع الطباق في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّى خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طَبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] فعلم من الآيات أن القمر في السبع الطباق، وأن الله حفظها من كل شيطان رجيم، فلم يبق شك ولا لبس في أن الشياطين أصحاب الأقمار الصناعية سيرجعون داخرين صاغرین عاجزين عن الوصول إلى القمر والوصول إلى السماء، ولم يبق لبس في أن السماء التي فيها القمر ليس يراد بها مطلق ما علاك، وإن كان لفظ السماء قد يطلق لغة على كل ما علاك، كسقف البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾... الآية [الحج: ١٥]. وقد قال الشاعر:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

تصريحه تعالى بأن القمر في السبع الطباق؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ [نوح: ١٦] راجع إلى السبع الطباق وإطلاق المجموع مراداً بعبء كثير في القرآن وفي كلام العرب.

ومن أصرح أدلته: قراءة حمزة والكسائي ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ لَهُمُ﴾ [البقرة: ١٩١] من القتل في الفعلين؛ لأن من قتل بالبناء للمفعول لا يمكن أن يؤمر بعد موته بأن يقتل قاتله، ولكن المراد: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، كما هو ظاهر، وقال أبو حيان في (البحر المحیط) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وصح كون السموات ظرفاً للقمر؛ لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف. تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها.

واعلم أن لفظ الآية صريح في أن نفس القمر في السبع الطباق؛ لأن لفظه «جعل» في الآية هي التي بمعنى صير، وهي تنصب المبتدأ والخبر، والمعبر عنه بالمبتدأ هو المعبر عنه بالخبر بعينه لا شيء آخر، فقولك: جعلت الطين خزفاً، والحديد خاتماً، لا يخفى فيه أن الطين هو الخزف بعينه، والحديد هو الخاتم، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، فالنور المجعول فيهن هو القمر بعينه، فلا يفهم من الآية بحسب الوضع اللغوي احتمال خروج نفس القمر عن السبع الطباق، وكون المجعول فيها مطلق نوره؛ لأنه لو أريد ذلك لقليل: وجعل نور القمر فيهن، أما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فهو صريح في أن النور المجعول فيهن هو عين القمر؛ ولا يجوز صرف القرآن

عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه، ويوضح ذلك أنه تعالى صرح في سورة الفرقان بأن القمر في خصوص السماء ذات البروج بقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان] وصرح في سورة الحجر بأن ذات البروج المنصوص على أن القمر فيها هي بعينها المحفوظة من كل شيطان رجيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلشَّاطِرِينَ﴾ [١٦] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾.

وما يزعمه بعض الناس من أنه - جل وعلا - أشار إلى الاتصال بين أهل السماء والأرض في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى] يقال فيه: إن المراد جمعهم يوم القيامة في المحشر، كما أطبق عليه المفسرون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَلْمِزُ يَحْتَايِهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا قَرْنًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام].

ويوضح ذلك تسمية يوم القيامة يوم الجمع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافِي﴾ [التغابن: ٩]. وكثرة الآيات الدالة على أن جمع جميع الخلائق كائن يوم القيامة، كقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّهُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ الْمَاءُ بِالْغَنَمِ وَيُرْسِلُ السَّمَاءُ نَزِيلًا﴾ [١٥] [الفرقان]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

مع أن بعض العلماء قال: المراد ما بث من الدواب في الأرض فقط، فيكون من إطلاق المجموع مراداً بعضه، وهو كثير في القرآن وفي (لسان العرب)، وبعضهم قال: المراد بدواب السماء الملائكة زاعماً أن الديب يطلق على كل حركة.

قال مقيده - عفا الله عنه -: ظاهر الآية الكريمة أن الله بث في السماء دواب كما بث في الأرض دواب ولا شك أن الله قادر على جمع أهل السموات وأهل الأرض وعلى كل شيء، ولكن الآيات القرآنية التي ذكرنا بينت أن المراد بجمعهم: حشرهم جميعاً يوم القيامة وقد أطبق على ذلك المفسرون. ولو سلمنا تسليماً جديلاً أنها تدل على جمعهم في الدنيا فلا يلزم من ذلك بلوغ أهل الأرض إلى أهل السماء، بل يجوز عقلاً أن ينحدر من في السماء إلى من في الأرض، لأن الهبوط أهون من الصعود وما يزعمه من لا علم عنده بكتاب الله تعالى من أن قوله - جل وعلا -: ﴿يَتَقَشَّرُ الْمُنَى وَالْأَرْضُ إِذَا اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانِي﴾ [الرحمن] يشير إلى الوصول إلى السماء بدعوى أن المراد بالسلطان في الآية: هو هذا العلم الحادث الذي من نتائجه الصواريخ والأقمار الصناعية وإذا فإن الآية قد تكون فيها الدلالة على أنهم يتفدون بذلك العلم من أقطار السموات والأرض مردود من أوجه.

الأول: أن معنى الآية الكريمة هو إعلام الله - جل وعلا - خلقه أنهم لا محيص لهم ولا مفر عن قضائه ونفوذ مشيئته فيهم، وذلك عندما تحف بهم صفوف الملائكة يوم القيامة فكلما فروا إلى جهة وجدوا صفوف الملائكة أمامهم، ويقال لهم في ذلك الوقت: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ﴾... الآية [النساء: ١٣٠] والسلطان: قيل الحجة والبينة، وقيل: الملك والسلطنة، وكل ذلك معدوم عندهم يوم القيامة فلا نفوذ لهم كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] وقال: ﴿أَخَافُ عَلَيْكَ يَوْمَ النَّادِ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم.

والوجه الثاني: أن الجن أعطاهم الله القدرة على الطيران والنفوذ في أقطار السموات والأرض وكانوا يسترقون السمع من السماء كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ﴾ [الجن: ٩] وإنما منعوا من ذلك حين بعث ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدُ لَوْ شَهِبًا رَصْدًا﴾ [الجن: ٩]، فالجن كانوا قادرين على بلوغ السماء من غير حاجة إلى صاروخ ولا قمر صناعي، فلو كان معنى الآية هو ما يزعمه أولئك الذين لا علم لهم بكتاب الله لم يقل - جل وعلا -: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم.

الوجه الثالث: أن العلم المذكور الذي لا يجاوز صناعة يدوية أهون على الله - جل وعلا - من أن يطلق عليه اسم السلطان؛ لأنه لا يجاوز أغراض هذه الحياة الدنيا ولا نظر فيه البتة لما بعد الموت؛ ولأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة. وقد نص تعالى على كمال حقارتها عنده في قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] وعلم هؤلاء الكفار نفى الله عنه اسم العلم الحقيقي وأثبت له أنه علم ظاهر من الحياة الدنيا، وذلك في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] وظهراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] فحذق الكفار في الصناعات اليدوية كحذق بعض الحيوانات في صناعاتها بإلهام الله لها ذلك، فالنحل تبني بيت عسلها على صورة شكل مسدس يحار فيه حذاق المهندسين ولما أرادوا أن يتعلموا منها كيفية ذلك البناء وجعلوها في أجباح زجاج لينظروا إلى كيفية بنائها أبت أن تعلمهم فطلت الزجاج بالعسل قبل البناء كيلا يروا كيفية بنائها كما أخبرتنا الثقة بذلك.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً أن ذلك المعنى المزعوم كذباً هو معنى الآية، فإن الله أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّن نَّارٍ﴾... الآية [الرحمن: ٣٥]، فهو يدل على ذلك التقدير على أنهم لو أرادوا النفوذ من أقطارها حرقهم ذلك الشواظ والنحاس، والشواظ: اللهب الخالص، والنحاس: الدخان، ومنه قول النابغة:

يضئ كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاساً

وكذلك ما يزعمه بعض من لا علم له بمعنى كتاب الله من أن الله أشار إلى اتصال أهل السماوات وأهل الأرض بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الأنبياء: ٤] بصيغة الأمر في لفظة «قل» على قراءة الجمهور وبصيغة الماضي ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾... الآية، في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم؛ فإن الآية الكريمة لا تدل على ذلك لا بدلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام؛ لأن غاية ما تفيد الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - أمر نبيه أن يقول: إن ربه يعلم كل ما يقوله أهل السماء وأهل الأرض على قراءة الجمهور وعلى قراءة الأخوين وحفص، فمعنى الآية أنه ﷺ أخبر قائلًا: إن ربه - جل وعلا - يعلم كل ما يقال في السماء والأرض، وهذا واضح لا إشكال فيه ولا شك أنه - جل وعلا - عالم بكل أسرار أهل السماء والأرض وعلاياتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وكذلك ما يزعمه من لا علم عنده بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أنه تعالى أشار إلى أن أهل الأرض سيصعدون إلى السموات واحدة بعد أخرى بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۖ﴾ [الانشقاق]، زاعماً أن معنى الآية الكريمة: لتركبن أيها الناس طبقاً؛ أي سماء، عن طبق؛ أي بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماوات، فهو أيضاً جهل بكتاب الله، وحمل له على غير ما يراد به.

اعلم أولاً أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين مشهورتين:

إحدهما لتركبن بفتح الباء وبها قرأ من السبعة: ابن كثير وحمزة والكسائي، وعلى هذه القراءة فاعل لتركبن ثلاثة أوجه معروفة عند العلماء:

الأول: وهو أشهرها أن الفاعل ضمير الخطاب الواقع على النبي ﷺ أي لتركبن أنت يا نبي الله طبقاً عن طبق أي بعد طبق أي حالاً بعد حال أي فترتقي في الدرجات درجة بعد درجة، والطبق في لغة العرب: الحال، ومنه قول الأقرع بن حابس التميمي:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره وساقني طبق منها إلى طبق

وقول الآخر:

كذلك المرء إن ينسأ له أجل يركب على طبق من بعده طبق

أي حال بعد حال في البيتين. وقال ابن مسعود والشعبي ومجاهد وابن عباس في إحدى الروايتين والكلبي وغيرهم ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۖ﴾ [الانشقاق] أي لتصعدن يا محمد سماء بعد سماء، وقد وقع ذلك ليلة الإسراء. والثاني: أن الفاعل ضمير السماء؛ أي لتركبن، هي؛ أي السماء طبقاً بعد طبق أي لتنتقلن السماء من حال إلى حال أي تصير تارة كالدهان وتارة كالمهل وتارة تتشقق بالغمام، وتارة تطوى كطي السجل للكتب، والثالث: أن الفاعل ضمير يعود إلى الإنسان المذكور في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦]؛ أي لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من

صغر إلى كبير ومن صحة إلى سقم كالعكس، ومن غنى إلى فقر كالعكس، ومن موت إلى حياة كالعكس ومن هول من أهوال القيامة إلى آخر وهكذا.

والقراءة الثانية: وبها قرأ من السبعة نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم لتركين بضم الباء وهو خطاب عام للناس المذكورين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُورَ بَيْبُورِهِ﴾ (٧) إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُورَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ... الآية [الانشقاق]، ومعنى الآية لتركين أيها الناس حالاً بعد حال فتنتقلون في دار الدنيا من طور إلى طور وفي الآخرة من هول إلى هول.

فإن قيل: يجوز بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن على قراءة ضم الباء أن يكون المعنى لتركين أيها الناس طبقاً بعد طبق؛ أي سماء بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماء السابعة كما تقدم نظيره في قراءة فتح الباء خطاباً للنبي ﷺ. وإذا كان هذا جائزاً في لغة القرآن فما المانع من حمل الآية عليه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ظاهر القرآن يدل على أن المراد بالطبق الحال المتنقل إليها من موت ونحوه وهول القيامة بدليل قوله بعده مرتباً له عليه بالفاء: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) وإذا قرئ عليهم القرآن لَا يَسْجُدُونَ ﴿١١﴾ [الانشقاق] فهو قرينة ظاهرة على أن المراد إذا كانوا ينتقلون من حال إلى حال ومن هول إلى هول فما المانع لهم من أن يؤمنوا ويستعدوا لتلك الشدائد؟ ويؤيده أن العرب تسمي الدواهي بنات طبق كما هو معروف في لغتهم.

والوجه الثاني: أن الصحابة رضي الله عنهم هم المخاطبون الأولون بهذا الخطاب وهم أولى الناس بالدخول فيه بحسب الوضع العربي، ولم يركب أحد منهم سماء بعد سماء بإجماع المسلمين فدل ذلك على أن ذلك ليس معنى الآية، ولو كان هو معناها لما خرج منه المخاطبون الأولون بلا قرينة على ذلك.

الوجه الثالث: هو ما قدمنا من الآيات القرآنية المصرحة بحفظ السماء وحراستها من كل شيطان رجيم كائناً من كان، فبهذا يتضح أن الآية الكريمة ليس فيها دليل على صعود أصحاب الأقمار الصناعية فوق السبع الطباق، والواقع المستقبل سيكشف حقيقة تلك الأكاذيب والمزاعم الباطلة.

وكذلك ما يزعمه بعض من ليس له علم بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أن الله تعالى أشار إلى بلوغ أهل الأرض إلى السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا نَّتَىٰ﴾ ... الآية [الجاثية: ١٣] فقالوا: تسخير - جل وعلا - ما في السماوات لأهل الأرض دليل على أنهم سيبلغون السماوات، والآية الكريمة لا تدل على ذلك الذي زعموا أنها تدل عليه؛ لأن القرآن بين في آيات كثيرة كيفية تسخير ما في السماء لأهل الأرض. فبين أن تسخير الشمس والقمر لمنافعهم وانتشار الضوء عليهم ولكي يعلموا عدد السنين والحساب كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿١٦﴾ [إبراهيم]. ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله كما هو معروف. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات. وكذلك سخر لأهل الأرض النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿وَعَلَّمَنِي وَإِلَٰلَهُمُ يُهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١١] إلى غير ذلك من الآيات. فهذا هو تسخير ما في السماء لأهل الأرض وخير ما يفسر به القرآن القرآن. ومما يوضح ما ذكرنا أن المخاطبين الأولين بقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] وهم الصحابة رضي الله عنهم لم يسخر لهم شيء مما في السموات إلا هذا التسخير الذي ذكرنا الذي بيّنه القرآن العظيم في آيات كثيرة، فلو كان يريد به التسخير المزعوم عن طريق الصواريخ والأقمار الصناعية لدخل فيه المخاطبون الأولون كما هو ظاهر.

وكذلك قوله: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٥]؛ فإن معنى مرورهم على ما في السموات من الآيات نظرهم إليها كما بيّنه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم - وفقني الله وإياك - أن التلاعب بكتاب الله - جل وعلا - وتفسيره بغير معناه لمحاولة توقيفه مع آراء كفره الإفرنج ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا ولا الآخرة وإنما فيه فساد الدارين، ونحن إذ نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] كما سترى بسطه - إن شاء الله - في سورة بني إسرائيل.

فإن قيل: هذه الآيات التي استدللتم بها على حفظ السماء من الشياطين واردة في حفظها من استراق السمع وذلك إنما يكون من شياطين الجن فدل ذلك على اختصاص الآيات المذكورة بشياطين الجن؟

فالجواب: إن الآيات المذكورة تشمل بدالاتها اللغوية شياطين الإنس من الكفار، قال في (لسان العرب): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من الإنس والجن والدواب: شيطان، وقال في (القاموس): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من إنس أو جن أو دابة، اهـ.

ولا شك أن من أشد الكفار تمرداً وعتواً الذين يحاولون بلوغ السماء فدخلوهم في اسم الشيطان لغة لا شك فيه، وإذا كان لفظ الشيطان يعم كل متمرّد عات، فقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٧) صريح في حفظ السماء من كل متمرّد عات كائناً من كان. وحمل نصوص الوحي على مدلولاتها اللغوية واجب إلا للدليل يدل على تخصيصها أو صرفها عن ظاهرها المتبادر منها كما هو مقرر في الأصول، وحفظ السماء من الشياطين معناه: حراستها منهم. قال الجوهري في (صاحبه): حفظت الشيء حفظاً: أي حرسه، اهـ. وقال صاحب (لسان العرب): وحفظت الشيء حفظاً: أي حرسه، اهـ. وهذا معروف في كلام العرب، فيكون مدلول هذه الآية بدلالة المطابقة ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٧) أي وحرسناها؛ أي السماء من كل عات متمرّد.

ولا مخالفة لمفهوم قوله تعالى: ﴿رَجِيمٍ﴾ وقوله: ﴿مَارِدٍ﴾ [الصفات: ٧]؛ لأن مثل ذلك من الصفات الكاشفة، فكل شيطان يوصف بأنه رجيم وبأنه مارد وإن كان بعضهم أقوى تمرداً من بعض، وما حرسه الله - جل وعلا - من كل عات متمرّد لا شك أنه لا يصل إليه عات متمرّد كائناً من كان ﴿ثُمَّ أَوَّجَ الْأَبْصَرَ كَرِهَ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١٤) [الملك: ٤] والعلم عند الله تعالى، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾.

اللواقح جمع لاقح، وأصل اللاقح: التي قبلت اللقاح فحملت الجنين، ومنه قول ذي الرمة:

إذا قلت عاج أو تفتيت أبرقت بمثل الخوافي لاقحاً أو تلقح

وأصل تلقح: تتلقح، حذف إحدى التائين، أي توهم أنها لاقح وليس كذلك، ووصف الرياح بكونها لواقح؛ لأنها حوامل تحمل المطر كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا مَقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت سحاباً ثقلاً، فاللواقح من الإبل حوامل الأجنة، واللواقح من الريح حوامل المطر، فالجميع يأتي بخير؛ ولذا كانت الناقة التي لا تلد يقال لها عقيم، كما أن الريح التي لا خير فيها يقال لها عقيم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (١٤) [الذاريات]. وقال بعض العلماء: اللواقح بمعنى الملاقح، أي التي تلقح غيرها من السحاب والشجر، وعلى هذا ففيه وجهان:

أحدهما: أن المراد النسبة، فقوله: لواقح: أي ذوات لقاح، كما يقال سائف ورامح أي ذو سيف ورمح، ومن هذا قول الشاعر:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الحي تامر

أي ذولين وتمر. وعلى هذا فمعنى لواقح، أي ذوات لقاح؛ لأنها تلقح السحاب والشجر.

وثانيهما: أن لواقح بمعنى ملاقح جمع ملقحة، وملقح اسم فاعل القحت السحاب والشجر كما يلحق الفحل الأنثى، وغاية ما في هذا القول إطلاق لواقح وإرادة ملاقح، ونظيره قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره:

لبيك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

فإن الرواية تطيح - بضم التاء - من أطاح الرباعي، والمناسب لذلك المطيحات لا الطوائح، ولكن الشاعر أطلق الطوائح وأراد المطيحات كما قيل هنا بإطلاق اللوائح وإرادة الملاقيح؛ أي الملقحات باسم الفاعل، ومعنى إلقاح الرياح السحاب والشجر أن الله يجعلها لهما كما يجعل الذكر للأنثى، فكما أن الأنثى تحمل بسبب ضراب الفحل فكذلك السحاب يمتلئ ماء بسبب مري الرياح له والشجر ينفث عن أكمامه وأوراقه بسبب إلقاح الريح له، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ أي تلتفح السحاب فتدر ماء، وتلتفح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وقال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلتفح به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم يمطر. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء من السحاب فتجري به السحاب فيدر كما تدر اللقحة، وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: تلتفح الشجرة وتجري السحاب. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رجاء رضي الله عنه قال قلت للحسن رضي الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: لواقع للشجر، قلت: أو السحاب، قال: وللسحاب تمر به حتى يمطر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: تلتفح الماء في السحاب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: الريح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللوائح التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس، والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفحة منها فبردها هذا من ذلك». وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدهور والجنوب من الجنة وهي الريح اللوائح».

هذا حاصل معنى كلام العلماء في الرياح اللوائح وقد قدمنا قول من قال: إن اللوائح هي حوامل المطر وأن ذلك القول يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي حملتها. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون للشيء أوصاف فيذكر بعضها في موضع، فإننا نبين بقية تلك الأوصاف المذكورة في مواضع أخر. ومثلنا لذلك بظل أهل الجنة فإنه تعالى وصفه في سورة النساء بأنه ظليل في قوله: ﴿وَنُدَّعَاهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وقد

وصفه بأوصاف آخر في مواضع آخر كقوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿وَيُظِلُّ مَتَدِيرٌ﴾ [الواقعة] إلى غير ذلك من أوصافه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى وصف الرياح في هذه الآية بكونها لواقح وقد بينا معنى ذلك آنفاً، ووصفها بأوصاف آخر، من ذلك وصفه لها بأنها تبشر بالسحاب في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] على قراءة من قرأها بالياء، ومن ذلك وصفه لها بإثارة السحاب كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبيد بن عمير قال: «يبعث الله الميثرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث المبشرة فتثير السحاب فيجعله كسفًا ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر». وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: «الأرواح أربعة: ريح تقم، وريح تثير تجعله كسفًا، وريح تجعله ركاماً، وريح تمطر».

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا كُنُوزَهُ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم منته بإنزال الماء من السماء وجعله إياه عذبا صالحا للسقيا، وبين ذلك أيضاً في مواضع آخر كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [٧٨] ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [١٩] ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٥] [الواقعة]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٥] ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [٤٨] ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُصْفِئَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَفْنًا وَأَنَابِي كَثِيرًا﴾ [١٩] [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن أسقى وسقى لغتان معناهما واحد كأسرى وسرى، والدليل على ذلك القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِمَا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦] فإنه قرأه بعض السبعة بضم النون من أسقى الرباعي، وقرأه بعضهم بفتحها من سقى الثلاثي، ويدل على ذلك أيضاً قول لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنشَأَ لَكُمُ بَحْرَيْنِ﴾ فيه للعلماء وجهان من التفسير كلاهما يشهد له قرآن؛ الأول: أن معنى ﴿وَمَا أَنشَأَ لَكُمُ بَحْرَيْنِ﴾؛ أي ليست خزائنه عندكم بل نحن الخازنون له ننزله متى شئناه، وهذا الوجه تدل عليه آيات كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [١١] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [المنافقون: ٧] ونحو ذلك من الآيات، والوجه الثاني: أن معنى ﴿وَمَا أَنشَأَ لَكُمُ بَحْرَيْنِ﴾ بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدرון على حفظه في الآبار والعيون والغدران

بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [٢٣] [المؤمنون] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلَوٍّ مَعِينٍ﴾ [٢٤] [الملك] وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [٢٥] [الكهف] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحيي ويميت، وأوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَمَصِيرُ﴾ [ق]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَیُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْیِی وَیُمِیتُ رَبُّکُمْ رَبُّ عَالَمِیْنَ﴾ [الدخان: ٨]، وبين في مواضع آخر أنه أحياءهم مرتين وأماتهم مرتين كقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ الْأَنْهَارَ اثْنَتَيْنِ فَتَبَدَّلَا فِيهَا فَيَنْزِلُ فِيهَا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَإِنَّا بِحَدِّثِهَا كَاذِبُونَ﴾ [غافر: ١١] وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ تُمِيتُهُمْ ثُمَّ تُحْيِيهِمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا، والإحياء الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم، والإحياء الثانية بعثهم من قبورهم، أحياء يوم القيامة، وسيأتي له - إن شاء الله تعالى - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث، ولم يبين الشيء الذي يرثه، وبين في مواضع آخر أنه يرث الأرض ومن عليها كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم] وقوله: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم]. ومعنى «ما يقول» أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِی كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم]. ومعنى كونه يرث الأرض ومن عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفاً بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه خلق أبانا آدم من صلصال من حمأ مسنون، والصلصال: الطين اليابس الذي يصل أي يصوت من يبسه إذا ضربه شيء ما دام لم تمسه النار فإذا أمسته النار فهو حينئذٍ فخار، وأصل الصليل والصلصلة واحد، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في الصوت مداً فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون قيل: المصور من سنة الوجه وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما سأل نافع بن الأزرق عن معنى المسنون وأجابه بأن معناه المصور قال له: وهل تعرف العرب ذلك فقال له ابن عباس: نعم أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يمدح رسول الله ﷺ:

أغر كأن البدر سنة وجهه جلا الغيم عنه ضوءه فتبيدداً
وقيل: المستون المصوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من
الجواهر المذوبة في أمثلتها وقيل: المسنون المتنن، وقال بعض العلماء: المسنون
الأملس. قال: ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي من مرمر مسنون

أي أملس صقيل، قاله ابن كثير. وقال مجاهد: الصلصال هو المتنن. وما قدمنا
هو الحق بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ٧﴾ [الرحمن] إذا
عرفت هذا فاعلم أن الله - جل وعلا - أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه
آدم فبين أنه أولاً تراب بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل
عمران: ٥٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾
[الحج: ١٥]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى غير ذلك
من الآيات. ثم أشار إلى أن ذلك التراب بل فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع أخر
كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ
مِّن طِينٍ ١٢﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] إلى غير ذلك
من الآيات، وبين أن ذلك الطين أسود، وأنه متغير بقوله هنا: ﴿مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُونٍ﴾. وبين
أيضاً أنه يبس حتى صار صلصالاً أي تسمع له صلصلة من يبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ... الآية وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ٧﴾
[الرحمن]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣١﴾. بين في هذه الآية الكريمة
أن إبليس أبى أن يسجد لآدم، وبين في مواضع أخر أنه تكبر عن امتثال أمر ربه كقوله
في البقرة: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ... الآية [البقرة: ٣٤]، وقوله في سورة ص: ﴿إِلَّا
إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٧٦﴾ [ص] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّسَاجِدَ
لِّبَشَرٍ خَلَقْتُمْ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُونٍ ٣٢﴾ كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلِفُلِسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣٢﴾. بين تعالى في هذه
الآية الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السجود لآدم
الذي أمره به ربه - جل وعلا -، وبين أيضاً في (الأعراف و ص) أنه وبخه أيضاً بهذا
السؤال قال في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال في ص: ﴿قَالَ يَتْلِفُلِسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وناداه باسمه إبليس في (الحجر
وص) ولم يناد به في الأعراف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّسَاجِدَ لِّبَشَرٍ خَلَقْتُمْ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُونٍ ٣٣﴾. هذا القول
الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن إبليس - لعنه الله - أنه لم يكن ليسجد لبشر

مخلوق من الطين مقصوده به أنه خير من آدم؛ لأن آدم خلق من الطين وهو خلق من النار كما يوضحه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٢٤). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة مؤكداً أنه رجين وبين في الأعراف أنه خروج هبوط وأنه يخرج متصفاً بالصغار والذل والهوان بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢٥). بين في هذه الآية الكريمة أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين وصرح في سورة (ص) بأن لعنته - جل وعلا - على إبليس إلى يوم الدين بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨) [ص] وقد قدمنا في الفاتحة بيان يوم الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الآية.

قال بعض العلماء: هذا قسم من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين ويدل عليه أنه أقسم بعزته تعالى على ذلك في قوله: ﴿قَالَ فِعْزَيْكَ لَاغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص] وقيل: الباء في قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ سببية.

قوله تعالى: ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبليس أخبر أنه سيضل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿لَأَقْضِيَنَّ لَهُمْ سِرَّتَكَ أَلْهَمْتُكُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَا تُخِذْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيصًا مَقْرُوضًا﴾ ... الآية [النساء: ١١٨]، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُغْرِيتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاخْتَبِرَكَ دَرَيْتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، وهذا قاله إبليس قبل أن يقع ظناً منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم، وقد بين تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا]، وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار كما قال هنا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٢) لما سبعة أبواب ... الآية. وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُنْحَوْرًا لَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨] وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ١٢] وقال في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) [ص].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٣) ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيضل أكثر بني آدم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معتزلاً بأنه لا قدرة له على إضلالهم، ونظيره قوله في سورة ص أيضاً: ﴿قَالَ فِعْزَيْكَ لَاغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٨﴾ [ص]. وعباد الله المخلصون هم المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل ﴿لَا حَنِينَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله في سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [سبأ] وهم الذين احترز منهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَكْثَرَهُمْ شَكَرٌ﴾ [الأعراف: ١٧]. وبين تعالى في مواضع أخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَالِ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام اسم فاعل وقرأه نافع والكوفيون بفتح اللام بصيغة اسم المفعول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ أَتَخْلَوْهَا وَسَلِّمَ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين يوم القيامة في جنات وعيون، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿أَتَخْلَوْهَا وَسَلِّمَ ءَامِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وذكر في مواضع أخر صفات ثوابهم وربما بين بعض تقواهم التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل كقوله في الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٥﴾ ءَالِئِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَدْ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ [الذاريات]، وقوله في الدخان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ رَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ [الدخان]، وقوله في الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٧﴾ فَنُكِهَتْ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾ [الطور]، وقوله في القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾ [القمر]، وقوله في المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١﴾ وَفَوَّكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ [المرسلات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن الشيء الذي له أوصاف متعددة في القرآن نبين أوصافه عند ذكر بعضها كما تقدم مثاله مراراً وكما هنا.

والمقتي اسم فاعل الاتقاء وأصل مادة الاتقاء (وقى) لفيف مفروق فاؤه واو وعينه قاف ولامه ياء فدخله تاء الافتعال فصارت وقى أو تقى فأبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء للقاعدة المقررة في التصريف أن كل واو هي فاء الكلمة إذا دخلت عليها تاء الافتعال يجب إبدالها، أعني الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال نحو اتصال من الوصل واتزن من الوزن واتحد من الوحدة واتقى من الوقاية، وعقد هذه القاعدة ابن مالك في الخلاصة بقوله:

ذوالاللين فاتا في افتعال أبديا وشذ في ذي الهمز نحو ائتكلالا
والاتقاء في اللغة: اتخاذ الوقاية دون المكروه، ومنه قول نابغة ذبيان:
سقط النصيب ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
يعني استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية تقيها من أن ننظر إلى وجهها لأنها تستر
بها، وقول الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم
والتقوى في اصطلاح الشرع: هي اتخاذ الوقاية دون عذاب الله وسخطه وهي
مركبة من أمرين: هما امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه
نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخواناً وبين هذا المعنى في الأعراف
وزاد أنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة وذلك في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غَلٍّ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾... الآية [الأعراف: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم
أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض
ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع، منها أنها منسوجة بقضبان الذهب
وهي الموضونة قال في الواقعة: ﴿ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ﴾ عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ ﴿مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة]، وقيل: الموضونة المصفوفة كقوله:
﴿مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠] ومنها أنها مرفوعة كقوله في الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُرٌ
مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية] وقوله في الواقعة: ﴿وَفُورٌ مَرْفُوعٌ﴾ [الواقعة] وقوله: ﴿مُتَكِبِينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضِرَ وَتَبَقَّرَى جَسَانٍ﴾ [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب وهو التعب
والإعياء، وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب، فتدل الآية على سلامة
أهل الجنة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
أُحْنَتْ دَارُ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَ فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر]؛ لأن
اللغوب هو التعب والإعياء أيضاً، قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أمرني أن
أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة
لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ فهم دائمون في
نعيمها أبداً بلا انقطاع. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف]،

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٥١﴾ تَكُونُ فِيهِ أَبَدًا﴾، وقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُورَةٍ﴾ [هود: ١٠٨] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَاذٍ ۖ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴿٥١﴾﴾ بين في مواضع آخر أن ضيف إبراهيم المذكورين في هذه الآية أنهم ملائكة كقوله في هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٦٩] كما تقدم، وقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ ﴿٥٣﴾﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أو لا؛ لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم، وإنما قال عنه إنه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ وبيّن في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود: ﴿قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وقوله في الذاريات: ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۖ ﴿٥٥﴾﴾ فَأَعَادَ إِلَيْهِمْ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وبيّن أن الوجل المذكور هنا هو الخوف لقوله في القصة بعينها في هود: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] وقوله في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وقد قدمنا أن من أنواع البيان في هذا الكتاب بيان اللفظ بمرادف له أشهر منه كما هنا لأن الخوف يرادف الوجل وهو أشهر منه، وبيّن أن سبب خوفه هو عدم أكلهم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ۖ ﴿٥٦﴾﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الكرام الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بغلام موصوف بالعلم ونظير ذلك قوله تعالى أيضاً في الذاريات: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات: ﴿تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ۖ ﴿٥٦﴾﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٥٧﴾﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْكَاذِبُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠]؛ لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها، أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى، ويزيده إيضاحاً تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحاً باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَالِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۖ ﴿٥٩﴾﴾ قَالَتْ يَوَاسِقُ مَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٠﴾﴾ [هود]. وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصفات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّيْدٍ ۖ ﴿٦١﴾﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٢﴾﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٦٣﴾﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي فِي الْمَنَازِرِ أَتَى أَذُنُكَ ﴿٦٤﴾﴾... الآية [الصفات: ٩٩ - ١٠٢] فهو إسماعيل وستري - إن شاء الله تعالى - في سورة الصفات دلالة الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه

قاطع للنزاع، والغلام يطلق في لغة العرب على العبد وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجل البالغ ومن إطلاقه على البالغ، قول علي عليه السلام يوم النهروان:

أنا الغلام القرشي المؤتمن أبو حسين فاعلمن والحسن
وقوله صفوان بن المعطل السلمي لحسان عليه السلام.

تلق ذباب السيف عني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر
وقول ليلي الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

وربما قالوا للأنثى غلامه، ومنه قول أوس بن غلفاء الهجيمي يصف فرساً:

ومركضة صريح أبيها يهان لها الغلام والغلام
قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْشِرْ تَمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَىٰ الْكِبَرُ﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إنه وقت البشرى بإسحاق مسه الكبير، وصرّح في هود بأن امرأته أيضاً قالت: إنه شيخ كبير في قوله عنها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود: ﴿يَقُولَنَّ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقوله في الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضاً، وذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿فِيمَ تَبْشِرُونَ﴾. الظاهر أن استفهام نبي الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - للملائكة بقوله: ﴿فِيمَ تَبْشِرُونَ﴾ استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، ويدل على ذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت: ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقد بين تعالى أن ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمر الخارق للعادة في قوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]. ويدل عليه أيضاً وقوع مثله من نبي الله زكريا - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لأنه لما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً فَإِنَّهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِخَيْرٍ﴾ عجب من كمال قدرة الله تعالى فقال: ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٤٠]. وقوله: ﴿فِيمَ تَبْشِرُونَ﴾ قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بفتح النون مخففة وهي نون الرفع وقرأه نافع بكسر النون مخففة - وهي نون الوقاية مع حذف ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها، وقرأه ابن كثير بالنون المكسورة المشددة مع المد، فعلى قراءة ابن كثير لم تحذف نون الرفع ولا المفعول به بل نون الرفع مدغمة في نون الوقاية وياء المتكلم هي المفعول به، وعلى قراءة الجمهور فنون الرفع ثابتة والمفعول به محذوف على حد قول ابن مالك:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ ﴿٦٢﴾﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءه الملائكة والمرسلون لإهلاك قومه قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾، وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيبهم، وأنه ضاق ذرعاً بذلك كقوله في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧] وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣] وذكر تعالى في الذاريات أن نبيه إبراهيم قال لهم أيضاً قوم منكرون كما ذكر عن لوط هنا وذلك في قوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٥]. وقوله ﴿قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾ قيل معناه أنهم غير معروفين والنكرة ضد المعرفة وقيل: إنه رآهم في صفة شباب حسان الوجوه فخاف أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾ وقال الزمخشري في (الكشاف): منكرون أي تنكركم نفسي وتفر منكم فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله: ﴿بَلْ جَحْتَكُ بَئِذَا كَأَنَّهُمْ يَبْتَخُونَ وَيَأْتِيكَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية، ويدل على هذا الوجه أنه بين في هود أن سبب إنكار إبراهيم لهم عدم أكلهم من لحم العجل الذي قدمه إليهم وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ تَكَرَّهَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠]؛ لأن من استضاف وامتنع من الأكل خيف منه الشر، وقوله تعالى في هذه الآيات: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴿٦٩﴾﴾ قرأه حمزة والكسائي بإسكان النون بعد الميم المضمومة مخففاً اسم فاعل أنجى على وزن أفعل، وقرأه غيرهما من القراء بفتح النون وتشديد الجيم اسم فاعل نجى على وزن فعل بالتضعيف والإنجاء والتنجية معناهما واحد، وقوله: ﴿قَدَرْنَا مِنْهَا لَكِنَ الْفَرِيقَ ﴿٦٨﴾﴾ قرأه أبو بكر عن عاصم بتخفيف الدال وقرأه غيره بتشديدها وهما لغتان معناهما واحد، وقوله: ﴿جَاءَ آلَ لُوطٍ ﴿٦٦﴾﴾ قرأه قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية مع القصر والمد، وقرأه ورش أيضاً بتحقيق الأولى وإبدال الثانية ألفاً مع القصر والمد. وعن ورش أيضاً بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع القصر والتوسط والمد وقرأه قبيل مثل قراءة ورش إلا أنه ليس له مع التسهيل إلا القصر، وقرأ الباقيون بتحقيق الهمزتين وكل على أصله من المد وما ذكر من قراءة ورش وقبيل هو التحقيق عنهما وإن قيل غيره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾. سبب استبشار قوم لوط أنهم ظنوا الملائكة شباباً من بني آدم فحدثتهم أنفسهم بأن يفعلوا بهم فاحشة اللواط كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيقِي فَلَا تَضْحَكُونِ ﴿٦٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧]، وقوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَقِيلَ كَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ الْكَيْفَاتِ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّينَ ﴿٧٥﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة

والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذي أنزل بقوم لوط لما عصوه وكذبوا رسوله، ويبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الذاريات] وقوله في الذاريات: ﴿وَرَكَّا فِيمَا آيَةٌ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [٧٥]، وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٨] [الشعراء] كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء، وقوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أصل التوسم تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت مبسمه فيه، أي علامته التي تدل عليه، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في النبي ﷺ:

إني توسمته فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ثابت النظر
وقال الآخر:

توسمت لما رأيت مهابة عليه وقلت المرء من آل هاشم
هذا أصل التوسم وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد، فغن قتادة: للمتوسمين أي المعتبرين وعن مجاهد: للمتوسمين أي المتفرسين، وعن ابن عباس، والضحاك: للمتوسمين أي الناظرين وعن مالك عن بعض أهل المدينة: للمتوسمين أي للمتأملين. ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفكير والتأمل معناها واحد، وكذلك قول ابن زيد ومقاتل: للمتوسمين؛ أي للمتفكرين وقول أبي عبيدة: للمتوسمين أي للمتبرسين، فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل، وإطلاق التوسم على التأمل والنظر والاعتبار مشهور في كلام العرب، ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى لا للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

أي المتأمل في ذلك الحسن، وقول طريف بن تميم العنبري:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

أي ينظر ويتأمل، وقال صاحب (الدر المنثور): وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين. وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: هم المتفرسون.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [٧٥] قال: هم المتفرسون. وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم

قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْلَمُ﴾ (٧٥) قال: «للمتفرسين» وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله» وأخرج ابن جرير عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله» وأخرج الحكيمة الترمذي والبخاري وابن السني وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم».

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَأْتِيَهُم مَّغِيرَةٌ مُّسْتَبْتَةٌ﴾ (٧٦). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وأثار تدمير الله لها بسبيل مقيم، أي بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدون في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدرج يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعلهم لئلا ينزل الله بكم مثل ما أنزل بهم وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَأَن تَكُونَ لَكُم مَّغِيرَةٌ مُّسْتَبْتَةٌ﴾ (٧٧) ﴿وَأَن تَكُونَ لَكُم مَّغِيرَةٌ مُّسْتَبْتَةٌ﴾ (٧٨) [الصفات] وقوله: ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْكُلَهَا﴾ (٧٩) [محمد] وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة: ﴿وَأَن تَأْتِيَهُم مَّغِيرَةٌ مُّسْتَبْتَةٌ﴾ (٨٠) إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَكُونَ لَكُم مَّغِيرَةٌ مُّسْتَبْتَةٌ﴾ (٨١) فأنقمنا منهم.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين، وأنه - جل وعلا - انتقم منهم بسبب ظلمهم، وأوضح هذه القصة في مواضع أخر كقوله في الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنتَفُونَ ﴿٨٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٨٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٨٦) [الشعراء] فبين في هذه الآية أن ظلمهم هو تكذيبهم رسولهم وتطفيفهم في الكيل وبخسهم الناس أشياءهم وأن انتقامه منهم بعذاب يوم الظلة، وبين أنه عذاب يوم عظيم، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمتها الله عليهم ناراً فأحرقتهم، والعلم عند الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير «ليكة»... في (الشعراء وص) بلام مفتوحة أول الكلمة وتاء مفتوحة آخرها من غير همز ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمة والكسائي «الأيكة» بالتعريف والهمز وكسر التاء، وقرأ كذلك جميع القراء في (ق والحجر) قال أبو عبيدة: ليكة، والأيكة اسم مدينتهم كمكة وبكة، والأيكة في لغة العرب: الغيضة وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك، وإنما سموا أصحاب الأيكة؛ لأنهم كانوا أصحاب غياض ورياض، ويروى أن شجرهم كان دوماً وهو المقل، ومن إطلاق الأيكة على الغيضة قول النابغة:

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لتائه بالاثمد

وقال الجوهري في (صحاحه): ومن قرأ أصحاب الأيكة فهي الغيضة، ومن قرأ ليكة فهي اسم القرية ويقال هما مثل بكة ومكة، وقال بعض العلماء: الأيكة: الشجرة، والأيك: هو الشجر الملتف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠).

الحجر: منازل ثمود بين الحجاز والشام عند وادي القرى، فمعنى الآية الكريمة: كذبت ثمود المرسلين، وقد بين تعالى تكذيب ثمود لنبيه صالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في مواضع أخر، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٤) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿الشعراء: ١٤١، ١٤٢﴾. وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَفَوْهَا﴾ [الشعر: ١٤] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِالنَّذِيرِ﴾ (٧٢) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَجِيعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَّالٍ وَسُعْرٍ ﴿[القمر: ٧٤] وقوله: ﴿فَعَفَوْا النَّاقَةَ وَعَمَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا فَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٦) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات، وإنما قال إنهم كذبوا المرسلين مع أن الذي كذبوه هو صالح وحده؛ لأن دعوة جميع الرسل واحدة؛ وهي تحقيق معنى «لا إله إلا الله» كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية؛ قال معممًا لجميعهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾... الآية [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال: ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ (٥٥) [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات، وقال في تخصيص الرسل بأسمائهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات، فإذا حققت أن دعوة الرسل واحدة عرفت أن من كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم؛ ولذا صرح تعالى بأن من كفر ببعضهم فهو كافر حقاً. قال: ﴿وَيَقُولُونَ ثَوَمِينَ نَرَاهُمْ فَنَنْكُرُهُمْ فَمَا أَصْبَرُ الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَتَتَذَكَّرُ بِهِ نَبَأَ ذَلِكَ سِيبِلًا﴾ (١٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وبين أنه لا تصح التفرقة بينهم بقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ووعد الأجر على عدم التفرقة بينهم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾... الآية [النساء: ١٥٢]. وقد بينا هذه المسألة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُمْ مَآبِتَانِ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١). ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أتى أصحاب الحجر - وهم ثمود - آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض - بالضم - وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتاً صاداً.

ولم يبين - جل وعلا - هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمّة، كخروجها عشراً، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها،

وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَمَّا شَرِبُوا وَلَكِنْ شَرِبُوا يَوْمَ مَقْلُوبٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال: ﴿وَيَنْهَمُ أَنْ الْمَاءَ قَسَمَةً بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مَحْضَرٌ﴾ [القمر].

فإذا علمت ذلك فاعلم أن مما يبين قوله هنا: ﴿وَالْيَتْلُوهُمَا أَيَّتَنَّا﴾ قوله: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَيِّ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [١٥٦] قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّمَّا شَرِبَ وَلَكِنْ شَرِبَ يَوْمَ مَقْلُوبٍ [١٥٥] [الشعراء]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةٌ اَللّٰهُ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيْ اَرْضِ اَللّٰهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالْيَتْلُوهُمَا نُمُوْدُ النَّاقَةِ مُبِيْرَةٌ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوْا النَّاقَةَ فَيَنْذَرُ لَهُمْ فَاْرَقَبْتَهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَيَنْقُورُ هٰذِهِ نَاقَةُ اَللّٰهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيْ اَرْضِ اَللّٰهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَاْخُذْكُمُ عَذَابٌ قَرِيْبٌ﴾ [هود] إلى غير ذلك من الآيات.

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَعَقَرُوْا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوْا يَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوْا فِيْ دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُوْدُ بِطُغْيَانِهَا﴾ [١١] إِذِ اتَّبَعَتْ أَشْقٰنَهَا [١٢] فَقَالَ لَهُمْ رَسُوْلُ اَللّٰهِ نَاقَةُ اَللّٰهِ وَسُقْيٰهَا [١٣] فَكَذَّبُوْهُ فَعَقَرُوْهَا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّٰهَا [١٤] [الشعراء]، وقوله: ﴿فَنَادَوْا صَالِحُنَّ فَعَاظُنَا فَعَقَرْنَا﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَالْيَتْلُوهُمَا نُمُوْدُ النَّاقَةِ مُبِيْرَةٌ فَظَلَمُوْا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿قَالُوْا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِيْنَ﴾ [١٥٦] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَيِّ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ [١٥٥] [الشعراء]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَكَاٰنُوا يَتَحَنَّنُ مِنْ اَلْجِبَالِ يُّوْتَا ءَامِيْنَ﴾ [٨٢]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح كانوا آمنين في أوطانهم، وكانوا ينتحون من الجبال بيوتاً. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِيْ مَا هٰنَتْ ءَامِيْنَ﴾ [٨٦] فِيْ جَنَّتٍ وَعُيُوْنٍ [٨٧] وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلَمَهَا هٰضِمٌ [٨٨] وَتَنْحَنُّونَ مِنَ اَلْجِبَالِ يُّوْتَا فَرِهِيْنَ [٨٩] [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوْا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِيْ الْاَرْضِ تَنْحَنُّونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوْرًا وَتَنْحَنُّونَ اَلْجِبَالِ يُّوْتَا فَاذْكُرُوْا ءَالَءَ اَللّٰهِ...﴾ الآية [الأعراف: ٧٤]، وقوله: ﴿وَتَمُوْدُ الَّذِيْنَ جَاؤُوْا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [٩١] [الفجر]، أي قطعوا الصخر بنحته بيوتاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق؛ أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم.

فدللت الآية على أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُوْلًا ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا قَوْلٌ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنَ النَّارِ﴾ [ص]، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطُوْلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [ال

عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ٢١] ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، وقوله: ﴿أَفَصَبْتُمْ أَنَّ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَيْنًا وَأَنَّكُمْ إِلَتَانَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [١٥] ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَبِحُجْرَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿أَجَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٢٢] ﴿أَلَمْ يَكُ نُفُفًا مِّنْ مَّوِيٍّ يُنْفِثُ﴾ [٢٣] ﴿[القيامة] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّكَ السَّاعَةُ لَآئِيَةً﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن» ولام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر، وذلك يدل على أمرين: أحدهما: إتيان الساعة لا محالة. وثانيهما: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني.

وأوضح هذين الأمرين في آيات أخرى، فبين أن الساعة آتية لا محالة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] ﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَهْدِلُ كُلُّ أَرْضٍ أَرْضًا وَأَنْضَعَتُ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلًا﴾ [الحج: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّ مَا نَذَرِ مَا السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعَثُهُ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وبين - جل وعلا - إنكار الكفار لها في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُعْمَلُوا﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ [٢٤] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [٢٥] [الدخان] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أمر الله - جل وعلا - نبيه - عليه الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصَّفْحَ الْجَمِيلَ؛ أي بالحلم والإغضاء. وقال علي وابن عباس: الصَّفْحَ الْجَمِيلَ: الرضا بغير عتاب. وأمره ﷺ يشمل حكمة الأمة؛ لأنه قدوتهم والمشرع لهم. وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع أخرى، كقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا اللَّفْعَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصاص: ٥٥]، وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: هذا الأمر بالصفح منسوخ بآيات السيف. وقيل: هو غير منسوخ، والمراد به حسن المخالفة، وهي المعاملة بحسن الخلق.

قال الجوهرى في (صاحبه): والخلق: السجية، يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه الخلاق العليم، والخلص العليم كلاهما صيغة مبالغة. والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقاً إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس]، وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِغُلَامٍ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق]، وقوله تعالى مجيباً للكفار لما أنكروا البعث وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق]، مبيناً أن العالم بما تمزق في الأرض من أجسادهم قادر على إحيائهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ [ق] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أتى نبيه ﷺ سبعا من المثاني والقرآن العظيم، ولم يبين هنا المراد بذلك. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة إن كان لها بيان في كتاب الله غير واف بالمقصود، أننا ننتم ذلك البيان من السنة، فنبين الكتاب بالسنة من حيث إنها بيان للقرآن المبين باسم الفاعل، فإذا علمت ذلك فاعلم أن النبي ﷺ بين في الحديث الصحيح: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة: هو فاتحة الكتاب، ففاتحة الكتاب مبينة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وإنما بينت ذلك بإيضاح النبي ﷺ لذلك في الحديث الصحيح.

قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آت حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال: «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، حدثنا

آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

فهذا نص صحيح من النبي ﷺ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال أنها السبع الطوال غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه ﷺ، ومما يدل على عدم صحة ذلك القول: أن آية الحجر هذه مكية، وأن السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة. والعلم عند الله تعالى.

وقيل لها «مثنائي»؛ لأنها تنثنى قراءتها في الصلاة. وقيل لها «سبع»؛ لأنها سبع آيات. وقيل لها «القرآن العظيم»؛ لأنها هي أعظم سورة، كما ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفاً.

وإنما عطف القرآن العظيم على «السبع المثاني» مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة، لما علم في اللغة العربية: من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ سُبُوحًا ۝ ٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ ٣ وَالَّذِي أَرْخَى أَلْمَسَ ۝ ٤ [الأعلى]، وقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.

لما بين تعالى أنه أتى النبي ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاء أن يمد عينيه إلى متاع الدنيا الذي منع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه - جل وعلا - النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولا سيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في (طه): ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ حَبْرًا وَابْقَى ۝ ١٣٦﴾ وأمر أهلَك بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا غَنُّ رِزْقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ۝ ١٣٧﴾ [طه] والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله نهى نبيه ﷺ عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام، ويدل على ذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم، كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿لَكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ٣﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَنتُمْ نَفْسُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ١٠﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَلَزِيدَكَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنًا وَكَفَرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات. والمعنى: قد بلغت ولست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا

وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في الشعراء: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وكقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ لَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وفهم من دليل خطاب الآية الكريمة - أعني مفهوم مخالفتها - أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدة والغلظة. وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا الْكُفَّارُ وَالْمُتَّقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿أَشِدَّةً عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿أَذَلُّوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوْا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] كما قدمناه في المائدة.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْزَأْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ﴾. في المراد بالمفتسمين أقوال للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن، إلا أن في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال:

الأول: أن المراد بالمفتسمين: الذين يحلفون على تكذيب الرسل ومخالفتهم، وعلى هذا القول فالافتسام افتعال من القسم بمعنى اليمين، وهو بمعنى التقاسم. ومن الآيات التي ترشد لهذا الوجه قوله تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]. أي نقتلهم ليلاً، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نَكُودُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿أَهْتَدُوا لِلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه؛ فسموا مفتسمين.

القول الثاني: أن المراد بالمفتسمين: اليهود والنصارى، وإنما وصفوا بأنهم مفتسمون لأنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ بَعْضُ الْكُتُبِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

القول الثالث: أن المراد بالمفتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ. وهذا القول تدل عليه الآيات الدالة على أنهم قالوا في القرآن تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٢﴾ [الحاقة]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٩٣﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقْتُ﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة في الآية الكريمة تؤيد هذا القول الثالث ولا تنافي الثاني بخلاف الأول؛ لأن قوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أظهر في القول الثالث، لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: شعر، سحر، كهانة... إلخ.

وعلى أنهم أهل الكتاب - فالمراد بالقرآن كتبهم التي جزؤوها فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، أو القرآن لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه وكفروا بغيره.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ جمع عضة، وهي العضو من الشيء، أي جعلوه أعضاء متفرقة، واللام المحذوفة أصلها واو. قال بعض العلماء: اللام المحذوفة أصلها هاء، وعليه فأصل العضة عضبه، والعضه: السحر؛ فعلى هذا القول - فالمعنى جعلوا القرآن سحراً؛ كقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]؛ وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

والعرب تسمي الساحر عاضهاً، والساحرة عاضهة، والسحر عضهاً. ويقال: إن ذلك لغة قريش؛ ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من النافثا ت في عقد العاضه المعضه
قوله تعالى: ﴿فَاصْغُرْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. أي فاجهر به وأظهره؛ من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها.

وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه ﷺ بتبليغ ما أمر به علناً في غير خفاء ولا مواربة. وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [المائدة: ٦٧].

وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلغ على أكمل وجه في مواضع آخر؛ كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُمْ فَقَدْ أَنْتَ بِلَاغٍ﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء: أحدهما: أن معنى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك؛ فالله حافظك منهم. والآية على هذا التأويل معناها ﴿فَاصْغُرْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي بلغ رسالة ربك، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي لا تبال بهم ولا تخشعهم، وهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ثانيهما: وهو الظاهر في معنى الآية أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَلَا تُلْجِ الْأَكْفَرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَهِزِينَ﴾ [٩٥]. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه كفى نبيه ﷺ المستهزئين الذين كانوا يستهزئون وهم قوم من قريش. وذكر في مواضع أخر أن كفاه غيرهم؛ كقوله في أهل الكتاب: ﴿سَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية [البقرة: ١٣٧]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمستهزئون المذكورون: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب. والآفات التي كانت سبب هلاكهم مشهورة في التاريخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٩٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم أن نبيه ﷺ يضيق صدره بما يقول الكفار فيه من الطعن والتكذيب، والطعن في القرآن. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا بِهِمْ أَن لَوْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا شيئاً من ذلك في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٩٨]. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وثانيهما: قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النور]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [ق: ٣٩]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأصل التسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء. ومعناه في عرف الشرع: تنزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. ومعنى سبّ: نزه ربك - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظه ﴿بِحَمْدِ

رَبِّكَ ﴿ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله - جل وعلا - . فتستغرق الآية الكريمة للثناء بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين : أحدهما : التحلي عن الرذائل ، والتزهد عما لا يليق ، وهذا معنى التسييح ، والثاني : التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد ، فتم الثناء بكل كمال ، ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» ، وكقوله في الثاني وهو السجود : ﴿لَا لَا تُطِغُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ﴿١٦﴾ [الغلق] ، وقوله : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ [الإنسان] ، وقوله : ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت : ٣٧] ، ويكثر في القرآن العظيم إطلاق التسييح على الصلاة .

تنبيه : اعلم أن ترتيبه - جل وعلا - الأمر بالتسييح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء ، دليل على أن الصلاة والتسييح سبب لزوال ذلك المكروه ، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة ، وقال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ... الآية [البقرة : ٤٥] . ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث نعيم بن همار رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها .

قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ . أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ بأن يعبد ربه ، أي يتقرب له على وجه الذل والخضوع والمحبة بما أمر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع ، وجل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله ، مع حظ النفي منها . وقد بين القرآن أن هذا لا ينفع إلا مع تحقيق الجزء الثاني من كلمة التوحيد ، الذي هو حظ النفي منها . وهو خلع جميع المعبودات سوى الله تعالى في جميع أنواع العبادات ، قال تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقال ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء : ٣٦] ، وقال : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [يوسف] والآيات في مثل ذلك كثيرة جداً .

قوله تعالى : ﴿حَقَّ يَا أَيُّكَ الْيَقِينُ﴾ . قالت جماعة من أهل العلم ، منهم سالم بن عبد الله بن عمر ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم : اليقين : الموت ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْيَقِينِ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ تَكُ لَكُمْ نَفْسٌ أَلَيْسَ كُنْتُمْ مَعَ الْيَقِينِ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَقَّ أَلَيْسَ الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ [المدثر] . وهو الموت . ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء (امراة من الأنصار) أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب !

فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقالت: بأبي وأمي يا رسول الله! فمن يكرمه الله؟! فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير». الحديث. وهذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت. وقول من قال: إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكرناه؛ لأن الإنسان إذا جاءه الموت ظهرت له الحقيقة يقيناً، ولقد أجاد التهامي في قوله:

والعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

وقال صاحب (الدر المنثور): أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه، والدلمي عن أبي مسلم الخولاني قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩».

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩».

وأخرج ابن مردويه والدلمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أوحى إلي أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩».

تنبيهان:

الأول: هذه الآية الكريمة تدل على أن الإنسان ما دام حياً وله عقل ثابت يميز به، فالعبادة واجبة عليه بحسب طاقته، فإن لم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب. وهكذا قال تعالى عن نبيه عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وقال البخاري في صحيحه: «باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب» وقال عطاء: إن لم يقدر أن يتحول إلى القبلة صلى حيث كان وجهه، حدثنا عبدان عن عبد الله، عن إبراهيم بن طهمان قال: حدثني الحسين المكتب، عن بريدة، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، اهـ ونحو هذا معلوم؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم...» الحديث.

التنبيه الثاني: اعلم أن ما يفسر به هذه الآية الكريمة بعض الزنادقة الكفرة المدعين للتصوف، من أن معنى اليقين المعرفة بالله - جل وعلا - وأن الآية تدل على أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدرجة المعبر عنها باليقين - أنه تسقط عنه العبادات والتكاليف؛ لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة.

إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة، وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهذا النوع لا يسمى في الاصطلاح تأويلاً، بل يسمى لعباً كما قدمنا في سورة آل عمران، ومعلوم أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم وأصحابهم هم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع ذلك أكثر الناس عبادة لله - جل وعلا -، وأشدّهم خوفاً منه وطمعاً في رحمته، وقد قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا إِلَهُكَ﴾ أي قرب وقت إتيان القيامة. وعبر بصيغة الماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع، واقترب القيامة المشار إليه هنا بيّنه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشْنَقُ الْقَمَرِ﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةُ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم] إلى غير ذلك من الآيات.

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْجَنَّةُ وَالْجَهَنَّمَ وَالشَّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٦٦]، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الزمر: ٦٩ - ٧١].

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله - جل وعلا -: ﴿وَسْتَغْلِبُوكَ بِالدَّابِّ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٦]، ﴿سْتَغْلِبُوكَ بِالدَّابِّ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ آخَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُونَ﴾ [هود: ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٥٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٠٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والضمير في قوله: فلا تستعجلوه في تفسيره وجهان:

أحدهما: أنه العذاب الموعد به يوم القيامة، المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾. وثانيهما: أنه يعود إلى الله؛ أي لا تطلبوا من الله أن يعجل لكم العذاب، قال معناه ابن كثير.

وقال القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس: لما نزلت ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَاشْأَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر] قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت! فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا فانتظروا فلم يروا شيئاً، فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت ﴿لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة؛ فامتدت الأيام فقالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، فقال النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها، اه محل الغرض من كلام القرطبي، وهو يدل على أن المراد بقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي لا تظنوه واقعاً الآن عن عجل، بل هو متأخر إلى وقته المحدد له عند الله تعالى.

وقول الضحاك ومن وافقه: إن معنى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾؛ أي فرائضه وحدوده - قول مردود ولا وجه له، وقد رده الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره قائلاً: إنه لم يبلغنا أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تفرض عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءكم فرائض الله فلا تستعجلوها، أما مستعجلو العذاب من المشركين فقد كانوا كثيراً، اه.

والظاهر المتبادر من الآية الكريمة - أنها تهديد للكفار باقتراب العذاب يوم القيامة مع نهيمهم عن استعجاله.

قال ابن جرير في تفسيره: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك؛ وذلك أنه عقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فدل بذلك على تقريره المشركين به ووعيده لهم، اه.

قوله تعالى: ﴿يُرِزُّ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة: أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [١٥] يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ [غافر].

ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي إتيانه بعد قوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ﴾ بقوله: ﴿أَن أُنْذِرَ﴾؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. وكذلك إتيانه بعد قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضاً. وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو «ينزل» بضم الياء وإسكان النون وتخفيف الزاي، والباقون بالضم والتشديد، ولفظة «من» في الآية تبعيضية، أو لبيان الجنس.

وقوله: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]؛ أي ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلاً لذلك؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، وقوله: ﴿يَسْمَعُ أَسْرَارًا يَوْمَ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَن يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠].

وهذه الآيات وأمثالها رد على الكفار في قولهم: ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿أَن أُنْذِرَ أُمَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. الأظهر في «أن» من قوله: ﴿أَن أُنْذِرَ﴾ أنها هي المفسرة؛ لأن إنزال الملائكة بالروح - أي بالوحي - فيه معنى القول دون حروفه فيكون المعنى: أن الوحي الذي أنزل به الملائكة مفسر بإنذار الناس «بلا إله إلا الله» وأمرهم بتقواه.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَمَثَلُ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١٨] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا معنى الإنذار، ومعنى التقوى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو خالق السماوات والأرض، وأن من يخلق هذه المخلوقات العظيمة يتنزه ويتعظم أن يعبد معه ما لا يخلق شيئاً، ولا يملك لنفسه شيئاً. فالآية تدل على أن من يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود، لا يصح أن يعبد معه

من لا يقدر على شيء؛ ولهذا أتبع قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بقوله: ﴿تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فدل على أن المعبود هو الخالق دون غيره، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٧] وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقِيرًا﴾ [٢] وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [٣] [الفرقان]، وقوله - جل وعلا - : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٤] [الفقان]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَنْزِفُ مِنَ عِلْمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٥] [الاحقاف]، وقوله - جل وعلا - : ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [٦] [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَعِصُوا لَهُ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [٧] أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ... الآية [الطور: ٣٥]، [٣٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [٨] أَمْوَتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق، ويبرزهم من العدم إلى الوجود، أما غيره فهو مخلوق مربوب، محتاج إلى من يخلقه، ويدبر شؤونه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الإنسان من نطفة، وهي مني الرجل ومني المرأة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي أخلط من ماء الرجل وماء المرأة.

وقال صاحب (الدر المنثور) بعد ذكر بعض الروايات في تفسير الأمشاج بالأخلط من ماء الرجل وماء المرأة، وأخرج الطستى عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال: أخبرني عن قوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا ذؤيب وهو يقول:

كَأَنَّ الرِّيشَ وَالْفُوقِينَ مِنْهُ خِلَالَ النِّصْلِ خَالِطُهُ مَشِيجٌ

ونسب في (اللسان) هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي، وأنشده هكذا:

كَأَنَّ النِّصْلَ وَالْفُوقِينَ مِنْهَا خِلَالَ الرِّيشِ سَيْطٌ بِهِ مَشِيجٌ

أُخْرِجَ حَيًّا ﴿١١﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٢﴾ [مريم] إلى غير ذلك من الآيات، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح لهذا المبحث في «سورة الطارق».

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٣﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الأنعام لبني آدم يتفنعون بها تفضلاً منه عليهم، وقد قدمنا في «آل عمران» أن القرآن بيّن أن الأنعام هي الأزواج الثمانية التي هي الذكر والأنثى من الإبل، والبقر، والضأن، والماعز، والمراد بالدفء على أظهر القولين: أنه اسم لما يدفأ به، كالملء اسم لما يملأ به، وهو الدفء من اللباس المصنوع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ ﴿١٤﴾ وقيل: الدفء نسلها، والأول أظهر، والنسل داخل في قوله ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ أي من نسلها ودرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومنافع الأنعام التي بيّن الله - جل وعلا - امتنانه بها على خلقه في هذه الآية الكريمة، بينها لهم أيضاً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ولَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُودْرِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿١٦﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِهِ اللَّهُ تُشْكِرُونَ ﴿١٧﴾ [غافر]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿١٨﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ [يسر] وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ [الزمر: ٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والأظهر في إعراب «والأنعام» أن عامله وهو «خلق» اشتغل عنه بالضمير فنصب بفعل مقدر وجوباً يفسره «خلق» المذكور، على حد قول مالك في الخلاصة:

فالسابق أنصبه بفعل أضمرنا حتما موافق لما قد أظهرنا

وإنما كان النصب هنا أرجح من الرفع؛ لأنه معطوف على معمول فعل، وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، فيكون عطف الجملة الفعلية على الجملة الفعلية أولى من عطف الاسمية على الفعلية لو رفع الاسم السابق؛ وإلى هذا أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله عاطفاً على ما يختار فيه النصب:

وبعد عاطف بلا فصل على معمول فعل مستقر أولاً

وقال بعض العلماء: إن قوله: «والأنعام» معطوف على «الإنسان» من قوله: «خلق الإنسان» والأول أظهر كما ترى.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: «لكم فيها دفء» أن قوله «دفء» مبتدأ خبره «لكم فيها» وسوغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على الجار والمجرور قبلها وهو الخبر كما هو معروف؛ خلافاً لمن زعم أن «دفء» فاعل الجار والمجرور الذي هو: «لكم». وفي الآية أوجه أخرى ذكرها بعض العلماء تركنا ذكرها لعدم اتجاهها عندنا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] يعني أن اقتناء هذه الأنعام وملكيتهما فيه لمالكها عند الناس جمال؛ أي عظمة وزفعة، وسعادة في الدنيا لمقتنيها، وكذلك قال في الخيل والبغال والحمير «لتركبوها وزينة» فعبر في الأنعام بالجمال، وفي غيرها بالزينة، والجمال: مصدر جمل فهو جميل وهي جميلة، ويقال أيضاً: هي جملاء؛ وأنشد لذلك الكسائي قول الشاعر:

فهي جملاء كبدر طالع بذات الخلق جميعاً بالجمال

والزينة: ما يتزين به. وكانت العرب تفتخر بالخيول والإبل ونحو ذلك، كالسلاح، ولا تفتخر بالبقر والغنم، ويدل على ذلك قول العباس بن مرداس يفتخر بمأثر قبيلته بني سليم:

واذكر بلاء سليم في مواطنها ففي سليم لأهل الفخر مفتخر

قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر

لا يغرسون فسيل النخل وسطهم ولا تخاور في مشتاهم البقر

إلا سوابح كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والعكر

والسوابح: الخيل، والمقربة: المهيأة المعدة قريباً، والأخطار: جمع خطر - بفتح السكون، أو كسر فسكون - وهو عدد كثير من الإبل على اختلاف في قدره. والعكر - بفتحيتين -: جمع عكرة، وهي القطيع الضخم من الإبل أيضاً على اختلاف في تحديد قدره. وقول الآخر:

لعمري لقوم قد ترى أمس فيهم مرابط للأمهار والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شائهم النمر

وقوله: «العكر الدثر» أي المال الكثير من الإبل، وبدأ بقوله: ﴿حِينَ تَرِيَهُنَّ﴾ لأنها وقت الرواح أملاً ضروعاً وبطوناً منها وقت سراحها للمرعى.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أنه مفعول لأجله، معطوف على ما قبله؛ أي لأجل الركوب والزينة.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه

يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية، كالطائرات، والقطارات، والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارة النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الصحيح. قال مسلم بن الحجاج ﷺ في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي سعيد، عن عطاء بن ميناء، عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»، اهـ.

ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح، قوله ﷺ: «ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها» فإنه قسم من النبي ﷺ أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها. وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة.

وفي هذا الحديث معجزة عظيمة، تدل على صحة نبوته ﷺ وإن كانت معجزاته - صلوات الله عليه وسلامه - أكثر من أن تحصر.

وهذه الدلالة التي ذكرنا تسمى دلالة الاقتران، وقد ضعفها أكثر أهل الأصول، كما أشار له صاحب (مراقي السعود)، بقوله:

أما قران اللفظ في المشهور فلا يساوي في سوى المذكور

وصحح الاحتجاج بها بعض العلماء، ومقصودنا من الاستدلال بها هنا أن ذكر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معرض الامتنان بالمركوبات لا يقل عن قرينة دالة على أن الآية تشير إلى أن من المراد بها بعض المركوبات، كما قد ظهرت صحة ذلك بالبيان.

وقد ذكر في موضع آخر أنه يخلق ما لا يعلمه خلقه غير مقترن بالامتنان بالمركوبات، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾. اعلم أولاً - أن قصد السبيل: هو الطريق المستقيم القاصد، الذي لا اعوجاج فيه، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

وصحا القلب عن سلمى وأقصر باطله	وعرى أفراس الصبا ورواحله
وأقصر عما تعلمين وسددت	على سوى قصد السبيل معادله
وقول امرئ القيس:	

ومن الطريقة جائر وهدى	قصد السبيل ومنه ذو دخل
-----------------------	------------------------

فإذا علمت ذلك فاعلم أن في معنى الآية الكريمة وجهين معروفين للعلماء، وكل منهما له مصداق في كتاب الله، إلا أن أحدهما أظهر عندي من الآخر.

الأول منهما: أن معنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أن طريق الحق التي هي قصد السبيل على الله، أي موصلة إليه، ليست جائرة، ولا جائزة عن الوصول إليه وإلى مرضاته ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛ أي ومن الطريق جائر لا يصل إلى الله، بل هو زائغ وحائد عن الوصول إليه. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١٦١] [يس].

ويؤيد هذا التفسير قوله بعده: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ وهذا الوجه أظهر عندي، واستظهره ابن كثير وغيره، وهو قول مجاهد.

والوجه الثاني: أن معنى الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي عليه - جل وعلا - أن يبين لكم طريق الحق على السنة رسله.

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْمُبَالِغَةُ﴾ [التغابن: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ غير واضح؛ لأن المعنى: ومن الطريق جائر عن الحق، وهو الذي نهاكم الله عن سلوكه، والجائر: المائل عن طريق الحق. والوجهان المذكوران في هذه الآية جاريان في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [١٦٢]... الآية [الليل].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء هداية جميع خلقه لهداهم أجمعين، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَاطِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمْعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا هذا في سورة يونس.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾.

تقدم الكلام على ما يوضح معنى هذه الآية الكريمة في سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٠] يُبْتِ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١١]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعى - من أعظم نعمه على بني آدم، ومن أوضح آياته الدالة على أنه

هو المستحق لأن يعبد وحده، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [٥٤] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [٥٥]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٥٦] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [٥٧] ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [٥٨] ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [٥٩]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [٦٠] ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [٦١] ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: الآية]، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِمَنْ هُمْ يَعْبُدُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [٦٣] ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [٦٤] ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبا: ٦٥] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

تنبيهان:

الأول: اعلم أن النظر في هذه الآيات واجب، لما تقرر في الأصول «أن صيغة الأمر تقتضي الوجوب إلا للدليل يصرفها عن الوجوب»، والله - جل وعلا - أمر الإنسان أن ينظر إلى طعامه الذي به حياته، ويفكر في الماء الذي هو سبب إنبات حبه - من أنزله؟! ثم بعد إنزال الماء وري الأرض من يقدر على شق الأرض من النبات وإخراجه منها؟! ثم من يقدر على إخراج الحب من ذلك النبات؟! ثم من يقدر على تنميته حتى يصير صالحاً للأكل؟! ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [٢٤] ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [٢٥] ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ [٢٦] ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [٢٧] ﴿وَعَبًّا وَقَفْنَاهَا﴾ [٢٨] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [٢٩] ﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ [٣٠] ﴿وَفَيْكَةً وَأَبَا﴾ [٣١] ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [٣٢] ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ [٣٣] [عبس].

وكذلك يجب على الإنسان النظر في الشيء الذي خلق منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] وظاهر القرآن أن النظر في ذلك واجب، ولا دليل يصرف عن ذلك.

التنبيه الثاني: اعلم أنه - جل وعلا - أشار في هذه الآيات من أول سورة «النحل» إلى براهين البعث الثلاثة التي قدمنا أن القرآن العظيم يكثر فيه الاستدلال بها على البعث:

الأول: خلق السماوات والأرض المذكور في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]. والاستدلال بذلك على البعث كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْشَأْنَاهُ بَنَاهَا﴾ [٧] ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ [٨] إلى قوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [٣٣] [النازعات]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَحْزَنُهُمْ يَفْقَدِ عَلَيَّ أَنْ يَخْبِيَهُ الْمَوْتُ بَلَى﴾ [الأحاف: ٢٣]، وقوله: ﴿لَخَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقسوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

البرهان الثاني: خلق الإنسان أولاً المذكور في قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ﴾؛ لأن من اخترع قادر على الإعادة ثانياً، وهذا يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث، كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها المذكور هنا في قوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾، فإنه يكثر في القرآن الاستدلال به على البعث أيضاً، كقوله: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، أي كذلك الإحياء خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا طَفَالًا سَفَقْنَاهُ لِيلًا مِمَّيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُحْيِي الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِمِجٌ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَالَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

فهذه البراهين الثلاثة يكثر جداً الاستدلال بها على البعث في كتاب الله كما رأيت وتقدم.

وهناك برهان رابع يكثر الاستدلال به على البعث أيضاً ولا ذكر له في هذه الآيات، وهو إحياء الله بعض الموتى في دار الدنيا، كما تقدمت الإشارة إليه في «سورة البقرة»؛ لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس: ﴿مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقد ذكر - جل وعلا - هذا البرهان في سورة البقرة، في خمسة مواضع:

الأول: قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

الثاني: قوله: ﴿فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

الثالث: قوله - جل وعلا -: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الرابع: قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَرَجَعْنَاكَ إِلَى الْنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ نُدْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الخامس: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ يُأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون مواشيك السائمة في ذلك الشجر الذي هو المرعى، والعرب تطلق اسم الشجر على ما تنبتة الأرض من المرعى، ومنه قول النمر بن تولب العكلي:

إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضمراً فيها صعر
نطعمها اللحم إذا عز الشجر

والعرب تقول: سامت المواشي؛ إذا رعت في المرعى الذي ينبتة الله بالمطر، وأسامها صاحبها؛ أي رعاها فيه، ومنه قول الشاعر:

مثل ابن بزعة أو كآخر مثله أولى لك ابن مسيمة الأجمال
يعني يا ابن راعية الجمال التي تسيماها في المرعى.

وقوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ قرأه شعبه عن عاصم «نبت» بالنون، والباقون بالياء التحتية.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده.

والخمس المذكورة هي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم.

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وإغشاؤه الليل والنهار: هو تسخيرهما، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقوله: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [الشمس: ١٧]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [القمر: ١٨]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وفي هذه الآية الكريمة ثلاث قراءات سبعيات في الأسماء الأربعة الأخيرة التي هي الشمس، والقمر، والنجوم، ومسخرات؛ فقرأ بنصبها كلها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية شعبة. وقرأ برفع الأسماء الأربعة: ابن عامر، على أن «والشمس» مبتدأ وما بعده معطوف عليه و«مسخرات» خبر المبتدأ،

وقرأ حفص عن عاصم بنصب «والشمس والقمر» عطفاً على «الليل والنهار» ورفع «والنجوم مسخرات» على أنه مبتدأ وخبر، وأظهر أوجه الإعراب في قوله: «مسخرات» على قراءة النصب أنها حال مؤكدة لعاملها، والتسخير في اللغة: التذليل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣). قوله: «وما» في محل نصب عطفاً على قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي وسخر لكم ما ذرأ لكم في الأرض، أي ما خلق لكم فيها في حال كونه مختلفاً ألوانه.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة امتنانه على خلقه بما سخر لهم مما خلق لهم في الأرض، منبهاً على أن خلقه لما خلق لهم في الأرض مع ما فيه من النعم العظام، فيه الدلالة الواضحة لمن يذكر ويتعظ على وحدانيته واستحقاقه لأن يعبد وحده، وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحاشية: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَصْعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ (١٤) فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَالشَّجَرُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١٥) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٦) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٧)﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دُولًا فَامْسُوا فِي مَنَازِلِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٨) [الملك].

وأشار في هذه الآية الكريمة إلى أن اختلاف ألوان ما خلق في الأرض من الناس والدواب وغيرهما من أعظم الأدلة على أنه خالق كل شيء، وأنه الرب وحده، المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح هذا في آيات أخر، كقوله في «سورة فاطر»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ الْأَسْنِينَ وَالْوَنُكُ (٢٢)﴾ [الروم: ٢٢] ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك، فيه الدلالة القاطعة على أن الله - جل وعلا - واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدره وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته - جل وعلا.

كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَعَتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يَسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَفَضْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) [الرعد] فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه - جل وعلا - عن الشركاء والأنداد.

ومن أوضح الأدلة على أن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته - جل وعلا -، أن النار مع شدة طبيعة الإحراق فيها ألقى فيها الحطب وإبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، ولا شك أن الحطب أصلب وأقسى وأقوى من جلد إبراهيم ولحمه؛ فأحرقت الحطب بحرهما، وكانت على إبراهيم برداً وسلاماً لما قال لها خالقها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فسبحان من لا يقع شيء كائنًا ما كان إلا بمشيئته - جل وعلا -، فعال لما يريد.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ أصله يتذكرون، فأدغمت التاء في الذال، والاذكار: الاعتبار والاتعاظ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه سخر البحر؛ أي ذلله لعباده حتى تمكنوا من ركوبه، والانتفاع بما فيه من الصيد والحلية، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار، للحصول على أرباح التجارات ونحو ذلك.

فتسخير البحر للركوب من أعظم آيات الله، كما بينه في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَأَيُّ لَئِمٍّ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَسْحُورِ﴾ [٨] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [٩] [يس]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرىَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجن: ١٢].

وذكر في هذه الآية أربع نعم من نعمه على خلقه بتسخير البحر لهم:

الأولى: قوله: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن؛ كقوله: ﴿أَمِلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَآةِ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢].

الثانية: قوله: ﴿وَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة أيضاً في القرآن، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [٣٣] فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيقِكُمَا نَكْذِبَانِ [٣٤] [الرحمن] واللؤلؤ والمرجان: هما الحلية التي يستخرجونها من البحر للبسها، وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ وكرر في القرآن الامتنان بشق أمواج البحر على السفن، كقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [٩] وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ [٣٥]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِيَجْرىَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِي﴾ [إبراهيم: ٣٢].

الرابعة: الابتغاء من فضله بأرباح التجارات بواسطة الحمل على السفن المذكور

في قوله هنا: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي كأرباح التجارات، وكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمة أيضاً، كقوله في «سورة البقرة»: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله في «فاطر»: ﴿وَرَزَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ لِبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، وقوله في «الجاثية»: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: فإن قيل: عموم حديث حذيفة المذكور الذي استدللتم به، وبيان القرآن أنه شامل للبس الفضة والشرب فيها، وقتلتم: إن كونه وارداً في الشرب في آنية الفضة لا يجعله خاصاً بذلك، فما الدليل في ذلك على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ فالجواب: أن النبي ﷺ سئل عما معناه: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ فأجاب بما معناه: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال البخاري في صحيحه: حدثنا مسدد، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه -: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَنْهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْأَحْسَنَ يَذْهَبِنَ الْأَسْيَافِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤] قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»، اهـ. هذا لفظ البخاري في التفسير في «سورة هود»، وفي رواية في الصحيح قال: «لجميع أمتي كلهم»، اهـ.

فهذا الذي أصاب القبله من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ، فقال للنبي ﷺ: ألي هذه؟ ومعنى ذلك: هل النص خاص بي لأنني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النبي ﷺ له: «لجميع أمتي» معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ الْأَحْسَنَ يَذْهَبِنَ الْأَسْيَافِ﴾ [هود: ١١٤] لا بخصوص السبب، والعلم عند الله تعالى.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَزَى الْفُلْكَ﴾ أي السفن، وقد دل القرآن على أن «الفلك» يطلق على الواحد وعلى الجمع، وأنه إن أطلق على الواحد ذكر، وإن أطلق على الجمع أنث، فأطلقه على المفرد مذكراً في قوله: ﴿وَمَا يَهُ هُم أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكَ الْمَسْجُونِ﴾ [١١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [١٢] [يس: ١١]. وأطلقه على الجمع مؤنثاً في قوله: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿مَوَاحِرُ﴾ جمع ماخرة، وهو اسم فاعل، مخرت السفينة تمخر - بالفتح - وتمخر - بالضم - مخراً ومخوراً: جرت في البحر تشق الماء مع صوت. وقيل: استقبلت الريح في جريتها، والأظهر في قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أنه معطوف على قوله: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ و«العل» هنا للتعليل كما تقدم.

والشكر في الشرع: يطلق من العبد لربه؛ كقوله هنا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وشكر العبد لربه: هو استعماله نعمه التي أنعم عليه بها في طاعته، وأما من يستعين بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وشكر الرب لعبده المذكور في القرآن كقوله: **إِنْ شَاكَ اللَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** [البقرة: ١٥٨] وقوله: **إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** [فاطر: ٣٤]: هو أن يشيب عبده الثواب الجزيل من العمل القليل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزًا مَسِيلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥﴾ **وَعَلَّمَنَّا وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴿١٦﴾ ذكر - جل وعلا - في هاتين الآيتين أربع نعم من نعمه على خلقه، مبيناً لهم عظيم منته عليهم بها:

الأولى: إلقاءه الجبال في الأرض لتثبت ولا تتحرك، وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن كقوله: **أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا** ﴿١﴾ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴿٧﴾ [الأنبياء]، وقوله: **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا** [المرسلات: ٢٧]، وقوله - جل وعلا -: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْنُرُ فِيهَا رَبُّهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ** [لقمان: ١٠]، وقوله: **وَالْجِبَالَ أَرْسَالًا** ﴿٣١﴾ [النازعات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، ومعنى تميد: تميل وتضطرب.

وفي معنى قوله: **﴿أَنْ﴾** [الصف: ٣] وجهان معروفان للعلماء: أحدهما: كراهة أن تميد بكم. وثانيهما: أن المعنى: لئلا تميد بكم؛ وهما متقاربان.

الثانية: إجراؤه الأنهار في الأرض المذكورة هنا في قوله: **﴿وَأَنْهَزًا﴾** [الرعد: ٣] وكرر تعالى في القرآن الامتنان بتفجير الماء في الأرض لخلقها: كقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾** ﴿٢٢﴾ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، وقوله: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾** ﴿٦٨﴾ **ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** ﴿٦٩﴾ **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** ﴿٧٠﴾ [الواقعة]، وقوله: **﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾** ﴿١٤﴾ **لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** [يس: ٣٤، ٣٥]...

الثالثة: جعله في الأرض سبلاً يسلكها الناس، ويسيرون فيها من قطر إلى قطر في طلب حاجاتهم المذكورة هنا في قوله: **﴿وَسُبُلًا﴾** وهو جمع سبيل بمعنى الطريق، وكرر الامتنان بذلك في القرآن، كقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾** [الأنبياء: ٣١]، وقوله: **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾** ﴿٦﴾ **لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** ﴿١٥﴾ [نوح]، وقوله: **﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾** ﴿٥١﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَسَلَكَ فِيهَا سُبُلًا** [طه: ٥٢، ٥٣]، وقوله: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾** [الملك: ١٥]، وقوله: **﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾** ﴿١﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

الرابعة: جعله العلامات لبني آدم؛ ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر المذكور هنا في قوله: **﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾** ﴿١٦﴾، وقد ذكر الامتنان بنحو ذلك في القرآن في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾** [الأنعام: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَلُّوْا كَمَا لَا يَخْلُقُ﴾، تقدم بيان مثل هذه الآية في موضعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن بني آدم لا يقدرّون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم، وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وبين في موضع آخر أن كل النعم على بني آدم منه - جل وعلا -، وذلك في قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم كما تقرر في الأصول؛ لأن «نعمة الله» مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم؛ وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود) عاطفاً على صيغ العموم: أو بإضافة إلى معرف إذا تحقق الخصوص قد نفي

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦).

ذكر - جل علا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ قالوا: لم ينزل عليه شيء، وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين، نقله من كتبهم، والأساطير: جمع أسطورة أو إسطورة، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل، أصلها من سطر: إذا كتب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾ [الطور]. وقال بعض العلماء: الأساطير: الترهات والأباطيل، وأوضح هذا المعنى في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَإِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَاذَا﴾ [البقرة: ٢٦] يحتمل أن تكون «ذا» موصولة و«ما» مبتدأ، وجملة «أنزل» صلة الموصول، والموصول وصلته خبر المبتدأ، ويحتمل أن يكون مجموعها اسماً واحداً في محل نصب، على أنه مفعول «أنزل» كما أشار له في الخلاصة بقوله: ومثل ماذا بعد ما استفهام أو من إذا لم تلغ في الكلام

وبين - جل وعلا - كذب الكفار في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين بقوله: ﴿قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ [الفرقان: ٦]، ويقولونه هنا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (١٥). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين، تحملوا أوزارهم - أي ذنوبهم - كاملة، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتبعوهم في الضلال، كما يدل عليه حرف التبعض الذي هو «من» في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾... الآية.

وقال القرطبي: «من» لبيان الجنس، فهم يحملون مثل أوزار من أضلوهم كاملة.
وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ
يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ عَمَّا كَانُوا يَقْتَتُونَ﴾ [العنكبوت] واللام في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ تتعلق
بمحدوف دل المقام عليه، أي قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛
ليحملوا أوزارهم.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله: ﴿وَمِنَ
أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾
[العنكبوت: ١٣] مع أن الله يقول: ﴿وَلَا يُزِرُّ وَازِرَةً وَزِرَّةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول - جل
وعلا -: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات.
فالجواب - والله تعالى أعلم - أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما:
وزر ضلالهم في أنفسهم.

وثانيهما: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأن من سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من
عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، وإنما أخذ بعمل غيره لأنه هو الذي سنه
وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله: ﴿وَلَا يُزِرُّ
وَازِرَةً﴾ ... الآية [الأنعام: ١٦٤].

وقال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير بن
عبد الحميد، عن الأعمش، عن موسى بن عبد الله بن يزيد، وأبي الضحى عن
عبد الرحمن بن هلال العبسي عن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس من الأعراب إلى
رسول الله ﷺ عليهم الصوف: فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس
على الصدقة فأبطؤوا عنه حتى رُوي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء
بصُرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرور في وجهه، فقال
رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له أجر من عمل
بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب
عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»، اهـ.

أخرج مسلم في صحيحه هذا الحديث عن جرير بن عبد الله من طرق متعددة،
وأخرجه نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى
هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى
ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، اهـ.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذه النصوص الصحيحة تدل على رفع الإشكال بين
الآيات، كما تدل على أن جميع حسنات هذه الأمة في صحيفة النبي ﷺ، فله مثل

أجور جميعهم؛ لأنه - صلوات الله عليه وسلامه - هو الذي سنَّ لهم السنن الحسنة جميعها في الإسلام، نرجو الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وأن يصلي ويسلم عليه أتم صلاة وأزكى سلام.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَقْبِرْ عَلَيْهِ﴾ يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسول المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى؛ لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في الأعراف، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا أَشْيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [٣٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سبب ترديهم في النار، أعاذنا الله والمسلمين منها؟

وقال بعض العلماء: معنى حملهم أوزارهم: أن الواحد منهم عند خروجه من قبره يوم القيامة يستقبله شيء كأقبح صورة، وأنتنها ريحاً؛ فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني! فيقول: لا والله، إلا أن الله قبح وجهك! وأنتن ريحك! فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت في الدنيا خبيث العمل متنته فطالما ركبتني في الدنيا! هلم أركبك اليوم؛ فيركب على ظهره، اهـ.

وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُّوكَ﴾ «ساء» فعل جامد؛ لإنشاء الذم بمعنى بش، و«ما» فيها الوجهان المشار إليهما بقوله في الخلاصة:

وما مميز وقيل فاعل في نحو نعم ما يقول الفاضل

وقوله: ﴿يَزُرُّوكَ﴾؛ أي يحملون، وقال قتادة: يعملون، اهـ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة قد مكروا؛ وبين ذلك في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْحَبَالِ﴾ [١١] [إبراهيم].

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٥] فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [٥٦] [النمل].

وذكر بعض مكر قوم نوح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا﴾ [٧٧] وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ

وبين مكر رؤساء الكفار في قوله: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَتَىٰ آلِ الْفِرْعَوْنَ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ [سبا: ٣٣]. والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين - جل وعلا - أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ اللَّهَ بُعْيَتَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ﴾. أي اجتثه من أصله واقتلعه من أساسه، فأبطل عملهم وأسقط بنيانهم، وهذا الذي فعل بهؤلاء الكفار الذين هم نمرود وقومه، كما قدمنا في «سورة الحجر»، فعل مثله أيضاً بغيرهم من الكفار؛ فأبطل ما كانوا يفعلون ويدبرون، كقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُلُوبِئُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾. أي يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية. وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسٍ فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [العاديات]؛ أي أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلُ السَّرَائِرُ ۖ﴾ [الطارق].

وقد بين - جل وعلا - في موضع آخر أن من أدخل النار فقد ناله هذا الخزي المذكور، وذلك في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقد قدمنا في سورة «هود» إيضاح معنى الخزي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ شُرِكَاؤُكَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي!

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۖ﴾ [القصص]، وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ﴾ [سورة الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۖ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣، ٧٤]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ۖ﴾ [الأعراف: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ عامة القراء «شُرَكَاؤُكَ» بالهمزة وياء المتكلم، ويروى عن ابن كثير من رواية البزي أنه قرأ «شركاي» بياء المتكلم دون همز، ولم تثبت هذه القراءة. وقرأ الجمهور «تُشْفِقُونَ» بنون الرفع مفتوحة مع حذف المفعول. وقرأ نافع «تشاقون» بكسر النون الخفيفة التي هي نون الوقاية، والمفعول به ياء المتكلم المدلول عليها بالكسرة مع

حذف نون الرفع، لجواز حذفها من غير ناصب ولا جازم إذا اجتمعت مع نون الوقاية، كما تقدم تحريره في «سورة الحجر» في الكلام على قوله: ﴿فَيَذَرُوهَا كَمَا يُتْرَكُ﴾ [الحجر: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْصُوا سُلُوكَكُمْ﴾ أي الاستسلام والخضوع، والمعنى أظهروا كمال الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت، أو يوم القيامة، يعني أنهم في الدنيا يشاقون الرسل؛ أي يخالفونهم ويعادونهم، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، أي خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك. ومما يدل في القرآن على أن المراد بإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] على قراءة نافع وابن عامر وحمزة بلا ألف بعد اللام؛ بمعنى الانقياد والإذعان، وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضَ عَنْكُمْ فُلْمَ يَقِيلُوكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩٠]، وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلْوْكُمْ وَيَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩١].

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنة لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق عليه من ترك سوء، وقوله: ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٨٧] فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد. والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٥]، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم وقالوا: ما كنا نعمل من سوء، فقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ معمول قول محذوف بلا خوف. والمعنى أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من سوء، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي، وقد بين الله كذبهم بقوله: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وبين في مواضع آخر أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما ذكر هنا، وبين كذبهم في ذلك أيضاً؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٣٣] أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وصدَّ عنهم ما كَانُوا يَفْعَلُونَ [٣٤] [الأنعام]، وقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَطْلُونَهُمْ لَمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ٣٨]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَنجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي حراماً محرماً أن تمسونا بسوء؛ لأننا لم نفعل ما نستحق به ذلك، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا «بلى» تكذيب لهم في قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾.

تنبيه: لفظة «بلى» لا تأتي في اللغة العربية إلا لأحد معنيين لا ثالث لهما:

الأول: أن تأتي لإبطال نفي سابق في الكلام، فهي نقيضة، «لا»؛ لأن «لا» لنفي الإثبات، و«بلى» لنفي النفي؛ كقوله هنا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فهذا النفي نفته لفظة «بلى»؛ أي كنتم تعملون السوء من الكفر والمعاصي؛ وكقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وكقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] فإنه نفى هذا النفي بقوله - جل وعلا -: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ١١٢]، ومثل هذا كثير في القرآن وفي كلام العرب.

الثاني: أن تكون جواباً لاستفهام مقترن بنفي خاصة، كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠]، وهذا أيضاً كثير في القرآن وفي كلام العرب، أما إذا كان الاستفهام غير مقترن بنفي فجوابه ب«نعم» لا ب«بلى» وجواب الاستفهام المقترن بنفي و«نعم» مسموع غير قياسي، كقوله: أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني نعم، وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني فالمحل ل«بلى» لا ل«نعم» في هذا البيت.

فإن قيل: هذه الآيات تدل على أن الكفار يكتمون يوم القيامة ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي، كقوله عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ونحو ذلك مع أن الله صرح بأنهم لا يكتمون حديثاً في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فالجواب: هو ما قدمنا من أنهم يقولون بالسنتهم: ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيختم الله على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، فالكتم باعتبار النطق بالجحد وبالألسنة. وعدم الكتم باعتبار شهادة أعضائهم عليهم والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾. لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في «سورة الحجر» في قوله - جل وعلا -: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ١٢] أرجو الله أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها! إنه رحيم كريم. قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين إذا سئلوا عما أنزل الله على رسول الله ﷺ قالوا: أنزل عليه خيراً؛ أي رحمة وهدي وبركة لمن اتبعه وآمن به، ويفهم من صفة أهل هذا الجواب بكونهم متقين - أن غير المتقين يجيبون جواباً غير هذا. وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله عن غير المتقين وهم الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيفُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أحسن عمله في هذه الدار التي هي الدنيا كان له عند الله الجزاء الحسن في الآخرة. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. وقوله: ﴿وَيَجْرِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [١٦] [الرحمن]، وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقوله في هذه الآية: ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي مجازاة حسنة بالجنة ونعيمها، والآيات في مثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن دار الآخرة خير من دار الدنيا، وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [الفصص: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١١] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ [الأعلى]، وقوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [١] [الضحى]، وقوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْفَكِ وَالْحَرِثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [٤] قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٥]، وقوله: «خير» صيغة تفضيل، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال تخفيفاً؛ وإليه أشار ابن مالك في الكافية بقوله:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وإنما قيل لتلك الدار: الدار الآخرة؛ لأنها هي آخر المنازل، فلا انتقال عنها البتة إلى دار أخرى. والإنسان قبل الوصول إليها ينتقل من محل إلى محل، فأول ابتدائه من التراب، ثم انتقل من أصل التراب إلى أصل النطفة، ثم إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم إلى العظام، ثم كسا الله العظام لحماً، وأنشأها خلقاً آخر، وأخرجها للعالم في هذه الدار، ثم ينتقل إلى القبر، ثم إلى المحشر، ثم يفرقون ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦] فسالك ذات اليمين إلى الجنة، وسالك ذات الشمال إلى النار ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْقَرُونَ ﴿٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم].

فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار - فعند ذلك تلقى عصا التسيار، ويذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت! يا أهل النار خلود فلا موت! ويبقى ذلك دائماً لا انقطاع له ولا تحول عنه إلى محل آخر.

فهذا معنى وصفها بالآخرة، كما أوضحه - جل وعلا - بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضَيَّعَةً فَخَلَقْنَا الْمُضَيَّعَةَ عَظَمًا فَكَسَوْنَا الْعَظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾ [المؤمنون].

تنبيه: أضاف - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الدار إلى الآخرة، مع أن الدار هي الآخرة بدليل قوله: ﴿وَالْدَارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية [الأنعام: ٣٢]، بتعريف الدار ونعتها بالآخرة في غير هذا الموضع، وعلى مقتضى قول ابن مالك في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

فإن لفظ «الدار» يؤول بمسمى الآخرة، وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في «سورة فاطر» في الكلام على قوله: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ [فاطر: ٤٣] أن الذي يظهر لنا أن إضافة الشيء إلى نفسه بلفظين مختلفين - أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لتنزيل التغيرات في اللفظ منزلة التغيرات في المعنى، وبيننا كثرة في القرآن، وفي كلام العرب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾.

مدح الله - جل وعلا - دار المتقين التي هي الجنة في هذه الآية الكريمة؛ لأن «نعم» فعل جامد لإنشاء المدح. وكرر الثناء عليها في آيات كثيرة؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعْمًا وَمَلَأْنَا كَيْدًا﴾ [الإنسان]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْرِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين يدخلون يوم القيامة جنات عدن، والعدن في لغة العرب: الإقامة، فمعنى جنات عدن: جنات إقامة في النعيم، لا يرحلون عنها، ولا يتحولون. وبين في آيات كثيرة أنهم مقيمون في الجنة على الدوام، كما أشار له هنا بلفظة «عدن»، كقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقوله: ﴿الَّذِي أَطَّلَعَ دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٥]. والمقامة: الإقامة. وقد تقرر في التصريف: أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف فالمصدر الميمي منه، واسم الزمان، واسم المكان كلها بصيغة اسم المفعول، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان] على قراءة نافع وابن عامر بضم الميم من الإقامة. وقوله: ﴿فِيمَا لَيْسَ ذَرٌّ بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيَنْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى صَالِحَاتٍ أَنَّهُمْ أُجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿١﴾ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بين أنواع تلك الأنهار في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وقوله هنا: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أوضحه في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا

وقوله في هذه الآية: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ يدل على أن تقوى الله هو السبب الذي به تنال الجنة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿ذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [١٦] ﴿مَرْيَمَ﴾، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٧] ﴿آلِ عِمْرَانَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [١٨] [الطور] إلى غير ذلك من الآيات.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين كانوا يمثلون أوامر ربهم، ويجتنبون نواهيه تتوفاهم الملائكة، أي يقبضون أرواحهم في حال كونهم طيبين؛ أي طاهرين من الشرك والمعاصي - على أصح التفسيرات - ويبشرونهم بالجنة، ويسلمون عليهم. وبين هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [٣٣] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، والبشارة عند الموت، وعند دخول الجنة من باب واحد؛ لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة. ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة، أن الذين لم يتصفوا بالقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة، ولم تسلم عليهم، ولم تسهرهم.

وقوله: ﴿تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِلِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِلِي﴾، قرأهما عامة القراء غير حمزة «توفاهم» بئاءين فوقيتين، وقرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء في الموضعين. تنبيه: أسند هنا - جل وعلا - التوفى للملائكة في قوله: ﴿تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾

وأسنده في «السجدة» لملك الموت في قوله: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجد: ١١]،
وأسنده في «الزمر» إلى نفسه - جل وعلا - في قوله: ﴿اللَّهُ يَتُوفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة
«السجدة»: أنه لا معارضة بين الآيات المذكورة؛ فإسناده التوفي لنفسه؛ لأنه لا يموت
أحد إلا بمشيئته تعالى، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَلْبًا
مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح،
وأسنده إلى الملائكة لأن لملك الموت أعواناً من الملائكة ينزعون الروح من الجسد
إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت، كما قاله بعض العلماء، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه بعث في كل أمة رسولا بعبادة الله
وحده، واجتناب عبادة ما سواه، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»؛ لأنها مركبة في نفي
وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات،
وإثباتها هو إفراده - جل وعلا - بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي
شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص، فمن
النصوص الدالة عليه مع عمومها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في أفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]،
وقوله تعالى: ﴿وَالِكَا آخَاهُم هُودًا قَالَ يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]،
وقوله تعالى: ﴿وَالِكَا ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالِكَا مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط
اجتناب عبادة ما سواه، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْثُرِ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَسْلَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾. ذكر - جل
وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الأمم التي بعث فيها الرسل بالتوحيد منهم سعيد،
ومنهم شقي، فالسعيد منهم يهديه الله إلى اتباع ما جاءت به الرسل، والشقي منهم يسبق

عليه الكتاب فيكذب الرسل، ويكفر بما جاءوا به، فالدعوة إلى دين الحق عامة، والتوفيق للهدى خاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]؛ فقلوه ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من الأمم المذكورة في قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، وقوله: ﴿مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل. والضمير المنصوب الذي هو رابط الصلة بالموصول محذوف؛ أي فمنهم من هداه الله على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلى في عائد متصل إن انتصب

بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ أي وجبت عليه ولزمته؛ لما سبق في علم الله من أنه يصير إلى الشقاوة؛ والمراد بالضلالة: الذهاب عن طريق الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَنُكِرَ مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٢٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن حرص النبي ﷺ على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْبَعُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمر: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ بضم الياء وفتح الدال؛ من «يُهدي» مبنياً للمفعول، وقوله: ﴿مَنْ﴾ نائب الفاعل، والمعنى أن من أضله الله لا يهدي، أي لا هادي له.

وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي بفتح الياء وكسر الدال، من «يهدي» مبنياً للفاعل، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ مفعول به ليهدي، والفاعل ضمير عائد إلى الله تعالى، والمعنى أن من أضله الله لا يهديه الله، وهي على هذه القراءة فيمن سبقت لهم الشقاوة في علم الله؛ لأن غيرهم قد يكون ضالاً ثم يهديه الله كما هو معروف.

وقال بعض العلماء: لا يهدي من يضل ما دام في إضلاله له؛ فإن رفع الله عنه الضلالة وهده فلا مانع من هداه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكفار حلفوا جهد أيمانهم - أي اجتهدوا في الحلف - وغلظوا الأيمان على أن الله لا يبعث من يموت، وكذبهم الله - جل وعلا - في ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وكرر في آيات كثيرة هذا المعنى المذكور هنا من إنكارهم للبعث وتكذيبه لهم في ذلك، كقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنَّا يُبْعَثُونَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يسر]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ نفى لنفيهم البعث كما قدمنا، وقوله: ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لما دلت عليه «بلى»؛ لأن «بلى» تدل على نفي قولهم: لا يبعث الله من يموت، ونفي هذا النفي إثبات، معناه: لتبعثن، وهذا البعث المدلول على إثباته بلفظة «بلى» فيه معنى وعد الله بأنه سيكون، فقوله: ﴿وَعْدًا﴾ مؤكد له. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدر أيضاً؛ أي وعد الله بذلك وعداً، وحقه حقاً، وهو مؤكد أيضاً لما دلت عليه «بلى»، واللام في قوله: ﴿لَيُبْعَثَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، تتعلق بقوله: «بلى» أي يبعثهم ليبين لهم.. إلخ. والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى من يموت؛ لأنه شامل للمؤمنين والكافرين.

وقال بعض العلماء: اللام في الموضعين تتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، أي بعثناه ليبين لهم.. إلخ، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٢١] ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا يتعاضى على قدرته شيء، وإذا يقول للشيء «كن» فيكون بلا تأخير؛ وذلك أن الكفار لما «أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت»، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء «كن» كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله في الرد على من قال: «من يحيي العظام وهي رميم»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسر].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: «كن» بل إذا قال للشيء «كن» مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر - في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ونظيره قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران]، وقال ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَجِلْدٍ﴾ [لقمان: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل؛ فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء، وأنه يقول له كن فيكون - كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه، أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمرًا في قوله: ﴿إِنِّي أَرْسِيٓٔٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، نظرًا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال. وقرأ هذا الحرف ابن عامر والكسائي «فيكون» بفتح النون منصوبًا بالعطف على قوله: «أن نقول»: وقيل: منصوب بأن المضمره بعد الفاء في جواب الأمر. وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي فهو يكون. ولقد أجاد من قال:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن قوله فيكون

واللام في قوله: «الشيء» وقوله: «له» للتبليغ. قاله أبو حيان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل قبله ﷺ من الرسل إلا رجلاً، أي لا ملائكة، وذلك أن الكفار استغربوا جداً بعث الله رسلاً من البشر، وقالوا: الله أعظم من أن يرسل بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ فلو كان مرسلًا أحداً حقاً لأرسل ملائكة كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقوله: ﴿بَلْ عِبرُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩١]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿أَشْرَكَ مِمَّا وُجِدَ تَلْعَبُهُ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتْرِفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٧]، ولين أطلعهم بشراً مِثْلَكُمْ إِذْ لَخِيطِرُونَ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون: ٣٨]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين الله - جل وعلا - في آيات كثيرة أن الله ما أرسل لبني آدم إلا رسلاً من البشر، وهم رجال يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ونحو ذلك من صفات البشر: كقوله هنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُا

أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ جمهور القراء هذا الحرف «يُوحِي إِلَيْهِمْ» بالياء المثناة التحتية، وفتح الحاء مبنياً للمفعول، وقرأه حفص عن عاصم «نُوحِي إِلَيْهِمْ» بالنون وكسر الحاء مبنياً للمفاعل، وكذلك قوله في آخر سورة يوسف ﴿إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وأول الأنبياء ﴿إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧]، كل هذه المواضع قرأ فيها حفص وحده بالنون وكسر الحاء، والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً. وأما الثانية في سورة الأنبياء وهي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ فقد قرأه - بالنون وكسر الحاء - حمزة والكسائي وحفص. والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً، وحصر الرسل في الرجال في الآيات المذكورة لا ينافي أن من الملائكة رسلاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَيَرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ إِلَى الَّذِينَ يَنْصُرُ اللَّهُ فَيُجِزِلُ فِيهِمُ الْبَيِّنَاتِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿لِلْحَمْدِ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ لأن الملائكة يرسلون إلى الرسل، والرسل ترسل إلى الناس، والذي أنكره الكافر هو إرسال الرسل إلى الناس، وهو الذي حصر الله فيه الرسل في الرجال من الناس؛ فلا ينافي إرسال الملائكة للرسل بالوحي، ولقبض الأرواح، وتسخير الرياح والسحاب، وكتب أعمال بني آدم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدْرِتُ أَمْرًا﴾ [النازعات].

تنبيه: يفهم من هذه الآيات أن الله لم يرسل امرأة قط؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]. ويفهم من قوله: ﴿فَتَتْلُوا مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ﴾، أن من جهل الحكم يجب عليه سؤال العلماء والعمل بما أفته به. والمراد بأهل الذكر في الآية أهل الكتاب، وهذه الأمة أيضاً يصدق عليها أنها أهل الذكر؛ لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، إلا أن المراد في الآية أهل الكتاب، والباء في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل: تتعلق بـ«ما أرسلنا» داخلاً تحت حكم الاستثناء مع «رجالاً»؛ أي وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، كقولك: وما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيداً بالسوط، وقيل: تتعلق بقوله «رجالاً» صفة له؛ أي رجالاً متلبسين بالبينات، وقيل: تتعلق بـ«أرسلنا» مضمراً دل عليه ما قبله؛ كأنه قيل: بم أرسلوا؟ قيل: بالبينات. وقيل: تتعلق بـ«نُوحِي» أي نُوحِي إِلَيْهِمْ بالبينات؛ قاله صاحب (الكشاف)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾.

المراد بالذكر في هذه الآية: القرآن، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي ﷺ:

الحكمة الأولى: أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، ونحو ذلك. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً، كقوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥].

الحكمة الثانية: هي التفكير في آياته والانتعاظ بها، كما قال هنا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾، وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً، كقوله: ﴿كِتَابٌ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَ عَنْ يَدَيْهِ وَيُنْذِرَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَلْتَمِزُونَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ [ص: ١٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ [محمد: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٤٥]. أنكر الله - جل وعلا - على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب، والخسف: بلع الأرض المخسوف به وعودها به إلى أسفل؛ كما فعل الله بقارون، قال الله تعالى فيه: ﴿خَسَفْنَا بِهِمْ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ ... الآية [القصص: ٨١]. وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١١]، أم أمنتم من في السَّمَاءِ ... الآية [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْجَانِبُ الَّذِي أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقد قدمنا طرفاً من هذا في أول «سورة الأعراف».

واختلف العلماء في إعراب «السيئات» في هذه الآية الكريمة، فقال بعض العلماء: نعت لمصدر محذوف؛ أي مكروا المكرات السيئات، أي القبيحات قبحاً شديداً، كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال بعض العلماء: مفعول به لـ «مكروا» على تضمين «مكروا» معنى فعلوا، وهذا أقرب أوجه الإعراب عندي، وقيل: مفعول به لـ «أمن» أي أأمن الماكرون السيئات، أي العقوبات الشديدة التي تسوءهم عند نزولها بهم. ذكر الوجه الأول الزمخشري، والآخرين ابن عطية، وذكر الجميع أبو حيان في «البحر المحيط».

تنبيه: كل ما جاء في القرآن من همزة استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه، كقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سبأ: ٩]، ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَتَائِي تُنَادِي عَلَى كُفْرٍ﴾ [الجاثية: ٣١] ... إلخ، فيه وجهان معروفان عند علماء العربية: أحدهما: أن الفاء والواو كلتاها عاطفة ما بعدها على محذوف دل

المقام عليه، كقولك مثلاً: أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً؟! أعموا فلم يروا إلى ما بين أيديهم؟! ألم تأتكم آياتي فلم تكن تتلى عليكم؟! وهكذا، وإلى هذا الوجه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

ومحل الشاهد في الشطر الأول دون الثاني.

وثانيهما: أن الفاء والواو كلتاها عاطفة للجملة المصدرة بهمزة الاستفهام على ما قبلها؛ إلا أن همزة الاستفهام ترحلت عن محلها فتقدمت على الفاء والواو، وهي متأخرة عنهما في المعنى، وإنما تقدمت لفظاً عن محلها معنى لأن الاستفهام له صدر الكلام.

فبهذا تعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية التي هي قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾... الآية، الوجهين المذكورين؛ فعلى الأول، فالمعنى أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله بالعقاب؟ فأمن الذين مكروا السيئات... إلخ. وعلى الثاني، فالمعنى فأمن الذين مكروا السيئات؛ فالفاء عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام. والأول هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾. تقدم بيان هذه الآية وأمثالها من الآيات في «سورة الرعد».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ (٥١). نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهاً آخر معه، وأخبرهم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد، ثم أمرهم أن يرهبوه؛ أي يخافوه وحده؛ لأنه هو الذي بيده الضر والنفع، لا نافع ولا ضار سواه. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) [الذاريات]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (١٦) [ق]، وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُوماً مَنحُوداً﴾ (١٧) [الإسراء]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ [الإسراء: ٣٩].

وبين - جل وعلا - في مواضع آخر استحالة تعدد الآلهة عقلاً، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦) [المؤمنون] وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَاكَ إِلَى نَبِيِّ الْأَمْرِ سَبِيلًا﴾ (١٦) [الإسراء]. والآيات بعبادته وحده كثيرة جداً، فلا نطيل بها الكلام، وقدم المفعول في قوله: ﴿وَلِئَلَّا فَارْهَبُونِ﴾ للدلالة على الحصر. وقد تقرر في الأصول في مبحث «مفهوم المخالفة، وفي المعاني في مبحث القصر»، أن تقديم المعمول من صيغ الحصر أي خافون وحدي ولا تخافوا سواي، وهذا الحصر المشار إليه هنا بتقديم

المعمول بينه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَأَخْشَوْا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسْلَتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾. الدين هنا: الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً، كقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي، ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأياماً لنا غراً كراماً عصينا الملك فيها أن ندينا

أي عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي نطيعه، وقوله: ﴿وَاصِبًا﴾ أي دائماً؛ أي له - جل وعلا -: الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعاً، له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطمعون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولدأ، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدل، وكبره تكبيراً.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتُهَرِّجُ مَن تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة] لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ونظير هذه الآية المذكورة قوله: ﴿وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] أي دائم، وقيل: عذاب موجه مؤلم، والعرب تطلق الوصب على المرض، وتطلق الوصب على الدوام، وروي عن ابن عباس أنه لما سأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال له: الواصب الدائم، واستشهد له بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

وله الدين واصباً وله الملـك وحمد له على كل حال

ومنه قول الدؤلي:

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بدم الدهر أجمع واصباً

وممن قال بأن معنى الواصب في هذه الآية الدائم: ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي وقتادة، والحسن والضحاك، وغيرهم. وروي عن ابن عباس أيضاً واصباً، أي واجباً، وعن مجاهد أيضاً، واصباً، أي: خالصاً، وعلى قول مجاهد هذا، فالخبر بمعنى الإنشاء؛ أي اربهاوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، وعليه فالآية كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: «واصباً» حال عمل فيه الظرف.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ أنكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة على من يتقي غيره؛ لأنه لا ينبغي أن يتقي إلا من بيده النفع كله والضرر كله؛ لأن غيره لا يستطيع أن ينفكك بشيء لم يردده الله لك، ولا يستطيع أن يضرك بشيء لم يكتبه الله عليك.

وقد أشار تعالى هنا إلى أن إنكار اتقاء غير الله، لأجل أن الله هو الذي يرجى منه النفع، ويخشى منه الضرر، ولذلك أتبع قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يُعْمَلُ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [٥٢] ومعنى تجأرون: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة عند نزول الشدائد؛ ومنه قول الأعشى أو النابغة يصف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان النكير أن تضيف وتجاراً
وقول الأعشى:

يرأوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جواراً

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقَهُم بِالْعِذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ [٥٢] لَا تُصْرُونَ [٥٣] [المؤمنون] وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَلَن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَن يَمَسَّكَ بَضْرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقوله: ﴿وَلَن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرَدِّكَ يُخَيِّرْ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا مِنْ عَدَدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند». وفي حديث ابن عباس المشهور: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْكُمْ يَسْتُرُونَ﴾ [٥٢] .

تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني آدم إذا مسهم الضر دعوا الله وحده مخلصين له الدين؛ فإذا كشف عنهم الضر، وأزال عنهم الشدة، إذا فريق منهم وهم الكفار يرجعون في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي. وقد كرر - جل وعلا - هذا المعنى في القرآن؛ كقوله في «يونس»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجِهْتُمْ نَصْرًا لِّمَا بِهِ بَرْحٌ رَبِّكُمْ فَرَخُوا بِهَا جَاهَتَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: «في الإسراء»: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله في آخر «العنكبوت»: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله في «الأنعام»: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّمُكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا هذا في «سورة الأنعام» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ارْءَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ... الآية [الأنعام: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿فَتَتَّبِعُوا فُسُوقَ قَلْمُونٍ﴾. صيغة الأمر في قوله: «فتمتعوا» للتهديد، وقد تقرر في «فن المعاني، في مبحث الإنشاء»، وفي «فن الأصول، في مبحث الأمر» أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعال التهديد؛ كقوله هنا: ﴿فَتَتَّبِعُوا فُسُوقَ قَلْمُونٍ﴾ وتشهد لهذا المعنى آيات أخرى، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا وَيَلْعَبُوا فِي مَوَاقِعِهِمْ يَسُوقُهُمْ إِلَى الْعَذَابِ﴾ [الحجر: ١١]، وقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٦١]، وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَلْعَلُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَفَرُّونَ﴾ [٥٦]. في ضمير الفاعل في قوله: «لما يعلمون» وجهان:

أحدهما: أنه عائد إلى الكفار؛ أي ويجعل الكفار للأصنام التي لا يعلمون أن الله أمر بعبادتها، ولا يعلمون أنها تنفع عابديها أو تضر عاصيها، نصيباً... إلخ؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [التج: ٧] ونحو ذلك من الآيات.

وقال صاحب (الكشاف): ومعنى كونهم لا يعلمونها، أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع، وتشفع عند الله؛ وليس كذلك! وحقيقتها أنها جماد، لا يضر ولا ينفع؛ فهم إذا جاهلون بها.

وثانيهما: أن واو «يعلمون» واقعة على الأصنام؛ فهي جماد لا يعلم شيئاً؛ أي ويجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً لكونهم جماداً - نصيباً... إلخ. وهذا الوجه

كقوله: ﴿أَتُوتُ غَيْرَ لَحَافٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٥٧)، وقوله: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْنَا وَيُنْشِئُكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٥٨) [يونس]، وقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول - فالواو راجعة إلى «ما» من قوله «لما لا يعلمون». وعبر عنها بـ «ما» التي هي لغیر العاقل؛ لأن تلك المعبودات التي جعلوا لها من رزق الله نصيباً جماد لا تعقل شيئاً، وعبر بالواو في «لا يعلمون» على هذا القول لتنزيل الكفار لها منزلة العقلاء في زعمهم أنها تشفع، وتضر وتشفع.

وإذا عرفت ذلك، فاعلم أن هذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة بينه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ وَهَذَا إِشْرَاقُنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام]؛ وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً، فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله رده إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني والصنم فقير، وقد أقسم - جل وعلا - على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيباً مما خلق الله للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: ﴿تَاللَّهِ لَنَشْتَلَنَ عَمَّا كَتَبَ تَفَرُّونَ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾. قوله: «يجعلون» أي يعتقدون. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعتقدون أن الله بنات إناثاً؛ وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ الآية [الزخرف: ١٩]. فزعموا لله الأولاد! ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى، فالإناث التي جعلوها الله يكرهونها لأنفسهم ويأنفون منها، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي لأن شدة الحزن والكآبة تسود لون الوجه. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلئ حزناً وهو ساكت. وقيل ممتلئ غيظاً على امرأته التي ولدت له الأنثى. ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، أي يختفي من أصحابه من أجل سوء ما بشر به لثلا يروا ما هو فيه من الحزن والكآبة أو لثلا يشمتوا به ويعيروه. ويحدث نفسه وينظر: ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ أي ما بشر به وهو الأنثى. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي هوان وذل. ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يدفن المذكور الذي هو الأنثى حياً في التراب، يعني ما كانوا يفعلون بالبنات من الوأد وهو دفن البنت حية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُتِّتْ ﴿١﴾ بَاتِيَ ذُبُّ قِلَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير].

والبشارة تطلق في العربية على الخبر بما يسر، وبما يسوء، ومن إطلاقها على الخبر بما يسوء قوله هنا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ﴾... الآية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ونحو ذلك من الآيات.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من بغضهم للبنات مشهور معروف في أشعرهم؛ ولما خطبت إلى عقيل بن علفة المري ابنته الجرباء قال:

إنني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان وذود عشر
أحب أصهاري إلي القبر

ويروى لعبد الله بن طاهر قوله:

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواربها وخيرهم القبر

وهم يزعمون أن موجب رغبتهم في موتهن، وشدة كراهيتهم لولادتهن: الخوف من العار، وتزوج غير الأكفاء، وأن تهان بناتهم بعد موتهم؛ كما قال الشاعر في ابنة له تسمى مودة:

مودة تهوى عمر شيخ يسره لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يخاف عليها جفوة الناس بعده ولا ختن يرجى أود من القبر
وقال الآخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
وقد ولدت امرأة أعرابي أنثى، فهجرتها لشدة غيظه من ولادتها أنثى فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل بالبيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

تنبيه: لفظة «جعل» تأتي في اللغة العربية لأربعة معان:

الأول: بمعنى اعتقد، كقوله تعالى هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْآلِهَتَ﴾ قال في الخلاصة:

وجعل اللذ كاعتقد

الثاني: بمعنى صير كما تقدم في الحجر، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾

[نوح: ٦١]، قال في الخلاصة:

والتي كصيرا وأيضاً بها انصب مبتدأ وخبرا

الثالث: بمعنى خلق؛ كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أي خلق الظلمات والنور.

الرابع: بمعنى شرع؛ كقوله:

وقد جعلت إذا ما قمت يشقلني ثوبي فأنهض نهض المشارب السكر

قال في الخلاصة:

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿سُبْحَنُكَ﴾؛ أي تنزيهاً له - جل وعلا - عما لا يليق بكماله وجلاله، وهو ما ادعوا له من البنات سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أرادته. وذكر هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في آخر «سورة فاطر»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨]. وأشار بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنه تعالى يمهّل ولا يهمل، ويبيّن ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم)، وقوله: ﴿وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وبيّن هنا أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر عنه، كما أنه لا يتقدم عن وقت أجله، وأوضح ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فيه وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه خاص بالكفار؛ لأن الذنب ذنبهم، والله يقول: ﴿وَلَا يُزِدُ وَازِرَةً وَنَزَّ أَهْرَئًا﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ومن قال هذا القول قال: «من دابة» أي كافرة؛ ويروى هذا عن ابن عباس. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وجمهور العلماء، منهم ابن مسعود، وأبو الأحوص، وأبو هريرة، وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير وغيره، على أن الآية عامة؛ حتى إن ذنوب بني آدم لتهلك الجعل في جحره، والحبارى في وكرها، ونحو ذلك؛ لولا أن الله حليم لا يعجل بالعقوبة، ولا يؤاخذهم بظلمهم.

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا القول هو الصحيح؛ لما تقرر في الأصول من: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة «من» تكون نصاً صريحاً في العموم، وعليه فقوله: «من دابة» يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصاً.

وقال القرطبي في تفسيره: فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»، اهـ محل الغرض منه بلفظه. والأحاديث بمثله كثيرة معروفة.

وإذا ثبت في الأحاديث الصحيحة أن العذاب إذا نزل بقوم عمّ الصالح والطالح، فلا إشكال في شمول الهلاك للحيوانات التي لا تعقل. وإذا أراد الله إهلاك قوم أمر نبيهم ومن آمن منهم أن يخرجوا عنهم؛ لأن الهلاك إذا نزل عمّ.

تنبيه: قوله: «مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ» الضمير في «عليها» راجع إلى غير مذكور وهو الأرض؛ لأن قوله: «مِنْ دَابَّةٍ» يدل عليه؛ لأن من المعلوم أن الدواب إنما تدب على الأرض، ونظيره قوله تعالى: «مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» [فاطر: ٤٥]، وقوله: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» [ص: ٣٢] أي الشمس ولم يجر لها ذكر، ورجوع الضمير إلى غير مذكور يدل عليه المقام كثير في كلام العرب؛ ومنه قول حميد بن ثور:

وصهباء منها كالسفينه نضجت به الحمل حتى زاد شهراً عديدها
فقوله: «صهباء منها» أي من الإبل، وتدل عليه قرينة «كالسفينه» مع أن الإبل لم يجر لها ذكر، ومنه أيضاً قول حاتم الطائي:

أماوي ما يغني الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقوله: «حشرجت وضاق بها» يعني النفس، ولم يجر لها ذكر، كما تدل عليه قرينة «وضاق بها الصدر»، ومنه أيضاً قول ليبد في معلقته:

حتى إذا ألفت يداً في كافر وأجن عورات الشغور ظلامها
فقوله «ألفت» أي الشمس، ولم يجر لها ذكر، ولكن يدل عليه قوله:
وأجن عورات الشغور ظلامها

لأن قوله: «ألفت يداً في كافر» أي دخلت في الظلام، ومنه أيضاً قول طرفة في معلقته:
على مثلها أمضي إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدي
فقوله: «أفديك منها» أي الفلاة، ولم يجر لها ذكر، ولكن قرينة سياق الكلام تدل

عليها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «يُؤَاخِذُ» الظاهر أن المفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد؛ فمعنى أخذ الناس يؤاخذهم: أخذهم بذنوبهم؛ لأن المفاعلة تقتضي الطرفين، ومجيئها بمعنى المجرد مسموع نحو: سافر وعافى. وقوله «يؤاخذ» إن قلنا: إن المضارع فيه بمعنى الماضي فلا إشكال، وإن قلنا: إنه بمعنى الاستقبال فهو على إيلاء لو المستقبل وهو قليل، كقوله: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ» [النساء: ٩]، وقول قيس بن الملوح:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سيسب
ولظل صدى صوتي وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويضطرب
والجواب بحمله على المضي في الآية تكلف ظاهر، ولا يمكن بتأتا في البيتين،
وأمثله كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، وقد أشار لذلك في الخلاصة بقوله:

لو حرف شرط في مضى ويقلل إيلاؤها مستقبلاً لكن قبل
قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾. أبهم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة
هذا الذي يجعلونه لله ويكرهونه؛ لأنه عبر عنه بـ«ما» الموصولة، وهي اسم مبهم، وصلة
الموصول لن تبين من وصف هذا المبهم إلا أنهم يكرهونه. ولكنه بين في مواضع آخر
أنه البنات والشركاء وجعل المال الذي خلق لغيره، قال في البنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾
ثم بين كراهيتهم لها في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾. وقال في
الشركاء: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ونحوها من الآيات، وبين كراهيتهم للشركاء
في رزقهم بقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْتَكُمْ فَآنَسَ فِيهِ سَوَاءٌ مِّمَّا كُفِّتُكُمْ أَنفُسُكُمْ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ [الروم]؛ أي إذا كان الواحد منكم لا يرضى أن يكون عبده المملوك شريكاً
له مثل نفسه في جميع ما عنده؛ فكيف تجعلون الأوثان شركاء لله في عبادته التي هي
حقه على عباده! وبين جعلهم بعض ما خلق الله من الرزق للأوثان في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ
مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].
وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل: ٥٦] كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لُحْمٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه
الآية الكريمة أن الكفار يقولون بألسنتهم الكذب؛ فيزعمون أن لهم اللحم الحسنى، والحسنى
تأنيث الأحسن، قيل: المراد بها الذكور؛ كما تقدم في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ والحق
الذي لا شك فيه أن المراد بالحسنى هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقاً فيكون لهم
فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا، ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلاً:

أحدهما: كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى، كقوله تعالى عن الكافر: ﴿وَلَيْنَ
رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنْقَلِبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَوْثِينَكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [سريم: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضْمِرُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ
سُورٍ لَّهُمْ فِي الْغَيْبِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل الثاني: أن الله أتبع قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ لُحْمٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
النَّارَ﴾ الآية، فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا، والعلم عند الله. والمصدر
المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: «أن لهم الحسنى» في محل نصب، بدل من قوله
«الكذب» ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحاً لا خفاء به.

وقال الزمخشري في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾، ما نصه: فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه؛ فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحيلته، وصورته بصورته؛ كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. في هذا الحرف قراءتان سبعيتان، وقراءة ثالثة غير سبعية، قرأه عامة السبعة ما عدا نافعاً «مفراطون» بسكون الفاء وفتح الراء بصيغة اسم المفعول؛ من أفرطه. وقرأ نافع بكسر الراء بصيغة اسم الفاعل؛ من أفرط، والقراءة التي ليست بسبعية بفتح الفاء وكسر الراء المشددة بصيغة اسم الفاعل من فرط المضعف، وتروى هذه القراءة عن أبي جعفر، وكل هذه القراءات له مصداق في كتاب الله.

أما على قراءة الجمهور «مفراطون» بصيغة المفعول فهو اسم مفعول أفرطه: إذا نسيه وتركه غير ملتفت إليه؛ فقوله «مفراطون» أي متروكون منسيون في النار. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [السجدة: ١٧]، وقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِلُكُمْ النَّارُ﴾ [الجاثية: ٣٤] فالنسيان في هذه الآيات معناه: الترك في النار. أما النسيان بمعنى زوال العلم فهو مستحيل على الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [٥١ طه].

وممن قال بأن معنى «مفراطون» منسيون متروكون في النار: مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن الأعرابي، وأبو عبيدة، والفراء وغيرهم. وقال بعض العلماء: معنى قوله: «مفراطون» على قراءة الجمهور؛ أي مقدمون إلى النار معجلون، من أفرط فلاناً وفرطته في طلب الماء: إذا قدمته، ومنه حديث: «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدمكم، ومنه قول القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تقدم فراط لوراد
وقول الشنفرى:

هممت وهمت فابتدرنا وأسبلت وشمر مني فارط متمهل

أي متقدم إلى الماء. وعلى قراءة نافع فهو اسم فاعل أفرط في الأمر: إذا أسرف فيه وجاوز الحد. ويشهد لهذه القراءة قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَمْحَدُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] ونحوها من الآيات. وعلى قراءة أبي جعفر، فهو اسم فاعل، فرط في الأمر: إذا ضيعه وقصر فيه، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. فقد عرفت أوجه القراءات في الآية، وما يشهد له القرآن منها.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً أن لهم النار. وقال القرطبي في تفسيره: لا رد

لكلامهم (وتم الكلام) أي ليس كما تزعمون! جرم أن لهم النار! حقاً أن لهم النار! وقال بعض العلماء: «لا» صلة، و«جرم» بمعنى كسب؛ أي كسب لهم عملهم أن لهم النار. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٦].

بَيِّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن في الأنعام عبرة دالة على تفرد من خلقها، وأخلص لبنها من بين فرت ودم، بأنه هو وحده المستحق لأن يعبد، ويطاع ولا يعصى. وأوضح هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ أَيَّدِينَا ثَعْمَانًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنشَأْنَا فِئْتًا مِّنْهُمْ مِّمَّنْ رَّوَّيْهُمْ وَمِنَّا تَأْكُلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت الآيات المذكورة على أن الأنعام يصح تذكيرها وتأنيثها؛ لأن ذكرها هنا في قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وأنثها «في سورة قد أفلح المؤمنون» في قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٦].

ومعلوم في العربية: أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس. وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيثها كما ذكرناه آنفاً. وجاء في تذكير النحل وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَحُلُ شُعَبٍ﴾ [القمر: ٢٠]. والتأنيث في قوله: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَحُلُ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ونحو ذلك، وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: ب ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. والتأنيث في قوله: ﴿وَالسَّمَاءُ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. ونحو ذلك من الآيات. وهذا معروف في العربية، ومن شواهد قول قيس بن الحصين الحارثي الأسدي وهو صغير في تذكير النعم:

في كل عام نعم تحوونه يسلقحه قوم وتنتجونه

وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر وشعبة عن عاصم «نسقيكم» بفتح النون، والباقون بضمها، كما تقدم بشواهد «في سورة الحجر».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

جمهور العلماء على أن المراد بالسكر في هذه الآية الكريمة الخمر؛ لأن العرب تطلق اسم السكر على ما يحصل به السكر، من إطلاق المصدر وإرادة الاسم، والعرب تقول: سكر «بالسكر» سَكْرًا «بفتحين» وسُكْرًا «بضم فسكون».

وقال الزمخشري في الكشاف: والسكر: الخمر؛ سميت بالمصدر من سَكَّرَ سَكْرًا وسُكْرًا، نحو رَشَدَ رَشْدًا ورُشِدًا. قال:

وجاءونا بهم سكر علينا فأجلى اليوم والسكران صاحي

اهـ

ومن إطلاق السكر على الخمر قول الشاعر:

بئس الصحاة وبئس شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر

ومن قال: بأن السكر في الآية الخمر: ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو رزين، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وابن أبي ليلى، والكلبي، وابن جبير، وأبو ثور، وغيرهم، وقيل: السكر: الخل، وقيل: الطعم وقيل: العصور الحلوة.

إذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور، وأن الله امتنَّ على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها، فاعلم أن هذه الآية مكية، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحة الخمر:

الأولى: آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعُفٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. وبعد نزولها تركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها آخرون للمنافع التي فيها.

الثانية: آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣].

الثالثة: آية المائدة الدالة على تحريمها تحريماً باتاً، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها؛ لأنه تعالى صرح بأنها رجس؛ وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها أمراً جازماً في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واجتناب الشيء: هو التباعد عنه، بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه، وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ويفهم منه أنه من لم يجتنبها لم يفلح، وهو كذلك. ثم بيّن بعض مفاسدها بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾. ثم أكد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ؟﴾ فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي «انتهاؤا» وقد تقرر في فن المعاني أن من معاني صيغ الاستفهام التي ترد لها الأمر؛ كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلَمْتُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي أسلموا،

والجار والمجرور في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ يتعلق به ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وكرر لفظ «من» للتأكيد، وأفرد الضمير في قوله: «منه» مراعاة للمذكور؛ أي تتخذون منه، أي مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب. ونظيره قول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

فقوله: «كأنه» أي ما ذكر من خطوط السواد والبلق. وقيل: الضمير راجع إلى محذوف دل المقام عليه؛ أي ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه، أي عصير الثمرات المذكورة. وقيل: قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿بِمَا فِي بَطُونِهِ﴾ أي نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل. وقيل: يتعلق به «نسقيكم» محذوفة دلت عليها الأولى؛ فيكون من عطف الجمل، وعلى الأول يكون من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل، وقيل: معطوف على «الأنعام» وهو أضعفها عندي.

وقال الطبري: التقدير، ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرًا، فحذف «ما».

قال أبو حيان (في البحر): وهو لا يجوز على مذهب البصريين. وقيل: يجوز أن يكون صفة موصوف محذوف، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه. ونظير هذا من كلام العرب قول الراجز:

مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر
جادت بكفي كان من أرمى البشر

أي بكفي رجل كان... إلخ. ذكره الزمخشري وأبو حيان.

قال مقبده - عفا الله عنه -: أظهر هذه الأقوال عندي: أن قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ يتعلق بـ «تتخذون» أي تتخذون من ثمرات النخيل، وأن «من» الثانية تأكيد للأولى، والضمير في قوله «منه» عائد إلى جنس الثمر المفهوم من ذكر الثمرات، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه: اعلم أن التحقيق على مذهب الجمهور أن هذه الآية الكريمة التي هي قوله - جل وعلا -: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ منسوخة بآية المائدة المذكورة، فما جزم به صاحب (مراقي السعود) فيه وفي شرحه (نشر البنود) من أن تحريم الخمر ليس نسخاً لإباحتها الأولى بناء على أن إباحتها الأولى إباحة عقلية، والإباحة العقلية هي البراءة الأصلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي، وهي ليست من الأحكام الشرعية؛ فرفعها ليس بنسخ. وقد بين في (المراقي): أنها ليست من الأحكام الشرعية بقوله:

وما من البراءة الأصلية قد أخذت فليست الشرعية

وقال أيضاً في إباحة الخمر قبل التحريم:

أباحها في أول الإسلام براءة ليست من الأحكام

كل ذلك ليس بظاهر، بل غير صحيح؛ لأن إباحة الخمر قبل التحريم دلت عليها هذه الآية الكريمة، التي هي قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، وما دلت على إباحته آية من كتاب الله لا يصح أن يقال: إن إباحته عقلية، بل هي إباحة شرعية منصوبة في كتاب الله، فرفعها نسخ، نعم! على القول بأن معنى السكر في الآية: الخل أو الطعم أو العصير؛ فتحريم الخمر ليس نسخاً لإباحتها، وإباحتها الأولى عقلية. وقد بينا هذا المبحث في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

فإن قيل: الآية واردة بصيغة الخبر، والأخبار لا يدخلها النسخ كما تقرر في الأصول. فالجواب: أن النسخ وارد على ما يفهم من الآية من إباحة الخمر، والإباحة حكم شرعي كسائر الأحكام قابل للنسخ، فليس النسخ وارداً على نفس الخبر، بل على الإباحة المفهومة من الخبر؛ كما حققه ابن العربي المالكي وغيره. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي التمر، والرطب، والعنب، والزبيب، والعصير ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾. المراد بالإحياء هنا: الإلهام، والعرب تطلق الإحياء على الإعلام بالشيء في خفية؛ ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾؛ أي ألهمها. وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً﴾ [مريم: ١١]؛ أي أشار إليهم، وسمى أمره للأرض إحياء في قوله: ﴿يَوْمَ يُزِيلُ نَجْدُتُ أَخْبَارَهَا﴾ ① بَانَ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ② [الزلزلة] ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

ف«الوحي» في البيت - بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الباء - جمع وحي بمعنى الكتابة، وسيأتي لهذه المسألة - إن شاء الله - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من الناس من يموت قبل بلوغ أَرْدَلِ العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أَرْدَلِ العمر، وأَرْدَلِ العمر: آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرديلة؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في سورة الحج: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَوِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، وقوله في الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. وأشار إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقال البخاري في صحيحه في الكلام على هذه الآية الكريمة: باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْكُمْ مَّنْ رُّدُّ إِلَّا أَوَّلَ الْعُمُرِ﴾ حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أخوذ بالله من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»، اهـ، وعن علي رضي الله عنه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وعن قتادة: تسعون سنة، والظاهر أنه لا تحديد له بالسنين. وإنما هو باعتبار تفاوت حال الأشخاص، فقد يكون ابن خمس وسبعين أضعف بدناً وعقلاً، وأشد خرفاً - من آخر ابن تسعين سنة، وظاهر قول زهير في معلقته:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

أن ابن الثمانين بالغ أرذل العمر، ويدل عليه قول الآخر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقوله: ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي يرد إلى أرذل العمر، لأجل أن يزول ما كان يعلم من العلم أيام الشباب، ويبقى لا يدري شيئاً؛ لذهاب إدراكه بسبب الخرف، والله في ذلك حكمة.

وقال بعض العلماء: إن العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرف، وضياح العلم والعقل من شدة الكبر؛ ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النبي: ٥ - ٦] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾. أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة أن الله ضرب فيها مثلاً للكفار، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله، ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء الله في حقه على خلقه، الذي هو إخلاص العبادة له وحده، أي إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم - فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ١٢٨]. ويؤيده أن «ما» في قوله: ﴿فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ نافية؛ أي ليسوا برادي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم، اهـ.

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم - فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته! مع اعترافهم بأنها ملكه، كما كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، والله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ سُلْحَةً لِّبَعْضٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿عَلَى الْمَوْسَى قَدَرُهُ وَعَلَى الْقَهْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] إلى غير ذلك من الآيات، وفي معنى الآية الكريمة قولان آخران:

أحدهما: أن معناها أنه جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم؛ فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تساوا في الملبس والمطعم، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر مالكي العبيد «أن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون». وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿فَمَا إِلَيْكَ قُضِلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ لوم لهم، وتقريع على ذلك.

وثانيهما: أن معنى الآية: أنه - جل وعلا - هو رازق المالكين والمملوكين جميعاً، فهم في رزقه سواء، فلا يحسن المالكون أنهم يردون على ممالئهم شيئاً من الرزق، فإنما ذلك رزق الله يجريه لهم على أيديهم. والقول الأول هو الأظهر وعليه جمهور العلماء، ويدل عليه القرآن كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿أَفَبِعَمَةٍ أَلَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته؛ لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله، فيستعين بكل ما أنعم به عليه على معصيته، فإنه يرزقهم ويعافيهم، وهم يعبدون غيره. ووجد: تتعدى بالباء في اللغة العربية، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١] والجحود بالنعمة هو كفرانها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه امتن على بني آدم أعظم من أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه أعظم الآيات الدالة على أنه - جل وعلا - هو المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح في غير هذا الموضع أن هذه نعمة عظيمة، وأنها من آياته - جل وعلا -؛ كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله: ﴿يَخْتَصِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَكَ سُدًى﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَلَانٍ فَسْوَى﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

واختلف العلماء في المراد بالحفدة في هذه الآية الكريمة؛ فقال جماعة من العلماء الحفدة: أولاد الأولاد؛ أي وجعل لكم من أزواجكم بنين، ومن البنين حفدة. وقال بعض العلماء: الحفدة الأعوان والخدم مطلقاً؛ ومنه قول جميل:

حفد الولائد حولهن وأسلمت بأكفهن أزمة الأجمال

أي أسرع الولائد الخدمة، والولائد الخدم، الواحدة وليدة، ومنه قول الأعشى:

كلفتم مجهولها نوقاً يمانية إذا الحداة على أكسائها حفدوا

أي أسرعوا في الخدمة، ومنه قوله في سورة الحفد التي نسخت: «واليك نسعي ونحفد»؛ أي نسرع في طاعتك. وسورة الخلع وسورة الحفد اللتان نسختا يسن عند المالكية القنوت بهما في صلاة الصبح كما هو معروف.

وقيل: الحفدة الأختان، وهم أزواج البنات، ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس علي أبية عيوف لإصهار اللثام قدور

والقدور: التي تنتزه عن الوقوع فيما لا ينبغي؛ تباعداً عن التدنس بقدره.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الحفدة: جمع حافد، اسم فاعل من الحفد، وهو الإسراع في الخدمة والعمل. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة قول بعض العلماء في الآية؛ فبين ذلك.

وفي هذه الآية الكريمة قرينة دالة على أن الحفدة أولاد الأولاد؛ لأن قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ دليل ظاهر على اشتراك البنين والحفدة في كونهم من أزواجهم، وذلك دليل على أنهم كلهم من أولاد أزواجهم. ودعوى أن قوله: «وحفدة» معطوف على قوله «أزواجاً» غير ظاهرة. كما أن دعوى أنهم الأختان، وأن الأختان أزواج بناتهن، وبناتهن من أزواجهم، وغير ذلك من الأقوال - كله غير ظاهر. وظاهر القرآن هو ما ذكر، وهو اختيار ابن العربي المالكي والقرطبي وغيرهما، ومعلوم أن أولاد الرجل، وأولاد أولاده: من خدمه المسرعين في خدمته عادة. والعلم عند الله تعالى.

وهناك أقوال مستنبطة من الآية للعلماء في جواز وقوع النكاح بين الجن والإنس والإنس والجن يرجع إليها من أراد للأصل وخلاصة رأي الشيخ في المسألة هو:

قال مقبده - عفا الله عنه -: لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ نصاً يدل على جواز مناكحة الإنس الجن، بل الذي يستروح من ظواهر الآيات عدم جوازه، فقول في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾... الآية، ممتناً على بني آدم بأن أزواجهم من نوعهم وجنسهم - يفهم منه أنه ما جعل لهم أزواجاً تباينهم

كمباينة الإنس للجن، وهو ظاهر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. فقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ في معرض الامتنان - يدل على أنه ما خلق لهم أزواجاً من غير أنفسهم؛ ويؤيد ذلك ما تقرر في الأصول من «أن النكرة في سياق الامتنان تعم» فقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ جمع منكر في سياق الامتنان فهو يعم، وإذا عمَّ دل ذلك على حصر الأزواج المخلوقة لنا فيما هو من أنفسنا، أي من نوعنا وشكلنا، مع أن قوماً من أهل الأصول زعموا «أن الجموع المنكرة في سياق الإثبات من صيغ العموم»، والتحقيق أنها في سياق الإثبات لا تعم، وعليه درج في (مراقي السعود) حيث قال في تعداده للمسائل التي عدم العموم فيها يصح:

منه منكر الجموع عرفاً وكان والذي عليه انعطفاً

أما في سياق الامتنان فالنكرة تعم. وقد تقرر في الأصول «أن النكرة في سياق الامتنان تعم»، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] أي فكل ماء نازل من السماء طهور، وكذلك النكرة في سياق النفي أو الشرط أو النهي، كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آيَاتًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. ويستأنس لهذا بقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٣١] فإنه يدل في الجملة على أن تركهم ما خلق الله لهم من أزواجهم، وتعديه إلى غيره يستوجب الملام، وإن كان أصل التوبيخ والتقريع على فاحشة اللواط؛ لأن أول الكلام: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٩] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] فإنه وبخهم على أمرين: أحدهما: إتيان الذكور. والثاني: ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم.

وقد دلت الآيات المتقدمة على أن ما خلق لهم من أزواجهم، هو الكائن من أنفسهم؛ أي من نوعهم وشكلهم؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾... الآية [الروم: ٢١]، فيفيد أنه لم يجعل لهم أزواجاً من غير أنفسهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [٧٣]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات بإتزال المطر، ولا من الأرض بإنبات النبات، وأكد عجز معبوداتهم عن ذلك بأنهم لا يستطيعون، أي لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً؛ لأنهم جماد ليس فيه قابلية استطاعة شيء.

ويفهم من الآية الكريمة أنه لا يصح أن يعبد إلا من يرزق الخلق؛ لأن أكلهم رزقه، وعبادتهم غيره كفر ظاهر لكل عاقل، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية الكريمة بينه -

جل وعلا - في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقوله: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات] وقوله: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ النَّاسِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْمَعُ عَلَيْهِ الشُّكُورُ﴾ [١٤]، وقوله: ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْلَحَ عَلَيْهَا لَا تُشْكِكَ رِزْقًا نَحْنُ زُرُّقُكَ وَالْمَنْقِبَةُ لِلنَّقِيِّ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: في قوله: ﴿شَيْئًا﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول: أن قوله ﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وأن ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لهذا المصدر؛ أي ويعيدون من دون الله ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً من الرزق. ونظير هذا الإعراب قوله تعالى: ﴿أَوْ اطْعَمُوا فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَرٍ﴾ [٤] يَتِيمًا [البلد: ١٤، ١٥]. فقوله: ﴿يَتِيمًا﴾ مفعول به للمصدر الذي هو إطعام؛ أي أن يطعم يتيماً ذا مقربة. ونظيره من كلام العرب قول المرار بن منقذ التميمي:

بضرب بالسيف رؤوس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

فقوله: «رؤوس قوم» مفعول به للمصدر المنكر الذي هو قوله «بضرب» وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

بفعله المصدر الحق في العمل مضافاً أو مجرداً أو مع أل

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿شَيْئًا﴾ بدل من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ بناء على أن المراد بالرزق هو ما يرزقه الله عباده؛ لا المعنى المصدري.

الوجه الثالث: أن يكون قوله: ﴿شَيْئًا﴾ ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يَمْلِكُ﴾؛ أي لا يملك شيئاً من الملك، بمعنى لا يملك ملكاً قليلاً أن يرزقهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة خلقه أن يضربوا له الأمثال؛ أي يجعلوا له أشبهاً ونظراء من خلقه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ أظهر الأقوال فيها، أن المعنى أن الله إذا أراد الإتيان بها فهو قادر على أن يأتي بها في أسرع من لمح البصر؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٥].

وقال بعض العلماء: المعنى هي قريب عنده تعالى كلمح البصر وإن كانت بعيداً عندهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ﴾ [المعارج]، وقال: ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. واختار أبو حيان (في البحر المحيط): أن «أو» في قوله «أو هو أقرب» للإيهام على المخاطب، وتبع في ذلك الزجاج، قال: ونظيره ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿أَتُنْهَآ أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أخرج بني آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجعل لهم الأسماع والأبصار والأفئدة؛ لأجل أن يشكروا له نعمه. وقد قدمنا: أن «لعل» للتعليل. ولم يبين هنا هل شكروا أو لم يشكروا؛ ولكنه يبين في مواضع أخرى: أن أكثرهم لم يشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: لم يأت السمع في القرآن مجموعاً، وإنما يأتي فيه بصيغة الأفراد دائماً، مع أنه يجمع ما يذكر معه كالأفئدة والأبصار. وأظهر الأقوال في نكتة إفراذه دائماً: أن أصله مصدر سمع سمعاً، والمصدر إذا جعل اسماً ذكر وأفرد؛ كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ أَسْمَاءَ مَا يُعْسِكُن إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٧٨]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن تسخير الطير في جو السماء ما يمسكها إلا هو - من آياته الدالة على قدرته، واستحقاقه لأن يعبد وحده، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلٌ وَيَقِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٨].

تنبيه: لم يذكر علماء العربية الفعل - بفتح فسكون - من صيغ جموع التذكير.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية أن الفعل - بفتح فسكون - جمع تكسير لفاعل وصفاً لكثرة وروده في اللغة جمعاً له، كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ [الملك: ١٩]، فالطير جمع طائر، وكالصحب فإنه جمع صاحب، قال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم

فقوله «صحبي» أي أصحابي، والركب فإنه جمع راكب، قال تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقال ذو الرمة:

أستحدث الركب عن أشياعهم خبراً

أم راجع القلب من أطرابه طرب

فالركب جمع راكب، وقد رد عليه ضمير الجماعة في قوله: «عن أشياعهم» وكالشرب فإنه جمع شارب؛ ومنه قول نابغة ذبيان:

كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد
فإنه رد على الشرب ضمير الجماعة في قوله: «نسوه... إلخ». وكالسفر فإنه جمع سافر؛ ومنه حديث «أتموا فإنما قوم سفر»، وقول الشنفرى:

كأن وغاها جرتيه وجاله أضاميم من سفر القبائل نزل
وكالرجل جمع راجل؛ ومنه قراءة الجمهور: «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» بسكون الجيم، وأما على قراءة حفص عن عاصم بكسر الجيم، فالظاهر أن كسرة الجيم إتباع لكسرة اللام؛ فمعناه معنى قراءة الجمهور، ونحو هذا كثير جداً في كلام العرب، فلا نطيل به الكلام، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَيبَ لَكُمْ تَقِيَكُمْ أَلْحَرَ وَسَرَيبَ تَقِيَكُمْ بِأَسْكُمُ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة منته على خلقه بأن جعل لهم سرايب تقيهم الحر، أي والبرد؛ لأن ما يقي الحر من اللباس يقي البرد. والمراد بهذه السرايب: القمصان ونحوها من ثياب القطن والكتان والصوف، وقد بين هذه النعمة الكبرى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿يَبْقَى عَادَمٌ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَ دِيْنِكَ وَرِيْثًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله: ﴿يَبْقَى عَادَمٌ حُدُوْا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ أي وتلك الزينة هي ما خلق الله لهم من اللباس الحسن، وقوله هنا: ﴿وَسَرَيبَ تَقِيَكُمْ بِأَسْكُمُ﴾ المراد بها الدروع ونحوها، مما يقي لابسها وقع السلاح، ويسلمه من بأسه. وقد بين أيضاً هذه النعمة الكبرى، واستحقاق من أنعم بها لأن يشكر له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨١]. وإطلاق السرايب على الدروع ونحوها معروف، ومنه قول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرايب
قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعرفون نعمة الله؛ لأنهم يعلمون أنه هو الذي يرزقهم ويعافهم، ويدير شؤونهم، ثم ينكرون هذه النعمة؛ فيعبدون معه غيره، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِنْ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]. فقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ دليل على معرفتهم نعمته. وقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ دليل على إنكارهم لها، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وروي عن مجاهد أن سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ

فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَمَلَ لَكُمْ مِنْ تُوبَتِكُمْ سَكًا﴾ فقال الأعرابي: نعم! قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا...﴾ الآية، قال الأعرابي: نعم! ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم! حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ فولى الأعرابي؛ فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا...﴾ الآية.

وعن السدي رحمه الله: «يعرفون نعمة الله» أي نبوة محمد ﷺ ثم ينكرونها؛ أي يكذبونه وينكرون صدقه.

وقد بين - جل وعلا -: أن بعثه نبيه ﷺ فيهم من ممن الله عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران؛ وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقيل: يعرفون نعمة الله في الشدة، ثم ينكرونها في الرخاء. وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك، كقوله: ﴿فَلَمَّا بَجَّنَهُمْ إِلَى آلِ لَبِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوها الآيات - إلى غير ذلك من الأقوال في الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾ قال بعض العلماء: معناه أنهم كلهم كافرون، أطلق الأكثر وأراد الكل، قاله القرطبي والشوكاني. وقال الشوكاني: أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم. أو أراد كفر الجحود، ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله: ﴿لَا يُؤْذِنُ﴾ ولكنه بين في (المرسلات) أن متعلق الإذن الاعتذار؛ أي لا يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله، وذلك في قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [٣٦] [المرسلات].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم؛ كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ سَوِيٍّ﴾، وقوله: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات. فالجواب من أوجه:

منها: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم: اخسئوا فيها ولا تكلمون، انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٨٥] [النمل].

ومنها: أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة، أما الاعتذار الذي لا فائدة فيه فهو كالعدم، يصدق عليه في لغة العرب أنه ليس بشيء؛ ولذا صرح تعالى بأن المنافقين بكم في قوله: ﴿صُمْ بِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨] مع قوله عنهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. وقال عنهم أيضاً: ﴿إِذَا ذُهِبَ الْحَوْثُ﴾

سَلَفُوكُمْ بِالْأَيْسَةِ حِدَادٍ» [الأحزاب: ١٩] فهذا الذي ذكره - جل وعلا - من فصاحتهم وحدة الاستنهم، مع تصريحه بأنهم بكم - يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح. وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن كلام المرء في غير كنهه كالنبل تهوي ليس فيها نصالها

وقد بينا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في مواضع منه. والترتيب بـ«ثم» في قوله في هذه الآية الكريمة: «ثُمَّ لَا يُوَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» على قوله: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا» لأجل الدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع من الاحتذار المشعر بالإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم بكفرهم. قوله تعالى: «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

اعلم أولاً: أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طالب العتبي؛ أي الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره. وتستعمل أيضاً في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبي؛ أي رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى، فإذا علمت ذلك - فاعلم أن في قوله: «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» وجهين من التفسير متقاربي المعنى.

قال بعض أهل العلم: «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»؛ أي لا تطلب منهم العتبي، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا. وقال بعض العلماء: «ولا هم يستعتبون»؛ أي يعتبون، بمعنى يزال عنهم العتب، ويعطون العتبي وهي الرضا؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين، وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور: «وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ» [فصلت: ٢٤]؛ أي وإن يطلبوا العتبي - وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين بصيغته اسم المفعول؛ أي المعطين العتبي وهي الرضا عنهم؛ لأن العرب تقول: أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمن المنون ورببه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

أي لا يرجع الدهر إلى مسرة من جزع ورضاه. وقول النابغة:

فإن كنت مظلوماً فعبد ظلمته وإن كنت ذا عتبي فمثلك يعتب

وأما قول بشر بن أبي خازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصيلم

يعني أعتبناهم بالسيف، أي أرضيناهم بالقتل؛ فهو من قبيل التهكم، كقول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

لأن القتل ليس بإرضاء، والضرب الوجيع ليس بتحية. وأما على قراءة من قرأ «وإن

يستعتبوا» بالبناء للمفعول «فما هم من المعتبين» بصيغة اسم الفاعل، فالمعنى أنهم لو طلبت منهم العتبي وردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله، فما هم من المعتبين؛ أي الراجعين إلى ما يرضي ربهم، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولاً، وهذه القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم، ولا ينظرون؛ أي لا يمهلون، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى، وبين أنهم يرون النار، وأنها تراهم، وأنها تكاد تقطع من شدة الغيظ عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْتَهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٢﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا مَا غِطُّوا وَزَفَرُوا﴾ ﴿٧٦﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿٧٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧ - ٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك! وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك فيقولون لهم: كذبت! ما كنتم إيانا تعبدون! وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الأحقاف]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨٦﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٧﴾ [مريم]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَكُم مِّنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقوله: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِِنَّا نَكَاذِبُونَ﴾ [يونس: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل: كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم؟ مع أن الواقع خلاف ما قالوا، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله!

فالجواب: أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وأن عبادتهم حق، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب وأشنع الافتراء؛ ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون. ومراد الكفار بقولهم

لربهم: هؤلاء شركاؤنا، قيل: ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم. وقيل: ليكونوا شركاءهم في العذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعاً في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيراً بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم؛ بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده - جل وعلا -.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٨٧] إلحاقهم إلى الله السلم، هو انقيادهم له، وخضوعهم؛ حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: ﴿وَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾. والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات] وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] ونحو ذلك من الآيات، وقد قدما طرفاً من ذلك في الكلام على قوله: ﴿وَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي غاب عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وكقوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]. وقد قدما معاني «الضلال» في القرآن وفي اللغة بشواهدا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [٨٨]. اعلم أولاً أن «صد» تستعمل في اللغة العربية استعمالين: أحدهما: أن تستعمل متعدية إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفنح: ٢٥]، ومضارع هذه المتعدية «يصد» بالضم على القياس، ومصدرها «الصد» على القياس أيضاً. والثاني: أن تستعمل «صد» لازمة غير متعدية إلى المفعول، ومصدر هذه «الصدود» على القياس، وفي مضارعها الكسر على القياس، والضم على السماع؛ وعليهما القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بالكسر والضم.

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ محتمل لأن تكون «صد» متعدية، والمفعول محذوف للدلالة المقام عليه؛ على حد قوله في الخلاصة:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

ومحتمل لأن تكون «صد» لازمة غير متعدية إلى المفعول، ولكن في الآية الكريمة ثلاث قرائن تدل على أن «صد» متعدية، والمفعول محذوف؛ أي وصدوا الناس عن سبيل الله.

الأولى: أنا لو قدرنا «صد» لازمة، وأن معناها: صدودهم في أنفسهم عن الإسلام - لكان ذلك تكراراً من غير فائدة مع قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بل معنى الآية: كفروا في أنفسهم، وصدوا غيرهم عن الدين فحملوه على الكفر أيضاً.

القرينة الثانية: قوله تعالى: ﴿يَذْتَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾؛ فإن هذه الزيادة من العذاب لأجل إضلالهم غيرهم، والعذاب المزيده فوقه: هو عذابهم على كفرهم في أنفسهم؛ بدليل قوله في المضللين الذين أضلوا غيرهم: ﴿يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ كما تقدم إيضاحه.

القرينة الثالثة: قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ فإنه يدل على أنهم كانوا يفسدون على غيرهم مع ضلالهم في أنفسهم، وقوله: ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي الذي استحقوه بضلالهم وكفرهم، وعن ابن مسعود: أن هذا العذاب المزيده: عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعي كأنها البخاتي تضربهم، أعادنا الله وإخواننا المسلمين منها! والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يوم القيامة يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأنه يأتي نبينا ﷺ شاهداً علينا. وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ﴾ (١) يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْآرُضُ [النساء: ٤١ - ٤٢]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وكقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۚ﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قال: فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت «سورة النساء» حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ﴾ [النساء] فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، اهـ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ منصوب بـ «اذكر» مقدراً، والشاهد في هذه الآية فاعيل بمعنى فاعل، أي شاهداً عليهم من أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبياناً لكل شيء. وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن، أما على القول بأنه اللوح المحفوظ - فلا بيان بالآية،

وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال السيوطي في «الإكليل في استنباط التنزيل» قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: «ستكون فتن». قيل: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم». أخرجه الترمذي وغيره. وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا خديج بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين. قال البيهقي: أراد به أصول العلم. وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن: المفصل، ثم أودع علوم المفصل: فاتحة الكتاب؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة، أخرجه البيهقي في «الشعب».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع شرح السنة شرح للقرآن.

وقال بعض السلف: ما سمعت حديثاً إلا التمسث له آية من كتاب الله.

وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله. أخرجه ابن أبي حاتم، وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله، أخرجه ابن أبي حاتم، وقال ابن مسعود أيضاً: أنزل في القرآن كل علم، ويبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما يبين لنا في القرآن. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخرولة والبعوضة»، وقال الشافعي أيضاً: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه»، رواه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط من حديث عائشة.

وقال الشافعي أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة؟ قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة؛ لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله.

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم، أخبركم عنه من كتاب الله. فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وحدثنا سفيان بن عيينة،

عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتلوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر». وحدثنا سفيان، عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وروى البخاري عن ابن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله» فقالت له امرأة في ذلك. فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله. فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! قال: لئن قرأته لقد وجدته! أما قرأت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا قَحْطُودًا وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنَّهُمْ» [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه.

وقال ابن بركان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهم، أو عمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به.

وقال غيره: ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله تعالى؛ حتى إن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين من قوله «في سورة المنافقين»: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ فِتْنًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا» [المنافقون: ١١] فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها «بالتغابن» ليظهر التغابن في فقده.

وقال المرسى: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحيط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر الله به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم؛ مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله. ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه؛ فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتني قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعد كلماته وآياته، وسوره وأجزائه، وأنصافه وأرباعه، وعدد سجدياته، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة؛ من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه؛ فسموا القراء.

واعتني النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها. وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به؛ حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتني المفسرون بالفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل

على معنيين، ولفظاً على أكثر؛ فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا الخفي منه، وخاضوا إلى ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة؛ فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله وجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به؛ وسموا هذا العلم بـ«أصول الدين».

وتأملت طائفة معاني خطابه؛ فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى الخصوص، إلى غير ذلك؛ فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والإضمار، والنص والظاهر، والمجمل والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء؛ وسموا هذا الفن «أصول الفقه».

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً؛ وسموه بـ«علم الفروع» وبـ«الفقه أيضاً».

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم؛ حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء؛ وسموا ذلك بـ«التاريخ والقصص».

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والخشر؛ والحساب والعقاب، والجنة والنار - فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر؛ فسموا بذلك «الخطباء والوعاظ».

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير؛ مثل ما ورد في قصة يوسف: من البقرات الشمان، وفي منامي صناعجي السجن، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم ساجدات، وسموه «تعبير الرؤيا»؛ واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب؛ فإن عز عليهم إخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة الكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال. ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم، وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأخذ قوم مما في آيات الموارد من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك «علم الفرائض» واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث، والرابع والسادس والثلثين «حساب الفرائض»، ومسائل العول؛ واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك - فاستخرجوا «علم المواقيت».

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطيع والمخالص والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه «علم المعاني والبيان والبديع».

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة؛ فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلاحوا عليها، مثل الغناء والبقاء، والحضور والخوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل، مثل: الطب والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك.

أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة؛ وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعاً للكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شَرَابٌ مَّخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُخَفِّي مِنَ اللَّهِ ۚ﴾ [المرسلات: ٢١] فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور ذكر عدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروباً بعضها في بعض.

وأما النجامة: ففي قوله: ﴿أَوْ أَتَنَزَّوْنَ مِنْ عَلَوٍ﴾ [الأحقاف: ٤] فقد فسره ابن عباس بذلك.

وفيه من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها - فمن الصنائع الخياطة في قوله: ﴿وَطَوِّفَا بِمِصْرَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. والحدادة في قوله تعالى: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠]. والبناء في آيات، والنجارة

﴿أَنِ اصْنَعِ الْفَلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والغزل ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾، والنسج ﴿كَمَثَلِ الْفَخْرِصِ﴾
 أَخَذَتْ بَيْتًا [العنكبوت: ٤١]، والفلاحة ﴿أَفَرَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة] في آيات أخر،
 والصيد في آيات، والغوص ﴿وَالسَّيِّطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً﴾
 والصياغة ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُؤَسَّى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، والزجاجة ﴿صَرَّحَ﴾
 مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ [النمل: ٤٤]، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، والفخارة ﴿فَأَوْقَدَ لِي﴾
 يَهْمَمُنْ عَلَى الطِّينِ [القصاص: ٢٨]، والملاحة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾
 [الكهف: ٧٩]، والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] في آيات أخر، والخبز والطحن ﴿أَحْمِلْ﴾
 قَوْكَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ [يوسف: ٣٦]، والطبخ ﴿يَعْبَلُ حَنِيزٌ﴾ [هود: ٦٩]، والغسل
 والقصارة ﴿وَبَالَكَ فَأَخَذَ﴾ [المدثر: ١]، ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ﴾ [المائدة: ١١٢] وهم القصارون،
 والحزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والبيع والشراء في آيات كثيرة، والصبغ ﴿مِصْبَغٌ﴾
 اللَّهُ [البقرة: ١٣٨]، ﴿جُدُّ بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٣٧]، والحجارة ﴿وَتَنَحُّنُ مِنْ أَلْجَالٍ﴾
 يُونَا [الأعراف: ٧٤]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمي ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾
 [الأنفال: ١٧]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع
 ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾
 [الأنعام: ٣٨]. انتهى كلام المراسي ملخصاً مع زيادات.

قلت: قد اشتمل كتاب الله على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا
 مسألة هي أصل، إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه علم عجائب المخلوقات،
 وملوك السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق،
 وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة؛ كقصة آدم مع إبليس في
 إخراجه من الجنة، وفي الولد الذي سماه عبد الحارث، ورفع إدريس وإغراق قوم نوح،
 وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود، والناقة، وقوم لوط، وقوم شعيب الأولين والآخرين
 فإنه أرسل مرتين. وقوم تبع، ويونس، وإلياس، وأصحاب الرس، وقصة موسى في
 ولادته وفي إلقائه في اليم، وقتله القبطي، ومسيره إلى مدين وتزوجه ابنة شعيب،
 وكلامه تعالى بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه وإغراق عدوه، وقصة العجل،
 والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القتال وذبح البقرة، وقصته في قتال
 التجارين، وقصته مع الخضر، والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين،
 وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ وفتنته، وقصة
 القوم الذين خرجوا فراراً من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في
 مجادلته قومه، ومناظرته النمرود، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة
 الذبيح، وقصة يوسف وما أبسطها، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعها، وقصة
 زكريا وابنه يحيى، وأيوب وذئ الكفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس

ومغربها وبنائه السد، وقصة أصحاب الكهف والرقيم، وقصة يختنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل، وقصة الجبار الذي أراد أن يصعد إلى السماء، وفيه من شأن النبي ﷺ دعوة إبراهيم به، وبشارة عيسى وبعثه وهجرته. ومن غزواته: غزوة بدر (في سورة الأنفال) وأحد (في آل عمران) وبدر الصغرى فيها، والخندق (في الأحزاب)، والنضير (في الحشر)، والحديبية (في الفتح)، وتبوك (في براءة)، وحجة الوداع (في المائدة)، ونكاحه زينب بنت جحش، وتحريم سريته، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للمؤمننة وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشرط الساعة الكبرى العشرة، وهي:

نزل عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وظلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة، والخسف.

وأحوال البعث: من نفخة الصور، والفرع، والصعق، والقيام، والحشر والنشر، وأحوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإتياء الكتب بالإيمان والشمائل وخلف الظهور، والشفاعاة، والجنة وأبوابها، وما فيها من الأشجار والثمار والأنهار، والحلي والألوان، والدرجات، ورؤيته تعالى، والنار وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب، وألوان العذاب، والزقوم والحميم، إلى غير ذلك مما لو بسط جاء في مجلدات. وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى كما ورد في حديث، وفيه من أسمائه مطلقاً ألف اسم، وفيه من أسماء النبي ﷺ جملة.

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون، وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة، وفيه أنواع الكبائر وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي ﷺ، هذه جملة القول في ذلك، اه كلام السيوطي (في الإكليل).

وإنما أوردناه برمته مع طوله؛ لما فيه من إيضاح أن القرآن فيه بيان كل شيء، وإن كان في الكلام المذكور أشياء جديرة بالانتقاد تركنا مناقشتها خوف الإطالة المملة، مع كثرة الفائدة في الكلام المذكور في الجملة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْنَا لَكُمْ شَيْءًا﴾ وجهان من الإعراب:

أحدهما: أنه مفعول من أجله، والثاني: أنه مصدر منكر واقع حالاً؛ على حد

قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

تنبيه: أظهر القولين: أن التبيان مصدر، ولم يسمع كسر تاء التفعال مصدراً إلا في التبيان والتلقاء. وقل بعض أهل العلم: التبيان اسم لا مصدر. قال أبو حيان (في البحر): والظاهر أن «تبياناً» مصدر جاء على تفعال. وإن كان باب المصادر يجيء على تفعال (بالفتح) كالترداد والتطواف. ونظير تبيان في كسر تائه: تلقاء، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. وقال ابن عطية: «تبياناً» اسم وليس بمصدر؛ وهو قول أكثر النحاة. وروى ثعلب عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين: أنه مصدر، ولم يجئ على تفعال من المصادر إلا ضربان: تبيان وتلقاء، اهـ - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَيُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، ويفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة - أي مفهوم مخالفتها - أن غير المسلمين ليسوا كذلك، وهذا المفهوم من هذه الآية صرح به - جل وعلا - في مواضع أخرى، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [انصت: ٤٤]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٧٤] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٧٥]، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغى؛ لأجل أن يتعتظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه. وحذف مفعول «يأمر، وينهى» لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْسَنُوا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٢٨]،

وقوله: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْدِيرًا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿وَمَاتَ الْمَالُ عَلَى حَبْلِهِ ذَوَى الْقَرْيَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان قوله: ﴿وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلِإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَدَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٢]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور، وأصله التوسط بين المرتبتين؛ أي الإفراط والتفريط، فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحو: أحسن إلى والديك؛ ومنه قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وتستعمل متعدية بنفسها كقولك: أحسن العامل عمله، أي أجاده وجاء به حسناً. والله - جل وعلا - يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة؛ لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقد قدمنا إيضاح ذلك في سورة هود.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا، كقول ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط، ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن؛ ولذا قال النبي ﷺ في الرجل الذي

حلف لا يزيد على الواجبات: «أفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». وكقول سفيان: العدل: استواء العلانية والسريرة. والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وكقول علي عليه السلام: العدل: الإنصاف. والإحسان: التفضل. إلى غير ذلك من أقوال السلف. والعلم عند الله تعالى وقوله: ﴿يُعْظِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. الوعظ: الكلام الذي تلين له القلوب.

تنبيه: فإن قيل: يكثر في القرآن إطلاق الوعظ على الأوامر والنواهي، كقوله هنا: ﴿يُعْظِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مع أنه ما ذكر إلا الأمر والنهي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ...﴾ الآية، وكقوله في سورة البقرة بعد أن ذكر أحكام الطلاق والرجعة: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقوله في سورة الطلاق في نحو ذلك أيضاً: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]. وقوله في النهي عن مثل قذف عائشة: ﴿يُعْظِكُمُ اللَّهُ أَنْ تُؤَدُّوا لِعُنَّتِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]. مع أن المعروف عند الناس أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك لا بالأمر والنهي.

فالجواب: أن ضابط الوعظ هو الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيهم؛ فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله. وإذا سمعوا النهي خافوا من سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه؛ فحداهم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً، والفحشاء في لغة العرب: الخصلة المتناهية في القبح؛ ومنه قيل لشديد البخل: فاحش؛ كما في قول طرفة في معلقته:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيمة مال الفاحش المتشدد

والمنكر اسم مفعول أنكر؛ وهو في الشرع: ما أنكره الشرع ونهى عنه، وأوعد فاعله العقاب. والبغي: الظلم.

وقد بين تعالى أن الباغي يرجع ضرر بغيه على نفسه في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقوله: ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾؛ أي صاحب القرابة من جهة الأب أو الأم، أو هما معاً؛ لأن إيتاء ذي القربى صدقة وصلة رحم، والإيتاء: الإعطاء. وأحد المفعولين محذوف؛ لأن المصدر أضيف إلى المفعول الأول وحذف الثاني. والأصل: وإيتاء صاحب القرابة؛ كقوله: ﴿وَمَاتَى أَمَّا عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى﴾... الآية [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾. أمر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا في مواضع أخر كقوله (في الأنعام): ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ﴾... الآية [الأنعام: ١٥٢]، وقوله في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقد قدمنا هذا في الأنعام.

وبين في موضع آخر أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك؛ وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ تَكُنْ فَإِنَّمَا يَنْتُكَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلُ حَبَّةٍ مِنْ خَمْصٍ﴾ [الفتح: ١٠]. وبين في موضع آخر أن نقض الميثاق يستوجب اللعن؛ وذلك في قوله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيَسْئَلَهُمْ لَعْنُهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ما عنده من نعيم الجنة باق لا يفنى، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ يُحْدِثُ﴾، [هود: ١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ فَنَاءٍ﴾ [ص: ١]، وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا يَكْتُمُونَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أقسم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سيجزي الذين صبروا أجراً - أي جزاء عملهم - بأحسن ما كانوا يعملون. وبين في موضع آخر أنه جزاء بلا حساب، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الْقَصِيرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

تنبيه: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن فعل المباح حسن؛ لأن قوله في هذه الآية: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صيغة تفضيل تدل على المشاركة، والواجب أحسن من المندوب، والمندوب أحسن من المباح، فيجازون بالأحسن الذي هو الواجب والمندوب، دون مشاركتها في الحسن وهو المباح؛ وعليه درج في (مراقي السعود) في قوله:

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

إلا أن الحسن ينقسم إلى حسن وأحسن؛ ومن ذلك قوله تعالى لموسى: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَاهُ وَأَمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. فالجزء المنصوص عليه في قوله: ﴿وَأَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ حسن. والصبر المذكور في قوله: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أحسن، وهكذا، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وعاصم وابن ذكوان بخلف عنه «ولنجزي» بنون العظمة. وقرأه الباقر بالياء، وهو الطريق الثاني لابن ذكوان.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن كل عامل سواء كان ذكراً أو أنثى عمل عملاً صالحاً فإنه - جل وعلا - يقسم ليحييه حياة طيبة، وليجزيه أجره بأحسن ما كان يعمل.

اعلم أولاً أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور: الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصاً لله تعالى؛ لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلِ اللَّهُ عَبْدٌ مُخْلِصٌ لِرَبِّهِ﴾ [١٥]، ﴿الزمر: ١٤ - ١٥﴾.

الثالث: أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ففقد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمنين: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كُرْهِيًّا بِقِيَعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كُرْهًا أَشْتَدَّ يَوْمَ الْبَيْعِ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات، واختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة.

فقال قوم: لا تطيب الحياة إلا في الجنة، فهذه الحياة الطيبة في الجنة؛ لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْكَ الذَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. والمراد بالحيوان: الحياة.

وقال بعض العلماء: الحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة في الدنيا؛ وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال مقبده - عفا الله عنه -: وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة، وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكراراً معه؛ لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم؛ بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا؛ فإنه يصير المعنى: فلنجزينهم في الدنيا حياة طيبة، ولنجزينهم في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح.

وهذا المعنى الذي دل عليه القرآن تؤيده السنة الثابتة عنه ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه - إلى أن قال - وقال الضحاك: هي الرزق الحلال، والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آناه». ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به. وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ، عن أبي علي الجبني، عن فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به» وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» انفرد بإخراجه مسلم، اه من ابن كثير.

وهذه الأحاديث ظاهرة في ترجيح القول: بأن الحياة الطيبة في الدنيا؛ لأن قوله ﷺ: «أفلح» يدل على ذلك؛ لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة. وكذلك قوله ﷺ: «يعطى بها في الدنيا» يدل على ذلك أيضاً. وابن كثير إنما ساق الأحاديث المذكورة لينبه على أنها ترجح القول المذكور. والعلم عند الله تعالى.

وقد تقرر في الأصول: أنه إذا دار الكلام بين التوكيد والتأسييس رجح حمله على التأسييس؛ وإليه أشار في (مراقي السعود) جامعاً له مع نظائر يجب فيها تقديم الراجح من الاحتمالين بقوله:

كذلك ما قابل ذا اعتلال	من التأصل والاستقلال
ومن تأسس عموم وبقا	الأفراد والإطلاق مما ينتقى
كذلك ترتيب لإيجاب العمل	بما له الرجحان مما يحتمل

ومعنى كلام صاحب (المراقي) أنه يقدم محتمل اللفظ الراجح على المحتمل المرجوح، كالتأصل، فإنه يقدم على الزيادة: نحو: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١] يحتمل كون الكاف زائدة، ويحتمل أنها غير زائدة، والمراد بالمثل الذات؛ كقول العرب: مثلك لا يفعل هذا، يعنون أنت لا ينبغي لك أن تفعل هذا، فالمعنى ليس كالله شيء. ونظيره من إطلاق المثل وإرادة الذات: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» [الأحقاف: ١٠] أي على نفس القرآن لا شيء آخر مماثل له، وقوله: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ» [الأنعام: ١٢٢] أي كمن هو في الظلمات. وكالاتقلال، فإنه يقدم على الإضمار، كقوله تعالى: «أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا» [المائدة: ٣٣]، فكثير من العلماء يضمرون قيوداً غير مذكورة فيقولون: أن يقتلوا إذا قتلوا، أو يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال، أو تقطع أيديهم وأرجلهم إذا أخذوا المال ولم يقتلوا... إلخ.

فالمالكية يرجحون أن الإمام مخير بين المذكورات مطلقاً؛ لأن استقلال اللفظ أرجح من إضمار قيود غير مذكورة؛ لأن الأصل عدمها حتى تثبت بدليل؛ كما أشرنا إليه سابقاً (في المائة) وكذلك التأسيس يقدم على التأكيد وهو محل الشاهد؛ كقوله: ﴿فَيَأْتِيَ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن]، وقولهم: ﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات]. قيل: تكرار اللفظ فيهما تأكيد، وكونه تأسيساً أرجح لما ذكرنا؛ فتحمل الآء في كل موضع على ما تقدم. قيل: لفظ ذلك التكذيب فلا يتكرر منها لفظ. وكذا يقال في سورة المرسلات فيحمل على المكذبين بما ذكر، قيل: كل لفظ... إلخ. فإذا علمت ذلك فاعلم - أنا إن حملنا الحياة الطيبة في الآية على الحياة الدنيا كان ذلك تأسيساً. وإن حملناها على حياة الجنة تكرر ذلك مع قوله بعده: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾... الآية؛ لأن حياة الجنة الطيبة هي أجرهم الذي يجزونه.

وقال أبو حيان (في البحر): والظاهر من قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ أن ذلك في الدنيا؛ وهو قول الجمهور، ويدل عليه قوله: ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الزمر: ٣٥] يعني في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أظهر القولين في هذه الآية الكريمة أن الكلام على حذف الإرادة؛ أي فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾... الآية. وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم، والدليل على ما ذكرنا تكرر حذف الإرادة في القرآن وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها؛ كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦]، أي أردتم القيام إليها كما هو ظاهر، وقوله: ﴿إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِثْرِ﴾ [المجادلة: ٩]؛ أي إذا أردتم أن تتناجوا فلا تتناجوا بالإثم؛ لأن النهي إنما هو عن أمر مستقبل يراد فعله، ولا يصح النهي عن فعل مضى وانقضى كما هو واضح.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة عند القراءة؛ لأن صيغة افعل للوجوب كما تقرر في الأصول.

وقال كثير من أهل العلم: إن الأمر في الآية للندب والاستحباب، وحكى عليه الإجماع أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، وظاهر الآية أيضاً: الأمر بالاستعاذة عند القراءة في الصلاة لعموم الآية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولونه والذين هم به مشركون. وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

[الحجر]، وقوله: ﴿لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٧) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٩٨) [جن]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٩٩) [الإسراء]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبا: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. واختلف العلماء في معنى السلطان في هذه الآيات.

فقال أكثر أهل العلم: هو الحجة، أي ليس للشيطان عليهم حجة فيما يدعوههم إليه من عبادة الأوثان.

وقال بعضهم: ليس له سلطان عليهم؛ أي تسلط وقدره على أن يوقعهم في ذنب لا توبة منه. وقد قدمنا هذا. والمراد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمْ﴾ الذين يطيعونه فيوالونه بالطاعة. وأظهر الأقوال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله، ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِيْ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٠٠) [يسر]، وقوله عن إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات. وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له على أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة، بغير موجب يستوجب ذلك.

تنبيه: فإنه قيل: أثبت الله للشيطان سلطاناً على أوليائه في آيات، كقوله هنا: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ آتَمَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٩٧) [الحجر] فلا استثناء يدل على أن له سلطاناً على من اتبعه من الغاوين؛ مع أنه نفى عنه السلطان عليهم في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [سبا: ٢٠ - ٢١]. وقوله تعالى حاكياً عنه مقررأ له: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

فالجواب هو: أن السلطان الذي أثبت له عليهم غير السلطان الذي نفاه، وذلك من وجهين:

الأول: أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة؛ فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان. وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكنهم هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حربه، فلم يتسلط عليهم بقوة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وإنما تسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم.

ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمته الله. وقد بينا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالَُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا بدل آية مكان آية، بأن نسخ آية أو أنساها، وأتى بخير منها أو مثلها - أن الكفار يجعلون ذلك سبباً للطعن في الرسول ﷺ؛ بادعاء أنه كاذب على الله، مفتر عليه. زعماً منهم أن نسخ الآية بالآية يلزمه البداء، وهو الرأي المجدد، وأن ذلك مستحيل على الله، فيفهم عندهم من ذلك أن النبي ﷺ مفتر على الله زاعمين أنه لو كان من الله لأقره وأثبتته، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه.

والدليل على أن قوله: ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ معناه: نسخنا آية وأنسيناها قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿سُقْرُوكَ فَلَا تَسْقُ ۝﴾ [آلأعلى: ٦ - ٧] أي أن تنساه.

والدليل على أنه إن نسخ آية أو أنساها، لا بد أن يأتي ببديل خير منها أو مثلها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْتَرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله هنا: ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾.

وما زعمه المشركون واليهود من أن النسخ مستحيل على الله لأنه يلزمه البداء، وهو الرأي المتجدد - ظاهر السقوط، واضح البطلان لكل عاقل؛ لأن النسخ لا يلزمه البداء البتة، بل الله - جل وعلا - يشرع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستقتضي في الوقت المعين، وأنه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدله بالحكم الجديد الذي فيه المصلحة؛ فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز - جل وعلا - ما كان في علمه السابق من نسخ ذلك الحكم، الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة، كما أن حدوث المرض بعد الصحة وعكسه، وحدث الغنى بعد الفقر وعكسه، ونحو ذلك لا يلزم فيه البداء؛ لأن الله عالم بأن حكمته الإلهية تقتضي ذلك التغيير في وقته المعين له، على وفق ما سبق في العلم الأزلي كما هو واضح.

قد أشار - جل وعلا - إلى علمه بزوال المصلحة من المنسوخ، وتمحضها في الناسخ بقوله هنا: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَخْتَرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿سُقْرُوكَ فَلَا تَسْقُ ۝﴾ [آلأعلى: ٦]، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝﴾ [آلأعلى: ٧]، ﴿إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝﴾ [آلأعلى: ٧] بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [آلأعلى: ٧] يدل على أنه أعلم بما ينزل؛ فهو عالم بمصلحة الإنساء، ومصلحة تبديل الجديد من الأول المنسى.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: لا خلاف بين المسلمين في جواز النسخ عقلاً وشرعاً، ولا في وقوعه فعلاً، ومن ذكر عنه خلاف في ذلك كأبي مسلم الأصفهاني - فإنه إنما يعني أن النسخ تخصيص لزمان الحكم بالخطاب الجديد؛ لأن ظاهر الخطاب الأول استمرار

الحكم في جميع الزمن. والخطاب الثاني دل على تخصيص الحكم الأول بالزمن الذي قبل النسخ؛ فليس النسخ عنده رفعاً للحكم الأول. وقد أشار إليه في (مراقي السعود) بقوله في تعريف النسخ:

رفع لحكم أو بيان الزمن بمحكم القرآن أو بالسنن وإنما خالف فيه اليهود وبعض المشركين، زاعمين أنه يلزمه البداء كما بينا. ومن هنا قالت اليهود: إن شريعة موسى يستحيل نسخها.

المسألة الثانية: لا يصح نسخ حكم شرعي إلا بوحي من كتاب أو سنة؛ لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنبَغِي قَالُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنِ تُنَزَّلَ إِلَيْنَا سُبُورٌ أَوْ بَدَلَةٌ أَوْ كِتَابٌ مِّنَ الْكِتَابِ الْوَحِيدِ أَوْ كَرَّةٌ أَوْ يَوْمٌ لَّعَنَ اللَّهُ يَوْمَ تُبْطَلُ أَوَّلُ الْآيَةِ﴾ [البقرة: ١٠٦] وبه تعلم أن النسخ بمجرد العقل ممنوع، وكذلك لا نسخ بالإجماع؛ لأن الإجماع لا ينعقد إلا بعد وفاته ﷺ؛ لأنه ما دام حياً فالعبرة بقوله وفعله وتقريره ﷺ، ولا حجة معه في قول الأمة؛ لأن اتباعه فرض على كل أحد؛ ولذا لا بد في تعريف الإجماع من التقييد بكونه بعد وفاته ﷺ، كما قال صاحب (المراقي) في تعريف الإجماع:

وهو الاتفاق من مجتهدي الأمة من بعد وفاة أحمد وبعد وفاته ينقطع النسخ؛ لأنه تشريع، ولا تشريع البتة بعد وفاته ﷺ، وإلى كون العقل والإجماع لا يصح النسخ بمجردهما - أشار في (مراقي السعود) أيضاً بقوله في النسخ:

فلم يكن بالعقل أو مجرد الإجماع بل ينمي إلى المستند وقوله: «بل ينمي إلى المستند» يعني أنه إذا وجد في كلام العلماء أن نصاً منسوخاً بالإجماع، فإنهم إنما يعنون أنه منسوخ بالنص الذي هو مستند الإجماع، لا بنفس الإجماع؛ لما ذكرنا من منع النسخ به شرعاً، وكذلك لا يجوز نسخ الوحي بالقياس على التحقيق، وإليه أشار في (المراقي) بقوله:

ومنع نسخ النص بالقياس هو الذي ارتضاه جل الناس أي وهو الحق.

المسألة الثالثة: اعلم أن ما يقوله بعض أهل الأصول من المالكية والشافعية وغيرهم من جواز النسخ بلا بدل، وعزاه غير واحد للجمهور، وعليه درج في (المراقي) بقوله:

وينسخ الخف بماله ثقل وقد يجيء عارياً من البدل

أنه باطل بلا شك. والعجب ممن قال به من العلماء الأجلاء مع كثرتهم، مع أنه مخالف مخالف صريحة لقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] فلا كلام البتة لأحد بعد كلام الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَدُّ مِنْ اللَّهِ

قِيلَا ﴿[النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿عَلِمْتُمْ أَمْرَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] فقد ربط - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بين النسخ، وبين الإتيان ببدل المنسوخ على سبيل الشرط والجزاء، ومعلوم أن الصدق والكذب في الشرطية على سبيل الشرط والجزاء، ومعلوم أن الصدق والكذب في الشرطية يتواردان على الربط؛ فيلزم أنه كلما وقع النسخ وقع الإتيان بخير من المنسوخ أو مثله كما هو ظاهر.

وما زعمه بعض أهل العلم من أن النسخ وقع في القرآن بلا بدل وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَمَّعَ الرَّسُولُ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢] فإنه نسخ بقوله: ﴿أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٣]، ولا بدل لهذا المنسوخ.

فالجواب أن له بدلاً، وهو أن وجوب تقديم الصدقة أمام المناجاة لما نسخ بقي استحباب الصدقة ونديها، بدلاً من الوجوب المنسوخ كما هو ظاهر.

المسألة الرابعة: اعلم أنه يجوز نسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف، فمثال نسخ الأخف بالأثقل: نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] بأثقل منه، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ونسخ حبس الزواني في البيوت المنصوص عليه بقوله: ﴿فَأَنسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، بأثقل منه وهو الجلد والرجم المنصوص على الأول منهما في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وعلى الثاني منهما بآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها ثابتاً، وهي قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم). ومثال نسخ الأثقل بالأخف: نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٥]، بأخف منه وهو مصابرة المسلم اثنين منهم المنصوص عليه في قوله: ﴿أَتَنْزِلُ أَتَمَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٦]. وكنسخ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، بقوله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فإنه نسخ للأثقل بالأخف كما هو ظاهر. وكنسخ اعتداد المتوفى عنها بحول، المنصوص عليه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، بأخف منه وهو الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، المنصوص عليه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِثْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ وَأَسْهُرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

تنبيه: اعلم أن في قوله - جل وعلا -: ﴿ثَاتٍ يَخْتَرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] إشكالاً من جهتين:

الأولى: أن يقال: إما أن يكون الأثقل خيراً من الأخف؛ لأنه أكثر أجراً، أو

الأخف خيراً من الأثقل لأنه أسهل منه، وأقرب إلى القدرة على الامتثال، وكون الأثقل خيراً يقتضي منع نسخه بالأخف، كما أن كون الأخف خيراً يقتضي منع نسخه بالأثقل؛ لأن الله صرح بأنه يأتي بما هو خير من المنسوخ أو مماثل له، لا ما هو دونه. وقد عرفت أن الواقع جواز نسخ كل منهما بالآخر.

الجهة الثانية من جهتي الإشكال في قوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأنه يقال: ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله؟ وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل منه؟

والجواب عن الإشكال الأول: هو أن الخيرية تارة تكون في الأثقل لكثرة الأجر، وذلك فيما إذا كان الأجر كثيراً جداً والامتثال غير شديد الصعوبة؛ كنسخ التخيير بين الإطعام والصوم بإيجاب الصوم؛ فإن في الصوم أجراً كثيراً كما في الحديث القدسي: «إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، والصائمون من خيار الصابرين؛ لأنهم صبروا لله عن شهوة بطونهم وفروجهم؛ والله يقول: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ومشقة الصوم عادية ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال، وإن عرض ما يقتضي ذلك كمرض أو سفر؛ فالتسهيل برخصة الإفطار منصوص بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وتارة تكون الخيرية في الأخف، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال؛ فإن الأخف يكون خيراً منه؛ لأن مظنة عدم الامتثال-تعرض المكلف للوقوع فيما لا يرضي الله، وذلك كقوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فلو لم تنسخ المحاسبة بخطر القلوب لكان الامتثال صعباً جداً، شاقاً على النفوس، لا يكاد يسلم من الإخلال به، إلا من سلمه الله تعالى، فلا شك أن نسخ ذلك بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] خير للمكلف من بقاء ذلك الحكم الشاق، وهكذا.

والجواب عن الإشكال الثاني هو أن قوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ يراد به مماثلة الناسخ والمنسوخ في حد ذاتيهما؛ فلا ينافي أن يكون الناسخ يستلزم فوائد خارجة عن ذاته يكون بها خيراً من المنسوخ، فيكون باعتبار ذاته مماثلاً للمنسوخ، وباعتبار ما يستلزمه من الفوائد التي لا توجد في المنسوخ خيراً من المنسوخ.

وإيضاحه أن عامة المفسرين يمثلون لقوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ بنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن هذا الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى ذاتيهما متمثلان؛ لأن كل واحد منهما جهة من الجهات، وهي في حقيقة أنفسهما متساوية، فلا ينافي أن يكون الناسخ مشتتلاً على حكم خارجة عن ذاته تصيره خيراً من المنسوخ بذلك الاعتبار، فإن استقبال بيت الله الحرام تلزمه نتائج متعددة مشار لها في القرآن ليست موجودة في استقبال بيت المقدس، منها: أنه يسقط به احتجاج كفار مكة على

النبي ﷺ بقولهم: تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته! وتسقط به حجة اليهود بقولهم: تعيب ديننا وتستقبل قبلتنا، وقبلتنا من ديننا! وتسقط به أيضاً حجة علماء اليهود فإنهم عندهم في التوراة أنه ﷺ سوف يؤمر باستقبال بيت المقدس، ثم يؤمر بالتحويل عنه إلى استقبال بيت الله الحرام، فلو لم يؤمر بذلك لاحتجوا عليه بما عندهم في التوراة من أنه سيحول إلى بيت الله الحرام، والفرض أنه لم يحول.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكم التي هي إحاض هذه الحجج الباطلة بقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٩] ثم بين الحكمة بقوله: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وإسقاط هذه الحجج من الدواعي التي دعت به ﷺ إلى حب التحويل إلى بيت الله الحرام المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

المسألة الخامسة: اعلم أن النسخ على ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن...» الحديث، فأية عشر رضعات منسوخة التلاوة والحكم إجماعاً.

الثاني: نسخ التلاوة وبقاء الحكم، ومثاله آية الرجم المذكورة آنفاً، وآية خمس رضعات على قول الشافعي وعائشة ومن وافقهما.

الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وهو غالب ما في القرآن المنسوخ؛ كآية المصابرة، والعدة، والتخير بين الصوم والإطعام، وحبس الزواني. كما ذكرنا ذلك كله آنفاً.

المسألة السادسة: اعلم أنه لا خلاف بين العلماء في نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بمتواتر السنة. واختلفوا في نسخ القرآن بالسنة كعكسه، وفي نسخ المتواتر بأخبار الآحاد، وخلافهم في هذه المسائل معروف. وممن قال بأن الكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب، وأن السنة لا تنسخ إلا بالسنة: الشافعي رحمه الله.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - هو أن الكتاب والسنة كلاهما ينسخ بالآخر؛ لأن الجميع وحي من الله تعالى، فمثال نسخ السنة بالكتاب: نسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن استقبال بيت المقدس أولاً إنما وقع بالسنة لا بالقرآن، وقد نسخ الله بالقرآن في قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. ومثال نسخ الكتاب بالسنة: نسخ آية عشر رضعات تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. ونسخ سورة الخلع وسورة الحفد تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. وسورة الخلع وسورة الحفد: هما القنوت في الصبح عند المالكية. وقد أوضح صاحب (الدر المثور) وغيره تحقيق أنهما كانتا سورتين من كتاب الله ثم نسختا.

وقد قدمنا في سورة الأنعام أن الذي يظهر لنا أنه الصواب: هو أن أخبار الأحاد الصحيحة يجوز نسخ المتواتر بها إذا ثبت تأخرها عنه، وأنه لا معارضة بينهما؛ لأن المتواتر حق، والسنة الواردة بعده إنما بينت شيئاً جديداً لم يكن موجوداً قبل، فلا معارضة بينهما البتة لاختلاف زمنهما.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يدل بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهلية؛ لصراحة الحصر بالنفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا صرح النبي ﷺ بعد ذلك يوم خير في حديث صحيح «بأن لحوم الحمر الأهلية غير مباحة» فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين؛ لأن الحديث دل على تحريم جديد، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل كما هو واضح.

فالتحقيق - إن شاء الله - هو جواز نسخ المتواتر بالأحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه، وإن خالف فيه جمهور الأصوليين، ودرج على خلافه وفاقاً للجمهور صاحب (المراقي) بقوله:

والنسخ بالأحاد للكتاب ليس بواقع على الصواب

ومن هنا تعلم أنه لا دليل على بطلان قول من قال: إن الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بحديث «لا وصية لوارث». والعلم عند الله تعالى.

المسألة السابعة: اعلم أن التحقيق هو جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، فإن قيل: ما الفائدة في تشريع الحكم أولاً إذا كان سينسخ قبل التمكن من فعله؟

فالجواب: أن الحكمة ابتلاء المكلفين بالعزم على الامتثال. ويوضح هذا - أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ولده، وقد نسخ عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل. وبين أن الحكمة في ذلك: الابتلاء بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْعَلِيمُ﴾ [الصافات: ١٧] ومن أمثلة النسخ قبل التمكن من الفعل: نسخ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء، بعد أن فرضت الصلاة خمسين صلاة، كما هو معروف. وقد أشار إلى هذه المسألة في (مراقي السعود) بقوله:

والنسخ من قبل وقوع الفعل جاء وقوعاً في صحيح النقل

المسألة الثامنة: اعلم أن التحقيق أنه ما كل زيادة على النص تكون نسخاً، وإن خالف في ذلك الإمام أبو حنيفة رحمته الله، بل الزيادة على النص قسمان:

قسم مخالف للنص المذكور قبله، وهذه الزيادة تكون نسخاً على التحقيق؛ كزيادة تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع مثلاً، على المحرمات الأربعة المذكورة في آية: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ لأن الحمر الأهلية ونحوها لم يسكت عن حكمه في الآية، بل مقتضى الحصر بالنفي والإثبات في

قوله: ﴿لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥] - صريح في إباحة الحمر الأهلية وما ذكر معها؛ فكون زيادة تحريمها نسخاً أمر ظاهر.

وقسم لا تكون الزيادة فيه مخالفة للنص، بل تكون زيادة شيء سكت عنه النص الأول، وهذا لا يكون نسخاً، بل بيان حكم شيء كان مسكوتاً عنه؛ كتقريب الزاني البكر، وكالحكم بالشاهد، واليمين في الأموال. فإن القرآن في الأول أوجب الجلد وسكت عما سواه، فزاد النبي حكماً كان مسكوتاً عنه، وهو التغريب. كما أن القرآن في الثاني فيه ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا بَجَلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وسكت عن حكم الشاهد واليمين، فزاد النبي ﷺ حكماً كان مسكوتاً عنه؛ وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وليس نسخاً كل ما أفادا فيما رسا بالنص إلا ازديادا
وقد قدمنا هذا في الأنعام في الكلام على قوله: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن هذا القرآن الذي زعموا أنه افتراء بسبب تبديل الله آية مكان آية - أنه نزل عليه روح القدس من ربه - جل وعلا - فليس مفترياً له، وروح القدس: جبريل، ومعناه الروح المقدس؛ أي الطاهر من كل ما لا يليق.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا لَنَزَّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٢] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [٩٦] ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [٩٤] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [٩٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١١] ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقُرْآنُهُمْ﴾ [١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاللَّعْ قُرْآنُهُمْ﴾ [١٨]، [القيامة]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾. أقسم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ ليس وحياً من الله، وإنما تعلمه من بشر من الناس.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] أي يرويه محمد ﷺ عن غيره، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. كما تقدم في الأنعام.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم النبي ﷺ، وقد صرح القرآن بأنه أعجمي اللسان؛ ف قيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فأسلم. وقيل: اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية. وقيل: غلام لبني عامر بن لؤى. وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار،

واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم. وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقد بين - جل وعلا - كذبهم وتعنتهم في قولهم: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ بقوله: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي كيف يكون تعلمه من ذلك البشر، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي مبين فصيح، لا شائبة فيه من العجمة؛ فهذا غير معقول.

وبين شدة تعنتهم أيضاً بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه أيضاً وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] أي أقرآن أعجمي، ورسول عربي؟ فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي.

كما بين تعنتهم أيضاً بأنه لو نزل هذا القرآن العربي المبين، على أعجمي فقراه عليهم عربياً لكذبوه أيضاً، مع ذلك الخارق للعادة؛ لشدة عنادهم وتعنتهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٠٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الشعراء].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ أي يميلون عن الحق، والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه - أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي ذو بيان وفصاحة. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء، من لحد الثلاثي. وقرأه الباقون «يلحدون» بضم الياء وكسر الحاء من ألحد الرباعي، وهما لغتان، والمعنى واحد؛ أي يميلون عن الحق إلى الباطل. وأما «يلحدون» التي في الأعراف، والتي في فصلت فلم يقرأهما بفتح الياء والحاء إلا حمزة وحده دون الكسائي. وإنما وافقه الكسائي في هذه التي في النحل وأطلق اللسان على القرآن؛ لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام؛ فتؤثنها وتذكرها؛ ومنه قول أعشي باهلة:

إني أتنى لسان لا أسر بها من علو لا عجب فيها ولا سخر

وقول الآخر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا

وقول الآخر:

أتنى لسان بني عامر أحاديثها بعد قول نكر

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَجَلَّ لِي لِسَانٌ صَدَقَ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء] أي ثناء حسناً باقياً. ومن إطلاق اللسان بمعنى الكلام مذكراً قول الحطيئة:

ندمت على لسان فات مني فليت بأنه في جوف عكم

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قال بعض أهل العلم: إن هذا مثل ضربه الله لأهل مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاها مالك عن الزهري - رحمهم الله -، نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وهذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية - تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن؛ فقوله عن هذه القرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ قال نظيره عن أهل مكة؛ كقوله: ﴿أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُبْحِجُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقوله: ﴿وَأَمَانُهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال نظيره عن أهل مكة أيضا؛ كقوله: ﴿يُحِجُّ إِلَيْهِ تَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٍ ﴿١﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةُ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١]؛ فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيتهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق؛ ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم بأن أطعمهم من جوع. وقوله في دعوة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَلْجَمْعُ أَفِيدَةٌ مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾﴾ [إبراهيم: ٧٨].

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة؛ لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابته سنة أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلhez - وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه - وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن؛ وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ، وغزواته وبعوثه وسراياه، وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات، فقد فسر ابن مسعود آية الدخان بما يدل على ذلك.

قال البخاري في صحيحه: باب ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان] فارتقب: فانتظر. حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله قال: مضى خمس: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام. ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان] حدثنا يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام؛ فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان] ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان] فأتى رسول الله ﷺ ف قيل: يا رسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلك! قال: «لمضر! إنك لجريء!» فاستسقى فسقوا؛ فنزلت ﴿إِنَّمَا عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان] يعني يوم بدر.

باب قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان] حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: دخلت على عبد الله فقال: إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [ص] إن قريشاً لما غلبوا النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان] ف قيل له: إن كشفنا عنهم عادوا؛ فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا، فانتقم الله منهم يوم بدر؛ فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إلى قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، انتهى بلفظه من صحيح البخاري.

وفي تفسير ابن مسعود ﷺ لهذه الآية الكريمة ما يدل دلالة واضحة أن ما أذيقنا هذه القرية المذكورة في سورة النحل من لباس الجوع أذيقه أهل مكة، حتى أكلوا العظام، وصار الرجل منهم يتخيل له مثل الدخان من شدة الجوع. وهذا التفسير من ابن مسعود ﷺ له حكم الرفع؛ لما تقرر في علم الحديث من أن تفسير الصحابي بسبب النزول له حكم الرفع، كما أشار له صاحب (طلعة الأنوار) بقوله:

تفسير صاحب له تعلق بالسبب الرفع له محقق

وكما هو معروف عند أهل العلم. وقد قدمنا ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الدخان من أشراط الساعة، ولا مانع من حمل

الآية الكريمة على الدخانين: الدخان الذي مضى، والدخان المستقبل - جمعاً بين الأدلة - وقد قدمنا أن التفسيرات المتعددة في الآية إن كان يمكن حمل الآية على جميعها فهو أولى، وقد قدمنا أن ذلك هو الذي حققه أبو العباس ابن تيمية رحمته الله في رسالته في علوم القرآن بأدلته.

وأما الخوف المذكور في آية النحل، فقد ذكر - جل وعلا - مثله عن أهل مكة أيضاً على بعض تفسيرات الآية الكريمة التي هي: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١] فقد جاء عن جماعة من السلف تفسير القارعة التي تصيبهم بسرية من سرايا رسول الله ﷺ. قال صاحب (الدر المنثور) أخرج الفريابي وابن جرير، وابن مردويه من طريق عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: السرايا. وأخرج الطيالسي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، من طريق سعيد بن جبيرة رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: أنت يا محمد ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال فتح مكة. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد رضي الله عنه في قوله: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية من سرايا رسول الله ﷺ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾. وأخرج ابن أبي شبة وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد رضي الله عنه قال: ﴿أَلْقَارِعَةُ﴾ السرايا ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال الحديبية ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة. وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٥٥] - نزلت بالمدينة في سرايا النبي ﷺ، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم، أه محل الغرض منه.

فهذا التفسير المذكور في آية الرعد هذه، والتفسير المذكور قبله في آية الدخان يدل على أن أهل مكة أبدلوا بعد سعة الرزق بالجوع وبعد الأمن والطمأنينة بالخوف، كما قال في القرية المذكورة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقوله في القرية المذكورة ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾... الآية، لا يخفى أنه قال مثل ذلك عن قريش في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والآيات المصرحة بكفرهم وعنادهم كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿أَجْعَلِ الْاِلَهَةَ اِلٰهًا وَجِدًا ۖ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ۝٥ وَاتَّبَعُوا مَلٰٓئِكَةً مِّنْهُمْ اَنْ اَمْسُوْا وَاَصْبِرُوْا عَلٰٓى الْهٰتِكُمْ﴾ [ص: ٥ - ٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُوْكَ اِلَّا هُزُوًا ۗ اٰلَٰٓذِىۡ بِعَصٰٓةِ اللّٰهِ رُسُوْلًا ۝٦١﴾ [٦١]، كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ اِلٰهِنَا لَوْلَا اَنْتَ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

فمجموع ما ذكرنا يؤيد قول من قال: إن المراد بهذه القرية المضروبة مثلاً في آية النحل هذه: هي مكة. وروي عن حفصة وغيرها: أنها المدينة، قالت ذلك لما بلغها قتل عثمان رضي الله عنه. وقال بعض العلماء: هي قرية غير معينة، ضربها الله مثلاً للتخويف من مقابلة نعمة الأمن والاطمئنان والرزق، بالكفر والطغيان. وقال من قال بهذا القول: إنه يدل عليه تنكير القرية في الآية الكريمة في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً... الآية.

قال مقيد - عفا الله عنه -: وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حل بهذه القرية المذكورة، ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علماً؛ لقوله: ﴿وَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا بِمَا يَأْتِيكُمُ الْفِتْنَةُ وَتَصْطَرِبُوا فِيهَا فَعَلَّمَ اللَّهُ الْفِتْنَةَ وَلَئَلَّامُتَلَدِينَ﴾ [العنكبوت].

وفي قوله في هذه الآية الكريمة «قرية» وجهان من الإعراب.

أحدهما: أنه بدل من قوله «مثلاً»، الثاني: أن «ضرب» مضمن معنى جعل، وأن «قرية» هي المفعول الأول، و«مثلاً» المفعول الثاني. وإنما أخرجت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها المذكورة في قوله: ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾... إلخ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُطْمَئِنَّةٌ﴾ أي لا يزعجها خوف لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف.

وقوله: ﴿رَغَدًا﴾ أي واسعاً لذيذاً. و«الأنعم» قيل جمع نعمة كشدة وأشد. أو على ترك الاعتداد بالتاء؛ كدرع وأدرع. أو جمع نعم كبؤس وأبؤس، كما تقدم في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، هو أن يقال: كيف أوقع الإذاقة على اللباس في قوله: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟! يريد الطعن في قوله تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾. فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس! هب أن محمداً ﷺ ما كان نبياً! أما كان عربياً؟

قال مقيد - عفا الله عنه -: والجواب عن هذا السؤال ظاهر، وهو أنه أطلق اسم اللباس على ما أصابهم من الجوع والخوف؛ لأن آثار الجوع والخوف تظهر على أبدانهم، وتحيط بها كاللباس. ومن حيث وجدانهم ذلك اللباس المعبر به عن آثار الجوع والخوف أوقع عليه الإذاقة، فلا حاجة إلى ما يذكره البيانون من الاستعارات في هذه الآية الكريمة. وقد أوضحنا في رسالتنا التي سمينها (منع جواز المجاز في المنزل للتعبيد والإعجاز) أنه لا يجوز لأحد أن يقول: إن في القرآن مجازاً، وأوضحنا ذلك بأدلته، وبيننا أن ما يسميه البيانون مجازاً أنه أسلوب من أساليب اللغة العربية.

وقد اختلف أهل البيان في هذه الآية، فبعضهم يقول: فيها استعارة مجردة؛ يعنون

أنها جيء فيها بما يلائم المستعار له. وذلك في زعمهم أنه استعار اللباس لما غشيهم من بعض الحوادث كالجوع والخوف، بجامع اشتماله عليهم كاشتمال اللباس على اللابس على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية التحقيقية، ثم ذكر الوصف الذي هو الإذاقة ملائماً للمستعار له الذي هو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على وجدان الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة لكثرة الاستعمال؛ فيقولون: ذاق البؤس والضر، وأذاقه غيره إياهما، فكانت الاستعارة مجردة لذكر ما يلائم المستعار له، الذي هو المشبه في الأصل في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة. ولو أريد ترشيح هذه الاستعارة في زعمهم لقليل: فكساها؛ لأن الإتيان بما يلائم المستعار منه الذي هو المشبه به في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة يسمى «ترشيحاً»، والكسوة تلائم اللباس، فذكرها ترشيح للاستعارة. قالوا: وإن كانت الاستعارة المرشحة أبلغ من المجردة، فتجريد الاستعارة في الآية أبلغ؛ من حيث إنه روعي المستعار له الذي هو الجوع والجوع، بذكر الإذاقة المناسبة لذلك ليزداد الكلام وضوحاً.

وقال بعضهم: هي استعارة مبنية على استعارة؛ فإنه أولاً استعار لما يظهر على أبدانهم من الاصفرار والذبول والنحول اسم اللباس، بجامع الإحاطة بالشيء والاشتغال عليه، فصار اسم اللباس مستعاراً لآثار الجوع والخوف على أبدانهم، ثم استعار اسم الإذاقة لما يجدونه من ألم ذلك الجوع والخوف المعبر عنه باللباس، بجامع التعرف والاختبار في كل من الذوق بالقلم، ووجود الألم من الجوع والخوف؛ وعليه ففي اللباس استعارة أصلية كما ذكرنا. وفي الإذاقة المستعارة لمس ألم الجوع والخوف استعارة تبعية.

وقد ألمنا هنا بطرف قليل من كلام البيانين هنا ليفهم الناظر مرادهم، مع أن التحقيق الذي لا شك فيه أن كل ذلك لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، وأن العرب تطلق الإذاقة على الذوق وعلى غيره من وجود الألم واللذة، وأنها تطلق اللباس على المعروف، وتطلقه على غيره مما فيه معنى اللباس من الاشتغال، كقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، وقول الأعشى:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تشتت عليه فكانت لباسا

وكلها أساليب عربية. ولا إشكال في أنه إذا أطلق اللباس على مؤثر مؤلم يحيط بالشخص إحاطة اللباس، فلا مانع من إيقاع الإذاقة على ذلك الألم المحيط المعبر عنه باسم اللباس، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الكفار عن تحريم ما أحل الله من رزقه، مما شرع لهم عمرو بن لحي - لعنه الله - من تحريم ما أحل الله.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَالُ اللَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْقَهُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [يونس: ١٥١]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَاُ مِنْهُنَّ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا...﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْئِدَةُ أُمَّتِنَا وَحَرَتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقوله: ﴿حِجْرٌ﴾ أي حرام، إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدم.

وفي قوله: ﴿الْكَذِبُ﴾ أوجه من الإعراب:

أحدها: أنه منصوب بـ «تقولوا»؛ أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من رزق الله بالحلال والحرمه؛ كما ذكر في الآيات المذكورة آنفاً من غير استناد ذلك الوصف إلى دليل، واللام مثلها في قولك: لا تقولوا لما أحل الله: هو حرام. وكقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وجملة «هذا حلال وهذا حرام» بدل من «الكذب» وقيل: إن الجملة المذكورة في محل نصب بـ «تصف» بتضمينها معنى تقول؛ أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام. وقيل: «الكذب» مفعول به لـ «تصف». و«ما» مصدرية، وجملة «هذا حلال وهذا حرام» متعلقة بـ «لا تقولوا» أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب؛ أي لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم؛ لا لأجل حجة وبينة - قاله صاحب الكشف. وقيل: «الكذب» بدل من هاء المفعول المحذوفة؛ أي لما تصفه ألسنتكم الكذب.

تنبيه: كان السلف الصالح عليهم السلام يتورعون عن قولهم: هذا حلال وهذا حرام؛ خوفاً من هذه الآيات.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: قال الدارمي أبو محمد في مسنده: أخبرنا هارون، عن حفص، عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون، وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهب: قال مالك: لم يكن من فتياء الناس أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا: إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. انتهى.

وقال الزمخشري: واللام في قوله: ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الفرض، اهـ. وكثير من العلماء يقولون: هي لام العاقبة. والبيانون يزعمون أن حرف التعليل كاللام إذا لم تقصد به علة غائبة؛ كقوله: ﴿فَالنَّفْطُ مَالٌ وَرِقْعَةٌ لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا﴾ [القصص: ٨]، وقوله هنا: ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أن في ذلك استعارة تبعية في معنى الحرف.

قال مقيد - عفا الله عنه -: بل كل ذلك من أساليب اللغة العربية. فمن أساليبها: الإتيان بحرف التعليل للدلالة على العلة الغائبة؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ومن أساليبها الإتيان باللام للدلالة على ترتب أمر على أمر، كترتيب المعلول على علته الغائبة. وهذا الأخير كقوله: ﴿فَالْقَظْفَةُ إِذَا فَرَعَتْ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ لأن العلة الغائبة الباعثة لهم على التقاطه ليست هي أن يكون لهم عدوًّا، بل ليكون لهم قرة عين؛ كما قالت امرأة فرعون: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْصُوهُ عَيْنِي أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] ولكن لما كان كونه عدوًّا لهم وحزنًا يترتب على التقاطهم له؛ كترتيب المعلول على علته الغائبة - عبر فيه باللام الدالة على ترتيب المعلول على العلة. وهذا أسلوب عربي، فلا حاجة إلى ما يطيل به البيانون في مثل هذا المبحث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [١١٧] مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١١٨]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يفترون عليه الكذب - أي يختلقونه عليه - كدعواهم أنه حرم هذا وهو لم يحرمه، ودعواهم له الشركاء والأولاد لا يفلحون؛ لأنهم في الدنيا لا ينالون إلا متاعاً قليلاً لا أهمية له، وفي الآخرة يعذبون العذاب العظيم، الشديد المؤلم.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله في يونس: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [٦٦] مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٧٠] [يونس]، وقوله: ﴿نُفِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٢٤] [القمان]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي متاعهم في الدنيا متاع قليل. وقال الزمخشري: منفعتهم في الدنيا متاع قليل. وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا ينالون الفلاح، وهو يطلق على معينين: أحدهما: الفوز بالمطلوب الأكبر. والثاني: البقاء السرمدي؛ كما تقدم بشواهد.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾، هذا المحرم عليهم، المقصوص عليه من قبل المحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَأَنْفُسُ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وجملة المحرمات عليهم في هذه الآية الكريمة ظاهرة، وهو كل ذي ظفر: كالنعامة والبعير، والشحم الخالص من البقر والغنم - وهو الثروب - وشحم الكلى، أما الشحم الذي على الظهر، والذي في الحوايا وهي الأمعاء، والمختلط بعظم كلحم الذنب وغيره من الشحوم المختلطة بالعظام فهو حلال لهم؛ كما هو واضح من الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾. أنشئ الله - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريميتين على نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - : بأنه أمة؛ أي إمام مقتدى به، يعلم الناس الخير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وأنه قانت لله، أي مطيع له. وأنه لم يكن من المشركين، وأنه شاكراً لأنعم الله، وأن الله اجتبا، أي اختاره واصطفاه، وأنه هداه إلى صراط مستقيم.

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أخر، كقوله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٢٧﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَيْثُ بَيْكَتِهِ فَاثْمَنَهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]، وقوله عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه.

وقد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴿٦٩﴾﴾. قال بعض العلماء: الحسنة التي آتاه الله في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن. ويستأنس لهذا بأن الله بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك: الذرية الطيبة. وأشار أيضاً لأنه جعل له ثناء حسناً باقياً في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَكُم مَّا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٨١﴾ وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبينا ﷺ الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وبين هذا أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسُجِدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْبُدُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨] الآية، وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

فِي إِبْرَاهِيمَ ﴿الْمَمْتَحَنَةِ﴾ [٤]، إلى غير ذلك من الآيات، والملة: الشريعة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق. وأصله من الحنف: وهو اعوجاج الرجلين؛ يقال: برجله حنف؛ أي اعوجاج. ومنه قول أم الأحنف بن قيس ترقصه وهو صبي:

والله لولا حنف برجله ما كان في فتيانكم من مثله

وقوله: «حنيفاً» حال من المضاف إليه؛ على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

ما كان جزء ما له أضيفاً أو مثل جزئه فلا تحيفاً

لأن المضاف هنا وهو «ملة» كالجزء من المضاف إليه وهو «إبراهيم»؛ لأنه لو حذف لبقى المعنى تاماً؛ لأن قولنا: أن اتبع إبراهيم، كلام تام المعنى كما هو ظاهر، وهذا هو مراده بكونه مثل جزئه.

قوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من إيضاح الحق بالرفق واللين. وعن مجاهد ﴿وَجَدِلْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عن أذاهم. وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن: قوله لموسى وهرون في شأن فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّاهُ يَذْكُرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه]. ومن ذلك القول للين؛ قول موسى له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أعلم بمن ضل عن سبيله؛ أي زاغ عن طريق الصواب والحق، إلى طريق الكفر والضلال.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في أول القلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٧] فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ [القلم]، وقوله في الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [١٧] [الأنعام]، وقوله في النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ [النجم: ٣٠] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

والظاهر أن صيغة التفضيل التي هي «أعلم» في هذه الآيات يراد بها مطلق الوصف لا التفضيل؛ لأن الله لا يشاركه أحد في علم ما يصير إليه خلقه من شقاوة وسعادة، فهي كقول الشنفرى:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

أي لم أكن بعجلهم، وقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
أي عريضة طويلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. نزلت هذه الآية الكريمة من سورة النحل بالمدينة، في تمثيل المشركين بحمزة ومن قتل معه يوم أحد. فقال المسلمون: لئن أظفرن الله بهم لنمثلن بهم؛ فنزلت الآية الكريمة، فصبروا لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ مع أن سورة النحل مكية، إلا هذه الآيات الثلاث من آخرها. والآية فيها جواز الانتقام والإرشاد إلى أفضلية العفو. وقد ذكر تعالى هذا المعنى في القرآن، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنْ أَتَصَبَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٤١] إلى قوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٤٢]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٤٩] كما قدمنا.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: يؤخذ من هذه الآية حكم مسألة الظفر، وهي أنك إن ظلمك إنسان بأن أخذ شيئاً من مالك بغير الوجه الشرعي ولم يمكن لك إثباته، وقدرت له على مثل ما ظلمك به على وجه تأمن معه الفضيحة والعقوبة؛ فهل لك أن تأخذ قدر حقه أو لا؟.

أصح القولين، وأجراهما على ظواهر النصوص وعلى القياس أن لك أن تأخذ قدر حقه من غير زيادة؛ لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾... الآية، وقوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وممن قال بهذا القول: ابن سيرين وإبراهيم النخعي، وسفيان ومجاهد، وغيرهم.

وقالت طائفة من العلماء منهم مالك: لا يجوز ذلك؛ وعليه درج خليل بن إسحاق المالكي في مختصره بقوله في الوديعه: وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها.

واحتج من قال بهذا القول بحديث «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»، اهـ. وهذا الحديث على فرض صحته لا ينهض الاستدلال به؛ لأن من أخذ قدر حقه ولم يزد عليه لم يخن من خانته، وإنما أنصف نفسه ممن ظلمه.

المسألة الثانية: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة المماثلة في القصاص، فمن قتل بحديدة قتل بها، ومن قتل بحجر قتل به. ويؤيده «رضه ﷺ» رأس يهودي بين حجرين قصاصاً لجارية فعل بها مثل ذلك.

وهذا قول أكثر أهل العلم خلافاً لأبي حنيفة ومن وافقه، زاعماً أن القتل بغير

المحدد شبه عمد، لا عمد صريح حتى يجب فيه القصاص. وسيأتي لهذا - إن شاء الله - تعالى زيادة إيضاح في سورة الإسراء.

المسألة الثالثة: أطلق - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية المشاكلة بين الألفاظ؛ فيؤدي لفظ بغير معناه الموضوع له مشاكلة للفظ آخر مقترن به في الكلام؛ كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا لي، وقال بعض العلماء: ومنه قول جرير:

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر

بناء على القول بأن الأرامل لا تطلق في اللغة إلا على الإناث.

ونظير الآية الكريمة في إطلاق إحدى العقوبتين على ابتداء الفعل مشاكلة للفظ الآخر، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾... الآية [الحج: ٦٠]، ونحوه أيضاً:

قوله: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَتًا مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] مع أن القصاص ليس بسنة وقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ لأن القصاص من المعتدى أيضاً ليس باعتداء كما هو ظاهر، وإنما أدى بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ﷺ مأمور بالصبر، وأنه لا يمثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه؛ لقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَمَا يُقْلَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلَنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُقْلَنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ﴾ [فصلت: ٢٥]، معناه أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسير ذلك له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه مع عباده المتقين المحسنين، وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان، وهذه المعية خاصة بعبادة المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته - جل وعلا - فالكائنات في يده - جل وعلا - أصغر من حبة

خردل، وهذه هي المذكورة أيضاً في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ١٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٧] وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهو - جل وعلا - مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللاتقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا...﴾ الآية. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، فإنا نبين ذلك، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن هذا الإسراء به ﷺ المذكور في هذه الآية الكريمة، زعم بعض أهل العلم أنه بروحه ﷺ دون جسده، زاعماً أنه في المنام لا اليقظة؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي.

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد، والمعراج بالروح دون الجسد. ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده ﷺ يقظة لا مناماً؛ لأنه قال: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد؛ ولأنه قال: ﴿سُبْحَنَ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ٧]؛ لأن البصر من آلات الذات لا الروح، وقوله هنا: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْجَأَهُ﴾.

ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله - جل وعلا -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزَّيْفَ أَلْتِ أَرْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ فإنها رؤيا عين يقظة لا رؤيا منام، كما صح عن ابن عباس وغيره.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة، ولا سبباً لتكذيب قريش؛ لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار؛ لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح، فالذي جعله الله فتنة هو ما رآه بعينه من الغرائب والعجائب؛ فزعم المشركون أن من ادعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة، فصار فتنة لهم، وكون الشجرة الملعونة التي

هي شجرة الزقوم على التحقيق فتنة لهم أن الله لما أنزل قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات] قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار! كما تقدم في البقرة.

ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: ﴿لَئِنْ رَأَيْتُم مِّنْ عَآئِنِنَا...﴾ الآية، وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [٧] ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم]، وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلا على رؤيا المنام مردود. بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً؛ ومنه قول الراعي وهو عربي قح:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفساً كان قبل يلومها
فإنه يعني رؤية صائد بعينه. ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

قاله صاحب (اللسان).

وزعم بعض أهل العلم أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ...﴾ الآية، رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] والحق الأول، وركوبه ﷺ على البزاق يدل على أن الإسراء بجسمه؛ لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف، وعلى كل حال.

فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع.

وقد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه، يقظة لا مناماً، كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرناها.

وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة، فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين.

وما ثبت في الصحيحين من طريق شريك عن أنس رضي الله عنه أن الإسراء المذكور وقع مناماً لا ينافي ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة؛ لإمكان أن يكون رأى الإسراء المذكور نوماً، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح فأسري به يقظة تصديقاً لتلك الرؤيا المنامية، كما رأى في النوم أنهم دخلوا المسجد الحرام، فجاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح فدخلوا المسجد الحرام في عمرة القضاء عام سبع يقظة لا مناماً تصديقاً لتلك الرؤيا؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. ويؤيد ذلك حديث عائشة الصحيح: «فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» مع أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ساء حفظه في تلك الرواية المذكورة عن أنس،

وزاد فيها ونقص، وقدم وأخر. ورواها عن أنس غيره من الحفاظ على الصواب، فلم يذكروا المنام الذي ذكره شريك المذكور، وانظر رواياتهم بأسانيدهم ومتونها في تفسير ابن كثير - رحمه الله تعالى - فقد جمع طرق حديث الإسراء جمعاً حسناً بإتقان.

ثم قال ﷺ: والحق أنه - عليه الصلاة والسلام - أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام - أي أقلام القدر - بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخلها كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، يتعبدون فيها ثم لا يعودون إليها إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده. وفي هذا اعتناء بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء؛ فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى.

ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل ﷺ في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم، انتهى بلفظه من تفسير الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو متواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه: عشرين صحابياً، ثم شرع يذكر بعض طرقه في الصحيحين وغيرهما، وبسط قصة الإسراء، تركناه لشهرته عند العامة، وتواتره في الأحاديث.

وذكر الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في آخر كلامه على هذه الآية الكريمة

فائدتين، قال في أولاهما: فائدة حسنة جلييلة، وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب (دلائل النبوة) من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر... فذكر وروده عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجتهد أن يحقر أمره ويصغره عنده، قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما معني من أن أقول عليه قولاً أسقطه به من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف به أنه قد كذب. قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة، فجاء مسجداً هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بطريق إيلياء قد علمت تلك الليلة.

قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد؛ فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فغلبننا، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه، حتى نصبح فننظر من أين أتى! قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا المجر الذي في زاوية المسجد مثقوب؛ وإذا فيه أثر مربوط الدابة. قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا، اهـ.

ثم قال في الأخرى: فائدة، قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير): وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد. ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي، وابن مسعود وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة، وبريدة وأبي أيوب، وأبي أمامة وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق ﷺ أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨١] اهـ من ابن كثير بلفظه.

وقد قدمنا أن أحسن أوجه الإعراب في «سبحان» أنه مفعول مطلق، منصوب بفعل محذوف؛ أي أسبح الله سبحانه أي تسبيحاً، والتسبيح: الإبعاد عن السوء، ومعناه في الشرع: التنزيه عن كل ما لا يليق بجلال الله وكماله، كما قدمنا. وزعم بعض أهل العلم: أن لفظة «سبحان» علم للتنزيه؛ وعليه فهو علم جنس لمعنى التنزيه على حد قول ابن مالك في الخلاصة، مشيراً إلى أن علم الجنس يكون للمعنى كما يكون للذات: ومثله برة للمبرة كذا فجار علم للفجرة

وعلى أنه علم، فهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنه غير علم، وأن معنى «سبحان» تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به. ولفظة «سبحان» من الكلمات الملازمة للإضافة، وورودها غير مضافة قليل؛ كقول الأعشي:

فقلت لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر
ومن الأدلة على أنه غير علم، ملازمته للإضافة والأعلام تقل إضافتها، وقد سمعت لفظة «سبحان» غير مضافة مع التنوين والتعريف، فمثاله مع التنوين قوله:
سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودي والجمد
ومثاله معرفاً قول الراجز:

سبحانك اللهم ذا السبحان

والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها؛ إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبّر به في هذا المقام العظيم، الذي اخترق العبد فيه السبع الطباق، ورأى من آيات ربه الكبرى، وقد قال الشاعر في محبوب مخلوق، والله المثل الأعلى:

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

واختلف العلماء في النكتة البلاغية التي نكر من أجلها «ليلاً» في هذه الآية الكريمة. قال الزمخشري في الكشف: أراد بقوله «ليلاً» بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعوضة، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة «من الليل» أي بعض الليل، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ يعني بالقيام في بعض الليل، اه واعترض بعض أهل العلم هذا.

وذكر بعضهم أن التنكير في قوله: «ليلاً» للتعظيم؛ أي ليلاً أي ليل، دنا فيه المحب إلى المحبوب! وقيل فيه غير ذلك، وقد قدمنا: أن أسرى وسرى لغتان؛ كسقى وأسقى، وقد جمعهما قول حسان رضي الله عنه:

حي النضيرة ربة الخدر أسرت إليك ولم تكن تسري
بفتح التاء من «تسرى». والباء قوله من ﴿يَعْبُدُهُ﴾ في اللغتين للتعدي، كالباء في
﴿ذَهَبَ اللَّهُ يُنُورُهُمْ﴾ [البقرة: ١٧]. وقد تقدمت شواهد هذا في (سورة هود).

تنبيه: اختلف العلماء هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء بعين رأسه أم لا؟
فقال ابن عباس وغيره: رآه بعين رأسه، وقالت عائشة وغيرها: لم يره. وهو خلاف
مشهور بين أهل العلم معروف.

قال - مقيده عفا الله عنه - التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع: أنه ﷺ لم يره
بعين رأسه. وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه؛ فالمراد به الرؤية بالقلب؛ كما في
صحيح مسلم أنه رآه بفؤاده مرتين لا بعين الرأس.

ومن أوضح الأدلة على ذلك أن أبا ذر ﷺ (وهو هو في صدق اللهجة) سأل
النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها؛ فأفتاه بما مقتضاه أنه لم يره، قال مسلم بن الحجاج
- رحمه الله تعالى - في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، حدثنا وكيع، عن يزيد بن
إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل
رأيت ربك؟ قال: «نور!! أنى أراه؟!».

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي (ح) وحدثني حجاج بن
الشاعر، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، كلاهما عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق
قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال:
كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً» هذا لفظ مسلم.

وقال النووي في شرحه لمسلم: أما قوله ﷺ: «نوراً أنى أراه!!» فهو بتنوين «نور»
وفتح الهمزة في «أنى» وتشديد النون وفتحها. و«أراه» بفتح الهمزة، هكذا رواه جميع
الرواة في جميع الأصول والروايات، ومعناه: حجاب نور، فكيف أراه!!.

قال الإمام أبو عبد الله المازري ﷺ: الضمير في «أراه» عائد إلى الله - سبحانه
وتعالى - ومعناه: أن النور منعني من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار،
ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه.

وقوله ﷺ: «رأيت نوراً» معناه: رأيت النور فحسب، ولم أر غيره. قال: وروي
«نوراني» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء، ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما
قلناه؛ أي خالق النور المانع من رؤيته، فيكون من صفات الأفعال.

قال القاضي عياض ﷺ: هذه الرواية لم تقع إلينا! ولا رأيناها في شيء من
الأصول، اه محل الغرض من كلام النووي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق الذي لا شك فيه هو أن معنى الحديث هو ما
ذكر، من كونه لا يتمكن أحد من رؤيته لقوة النور الذي هو حجاب به. ومن أصرح الأدلة

على ذلك أيضاً حديث أبي موسى المتفق عليه: «حجابه لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وهذا هو معنى قوله ﷺ: «نورا أني أراه؟». أي كيف أراه وحجابه نور، من صفته أنه لو كشفه لأحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقد قدمنا أن تحقيق المقام في رؤية الله - جل وعلا - بالأبصار أنها جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، بدليل قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ لأنه لا يجهل المستحيل في حقه - جل وعلا - وأنها جائزة شرعاً وواقعة يوم القيامة، ممتنعة شرعاً في الدنيا قال: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ومن أصرح الأدلة في ذلك حديث: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» في صحيح مسلم وصحيح ابن خزيمة كما تقدم.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فكان قَابَ قَوْسَيْنِ [النجم: ٨، ٩] - فذلك جبريل على التحقيق، لا الله - جل وعلا -.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾. أظهر التفسيرات فيه أن معنى «باركنا حوله» أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار. وقد وردت آيات تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿وَيَخْتِنُّهُ وَأُطُوعًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَلَسَلِمْنَ الرَّيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء] فإن المراد بتلك الأرض: الشام. والمراد بأنه بارك فيها أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصب والأشجار والثمار والمياه؛ كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء: المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها، وقيل: غير ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأُ﴾. الظاهر إنما أراه الله من آياته في هذه الآية الكريمة أنه أراه إياه رؤية عين؛ فهمزة التعدية داخلية على رأي البصرية؛ كقوله: أرايت زيدا دار عمرو؛ أي جعلته يراها بعينه. و«من» في الآية للتبعيض، والمعنى «لنريه من آياتنا»؛ أي بعض آياتنا فنجعلله يراها بعينه، وذلك ما رآه ﷺ بعينه ليلة الإسراء من الغرائب والعجائب؛ كما جاء مبيناً في الأحاديث الكثيرة. ويدل ما ذكرنا في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة النجم: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لما بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عظم شأن نبيه ﷺ، ذكر عظم شأن موسى بالكتاب العظيم، الذي أنزله إليه وهو التوراة، مبيناً أنه جعله هدى لبني إسرائيل، وكرر - جل وعلا - هذا المعنى في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَدَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ...﴾

الآية [القصاص: ٤٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الأنعام: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الأعراف: ١٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾. اعلم أن هذا الحرف قرأه جمهور القراء «ألا تتخذون» بالناء على وجه الخطاب؛ وعلى هذا «أن» هي المفسرة؛ فجعل التوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيم عن اتخاذ وكيل من دون الله؛ لأن الإخلاص لله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - وعلى هذه القراءة «لا» في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ناهية، وقرأه أبو عمرو من السبعة «ألا يتخذوا من دوني وكيلًا» بالياء على الغيبة. وعلى هذه القراءة فالمصدر المنسبك من «أن» وصلتها مجرور بحرف التعليل المحذوف؛ أي وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأجل ألا يتخذوا من دوني وكيلًا؛ لأن اتخاذ الوكيل الذي تسند إليه الأمور، وتفوض من دون الله ليس من الهدى؛ فمرجع القراءتين إلى شيء واحد، وهو أن التوكل إنما يكون على الله وحده لا على غيره.

وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]؛ وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ الْعَرْشُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢) [إبراهيم]، وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، وقوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْعَلُونَ إِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِعَاقِبَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا.

والوكيل: فعيل من التوكل؛ أي متوكلاً عليه، تفوضون إليه أموركم؛ فيوصل إليكم النفع، ويكف عنكم الضرر.

وقال الزمخشري: ﴿وَكَيْلًا﴾ أي رباً تكلون إليه أموركم. وقال ابن جرير: حفيظاً لكم سواي.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل، اه؛ قاله أبو حيان في (البحر).

وقال القرطبي: ﴿وَكَيْلًا﴾ أي شريكاً، عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم؛ حكاه الفراء. وقيل: رباً يتوكلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي. وقال الفراء: كافياً. اهـ. والمعاني متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الوكيل: من يتوكل عليه؛ فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير، ويدفع الشر. وهذا لا يصح إلا لله وحده - جل وعلا - ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضار، ولا كافي إلا هو وحده - جل وعلا - عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من حملهم مع نوح؛ تنبيهاً على النعمة التي نجاهم بها من الغرق؛ ليكون في ذلك تهيج لذرياتهم على طاعة الله؛ أي يا ذرية من حملنا مع نوح فنجيناكم من الغرق، تشبهوا بأبيكم، فاشكروا نعمنا، وأشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨].

وبيّن في مواضع آخر الذين حملهم مع نوح من هم، وبيّن الشيء الذي حملهم فيه. وبيّن من بقي له نسل وعقب منهم، ومن انقطع ولم يبق له نسل ولا عقب.

فبيّن أن الذين حملهم مع نوح هم أهله ومن آمن معه من قومه في قوله: ﴿قُلْنَا أَخْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]. وبيّن أن الذين آمنوا من قومه قليل بقوله: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وبيّن أن ممن سبق عليه القول من أهله بالشقاء امرأته وابنه، قال في امرأته: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]. وقال في ابنه: ﴿وَمَالٌ بَيْنَهُمَا الْوَجْهُ فَكَانَ مِنَ الْمُتَرَفِّينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال فيه أيضاً: ﴿إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ عَثَرٌ صٰلِحٌ﴾ [هود: ٤٦].

وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ونحوها من الآيات.

وبيّن أن الذي حملهم فيه هو السفينة في قوله: ﴿قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]؛ أي السفينة، وقوله: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي أدخل فيها - أي السفينة - ﴿مِّنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وبيّن أن ذرية من حمل مع نوح لم يبق منها إلا ذرية نوح في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا مَّا بَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وكان نوح يحمد الله على طعامه وشرابه، ولباسه وشأنه كله؛ فسماه الله عبداً شكوراً.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا﴾، أنه منادى بحرف محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

أظهر الأقوال فيه: أنه بمعنى أخبرناهم وأعلمناهم. ومن معاني القضاء: الإخبار والإعلام؛ ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر] والظاهر أن تعديته بـ«إلى» لأنه مضمن معنى الإحياء. وقيل: مضمن معنى: تقدمنا إليهم فأخبرناهم. قال معناه ابن كثير. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن من أحسن - أي بالإيمان والطاعة - فإنه إنما يحسن إلى نفسه؛ لأن نفع ذلك لنفسه خاصة، وأن من أساء - أي بالكفر والمعاصي - فإنه إنما يسيء على نفسه؛ لأن ضرر ذلك عائد إلى نفسه خاصة. وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [٤٤] [الروم] إلى غير ذلك من الآيات. واللام في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بمعنى على؛ أي فعلها، بدليل قوله: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. ومن إتيان اللام بمعنى «على» قوله تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلْآذِقَانِ﴾؛ أي عليها، وقوله: ﴿فَسَلِّمْ لَكَ﴾ [الواقعة: ٩١]؛ أي سلام عليك، على ما قاله بعض العلماء، ونظير ذلك من كلام العرب: قول جابر التغلبي، أو شريح العبسي، أو زهير المزني أو غيرهم:

تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعاً لليدين وللنفس

أي على اليدين وعلى النفس، والتعبير بهذه اللام في هذه الآية للمشاكلة؛ كما قدمنا في نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ﴾، جواب «إذا» في هذه الآية الكريمة محذوف، وهو الذي تتعلق به اللام في قوله: «ليستوا» وتقديره: إذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسؤوا وجوهكم؛ بدليل قوله في الأولى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، قال ابن قتيبة في (مشكل القرآن): ونظيره في حذف العامل قول حميد بن ثور:

رأنتني بحبليها فصدت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

أي رأنتني أقبلت، أو مقبلاً. وفي هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات: قرأه علي الكسائي «لنساء وجوهكم» بنون العظمة وفتح الهمزة؛ أي لنساءها بتسليطنا إياهم عليكم يقتلونكم ويعذبونكم. وقرأه ابن عامر وحمزة وشعبة عن عاصم «لنساء وجوهكم» بالياء وفتح الهمزة والفاعل ضمير عائد إلى الله؛ أي لنساء هو؛ أي الله، وجوهكم بتسليطه إياهم عليكم. وقرأه الباقون «ليستوا وجوهكم» بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع التي هي فاعل الفعل، ونصبه بحذف النون، وضمير الفاعل الذي هو الواو عائد إلى الذين بعثهم الله عليهم ليسؤوا وجوههم بأنواع العذاب والقتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ لما بين - جل وعلا - أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما بعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد فاحتلوا بلادهم وعذبوهم. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قوماً ليسؤوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيراً.

وبين أيضاً أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه - جل وعلا - يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ ولم يبين هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أم لا؟ ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول ﷺ، وكنتم صفاته ونقض عهوده، ومظاهرة عدوه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد الله - جل وعلا - للانتقام منهم تصديقاً لقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ فسلط عليهم نبيه ﷺ والمسلمين؛ فجرى على بني قريظة والنضير، وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب الذلة والمسكنة.

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ يَسْأَلُونَ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بِقِيٍّ أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذُوا فِرَقًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّا نَفَعْتُهُمْ خُصْمُهُمْ مِن اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرُونَ يُؤْتِيهِم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُم فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعَمُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧]، ونحو ذلك من الآيات. وتركنا بسط قصة الذين سلطوا عليهم في المرتين؛ لأنها أخبار إسرائيلية؛ وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، كل منهما يشهد لمعناه قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها وجهان أو أوجه وكلها صحيح ويشهد له قرآن؛ فنورد جميع ذلك لأنه كله حق:

الأول: أن الحصار: المحبس والسجن؛ من الخصر وهو الحبس. قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصراً: ضيق عليه وأحاط به. وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هَٰذَا لَكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان] ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن معنى «حصيراً» أي فراشاً ومهاداً؛ من الحصار الذي يفرش؛ لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً. قال الثعلبي: وهو وجه حسن، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ونحو ذلك من الآيات، والمهاد: الفراش.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين - جل وعلا - يهدي للتي هي أقوم؛ أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عقل يجوز حذفه وفي النعت يقل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجمل الله - جل وعلا - فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا - إن شاء الله تعالى - سنذكر جملاً واقرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة.

فمن ذلك توحيد الله - جل وعلا - فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيد - جل وعلا - في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته، وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَقُوا اللَّهَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس]. وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بصائر»، وقوله: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا.

الثاني: توحيده - جل وعلا - في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» وهي مترتبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله، كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها: إفراد الله - جل وعلا - وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: أن ما أوحى إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده - جل وعلا - في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبنى على أصليين:

الأول: تنزيه الله - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠] وقد قدمنا هذا المبحث مستوفى موضحاً بالآيات القرآنية «في سورة الأعراف».

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته - جل وعلا - على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير،

فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٥﴾ فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٧﴾ فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٩﴾ فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣].

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهِجَتْ مَا كُنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها، خير من جماد لا يقدر على شيء، فلما تعين اعترافهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا

عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ٦١] ثم قال - جل وعلا -: ﴿أَمَنْ يُحِبُّ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الصافات: ٦٢] ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: ٦٣] ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال - جل وعلا -: ﴿أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُم مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا! أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿سُبْحَنُكُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

والآيات بنحو هذا كثيرة جداً، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالالوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير، وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده - إن شاء الله - في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك، بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات آخر.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: جعله الطلاق بيد الرجل، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقَتُ النِّسَاءَ﴾ ... الآية [الطلاق: ١]، ونحوها من الآيات؛ لأن النساء مزارع وحقول، تبذر فيها النطف كما يبذر الحب في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَوْكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق أن الزارع لا يرغب على الازدراع في حقل لا يرغب الزراعة فيه لأنه يراه غير صالح له، والدليل الحسي القاطع على ما جاء به القرآن من أن الرجل زارع، والمرأة مزرعة وأن آلة الازدراع مع الرجل؛ فلو أرادت المرأة أن تجامع الرجل وهو كاره لها، لا رغبة له فيها لم ينتشر، ولم يبق ذكره إليها فلا تقدر منه على شيء، بخلاف الرجل فإنه قد يرغبها وهي كارهة فتحمل وتلد؛ كما قال أبو كبير الهذلي:

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل
فدلت الطبيعة والخلقة على أنه فاعل وأنها مفعول به؛ ولذا أجمع العقلاء على
نسبة الولد له لا لها.

وتسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس، كما لا يخفى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: إباحته تعدد الزوجات إلى أربع، وأن الرجل إذا
خاف عدم العدل بينهما، لزمه الاقتصار على واحدة، أو ملك يمينه، كما قال تعالى:
﴿وَلَا تَزِنُ أَلَا تَنفُسُوهَا فِي الْيَمِينِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَتِلْكَ وَرِثَةُ الْوَالِدِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق
وأعدلها، هي إباحة تعدد الزوجات لأمر محسوس يعرفها كل العقلاء.

منها: أن المرأة الواحدة تحيض وتمرض، وتنفس إلى غير ذلك من العوائق
المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو
حبس عليها في أحوال أعذارها لعطلت منافعه باطلاً في غير ذنب.

ومنها: أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً من النساء في أقطار الدنيا،
وأكثر تعرضاً لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة، فلو قصر الرجل على
واحدة، لبقى عدد ضخم من النساء محروماً من الزواج، فيضطرون إلى ركوب الفاحشة،
فالعدول عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق، والانحطاط
إلى درجة البهائم في عدم الصيانة، والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق! فسيحان
الحكيم الخبير! ﴿الرَّكَتُوبُ أَهْلُكُمْ أَكْتَبْتُ أَكْتَبْتُ ثُمَّ قُضِلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود].

ومنها: أن الإناث كلهن مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على
القيام بلوازم الزواج لفقرهم. فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له من
النساء؛ لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على لوازم النكاح؛
فلو قصر الواحد على الواحدة، لضاع كثير من المستعدات للزواج أيضاً بعدم وجود
أزواج؛ فيكون ذلك سبباً لضياع الفضيلة وتفشي الرذيلة، والانحطاط الخلقي، وضياع
القيم الإنسانية، كما هو واضح، فإن خاف الرجل ألا يعدل بينهما، وجب عليه
الاقتصار على واحدة، أو ما ملك يمينه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾
[النحل: ٩٠]. والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهما لا يجوز، لقوله تعالى:
﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُطَلَقَاتِ﴾ [النساء: ١٢٩]، أما الميل الطبيعي بمحبة
بعضهن أكثر من بعض، فهو غير مستطاع دفعه للبشر، لأنه انفعال وتأثر نفسي لا فعل،
وهو المراد بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَتَظَاهَرُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٩]، كما أوضحناه
في غير هذا الموضع. وما يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام، من أن تعدد
الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة؛ لأنه كلما أرضى

إحدى الضرتين سخطت الأخرى؛ فهو بين سخطتين دائماً، وأن هذا ليس من الحكمة، فهو كلام ساقط، يظهر سقوطه لكل عاقل؛ لأن الخصام والمشغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه البتة، فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينه وبين زوجته الواحدة؛ فهو أمر عادي ليس له كبير شأن، وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه أعداء الإسلام كلا شيء؛ لأن المصلحة العظمى يقدم جلبها على دفع المفسدة الصغرى.

فلو فرضنا أن المشغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلاام قلب الزوجة الأولى بالضررة مفسدة، لقدمت عليها تلك المصالح الراجعة التي ذكرنا، كما هو معروف في الأصول. قال في (مراقي السعود) عاطفاً على ما تلغى فيه المفسدة المرجوحة في جنب المصلحة الراجعة.

أو رجع الإصلاح كالأسارى تفدى بما ينفع للنصارى
وانظر تدلى دوالي العنب في كل مشرق وكل مغرب

فداء الأسارى مصلحة راجحة، ودفع فدايتهم النافع للعدو مفسدة مرجوحة، فتقدم عليها المصلحة الراجعة، أما إذا تساوت المصلحة والمفسدة، أو كانت المفسدة أرجح كفداء الأسارى بسلاح يتمكن بسببه العدو من قتل قدر الأسارى أو أكثر من المسلمين، فإن المصلحة تلغى لكونها غير راجحة، كما قال في (المراقي):

أخرم مناسبا بمفسد لزم للحكم وهو غير مرجوح علم

وكذلك العنب تعصر منه الخمر وهي أم الخبائث، إلا أن مصلحة وجود العنب والزبيب والانتفاع بهما في أقطار الدنيا مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر منها، ألغيت لها تلك المفسدة المرجوحة، واجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون سبباً لحصول الزنى إلا أن التعاون بين المجتمع من ذكور وإناث مصلحة أرجح من تلك المفسدة، ولذا لم يقل أحد من العلماء: إنه يجب عزل النساء في محل مستقل عن الرجال، وأن يجعل عليهن حصن قوي لا يمكن الوصول إليهن معه، وتجعل المفاتيح بيد أمين معروف بالتقى والديانة كما هو مقرر في الأصول.

فالقرآن أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر. وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع، والعلم عند الله تعالى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يبين لخلق هذا البيان الذي من جملته تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث لثلاث يضلوا، فمن سوى بينهما فيه فهو ضال قطعاً. ثم بين أنه أعلم بالحكم والمصالح وبكل شيء من خلقه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾... الآية [النساء: ١١].

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى؛ كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى آيٍ وَهُوَ الرِّجَالُ عَلَى دَرَجَةٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ وذلك لأن الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس.

وقد أشار - جل وعلا - إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]؛ لأن الله أنكر عليهم في هذه الآية الكريمة أنهم نسبوا له ما لا يليق به من الولد، ومع ذلك نسبوا له أخس الولدين وأنقصهما وأضعفهما؛ ولذلك ينشأ في الحلية أي الزينة من أنواع الحللي والحلل ليَجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي والحلل وهو الأنثى، بخلاف الرجل، فإن كمال ذكوره وقوتها وجمالها يكفيه عن الحللي، كما قال الشاعر:

وما الحللي إلا زينة من نقيصة يتم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

وقال تعالى: ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢١) تِلْكَ إِذْ قَسَمَ ضُرَيْقٌ (٢٢) [النجم] وإنما كانت هذه القسمة ضيزى؛ أي غير عادلة؛ لأن الأنثى أنقص من الذكر خلقة وطبيعة؛ فجعلوا هذا النصيب الناقص لله - جل وعلا - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً! وجعلوا الكامل لأنفسهم كما قال: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكَ مَا يُكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] أي وهو البنات. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي وهو الأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

وكل هذه الآيات القرآنية تدل على أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة والطبيعة، وأن الذكر أفضل وأكمل منها؛ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات] ﴿أَفَأَصْفَكَ رُجُلًا بِنَاتِنٍ وَأَخَذَ مِنَ الْمَالِكَةِ إِنثًا﴾، والآيات الدالة على تفضيله عليها كثيرة جداً.

ومعلوم عند عامة العقلاء أن الأنثى متاع لا بد له ممن يقوم بشؤونه ويحافظ عليه. وقد اختلف العلماء في التمتع بالزوجة هل هو قوت؟ أم تفكه؟ وأجرى علماء المالكية على هذا الخلاف حكم إلزام الابن بتزويج أبيه الفقير قالوا: فعلى أن النكاح قوت فعليه تزويجه؛ لأنه من جملة القوت الواجب له عليه، وعلى أنه تفكه لا يجب عليه على قول بعضهم، فانظر شبه النساء بالطعام والفاكهة عند العلماء. وقد جاءت السنة الصحيحة بالنهي عن قتل النساء والصبيان في الجهاد؛ لأنهما من جملة مال المسلمين الغانمين، بخلاف الرجال فإنهم يقتلون.

ومن الأدلة على أفضلية الذكر على الأنثى أن المرأة الأولى خلقت من ضلع الرجل الأول؛ فأصلها جزء منه. فإذا عرفت من هذه الأدلة أن الأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار، يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقه وطبيعته، يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته؛ ليجلب له ما لا يقدر على جلبه من النفع، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر؛ كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا علمت ذلك، فاعلم أنه لما كانت الحكمة البالغة، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص مقوماً عليه من قبل القوي الكامل، اقتضى ذلك أن يكون الرجل ملزماً بالإنفاق على نسائه، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] ومال الميراث ما مسحاً في تحصيله عرفاً، ولا تسبباً فيه البتة، وإنما هو تمليك من الله ملكهما إياه تملكاً جبرياً؛ فاقترضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث وإن أدليا بسبب واحد؛ لأن الرجل مترقب للنقص دائماً بالإنفاق على نسائه، وبذل المهور لهن، والبذل في نوائب الدهر، والمرأة مترتبة للزيادة بدفع الرجل لها المهر، وإنفاقه عليها وقيامه بشؤونها. وإيثار مترقب للنقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً لجبر بعض نقصه المترقب، حكمته ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ولأجل هذه الحكم التي بينا بها فضل نوع الذكر على نوع الأنثى في أصل الخلقة والطبيعة، جعل الحكيم الخبير الرجل هو المسؤول عن المرأة في جميع أحوالها. وخصه بالرسالة والنبوة والخلافة دونها، وملكه الطلاق دونها، وجعله الولي في النكاح دونها، وجعل انتساب الأولاد إليه لا إليها، وجعل شهادته في الأموال بشهادة امرأتين في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وجعل شهادته تقبل في الحدود والقصاص دونها، إلى غير ذلك من الفوارق الحسية والمعنوية والشرعية بينهما.

ألا ترى أن الضعف الخلقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب، قال جرير:

إن العيون التي في طرفها حور
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
وقال ابن الدميني:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
به سكتة حتى يقال مريب

فالأول: تشب بهن بضعف أركانهن، والثاني: بعجزهن عن الإبانة في الخصام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، ولهذا التباين في الكمال والقوة بين النوعين، صح عن النبي ﷺ اللعن على من تشبه منهما بالآخر، قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن قتادة، عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال» هذا لفظ البخاري في صحيحه، ومعلوم أن من لعنه رسول الله ﷺ فهو ملعون في كتاب الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. كما ثبت عن ابن مسعود ؓ كما تقدم.

فلتعلمن أيتها النساء اللاتي تحاولن أن تكن كالرجال في جميع الشؤون أنكن مترجلات متشبهات بالرجال، وأنكن ملعونات في كتاب الله على لسان رسوله ﷺ، وكذلك المخشون المتشبهون بالنساء، فهم أيضاً ملعونون في كتاب الله على لسانه ﷺ، ولقد صدق من قال فيهم:

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجاب

واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن هذه الفكرة الكافرة، الخاطئة الخاصة، المخالفة للحس والعقل، وللوحي السماوي وتشريع الخالق البارئ من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين، فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحد إلا من أعمى الله بصيرته، وذلك لأن الله - جل وعلا - جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني؛ صلاحاً لا يصلح لها غيرها كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد، وخدمة البيت، والقيام على شؤونه: من طبخ وعجن وكس ونحو ذلك. وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتمال؛ فزعم أولئك السفلة الجهلة من الكفار وأتباعهم أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما للرجل، مع أنها في زمن حملها ورضاعها ونفاسها، لا تقدر على مزاوله أي عمل فيه أي مشقة كما هو مشاهد، فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهئية الأكل

والشرب للرجل إذا جاء من عمله. فلو أجروا إنساناً يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فراراً منه؛ فعدت النتيجة في حافرتها، على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين؛ لأن المرأة متاع، هو خير متاع الدنيا، وهو أشد أمتعة الدنيا تعرضاً للخيانة؛ لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكراً؛ فتعريضها لأن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل، وكذلك إذا لمس شيئاً من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك اللمس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية؛ ولا سيما إذا كان القلب فارغاً من خشية الله تعالى، فاستغل نعمة ذلك البدن خيانة وغدراً. وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالباً سبباً لما هو شر منه؛ كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام، وتركت الصيانة؛ فصارت نساؤها يخرجن متبرجات عاريات الأجسام إلا ما شاء الله؛ لأن الله نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! نعوذ بالله من مسخ الضمير والذوق، ومن كل سوء، ودعوى الجهلة السفلة أن دوام خروج النساء بادية الرؤوس والأعناق والمعاصم والأذرع والسوق، ونحو ذلك يذهب إثارة غرائز الرجال؛ لأن كثرة الإمساس تذهب الإحساس. كلام في غاية السقوط والخسة؛ لأن معناه: إشباع الرغبة مما لا يجوز، حتى يزول الأرب منه بكثرة مزاولته وهذا كما ترى؛ ولأن الدوام لا يذهب إثارة الغريزة باتفاق العقلاء؛ لأن الرجل يمكث مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادهما، ولا تزال ملامسته لها، ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته، كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد أمر رب السموات والأرض، خالق هذا الكون ومدبر شؤونه، العالم بخفايا أموره، وبكل ما كان وما سيكون بغض البصر عما لا يحل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠ - ٣١].

ونهى المرأة أن تضرب برجلها لتسمع الرجال صوت خلخالها في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. ونهاهن عن لين الكلام؛ لئلا يطمع أهل الخنى فيهن؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تحقيق المقام في مسألة الحجاب (في سورة الأحزاب) كما قدمنا الوعد بذلك في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: ملك الرقيق المعبر عنه في القرآن بملك اليمين

في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاجِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ [المؤمنون] «في سورة قد أفلح المؤمنون، وسأل سائل»، وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٢٣]، وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّكَ لَكَ أَزْوَاجُكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَأْيِي يَرْفَعُهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل: ٧١]، وقوله: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات ونحوها: ملك الرقيق بالرق، ومن الآيات الدالة على ملك الرقيق قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ونحو ذلك من الآيات.

وسبب الملك بالرق هو الكفر، ومحاربة الله ورسوله، فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم، وجميع قواهم، وما أعطاهم الله لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار - جعلهم ملكاً لهم بالسبي؛ إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء؛ لما في ذلك من المصلحة على المسلمين.

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، وذلك أن الله - جل وعلا - خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ⑦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ⑧ [الذاريات]. وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، كما قال: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وفي الآية الأخرى «في سورة النحل»: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ⑨ [إبراهيم]. وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ⑩ [النحل].

فتمرد الكفار على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لثلاث تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما

يسخطة، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره. وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان. فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير - جل وعلا - عقوبة شديدة تناسب جريمتهم فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً كلياً، فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيضاء عليهم في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] كما تقدم.

وتشوف الشارع تشوفاً شديداً للحرية والإخراج من الرق؛ فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣] ورغب في الإعتاق ترغيباً شديداً، ولو فرضنا - والله المثل الأعلى - أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام - قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها، التي يظهر لها أن بهما صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه؛ فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل، والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه؛ ليسير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة؛ والرخاء والعدالة، والمساواة في الحقوق الشرعية، وتنظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسمأها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فعاقبه الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف، ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك.

فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسوله قد زال؟

فالجواب: أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسي ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع، وهو الحكيم الخبير، فإذا استقر هذا الحق وثبت، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه، كما هو معلوم عند العقلاء، نعم، يحسن بالمالك

ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه، وفتح الأبواب الكثيرة كما قدمنا - فسبحان الحكيم الخبير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٥﴾ [الأنعام]. فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار، وقوله: ﴿وَعَدْلًا﴾ أي في الأحكام، ولا شك أن من ذلك العدل الملك بالرق وغيره من أحكام القرآن.

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: القصاص؛ فإن الإنسان إذا غضب وهم بأن يقتل إنساناً آخر فتذكر أنه إن قتله قتل به، خاف العاقبة فترك القتل، فحيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو؛ لأنه لم يقتل فيقتل قصاصاً، فقتل القاتل يحيا به ما لا يعلمه إلا الله كثرة كما ذكرنا، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَتِ لِمَلَكُم تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [البقرة] ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها؛ ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديماً وحديثاً قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب الله؛ لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفاً. وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع كله كلام ساقط، عار من الحكمة! لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن السفهاء يكثر منهم القتل؛ فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: قطع يد السارق المنصوص عليه بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة]، وقال النبي ﷺ: «لو سرق فاطمة لقطعت يدها».

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: رجم الزاني المحصن ذكراً كان أو أنثى، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى.

أما الرجم فهو منصوص بآية منسوخة التلاوة باقية الحكم، وهي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم».

وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم؛ فدل القرآن في آيات محكمة كقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخَذُّوهُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُخَوِّنُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣] - على ثبوت حكم الرجم في شريعة نبينا ﷺ لزمه في كتابنا للمعرض عنه كما تقدم.

وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي عليه السلام، حين رجم امرأة يوم الجمعة: «رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»؛ لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باق بعد نسخ تلاوتها.

ويدل على ذلك قول عمر رضي الله عنه في حديثه الصحيح المشهور: «فكان مما أنزل إليه آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده...» الحديث. والملحدون يقولون: إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان؛ لقصور إدراكهم عن فهم حكم الله البالغة في تشريعه.

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقدير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله. ومن كان كذلك فهو نجس قدر لا يصلح للمصاحبة؛ فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع. ويظهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفضع قتله؛ لأن جريمته أفضع جريمة، والجزاء من جنس العمل.

وقد دل الشرع المظهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعاً يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء. فدل ذلك على أن الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حراماً قتل صاحبه المحصن؛ لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب الزنى، ويبقى عليه حق آدمي؛ كالزوج إن زنى بمتزوجة، وحق الأولياء في إلحاق العار بهم كما أشرنا إليه سابقاً. وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: ما أقيح ذلك الفعل حلالاً! فكيف به وهو حرام! وغلط - جل وعلا - عقوبة المحصن بالرجم تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة؛ لأن المحصن قد ذاق عسيلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن. فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم، كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم.

وأما جلد الزاني البكر ذكراً كان أو أنثى مائة جلدة، فهذا منصوص بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلَّةٍ﴾ [النور: ٢]؛ لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى كما تقدم، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل ما يلزم الزناة من ذكور وإناث، وعبيد وأحرار «في سورة النور».

وتشريع الحكيم الخبير - جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فطيع الجناية بعظيم العقاب جزاء وفاقاً.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين، فما خيله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام - باطل لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم

في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بأدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ ... الآية [سبا: ١٠-١١]. فقلوه: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ [النمل: ١٩] يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف. وداود من أنبياء «سورة الأنعام» المذكورين فيها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقد قال تعالى مخاطباً لنبينا ﷺ وعليهم بعد أن ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما من أين أخذت السجدة «في ص» فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ ... [الأنعام: ٨٤] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ.

فدل ذلك على أنا مخاطبون بما تضمنته الآية مما أمر به داود، فعلينا أن نستعد لكفاح العدو مع التمسك بديننا، وانظر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهو أمر جازم بإعداد كل ما في الاستطاعة من قوة ولو بلغت القوة من التطور ما بلغت، فهو أمر جازم بمسايرة التطور في الأمور الدنيوية، وعدم الجمود على الحالات الأولى إذا طرأ تطور جديد، ولكن كل ذلك مع التمسك بالدين.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. فصلاة الخوف المذكورة في هذه الآية الكريمة تدل على لزوم الجمع بين مكافحة العدو، وبين القيام بما شرعه الله - جل وعلا - من دينه، فأمره تعالى في هذه الآية بإقامة الصلاة في وقت التحام الكفاح المسلح يدل على ذلك دلالة في غاية الوضوح، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنفال]. فأمره في هذه الآية الكريمة بذكر الله عند التحام القتال يدل على ذلك أيضاً دلالة واضحة. فالكفار خيلوا لضعاف العقول أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين، والسمت الحسن والأخلاق الكريمة - تباين مقابلة كتابين النقيضين كالعدم والوجود، والنفي الإثبات أو الضدين كالسود والبياض، والحركة والسكون، أو المتضائفين كالأبوة والبنوة، والفوق والتحت. أو العدم والملكة كالبصر والعمى.

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، وكذلك الحركة والسكون مثلاً. وكذلك الأبوة والبنوة. فكل ذات ثبتت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها، بحيث يكون شخص أباً و ابناً لشخص واحد؛ كاستحالة

اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة، أو الحركة والسكون في جرم، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان.

فخيلوا لهم أن التقدم والتمسك بالدين متباينان تباين مقابلة، بحيث يستحيل اجتماعهما؛ فكان من نتائج ذلك انحلالهم من الدين رغبة في التقدم؛ فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

والتحقيق أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن نصوص الكتاب والسنة إنما هي تباين المخالفة، وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها تباين حقيقة الآخر، ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلاً في ذات أخرى؛ كاليباض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة.

فحقيقة اليباض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن اليباض والبرودة يمكن اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج، وكذلك الكلام والقعود فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً في وقت واحد، وهكذا، فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم بالنظر إلى حكم العقل من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز عقلاً أن يكون بارداً كالثلج، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً، فكذلك المتمسك بالدين يجوز عقلاً أن يكون متقدماً؛ إذ لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، مشتغلاً في جميع الميادين التقدمية كما لا يخفى، وكما عرفه التاريخ للنبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان. أما بالنظر إلى نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِإِبَادَةِ الرُّسُلِ﴾ [١٧] ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصُونَ﴾ [١٨] ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا لَهُمُ الْفُلُوكُ﴾ [١٩] [الصافات]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٢٠] [التوبة]، ونحو ذلك من الآيات، وما في معناها من الأحاديث.

فإن النسبة بين التمسك بالدين والتقدم، كالنسبة بين الملزوم ولازمه؛ لأن التمسك بالدين ملزوم للتقدم، بمعنى أنه يلزم عليه التقدم، كما صرحت به الآيات المذكورة. ومعلوم أن النسبة بين الملزوم ولازمه لا تعدو أحد أمرين: إما أن تكون المساواة أو الخصوص المطلق؛ لأن الملزوم لا يمكن أن يكون أعم من لازمه، وقد يجوز أن يكون مساوياً أو أخص منه، ولا يتعدى ذلك. ومثال ذلك: الإنسان مثلاً، فإنه ملزوم للبشرية والحيوانية، بمعنى أن الإنسان يلزم على كونه إنساناً أن يكون بشراً وأن يكون حيواناً، وأحد هذين اللازمين مساو له في الماصدق وهو البشر. والثاني أعم منه ماصداً وهو الحيوان، فالإنسان أخص منه خصوصاً مطلقاً كما هو معروف.

فانظر كيف خيلوا لهم أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافي الذي بين النقيضين والضدين، وأطاعوهم في ذلك لسذاجتهم وجهلهم وعمي بصائرهم، فهم ما تقولوا على الدين الإسلامي ورموه بما هو منه بريء إلا لينفروا منه ضعاف العقول ممن ينتمي للإسلام ليتمكنهم الاستيلاء عليهم؛ لأنهم لو عرفوا الدين حقاً واتبعوه لفعلوا بهم ما فعل أسلافهم بأسلافهم، فالدين هو هو وصلته بالله هي هي، ولكن المنتسبين إليه في جل أقطار الدنيا تنكروا له، ونظروا إليه بعين المقت والازدراء؛ فجعلهم الله أرقاء للكفرة الفجرة؛ ولو راجعوا دينهم لرجع لهم عزهم ومجدهم، وقادوا جميع أهل الأرض، وهذا مما لا شك فيه ﴿ذَلِكَ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ لَأَنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: بيانه أن كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية، ولما قال الكفار للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من قتلها؟ فقال لهم: «الله قتلها» فقالوا له: ما ذبحتم بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون إنه حرام! فأنتم إذن أحسن من الله؟! أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام] وحذف الفاء من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ يدل على قسم محذوف على حد قوله في الخلاصة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

إذ لو كانت الجملة جواباً للشرط لاقتربت بالفاء على حد قوله في الخلاصة أيضاً:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

فهو قسم من الله - جل وعلا - أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ١]؛ لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِیَ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١٧] أي ما يعبدون إلا شيطاناً، وذلك باتباعهم تشريعه. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زُفَّتْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلٌ أَوْ كُذِبَتْ شُرَكَائُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فسماهم شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى، وقال عن خليله: ﴿يَتَابَعَتِ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، أي بطاعته في الكفر والمعاصي، ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ رُؤُوسَهُمْ أَرْكَابًا﴾... الآية [التوبة: ٣١]، بين له أن معنى ذلك أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، والآيات بمثل هذا كثيرة.

والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ يَرْغُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُتْبَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام].

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط أفراد المجتمع، وأن ينادي بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»؛ ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ [الحجرات: ١١]، أي إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصية: قوله تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ نَبِيعَتُهُ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصية المعروفة بالقومية لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين.

ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه قال: باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون] حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله ﷺ يقول: كنا في غزاة فكسع رجل

من المهاجرين رجلاً من الأنصار؛ فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فسمَّعها الله رسوله، قال: «ما هذا؟» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة...» الحديث. فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، وهذا المهاجري: يا للمهاجرين هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» يقتضى وجوب ترك النداء بها؛ لأن قوله: «دعوها» أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضى الوجوب على التحقيق كما تقرر في الأصول؛ لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ويقول لإبليس: ﴿مَا مَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فدل على أن مخالفة الأمر معصية. وقال تعالى عن نبيه موسى في خطابه لأخيه: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣] فأطلق اسم المعصية على مخالفة الأمر، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فدلَّت الآية على أن أمر الرسول ﷺ مانع من الاختيار، موجب للامتثال؛ لا سيما وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر بالترك بقوله: «فإنها منتنة» وحسبك بالتن موجباً للتباعد لدلالته على الخبث البالغ.

فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية مخالف لما أمر به النبي ﷺ، وأن فاعله يتعاطى المتنن، ولا شك أن المتنن خبيث، والله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، ويقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وحديث جابر هذا الذي قدمناه عن البخاري أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، قال ﷺ: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة؛ وزهير بن حرب، وأحمد بن عبدة الضبي، وابن أبي عمر، واللفظ لابن أبي شيبة، قال ابن عبدة: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية!» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: «دعوها فإنها منتنة» الحديث.

وقد عرفت وجه دلالة هذا الحديث على التحريم، مع أن في بعض رواياته الثابتة في الصحيح، التصريح بأن دعوى الرجل: «يا لبني فلان» من دعوى الجاهلية، وإذا صح بذلك أنها من دعوى الجاهلية فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». وفي رواية في الصحيح: «ليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية»، وذلك صريح في أن من دعا تلك الدعوى ليس منا، وهو دليل واضح على التحريم الشديد. ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا» هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد من طرق متعددة عن عتي بن ضمرة السعدي، عن أبي بن

كعب رضي الله عنه، وذكره صاحب الجامع الصغير بلفظ: «إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا» وأشار إلى أنه أخرجه أحمد في المسند، والنسائي، وابن حبان، والطبراني في الكبير، والضياء المقدسي عن أبي رضي الله عنه، وجعل عليه علامة الصحة. وذكره أيضاً صاحب الجامع الصغير بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يتعزى... إلخ»، وأشار إلى أنه أخرجه الإمام أحمد في المسند والترمذي، وجعل عليه علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: ورواه عنه أيضاً الطبراني، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وقال شارحه العريزي: هو حديث صحيح. وقال فيه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني في كتابه (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) قال النجم: رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ومراده بالنجم: الشيخ محمد نجم الدين الغزي في كتابه المسمى (إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن) فانظر كيف سَمَّى النبي ﷺ ذلك النداء «عزاء الجاهلية» وأمر أن يقال للداعي به «اعضض على هن أبيك» أي فرجه، وأن يصرح له بذلك ولا يعبر عنه بالكناية، فهذا يدل على شدة قبح هذا النداء، وشدة بغض النبي ﷺ له.

واعلم أن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة.

وقد بين تعالى تعصبهم لقوميتهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾... الآية [المائدة: ١٠٤]، وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾... الآية [البقرة: ١٧٠]، وأمثال ذلك من الآيات.

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء - كما ذكرنا آنفاً - في منع النداء برابطة غير الإسلام؛ كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية؛ فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضاً باتاً، على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضاً مثلاً؛ فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفاً من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة؛ فهي كما قال الراجز:

بَدَلْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَزْعَرًا وبِالْثَنَائِيَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَا

كما اشترى المسلم إذ تنصَّرا

وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

وقد بين الله - جل وعلا - في محكم كتابه أن الحكمة في جعله بني آدم شعوباً وقبائل هي التعارف فيما بينهم. وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها؛ قال - جل وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ [الحجرات: ١٣] فاللام في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾

لام التعليل، والأصل لتتعارفوا، وقد حذفت إحدى التاءين، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾.

ونحن حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك، لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة؛ كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب. وقد بين الله - جل وعلا - أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه ﷺ من منن الله عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوًى ۖ﴾ [الضحى] أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

كما قدمنا في سورة هود.

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعبياً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كما قال تعالى عن قومه: ﴿قَالُوا يَسْعَيْتُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

وقد نفع الله بها نبيه صالحاً أيضاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كما أشار تعالى لذلك بقوله: ﴿قَالُوا نَقَاسُمُوا بِاللَّهِ لَنُنَيِّتَنَّهَ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝﴾ [النمل] فقد دلت الآية على أنهم يخافون من أولياء صالح؛ ولذلك لم يفكروا أن يفعلوا به سوءاً إلا ليلاً خفية. وقد عزموا أنهم إن فعلوا به ذلك أنكروا وحلفوا لأوليائه أنهم ما حضروا ما وقع بصالح خوفاً منهم، ولما كان لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لا عصبة له في قومه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝﴾ [هود] وقد قدمنا هذا مستوفى في "سورة هود".

فيلزم الناظر في هذه المسألة أن يفرق بين الأمرين، ويعلم أن النداء بروابط القوميات لا يجوز على كل حال، ولا سيما إذا كان القصد بذلك القضاء على رابطة الإسلام، وإزالتها بالكلية بدعوى أنه لا يساير التطور الجديد، أو أنه جمود وتأخر عن مساهمة ركب الحضارة، نعوذ بالله من طمس البصيرة. وأن منع النداء بروابط القوميات لا ينافي أنه ربما انتفع المسلم بنصرة قريبه الكافر بسبب العواطف النسبية والأواصر العصبية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما وقع من أبي طالب للنبي ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ولكن تلك القربابات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع؛ لأنها تشمل المسلم والكافر، ومعلوم أن المسلم عدو الكافر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ﴾ ... الآية [المجادلة: ٢٢]، كما تقدم.

والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، عظفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّخَّاتِ وَمَنْ تَوَلَّى السَّخَّاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَمَرْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر]. فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي الإيمان بالله - جل وعلا - لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فوصفهم بالإيمان. وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] فوصفهم أيضاً بالإيمان، فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة.

ومما يوضح لك أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عمّ النبي ﷺ: ﴿سَبِّحْ لِلنَّارِ ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد] ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النبي ﷺ والمسلمين، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيه: «سلمان منا أهل البيت» رواه الطبراني والحاكم في المستدرک، وجعل عليه صاحب الجامع الصغير علامة الصحة. وضعفه الحافظ الذهبي. وقال الهيثمي: فيه عند الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، وقد أجاد من قال:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد أجمع العلماء على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بإخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة، فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النسبية.

وبالجملة، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء، هي رابطة «لا إله إلا الله»، فلا يجوز البتة النداء برباطة غيرها. ومن وإلى الكفار بالروابط النسبية محبة لهم، ورغبة فيهم يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَبَرِّئُوا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] والعلم عند الله تعالى.

وبالجملة: فالمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة:

الأولى: درء المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

والثانية: جلب المصالح، المعروف عند أهل الأصول بالحاجيات.

والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل

الأصول بالتحسينيات والتتميمات. وكل هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها.

فالضروريات التي هي درء المفساد، إنما هي درؤها عن ستة أشياء:

الأول: الدين، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، كما قال تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي آية الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿تَقْتُلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُوا﴾ [الفتح: ١٦]، وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» الحديث، وقال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، إلى غير ذلك من الأدلة على المحافظة على الدين.

والثاني: النفس، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك أوجب القصاص درءاً للمفسدة عن النفس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾... الآية [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَقْتُولًا فَدَعَا جَمَلًا لِرَوْلِيهِ سُلْطَنًا﴾.

الثالث: العقل، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]. وقال ﷺ: «كل مسكر حرام»، وقال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» كما قدمنا ذلك مستوفى «في سورة النحل» وللمحافظة على العقل أوجب ﷺ حد الشارب درءاً للمفسدة عن العقل.

الرابع: النسب، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك حرم الزنى وأوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت؛ لئلا يختلط ماء رجل بماء رجل آخر في رحم امرأة محافظة على الأنساب؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّمَا كَانَ فَرْجُكُمْ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ونحو ذلك من الآيات، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. وقد قدمنا آية الرجم والأدلة الدالة على أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم. وقال تعالى في إيجاب العدة حفظاً للأنساب: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرْصَدُ فَإِنْ فَسَدَتْ ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وإن كانت عدة الوفاة فيها شبه تعبد لوجوبها مع عدم الخلوة بين الزوجين.

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: العرض، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، وأوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقبح - جل وعلا - غيبة

المسلم غاية التقبيح، بقوله: ﴿يَحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال في إيجاب حد القاذف: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْبَاتٍ لَهُنَّ شَهَادَةٌ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٤ - ٥].

السادس: المال، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك منع أخذه بغير حق شرعي، وأوجب على السارق حد السرقة وهو قطع اليد كما تقدم؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة]. وكل ذلك محافظة على المال ودرء للمفسدة عنه.

المصلحة الثانية: جلب المصالح، وقد جاء القرآن بجلب المصالح بأقوم الطرق وأعدلها، ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿وَأَخْرَجُوا يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ ابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الزمل: ٢٠]، وقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ولأجل هذا جاء الشرع الكريم بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه المشروع؛ ليستجلب كل مصلحة من الآخر، كالبيع والإيجارات والأكرية والمساقاة والمضاربة، وما جرى مجرى ذلك.

المصلحة الثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وقد جاء القرآن بذلك بأقوم الطرق وأعدلها. والحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ لأن الله تعالى يقول في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾ [القلم].

فدل مجموع الآية وحديث عائشة على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق: أنه يكون على خلق عظيم؛ وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق، وسنذكر لك بعضاً من ذلك تنبيهاً به على غيره.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فانظر ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق، والأمر بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيعه فيه. وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] فانظر إلى هذا من مكارم الأخلاق، والأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ صَادِقٌ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِالْقَرْعِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَنَّةَيْنِ﴾ [القصص: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات، هُنَّ من أعظم ما يعانیه العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام، تنبيهاً بها على غيرها:

المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدد عن مقاومة الكفار، وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها؛ فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه؛ لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء؛ فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [١٠] هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب] - كان علاج ذلك هو ما ذكرنا؛ فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت قاطعوهم سياسة واقتصاداً. فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم، وحلوا به هذه المشكلة العظمى، هو ما بينه - جل وعلا - (في سورة الأحزاب) بقوله: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [١٣] [الأحزاب].

فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله - جل وعلا - ثقة به، وتوكلاً

عليه، هو سبب حل هذه المشكلة العظمى. وقد صرح الله تعالى بنتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝١٥ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِن أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝١٦ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُم وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْكُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٧﴾ [الأحزاب].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونونه، ولا يحسبون أنهم يُنصرون به وهو الملائكة والريح، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] ولما علم - جل وعلا - من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوّه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]؛ أي من الإيمان والإخلاص كان من نتائج ذلك ما ذكره الله - جل وعلا - في قوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٦﴾ [الفتح] فصرح - جل وعلا - في هذه الآية بأنهم لم يقدرُوا عليها، وأن الله - جل وعلا - أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

فدلّت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ إِذْنُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١] فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق، كما تقرر في الأصول. ووجه ظاهر؛ لأن الفعل الصناعي «أعني الذي يسمى في الاصطلاح فعل الأمر أو الفعل الماضي أو الفعل المضارع» ينحل عند النحويين، وبعض البلاغيين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعة من البلاغيين ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، وهذا هو الظاهر كما حرره بعض البلاغيين، في بحث الاستعارة التبعية.

فالمصدر إذن كامن في مفهوم الفعل إجماعاً فيتسلط النفي الداخل على الفعل على المصدر الكامن في مفهومه، وهو في المعنى نكرة؛ إذ ليس له سبب يجعله معرفة، فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي. وهي من صيغ العموم.

فقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في معنى لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة؛ لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله.

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله - جل وعلا -

أحاط بها فأقدرهم عليها؛ لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ
الْقَلِيلُونَ﴾ [الصافات].

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء،
مع أن المسلمين على الحق، والكفار على الباطل.

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ، فأفتى الله - جل وعلا - فيها، وبين
السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه - جل وعلا -.

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد فقتل عم رسول الله ﷺ وابن
عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار،
وجرح ﷺ، وشقت شفته، وكسرت ربايعته، وشج ﷺ.

استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون؟ ونحن على الحق
وهم على الباطل؟! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ لَكُمْ
هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فقلوه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْبَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ
مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح؛ لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين
هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا
مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ. وقد أوضحنا هذا في سورة «آل عمران». ومن عرف
أصل الداء عرف الدواء؛ كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على
كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا
تَنَزَّعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة «الأنفال».

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمّر بعضهم لبعض العدواة
والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي
عليه الضمائر مخالف لذلك.

وقد بين تعالى في سورة «الحشر» أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما
هو ضعف العقل، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] ثم ذكر العلة
لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]. ولا شك أن داء
ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع
من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا

به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسك به؛ فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضرار ضاراً قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَثِيءٌ الَّذِي تَأْمَنُوا يَخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المك: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [٢٧] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَةُ وَلَا الْأُمْتُ ﴿٣٠﴾ [فاطر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْأَصْنَىٰ وَالصَّيْرِ وَالصَّيْرِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونوراً بدلاً من الظلمات التي كان فيها.

وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفاً عظيماً؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] - ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي أقوم، يقتضى تتبع جميع القرآن وجميع السنة؛ لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيهاً بها على غيرها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [١١].

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير للعلماء، وأحدهما يشهد له قرآن. وهو أن معنى الآية ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ كأن يدعو على نفسه أو ولده بالهلاك عند الضجر من أمر، فيقول: اللهم أهلكني، أو أهلك ولدي؛ فيدعو بالشر دعاء لا يحب أن يستجاب له، وقوله: ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر كما يدعو بالخير فيقول عند الضجر: اللهم أهلك ولدي. كما يقول في غير وقت الضجر: اللهم عافه، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب الله دعاءه بالشر لهلك، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]؛ أي لو عجل لهم الإجابة بالشر كما يعجل لهم الإجابة بالخير لفضى إليهم أجلهم أي لهلكوا وماتوا؛ فلاستعجال بمعنى التعجيل.

ويدخل في دعاء الإنسان بالشر قول النضر بن الحارث العبدري: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنِنَا بِعَذَابِ الْيَمِينِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وممن فسر الآية الكريمة بما ذكرنا: ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وهو أصح التفسيرين لدلالة آية يونس عليه..

الوجه الثاني في تفسير الآية: أن الإنسان كما يدعو بالخير فيسأل الله الجنة، والسلامة من النار، ومن عذاب القبر، كذلك قد يدعو بالشر فيسأل الله أن ييسر له الزنى بمعشوقته، أو قتل مسلم هو عدو له ونحو ذلك. ومن هذا القبيل قول ابن جامع:

أطوف بالبيت فيمن يطوف وأرفع من مئزري المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الهم عن يوسف يسخر لي ربة المحمل

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾. ذكر جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل الليل والنهار آيتين؛ أي علامتين داليتين على أنه الرب المستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره، وكرر تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمُ اللَّيْلُ سَلْخٌ مِّنْهُ النَّهَارُ إِذَا هُمْ مُقْلِمُونَ ۝٢٧﴾ [يسر]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١﴾ [يونس]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٠﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاقِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٥﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝١٢٢﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ۝٥﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْوِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٦٦﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝٢﴾ [الليل]، وقوله: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ۝٢﴾ [الضحى]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ يعني أنه جعل الليل مظلماً مناسباً للهدوء والراحة، والنهار مضيئاً مناسباً للحركة والاشتغال بالمعاش في الدنيا؛ فيسعون في معاشهم في النهار، ويستريحون من تعب العمل بالليل، ولو كان الزمن كله ليلاً لصعب عليهم العمل في معاشهم، ولو كان كله نهاراً لأهلكهم التعب من دوام العمل.

فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته - جل وعلا - فهما أيضاً نعمتان من نعمه - جل وعلا - .
وبين هذا المعنى المشار إليه هنا في مواضع أخرى، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص]. فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ أي في الليل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في النهار.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٨١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿٨٢﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٨٣﴾﴾ [النبا]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٨٤﴾﴾ [الفرقان] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابِ﴾ بين فيه نعمة أخرى على خلقه، وهي معرفتهم عدد السنين والحساب؛ لأنهم باختلاف الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ سَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعَدَّتْكُمْ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضُرْ ﴿٨٥﴾﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]. ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجازات، ونحو ذلك.

وبين - جل وعلا - هذه الحكمة في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس]؛ وقوله - جل وعلا - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَوَّنَا نَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيري الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين.

وعلى هذا القول فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس. والمحور الطمس، وعلى هذا القول فمحو آية الليل، قيل معناه السواد الذي في القمر؛ وبهذا قال علي عليه السلام، ومجاهد، وروى عن ابن عباس رضي الله عنه.

وقيل: معنى: ﴿فَحَوَّنَا نَايَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي لم نجعل في القمر شعاعاً كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بيضاء. فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول.

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، والقول بأن معنى محو آية الليل السواد الذي في القمر ليس بظاهر عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام، وبعض أجلاء أهل العلم!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾... الآية على التفسير المذكور أي الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ذات شعاع يبصر في ضوءها كل شيء على حقيقته.

قال الكسائي: هو من قول العرب: أبصر النهار: إذ أضاء وصار بحالة يبصر بها نقله عنه القرطبي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: هذا التفسير من قبل قولهم: نهاره صائم، وليله قائم؛ ومنه قوله:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المحب بنائم

وغاية ما في الوجه المذكور من التفسير: حذف مضاف، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب إن دلت عليه قرينة؛ قال في الخلاصة:

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذف

والقرينة في الآية الكريمة الدالة على المضاف المحذوف قوله: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، فإضافة الآية إلى الليل والنهار دليل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما أنفسهما، وحذف المضاف كثير في القرآن؛ كقوله: ﴿وَسُئِلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] أي نكاحها، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] أي أكلها، ونحو ذلك.

وعلى القول بتقدير المضاف، وأن المراد بالآيتين الشمس والقمر، فالآيات الموضحة لكون الشمس والقمر آيتين تقدمت موضحة في سورة النحل.

الوجه الثاني من التفسير: أن الآية الكريمة ليس فيها مضاف محذوف، وأن المراد بالآيتين نفس الليل والنهار، لا الشمس والقمر.

وعلى هذا القول فإضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، تنزيلاً لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف في المعنى، وإضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ورمضان هو نفس الشهر بعينه على التحقيق، وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠]، والدار هي الآخرة بعينها؛ بدليل قوله في موضع آخر: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠] بالتعريف، والآخرة نعت للدار؛ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] والجبل هو الوريد، وقوله: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّءُ﴾... الآية [فاطر: ٤٣]، والمكر هو السيئ بدليل قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ومن أمثلته في كلام العرب قول امرئ القيس:
كبكر المقناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل
لأن المقناة هي البكر بعينها، وقول عترة في معلقته:
ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم
لأن مراده بالمشك: السابغة بعينها؛ بدليل قوله: هتكت فروجها؛ لأن الضمير
عائد إلى السابغة التي عبر عنها بالمشك.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في
سورة فاطر، وبيّنا أن الذي يظهر لنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف لفظ
المضاف والمضاف إليه أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لأن تغاير اللفظين ربما نزل
منزلة التغاير المعنوي؛ لكثرة الإضافة المذكورة في القرآن وفي كلام العرب، وجزم
بذلك ابن جرير في بعض مواضعه في القرآن، وعليه فلا حاجة إلى التأويل المشار إليه
بقوله في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد
ومما يدل على ضعف التأويل المذكور قوله:

وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن إيجاب إضافة العلم إلى اللقب مع اتحادهما في المعنى - إن كانا مفردين -
المستلزم للتأويل، ومنع الاتباع الذي لا يحتاج إلى تأويل، دليل على أن ذلك من
أساليب اللغة العربية، ولو لم يكن من أساليبها لوجب تقديم ما لا يحتاج إلى تأويل
على المحتاج إلى تأويل كما ترى، وعلى هذا الوجه من التفسير، فالمعنى فمحونا الآية
التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة؛ أي جعلنا الليل محو الضوء
مطموسه، مظلماً لا تستبان فيه الأشياء كما لا يستبان ما في اللوح المحو، وجعلنا
النهار مبصراً؛ أي تبصر فيه الأشياء وتستبان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ تقدم إيضاحه، والآيات
الدالة عليه في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا
لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا﴾ [٢٢] اقرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٧﴾.

في قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمٌ﴾ وجهان
معروفان من التفسير:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهم إذا خرج له؛ أي
الزمناء ما طار له من عمله.

الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة، والقولان متلازمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فاعلم - أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوال، وكلها حق، ويشهد له قرآن - فنذكر جميع الأقوال وأدلتها من القرآن؛ لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران في تفسير هذه الآية الكريمة كلاهما يشهد له قرآن.

أما على القول الأول بأن المراد بطائره عمله، فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ۖ﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٨]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذي طار له في الأزل من الشقاوة أو السعادة، فالآيات الدالة على ذلك أيضاً كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَنُكِرَ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] أي للاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي جعلنا عمله، أو ما سبق له من شقاوة في عنقه؛ أي لازماً له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه؛ ومنه قول العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب. وهذا الأمر رقيقة في رقبته، ومنه قول الشاعر:

أذهب بها أذهب بها طوقتها طوق الحمامة

فالمعنى في ذلك كله: اللزوم وعدم الانفكاك.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك العمل الذي ألزم الإنسان إياه يخرج له يوم القيامة مكتوباً في كتاب يلقاه منشوراً، أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره.

وبين أشياء من صفات هذا الكتاب الذي يلقاه منشوراً في آيات أخر، فبين أن من صفاته أن المجرمين مشفقون؛ أي خائفون مما فيه، وأنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنهم يجدون فيه جميع ما عملوا حاضراً ليس منه شيء غائباً، وأن الله - جل وعلا - لا يظلمهم في الجزاء عليه شيئاً؛ وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

وبين في موضع آخر أن بعض الناس يؤتى هذا الكتاب يمينه - جعلنا الله وإخواننا المسلمين منهم - وأن من أوتيته يمينه يحاسب حساباً يسيراً، ويرجع إلى أهله مسروراً، وأنه في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ ﴿٨﴾ وَنُقِلَتْ إِلَيْهِ أَهْلُهُ مُسْرُرًا ۝ ﴿٩﴾﴾ [الإنشقاق]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَهْلِي أَقْرَبُوا كِتَابِي ۝ ﴿١١﴾ إِنْ ظَنَنْتُ أَنْي مُلْقٍ حِسَابِي ۝ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة].

وبين في موضع آخر أن من أوتيته بشماله يتمنى أنه لم يؤت به، وأنه يؤمر به فيصلى الجحيم، ويسلك في سلسلة من سلاسل النار ذرعها سبعون ذراعاً، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ بَلَتَنِي لَوْ أُوْتِيَ كِتَابِي ۝ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِي ۝ ﴿١٦﴾ بَلَتَنِي كَانَتْ أَفْقَاضِيَةً ۝ ﴿١٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۝ ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ۝ ﴿١٩﴾ خُذُوهُ فَعُلُوهُ ۝ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَجِّمِمْ صَلْوَهُ ۝ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة]: أعادنا الله وإخواننا المسلمين من النار، ومما قرب إليها من قول وعمل.

وبين في موضع آخر أن من أوتي كتابه وراء ظهره يصلى السعير، ويدعو الثبور، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿٢٣﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ ﴿٢٤﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ ﴿٢٥﴾﴾ [الإنشقاق]، وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴿٢٦﴾﴾ يعني أن نفسه تعلم أنه لم يظلم، ولم يكتب عليه إلا ما عمل؛ لأنه في ذلك الوقت يتذكر كل ما عمل في الدنيا من أول عمره إلى آخره، كما قال تعالى: ﴿يَبْنُوْا الْإِنْسَنَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة].

وقد بين تعالى في مواضع آخر أنه إن أنكر شيئاً من عمله شهدت عليه جوارحه، كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ ﴿٢٨﴾﴾ [يسر]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لِمَ لَاحُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴿٢٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَضِئُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴿٣٠﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْحَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت]، وقوله - جل وعلا -: ﴿بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ ۝ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة]، وسيأتي - إن شاء الله - لهذا زيادة إيضاح في سورة القيامة.

تنبيه: لفظة «كفى» تستعمل في القرآن واللغة العربية استعمالين:

تستعمل متعدية، وهي تتعدى غالباً إلى مفعولين، وفاعل هذه المتعدية لا يجر بالباء، كقوله: ﴿وَكُفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وكقوله: ﴿الْيَسَّ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقوله: ﴿تَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وتستعمل لازمة، ويتردد جر فاعلها بالباء المزيده لتوكيد الكفاية، كقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقوله: ﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] ونحو ذلك.

ويكثر إتيان التمييز بعد فاعلها المجرور بالباء. وزعم بعض علماء العربية أن جر فاعلها بالباء لازم، والحق أنه يجوز عدم جره بها، ومنه قول الشاعر:

عميرة ودع إن تجهزت غادياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً
وقول الآخر:

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عما غيب المرء مخبراً

وعلى قراءة من قرأ (يُلْقَاهُ) بضم الياء وتشديد القاف مبنياً للمفعول، فالمعنى أن الله يلقيه ذلك الكتاب يوم القيامة؛ فحذف الفاعل فبني الفعل للمفعول.

وقراءة من قرأ: (يُخْرِجُ) - بفتح الياء وضم الراء - مضارع خرج مبنياً للفاعل، فالفاعل ضمير يعود إلى الطائر بمعنى العمل وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ حال من ضمير الفاعل؛ أي ويوم القيامة يخرج هو أي العمل المعبر عنه بالطائر في حال كونه كتاباً يلقيه منشوراً، وكذلك على قراءة (يُخْرِجُ) - بضم الياء وفتح الراء - مبنياً للمفعول، فالضمير النائب عن الفاعل راجع أيضاً إلى الطائر الذي هو العمل؛ أي يخرج له هو أي طائره بمعنى عمله، في حال كونه كتاباً.

وعلى قراءة «يُخْرِجُ» - بضم الياء وكسر الراء - مبنياً للفاعل، فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى، وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ مفعول به؛ أي ويوم القيامة يخرج هو أي الله له كتاباً يلقيه منشوراً.

وعلى قراءة الجمهور منهم السبعة، فالنون في (نُخْرِجُ) نون العظمة لمطابقة قوله: ﴿أَلَزَمْتَهُ﴾ و﴿كَتَبْنَا﴾ مفعول به لنخرج كما هو واضح. - والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من اهتدى فعمل بما يرضي الله - جل وعلا - أن اهتداه ذلك إنما هو لنفسه؛ لأنه هو الذي ترجع إليه فائدة ذلك الاهتداء، وثمرته في الدنيا والآخرة، وأن من ضل عن طريق الصواب فعمل بما يسخط ربه - جل وعلا - أن ضلاله ذلك إنما هو على نفسه؛ لأنه هو الذي يجني ثمرة عواقبه السيئة الوحشية، فيخلد به في النار.

وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. وقد قدمنا طرفاً منها في سورة «النحل».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة

أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى؛ بل لا تحمل نفس إلا ذنبها، فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل، من وَزَرَ يَزِرُ؛ إذا حمل، ومنه سمي وزير السلطان؛ لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة. والوزر: الإثم؛ يقال: وزر يزر وزرا، إذا أثم. والوزر أيضاً: الثقل المثقل، أي لا تحمل نفس وازرة أي آثمة وزر نفس أخرى؛ أي إثمها، أو حملها الثقيل؛ بل لا تحمل إلا وزر نفسها. وهذا المعنى جاء في آيات أخر، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة «النحل» بإيضاح أن هذه الآيات لا يعارضها قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ولا قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأن المراد بذلك أنهم حملوا أوزار ضلالهم في أنفسهم، وأوزار إضلالهم غيرهم؛ لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً كما تقدم مستوفى.

تنبيه: يرد على هذه الآية الكريمة سؤالان:

الأول: ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما من «أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه» فيقال: ما وجه تعذيبه ببكاء غيره؛ إذ مؤاخذته ببكاء غيره قد يظن من لا يعلم أنها من أخذ الإنسان بذنب غيره؟

السؤال الثاني: إيجاب دية الخطأ على العاقلة؛ فيقال: ما وجه إلزام العاقلة الدية بجناية إنسان آخر؟

والجواب عن الأول: هو أن العلماء حملوه على أحد أمرين: الأول: أن يكون الميت أوصى بالنوح عليه، كما قال طرفة بن العبد في معلقته:

إذا مت فانهيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يابنة معبد

لأنه إذا كان أوصى بأن يناح عليه فتعذيبه بسبب إيصائه بالمنكر، وذلك من فعله

لا فعل غيره.

الأمر الثاني: أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه؛ لأن إهماله نهيهم تفريط منه، ومخالفة لقوله تعالى: ﴿فَوَأْنُفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] فتعذيبه إذا بسبب تفريطه، وتركه ما أمر الله به من قوله: ﴿فَوَأْنُفُسُكُمْ﴾... الآية [التحریم: ٦] وهذا ظاهر كما ترى.

والجواب عن الثاني: بأن إيجاب الدية على العاقلة ليس من تحميلهم وزر القاتل، ولكنها مواساة محضة أوجبها الله على عاقلة الجاني؛ لأن الجاني لم يقصد سوءاً، ولا

إثم عليه البتة، فأوجب الله في جنائته خطأ الدية بخطاب الوضع، وأوجب المواساة فيها على العاقلة، ولا إشكال في إيجاب الله على بعض خلقه مواساة بعض خلقه؛ كما أوجب أخذ الزكاة من مال الأغنياء وردها إلى الفقراء. وأعتقد من أوجب الدية على أهل ديوان القاتل خطأ كأبي حنيفة وغيره - أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل الديوان، ويؤيد هذا القول ما ذكره القرطبي في تفسيره قال: «وأجمع أهل السير والعلم أن الدية كانت في الجاهلية تحملها العاقلة، فأقرها رسول الله ﷺ في الإسلام. وكانوا يتعاقلون بالنصرة، ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك؛ حتى جعل عمر الديوان، واتفق الفقهاء على رواية ذلك والقول به. وأجمعوا أنه لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، ولا زمن أبي بكر ديوان، وأن عمر جعل الديوان، وجمع بين الناس، وجعل أهل كل ناحية يداً، وجعل عليهم قتال من يليهم من العدو»، انتهى كلام القرطبي - رحمه الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره فيعصي ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فصرح في هذه الآية الكريمة بأنه لا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار.

وهذه الحجة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، بينها في آخر سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ بِإِيْنِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنُخْزَىٰ﴾ [طه].

وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ بِإِيْنِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقوله - جل وعلا -: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يَظْلِرُ أَهْلُهَا غَفُلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقوله: ﴿يَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وكقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٥] أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لنفيلين ﴿١٥٦﴾ أو تقولوا لو أنَّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿[الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن الله - جل وعلا - لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - نصريحه - جل وعلا - في آيات كثيرة بأنه لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار

والإنذار على السنة الرسل؛ فمن ذلك قوله - جل وعلا - : ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا آلَٰتُكُمْ نَذِيرٌ ۖ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۖ﴾ [الملك: ٨ - ٩].

ومعلوم أن قوله - جل وعلا - : ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يعم جميع الأفواج الملقين في النار. قال أبو حيان في (البحر المحيط) في تفسير هذه الآية التي نحن بصدد ما نصه: «وكلماء» تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين.

ومن ذلك قوله - جل وعلا - : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءَهُمْ قُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ﴾ [الزمر]، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام لجميع الكفار.

وقد تقرر في الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعها من صيغ العموم؛ لعمومها في كل ما تشمله صلاتها، وعقده في (مراقي السعود) بقوله في صيغ العموم:

صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

ومراده بالبيت أن لفظة «كل، وجميع، والذي، والتي» وفروعها كل ذلك من صيغ العموم؛ فقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] عام في جميع الكفار. وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أُنذرتهم الرسل في دار الدنيا؛ فعضوا أمر ربهم كما هو واضح.

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۖ﴾ [٣٦، ٣٧]، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَذَابُكُمْ أَتَذِيرُ﴾ عام أيضاً في جميع أهل النار، كما تقدم إيضاحه قريباً.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾ [غافر]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أُنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير ولو ماتوا على الكفر؛ وبهذا قالت جماعة من أهل العلم.

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأت نذير، واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث عن النبي ﷺ، فمن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفَلَ

مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٦﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنها لم تخصص كافراً دون كافر؛ بل ظاهرها شمول جميع الكفار.

ومن الأحاديث الدالة على أن الكفار لا يعذرون في كفرهم بالفترة ما أخرجه مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»، اهـ، وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً: حدثنا يحيى بن أيوب، ومحمد بن عباد - واللفظ ليحيى - قالوا: حدثنا مروان بن معاوية، عن يزيد يعني ابن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي». حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب قالوا: حدثنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكرك الموت»، اهـ. إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عدم عذر المشركين بالفترة.

وهذا الخلاف مشهور بين أهل الأصول، هل المشركون الذين ماتوا في الفترة وهم يعبدون الأوثان في النار لكفرهم، أم معذورون بالفترة؟ وعقده في (مراقي السعود) بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع

وللعلماء في هذا الموضوع أقوال يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها:

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي، هل يعذر المشركون بالفترة أم لا؟ هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَوْ نُنَزِّلَهُمْ فِيهَا فَتَقَىٰ عَلَيْهِمُ الْغُيُورُ فَذَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [١١]. في معنى قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير:

الأول: وهو الصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره. والمعنى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله ﴿فَفَحَّ عَنْهَا الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكاً مستأصلاً، وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فتصريحه - جل وعلا - بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا﴾؛ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء.

ومن الآيات الدالة على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٢٥) [سبأ]. فقوله في هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾، لفظ عام في جميع المترفين من جميع القرى أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم: إنا بما أرسلتم به كافرون، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما زعمه الزمخشري في كشافه من أن معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾؛ أي أمرناهم بالفسق ففسقوا. وأن هذا مجاز تنزيلاً لإسباغ النعم عليهم الموجب لبطرتهم وكفرهم منزلة الأمر بذلك، كلام كله ظاهر السقوط والبطلان؛ وقد أوضح إبطاله أبو حيان في «البحر»، والرازي في تفسيره، مع أنه لا يشك منصف عارف في بطلانه.

وهذا القول الصحيح في الآية جار على الأسلوب العربي المألوف، من قولهم: أمرته فعصاني؛ أي أمرته بالطاعة فعصى. وليس المعنى أمرته بالعصيان كما لا يخفى.

القول الثاني في الآية: هو أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمر كوني قدرى، أي قدرنا عليهم ذلك وسخرناهم له؛ لأن كلاً ميسر لما خلق له، والأمر الكوني القدرى كقوله: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلَجَ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠) [القمر]، وقوله: ﴿فَلَنَّا لَهُمْ كُتُوبًا قَرْدَةً خَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿أَتُنْهَى أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يس].

القول الثالث في الآية: أن «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ أي أكثرنا مترفيها ففسقوا.

وقال أبو عبيدة ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى أكثرنا لغة فصيحة كآمرنا بالمد، ويدل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة أن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة».

إهلاكه لقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله في قوم موسى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُيُوعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على تخويفهم بما وقع لمن قبلهم.

الجهة الثانية: أن هذه القرون تعرضت لبيانها آيات أخر، فبينت كيفية إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه من قوم موسى، وذلك مذكور في مواضع متعددة معلومة من كتاب الله تعالى. وبين أن تلك القرون كثيرة في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان] وبين في موضع آخر أن منها ما لا يعلمه إلا الله - جل وعلا - وذلك في قوله في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]. وبين في موضعين آخرين أن رسلهم منهم من قص خبره على نبينا ﷺ، ومنهم من لم يقصصه عليه. وهما قوله في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ١٧٨].

الجهة الثالثة: أن قوله: ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ يدل على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح أنها على الإسلام، كما قال ابن عباس: كانت بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية.

وهذا المعنى تدل عليه آيات أخر كقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]؛ لأن معنى ذلك على أصح الأقوال أنهم كانوا على طريق الإسلام، حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر؛ فبعث الله النبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وأولهم في ذلك نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -.

ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾ الآية [النساء: ١٦٣]. وفي أحاديث الشفاعة الثابتة في الصحاح وغيرها أنهم يقولون لنوح: إنه أول رسول بعثه الله لأهل الأرض كما قدمنا ذلك في سورة البقرة.

الجهة الرابعة: أن قوله: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ يَذُوبُ عِيبُهُ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ فيه أعظم زجر عن ارتكاب ما لا يرضي الله تعالى.

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُ يَأْتُهُمْ يَعْلَمُ مَا يَسْرُوتُ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الضُّمُورِ﴾ [هود: ٥].

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخَذْنَاهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا هذا المبحث موضحاً في أول سورة هود، ولفظة «كم» في هذه الآية الكريمة في محل نصب مفعول به لـ «أهلكنا» و«من» في قوله «من القرون» بيان لقوله: ﴿كَمْ﴾ [البقرة: ٢١١] وتمييز له كما يميز العدد بالجنس. وأما لفظة «من» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فالظاهر أنها لا ابتداء الغاية، وهو الذي اختاره أبو حيان في «البحر». وزعم الحوفي أن «من» الثانية بدل من الأولى، ورده عليه أبو حيان، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾؛ أي عمل لها عملها الذي تنال به، وهو امتثال أمر الله، واجتناب نهيه بإخلاص على الوجه المشروع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي موحد لله - جل وعلا - غير مشرك به ولا كافر به؛ فإن الله يشكر سعيه، بأن يشيه الثواب الجزيل عن عمله القليل.

وفي الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر سببه لا تنفع معها حسنة؛ لأنه شرط في ذلك قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (٢٢) [النساء]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) [النحل]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزِنُ إِلَّا نَفْسَهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٥١) [غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

ومفهوم هذه الآيات أن غير المؤمنين إذا أطاع الله بإخلاص لا ينفعه ذلك؛ لفقد شرط القبول الذي هو الإيمان بالله - جل وعلا -.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات أخر كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٣) [الفرقان]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَبْسُغُ الطَّمْثُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين - جل وعلا - في مواضع أخر أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله يجازى به في الدنيا، ولا حظ له منه في الآخرة كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) [هود]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١٠) [الشورى].

وثبت عن النبي ﷺ نحو ما جاءت به هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله في الدنيا من حديث أنس، قال مسلم بن الحجاج ﷺ في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب - واللفظ لزهير - قالا: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها الله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها».

حدثنا عاصم بن النضر التيمي، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك: أنه حدث عن رسول الله ﷺ «أن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته». حدثنا محمد بن عبد الله الرازي، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ بمثل حديثهما.

واعلم أن هذا الذي ذكرنا أدلته من الكتاب والسنة من أن الكافر ينتفع بعمله الصالح في الدنيا: كبر الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام الضيف والجار، والتنفيس عن المكروب ونحو ذلك، كله مقيد بمشيئة الله تعالى كما نص على ذلك بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَوْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

فهذه الآية الكريمة مقيدة لما ورد من الآيات والأحاديث، وقد تقرر في الأصول أن المقيد يقضي على المطلق، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا. وأشار له في «مراقي السعود» بقوله:

وحمل مطلق على ذاك وجب إن فيهما اتحد حكم والسبب

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ (٢٢).

الظاهر أن الخطاب في هذه الآية الكريمة متوجه إلى النبي ﷺ؛ ليشرع لأُمَّته على لسانه إخلاص التوحيد في العبادة له - جل وعلا -؛ لأنه ﷺ معلوم أنه لا يجعل مع الله إلهاً آخر، وأنه لا يقعد مذموماً مخذولاً.

ومن الآيات الدالة دلالة واضحة على أنه ﷺ يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأُمَّته لا نفس خطابه هو ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِّمَا أَمْرٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً﴾ لأن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ...﴾ الآية؛ أي إن يبلغ عندك والداك أو أحدهما الكبر فلا تقل لهما أف، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل ذلك بزمان طويل؛ فلا وجه لاشتراط بلوغهما أو أحدهما الكبر بعد أن ماتا منذ زمن طويل، إلا أن المراد التشريع لغيره ﷺ، ومن أساليب اللغة العربية خطابهم إنساناً والمراد بالخطاب غيره. ومن الأمثلة السائرة في ذلك قول الراجز، وهو سهل بن مالك الفزاري:

إياك أعني واسمعي يا جاره

وسبب هذا المثل أنه زار حارثة بن لأم الطائي فوجده غائباً؛ فأنزلته أخته وأكرمته، وكانت جميلة؛ فأعجبه جمالها، فقال مخاطباً لأخرى غيرها لسمعها هي:

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره
ففهمت المرأة مراده، وأجابته بقولها:

إنني أقول يا فتى فزاره لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذي الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره

والظاهر أن قولها: «باستحارة» أن أصله استفعال من المحاورة بمعنى رجع الكلام بينهما؛ أي: ارحل إلى أهلك بالمحاورة التي وقعت بيني وبينك، وهي كلامك وجوابي له، ولا تحصل مني على غير ذلك! والهاء في «الاستحارة» عوض من العين الساقطة بالإعلال، كما هو معروف في فن الصرف.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخطاب في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ونحو ذلك من الآيات متوجه إلى المكلف، ومن أساليب اللغة العربية إفراد الخطاب مع قصد التعميم كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وقال الفراء، والكسائي، والزمخشري، ومعنى قوله: ﴿فَنَقُذْ﴾ أي تصير، وجعل الفراء منه قول الراجز:

لا يقنع الجارية الخضاب ولا الوشاحان ولا الجلباب
من دون أن تلتقي الأركاب ويقعد الأير له لعب
أي يصير له لعب.

وحكى الكسائي: قعد لا يسأل حاجة إلا قضاها بمعنى صار. قاله أبو حيان في البحر. ثم قال أيضاً: والقعود هنا عبارة عن المكث؛ أي فتمكث في الناس مذموماً مخذولاً؛ كما تقول لمن سأل عن حال شخص: هو قاعد في أسوأ حال. ومعناه ماكث ومقيم؛ سواء كان قائماً أم جالساً. وقد يراد القعود حقيقة؛ لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً، وعبر بغالب حاله وهو القعود، وقيل: معنى ﴿فَنَقُذْ﴾ فتعجز. والعرب تقول: ما أقعدك عن المكارم، اه. محل الغرض من كلام أبي حيان. والمذموم هنا: هو من يلحقه الذم من الله ومن العقلاء من الناس، حيث أشرك الله ما لا ينفع ولا يضر، ولا يقدر على شيء.

والمخذول: هو الذي لا ينصره من كان يؤمل منه النصر؛ ومنه قوله:

الضمير في قوله: ﴿عَنَّهُمْ﴾ راجع إلى المذكورين قبله في قوله: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، ومعنى الآية: إن تعرض عن هؤلاء المذكورين فلم تعطهم شيئاً لأنه ليس عندك، وإعراضك المذكور عنهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ رَجُوهَا﴾ أي رزق حلال؛ كالقبي يرزقه الله فتعطيهم منه ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾؛ أي ليناً لطيفاً طيباً، كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، ووعدهم بأن الله إذا يسر من فضله رزقاً أنك تعطيه من.

وهذا تعليم عظيم من الله لنبيه لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، صرح به الله - جل وعلا - في سورة «البقرة» في قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. ولقد أجاد من قال:

إلا تكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإنني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نوالي وإما حسن مردودي

والآية الكريمة تشير إلى أنه ﷺ لا يعرض عن الإعطاء إلا عند عدم ما يعطي منه، وأن الرزق المنتظر إذا يسره الله فإنه يعطيهم منه، ولا يعرض عنهم. وهذا هو غاية الجود وكرم الأخلاق، وقال القرطبي: ﴿قَوْلًا مِّسُورًا﴾ مفعول بمعنى الفاعل من لفظ اليسر كاليمون.

وقد علمت مما قرنا أن قوله: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ متعلق بفعل الشرط الذي هو ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ لا بجزاء الشرط.

وأجاز الزمخشري في الكشف تعلقه بالجزاء وتقديمه عليه، ومعنى ذلك: فقل لهم قولاً ميسوراً ابتغاء رحمة من ربك؛ أي يسر عليهم والطف بهم؛ لابتغائك بذلك رحمة الله، ورد ذلك عليه أبو حيان في (البحر المحيط) بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله. قال: لا يجوز في قولك: إن يقيم فاضرب خالداً أن تقول: إن يقيم خالداً فاضرب. وهذا منصوص عليه، انتهى.

وعن سعيد بن جبیر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الضمير في قوله: ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ راجع للكفار؛ أي إن تعرضن عن الكفار ابتغاء رحمة من ربك، أي نصر لك عليهم، أو هداية من الله لهم. وعلى هذا فالقول الميسور: المداراة باللسان؛ قاله أبو سليمان الدمشقي، انتهى من البحر. ويسر بالتخفيف يكون لازماً ومتعدياً، وميسور من المتعدي، تقول: يسرت لك كذا إذا أعددت؛ قاله أبو حيان أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسَتِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من قتل مظلوماً فقد جعل الله لوليه سلطاناً، ونهاه عن الإسراف في القتل، ووعد أنه منصور، والنهي عن الإسراف في القتل هنا شامل ثلاث صور:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية، كقول مهلهل بن ربيعة لما قتل بجير بن الحارث بن عباد في حرب البسوس المشهورة: بؤ بشسع نعل كليب؛ فغضب الحارث بن عباد، وقال قصيدته المشهورة:

قرباً مربوط النعمة مني لقحت حرب وائل عن حيال
قرباً مربوط النعمة مني إن بيع الكرام بالشسع غالي - إلخ
وقال مهلهل أيضاً:

كل قتييل في كليب غره حتى ينال القتل آل مره
ومعلوم أن قتل جماعة بواحد لم يشتركوا في قتله إسراف في القتل داخل في النهي المذكور في الآية الكريمة.

الثانية: أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل، منهي عنه في الآية أيضاً.

الثالثة: أن يقتل نفس القاتل ويمثل به، فإن زيادة المثلة إسراف في القتل أيضاً. وهذا هو التحقيق في معنى الآية الكريمة، فما ذكره بعض أهل العلم، ومال إليه الرازي في تفسيره بعض الميل، من أن معنى الآية فلا يسرف الظالم الجاني في القتل؛ تخويفاً له من السلطان، والنصر الذي جعله الله لولي المقتول لا يخفى ضعفه، وأنه لا يلتزم مع قوله بعده: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وهذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول لم يبينه هنا بياناً مفصلاً، ولكنه أشار في موضعين إلى أن هذا السلطان هو ما جعله الله من السلطة لولي المقتول على القاتل، من تمكينه من قتله إن أحب. ولا ينافي ذلك أنه إن شاء عفا على الدية أو مجاناً.

الأول: قوله هنا: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ بعد ذكر السلطان المذكور؛ لأن النهي عن الإسراف في القتل مقترناً بذكر السلطان المذكور يدل على أن السلطان المذكور هو ذلك القتل المنهي عن الإسراف فيه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْأَلْبَانِي﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، فهو يدل على أن السلطان المذكور هو ما تضمنته آية القصاص هذه، وخير ما يبين به القرآن القرآن.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: يفهم من قوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ أن من قتل غير مظلوم ليس لوليه سلطان على قاتله، وهو كذلك؛ لأن من قتل بحق قدمه حلال، ولا سلطان لوليه في قتله، كما قدمنا بذلك حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» كما تقدم إيضاحه في سورة «المائدة».

وبيان هذا المفهوم في قوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ يظهر به بيان المفهوم في قوله أيضاً: ﴿وَلَا تَقْسِلُوا أَلْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

واعلم أنه قد ورد في بعض الأدلة أسباب أخر لإباحة قتل المسلم غير الثلاث المذكورة، على اختلاف في ذلك بين العلماء، من ذلك المحاربون إذا لم يقتلوا أحداً؛ عند من يقول بأن الإمام مخير بين الأمور الأربعة المذكورة في قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُكَلِّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣]؛ كما تقدم إيضاحه مستوفى في سورة «المائدة».

ومن ذلك قتل الفاعل والمفعول به في فاحشة اللواط، وقد قدمنا الأقوال في ذلك وأدلتها بإيضاح في سورة «هود».

وأما قتل الساحر فلا يبعد دخوله في قتل الكافر المذكور في قوله: «التارك لدينه المفارق للجماعة» لدلالة القرآن على كفر الساحر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقّاً يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما قتل مانع الزكاة، فإنه إن أنكر وجوبها فهو كافر مرتد داخل في «التارك لدينه المفارق للجماعة»، وأما إن منعها وهو مقر بوجوبها فالذي يجوز فيه القتال لا القتل، وبين القتال والقتل فرق واضح معروف.

وأما ما ذكره بعض أهل العلم من أن من أتى بهيمة يقتل هو وتقتل البهيمة معه، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوه معها» قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. ورواه ابن ماجة من طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وأكثر أهل العلم على أنه لا يقتل؛ لأن حصر ما يباح به دم المسلم في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود المتفق عليه أولى بالتقديم من هذا الحديث، مع التشديد العظيم في الكتاب والسنة في قتل المسلم بغير حق، إلى غير ذلك من المسائل المذكورة في الفروع.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذا الحصر في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود الثابت في الصحيح لا ينبغي أن يزداد عليه، إلا ما ثبت بوحى ثبوتاً لا مطعن فيه؛ لقوته، والعلم عند الله تعالى.

المسألة الثانية: قد جاءت آيات أخر تدل على أن المقتول خطأ لا يدخل في هذا الحكم كقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ لما ثبت في صحيح

مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأها، قال: «قال الله نعم قد فعلت». وقوله: «وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً» [النساء: ٩٢] ثم بين ما يلزم القاتل خطأ بقوله: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا» [النساء: ٩٢]. وقد بين ﷺ الدية قدراً وجنساً كما هو معلوم في كتب الحديث والفقه كما سيأتي إيضاحه.

والمسألة الثالثة: يفهم من إطلاق قوله تعالى: «وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا» أن حكم الآية يستوي فيه القتل بمحدد كالسلاح، وبغير محدد كرضخ الرأس بحجر ونحو ذلك؛ لأن الجميع يصدق عليه اسم القتل ظلماً فيجب القصاص.

وهذا قول جمهور العلماء، منهم مالك، والشافعي، وأحمد في أصح الروايتين. وقال النووي في «شرح مسلم»: هو مذهب جماهير العلماء. وهناك خلاف للعلماء حول التخيير لولي المقتول بين القتل والدية يرجع من أراد الوقوف عليه إلى الأصل.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسألة أن ولي المقتول هو المخير بين الأمرين، فلو أراد الدية وامتنع الجاني فله إجباره على دفعها؛ لدلالة الحديث المتفق عليه على ذلك، ودلالة الآية المتقدمة عليه، ولأن الله يقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» [النساء: ٢٩]، ويقول: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» [البقرة: ١٩٥]. ومن الأمر الواضح أنه إذا أراد إهلاك نفسه صوناً لماله للوارث أن الشارع يمنعه من هذا التصرف الزائف عن طريق الصواب، ويجبره على صون دمه بماله.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أظهر القولين عندي أنه يقرر ملك الميت لديته عند موته فتورث كسائر أملاكه؛ لتصريح النبي ﷺ للضحاك في الحديث المذكور بتورث امرأة أشيم الضبابي من ديته، والميراث لا يطلق شرعاً إلا على ما كان مملوكاً للميت، والله تعالى أعلم.

المسألة الرابعة: اختلف العلماء في تعيين ولي المقتول الذي جعل الله له هذا السلطان المذكور في هذه الآية الكريمة في قوله: «وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيَّهِ سُلْطَانًا...» الآية.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يقتضي الدليل رجحانه عندي في هذه المسألة أن الولي في هذه الآية هم الورثة ذكوراً كانوا أو إناثاً، ولا مانع من إطلاق الولي على الأنثى؛ لأن المراد جنس الولي الشامل لكل من انعقد بينه وبين غيره سبب يجعل كلاً منهما يوالي الآخر كقوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» [التوبة: ٧١]، وقوله: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» [الأنفال: ٧٥].

وحجة من قال أيضاً بكفره قوية؛ للحديث الدال على أنه أشقى الآخرين، مقروناً بقاتل ناقة صالح المذكور في قوله: «إِذْ أَنْبَأَتْ آسَفْنَاهَا ﴿٧﴾» [الشمس] وذلك يدل على كفره، والعلم عند الله تعالى.

الأصل» وأكثر أهل الأصول لا يطلقون عليه اسم القياس، مع أنه إلحاق مسكوت عنه بمنطوق به لعدم الفرق بينهما؛ أعني الفرق المؤثر في الحكم.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَآءٍ أُنْثَىٰ﴾ فإنه لا يشك عاقل في أن النهي عن التأنيف المنطوق به يدل على النهي عن الضرب المسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة] فإنه لا شك أيضاً في أن التصريح بالمؤاخذه بميثقال الذرة والإثابة عليه المنطوق به يدل على المؤاخذه والإثابة بميثقال الجبل المسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ﴾ [الطلاق: ٢]، لا شك في أنه يدل على أن شهادة أربعة عدول مقبولة وإن كانت شهادة الأربعة مسكوتاً عنها.

ونهي ﷺ عن التضحية بالعوراء يدل على النهي عن التضحية بالعمياء، مع أن ذلك مسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِنَا﴾ [النساء: ١٠]؛ لا شك في أنه يدل على منع إحراق مال البيتيم وإغراقه؛ لأن الجميع إتلاف له بغير حق.

وقوله ﷺ: «من أعتق شركاً في عبد فكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم عليه عدل، فأعطى شركاؤه حصصهم وعتق عليه العبد، وإلا فقد عتق منه ما عتق» يدل على أن من أعتق شركاً له في أمة فحكمه كذلك؛ لما عرف من استقراء الشرع أن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى العتق وصفان طرديان لا تأثير لهما في أحكام العتق وإن كانا غير طرديين في غير العتق كالشهادة والميراث وغيرهما.

وقوله ﷺ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» لا شك في أنه يدل على منع قضاء الحكم في كل حال يحصل بها التشويش المانع من استيفاء النظر، كالجوع والعطش المفرطين، والسرور والحزن المفرطين، والحقن والحبب المفرطين.

ونهي ﷺ عن البول في الماء الراكد، لا شك في أنه يدل على النهي عن البول في قارورة مثلاً وصب البول من القارورة في الماء الراكد؛ إذ لا فرق يؤثر في الحكم بين البول فيه مباشرة وصبه فيه من قارورة ونحوها، وأمثال هذا كثيرة جداً، ولا يمكن أن يخالف فيها إلا مكابر، ولا شك أن في ذلك كله استدلالاً بمنطوق به على مسكوت عنه. وكذلك نوع الاجتهاد المعروف في اصطلاح أهل الأصول «بتحقيق المناط» لا يمكن أن ينكره إلا مكابر، ومسائله التي لا يمكن الخلاف فيها من غير مكابر لا يحيط بها الحصر، وسنذكر أمثلة منها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فكون الصيد المقتول يماثله النوع المعين من النعم اجتهاد في تحقيق مناط هذا الحكم، نص عليه - جل وعلا - في محكم كتابه، وهو دليل قاطع على بطلان قول من يجعل الاجتهاد في الشرع مستحيلاً من أصله. والإنفاق على الزوجات واجب،

وتحديد القدر اللازم لا بد فيه من نوع من الاجتهاد في تحقيق مناط ذلك الحكم. وقيم المتلفات واجبة على من أتلف، وتحديد القدر الواجب لا بد فيه من اجتهاد. والزكاة لا تصرف إلا في مصرفها، كالفقير ولا يعلم فقره إلا بأمارات ظنية يجتهد في الدلالة عليها بالقرائن؛ لأن حقيقة الباطن لا يعلمها إلا الله. ولا يحكم إلا بقول العدل، وعدالته إنما تعلم بأمارات ظنية يجتهد في معرفتها بقرائن الأخذ والإعطاء وطول المعاشرة. وكذلك الاجتهاد من المسافرين في جهة القبلة بالأمارات، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

مسألة: قال ابن خويز منداد من علماء المالكية: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ دل على جواز ما لنا به علم؛ فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به، وبهذا احتجنا على إثبات القرعة والخرص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يسمى علماً اتساعاً، فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل عن طريق الشبه. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل علي مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تر أن مجزراً المدلجي نظر أنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض» وفي حديث يونس بن يزيد: وكان مجزراً قافئاً، اه بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

قال مقيده - عفا الله عنه -: من المعلوم أن العلماء اختلفوا في اعتبار أقوال القافة؛ فذهب بعضهم إلى عدم اعتبارها. واحتج من قال بعدم اعتبارها بقصة الأنصارية التي لاعنت زوجها وجاءت بولد شبيه جداً بمن رमित به ولم يعتبر هذا الشبه النبي ﷺ، فلم يحكم بأن الولد من زنى ولم يجلد المرأة.

قالوا: فلو كان الشبه تثبت به الأنساب لأثبت النبي ﷺ به أن ذلك الولد من ذلك الرجل الذي رमित به؛ فيلزم على ذلك إقامة الحد عليها، والحكم بأن الولد ابن زنى، ولم يفعل النبي ﷺ شيئاً من ذلك كما يأتي إيضاحه (في سورة النور) إن شاء الله تعالى. وهذا القول بعدم اعتبار أقوال القافة مروى عن أبي حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى اعتبار أقوال القافة عند التنازع في الولد، محتجين بما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ سر بقول مجزى بن الأعور المدلجي: إن بعض هذه الأقدام من بعض، حتى برقت أسارير وجهه من السرور.

قالوا: وما كان ﷺ ليسر بالباطل ولا يعجبه، بل سروره بقول القائف دليل على أنه من الحق لا من الباطل؛ لأن تقريره وحده كاف في مشروعية ما قرر عليه، وأخرى من ذلك ما لو زاد السرور بالأمر على التقرير عليه، وهو واضح كما ترى.

واعلم أن الذين قالوا باعتبار أقوال القافة اختلفوا، فمنهم من قال: لا يقبل ذلك إلا في أولاد الإمام دون أولاد الحرائر، ومنهم من قال: يقبل ذلك في الجميع.

قال مقيد - عفا الله عنه -: التحقيق اعتبار ذلك في أولاد الحرائر والإماء؛ لأن سرور النبي ﷺ وقع في ولد حرة، وصورة سبب النزول قطعية الدخول كما تقرر في الأصول، وهو قول الجمهور وهو الحق، خلافاً للإمام مالك رحمه الله تعالى قائلاً: إن صورة السبب ظنية الدخول، وعقده صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

تنبيهان:

الأول: لا تعتبر أقوال القافة في شبه مولود برجل إن كانت أمه فراشاً لرجل آخر؛ لأن النبي ﷺ رأى شدة شبه الولد الذي اختصم فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بعتبة بن أبي وقاص ولم يؤثر عنده هذا الشبه في النسب لكون أم الولد فراشاً لزمعة، فقال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» ولكنه ﷺ اعتبر هذا الشبه من جهة أخرى غير النسب؛ فقال لسودة بنت زمعة رضي الله عنها «احتجبي عنه» مع أنه ألحقه بأبيها فلم ير سودة قط. وهذه المسألة أصل عند المالكية في مراعاة الخلاف كما هو معلوم عندهم.

التنبيه الثاني: قال بعض علماء العربية: أصل القفو: البهت والقذف بالباطل، ومنه الحديث الذي روي عن النبي ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمناً ولا نتقي من أبنائنا» أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث الأشعث بن قيس، وساق طرق هذا الحديث ابن كثير في تاريخه. وقوله: «لا نقفو أمناً»؛ أي لا نقذف أمناً ونسبها. - ومنه قول الكمي:

فلا أرمي البريء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا
وقول النابغة الجعدي:

ومثل الدمى شم العرائن ساكن بهن الحياء لا يشعن التقافيا
والذي يظهر لنا أن أصل القفو في لغة العرب: الاتباع كما هو معلوم من اللغة، ويدخل فيه اتباع المساوي كما ذكره من قال: إن أصله القذف والبهت.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فيه وجهان من التفسير:

الأول: أن معنى الآية أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟! ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه؟! ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه!؟.

ويدل على هذا المعنى آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَلَسْتَ عَلَى كَثِيرٍ مَعْلُومٌ﴾ [النحل: ٩٣]، وقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩١]، ونحو ذلك من الآيات.

والوجه الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها، فتشهد عليه جوارحه بما فعل.

قال القرطبي في تفسيره: وهذا المعنى أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي كما قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكْمَلُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

قال مقيده - عفا الله عنه -: والقول الأول أظهر عندي، وهو قول الجمهور. وفي الآية الكريمة نكتة نبه عليها في مواضع أخرى؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يفيد تعليل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالسؤال عن الجوارح المذكورة، لما تقرر في الأصول في مسلك الإيماة والتنبيه: أن «إن» المكسورة من حروف التعليل، وإيضاحه: أن المعنى انتهى عما لا يحل لك لأن الله أنعم عليك بالسمع والبصر والعقل لتشكره، وهو مختبرك بذلك وسائلك عنه، فلا تستعمل نعمه في معصيته.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل]، ونحوها من الآيات. والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ راجعة إلى ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ وهو دليل على الإشارة «بأولئك» لغير العقلاء وهو الصحيح. ومن شواهد في العربية قول الشاعر وهو العرجي:

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤلياء كن الضال والسمر
وقول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
خلافاً لمن زعم أن بيت جرير لا شاهد فيه، وأن الرواية فيه: «بعد أولئك الأقوام»، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [٣٧]. نهى الله - جل وعلا - الناس في هذه الآية الكريمة عن التجبر والتبختر في المشية، وقوله: ﴿مَرَحًا﴾ مصدر منكر، وهو حال على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغثة زيد طلع

وقرئ «مرحاً» - بكسر الراء - على أنه الوصف من مرح (بالكسر) يمرح (بالفتح) أي لا تمش في الأرض في حال كونك متبخترًا متميلاً مشي الجبارين.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في مواضع آخر كقوله عن لقمان مقررًا له:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ۝ [لقمان: ١٨، ١٩]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبختراً مشي المتكبرين؛ لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة.

وأظهر القولين عندي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ﴾ أن معناه لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل على هذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾؛ أي أنت أيها المتكبر المختال ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين! أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قدرك! ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحاً.

القول الثاني: أن معنى: ﴿لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ﴾ لن تقطعها بمشيك، قاله ابن جرير، واستشهد له بقول رؤية بن العجاج:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشته الأعلام لماع الخفق

لأن مراده بالمخترق مكان الاختراق؛ أي المشي والمرور فيه، وأجود الأعاريب في قوله: و﴿طُولًا﴾ أنه تمييز محول عن الفاعل، أي لن يبلغ طولك الجبال، خلافاً لمن أعربه حالاً ومن أعربه مفعولاً من أجله. وقد أجاد من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمتع

واستدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ على منع الرقص وتعاطيه؛ لأن فاعله ممن يمشي مرحاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكَ لَنفُوتُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝١٩﴾. الهمزة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَيْنِ﴾ للإنكار، ومعنى الآية أفخصكم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ لنفسه أدونهم وهي البنات! وهذا خلاف المعقول والعادة، فإن السادة لا يؤثر عبيدهم بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويتخذون لأنفسهم أردأها وأدونها، فلو كان - جل وعلا - متخذاً ولدأ - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - لاتخذ أجود النصيين ولم يتخذ أردأهما! ولم يصطفكم دون نفسه بأفضلهما، وهذا الإنكار متوجه على الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فقد جعلوا له الأولاد! ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث! وهم لا يرضونها لأنفسهم. وقد بين الله هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَهُ الْآخِرَةُ وَآلَةُ الْأَوَّلَىٰ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿إِنَّكَ إِذَا

قَسَمَةُ صَبْرِي ﴿١٧﴾ [النجم]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الطور]، وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد بينا ذلك بإيضاح في «سورة النحل». وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن كُنتُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بين فيه أن ادعاء الأولاد لله - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - أمر عظيم جداً، وقد بين شدة عظمه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ نَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتُضَرَّرُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مریم] فالمشركون - قبحهم الله - جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم؛ فافتروا الجريمة العظمى في المقامات الثلاث. والهمزة والفاء في نحو قوله: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ﴾ قد بينا حكمها بإيضاح في «سورة النحل» أيضاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٢﴾. قرأ جمهور القراء «كما تقولون» بناء الخطاب، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم «كما يقولون» بياء الغيبة. وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق ويشهد له قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن فنذكر الجميع لأنه كله حق.

الأول من الوجهين المذكورين أن معنى الآية الكريمة لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا - أي الآلهة المزعومة - أي لطلبوا إلى ذي العرش - أي إلى الله سبيلاً - أي إلى مغالبتة وإزالة ملكه؛ لأنهم إذا يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، سبحانه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!!

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة، ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّثُوا فِي الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٦﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء] وهذا المعنى في الآية مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور وغيره من المتكلمين.

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة أن المعنى لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً، أي طريقاً ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، ويروى هذا القول عن قتادة، واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره.

ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول؛ لأن في الآية فرض المحال، والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مشاركة له لا يظهر معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾. في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير:

الأول: أن المعنى وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً؛ أي حائلاً وساتراً يمنعهم من تفهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فيفتنعوا به. وعلى هذا القول، فالحجاب المستور هو ما حجب الله به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه، والآيات الشاهدة لهذا المعنى كثيرة؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ آذَانِنَا وَقَدْ آمَنَّا بِبَيْنِكَ وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ٥﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ٧﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]. إلى غير ذلك من الآيات، وممن قال بهذا القول في معنى الآية قتادة والزجاج وغيرهما.

الوجه الثاني في الآية: أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه، قال صاحب (الدر المنثور) في الكلام على هذه الآية: أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وصححه؛ وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَيَّنَ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمماً أينا... ودينه قلينا... وأمره عصينا

ودرسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك؟ فقال: «إنها لن تراني» وقرأ قرأناً اعتصم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾. فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني؟! فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا ورب هذا البيت ما هجاك. فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أنني بنت سيدها، إلى غير ذلك من الروايات بهذا المعنى.

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية، بعد أن ساق بعض الروايات نحو ما ذكرنا في هذا الوجه الأخير ما نصه: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منشور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أنني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله (يعنون شيطناً) وأعمى الله - عز وجل - أبصارهم فلم يروني، اه وقال القرطبي: إن هذا الوجه في معنى الآية هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال بعض العلماء: هو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل؛ أي حجاباً ساتراً، وقد يقع عكسه كقوله تعالى: ﴿مِّن مَّلَوِّ دَافِقٍ﴾ أي مدفوق ﴿عِشَّةً رَّاضِيَةً﴾ [الحاقة: ٢١] أي مرضية، فإطلاق كل من اسم الفاعل واسم المفعول وإرادة الآخر أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ والبيانون يسمون مثل ذلك الإطلاق «مجازاً عقلياً»، ومن أمثلة إطلاق المفعول وإرادة الفاعل كالقول في الآية، قولهم: ميمون ومشئوم، بمعنى يامن وشائم. وقال بعض أهل العلم: قوله ﴿مَسْتُورًا﴾ على معناه الظاهر من كونه اسم مفعول؛ لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه، أو مستوراً به القارئ فلا يراه غيره؛ واختار هذا أبو حيان في (البحر)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل على قلوب الكفار أكنة، (جمع كنان) وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه، لئلا يفقهوا القرآن، أو كراهة أن يفقهوه لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن؛ أي فهم معانيه فهماً ينتفع به صاحبه، وأنه جعل في آذانهم وقراً أي صمماً وثقلاً لئلا يسمعه سماع قبول وانتفاع.

وبين في مواضع آخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر، وإزاغة القلوب والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْنَعْنَاهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن الشر لا يقع بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد؛ سبحانه الله وتعالى علواً كبيراً عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته! ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال: «لا إله إلا الله» ولّى الكافرون على أدبارهم نفوراً، بغضاً منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به - جل وعلا -.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، مبيناً أن نفورهم من ذكره وحده - جل وعلا - سبب خلودهم في النار، كقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٥﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٥٨﴾﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادُوتِ يَسْطُورُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [فصلت].

وقوله في هذه الآية: ﴿نُفُورًا﴾ جمع نافر؛ فهو حال؛ أي ولوا على أدبارهم في حال كونهم نافرين من ذكر الله وحده من دون إشراك. والفاعل يجمع على فاعول كساجد وسجود، وراكع وركوع.

وقال بعض العلماء: «نفوراً» مصدر، وعليه فهو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿وَلَوْ﴾؛ لأن التولية عن ذكره وحده بمعنى النفور منه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المعبودين من دون الله الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم؛ أي إزالة المكروه عنهم، ولا تحويلاً؛ أي تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الجذب. ونحو ذلك، ثم بين فيها أيضاً أن المعبودين الذين عبدتهم الكفار من دون الله يتقربون إلى الله بطاعته، وابتغون الوسيلة إليه، أي الطريق إلى رضاه ونيل ما عنده من الثواب بطاعته فكان الواجب عليكم أن تكونوا مثلهم.

قال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في قوم من العرب من خزاعة أو غيرهم، كانوا يعبدون رجالاً من الجن، فأسلم الجنيون وبقي الكفار يعبدونهم فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾ الآية، وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الذين كانوا يعبدون عزيزاً والمسيح وأمه، وعنه أيضاً، وعن ابن مسعود، وابن زيد، والحسن: أنها نزلت في عبدة الملائكة. وعن ابن عباس أنها نزلت في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزير والمسيح وأمه.

وهذا المعنى الذي بينه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن كل معبود من دون الله لا ينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له - جل وعلا - بينه أيضاً في مواضع أخرى، كقوله «في سبأ» ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَعَالٍ دَرَجَةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٥٦﴾﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿سبأ: ٢٢ - ٢٣﴾ وقوله «في الزمر»: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُتَمَسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ [الزمر: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا «في سورة المائدة» أن المراد بالوسيلة في هذه الآية الكريمة «وفي آية المائدة» هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح، ومنه قول لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي لب إلى الله واسل
وقد قدمنا «في المائدة» أن التحقيق أن قول عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
من هذا المعنى، كما قدمنا أنها تجمع على وسائل، كقوله:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل
وأصح الأعراب في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أنه بدل من واو الفاعل في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ وقد أوضحنا هذا «في سورة المائدة» بما أغنى عن إعادته هنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِيَكْسَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾. قال بعض أهل العلم: في هذه الآية الكريمة حذف الصفة - أي وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها - وهذا النعت المحذوف دلت عليه آيات من كتاب الله تعالى؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [الفصل: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]؛ أي بل لا بد أن تنذرهم الرسل فيكفروا بهم وبربهم، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٧]، وقوله: ﴿وَكَايِنْ مِنْ قَرَبَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَوَّبَتْهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبَتْهَا عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُتْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق] إلى غير ذلك من الآيات، وغاية ما في هذا القول حذف النعت مع وجود أدلة تدل عليه، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]؛ أي كل سفينة سالحة؛ بدليل أن خرق الخضر للسفينة التي ركب فيها هو وموسى يريد به سلامتها من أخذ الملك لها؛ لأنه لا يأخذ المعيبة التي فيها الخرق وإنما يأخذ الصحيحة، ومن حذف النعت قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَقْنَنَ جِثَّتْ إِيَّاهُ﴾ [البقرة: ٧١]، أي بالحق الواضح الذي لا لبس معه في صفات البقرة المطلوبة، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر، وهو المرقش الأكبر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهففة لها فرع وجيد
أي فرع فاحم وجيد طويل، وقول عبيد بن الأبرص:

من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل
أي قوله قول فصل، وفعله فعل جميل، ونائله نائل جزيل، وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

وما من المنعوت والنعوت عقل يجوز حذفه وفي النعت يقل
وقال بعض أهل العلم: الآية عامة، فالقرية الصالحة إهلاكها بالموت، والقرية
الطالحة إهلاكها بالعذاب، ولا شك أن كل نفس ذائقة الموت، والمراد بالكتاب:
اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب، ومنه قول جرير:

من شاء بايعته مالي وخلعته ما تكمل التيم في ديوانها سطرًا

وما يرويه مقاتل عن كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية من أن مكة
تخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال
بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فهلاكها ضروب، ثم ذكر بلداً بلداً لا يكاد يعول
عليه؛ لأنه لا أساس له من الصحة، وكذلك ما يروى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة
من الخراب حتى تخرب أرمينية، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر، ومصر آمنة حتى
تخرب الكوفة، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة. فإذا كانت الملحمة
الكبرى فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم، وخراب الأندلس من قبل الزنج،
وخراب إفريقية من قبل الأندلس، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش
فيها، وخراب العراق من الجوع، وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم
الشراب من الفرات، وخراب البصرة من قبيل الغرق، وخراب الأبله من عدو يحصرهم
براً وبحراً، وخراب الري من الديلم، وخراب خراسان من قبل التبت، وخراب التبت من
قبل الصين، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان، وخراب مكة من الحبشة،
وخراب المدينة من الجوع، اهـ كل ذلك لا يعول عليه؛ لأنه من قبيل الإسرائيليات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا ثَمُودُ انْقَافًا مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾. بيت - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أتى ثمود الناقة في حال كونها آية مبصرة، أي بينة تجعلهم يبصرون الحق
واضحاً لا لبس فيه فظلموا بها، ولم يبين ظلمهم بها ها هنا، ولكنه أوضحه في مواضع آخر
كقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾
[الشمس: ١٤]، وقوله: ﴿فَادَّأَوْا صَالِحًا فَغَاطَىٰ فَعَقَرَهُ الْقَوْمُ﴾ [القمر: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. بيت - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أخبر نبيه ﷺ أنه أحاط بالناس؛ أي فهم في قبضته يفعل فيهم كيف يشاء
فيسلط نبيه عليهم ويحفظه منهم. قال بعض أهل العلم: ومن الآيات التي فصلت بعض
التفصيل في هذه الإحاطة قوله تعالى: ﴿سَيَبْرَزُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ وَمِنْكُمْ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [القمر: ١٥]، وقوله:
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٢]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَصْمُكُ مِنَ النَّاسِ﴾
[المائدة: ٦٧]. وفي هذا أن هذه الآية مكية، وبعض الآيات المذكورة مدني، أما آية
القمر وهي قوله: ﴿سَيَبْرَزُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [القمر: ٤٥] الآتية فلا إشكال في البيان بها لأنها مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَيْثَ إِلَّا رِشَّةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي

الْقُرْآنَ ﴿التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - جعل ما أراه نبيه ﷺ من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس؛ لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقاً، قالوا: كيف يصلي بيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال! فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن، وأنه - جل وعلا - جعل الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم فتنة للناس؛ لأنهم لما سمعوه ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات] قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟ فصار ذلك فتنة، وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ [١٦] إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ [١٧] إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ [١٨] [الصافات]، وهو واضح كما قرئ، وأشمار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم، وهو قوله: ﴿أَفْتَرَوْهُ عَلَى مَا رَأَىٰ [١٧] وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ [١٦] عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ [١٥] عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ [١٤] إِذْ يَفِئُ السِّدْرَةَ مَا يَفِئُ [١١] مَا ذَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَىٰ [١٧] لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم]. وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة، وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن الرؤيا التي أراها الله إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية لا يعول عليه؛ إذ لا أساس له من الصحة، والحديث الوارد بذلك ضعيف لا تقوم به حجة، وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيد من رحمة الله، واللعن: الإبعاد عن رحمة الله، أو لخبث صفاتها التي وصفت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [١٦]. قوله تعالى في هذه الآية عن إبليس: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يدل فيه إنكار إبليس للِسجود بهمزة الإنكار على إياه واستكباره عن السجود لمخلوق من طين، وصرح بهذا الإباء والاستكبار في مواضع آخر، فصرح بهما معاً «في البقرة» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وصرح بإبائه «في الحجر» بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر]، وباستكباره في «ص» بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٦] وبين سبب استكباره بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] كما تقدم إيضاحه في «البقرة»، وقوله: ﴿طِينًا﴾ حال؛ أي لمن خلقته في حال كونه طيناً، وتجويز الزمخشري كونه حالاً من نفس الموصول غير ظاهر عندي. وقيل: منصوب بنزع الخافض؛ أي من طين، وقيل: تمييز، وهو أضعفها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرَنِي إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ

ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إبليس اللعين قال له: ﴿أَرَأَيْتَ أَنِّي بِكَ﴾ أي أخبرني، هذا الذي كرمته علي فأمرتني بالسجود له وهو آدم؛ أي لم كرمته علي وأنا خير منه! والكاف في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ حرف خطاب، وهذا مفعول به لأرأيت، والمعنى: أخبرني. وقيل: إن الكاف مفعول به، و«هذا» مبتدأ، وهو قول ضعيف. وقوله ﴿لَأَخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ قال ابن عباس: لأستولين عليهم، وقاله الفراء، وقال مجاهد: لأحتوينهم. وقال ابن زيد: لأضلنهم. قال القرطبي: والمعنى متقارب؛ أي لأستأصلنهم بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿لَأَخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي لأقودنهم إلى ما أشاء، من قول العرب: احتنكت الفرس: إذا جعلت الرسن في حنكه لتقوده حيث شئت. تقول العرب: حنكت الفرس أحنكه (من باب ضرب ونصر) واحتنكته: إذا جعلت فيه الرسن؛ لأن الرسن يكون على حنكه. وقول العرب: احتنك الجراد الأرض؛ أي أكل ما عليها، من هذا القبيل؛ لأنه يأكل بأفواهه، والحنك حول الفم. هذا هو أصل الاستعمال في الظاهر؛ فالاشتقاق في المادة من الحنك، وإن كان يستعمل في الإهلاك مطلقاً والاستئصال كقول الرازي:

أشكو إليك سنة قد أجهفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا واجتلفت

وهذا الذي ذكر - جل وعلا - عن إبليس في هذه الآية من قوله: ﴿لَأَخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ...﴾ الآية، بينه أيضاً في مواضع آخر من كتابه؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿فَعِزِّكَ لِأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه، في «سورة النساء» وغيرها.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بين المراد بهذا القليل في مواضع آخر كقوله: ﴿لَأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣]، وقوله: ﴿لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا نُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٦٤]، كما تقدم إيضاحه.

وقول إبليس في هذه الآية: ﴿لَأَخْزِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ...﴾ الآية. قاله ظناً منه أنه سيقع وقد تحقق له هذا الظن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [١٢١]. قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا أمر إهانة؛ أي اجهد جهداً، فقد أنظرناك ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي وافرًا؛ عن مجاهد وغيره. وقال الزمخشري وأبو حيان: ﴿أَذْهَبَ﴾ ليس من الذهاب

الذي هو نقيض المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته. وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله: ﴿فَمَنْ يَمَعَكْ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾.

وهذا الوعيد الذي أوعد به إبليس ومن تبعه في هذه الآية الكريمة بينه أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَمَعَكْ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) [ص]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ يُبَا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (٩٤) ﴿وَيَحْنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٥) [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿جَزَاءُ﴾ مفعول مطلق منصوب بالمصدر قبله؛ على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

بمحلته أو فعل أو وصف نصب وكونه أصلاً لهذين انتخاب

والذي يظهر لي أن قول من قال: إن «موفوراً» بمعنى وافر لا داعي له؛ بل «موفوراً» اسم مفعول على بابه من قولهم: وفر الشيء يفره، فالفاعل وافر، والمفعول موفور؛ ومنه قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
وعليه فالمعنى جزاء مكماً متماً، وتستعمل هذه المادة لازمة أيضاً تقول: وفر ماله فهو وافر؛ أي كثير؛ وقوله: «موفوراً» نعت للمصدر قبله كما هو واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصَوْتُكَ وَآلِيبٌ عَلَيْهِمْ بِحُكِّكَ وَرَجِلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٩٦). قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: هذا أمر قدري؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٩٧) [مريم] أي ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً، انتهى.

قال مقيدة - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي أن صيغ الأمر في قوله ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾، وقوله: ﴿وَأَلِيبٌ﴾، وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ﴾ إنما هي للتهديد؛ أي افعل ذلك فسترى عاقبته الوحشية كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا تَشْتُمُ﴾ [فصلت: ٤٠] وبهذا جزم أبو حيان في البحر، وهو واضح كما ترى، وقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أي استخف من استطعت أن تستفزه منهم، فالمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، والاستفزاز: الاستخفاف. ورجل فز: أي خفيف، ومنه قيل لولد البقرة: فز؛ لخفة حركته. ومنه قول زهير:

كما استغاث بسبي فز غيطة خاف العيون ولم ينظر به الحشك

«والسبي» في بيت زهير بالسين المهملة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وآخره همز: اللبن الذي يكون في أطراف الأخلاف قبل نزول الدرة. والحشك أصله السكون؛ لأنه مصدر حشكت الدرة، إذا امتلأت، وإنما حركه زهير للوزن. والغيطة هنا بقرة الوحش ذات اللبن، وقوله: ﴿يَصَوْتُكَ﴾ قال مجاهد: هو اللهو والغناء والمزامير؛ أي استخف من

استطعت أن تستخفه منهم باللهو والغناء والمزامير، وقال ابن عباس: صوته يشمل كل دأغ دعا إلى معصية؛ لأن ذلك إنما وقع طاعة له، وقيل: ﴿بَصَوْتِكَ﴾ أي وسوستك. وقوله: ﴿وَأَلْبَيْتَ﴾ أصل الإجلاب: السوق بجلبة من السائق. والجلبة: الأصوات؛ تقول العرب: أجلب على فرسه، وجلب عليه: إذا صاح به من خلفه واستحثه للسبق. والخييل تطلق على نفس الأفراس، وعلى الفوارس الراكبين عليها، وهو المراد في الآية. والرجل: جمع راجل، كما قدمنا أن التحقيق جمع الفاعل وصفاً على فعل بفتح فسكون وأوضحنا أمثله بكثرة، واخترنا أنه جمع موجود أغفله الصرفيون؛ إذ ليست فعل (بفتح فسكون) عندهم من صيغ الجموع. فيقولون فيما ورد من ذلك كراجل ورجل، وصاحب وصحب، وراكب وركب، وشارب وشرب - إنه اسم جمع ولا جمع، وهو خلاف التحقيق.

وقرأ حفص عن عاصم «ورجلك» بكسر الجيم، لغة في الرجل جمع راجل. وقال الزمخشري: هذه القراءة على أن فعلاً بمعنى فاعل، نحو تعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل، اه أي الماشيين على أرجلهم.

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾. أما مشاركته لهم في الأموال فعلى أصناف: منها: ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له؛ كالبخائر والسوائب ونحو ذلك، وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً كالربا والغصب وأنواع الخيانات؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك طاعة له.

وأما مشاركته لهم في الأولاد فعلى أصناف أيضاً:

منها: قتلهم بعض أولادهم طاعة له.

ومنها: أنهم يمجسون أولادهم ويهدونهم وينصرونهم طاعة له وموالة.

ومنها: تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى ونحو ذلك؛ لأنهم بذلك سموا أولادهم عبداً لغير الله طاعة له، ومن ذلك أولاد الزنى؛ لأنهم إنما تسبوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة طاعة له إلى غير ذلك.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الله بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام]، فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم حيث قتلهم في طاعته. وكذلك تحريم بعض ما رزقهم الله المذكور في الآية طاعة له مشاركة منه لهم في أموالهم أيضاً، وكقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وكقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْنَدُ وَحَرَّتْ جِبْرُ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنَعَدُ حُرْمَتَ

طُهْرَهَا وَأَنَّهُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْرَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفِرَّاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَالُ اللَّهِ أَوْنَكُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْعُرُونَ﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات، ومن الأحاديث المبينة بعض مشاركته لهم فيما ذكر - ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عياض بن حماد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله - عز وجل - إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»، وما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان»، انتهى.

فاجتيال الشياطين لهم عن دينهم، وتحريمها عليهم ما أحل الله لهم في الحديث الأول، وضرها لهم لو تركوا التسمية في الحديث الثاني - كل ذلك من أنواع مشاركتهم فيهم. وقوله: «فاجتالتهم» أصله افتعل من الجولان؛ أي استخفتهم الشياطين فجالوا معهم في الضلال؛ يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان في الحرب: واجتال الشيء إذا ذهب به وساقه. والعلم عند الله تعالى، والأمر في قوله: ﴿وَعَدَهُمْ﴾ كالأمر في قوله: ﴿وَأَسْفَرَزَ﴾، وقوله ﴿وَأَحْلَبَ﴾ وقد قدمنا أنه للتهديد.

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] بين فيه أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل؛ كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، إلى غير ذلك من المواعيد الكاذبة.

وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَفَرَصْنَا وَارْتَبْنَا وَعَزَّيْنَا الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْنَا بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ [الحديد: ١٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عباده الصالحين لا سلطان للشيطان عليهم، فالظاهر أن في الآية الكريمة حذف الصفة كما قدرنا، ويدل على الصفة المحذوفة إضافته العباد إليه إضافة تشريف، وتدل على هذه الصفة المقدرة أيضاً آيات آخر كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٩٩]، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [١٠٠] [النحل]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١١] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۝٦٩﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك ضل عنهم؛ أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله - جل وعلا - فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله - جل وعلا - وحده؛ لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده - جل وعلا - فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾.

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله - جل وعلا - في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتَ بِكُمْ رِيحٌ طَبِئَتْ وَفَرِحُوا بِهَا جَلَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَجْنَحَتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَحْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ ۝٢٥﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٢٧﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُلِيَ نِعْمَةً مِنْهُ لَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۝٢٨﴾ [الزمر: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه «في سورة الأنعام» وغيرها.

ثم إن الله - جل وعلا - بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله؛ مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة. كما قال هنا منكرًا عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۝٦٧﴾ وهو المطر أو الريح اللذين فيهما الحجارة ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ۝٦٨﴾ أي بسبب كفرهم؛ فالباء سببية، وما مصدرية، والقاصف: ريح البحار الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها، ومنه قول أبي تمام:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولا يعبان بالرتم

يعني إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره.

وهذا المعنى الذي بينه - جل وعلا - هنا من قدرته على إهلاكهم في غير البحر بخسف أو عذاب من السماء - أوضحه في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنْ شَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ... الآية [سبا: ٩]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ ... الآية [الأنعام: ٦٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (٦٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (٦٧) [الملك]، وقوله «في قوم لوط»: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ نَجَاتَهُمْ بِسَجْرِ (٦٨)﴾ [القمر]، وقوله: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَادًا مِّن طِينٍ (٦٩)﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات، والحاصب في هذه الآية قد قدمنا أنه قيل إنها السحابة أو الريح، وكلا القولين صحيح؛ لأن كل ريح شديدة ترمي بالحصباء تسمى حاصباً وحصبه. وكل سحابة ترمي بالبرد تسمى حاصباً أيضاً؛ ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا بحاصب كنديف القطن منشور

وقول لبيد:

جرت عليها أن خوت من أهلها أذبالها كل عصف حصبه

وقوله في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَا يَخْدُوا لَكُرًّا عَلَيْنَا بِهِ نَبِيعًا﴾ فعيل بمعنى فاعل؛ أي تابعاً يتبعنا بالمطالبة بئاركم؛ كقوله: ﴿قَدَّمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (٦٩) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (٧٠) [الشمس]، أي لا يخاف عاقبة تبعة تلحقه بذلك. وكل مطالب بدين أو ثار أو غير ذلك تسميه العرب تبعاً؛ ومنه قول الشماخ يصف عقاباً:

تلوذ ثعالب الشرفين منها كما لاذ الغريم من التبيع

أي كعياذ المدين من صاحب الدين الذي يطالبه بغرمه منه، ومنه قول الآخر:

غدوا وغدت غزلانهم وكأنها ضوامن غرم لدهن تبيع

أي خصمهن مطالب بدين، ومن هذا القليل قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله ﷺ: «إذا أتبع أحدكم على مليء فليتبّع» وهذا هو معنى قول ابن عباس وغيره «تبعاً» أي نصيراً، وقول مجاهد نصيراً ثائراً.

تنبيه: لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأحوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق. وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأحوال

والكروب التجئوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح؛ في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله - جل وعلا - أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر، وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى: «في سورة النمل»: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾... [النمل] الآيات، فتراه - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمات جعل إجابة المضطر إذا دعا وكشف سوء عنه من حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد؛ كخلقه السموات والأرض، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته به الشجر، وجعله الأرض قراراً، وجعله خلالها أنهاراً، وجعله لها رواسي، وجعله بين البحرين حاجزاً، إلى آخر ما ذكر في هذه الآيات من غرائب صنعه وعجائبه التي لا يشاركه فيها أحد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الذي ذكره الله - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمات كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل، فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة؛ فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره! اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد ﷺ فلاأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، اهـ.

والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿يَوْمَ نَبِئًا﴾ راجع إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله: ﴿فَيُتْرَقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي لا تجدون تبعاً يتبعنا بتأركم بسبب ذلك الإغراق.

وقال صاحب روح المعاني: وضمير «به» قيل للإرسال، وقيل للإغراق، وقيل لهما باعتبار ما وقع، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. قال بعض أهل العلم: من تكريمه لبني آدم خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها؛ فإن الإنسان يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه. ومما يدل على هذا من القرآن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ [التين]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وفي الآية كلام غير هذا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَحَلَّنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾. أي في البر على الأنعام، وفي البحر

على السفن. والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف]، وقد قدمنا هذا مستوفى بإيضاح «في سورة النحل».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾. قال بعض العلماء: المراد «بإمامهم» هنا كتاب أعمالهم. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٣]، وقوله: ﴿وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَانِئٌ كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعِي إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الحاثية: ١٣]، وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَائِفَةٌ فِي عُقُوْبِهِ وَنُخْرِجُوهُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٣] واختار هذا القول ابن كثير؛ لدلالة آية «يس» المذكورة عليه. وهذا القول رواية عن ابن عباس ذكرها ابن جرير وغيره، وعزاه ابن كثير لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن. وعن قتادة ومجاهد أن المراد «بإمامهم» نبيهم.

ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالتَّائِبِينَ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال بعض السلف: وفي هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال بعض أهل العلم: «بإمامهم»؛ أي بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع، وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال بعض أهل العلم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾؛ أي ندعو كل قوم بمن يأتون به، فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وأهل الكفر أئمتهم ساداتهم وكبرائهم من رؤساء الكفرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفُكَارِ﴾ [القصص: ٤١]. وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله تعالى. فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية، وما يشهد لها من قرآن.

وقوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِمِيسِرِهِ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال.

وذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يؤتون كتابهم بإيمانهم يقرؤونه ولا يظلمون فتيلاً.

وقد أوضح هذا في مواضع أخر كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِمِيسِرِهِ فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ [١٣] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَقَوْلُ يَلْتَنَتِي لَوْ أَوْتُ كِتَابَهُ﴾ [الحاقة: ١٣] وقد قدمنا هذا مستوفى في أول هذه السورة الكريمة.

وقول من قال: إن المراد «بإمامهم» كمحمد بن كعب «أمهاتهم» أي يقال: يا فلان ابن فلانة، قول باطل بلا شك. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر مرفوعاً: «يرفع يوم القيامة لكل غادر لواء فيقال هذه غدره فلان ابن فلان».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾. المراد بالعمى في هذه الآية الكريمة عمى القلب لا عمى العين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ لأن عمى العين مع إبصار القلب لا يضرب، بخلاف العكس؛ فإن أعمى العين يتذكر فتنفعه الذكرى ببصيرة قلبه، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتَوَكَّلْ ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَحْمَىٰ ۝٢ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكَ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤﴾ [عبس].

إذا بصر القلب المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير
وقال ابن عباس رضي الله عنه لما عمي في آخر عمره، كما روي عنه من وجوه، وذكره ابن عبد البر وغيره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال بعض أهل العلم: ليست الصيغة صيغة تفضيل بل المعنى فهو في الآخرة أعمى كذلك لا يهتدي إلى نفع وبهذا جزم الزمخشري:

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يتبادر إلى الذهن أن لفظة «أعمى» الثانية صيغة تفضيل؛ أي هو أشد عمى في الآخرة.

ويدل عليه قوله بعده: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإنها صيغة تفضيل بلا نزاع، والمقرر في علم العربية أن صيغتي التعجب وصيغة التفضيل لا يأتیان من فعل الوصف منه على أفعال الذي أثناء فعلاء، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وغير ذي وصف يضاهي أشهلاً

والظاهر أن ما وجد في كلام العرب مصوغاً من صيغة تفضيل أو تعجب غير مستوف للشروط، أنه يحفظ ولا يقاس عليه؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وبالنسبة لحكم لغير ما ذكر ولا تقس على الذي منه أثر
ومن أمثلة ذلك قوله:

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر وفي المخازي لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنتم اليوم الأمهم لؤماً وأبيضهم سربال طباخ

وقال بعض العلماء: إن قوله في هذا البيت «وأبيضهم سربال طباخ» ليس صيغة تفضيل، بل المعنى أنت وحدك الأبيض سربال طباخ من بينهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا يَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ۖ﴾. روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت في المشركين من قريش، قالوا له ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تلم بآلهتنا، وعن ابن عباس في رواية عطاء أنها نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي فسألوه شططاً قالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها، وحرم وادينا كما حرمت مكة، إلى غير ذلك من الأقوال في سبب نزولها، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومعنى الآية الكريمة أن الكفار كادوا يفتنونه؛ أي قاربوا ذلك، ومعنى يفتنونك: يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره مما لم نوحه إليك.

قال بعض أهل العلم: قاربوا ذلك في ظنهم لا فيما في نفس الأمر، وقيل: معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم.

وبين في موضع آخر أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحى إليه، وأنه امتنع أشد الامتناع وقال لهم: إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه؛ بل يتبع ما أوحى إليه ربه، وذلك في قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِغَيْرِهِ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]. وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَنْ كَادُوا﴾ هي المخففة من الثقيلة، وهي هنا مهملة، واللام هي الفارقة بينها وبين إن النافية كما قال في الخلاصة:

وخففت إن فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل والغالب أنها لا تكون كذلك مع فعل إلا إن كان ناسخاً كما في هذه الآية، قال في الخلاصة:

والفعل إن لم يك ناسخاً فلا تلفيه غالباً بأن ذي موصل كما هو معروف في النحو.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ۖ﴾ إذا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة تشبته لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركون إلى الكفار، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات؛ أي مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ وبهذا جزم القرطبي في تفسيره. وقال بعضهم: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر، والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث. وبهذا جزم الزمخشري وغيره، والآية تشمل الجميع، وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنبيه لو خالف، بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۚ﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْبَ ۚ﴾ الآية [الحاقة].

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم بينه في موضع آخر كقوله: ﴿يَنْسَلَهُ النَّيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ يَفْحَشَهُ مُبْتَسِرًا يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. ولقد أجاد من قال:

وكبائر الرجل الصغير صغائر وصغائر الرجل الكبير كبائر

تنبيه: هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقارنة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون؛ لأن «لولا» حرف امتناع لوجود؛ فمقاربة الركون منعتها «لولا» الامتناعية لوجود التثبيت من الله - جل وعلا - لأكرم خلقه ﷺ، فصح يقيناً انتفاء مقارنة الركون فضلاً عن الركون نفسه، وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا﴾؛ أي قاربت تركن إليهم هو عين الممنوع بـ«لولا» الامتناعية كما ترى، ومعنى ﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: تميل إليهم.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّنَنِ...﴾. قد بينا «في سورة النساء» أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة؛ لأن قوله: ﴿لِذُلُوكِ السُّنَنِ﴾؛ أي لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر؛ بدليل الغاية في قوله: ﴿إِلَى عَسَى أَلِيلٌ﴾ أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الصبح، كما تقدم إيضاحه. وأشرنا للآيات المشيرة لأوقات الصلوات كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسُبِّحُونَ﴾ [٧] الآية [الروم]، وأتممنا بيان ذلك من السنة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فراجعه هناك إن شئت. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [٨١]. الحق في لغة العرب: الثابت الذي ليس بزائل ولا مضمحل، والباطل: هو الذاهب المضمحل، والمراد بالحق في هذه الآية هو ما في هذا القرآن العظيم والسنة النبوية من دين الإسلام، والمراد بالباطل فيها الشرك بالله، والمعاصي المخالفة لدين الإسلام. وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الإسلام جاء ثابتاً راسخاً، وأن الشرك بالله زهق؛ أي ذهب واضمحل وزال. تقول العرب: زهقت نفسه: إذا خرجت وزالت من جسده.

ثم بين - جل وعلا - أن الباطل كان زهوقاً، أي مضمحلاً غير ثابت في كل وقت، وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع. وذكر أن الحق يزيل الباطل ويذهبه؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَذْفُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ﴾ [٨١] قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ [٨٢] [سبا]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة، أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري ومسلم، والترمذي والنسائي، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً؛ فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وأخرج الطبراني في الصغير، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً؛ فشد لهم إبليس أقدامها بالرصاص؛ فجاء ومعه قضيب فجعل يهوي إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ حتى مرَّ عليها كلها.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: وفي هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آله الباطل كله وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله.

قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المدر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذ الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه، ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص إذا غيرت عما هي عليه وصارت نقرأ أو قطعاً فيجوز بيعها والشرء بها. قال المهلب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال. وقد تقدم حرق ابن عمر رضي الله عنه. وقد همَّ النبي ﷺ بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة وهذا أصل في العقوبة في المال؛ مع قوله ﷺ في الناقة التي لعتتها صاحبته: «دعوها فإنها ملعونة» فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبته، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه، اه الغرض من كلام القرطبي - رحمه الله تعالى -، وقوله ﷺ: «والله لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير» الحديث - من قبيل ما ذكرنا دلالة عليه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢). وقد قدمنا في أول «سورة البقرة» الآيات المبينة لهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥) [التوبة]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] كما تقدم إيضاحه، وقوله في هذه الآية: ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾

يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه؛ كالشك والنفاق وغير ذلك. وكونه شفاء للأجسام إذا رقي عليها به؛ كما تدل عليه قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة، وهي صحيحة مشهورة، وقرأ أبو عمرو «ونزل» بإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا أنعم على الإنسان بالصحة والعافية والرزق أعرض عن ذكر الله وطاعته، ونأى بجانبه: أي تباعد عن طاعة ربه؛ فلم يمثل أمره، ولم يجتنب نهيه.

وقال الزمخشري: أعرض عن ذكر الله كأنه مستغن عنه، مستبد بنفسه، «ونأى بجانبه» تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأى بالجانب أن يلوي عنه عطفه، ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين. واليئوس: شديد اليأس، أي القنوط من رحمة الله.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله «في سورة هود»: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝١﴾ ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝٢﴾ [هود]، وقوله في «آخر فصلت»: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝١٨﴾ ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٥﴾ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝٥٦﴾ [فصلت]، وقوله «في سورة الروم»: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُم مُّنتَبِهِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مَتَّه رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٢٢﴾ [الروم]، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٢٣﴾ [الروم]، وقوله «في سورة يونس»: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُومٌ ۝١٢﴾ [يونس: ١٢]، وقوله «في سورة الزمر»: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُلَّتْ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَحَسَلَ اللَّهُ أَنْدَادًا لِلْجَبَلِ لَئِيْلَ عَنْ سَبِيلِهِ ۝٨﴾ [الزمر: ٨]، وقوله فيها أيضاً: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حُلَّتْ نِعْمَةٌ مِنْنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ [الزمر]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد استثنى الله من هذه الصفات عباده المؤمنين في قوله «في سورة هود»: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود]، كما تقدم إيضاحه، وقرأ ابن ذكوان «وناء» كجاء، وهو بمعنى نأى؛ كقولهم: راء في رأى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أعطى خلقه من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلى علمه - جل وعلا - لأن ما أعطيه الخلق من العلم بالنسبة إلى علم الخالق قليل جداً. ومن الآيات التي فيها الإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَقَدِ الْأَبْحَرُ قَلِيلٌ أَنْ نَنفَعَكُم بِرَبِّ وَلَوْ جِئْنَا بِبَيْتِلَهِ مِثْقَالَ رَيْبٍ﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿إِنْ فَضَّلْنَاكَ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فضله على نبيه ﷺ كبير. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّدْ بِعَمَلِكَ وَتَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [٢١]، ﴿وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [٢٢]، ﴿الْفَتْحِ﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [٢٣]، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [٢٤]، ﴿الَّتِي أَقْبَضَ ظَهْرَكَ﴾ [٢٥]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [٢٦]، [الشرح]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى في موضع آخر أن فضله كبير على جميع المؤمنين، وهو قوله: ﴿وَنُفِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وبين المراد بالفضل الكبير في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [٩٠]، أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا [٩١]، أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيلًا [٩٢]، أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [٩٣].

بين الله - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم، وكثرة اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق، فذكر أنهم قالوا له ﷺ: إنهم لن يؤمنوا له؛ أي لن يصدقوه حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، وهو يفعل من نبع، أي ماء غزير؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَكُومُ يَنْبِيعٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي بستان من نخيل وعنب؛ فيفجر خلالها، أي وسطها أنهاراً من الماء. أو يسقط السماء عليهم كسفاً؛ أي قطعاً كما زعموا؛ أي في قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَحْنُ فَغَنَصُفْ بِهِمُ الْآرْضَ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْنَهُمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ١٩]. أو يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً، أي معاينة. قاله قتادة وابن جريج، كقوله: ﴿لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال بعض العلماء: «قبيلاً»: أي كفيلاً؛ من تقبله بكذا: إذا كفله به. والقبيل والكفيل والزعيم بمعنى واحد.

وقال الزمخشري قبيلاً بما تقول شاهداً بصحته. وكون القبيل في هذه الآية بمعنى

الكفيل مروى عن ابن عباس والضحاك. وقال مقاتل: «قبيلًا» شهيداً. وقال مجاهد: هو جمع قبيلة؛ أي تأتي بأصناف الملائكة. وعلى هذا القول فهو حال من الملائكة، أو يكون له بيت من زخرف؛ أي من ذهب. ومنه قوله «في الزخرف»: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَمَجَعْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَنَّهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَخْرَفًا﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] أي ذهباً. أو يرقى في السماء؛ أي يصعد فيه، وإنهم لن يؤمنوا لرقبه؛ أي من أجل صعوده، حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه. وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره - جل وعلا - عن الكفار هنا بينه في مواضع أخر، وبين أنهم لو فعل الله ما اقترحوا ما آمنوا؛ لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن بكوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [٧] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [١٥] [الحجر]، وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٩٧] [يونس]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقوله في هذه الآية: ﴿كِنَيَّا نَقْرُؤُ﴾ أي كتاباً من الله إلى كل رجل منا. ويوضح هذا قوله تعالى «في المدثر»: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَن يُوَفَّىٰ صُفْحًا مُّثَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٦] كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، أي تنزيهاً لربي - جل وعلا - عن كل ما لا يليق به، ويدخل فيه تنزيهه عن العجز عن فعل ما اقترحتهم، فهو قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، وأنا بشر أتبع ما يوحى إلي ربي.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمَّا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. وكقوله تعالى عن جميع الرسل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ «تفجر» الأولى عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم، والباقون بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مكسورة. واتفق الجميع على هذا في الثانية. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم «كسفاً» بفتح السين والباقون بإسكانها، وقرأ أبو عمرو «تنزل» بإسكان النون وتخفيف الزاي، والباقون بفتح النون وشد الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾. هذا المانع المذكور هنا عادي؛ لأنه جرت عادة جميع الأمم باستغرابهم بعث الله رسلاً من البشر كقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿أَنْزِلُنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقوله: ﴿أَبَشَرٌ مِثَّنَا وَجَدْنَا نَبِيَّعُنَا إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَبَلٍ وَسَعِيرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ۖ﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل على أن المانع في هذه الآية عادي أنه تعالى صرح بمانع آخر غير هذا «في سورة الكهف» وهو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَلِيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۖ﴾ [الكهف]. فهذا المانع المذكور «في الكهف» مانع حقيقي؛ لأن من أراد الله به سنة الأولين من الإهلاك، أو أن يأتيه العذاب قبلاً فإرادته به ذلك مانعة من خلاف المراد؛ لاستحالة أن يقع خلاف مراده - جل وعلا - بخلاف المانع «في آية بني إسرائيل» هذه، فهو مانع عادي يصح تخلفه. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب».

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان مرسلًا رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم؛ أي وإذا أرسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم.

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۖ﴾ [٨] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكَسْنَا عَلَيْهِمْ مَنًا يَلْسُونُ ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من خلق السموات والأرض مع عظمهما قادر على بعث الإنسان بلا شك؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا ۖ﴾ [٧] ﴿رَفَعَ سَكَهَا قَسْوَهَا ۖ﴾ [٨]

وَأَنقَضَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ﴿١٠١﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿١٠٢﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿١٠٣﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿١٠٤﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ ﴿١٠٥﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٥﴾. بين تعالى في هذه الآية أن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته، أي خزائن الأرزاق والنعم، لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء؛ خوفاً من الإنفاق لشدة بخلهم.

وبين أن الإنسان قتور؛ أي بخيل مضيق من قولهم: قتر على عياله، أي ضيق عليهم. وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ [النساء]، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٥﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٨﴾ [المعارج]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمقرر في علم العربية أن «لو» لا تدخل إلا على الأفعال، فيقدر لها في الآية فعل محذوف، والضمير المرفوع بعد «لو» أصله فاعل الفعل المحذوف؛ فلما حذف الفعل فصل الضمير. والأصل: قل لو تملكون، فحذف الفعل فبقيت الواو فجعلت ضميراً منفصلاً: هو أنتم. هكذا قاله غير واحد، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ الآية. قال بعض أهل العلم: هذه الآيات التسع، هي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات.

وقد بين - جل وعلا - هذه الآيات في مواضع آخر كقوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلنَّظِيرِ ﴿١٨﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَمْرُوتَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٧٣﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما ذكرنا، وجعل بعضهم الجبل بدل «السنين» وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر؛ أي حججاً واضحة؛ وذلك يدل على أن قول فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشعراء] كل ذلك منه تجاهل عارف.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى مبيناً سبب جحوده لما علمه «في سورة النمل» بقوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ سَوٍّ فِي شِعْجٍ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ

كُلُّوْا قَوْماً فَلْيَقِيْعُوا ﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ مَّائِنُنَا مُبْصِرَةً قَالُوْا هَذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿١٠٧﴾ وَحَمَدُوْا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا اَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوْاً ﴿١٠٨﴾ الآية [النمل: ١٢ - ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَبَالِحِقِ أَنْزَلْتَهُ وَبَالِحِقِ نَزَلَ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل هذا القرآن بالحق، أي متلبساً به متضمناً له؛ فكل ما فيه حق. فأخباره صدق، وأحكامه عدل كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وكيف لا! وقد أنزله - جل وعلا - بعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿وَبَالِحِقِ نَزَلَ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله؛ لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل كما أشار إلى هذا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف]، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٥] ﴿مُطَّلَعٌ ثَمَّ آمِينَ﴾ [التكوير]، وقوله في هذه الآية: ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾ [التكوير: ١٩] أي لتبليغه عن ربه؛ بدلالة لفظ الرسول لأنه يدل على أنه مرسل به.

قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَاكَ فَرْقَتَهُ لِقَرَأَةٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّنٍ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء «فرقناه» بالتخفيف؛ أي بيناه وأوضحناه، وفصلناه وفرقنا فيه بين الحق والباطل، وقرأ بعض الصحابة «فرقناه» بالتشديد؛ أي أنزلناه مفرقاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. ومن إطلاق فرق بمعنى بين وفصل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان].

وقد بين - جل وعلا - أنه بين هذا القرآن لنبيه ليقراه على الناس على مكث، أي مهل وتؤدة وثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك، وقد أمر تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿وَرَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤] ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَاكَ﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده، على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق نصبه بفعل أضمرنا حتماً موافق لما قد أظهرنا

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. أمر الله - جل وعلا - عباده في هذه الآية الكريمة أن يدعوه بما شاؤوا من أسمائه، إن شاؤوا قالوا: يا الله، وإن شاؤوا قالوا: يا رحمن، إلى غير ذلك من أسمائه - جل وعلا - .
وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا

الَّذِينَ يُلْعَدُونَ فِي آسَنِيهِمْ سَيُجَزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَمُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٠﴾ [الحشر].

وقد بين - جل وعلا - في غير هذا الموضع أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وبين لهم بعض أفعال الرحمن - جل وعلا - في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]؛ ولذا قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ جواب لقولهم: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وسيأتي لهذا - إن شاء الله - زيادة إيضاح «في سورة الفرقان».

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ﴿١﴾﴾. أمر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه ﷺ؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما قدمنا أن يقولوا: «الحمد لله» أي كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبيناً أنه منزّه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً.

فبين تنزهه عن الولد والصاحبة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ قَتَلْنَا جَدَّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن]: وقوله: ﴿يَبْعَثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَّا يَكُونَ لَهُ لَدًّا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَفُتِحَ الْبَابُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبين في مواضع آخر أنه لا شريك له في ملكه، أي ولا في عبادته كقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]، وقوله: ﴿لَيْنَ الْمُلْكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومعنى قوله في هذه الآية: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ يعني أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعز به؛ لأنه هو العزيز القهار، الذي كل شيء تحت قهره وقدرته، كما بينه في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَّامٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] والعزير: الغالب. وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَأْكُلُ﴾ أي عظمه تعظيماً شديداً. ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على أمثال أمره واجتناب نهيه، والمصارعة إلى كل ما يرضيه، كقوله تعالى: ﴿لِشَاكِرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] ونحوها من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

وروى ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم الصغير والكبير من أهله هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾... الآية. وقال ابن كثير: قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز. وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصبيه سرق أو آفة. والله أعلم.

ثم ذكر حديثاً عن أبي يعلى من حديث أبي هريرة مقتضاه أن قراءة هذه الآية تذهب السقم والضر، ثم قال: إسناده ضعيف، وفي منته نكارة. والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد ﷺ.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۖ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝٢ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ۝٤ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ۝٥﴾. علم الله - جل وعلا - عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمده على أعظم نعمة أنعمها عليهم؛ وهي إنزاله على نبينا ﷺ هذا القرآن العظيم، الذي لا اعوجاج فيه؛ بل هو في كمال الاستقامة، أخرجهم به من الظلمات إلى النور. وبين لهم فيه العقائد، والحلال والحرام، وأسباب دخول الجنة والنار، وحذرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق؛ ولذا علمهم ربهم كيف يحمده على هذه النعمة الكبرى بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية.

وما أشار له هنا من عظيم الإنعام والامتنان على خلقه بإنزال هذا القرآن العظيم، منذراً من لم يعمل به، ومبشراً من عمل به ذكره - جل وعلا - في مواضع كثيرة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۖ ۝١٧٨ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدَتْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَضْلٍ وَبِهِدِيمٍ ۖ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ۝١٧٩﴾ [النساء].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ ۝٥١﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُقَرَأُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ

الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ [النمل]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَسِيدِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ رَجُوعًا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وهو تصريح منه - جل وعلا - بأن إيراد هذا الكتاب فضل كبير، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ لَّهُمُ عِوَجًا﴾؛ أي لم يجعل في القرآن عوجاً؛ أي لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿عِوَجًا﴾ نكرة في سياق النفي؛ فهي تعم نفي جميع أنواع العوج. وما ذكره - جل وعلا - هنا من أنه لا اعوجاج فيه بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَوَعَدْتُكَ بِرَبِّكَ صِدْقًا وَعَدَلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِنَا وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنعام] فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار، وقوله: ﴿وَعَدَلًا﴾ أي في الأحكام. وكقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ [النساء] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيمَا﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زиг، وما ذكره هنا من كونه «قيماً» لا ميل فيه ولا زиг - بينه أيضاً في مواضع أخر، كقوله: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُفْهُا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ [البينة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ الآية [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يَفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿الْمَ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُنْ أَتُحْكَمَ مِنْهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿١﴾ [هود] وقوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى: ﴿فِيمَا﴾ هو قول الجمهور، وهو الظاهر، وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ لَّهُمُ عِوَجًا﴾؛ لأنه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر؛ ولذا جمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي قوله: ﴿فِيمَا﴾ وجهان آخران من التفسير:

الأول: أن معنى كونه ﴿فِيمَا﴾ أنه قيم على ما قبله من الكتب السماوية، أي مهيمن عليه، وعلى هذا التفسير فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولأجل هيمنته على ما قبله من الكتب قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَبَيِّنُ لَكَ بَيِّنَاتٍ لِّمَنْ هُوَ أَكْثَرُ أَلْوَىٰ هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٦١] الآية [النمل]. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ... الآية [المائدة: ١٥].

الوجه الثاني: أن معنى كونه ﴿فِيمَا﴾ أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا الوجه في الحقيقة يستلزمه الوجه الأول.

واعلم أن علماء العربية اختلفوا في إعراب قوله: ﴿فِيمَا﴾؛ فذهب جماعة إلى أنه حال من الكتاب، وأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وتقريره على هذا: أنزل على عبده الكتاب في حال كونه قيمًا ولم يجعل له عوجًا. ومنع هذا الوجه من الإعراب الزمخشري في الكشف قائلًا: إن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ معطوف على صلة الموصول التي هي جملة ﴿أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ والمعطوف على الصلة داخل في حيز الصلة فجعل ﴿فِيمَا﴾ حال من «الكتاب» يؤدي إلى الفصل بين الحال وصاحبها ببعض الصلة؛ وذلك لا يجوز.

وذهب جماعة آخرون إلى أن ﴿فِيمَا﴾ حال من ﴿الْكِتَابِ﴾ وأن المحذور الذي ذكره الزمخشري متنفذ؛ وذلك أنهم قالوا: إن جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ ليست معطوفة على الصلة، وإنما هي جملة حالية. وقوله: ﴿فِيمَا﴾ حال بعد حال، وتقريره: أن المعنى أنزل على عبده الكتاب في حال كونه غير جاعل فيه عوجًا، وفي حال كونه قيمًا، وتعدد الحال لا إشكال فيه، والجمهور على جواز تعدد الحال مع اتحاد عامل الحال وصاحبها، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والحال قد يجيء ذا تعدد لمفرد فاعلم وغير مفرد

وسواء كان ذلك بعطف أو بدون عطف. فمثاله مع العطف قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَشِيرُكَ بِحَبِيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ومثاله بدون عطف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقول الشاعر:

عليَّ إذا ما جئت ليلى بخفية زيارة بيت الله رجلان حافيا

ونقل عن أبي الحسن بن عصفور منع تعدد الحال ما لم يكن العامل فيه صيغة التفضيل في نحو قوله: هذا بسراً أطيب منه رطباً، ونقل منه ذلك أيضاً عن الفارسي وجماعة، وهؤلاء الذين يمنعون تعدد الحال يقولون: إن الحال الثانية إنما هي حال من الضمير المستكن في الحال الأولى. والأولى عندهم هي العامل في الثانية. فهي عندهم

أحوال متداخلة، أو يجعلون الثانية نعتاً للأولى. وممن اختار أن جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ﴾ حالية، وأن ﴿فِيمَا﴾ حال بعد حال؛ الأصفهاني.

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿فِيمَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾؛ لأن انتفاء العوج عنه هو معنى كونه قيماً.

وعزا هذا القول الرازي وأبو حيان لصاحب حل العقد، وعليه فهو بدل مفرد من جملة.

كما قالوا في: عرفت زيدا أبو من أنه بدل جملة من مفرد، وفي جواز ذلك خلاف عند علماء العربية.

وزعم قوم أن ﴿فِيمَا﴾ حال من الضمير المجرور في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾، واختار الزمخشري وغيره أن ﴿فِيمَا﴾ منصوب بفعل محذوف، وتقديره: ولم يجعل له عوجاً وجعله قيماً، وحذف ناصب الفضلة إذا دل عليه المقام جائز؛ كما قال في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً

وأقرب أوجه الإعراب في قوله: ﴿فِيمَا﴾ أنه منصوب بمحذوف، أو حال ثانية من «الكتاب»، والله تعالى أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ اللام فيه متعلقة بـ «أنزل»، وقال الحوفي: هي متعلقة بقوله: «قيماً»، والأول هو الظاهر.

والإنذار الإعلام المقترون بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، والإنذار يتعدى إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل] وقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠].

وفي أول هذه السورة الكريمة كرر تعالى الإنذار، فحذف في الموضع الأول مفعول الإنذار الأول، وحذف في الثاني مفعول الثاني، فصار المذكور دليلاً على المحذوف في الموضعين، وتقدير المفعول الأول المحذوف في الموضع الأول: ﴿لِنُنْذِرَ الذين كفروا بأساً شديداً من لدنهُ﴾ وتقدير المفعول الثاني المحذوف في الموضع الثاني: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بأساً شديداً من لدنهُ.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظيم تخويف وتهديد للكافرين، وبشارة للمؤمنين المتقين. إذ قال في تخويف الكفرة به: ﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ وقال: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية، وقال في بشارته للمؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذاراً لهؤلاء وبشارة لهؤلاء بينه في مواضع آخر كقوله:

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَسَافِرُك لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مریم]، وقوله: ﴿الْمَصْ﴾ [١] كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف].

وقد أوضحنا هذا المبحث في أول سورة «الأعراف»، وأوضحنا هنالك المعاني التي ورد بها الإنذار في القرآن. والبأس الشديد الذي أنذرهم إياه: هو العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، والبشارة: الخبر بما يسر.

وقد تطلق العرب البشارة على الإخبار بما يسوء، ومنعه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧] ومنه قول الشاعر:

وبشرتني يا سعد أن أحبتي جفوني وقالوا الود موعده الحشر
وقول الآخر:

يبشرنني الغراب ببين أهلي فقلت له ثكلتك من بشير

والتحقيق أن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء، أسلوب من أساليب اللغة العربية. ومعلوم أن علماء البلاغة يجعلون مثل ذلك مجازاً، ويسمونه استعارة عنادية، ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية. كما هو معروف في محله.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بينت المراد به آيات أخر، فدللت على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، فكل عمل مخالف لما جاء به - صلوات الله وسلامه عليه - فليس بصالح، بل هو باطل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْزَلْنَا مَعَهُ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَ وَالزُّبُرَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ الْحَقَّ وَالْحَقَّ الْمُبِينُ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [١١] وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُوا مَا دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿١٥﴾ [الزمر] إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْذِرَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧]، فجعل الإيمان قيداً في ذلك.

وبين مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة، كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقِيمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَثُورًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كَسْرًا...﴾ الآية [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كَرْمًا أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

والتحقيق أن مفرد «الصلاحات» في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا

الْفَالِحِينَ ﴿البقرة: ٢٥﴾ ونحو ذلك أنه صالحة، وأن العرب تطلق لفظة الصالحة على الفعلة الطيبة؛ كإطلاق اسم الجنس لتناسي الوصية. كما شاع ذلك الإطلاق في الحسنة مراداً بها الفعلة الطيبة.

ومن إطلاق العرب لفظ الصالحة على ذلك قول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ:

بنت الأمين جزاك الله صالحة
وقول الحطيئة:

كيف الهجاء ولا تنفك صالحة
وسئل أعرابي عن الحب فقال:

الحب مشغلة عن كل صالحة
وسكرة الحب تنفي سكرة الوسن
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي؛ وليشرهم بأن لهم أجراً حسناً، والأجر: جزاء العمل، وجزاء عملهم الميعبر عنه هنا بالأجر: هو الجنة؛ ولذا قال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهِ﴾ وذكر الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ لأنه راجع إلى الأجر وهو مذكر، وإن كان المراد بالأجر الجنة، ووصف أجرهم هنا بأنه حسن، وبين أوجه حسنه في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ (١٦) [الواقعة] إلى قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٣) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٣٤) [الواقعة]، وكقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معلومة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣٤)؛ أي خالدين فيه بلا انقطاع. وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كثيرة، كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُورٍ﴾ (٣٣) [هود] أي غير مقطوع، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ﴾ (٣٤) [ص] أي ما له من انقطاع وانتهاء، وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ أَشَدُّ بَاقِيًا﴾ [طه: ١٢٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (١)؛ أي ينذرهم بأساً شديداً ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده كما تقدم، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن قوله: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ شامل للذين قالوا اتخذ الله ولداً، ولغيرهم من سائر الكفار.

وقد تقرر في فن المعاني أن عطف الخاص على العام إذا كان الخاص يمتاز عن سائر أفراد العام بصفات حسنة أو قبيحة من الإطناب المقبول، تنزيلاً للتغاير في الصفات منزلة التغاير في الذوات.

ومثاله في الممتاز عن سائر أفراد العام بصفات حسنة قوله تعالى: ﴿وَمَلَكْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَحَبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

ومثاله في الممتاز بصفات قبيحة الآية التي نحن بصدها، فإن الذين قالوا اتخذ الله ولداً امتازوا عن غيرهم بفرية شنعاء؛ ولذا ساغ عطفهم على اللفظ الشامل لهم ولغيرهم.

والآيات الدالة على شدة عظم فريتهم كثيرة جداً كقوله هنا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ ۖ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]، وقوله: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبِّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ لَقَوْلًا عَظِيمًا ۝٤﴾ [الإسراء] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن القرآن بين أن الذين نسبوا الولد لله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً ثلاثة أصناف من الناس: اليهود، والنصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٠]، والصنف الثالث مشركو العرب كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل]، والآيات بنحوها كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَمْ يَهْدِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِبَائِهِمْ﴾ يعني أن ما نسبوه له - جل وعلا - من اتخاذ الولد لا علم لهم به، لأنه مستحيل.

والآية تدل دلالة واضحة على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]؛ لأن ظلمهم لربنا وحصول العلم لهم باتخاذ الولد، كل ذلك مستحيل عقلاً، فنفيه لا يدل على إمكانه. ومن هذا القبيل قول المنطقيين: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، كما بيناه في غير هذا الموضع.

وما نفاه عنهم وعن آبائهم من العلم باتخاذ الولد ﷻ عن ذلك علواً كبيراً بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَحَرِّقُوا لَمْ يَبْنِ وَبَنَتْ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله في آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني أن ما قالوه بأفواههم من أن الله اتخذ ولداً أمر كبير عظيم؛ كما بينا الآيات الدالة على عظمه آنفاً كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ لَقَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠﴾ [مريم]. وكفى بهذا كبراً وعظماً.

وقال بعض علماء العربية: إن قوله: «كبرت كلمة» معناه التعجب؛ فهو بمعنى ما أكبرها كلمة، أو أكبر بها كلمة!

والمقرر في علم النحو: أن «فعل» بالضم تُصاغ لإنشاء الذم والمدح، فتكون من باب (نعم وبئس) ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾... الآية، وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

وقوله: «كنعم» أي اجعله من باب «نعم» فيشمل بئس، وإذا تقرر ذلك ففاعل «كبر» ضمير محذوف، و«كلمة» نكرة مميزة للضمير المحذوف، على حد قوله في الخلاصة:

ويرفعان مضمراً يفسره مميز كنعم قوماً معشره

والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها، وهي قولهم: اتخذ الله ولداً، وأعرب بعضهم «كلمة» بأنها حال، أي كبرت فريتهم في حال كونها كلمة خارجة من أفواههم، وليس بشيء.

وقال ابن كثير في تفسيره: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم؛ ولذا قال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير له شواهد في القرآن كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ونحو ذلك من الآيات.

والكذب: مخالفة الخبر للواقع على أصح الأقوال.

فائدة: لفظة «كبر» إذا أريد بها غير الكبر في السن فهي مضمومة الباء في الماضي والمضارع، كقوله هنا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقَاتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]، وقوله: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الاسراء: ٥١] ونحو ذلك.

وإن كان المراد بها الكبر في السن فهي مكسورة الباء في الماضي، مفتوحتها في المضارع على القياس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦]، وقول المجنون:

تعشقت ليلي وهي ذات ذوائب ولم يبد للعينين من ثديها حجم

صغيرين نرعى الهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر الهم

وقوله في هذا البيت: «صغيرين» شاهد عند أهل العربية في إتيان الحال من الفاعل والمفعول معاً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ يعني بالكلمة الكلام الذي هو قولهم: ﴿أَتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله يطلق اسم الكلمة على الكلام أوضحت آيات أخر كقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْ قَالِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، والمراد بها قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ] [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]. وقوله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وما جاء لفظ «الكلمة» في القرآن إلا مراداً به الكلام المفيد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿عِوَجًا﴾ هو بكسر العين في المعاني كما في هذه الآية الكريمة، وافتحها فيما كان منتصباً كالحائط.

قال الجوهري في صحاحه: قال ابن السكيت: وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه: «عوج» بالفتح. والعوج - بالكسر - ما كان في أرض أو دين أو معاش، يقال: في دينه عوج، اهـ.

وقرأ هذا الحرف حفص عن عاصم في الوصل ﴿عِوَجًا﴾ بالسكت على الألف المبدلة من التتوين سكتة يسيرة من غير تنفس، إشعاراً بأن ﴿قِيَمًا﴾ ليس متصلاً بـ ﴿عِوَجًا﴾ في المعنى، بل للإشارة إلى أنه منصوب بفعل مقدر، أي جعله قِيَمًا كما قدمنا.

وقرأ أبو بكر عن عاصم «من لدنه» بإسكان الدال مع إشمامها للضم وكسر النون والهاء ووصلها بياء في اللفظ.

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ﴾ قرأها الجمهور - بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة - وقرأ حمزة والكسائي «يبشر» - بفتح الياء وإسكان الباء الموحدة وضم الشين -.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبَخَعَ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَنزَرِهِمْ إِن لَّرَ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. اعلم أولاً أن لفظة «لعل» تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور، واستظهر أبو حيان في البحر المحيط أن «لعل» في قوله هنا: ﴿فَلَمَّا كَبَخَعَ نَفْسُكَ﴾ للإشفاق عليه ﷺ أن يخضع نفسه لعدم إيمانهم به.

وقال بعضهم: إن «لعل» في الآية للنهي. وممن قال به العسكري، وهو معنى كلام ابن عطية كما نقله عنهما صاحب البحر المحيط.

وعلى هذا القول، فالمعنى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم. وقيل: هي في الآية للاستفهام المضمن معنى الإنكار. وإتيان «لعل» للاستفهام مذهب كوفي معزوف.

وأظهر هذه الأقوال عندي في معنى «لعل» أن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم.

وإطلاق لعل مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام.

ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك؛ كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والباح: المهلك؛ أي مهلك نفسك من شدة الأسف على عدم إيمانهم، ومنه قول ذي الرمة:

ألا أيهذا الباح الوجد نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر
كما تقدم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ قال القرطبي: آثارهم جمع أثر. ويقال: إثر، والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك.

وقال أبو حيان في البحر: ومعنى ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ من بعدهم، أي بعد يأسك من إيمانهم. أو بعد موتهم على الكفر، يقال: مات فلان على أثر فلان؛ أي بعده.

وقال الزمخشري: شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم! والأسف هنا: شدة الحزن، وقد يطلق الأسف على الغضب كقوله: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فإذا حققت معنى هذه الآية الكريمة، فاعلم أن ما ذكره فيها - جل وعلا - من شدة حزن نبيه ﷺ عليهم ومن نهيه له عن ذلك مبين في آيات أخر كثيرة كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، وكقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] وكقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وكقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وكقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ أَلَّا يَقُولُوا﴾ [الأنعام: ٣٣] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٦] كما قدمناه موضحاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَيُّهَا﴾ مفعول من أجله، أي مهلك نفسك من أجل الأسف، ويجوز إعرابه حالاً؛ أي في حال كونك أسفاً عليهم، على حد قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٧] وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا [٨]. قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها.

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غير تخصيص، وعلى هذا القول فوجه كل الحيات وغيرها مما يؤدي زينة للأرض؛ لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان المذكورة فيه، أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْبُهُ أَفَعَسَىٰ أَفْوَاجًا﴾ [الحج: ٣٢]. مع تصريحه بأن البدن داخله في هذا العموم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعْبِهِ آلًا﴾ [الحج: ٣٦].

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ قد صرح في مواضع آخر ببعض الأفراد الداخلة فيه، كقوله تعالى: ﴿الْمَاءُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَالْخَيْلُ وَالْغَنَالُ وَالْحَمِيرُ لِرِكَابِهِمْ زِينَةٌ﴾ [النحل: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾؛ أي أرضاً بيضاء لا نبات بها، وقد قدمنا معنى «الصعيد» بشواهد العربية في سورة «المائدة».

والجزر: الأرض التي لا نبات بها كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَّةِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُوهُمْ وَأَنفُسَهُمْ أَفَلَا يَصِيرُونَ﴾ [السجدة] ومنه قول ذي الرمة:

طوى النحر والأجزاء ما في غروضها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

لأن مراده «بالأجزاء» الفيافي التي لا نبات فيها، والأجزاء: جمع جرزة، والجرزة: جمع جرز، فهو جمع الجمع للجرز، كما قاله الجوهري في صحاحه.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة صعيداً أو جرراً، أي مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته، وإمالة حسنه، وإبطال ما به، كان زينة من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، اهـ.

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ آيَاتِنَا أَنهَذَا لَآيِلًا أَوْ هَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْآمِنِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [٢٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي لنختبرهم على السنة رسلنا.

وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها، وهي الابتلاء في إحسان العمل، بين في مواضع آخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسماوات والأرض، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنبياء] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقد بين ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما تقدم.

وهذا الذي أوضحنا من أنه - جل وعلا - جعل ما على الأرض زينة لها ليبتلي خلقه، ثم يهلك ما عليها ويجعله صعيداً جرزاً، فيه أكبر واعظ للناس، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى، وإيثار الفاني على الباقي؛ ولذا قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ﴾.

«أم» في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل» والهمزة، وعند بعض العلماء بمعنى «بل» فقط، فعلى القول الأول، فالمعنى بل أحسبت، وعلى الثاني، فالمعنى بل حسبت، فهي على القول الأول جامعة بين الإضراب والإنكار، وعلى الثاني فهي للإضراب الانتقالي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة أن الله يقول لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا، فإن خلقنا السموات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينة لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً - أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أنماهم هذا الزمن الطويل، ثم بعثناهم، ويدل على هذا الذي ذكرنا آيات كثيرة:

منها: أنه قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ إلى قوله: ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾... الآية، فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها.

ومنها أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ...﴾ الآية [غافر: ٥٧]، وكقوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ لِنَمْلَةٍ بِئِنَّهَا ۖ﴾ [النازعات] إلى قوله: ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [النازعات] كما قدمناه مستوفى في سورة «البقرة»، و«النحل».

ومن خلق هذه المخلوقات العظام كالسما والأرض وما فيهما، فلا عجب في إنامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة، ثم بعثه إياهم، كما هو واضح.

والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار. وقيل: كل غار في جبل: كهف، وما يروى عن أنس من أن الكهف نفس الجبل غريب، غير معروف في اللغة. واختلف العلماء في المراد بـ«الرقيم» في هذه الآية على أقوال كثيرة، قيل: الرقيم اسم كلبهم، وهو اعتقاد أمية بن أبي الصلت حيث يقول:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همد

وعن الضحاك أن الرقيم: بلدة بالروم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف.

وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة. وعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنان؟

وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من رقمت الكتاب إذا كتبت، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين] الآية. سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقش فيها أسماؤهم، والعلم عند الله تعالى.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم؛ طائفة واحدة أضيفت إلى شيتين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن الله قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم، وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة وهم: البار بالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد، بعيد كما ترى.

واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم، وفي أي محل من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿عَجَبًا﴾ صفة لمحذوف، أي شيئاً عجباً، أو آية عجباً.

وقوله: ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ في موضع الحال. وقد تقرر في فن النحو أن نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً، وأصل المعنى كانوا عجباً كائناً من آياتنا، فلما قدم النعت صار حالاً.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من صفة أصحاب الكهف أنهم فتية، وأنهم أواوا إلى الكهف، وأنهم دعوا ربهم هذا الدعاء العظيم الشامل لكل خير، وهو قوله عنهم: ﴿رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وبين في غير هذا الموضع أشياء أخرى من صفاتهم وأقوالهم كقوله: ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ إلى قوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ و«إذ» في قوله هنا: «إذ أوى الفتية» منصوبة بـ «اذكر» مقدراً. وقيل: بقوله: «عجباً»، ومعنى قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي جعلوا الكهف مأوى لهم ومكان اعتصام.

ومعنى قوله: ﴿آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ أي أعطنا رحمة من عندك، والرحمة هنا تشمل الرزق والهدى والحفظ مما هربوا خائفين منه من أذى قومهم، والمغفرة.

والفتية: جمع فتى جمع تكسير، وهو من جموع القلة، ويدل لفظ الفتية على قتلهم، وأنهم شباب لا شيب، خلافاً لما زعمه ابن السراج من أن الفتية اسم جمع لا جمع تكسير. وإلى كون مثل الفتية جمع تكسير من جموع القلة أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله:

أفعلة أفعل ثم فعله كذاك أفعال جموع قلة

والتهيئة: التقريب والتيسير؛ أي يسر لنا وقرب لنا من أمرنا رشداً، والرشد: الاهتداء والديمومة عليه.. و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ فيها وجهان: أحدهما أنها هنا للتجريد، وعليه فالمعنى: اجعل لنا أمرنا رشداً كله، كما تقول: لقيت من زيد أسداً، ومن عمرو بحراً.

والثاني أنها للتبويض، فالمعنى واجعل لنا بعض أمرنا؛ أي وهو البعض الذي نحن فيه من مفارقة الكفار رشداً حتى نكون بسببه راشدين مهتدين.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ضرب على آذان أصحاب الكهف سنين عدداً، ولم يبين قدر هذا العدد هنا، ولكنه بينه في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وضربه - جل وعلا - على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم، ومفعول «ضربنا» محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم. والمعنى أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات.

وقوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ على حذف مضاف؛ أي ذات عدد، أو مصدر بمعنى اسم المفعول، أي سنين معدودة. وقد ذكرنا الآية المبينة لقدر عددها بالسنة القمرية والشمسية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقال أبو حيان في البحر في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ عبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة والصلوق واللزوم، ومنه ﴿صُفِّرْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] وضرب الجزية وضرب البعث. وقال الفرزدق:

ضرب عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

وقال الأسود بن يعفر:

ومن الحوادث لا أبالك أنني ضربت على الأرض بالأسداد

وقال آخر:

إن المروءة والسماحة والندي في قبة ضربت على ابن الحشر

وذكر الجارحة التي هي الآذان، إذ هي يكون منها السمع؛ لأنه لا يستحکم نوم

إلا مع تعطل السمع. وفي الحديث: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه»؛ أي استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل، اه كلام أبي حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئْتُهُمَا أَمَدًا ۖ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من حكم بعثه لأصحاب الكهف بعد هذه النومة الطويلة أن يبين للناس أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم أحصى لذلك وأضبط له، ولم يبين هنا شيئاً عن الحزبين المذكورين.

وأكثر المفسرين على أن أحد الحزبين هم أصحاب الكهف. والحزب الثاني - هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية، وقيل: هما حزبان من أهل المدينة المذكورة، كان منهم مؤمنون وكافرون. وقيل: هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف. اختلفوا في مدة لبثهم، قاله الفراء. وعن ابن عباس: الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب، وأصحاب الكهف حزب. إلى غير ذلك من الأقوال.

والذي يدل عليه القرآن أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف. وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ۖ﴾. وكان الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، ولقائل أن يقول: قوله عنهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم، والله تعالى أعلم. وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافي العلم، بدليل أن الله أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِئْتُمْ فِي كَهْفِهِمْ...﴾ الآية، ثم أمره برد العلم إليه في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ...﴾ الآية.

وقوله: ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي من نومتهم الطويلة، والبعث: التحريك من سكون، فيشمل بعث النائم والميت، وغير ذلك.

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر الله - جل وعلا - حكمة لشيء في موضع، ويكون لذلك الشيء حكم آخر مذكورة في مواضع أخرى فإننا نبينها. ومثلنا لذلك، وذكرنا منه أشياء متعددة في هذا الكتاب المبارك.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أنه تعالى هنا في هذه الآية الكريمة بين من حكم بعثهم إظهاره للناس: أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً. وقد بين لذلك حكماً آخر في غير هذا الموضع...

منها: أن يتساءلوا عن مدة لبثهم، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

ومنها: إعلام الناس أن البعث حق، وأن الساعة حق لدلالة قصة أصحاب الكهف على ذلك، وذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلْنَا لَمَن يَخِفُّ عَلَيْهِ لَأَيُّ الْيَوْمِ هَٰذَا ۖ وَنَبِّئُهُم بِأَيِّ الْيَوْمِ قَدِ انقَضَىٰ ۚ وَكَذَٰلِكَ يَكُونُ لَكُم مِّنْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ﴾.

لَا رَيْبَ فِيهَا. واعلم أن قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ بَشَّرَهُمْ لِنِعْمَةٍ...﴾ الآية لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم، وإنما علم بعد بعثهم؛ كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة! بل هو - جل وعلا - عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، لا يخفي عليه من ذلك شيء، والآيات الدالة على ذلك لا تحصى كثرة.

وقد قدمنا أن من أصرح الأدلة على أنه - جل وعلا - لا يستفيد بالاختيار والابتلاء علماً جديداً ﷺ عن ذلك علواً كبيراً قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَيَبْلُغَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَيَبْلُغَنَّ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ دليل واضح في ذلك.

وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿لِنِعْمَةٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه.

واختلف العلماء في قوله: ﴿أَحْصَى﴾ فذهب بعضهم إلى أنه فعل ماضٍ و﴿أَمْدًا﴾ مفعوله. «وما» في قوله: ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ مصدرية؛ وتقرير المعنى على هذا لنعلم أي الحزبين ضبط أمداً للبهيم في الكهف.

وممن اختار أن ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماضٍ: الفارسي، والزمخشري، وابن عطية وغيرهم. وذهب بعضهم إلى أن ﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل، و﴿أَمْدًا﴾ تمييز، وممن اختاره الزجاج والتبريزي وغيرهما. وجوز الحوفي وأبو البقاء الوجهين.

والذين قالوا: إن ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماضٍ قالوا: لا يصح فيه أن يكون صيغة تفضيل؛ لأنها لا يصح بناؤها هي ولا صيغة فعل التعجب قياساً إلا من الثلاثي و﴿أَحْصَى﴾ رباعي فلا تصاغ منه صيغة التفضيل ولا التعجب قياساً. قالوا: وقولهم: ما أعطاه وما أولاه للمعروف، وأعدى من الجرب، وأفلس من ابن المذلق شاذ لا يقاس عليه، فلا يجوز حمل القرآن عليه.

واحتج الزمخشري في الكشف أيضاً؛ لأن ﴿أَحْصَى﴾ ليست صيغة تفضيل بأن ﴿أَمْدًا﴾ لا يخلو إما أن ينتصب بأفعل، فأفعل لا يعمل. وإما أن ينتصب بـ«البثوا» فلا يسد عليه المعنى أن لا يكون سديداً على ذلك القول، وقال: فإن زعمت نصبه بإضمار فعل يدل عليه «أحصى» كما أضمر في قوله: (وأضرب منا بالسيوف القوانس)؛ أي نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب، حيث أبيت أن يكون «أحصى» فعلاً، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره، انتهى كلام الزمخشري.

وأجيب من جهة المخالفين عن هذا كله قالوا: لا نسلم أن صيغة التفضيل لا تصاغ من غير الثلاثي، ولا نسلم أيضاً أنها لا تعمل.

وحاصل تحرير المقام في ذلك أن في كون صيغة التفضيل تصاغ من «أفعل» كما هنا، أو لا تصاغ منه؛ ثلاثة مذاهب لعلماء النحو:

الأول: جواز بنائها من أفعل مطلقاً، وهو ظاهر كلام سيبويه، وهو مذهب أبي إسحاق كما نقله عنه أبو حيان في البحر.

والثاني: لا يبنى منه مطلقاً، وما سمع منه فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، وهو الذي درج عليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وبالنسبة لغير ما ذكر ولا تقس على الذي منه أثر
كما قدمناه في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

الثالث: تصاغ من أفعل إذا كانت همزتها لغير النقل خاصة، كأظمم الليل، وأشكل الأمر، لا إن كانت الهمزة للنقل فلا تصاغ منها، وهذا هو اختيار أبي الحسن بن عصفور. وهذه المذاهب المذكورة بأدلتها في كتب النحو، وأما قول الزمخشري: فأفعل لا يعمل، فليس بصحيح؛ لأن صيغة التفضيل تعمل في التمييز بلا خلاف، وعليه درج في الخلاصة بقوله:

والفاعل المعنى انصب بأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً
و﴿أَمْدًا﴾ تمييز كما تقدم؛ فنصبه بصيغة التفضيل لا إشكال فيه.

وذهب الطبري إلى أن: ﴿أَمْدًا﴾ منصوب بـ ﴿لَبِثُوا﴾ وقال ابن عطية: إن ذلك غير متجه. وقال ابن حيان: قد يتجه ذلك؛ لأن الأمد هو الغاية، ويكون عبارة عن المدة من حيث إن المدة غاية، و«ما» بمعنى الذي، و﴿أَمْدًا﴾ منتصب على إسقاط الحرف؛ أي لما لبثوا من أمد، ويصير من أمد تفسيراً لما انبهم في لفظ «ما لبثوا» كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل.

قال مقبده - عفا الله عنه -: إطلاق الأمد على الغاية معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد
وقد قدمنا في سورة «النساء» أن علي بن سليمان الأخفش الصغير أجاز نصب بنزع الخافض عند أمن اللبس مطلقاً، ولكن نصب قوله: ﴿أَمْدًا﴾ بقوله: ﴿لَبِثُوا﴾ غير سديد كما ذكره الزمخشري وابن عطية، وكما لا يخفى، اهـ.

وأجاز الكوفيون نصب المفعول بصيغة التفضيل، وأعربوا قول العباس بن مرداس السلمي:

فلم أر مثل الحي حياً مصباحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا

بأن «القوانس» مفعول به لصيغة التفضيل التي هي أضرب. قالوا: ولا حاجة لتقدير فعل محذوف. ومن هنا قال بعض النحويين: إن «من» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَصُفُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١١٧] منصوب بصيغة التفضيل قبله نصب المفعول به.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: ومذهب الكوفيين هذا أجرى عندي على المعنى المعقول؛ لأن صيغة التفضيل فيها معنى المصدر الكامن فيها، فلا مانع من عملها عمله، ألا ترى أن قوله: «وأضرب منا بالسيوف القوانس» معناه: يزيد ضربنا بالسيوف القوانس على ضرب غيرنا، كما هو واضح. وعلى هذا الذي قررنا فلا مانع من كون ﴿أَمْدًا﴾ منصوب بـ ﴿أَحْصَى﴾ نصب المفعول به على أنه صيغة تفضيل، وإن كان القائلون بأن ﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل، أعربوا ﴿أَمْدًا﴾ بأنه تمييز.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه رفع ﴿أَيُّ﴾ من قوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾... الآية، مع أنه في محل نصب لأنه مفعول به؟ فالجواب أن للعلماء في ذلك أجوبة، منها أن ﴿أَيُّ﴾ فيها معنى الاستفهام، والاستفهام يعلق الفعل عن مفعوليته كما قال ابن مالك في الخلاصة عاطفاً على ما يعلق الفعل القلبي عن مفعوليته:

وإن ولا لام ابتداء أو قسم كذا والاستفهام ذا له انحتم

ومنها ما ذكره الفخر الرازي وغيره من أن الجملة بمجموعها متعلق العلم؛ ولذلك السبب لم يظهر عمل قوله: «لنعلم» في لفظة ﴿أَيُّ﴾ بل بقيت على ارتفاعها، ولا يخفى عدم اتجاه هذا القول كما ترى.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر أوجه الأعراب عندي في الآية أن لفظة ﴿أَيُّ﴾ موصولة استفهامية. و﴿أَيُّ﴾ مبنية لأنها مضافة، وصدر صلتها محذوف على حد قوله في الخلاصة:

أي كما وأعربت ما لم تضاف وصدر وصلها ضمير انحذف

ولبنائها لم يظهر نصبها، وتقرير المعنى على هذا لنعلم الحزب الذي هو أحصى لما لبثوا أمداً ونميزه عن غيره. و﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل كما قدمنا توجيهه، نعم، للمخالف أن يقول: إن صيغة التفضيل تقتضي بدلالة مطابقتها الاشتراك بين المفضل والمفضل عليه في أصل الفعل، وأحد الحزبين لم يشارك الآخر في أصل الإحصاء لجهله بالمدة من أصلها، وهذا مما يقوي قول من قال: إن «أحصى» لعل، والعلم عند الله تعالى.

فإن قيل: أي فائدة مهمة في معرفة الناس للحزب المحصي أمد اللبث من غيره، حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿ثُمَّ بَمَثَلِهِمْ لِنَعْلَمَ...﴾ الآية؟ وأي فائدة مهمة في مساءلة بعضهم بعضاً، حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ؟﴾

فالجواب: أنا لم نر من تعرض لهذا؛ والذي يظهر لنا - والله تعالى أعلم - أن ما ذكر من إعلام الناس بالحزب الذي هو أحصى أمداً لما لبثوا، ومساءلة بعضهم بعضاً

عن ذلك، يلزمه أن يظهر للناس حقيقة أمر هؤلاء الفتية، وأن الله ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، ثم بعثهم أحياء طرية أبدانهم؛ لم يتغير لهم حال. وهذا من غريب صنعه - جل وعلا - الدال على كمال قدرته، وعلى البعث بعد الموت، ولا اعتبار هذا اللازم جعل ما ذكرنا علة غائية والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَيْنِكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنَّهُمْ هُدًى ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة لنبه ﷺ أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخيره مؤكداً له أنهم فتية آمنوا بربهم، وأن الله - جل وعلا - زادهم هدى. ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى؛ لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَكَثَّفَهُمْ ثَقْلَهُمْ ۝﴾ [محمد]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا ۝﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ۝﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۝﴾ [الفتح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ۝﴾ الآية [الحديد: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد مفهوم منها أنه ينقص أيضاً، كما استدلل بها البخاري رحمه الله على ذلك، وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ۝﴾. أي ثبتنا قلوبهم وقويتها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام. ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من كان في طاعة ربه - جل وعلا - أنه تعالى يقوي قلبه، ويشته على تحمل الشدائد، والصبر الجميل.

وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخرى كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ يُفَشِّكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُزِيلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝﴾ [١١]، ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِ امْكُمُ فَيَنْتَوِي إِلَيْكُمْ ۝﴾ [الأنفال: ١١، ١٢]، وكقوله في أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُرِىٰ مُوسَىٰ قُرْبًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ ۝ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [القصر: ١٠].

وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿إِذْ قَامُوا ۝﴾ أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس.

وقصتهم المذكورة في جميع كتب التفسير، أعرضنا عنها لأنها إسرائيلية، وفي قيامهم المذكور هنا أقوال أخر كثيرة. والعامل في قوله: «إذ» هو ربطنا على قلوبهم حين قاموا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى قالوا: إن ربهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً، أي قولاً ذا شطط. أو هو من النعت بالمصدر للمبالغة؛ كأن قولهم هو نفس الشطط، والشطط: البعد عن الحق والصواب. وإليه ترجع أقوال المفسرين، كقول بعضهم: «شططاً»: جوراً، تعدياً، كذباً، خطأ، إلى غير ذلك من الأقوال.

وأصل مادة الشطط: مجاوزة الحد، ومنه أشط في السوم: إذا جاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا شُطُطٌ﴾... الآية [ص: ٢٢] الآية. أو البعد، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: تشط غداً دار جيراننا وللدار بعد غد أبعد ويكثر استعمال الشطط في الجور والتعدي، ومنه قول الأعشى:

أنهون ولن ينهى ذوي شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر، فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كثيرة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [١٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] أي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده - جل وعلا -.. وقوله - جل وعلا -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾؛ أي إذا دعونا من دونه إلهاً فقد قلنا شططاً.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾. «لولا» في هذه الآية الكريمة للتحضيض، وهو الطلب بحث وشدة. والمراد بهذا

الطلب التعجيز؛ لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى. والمراد بالسطان البين: الحجة الواضحة.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من تعجيزهم عن الإتيان بحجة على شركهم وكفرهم، وإبطال حجة المشركين على شركهم، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَفَتُنَوِّى بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُتْرَكُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، وقوله تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كُتُبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكُونَ﴾ [الزخرف: ١٨]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْتُمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَلَيْسَتْهُمْ كُتُبًا فَهُمْ عَلَى يَتْنٍ مِنَّهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، والآيات الدالة على أن المشركين لا مستند لهم في شركهم إلا تقليد آبائهم الضالين كثيرة جداً، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، و﴿قَوْمَنَا﴾ قيل: عطف بيان، والخبر جملة ﴿أَتَّخِذُوا﴾ وقيل: ﴿قَوْمَنَا﴾ خبر المبتدأ، وجملة ﴿أَتَّخِذُوا﴾ في محل حال، والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، كما قال عنهم أصحاب الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾... الآية.

وهذا المعنى ذكره هنا من أن افتراء الكذب على الله يجعل الشركاء له هو أعظم الظلم جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ افْتَرَسْتُمْ بُيُوتَكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْتُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾. [إذ] في قوله: ﴿وَإِذِ افْتَرَسْتُمْ بُيُوتَكُمْ﴾ للتعليل على التحقيق، كما قاله ابن هشام، وعليه فالمعنى ولأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدونه من دون الله، فاتخذوا الكهف مأوى ومكان اعتصام، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً، وهذا يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبودهم من أسباب لطف الله به ورحمته.

وهذا المعنى يدل عليه أيضاً قوله تعالى في نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَاَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٢٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٢٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم]، واعتزلهم إياهم هو مجانبتهم لهم، وفرارهم منهم بدينهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ اسم موصول في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب في قوله: ﴿أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾؛ أي واعتزلتم معبوديهم من دون الله، وقيل: ﴿مَا﴾ مصدرية، أي اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم غير الله تعالى والأول أظهر.

وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ قيل: هو استثناء متصل، بناء على أنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. وقيل: هو استثناء منقطع؛ بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه.

وقوله: ﴿مَرْفَعًا﴾ أي ما ترتفعون به، أي تنتفعون به. وقرأه نافع وابن عامر - بفتح الميم وكسر الفاء مع تفخيم الراء - وقرأه باقي السبعة - بكسر الميم وفتح الفاء وترقيق الراء -، وهما قراءتان ولغتان فيما يرتفق به، وفي عضو الإنسان المعروف. وأنكر الكسائي في «المرفق» بمعنى عضو الإنسان - فتح الميم وكسر الفاء - وقال: هو بكسر الميم وفتح الفاء، ولا يجوز غير ذلك.

وزعم ابن الأنباري أن «من» في قوله: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ بمعنى البدلية، أي يهيئ لكم بدلاً من «أمركم» الصعب مرفقاً، وعلى هذا الذي زعم غاية كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلاً منها وعوضاً عنها. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان

أي بدلاً من ماء زمزم، والله تعالى أعلم.

ومعنى ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾: يبسط لكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَقْنَا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] الآية: وقوله: ﴿وَيُهَيِّئْ﴾، أي ييسر ويقرب ويسهل.

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّجَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. اعلم أولاً أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول، وذكرنا من ذلك أمثلة متعددة.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية على قولين، وفي نفس الآية قرينة تدل على صحة أحدهما وعدم صحة الآخر.

أما القول الذي تدل القرينة في الآية على خلافه، فهو أن أصحاب الكهف كانوا

في زاوية من الكهف، وبينهم وبين الشمس حواجز طبيعية من نفس الكهف، تقيهم حر الشمس عند طلوعها وغروبها، على ما سنذكر تفصيله - إن شاء الله تعالى -.

وأما القول الذي تدل القرينة في هذه الآية على صحته، فهو أن أصحاب الكهف كانوا في فجوة من الكهف على سمت تصيبه الشمس وتقابله؛ إلا أن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجه خرق العادة؛ كرامة لهؤلاء القوم الصالحين، الذين فروا بدينهم طاعة لربهم - جل وعلا -.

والقرينة الدالة على ذلك هي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، إذ لو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً، وليس فيه غرابة حتى يقال فيه: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه أنه تشهد له القرينة المذكورة، فمعنى تزاور الشمس عن كهفهم ذات اليمين عند طلوعها، وقرضها إياهم ذات الشمال عند غروبها هو أن الله يقلص ضوءها عنهم، ويبعده إلى جهة اليمين عند الطلوع، وإلى جهة الشمال عند الغروب؛ والله - جل وعلا - قادر على كل شيء، يفعل ما يشاء، فإذا علمت هذا، فاعلم أن أصحاب القول الأول اختلفوا في كيفية وضع الكهف.

وحزم ابن كثير في تفسيره بأن الآية تدل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال، قال: لأنه تعالى أخبر بأن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين، أي تقلص الفياء يمنة. كما قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة: تزاور أي تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُ ذَاتُ الشَّمَالِ﴾؛ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه - أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل إليه منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفياء يميناً وشمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، والله الحمد، انتهى كلام ابن كثير.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: أصحاب هذا القول قالوا: إن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف، وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل إليه، انتهى كلام الرازي.

وقال أبو حيان في تفسير هذه الآية: وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاوية. وقال عبد الله بن مسلم: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وعلى هذا كان أعلى الكهف مستوراً من المطر.

قال ابن عطية: كان كهفهم مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب، اختار الله لهم مضجعاً متسعاً في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم، انتهى الغرض من كلام أبي حيان. والمقناة: المكان الذي لا تطلع عليه الشمس، إلى غير ذلك من أقوال العلماء.

والقول الأول أنسب للقرينة القرآنية التي ذكرنا.

وممن اعتمد القول الأول لأجل القرينة المذكورة الزجاج، ومال إليه بعض الميل الفخر الرازي والشوكاني في تفسيريهما، لتوجيههما قول الزجاج المذكور بقرينة الآية المذكورة.

وقال الشوكاني رحمته الله في تفسيره: ويؤيد القول الأول قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ مَّائِنِ اللَّهِ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب، بمعنى كونها آية. ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وحلوا فجوة الدار
انتهى كلام الشوكاني.

ومعلوم أن الفجوة هي المتسع. وهو معروف في كلام العرب، ومنه البيت المذكور، وقول الآخر:

ونحن ملأنا كل واد وفجوة رجالاً وخيلاً غير ميل ولا عزل
ومنه الحديث: «إذا وجد فجوة نص».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾؛ أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل على كهفهم، والمعنى أنك لو رأيتهم لرأيتهم كذلك، لا أن المخاطب رآهم بالفعل، كما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ الآية، والخطاب بمثل هذا مشهور في لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن العظيم، وأصل مادة التزاور: الميل، فمعنى تزاور: تميل، والتزور: الميل، ومنه شهادة الزور؛ لأنها ميل عن الحق. ومنه الزيارة؛ لأن الزائر يميل إلى المزور، ومن هذا المعنى قول عترة في معلقته:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمم
وقول عمر بن أبي ربيعة:

وخفض عني الصوت أقبلت مشية ال حباب وشخصي خشية الحي أزور

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَاتِ اللَّيْمِ﴾ أي جهة اليمين، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين. وقال أبو حيان في البحر: وذات اليمين: جهة يمين الكهف، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين، يعني يمين الداخل إلى الكهف، أو يمين الفتية، اه وهو منصوب على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقَرُّضُهُمْ﴾ من القرض بمعنى القطيعة والصرم؛ أي تقطعهم وتتجافى عنهم ولا تقرّبهم. وهذا المعنى معروف في كلام العرب؛ ومنه قول غيلان ذي الرمة:

نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس
إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيماهن الفوارس

فقوله: «يقرضن أقواز مشرف» أي يقطعنها ويبعدنها ناحية الشمال وعن أيماهن الفوارس، وهو موضع أو رمال الدهناء، والأقواز: جمع قوز - بالفتح - وهو العالي من الرمل كأنه جبل، ويروى أجواز مشرف - جمع جوز؛ من المجاز بمعنى الطريق. وهذا الذي ذكرنا هو الصواب في معنى قوله تعالى: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ خلافاً لمن زعم أن معنى تقرضهم تقطعهم من ضوئها شيئاً ثم يزول سريعاً كالقرض يسترد، ومراد قائل هذا القول أن الشمس تميل عنهم بالغداة، وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة، بقدر ما يطيب لهم هواء المكان ولا يتعفن.

قال أبو حيان في البحر: ولو كان من القرض الذي يعطى ثم يسترد لكان الفعل رباعياً، فتكون التاء في قوله: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ مضمومة، لكن دل فتح التاء من قوله: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ على أنه من القرض بمعنى القطع، أي تقطع لهم من ضوئها شيئاً، وقد علمت أن الصواب القول الأول. وقد قدمنا أن الفجوة: المتسع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات: قرأه ابن عامر الشامي «تزور» بإسكان الزاي وإسقاط الألف وتشديد الراء؛ على وزن تحمر، وهو على هذه القراءة من الازورار بمعنى الميل؛ كقول عنترة المتقدم:

فازور من وقع القنا... البيت

وقرأه الكوفيون وهم عاصم وحمزة والكسائي بالزاي المخففة بعدها ألف، وعلى هذه القراءة فأصله «تزازور» فحذفت منه إحدى التائين؛ على حد قوله في الخلاصة:

وما بتائين ابتدي قد يقتصر فيه على تاكْتَبِين العبر

وقرأه نافع المدني وابن كثير المكي وأبو عمرو البصري «تزازور» بتشديد الزاي بعدها ألف، وأصله «تزازور» أدغمت فيه التاء في الزاي، وعلى هاتين القراءتين: أعني قراءة حذف إحدى التائين، وقراءة إدغامها في الزاي فهو من التزازور بمعنى الميل أيضاً، وقد يأتي التفاعل بمعنى مجرد الفعل كما هنا، وكقولهم: سافر وعاقب وعافى.

وعلى قول من قال: إن في الكهف حواجز طبيعية تمنع من دخول الشمس بحسب وضع الكهف فلا إشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ راجعة إلى ما ذكر من حديثهم؛ أي ذلك المذكور إلى هدايتهم إلى التوحيد وإخراجهم من بين عبدة الأوثان، وإيوائهم إلى ذلك الكهف، وحمايتهم من عدوهم إلى آخر حديثهم من آيات الله، وأصل الآية

عند المحققين «آية» بثلاثة فتحات، أبدلت فيه الياء الأولى ألفاً؛ والغالب في مثل ذلك أنه إذا اجتمع موجبا إعلال، كان الإعلال في الأخير؛ لأن التغير عادة أكثر في الأواخر؛ كما في طوى ونوى، ونحو ذلك، وهنا أعل الأول على خلاف الأغلب، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق
والآية تطلق في اللغة العربية إطلاقين. وتطلق في القرآن العظيم إطلاقين أيضاً،
أما إطلاقها في اللغة: الأول منهما أنها تطلق بمعنى العلامة، وهو الإطلاق المشهور،
ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨]،
وقول عمر بن أبي ربيعة:

بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان أهذا المشهر
يعني أن قولها ذلك هو العلامة بينها وبين رسوله إليها المذكور في قوله قبله:
الكني إليها بالسلام فإنه يشهر إمامي بها وينكر
وقد جاء في شعر نابغة ذبيان وهو جاهلي تفسير الآية بالعلامة في قوله:
توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار بقوله بعده:
رماد كحل العين لآياً أبينه ونؤدي كجذم الحوض أثلم خاشع
وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بأيّتهم،
أي بجماعتهم، ومنه قول برج بن مسهر أو غيره:
خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا
فقوله: «بآياتنا» أي بجماعتنا.

وأما إطلاقها في القرآن فالأول منهما: إطلاقها على الآية الكونية القدريّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]؛ أي علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده - جل وعلا - والآية الكونية القدريّة في القرآن من الآية بمعنى العلامة لغة.
وأما إطلاقها الثاني في القرآن فهو إطلاقها على الآية الشرعية الدينية؛ كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية [الطلاق: ١١]. ونحوها من الآيات.

والآية الشرعية الدينية قيل: هي من الآية بمعنى العلامة لغة؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها، أو أن فيها علامات على ابتدائها وانتهائها.
وقيل: من الآية، بمعنى الجماعة، لاشتغال الآية الشرعية الدينية على طائفة وجماعة من كلمات القرآن.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الهدى والإضلال بيده وحده - جل وعلا - فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَذَابًا وَإِنَّا فَاعِلُونَ﴾... الآية [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيَكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدُودِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه - جل وعلا - عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته! وتعالى عن ذلك علواً كبيراً! وسيأتي بسط هذا المبحث - إن شاء الله تعالى.

وقد أوضحنا أيضاً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «الشمس» في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَالْمُهْتَدِ فَجُودًا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، وقوله: ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا﴾؛ أي لن تكون بينه وبينه سبب للموالاتة يرشده إلى الصواب والهدى، أي لن يكون ذلك لأن من أضله الله فلا هادي له، وقوله: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ قرأه بإثبات الياء في الوصل دون الوقف نافع وأبو عمرو. وبقيّة السبعة قرؤوه بحذف الياء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. الحسبان بمعنى الظن، والأيقاظ: جمع يقظ - بكسر القاف وضمها -، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

فلما رأته من قد تنبه منهم وأيقاظهم قالت أشرف كيف تأمر

والرقود: جمع راقد وهو النائم، أي تظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظاً والحال أنهم رقود، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى في نظيره: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾... الآية. وقال بعض العلماء: سبب ظن الرائي أنهم أيقاظ هو أنهم نيام وعيونهم مفتحة. وقيل: لكثرة تقلبهم. وهذا القول يشير له قوله تعالى بعده: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، وكلام المفسرين هنا في عدد تقلبهم من كثرة وقلة لا دليل عليه؛ ولذا أعرضنا عن ذكر الأقوال فيه.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ﴾ قرأه بفتح السين على القياس ابن عامر وعاصم وحمزة. وقرأه بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان مشهورتان، والفتح أقيس والكسر أفصح.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّهْم بِسْطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾. اختلفت عبارات المفسرين في المراد بـ«الوصيد» فقيل: هو فناء البيت، ويروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وقيل الوصيد: الباب، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الوصيد العتبة. وقيل: الصعيد. والذي يشهد له القرآن أن الوصيد هو الباب. ويقال له: «أصيد» أيضاً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ﴾ [الهمزة؛ أي مغلقة مطبقة؛ وذلك بإغلاق كل وصيد أو أصيد، وهو الباب من أبوابها، ونظير الآية من كلام العرب قول الشاعر:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

وقول ابن قيس الرقيات:

إن في القصر لو دخلنا غزالا مصفقا مؤصداً عليه الحجاب

فالمراد بالإيصاد في جميع ذلك: الإطباق والإغلاق؛ لأن العادة فيه أن يكون بالوصيد وهو الباب. ويقال فيه أصيد. وعلى اللغتين القراءتان في قوله: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مهموزاً من الأصيد... وغير مهموز من الوصيد.

ومن إطلاق العرب الوصيد على الباب قول عبيد بن وهب العبسي، وقيل زهير:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

أي لا يسد بابها علي، يعني ليست فيها أبواب حتى تسد علي، كقول الآخر:

ولا ترى الضب بها ينجحر

فإن قيل: كيف يكون الوصيد هو الباب في الآية، والكهف غار في جبل لا باب له؟

فالجواب: أن الباب يطلق على المدخل الذي يدخل للشئ منه، فلا مانع من تسمية المدخل إلى الكهف باباً. ومن قال: الوصيد الفناء لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن فناء الكهف هو بابه. وقد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على خلافه.

وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآية الكريمة: إن المراد بالكلب في هذه الآية رجل منهم، لا كلب حقيقي. واستدلوا لذلك ببعض القراءات الشاذة، كقراءة «وكالهم باسط ذراعيه بالوصيد» وقراءة «وكالهم باسط ذراعيه».

وقوله - جل وعلا -: ﴿بَسْطَ ذِرَاعَيْهِ﴾ قرينة تدل على بطلان ذلك القول؛ لأن بسط الذراعين معروف من صفات الكلب الحقيقي، ومنه حديث أنس المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب» وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، فهو قرينة على أنه كلب حقيقي، وقراءة «وكالهم» بالهمزة لا تنافي كونه كلباً؛ لأن الكلب يحفظ أهله ويحرسهم. والكلاءة: الحفظ.

فإن قيل: ما وجه عمل اسم الفاعل الذي هو «باسط» في مفعوله الذي هو «ذراعيه» والمقرر في النحو أن اسم الفاعل إذا لم يكن صلة «أل» لا يعمل إلا إذا كان واقعاً في الحال أو المستقبل؟

فالجواب: أن الآية هنا حكاية حال ماضية، ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].
واعلم أن ذكره - جل وعلا - في كتابه هذا الكلب، وكونه باسطاً ذراعيه بوصيد كهفهم في معرض التنويه بشأنهم يدل على أن صحبة الأخيار عظيمة الفائدة. قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، اهـ.
ويدل على هذا المعنى قوله ﷺ لمن قال إني أحب الله ورسوله: «أنت مع من أحببت» متفق عليه من حديث أنس.

ويفهم من ذلك أن صحبة الأشرار فيها ضرر عظيم، كما بينه الله تعالى في سورة «الصفات» في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) إلى قوله: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِأُزِينَ (٥١) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ (٥٧) [الصفات].

وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم، فيقول بعضهم: اسمه قطمير. ويقول بعضهم: اسمه حمران، إلى غير ذلك لم نطل به الكلام لعدم فائدته.

ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه.

وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائماً؛ كلون كلب أصحاب الكهف، واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه.

وقد قدمنا في سورة «الأنعام» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] - حكم أكل لحم الكلب وبيعه، وأخذ قيمته إن قتل، وما يجوز اقتناؤه منها وما لا يجوز. وأوضحنا الأدلة في ذلك وأقوال العلماء فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه بعث أصحاب الكهف من نومتهم الطويلة ليتساءلوا بينهم، أي ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم في الكهف في تلك النومة، وأن بعضهم قال: إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، وبعضهم رد علم ذلك إلى الله - جل وعلا -.

ولم يبين هنا قدر المدة التي تساءلوا عنها في نفس الأمر، ولكنه يبين في موضع آخر أنها ثلاثمائة سنة بحساب الشمسية، وثلاثمائة سنة وتسع سنين بحساب السنة القمرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (١٥) ﴿كَمَا تَقْدُمُ﴾. قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾. في قوله في هذه الآية: «أزكى» قولان للعلماء:

أحدهما: أن المراد بكونه «أزكى» أطيب لكونه حلالاً ليس مما فيه حرام ولا شبهة. وثانيهما: أن المراد بكونه أزكى أنه أكثر، كقولهم: زكا الزرع إذا كثر، وكقول الشاعر: قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب أي أكثر من ثلاثة.

والقول الأول هو الذي يدل عليه القرآن؛ لأن أكل الحلال والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين كما أمر المرسلين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...﴾ الآية [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَ﴾ (٤) ... الآية [الأعلى]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ (٦) ... الآية [الشمس]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقوله: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨٨) ﴿وَقَوْلُهُ: «أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ»، إلى غير ذلك من الآيات.

فالزكاة في هذه الآيات ونحوها: يراد بها الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي، فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في ماكلهم الحلية والطهارة، لا الكثرة، وقد قال بعض العلماء: إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يخفون إيمانهم، وكافرون، وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين، وأن ذلك هو مرادهم بالزكاة في قوله: ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ وقيل: كان فيها أهل كتاب ومجوس، والعلم عند الله تعالى.

والورق في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾: الفضة، وأخذ علماء المالكية وغيرهم من هذه الآية الكريمة مسائل من مسائل الفقه:

المسألة الأولى: جواز الوكالة وصحتها؛ لأن قولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ ... الآية، يدل على توكيلهم لهذا المبعوث لشراء الطعام. وقال بعض العلماء: لا تدل الآية على جواز التوكيل مطلقاً بل مع التقية والخوف؛ لأنهم لو خرجوا كلهم لشراء حاجتهم لعلم بهم أعداؤهم في ظنهم فهم معذورون، فالآية تدل على توكيل المعذور دون غيره. وإلى هذا ذهب أبو حنيفة، وهو قول سحنون من أصحاب مالك في التوكيل على الخصام.

قال ابن العربي: وكأن سحنون تلقه من أسد بن الفرات، فحكم به أيام قضائه. ولعله كان يفعل ذلك لأهل الظلم والجبروت إنصافاً منهم وإذلاً لأهلهم، وهو الحق، فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل، اهـ.

وقال القرطبي: كلام ابن العربي هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما أخرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سناً فوقها. فقال: «أعطوه» فقال: أوفيتي أوفى الله لك. وقال النبي ﷺ: «إن خيركم أحسنكم قضاء» لفظ البخاري.

فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن، فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السن التي عليه، وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضاً ولا مسافراً. وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما: إنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلاف قولهما، اهـ كلام القرطبي. ولا يخفى ما فيه؛ لأن أبا حنيفة وسحنوناً إنما خالفاً في الوكالة على المخاصمة بغير إذن الخصم فقط، ولم يخالفاً في الوكالة في دفع الحق.

وبهذه المناسبة سنذكر - إن شاء الله - الأدلة من الكتاب والسنة على صحة الوكالة وجوازها، وبعض المسائل المحتاج إليها من ذلك، تنبيهاً بها على غيرها.

اعلم أولاً: أن الكتاب والسنة والإجماع كلها دل على جواز الوكالة وصحتها في الجملة، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى هنا: ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمِلَيْنَ عَلَيْهِمَا﴾... الآية [التوبة: ٦٠]، فإن عملهم عليها توكيل لهم على أخذها.

واستدل لذلك بعض العلماء أيضاً بقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]؛ فإنه توكيل لهم من يوسف على إلقاء قميصه على وجه أبيه ليرتد بصيراً.

واستدل بعضهم لذلك أيضاً بقوله تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإنه توكيل على ما في خزائن الأرض.

وأما السنة فقد دلت أحاديث كثيرة على جواز الوكالة وصحتها؛ من ذلك حديث أبي هريرة المتقدم في كلام القرطبي، الدال على التوكيل في قضاء الدين، وهو حديث متفق عليه، وأخرج الجماعة إلا البخاري من حديث أبي رافع عن النبي ﷺ نحوه.

ومنها: حديث عروة بن أبي الجعد البارقى أن النبي ﷺ أعطاه ديناراً ليشتري به له شاة، فاشترى له به شاتين. فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة، فدعا بالبركة في بيعه؛ وكان لو اشترى التراب لربح فيه، رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني، وفيه التوكيل على الشراء.

ومنها: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أردت الخروج إلى خيبر، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني أردت الخروج إلى خيبر؟ فقال: «إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقاً، فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته» أخرجه أبو داود والدارقطني، وفيه التصريح منه ﷺ بأن له وكيلاً.

ومنها: قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «واغدُ يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» وهو صريح في التوكيل في إقامة الحدود.

ومنها: حديث علي رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنة وأن أتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها، وألا أعطي الجازر منها شيئاً، وقال: «نحن نعطيهِ من عندنا»، متفق عليه. وفيه التوكيل على القيام على البدن والتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها. وعدم إعطاء الجازر شيئاً منها.

ومنها: حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أعطاه غنماً يقسمها على أصحابه فبقي عتود، فذكره للنبي ﷺ فقال: «ضح أنت به». متفق عليه أيضاً. وفيه الوكالة في تقسيم المضحايا، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة. وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما طرفاً كافياً منها، ذكرنا بعضه هنا.

وقد قال ابن حجر في «فتح الباري» في كتاب الوكالة ما نصه: اشتمل كتاب الوكالة - يعني من صحيح البخاري - على ستة وعشرين حديثاً، المعلق منها ستة، والبقية موصولة. المكرر منها فيه وفيما مضى اثنا عشر حديثاً، والبقية خالصة وافقه مسلم على تخريجها سوى حديث عبد الرحمن بن عوف في قتل أمية بن خلف، وحديث كعب بن مالك في الشاة المذبوحة، وحديث وفد هوازن من طريقه، وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان، وحديث عقبة بن الحرث في قصة النعيان، وفيه من الآثار عن الصحابة وغيرهم ستة آثار، والله أعلم، انتهى من فتح الباري. وكل تلك الأحاديث دالة على جواز الوكالة وصحتها.

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على جواز الوكالة وصحتها في الجملة، وقال ابن قدامة في المغني: وأجمعت الأمة على جواز الوكالة في الجملة؛ ولأن الحاجة داعية إلى ذلك؛ فإنه لا يمكن كل أحد فعل ما يحتاج إليه فدعت الحاجة إليها، انتهى منه. وهذا مما لا نزاع فيه.

وهناك وسائل متعلقة بالوكالة يُرجع إليها من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وأما شركة المضاربة وهي القراض، فأصلها من الضرب في الأرض؛ لأن التاجر يسافر في طلب الربح، والسفر يكنى عنه بالضرب في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا بِضُرُونِ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا هَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

وهناك أقوال للعلماء في الشراكة وأنواعها راجع الأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْعِدُونَكَ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن أصحاب الكهف أنهم قالوا: إن قومهم الكفار الذين فروا منهم بدينهم إن يظهروا عليهم، أي يطلعوا عليهم ويعرفوا مكانهم، يرحمهم بالحجارة، وذلك من أشنع أنواع القتل. وقيل: يرحمهم بالشتم والقذف، أو يعيدوهم في ملتهم، أي يردوهم إلى ملة الكفر.

وهذا الذي ذكره هنا من فعل الكفار مع المسلمين من الأذى أو الرد إلى الكفر ذكر في مواضع أخر أنه هو فعل الكفار مع الرسل وأتباعهم؛ كقوله - جل وعلا -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [مائدة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

مسألة: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة؛ لأن قوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْعِدُونَكَ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر. ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذبائياً قتلوه.

ويشهد له أيضاً دليل الخطاب، أي مفهوم المخالفة في قوله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ». فإنه يفهم من قوله: «تجاوز لي عن أمتي» أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك، وهذا الحديث وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم فقد تلقاه العلماء قديماً وحديثاً بالقبول، وله شواهد ثابتة في القرآن العظيم والسنة الصحيحة. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «الكهف»، في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ...﴾ الآية؛ ولذلك اختصرناها هنا، أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ لم يبين الله هنا من هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم، هل هم من المسلمين، أو من الكفار؟ وذكر ابن جرير وغيره فيهم قولين: أحدهما: أنهم كفار، والثاني: أنهم مسلمون، وهي قولهم:

﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾؛ لأن اتخاذ المساجد من صفات المؤمنين لا من صفات الكفار. هكذا قال بعض أهل العلم. ولقائل أن يقول: اتخاذ المساجد على القبور من فعل الملعونين على لسان رسول الله ﷺ، لا من فعل المسلمين، وقد قدمنا ذلك مستوفى بأدله في سورة «الحجر» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠) [الحجر].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أخبر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فذكر ثلاثة أقوال، على أنه لا قائل برابع، وجاء في الآية الكريمة بقرينة تدل على أن القول الثالث هو الصحيح والأولان باطلان؛ لأنه لما ذكر القولين الأولين بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب بلا قصد، كقوله: ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٣] وقال القرطبي: الرجم القول بالظن، يقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

ثم حكى القول الثالث بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ﴾ فأقره، ولم يذكر بعده أن ذلك رجم بالغيب، فدل على أنه الصحيح. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي يعلمهم، كانوا سبعة. وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فيه تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها - جل وعلا - وإن علموا بها، كما أعلم نبيه ﷺ بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلْيَسِّرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) ثم أمره مع ذلك برد العلم إليه - جل وعلا - في قوله - جل وعلا -: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية. وما قدمنا من أنه لا قائل برابع قاله ابن كثير أخذاً من ظاهر الآية الكريمة، مع أن ابن إسحاق وابن جريج قالوا: كانوا ثمانية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.

نهى الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنه سيفعل شيئاً في المستقبل إلا معلقاً ذلك على مشيئة الله الذي لا يقع شيء في العالم كائناً ما كان إلا بمشيئته - جل وعلا -، فقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ أي لا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل إنني فاعل ذلك الشيء غداً. والمراد بالغد: ما يستقبل من الزمان؛ لا خصوص الغد. ومن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان؛ ومنه قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

يعني أنه لا يعلم ما يكون في المستقبل، إذ لا وجه لتخصيص الغد المعين بذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] إلا قائلًا في ذلك: إلا أن يشاء الله، أي معلقًا بمشيئة الله. أو لا تقولنه إلا بيان شاء الله، أي إلا بمشيئة الله. وهو في موضع الحال، يعني إلا متلبسًا بمشيئة الله قائلًا إن شاء الله، قاله الزمخشري وغيره.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن اليهود قالوا لقريش: سلوا محمداً ﷺ عن الروح، وعن رجل طواف في الأرض (يعنون ذا القرنين)، وعن فتية لهم قصة عجيبة في الزمان الماضي (يعنون أصحاب الكهف). فقال لهم رسول الله ﷺ: «سأخبركم غداً عما سألتهم عنه» ولم يقل - إن شاء الله - فلبث عنه الوحي مدة، قيل خمس عشرة ليلة، وقيل غير ذلك. فأحزنه تأخر الوحي عنه، ثم أنزل عليه الجواب عن الأسئلة الثلاثة، قال في الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال في الفتية: ﴿نَفْثٌ عَلَيْكَ نَبَأُهُم بِالْحَقِّ﴾... الآية إلى آخر قصتهم. وقال في الرجل الطواف: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [٨٦]... الآية إلى آخر قصته.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة وسبب نزولها، وأن الله عاتب نبيه فيها على عدم قوله - إن شاء الله - لما قال لهم سأخبركم غداً، فاعلم أنه دلت آية أخرى بضميمة بيان السنة لها على أن الله عاتب نبيه سليمان على عدم قوله - إن شاء الله - كما عاتب نبيه في هذه الآية على ذلك. بل فتنة سليمان بذلك كانت أشد؛ فقد أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام -: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له - وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله فلم يقل. فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحث وكان دركاً لحاجته». وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» اهـ.

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بين معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص: ٣٤]. وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: «إن شاء الله»، وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي ألقي على كرسيه بعد موته في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص: ٣٤]، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان، وطرده سليمان عن ملكه؛ حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاهها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه، إلى آخر القصة لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة؛ فهو من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة.

والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجملة، واختاره بعض المحققين. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. في هذه الآية الكريمة قولان معروفان لعلماء التفسير:

الأول: أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها، والمعنى أنك إن قلت سأفعل غداً كذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك فقل إن شاء الله؛ أي اذكر ربك معلقاً على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غداً إذا تذكرت بعد النسيان. وهذا القول هو الظاهر؛ لأنه يدل عليه قوله تعالى قبله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۗ﴾ وهو قول الجمهور. وممن قال به: ابن عباس والحسن البصري وأبو العالية وغيرهم.

القول الثاني: أن الآية لا تعلق لها بما قبلها، وأن المعنى: إذا وقع منك النسيان لشيء فاذكر الله؛ لأن النسيان من الشيطان؛ كما قال تعالى عن فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ﴾، وكقوله: ﴿أَسْعَوْذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يُنِيسُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذكر الله تعالى يطرد الشيطان؛ كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾... الآية [الناس: ١-٤] أي الوسواس عند الغفلة عن ذكر الله. الخناس؛ الذي يخنس ويتأخر صاغراً عند ذكر الله، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان. وقال بعضهم: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي صل الصلاة التي كنت ناسياً لها عند ذكرك لها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقول من قال: إذا نسيت؛ أي إذا غضبت، ظاهر السقوط.

مسألة: اشتهر على ألسنة العلماء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه استنبط من هذه الآية الكريمة أن الاستثناء يصح تأخيرها عن المستثنى منه زمناً طويلاً. قال بعضهم: إلى شهر. وقال بعضهم: إلى سنة. وقال بعضهم عنه: له الاستثناء أبداً. ووجه أخذه ذلك من الآية أن الله تعالى نهى نبيه أن يقول: إنه سيفعل شيئاً في المستقبل إلا من الاستثناء بأن شاء الله. ثم قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي إن نسيت تستثني بأن شاء الله فاستثنى إذا تذكرت من غير تقييد باتصال ولا قرب.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن الاستثناء لا يصح إلا مقترناً بالمستثنى منه، وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين. ولو كان الاستثناء المتأخر يصح لما علم في الدنيا أنه تقرر عقد ولا يمين ولا غير ذلك، لاحتمال طرو الاستثناء بعد ذلك، وهذا في غاية البطالان كما ترى. ويحكي عن المنصور أنه بلغه أن أبا حنيفة رضي الله عنه

يخالف مذهب ابن عباس المذكور؛ فاستحضره لينكر عليه ذلك، فقال الإمام أبو حنيفة للمنصور: هذا يرجع عليك! إنك تأخذ البيعة بالآيمان، افترض أن يخرجوا من عندك فيستنوا فيخرجوا عليك؟! فاستحسن كلامه ورضي عنه.

فائدة: قال ابن العربي المالكي: سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب: ﴿وَحُذِّ بِدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾ [ص: ٤٤] بل يقول: استثنى بأن شاء الله، انتهى منه بواسطة نقل صاحب نشر البنود في شرح قوله في (مراقي السعود):

بشركة وبالتوطى قالا بعض وأوجب فيه الاتصالا
وفي البواقي دون ما اضطرار وأبطلن بالصمت للتذكار

فإن قيل: فما الجواب الصحيح عن ابن عباس عليه السلام فيما نسب إليه من القول بصحة الاستثناء المتأخر.

فالجواب: أن مراد ابن عباس عليه السلام أن الله عاتب نبيه على قوله إنه سيفعل كذا غداً ولم يقل إن شاء الله، وبين له أن التعليق بمشيئة الله هو الذي ينبغي أن يفعل، لأنه تعالى لا يقع شيء إلا بمشيئته، فإذا نسي التعليق بالمشيئة ثم تذكر ولو بعد طول فإنه يقول إن شاء الله؛ ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة، ويكون قد فوض الأمر إلى من لا يقع إلا بمشيئة.

فنتيجة هذا الاستثناء هي الخروج من عهدة تركه الموجب للعتاب السابق؛ لا أنه يحل اليمين؛ لأن تداركها قد فات بالانفصال. هذا هو مراد ابن عباس كما جزم به الطبري وغيره. وهذا لا محذور فيه ولا إشكال.

وأجاب بعض أهل العلم بجواب آخر وهو - أنه نوى الاستثناء بقلبه ونسي النطق به بلسانه؛ فأظهر بعد ذلك الاستثناء الذي نواه وقت اليمين، هكذا قاله بعضهم. والأول هو الظاهر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَغِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو المختص بعلم الغيب في السموات والأرض، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل] وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَئِنْ رَجَعِ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾ [الآية: هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ

وَالْأَنْزِلَ. وقيل: الضمير في قوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾ راجع لمعاصري النبي ﷺ من الكفار؛ ذكره القرطبي. وعلى كل حال فقد دلت الآيات المتقدمة أن ولاية الجميع لخالقهم - جل وعلا - وأن منها ولاية ثواب وتوفيق وإعانة، وولاية ملك وقهر ونفوذ مشيئة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بالياء المثناة التحتية، وضم الكاف على الخبر، ولا نافية، والمعنى: ولا يشرك الله - جل وعلا - أحداً في حكمه، بل الحكم له وحده - جل وعلا - لا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله تعالى، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه. وقرأه ابن عامر من السبعة: «ولا تشرك» بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي، أي لا تشرك يا نبي الله. أو لا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله - جل وعلا - بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم. وحكمه - جل وعلا - المذكور في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ شامل لكل ما يقضيه - جل وعلا - ويدخل في ذلك التشريع دخولاً أولاً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين جاء مبيناً في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ دَعَى اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْخِطَابُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَهُمْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُونَ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُشْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفْرٍ إِنَّهُ لَكَرٌّ عَادُو مُبِينٌ﴾ [١٥] وَأَنْ تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [١٦]، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ

إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿٢٦﴾ [النساء] أي ما يعبدون إلا شيطانا، أي وذلك باتباع تشريعه؛ ولذا سُمي الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُفَتْ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله، وخرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً، ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله - جل وعلا - في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إزادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أَوَّلُ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على السنة رسله - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

تنبيه: اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري، وشرعي، أما الإداري الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة، فمن بعدهم، وقد عمل عمر رضي الله عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النبي ﷺ؛ ككتبه أسماء الجند في ديوان لأجل الضبط، ومعرفة من غاب ومن حضر كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ، مع أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك رضي الله عنه. وكاشترائه - أعني عمر رضي الله عنه - دار صفوان بن أمية وجعله إياها سجناً في مكة المكرمة، مع أنه رضي الله عنه لم يتخذ سجناً هو ولا أبو بكر، فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع - لا بأس به؛ كت تنظيم شؤون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع. فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس

بإنصاف، وأنهما يلزم استواءهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها ﷻ عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْإِنْسَانُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولُ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَصْلَحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] وقد قدمنا جملة وافية من هذا النوع في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتلو هذا القرآن الذي أوحاه إليه ربه، والأمر في قوله: ﴿وَأَتْلُ﴾ شامل للتلاوة بمعنى القراءة. والتلو: بمعنى الاتباع. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى نبيه ﷺ بتلاوة القرآن العظيم واتباعه جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وكقوله تعالى في آخر سورة «النمل»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩١ - ٩٢]، ﴿وَرَقِيَ الْقُرْآنَ تَرِيلاً﴾ [المزمل: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر بتلاوته، وكقوله تعالى في الأمر باتباعه ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر باتباع هذا القرآن العظيم.

وقد بين في مواضع أخر بعض النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن واتباعه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ أَوَّلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، والعبارة في هذه الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله تعالى: ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِي﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا مبدل لكلماته؛ أي لأن أخبارها صدق، وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً، ولا أن يبدل عدلها جوراً. وهذا الذي ذكره هنا جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِي﴾ وهو السميع العليم ﴿١٥﴾ [الأنعام]. فقوله: «صدقاً» يعني في الأخبار. وقوله: «عدلاً» أي في الأحكام. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام].

وقد بين تعالى في مواضع آخر أنه هو يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء منها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْفَعُ﴾ الآية [النحل: ١٠١]. وقوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِهَىٰ بَقَرَتَنَا فِي هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُمْ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسًا﴾ [يونس: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾. أصل الملتحد: مكان الاتحاد وهو الافتعال، من اللحد بمعنى الميل، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه ميل في الحفر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فمعنى اللحد والاتحاد في ذلك: الميل عن الحق. والملحد المائل عن دين الحق. وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إن زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فمصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه كلها بصيغة اسم المفعول كما هنا. فالملتحد بصيغة اسم المفعول، والمراد به مكان الاتحاد، أي المكان الذي يميل فيه إلى ملجأ أو منجى ينجيه مما يريد الله أن يفعله به.

وهذا الذي ذكره هنا من أن نبيه ﷺ لا يجد من دونه ملتحد؛ أي مكاناً يميل له ويلجأ إن لم يبلغ رسالة ربه ويطعه جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٧﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الحج: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا آفَاقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآلِئِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحدٍ عَنْهُ حَاظِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وكونه ليس له ملتحد، أي مكان يلجأ إليه تكرر نظيره في القرآن بعبارات مختلفة؛ كالمناص، والمحيص، والملجأ، والموئل، والمفر، والوزر، كقوله: ﴿فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] وقوله: ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا حِصَصًا﴾ [النساء: ١٢١]، وقوله: ﴿فَقَبُوا فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ مَخِصٍ﴾ [لق: ٣٦]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾، وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ [القيامة] فكل ذلك راجع في المعنى إلى شيء واحد، وهو انتفاء مكان يلجؤون إليه ويعتصمون به.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي يحبسها مع المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه - جل وعلا - .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين، كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي ﷺ أن يطردهم عنه، ويحبسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين، وقد قدمنا في سورة «الأنعام» أن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بالألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام] إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِحَاسِبَتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ [الأنعام] وقد أشار إلى ذلك المعنى في قوله: ﴿عَسَىٰ وَتُوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْكُبُ ﴿٣﴾ أَوْ يَكْفُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنَّىٰ لَهُ نَصَىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُبُ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنَّىٰ عَنْهُ ثَلَاثُ ﴿١٠﴾ كَلَّا ﴿١١﴾﴾ [عبس]. وقد قدمنا أن ما طلبه الكفار من نبينا ﷺ من طرده فقراء المؤمنين وضعفائهم تكبراً عليهم وازدراء بهم، طلبه أيضاً قوم نوح من نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأنه امتنع من طردهم أيضاً، كقوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا اتَّبِعْنَا لَأَنَّا نَمُوتَ لَكَ وَآتَّبَعَكَ الْأَوْدَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء]، وقوله عنهم أيضاً: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال عن نوح في امتناعه من طردهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤِمِّنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء]، وكقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُنَا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَزْكَرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَيَقُولُونَ مَنْ يَضْرِبُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ فيه الدليل على أن مادة الصبر تتعدى بنفسها للمفعول، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي ذؤيب أو عترة:

فصبرت عارفة بذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والغداة: أول النهار. والعشي آخره. وقال بعض العلماء: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] أي يصلون صلاة الصبح والعصر. والتحقيق أن الآية تشمل أعم من مطلق الصلاة، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. نهى الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة - أن تعدو عيناه عن ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، طموحاً إلى الأغنياء وما لديهم من زينة الحياة الدنيا. ومعنى ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ﴾؛ أي لا تتجاوزهم عيناك وتنسب عن رثائهم، محتقراً لهم طامحاً إلى أهل الغنى والجاه والشرف بدلاً منهم. وعدا يعدو: تتعدى بنفسها إلى المفعول وتلزم. والجملة في قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في محل حال والرباط الضمير، على حد قوله في الخلاصة:

وذات بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت
وصاحب الحال المذكورة هو الضمير المضاف إليه في قوله: «عيناك» وإنما ساغ
ذلك؛ لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه، على حد قوله في الخلاصة:

ولا تجز حالاً من المضاف له إلا إذا اقتضى المضاف عمله
أو كان جزء ماله أضيفاً أو مثل جزئه فلا تحيفاً

وما نهى الله عنه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة من طموح العين إلى زينة الحياة
الدنيا، مع الاتصاف بما يرضيه - جل وعلا - من الثبات على الحق، كمجالسة فقراء
المؤمنين - أشار له أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلٰٓى مَا يَقُوْلُوْنَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ اٰنَايَ الْاَيْلِ فَسَبِّحْ وَاَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضٰى ۝١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَكَ اِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهٖ اَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۝١٣١﴾ الآية [طه: ١٣٠ - ١٣١]، وقوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثٰٓبِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيْمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ اِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهٖ
اَزْوَاجًا مِنْهُمْ ۝٨٨﴾ الآية [الحجر: ٨٧ - ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

نهى الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن طاعة من أغفل الله قلبه
عن ذكره واتبع هواه، وكان أمره فرطاً. وقد كرر في القرآن نهى نبيه ﷺ عن اتباع مثل
هذا الغافل عن ذكر الله المتبع هواه كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَإِمًّا أَوْ
كَفُوًّا ۝١٤﴾ [الإنسان]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ ۝١٥﴾ الآية
[الأحزاب: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوْا اَلَوْ تَتَكٰٓفُرُوْنَ ۝١٦﴾ ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٧﴾
هَٰذَا مَثَلٌ ۝١٨﴾ مِّنَ النَّاسِ مُتَعِدٍّ ۝١٩﴾ عَتَلَ بَعْدَ ذٰلِكَ زَيْبٌ ﴿٢٠﴾ [القلم] إلى غير
ذلك من الآيات.

وقد أمره في موضع آخر بالإعراض عن المتولين عن ذكر الله، والذين لا يريدون
غير الحياة الدنيا، وبين له أن ذلك هو مبلغهم من العلم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْرِصْ
عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيْدُ اِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾ الآية [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ يدل على أن ما يعرض للعبد من
غفلة ومعصية، إنما هو بمشيئة الله تعالى؛ إذ لا يقع شيء البتة كائناً ما كان إلا بمشيئته
الكونية القدرية - جل وعلا - ﴿وَمَا تَشَآءُوْنَ اِلَّا اَنْ يَّشَآءَ اللّٰهُ ۝٣٠﴾ الآية [الإنسان: ٣٠]،
﴿وَلَوْ شَآءَ اللّٰهُ مَا اَشْرَكُوْا ۝٣١﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ۝٣٢﴾ [السجدة: ١٣]،
﴿وَلَوْ شَآءَ اللّٰهُ لَجَمَعْنَهُمْ عَلَى الْهَدٰٓى ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿خَتَمَ اللّٰهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ ۝٣٤﴾ الآية
[البقرة: ٧]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ اَكِنَّةً اَنْ يَّفْقَهُوْهُ وَفِيْ اٰذَانِهِمْ وَقْرًا ۝٣٥﴾ [الأنعام: ٢٥] إلى غير ذلك
من الآيات الدالة على أن كل شيء من خير وشر، لا يقع إلا بمشيئة خالق السموات
والأرض. فما يزعمه المعتزلة، ويحاول الزمخشري في تفسيره دائماً تأويل آيات القرآن

على نحو ما يطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته بأفعاله دون مشيئة الله، لا يخفى بطلانه، كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفاً، وأمثالها في القرآن كثيرة.

ومعنى اتباعه هواه أنه يتبع ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر، كالكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿وَكَاثَ أَمْرُ فُرْطَا﴾ قيل: هو من التفريط الذي هو التقصير، وتقديم العجز بترك الإيمان؛ وعلى هذا فمعنى ﴿وَكَاثَ أَمْرُ فُرْطَا﴾؛ أي كانت أعماله سفهاً وضياًعاً وتفريطاً. وقيل: من الإفراط الذي هو مجاوزة الحد، كقول الكفار المحقرين لفقراء المؤمنين: نحن أشرف مضر وساداتها إن اتبعناك اتبعك جميع الناس. وهذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: ﴿فُرْطَا﴾ أي قدماً في الشر... من قولهم: فرط منه أمر، أي سبق. وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة عندي بحسب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن معنى قوله: «فرطاً»؛ أي متقدماً للحق والصواب، نابذاً له وراء ظهره؛ من قولهم: فرس فرط، أي متقدم للخيل. ومنه قول لبيد في معلقته:

ولقد حميت الخيل تحمل شكتي فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

وإلى ما ذكرنا في معنى الآية ترجع أقوال المفسرين كلها، كقول قتادة ومجاهد: «فرطاً» أي ضياًعاً. وكقول مقاتل بن حيان: «فرطاً» أي سرفاً. كقول الفراء: «فرطاً» أي متروكاً. وكقول الأخفش: «فرطاً» أي مجاوزاً للحد، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس: الحق من ربكم. وفي إعرابه وجهان:

أحدهما: أن «الحق» مبتدأ، والجار والمجرور خبره، أي الحق الذي جئتكم به في هذا القرآن العظيم، المتضمن لدين الإسلام كائن مبدؤه من ربكم جل وعلا. فليس من وحي الشيطان، ولا من افتراء الكهنة، ولا من أساطير الأولين، ولا غير ذلك. بل هو من خالقكم جل وعلا، الذي تلزمكم طاعته وتوحيده، ولا يأتي من لدنه إلا الحق شامل للصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فلا حق إلا منه - جل وعلا -.

وثانيهما: أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي جئتكم به الحق.

وهذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة ذكره أيضاً في مواضع آخر كقوله في سورة البقرة: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [البقرة]، وقوله في آل عمران: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي - التخيير بين الكفر والإيمان - ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية،

والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وهذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف؛ إذ لو كان التخويف على بابه لما توعد فاعل أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم، وهذا واضح كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أصله من الإعتاد، والتاء فيه أصلية وليست مبدلة من دال على الأصح؛ ومنه العتاد بمعنى العدة للشيء. ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أَرَصَدْنَا وأَعَدَدْنَا. والمراد بالظالمين هنا: الكفار بدليل قوله قبله: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن كقوله: ﴿إِنَّكَ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] ونحو ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن الظلم في لغة العرب: وضع الشيء في غير محله، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في مخلوق. وقد جاء في القرآن إطلاق الظلم على النقص في قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ لَهُ شَيْئًا﴾ وأصل معنى مادة الظلم هو ما ذكرنا من وضع الشيء في غير موضعه، ولأجل ذلك قيل الذي يضرب اللبن قبل أن يروب: ظالم لوضعه ضرب لبنه في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وقائلة ظلمت لكم سقائي وهل يخفى على العكد الظليم
فقوله: «ظلمت لكم سقائي» أي ضربته لكم قبل أن يروب. ومنه قول الآخر في سقاء له ظلمه بنحو ذلك:

وصاحب صدق لم تربني شكاته ظلمت وفي ظلمي له عامداً أجر
وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم من كل جانب. وقوله: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أصل السرادق واحد السرداقات التي تمتد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف فهو سرادق. والكرسف: القطن. ومنه قول رؤبة أو الكذاب الحرمازي:

يا حكم ابن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود
وبيت مسردق: أي مجعول له سرادق، ومنه قول سلامة بن جندل يذكر أبريوز وقتله للنعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق
هذا هو أصل معنى السرادق في اللغة. ويطلق أيضاً في اللغة على الحجرة التي حول الفسطاط.

وأما المراد بالسرادق في الآية الكريمة ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد، وهو إحداق النار بهم من كل جانب، فمن العلماء من يقول «سرادقها»: أي سورها، قاله

ابن الأعرابي وغيره. ومنهم من يقول «سرادقها»: سور من نار، وهو مروى عن ابن عباس. ومنهم من يقول «سرادقها»: عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالخطيرة، قاله الكلبي، ومنهم من يقول: هو دخان يحيط بهم. وهو المذكور في «المرسلات» في قوله تعالى: ﴿أُظِلُّوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَمْعٍ ۖ لَا ظِلُّلٌ وَلَا يَبْقَى مِنَ الْلَهَبِ ۖ﴾ [المرسلات]، و«الواقعة» في قوله: ﴿وَيُظِلُّ مَن يَحْتُمِي ۖ لَا بَارِدٌ وَلَا زَكِيٌّ ۖ﴾ [الواقعة].

ومنهم من يقول: هو البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية عن النبي ﷺ أنه قال: «البحر هو جهنم ثم تلا: ﴿فَارَأَاهَا بِهِنَّ سَرَادِقُهَا﴾ ثم قال: والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا تصيبني منها قطرة». ذكره الماوردي. وروى ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «السرادق النار أربعة جدر كثف، كل جدار مسيرة أربعين سنة» وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب. انتهى من القرطبي. وهذا الحديث رواه أيضاً الإمام أحمد وابن جرير وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن أبي الدنيا؛ قاله صاحب الدر المنثور وتبعه الشوكاني. وحديث يعلى بن أمية رواه أيضاً ابن جرير في تفسيره. قال الشوكاني: ورواه أحمد والبخاري وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، ورواه صاحب الدر المنثور عن البخاري في تاريخه، وأحمد وابن أبي الدنيا وابن جرير والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي. وعلى كل حال، فمعنى الآية الكريمة أن النار محيطة بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ تَوَقُّهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُمْ مِنْ تَوَقُّهِمْ لُغْلُلٌ مِنْ أُنْثَارٍ وَمِنْ تَحِيمِهِمْ لُغْلُلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ يَسْتَشِيرُوا﴾ يعني إن يطلبوا الغوث مما هم فيه من الكرب يغاثوا؛ يؤثوا بغوث هو ماء كالمهل. والمهل في اللغة: يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض، كذائب الحديد والنحاس، والرصاص ونحو ذلك. ويطلق أيضاً على دردي الزيت وهو عكره، والمراد بالمهل في الآية ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل: دردي الزيت. وقيل: هو نوع من القطران. وقيل: السم. فإن قيل: أي إغاثة في ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب، وكيف قال الله تعالى: ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾؟

فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن. ونظيره من كلام العرب قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصيلم

فمعنى قوله: «أعتبوا بالصيلم»: أي أرضوا بالسيف. يعني: ليس لهم منا إرضاء

إلا بالسيف. وقول عمرو بن معديكرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
يعني: لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع. وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل،
علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم البتة. والياء في قوله: ﴿يَسْتَفِيثُوا﴾ والألف في قوله:
﴿يُغَاثُوا﴾ كلتاهما مبدلة من واو، لأن مادة الاستغاثة من الأجوف الواوي العين، ولكن
العين أعلت للساكن الصحيح قبلها، على حد قوله في الخلاصة:

لساكن صح انقل التحريك من ذي لين آت عين فعل كابن
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾ أي يحرقها حتى تسقط فروة
الوجه، أعادنا الله والمسلمين منه! وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية الكريمة أنه قال:
﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾، هو كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه. قال ابن
حجر رحمه الله في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف): أخرجه الترمذي من طريق
رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد،
واستغربه وقال: لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد، وتعقب قوله بأن أحمد وأبا
يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق
وهب عن عمرو بن الحارث.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَشْرَبُ الشَّرَابُ﴾ المخصوص بالذم فيه محذوف،
تقديره: يشرب الشراب ذلك الماء الذي يغاثون به. والضمير الفاعل في قوله: «ساءت»
عائد إلى النار. والمرتفق: مكان الارتفاق. وأصله أن يتكئ الإنسان معتمداً على
مرفقه. وللعلماء في المراد بالمرتفق في الآية أقوال متقاربة في المعنى. قيل: مرتفقاً؛
أي منزلاً، وهو مروي عن ابن عباس. وقيل: مقراً، وهو مروي عن عطاء. وقيل:
مجلساً، وهو مروي عن العتبي. وقال مجاهد: مرتفقاً أي مجتمعاً، فهو عنده مكان
الارتفاق بمعنى مرافقة بعضهم لبعض في النار.

وحاصل معنى الأقوال أن النار بش المستقر هي، وبش المقام هي. ويدل لهذا
قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان]، وكون أصل الارتفاق هو
الاتكاء على المرفق، معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

نام الخلي وبت الليل مرتفقاً كأن عيني فيها الصاب مذبح

ويروى «وبت الليل مشتجراً» وعليه فلا شاهد في البيت. ومنه قول أعشى باهلة:

قد بت مرتفقاً للنجم أرقبه حيران ذا حذر ليو ينفع الحذر

وقول الراجز:

قالت له وارتفعت ألا فتى يسوق بالقوم غزالات الضحا

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من صفات هذا الشراب

الذي يسقى به أهل النار، جاء نحوه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿شَقَىٰ مِنْ عَيْنٍ أَانَبُ﴾ [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿يَطْوُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آانُ﴾ [الرحمن] والحميم الآني الماء المتناهي في الحرارة.

وقوله تعالى: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [١٦] يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ... الآية [إبراهيم: ١٦ - ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [٥٤] فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ [٥٥] [الواقعة]؛ وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا [٢٥]... الآية [النبأ]؛ وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [٥٧] وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [٥٨] [ص] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة «يونس».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [٢٠]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من عمل صالحاً وأحسن في عمله أنه - جل وعلا - لا يضيع أجره، أي جزاء عمله، بل يجازى بعمله الحسن الجزاء الأوفى. وبين هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٧] [آل عمران] وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [٦٠] [الرحمن] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً.

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان عند العلماء:

الأول: أن يقال: أين خبر «إن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإذا قيل: خبرها جملة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الآية توجه السؤال.

الثاني: وهو أن يقال: أين رابط الجملة الخبرية بالمتبداً الذي هو اسم «إن»؟

اعلم أن خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قيل: هو جملة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وعليه فقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ جملة اعتراضية. وعلى هذا فالرابط موجود ولا إشكال فيه. وقيل: «إن» الثانية واسمها وخبرها، كل ذلك خبر «إن» الأولى. ونظير الآية من القرآن في الإخبار عن «إن» بـ«إن» وخبرها واسمها قوله تعالى في سورة «الحج»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّهَابِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾... الآية [الحج: ١٧]، وقول الشاعر:

إن الخليفة إن الله ألبسه
سريال ملك به ترجى الخواتيم

على أظهر الوجهين في خبر «إن» الأولى في البيت. وعلى هذا فالجواب عن السؤال الثاني من وجهين:

الأول: أن الضمير الرابط محذوف، تقديره: لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، كقولهم: السمن منوان بدرهم، أي: منوان منه بدرهم، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾... الآية [البقرة: ٢٣٤]. أي: يتربصن بعدهم.

الوجه الثاني: أن ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإذا كان الذين آمنوا، ومن أحسن عملاً ينظمها معنى واحد قام ذلك مقام الربط بالضمير. وهذا هو مذهب الأخفش، وهو الصواب؛ لأن الربط حاصل بالاتحاد في المعنى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).

بيّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أجر من أحسن عملاً، فذكر أنه جنات عدن تجري من تحتهم فيها الأنهار، ويحلون فيها أساور الذهب، ويلبسون فيها الثياب الخضراء من السندس والإستبرق، في حال كونهم متكئين فيها على الأرائك وهي السرر في الحجال. والحجال: جمع حجلة؛ وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة، ثم أثنى على ثوابهم بقوله: ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وهذا الذي بيّنه هنا من صفات جزاء المحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جاء مبيناً في مواضع كثيرة جداً من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى في سورة «الإنسان»: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) [الإنسان] إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعِيرٌ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وكقوله في سورة «الواقعة»: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ﴾ (١١) في جَنَّتِ النَّعِيمِ (١٢) إلى قوله: ﴿لَا ضَرْبَ أَلْمِيقِينَ﴾ (٢٨) [الواقعة] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

وقد بيّن في سورة «السجدة» أن ما أخفاه الله لهم من قرة أعين لا يعلمه إلا هو - جل وعلا - وذلك في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أصله من عدن بالمكان: إذا أقام به. وقد تقدم في سورة «النحل» معنى السندس والإستبرق بما أغنى عن إعادته هنا، والأساور: جمع سوار. وقال بعضهم: جمع أسورة. والثواب: الجزاء مطلقاً على التحقيق؛ ومنه قول الشاعر:

لكل أخي مدح ثواب علمته وليس لمدح الباهلي ثواب

وقول من قال: إن الثواب في اللغة يختص بجزاء الخير بالخير غير صواب، بل يطلق الثواب أيضاً على جزاء الشر بالشر ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤْثِرُونَ بِالنَّكَرَاتِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣١) [المطففين]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمَشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مُتَوَبِّعُونَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾... الآية [المائدة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرَقَّتَا﴾ الضمير في قوله: «حسن» راجع إلى ﴿جَنَّتْ عَلَيْنِ﴾ [التوبة: ٧٢]. والمرتفق قد قدمنا أقوال العلماء فيه. وقوله هنا في الجنة: ﴿وَحَسُنَتْ مُرَقَّتَا﴾ يبين معناه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْرُونَ أَلْفَرَقَةً بِمَا كَسَبُوا وَيُفْتَقُونَ فِيهَا حِجَّةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) خَلِيدٍ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن هذا الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي ضربه مثلاً مع الرجل المؤمن في هذه الآيات لرؤساء الكفار، الذين افتخروا بالمال والجاه على ضعفاء المسلمين الفقراء كما تقدم أنه دخل جنته في حال كونه ظالماً لنفسه وقال: إنه ما يظن أن تهلك جنته ولا تفنى، لما رأى من حسناتها ونضارتها، وقال: إنه لا يظن الساعة قائمة، وإنه إن قدر أنه يبعث ويرد إلى ربه ليجد عنده خيراً من الجنة التي أعطاه في الدنيا.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد، كما أنعم عليهم في الدنيا، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله في «فصلت»: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله في «مريم»: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧١) [مريم]، وقوله في «سبا»: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٧٥) [سبا]. وقوله في هذه السورة: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

وبين - جل وعلا - كذبهم واغترارهم فيما ادعوه من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة كما أنعم عليهم بها في الدنيا في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُطْمِرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ سَائِغٍ لَّهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١) [المؤمنون]، وقوله: ﴿سَنَسْتَلِفُحُمُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُونَ﴾ (٧١) وَأَمَلِي لَهُمْ لَئِنْ كِيدِي مَيَّنُّ ﴿٧٢﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْمِرُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْمِرُ لَهُمْ لِيَرُدَّادُوا إِلَيْنَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٧٨) [آل عمران]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ تَقَرُّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ۖ... الآية [سبا: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٧٩) [المسد] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وانتصابه على التمييز، وقوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ قرأه ابن عامر ونافع وابن كثير «منهما» بصيغة تشنية الضمير. وقرأه الباقون «منها» بصيغة إفراد هاء الغائبة. فالضمير على قراءة تشنيته راجع إلى الجنتين في قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، وقوله: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ﴾، وعلى قراءة الإفراد راجع إلى الجنة في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾.

فإن قيل: ما وجه إفراد الجنة مع أنهما جنتان؟ فالجواب: أنه قال ما ذكره الله عنه

حين دخل إحداهما، إذ لا يمكن دخوله فيهما معاً في وقت واحد. وما أجاب به الزمخشري عن هذا السؤال ظاهر السقوط، كما نبه عليه أبو حيان في البحر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝﴾ [٣٨]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك الرجل المؤمن المضروب مثلاً للمؤمنين، الذين تكبر عليهم أولو المال والجاه من الكفار، قال لصاحبه الآخر الكافر المضروب مثلاً لذوي المال والجاه من الكفار، منكراً عليه كفه: أكفرت بالذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سواك رجلاً؛ لأن خلقه إياه من تراب، ثم من نطفة، ثم تسويته إياه رجلاً، كل ذلك يقتضي إيمانه بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، وجعله بشراً سوياً، ويجعله يستبعد منه كل البعد الكفر بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود. وهذا المعنى المبين هنا بيته في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْبِكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [يس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝﴾ [٧٥] أنتم وآبائكم الأفلكون ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [٧٧] الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝﴾ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝﴾ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [٨٠] وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝﴾ [الشمراء: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝﴾ [٢١] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ۝﴾ [الزخرف: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على أن ضابط من يستحق العبادة وحده دون غيره، أن يكون هو الذي يخلق المخلوقات، ويظهرها من العدم إلى الوجود بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ معنى خلقه إياه من تراب؛ أي خلق آدم الذي هو أصله من التراب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾... الآية [آل عمران: ٥٩]، ونظير الآية التي نحن بصدها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ﴾ أي بعد أن خلق آدم من التراب، وخلق حواء من ضلعه، وجعلها زوجاً له، كانت طريق إيجاد الإنسان بالتناسل. فبعد طور التراب طور النطفة، ثم طور العلقة إلى آخر أطواره المذكورة في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ۝﴾ [نوح: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] وقد أوضحها تعالى إيضاحاً تاماً في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾ [٧] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝﴾ [١٢] ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمُلَقَّةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَاهُ الْوَسْطَرَةَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٢].

ومما يبين خلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة. قوله تعالى في «السجدة»: ﴿ذَلِكَ

عَلَّمَ الْقَلْبَ وَالشَّهَادَةَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي أَحْصَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [السجدة].

وقوله في هذه الآية: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ كقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ ﴿١﴾ [النحل]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ ﴿٧﴾ [يس] أي بعد أن كان نطفة صار إنساناً خصيماً شديداً الخصومة في توحيد ربه.

وقوله: ﴿سَوَّاهُ﴾ أي خلقتك مستوي الأجزاء، معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء في أكمل صورة، وأحسن تقويم؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [النين]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاهُ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار]، وقوله: ﴿رَجُلًا﴾ أي ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، وربما قالت العرب للمرأة: رجلة، ومنه قول الشاعر:

كل جار ظل مغتبطاً غير جيران بني جبله
مزقوا ثياب فتاتهم لم يراعوا حرمة الرجله

وانتصاب ﴿رَجُلًا﴾ على الحال. وقيل: مفعول ثان لسوى على تضمينه معنى جعلك أو صيّرَكَ رجلاً. وقيل: هو تمييز. وليس بظاهر عندي، والظاهر أن الإنكار المدلول عليه بهمزة الإنكار في قوله: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ مضمن معنى الاستبعاد؛ لأنه يستبعد جداً كفر المخلوق بخالقه، الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، ويستبعد إنكار البعث ممن علم أن الله خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم سواه رجلاً كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]. ونظير الآية في الدلالة على الاستبعاد لوجود موجه قول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
لأن من عاين غمرات الموت يستبعد منه اقتحامها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٢٨﴾ يبين فيه أن هذا الرجل المؤمن قال لصاحبه الكافر: أنت كافر! لكن أنا لست بكافر! بل مخلص عبادتي لربي الذي خلقتني؛ أي لأنه هو الذي يستحق مني أن أعبد؛ لأن المخلوق محتاج مثلي إلى خالق يخلقه، تلزمه عبادة خالقه كما تلزمني. ونظير قول هذا المؤمن ما قدمنا عن الرجل المؤمن المذكور في "يس" في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] أي أبدعني وخلقني ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾. وما قدمنا عن إبراهيم في قوله: ﴿فَالْتَمَسَ عُدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ... الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ... الآية [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يدل على أن الشك في البعث كفر بالله تعالى. وقد صرح بذلك في أول سورة «الرعد» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَبَّحْتَ فَجَبَّحْتُ قَوْلَهُمْ أَذًا كَأَنْ تُزَيَّا لَنَا لَوْ خَلَقِي جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَكِنَّا﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» في نون «أنا» بعد حذف الهمزة. وقال بعضهم: نقلت حركة الهمزة إلى نون «لكن» فسقطت الهمزة بنقل حركتها، ثم أدغمت النون في النون؛ ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكنا إياك لم أقل
أي: لكن أنا إياك لم أقل. وقال بعضهم: لا يتعين في البيت ما ذكر؛ لجواز أن يكون المقصود لكنني، فحذف اسم «لكن» كقول الآخر:

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ولكن زنجي عظيم المشافر
أي: لكنك زنجي، في رواية من روى زنجي بالرفع. وأشد الكسائي لنحو هذا الحذف من «لكن أنا» قول الآخر:

لهنك من عبسية لو سمية على هنوات كاذب من يقولها
قال: أراد بقوله: «لهنك» لله إنك؛ فحذف إحدى اللامين من «الله» وحذف الهمزة من «إنك». نقله القرطبي عن أبي عبيد.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأه جماهير القراء في الوصل «لكن» بغير ألف بعد النون المشددة. وقرأه ابن عامر من السبعة «لكننا» بالألف في الوصل، ويروى ذلك عن عاصم، ورواه المسيلي عن نافع، ورويس عن يعقوب. واتفق الجميع على إثبات الألف في الوقف. ومد نون «أنا» لغة تميم إن كان بعدها همزة. وقال أبو حيان في البحر: إن إثبات ألف «أنا» مطلقاً في الوصل لغة بني تميم، وغيرها يشبونها على الاضطرار، قال: فجاءت قراءة «لكننا» بإثبات الألف في الوصل على لغة تميم. ومن شواهد مد «أنا» قبل غير الهمزة قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذریت السناما
وقول الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافي بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ بِمُحَاوِرَتِهِ﴾ جملة حالية، والمحاورة: المراجعة في الكلام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَحَاوِرَهُمْ﴾ [المجادلة: ١]، وقول عترة في معلقته:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الجواب مكلمي وكلام المفسرين في الرجلين المذكورين هنا في قصتهما كيان أسمائهما، ومن أي الناس هما، أعرضنا عنه لما ذكرنا سابقاً من عدم الفائدة فيه، وعدم الدليل المقنع عليه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا ۝٤١﴾.

معنى قوله: «غورا» أي غائراً؛ فهو من الوصف بالمصدر، كما قال في الخلاصة: ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير

والغائر: ضد النابع. وقوله: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾؛ لأن الله إذا أعدم ماءه بعد وجوده، لا تجد من يقدر على أن يأتيك به غيره جل وعلا. وأشار إلى نحو هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝٤٢﴾ [الملك] ولا شك أن الجواب الصحيح: لا يقدر على أن يأتينا به إلا الله وحده؛ كما قال هنا: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ۝٤٣﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا ۝٤٤﴾، اعلم أن في هذه الآية الكريمة قراءات سبعة، وأقوالاً لعلماء التفسير، بعضها يشهد له قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد تكون فيها مذاهب للعلماء، يشهد لكل واحد منها قرآن؛ فنذكر الجميع وأدلته في القرآن، فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً﴾ قرأه السبعة ما عدا حمزة والكسائي بالتاء المثناة الفوقية. وقرأه حمزة والكسائي: «ولم يكن له فتنة» بالياء المثناة التحتية. وقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ قرأه السبعة ما عدا حمزة والكسائي أيضاً «الْوَلِيَّةُ» بفتح الواو. وقرأه حمزة والكسائي بكسر الواو. وقوله: ﴿الْحَقُّ﴾ قرأه السبعة ما عدا أبا عمرو والكسائي بالخفض نعتاً «الله». وقرأه أبو عمرو والكسائي بالرفع نعتاً للولاية. فعلى قراءة من قرأ «الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ» بفتح الواو، فإن معناها: الموالاة والصلة، وعلى هذه القراءة ففي معنى الآية وجهان:

الأول: أن معنى «هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ» أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله؛ لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله. وعلى هذا المعنى فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٤٥﴾ [غافر]، وقوله في فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس] ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده، فيوالي فيه المسلمين ولاية رحمة، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾... الآية [البقرة]:

[٢٥٧]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد]. وله على الكافرين ولاية الملك والقهر، كما في قوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]. وعلى قراءة حمزة والكسائي فالولاية بالكسر بمعنى الملك والسلطان، والآية على هذه القراءة كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ ... الآية [الفرقان: ٢٦]، وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]. وعلى قراءة «الحق» بالجر نعتاً لله، فالآية كقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ ... الآية [يونس: ٣٠]. وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْكُلُّ رِزْقُهُ الْحَقُّ﴾ ... الآية [يونس: ٣٢]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُقِيمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [١٥] [النور] إلى غير ذلك من الآيات، وعلى قراءة «الحق» بالرفع نعتاً للولاية، على أن الولاية بمعنى الملك، فهو كقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ ... الآية [الفرقان: ٢٦].

وما ذكره - جل وعلا - عن هذا الكافر من أنه لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله - ذكر نحوه عن غيره من الكفار، كقوله في قارون: ﴿خَسَفْنَا بِهِ يَدَاهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْأُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص]، وقوله: ﴿قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [طارق]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿هَٰذَاكَ﴾ قال بعض العلماء: هو متعلق بما بعده، والوقف تام على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾. وقال بعضهم: هو متعلق بما قبله، فعلى القول الأول فالظرف الذي هو ﴿هَٰذَاكَ﴾ عامله ما بعده، أي الولاية كائنة لله هنالك. وعلى الثاني فالعامل في الظرف اسم الفاعل الذي هو ﴿مُنْصِراً﴾ أي لم يكن انتصاره واقعاً هنالك. وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي جزاء كما تقدم. وقوله: «عقباً» أي عاقبة ومآلاً. وقرأه السبعة ما عدا عاصماً وحمزة «عقباً» بضمينين. وقراءة عاصم ﴿عُقْبًا﴾ بضم العين وسكون القاف والمعنى واحد. وقوله: ﴿ثَوَابًا﴾ وقوله: ﴿عُقْبًا﴾ كلاهما منصوب على التمييز بعد صيغة التفضيل التي هي «خير» كما قال في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصب بأفعلاً مفضلاً كانت أعلى منزلاً

ولفظه: خير وشر كلتهما تأتي صيغة تفضيل حذفت منها الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، قال ابن مالك في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

تنبيه: قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فِتْنَةٌ﴾ محذوف منه حرف بلا خلاف، إلا أن العلماء اختلفوا في الحرف المحذوف؛ هل هو ياء أو واو، وهل هو العين أو اللام؟ قال بعضهم: المحذوف العين، وأصله ياء. وأصل المادة ف ي أ، من فاء يفيء: إذا رجع؛ لأن فئة الرجل طائفته التي يرجع إليها في أموره، وعلى هذا فالتاء عوض عن العين المحذوفة، ووزنه بالميزان الصرفي «فلة». وقال بعضهم: المحذوف اللام. وأصله

واو؛ من فأوت رأسه: إذا شققته نصفين، وعليه فالفئة الفرقة من الناس، وعلى هذا فوزنه بالميزان الصرفي «فعة» والتاء عوض عن اللام. وكلا القولين نصره بعض أهل العلم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخير أملاً. والمراد من الآية الكريمة: تنبيه الناس للعمل الصالح؛ لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند الله من الأعمال الباقيات الصالحات، وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنَاطِرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حُسْنِ الْمَتَابِ﴾ (١٦) قُلْ أُوْنِبَكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَنْزَجُ مَطَهَّرَةً... الآية [آل عمران: ١٤ - ١٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧) [المنافقون]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨) [التغابن]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا: ٣٧]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (١٩) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٢٠) [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإنسان لا ينبغي له الاشتغال بزينة الحياة الدنيا عما ينفعه في آخرته.

وأقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد، وهو الأعمال التي ترضي الله، سواء قلنا: إنها الصلوات الخمس، كما هو مروي عن جماعة من السلف؛ منهم ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبو ميسرة، وعمر بن شراحيل. أو أنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعلى هذا القول جمهور العلماء، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة عن أبي سعيد الخدري، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، والنعمان بن بشير، وعائشة رضي الله عنهن.

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق أن ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، والكلمات الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى؛ لأنها باقية لصاحبها غير زائلة، ولا فانية كزينة الحياة الدنيا؛ لأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى، وقوله: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ تقدم معناه. وقوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا.

وأصل الأمل: طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في «مريم»: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الَّذِي صَلَّيْتَ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَرَدًّا﴾ [مريم: ٤٦] والمراد: المرجع إلى الله يوم القيامة. وقال بعض العلماء: «مَرَدًّا» مصدر ميمي، أي وخير رداً للثواب على فاعلها، فليست كأعمال الكفار التي لا ترد ثواباً على صاحبها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧]. قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب باذكر مقدراً. أو بفعل القول المحذوف قبل قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًى﴾ [الأنعام: ٩٤] أي قلنا لهم يوم نسير الجبال: لقد جئتمونا فرادى. وقول من زعم أن العامل فيه «خير» يعني والباقيات الصالحات خير يوم نسير الجبال، بعيد جداً كما ترى.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن يوم القيامة يختل فيه نظام هذا العالم الدنيوي، فتسير جباله، وتبقى أرضه بارزة لا حجر فيها ولا شجر، ولا بناء ولا وادي ولا علم؛ ذكره في مواضع أخر كثيرة، فذكر أنه يوم القيامة يحمل الأرض والجبال من أماكنهما، ويدكهما دكة واحدة، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [٢٣] وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً [٧] فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ [١٥] [الحاقة].

وما ذكره من تسير الجبال في هذه الآية الكريمة، ذكره أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [٩] وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا [١٠] [الطور]، وقوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [٢٠] [النبا]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [٢٣] [التكوير]، وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ... الآية [النمل: ٨٨].

ثم ذكر في مواضع أخر: أنه - جل وعلا - يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالعهن المنفوش، وكالرمل المتهائل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ [٨] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [٩] [المعارج]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [٤] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [٥] [القارعة] والعهن: الصوف. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ [١١] [المزمل]، وقوله تعالى: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [٥] [الواقعة] أي فتتحت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، على أشهر التفسيرات.

ثم ذكر - جل وعلا - أنه يجعلها هباءً وسراباً قال: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [٥] فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا [٦] [الواقعة: ٥ - ٦]، وقال: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [٢٠] [النبا: ٢٠].

وبين في موضع آخر أن السراب عبارة عن لا شيء، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كِرَابٍ بُيْعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] إلى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو «تُسِيرُ الجبال»

بالتاء المثناة الفوقية وفتح الياء المشددة من قوله: «تَسِير» مبنياً للمفعول. ﴿وَالْجِبَالُ﴾ بالرفع نائب فاعل (تُسِير) والفاعل المحذوف ضمير يعود إلى الله جل وعلا. وقرأه باقي السبعة ﴿تُسِيرُ﴾ بالنون وكسر الياء المشددة مبنياً للفاعل، و«الجبال» منصوب مفعول به، والنون في قوله: ﴿تُسِيرُ﴾ للتعظيم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ البروز: الظهور؛ أي ترى الأرض ظاهرة منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام، والشجر والعمارات التي كانت عليها. وهذا المعنى الذي ذكره هنا، بينه أيضاً في غير هذا الوضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه]. وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. وقول من قال: إن معنى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي بارزاً ما كان في بطنها من الأموات والكنوز بعيد جداً كما ترى. وبروز ما في بطنها من الأموات والكنوز دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ۗ﴾ [الانشقاق]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [العاديات]، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۗ﴾ [الانفطار].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي جمعناهم للحساب والجزاء، وهذا الجمع المعبر عنه بالحشر هنا جاء مذكوراً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَمَجْمُوعُونَ ۖ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۖ﴾ [الواقعة]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَلِكَ يَوْمُ الْتَقَابِ ۖ﴾ [التغابن: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لُهُ النَّاسُ ۖ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۖ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ۖ﴾ [الأنعام: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في موضع آخر أن هذا الحشر المذكور شامل للعقلاء وغيرهم من أجناس المخلوقات، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ۚ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۖ﴾ [الأنعام].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَمْ نَعَاذِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي لم نترك. والمغادرة: الترك؛ ومنه الغدر؛ لأنه ترك الوفاء والأمانة. وسمي الغدير من الماء غديراً؛ لأن السيل ذهب وتركه. ومن المغادرة بمعنى الترك قول عترة في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
وقوله أيضاً:

غادرته متعفراً أوصاله والقوم بين مجرح ومجدل
وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أنه حشرهم ولم يترك منهم أحداً جاء مبنياً في

مواضع أخر كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾... الآية [الأنعام: ٢٢]، ونحوها من الآيات؛ لأن حشرهم جميعاً هو معنى أنه لم يغادر منهم أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الخلائق يوم القيامة يعرضون على ربهم صفّاً، أي في حال كونهم مصطفين. قال بعض العلماء: صفّاً بعد صف. وقال بعضهم: صفّاً واحداً. وقال بعض العلماء: «صفّاً» أي جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنتَوُا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] على القول فيه بذلك. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع: يا عبادي، أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين. يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أحضروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسؤولون. محاسبون. يا ملائكتي، أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب». قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية. ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ومنه نقلناه. والحمد لله، انتهى كلام القرطبي.

والحديث المذكور يدل على أن «صفّاً» في هذه الآية يراد به صفوفاً كقوله في الملائكة: ﴿وَمَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. ونظير الآية قوله في الملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨].

فإذا علمت أن الله - جل وعلا - ذكر في هذه الآية الكريمة حالاً من أحوال عرض الخلائق عليه يوم القيامة، فاعلم أنه بين في مواضع أخر أشياء أخر من أحوال عرضهم عليه كقوله: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. وبين في مواضع أخر ما يلاقيه الكفار، وما يقال لهم عند ذلك العرض على ربهم كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ اتَّخَذَ أُوتَاهُ يَفْرُسُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الذين يصدّون عن سبيل الله ويغيثونها عوفاً وهم بالآخره هم كفرون] [هود: ٨٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿صَفًّا﴾ أصله مصدر، والمصدر المنكر قد يكون حالاً على حد قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. هذا الكلام مقول قول محذوف، وحذف القول مطرد في اللغة العربية، كثير جداً في القرآن العظيم، والمعنى: يقال لهم يوم القيامة لقد جئتمونا، أي والله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، أي حفاة عراة غرلاً، أي غير مختونين، كل واحد منكم فرد لا مال معه ولا ولد، ولا خدم ولا حشم.

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُنَا مَا خَوْلَتْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] تقدم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ «ما» مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن صلتها نعت لمصدر محذوف على حذف مضاف. وإيضاح تقريره: ولقد جئتمونا كما خلقناكم، أي مجيئاً مثل مجيء خلقكم، أي حفاة عراة غرلاً كما جاء في الحديث، وخالين من المال والولد، وهذا الإعراب هو مقتضى كلام أبي حيان في البحر. ويظهر لي أنه يجوز إعرابه أيضاً حالاً، أي جئتمونا في حال كونكم مشابهين لكم في حالتكم الأولى؛ لأن التشبيه يؤول بمعنى الوصف، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ويكثر الجمود في شعر وفي مبيدي تأول بلا تكلف
كبعه مداً بكذا يداً بيد وكر زيد أسداً أي كأسد

فقوله: «وكر زيد أسداً أي كأسد» مثال لمبيدي التأول؛ لأنه في تأويل كر في حال كونه مشابهاً للأسد كما ذكرنا. واعلم أن حذف القول وإثبات مقوله مطرد في اللغة العربية، وكثير في القرآن العظيم كما ذكرناه آنفاً. لكن عكسه وهو إثبات القول وحذف مقوله قليل جداً، ومنه قول الشاعر:

لنحن الألى قلتم فأنى ملئتم برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعباً

لأن المراد لنحن الألى قلتم نقاتلهم، فحذف جملة نقاتلهم التي هي مقول القول. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ عبر فيه بالماضي وأراد المستقبل؛ لأن تحقيق وقوع ذلك ينزله منزلة الواقع بالفعل. والتعبير بصيغة الماضي عن المستقبل لما ذكرنا كثير جداً في القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿وَحَشَرْتَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَيْكِ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾. ومنه قوله: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ونحو ذلك كثير في القرآن لما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار زعموا أن الله لن يجعل لهم موعداً، والموعود يشمل زمان الوعد ومكانه. والمعنى أنهم زعموا أن الله لم يجعل وقتاً ولا مكاناً لإنجاز ما وعدهم على السنة رسله من البعث والجزاء والحساب. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من إنكارهم للبعث - جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾... الآية [التغابن: ٧]. وقوله عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ونحو ذلك من الآيات.

وقد بين الله تعالى كذبهم في إنكارهم للبعث في آيات كثيرة؛ كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيَلًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾... الآية [التغابن: ٧]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. وقد قدمنا في سورة «البقرة» وسورة «النحل» البراهين التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ زَعَمْتَ﴾ إضراب انتقالي من خبر إلى خبر آخر، لا إيطالي كما هو واضح، وأن في قوله: ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ﴾. مخففة من الثقيلة، وجملة الفعل الذي بعدها خبرها، والاسم ضمير الشأن المحذوف على حد قوله في الخلاصة: وإن تخفف أن... البيت.

والفعل المذكور متصرف وليس بدعاء، ففصل بينه وبينها بالنفي؛ على حد قوله في الخلاصة: وإن يكن فعلاً ولم يكن دعا... البيت.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكتاب يوضع يوم القيامة. والمراد بالكتاب: جنس الكتاب؛ فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا. وأن المجرمين يشفقون مما فيه؛ أي يخافون منه، وأنهم يقولون: ﴿يُوَلِّتُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يترك صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً من المعاصي التي عملنا ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي ضبطها وحصرها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله: ﴿وَكُلُّ إِسْنٍ أَرْزَمَتْهُ طَلْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَخُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٤) ﴿قُرْآنًا كِتَابًا كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٨]. وبين أن بعضهم يؤتى كتابه يمينته. وبعضهم يؤتاه بشماله. وبعضهم يؤتاه وراء ظهره. قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَقَوْلُ يَلْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةً﴾ (٢٥) ... الآية [الحاقة]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيًّا﴾ (٨) ﴿وَيُنْفَلِ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿سَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) ﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) [الانشقاق] وقد قدمنا هذا في سورة «بني إسرائيل». وما ذكره من وضع الكتاب هنا ذكره في «الزمر» في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾... الآية [الزمر: ٦٩].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ تقدم معنى مثله في الكلام على قوله: ﴿وَتَرَى النَّفْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾... الآية. والمجرمون: جمع المجرم، وهو اسم فاعل الإجماع، والإجماع: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال. ومعنى كونهم ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أنهم خائفون مما في ذلك الكتاب من

كشف أعمالهم السيئة، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وما يترتب على ذلك من العذاب السرمدي. وقولهم: ﴿يَوَلِّتُنَا﴾ الويلة: الهلكة، وقد نادوا هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات، فقالوا: يا ويلتنا! أي يا هلكتنا احضري، فهذا أوان حضورك! وقال أبو حيان في البحر: المراد من بحضرتهم، كأنهم قالوا: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا. وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل كقوله: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، ﴿بَحْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ﴿يَوَلِّتُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وقوله: يا عجباً لهذه الخليفة، فيا عجباً من رحلها المتحمل، إنما يراد به تنبيه من يعقل بالتعجب مما حل بالمنادي، انتهى كلام أبي حيان. وحاصل ما ذكره: أن أداة النداء في قوله: ﴿يَوَلِّتُنَا﴾ [الأنبياء: ١٤] ينادى بها محذوف، وأن ما بعدها مفعول فعل محذوف، والتقدير كما ذكره: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا. ومعلوم أن حذف المنادى مع إثبات أداة النداء، ودلالة القرينة على المنادى المحذوف مسموع في كلام العرب؛ ومنه قول عترة في معلقته:

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

يعني: يا قوم انظروا شاة قنص. وقول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلا ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

يعني: يا هذه اسلمي. وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ أي: أي شيء ثبت لهذا الكتاب ﴿لَا يُقَادَرُ﴾ أي لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي من المعاصي. وقول من قال: الصغيرة القبلية، والكبيرة الزنى، ونحو ذلك من الأقوال في الآية، إنما هو على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر. وللعلماء اختلاف كثير في تعريف الكبيرة معروف في الأصول. وقد صرح تعالى بأن المنهيات منها كبائر. ويفهم من ذلك أن منها صغائر. وبين أن اجتناب الكبائر يكفر الله به الصغائر؛ وذلك في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾... الآية [النساء: ٣١]. ويروى عن الفضيل بن عياض في هذه الآية أنه قال: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر. وجملة ﴿لَا يُقَادَرُ﴾ حال من ﴿الْكِتَابِ﴾.

تنبيه: هذه الآية الكريمة يفهم منها أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنهم وجدوا في كتاب أعمالهم صغائر ذنوبهم محصاة عليهم، فلو كانوا غير مخاطبين بها لما سجلت عليهم في كتاب أعمالهم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم في يوم القيامة يجدون أعمالهم التي عملوها في الدنيا حاضرة محصاة عليهم. وأوضح هذا أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْضَرًّا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله تعالى:

﴿هَٰذَا بَلَاءُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾... الآية [يونس: ٣٠]، وقوله: ﴿يَبْتَئِنَّا الْإِنْسَانَ يَوْمَهُ يَمَّا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [١٢]، [القيامة]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [٩]، [الطارق] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا يظلم أحداً، فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرًّا وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. قدمنا في سورة «البقرة» أن قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] محتمل لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمراً معلقاً على وجوده. ومحتمل لأنه أمرهم بذلك تنجيئاً بعد وجود آدم، وأنه - جل وعلا - بين في سورة «الحجر» وسورة «ص» أن أصل الأمر بالسجود متقدم على خلق آدم معلق عليه. قال في «الحجر»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [٨]، ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٩]، [الحجر] وقال في «ص»: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [٧]، ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٧]، [ص] ولا ينافي هذا أنه بعد وجود آدم جدد لهم الأمر بالسجود له تنجيئاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدُوا﴾ محتمل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم، ولكنه بين في مواضع آخر أنهم سجدوا كلهم، كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر] ونحوها من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن. وقد تقرر في الأصول في «مسلك النص» وفي «مسلك الإيماء والتنبيه» أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي لأجل سرقة. وسها فسجد، أي لأجل سهوه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي لعله سرقتهما، وكذلك قوله هنا: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي لعله كينونته من الجن؛ لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة؛ لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهبت جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان

يتعبد معهم، فأطلق عليه اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها. والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطاناً، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبد به معهم - مشهور عند أهل العلم.

وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران:

أحدهما: عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَسُولِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [٧] [الأنبياء]. وثانيهما: أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص قرآني في محل النزاع. واحتج من قال: إنه ملك في الأصل بما تكرر في الآيات القرآنية من قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٣٥] [إِلَّا إِبْلِيسَ] [الحجر: ٣٠ - ٣١] قالوا: فأخراجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم، وقال بعضهم: والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص، ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع. قالوا: ولا حجة لمن خالفنا في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لأن الجن قبيلة من الملائكة، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم كما روي عن ابن عباس. والعرب تعرف في لغتها إطلاق الجن على الملائكة؛ ومنه قول الأعشى في سليمان بن داود:

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

قالوا: ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبْأً﴾ [الصفات: ١٥٨] عند من يقول: بأن المراد بذلك قولهم: الملائكة بنات الله؛ تفريق عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً! ومن جزم بأنه ليس من الملائكة في الأصل لظاهر هذه الآية الكريمة: الحسن البصري، ونصره الزمخشري في تفسيره. وقال القرطبي في تفسير سورة «البقرة»: إن كونه من الملائكة هو قول الجمهور: ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المسيب، وقتادة وغيرهم. وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري، وهو ظاهر قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، اه، وما يذكره المفسرون عن جماعة من السلف كابن عباس وغيره من أنه كان من أشرف الملائكة، ومن خزان الجنة، وأنه كان يدبر أمر السماء الدنيا، وأنه كان اسمه عزازيل - كله من الإسرائيليات التي لا معول عليها.

وأظهر الحجج في المسألة حجة من قال: إنه غير ملك؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾... الآية، وهو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحي، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة أمر ربه. والفسق في اللغة: الخروج؛ ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائر

وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه فلا حاجة لقول من قال: إن «عن» سببية، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] أي بسببه، وأن المعنى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، أي بسبب أمره حيث لم يمثل، ولا غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

الهمزة في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ للإنكار والتوبيخ، ولا شك أن فيها معنى الاستبعاد كما تقدم نظيره مراراً، أي أبعد ما ظهر منه من الفسق والعصيان، وشدة العداوة لكم ولأبويكم آدم وحواء - تتخذونه وذريته أولياء من دون خالقكم جل وعلا! بئس للظالمين بدلاً من الله إبليس وذريته! وقال: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم اعتاضوا الباطل من الحق، وجعلوا مكان ولايتهم لله ولايتهم لإبليس وذريته. وهذا من أشنع الظلم الذي هو في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه؛ كما تقدم مراراً. والمخصوص بالذم في الآية محذوف دل عليه المقام، وتقديره: بئس البديل من الله إبليس وذريته. وفاعل «بئس» ضمير محذوف يفسره التمييز الذي هو ﴿بَدَلًا﴾ على حد قوله له في الخلاصة:

ويرفعان مضمراً يفسره مميز كنعم قوماً معشره

والبديل: العوض من الشيء، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من عداوة الشيطان لبني آدم جاء مبيناً في آيات أخر كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وكذلك الأبوان، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَقَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا تَخْرِجْتَكَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه].

وقد بين في غير هذا الموضع أن الذين اتخذوا الشياطين أولياء بدلاً من ولاية الله يحسبون أنهم في ذلك على حق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَعْسُومٌ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وبين في مواضع أخر أن الكفار أولياء الشيطان؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾... الآية [النساء: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى. وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك! ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره. لا دليل عليها من نص صريح، والعلماء مختلفون فيها. ومن أراد الوقوف على أقوالهم في المسألة فليرجع إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾، التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة أن الله يقول: ما أشهدت إبليس وجنوده؛ أي ما أحضرتهم خلق السموات والأرض، فأستعين بهم على خلقها ولا خلق أنفسهم، أي ولا أشهدتهم خلق أنفسهم، أي ما أشهدت بعضهم خلق بعضهم فأستعين به على خلقه، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير! فكيف تصرفون لهم حقي وتتخذونهم أولياء من دوني وأنا خالق كل شيء!.

وهذا المعنى الذي أشارت له الآية من أن الخالق هو المعبود وحده جاء مبيناً في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٧﴾ [النحل] وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ لَخَلْقِهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ... الآية [فاطر: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ الآية [الأحقاف: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمناه مراراً، وقال بعض العلماء: ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي ما أشهدتهم خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما أردت وكيف شئت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فيه الإظهار في محل الإضمار؛ لأن الأصل الظاهر وما كنت متخذهم عضداً كقوله: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ والنكته البلاغية في الإظهار في محل الإضمار هي ذمه تعالى لهم بلفظ الإضلال. وقوله: ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً.

وفي هذه الآية الكريمة التنبيه على أن الضالين المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. والمعنى المذكور أشير له في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقَمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ كُفْرًا تَظَاهَرُوا لِلْمُتَّبِعِينَ ۝٧﴾ [القصص] والظهير: المعين. والمضلون: الذين يضلون أتباعهم عن طريق الحق. وقد قدمنا معنى الضلال وإطلاقاته في القرآن بشواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ۝٥٢﴾. أي واذكر يوم يقول الله - جل وعلا - للمشركين الذين كانوا يشركون معه الآلهة والأنناد من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله توبيخاً لهم وتقريعاً: نادوا شركائهم الذين زعمتم أنهم شركاء معي، فالمفعولان محذوفان؛ أي زعمتموهم شركاء لي كذباً وافتراء؛ أي ادعوههم واستغيثوا بهم لينصروكم ويمنعوكم من عذابي، فدعوههم فلم يستجيبوا لهم، أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من عدم استجابتهم لهم إذا دعوههم يوم القيامة جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله تعالى في سورة «القصص»: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ

تَزْعُمُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٥٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٥٤﴾ [الفصص]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكَكُمْ وَلَا يَنْتَعِبُ لَكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿٥٦﴾﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الاحقاف]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٥٩﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام]، والآيات في تبرئهم منهم يوم القيامة، وعدم استجابتهم لهم كثيرة جداً. وخطبة الشيطان المذكورة في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا فُتِنَى الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] من قبيل ذلك المعنى المذكور في الآيات المذكورة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ اختلف العلماء فيه من ثلاث جهات:

الأولى: في المراد بالظرف الذي هو «بين». والثانية: في مرجع الضمير.

والثالثة: في المراد بالموبق، وسنذكر هنا أقوالهم، وما يظهر لنا رجحانه منها - إن شاء الله تعالى -.

أما الموبق فقيل: المهلك. وقيل: واد في جهنم. وقيل: الموعد. قال صاحب الدر المنثور: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. قال أيضاً: واد في جهنم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الجريز وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن أنس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم من قيح ودم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمر في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: هو واد عميق في النار، فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى والضلالة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمرو البكالي قال: الموبق الذي ذكر الله: واد في النار، بعيد القعر، يفرق الله به يوم القيامة بين أهل الإسلام وبين من سواهم من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿مَوْبِقًا﴾ قال: هو نهر يسيل ناراً على حافتيه حيات أمثال البغال الدهم، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالافتحام في النار منها، وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال: إن في النار أربعة أودية يعذب الله بها أهلها: غليظ، وموبق، وأثام، وغى. انتهى كلام صاحب الدر المنثور.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة، أن الموبق الموعد، واستدل لذلك بقول الشاعر:

وحاد شروري والستار فلم يدع تعاراً له والواديين بموبق

يعني بموعد. والتحقيق أن الموبق المهلك، من قولهم: وبق يبق، كوعد يعد: إذا هلك. وفيه لغة أخرى وهي ببق يوبق كوجل يوجل. ولغة ثالثة أيضاً وهي: وبق يبق كورث يرث. ومعنى كل ذلك: الهلاك. والمصدر من وبق - بالفتح - الوبوق على القياس، والوبوق. ومن وبق - بالكسر - الوبق بفتحيتين على القياس. وأوبقته ذنوبه: أهلكته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبَقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٣٤] أي يهلكهن، ومنه الحديث: «فموبق نفسه أو بائعها فمعتقها» وحديث «السبع الموبقات» أي المهلكات، ومن هذا المعنى قول زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

وقول من قال: إن الموبق العداوة، وقول من قال: إنه المجلس - كلاهما ظاهر السقوط. والتحقيق فيه هو ما قدمنا.

وأما أقوال العلماء في المراد بلفظة «بين» فعلى قول الحسن ومن وافقه: أن الموبق العداوة، فالمعنى واضح؛ أي وجعلنا بينهم عداوة؛ كقوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾... الآية [الزخرف: ٦٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات. ولكن تفسير الموبق بالعداوة بعيد كما قدمنا.

وقال بعض العلماء: المراد بالبين في الآية: الوصل؛ أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا ملكاً لهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة] أي المواصلات التي كانت بينهم في الدنيا. وكما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ونحو ذلك من الآيات. وقال بعض العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾: جعلنا الهلاك بينهم؛ لأن كلا منهم معين على هلاك الآخر لتعاونهم على الكفر والمعاصي فهم شركاء في العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَفْعَلَكُمُ الْيَوْمَ إِد ظَلَمْتُمْ أَتَنْكُرُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ومعنى هذا القول مروى عن ابن زيد. وقال بعض العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾؛ أي بين المؤمنين والكافرين موبقاً، أي مهلكاً يفصل بينهم، فالداخل فيه، في هلاك، والخارج عنه في عافية. وأظهر الأقوال عندي وأجراها على ظاهر القرآن، أن المعنى: وجعلنا بين الكفار

وبين من كانوا يعبدونهم ويشركونهم مع الله موبقاً؛ أي مهلكاً، لأن الجميع يحيط بهم الهلاك من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قُوَّتِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وقال ابن الأعرابي: كل شيء حاجز بين شيئين يسمى موبقاً، نقله عنه القرطبي.

وبما ذكرنا تعلم أن الضمير في قوله: «بينهم» قيل: راجع إلى أهل النار. وقيل: راجع إلى أهل الجنة وأهل النار معاً. وقيل: راجع للمشركين وما كانوا يعبدونه من دون الله. وهذا هو أظهرها لدلالة ظاهر السياق عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ثم قال مخبراً عن العابدين والمعبودين: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ أي مهلكاً يفصل بينهم ويحيط بهم. وهذا المعنى كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [الآية [يونس: ٢٨]؛ أي فرقنا بينهم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا حمزة بالياء المثناة التحتية. وقرأه حمزة «نقول» بنون العظمة، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله، أي يقول هو؛ أي الله.

قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [٥٣].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المجرمين يرون النار يوم القيامة، ويظنون أنهم موافعوها، أي مخالطوها وواقعون فيها، والظن في هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع. وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم موقنون بالواقع؛ كقوله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [٧] [السجدة]، وكقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [٥٥] [الآية [مريم: ٣٨]]. ومن إطلاق الظن على اليقين قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [١٥] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [١٦] [البقرة] أي يوقنون أنهم ملاقوا ربهم. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادِّينَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابَ بَيْبِنِهِ فَبِئْسَ مَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ أَرَادُوا كِتَابَةَ﴾ [١٨] إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة] فالظن في هذه الآيات كلها بمعنى اليقين. والعرب تطلق الظن على اليقين وعلى الشك. ومن إطلاقه على اليقين في كلام العرب قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدحج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيباً مرجماً

وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المجرمين يرون النار، وبين في موضع آخر أنها هي تراهم أيضاً، وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [١١] إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سِعُّوا لَهَا تَفِيضًا وَذَفِيرًا [١٢] [الفرقان]. وما جرى على السنة العلماء من أن الظن جل الاعتقاد اصطلاح للأصوليين والفقهاء. ولا مشاحة في الاصطلاح. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ المصروف: المعدل، أي ولم يجدوا عن النار مكاناً ينصرفون إليه ويعدلون إليه، ليتخذوه ملجأً ومعتصماً ينجون فيه من عذاب الله. ومن إطلاق المصروف على المعدل بمعنى مكان الانصراف للاعتصام بذلك المكان، قول أبي كبير الهذلي:

أزهير هل عن شية من مصرف أم لا خلود لياذل متكلف

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ من رأى البصرية، فهي تتعدى لمفعول واحد، والتعبير بالماضي عن المستقبل نظراً لتحقيق الوقوع، فكأن ذلك لتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل، كما تقدم مراراً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شُغْرًا جَدَلًا﴾ [٥٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي رددنا وكثرنا تصريف الأمثال بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة في هذا القرآن للناس؛ ليهتدوا إلى الحق، ويتعظوا؛ فعارضوا بالجدل والخصومة. والمثل: هو القول الغريب السائر في الآفاق، وضرب الأمثال كثير في القرآن جداً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَوُضِعَ فَمَا قَوْهَأُ﴾ [البقرة: ٢٦] ومن أمثلة ضرب المثل فيه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعِزُّوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ... الآية [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَيَتَّ الْعَنَكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقوله: ﴿مَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَفَرَّكُهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [١٦] سَلَا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الآية [الأعراف: ١٧٦، ١٧٧]، وكقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ... الآية [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ... الآية، وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُفْنِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي

هُوَ وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ [النحل]، وقوله: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية [الروم: ٢٨]. والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وفي هذه الأمثال وأشباهاها في القرآن عبر ومواعظ وزواجر عظيمة جداً، لا لبس في الحق معها؛ إلا أنها لا يعقل معانيها إلا أهل العلم كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [العنكبوت]. ومن حكم ضرب المثل أن يتذكر الناس كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن الأمثال مع إيضاها للحق يهدي بها الله قوماً، ويضل بها قوماً آخرين؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ [البقرة]، وأشار إلى هذا المعنى في سورة «الرعد»؛ لأنه لما ضرب المثل بقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٧٧﴾ أتبع ذلك بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ آلَتْ لَهُمْ تَوَارِثُ آبَائِهِمْ وَآُلُؤُهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا كَفَرُوا﴾ ﴿٧٨﴾ ولا شك أن الذين استجابوا لرَبِّهم هم العقلاء الذين عقلوا معنى الأمثال، وانتفعوا بما تضمنت من بيان الحق، وأن الذين لم يستجيبوا له هم الذين لم يعقلوها، ولم يعرفوا ما أوضحتها من الحقائق. فالفريق الأول: هم الذين قال الله فيهم ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، والفريق الثاني: هم الذين قال فيهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ وقال فيهم: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا﴾ قال بعض العلماء: مفعول «صرفنا» محذوف، تقديره: البيئات والعبر. وعلى هذا ف«من» لا ابتداء الغاية؛ أي ولقد صرفنا الآيات والعبر من أنواع ضرب المثل للناس في هذا القرآن ليذكروا، فقابلوا ذلك بالجدال والخصام؛ ولذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وهذا هو الذي استظهره أبو حيان في البحر، ثم قال: وقال ابن عطية: يجوز أن تكون «من» زائدة للتوكيد؛ فالتقدير: ولقد صرفنا كل مثل؛ فيكون مفعول «صرفنا» «كل مثل» وهذا التخريج هو على مذهب الكوفيين والأخفش، لا على مذهب جمهور البصريين. انتهى الغرض من كلام صاحب البحر المحيط. وقال الزمخشري: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه اه. وضابط ضرب المثل الذي يرجع إليه كل معانيه التي يفسر بها: هو إيضاح معنى النظير بذكر نظيره؛ لأن النظير يعرف بنظيره. وهذا المعنى الذي ذكره في هذه الآية الكريمة جاء مذكوراً في آيات أخر كقوله في «الإسراء»: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي

هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا ﴿٥٩﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿٦٢﴾﴾ [طه]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا زَيْدٌ لَا تَشْرَأُ بِهِ وَمَا بِكُنَّا بِآيَاتِهِ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي من شأنها الخصومة إن فصلتها واحداً بعد واحد، ﴿جَدَلًا﴾ أي خصومة ومماراة بالباطل لقصد إدحاض الحق. ومن الآيات الدالة على خصومة الإنسان بالباطل لإدحاض الحق - قوله هنا: ﴿وَيَحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾... [الشورى: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يسر]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿١﴾﴾ [النحل]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما فسرنا به قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من أن معناه كثرة خصومة الكفار ومماراتهم بالباطل ليدحضوا به الحق هو السياق الذي نزلت فيه الآية الكريمة؛ لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ليدذكروا ويتعظوا وينبوا إلى ربهم، بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فلما أتبع ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ علمنا من سياق الآية أن الكفار أكثروا الجدل والخصومة والمراء لإدحاض الحق الذي أوضحه الله بما ضربه في هذا القرآن من كل مثل، ولكن كون هذا هو ظاهر القرآن وسبب النزول لا ينافي تفسير الآية الكريمة بظاهر عمومها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما بيناه بأدلته فيما مضى، ولأجل هذا لما طرق النبي ﷺ علياً وفاطمة رضي الله عنهما ليلة فقال: «ألا تصليان؟» وقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. انصرف النبي ﷺ راجعاً وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ والحديث مشهور متفق عليه. فإيراده ﷺ الآية على قول علي رضي الله عنه: «إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا» - دليل على عموم الآية الكريمة، وشمولها لكل خصام وجدل، لكنه قد دلت آيات أخر على أن من الجدل ما هو محمود مأمور به لإظهار الحق، كقوله تعالى: ﴿وَيَحْدِثْ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله: «جدلاً» منصوب على التمييز، على حد قوله في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصبين بأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً

وقوله: ﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً كما تقدم. وصيغة التفضيل إذا أضيفت إلى نكرة كما في هذه الآية، أو جردت من الإضافة والتعريف بالألف واللام لزم إفرادها وتذكيرها كما عقده في الخلاصة بقوله:

وإن لمنكور يصف أو جرداً ألزم تذكيراً وأن يوحداً

وقال ابن جرير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة مبيناً بعض الآيات المبينة للمراد بجدل الإنسان في الآية الكريمة، بعد أن ساق سنده إلى ابن زيد في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قال: الجدل الخصومة، خصومة القوم لأنبيائهم وردهم عليهم ما جاؤوا به. وقرأ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقرأ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْفُضَلْ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقرأ: «حتى توفي» الآية، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَيْسَ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقرأ: ﴿وَلَوْ فَدَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ أَسْمَاءَ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٦] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر] انتهى من تفسير الطبري. ولا شك أن هذه الآيات التي ذكر عن ابن زيد أنها مفسرة لجدل الإنسان المذكور في الآية أنها كذلك، كما قدمنا أن ذلك هو ظاهر السياق وسبب النزول، والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة في القرآن العظيم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٥٥﴾.

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم، وكلاهما تدل على مقتضاه آيات من كتاب الله تعالى، وأحد الوجهين أظهر عندي من الآخر.

الأول منهما: أن معنى الآية: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات، إلا ما سبق في علمنا: من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيتهم سنة الأولين، أي سنتنا في إهلاكهم بالعذاب المستأصل. أو يأتيتهم العذاب قبلاً. والظاهر أن «أو» في هذه الآية مانعة خلو، فهي تجوز الجمع لإمكان إهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا كسنة الله في الأولين من الكفار، وإتيان العذاب إياهم يوم القيامة قبلاً. وعلى هذا القول فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ كَانَتْ رِزْقٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ مَلَكٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس]، وقوله: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [النحل]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَمْ يَهْدِهِمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]. والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة.

القول الثاني: أن في الآية الكريمة مضافاً محذوفاً، تقديره: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين، أو يأتيهم العذاب قبلاً.

والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب عناداً وتعنتاً كثيرة جداً، كقوله عن قوم شعيب: ﴿تَأْسِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء]، وكقوله عن قوم هود: ﴿قَالُوا إِنَّمَا إِنَّا فِتْنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف]، وكقوله عن قوم صالح: ﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ النَّبِيُّ بِمَا يُعْطَىٰ مِنْ آلِهَتِنَا إِنَّا نَحْنُ الْمُغْلِبُونَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وكقوله عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّهُمْ يَخْتَصِمُونَ لَكُمْ إِنَّكُمْ أَتَيْنَا بِمَا نَكِيدُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكقوله عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَنْتَهِ عَنَّا فَذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ [هود].

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن، ذكر الله فيها شيئاً من سنة الأولين: أنهم يطلبون تعجيل العذاب عناداً وتعنتاً. وبين تعالى أنه أهلك جميعهم بعذاب مستأصل، كإهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم لوط بجعل عالي قراهم سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، كما هو مفصل في الآيات القرآنية.

وبين في آيات كثيرة أن كفار هذه الأمة كمشركي قريش سألوا العذاب كما سأل من قبلهم كقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا تُبْعَثُ بَعْدَ الْيَوْمِ﴾ [الأنفال]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجِّلْ لَنَا قُتْلَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص]، وأصل القط: كتاب الملك الذي فيه الجائزة، وصار يطلق على النصيب. فمعنى: ﴿مَجِّلْ لَنَا قُتْلَنَا﴾ [ص: ١٦] أي نصيبنا المقدر لنا من العذاب الذي نترجم وقوعه بنا إن لم نصدقك ونؤمن بك، كالنصيب الذي يقدره الملك في القط الذي هو كتاب الجائزة، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله: «يأفق» أي يفضل بعضاً على بعض في العطاء. والآيات بمثل ذلك كثيرة. والقول الأول أظهر عندي؛ لأن ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير إلا بحجة الرجوع إليها تثبت المحذوف المقدر. والله تعالى أعلم. وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾... الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء] بما حاصله باختصار أن المانع المذكور في سورة «الإسراء» مانع عادي يجوز تخلفه؛ لأن استغرابهم بعث رسول من البشر مانع عادي يجوز تخلفه لإمكان أن يستغرب الكافر بعث رسول من البشر ثم يؤمن به مع ذلك الاستغراب؛ فالحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء] حصر

في المانع العادي. وأما الحصر في قوله هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ فهو حصر في المانع الحقيقي؛ لأن إرادته - جل وعلا - عدم إيمانهم، وحكمه عليهم بذلك، وقضاه به مانع حقيقي من وقوع غيره.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قرأه الكوفيون: وهم عاصم وحمزة والكسائي ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء. وقرأه الأربعة الباقون من السبعة: وهم نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء. أما على قراءة الكوفيين فقوله: ﴿قُبُلًا﴾ بضميتين جمع قبيل. والفعل إذا كان اسماً يجمع على فعل كسرير وسرر، وطريق وطرق، وحصير وحصر، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وفعل لاسم رباعي بمد قد زيد قبل لام إعلالاً فقد

ما لم يضاعف في الأعم ذو الألف... إلخ.

وعلى هذا فمعنى الآية: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً. وعلى قراءة من قرأوا «قبلاً» كعنب، فمعناه عياناً، أي أو يأتيهم العذاب عياناً. وقال مجاهد رحمته الله: «قبلاً» أي فجأة. والتحقيق: أن معناه عياناً. وأصله من المقابلة؛ لأن المتقابلين يعاين كل واحد منهما الآخر. وذكر أبو عبيد: أن معنى القراءتين واحد، وأن معناهما عياناً، وأصله من المقابلة. وانتصاب «قبلاً» على الحال على كلتا القراءتين. وهو على القولين المذكورين في معنى «قبلاً» إن قدرنا أنه بمعنى عياناً، فهو مصدر منكر حال كما قدمنا مراراً. وعلى أنه جمع قبيل: فهو اسم جامد مؤول بمشتق؛ لأنه في تأويل: أو يأتيهم العذاب في حال كونه أنواعاً وضروباً مختلفة. والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ في محل نصب؛ لأنه مفعول «منع» الثاني، والمنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ في محل رفع؛ لأنه فاعل «منع»؛ لأن الاستثناء مفرغ، وما قبل «إلا» عامل فيما بعدها، فصار التقدير: منع الناس الإيمان إتيان سنة الأولين، على حد قوله في الخلاصة:

وإن يفرغ سابق إلا لما بعد يكن كما لو إلا عدما

والاستغفار في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ هو طلب المغفرة منه جل وعلا لجميع الذنوب

السالفة بالإجابة إليه، والندم على ما فات، والعزم المصمم على عدم العود إلى الذنب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية

الكريمة أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ مَأْمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٥٨﴾ [الأنعام]. وقد أوضحنا معنى البشارة والإنذار في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَنُنَزِّلَ بِأَسْوَءٍ شَدِيدًا ۚ إِنَّ لَدُنْهُ ۝... الآية، وانتصاب قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ على الحال؛ أي ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين.

قوله تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، ذكر - جل وعلا -
 في هذه الآية الكريمة أن الذين كفروا يجادلون بالباطل، أي يخاصمون الرسل بالباطل،
 كقولهم في الرسول: ساحر، شاعر، كاهن. وكقولهم في القرآن: أساطير الأولين،
 سحر، شعر، كهانة. وكسؤالهم عن أصحاب الكهف، وذوي القرنين. وسؤالهم عن الروح
 عناداً وتعتناً، ليبطلوا الحق بجدالهم وخصامهم بالباطل، فالجدال: المخاصمة. ومفعول
 «يجادل» محذوف دل ما قبله عليه؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدل على أن الذين
 يجادلهم الكفار بالباطل هم المرسلون المذكورون آنفاً، وحذف الفضلة إذا دل المقام
 عليها جائز، وواقع كثيراً في القرآن وفي كلام العرب؛ كما عقده في الخلاصة بقوله:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر
 والباطل: ضد الحق، وكل شيء زائل مضمحل تسميه العرب: باطلاً، ومنه قول
 لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
 ويجمع الباطل كثيراً على أباطيل على غير القياس، فيدخل في قول ابن مالك في
 الخلاصة:

وحائد عن القياس كل ما خالف في البابين حكماً رسماً
 ومنه قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيده إلا الأباطيل
 ويجمع أيضاً على البواطيل قياساً. والحق: ضد الباطل. وكل شيء ثابت غير
 زائل ولا مضمحل تسميه العرب حقاً، وقوله تعالى: ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ليبطلوه
 ويزيلوه به، وأصله من إدحاض القدم، وهو إزلاقها وإزالتها عن موضعها. تقول
 العرب: دحضت رجله: إذا زلقت، وأدحضها الله، أزلقها، ودحضت حجته إذا بطلت،
 وأدحضها الله أبطلها، والمكان الدحض: هو الذي ترل فيه الأقدام؟ ومنه قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وجدت كما حاد البعير عن الدحض

وهذا الذي ذكره هنا من مجادلة الكفار للرسل بالباطل أوضحه في مواضع أخر
 كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوحٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾... الآية
 [الشورى: ١٦]. وقوله - جل وعلا -: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ
 إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
 بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم،
 إنما هي بخصامهم وجدالهم بالباطل.

وقد بين تعالى في مواضع أخر أن ما أراده الكفار من إدحاض الحق بالباطل لا

يكون، وأنهم لا يصلون إلى ما أرادوا، بل الذي سيكون هو عكس ما أرادوه فيحق الحق ويبطل الباطل، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]؛ وكقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمِّرَ نَوْمَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، [الرعد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الحق سيظهر ويعلو، وأن الباطل سيضمحل ويزهق ويذهب جفاء. وذلك هو نقيض ما كان يريده الكفار من إبطال الحق وإدحاضه بالباطل عن طريق الخصام والجدال.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا عَائِيَّ وَمَا أَنْذَرُوا هُزُؤًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار اتخذوا آياته التي أنزلها على رسوله، وإنذاره لهم هزواً، أي سخرية واستخفافاً، والمصدر بمعنى اسم المفعول، أي اتخذوها مهزوءاً بها مستخفاً بها كقوله: ﴿إِنْ قَوِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا﴾ [الجاثية: ٩]، وكقوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْوَعْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوشُ وَلَقَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٥٥] لا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ... الآية [التوبة: ٦٥ - ٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات. و«ما» في قوله: «ما أنذروا» مصدرية، كما قررنا، وعليه فلا ضمير محذوف. وقيل: هي موصولة والعائد محذوف. تقديره: وما أنذروا به هزواً. وحذف العائد المجرور بحرف إنما يطرد بالشروط التي ذكرها في الخلاصة بقوله:

كذا الذي جر بما الموصول جر كمر بالذي مررت فهو بر

وفي قوله: «هزواً» ثلاث قراءات سبعة، قرأه حمزة بإسكان الزاي في الوصل. وبقية السبعة بضم الزاي وتحقيق الهمزة. إلا حفصاً عن عاصم فإنه يبدل الهمزة واواً، وذلك مروى عن حمزة في الوقف.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أظلم؛ أي أكثر ظلماً لنفسه

ممن ذكر؛ أي وعظ بآيات ربه، وهي هذا القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي تولى وصد عنها. وإنما قلنا: إن المراد بالآيات هذا القرآن العظيم لقريئة تذكير الضمير العائد إلى الآيات في قوله: ﴿أَن يَقْفَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أي القرآن المعبر عنه بالآيات، ويحتمل شمول الآيات للقرآن وغيره، ويكون الضمير في قوله: ﴿أَن يَقْفَهُوهُ﴾ أي ما ذكر من الآيات، كقول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي ذلك الذي ذكر من الفارض والبكر. ونظيره من كلام العرب قول ابن الزبعرى:

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي كلا ذلك المذكور من خير وشر. وقد قدمنا إيضاح هذا، وقوله: ﴿وَسَيِّئًا مَا قَدَّمْتَ يَأْهُ﴾ أي من المعاصي والكفر، مع أن الله لم ينسب بل هو محصيه عليه ومجازيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا﴾ [مریم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١]، وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَسَيِّئًا مَا قَدَّمْتَ يَأْهُ﴾ أي تركه عمداً ولم يتب منه. وبه صدر القرطبي رحمه الله تعالى. وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم، قد زاد عليه في مواضع آخر بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة. فمن نتائجه السيئة: ما ذكره هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً. ومن نتائجه جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبداً كما قال هنا مبيناً بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ومنها انتقام الله - جل وعلا - من المعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَرَّغَ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٣٣]، ومنها كون المعرض كالحمار، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا مِنَ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [٨٩] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ ﴿٩٠﴾ ... الآية [المدثر]. ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [١٣] ... الآية [فصلت]. ومنها المعيشة الضنك والعمى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَعْمَى﴾ [١٧٥] [طه]. ومنها سلكه العذاب الصعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] ومنها تقييض القراء من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ

ذَكَرَ الرَّحْمَنُ يُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ [الزخرف] إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة، الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله - جل وعلا - .

وقد أمر تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره، القاصر نظره على الحياة الدنيا، وبين أن ذلك هو مبلغه من العلم، فلا علم عنده بما ينفعه في معاده، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ مَبْغُهُ مِنَ الْعَالَمِينَ [النجم: ٢٩ - ٣٠]. وقد نهى - جل وعلا - عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا فَلَبَّ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ كما تقدم إيضاحه.

وقوله في هذه الآية: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾ أي ما قدم من أعمال الكفر، ونسبة التقديم إلى خصوص اليد؛ لأن اليد أكثر مزاولة للأعمال من غيرها من الأعضاء، فنسبت الأعمال إليها على عادة العرب في كلامهم، وإن كانت الأعمال التي قدمها منها ما ليس باليد كالكفر باللسان والقلب، وغير ذلك من الأعمال التي لا تزاول باليد كالزنى. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ... الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ونحو ذلك من الآيات. وأشهر أوجه الجمع في ذلك وجهان:

أحدهما: أن كل من قال الله فيه: ومن أظلم ممن فعل كذا، لا أحد أظلم من واحد منهم. وإذا فهم متساوون في الظلم لا يفوق بعضهم فيه بعضاً، فلا إشكال في كون كل واحد منهم لا أحد أظلم منه.

وثانيهما: أن صلة الموصول تعين كل واحد في محله؛ وعليه فالمعنى في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، لا أحد أظلم ممن ذكر فأعرض أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، لا أحد من المفتريين أظلم ممن افترى على الله كذباً، وهكذا والأول أولى؛ لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه. وممن اختاره أبو حيان في البحر. قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها، أكنة أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به. وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء. وأنه جعل في آذانهم وقراً، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها، وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات آخر كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ... الآية [الجاثية: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرَتْ
رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحُذِّرَ وَلَوْ أَنَّ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا ﴿١٩﴾، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ
وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٠﴾ [محمد]، وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾
[هود: ٢٠]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون؛ لأن الله جعل
الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في
آذانهم؛ فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه
والانصراف إلى غيره؟!

فالجواب: أن الله - جل وعلا - بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك
الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة
والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب
الرسل باختيارهم، فأزاح الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم، فمن
الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي
بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على
قلوبهم. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وهو دليل أيضاً واضح على أن
سبب إزاحة الله قلوبهم هو زيغهم السابق، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى
قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ... الآية
[البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَنَقُوبُ أَعْيُنَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٤٠]
[المطففين]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم
ما ينفع عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك.

وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبهة الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات
المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم، وبهذا الذي قررنا يحصل الجواب أيضاً عن سؤال
يظهر لطالب العلم فيما قررنا، وهو أن يقول: قد بينتم في الكلام على الآية التي قبل
هذه أن جعل الأكنة على القلوب من نتائج الإعراض عن آيات الله عند التذكير بها، مع
أن ظاهر الآية يدل عكس ذلك من أن الإعراض المذكور سببه هو جعل الأكنة على
القلوب؛ لأن «إن» من حروف التعليل كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه،
كقولك: اقطعه إنه سارق، وعاقبه إنه ظالم، فالمعنى اقطعه لعله سرقته، وعاقبه لعله
ظلمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾
أي أعرض عنها لعله جعل الأكنة على قلوبهم؛ لأن الآيات الماضية دلت على أن الطبع
الذي يعبر عنه تارة بالطبع، وتارة بالختم، وتارة بالأكنة، ونحو ذلك سببه الأول
الإعراض عن آيات الله والكفر بها كما تقدم إيضاحه.

وفي هذه الآية سؤالان معروفان: الأول: أن يقال: ما مفسر الضمير في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقد قدمنا أن الآيات في قوله: ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] بتضمين الآيات معنى القرآن، فقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي القرآن المعبر عنه بالآيات كما تقدم إيضاحه قريباً.

السؤال الثاني: أن يقال: ما وجه إفراد الضمير في قوله: ﴿ذُكِّرَ﴾ وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ﴾ مع الإتيان بصيغة الجمع في الضمير في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ مع أن مفسر جميع الضمائر المذكورة واحد، وهو الاسم الموصول في قوله: ﴿وَمَنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ... الآية.

والجواب: هو أن الإفراد باعتبار لفظ «من» والجمع باعتبار معناها؛ وهو كثير في القرآن العظيم. والتحقيق في مثل ذلك جواز مراعاة اللفظ تارة، ومراعاة المعنى تارة أخرى مطلقاً؛ خلافاً لمن زعم أن مراعاة اللفظ بعد مراعاة المعنى لا تصح؛ والدليل على صحة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيعْمَلْ صَالِحًا صَدِّقُهُ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] فإنه في هذه الآية الكريمة راعى لفظ «من» أولاً فأفرد الضمير في قوله: ﴿يُؤْمِنُ﴾ وقوله: ﴿يعْمَلُ﴾ وقوله: ﴿يَدْخُلُهُ﴾ وراعى المعنى في قوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ فأتى فيه بصيغة الجمع، ثم راعى اللفظ بعد ذلك في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فيه وفي كل ما يشابهه من الألفاظ وجهان معروفان لعلماء التفسير: أحدهما أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لثلاث يفقهوه. وعليه فلا النافية محذوفة دل المقام عليها. وعلى هذا القول هنا اقتصر ابن جرير الطبري. وثانيهما أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه؛ وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف، وأمثال هذه الآية في القرآن كثيرة. وللعلماء في كلها الوجهان المذكوران كقوله تعالى: ﴿يَتَيْنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لثلاث تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَىٰ فَتَيْنَا أَنْ يُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [الحجرات: ٦] أي لثلاث تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العظيم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي يفهموه. فالفقه: الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي يفهمونه، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾ [هود: ٩١]. أي ما نفهمه. والوقر: الثقل. وقال الجوهري في صحاحه: الوقر - بالفتح، الثقل في الأذن. والوقر - بالكسر - الحمل، يقال جاء يحمل وقره، وأوقر بعيره، وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغل والحمار، اهـ. وهذا الذي ذكره الجوهري وغيره جاء به القرآن، قال في ثقل الأذن: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال في الحمل: ﴿فَالْحَمِيلَتِ وَقْرًا﴾ [الذاريات: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن الذين جعل الله على قلوبهم أكنة تمنعهم أن يفقهوا ما ينفعهم من آيات القرآن التي ذكروا بها لا يهتدون أبداً، فلا ينفع فيهم دعاؤك إياهم إلى الهدى، وهذا المعنى الذي أشار له هنا من أن من أشقاهم الله لا ينفع فيهم التذكير جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل].

وهذه الآية وأمثالها في القرآن فيها وجهان معروفان عند العلماء.

أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياداً بالله تعالى.

وثانيهما: أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر. فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع. والأول أظهر والعلم عند الله تعالى؛ والفاء في قوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ لأن الفعل الذي بعد «لن» لا يصلح أن يكون شرطاً لـ«إن» ونحوها، والجزاء إذا لم يكن صالحاً «لأن» يكون شرطاً لـ«إن» ونحوها - لزم اقترانه بالفاء؛ كما عقده في الخلاصة بقوله:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

وقوله في هذه الآية الكريمة: «إذا» جزاء وجواب؛ فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبباً للاهتداء سبباً لانتفائه؛ لأن المعنى فلن يهتدوا إذا دعوتهم ذكر هذا المعنى الزمخشري، وتبعه أبو حيان في البحر. وهذا المعنى قد غلط فيه، وغلط فيه خلق لا يحصى كثرة من البلاغيين وغيرهم.

وإيضاح ذلك أن الزمخشري هنا وأبا حيان ظنا أن قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا﴾ شرط وجزاء، وأن الجزاء مرتب على الشرط كترتيب الجزاء على ما هو شرط فيه؛ ولذا ظنا أن الجزاء الذي هو عدم الاهتداء المعبر عنه في الآية بقوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ مرتب على الشرط الذي هو دعاؤه إياهم المعبر عنه في الآية بقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ المشار إليه أيضاً بقوله: «إذا» فصار دعاؤه إياهم سبب انتفاء اهتدائهم وهذا غلط؛ لأن هذه القضية الشرطية في هذه الآية الكريمة ليست شرطية لزومية، حتى يكون بين شرطها وجزائها ارتباط، بل هي شرطية اتفاقية، والشرطية الاتفاقية لا ارتباط أصلاً بين طرفيها، فليس أحدهما سبباً في الآخر، ولا ملزوماً ولا لازماً له، كما لو قلت: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل - فلا ربط بين الطرفين؛

لأن الجزاء في الاتفاقية له سبب آخر غير مذكور، كقولك: لو لم يخف الله لم يعصه؛ لأن سبب انتفاء العصيان ليس هو عدم الخوف الذي هو الشرط، بل هو شيء آخر غير مذكور، وهو تعظيم الله - جل وعلا - ومحبة المانعة من معصيته. وكذلك قوله هنا: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدَا﴾ سببه الحقيقي غير مذكور معه فليس هو قوله: ﴿وَأِنْ نَدَعُهُمْ﴾ كما ظنه الزمخشري وأبو حيان وغيرهما، بل سببه هو إرادة الله - جل وعلا - انتفاء اهتدائهم على وفق ما سبق في علمه أولاً.

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ لأن سبب بروزهم إلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع، وليس سببه كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُلِّمْتُ رَبِّي لَفُدَّ الْبَحْرُ﴾... الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقد أوضحت الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في أرجوزتي في المنطق وشرحي لها في قولي:

مقدم الشرطية المتصلة	مهما تكن صحة ذاك التال له
لموجب قد اقتضاها كسبب	فهي اللزومية ثم إن ذهب
موجب الاصطحاب ذا بينهما	فالاتفاقية عند العلما

ومثال الشرطية المتصلة اللزومية قولك: كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً، لظهور التلازم بين الطرفين، ويكفي في ذلك حصول مطلق اللزومية دون التلازم من الطرفين، كقولك: كلما كان الشيء إنساناً كان حيواناً، إذ لا يصدق عكسه.

فلو قلت: كلما كان الشيء حيواناً كان إنساناً لم يصدق؛ لأن اللزوم في أحد الطرفين لا يقتضي الملازمة في كليهما، ومطلق اللزوم تكون به الشرطية لزومية، أما إذا عدم اللزوم من أصله بين طرفيها فهي اتفاقية. ومثالها: كلما كان الإنسان ناطقاً كان الحمار ناهقاً. وبسبب عدم التنبه للفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية ارتبك خلق كثير من النحويين والبلاغيين في الكلام على معنى «لو»؛ لأنهم أرادوا أن يجمعوا في المعنى بين قولك: لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً، وبين قولك: لو لم يخف الله لم يعصه، مع أن الشرط سبب في الجزاء في الأول؛ لأنها شرطية لزومية، ولا ربط بينهما في الثاني لأنها شرطية اتفاقية، ولا شك أن من أراد أن يجمع بين المفترقتين ارتبك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه غفور، أي كثير المغفرة، وأنه ذو الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويرحم الخلائق في الدنيا.

وبين في مواضع آخر أن هذه المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته - جل وعلا -
إلا الشرك كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]،
وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وبين في موضع آخر أن رحمته واسعة، وأنه سيكتبها للمتقين وهو قوله: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٦].

وبين في مواضع آخر سعة مغفرته ورحمته كقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ ونحو ذلك من الآيات.

وبين في مواضع آخر أنه مع سعة رحمته ومغفرته شديد العقاب كقوله: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَيْكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وقوله: ﴿غَافِرِ الذُّنُوبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٢١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٦﴾ [الحجر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْتُمْ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ فهو يمهّل ولا يهمل.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وقد قدمنا هذا في سورة «النحل» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وإن لم يعجل لهم العذاب في الحال فليس غافلاً عنهم، ولا تاركاً عذابهم، بل هو تعالى جاعل لهم موعداً يعذبهم فيه، لا يتأخر العذاب عنه ولا يتقدم.

وبين هذا في مواضع آخر، كقوله في «النحل»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [١١] [النحل]، وقوله في آخر سورة «فاطر»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [٥٥] [فاطر]، وكقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٢١] [إبراهيم]، وكقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾... الآية [العنكبوت: ٥٣].

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عين له ولا يقدمه عليه كقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾... الآية [نوح: ٤]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ أي ملجأ يلجؤون إليه فيعتصمون به من ذلك العذاب المجعول له الموعد المذكور. وهو اسم مكان، من وأل يئل وألاً وؤلاً بمعنى لجأ. ومعلوم في فن الصرف أن واوي الفاء من الثلاثي ينقاس مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه، على المفعول بكسر العين كما هنا، ما لم يكن معتل اللام، فالقياس فيه الفتح كالمولى. والعرب تقول: لا وألت نفسه، أي لا وجدت منجى تنجو به، ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها للعامرين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يئل

أي ما ينجو.

وأقوال المفسرين في «الموئل» راجعة إلى ما ذكرنا، كقول بعضهم: موئلاً: محيصاً، وقول بعضهم: منجى. وقول بعضهم: محرزاً، إلى غير ذلك. فكله بمعنى ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِهَيْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾.

بين في هذه الآية الكريمة أن القرى الماضية لما ظلمت بتكذيب الرسل والعناد والنجاج في الكفر والمعاصي أهلكهم الله بذنوبهم.

وهذا الإجمال في تعيين هذه القرى وأسباب هلاكها، وأنواع الهلاك التي وقعت بها، جاء مفصلاً في آيات أخر كثيرة، كما جاء في القرآن من قصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم موسى، كما تقدم بعض تفاصيله. والقرى: جمع قرية على غير قياس؛ لأن جمع التكسير على «فعل» - بضم ففتح - لا ينقاس إلا في جمع «فعله» - بالضم - اسماً كغرفة وقربة. أو «فعلى» إذا كانت أثنى الأفعال خاصة، كالكبرى والكبر، كما أشار لذلك في الخلاصة بقوله:

وفعل جمعاً لفعله عرف ونحو كبرى... إلخ

أي وأما في غير ذلك فسماع يحفظ ولا يقاس عليه. وزاد في التسهيل فرعاً ثالثاً ينقاس فيه «فعل» بضم ففتح، وهو الفعلة بضمين إن كان اسماً كجمعة وجمع. واسم الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ إنما أشير به لهم؛ لأنهم يملكون عليها في أسفارهم كقوله: ﴿وَلْيَكُونُوا لِلْمُؤْمِنِينَ مَكِينًا﴾. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِيبٌ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُمَا لِيَآمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] ونحو ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ و﴿الْقُرَى﴾ صفة له. أو عطف بيان. وقوله: ﴿أَهْلَكْتُمْ﴾ هو الخبر، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿الْقُرَى﴾ وجمله ﴿أَهْلَكْتُمْ﴾ في محل حال، كقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ في محل نصب بفعل محذوف يفسره العامل المشتغل بالضمير، على حد قوله في الخلاصة:

إن مضمراً اسم سابق فعلاً شغل عنه بنصب لفظه أو المحل
فالسابق انصبه بفعل أضمراً - حتماً موافق لما قد أظهرنا

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَمَهْلِكْهُمْ مَوْعِدًا﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا عاصماً
بضم الميم وفتح اللام على صيغة اسم المفعول. وهو محتمل على هذه القراءة أن يكون
مصدرًا ميميًا، أي جعلنا لإهلاكهم موعداً. وأن يكون اسم زمان، أي وجعلنا لوقت
إهلاكهم موعداً. وقد تقرر في فن الصرف أن كل فعل زاد ماضيه على ثلاثة أحرف مطلقاً
فالقياص في مصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه - أن يكون الجميع بصيغة اسم
المفعول. والمهلك - بضم الميم - من أهلكه الرباعي. وقرأه حفص عن عاصم
﴿لَمَهْلِكْهُمْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام. وقرأه شعبة عن عاصم «لمهلكهم» بفتح الميم واللام
معاً. والظاهر أنه على قراءة حفص اسم زمان، أي وجعلنا لوقت هلاكهم موعداً؛ لأنه
من هلك يهلك بالكسر. وما كان ماضيه على «فعل» بالفتح ومضارعه «يفعل» بالكسر
كهلك يهلك، وضرب يضرب، ونزل ينزل فالقياص في اسم مكانه وزمانه «المفعول»
بالكسر. وفي مصدره الميمي المفعول بالفتح. تقول: هذا منزله - بالكسر - أي مكان نزوله
أو وقت نزوله، وهذا «منزله» بفتح الزاي؛ أي نزوله، وهكذا. منه قول الشاعر:

أأن ذكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

فقوله: «منزلها جمل» بالفتح؛ أي نزول جمل إياها. وبه تعلم أنه على قراءة شعبة
«لمهلكهم» بفتح الميم واللام أنه مصدر ميمي؛ أي وجعلنا لهلاكهم موعداً. والموعد:
الوقت المحدد لوقوع ذلك فيه.

تنبيه: لفظة «لما» ترد في القرآن وفي كلام العرب على ثلاثة أنواع:

الأول: لما النافية الجازمة للمضارع؛ نحو قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٤٢]. وهذه حرف بلا خلاف،
وهي مختصة بالمضارع. والفوارق المعنوية بينها وبين لم النافية المذكورة في علم
العربية، وممن أوضحها ابن هشام وغيره.

الثاني: أن تكون حرف استثناء بمعنى إلا؛ فتدخل على الجملة الاسمية؛ كقوله
تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝١﴾ [الطارق] في قراءة من شدد «لما» أي ما كل نفس
إلا عليها حافظ. ومن هذا النوع قول العرب: أنشدك الله لما فعلت؛ أي ما أسألك إلا
فعلك؛ ومنه قول الراجز:

قالت له بالله ياذا البردين لما غنثت نفساً أو نفسين

فقولها: «غنثت» بغين معجمة ونون مكسورة وثناء مثلثة مسنداً لثناء المخاطب.
والمراد بقولها: «غنثت» تنفست في الشرب؛ كنت بذلك عن الجماع، تريد عدم متابعتها

لذلك، وأن يتنفس بين ذلك. وهذا النوع حرف أيضاً بلا خلاف. وبعض أهل العلم يقول: إنه لغة هذيل.

الثالث: من أنواع «لما» هو النوع المختص بالماضي المقتضي جملتين، توجد ثانيتهما عند وجود أولاهما، كقوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣] أي لما ظلموا أهلكتهم، فلما قبلها دليل على الجملة المحذوفة. وهذا النوع هو الغالب في القرآن وفي كلام العرب. «ولما» هذه التي تقتضي ربط جملة بجملة تختلف فيها النحويون: هل هي حرف، أو اسم، وخلافهم فيها مشهور، وممن انتصر لأنها حرف ابن خروف وغيره، وممن انتصر لأنها اسم ابن السراج والفارسي وابن جني وغيرهم. وجواب «لما» هذه يكون فعلاً ماضياً بلا خلاف كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى آلِ الْبَرِّ أَعْرَضُوا﴾... الآية [الإسراء: ٦٧]، ويكون جملة اسمية مقرونة بـ «إذا» الفجائية؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى آلِ الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. أو مقرونة بالفاء كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى آلِ الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾... الآية [لقمان: ٣٢]، ويكون جوابها فعلاً مضارعاً كما قاله ابن عصفور كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِرْهِمَ الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلَاتًا فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾ (٧٦) ... الآية [هود]. وبعض ما ذكرنا لا يخلو من مناقشة عند علماء العربية، ولكنه هو الظاهر.

هذه الأنواع الثلاثة، هي التي تأتي لها «لما» في القرآن وفي كلام العرب.

أما «لما» المترتبة من كلمات أو كلمتين - فليست من «لما» التي كلامنا فيها؛ لأنها غيرها، فالمترتبة من كلمات كقول بعض المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلَامًا لَّيُؤْتِيهِمْ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١١] في قراءة ابن عامر وحزمة وحفص عن عاصم بتشديد نون «إن» وميم «لما» على قول من زعم الأصل على هذه القراءة: لمن ما بمن التبعية، وما بمعنى من، أي وإن كلا لمن جملة ما يوفيه ربك أعمالهم، فأبدلت نون «من» ميماً وأدغمت في ما، فلما كثرت الميمات حذفت الأولى فصار لما. وعلى هذا القول فاللما مركبة من ثلاث كلمات: الأولى الحرف الذي هو اللام، والثانية من، والثالثة ما، وهذا القول - وإن قال به بعض أهل العلم - لا يخفى ضعفه وبعده، وأنه لا يجوز حمل القرآن عليه. وقصدنا مطلق التمثيل لـ «لما» المركبة من كلمات على قول من قال بذلك. وأما المركبة من كلمتين فكقول الشاعر:

لما رأيت أبا يزيد مقاتلاً أدع القتال وأشهد الهيجاء

لأن قوله: «لما» في هذا البيت، مركبة من «لن» النافية الناصبة للمضارع و«ما» المصدرية الظرفية، أي لن أدع القتال ما رأيت أبا يزيد مقاتلاً، أي مدة رؤيتي له مقاتلاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ حُوتَهُمَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى وفناه نسيا حوتهما لما بلغا مجمع البحرين، ولكنه تعالى أوضح أن النسيان واقع من فتي موسى؛ لأنه هو الذي كان تحت يده الحوت، وهو الذي

نسيه. وإنما أسند النسيان إليهما؛ لأن إطلاق المجموع مراداً بعضه أسلوب عربي كثير في القرآن وفي كلام العرب. وقد أوضحنا أن من أظهر أدلته قراءة حمزة والكسائي ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ قَاتِلَهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] من القتل في الفعلين لا من القتال، أي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ؛ لأن قول موسى: ﴿إِنَّا عَدَاءٌ لَنَا﴾ يعني به الحوت فهو يظن أن فتاه لم ينسه، كما قاله غير واحد. وقد صرح فتاه: بأنه نسيه بقوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾... الآية [المجادلة: ١٩].

وفتى موسى هو يوشع بن نون. والضمير في قوله تعالى: ﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ عائد إلى ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾... الآية، والمجمع: اسم مكان على القياس، أي مكان اجتماعهما.

والعلماء مختلفون في تعيين «البحرين» المذكورين، فذهب أكثرهم إلى أنهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ عند طنجة في أقصى بلاد المغرب. وروى ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: هما الكر والرأس حيث يصبان في البحر. وقال ابن عطية: ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان، يخرج من البحر المحيط من شماله إلى جنوبه، وطرفيه مما يلي بر الشام. وقيل: هما بحر الأردن والقلزم. وعن ابن المبارك قال: قال بعضهم: بحر أرمنية. وعن أبي بن كعب قال: بإفريقية. إلى غير ذلك من الأقوال. ومعلوم أن تعيين «البحرين» من النوع الذي قدمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وليس في معرفته فائدة، فالبحت عنه تعب لا طائل تحته، وليس عليه دليل يجب الرجوع إليه، وزعم بعض الملاحدة الكفرة المعاصرين: أن موسى لم يسافر إلى مجمع بحرين، بدعوى أنه لم يعرف ذلك في تاريخه زعم في غاية الكذب والبطلان. ويكفي في القطع بذلك أنه مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾، مع التصريح بأنه سفر فيه مشقة وتعب، وذلك لا يكون إلا في بعيد السفر، ولذا قال تعالى عن موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. ومعلوم أن ما ناقض القرآن فهو باطل؛ لأن نقيض الحق باطل بإجماع العقلاء لاستحالة صدق النقيضين معاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ قرأه عامة القراء ما عدا حفصاً «أنسانيه» بكسر الهاء. وقرأه حفص عن عاصم «أَنْسَيْنِيهِ» بضم الهاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ . هذا العبد المذكور في هذه الآية الكريمة هو الخضر عليه السلام بإجماع العلماء، ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك من كلام النبي ﷺ، وهذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها، أو رحمة الولاية وعلمها. والعلماء مختلفون في الخضر: هل هو نبي، أو رسول، أو ولي؛ كما قال الراجز:

واختلفت في خضر أهل العقول قيل نبي أو ولي أو رسول

وقيل: ملك. ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحى، مع العلم بأن في الاستدلال بها على ذلك مناقشات معروفة عند العلماء.

اعلم أولاً أن الرحمة تكرر إطلاقها على النبوة في القرآن، وكذلك العلم المؤتى من الله تكرر إطلاقه فيه على علم الوحي، فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله تعالى في «الزخرف»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝... الآية [الزخرف: ٣١ - ٣٢]. أي نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من الفريقين. وقوله تعالى في سورة «الدخان»: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝... الآية [الدخان: ٤ - ٥]، وقوله تعالى في آخر «القصص»: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝١٠١﴾... الآية [القصص: ٨٦]. ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ۝٦٨﴾... [يوسف: ٦٨] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص فيه أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني اللذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ ۝١٠١﴾ وإنما فعلته عن أمر الله - جل وعلا - وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله - جل وعلا - ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى. وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۝٤٥﴾ [الأنبياء: ٤٥] و﴿إِنَّمَا ۝١٠١﴾ صيغة حصر. فإن قيل: قد يكون ذلك عن طريق الإلهام؟ فالجواب أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء، لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه

بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويخبر «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات، والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه، أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم. قال في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال:

وينبذ الإلهام بالعراء أعني به إلهام الأولياء
وقد رآه بعض من تصوفا وعصمة النبي توجب اقتفا

وبالجملة، فلا يخفى على من له إمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك، إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل، وما جاؤوا به ولو في مسألة واحدة، فلا شك في زندقته. والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهاماً. وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾... الآية [طه: ١٣٤]. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً. وقد بينا طرفاً من ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى - زندقه وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره ما نصه: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة. وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص؛ بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم. ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع

الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون». قال شيخنا رحمته: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْكَ الْوَلَكَةَ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل. فمن قال: إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب. ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا محمد صلوات الله عليه؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول.

وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه؛ وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة؛ فإن هذا نحو ما قاله رحمته: «إن روح القدس نفث في روعي...» الحديث. انتهى من تفسير القرطبي.

وما ذكره في كلام شيخه المذكور من أن الزنديق لا يستتاب هو مذهب مالك ومن وافقه، وقد بينا أقوال العلماء في ذلك وأدلتهم، وما يرجحه الدليل في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران». وما يستدل به بعض الجهلة ممن يدعي التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص كحديث: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»، لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن المفتي الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب، بل معنى الحديث: التحذير من الشبه؛ لأن الحرام بين والحلال بين، وبينهما أمور مشبهة لا يعلمها كل الناس. فقد يفتيك المفتي بحلية شيء وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحتمل أن يكون حراماً، وذلك باستناد إلى الشرع، فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، والحديث، كقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وقوله صلوات الله عليه: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» رواه مسلم من حديث النواصير بن سمعان رحمته، وحديث وابصة بن معبد رحمته المشار إليه قال: أتيت رسول الله صلوات الله عليه فقال: «جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم. قال: «استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه

النفس واطمأن إليه القلب. والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»، قال النووي في (رياض الصالحين): حديث حسن، رواه أحمد والدارمي في مسنديهما. ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه الحث على الورع وترك الشبهات، فلو التبست مثلاً ميتة بمذكاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتاك بعض المفتين بحلة إحداهما لاحتمال أن تكون هي المذكاة في الأول، والأجنبية في الثاني؛ فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو الأخت، وأن ترك الحرام والاستبراء للدين والعرض لا يتحقق إلا بتجنب الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب. فهذا يحيك في النفس ولا تنشرح له، لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى. وكل ذلك مستند لنصوص الشرع لا للألهام.

ومما يدل على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح - قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري رحمته الله: (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه رحمته الله، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما. ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهى إلا على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبهذا كله تعلم أن قتل الخضر للغلام، وخرقه للسفينة، وقوله: «وما فعلته عن أمري» دليل ظاهر على نبوته. وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين، ومما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمَتَ رُسُلًا﴾، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مع قول الخضر له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا﴾.

مسألة: اعلم أن العلماء اختلفوا في الخضر: هل هو حي إلى الآن، أو هو غير حي، وأقوالهم في المسألة مبسطة في الأصل يرجع إليها من أراد.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآكَامَهُ﴾.

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بأن المجاز في القرآن؛ زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاء لا يمكن أن تكون حقيقة، وإنما هي مجاز. وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة؛ لأن الله تعالى يعلم للجُمادات إرادات وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَنْ يَنْ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ الْحِجَارَةُ لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾. الآية [البقرة: ٧٤].

فتصرّحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح في ذلك؛ لأن تلك الخشية بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾... الآية [الأحزاب: ٧٢]. فتصرّحه - جل وعلا - بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفتت أي خافت دليل على أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمه.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة» وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه فتسليم ذلك الحجر، وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وزعم من لا علم عنده أن هذه الأمور لا حقيقة لها، وإنما هي ضرب أمثال زعم باطل؛ لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وأمثال هذا كثيرة جداً، وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاء، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة. وهذا واضح جداً كما ترى، مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء، كما في قول الشاعر:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عقيل
أي يميل إلى صدر أبي براء. وكقول راعي نمير:

في مهمه قلقت به هامتها قلق الفؤوس إذا أردن نضولا
فقوله: «إذا أردن نضولا» أي قاربته. وقول الآخر:

إن دهرأ يلف شملي بجمل لزمان يهم بالإحسان

فقوله: «لزمان يهم بالإحسان» أي يقع الإحسان فيه، وقد بينا في رسالتنا المسماة (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها، وبيننا أدلة ذلك. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة، صحيحة كانت أو معيبة، ولكنه يفهم من آية أخرى أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي لثلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب؛ لأن عيبها يزهده فيها، ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثلاً عند علماء العربية لحذف النعت؛ أي وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معيبة بدليل ما ذكرنا. وقد قدمنا الشواهد العربية على ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا»... الآية [الإسراء: ٥٨]. واسم ذلك الملك: هدد بن بدر، وقوله: ﴿وَرَأَاهُمْ﴾ أي أمامهم كما تقدم في سورة «إبراهيم»:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَقَرَّبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ﴾. قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿حِمَّةٍ﴾ بلا ألف بعد الحاء، وبهمزة مفتوحة بعد الميم المكسورة، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم «حامية» بألف بعد الحاء، وباء مفتوحة بعد الميم المكسورة على صيغة اسم الفاعل، فعلى القراءة الأولى فمعنى ﴿حِمَّةٍ﴾ ذات حمأة وهي الطين الأسود، ويدل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر] والحمأ: الطين كما تقدم. ومن هذا المعنى قول تبع الحميري فيما يؤثر عنه يمدح ذا القرنين:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فراى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

والخلب في لغة حمير: الطين. والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود. وعلى قراءة «حامية» بصيغة اسم الفاعل، فالمعنى: أنها حارة، وذلك لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. ولا منافاة بين القراءتين؛ لأن العين المذكورة حارة وذات ماء وطين أسود، فكلتا القراءتين حق.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «وجدها تغرب في عين حمئة» أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه إلى آخر كلامه. ومقتضى كلامه أن المراد بالعين في الآية البحر المحيط، وهو ذو طين أسود. والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء. والينبوع: الماء الكثير، فاسم العين يصدق على البحر لغة. وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف، وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلًا دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [٩٨] وَرَكَّبًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَبُولُ فِي بَعْضٍ وَيُفْعَلُ فِي الشُّورِ لِحَمَلَتِهِمْ جَمْعًا [٩٩]. اعلم أولاً أننا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود وقد بينه النبي ﷺ فإننا نتمم بيانه بذكر السنة المبينة له. وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن هاتين الآيتين الكريمتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة، فصار بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود، والله - جل وعلا - قال في كتابه لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة، وآية الأنبياء قد دلنا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله الله دكاً عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه. وقد دلنا على أنه بقرب يوم القيامة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ

وَعَدُ رَبِّي جَلَّةَ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٨٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَبُوءُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ... الآية. وأظهر الأقوال في الجملة المقدره التي عوض عنها تنوين ﴿يَوْمِيذٍ﴾ من قوله: ﴿وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَبُوءُ فِي بَعْضٍ﴾ أنه يوم إذ جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض.. ولا ينبغي العدول عن هذا القول لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم.

وإذا تقرر أن معنى ﴿يَوْمِيذٍ﴾ يوم إذ جاء الوعد بخروجهم وانتشارهم، فاعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ﴾ على القول بأنه لجميع بنى آدم فالمراد يوم القيامة. وإذا فقدت الآية على اقتراحه بالمخروج إذا ذك السد، وقربه منه. وعلى القول بأن الضمير راجع إلى يأجوج ومأجوج، فقوله بعده: ﴿وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ﴾ يدل في الجملة على أنه قريب منه. قال الرمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ هو إشارة إلى السد؛ أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده. أو هذا الإقذار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة، وشارف أن يأتي جعل السد دكاً؛ أي مذكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض. وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد انبسط؛ ومنه الجمل الأدك المنبسط السنام، اهـ.

وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧]؛ لأن قوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦] واتباعه لذلك بقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] يدل في الجملة على ما ذكرنا في تفسير آية الكهف التي نحن بصدددها، وذلك يدل على بطلان قول من قال: إنهم روسية، وأن السد فتح منذ زمان طويل. فإذا قيل: إنما تدل الآيات المذكورة في «الكهف» و«الأنبياء» على مطلق اقتراب يوم القيامة من ذك السد واقترابه من يوم القيامة لا ينافي كونه قد وقع بالفعل كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢]. وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْفَقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر]، وقال النبي ﷺ: «ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها...» الحديث، وقد قدمناه في سورة «المائدة». فقد دل القرآن والسنة الصحيحة على أن اقتراب ما ذكر لا يستلزم اقترانه به، بل يصح اقترابه مع مهلة، وإذا فلا ينافي ذك السد الماضي المزعوم الاقتراب من يوم القيامة، فلا يكون في الآيات المذكورة دليل على أنه لم يدك السد إلى الآن.

فالجواب: هو ما قدمنا أن هذا البيان بهذه الآيات ليس وافياً بتمام الإيضاح إلا بضميمة السنة له، ولذلك ذكرنا أننا نتمم مثله من السنة لأنها مبينة للقرآن، قال مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ الطَّائِيُّ قَاضِي حَمَصٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرِ عَنْ أَبِيهِ جَبْرِ بْنِ ثَفِيرٍ الْحَضْرَمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ النَّوَاسَ بْنَ

سمعان الكلابي (ح) وحدثني محمد بن مهران الرازي (واللفظ له)، حدثني الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل. فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل؟ فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم! إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طائفة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة «الكهف» إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالاً. يا عباد الله فاثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراره في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له: فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً، وأمهه خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله؛ فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيما سيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه بضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ؛ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله. ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذا أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. وبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون؛ فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النصف في رقابهم؛ فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتنهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا

وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس. واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم؛ فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس يتهاجرون فيها تهاجر الحمر فعليهم تقوم الساعة» انتهى بلفظه من صحيح مسلم - رحمه الله تعالى - .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبي ﷺ بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم خروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال. فمن يدعي أنهم روسية، وأن السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها، ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل؛ لأن نقيض الخبر الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم. ولم يثبت في كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالة على المقصود:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الكهف: ٩٨] قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «دكاً» بالتثنية مصدر دكه. وقرأه عاصم وحزمة والكسائي ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ بألف التانيث الممدودة تأنيث الأدك، ومعنى القراءتين راجع إلى شيء واحد، وقد قدمنا إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠﴾. قوله: ﴿وَعَرَضْنَا﴾؛ أي أبرزنا وأظهرنا جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي يوم إذ جمعناهم جمعاً كما دل على ذلك قوله قبله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ مَّجْجًا﴾، وقال بعض العلماء: اللام في قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بمعنى على، أي عرضنا جهنم على الكافرين، وهذا يشهد له القرآن في آيات متعددة؛ لأن العرض في القرآن يتعدى بعلى لا باللام كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾، ونظيره في كلام العرب من إتيان اللام بمعنى على، البيت الذي قدمناه في أول سورة «هود»، وقدمنا الاختلاف في قائله، وهو قوله:

هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللنم
أي خر صريعاً على اليدين.

وقد علم من هذه الآيات أن النار تعرض عليهم ويعرضون عليها؛ لأنها تقرب إليهم ويقربون إليها؛ كما قال تعالى في عرضها عليهم هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠﴾، وقال في عرضهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ... الآية [الأحقاف: ٢٠]، ونحوها من الآيات. وقد بينا شيئاً من صفات عرضهم دلت عليه آيات أخر من كتاب الله في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾. وقول من قال:

إن قوله هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ ... الآية فيه قلب، وأن المعنى: وعرضنا الكافرين لجحيم أي عليها بعيد كما أوضحه أبو حيان في البحر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

التحقيق في قوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ أنه في محل خفض نعتاً للكافرين، وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات الكافرين الذين تعرض لهم جهنم يوم القيامة أنهم كانت أعينهم في دار الدنيا في غطاء عن ذكره تعالى، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، وقد بين هذا من صفاتهم في آيات كثيرة كقوله في تغطية أعينهم: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ عَشِيرَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَلْمِزُ أَنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْهُنَّ كَمَا هُوَ أَمْحَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقال في عدم استطاعتهم السمع: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وقد بينا معنى كونهم لا يستطيعون السمع في أول سورة «هود» في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُضَعِّفْ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] فأغنى عن إعادته هنا. وقد بينا أيضاً طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وقد بين تعالى في موضع آخر أن الغطاء المذكور الذي يعشو بسببه البصر عن ذكره تعالى يقيض الله لصاحبه شيطاناً فيجعله له قريناً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ تَزْلًا﴾. الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للإنكار والتوبيخ، وفي الآية حذف دل المقام عليه، قال بعض العلماء: تقدير المحذوف هو: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء، ولا أعاقبهم العقاب الشديد! كلا!! بل سأعاقبهم على ذلك العقاب الشديد؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ تَزْلًا﴾ وقال بعض العلماء: تقديره: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء! وأن ذلك ينفعهم. كلا! لا ينفعهم بل يضرهم. ويدل لهذا قوله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ثم إنه تعالى بين بطلان ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتُشْفِقُونَ أَنَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وما أنكره عليهم هنا من ظنهم أنهم يتخذون من دونه أولياء من عباده ولا يعاقبهم؛ أو أن ذلك ينفعهم جاء مبيناً في مواضع كقوله في أول سورة «الأعراف»: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية [الأعراف: ٣]. فقد نهاهم عن اتباع الأولياء من دونه في هذه الآية؛ لأنه يضرهم ولا ينفعهم، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن من الأدلة على أنه لا ولي من

دون الله لأحد، وإنما الموالاة في الله كقوله: ﴿أَتَمِيعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] ﴿أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾... الآية وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [١٠٣] ﴿[هود]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾... الآية [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾... الآية [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ الآية [الأنعام: ٧٠]، ونحو ذلك من الآيات. وسيأتي له قريباً - إن شاء الله تعالى - زيادة إيضاح وأمثلة.

والأظهر المتبادر من الإضافة في قوله: «عبادي» أن المراد بهم نحو الملائكة وعيسى وعزير، لا الشياطين ونحوهم؛ لأن مثل هذه الإضافة للتحريف غالباً. وقد بين تعالى أنهم لا يكونون أولياء لهم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنْ أَرَأَيْتُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١٠٣] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾... الآية [سبا: ٤٠ - ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ قد أوضحنا معناه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾... الآية، فأغنى عن إعادته هنا. وفي قوله: ﴿تُرَا﴾ أوجه من التفسير للعلماء:

أظهرها: أن «التزل» هو ما يقدم للضيف عند نزوله، والقادم عند قدومه. والمعنى أن الذي يهيا لهم من الإكرام عند قدومهم إلى ربهم هو جهنم المعدة لهم كقوله: ﴿فَبَيَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقوله: ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ﴾. وقد قدمنا شواهد العربية في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ﴾؛ لأن ذلك الماء الذي يشوي الوجوه ليس فيه إغاثة، كما أن جهنم ليست نزل إكرام الضيف أو قادم.

الوجه الثاني: أن «نزلاً» بمعنى المنزل، أي أعتدنا جهنم للكافرين منزلاً، أي مكان نزول، لا منزل لهم غيرها. وأضعف الأوجه ما زعمه بعضهم من أن «التزل» جمع نازل، كجمع الشارف على شرف بضمين، والذي يظهر في إعراب «نزلاً» أنه حال مؤولة بمعنى المشتق. أو مفعول لـ «أعتدنا» بتضمينه معنى صيرنا أو جعلنا، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٠٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [١٠٤]. المعنى: قل لهم يا نبي الله: هل ننبئكم أي نخبركم بالأخسرين أعمالاً، أي بالذين هم أخسر الناس أعمالاً وأضياعها، فالأخسر صيغة تفضيل من الخسران، وأصله نقص مال التاجر، والمراد به في القرآن غبنهم بسبب كفرهم ومعاصيهم في حظوظهم مما عند الله لو أطاعوه، وقوله: ﴿أَعْمَالًا﴾ منصوب على التمييز.

فإن قيل: نبئنا بالأخسرين أعمالاً من هم؟

كان الجواب: هم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [١٠٤]، وبه تعلم أن ﴿الَّذِينَ﴾ من قوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف جواباً للسؤال المفهوم من المقام، ويجوز نصبه على الذم، وجزه على أنه بدل من الأخسرين، أو

نعت له، وقوله: ﴿مَلَّ سَعِيَهُمْ﴾ أي بطل عملهم وحبط، فصار كالهباء وكالسراب وكالرماد! كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [١٣] ﴿الفرقان﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيغَةٍ﴾ ... الآية [النور: ٣٩]؟ وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] ومع هذا فهم يعتقدون أن عملهم حسن مقبول عند الله.

والتحقيق أن الآية نازلة في الكفار الذين يعتقدون أن كفرهم صواب وحق، وأن فيه رضى ربهم؛ كما قال عن عبدة الأوثان: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال عن الرهبان الذين يتقربون إلى الله على غير شرع صحيح: ﴿وَجُودٌ يَوْمَ حُشْعَةٍ﴾ [٢] عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ... الآية [الغاشية]، على القول فيها بذلك. وقوله تعالى في الكفار: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ الشَّيْطَانِ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَبِئْسُ دُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٧].

والدليل على نزولها في الكفار تصريحه تعالى بذلك في قوله بعده يليه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ... الآية، فقول من قال: إنهم الكفار، وقول من قال: إنهم الرهبان، وقول من قال: إنهم أهل الكتاب الكافرون بالنبي ﷺ، كل ذلك تشمل هذه الآية، وقد روى البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أنه سأل ابنه مصعب عن (الأخسرين أعمالاً) في هذه الآية، هل هم الحرورية؟ فقال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكفروا بمحمد ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعيد يسميهم الفاسقين، اهـ من البخاري. وما روي عن علي رضى الله عنه من أنهم أهل حروراء المعروفون بالحروريين معناه أنهم يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا؛ لأنهم يرتكبون أموراً شنيعة من الضلال، ويعتقدون أنها هي معنى الكتاب والسنة، فقد ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وإن كانوا في ذلك أقل من الكفار المجاهرين؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما قد قدمنا إيضاحه وأدلته.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ مَلَّ سَعِيَهُمْ﴾ أي بطل واضمحل، وقد قدمنا أن الضلال يطلق في القرآن واللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الأول: الضلال بمعنى الذهاب عن طريق الحق إلى طريق الباطل، كالذهاب عن الإسلام إلى الكفر، وهذا أكثر استعمالاته في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

الثاني: الضلال بمعنى الهلاك والغيبة والاضمحلال، ومنه قول العرب: ضل

السمن في الطعام؛ إذا استهلك فيه وغاب فيه، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]؛ أي غاب واضمحل، وقوله هنا: ﴿الَّذِينَ صَلَّ سَعِيمٌ﴾ أي بطل واضمحل، وقول الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا
أي عن الحي الذي غاب واضمحل، ومن هنا سمي الدفن إضلالاً؛ لأن مآل الميت المدفون إلى أن تختلط عظامه بالأرض، فيضل فيها كما يضل السمن في الطعام. ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
فقوله: «مضلوه» يعني دافنيه في قبره. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾... الآية [السجدة: ١٠]، فمعنى: ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أنهم اختلطت عظامهم الرميم بها فغابت واستهلك فيها.

الثالث: الضلال بمعنى الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى] أي ذاهباً عما تعلمه الآن من العلوم والمعارف التي لا تعرف إلا بالوحي فهداك إلى تلك العلوم والمعارف بالوحي. وحدد هذا المعنى قوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف] أي ذهابك عن العلم بحقيقة أمر يوسف، ومن أجل ذلك تطمع في رجوعه إليك، وذلك لا طمع فيه على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿إِن كَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرًا كَانِ مِمَّنْ رَزَّوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي تذهب عن حقيقة علم المشهود به بنسيان أو نحوه بدليل قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [٥٦] طه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم
فقوله: «أراها في الضلال» أي الذهاب عن علم حقيقة الأمر حيث تظنني أبغي بها بدلاً، والواقع بخلاف ذلك.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَمُحْسِنُونَ﴾ أي يظنون. وقرأه بعض السبعة بكسر السين، وبعضهم بفتحها كما قدمنا مراراً في جميع القرآن، ومفعولاً «حسب» هما المبتدأ والخبر اللذان عملت فيهما «أن»، والأصل: ويحسبون أنفسهم محسنين صنعهم. وقوله: «صنعاً» أي عملاً وبين قوله: «يحسبون، ويحسنون» الجنس المسمى عند أهل البديع «تجنيس التصحيف» وهو أن يكون النقط فرقاً بين الكلمتين، كقول البحري:

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

فبين «المغتر والمعتز» الجنس المذكور.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فُحِطَتْ عَنْهُمْ...﴾ الآية، نص في أن الكفر بآيات الله ولقائه يحبط العمل، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً، كقوله تعالى في «العنكبوت»: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٣﴾ [العنكبوت] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وسيأتي بعض أمثلة لذلك قريباً - إن شاء الله -.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فيه للعلماء أوجه:

أحدها: أن المعنى أنهم ليس لهم حسنات توزن في الكفة الأخرى في مقابلة سيئاتهم، بل لم يكن لهم إلا السيئات، ومن كان كذلك فهو في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٥٢﴾ تَلَفَحَ وَجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِخْوَنِ ٥٣﴾ [المؤمنون]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَوْمِزُوا الْحَقَّ مِنْ ثِقَلَتِ مَوَازِينُهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ ٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ [الأعراف: ٨ - ٩]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأَتَمَّتْ هَكَايَتُهُ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾ [القارة]؛ إلى غير ذلك من الآيات. وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أنهم لا قدر لهم عند الله لحقارتهم، وهو أنهم بسبب كفرهم؛ وذلك كقوله عنهم: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين أذلاء حقيرين، وقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ١٨﴾ [الصفافات] وقوله: ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٨﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هوانهم وصغارهم وحقارتهم.

وقد دلت السنة الصحيحة على أن معنى الآية يدخل فيه الكافر السمين العظيم البدن؛ لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة بن عبد الرحمن، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقروا ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾» وعن يحيى بن بكير، عن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد مثله، اهـ. من البخاري.

وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، وهو يدل على أن نفس الكافر العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة. وفيه دلالة على وزن الأشخاص. وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية بعد أن أشار إلى حديث أبي هريرة المذكور ما نصه: وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه؛ كما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم. بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسمن؛ وقد قال ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين» ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني ثم

الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن» وهذا ذم. وبسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره والدعة والراحة والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها؛ فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد من سحت فالنار أولى به، وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَمَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَاللَّهُ مُتَوَيِّهُمُ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم تنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام. ومن كثرة أكله وشربه كثرت نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائماً، وليله نائماً، اهـ. محل الغرض من كلام القرطبي؛ وما تضمنه كلامه من الجزم بأن النبي ﷺ قال: «إن الله يبغيض الجبر السمين» فيه نظر؛ لأنه لم يصح مرفوعاً، وقد حسنه البيهقي من كلام كعب، وما ذكر من ذم كثرة الأكل والشرب والسمن المكتسب ظاهر وأدلته كثيرة: «وحسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الأعمال الصالحة والإيمان سبب في نيل جنات الفردوس، والآيات الموضحة لكون العمل الصالح سبباً في دخول الجنة كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا لَكِنَّ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَوُودُوا أَنْ تُلْقُوا بِأَيْسُرَةٍ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ رُفَّتُمْ عَنْهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف] أي بسببه، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٧) [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ قَاتَلَ وَمَأْمُورٌ عَمَلًا فَلَوْلِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٧) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ... الآية [مريم: ٦٠ - ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: فإن قيل: هذه الآيات فيها الدلالة على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة، وقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» يرد بسببه إشكال على ذلك.

فالجواب أن العمل لا يكون سبباً لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله تعالى وتقبله له فضل منه، فالفعل الذي هو سبب لدخول الجنة هو الذي تقبله الله بفضله، وغيره من الأعمال لا يكون سبباً لدخول الجنة، وللجمع بين الحديث والآيات المذكورة أوجه آخر، هذا أظهرها عندي، والعلم عند الله تعالى. وقد قدمنا أن «النزل» هو ما يهيا من الإكرام للضيف أو القادم.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَغَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾.

أي خالدين في جنات الفردوس لا يبيعون عنها حولاً، أي تحولاً إلى منزل آخر؛ لأنها لا يوجد منزل أحسن منها يرغب في التحول إليه عنها، بل هم خالدون فيها دائماً من غير تحول ولا انتقال، وهذا المعنى المذكور هنا جاء موضعاً في مواضع آخر كقوله: ﴿الَّذِينَ لَحْنًا دَارَ الْقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] أي الإقامة أبداً، وقوله: ﴿وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلُوكَ الصَّالِحِينَ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ حَسَنًا مَكِينٌ فِيهِ أَبَدًا﴾ [٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ١٢٨]، وقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَوْنَ﴾ [هود: ١٠٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على دوامهم فيها، ودوام نعيمها لهم، والحوّل: اسم مصدر بمعنى التحول.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَتَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [١٦١]. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي﴾؛ أي لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التي تكتب بها كلمات الله ﴿لَتَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي فرغ وانتهى قبل أن تنفد كلمات ربي ﴿وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي ببحر آخر مثله مدداً، أي زيادة عليه. وقوله: «مدداً» منصوب على التمييز، ويصح إعرابه حالاً، وقد زاد هذا المعنى إيضاحاً في سورة «لقمان» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقد دلت هذه الآيات على أن كلماته تعالى لا نفاذ لها ﷻ علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أي لا أقول لكم إني ملك ولا غير بشر، بل أنا بشر مثلكم؛ أي بشر من جنس البشر، إلا أن الله تعالى فضّلني وخصني بما أوحى إليّ من توحيده وشرعه. وقوله هنا: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ أي فوحده ولا تشركوا به غيره. وهذا الذي بينه تعالى في هذه الآية؛ أوضحه في مواضع آخر كقوله في أول «فصلت»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَذِلَّ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [١] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [٧] [فصلت]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] وقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وهذا الذي أمر الله به نبيه ﷺ في هذه الآية من أنه يقول للناس أنه بشر، ولكن الله فضله على غيره بما أوحى إليه من وحيه، جاء مثله عن الرسل غيره - صلوات الله وسلامه عليهم - في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]. فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد، وأنهم تجري على جميعهم الأعراض البشرية لا ينافي تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضروري.

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الآية: قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر

مثلكم، فمن زعم منكم أنني كاذب فليأت بمثلي ما جئت به، فإنني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتكم عنه من أخبار الماضين كقصّة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، وهذا له اتجاه، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله في هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يشمل كونه يأمل ثوابه، ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وكونه يخشى عقابه؛ أي فمن كان راجياً من ربه يوم يلقاه الثواب الجزيل والسلامة من الشر فليعمل عملاً صالحاً، وقد قدمنا إيضاح العمل الصالح وغير الصالح في أول هذه السورة الكريمة وغيرها، فأغنى عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال جماعة من أهل العلم: أي لا يراني الناس في عمله؛ لأن العمل بعبادة الله لأجل رياء الناس من نوع الشرك، كما هو معروف عند العلماء أن الرياء من أنواع الشرك، وقد جاءت في ذلك أحاديث مرفوعة. وقد ساق طرفها ابن كثير في تفسير هذه الآية، والتحقيق أن قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أعم من الرياء وغيره، أي لا يعبد ربه رياء وسمعة، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقه لأحد من خلقه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ الآية [النساء: ٤٨] في الموضعين، ويقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الذي يشرك أحداً بعبادة ربه، ولا يعمل صالحاً أنه لا يرجو لقاء ربه، والذي لا يرجو لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة.

وهذا المفهوم جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى فيما مضى قريباً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْيُنُهُمْ فَلَا تَبْصُرُ لَمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَكَ ۝١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ... الآية؛ لأن من كفر بلقاء الله لا يرجو لقاءه. وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي...﴾ الآية [العنكبوت: ٢٣]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْيُنُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا بِمَكَلُوبٍ ۝٧٧﴾ [الأعراف] وقوله في «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْزَنْنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا...﴾ الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى في «يونس»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله في «الفرقان»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان]، وقوله في «الروم»: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٢﴾ [الروم] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم: أن الرجاء كقوله هنا: ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يستعمل في رجاء الخير، ويستعمل في الخوف أيضاً، واستعماله في رجاء الخير مشهور. ومن استعمال الرجاء في الخوف قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل
فقوله: «لم يرج لسعها» أي لم يخف لسعها. ويروى حالفها بالحاء والخاء،
ويروى عواسل بالسین، وعوامل بالمیم.

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكورين فاعلم أنهما متلازمان،
فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس، واختلف
العلماء في سبب نزول هذه الآية الكريمة أعني قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية، فعن ابن عباس أنها نزلت في جندب بن زهير الأزدي
الغامدي، قال: يا رسول الله، إنني أعمل العمل لله تعالى وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه
إذا اطلع عليه سرنى؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل ما
شورك فيه» فنزلت الآية. وذكره القرطبي في تفسيره، وذكر ابن حجر في الإصابة أنه من
رواية ابن الكلبي في التفسير عن أبي صالح عن أبي هريرة، وضعف هذا السند مشهور،
وعن طاوس أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب الجهاد في سبيل الله
تعالى، وأحب أن يرى مكاني. فنزلت هذه الآية. وعن مجاهد قال: جاء رجل إلى
النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أتصدق وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله
تعالى، فيذكر ذلك مني، وأحمد عليه فيسرنى ذلك، وأعجب به. فسكت رسول الله ﷺ
ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا﴾، انتهى من تفسير القرطبي.

ومعلوم أن من قصد بعمله وجه الله فعله الله ولو سره اطلاع الناس على ذلك، ولا
سيما إن كان سروره بذلك لأجل أن يقتدوا به فيه، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا
فهو في سبيل الله، والعلم عند الله تعالى.

وقال صاحب الدر المنثور: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه
والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾... الآية
قال: نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين.
وأخرج عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم
عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله إني أقف مواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن
يرى موطني، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي موصولاً عن
طاوس عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان من المسلمين من
يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه. فأنزل الله ﷻ: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾... الآية، وأخرج
ابن منده وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير، عن الكلبي،
عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق
فذكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس فلامه الله، فنزل في ذلك: ﴿فَن كَانَ

يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أُفٍّ لَّهُمَّ، وأخرج هناد في الزهد عن مجاهد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدق بالصدقة وألتبس بها ما عند الله، وأحب أن يقال لي خير، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾... الآية، اهـ من «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم

قوله تعالى: ﴿كَهَيْصَ ۝١ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾. قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور كقوله هنا: ﴿كَهَيْصَ ۝١﴾ في سورة «هود» فأعنى عن إعادته هنا. وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي هذا ذكر رحمة ربك. وقيل: مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: فيما يتلى عليكم ذكر رحمة ربك، والأول أظهر، والقول بأنه خبر عن قوله: ﴿كَهَيْصَ ۝١﴾ ظاهر السقوط لعدم ربط بينهما. وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ لفظة «ذكر» مصدر مضاف إلى مفعوله، ولفظة «رحمة» مصدر مضاف إلى فاعله وهو «ربك». وقوله: ﴿عَبْدُكَ﴾ مفعول به للمصدر الذي هو «رحمة» المضاف إلى فاعله، على حد قوله في الخلاصة: وبعد جره الذي أضيف له كمل بنصب أو برفع عمله وقوله: «زكريا» بدل من قوله: «عبده»، أو عطف بيان عليه.

وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية أن الذي يتلى في أول السورة الكريمة هو ذكر الله رحمته التي رحم بها عبده زكريا حين ناداه نداء خفياً أي دعاه في سر وخفية، وثناؤه - جل وعلا - عليه بكون دعائه خفياً يدل على أن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَدْعُوهُمْ نَجْوًا وَخَفِيًّا﴾... الآية [الأنعام: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخَفِيًّا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف]. وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء. فقول من قال: إن سبب إخفائه دعاءه أنه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنه وسن امرأته، وكونها عاقراً. وقول من قال: إنه أخفاه لأنه طلب أمراً دنيوياً، فإن أجاب الله دعاءه فيه نال ما كان يريد. وإن لم يجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال، كل ذلك ليس بالأظهر، والأظهر أن السر في إخفائه هو ما ذكرنا

من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء، ودعاء زكريا هذا لم يبين الله في هذا الوضع مكانه ولا وقته. ولكنه أشار إلى ذلك في سورة «آل عمران» في قوله: ﴿كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْغَرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمَزِّجُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٣٨﴾... الآية [آل عمران: ٣٧ - ٣٨]. فقوله: «هنالك» أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم. وقال بعضهم: «هنالك» أي في ذلك الوقت، بناء على أن هنا ربما أشير بها إلى الزمان. وقوله في دعائه هذا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف. والوهن: الضعف. وإنما ذكر ضعف العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن دل على ضعف جميع البدن؛ لأنه أشد ما فيه وأصلبه، فوهنه يستلزم وهن غيره من البدن.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ الألف واللام في «الرأس» قاما مقام المضاف إليه، إذ المراد: واشتعل رأسي شيباً، والمراد باشتعال الرأس شيباً: انتشار بياض الشيب فيه. قال الزمخشري في كشافه: شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميّزاً، ولم يصف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا. فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة، انتهى منه. والظاهر عندنا كما بينا مراراً أن مثل هذا من التعبير عن انتشار بياض الشيب في الرأس، باشتعال الرأس شيباً أسلوب من أساليب اللغة العربية الفصحى جاء القرآن به، ومنه قول الشاعر:

ضيعت حزمي في إبعادي الأملا وما ارعويت وشيباً رأسي اشتعلا

ومن هذا القبيل قول ابن دريد في مقصورته:

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا

وقوله: ﴿شَيْبًا﴾ تمييز محول عن الفاعل في أظهر الأعراب، خلافاً لمن زعم أنه ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿وَأَشْتَغَلَ﴾ لأنه اشتعل بمعنى شاب، فيكون «شيباً» مصدراً منه في المعنى، ومن زعم أيضاً أنه مصدر منكر في موضع الحال.

وهذا الذي ذكره الله هنا عن زكريا في دعائه من إظهار الضعف والكبر جاء في مواضع أخر كقوله هنا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقوله في «آل عمران»: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ﴾... الآية [آل عمران: ٤٠]. وهذا الذي ذكره هنا من إظهار الضعف يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم أكن بدعائي إياك شقيّاً؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، يعني أنك عودتني الإجابة فيما مضى. والعرب تقول: شقي بذلك إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده. وربما أطلقت

الشقاء على التعب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَبِّكَ فَلَا تُخْرِحْكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] وأكثرها ما يستعمل في ضد السعادة، ولا شك أن إجابة الدعاء من السعادة، فيكون عدم إجابته من الشقاء.

قوله تعالى عن زكرياء: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى وَكَانَتِ أَمْوَالِيَ عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ يَرْثِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿١﴾.

معنى قوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي خفت أقاربي وبني عمي وعصبتني أن يضيعوا الدين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدين حق القيام، وبهذا التفسير تعلم أن معنى قوله: ﴿يَرْثِي﴾ أنه إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال. ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: قوله: ﴿يَرْثِي مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

وثانيهما: ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم والدين؛ فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عنه رضي الله عنه أنه قال: «لا نورث ما تركنا صدقة». ومن ذلك أيضاً ما رواه الشيخان أيضاً عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وعلي، والعباس، رضي الله عنهم: أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، قالوا: نعم. ومن ذلك ما أخرجه الشيخان أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ حين توفي أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن؛ فقالت عائشة: أليس قال النبي ﷺ: «ما تركنا صدقة». ومن ذلك ما رواه الشيخان أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة» وفي لفظ عند أحمد: «لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً». ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه؛ عن أبي هريرة أن فاطمة رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه: من يرثك إذا مت؟ قال: ولدي وأهلي. قالت: فما لنا لا نرث النبي ﷺ؟ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن النبي لا يورث» ولكن أعول من كان رسول الله ﷺ يعوله، وأنفق على من كان رسول الله ﷺ ينفق.

فهذه الأحاديث وأمثالها ظاهرة في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال بل العلم والدين، فإن قيل: هذا مختص به ﷺ؛ لأن قوله: «لا نورث» يعني به نفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه في الحديث الصحيح المشار إليه عنه آنفاً: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه. قال الرهط: قد قال ذلك الحديث، ففي هذا الحديث الصحيح أن

عمر قال: إن مراد النبي ﷺ بقوله: «لا نورث» نفسه، وصدقه الجماعة المذكورون في ذلك، وهذا دليل على الخصوص فلا مانع إذن من كون الموروث عن زكريا في الآية التي نحن بصددناها هو المال؟ فالجواب من أوجه:

الأول: أن ظاهر صيغة الجمع شمول جميع الأنبياء، فلا يجوز العدول عن هذا الظاهر إلا بدليل من كتاب أو سنة، وقول عمر لا يصح تخصيص نص من السنة به؛ لأن النصوص لا يصح تخصيصها بأقوال الصحابة على التحقيق كما هو مقرر في الأصول.

الوجه الثاني: أن قول عمر: «يريد ﷺ نفسه» لا ينافي شمول الحكم لغيره من الأنبياء، لاحتمال أن يكون قصده يريد أنه هو ﷺ يعني نفسه فإنه لا يورث، ولم يقل عمر: إن اللفظ لم يشمل غيره، وكونه يعني نفسه لا ينافي أن غيره من الأنبياء لا يورث أيضاً.

الوجه الثالث: ما جاء من الأحاديث صريحاً في عموم عدم الإرث المالي في جميع الأنبياء. وسنذكر طرفاً من ذلك هنا - إن شاء الله تعالى -.

قال ابن حجر في فتح الباري ما نصه: وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن» لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث..» الحديث، أخرجه عن محمد بن منصور، عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه. وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور. وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور. وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانئ عن فاطمة رضي الله عنها، عن أبي بكر الصديق بلفظ: «إن الأنبياء لا يورثون» انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر. وقد رأيت فيه هذه الطرق التي فيها التصريح بعموم الأنبياء. وقد قال ابن حجر: إن إنكار الحديث المذكور غير مسلم إلا بالنسبة لخصوص لفظ «نحن» وهذه الروايات التي أشار لها يشد بعضها. وقد تقرر في الأصول أن البيان يصح بكل ما يزيل الإشكال ولو قرينة أو غيرها كما قدمناه موضحاً في ترجمة هذا الكتاب المبارك، وعليه فهذه الأحاديث التي ذكرنا تبين أن المقصود من قوله في الحديث المتفق عليه: «لا نورث» أنه يعني نفسه؛ كما قال عمر وجميع الأنبياء كما دلت عليه الروايات المذكورة. والبيان إرشاد ودلالة يصح بكل شيء يزيل اللبس عن النص من نص أو فعل أو قرينة أو غير ذلك. قال في (مراقي السعود) في تعريف البيان وما به البيان:

تصيير مشكل من الجلي وهو واجب على النبي
إذا أريد فهمه وهو بما من الدليل مطلقاً يجلو العما

وبهذا الذي قررنا تعلم أن قوله هنا: «يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» يعني وراثته العلم والدين لا المال، وكذلك قوله: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ»... الآية [النمل: ١٦] فتلك

للورثة أيضاً وراثه علم ودين، والورثة قد تطلق في الكتاب والسنة علي وراثه العلم والندين، كحقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا... الآية [نفاطر: ٣٢]، وقسوله: ﴿وَلِلَّذِينَ أُوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقِيَ شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ... الآية [الأعراف: ١٦٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة الواردة في ذلك ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «العلماء ورثة الأنبياء» وهو في المسند والسنن. قال صاحب (تميز الطيب من الخبيث، فيما يدور على السنة الناس من الحديث): رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم» وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، انتهى منه بلفظه. وقال صاحب (كشف الحقاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس): «العلماء ورثة الأنبياء» رواه أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم...» الحديث، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكناني وضعفه غيرهم لاضطراب سنده، لكن له شواهد، ولذا قال الحافظ: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً، ورواه الديلمي عن البراء بن عازب يلفظ الترجمة، اه محل الغرض منه.

والظاهر صلاحية هذا الحديث للاحتجاج لاعتضاد بعض طرقه ببعض، فإذا علمت ما ذكرنا من دلالة هذه الأدلة على أن الورثة المذكورة في الآية وراثه علم ودين لا وراثه مال، فاعلم أن للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال: الأول: هو ما ذكرنا. والثاني: أنها وراثه مال، والثالث: أنها بالنسبة لنفس زكريا وراثه مال، وبالنسبة لآل يعقوب في قوله: ﴿وَوِثِّ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وراثه علم ودين. وهذا اختيار ابن جرير الطبري. وقد ذكر من قال: إن وراثته لزكريا وراثه مال حديثاً عن النبي ﷺ في ذلك أنه قال: «رحم الله زكريا ما كان عليه من وراثته» أي ماذا يضره إرث ورثته لماله، ومعلوم أن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ. والأرجح فيما يظهر لنا هو ما ذكرنا من أنها وراثه علم ودين؛ للأدلة التي ذكرنا وغيرها مما يدل على ذلك، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هنا ما يؤيد ذلك من أوجه. قال ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِنْ وَرَأْيِ﴾: وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته بما يوحي إليه فأجيب في ذلك؛ لا أنه خشي من وراثتهم له ماله؛ فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، وهذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال؛ بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه. ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة» وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث» وعلى هذا فتعين حمل قوله: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرْثُنِي ۚ» على ميراث النبوة. ولهذا قال: «يُورِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» كقوله: «وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ» [النمل: ١٦] أي في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولاً أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»، اه محل الغرض من كلام ابن كثير، ثم ساق بعد هذا طرق الحديث الذي أشرنا له: «يرحم الله زكريا وما كان عليه من ورثة ماله» الحديث، ثم قال في أسانيده: وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح.

واعلم أن لفظ: «نحن معاشر الأنبياء» ولفظ: «إنا معاشر الأنبياء» مؤداهما واحد؛ إلا أن «إن» دخلت على «نحن» فأبدلت لفظه «نحن» التي هي المبتدأ بلفظة «نا» الصالحة للنصب، والجملة هي هي إلا أنها في أحد اللفظين أكدت بـ«إن» كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۚ» يعني بهذا الولي الولد خاصة دون غيره من الأولياء؛ بدليل قوله تعالى في القصة نفسها: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ» ... الآية [آل عمران: ٣٨]، وأشار إلى أنه الولد أيضاً بقوله: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۖ» [الأنبياء: ٨٩] فقوله: «لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» أي واحداً بلا ولد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ ۚ» أي من بعدي إذا مت أن يغيروا في الدين. وقد قدمنا أن الموالى الأقارب والعصبات، ومن ذلك قوله تعالى: «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ» ... الآية [النساء: ٣٣]. والمولى في لغة العرب: يطلق على كل من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به، وكثيراً ما يطلق في اللغة على ابن العم؛ لأن ابن العم يوالي ابن عمه بالقرابة العصبية، ومنه قول طرفة بن العبد:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

يعني إذا ذلت بنو عمه فهو ذليل. وقول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلاً ابن عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «وَكَانَتْ أَمْرًا قَاطِرًا ۚ» ظاهر في أنها كانت عاقراً في زمن شبابها، والعاقرة: هي العقيم التي لا تلد وهو يطلق على الذكر والأنثى؛ فمن إطلاقه على الأنثى هذه الآية، وقوله تعالى عن زكريا أيضاً: «وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرًا قَاطِرًا ۚ» [آل عمران: ٤٠]، ومن إطلاقه على الذكر قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً جباناً فما عذري لدى كل محضر

وقد أشار تعالى إلى أنه أزال عنها العقم، وأصلحها، فجعلها ولوداً بعد أن كانت عاقراً في قوله - عز وجل -: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لِمُ زَوْجَتِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيماً. وقول من قال: إن إصلاحها المذكور هو جعلها حسنة الخلق بعد أن كانت سيئة الخلق لا ينافي ما ذكر لجواز أن يجمع له بين الأمرين فيها، مع أن كون الإصلاح هو جعلها ولوداً بعد العقم هو ظاهر السياق، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير، ومجاهد وغيرهم، والقول الثاني يروى عن عطاء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي مرضياً عندك وعند خلقك في أخلاقه وأقواله وأفعاله ودينه، وهو فعيل بمعنى مفعول.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك، وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائي بإسكان التاء المثلثة من الفعلين، أعني «يرثي ويرث من آل يعقوب» وهما على هذه القراءة مجزومان لأجل جواب الطلب الذي هو «هب لي» والمقرر عند علماء العربية أن المضارع المجزوم في جواب الطلب مجزوم بشرط مقدر يدل عليه فعل الطلب، وتقديره في هذه الآية التي نحن بصدددها، إن تهب لي من لدنك ولياً يرثي ويرث من آل يعقوب، وقرأ الباقون ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ برفع الفعلين على أن الجملة نعت لقوله: «ولياً» أي ولياً وارثاً لي، ووارثاً من آل يعقوب، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بجملة منكرأ فأعطيت ما أعطيته خبراً

وقراءة الجمهور برفع الفعلين أوضح معنى. وقرأ ابن كثير بفتح الياء من قوله: «من ورائي وكانت امرأتي» والباقون بإسكانها، وقرأ «زكريا» بلا همزة بعد الألف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم. والباقون قرؤوا «زكرياء» بهمزة بعد الألف، وبه تعلم أن المد في قوله: «وزكرياء إذ نادى» منفصل على قراءة حمزة والكسائي وحفص، ومتصل على قراءة الباقيين. والهمزة الثانية على قراءة الجمهور التي هي همزة «إذ» مسهلة في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، ومحقة في قراءة ابن عامر وشعبة عن عاصم. وقراءة «خفت الموالى» بفتح الخاء والفاء المشددة بصيغة الفعل الماضي، بمعنى أن مواليه خفوا أي قلوا، شادة لا تجوز القراءة بها وإن رويت عن عثمان بن عفان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين، وغيرهم رضي الله عنهم. وامرأة زكريا المذكورة قال القرطبي: هي إيشاع بنت فاقوذ بن قبيل، وهي أخت حنة بنت فاقوذ؛ قاله الطبري. وحنة: هي أم مريم. وقال القتيبي: امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران؛ فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليه السلام على الحقيقة. وعلى القول الأول يكون ابن خالة أمه. وفي

حديث الإسراء قال - عليه الصلاة والسلام - : «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى» شاهداً للقول الأول، اهـ منه، والظاهر شهادة الحديث للقول الثاني لا للأول، خلافاً لما ذكره - رحمه الله تعالى -، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَرْكَرِكُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾. في هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه، وتقديره: فأجاب الله دعاء فنودي ﴿يَرْكَرِكُنَا﴾... الآية. وقد أوضح - جل وعلا - في موضع آخر هذا الذي أجمله هنا، فبين أن الذي ناداه بعض الملائكة. وأن النداء المذكور وقع وهو قائم يصلي في المحراب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٦﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال بعض العلماء: أطلق الملائكة وأراد جبريل. ومثل به بعض علماء الأصول للعام المراد به الخصوص قائلاً: إنه أراد بعموم الملائكة خصوص جبريل، وإسناد الفعل للمجموع مراداً بعبه قد بيناه فيما مضى مراراً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ يدل على أن الله هو الذي سماه، ولم يكل تسميته إلى أبيه. وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ اعلم أولاً أن السمي يطلق في اللغة العربية إطلاقين: الأول قولهم: فلان سمي فلان أي مسمى باسمه. فمن كان اسمها واحد فكلاهما سمي الآخر أي مسمى باسمه.

والثاني: إطلاق السمي يعني المسامي أي المماثل في السمو والرفعة والشرف، وهو فعيل بمعنى مفاعل من السمو بمعنى العلو والرفعة، ويكثر في اللغة إتيان الفعيل بمعنى المفاعل؛ كالقعيد والجليل بمعنى المقاعد والمجالس. والأكيل والشريب بمعنى المؤاكل والمشارب، وكذلك السمي بمعنى المسامي أي المماثل في السمو. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله هنا: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نجعل من قبله أحداً يتسمى باسمه؛ فهو أول من كان اسمه يحيى. وقول من قال: إن معناه لم نجعل له سميّاً أي نظيراً في السمو والرفعة غير صواب لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح، فالقول الأول هو الصواب. وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم. ويروى القول الثاني عن مجاهد وابن عباس أيضاً، وإذا علمت أن الصواب أن معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نسّم أحداً باسمه قبله فاعلم أن قوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝١٥﴾ معناه أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق، وقال بعض العلماء: وهو مروي عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: هل تعلم أحداً يسمى باسمه الرحمن - جل وعلا - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن زكريا لما بشر بيحيى قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وهذا الذي ذكر أنه قاله هنا ذكره أيضاً في «آل عمران» في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ وَآمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ قرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «عتيا» بكسر العين اتباعاً للكسرة التي بعدها، ومجانسة للياء، وقرأه الباقر «عتيا» بضمها على الأصل. ومعنى قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أنه بلغ غاية الكبر في السن؛ حتى نحل عظمه ويس. قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها؛ يقال منه للعود اليابس: عود عات عاس. وقد عتا يعتو عتواً وعتياً. وعسا يعسو عسياً وعسواً. وكل متناه إلى غاية في كبر أو فساد أو كفر فهو عات وعاس.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه استفهام زكريا في قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ مع علمه بقدرة الله تعالى على كل شيء.

فالجواب في ثلاثة أوجه قد ذكرناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» وواحد منها فيه بعد وإن روي عن عكرمة والسدي وغيرهما. الأول: أن استفهام زكريا استفهام استخبار واستعلام؛ لأنه لا يعلم هل الله يأتيه بالولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة، أو يأمره بأن يتزوج شابة، أو يردهما شايبين؟ فاستفهم عن الحقيقة ليعلمها، ولا إشكال في هذا، وهو أظهرها. الثاني: أن استفهامه استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى.

الثالث: وهو الذي ذكرنا أن فيه بعداً، هو ما ذكره ابن جرير عن عكرمة والسدي من أن زكرياء لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى، قال له الشيطان: ليس هذا نداء الملائكة، وإنما هو نداء الشيطان، فداخل زكرياء الشك في أن النداء من الشيطان، فقال عند ذلك الشك الناشئ عن وسوسة الشيطان قبل أن يتيقن أنه من الله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ الآية [آل عمران: ٤٠]؛ ولذا طلب الآية من الله على ذلك بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ الآية [آل عمران: ٤١]. وإنما قلنا: إن هذا القول فيه بعد لأنه لا يلتبس على زكرياء نداء الملائكة بنداء الشيطان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «عتياً» أصله عتوا، فأبدلت الواو ياء، ومن إطلاق العتي على الكبر المتناهي قول الشاعر:

إنما يعذر الوليد ولا يعذر من كان في الزمان عتياً

وقراءة «عسيا» بالسین شاذة لا تجوز القراءة بها، وقال القرطبي: وبها قرأ ابن عباس، وهي كذلك في مصحف أبي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ﴾. هذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة، ذكره أيضاً في «آل عمران» في قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ﴾ للعلماء في إعرابه أوجه:

الأول: أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره، الأمر كذلك، ولا محالة أن تلد الغلام المذكور، وقيل: الأمر كذلك أنت كبير في السن، وامراتك عاقر، وعلى هذا فقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ ابتداء كلام.

الوجه الثاني: أن «كذلك» في محل نصب بـ«قال» وعليه فالإشارة بقوله: «ذلك» إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ ونظيره على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءَ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ۖ﴾ [الحجر: ١٦]. وغير هذين من أوجه إعرابه تركناه لعدم وضوحه عندنا. وقوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي يسير سهل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي ومن خلقتك ولم تكن شيئاً فهو قادر على أن يرزقك الولد المذكور كما لا يخفى، وهذا الذي قاله هنا لتركيا من أنه خلقه ولم يكن شيئاً، أشار إليه بالنسبة إلى الإنسان في مواضع أخر كقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ [١٧]... الآية، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۖ﴾ [الإنسان: ١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ دليل على أن المعدوم ليس بشيء؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [يس: ٨٢]، وهذا هو الصواب، خلافاً للمعتزلة القائلين: إن المعدوم الممكن وجوده شيء؛ مستدلين لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ﴾ [يس: ٨٢] قالوا: قد سماه الله شيئاً قبل أن يقول له كن فيكون، وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده، ولأجل هذا قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: لأن المعدوم ليس بشيء. أو ليس شيئاً يعتد به؛ كقولهم: عجبت من لا شيء... وقول الشاعر:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

لأن مراده بقوله: «غير شيء»، أي إذا رأى شيئاً تافهاً لا يعتد به كأنه لا شيء لحقارته ظنه رجلاً؛ لأن غير شيء بالكلية لا يصح وقوع الرؤية عليه. والتحقيق هو ما دلت عليه هذه الآية وأمثالها في القرآن من أن المعدوم ليس بشيء، والجواب عن استدلالهم بالآية أن ذلك المعدوم لما تعلق الإرادة بإيجاده، صار تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ فَلَا تَسْعَاهُ ۖ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْأُنْبِيَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية [الزمر: ٧١]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾

رَّحِمَهُمْ... الآية [الزمر: ٧٣]، وأمثال ذلك، كل هذه الأفعال الماضية الدالة على الوقوع بالفعل فيما مضى، أطلقت مراداً بها المستقبل؛ لأن تحقق وقوع ما ذكر صيره كالواقع بالفعل. وكذلك تسميته شيئاً قبل وجوده لتحقيق وجوده بإرادة الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا حمزة والكسائي ﴿خَلَقْنَاكَ﴾ بناء الفاعل المضمومة التي هي تاء المتكلم. وقرأه حمزة والكسائي «وقد خلقناك» بئون بعدها ألف، وصيغة الجمع فيها للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا سُوِّيًّا ۝١٠﴾. المراد بالآية هنا العلامة، أي اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به من الولد، قال بعض أهل العلم: طلب الآية على ذلك لتتم طمأنينته بوقوع ما بشر به. ونظيره على هذا القول قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْكُنْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لَيُطَمِّئَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقيل: أراد بالعلامة أن يعرف ابتداء حمل امرأته؛ لأن الحمل في أول زمنه يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا سُوِّيًّا﴾؛ أي علامتك على وقوع ذلك ألا تكلم الناس، أي أن تمنع الكلام فلا تطيقه ثلاث ليال بأيامهن في حال كونك سوياً، أي سوي الخلق، سليم الجوارح، ما بك خرس ولا بكم ولكنك ممنوع من الكلام على سبيل خرق العادة، كما قدمنا في «آل عمران»، أما ذكر الله فليس ممنوعاً منه بدليل قوله في «آل عمران»: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِآلْحَشَىٰ وَالْإِنكِرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. وقول من قال: إن معنى قوله تعالى: ﴿تَلَثَّ لَيْالٍ سُوِّيًّا﴾ أي ثلاث ليال متتابعات، غير صواب، بل معناه هو ما قدمناه من كون اعتقال لسانه عن كلام قومه ليس لعله ولا مرض حدث به ولكن بقدرة الله تعالى، وقد قال تعالى هنا: ﴿تَلَثَّ لَيْالٍ﴾ ولم يذكر معها أيامها، ولكنه ذكر في «آل عمران»، في قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾... الآية [آل عمران: ٤١]. فدللت الآيتان على أنها ثلاث ليال بأيامهن.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ يعني إلا بالإشارة أو الكتابة، كما دل عليه قوله هنا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقوله في «آل عمران»: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾... الآية [آل عمران: ٤١]؛ لأن الرمز الإشارة والإيماء بالشفقتين والحاجب، والإيحاء في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾... الآية، قال بعض العلماء: هو الإشارة وهو الأظهر بدليل قوله: ﴿إِلَّا رَمْرًا﴾ كما تقدم آنفاً، وممن قال بأن الوحي في الآية الإشارة: قتادة، والكلبي، وابن منبه، والعتبي، كما نقله عنهم القوطي وغيره. وعن مجاهد، والسدي ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣] أي كتب لهم في الأرض، وعن عكرمة: كتب لهم في كتاب. والوحي في لغة العرب يطلق

على كل إلقاء في سرعة وخفاء؛ ولذلك أطلق على الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّبْلِ﴾... الآية [النحل: ٦٨]. وعلى الإشارة كما هو الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾... الآية، ويطلق على الكتابة كما هو القول الآخر في هذه الآية الكريمة، وإطلاق الوحي على الكتابة مشهور في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

فقوله: «الوحي» بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء، جمع وحي بمعنى الكتابة. وقول عترة:

كوحي صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطمى
وقول ذي الرمة:

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها بقية وحي في بطون الصحائف
وقول جرير:

كأن أخوا الكتاب يخط وحيًا بكاف في منازلها ولام
قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن زكرياء خرج على قومه من المحراب فأشار إليهم، أو كتب لهم أن سبحوا الله أول النهار وآخره، فالبكرة أول النهار، والعشي آخره. وقد بين تعالى في «آل عمران» أن هذا الذي أمر به زكرياء قومه بالإشارة أو الكتابة من التسبيح بكرة وعشيًا، أن الله أمر زكرياء به أيضاً، وذلك في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. والظاهر أن هذا المحراب الذي خرج منه على قومه هو المحراب الذي بشر بالولد وهو قائم يصلي فيه المذكور في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: والمحراب: أرفع المواضع، وأشرف المجالس. وكانوا يتخذون المحارِب فيما ارتفع من الأرض، اهـ. وقال الجوهري في صحاحه: قال الفراء: المحارِب: صدور المجالس، ومنه سمي محراب المسجد، والمحراب: الغرفة. قال وضاح اليمن:

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقي سلما

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وللعلماء أقوال في ارتفاع الإمام على المأمومين في الصلاة مستنبطة من الآية والخلاصة ما قال مقيده رحمه الله يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها: وجوب الجمع بين الأدلة المذكورة، وأن علو الإمام مكروه لما تقدم.

ويجمع بينه وبين قصة الصلاة على المنبر بجوازه للتعليم دون غيره، ويدل لهذا إخباره ﷺ أنه ارتفع على المنبر ليعلمهم الصلاة؛ لأنه إذا ارتفع رأوه وإذا نزل لم يره إلا من يليه، وجمع بعضهم بأن ارتفاعه على المنبر ارتفاع يسير وهو مغتفر. أما علو المأموم فقد تعارض فيه القياس مع فعل أبي هريرة؛ لأن القياس يقتضي كراهة ارتفاع المأموم قياساً على ارتفاع الإمام وهو قياس جلي، وإذا تعارض القياس مع قول الصحابي فمن الأصوليين من يقول بتقديم القياس، وهو مذهب مالك وجماعة، ومنهم من يقول بتقديم قول الصحابي، ولا شك أن الأحوط تجنب علو كل واحد من الإمام والمأموم على الآخر، والعلم عند الله تعالى.

و«أن» في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾ هي المفسرة، والمعنى أن ما بعدها يفسر الإيحاء المذكور قبلها، فهذا الذي أشار لهم به هو الأمر بالتسبيح بكرة وعشياً، وهذا هو الصواب، ويحتمل أن تكون مصدرية بناء على أن «أن» المصدرية تأتي مع الأفعال الطلبية؛ وعليه فالمعنى أوحى إليهم أي أشار إليهم بأن سبحوا، أي بالتسبيح أو كتب لهم ذلك بناء على القول بأن المراد به الكتابة، وكونها مفسرة هو الصواب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَبْحَثُ خِزْيُ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ۝١٧ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٨ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٩ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝٢٠﴾. اعلم أولاً أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمناها أن يذكر شيء مع بعض صفاته وله صفات أخر مذكورة في موضع آخر، فإننا نبينها؛ وقد مر فيه أمثلة كثيرة من ذلك، وأكثرها في الموصوفات من أسماء الأجناس لا الأعلام، وربما ذكرنا ذلك في صفات الأعلام كما هنا، فإذا علمت ذلك، فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة بعض صفات يحيى، وقد ذكر شيئاً من صفاته أيضاً في غير هذا الموضع، وسنين - إن شاء الله - المراد بالمذكور منها هنا، والمذكور في غير هذا الموضع.

اعلم أنه هنا وصفه بأنه قال له: ﴿يَبْحَثُ خِزْيُ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ ووصفه بقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، فقوله: ﴿يَبْحَثُ خِزْيُ الْكِتَابِ﴾ مقول قول محذوف؛ أي وقلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة، والكتاب: التوراة؛ أي خذ التوراة بقوة؛ أي بجهد واجتهاد، وذلك بتفهم المعنى أولاً حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بأدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به. وعامة المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا: التوراة. وحكى غير واحد عليه الإجماع. وقيل: هو كتاب أنزل على يحيى، وقيل: هو اسم جنس يشمل الكتب المتقدمة، وقيل: هو صحف إبراهيم، والأظهر قول الجمهور: إنه التوراة كما قدمنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ﴾ أي أعطيناه الحكم، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب؛ أي إدراك ما فيه والعمل به في حال كونه صبياً. قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا! فلهذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، وقال ابن جرير الطبري رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ يقول تعالى ذكره: وأعطيناه الفهم بكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، وقد حدثنا أحمد بن منيع قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرني معمر ولم يذكره عن أحد في هذه الآية ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ قال: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، فأنزل الله ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أي الحكمة، ومنه قول نابغة ذبيان:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمد

وقال أبو حيان في البحر في تفسير هذه الآية: والحكم النبوة، أو حكم الكتاب، أو الحكمة، أو العلم بالأحكام، أو اللب وهو العقل، أو آداب الخدمة، أو الفراسة الصادقة. أقوال.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي، هو أن الحكم العلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهماً صحيحاً، والعمل به حقاً، فإن هذا يشمل جميع أقوال العلماء في الآية الكريمة. وأصل معنى «الحكم» المنع، والعلم النافع، والعمل به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان.

وقوله تعالى: ﴿صَبِيّاً﴾ أي لم يبلغ، وهو الظاهر. وقيل: صبياً أي شاباً لم يبلغ سن الكهولة، ذكره أبو حيان وغيره، والظاهر الأول. قيل: ابن ثلاث سنين، وقيل: ابن سبع، وقيل: ابن ستين، والله أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَنَاناً﴾ معطوف على ﴿الْحُكْمَ﴾ أي وآتيناه حناناً من لدنا، والحنان: هو ما جبل عليه من الرحمة، والعطف والشفقة. وإطلاق الحنان على الرحمة والعطف مشهور في كلام العرب، ومنه قولهم: حنانك وحنانيك يا رب، بمعنى رحمتك، ومن هذا المعنى قول امرئ القيس:

أبنت الحارث الملك بن عمرو له ملك العراق إلى عمان
ويمنحها بنو شمعجي بن جرم معيرهم حنانك ذا الحنان

يعني رحمتك يا رحمن؛ وقول طرفة بن العبد:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانك بعض الشر أهو من بعض
وقول منذر بن درهم الكلبي:

وأحدث عهد من أمينة نظرة
على جانب العلياء إذ أنا واقف
فقال حنان ما أتى بك هاهنا
أذو نسب أم أنت بالحي عارف

فقوله: «حنان» أي أمري حنان؛ أي رحمة لك، وعطف، وشفقة عليك، وقول
الحطيئة أو غيره:

تحنن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالاً

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا، وأصح التفسيرات في قوله: ﴿وَزَكَاةٌ﴾ أنه
معطوف على ما قبله أي أو أعطيناه زكاة، أي طهارة من أدران الذنوب والمعاصي
بالطاعة، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وقد قدمنا في سورة «الكهف» الآيات الدالة على
إطلاق الزكاة في القرآن بمعنى الطهارة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقال أبو عبد الله
القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ﴿وَزَكَاةٌ﴾ الزكاة: التطهير والبركة والتنمية في وجوه
الخير؛ أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى زكينا بحسن الثناء عليه كما
يزكي الشهود إنساناً. وقيل: ﴿زَكَاةٌ﴾ صدقة على أبويه؛ قاله ابن قتيبة. انتهى كلام
القرطبي، وهو خلاف التحقيق في معنى الآية. والتحقيق فيه - إن شاء الله - هو ما ذكرنا
من أن المعنى: وأعطيناه زكاة؛ أي طهارة من الذنوب والمعاصي بتوفيقنا إياه للعمل بما
يرضي الله تعالى، وقول من قال من العلماء: بأن المراد بالزكاة في الآية العمل الصالح،
راجع إلى ما ذكرنا؛ لأن العمل الصالح هو الذي به الطهارة من الذنوب والمعاصي.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، أي ممثلاً لأوامر ربه مجتنباً
كل ما نهى عنه؛ ولذا لم يعمل خطيئة قط، ولم يلم بها، قاله القرطبي وغيره عن قتادة
 وغيره. وفي نحو ذلك أحاديث مرفوعة، والظاهر أنه لم يثبت شيء من ذلك مرفوعاً؛
إما بانقطاع، وإما بعننة مدلس، وإما بضعف راو، كما أشار له ابن كثير وغيره. وقد
قدمنا معنى «التقوى» مراراً وأصل مادتها في اللغة العربية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البر بالفتح هو فاعل البر - بالكسر - كثيراً، أي
وجعلناه كثير البر بوالديه، أي محسناً إليهما، لطيفاً بهما، لين الجانب لهما. وقوله:
﴿وَبَرًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿تَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن
مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان مطيعاً لله، متواضعاً لوالديه، قاله ابن
جرير. والجبار: هو كثير الجبر، أي القهر للناس، والظلم لهم، وكل متكبر على الناس
يظلمهم: فهو جبار. وقد أطلق في القرآن على شديد البطش في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا
بَطَشْتَ بِطَشِّكَ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء] وعلى من يتكرر منه القتل في قوله: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأُنثَىٰ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [القصص: ١٩].

والظاهر أن قوله: ﴿عَصِيًّا﴾ فعول قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء على القاعدة التصريفية المشهورة؛ التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطى غير ما قد رسما

فأصل «عصيا» على هذا «عصويا» كصبور، أي كثير العصيان، ويحتمل أن يكون أصله فعلا وهي من صيغ المبالغة أيضاً، قاله أبو حيان في البحر.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ قال ابن جرير: وسلام عليه أي أمان له. وقال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهو أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة، وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول، انتهى كلام ابن عطية بواسطة نقل القرطبي في تفسير هذه الآية، ومرجع القولين إلى شيء واحد؛ لأن معنى سلام، التحية، الأمان، والسلامة مما يكره. وقول من قال: هو الأمان، يعني أن ذلك الأمان من الله. والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره. والظاهر المتبادر أن قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية من الله ليحيى ومعناها الأمان والسلامة.

وقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء به وهو نكرة أنه في معنى الدعاء، وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة بالسلام التي هي وقت ولادته، ووقت موته، ووقت بعثه في قوله: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾... الآية؛ لأنها أوحش من غيرها، قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فيها؛ رواه عنه ابن جرير وغيره. وذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بإسناده عن الحسن رضي الله عنه قال: إن عيسى ويحيى التقيا فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. قال الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي وسلم الله عليك. وقد نقل القرطبي هذا الكلام الذي رواه ابن جرير عن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - ثم قال: انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم، فضل عيسى بأن قال إدلالة في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه، قال ابن عطية: ولكل وجه. انتهى كلام القرطبي. والظاهر أن سلام الله على يحيى في قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ الآية أعظم من سلام عيسى على نفسه في قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو ظاهر.

قال مقيده - عفا الله عنه - : وجه هذا الاستنباط أن الحال قيد لعاملها، وصف لصاحبها، وعليه فبعثه مقيد بكونه حياً، وتلك حياة الشهداء، وليس بظاهر كل الظهور، والله تعالى أعلم.

هذا هو حاصل ما ذكره الله تعالى في هذه السورة الكريمة من صفات يحيى، وذكر بعض صفاته في غير هذا الموضع، كقوله في «آل عمران»: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] ومعنى كونه «مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» [آل عمران: ٣٩] أنه مصدق بعبسى، وإنما قيل لعيسى كلمة لأن الله أوجده بكلمة هي قوله: «كن» فكان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ... الآية [النساء: ١٧١]. وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ... الآية [آل عمران: ٤٥]. وهذا هو قول جمهور المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقيل: المراد بكلمة الكتاب، أي مصدقاً بكتاب الله. والكلمة في القرآن تطلق على الكلام المفيد، كقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مِنْ قَائِلِهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] إلى غير ذلك من الآيات، وباقي الأقوال تركناه لظهور ضعفه. والصواب - إن شاء الله - هو ما ذكرنا. وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩] وزن السيد بالميزان الصرفي «فيعل» وأصل مادته (س و د) سكنت ياء الفاعل الزائدة قبل الواو التي هي في موضع العين، فأبدلت الواو ياء عن القاعدة التصريفية المشار لها بقوله في الخلاصة:

إن يسكن السابق من واو ويا

البيتين المتقدمين آنفاً. وأصله من السواد وهو الخلق الكثير، فالسيد من يطيعه، ويتبعه سواد كثير من الناس. والدليل على أن عين المادة واو أنك تقول فيه: ساد يسود بالواو، وتقول: سودوه، إذا جعلوه سيّداً، والتضعيف يرد العين إلى أصلها، ومنه قول عامر بن الطفيل العامري:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بسأم ولا أب

وقال الآخر:

وإن بسقوم سودوك لحاجة إلى سيد لو يظفرون بسيد

وشهرة مثل ذلك تكفي عن بيانه، والآية فيها دليل على إطلاق السيد على من ساد من الناس، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ قال في الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيد» الحديث، وأنه ﷺ لما جاء سعد بن معاذ رضي الله عنه للحكم في بني قريظة قال ﷺ: «قوموا لسيدكم» والتحقيق في معنى قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أنه الذي

حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن تبتلاً منه، وانقطاعاً لعبادة الله. وكان ذلك جائزاً في شرعه، وأما سنة النبي ﷺ فهي التزوج وعدم التبتل، أما قول من قال: إن الحضور فعول بمعنى مفعول، وأنه محصور عن النساء لأنه عنين لا يقدر على إتيانهن، فليس بصحيح؛ لأن العنة عيب ونقص في الرجال، وليست من فعله حتى يثني عليه بها. فالصواب - إن شاء الله - هو ما ذكرنا، واختاره غير واحد من العلماء. وقول من قال: إن الحضور هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر كما قال الأخطل:

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحضور ولا فيها بسوار

قول ليس بالصواب في معنى الآية، بل معناها هو ما ذكرنا وإن كان إطلاق الحضور على ذلك صحيحاً لغة. وقوله: «ونبيئاً» على قراءة نافع بالهمزة معناه واضح، وهو فعيل بمعنى مفعول، من النبأ وهو الخبر الذي له شأن؛ لأن الوحي خير له شأن يخبره الله به. وعلى قراءة الجمهور بالياء المشددة فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أبدلت ياء وأدغمت فيها الياء التي قبلها. وعلى هذا فهو كالقراءتين السبعيتين في قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِي إِيزَاةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] بالهمزة وتشديد الياء. وقال بعض العلماء: هو على قراءة الجمهور من النبوة بمعنى الارتفاع لرفعة النبي وشرفه، والصالحون هم الذين صلحت عقائدهم، وأعمالهم، وأقوالهم، ونياتهم، والصلاح ضد الفساد، وقد وصف الله تعالى يحيى بالصلاح مع من وصف بذلك من الأنبياء في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [١٦].

أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب وهو القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، وقوله: ﴿اتَّخَذَتْ﴾ أي تنحت عنهم واعتزلتهم منفردة عنهم. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي مما يلي شرقي بيت المقدس. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «إِذْ بَدَلُ مِنْ ﴿مَرْيَمَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها اشتمال الظرف على مظلوفه. قاله الزمخشري في الكشف واعترضه عليه أبو البقاء وأبو حيان. والظاهر سقوط اعتراضهما، وأن الصواب معه، والله تعالى أعلم. ولم يذكر هنا شيئاً عن نسب «مريم» ولا عن قصة ولادتها، وبين في غير هذا الموضع أنها ابنة عمران، وأن أمها نذرت ما في بطنها محرراً، تعني لخدمة بيت المقدس، تظن أنها ستلد ذكراً فولدت «مريم». قال في بيان كونها ابنة عمران: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾... الآية [التحریم: ١٢]. وذكر قصة ولادتها في «آل عمران» في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٥] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ

كَأَلَانِيَّ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ
أَنْ لِّي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ منصوب لأنه ظرف.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾. أظهر الأقوال أن المراد
بقوله: ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل. ويدل لذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿قُلْ
نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وإضافته إلى الله إضافة تشريف وتكريم.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. تمثله لها بشراً سويّاً المذكور في الآية يدل
على أنه ملك وليس بآدمي، وهذا المدلول صرح به تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ
يَمْرُؤِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وهذا الذي
بشرها به هو الذي قال لها هنا: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وقوله:
﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ حالان من ضمير الفاعل في قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. ذكر
- جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك الروح الذي هو جبريل قال لها إنه رسول
ربها ليهب لها، أي ليعطيها غلاماً أي ولداً زكياً، أي طاهراً من الذنوب والمعاصي،
كثير البركات، وبين في غير هذا الموضع كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها،
وهو عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٤٦﴾ [آل عمران]: وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَنفُسَ وَأُخِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات
المشتملة على صفات هذا الغلام. وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وورش عن نافع وقالون
عنه أيضاً بخلف عنه «ليهب» بالياء المفتوحة بعد اللام، أي ليهب لك هو، أي ربك
غلاماً زكياً. وقرأ الباقون «لأهب» بهمزة المتكلم أي لأهب لك هو أنا أيها الرسول من
ربك غلاماً زكياً. وفي معنى إسناد الهبة إلى نفسه على قراءة الجمهور خلاف معروف
بين العلماء، وأظهر الأقوال في ذلك عندي أن المراد بقول جبريل لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾؛ أي لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع الذي
وصل إلى الفرج، فصار بسببه حملها عيسى، وبين تعالى في سورة «التحريم» أن هذا
النفخ في فرجها في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ
رُوحِنَا﴾ ... الآية [التحريم: ١٢]. والضمير في قوله: «فيه» راجع إلى فرجها. ولا ينافي

ذلك قوله تعالى في «الأنبياء»: ﴿وَالَّذِي أَخْفَصْنَا فَزَعَهَا فَفَخَصْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى، وبهذا فسر الزمخشري في الكشاف الآية.

وقال بعض العلماء: قول جبريل ﴿لَا هَبَ لَكَ﴾ حكاية منه لقول الله - جل وعلا - وعليه فالمعنى إنما أنا رسول ربك، وقد قال لي أرسلتك لأهب غلاماً، والأول أظهر. وفي الثاني بعد عن ظاهر اللفظ. وقال بعض العلماء: جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وبهذا صدر القرطبي في تفسيره. وأظهرها الأول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٤٥﴾. ذكر

- جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن مريم لما بشرها جبريل بالغلام الزكي - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف ألد غلاماً والحال أنني لم يمسسني بشر، تعني لم يجامعني زوج بنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي لم أك زانية. وإذا انتفى عنها مسيس الرجال حلالاً وحراماً فكيف تحمل، والظاهر أن استفهامها استخبار واستعلام عن الكيفية التي يكون بها حمل الغلام المذكور؛ لأنها مع عدم مسيس الرجال لم تتضح لها الكيفية. ويحتمل أن يكون استفهامها استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، وهذا الذي ذكر الله - جل وعلا - عنها أنها قالت هنا ذكره عنها أيضاً في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدْيِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

واقتصارها في آية «آل عمران» على قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] يدل على أن مسيس البشر المنفي عنها شامل للمسيس بنكاح والمسيس بزنى، كما هو الظاهر. وعليه فقولها في سورة «مريم»: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ يظهر فيه أن قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تخصيص بعد تعميم؛ لأن مسيس البشر يشمل الحلال والحرام. وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، «أَوْ لَيْسَتْهُنَّ النِّسَاءُ» [النساء: ٤٣] والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها، وخبث بها، وما أشبه ذلك. وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب، اهـ.

والأظهر الأول، وآية (آل عمران) تدل عليه، ويؤيده أن لفظة «بشر» نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر فيتنفى مسيس كل بشر كائناً من كان، والبغي: المجاهرة المشتهرة بالزنى. ووزنه فاعول عند المبرد، اجتمعت فيه واو وياء سبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي ودلي جمع عصا ودلو. كما قدمنا هذا مراراً. والقائل بأن أصل البغي فاعول، يقول: لو كان أصله فعلاً للحقته هاء التأنيث، لأنها لازمة في فعيل بمعنى فاعل. وقال

ابن جني في كتاب التمام: أصل البغي على وزن فعيل، ولو كان فعولاً؛ لقليل بغو؛ كما قيل: فلان نهو عن المنكر. وعلى هذا القول فقد يجاب عن عدم لحوق تاء التأنيث بأن البغي وصف مختص بالإناث. والرجل يقال فيه باغ لا بغي؛ كما قاله أبو حيان في البحر، والأوصاف المختصة بالإناث لا تحتاج إلى تاء الفرق بين الذكر والأنثى كحائض؛ كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يخص عن تاء استغنى لأن اللفظ نص

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾. قد قدمنا تفسير هذه الآية مستوفى في قصة زكرياء، فأغنى عن إعادته هنا. وقول جبريل لمريم في هذه الآية: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾؛ أي وستلدين ذلك الغلام المبشر به من غير أن يمسك بشر، وقد أشار تعالى إلى معنى هذه الآية في سورة في قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَصَقَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج ليجعل ذلك آية للناس؛ أي علامة دالة على كمال قدرته، وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل يحواء كما نص على ذلك في قوله: ﴿وَوَلَقَّ مِنَهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي خلق من تلك النفس التي هي آدم زوجها حواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر، والأنثى معاً كما فعل بآدم. وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم، فسيحان الله العظيم القادر على كل شيء؟ وما ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من كونه جعل عيسى آية حيث ولدته أمه من غير زوج أشار له أيضاً في «الأنبياء» بقوله: ﴿وَوَعَدْنَاهَا إِنَّمَا آيَةٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وفي «الفلاح» بقوله: ﴿وَوَعَدْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فيه حذف دل المقام عليه. قال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تعليل معلله محذوف؛ أي ولنجعل آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر، أي لنبين به قدرتنا ولنجعل آية. ونحوه ﴿وَوَلَقَّ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَّ وَتَعَزَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [البجائية: ٢٢]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ [يوسف: ٢١] اهـ.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لمن آمن به، ومن كفر به فلم يبتغ الرحمة لنفسه، كما قال تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان وجود ذلك الغلام منك أمراً مقضياً، أي مقدراً في الأزل، مسطوراً في اللوح المحفوظ لا بد من وقوعه، فهو واقع لا محالة.

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ﴾ ﴿فَلَجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جُذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن مريم حملت عيسى . فقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي عيسى ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي تنحت به وبعدت معتزلة عن قومها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي في مكان بعيد، والجمهور على أن المكان المذكور بيت لحم . وفيه أقوال آخر غير ذلك، وقوله: ﴿فَلَجَأَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان . والعرب تقول: جاء فلان، وأجاءه غيره: إذا حمّله على المجيء، ومنه قول زهير:

وجار سار معتمداً إلينا أجاءته المخافة والرجاء
وقول حسان رضي الله عنه:

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل
والمخاض: الطلق، وهو وجع الولادة، وسمي مخاضاً من المخض، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج .

وقوله: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ تمت أن تكون قد ماتت قبل ذلك ولم تكن شيئاً يذكر . فإذا عرفت معنى هاتين الآيتين، فاعلم أنه هنا لم يبين كيفية حملها به، ولم يبين هل هذا الذي تنحت عنهم من أجله، وتمنت من أجله أن تكون ماتت قبل ذلك، وكانت نسياً منسياً؛ وهو خوفها من أن يتهموها بالزنى، وأنها جاءت بذلك الغلام من زنى وقعت فيه أو سلمت منه . ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ . . . الآية [الأنبياء: ٩١] . والذي عليه الجمهور من العلماء أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ كما تقدم، ولا ينافي ذلك إسناد الله - جل وعلا - النفخ المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ؛ ومن أجل كونه بإذنه ومشيته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا بمشيئته - جل وعلا - أسنده إلى نفسه، والله تعالى أعلم .

وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل .

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن ذلك الذي خافت منه وهو قذفهم لها بالفاحشة

قد وقعت فيه، ولكن الله برأها، وذلك كقوله عنهم: ﴿قَالُوا لِمَرِيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يعنون الفاحشة، وقوله عنهم: ﴿يَتَأَخَذَ هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا﴾ يعنون فكيف فجرت أنت وجئت بهذا الولد؟ وكقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ يَقُولُهُمْ عَلَيَّ مَرِيَمُ هَيْتَنَّا عَظِيمًا﴾ [النساء].

وقوله: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ القصي، البعيد، ومنه قول الراجز:

لتقعدن مقعد القصي مني ذي القاذورة المقلبي
أو تحلفني بربك العلي أني أبو ذيا لك الصبي

وهذا المكان القصي قد وصفه الله تعالى في غير هذا الموضع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَنَ مَرِيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون]؛ وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي انتبذت وهو في بطنها. والإشارة في قوله هذا إلى الحمل والمخاض الذي أصابها للوضع.

وقوله في هذه الآية الكريمة عنها: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ النسي والنسي - بالكسر والفتح - هو ما من حقه أن يطرح وينسى لحقارته، كخزق الحيض، وكالوتد والعصا، ونحو ذلك. ومن كلام العرب إذا ارتحلوا عن الدار قولهم: انظروا أنساءكم، جمع نسي، أي الأشياء الحقيمة التي من شأنها أن تترك وتنسى كالعصا والوتد؛ ونحو ذلك. فقولها: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ أي شيئاً تافهاً حقيراً من حقه أن يترك وينسى عادة. وقولها: ﴿مَّنْسِيًّا﴾ تعني أن ذلك الشيء التافه الذي من عادته أن يترك وينسى قد نسي وطرح بالفعل فوجد فيه النسيان الذي هو حقه. وأقوال المفسرين في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، ومن إطلاق النسي على ما ذكرنا قول الكمي:

أتجعلنا جسراً لكلب قضاة ولست بنسي في معد ولا دخل

فقوله: «بنسي» أي شيء تافه منسي، وقول الشنفرى:

كان لها في الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تحدثك تبلى

فقوله: «نسياً» أي شيء تركته ونسيته. وقوله: «تبلى» بفتح التاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام بعدها تاء التانيث - أي تقطع كلامها من الحياء. والبلت في اللغة: القطع. وقرأ نافع وحفص عن عاصم وحزمة والكسائي ﴿يَلْتَنِي مِتٌ﴾ بكسر الميم، وقرأ الباقون «مت» بضم الميم. وقرأ حفص عن عاصم وحزمة ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ بفتح النون. والباقون بكسرها، وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان صحيحتان.

وأقوال العلماء في قدر المدة التي حملت فيها مريم بعيسى قبل الوضع لم تذكرها، لعدم دليل على شيء منها. وأظهرها أنه حمل كعادة حمل النساء وإن كان منشؤه خارقاً للعادة، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

اعلم أولاً: أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين: قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾؛ بكسر الميم على أن «من» حرف جر، وخفض تاء تحتها؛ لأن الظرف مجرور بـ«من». وقرأه ابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر وشعبة عن عاصم، ﴿فَنَادَاها مَنْ تَحْتَهَا﴾ بفتح ميم «من» على أنه اسم موصول هو فاعل نادى، أي ناداها الذي تحتها، وفتح «تحتها»، فعلى القراءة الأولى ففاعل النداء ضمير محذوف، وعلى الثانية فالفاعل الاسم الموصول الذي هو «من».

وإذا عرفت هذا فاعلم أن العلماء مختلفون في هذا المنادي الذي ناداها المعبر عنه في إحدى القراءتين بالضمير، وفي الثانية بالاسم الموصول من هو؟ فقال بعض العلماء: هو عيسى. وقال بعض العلماء: هو جبريل. وممن قال: إن الذي نادى مريم هو جبريل، ابن عباس، وعمرو بن ميمون الأودي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد بن جبیر في إحدى الروایتين عنه. وأهل هذا القول قالوا: لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

وممن قال: إن الذي ناداها هو عيسى عندما وضعته، أبي، ومجاهد، والحسن، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبیر في الرواية الأخرى عنه، وابن زيد.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن من قال: إنه الملك يقول: فناداها جبريل من مكان تحتها؛ لأنها على ربوة مرتفعة، وقد ناداها من مكان منخفض عنها. وبعض أهل هذا القول يقول: كان جبريل تحتها يقبل الولد كما تقبله القابلة. والظاهر الأول على هذا القول. وعلى قراءة «فناداها من تحتها» بفتح الميم وتاء «تحتها» عند أهل هذا القول، فالمعنى فناداها الذي هو تحتها أي في مكان أسفل مكانها، أو تحتها يقبل الولد كما تقبل القابلة مع ضعف الاحتمال الأخير كما قدمنا، أي وهو جبريل. فعلى القراءة الأولى على هذا القول «فناداها» هو أي جبريل من تحتها. وعلى القراءة الثانية «فناداها من تحتها» أي الذي تحتها وهو جبريل. وأما على القول بأن المنادي هو عيسى، فالمعنى على القراءة الأولى: فناداها هو أي المولود الذي وضعت من تحتها؛ لأنه كان تحتها عند الوضع. وعلى القراءة الثانية: «فناداها من تحتها» أي الذي تحتها وهو المولود المذكور الكائن تحتها عند الوضع، وممن اختار أن الذي ناداها هو عيسى، ابن جرير الطبري في تفسيره، واستظهره أبو حيان في البحر، واستظهر القرطبي أنه جبريل.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرنتان: الأولى: أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل؛ لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ يعني عيسى ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾؛ أي بعيسى.

ثم قال بعده: ﴿فَنَادَيْهَا﴾؛ فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى، والقرينة

الثانية أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه؛ كما قال تعالى عنها: ﴿فَإِشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؛ وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى كما نقله عنه غير واحد. و«أن» في قوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾؛ هي المفسرة، فهي بمعنى أي، وضابط «أن» المفسرة أن يتقدمها معنى القول دون حروفه، كما هنا، فالنداء فيه بمعنى القول دون حروفه ومعنى كونها مفسرة أن الكلام الذي بعدها هو معنى ما قبلها؛ فالنداء المذكور قبلها هو: لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً.

واختلف العلماء في المراد بالسري هنا، فقال بعض العلماء: هو الجدول وهو النهر الصغير؛ لأن الله أجرى لها تحتها نهراً؛ وعليه فقوله تعالى: ﴿فَكُلِّي﴾؛ أي من الرطب المذكور في قوله: ﴿سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّتًا﴾ ﴿وَأَشْرَبِي﴾؛ أي من النهر المذكور في قوله: ﴿فَدَّ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ وإطلاق السري على الجدول مشهور في كلام العرب؛ ومنه قول لبيد في معلقته:

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاورا قلامها
وقول لبيد أيضاً يصف نخلاً نابتاً على ماء النهر:

سحق يمتعها الصفا وسريه عم نواعم بينهن كروم
وقول الآخر:

سهل الخليفة ما جد ذو نائل مثل السري تمده الأنهار
فقوله «سريه»؛ وقولهما «السري» بمعنى الجدول. وكذلك قول الراجز:

سلم ترى الدالي منه أزورا إذا يعب في السري هرهرا
وقال بعض أهل العلم: السري هو عيسى. والسري هو الرجل الذي له شرف ومروءة؛ يقال في فعله سرو بالضم. وسرا - بالفتح - يسرو سرواً فيهما. وسري - بالكسر - يسري سري وسراء وسرواً إذا شرف. ويجمع السري هذا على أسرياء على القياس، وسرواء وسراة بالفتح. وعن سيبويه أن السراة - بالفتح - اسم جمع لا جمع؛ ومنه قول الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
ويجمع السراة على سروات؛ ومنه قول قيس بن الخطيم:

وعمرة من سروات النساء تنفج بالمسك أردانها
ومن إطلاق السري بمعنى الشريف قول الشاعر:

تلقى السري من الرجال بنفسه وابن السري إذا سرى أسراهما

وقوله «أسراهما» أي أشرفهما؛ قاله في اللسان.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: القرينة من القرآن، فقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾؛ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، وقوله: ﴿سُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْنَيْنَهُمَا إِلَىٰ ذُرِّيَّتِكِ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، لأن المعين الماء الجاري، والظاهر أنه الجدول المعبر عنه بالسري في هذه الآية. والله تعالى أعلم.

ثانيهما: حديث جاء بذلك عن النبي ﷺ. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقد جاء بذلك حديث مرفوع، قال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس، سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث، انتهى كلام ابن كثير. وقال ابن حجر رحمه الله في «الكافي الشاف»، في تخريج أحاديث الكشاف في الحديث المذكور: أخرجه الطبراني في الصغير، وابن عدي من رواية أبي سنان سعيد بن سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، قال: «السري النهر». قال الطبراني: لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان، رواه عنه يحيى بن معاوية وهو ضعيف. وأخرجه عبد الرزاق، عن الثوري، عن أبي إسحاق عن البراء موقوفاً. وكذا ذكره البخاري تعليقاً عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق. ورواه ابن مردويه من طريق آدم، عن إسرائيل كذلك، وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبي إسحاق موقوفاً. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن السري الذي قاله لمريم نهر أخرجه الله لتشرب منه»، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة، عن ابن عمر، ورواه عن عكرمة أيوب بن نهيك ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة، انتهى.

فهذا الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف أقرب إلى الصواب من دعوى أن السري عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه. وممن اختار أن السري المذكور في الآية النهر: ابن جرير في تفسيره، وبه قال البراء بن عازب، وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وعمرو بن ميمون، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والسدي، وهب بن منه وغيرهم. وممن قال إنه عيسى: الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر؛ وهو إحدى الروايتين عن قتادة. وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قاله ابن كثير وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ جَنَّاتُ الْجَنَّةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَفَرِّ عَيْنًا﴾. لم يصرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ببيان الشيء الذي أمرها أن تأكل منه، والشيء الذي أمرها أن تشرب منه، ولكنه أشار إلى أن الذي أمرها أن تأكل منه هو «الرطب الجنى» المذكور، والذي أمرها أن تشرب منه هو النهر المذكور المعبر عنه «بالسري» كما تقدم هذا هو الظاهر.

وقال بعض العلماء: إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جذعاً يابساً؛ فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جنى. وقال بعض العلماء: كان الجذع جذع نخلة نابتة إلا أنها غير مثمرة، فلما هزته أنبت الله فيه الثمر وجعله رطباً جنياً. وقال بعض العلماء: كانت النخلة مثمرة، وقد أمرها الله بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجوداً. والذي يفهم من سياق القرآن أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة. ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا: إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً. ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلْ وَاشْرَبْ وَفَرِّ عَيْنًا﴾؛ يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به. فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر، وإنبات الرطب، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة، وبذلك يكون قرة عين لها؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر، وخرق الله لها العادة بتفجير الماء، وإنبات الرطب، وكلام المولود لا غرابة فيه. وقد نص الله - جل وعلا - في «آل عمران» على خرقه لها العادة في قوله: ﴿كَلَّمَكَ اللَّهُ لَحْظًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ بُحَلٌّ وَلَا لُحْلُوحٌ وَمَن يَكَلِّمْهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ إِذَا تَلَا سَمِعَهُ تُنَادِي أَصْحَابَ الْمِحْرَابِ لَمَّا يُذَكِّرُ هَذَا مَا يُخَذُّ مِنَ الْكِتَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال العلماء: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وإجراء النهر وإنبات الرطب ليس أغرب من هذا المذكور في سورة «آل عمران».

مسألة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ جَنَّاتُ الْجَنَّةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَفَرِّ عَيْنًا﴾... الآية، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً وأنه لا ينافي التوكل على الله - جل وعلا - وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه وبقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه. فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا نَحْنُ الْكِبَرُ وَكُنَّا كَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦]...

الآية [الأنبياء]. فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معانٍ مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي هي فيه كائنة برداً وسلاماً على إبراهيم، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته - جل وعلا -.

ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سبباً لشيء آخر مع أنه مناف له، كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سبباً لحياته، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته، إذ لا تكسب الحياة من ضرب بميت؟ وذلك يوضح أنه - جل وعلا - يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته - جل وعلا -.

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله قوله تعالى عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام. فدخلهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطياً للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف، ومع هذا التسبب فقد قال الله عنه: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَعْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]. فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧] وبين التوكل على الله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته، والله - جل وعلا - قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجذع، ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع. وقد قال بعضهم في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية أن خير ما تطعمه النفساء الرطب، قالوا: لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى، قاله الربيع بن خثيم وغيره. والباء في قوله: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ مزيدة للتوكيد؛ لأن فعل الهز يتعدى بنفسه، وزيادة حرف الباء للتوكيد قبل مفعول الفعل المتعدي بنفسه كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لأن المتبادر من اللغة أن الأصل وهزي إليك جذع النخلة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

الْهَلَكَةُ [البقرة: ٢٩٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾. الآية [الحج: ٢٥].
 وقوله: ﴿فَسَبِّحْ وَبُصِّرْ ۝ يَأْتِيَكُمُ الْمَقْتُولُ ۝﴾ الآية [القلم]، وقوله: ﴿تَبَّتْ يُلُذَّهِنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم التاء وكسر الباء مضارع أنبت الرباعي؛ لأن الرباعي الذي هو أنبت ينبت بضم الباء المثناة وكسر الباء الموحدة يتعدى بنفسه دون الحرف، فالباء مزيدة للتوكيد كما رأيت في الآيات المذكورة، ونظير ذلك من كلام العرب قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

إذ يسقون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون خبزاً فطيرا

لأن الأصل يسقون الدقيق فزيدت الباء للتوكيد. وقول الراعي:

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المعاجر لا يقرآن بالسور

فالأصل: لا يقرآن السور، فزيدت الباء لما ذكر.

وقول يعلى الأحمول الشكري أو غيره:

بواد يمان ينبت الشث صدره وأسفله بالمرخ والشبهان

فالأصل: وأسفله المرخ؛ أي وينبت أسفله المرخ، فزيدت الباء لما ذكر، وقول

الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ملء المراحل والصريح الأجردا

فالأصل ضمنن رزق عيالنا. وقول الراجز:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أي نرجو الفرج. وقول امرئ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمرت هصرت بغصن ذي شماريخ مبال

فالأصل: هصرت غصنا؛ لأن هصر تتعدى بنفسها. وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب.

وفي قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «تساقط» تسع قراءات، ثلاث منها سبعة.

وست شاذة. أما الثلاث السبعة فقد قرأه حمزة وحده من السبعة «تساقط» بفتح التاء وتخفيف السين وفتح القاف، أصله: تتساقط؛ فحذفت إحدى التائين. وعلى هذه القراءة فقوله «رطباً» تمييز محول عن الفاعل. وقرأه حفص وحده عن عاصم «تساقط» بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين، مضارع ساقطت تساقط. وعلى هذه القراءة فقوله «رطباً» مفعول به للفعل الذي هو «تساقط» هي أي النخلة رطباً. وقرأه بقية السبعة «تساقط» بفتح التاء والقاف وتشديد السين، أصله: تتساقط؛ فأدغمت إحدى التائين في السين. وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله «رطباً» تمييز محول عن الفاعل كإعزابه على قراءة حمزة وغير هذا من القراءات شاذ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿رُطْبًا جَيِّتًا﴾؛ الجني: هو ما طاب وصلح لأن

يجنى فيؤكل. وعن أبي عمرو بن العلاء أن الجني هو الذي لم يجف ولم يبس، ولم يبعد عن يدي متناوله.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. قائل هذا الكلام لمريم هو الذي ناداها من تحتها ألا تحزني. وقد قدمنا الخلاف عليه هل هو عيسى، أو جبريل، وما يظهر رجحانه عندنا من ذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قيل: أمرت أن تقول ذلك باللفظ. وقيل: أمرت أن تقوله بالإشارة. وكونها أمرت أن تقوله باللفظ هو مذهب الجمهور؛ كما قاله القرطبي وأبو حيان، وهو ظاهر الآية الكريمة؛ لأن ظاهر القول في قوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ﴾... الآية، أنه قول باللسان. واستدل من قال: إنها أمرت أن تقول ذلك بالإشارة بأنها لو قالته باللفظ أفست نذرها الذي نذرتة ألا تكلم اليوم إنسياً، فإذا قالت لإنسي بلسانها: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ فقد كلمت ذلك الإنسي فأفسدت نذرها. واختار هذا القول الأخير لدلالة الآية عليه ابن كثير رحمته الله، قال في تفسير هذه الآية: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لأن المراد به القول اللفظي لثلاثين في ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. وأجاب المخالفون عن هذا بأن المعنى ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ بعد قولي: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ فقد رأيت كلام العلماء في الآية. وأن القول الأول يدل عليه ظاهر السياق. وأن الثاني يدل عليه قوله: ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ لأنه يدل على نفي الكلام للإنسي مطلقاً. قال أبو حيان في البحر، وقوله: ﴿إِنْسِيًّا﴾؛ لأنها كانت تكلم الملائكة. ومعنى كلامه أن قوله «إنسياً» له مفهوم مخالفة، أي بخلاف غير الإنسي كالملائكة فإني أكلمه. والذي يظهر لي أنه لم يرد في الكلام إخراج المفهوم عن حكم المنطوق، وإنما المراد شمول نفي الكلام كل إنسان كائناً من كان.

وللعلماء أقوال مستنبطة في هذه الآية من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الأصل هل الإشارة تقوم مقام الكلام. وخلاصة رأي الشيخ في المسألة هو قوله:

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي رجحانه في المسألة أن الإشارة إن دلت على المعنى دلالة واضحة لا شك في المقصود معها أنها تقوم مقام النطق مطلقاً، ما لم تكن في خصوص اللفظ أهمية مقصودة من قبل الشارع، فإن كانت فلا تقوم الإشارة مقامه كإيمان اللعان، فإن الله نص عليها بصورة معينة، فالظاهر أن الإشارة لا تقوم مقامها، وكجميع الألفاظ المتعبد بها فلا تكفي فيها الإشارة، والله - جل وعلا - أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أي إمساكاً عن الكلام في قول الجمهور، والصوم في اللغة: الإمساك، ومنه قول نابغة ذبيان:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلقك اللجما

فقوله: «خيل صيام» أي ممسكة عن الجري، وقيل عن العلف «وخيل غير صائمة» أي غير ممسكة عما ذكر، وقول امرئ القيس:

كأن الثريا علقّت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فقوله: «في مصامها» أي مكان صومها، يعني إمساكها عن الحركة. وهذا القول هو الصحيح في معنى الآية؛ أن المراد بالصوم الإمساك عن الكلام، بدليل قوله بعده: ﴿قَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمِ إِنْشِيًا﴾؛ وهو قول أكثر أهل العلم. وقال ابن حجر في (الفتح) في (باب اللعان). وقد ثبت من حديث أبي بن كعب وأنس بن مالك أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً. أخرجه الطبراني وغيره، اهـ. وقال بعض العلماء: المراد بالصوم في الآية: هو الصوم الشرعي المعروف المذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وعليه فالمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم حرم عليهم الكلام كما يحرم عليهم الطعام، والصواب في معنى الآية الأول. وعليه فهذا النذر الذي نذرته ألا تكلم اليوم إنشياً كان جائزاً في شريعتهم. أما في الشريعة التي جاءنا بها نبينا ﷺ فلا يجوز ذلك النذر ولا يجب الوفاء به، قال البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: بينما النبي يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مره فليتكلم، وليستظل وليقعد وليتم صومه» قال عبد الوهاب: حدثنا أيوب عن عكرمة عن النبي ﷺ، اهـ.

وقال ابن حجر «في الفتح» في الكلام على هذا الحديث وفي حديثه أن السكوت عن المباح ليس من طاعة الله: وقد أخرج أبو داود من حديث علي: «ولا صمت يوم إلى الليل» وتقدم في السيرة النبوية قول أبي بكر الصديق: إن هذا «يعني الصمت» من فعل الجاهلية، وفيه: أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلاً مما لم يرد بمشروعته كتاب أو سنة، كالمشي حافياً، والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره. وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه. وأمره أن يقعد ويتكلم ويستظل. قال القرطبي في قصة أبي إسرائيل هذه أوضح الحجج للجمهور في عدم وجوب الكفارة على من نذر معصية، أو ما لا طاعة فيه. قال مالك لما ذكره: ولم أسمع أن رسول الله ﷺ أمره بالكفارة، انتهى كلام صاحب (فتح الباري). وقد قال الزمخشري في تفسير هذه الآية التي نحن بصددنا: وقد نهى ﷺ عن صوم الصمت. فقال ابن حجر في (الكافي الشاف) في تخريج أحاديث (الكشاف): لم أره هكذا. وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ: «لا صمت يوم إلى الليل» وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف. ولأبي داود من حديث علي مثله، وقد تقدم في تفسير سورة «النساء».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ﴾؛ معناه فإن تري من البشر أحداً، فلفظة: «إما» مركبة من «إن» الشرطية و«ما» المزيدة لتوكيد الشرط، والأصل ترأين على وزن تفعلين، تحركت الياء التي هي لام الكلمة وانفتح ما قبلها وجب قلبها ألفاً فصارت ترأين، فحذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى الراء؛ لأن اللغة الفصحى التي هي الأغلب في كلام العرب حذف همزة رأى في المضارع والأمر، ونقل حركتها إلى الراء فصارت «ترأين» فالتقى الساكنان فحذف الأول وهو الألف، فصار ترين، فدخلت عليه نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع من أجلها هي، والجازم الذي هو إن الشرطية؛ لأن كل واحد منهما بانفراده يوجب حذف نون الرفع، فصار ترين، فالتقى ساكنان هما الياء الساكنة والنون الأولى الساكنة من نون التوكيد المثقلة؛ لأن كل حرف مشدد فهو حرفان، فحركت الياء بحركة تناسبها وهي الكسرة فصارت ترين، كما أشار إلى هذا ابن مالك في الخلاصة بقوله:

واحذفه من رافع هاتين وفي واو ويا شكل مجالس قفي
نحو اخشين يا هند بالكسر ويا قوم اخشون واضمم وقس مسويا

وما ذكرنا من أن همزة «رأى» تحذف في المضارع والأمر هو القياس المطرد في كلام العرب ويقاؤها على الأصل مسموع، ومنه قول سراقه بن مرداس البارقي الأصغر:
أري عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
وقول الأعمى بن جرادة السعدي، أو شاعر من تيم الرباب:

ألم ترأ ما لا قيت والدهر أعصر ومن يتمل العيش يراً ويسمع
وقول آخر:

أحن إذا رأيت جبال نجد ولا أراى إلى نجد سبيلا

ونون التوكيد في العمل المضارع بعد «إما» لازمة عند بعض علماء العربية، ومن قال بلزومها بعد «إما» كقوله هنا: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾: المبرد والزجاج. ومذهب سيويه والفارسي وجماعة أن نون التوكيد في الفعل المضارع بعد «إما» غير لازمة، ويدل له كثرة وروده في شعر العرب، كقول الأعشى ميمون بن قيس:

فإما تريني ولي لمة فإن الحوادث أودى بها
وقول ليبد بن ربيعة:

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً فلست بأحيا من كلاب وجعفر
وقول الشنفرى:

فإما تريني كابنة الرمل ضاحياً على رقة أحفى ولا أتنعل
وقول الأفوه الأودي:

إِذَا تَرَى رَأْسِي أَزْرَى بِهِ مَأْسُ زَمَانٍ ذِي انْتِكَاسٍ مَوْسُ
وقول الآخر:

زَعَمْتَ تَمَاضِرَ أَنَّنِي إِذَا مَتَّ يَسُدُّ أَبْيَنُهَا الْأَصَاغِرُ خَلَّتِي
وقول الآخر:

يَا صَاحِبَ إِذَا تَجَدَّنِي غَيْرُ ذِي جَدَّةٍ فَمَا التَّخْلِي عَنْ الْخِلَانِ مِنْ شِيْمِي
وأمثال هذا كثيرة في شعر العرب، والمبرد والزجاج يقولان: إن حذف النون في
الآيات المذكورة ونحوها إنما هو لضرورة الشعر. ومن خالفهم كسيبويه والفارسي
يمنعون كونه للضرورة، ويقولون: إنه جائز مطلقاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۝١٧ يَتَّخِذَ
هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۝١٨﴾. لما اطمأنت مريم بسبب ما رأت
من الآيات المخارقة للعادة التي تقدم ذكرها آنفاً، أتت به (أي بعيسى) قومها تحمله غير
محتشمة ولا مكترثة بما يقولون، فقالوا لها: ﴿يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾! قال
مجاهد وقتادة وغير واحد: «فريا» أي عظيمًا. وقال سعيد بن مسعدة: «فريا» أي مختلقًا
مفتعلًا. وقال أبو عبيدة والأخفش: «فريا» أي عجيبًا نادرًا.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يفهم من الآيات القرآنية أن مرادهم
بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ أي منكراً عظيماً؛ لأن الفري فعيل من الفرية،
يعنون به الزنى؛ لأن ولد الزنى كالشيء المفترى المختلق؛ لأن الزانية تدعي إلحاقه
بمن ليس أباه. ويدل على أن مرادهم بقولهم «فريا» الزنى قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ
وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتًا عَظِيمًا ۝١٦﴾ [النساء]؛ لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم
أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنى (حاشاها وحاشاه من ذلك) هو المراد
بقولهم لها: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾. ويدل لذلك قوله تعالى بعده: ﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا
كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۝١٨﴾؛ والبغي الزانية كما تقدم. يعنون كان
أبواك عفيفين لا يفعلان الفاحشة، فما لك أنت ترتكبينها!! ومما يدل على أن ولد
الزنى كالشيء المفترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾
[المتحنة: ١٢]. قال بعض العلماء: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَنَّ بَيْنَ
أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [المتحنة: ١٢]، أي ولا يأتين بولد زنى يقصدن إلحاقه برجل ليس
أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية. وكل عمل أجاده عامله فقد
فراه لغة، ومنه قول الراجز وهو زرارة بن صعب بن دهر:

قَدْ أَطْعَمْتَنِي دَقْلًا حَوْلِيَا مَسْبُوسًا مَدُودًا حَجْرِيَا

قد كنت تفريين به الفريا

يعني: تعملين به العمل العظيم. والظاهر أنه يقصد أنها تأكله أكلاً لمًا عظيماً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ ليس المراد به هارون بن عمران أخا موسى كما يظنه بعض الجهلة. وإنما هو رجل آخر صالح من بني إسرائيل يسمى هارون، والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم - رحمه الله تعالى - في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبو سعيد الأشج، ومحمد بن المثنى العنزي؛ واللفظ لابن نمير قالوا: حدثنا ابن إدريس عن أبيه، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»، اه، هذا لفظ مسلم في الصحيح. وهو دليل على أنه رجل غير هارون أخي موسى، ومعلوم أن هارون أخا موسى قبل مريم بزمان طويل. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في قول الزمخشري: إنما عنوا هارون النبي ما نصه: لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند، ورواه الطبري عن السدي قوله وليس بصحيح؛ فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني النبي ﷺ إلى نجران فقالوا لي: رأيتم شيئاً يقرؤونه ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين، فلم أدر ما أجيبهم؟ فقال لي النبي ﷺ: «هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم» وروى الطبري من طريق ابن سيرين: نبئت أن كعباً قال: إن قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ ليس بهارون أخي موسى، فقالت له عائشة: كذبت؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قال فهو أعلم، وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة، انتهى كلام ابن حجر.

وقال صاحب الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ أخرج ابن أبي شيبه، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران... إلى آخر الحديث كما تقدم آنفاً، وبهذا الحديث الصحيح الذي رأيت إخراج هؤلاء الجماعة له، وقد قدمناه بلفظه عند مسلم في صحيحه تعلم أن قول من قال: إن المراد هارون أخو موسى باطل سواء قيل إنها أخته، أو أن المراد بأنها أخته أنها من ذريته، كما يقال للرجل: يا أخا تميم، والمراد يا أخا بني تميم؛ لأنه من ذرية تميم، ومن هذا القبيل قوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا غَادِي﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ لأن هوداً إنما قيل له أخو عاد لأنه من ذريته، فهو أخو بني عاد، وهم المراد بعاد في الآية؛ لأن المراد بها القبيلة لا الجد. وإذا حققت أن المراد بهارون في الآية غير هارون أخي موسى، فاعلم أن بعض العلماء قال: إن لها أخاً اسمه هارون. وبعضهم يقول: إن هارون المذكور رجل من قومها مشهور بالصلاح، وعلى هذا فالمراد بكونها أخته أنها تشبهه في العبادة والتقوى، وإطلاق اسم الأخ على النظير المشابه معروف في

القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُرِيدُ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾... الآية [الزخرف: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾... الآية [الإسراء: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ومنه في كلام العرب قوله:

وكل أخ يفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان
فجعل الفرقدين أخوين.

وكثيراً ما تطلق العرب اسم الأخ على الصديق والصاحب، ومن إطلاقه على الصاحب قول القلاح بن حزن:

أخا الحرب لباساً إليها جلالها وليس بولاج الخوالف أعقلا
فقوله: «أخا الحرب» يعني صاحبها؛ ومنه قول الراعي وقيل لأبي ذؤيب:

عشية سعدى لو تراءت لراهب بدومة تجردونه وحجيج
قلبي دينه واهتاج للشوق إنها على النأي إخوان العزاء هيوج
فقوله «إخوان العزاء» يعني أصحاب الصبر.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾. معنى إشارتها إليه أنهم يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر، والدليل على أن هذا هو مرادها بإشارتها إليه قوله تعالى بعده: ﴿قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ صَيْبًا؟﴾ فالفعل الماضي الذي هو «كان» بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال كما يدل عليه السياق. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا سَقِيمًا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أول كلمة نطق لهم بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبد الله، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله، أو ابنه أو إله معه! وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم ذكرها الله - جل وعلا - عنه في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَسَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقوله في [الزخرف: ١٦]: ﴿فَأَقْصُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقوله هنا في سورة «مريم»: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾؛ وقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ التحقيق فيه - إن شاء الله -: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع. ونظائره في

القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ١٨، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْيَتِيمَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى الزَّمَرِ ٦٨ - ٧١﴾. وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل تنزيلاً لتحقيق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن. وهذا الذي ذكرنا من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَتَى الْكُتُبُ﴾ إلخ، بمعنى المستقبل هو الصواب - إن شاء الله - خلافاً لمن زعم أنه نبئ وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ. وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي كثير البركات؛ لأنه يعلم الخير ويدعو إلى الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿مُبَارَكًا أَيْ مَا كُنْتُ﴾؛ عن رسول الله ﷺ نفاعاً حيث كنت. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف): أخرجه أبو نعيم (في الحلية) في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبي هريرة بهذا وأتم. وقال: تفرد به هشيم عن يونس، وعنه شعيب بن محمد الكوفي، ورواه ابن مردويه من هذا الوجه، اهـ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾؛ قال الحوفي وأبو البقاء: هو معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾. قال أبو حيان (في البحر): وفيه بعد للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة التي هي ﴿وَأَوْصَنِي﴾ ومتعلقها، والأولى أنه منصوب بفعل مضمر؛ أي وجعلني براً بوالدي، ولما قال: ﴿بِوَالِدَيْ﴾؛ ولم يقل بوالدي، علم أنه أمر من قبل الله؛ كما ذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد قدمنا معنى «الجبار والشقي». وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «شقياً» أي خائباً من الخير، وعن ابن عباس: عاقاً. وقيل عاصياً لربه. وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقى إبليس، اهـ كلام القرطبي.

تنبيه: احتج مالك رحمه الله بهذه الآية على القدرية، قال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: قال مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر؛ أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، اهـ.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ٢٢. اعلم أن هذا الحرف فيه قراءتان سبعتان: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بضم اللام، وقرأه ابن عامر وعاصم ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بالنصب. والإشارة في قوله «ذلك» راجعة إلى المولود المذكور في الآيات المذكورة قبل هذا، وقوله «ذلك» مبتدأ، «وعيسى»، خبره، و«ابن مريم» نعت لـ «عيسى» وقيل: بدل منه. وقيل: خبر بعد خبر.

وقوله: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾ على قراءة النصب مصدر مؤكد لمضمون الجملة. وإلى نحوه أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة:

والثاني كابني أنت حقاً صرفاً

وقيل: منصوب على المدح، وأما على قراءة الجمهور بالرفع فـ«قَوْلُ الْحَقِّ» خبر مبتدأ محذوف؛ أي هو، أي نسبته إلى أمه فقط قول الحق؛ قاله أبو حيان. وقال الزمخشري: وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: اعلم أن لفظة «الحق» في قوله هنا «قول الحق» فيها للعلماء وجهان:

الأول: أن المراد بالحق ضد الباطل بمعنى الصدق والثبوت كقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وعلى هذا القول فإعراب قوله: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾؛ على قراءة النصب أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما تقدم، وعلى قراءة الرفع فهو خبر مبتدأ محذوف كما تقدم، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في «آل عمران» في القصة بعينها: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران].

الوجه الثاني: أن المراد بالحق في الآية الله - جل وعلا - لأن من أسمائه «الحق» كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ...﴾ الآية [الحج: ٦]. وعلى هذا القول فإعراب قوله تعالى: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾ على قراءة النصب أنه منصوب على المدح، وعلى قراءة الرفع فهو بدل من «عيسى» أو خبر بعد خبر، وعلى هذا الوجه (قول الحق) هو «عيسى» كما سماه الله كلمة في قوله: ﴿وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشِيرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى...﴾ الآية [آل عمران: ٤٥]. وإنما سمي «عيسى» كلمة؛ لأن الله أوجده بكلمته التي هي «كن» فكان؛ كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والقول والكلمة على هذا الوجه من التفسير بمعنى واحد.

وقوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتَّرُونَ﴾ أي يشكون، فالامتراء افتعال من المرية وهي الشك. وهذا الشك الذي وقع للكفار نهى الله عنه المسلمين على لسان نبيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران]، وهذا القول الحق الذي أوضح الله به حقيقة الأمر في شأن عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بعد نزوله على نبينا ﷺ أمره ربه أن يدعو من حازه في شأن عيسى إلى المباهلة؛ ثم أخبره أن ما قص عليه من خبر عيسى هو القصص الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ فَقُلْ فَتَحَلَّوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١ - ٦٢]. ولما نزلت ودعا النبي ﷺ وفد نجران إلى المباهلة خافوا الهلاك وأدوا كما هو مشهور.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥). اعلم أولاً أن لفظ «ما كان» يدل على النفي، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]. وتارة يدل على التعجيز كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ الآية [النمل: ٥٩]، و٦٠، وتارة يدل على التنزيه، كقوله هنا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾؛ وقد أعقبه بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله. فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه - جل وعلا - أن يتخذ ولداً، ^{٦١} عن ذلك علواً كبيراً، والآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٢٧)، وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم «عيسى ابن الله» وما نزه عنه - جل وعلا - نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية [النساء: ١٧١]. والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْجِبَالِ هَذَا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢)؛ إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة «الكهف».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد قضاءه، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥) [النحل]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨١) [يسر]، وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إليها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٠٨) [النحل]، أي إذا أردت قراءة القرآن، كما تقدم مستوفى.

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصدها: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾؛ زيدت فيه لفظة «من» قبل المفعول به لتأكيد العموم، وقد تقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة «من» لتوكيد العموم كانت نصاً صريحاً في العموم، وتطرد زيادتها للتوكيد المذكور قبل النكرة في سياق النفي في ثلاثة مواضع قبل الفاعل كقوله تعالى: ﴿مَا أَتْنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦]، وقبل المفعول كهذه الآية وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ...﴾ الآية [الأنبياء: ٢٥]، وقبل المبتدأ كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

أظهر الأقوال في «الأحزاب» المذكورة في هذه الآية أنهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن عيسى. فقالت طائفة: هو ابن زنى. وقالت طائفة: هو ابن الله. وقالت طائفة: هو الله. وقالت طائفة: هو إله مع الله. ثم إن الله توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة؛ وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسى كالذي قال: إنه ابن زنى. ومن كفر بالإفراط فيه كالذين قالوا إنه الله أو ابنه. وقوله «ويل» كلمة عذاب؛ فهو مصدر لا فعل له من لفظه. وسوغ الابتداء به وهو نكرة كونه في معنى الدعاء، والظاهر أن المشهد في الآية مصدر ميمي؛ أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم أي حضوره لما سيلقونه فيه من العذاب، خلافاً لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان؛ أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب. والأول هو الظاهر وهو الصواب - إن شاء الله تعالى - وهذا المعنى الذي ذكره هنا أيضاً في سورة «الزخرف» في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَئِنْ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٨) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ (١٩) [الزخرف]، وما أشار إليه في الآيتين من أن الذين كفروا بالإفراط أو التفريط في عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه لم يعاجلهم بالعذاب، وأنه يؤخر عذابهم إلى الوقت المحدد لذلك أشار له في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٢١) [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ (٢٢) [هود]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]. وبالجملة فالله تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يمهله، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٣) [هود]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَتَيْنَاَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَلِيَّ الْمَصِيرِ﴾ (٢٤) [الحج].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ قال أبو حيان في (البحر): ومعنى قوله «من بينهم» أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين، انتهى محل الغرض منه.

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٥).

قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغتا تعجب، ومعنى الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة يسمعون ويبصرون الحقائق التي أخبرتهم بها الرسل سمعاً وإبصاراً عجيبين، وأنهم في دار الدنيا في ضلال وغفلة لا يسمعون الحق ولا يبصرونه؛ وهذا الذي بينه تعالى في

هذه الآية الكريمة بينه في مواضع آخر كقوله في سمعهم وإبصارهم يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق]، وكقوله في غفلتهم في الدنيا وعدم إبصارهم وسمعهم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم]، وقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْأَصْنَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ ... الآية [هود: ٢٤]، والمراد بالأعمى والأصم: الكفار، والآيات بمثل هذا كثيرة، واعلم أن صيغة التعجب إذا كانت على وزن أفعل به فهي فعل عند الجمهور، وأكثرهم يقولون: إنه فعل ماض جاء على صورة الأمر. وبعضهم يقول: إنه فعل أمر لإنشاء التعجب، وهو الظاهر من الصيغة، ويؤيده دخول نون التوكيد عليه، كقول الشاعر:

ومستبدل من بعد غضبا صريمة فأحربه من طول فقر وأحريا

لأن الألف في قوله «وأحريا» مبدلة من نون التوكيد الخفيفة على حد قوله في الخلاصة:

وأبدلناها بعد فتح ألفا وقفاً كما تقول في قفن قفا

والجمهور أيضاً على أن صيغة التعجب الأخرى التي هي ما أفعله فعل ماض، خلافاً لجماعة من الكوفيين في قولهم: إنها اسم بدليل تصغيرها في قول العرجي:

ياما أميليح غزلانا شدن لنا من هؤلياتكن الضال السمر

قالوا: والتصغير لا يكون إلا في الأسماء، وأجاب من خالفهم بأن تصغيرها في البيت المذكور شاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٩]، الحسرة: أشد الندم والتلف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ أي أُنذر الناس يوم القيامة: وقيل له: يوم الحسرة لشدة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

وأشار إلى ما يحصل فيه من الحسرة في مواضع آخر كقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ... الآية [الزمر: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ كَذِبًا إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي في غفلة الدنيا معرضون عن الآخرة، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ حالية، والعامل

فيها «أنذرهم» أي أنذرهم في حال غفلتهم غير مؤمنين. خلافاً لمن قال: إن العامل في الجملة الحالية قوله قبل هذا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله هنا: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي ذبح الموت. قال البخاري رحمه الله في صحيحه: باب قوله ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾؛ حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ وهؤلاء في غفلة الدنيا وهم لا يؤمنون، انتهى من صحيح البخاري.

والحديث مشهور متفق عليه، وقراءة النبي ﷺ الآية بعد ذكره ذبح الموت تدل على أن المراد بقوله: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي ذبح الموت. وفي معناه أقوال آخر غير هذا تركناها لدلالة الحديث الصحيح على المعنى الذي ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠). معنى قوله - جلّ وعلا - في هذه الآية أنه يرث الأرض ومن عليها، أنه يميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، ويبقى هو - جلّ وعلا - لأنه الحي الذي لا يموت، ثم يرجعون إليه يوم القيامة. وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٣١) وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٣٧) [الرحمن]. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٣٢) [الحجر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥).

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه «محمداً» ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله «إبراهيم» - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر. وكرر هذا المعنى المذكور في هذه الآيات في آيات آخر من كتابه - جلّ وعلا - فهذا الذي أمر به نبيه هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾... الآية، أوضحه في سورة «الشعراء» في قوله: ﴿وَأَنبَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٦٧) ﷻ

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَ الْهَتَمِ إِنَّ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٣٨﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ﴾ ... الآية [العنكبوت: ٢٤].

وذكر علماء التفسير في قصته أنهم لما رموه إلى النار لقيه جبريل فسأله: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا! وأما إلى الله فنعم. فقال له: لم لا تسأله؟ فقال: علمه بحالي كاف عن سؤالي.

ومن صدقه في معاملته ربه، صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً لدينه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا لَمْ لَوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد هاجر من سواد العراق إلى دمشق، وقد بين - جلّ وعلا - في مواضع آخر أنه لم يكتف بنهيهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، بل زاد على ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذاً وترك الكبير من الأصنام، ولما سأله هل هو الذي كسرها قال لهم: إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق كما قال تعالى عنه: ﴿وَاللَّهُ لَا كِيدَ أَنتُمْ بَعْدَ أَنْ قُولُوا مُدِيرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذْذًا إِلَّا كَبِيرًا مِمَّنْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لِمَنِ الظَّلِيلِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَتَتْ فَقَلَّتْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَتَابِرُهُمْ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبَرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَوْ لَكُمْ إِلَهٌ مِمَّنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَى إِلَهِ الْهِنِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٨﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٦٩﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٧٠﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ [الصافات]. فقوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٧٤﴾ أي مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي قطاعاً منكسرة من قولهم: جذه إذا قطعه وكسره.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا كَانَ صَدِيقًا﴾؛ أي كثير الصدق، يعرف منه أن الكذبات الثلاث المذكورة في الحديث عن إبراهيم كلها في الله تعالى، وأنها في الحقيقة من الصدق لا من الكذب بمعناه الحقيقي، وسيأتي - إن شاء الله - زيادة إيضاح لهذا في سورة «الأنبياء»:

وقوله تعالى عن إبراهيم ﴿يَتَأَبَّى﴾ [يوسف: ٤٤]، التاء فيه عوض عن ياء المتكلم؛ فالأصل يا أبي كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وفي السندا أبت أمت عرض واكسر أو افتح ومن اليا التا عوض

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَبْدُ﴾ أصله «ما» الاستفهامية، فدخل عليها حرف الجر الذي هو «اللام» فحذف ألفها على حد قوله في الخلاصة:

وما في الاستفهام إن جرت حذف ألفها وأولها الهاء إن تنقف

ومعلوم أن القراءة سنة متبعة لا تجوز بالقياس؛ ولذا يوقف على «لم» بسكون الميم لا بهاء السكت كما في البيت، ومعنى عبادته للشيطان في قوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾؛ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي، فذلك الشرك شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبِعْ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٧﴾ وَأَنْ عِبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٨﴾ [يس]، كما تقدم هذا المبحث مستوفى في سورة «الإسراء» وغيرها.

والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان لقوله هنا: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة، وقد قدمنا كثيراً من ذلك في سورة الكهف وغيرها كقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾... الآية [النساء: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَحْوِفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أوليائه وقوله: ﴿لَهُمْ أَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية [الأعراف: ٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم. وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٩﴾ [النحل]، ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ يعني ما علمه الله من الوحي وما ألهمه وهو صغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء]، ومحاجة إبراهيم لقومه كما ذكرنا بعض الآيات الدالة عليها أتى الله بها على إبراهيم، وبين أنها حجة الله آتاه نبيه إبراهيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ شَاءَ﴾... الآية [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾... الآية [الأنعام: ٨٠]، وكون الآيات المذكورة واردة في محاجته لهم المذكورة في سورة «الأنعام» لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن أصل المحاجة في شيء واحد وهو توحيد الله - جلّ وعلا - وإقامه الحجة القاطعة على أنه لا معبود إلا هو وحده - جلّ وعلا - في سورة «الأنعام» وفي غيرها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَنَابِرُهُمْ لَنْ لَّمْ تَنْتَهُ لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ۝٥٢﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَحِمَةً إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٥٣﴾.

بين الله - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين، وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا

يسمع ولا يبصر ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان، خاطبه هذا الخطاب العنيف، وسماه باسمه ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت. وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان، أي معرض عنها لا يريد لها؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده - جلّ وعلا - وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمه (قيل بالحجارة وقيل باللسان شتماً) والأول أظهر، ثم أمره بهجره ملياً أي زماناً طويلاً، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وخطاب إبراهيم لأبيه الجاهل بقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ قد بين - جلّ وعلا - أنه خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبواهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَلْوَمَنَ الَّذِينَ يَتَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَؤُلَاءِ وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي السَّيْلِينَ ۖ﴾ [القصص]، وما ذكره تعالى هنا من أن إبراهيم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة، قابله أبوه بالعنف والشدة، بين في مواضع آخر أنه هو عادة الكفار المتعصبين لأصنامهم، كلما أفتحوا بالحجة القاطعة لجأوا إلى استعمال القوة، كقوله تعالى عن إبراهيم لما قال له الكفار عن أصنامهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. قال: ﴿أَفَبِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ﴾ [الأنبياء]، فلما أفتحهم بهذه الحجة لجأوا إلى القوة، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۖ﴾ [الأنبياء]. ونظيره قوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وقوله عن قوم لوط لما أفتحهم بالحجة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾، يعني لا ينالك مني أذى ولا مكروه، بل ستسلم مني فلا أؤذيك. وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾؛ وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له، وقد وفى بذلك الوعد، كما قال تعالى عنه: ﴿وَأَغْفِرْ لِيَّ وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم].

ولكن الله لما بين له أنه عدو لله تبرأ منه، ولم يستغفر له بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، والموعدة المذكورة هي قوله هنا: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾... الآية، ولما اقتدى المؤمنون بإبراهيم فاستغفروا لموتاهم المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، أنزل الله فيهم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۖ﴾ [التوبة: ١١٣]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ...﴾ الآية [التوبة: ١١٤]. وبين في سورة «المتحنة» أن الاستغفار للمشركين مستثنى من الإساءة بإبراهيم، والإساءة الاقتداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ

كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَبُودُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾ الآية [المتحنة: ٤]. أي فلا أسوة لكم في إبراهيم في ذلك، ولما ندم المسلمون على استغفارهم للمشركين حين قال فيهم: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، بين الله تعالى أنهم معذرون في ذلك؛ لأنه لم يبين لهم منع ذلك قبل فعله، وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقوله في هذه الآية: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي﴾؛ يجوز فيه أن يكون «أراغب» خبراً مقدماً، و﴿أَنْتَ﴾ مبتدأ مؤخر، وأن يكون «أَرَأَيْبُ» مبتدأ و﴿أَنْتَ﴾ فاعل سد مسد الخبر، ويترجح هذا الإعراب الأخير على الأول من وجهين: الأول: أنه لا يكون فيه تقديم ولا تأخير؛ والأصل في الخبر التأخير كما هو معلوم، الوجه الثاني: هو ألا يكون فصل بين العامل الذي هو «أَرَأَيْبُ» وبين معموله الذي هو «عَنْ إِلَهِي» بما ليس بمعمول للعامل؛ لأن الخبر ليس هو عاملاً في المبتدأ، بخلاف كون «أَنْتَ» فاعلاً؛ فإنه معمول «أَرَأَيْبُ» فلم يفصل بين «أَرَأَيْبُ» وبين «عَنْ إِلَهِي» بأجنبي، وإنما فصل بينهما بمعمول المبتدأ الذي هو فاعله الساد مسد خبره. والرغبة عن الشيء: تركه عمداً للزهد فيه، وعدم الحاجة إليه. وقد قدمنا في سورة «النساء» الفرق بين قولهم: رغب عنه، وقولهم: رغب فيه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَكُونَهُنَّ﴾... الآية [النساء: ١٢٧]، والتحقيق في قوله: ﴿مَلِيًّا﴾ أن المراد به الزمن الطويل، ومنه قول مهلهل:

فتصدعت صم الجبال لموته وبكت عليه المرملات ملياً
وأصله واوي اللام؛ لأنه من الملاوة وهي مدة العيش، ومن ذلك قيل لليل والنهار: الملوان. ومنه قول ابن مقبل:

ألا يا ديار الحي بالسبعان أمل عليها باليلى الملوان
وقول الآخر:

نهار وليل دائم ملواهما على كل حال المرء يختلفان
وقيل: الملوان في بيت ابن مقبل: طرفا النهار.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾؛ أي لطيفاً بي، كثير الإحسان إلي، وجملة «وَأَهْجُرَنِي» عطف على جملة «لَنْ تَنَنَّهُ لَأَرْجُمَنَّكَ»، وذلك دليل على جواز عطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول
فجملة «وإن شفائي» خبرية، وجملة «وهل عند رسم» إلخ. إنشائية معطوفة عليها، وقول الآخر أيضاً:

تناغي غزالا عند باب ابن عامر وكحل مآقيك الحسان بإئمد

وهذا هو الظاهر كما قاله أبو حيان عن سيبويه. وقال الزمخشري في الكشف: فإن قلت: علام عطف «واهجرني»؟ قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه «لأرجمك» أي فاحذرني واهجرني؛ لأن «لأرجمك» تهديد وتقريع، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥١). اعلم أن في قوله «مخلصا» قراءتين سبعيتين: قرأه عاصم وحزمة والكسائي بفتح اللام بصيغة اسم المفعول، والمعنى على هذه القراءة أن الله استخلصه واصطفاه، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ومما يماثل هذه القراءة في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) [ص]، فالذين أخلصهم الله هم المخلصون بفتح اللام، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «مخلصا» بكسر اللام بصيغة اسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبَدُ مُخْلِصًا لِّمِ دِينِي﴾ (٤) [الزمر].

قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيا﴾ (٥٢). قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى ذكره: وناديناه من ناحية الجبل. ويعني بالأيمن يمين موسى؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال، وإنما ذلك كما يقال: قام عن يمين القبلة وعن شمالها، وهذه القصة جاءت مبينة في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى؛ وذلك أن موسى لما قضى الأجل الذي بينه وبين صهره، وسار بأهله راجعا من مدين إلى مصر آنس من جانب الطور نارا، فذهب إلى تلك النار ليجد عندها من يده على الطريق، وليأتي بجذوة منها ليقود بها النار لأهله ليصطلوا بها؛ فناداه الله وأرسله إلى فرعون، وشفعه في أخيه هارون فأرسله معه، وأراه في ذلك الوقت معجزة العصا واليد ليستأنس بذلك قبل حضوره عند فرعون؛ لأنه لما رأى العصا في المرة الأولى صارت ثعباناً ولى مدبراً ولم يعقب، فلو فعل ذلك عندما انقلبت ثعباناً لما طالبه فرعون وقومه بآية لكان ذلك غير لائق، ولأجل هذا مرن عليها في أول مرة ليكون مستأنساً غير خائف منها حين تصير ثعباناً مبيناً.

قال تعالى في سورة «طه»: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ۚ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ۖ إِنِّي آنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَأَنَا أَخَذْتُكَ بِأُذُنِي ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ﴾ [طه: ٩ - ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ هو معنى قوله في «طه»: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

وقوله: ﴿يَقْسِ﴾ أي شهاب؛ بدليل قوله في «النمل»: ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وذلك هو المراد بالجذوة في قوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾

[القصص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها؛ لأنهم كانوا ضلوا الطريق، والزمن زمن برد. وقوله: ﴿ءَأَسْتُنَاكَ﴾ أي أبصرتها. وقوله: ﴿فَأَخْلَعْنَا نَعْلَيْكَ﴾ قال بعض العلماء: لأنهما كانتا من جلد حمار غير ذكي، ويروى هذا عن كعب وعكرمة وقتادة، نقله عنهم القرطبي وغيره. وروي أيضاً عن علي والحسن والزهري كما رواه عنهم صاحب الدر المنثور، ونقله ابن كثير عن علي وأبي أيوب وغير واحد من السلف. ويروى هذا القول عن غير من ذكر. وجاء فيه حديث مرفوع من حديث عبد الله بن مسعود رواه الترمذي وغيره ولا يصح. وفيه أقوال آخر للعلماء غير ذلك. وأظهرها عندي - والله تعالى أعلم - أن الله أمره بخلع نعليه أي نزعهما من قدميه ليعلمه التواضع لربه حين ناداه، فإن نداء الله لعبده أمر عظيم، يستوجب من العبد كمال التواضع والخضوع، والله تعالى أعلم. وقول من قال: إنه أمر بخلعهما احتراماً للبقعة يدل عليه أنه أتبع أمره بخلعهما بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وقد تقرر في (مسلك الأئمة والتنبيه): أن «إن» من حروف التعليل. وأظهر الأقوال في قوله ﴿طُوًى﴾: أنه اسم للوادي، فهو بدل من الوادي أو عطف بيان. وفيه أقوال آخر غير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ أي اصطفتيك برسالتي، كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، أن المصطلين بالنار يستعلون المكان القريب منها، ونظير ذلك من كلام العرب قول الأعشى:

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلح

وقال تعالى في سورة «النمل»: ﴿وَلَيْكَ لِلْفَلَكِ الْقُرْآنُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝١﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي ءَأَسْتُنَاكَ مِنْهَا بِخَيْرٍ أَوْ ءَأَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٣﴾ يَمْسُقُ إِلَيْهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ [النمل]، فقوله في «النمل»: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: ٨]، هو معنى قوله في «مريم»: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾. وقوله في «طه»: ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمْسُقُ إِلَيْهِ... الآية [طه]، وقوله: ﴿سَتَاتِيكَ مِنْهَا بِخَيْرٍ﴾ [النمل: ٧]، هو معنى قوله في «طه»: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، أي من يدلني على الطريق فيخبرني عنها فاتيككم بخبره عنها. وقال تعالى في سورة «القصص»: ﴿فَلَمَّا فَصَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَأَسْتُنَاكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُنَاكَ نَارًا لَعَلِّي ءَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝١٦﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْفُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ... الآية [القصص: ٢٩ - ٣٠]، فالنداء في هذه الآية هو المذكور في «مريم، وطه، والنمل» وقد بين هنا أنه نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، فدللت الآيات على أن الشجرة التي رأى فيها النار عن يمين الجبل الذي هو الطور، وفي يمين الوادي المقدس الذي هو طوى على القول بأن طوى اسم له، وقد قدمنا قول ابن جرير أن المراد يمين موسى؛ لأن الجبل ومثله الوادي لا يمين له ولا

شمال. وقال ابن كثير في قوله: ﴿ثُوْدَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [النمل: ٣٠] أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه، اهـ منه، وهو معنى قوله: ﴿وَنَدْبَتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

والنداء المذكور في جميع الآيات المذكورة نداء الله له؛ فهو كلام الله أسمع نبيه موسى، ولا يعقل أنه كلام مخلوق، ولا كلام خلقه الله في مخلوق كما يزعم ذلك بعض الجهلة الملاحدة؛ إذ لا يمكن أن يقول غير الله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، ولا أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، ولو فرض أن الكلام المذكور قاله مخلوق افتراء على الله، كقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] على سبيل فرض المحال، فلا يمكن أن يذكره الله في معرض أنه حق وصواب

فقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] صريح في أن الله هو المتكلم بذلك صراحة لا تحتل غير ذلك؛ كما هو معلوم عند من له أدنى معرفة بدين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، قال الزمخشري في الكشف: «من» الأولى والثانية لابتداء الغاية؛ أي أنه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة و﴿مِنْ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، بدل من قوله: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ﴾ [القصص: ٣٠] بدل اشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِيَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٣].

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُوْدَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾... الآية [القصص: ٣٠]: قال المهدوي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه، وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء، انتهى منه. وشاطئ الوادي جانبه. وقال بعض أهل العلم: معنى «الأيمن» في قوله: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]. وقوله: ﴿وَنَدْبَتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من اليمن وهو البركة؛ لأن تلك البلاد بارك الله فيها. وأكثر أهل العلم على أن النار التي رآها موسى «نور» وهو يظنها ناراً. وفي قصته أنه رأى النار تشتعل فيها وهي لا تزدد إلا خضرة وحسناً. قيل: هي شجرة عوسج. وقيل: شجرة عليق. وقيل: شجرة عناب. وقيل: سمرة، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في سورة «النمل»: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا ثُوْدَىٰ أَنْ بُرُوكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، اختلفت عبارات المفسرين في المراد ب﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ في هذه الآية من سورة «النمل» فقال بعضهم: هو الله - جلّ وعلا - وممن روى عنه هذا القول: ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب قالوا: ﴿بُرُوكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي تقدس الله

وتعالى، وقالوا: كان نور رب العالمين في الشجرة. واستدل من قال بهذا القول بحديث أبي موسى الثابت في الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا القول بعيد من ظاهر القرآن. ولا ينبغي أن يطلق على الله أنه في النار التي في الشجرة؛ سواء قلنا: إنها نار أو نور، سبحانه - جلّ وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله! وتأويل ذلك ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨]، سلطانه وقدرته لا يصح؛ لأن صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه لا يجوز إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وبه تعلم أن قول أبي حيان في «البحر المحيط»: قال ابن عباس، وابن جبير، والحسن وغيرهم: أراد بمن في النار ذاته، وعبر بعضهم بعبارات شنيعة مردودة بالنسبة إلى الله تعالى. وإذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف؛ أي بورك من قدرته وسلطانه في النار، اه أنه أصاب في تنزيهه لله عن تلك العبارات، ولم يصب فيما ذكر من التأويل. والله أعلم. وقال بعضهم: إن معنى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي بورك النار لأنها نور. وبعده عن ظاهر القرآن واضح كما ترى. وقال بعضهم: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي بورك الشجرة التي تنقد فيها النار. وبعده عن ظاهر القرآن أيضاً واضح كما ترى. وإطلاق لفظة «من» على الشجرة وعلى ما في النار من أمر الله غير مستقيم في لغة العرب التي نزل بها القرآن العظيم كما ترى.

وأقرب الأقوال في معنى الآية إلى ظاهر القرآن العظيم قول من قال: إن في النار التي هي نور ملائكة وحولها ملائكة وموسى، وأن معنى ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾؛ أي الملائكة الذين هم في ذلك النور ومن حولها؛ أي وبورك الملائكة الذين هم حولها، وبورك موسى لأنه حولها معهم، وممن يروى عنه هذا السدي. وقال الزمخشري (في الكشاف): ومعنى ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، ومكانها البقعة التي حصلت فيها، وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [النمل: ٣٠]، وتدل عليه قراءة أبي: «أن تباركت النار ومن حولها». وعنه «بورك النار».

وقال القرطبي رحمه الله في قوله: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨]: وهذا تحية من الله لموسى، وتكرمة له كما حيى إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا إليه قال: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْآيَةِ﴾ [هود: ٧٣]. وقوله: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ نائب فاعل «بورك» والعرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك؛ فهي أربع لغات. قال الشاعر:

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً
وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وقال أبو طالب بن عبد المطلب يرثى مسافر بن أبي عمرو بن أمية:

ليت شعري مسافر بن أبي عم
بورك الميت الغريب كما
ر وليت يقولها المحزون
بورك نبع الرمان والزيتون
وقال آخر:

فبورك في بنيك وفي بنيتهم إذا ذكروا ونحن لك الفداء

والآيات في هذه القصة الدالة على أنه أراه آية اليد والعصا ليمرن على ذلك قبل حضوره عند فرعون وقومه، وأنه ولي مدبراً خوفاً منها في المرة الأولى لما صارت ثعباناً، جاءت في مواضع متعددة، كقوله تعالى في سورة «طه»: ﴿قَالَ أَفَهَا يَمُوسَىٰ ۖ فَأَلْقَنَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ [طه]. فقوله: «ولا تخف» يدل على أنه فرغ منها لما صارت ثعباناً مبيناً، كما جاء مبيناً في «النمل والقصص». وقوله في آية «طه» هذه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي من غير برص، وفيه ما يسميه البلاغيون احتراساً، وكقوله تعالى في سورة «النمل»: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَفُفٌ مَّائِدًا وَرَآهَا جَانًّا وَلَمْ يَعْصِ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ۖ إِلَّا مَن ظَلَمَ فُرْ بِدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... الآية [النمل: ٩ - ١٢]، وقوله في «القصص»: ﴿وَأَن أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَفُفٌ مَّائِدًا وَرَآهَا جَانًّا وَلَمْ يَعْصِ يَمُوسَىٰ أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ۖ﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾. والبرهانان المشار إليهما بقوله: ﴿فَذَلِكِ بُرْهَانُكَ﴾ [القصص: ٣٢]، هما اليد والعصا؛ فلما تمرن موسى على البرهانين المذكورين، وبلغ الرسالة هو وأخوه إلى فرعون وملئه طالبوه بآية تدل على صدقه فجاءهم بالبرهانين المذكورين، ولم يخف من الثعبان الذي صارت العصا إياه كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۚ﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ وَرَزَّ يَدُوكَ فَإِذَا هِيَ بَيَضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٣﴾ [الشعراء]، ونحوها من الآيات.

وقوله في «النمل، والقصص»: ﴿وَلَمْ يَعْصِ﴾ [النمل: ١٠]؛ أي لم يرجع من فراره منها؛ يقال: عقب الفارس إذا كَرَّ بعد الفرار. ومنه قوله:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَرْنَهُ نَحْيًا﴾ أي قرب الله موسى في حال كونه نجياً، أي مناجياً لربه. وإتيان الفعل بمعنى المفاعل كثير كالعقيد والجليس. وقال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: روى ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى هو القطان، حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار، عن سعيد بن جبير، عن ابن

عباس ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحْيًا﴾ قال: أدنى حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحْيًا﴾ قال: أدخل في السماء فكلم. وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحْيًا﴾ قال: نجياً بصدقه، اه، محل الغرض من كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقوله تعالى في طه: ﴿أَشْدُّ بِهِ أَمْرِي﴾ [طه]، أي قوني به. والأزر: القوة؛ وأزره: أي قواه. وقوله في القصص: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، أي ستقويك به؛ وذلك لأن العضد هو قوام اليد؛ وبشدتها تشتد اليد، قال طرفة:

أبني لبيني لستموبيد إلا يد ليست لها عضد

وقوله: ﴿رَدْمًا﴾ [القصص: ٣٤]، أي معيناً؛ لأن الردء اسم لكل ما يعان به، ويقال ردأته أي أعتته.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [٥٤].

معنى الآية الكريمة أن الله وهب لموسى نبوة هارون، والمعنى أنه سأله ذلك فاتاه سؤاله، وهذا المعنى أوضحه تعالى في آيات أخر كقوله في سورة «طه» عنه: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ الْهَرُونَ أَخِي﴾ [٥٤] ﴿أَشْدُّ بِهِ أَمْرِي﴾ [٥٥] وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي [٥٦] إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [٥٦] [طه]، وقوله في «القصص»: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [٥٧] وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رَدْمًا يُصْدِقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [٥٨] قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِيتَانَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [٥٩] [القصص]، وقوله في سورة «الشعراء»: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٦٠] قَوْمٌ فَرَعُونَ إِلَّا يَنْقُوتُونَ﴾ [٦١] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [٦٢] وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ [٦٣] وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [٦٤] قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْنِيتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [٦٥] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦٦] [الشعراء]، فهذه الآيات تبين أنه سأل ربه أن يرسل معه أخاه، فأجاب ربه - جلّ وعلا - سؤاله في ذلك، وذلك يبين أن الهبة في قوله: «ووهبنا» هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هرون؛ لأن هرون أكبر من موسى، كما قاله أهل التاريخ.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [٥٤].

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب وهو هذا القرآن العظيم (جده إسماعيل)، وأثنى عليه - أعني إسماعيل - بأنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفى بهذا الوعد، ومن وفى بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَبْنَؤُا أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١] فهذا

وعده. وقد بين تعالى وفاءه به في قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْحَيِّينَ﴾ [الصافات]. والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل، وقد دلت على ذلك آيتان من كتاب الله تعالى دلالة واضحة لا لبس فيها. وسنوضح ذلك - إن شاء الله - غاية الإيضاح في سورة «الصافات».

وثناؤه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يفهم من دليل خطابه - أعني مفهوم مخالفته - أن إخلاف الوعد مذموم، وهذا المفهوم قد جاء مبيناً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبْتُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، قد بين في مواضع آخر أن نبينا ﷺ كان يفعل ذلك الذي أثنى الله به على جده إسماعيل كقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾... الآية [طه: ١٣٢]، ومعلوم أنه اضطل بهذا الأمر، وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾... الآية [التحريم: ٦]، ويدخل في ذلك أمرهم أهلهم بالصلاة والزكاة؛ إلى غير ذلك من الآيات.

وللعلماء أقوال في المسألة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها: أن إخلاف الوعد لا يجوز لكونه من علامات المنافقين ولأن الله يقول ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢] وظاهر عموميه يشمل إخلاف الوعد ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به ولا يلزم به جبراً بل يؤمر به ولا يجبر عليه لأن أكثر علماء الأمة على أنه لا يجبر على الوفاء به لأنه وعد بمعروف محض والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتُنَا إِذْ نَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨].

الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ راجعة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة، وقد بين الله هنا أنه أنعم عليهم واجتباهم وهداهم، وزاد على هذا في سورة «النساء» بيان جميع من أنعم عليهم من غير الأنبياء في قوله: ﴿وَمِنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء]. وبين في سورة الفاتحة: أن صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [٧] [الفاتحة]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: قال السدي وابن جرير - رحمهما الله - : فالذي عني به من ذرية آدم: «إدريس».

والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح: «إبراهيم». والذي عني به من ذرية إبراهيم: «إسحاق ويعقوب وإسماعيل». والذي عني به من ذرية إسرائيل: «موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم». قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - انتهى الغرض من كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقال ابن كثير أيضاً في تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط؛ بل جنس الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، إلى أن قال في آخر كلامه: ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٧ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ۝٨٨ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهُدْهُمْ أَقْتَدُ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠] اهـ. وقد قال تعالى في صفة هؤلاء المذكورين في «الأنعام»: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَهْدَيَّكُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]. كما قال في صفة هؤلاء المذكورين في سورة «مريم»: ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْنِبْنَا ۝٨٩﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ عَلَيْنَا يَتَّبِعُ الرَّحْمَنَ خَرُّاً سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ بين فيه أن هؤلاء الأنبياء المذكورين إذا تتلى عليهم آيات ربهم بكوا وسجدوا. وأشار إلى هذا المعنى في مواضع آخر بالنسبة إلى المؤمنين لا خصوص الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَبَرِّدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْفُسُهُمْ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فكل هذه الآيات فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثراً عظيماً، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود، وبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب والجلود، ونحو ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبُكِيًا﴾ جمع باك. وعن عمر بن

الخطاب ﷺ أنه قرأ هذه الآية من سورة «مريم» فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء. وهذا الموضع من عزائم السجود بلا خلاف بين العلماء في ذلك.

قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعدِهِمْ﴾ راجع إلى النبيين المذكورين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ بِذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾... الآية، أي فخلف من بعد أولئك النبيين خلف، أي أولاد سوء. قال القرطبي رحمه الله في تفسير سورة «الأعراف»: قال أبو حاتم: الخلف - يسكون اللام -: الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء. والخلف - بفتح اللام - البدل ولداً كان أو غريباً. وقال ابن الأعرابي: الخلف - بالفتح - الصالح. وبالسكون: الطالح. قال لييد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ومنه قيل للردىء من الكلام: خلف؛ ومنه المثل السائر: «سكت ألفاً ونطق خلفاً». فخلف في الذم بالإسكان. وخلف بالفتح في المدح. هذا هو المستعمل المشهور؛ قال رحمه الله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر؛ قال حسان بن ثابت رحمه الله:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
وقال آخر:

إنا وجدنا خلفاً ببس الخلف أغلق عنا بابيه ثم حلف
لا يدخل البواب إلا من عرف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

ويروى خضف، أي ردم، انتهى منه. والردم: الضراط.

ومعنى الآية الكريمة أن هذا الخلف السيء الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام، كان من صفاتهم القبيحة: أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها تأخيرها عن وقتها. وممن يروى عنه هذا القول: ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح. وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها؛ ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي. وقيل: إضاعتها في غير الجماعات. وقيل: إضاعتها تعطيل المساجد، والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها،

وتعطيل المساجد منها كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت، واختلف العلماء أيضاً في الخلف المذكورين من هم؟ فقيل: هم اليهود. ويروى عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: هم اليهود والنصارى، ويروى عن السدي. وقيل: هم قوم من أمة محمد ﷺ يأتون عند ذهاب الصالحين منها، يركب بعضهم بعضاً في الأزقة زنى. ويروى عن مجاهد وعطاء وقتادة ومحمد بن كعب القرظي. وقيل: إنهم البربر. وقيل: إنهم أهل الغرب. وفيهم أقوال آخر.

قال مقيد - عفا الله عنه -: وكونهم من أمة محمد ﷺ ليس بوجيه عندي؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى، والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحهم قبل نزول الآية، فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية. واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن علي عليه السلام: من بنى المشيد، وركب المنظور، ولبس المشهور، فهو ممن اتبع الشهوات.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾؛ اعلم أولاً أن العرب تطلق الغي على كل شر. والرشاد على كل خير. قال المرقش الأصغر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره
ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

فقوله: «ومن يغو» يعني ومن يقع في شر، والإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال. وفي المراد بقوله: «غيا» في الآية أقوال متقاربة، منها أن الكلام على حذف مضاف، أي فسوف يلقون جزاء غي، ولا شك أنهم سيلقون جزاء ضلالهم، وممن قال بهذا القول: الزجاج. ونظير هذا التفسير قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، عند من يقول: إن معناه يلق مجازاة آثامه في الدنيا، ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا نَارًا﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ فأطلق النار على ما أكلوا في بطونهم في الدنيا من المال الحرام لأنها جزاؤه؛ كما أطلق الغي والأثام على العذاب لأنه جزاؤهما، ومنها أن الغي في الآية الخسران والحصول في الورطات. وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس، وابن زيد. وروي عن ابن زيد أيضاً «غياً» أي شراً أو ضلالاً أو خيبة. وقال بعضهم: إن المراد بقوله: «غياً» في الآية: واد في جهنم من قيح؛ لأنه يسيل فيه قيح أهل النار وصديدهم، وهو بعيد القعر خبيث الطعم. وممن قال بهذا ابن مسعود، والبراء بن عازب. وروي عن عائشة، وشفي بن ماع.

وجاء حديث مرفوع بمقتضى هذا القول من حديث أبي أمامة وابن عباس فيه: أن النبي ﷺ قال: «إن غياً واد في جهنم» كما في حديث ابن عباس. وفي حديث أبي أمامة: أن غياً، وأثاماً: نهران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار. والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النبي ﷺ. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية حديث أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي الذي أشرنا له آنفاً، ثم قال: هذا حديث غريب ورفعه منكر. وقيل: إن المعنى فسوف يلقون غياً، أي ضلالاً في الآخرة عن طريق الجنة، ذكره الزمخشري. وفيه أقوال أخرى، ومدار جميع الأقوال في ذلك على شيء واحد، وهو أن أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات سوف يلقون يوم القيامة عذاباً عظيماً.

فإذا عرفت كلام العلماء في هذه الآية الكريمة، وأن الله تعالى توعد فيها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغى الذي هو الشر العظيم والعذاب الأليم.

فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ [٥] الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون]، وقوله في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله فيهم أيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۚ﴾ [التوبة: ٥٤]. وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات وتهديدهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَعْتُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًىٰ مِنْهُمْ ۚ﴾ [محمد: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَبْكُلُوا وَيَسْتَعْتُوا وَيَنْهَرِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الحجر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَشَبَّهُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ۚ﴾ [٦١] وَيَبْذِي السَّكَدِينَ ﴿٦٧﴾ [الحجر]، إلى غير ذلك من الآيات. ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة، ولا يتبعون الشهوات، وقد أشار تعالى إلى هذا في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾ [١] الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۚ﴾ [١] أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ [٥] إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٦﴾ [النازعات]، إلى غير ذلك من الآيات. وهناك مسائل تتعلق بالآية فيمن ترك الصلاة يرجع إليها من أراد الزيادة في الأصل وخلاصة رأي الشيخ: أنه يقتل بالسيف وأنه يستتاب للإجماع على قبول توبته إذا تاب والأظهر أنه يستتاب في الحال، ولا يمهل ثلاثة أيام وهو يمتنع من الصلاة لظواهر النصوص المذكورة، وإنه لا يقتل حتى لا يبقى من الوقت الضروري ما يسع ركعة بسجديتها والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَذَابِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُهُمْ مَأْنِيًا﴾ ١٦١.

بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وعد عباده المؤمنين المطيعين جنات عدن، ثم بين أن وعده مآثي؛ بمعنى أنهم يأتونه وينالون ما وعدوا به؛ لأنه - جلّ وعلا - لا يخلف الميعاد، وأشار لهذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾... الآية [الروم: ٦]؛ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ أَلْعِمَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ [فاستجاب لهم ربهم] [آل عمران: ١٩٤ - ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَعْدَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٧] ويقولون سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا [١٨] [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [١٧] السَّمَاءَ مَنفُطِرًا بِئْسَ كَانُوا وَعَدُهُمْ مَفْعُولًا [١٨] [المزمل]، وقوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [١٥] لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا [١٦] [الفرقان]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَأْنِيًا﴾ اسم مفعول أتاه إذا جاءه، والمعنى أنهم لا بد أن يأتون ما وعدوا به، خلافاً لمن زعم أن «مآثيا» صيغة مفعول أريد بها الفاعل؛ أي كان وعده آثياً، إذ لا داعي لهذا مع وضوح ظاهر الآية.

تنبيه: مثل بعض علماء البلاغة بهذه الآية لنوع من أنواع البدل، وهو بدل الكل من البعض، قالوا: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بدل كل من بعض.

قالوا: ومن أمثلة بدل الكل من البعض قوله:

رحم الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

«فطلحة» بدل من قوله: «أعظماً» بدل كل من بعض. وعليه فأقسام البدل ستة: بدل الشيء من الشيء، وبدل البعض من الكل. وبدل الكل من البعض، وبدل الاشتمال، وبدل البداء، وبدل الغلط.

قال مقيده - عفا الله عنه -: ولا يتعين عندي في الآية والبيت كون البدل بدل كل من بعض، بل يجوز أن يكون بدل الشيء من الشيء؛ لأن الألف واللام في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ للجنس، وإذا كان للجنس جاز أن يراد بها جميع الجنات، فيكون قوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدلاً من «الجنة» بدل الشيء من الشيء؛ لأن المراد بالأول الجمع كما تقدم كثير من أمثلة ذلك. والأعظم في البيت كناية عن الشخص، «فطلحة» بدل منه بدل الشيء من الشيء؛ لأنهم لم يدفنوا الأعظم وحدها بل دفنوا الشخص المذكور جميعه، أعظمه وغيرها من بدنه، وعبر هو عنه بالأعظم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ ١٦٢.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إذا أدخلهم ربهم جنات عدن التي وعدهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنات المذكورة ﴿لَقَوْا﴾ أي كلاماً نافهاً ساقطاً كما يسمع في الدنيا، واللغو: هو فضول الكلام، وما لا طائل تحته. ويدخل فيه فحش الكلام وباطله، ومنه قول رؤبة وقيل العجاج:

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم
كما تقدم في سورة «المائدة».

والظاهر أن قوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، أي لكن يسمعون فيها سلاماً؛ لأنهم يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾... الآية [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾... الآية [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. كما تقدم مستوفى.

وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء في غير هذا الموضع أيضاً كقوله في «الواقعة»: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة]، وقد جاء الاستثناء المنقطع في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الْفُقَرَاءِ﴾... الآية [النساء: ١٥٧]. وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَنْزِيهِ ۖ إِلَّا أَنْبَاءُ رِبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل]، وقوله: ﴿لَا يَذْقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وكقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْرَةٍ عَنْ رِءُوسٍ مِنْكُمْ﴾... الآية [النساء: ٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فكل الاستثناءات المذكورة في هذه الآيات منقطعة. ونظير ذلك من كلام العرب في الاستثناء المنقطع قول نابغة ذبيان:

وقفت فيها أصيلاً لا أسألها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنوى كالحوض بالمظلومة الجلد
«فالأواري» التي هي مرابط الخيل ليست من جنس «الأحد»، وقول الفرزدق:
وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله
وقول جرير العود:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
«فالسنان» ليس من جنس «الخاطب» و«اليعافير والعيس» ليس واحد منهما من جنس «الأنيس». وقول ضرار بن الأزور:

أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة والله بالعبد المجاهد أعلم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النيل إلا المشرفي المصمم
وبهذا الذي ذكرنا تعلم صحة وقوع الاستثناء المنقطع كما عليه جماهير الأصوليين

خلافًا للإمام أحمد بن حنبل وبعض الشافعية القائلين بأن الاستثناء المنقطع لا يصح؛ لأن الاستثناء إخراج ما دخل في اللفظ، وغير جنس المستثنى منه لم يدخل في اللفظ أصلاً حتى يخرج بالاستثناء. وللعلماء آراء في المسألة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ فيه سؤال معروف، وهو: أن يقلل: ما وجه ذكر البكرة والعشي، مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها. وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة:

الأول: أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن كقوله: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢]؛ أي قدر شهر، وروي معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج وغيرهما.

الجواب الثاني: أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غداء وعشاء فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك. ويروي هذا عن قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كثير.

الجواب الثالث: أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل: أنا عند فلان صباحاً ومساءً، وبكرة وعشيّاً. يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.

الجواب الرابع: أن تكون البكرة هي الوقت الذي قبل اشتغالهم بملذاتهم. والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال، وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول.

الجواب الخامس: هو ما رواه الترمذي الحكيم في (نواذر الأصول) من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما يهيجك على هذا؟» قال: سمعت الله تعالى يذكر: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة» انتهى بواسطة نقل صاحب الدر المشور والقرطبي في تفسيره. وقال القرطبي بعد أن نقل هذا: وهذا في غاية البيان لمعنى الآية. وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) ثم قال: وقال العلماء ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم في نور أبداً، إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وفتح الأبواب؛ ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما، اه منه. وهذا الجواب الأخير الذي ذكره الحكيم الترمذي عن الحسن وأبي قلابة عن النبي ﷺ راجع إلى الجواب الأول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (١٧). الإشارة في قوله: «تلك» إلى ما تقدم من قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (١٦) جَنَّتْ عَيْنُ الْقِي

وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ... الآية، وقد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من عباده جنته. وقد بين هذا المعنى أيضاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٣﴾﴾... [آل عمران] الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ الآية [الزمر]: ٧٣، وقوله: ﴿وَوَدُّوا أَن يَنَالُوا لَهْجَتَهُ أَوْ يُنَادُوا بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات، ومعنى إيراثهم الجنة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور، قال الزمخشري في (الكشاف): نورث أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال الموروث؛ ولأن الاتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم، وثمرتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفي. وقال بعض أهل العلم: معنى إيراثهم الجنة أن الله تعالى خلق لكل نفس منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة؛ أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله ليزداد سرورهم وغبطتهم؛ وعند ذلك يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا﴾... الآية [الأعراف: ٤٣]. وكذلك يرى أهل النار منازلهم في الجنة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّنَا لَهَدَيْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]. ثم إنه تعالى يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، فيرثون منازل أهل النار في الجنة. وهذا هو معنى الإيراث المذكور على هذا القول.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: قد جاء حديث يدل لما ذكر من أن لكل أحد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، إلا أن حمل الآية عليه غير صواب؛ لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَن يَنَالُوا لَهْجَتَهُ أَوْ يُنَادُوا بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ونحوها من الآيات، ولو فرضنا أنهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار. والواقع بخلاف ذلك كما ترى. والحديث المذكور هو ما رواه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرک من حديث أبي هريرة: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لولا أن الله هداني فيكون عليه حسرة»، اهـ. وعلم في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: قال الحاكم صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ إِذَا مَا مِثَّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية في أبي بن خلف، وجد عظاماً بالية ففتتها بيده وقال: زعم محمد أنا نبعت بعد الموت؟ قاله الكلبي، وذكره الواحدى والثعلبي. وقال المهدوي: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس. وقيل: نزلت في العاص بن وائل. وقيل: في أبي جهل. وعلى كل واحد من هذه الأقوال فقد أسند تعالى هذا القول لجنس الإنسان وهو صادر من بعض أفراد الجنس؛ لأن من الأساليب العربية إسناد الفعل إلى المجموع، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم. ومن أظهر الأدلة القرآنية في ذلك قراءة حمزة والكسائي (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) من القتل في الفعلين، أي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر كما تقدم مراراً. ومن أظهر الشواهد العربية في ذلك قول الفرزدق:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بني عبس، مع أنه صرح بأن الضارب الذي بيده السيف هو ورقاء وهو ابن زهير بن جذيمة العبسي. وخالد هو ابن جعفر الكلابي. وقصة قتله لزهير المذكور مشهورة.

وقد بين تعالى في هذه الآية: أن هذا الإنسان الكافر يقول منكراً للبعث: أنذا مت لسوف أخرج حياً، زعماً منه أنه إذا مات لا يمكن أن يحيا بعد الموت. وقد رد الله عليه مقالته هذه بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ﴾ (٧٧) يعني: أيقول الإنسان مقالته هذه في إنكار البعث، ولا يذكر أنا أوجدناه الإيجاد الأول ولم يك شيئاً، بل كان عدماً فأوجدناه، وإيجادنا له المرة الأولى دليل قاطع على قدرتنا على إيجاداه بالبعث مرة أخرى.

وهذا البرهان الذي أشار له هنا قد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة «البقرة»، والنحل» وغيرهما، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يسر]، وقوله تعالى: ﴿أَفَعِيبَانِ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُوَ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ﴾ (٨٠) [ق]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَمَتْهُمُ الشَّيْطَانُ الْأَوَّلَى فَلَوْلَا تَذَكُّرُونَ ۚ﴾ (٨١) [الواقعة]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۚ﴾ ... الآية [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِن يَّعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ۚ﴾ ... الآية [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه ﷺ عن ربه: «يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني. أما تكذيبه إياي فقول له لن يعيدني كما بداني. وليس أول الخلق أهون على من آخره. وأما أذاه إياي فقول له: إن

لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فإن قيل: أين العامل في الظرف الذي هو «إذا»؟ فالجواب: أنه منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط؛ وتقديره: أخرج حيا إذا ما مت، أي حين يتمكن في الموت والهلاك أخرج حياً. يعني لا يمكن ذلك. فإن قيل: لم لا تقول بأنه منصوب بـ «أخرج» المذكور في قوله «لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» على العادة المعروفة، من أن العامل في «إذا» هو جزاؤها؟ فالجواب: أن لام الابتداء في قوله: «لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» مانعة من عمل ما بعدها فيما قبلها كما هو معلوم في علم العربية، فلا يجوز أن تقول: اليوم لزيد قائم؛ تعني لزيد قائم اليوم. وما زعمه بعضهم من أن حرف التنفيس الذي هو سوف مانع من عمل ما بعده فيما قبله أيضاً، حتى إنه على قراءة طلحة بن مصرف «أئذا ما مت سأخرج حياً» بدون اللام يمتنع نصب «إذا» بـ «أخرج» المذكورة؛ فهو خلاف التحقيق.

والتحقيق أن حرف التنفيس لا يمنع من عمل ما بعده فيما قبله. ودليله وجوده في كلام العرب؛ كقول الشاعر:

فلما رآته آمنا هان وجدها وقالت أبونا هكذا سوف يفعل

فقوله «هكذا» منصوب بقوله «يفعل» كما أوضحه أبو حيان في البحر، وعليه فعلى قراءة طلحة بن مصرف فقوله: «إذا» منصوب بقوله: «أخرج» لعدم وجود اللام فيها وعدم منع حرف التنفيس من عمل ما بعده فيما قبله.

تنبيه: فإن قلت: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال، فكيف جمعت حرف التنفيس الدال على الاستقبال؟ فالجواب: أن اللام هنا جردت من معنى الحال، وأخلصت لمعنى التوكيد فقط؛ ولذلك جمعت حرف الاستقبال كما بينه الزمخشري في الكشف، وتعقبه أبو حيان في البحر المحيط بأن من علماء العربية من يمنع أن اللام المذكورة تعطى معنى الحال، وعلى قوله أسقط الإشكال من أصله، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾.

لما أقام الله - جلّ وعلا - البرهان على البعث بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ ﴿٧٧﴾ أقسم - جلّ وعلا - بنفسه الكريمة، أنه يحشرهم أي الكافرين المنكرين للبعث وغيرهم من الناس، ويحشر معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جثياً، وهذان الأمران اللذان ذكرهما في هذه الآية الكريمة أشار إليهما في غير هذا الموضع، أما حشره لهم ولشياطينهم فقد أشار إليه في قوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَأَعْدَوْهُمْ لِكُلِّ صِرَاطٍ فَجَعَلَهُمْ ﴿٧٤﴾ [الصفات]، على أحد التفسيرات، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرْيُنَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الزخرف].

وأما إحضارهم حول جهنم جثياً فقد أشار له في قوله: ﴿وَرَوَىٰ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا جَاءَهُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾

تَدْعُ إِلَىٰ كَيْفِهَا الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ [الجاثية]، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿جَثِيًّا﴾ جمع جاث. والجاثي اسم فاعل جثا يجثو جثواً. وجثى يجثي جثياً: إذا جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه. والعادة عند العرب: أنهم إذا كانوا في موقف ضنك وأمر شديد، جثوا على ركبهم، ومنه قول بعضهم:

فمن للحماة ومن للكماة إذا ما الكماة جثوا للركب
إذا قيل مات أبو مالك فتى المكرمات قريع العرب

وكون معنى قوله ﴿جَثِيًّا﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿وَرَبَّى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الآية [الجاثية: ٢٨]، أنه جثيهم على ركبهم هو الظاهر، وهو قول الأكثر، وهو الإطلاق المشهور في اللغة، ومنه قول الكميت:

هم تركوا سراتهم جثياً وهم دون السراة مقرنينا

وعن ابن عباس في قوله في هذه الآية الكريمة «جثياً» أن معناه جماعات. وعن مقاتل «جثياً»: أي جمعاً جمعاً، وهو على هذا القول جمع «جثوة» مثلثة الجيم، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع، فأهل الخمر يحضرون حول جهنم على حدة، وأهل الزنى على حدة؛ وأهل السرقة على حدة، وهكذا، ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد في معلقته:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

هكذا قال بعض أهل العلم. ولكنه يرد عليه أن فعلة كجثوة لم يعهد جمعها على فاعل كجثى. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص «جثياً» بكسر الجيم إتباعاً للكسرة بعده وقرأ الباقر «جثياً» بضم الجين على الأصل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ﴿٢٠﴾. قوله في هذه الآية الكريمة ﴿لَنَزَعَنَّ﴾ أي لنستخرج من كل شِيعَةٍ أي من كل أمة أهل دين واحد. وأصل الشيعة فعلة كفرقة، وهي الطائفة التي شاعت غيرها أي تبعته في هدي أو ضلال؛ تقول العرب: شاعه شياًعاً: إذا تبعه.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾؛ أي لنستخرج ولنميز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال. وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم.

وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى تدل على هذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

[العنكبوت]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبْغِلُونَهُمْ بَعِيرٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٦٥]، ولأجل هذا كان في أمم النار أولى وأخرى، فالأولى التي يبدأ بعذابها ويدخلها النار. والأخرى التي تدخل بعدها على حسب تفاوتهم في أنواع الكفر والضلال كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَأَنهَمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٣٨] وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٢٣٩].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ [٧٦]، يعني أنه - جلّ وعلا - أعلم بمن يستحق منهم أن يصلى النار، ومن هو أولى بذلك، وقد بين أن الرؤساء والمرؤوسين كلهم ممن يستحق ذلك في قوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ ... الآية [الأعراف: ٢٣٨]، والصلي مصدر صلى النار كرضي يصلها صلياً (بالضم والكسر) إذا قاسى ألمها، وبأشرف حرها.

واختلف العلماء في وجه رفع «أي» مع أنه منصوب؛ لأنه مفعول «لننزعن» فذهب سيويه ومن تبعه إلى أن لفظة «أي» موصولة، وأنها مبنية على الضم إذا كانت مضافة، وصدر صلتها ضمير محذوف كما هنا. وعقده ابن مالك في الخلاصة بقوله:

أي كما وأعربت ما لم تضاف وصدر وصلها ضمير انحذف
وبعضهم أعرب مطلقاً... إلخ.

ويدل على صحة قول سيويه رحمه الله قول غسان بن ولة:

إذا ما لقيت بني مالك فسلم على أيهم أفضل
والرواية بضم «أيهم». وخالف الخليل ويونس وغيرهما سيويه في «أي» المذكورة. فقال الخليل: إنها في الآية استفهامية محكية بقول مقدر والتقدير: ثم لننزعن من كل شيعة الذي يقال فيه أيهم أشد؛ وأنشد الخليل لهذا المعنى الذي ذهب إليه قول الشاعر:

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم
أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم. وأما يونس فذهب إلى أنها استفهامية أيضاً، لكنه حكم بتعليق الفعل قبلها بالاستفهام؛ لأن التعليق عنده لا يختص بأفعال القلوب، واحتج لسيويه على الخليل ويونس ومن تبعهما بيت غسان بن ولة المذكور آنفاً؛ لأن الرواية فيه بضم «أيهم»، مع أن حروف الجر لا يضم بينها وبين معمولها قول ولا تعلق على الأصوب، وإن خالف فيه بعضهم ببعض التأويلات. وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره بعضهم من أن جميع النحويين غلطوا سيويه في قوله هذا في «أي» في هذه الآية الكريمة خلاف التحقيق. والعلم عند الله تعالى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «عتيا» بكسر العين. و«صليا» بكسر الصاد للإتباع. وقرأ الباقون بالضم فيهما على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝٧١﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۝٧٢﴾.

اختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة على أقوال:
الأول: أن المراد بالورود الدخول، ولكن الله يصرف أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول.

الثاني: أن المراد بورود النار المذكور: الجواز على الصراط؛ لأنه جسر منصوب على متن جهنم.

الثالث: أن الورود المذكور هو الإشراف عليها والقرب منها.

الرابع: أن حظ المؤمنين من ذلك الورود هو حر الحمى في دار الدنيا. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل استقرائي على عدم خروجه من معنى الآية، وقد قدمنا أمثلة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن ابن عباس رضي الله عنه استدل على المراد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك.

وإيضاحه أن ورود النار جاء في القرآن في آيات متعددة، والمراد في كل واحدة منها الدخول، فاستدل بذلك ابن عباس على أن الورود في الآية التي فيها النزاع هو الدخول؛ لدلالة الآيات الأخرى على ذلك كقوله تعالى: ﴿بِقُدُمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٧٨﴾ [هود] قال: فهذا ورود دخول وكقوله: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهِمَ مَا وَرَدُوهُمْ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء]، فهو ورود دخول أيضاً وكقوله: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَا ۝١٠١﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنبياء]، وبهذا استدل ابن عباس على نافع بن الأزرق في أن الورود الدخول.

واحتج من قال بأن الورود: الإشراف والمقاربة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ ۝٢٣﴾ الآية [القصص: ٢٣]. فهذا ورود مقاربة وإشراف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ۝١٩﴾ الآية [يوسف: ١٩]. ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

قالوا: والعرب تقول: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. واحتج من قال بأن الورود في الآية التي نحن بصددنا ليس نفس الدخول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٢١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنبياء] قالوا: إيعادهم عنها المذكور في هذه الآية يدل على عدم دخولهم فيها، فالورود غير الدخول.

واحتج من قال بأن ورود النار في الآية بالنسبة للمؤمنين - حر الحمى في دار الدنيا - بحديث: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» وهو حديث متفق عليه من حديث عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، وابن عمر ورافع بن خديج رضي الله عنه ورواه البخاري أيضاً مرفوعاً عن ابن عباس.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد دلت على أن الورد في الآية معناه الدخول أدلة:

الأول: هو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من أن جميع ما في القرآن من ورود النار معناه دخولها غير محل النزاع، فدل ذلك على أن محل النزاع كذلك، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

الدليل الثاني: هو أن في نفس الآية قرينة دالة على ذلك، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)، بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورد المذكور بقوله: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾؛ أي نترك الظالمين فيها، دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾؛ بل يقول: وندخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة؛ ولذا عطف على قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ قوله: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

الدليل الثالث: ما روي من ذلك عن النبي ﷺ. قال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرج أحمد وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه فذكرت له ذلك فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه: صمماً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها؛ فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا وينذر الظالمين فيها جثياً»، اهـ. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في هذا الحديث: رواه أحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد قالوا: حدثنا سليمان بن حرب، وأخرجه أبو يعلى والنسائي في الكنى، والبيهقي في الشعب في باب النار، والحكيم في النوادر، كلهم من طريق سليمان قال: حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد فسألنا جابراً. فذكر الحديث أتم من اللفظ الذي ذكره الزمخشري. وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الإسناد فقال: عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبة بدل أبي سمية عن جابر، اهـ. وقال ابن

كثير رحمته في تفسير هذه الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البرساني، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذي اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت: إنا اختلفنا في الورود فقال: يدخلونها جميعاً... ثم ذكر الحديث المتقدم. ثم قال ابن كثير رحمته: غريب ولم يخرجوه.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر أن الإسناد المذكور لا يقل عن درجة الحسن لأن طبقة الأولى: سليمان بن حرب، وهو ثقة إمام حافظ مشهور. وطبقته الثانية: أبو صالح أو أبو سلمة غالب بن سليمان العتكي الجهمي الخراساني أصله من البصرة، وهو ثقة. وطبقته الثالثة: كثير بن زياد أبو سهل البرساني بصري نزل بلخ، وهو ثقة. وطبقته الرابعة: أبو سمية وقد ذكره ابن حبان في الثقات، قاله ابن حجر في تهذيب التهذيب: وبتوثيق أبي سمية المذكور تتضح صحة الحديث؛ لأن غيره من رجال هذا الإسناد ثقات معروفون، مع أن حديث جابر المذكور يعتضد بظاهر القرآن وبآيات الأخرى التي استدلت بها ابن عباس، وآثار جاءت عن علماء السلف رضي الله عنهم كما ذكره ابن كثير عن خالد بن معدان، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وذكره هو وابن جرير عن أبي ميسرة، وذكره ابن كثير عن عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري، كلهم يقولون: إنه ورود دخول، وأجاب من قال: بأن الورود في الآية الدخول؛ عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، بأنهم مبعدون عن عذابها وألمها، فلا ينافي ذلك ورودهم إياها من غير شعورهم بألم ولا حر منها كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام على هذه الآية الكريمة.

وأجابوا عن الاستدلال بحديث «الحمى من فيح جهنم» بالقول بموجبه، قالوا: الحديث حق صحيح ولكنه لا دليل فيه لمحل النزاع؛ لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا؛ لأن أول الكلام قوله تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾؛ إلى أن قال: ﴿وَلَن يَنكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾؛ فدل على أن كل ذلك في الآخرة لا في الدنيا كما ترى، والقراءة في قوله تعالى: ﴿جِثَاً﴾ كما قدمنا في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ نُنْجِي﴾؛ قراءة الكسائي بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأه الباقر بفتح النون الثانية وتشديد الجيم. وقد ذكرنا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» أن جماعة رووا عن ابن مسعود أن ورود النار المذكور في الآية هو المرور عليها؛ لأن الناس تمر على الصراط وهو جسر منصوب على متن جهنم. وأن الحسن وقتادة روي عنهما نحو ذلك أيضاً، وروي عن ابن مسعود أيضاً مرفوعاً أنهم يردونها جميعاً وَيَصْطُدُّونَ عَنْهَا بحسب أعمالهم. وعنه أيضاً تفسير الورود بالوقوف عليها. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يعني أن ورودهم النار المذكور كان حتماً على ربك مقضياً، أي أمراً واجباً مفعولاً لا محالة، والحثم: الواجب الذي لا محيد عنه. ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

عبادك يخطئون وأنت رب يكفيك المنايا والحثوم

فقوله: «والحثوم» جمع حتم، يعني الأمور الواجبة التي لا بد من وقوعها. وما ذكره جماعة من أهل العلم من أن المراد بقوله: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قسماً واجباً، كما روي عن عكرمة وابن مسعود ومجاهد وقتادة وغيرهم لا يظهر كل الظهور.

واستدل من قال: إن في الآية قسماً بحديث أبي هريرة الثابت في الصحيحين. قال البخاري في صحيحه: حدثنا علي، حدثنا سفيان قال: سمعت الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فِيلَجُ النَّارِ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ» قال أبو عبد الله: «وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهُا»، اهـ. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمْسُهُ النَّارُ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ». حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وعمر بن الناقدا، وزهير بن حرب قالوا: حدثنا سفيان بن عيينة (ح) وحدثنا عبد بن حميد، وابن رافع، عن عبد الرزاق، أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري بإسناد مالك، وبمعنى حديثه إلا أن في حديث سفيان: «فِيلَجُ النَّارِ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ»، اهـ.

قالوا: المراد بالقسم المذكور في هذا الحديث الصحيح هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهُا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ وهو معنى ما ذكرنا عن البخاري في قوله: قال أبو عبد الله: «وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهُا»، والذين استدلوا بالحديث المذكور على أن الآية الكريمة قسماً اختلفوا في موضع القسم من الآية، فقال بعضهم: هو مقدر دل عليه الحديث المذكور، أي والله وإن منكم إلا واردها. وقال بعضهم: هو معطوف على القسم قبله، والمعطوف على القسم قسم، والمعنى فوريك لنحشرنهم والشياطين، وربك إن منكم إلا واردها، وقال بعضهم: القسم المذكور مستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ أي قسماً واجباً كما قدمناه عن ابن مسعود ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالقسم عادل على القطع والبت من السياق؛ فإن قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ تذييل وتقرير لقوله: «وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهُا»؛ وهذا بمنزلة القسم في تأكيد الإخبار، بل هذا أبلغ للحصر في الآية بالنفي والإثبات.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن الآية ليس يتعين فيها قسم؛ لأنها لم تقتزن بأداة من أدوات القسم، ولا قرينة واضحة دالة على القسم، ولم يتعين عطفها على القسم. والحكم بتقدير قسم في كتاب الله دون قرينة

ظاهرة فيه زيادة على معنى كلام الله بغير دليل يجب الرجوع إليه، وحديث أبي هريرة المذكور المتفق عليه لا يتعين منه أن في الآية قسماً؛ لأن من أساليب اللغة العربية التعبير بتحلة القسم عن القلة الشديدة وإن لم يكن هناك قسم أصلاً. يقولون: ما فعلت كذا إلا تحلة القسم، يعنون إلا فعلاً قليلاً جداً قدر ما يحل به الحالف قسمه. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول كعب بن زهير في وصف ناقته:

تخدي على يسرات وهي لاصقة ذوابل مسهن الأرض تحليل

يعني أن قوائم ناقته لا تمس الأرض لشدة خفتها إلا قدر تحليل القسم، ومعلوم أنه لا يمين من ناقته أنها تمس الأرض حتى يكون ذلك المس تحليلاً لها كما ترى. وعلى هذا المعنى المعروف، فمعنى قوله ﷺ: «إلا تحلة» أي لا يلج النار إلا ولوجاً قليلاً جداً لا ألم فيه ولا حر، كما قدمنا في حديث جابر المرفوع. وأقرب أقوال من قالوا: إن في الآية قسماً قول من قال إنه معطوف على قوله: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ»؛ لأن الجمل المذكورة بعده معطوفة عليه، كقوله: «ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ» وقوله: «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ» وقوله: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ» للدلالة قرينة لام القسم في الجمل المذكورة على ذلك. أما قوله: «وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا» فهو محتمل للعطف أيضاً، ومحتمل للاستئناف. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: «وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُ اللَّيْنِ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَوْا أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَبَّيَا ﴿٧٤﴾».

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «خَيْرٌ مَّقَامًا» قرأه ابن كثير بضم الميم، والباقون بفتحها، وقوله: «وَرَبَّيَا» قرأه قالون وابن ذكوان «وريا» بتشديد الياء من غير همز. وقرأه الباقون بهمزة ساكنة بعد الراء وبعدها ياء مخففة.

ومعنى الآية الكريمة أن كفار قريش كانوا إذا يتلو عليهم رسول الله ﷺ وأصحابه آيات هذا القرآن، في حال كونها بينات أي مرتلات الألفاظ، واضحات المعاني، بينات المقاصد، إما محكمات جاءت واضحة، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً، أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها أو حججاً وبراهين.

والظاهر أن قوله: «بَيَّنَّتْ» [البقرة: ٩٩]، حال مؤكدة؛ لأن آيات الله لا تكون إلا كذلك. ونظير ذلك قوله تعالى: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا» [البقرة: ٩١]، أي إذا تتلى عليهم آيات الله في حال كونها متصفة بما ذكرنا عارضوها واحتجوا على بطلانها، وأن الحق معهم لا مع من يتلوها بشبهة ساقطة لا يحتج بها إلا من لا عقل له. ومضمون شبهتهم المذكورة: أنهم يقولون لهم: نحن أوفر منكم حظاً في الدنيا، فنحن أحسن منكم منازل، وأحسن منكم متاعاً، وأحسن منكم منظراً، فلولاً أننا أفضل عند الله منكم لما آثرنا عليكم في الحياة الدنيا، وأعطانا من نعيمها وزيتها ما لم يعطكم.

فقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؛ أي نحن وأنتم أينا خير مقاماً. والمقام على قراءة ابن كثير بضم الميم محل الإقامة، وهو المنازل والأمكنة التي يسكنونها. وعلى قراءة الجمهور فالمقام بفتح الميم مكان القيام وهو موضع قيامهم وهو مساكنهم ومنازلهم. وقيل: وهو موضع القيام بالأمور الجليلة، والأول هو الصواب.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً ومجتمعاً، والاستفهام في قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الظاهر أنه استفهام تقرير؛ ليحملوا به ضعفاء المسلمين الذين هم في تقشف ورثاة هيئة على أن يقولوا أنتم خير مقاماً وأحسن ندياً منا. وعلى كل حال فلا خلاف أن مقصودهم بالاستفهام المذكور أنهم - أي كفار قريش - خير مقاماً وأحسن ندياً من أصحاب النبي ﷺ، وأن ذلك هو دليلهم على أنهم على الحق، وأنهم أكرم على الله من المسلمين. وما في التلخيص وشروحه من أن السؤال «أي» في الآية التي نحن بصدها سؤال بها عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمهما كالعادة في أي غلط منهم؛ لأنهم فسروا الآية الكريمة بغير معناها الصحيح. والصواب ما ذكرناه - إن شاء الله تعالى - واستدلّاهم هذا بحظهم في الحياة الدنيا على حظهم يوم القيامة، وأن الله ما أعطاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم ذكره الله تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا لَنَا هَذَا إِنْكَ فَدِيدُ ۖ﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۖ﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَمِنْ بَنِينَ ۖ﴾ [سجدة]، ﴿شَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ﴾ [الأنعام]، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْوَ ۖ﴾ [فصلت: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات، فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن الله لم يعطهم نصيباً من الدنيا إلا لرضاه عنهم، ومكانتهم عنده، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك.

وقد أبطل الله تعالى دعوهم هذه في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَكُلًّا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَبَّيَا ۖ﴾ [٧٦]؛ والمعنى أهلكنّا قرونًا كثيرة، أي أمما كانت قبلهم وهم أكثر نصيباً في الدنيا منهم، فما متعهم ما كان عندهم من زينة الدنيا ومتاعها من إهلاك الله إياهم لما عصوا وكذبوا رسله، فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا يدل على رضا الله والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم، الذين هم أحسن أثناً ورياً منكم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ﴾ هي الخبرية، ومعناها الإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب على المفعول به لأهلكتنا، أي أهلكنا كثيراً. «ومن» مبينة لـ«كم» وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم. قيل: سموا قرناً لاقترانهم في الوجود. والأثاث: متاع البيت. وقيل هو الجديد من الفرش. وغير الجديد منها يسمى «الخرثي» بضم الخاء وسكون الراء والثاء والمثلثة بعدها ياء مشددة، وأنشد لهذا التفصيل الحسن بن علي الطوسي قول الشاعر:

تَقْدَامُ الْعَهْدُ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا دَهْرًا وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خَرْثِيَا
والإطلاق المشهور في العربية هو إطلاق الأثاث على متاع البيت مطلقاً. قال الفراء: لا واحد له. ويطلق الأثاث على المال أجمع: الإبل، والغنم، والعبيد، والمتاع. والواحد أثانة. وتأثت فلان: إذا أصاب رياشاً، قاله الجوهري عن أبي زيد. وقوله: ﴿وَرِيَّاءٌ﴾ على قراءة الجمهور مهموزاً، أي أحسن منظر وهيئة، وهو فعل بمعنى مفعول من رأى البصرية. والمراد به الذي تراه العين من هياتهم الحسنة ومتاعهم الحسن، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي في هذا المعنى قوله:

أَشَافَتَكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بِذِي الرَّثِي الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ
وعلى قراءة قالون وابن ذكوان بتشديد الياء من غير همز. فقال بعض العلماء: معناه معنى القراءة الأولى، إلا أن الهمزة أبدلت ياء فأدغمت في الياء. وقال بعضهم: لا همز على قراءتهما أصلاً، بل عليها فهو من الري الذي هو النعمة والترفة، من قولهم: هو ريان من النعيم، وهي ريا منه. وعلى هذا فالمعنى أحسن نعمة وترفها، والأول أظهر عندي. والله تعالى أعلم.

والآيات التي أبطل الله بها دعواهم هذه كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَمَا أَمُولُكُمْ وَلَا أُولَدُكُمْ بَالِي تَقْرِيكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ الْبَاطِلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ]، وقوله: ﴿فَدَرَنِي وَمَن يَكْذِبُ يَهْدِي اللَّهُ لِحَبِيٓثٍ سَتَجِدُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الأنعام]، وأمثل لهم إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٥٥﴾ [القلم]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقد قدمنا شيئاً من ذلك.

وقول الكفار الذي حكاه الله عنهم في هذه الآية الكريمة: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَبِيًّا﴾؛ الظاهر فيه أن وجه ذكرهم للمقام والندي أن المقام هو محل السكنى الخاص لكل واحد منهم، والندي محل اجتماع بعضهم ببعض، فإذا كان كل منهما للكفار أحسن من نظيره عند المسلمين دل ذلك على أن نصيبهم في الدنيا أوفر من نصيب أصحاب النبي ﷺ في ذلك الوقت، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

يومان يوم مقامات وأنديّة ويوم سير إلى الأعداء تأويب
والمقامات: جمع مقامة بمعنى المقام، والأنديّة: جمع ناد بمعنى الندي وهو
مجلس القوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩]
فالنّادي والندي يطلقان على المجلس، وعلى القوم الجالسين فيه. وكذلك المجلس
يطلق على القوم الجالسين، ومن إطلاق الندي على المكان قول الفرزدق:

وما قام منا قائم في ندينا فينطق إلا بالتي هي أعرف
وقوله تعالى هنا: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. ومن إطلاقه على القوم قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [٧]
سَنَعُ الزَّيَّاتَةِ [٨] [العلق]. ومن إطلاق المجلس على القوم الجالسين فيه قول ذي الرمة:
لهم مجلس صهب السبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

والجملة في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾: قال الزمخشري: هي في محل نصب
صفة لقوله: ﴿كَمْ﴾ ألا ترى أنك لو تركت لفظة «هم» لم يكن لك بد من نصب
«أحسن» على الوصفية، اهـ - وتابع الزمخشري أبو البقاء على ذلك. وتعبه أبو حيان
في البحر بأن بعض علماء النحو نصوا على أن «كم» سواء كانت استفهامية أو خبرية لا
توصف ولا يوصف بها. قال: وعلى هذا يكون «هم أحسن» في موضع الصفة لا قرن
وجمع نعت القرن اعتباراً لمعنى القرن، وهذا هو الصواب عندي لا ما ذكره الزمخشري
وأبو البقاء، وصيغة التفضيل في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾؛ تلزمها «من» لتجردها من
الإضافة والتعريف، إلا أنها محذوفة لدلالة المقام عليها. والتقدير: هم أحسن أثناً
ورياً منهم، على حد قوله في الخلاصة:

وأفعل التفضيل صله أبداً تقديراً أو لفظاً بمن إن جرذاً

فإن قيل: أين مرجع الضمير في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
يَبْتَغِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الأحقاف: ٧]؟ فالجواب: أنه راجع إلى الكفار
المذكورين في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌّ... الآية، وقوله: ﴿وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
جِثًّا﴾ قاله القرطبي، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَعُفُ جُنْدًا﴾ [٧٥]. في معنى هذه الآية
الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن الله - جلّ وعلا - أمر نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه
الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين، وإيضاح معناه: قل يا نبي الله ﷺ لهؤلاء
المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، وأن الدليل على ذلك أنهم خير منكم مقاماً
وأحسن منكم ندياً، من كان منا ومنكم في الضلالة أي الكفر والضلال عن طريق الحق
فليمدد له الرحمن مدداً، أي فأمله الرحمن إمهالاً فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال

ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعد الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين كقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر، وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها، وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتى يرى ما يوعد من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال، واقتصر على هذا التفسير ابن كثير وابن جرير، وهو الظاهر من صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ونظير هذا المعنى في القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَلِيِّ فَقُلْ تَمَالَوْا نِعْمَ أَبْنَاءُكُمْ وَأَبْنَاءُكُمْ وَسَاءَ نِعْمَ وَسَاءَكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَكُمْ عَلَى الْكَذِبِ﴾ [آل عمران]، لأنه على ذلك التفسير يكون في كلتا الآيتين دعاء بالشر على الضال من الطائفتين. وكذلك قوله تعالى في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، في «البقرة والجمعة» عند من يقول: إن المراد بالتمني الدعاء بالموت على الكاذبين من الطائفتين، وهو اختيار ابن كثير، وظاهر الآية لا يساعد عليه.

الوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعد وهو في غفلة وكفر وضلال.

وتشهد لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لَيزدادُوا إِسْمًا﴾ ... الآية [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ ... الآية [الأنعام: ٤٤]، كما قدمنا قريباً بعض الآيات الدالة عليه.

ومما يؤيد هذا الوجه ما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في حرف أبي: «قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة»، اه قاله صاحب الدر المنثور. ومثل هذا من جنس التفسير لا من جنس القراءة؛ فإن قيل على هذا الوجه؛ ما النكتة في إطلاق صيغة الطلب في معنى الخبر؟ فالجواب: أن الزمخشري أجاب في كشفه عن ذلك، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي مَدَّ له الرحمن، يعني أمهله وأملى له في العمر؛ فأخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممثل لتقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ تَبَا يَتَذَكَّرْ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ [فاطر: ٣٧]، اه محل الغرض منه. وأظهر الأقوال عندي في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أنه متعلق بما قبله يليه، والمعنى: فليمدد له الرحمن مَدًّا حتى إذا رأى ما يوعد علم أن الأمر على خلاف ما كان يظن. وقال الزمخشري: إن ﴿حَتَّى﴾ في هذه الآية هي التي تحكى بعدها الجمل، واستدل على ذلك بمجيء الجملة الشرطية بعدها.

وقوله: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ لفظة ﴿مَا﴾ مفعول به لـ ﴿رَأَوْا﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْعَذَابُ وَلِيًّا﴾ أسأعة؛ بدل من المفعول به الذي هو ﴿مَا﴾. ولفظة ﴿مِنْ﴾ من قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ...﴾ الآية، قال بعض العلماء: هي موصولة في محل نصب على المفعول به ليعلمون. وعليه فعلم هنا عرفانية تتعدى إلى مفعول واحد، وقال بعض أهل العلم: ﴿مِنْ﴾ استهامية والفعل القلبي الذي هو «يعلمون» معلق بالاستفهام، وهذا أظهر عندي. وقوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَعُفُ جُنْدًا﴾؛ في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَيْيًّا﴾؛ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم. والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان، فالمقابلة المذكورة ظاهرة. وقد دلت آية من كتاب الله على إطلاق «شر مكانًا»، والمراد اتصاف الشخص بالشر لا المكان، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْشِفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانٍ﴾ [يوسف: ٧٧]، فتفضيل المكان في الشرها هنا الظاهر أن المراد به تفضيله إخوته في الشر على نفسه فيما نسبوا إليه من شر السرقة لا نفس المكان، اللهم إلا أن يراد بذلك المكان المعنوي، أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى. وقوله في هذه الآيات المذكورة: ﴿مَقَامًا﴾ و﴿نَيْيًّا﴾ و﴿أَثَنًا﴾ و﴿مَّكَانًا﴾ و﴿جُنْدًا﴾ كل واحد منها تمييز محول عن الفاعل، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والفاعل المعني انصب بـ بأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا﴾ (٧٦). قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾؛ دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]، كما قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وقال في الهدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٧٧) [محمد]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا...﴾ الآية [العنكبوت: ٦٩]: وقد جمع بينهما في آيات أخر كقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى...﴾ الآية [فصلت: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَوَهِمُوا مِنْ يَقُولِ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَلَمَّا الْوَيْلُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٧٨) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (٧٩) [التوبة]، كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾، تقدم إيضاحه في سورة «الكهف»، فإن قيل: ظاهر الآية أن لفظة «خير» في قوله: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ صيغة تفضيل، والظاهر أن المفضل عليه هو جزاء الكافرين؛ ويدل على ذلك ما قاله صاحب الدر المشور، قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ يعني خير جزاء من جزاء المشركين. ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ يعني مرجعاً من مرجعهم إلى النار. والمعروف في العربية أن صيغة التفضيل تقتضي مشاركة المفضل والمفضل عليه في أصل المصدر، مع أن المفضل يزيد فيه على المفضل عليه، والخيرية منفية بتاتاً عن جزاء المشركين وعن مردهم، فلم يشاركوا في ذلك المسلمين حتى يفضلوا عليهم.

فالجواب أن الزمخشري في كشفه حاول الجواب عن هذا السؤال بما حاصله أنه كأنه قيل ثوابهم النار، والجنة خير منها على طريقة قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصيلم
فقوله: «أعتبوا بالصيلم» يعني أرضوا بالسيف، أي لا رضى لهم عندنا إلا السيف
نقتلهم به. ونظيره قول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
أي لا تحية بينهم إلا الضرب الوجيع. وقول الآخر:

شجعاء جرتها الذميل تلوكة أصلاً إذا راح المطي غرائاً

يعني أن هذه الناقة لا جرة لها تخرجها من كرشها فتمضغها إلا السير، وعلى هذا المعنى فالمراد لا ثواب لهم إلا النار. وباعتبار جعلها ثواباً بهذا المعنى فضل عليها ثواب المؤمنين، هذا هو حاصل جواب الزمخشري مع إيضاحه له.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هذا، وهو أننا قدمنا أن القرآن والسنة الصحيحة دلا على أن الكافر يجازى بعمله الصالح في الدنيا، فإذا بر والديه ونفس عن المكروب، وقرى الضيف، ووصل الرحم مثلاً يبتغي بذلك وجه الله فإن الله يثيبه في الدنيا، كما قدمنا دلالة الآيات عليه، وحديث أنس عند مسلم. فتوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا، هو الذي فضل الله عليه في الآية ثواب المؤمنين، وهذا واضح لا إشكال فيه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾. أخرج الشيخان وغيرهما من غير وجه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: جث العاص بن وائل السهمي أقتاضاه حقاً لي عنده؛ فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم. فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: إن لي هناك مالا وولداً فأقضيك؛ فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، وقال بعض أهل العلم: إن مراده بقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، الاستهزاء بالدين

وبخباب بن الارت رضي الله عنه، والظاهر: أنه زعم أنه يؤتى مالا وولداً قياساً منه للآخرة على الدنيا، كما بينا الآيات الدالة على ذلك؛ كقوله: «وَلَمَّا رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ» [فصلت: ٥٠]، وقوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَخُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحٌ لَّهُمْ فِي الْفَرْتَنَةِ»... الآية [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، وقوله: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» (٢٥) [سبا]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي «وولداً» بضم الواو الثانية وسكون اللام. وقرأه الباقر بفتح الواو واللام معاً، وهما لغتان معناهما واحد كالعرب والعرب، والعدم والعدم. ومن إطلاق العرب الولد بضم الواو وسكون اللام كقراءة حمزة والكسائي قول الحارث بن حلزة: ولقد رأيت معاشراً قد ثمروا مالا وولداً وقول رؤبة:

الحمد لله العزيز فرداً لم يتخذ من ولد شيء ولدا
وزعم بعض علماء العربية أن الولد بفتح الواو واللام مفرد، وأن الولد بضم الواو وسكون اللام جمع له؛ كأسد بالفتح يجمع على أسد بضم فسكون. والظاهر عدم صحة هذا.

ومما يدل على أن «الولد» بالضم ليس بجمع قول الشاعر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار

لأن «الولد» في هذا البيت بضم الواو وسكون اللام، وهو مفرد قطعاً كما ترى.

قوله تعالى: «أَطَاعَ الْفَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» (٧٨) كلاً.

اعلم أن الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة رد على العاص بن وائل السهمي قوله: إنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً بالدليل المعروف عند الجدليين بالتقسيم والترديد، وعند الأصوليين بالسبر والتقسيم، وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل.

وضابط هذا الدليل العظيم أنه متركب من أصليين: أحدهما: حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحصر، وهو المعبر عنه بالتقسيم عند الأصوليين والجدليين، وبالشرطي المنفصل عند المنطقيين.

وثانيهما: هو اختيار تلك الأوصاف المحصورة، وإبطال ما هو باطل منها وإبقاء ما هو صحيح منها كما ستري إيضاحه - إن شاء الله تعالى - وهذا الأخير هو المعبر عنه عند الأصوليين «بالسبر»، وعند الجدليين «بالترديد»، وعند المنطقيين بالاستثناء في الشرطي المنفصل. والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث، وبذلك يتم إلقاء العاص بن وائل الحجر في دعواه أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً.

أما وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة فهو أنا نقول: قولك إنك تؤتي مالا وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيتاءك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

الثاني: أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك، فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) مبطلاً لهما بأداة الإنكار. ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل؛ لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب؛ ولم يتخذ عند الرحمن عهداً. فتعين القسم الثالث وهو أنه قال ذلك افتراء على الله. وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع وهو قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي لأنه يلزمه، ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً، بل قال ذلك افتراء على الله؛ لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى. وهذا الدليل الذي أبطل به دعوى ابن وائل هذه هو الذي أبطل به بعينه دعوى اليهود: أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة في سورة «البقرة»، وصرح في ذلك بالقسم الذي هو الحق، وهو أنهم قالوا ذلك كذباً من غير علم. وحذف في «البقرة» قسم اطلاع الغيب المذكور في «مريم» لدلالة ذكره في «مريم» على قصده في «البقرة» كما أن كذبهم الذي صرح به في «البقرة» لم يصرح به في «مريم» لأن ما في «البقرة» يبين ما في «مريم» لأن القرآن العظيم يبين بعضه بعضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٩) [البقرة]، فالأوصاف هنا هي الأوصاف الثلاثة المذكورة في «مريم» كما أوضحنا، وما حذف منها يدل عليه ذكره في «مريم» فاتخاذ العهد ذكره في «البقرة» و«مريم» معاً والكذب في ذلك على الله صرح به في «البقرة» بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، وأشار له في «مريم» بحرف الزجر الذي هو ﴿كَلَّا﴾ واطلاع الغيب صرح به في «مريم» وحذفه في «البقرة» لدلالة ما في «مريم» على المقصود في «البقرة» كما أوضحنا. وهناك مسائل تتعلق بالآية يرجع من أراد الزيادة لها في الأصل.

وأظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾؛ أن المعنى أم أعطاه الله عهداً أنه سيفعل له ذلك، بدليل قوله تعالى في نظيره في سورة «البقرة»: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]. وخير ما يفسر به القرآن القرآن. وقيل: العهد المذكور: العمل الصالح. وقيل شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْنُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَمْ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سيكتب ما قاله ذلك الكافر افتراء عليه، من أنه يوم القيامة يؤتى مالا وولداً مع كفره بالله، وأنه يمد له من العذاب مداً. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَمْ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي يزيده عذاباً فوق عذاب. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَنَمُدُّ لَمْ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي نطول له من العذاب ما يستأمله؛ ونعذبه بالنوع الذي يعذب به المستهزون. أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد، يقال: مده وأمده بمعنى، وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب (عليه السلام) «ونمد له» بالضم وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرض لما يستوجب غضبه، اهـ.

وأصل المدد لغة: الزيادة، ويدل لذلك المعنى قوله تعالى في أكابر الكفار الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: ﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله في الأتباع والمتبعين: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقوله في هذه الآية: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي ما يقول: إنه يؤتاه يوم القيامة من مال وولد، أي نسلبه منه في الدنيا ما أعطيناه من المال والولد بإهلاكنا إياه. وقيل: نحرمه ما تمناه من المال والولد في الآخرة، ونجعله للمسلمين. ويدل للمعنى الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٢)، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]، كما تقدم إيضاحه في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي منفرداً لا مال له ولا ولد ولا خدم ولا غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ [الأنعام: ٩٤]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَرْدًا﴾ (١٥)، كما تقدم إيضاحه.

فإن قيل: كيف عبر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بحرف التنفيس الدال على الاستقبال في قوله: ﴿سَنَكْنُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ مع أن ما يقوله الكافر يكتب بلا تأخير بدليل قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ (٨) [ق].

فالجواب أن الزمخشري في كشافه تعرض للجواب عن هذا السؤال بما نصه: قلت فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول زائد بن صعصعة الفقعسي:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة ولم تجدي من أن تقري بها بدأ
أي تبين وعلم بالانتساب أنني لست بابن لثيمة، والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك، يعني أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر، فجردها هنا لمعنى الوعيد اهـ منه بلفظه. إلا أنا زدنا اسم قائل البيت وتكلمته.
وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه يكتب ما يقول هذا الكافر

ذكر نحوه في مواضع متعددة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكَرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْفُرُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلَنَا لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كَيْدُنَا يَنْطِقُ عَلَىٰكُمْ يَالْحَقَّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجنانية: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَسُئِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ وقوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمْ أَلْفَيْكَاهُ بَعْدَ حَقٍّ وَتَقُولُوا دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [٩] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كُنِينٌ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ [الانفطار: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٦] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾ [الإسراء: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٨١] كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار المتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً﴾؛ اتخذوا من دون الله آلهة؛ أي معبودات من أصنام وغيرها يعبدونها من دون الله، وأنهم عبدوهم لأجل أن يكونوا لهم عزاً؛ أي أنصاراً وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله؛ كما أوضح تعالى مرادهم ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فتقريبهم إياهم إلى الله زلفى في زعمهم هو عزهم الذي أملوه بهم وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [يونس: ١٨]. فالشفاعة عند الله عز لهم يزعمونه كذباً وافتراء على الله كما بينه بقوله تعالى: ﴿قُلِ اتَّبِعْتُمْ اللَّهَ يَمَّا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع لهم عن ذلك الظن الفاسد الباطل؛ أي ليس الأمر كذلك! لا تكون المعبودات التي عبدتم من دون الله عزاً لكم، بل تكون بعكس ذلك؛ فيكون عليكم ضداً، أي أعواناً عليكم في خصومتكم وتكذيبكم والتبرؤ منكم، وأقوال العلماء في الآية تدور حول هذا الذي ذكرنا، كقول ابن عباس ﴿ضِدًّا﴾ أي أعواناً، وقول الضحاك ﴿ضِدًّا﴾ أي أعداء... وقول قتادة ﴿ضِدًّا﴾؛ أي قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً، وكقول ابن عطية ﴿ضِدًّا﴾ يجيئهم منهم خلاف ما أملوه فيؤول بهم ذلك إلى الدل والهوان، ضد ما أملوه من العز.

وهذا المعنى الذي ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَمَنْ أَمْسَلُ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [٥] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٧٩﴾ [فاطر]، إلى غير ذلك من الآيات، وضمير الفاعل في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ فيه وجهان للعلماء، وكلاهما يشهد له قرآن؛ إلا أن لأحدهما قرينة ترجحه على الآخر.

الأول: أن واو الفاعل في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ راجعة إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله، أما العاقل منها فلا إشكال فيه. وأما غير العاقل فالله قادر على أن يخلق له إدراكاً يخاطب به من عبده ويكفر به بعبادته إياه. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى عنهم: ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَقْبَضُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ فكفّن بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنّا عن عبادتكم لغافلين ﴿٧٩﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن العابدين هم الذين يكفرون بعبادتهم شركاءهم وينكرونها، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، وقوله عنهم: ﴿بَلْ لَوْ كُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا... الآية [غافر: ٧٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة المرجحة للوجه الأول أن الضمير في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ راجع للمعبودات؛ وعليه فرجوع الضمير في: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، للمعبودات أظهر؛ لانسجام الضمائر بعضها مع بعض.

أما على القول الثاني فإنه يكون ضمير ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢] للعبادين، وضمير ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [الجن: ١٩] للمعبودين، وتفرق الضمائر خلاف الظاهر، والعلم عند الله تعالى.

وقول من قال من العلماء: إن ﴿كَلَّا﴾ في هذه الآية متعلقة بما بعدها لا بما قبلها، وأن المعنى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ﴾، أي حقاً سيكفرون بعبادتهم، محتمل، ولكن الأول أظهر منه وأرجح، وقائله أكثر، والعلم عند الله تعالى، وفي قوله: ﴿كَلَّا﴾ قراءات شاذة تركنا الكلام عليها لشذوذها.

وقوله في هذه الآية: ﴿لَيَكُونُوا لَكُمْ عَرَا﴾ أفرد فيه العز مع أن المراد الجمع؛ لأن أصله مصدر على حد قوله في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الأفراد والتذكير

والإخبار بالمصدر يجري على حكم النعت به، وقوله: ﴿ضِدًّا﴾ مفرداً أيضاً أريد به الجمع. قال ابن عطية: لأنه مصدر في الأصل؛ حكاه عنه أبو حيان في البحر. وقال الزمخشري: الضد العون، وحد توحيد قوله ﴿لَكُمْ﴾: «هم يد على من سواهم» لاتفاق كلمتهم، وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آثًا﴾. قوله: ﴿أَرْسَلْنَا

الشَّيْطَانِ... الآية، أي سلطانهم عليهم وقيضناهم لهم؛ وهذا هو الصواب، خلافاً لمن زعم أن معنى: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانِ﴾... الآية؛ أي خَلينا بينهم وبينهم، ولم نعصمهم من شرهم؛ يقال: أرسلت البعير أي خَليته.

وقوله: ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأًا﴾ الأز والهز والاستفزاز بمعنى، ومعناها التهيج وشدة الإزعاج. فقوله: ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأًا﴾ أي تهيجهم وترعجهم إلى الكفر والمعاصي.

وأقوال أهل العلم في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، كقول ابن عباس ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأًا﴾؛ أي تغويهم إغواء. وكقول مجاهد ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأًا﴾؛ أي تسليهم إشلأ، وكقول قتادة ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأًا﴾ أي ترعجهم إزعاجاً.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه سلط الشياطين على الكافرين، وقبضهم لهم يضلونهم عن الحق بينه في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾... الآية [فصلت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾... الآية [الزخرف: ٣٦ - ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَشِرُ إِلَيْنَ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾... الآية [الأنعام: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾. قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي لا تستعجل وقوع العذاب بهم فإن الله حدد له أجلاً معيناً معدوداً؛ فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب، فقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي نعد الأعوام والشهور والأيام التي دون وقت هلاكهم، فإذا جاء الوقت المحدد لذلك أهلكتناهم، والعرب تقول: عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن هلاك الكفار حدد له أجل معدود ذكره في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾... الآية [العنكبوت: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٥٤﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَلَكِنِ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَنتِهِ مَعْدُودَةٍ لِّقَوْلِكَ مَا يَحْسَبُهُ﴾ [هود: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٦١﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٦﴾﴾ [القمان]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِتَّتُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾... الآية [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَهَبْ لِّلْكَافِرِينَ أَنفُسَهُمْ رِيبًا ﴿٧﴾﴾ [الطارق] إلى غير ذلك من الآيات.

وروي أن المأمون قرأ هذه السورة الكريمة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء؛ فأشار إلى ابن السماك أن يعظه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

والأظهر في الآية هو ما ذكرنا من أن العد المذكور عد الأعوام والأيام والشهور من الأجل المحدد.

وقال بعض أهل العلم: هو عد أنفاسهم؛ كما أشار إليه ابن السماك في موعظته للمؤمن التي ذكرنا إن صح ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنها كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد: خروج نفسك، آخر العدد: فراق أهلك، آخر العدد: دخول قبرك.

وقال بعض أهل العلم: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾؛ أي نعد أعمالهم لنجازيهم عليها، والظاهر هو ما قدمنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) **وسوف المجرمين إلى جهنم وزدًا** (٨٦). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين كانوا يتقونه في دار الدنيا بامتثال أمره واجتناب نهيه يحشرون إليه يوم القيامة في حال كونهم وفداً، والوفد على التحقيق جمع وافد كصاحب وصحب، وراكب وركب. وقدمنا في سورة «النحل» أن التحقيق أن الفعل بفتح فسكون من صيغ جموع الكثرة للفاعل وصفاً، وبيننا شواهد ذلك من العربية، وإن أغفله الصرفيون. والوافد: من يأتي إلى الملك مثلاً في أمر له شأن. وجمهور المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَفْدًا﴾ أي ركبانا. وبعض العلماء يقول: هم ركبانا على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وبعضهم يقول: يحشرون ركبانا على صور من أعمالهم الصالحة في الدنيا في غاية الحسن وطيب الرائحة.

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** (٨٥) قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد طيب ريحك، وحسن وجهك، فيقول: أنا عمك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبناك في الدنيا فهل أركبني. فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** (٨٥) قال: ركبانا. وقال ابن جرير: حدثني ابن المشني، حدثني ابن مهدي عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** (٨٥)؛ قال: على الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** (٨٥) قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سويد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه فقرأ هذه الآية: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** (٨٥) قال: والله ما على أرجلهم يحشرون. ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق

مثلها، عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة!! وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به، وزاد: عليها رحائل من ذهب، وأزمتها الزبرجد...، والباقي مثله. وروى ابن أبي حاتم هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا سلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْرَحْمَنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾؛ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحائل الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحدهما فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوت حمراء على صفائح الذهب؛ فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين، يا علي؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها ليفتح له فإذا رآه خر له (قال سلمة: أراه قال ساجداً) فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك، فيتبعه ويقفو أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه...» إلى آخر الحديث بطوله. وفي آخر السياق: هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً. وقد رويناه في المقدمات من كلام علي ﷺ، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم. وركوبهم المذكور إنما يكون من المحشر إلى الجنة، أما من القبر فالظاهر أنهم يحشرون مشاة؛ بدليل حديث ابن عباس الدال على أنهم يحشرون حفاة عراة غرلا. هذا هو الظاهر، وجزم به القرطبي، والله تعالى أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ۝٨٦﴾ السوق معروف. والمجرمون: جمع تصحيح للمجرم، وهو اسم فاعل الإجمام، والإجمام: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب الذي يستحق صاحبه به النكال والعذاب. ولم يأت الإجمام في القرآن إلا من أجمم الرباعي على وزن أفعل. ويجوز إتيانه في اللغة بصيغة الثلاثي فتقول: جرم يجرم كضرب يضرب؛ والفاعل منه جارم، والمفعول مجروم، كما هو ظاهر، ومنه قول عمرو بن البراقة النهمي:

وننصر مولانا ونعلم أنه
كما الناس مجروم عليه وجارم

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرْدًا﴾ أي عطاشاً، وأصل الورد: الإتيان إلى الماء، ولما كان الإتيان إلى الماء لا يكون إلا من العطش أطلق هنا اسم الورد على الجماعة العطاش، أعادنا الله والمسلمين من العطش في الآخرة والدنيا. ومن إطلاق الورد على المسير إلى الماء قول الراجز يخاطب ناقته:

ردي ردي ورد قطاة صما كدرية أعجبها برد الما

واختلف العلماء في العامل الناصب لقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾. فقبل منصوب بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ بعده؛ أي لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين، واختاره أبو حيان في البحر. وقيل: منصوب بـ «اذكر» أو احذر مقدراً، وفيه أقوال غير ذلك.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة «الزمر»: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا قُتِبَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزمر].

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في الآية وجهان أو أوجه من التفسير كلها حق، وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإننا نذكر الجميع وأدلته من كتاب الله تعالى؛ لأنه كله حق، فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة من ذلك النوع، قال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى «المُجْرِمِينَ» المذكورين في قوله: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي لا يملك المجرمون الشفاعة، أي لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب.

وهذا الوجه من التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المائدة: ٨٦] وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [ص: ١٣] وَلَا صِدِّيقٍ جِئِمِ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمًا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ... الآية [غافر]؛ وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم؛ لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم لغيرهم، فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى، وعلى كون الواو في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى: «المُجْرِمِينَ» فالاستثناء منقطع و«من» في محل نصب، والمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يملكون الشفاعة، أي يتمليك الله إياهم وإذنه لهم فيها. فيملكها الشافعون بما ذكرنا، ويستحقها به المشفوع لهم، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم].

وقال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ راجعة إلى «المتقين والمجرمين» جميعاً المذكورين في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ أَسُوفُ﴾

الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾؛ وعليه فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن أَتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: متصل و﴿مِنْ﴾ بدل من الواو في «لا يملكون» أي لا يملك من جميعهم أحد الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون، والعهد: العمل الصالح. والقول بأنه لا إله إلا الله وغيره من الأقوال يدخل في ذلك؛ أي إلا المؤمنون فإنهم يشفع بعضهم في بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُ قَوْلًا ﴿٨٧﴾﴾، وقد بين تعالى في مواضع أخر أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الزخرف: ٨٦]؛ أي لكن من شهد بالحق يشفع بإذن الله له في ذلك. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾... الآية [الروم: ١٢ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَمْلِكُ﴾... الآية [يونس: ١٨]. والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة، والعلم عند الله تعالى.

وفي إعراب جملة «لا يملكون» وجهان: الأول: أنها حالية؛ أي نسوق المجرمين إلى جهنم في حال كونهم لا يملكون الشفاعة. أو نحشر المتقين ونسوق المجرمين في حال كونهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ منهم عند الرحمن عهداً. والثاني: أنها مستأنفة للإخبار، حكاة أبو حيان في البحر. ومن أقوال العلماء في العهد المذكور في الآية أنه المحافظة على الصلوات الخمس، واستدل من قال ذلك بحديث عبادة بن الصامت الذي قدمنا عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وقال بعضهم: العهد المذكور هو أن يقول العبد كل صباح ومساءً، «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فلا تكلني إلى نفسي؛ فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقربني من الشر، وإني لا أثق إلا برحمتك. فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة؛ إنك لا تخلف الميعاد»، فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعاً ووضعها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الله عهد؟ فيقوم فيدخل الجنة، انتهى. ذكره القرطبي بهذا اللفظ مرفوعاً عن ابن مسعود. وذكر صاحب الدر المنثور أنه أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وليس فيه قوله: فإذا قال ذلك إلخ. وذكر صاحب الدر المنثور أيضاً: أن الحكيم الترمذي أخرج نحوه مرفوعاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والظاهر أن المرفوع لا يصح. والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان بالله وامتنال أمره واجتناب نهيه؛ خلافاً لمن زعم أن العهد في الآية كقول العرب: عهد الأمير إلى فلان بكذا؛ أي أمره به، أي لا يشفع إلا من أمره الله بالشفاعة، فهذا القول ليس صحيحاً في المراد بالآية وإن كان صحيحاً

في نفسه . وقد دلت على صحته آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبا: ٢٣]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ...﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [م: ٨٣]... الآيات، قد تكلمنا عليها وعلى الآيات التي بمعناها في القرآن في مواضع متعددة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦].

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر في القرآن لفظ عام ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك فإذا علمت ذلك فاعلم أنه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ذكر أنه سيجعل لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وداً؛ أي محبة في قلوب عباده، وقد صرح في موضع آخر بدخول نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في هذا العموم، وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ الآية. وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه؛ قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه؛ فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»، اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [٩٧].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إنما يسر هذا القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم، ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء وهم الكفرة، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع أخرى، أما ما ذكر فيها من تيسير هذا القرآن العظيم فقد أوضحه في مواضع آخر كقوله في سورة «القمر» مكرراً لذلك: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [٧]، [القمر]، وقوله في آخر «الدخان»: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥٨]، [الدخان]، وأما ما ذكر فيها من كونه بلسان هذا النبي العربي الكريم فقد ذكره في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَزَّلْنَا بِهِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [١٧٢]، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [١٧٤]، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [١٧٥]، [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿الرَّيَّةَ يَأْتِيكَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ﴾ [١]، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٢]، [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿حَمِّمْ﴾ [١]، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ [٢]، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٣]، [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ أُعْجِبُ... وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَتُنْفِثَ بِهِ الْمُتَفِثِينَ﴾ ... الآية قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة «الكهف» وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وأظهر الأقوال في قوله: ﴿لَذَا﴾ أنه جمع الألد، وهو شديد الخصومة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقول الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كأنني أخاصم أقواماً ذوي جدل لدا
قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٨١). ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [الأنعام: ٦]، في هذه الآية الكريمة هي الخبرية، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾ هي المبينة لـ ﴿كَمْ﴾ كما تقدم إيضاحه.
وقوله: ﴿هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى أحداً منهم، أو تشعر به، أو تجده ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي صوتاً. وأصل الركن: الصوت الخفي؛ ومنه ركن الرمح: إذا غيب طرفه وأخفاه في الأرض. ومنه الركاز: وهو دفن جاهلي مغيب بالدفن في الأرض، ومن إطلاق الركن على الصوت قول لبيد في معلقته:

فتوجست ركن الأنيس فراعها
عن ظهر غيب والأنيس سقامها
وقول طرفه في معلقته:

وصادقتا سمع التوجس للسرى
لركن خفي أو لصوت مندد
وقول ذي الرمة:

إذا توجس ركزا مقفر ندس
بنبأة الصوت ما في سمعه كذب
والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ﴾ يراد به النفي، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية فما ترى منهم أحد ولا تسمع لهم صوتاً، وما ذكره في هذه الآية من عدم رؤية أشخاصهم، وعدم سماع أصواتهم، ذكر بعضه في غير هذا الموضع كقوله في عاد: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة]، وقوله فيهم: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

قوله تعالى: ﴿طه﴾ (١).

أظهر الأقوال فيه عندي أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السور، جاءتا في مواضع آخر لا نزاع

فيها في أنهما من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة «الشعراء» ﴿طسّر﴾ [الشعراء] وفاتحة «النمل» ﴿طسّ﴾ [النمل: ١]؛ وفاتحة «القصص»، وأما الهاء ففي فاتحة «مريم» في قوله تعالى: ﴿كَهَيَّصَ﴾ [مريم]، وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أول سورة «هود» وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وقال بعض أهل العلم: قوله طه: معناه يا رجل، قالوا: وهي لغة بني عك بن عدنان، وبني طيء، وبني عكل، قالوا: لو قلت لرجل من بني عك: يا رجل. لم يفهم أنك تناديه حتى تقول: طه، ومنه قول متم بن نويرة التميمي:

دعوت بطه في القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى مزيلا. وقال عبد الله بن عمرو: معنى (طه) بلغة عك: يا حبيبي، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيء، وأنشد ليزيد بن المهلهل:

إن السفاهة طه في شمائلكم لا بارك الله في القوم الملاعين

ويروى:

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدس الله أرواح الملاعين

وممن روي عنه أن معنى «طه»: يا رجل، ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبو مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبيزى وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره. وذكر القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض بقدميك يا محمد. وعلى هذا القول فالهاء مبدلة من الهمزة، والهمزة خفت بإبدالها أن ألفا كقول في الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشية فارعي فزارة لا هناك المرتع

ثم بنى عليه الأمر والهاء للسكت، ولا يخفى ما في هذا القول من التعسف والبعد عن الظاهر.

وفي قوله: ﴿طه﴾ أقوال آخر ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النبي ﷺ. والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية يقول لنبيه: يا طاهراً من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة. والصواب - إن شاء الله - في الآية هو ما صدرنا به، ودل عليه القرآن في مواضع آخر.

قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

في قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وجهان من التفسير، وكلاهما

يشهد له قرآن:

الأول: أن المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى؛ أي لتتعب التعب الشديد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم؛ وتحسرك على أن يؤمنوا. وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات

كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾... الآية [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبَتْ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَن تَدْعِيَهُم بِهَذَا الْوَعْدِ الْأَسْفَلِ﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَبَخْتُ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع من هذا الكتاب المبارك.

الوجه الثاني: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه فأنزل الله: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾؛ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة؛ وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة. وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويفهم من قوله: ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ أنه أنزل عليه يسعد؛ كما يدل عليه الحديث الصحيح: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن الله يقول للعلماء يوم القيامة: «إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» وقال ابن كثير: إن إسناده جيد، ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾... الآية [الزمل: ٢٠]. وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. أظهر الأقوال فيه أنه مفعول لأجله، أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي إلا لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه، والتذكرة: الموعظة التي تلين لها القلوب؛ فتمثل أمر الله، وتجنب نهيه وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم؛ لأنهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات]. فالتخصيص المذكور في الآيات «من تنفع فيهم الذكرى» لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم. وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكرة بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٧) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٨) [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْفَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلى غير ذلك من الآيات، وإعراب ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ بأنه بدل من ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ لا يصح؛ لأن التذكرة ليست بشقاء وإعراجه مفعولاً مطلقاً أيضاً غير ظاهر. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (٩) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (١٠)، ما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ﴿تَذْكِرَةً﴾ حالاً ومفعولاً له.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ (٤).

في قوله: ﴿تَنْزِيلًا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب ذكرها المفسرون، وأظهرها عندي أنه مفعول مطلق، منصوب بنزل مضمرة دل عليها قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (١)؛ أي نزله الله تنزيلاً ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الآية، أي فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٨) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٩) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) [الحاقة]، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً معروفة، كقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (١١) ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (١٢) الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٣) [الزمر] وقوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّكَ الْوَحِيدِ﴾ (١٤) [فصلت]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ (٥). تقدم إيضاح الآيات الموضحة لهذه الآية وأمثالها في القرآن في سورة «الأعراف» مستوفى، فأغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّمَا يَعْلَمُ الْبَاطِنَ وَآخِى﴾ (٧).

خاطب الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة بأنه إن يجهر بالقول أي يقله جهره في غير خفاء، فإنه - جلّ وعلا - يعلم السر وما هو أخفى من السر، وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ذكره في مواضع آخر كقوله: ﴿وَأَيُّهَا قَوْلُكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥) [الملك]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُ﴾ (١٦) [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْبَاطِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ... الآية [الفرقان: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَآخِى﴾ أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن، قال بعض أهل العلم ﴿يَعْلَمُ الْبَاطِنَ﴾ أي ما قاله العبد سرّاً ﴿وَآخِى﴾ أي ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما توسوس به نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّ آفَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْأَرْدِ﴾ (١٧) [ق]. وقال بعض أهل العلم: ﴿فَإِنَّمَا يَعْلَمُ الْبَاطِنَ﴾: أي ما توسوس به نفسه ﴿وَآخِى﴾ من ذلك، وهو ما علم الله أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَقْنَلْتُمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، فالله يعلم ما يسره الإنسان اليوم؛ وما سيسره غداً. والعبد لا يعلم ما في غد كما قال زهير في معلقته:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَآخِى﴾ صيغة تفضيل كما بينا، أي ويعلم ما هو أخفى من السر. وقول من قال: إن «أخفى» فعل ماض بمعنى أنه يعلم سر الخلق، وأخفى عنهم ما يعلمه هو؛ كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١٨)، ظاهر السقوط كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَهِرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾؛ أي فلا حاجة لك إلى الجهر بالدعاء ونحوه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾... الآية [الأعراف: ٢٠٥]. ويوضح هذا المعنى الحديث الصحيح؛ لأن النبي ﷺ لما سمع أصحابه رفعوا أصواتهم بالتكبير قال ﷺ: «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿١﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه المعبود وحده، وأن له الأسماء الحسنى، وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها كقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾... الآية [محمد: ١٩].

وبين في مواضع آخر أن له الأسماء الحسنى، وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه وهو قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال بعض العلماء: ومن إلحادهم في أسمائه أنهم اشتقوا العزى من اسم العزيز، واللات من اسم الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». وقد دل بعض الأحاديث على أن من أسمائه - جلّ وعلا - ما استأثر به ولم يعلمه خلقه، كحديث: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» الحديث. وقوله: ﴿الْحُسْنَى﴾ تأنيث الأحسن، وإنما وصف أسمائه - جلّ وعلا - بلفظ المؤنث المفرد؛ لأن جمع التكسير مطلقاً، وجمع المؤنث السالم يجريان مجرى المؤنثة الواحدة المجازية التأنيث، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والتاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء من إحدى اللبن

ونظير قوله هنا: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ من وصف الجمع بلفظ المفرد المؤنث قوله: ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، وقوله: ﴿مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿٢﴾... الآيات، قد بينا الآيات الموضحة لها في سورة «مريم» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ نَجِيًّا﴾ ﴿٥١﴾ [مريم]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿٣﴾ بِفَقْهَرَا قَوْلِي ﴿٤﴾. قال بعض العلماء: دل قوله: ﴿عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ بالتكثير والإفراد، وإتباعه لذلك بقوله: ﴿بِفَقْهَرَا قَوْلِي﴾ ﴿٤﴾، على

أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها. وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى عنه: ﴿وَأَخِي هَكَرْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾... الآية [القصص: ٣٤]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١]، والاستدلال بقول فرعون في موسى، فيه أن فرعون معروف بالكذب والبهتان. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [٣٧] إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه من على موسى مرة أخرى قبل مته عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه أي ألهمها وقذف في قلبها، وقال بعضهم: هي رؤيا منام. وقال بعضهم: أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلمها بذلك، ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبياً، و«أن» في قوله ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ﴾ هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه والتعبير بالموصول في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ للدلالة على تعظيم شأن الأمر المذكور كقوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَقَالُوا إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والتابوت: الصندوق. واليم: البحر. والساحل: شاطئ البحر. والبحر المذكور: نيل مصر. والقذف: الإلقاء والوضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]. ومعنى: ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي ضعيه في الصندوق. والضمير في قوله: ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ﴾ راجع إلى موسى بلا خلاف، وأما الضمير في قوله: ﴿فَقَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ فقليل: راجع إلى التابوت، والصواب رجوعه إلى موسى في داخل التابوت؛ لأن تفريق الضمائر غير حسن، وقوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾، هو فرعون، وصيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فيها وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن صيغة الأمر معناها الخبر، قال أبو حيان في البحر المحيط: و﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر، وجاء بصيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها.

وثانيهما: أن صيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أريد بها الأمر الكوني القدري كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل؛ لأن الله أمره بذلك كوناً وقدرًا. وقد قدمنا ما يشبه هذين الوجهين في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآيات أوضحه في غير هذا الموضع كقوله في [القصص: ٣٨]: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَالْيَتِيمِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَاقِدُونَ إِلَيْكَ وَجَاعِلُونَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَلَنَقْطَعُ مَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا﴾ [القصص: ٧ - ٨]، وقد بين تعالى شدة جزع أمه عليه لما ألقته في البحر،

وَأَلْقَاهُ الْيَمَ بِالسَّاحِلِ، وَأَخَذَهُ عَدُوهُ فَرَعُونُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ قَرِيحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّيَيْنَا عَلَىٰ قُلُوبِنَا عَلَيْهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [القصص].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَأْخُذُ﴾ مجزوم في جواب الطلب الذي هو ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، وعلى أنه بمعنى الأمر الكوني، فالأمر واضح، وعلى أنه بمعنى الخبر فالجزم مراعاة لصيغة اللفظ، والعلم عند الله تعالى. وذكر في قصتها أنها صنعت له التابوت وطلته بالقار - وهو الزفت - لئلا يتسرب منه الماء إلى موسى في داخل التابوت، وحشته قطناً محلوجاً، وقيل: إن التابوت المذكور من شجر الجميز، وأن الذي نجره لها هو مؤمن آل فرعون، قيل: واسمه حزقيل. وكانت عقدت في التابوت حبلاً فإذا خافت على موسى من عيون فرعون أرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا أمنت جذبته إليها بالحبل. فذهبت مرة لتشد الحبل في منزلها فانقلت منها وذهب البحر بالتابوت الذي فيه موسى فحصل لها بذلك من الغم والهم ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ قَرِيحًا ۖ... الآية [القصص: ١٠].

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من منته المتابعة على موسى حيث قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝﴾ أشار إلى ما يشبهه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَكَرَّوْنَا ۝﴾ الآية [الصافات].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾. من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ما ذكره - جلّ وعلا - في «القصص» في قوله: ﴿وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ ۝... الآية [القصص: ٩]، قال ابن عباس: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية: جعل عليه مسحة من جمال؛ لا يكاد يصبر عنه من رآه، وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحظة، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه؛ قاله القرطبي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾. اختلف في العامل الناصب للظرف الذي هو «إذ» من قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ فقيل: هو «ألقيت» أي ألقى عليك محبة مني حين تمشي أختك، وقيل: هو «تصنع» أي تصنع على عيني حين تمشي أختك. وقيل: هو بدل من «إذ» في قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّكَ﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت: كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا. فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك. وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها.

وهذا الذي ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون أخته مشيت إليهم، وقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ ۖ أَوْضَحَهُ - جلّ وعلا - في سورة «القصص» فبين

أن أخته المذكورة مرسله من قبل أمها لتتعرف خبره بعد ذهابه في البحر، وأنها أبصرته من بعد وهم لا يشعرون بذلك، وأن الله حرم عليه المراضع غير أمه تحريماً كونياً قدرياً. فقالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي على مريض يقبل هو ثديها وتكفله لكم بنصح وأمانة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِهِ فَبُصِّرَتْ بِهِ عَنْ جُئِبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١١-١٣]، فقوله تعالى في آية [القصص: ١١] هذه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ [القصص: ١١]، أي قالت أم موسى لأخته وهي ابنتها ﴿قُصِّبِهِ﴾ [القصص: ١١]، أي اتبعني أثره، وتطلبي خبره حتى تطلعي على حقيقة أمره.

وقوله: ﴿فَبُصِّرَتْ بِهِ عَنْ جُئِبٍ﴾ [القصص: ١١]؛ أي رآته من بعيد كالمعرضة عنه، تنظر إليه وكأنها لا تريده ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، بأنها أخته جاءت لتعرف خبره فوجدته ممتنعاً من أن يقبل ثدي مرضعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، أي تحريماً كونياً قدرياً؛ أي منعناه منها ليتيسر بذلك رجوعه إلى أمه؛ لأنه لو قبل غيرها أعطوه لذلك الغير الذي قبله ليرضعه ويكفله فلم يرجع إلى أمه. وعن ابن عباس أنها لما قالت لهم: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، أخذوها وشكوا في أمرها وقالوا لها: ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟! فقالت لهم: نصحهم له، وشفقتهم عليه رغبة في سرور الملك، ورجاء منفعتهم، فأرسلوها. فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى، وأحسن إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه قبل ثديها. ثم سألتها «آسية» أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوي والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسى بولدها قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه، ورزق دار. (هـ) من ابن كثير.

وقوله تعالى في آية [القصص: ١٣]: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]، وعد الله المذكور هو قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، والمؤرخون يقولون: إن أخت موسى المذكورة اسمها «مريم» وقوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١١] قلنا فيه: إن «كي» حرف مصدرى فاللام محذوفة، أي لكي تقر. وإن قلنا: إنها تعليلية، فالفعل منصوب بأن مضمرة. وقوله: ﴿فَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ قيل: أصله من القرار؛ لأن ما يحبه الإنسان تسكن عينه عليه، ولا تنظر إلى غيره: كما قال أبو الطيب:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقيل: أصله من القر - بضم القاف - وهو البرد، تقول العرب: يوم قر - بالفتح - أي بارد، ومنه قول امرئ القيس:

تميم بن مر وأشياعها وكندة حولي جميعاً صبر
إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرقت الأرض واليوم قر
ومنه أيضاً قول حاتم الطائي الجواد:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وعلى هذا القول: فقرة العين من بردها؛ لأن عين السرور باردة، ودمع البكاء من السرور بارد جداً، بخلاف عين المحزون فإنها حارة، ودمع البكاء من الحزن حار جداً. ومن أمثال العرب: أحر من دمع المقلات. وهي التي لا يعيش لها ولد، فيشتد حزنها لموت أولادها فتشتد حرارة دمعها لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ وَفَلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتْكَ﴾. لم يبين هنا - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة سبب قتله لهذه النفس؛ ولا ممن هي، ولم يبين السبب الذي نجاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتنه، ولكنه بين في سورة «القصص» خبر القتل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص]، وأشار إلى القتل المذكور في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص]، وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ ذُنِبَ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء]، وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره الله عنه: ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ لَنِي فَعَلْتَ﴾ ... الآية [الشعراء: ١٩]. وقد أشار تعالى في «القصص» أيضاً إلى غم موسى، وإلى السبب الذي أنجاه الله به منه في قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشُونَ بِكِ الْمَلَائِكَةُ يَتَرُوفُونَ بِكِ لَيْقَتُلُوكَ فَاخْرِجِي إِلَى لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴿٢٦﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٢ - ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتْكَ فُتُونًا﴾ قال بعض أهل العلم: الفتون مصدر، وربما جاء مصدر الثلاثي المتعدي على فعول. وقال بعضهم: هو جمع فتنة. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿فُتُونًا﴾ يجوز أن يكون مصدراً على فعول في المتعدي كالشور والشكور والكفور. وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجة وبدرة؛ أي فتناك ضرورياً من الفتن. وقد جاء في تفسير الفتون المذكور حديث معروف

عند أهل العلم بحديث «الفتون»، أخرجه النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وساقه ابن كثير في تفسيره عن النسائي بسنده. وهو حديث طويل يقتضي أن الفتون يشمل كل ما جرى على موسى من المحن من فرعون في صغره وكبره، كالخوف عليه من الذبح وهو صغير، ومن أجل ذلك ألقى في التابوت وقذف في اليم فألقاه اليم بالساحل، وكخوفه وهو كبير من أن يقتله فرعون بالقبطي الذي قتله. وعلى هذا فالآيات التي ذكرت فيها تلك المحن مبينة للفتون على تفسير ابن عباس للفتون المذكور. وقال ابن كثير رحمته الله بعد أن ساق حديث الفتون بطوله: هكذا رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من حديث يزيد بن هرون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً، اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُا﴾.

السنين التي لبثها في مدين هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْهَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰئِهِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقد قدمنا في سورة «مريم» أنه أتم العشر، وبيننا دليل ذلك من السنة، وبه تعلم أن الأجل في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]، أنه عشر سنين لا ثمان. وقال بعض أهل العلم: لبث موسى في مدين ثماناً وعشرين سنة، عشر منها مهر ابنة صهره، وثمان عشرة أقامها هو اختياراً، والله تعالى أعلم.

وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُا﴾؛ أي جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه فلم تتأخر عنه ولم تتقدم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ يَتَابِقُ وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿١١﴾ أذهباً إلّا فرعون إنّه طغى ﴿١٢﴾. قال بغض أهل العلم: المراد بالآيات في قوله هنا: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ يَتَابِقُ﴾ الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سِتْرًا لِّبَاسِهِ يَتَابِقُ﴾... الآية [الإسراء: ١٠١]، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوِّ فِي سِتْرٍ بَيْضٍ﴾... الآية [النمل: ١٢]. والآيات التسع المذكورة هي: العصا واليد البيضاء... إلى آخرها، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة «بني إسرائيل».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ أصل الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْوَارِيءِ﴾ [الحاقة]، وقد بين الله تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في

قوله عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات]، وقوله عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله عنه أيضاً: ﴿لَيْنَ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَآجَعَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنِيًّا﴾ مضارع وني يني، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

فَا أَمْراً ومضارع من كوعد احذف وفي كعدة ذاك اطرده
والوني في اللغة: الضعف، والفتور، والكلال والإعياء، ومنه قول امرئ القيس في معلقته:

مسح إذا ما السابحات على الوني أثرن غباراً بالكديد المركل
وقول العجاج:

فما وني محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر
فقوله: ﴿وَلَا تَنِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكرى، وقد أثنى الله على من يذكره في جميع حالاته في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وأمر بذكر الله عند لقاء العدو في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتَهُ فَنُكَّهْ فَأَنْبِتُوا فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] كما تقدم إيضاحه.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية الكريمة: والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»، اهـ منه.
وقال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا تَنِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ لا تزال في ذكرى، واستشهد لذلك بقول طرفة:

كأن القدور الراسيات أمامهم قباب بنوها لا تني أبداً تغلي
أي لا تزال تغلي. ومعناه راجع إلى ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾.

أمر الله - جل وعلا - نبيه موسى وهارون - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - أن يقولوا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لِّئَا﴾؛ أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين - جل وعلا - المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكِيَ (٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْشَى (٩) [النازعات]، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى، وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بَآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

مسألة: يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرفق واللين لا بالقسوة والشدة والعنف. كما بينا في سورة «المائدة» في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١٠٥]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ اهـ، ولقد صدق من قال:

ولو أن فرعون لما طغى وقال على الله إفكا وزورا
أناب إلى الله مستغفراً لما وجد الله إلا غفورا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَحْشَوْنَ﴾ قد قدمنا قول بعض العلماء: إن «لعل» في القرآن بمعنى التعليل، إلا التي في سورة «الشعراء»: ﴿وَتَتَذَكَّرُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٦]، فهي بمعنى كأنكم. وقد قدمنا أيضاً أن «لعل» تأتي في العربية للتعليل؛ ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهدكم كشه سراب بالملا متألق

فقوله: «لعلنا نكف»؛ أي لأجل أن نكف.

وقال بعض أهل العلم: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَحْشَوْنَ﴾ معناه على رجائكما وطمعكما، فالترجي والتوقع المدلول عليه بلعل راجع إلى جهة البشر، وعزا القرطبي هذا القول لكبراء النحويين كسيبويه وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَاتَّبَعِ الْهُدَىٰ﴾ [٤٧]. ألف الاثنين في قوله: ﴿فَأَنبِأَهُ﴾ راجعة إلى موسى وهرون، والهاء راجعة إلى فرعون، أي فأنبأ فرعون ﴿فَقُولَا﴾ له: «إنا رسولان إليك من ربك فأرسل معنا بني إسرائيل» أي خل عنهم وأطلقهم لنا يذهبون معنا حيث شاءوا، ولا تعذبهم.

العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل هو المذكور في سورة «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ يَخِيبُكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٨١]. وفي سورة «إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾... الآية [إبراهيم: ٦]، وفي سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾... الآية [الأعراف: ١٤١]؛ وفي سورة «الدخان» في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينَ﴾ [٢٠] مِّن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُتَكِبِينَ [٢١] [الدخان]؛ وفي سورة «الشعراء» في قوله: ﴿وَبَلَغْتَ فِئْمَةً تَمْنَاهُ عَلَىٰ أَن عِبَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [١٣] الآية [الشعراء].

وما أمر به الله موسى وهرون في آية «طه» هذه من أنهما يقولان لفرعون إنهما رسولاً ربه إليه، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل ولا يعذبهم أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله في سورة «الشعراء»: ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢﴾ [الشعراء].

تنبيه: فإن قيل: ما وجه الإفراد في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢]، في «الشعراء»؟ مع أنهما رسولان؟ كما جاء الرسول مثنى في «طه» فما وجه التثنية في «طه» والإفراد في «الشعراء»، وكل واحد من اللفظين: المثنى والمفرد يراد به موسى وهرون؟

فالذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن لفظ الرسول أصله مصدر: وصف به، والمصدر إذا وصف به ذكر وأفرد كما قدمنا مراراً فالإفراد في «الشعراء» نظراً إلى أن أصل الرسول مصدر، والتثنية في «طه» اعتداداً بالوصفية العارضة وإعراضاً عن الأصل؛ ولهذا يجمع الرسول اعتداداً بوصفيته العارضة، ويفرد مراداً به الجمع نظراً إلى أن أصله مصدر. ومثال جمعه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَلُمُوسِّلُ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٣]، وأمثالها في القرآن. ومثال إفراده مراداً به الجمع قول أبي ذؤيب الهذلي:

أكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر
ومن إطلاق الرسول مراداً به المصدر على الأصل قوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم يقول ولا أرسلتهم برسول
أي برسالة. وقول الآخر:

ألا بلغ بني عصم رسولا بأني عن فتاحتكم عني
يعني أبلغهم رسالة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ﴾ يراد به جنس الآية الصادق بالعصا واليد وغيرهما؛ للدلالة آيات أخر على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ يدخل فيه السلام على فرعون إن اتبع الهدى. ويفهم من الآية أن من لم يتبع الهدى لا سلام عليه، وهو كذلك؛ ولذا كان في أول الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم «بسم الله الرحمن الرحيم». من معجم رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام... إلى آخر كتابه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَقَوْلٌ﴾ (٤٨).

ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة عن موسى وهرون أن الله أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى أشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَمَوةَ أَذْنًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾

[النازعات]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ أَهْلًا لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ۝١٦﴾ [الليل]؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۝١٦﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ۝١٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِيهِ يَتَمَطَّى ۝١٨﴾ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ ۝١٩﴾ ثُمَّ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ ۝٢٠﴾ [القيامة]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَتُوسَى ۝١٨﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝١٩﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى وهرون لما بلغا فرعون ما أمرا بتبليغه إياه قال لهما: من ربكما الذي تزعمان أنه أرسلكما إلي؟! زاعماً أنه لا يعرفه؛ وأنه لا يعلم لهما إلهاً غير نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ۝٢٠﴾ [القصص: ٢٨]، وقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ۝٢١﴾ [الشعراء: ٢٩]، وبين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن قوله: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمَا ۝٢٠﴾ تجاهل عارف بأنه عبد مربوب لرب العالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا أُنزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ۝٢٢﴾ ... الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٢٣﴾ وَحَمَلُوا بِهَا وَاسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًا ۝٢٤﴾ [النمل: ١٣ - ١٤]، كما تقدم إيضاحه. وسؤال فرعون عن رب موسى، وجواب موسى له جاء موضحاً في سورة «الشعراء» بأبسط مما هنا، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٥﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٢٦﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ۝٢٧﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الشُّجُرِ وَالْأَوَّلِينَ ۝٢٨﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٩﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣٠﴾ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ۝٣١﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ يَشْقَى مُبِينٌ ۝٣٢﴾ قَالَ فَأْتِ بِدَلِيلٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۝٣٣﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٤﴾ وَرَجَعَ يَدُهُ إِذَا هِيَ بَصَائِرٌ لِلنَّظِيرِينَ ۝٣٥﴾ [الشعراء] إلى آخر القصة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝١٩﴾، فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها، منها أن معنى ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أنه أعطى كل شيء نظيره خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً. وكالذكور من البهائم أعطاهم نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً؛ فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوج بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروى عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق علي بن أبي طلحة، وعن السدي وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي هداة إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي أعطى كل شيء صلاحه ثم هداة إلى ما يصلحه، وهذا مروى عن الحسن وقتادة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي أعطى كل شيء صورته المناسبة له؛ فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له فقدره تقديراً، كما قال الشاعر:

وله في كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعل

يعني بالخلق: الصورة، وهذا القول مروى عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف والرجل واللسان وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه. وهذا القول روي عن الضحاك، وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ هو المفعول الأول لـ ﴿أَعْطَى﴾، و﴿خَلَقَهُ﴾ هو المفعول الثاني.

وقال بعض أهل العلم: إن ﴿خَلَقَهُ﴾ هو المفعول الأول، و﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ هو المفعول الثاني. وعلى هذا القول فالمعنى أنه تعالى أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله. ومعلوم أن المفعول من مفعولي باب كسا ومنه ﴿أَعْطَى﴾ في الآية لا مانع من تأخيرها وتقديم المفعول الأخير إن أمن اللبس، ولم يحصل ما يوجب الجري على الأصل كما هو معلوم في علم النحو؛ وأشار له في الخلاصة بقوله:

ويلزم الأصل لموجب عرا وترك ذاك الأصل حتما قد يرى

قال مقيده - عفا الله عنه -: ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة؛ لأنه لا شك أن الله أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، ولا شك أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وأكمل قدرته؟!.

وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى هذه الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه - جل وعلا - رب كل شيء، وهو المعبود وحده - جل وعلا -: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقد حرر العلامة الشيخ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته في علوم القرآن أن مثل هذا الاختلاف من اختلاف السلف في معاني الآيات ليس اختلافاً حقيقياً متضاداً يكذب بعضه بعضاً، ولكنه اختلاف تنوعي لا يكذب بعضه بعضاً، والآيات

تشمل جميعه، فينبغي حملها على شمول ذلك كله، وأوضح أن ذلك هو الجاري على أصول الأئمة الأربعة عليهم السلام، وعزاه لجماعة من خيار أهل المذاهب الأربعة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَّ ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنفُسَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝﴾.

قرأ هذا الحرف عاصم وحمة والكسائي «مهداً» بفتح الميم وإسكان الهاء من غير ألف، وقرأ الباقون من السبعة بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف. والمهاد: الفراش. والمهد بمعناه. وكون أصله مصدرًا لا ينافي أن يستعمل اسماً للفراش.

وقوله في هذه الآية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ في محل رفع نعت لـ«ربي» من قوله قبله: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝﴾؛ أي لا يضل ربي الذي جعل لكم الأرض مهداً. ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي هو الذي جعل لكم الأرض. ويجوز أن ينصب على المدح، وهو أجود من أن يقدر عامل النصب لفظة أعني، كما أشار إلى هذه الأوجه من الإعراب في الخلاصة بقوله:

وارفع أو انصب إن قطعت مضمراً مبتدأ أو ناصباً لن يظهر

هكذا قال غير واحد من العلماء، والتحقيق أنه يتعين كونه خبر مبتدأ محذوف؛ لأنه كلام مستأنف من كلام الله. ولا يصح تعلقه بقول موسى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لأن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ يعين أنه من كلام الله، كما نبه عليه أبو حيان في البحر، والعلم عند الله تعالى.

وقد بين - جل وعلا - في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده، ومع كونها آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره، فهي من النعم العظمى على بني آدم.

الأولى: فرش الأرض على هذا النمط العجيب.

الثانية: جعله فيها سبلاً يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر.

الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب.

الرابعة: إخراج أنواع النبات من الأرض.

أما الأولى: التي هي جعله الأرض مهداً فقد ذكر الامتنان بها مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿الآية [الزخرف: ٩ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿[النبا]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ۝﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: ٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وأما الثانية: التي هي جعله فيها سبلاً، فقد جاء الامتنان والاستدلال بها في آيات كثيرة كقوله في «الزخرف»: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ④﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑤﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة «النحل» في الكلام علي قوله: ﴿وَأَنذَرْنَاكُمْ سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

وأما الثالثة والرابعة: وهما إنزال الماء من السماء، وإخراج النبات به من الأرض فقد تكرر ذكرهما في القرآن على سبيل الامتنان والاستدلال معاً كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑥﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ⑦ ... الآية [النحل: ١٠ - ١١]. وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم؛ ونظيره في القرآن قوله تعالى في «الأنعام»: ﴿الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ⑧﴾ الآية [الأنعام: ٩٩]، وقوله في «فاطر»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ⑨﴾ الآية [فاطر: ٢٧]، وقوله في «النمل»: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ ⑩﴾ ... الآية [النمل: ٦٠].

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات؛ لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدل على عظمته - جلّ وعلا -، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له - جلّ وعلا -.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ⑪﴾؛ أي أصنافاً مختلفة من أنواع النبات، فالأزواج: جمع زوج، وهو هنا الصنف من النبات، كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑫﴾ [الحج: ٥]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقال تعالى في سورة «لقمان»: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَعِيرٍ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن يَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑬﴾ [لقمان: ١١]، أي من كل نوع حسن من أنواع النبات، وقال تعالى في سورة «يس»: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ⑭﴾ [يس: ١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿شَتَّى ⑮﴾ نعت لقوله: ﴿أَزْوَاجًا ⑯﴾. ومعنى قوله: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ⑰﴾ أي أصنافاً مختلفة الأشكال والمقادير، والمنافع والألوان، والروائح والطعوم. وقيل:

قوله تعالى: ﴿مِنَّا خَلَقْنٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرٰى ۝٥٥﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِنَّا﴾ معاً، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ المذكورة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وقد ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه خلق بني آدم من الأرض.

الثانية: أنه يعيدهم فيها.

الثالثة: أنه يخرجهم منها مرة أخرى، وهذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية جاءت موضحة في غير هذه الموضوع.

أما خلقه إياهم من الأرض، فقد ذكره في مواضع من كتابه كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ۝... الآية [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ۝... الآية [الروم: ٢٠]، وقوله في سورة «المؤمن»: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ۝... الآية [غافر: ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْنٰهُم مِّنْ تُرَابٍ ۝... الآية [آل عمران: ٥٩]. ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعاً له في الخلق صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب. وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب أن النطفة إذا وقعت في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً - فهو خلاف التحقيق؛ لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة؛ فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما بل «ثم» في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ۝... الآية [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ۝... الآية [غافر: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝٧٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٧٣﴾... الآية [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْعَقِيبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦١ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ سُلَالَةً مِّنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة]، وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض فهو ظاهر السقوط كما ترى.

وأما المسألة الثانية فقد ذكرها تعالى أيضاً في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا ۝٢٥ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات]، فقوله: ﴿كِهَاتَا﴾ [المرسلات: ٢٥]، أي موضعهم الذي يكفون فيه أي يضمون فيه أحياء على ظهرها، وأمواتا في بطنها؛ وهو معنى قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

وأما المسألة الثالثة: وهي إخراجهم من الأرض أحياء يوم القيامة فقد جاءت موضحة في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ [الروم: ١٩]؛ أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ص: ١١]، أي من القبور بالبعث يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نُّفَالًا سَفْنُهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ أَصْوَابًا بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ١٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٥]، والتارة في قوله: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بمعنى المرة. وفي حديث في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما أرادوا دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُفِيدُكُمْ﴾ ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾. أظهر القولين أن الإضافة في قوله: ﴿ءَايَاتِنَا﴾ مضمنة معنى العهد كالألف واللام. والمراد بآياتنا المعهودة لموسى كلها وهي التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾... الآية [الإسراء: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْصَاءٍ مِنْ غَيْرِ مُوَدِّ فِي تِسْعَ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾... الآية [النمل: ١٢]. وقال بعضهم: الآيات التسع المذكورة هي: العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، والحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وثنق الجبل فوقهم كأنه ظلة. وقد قدمنا كلام أهل العلم في الآيات التسع في سورة «الإسراء». وقال بعض أهل العلم: العموم على ظاهره، وإن الله أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء، والأول هو الظاهر.

وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض، كما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقوله: ﴿لِيُزِيلَ عَنْ ءَايَاتِنَا الْكِبْرَىٰ﴾ [١٣]، وقوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ [١٠] [النازعات]؛ لأن الكبرى في الموضعين تأنيث الأكبر، وهي صيغة تفضيل تدل على أنها أكبر من غيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾ يعني أنه مع ما أراه الله من الآيات المعجزات الدالة على صدق نبيه موسى، كذب رسول ربه موسى، وأبى عن قبول الحق. وقد أوضح - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع شدة إباءه وعناده وتكبره

على موسى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِقُوا إِلَيْسَ لِي مُلْكٌ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٥١] أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَأُكَةُ مُفْتَرِينَ ﴿٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣]. ومقصوده بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول.

وقد بين - جلّ وعلا -: أن فرعون كذب وأبى، وهو عالم بأن ما جاء به موسى حق، وأن الآيات التي كذب بها وأبى عن قبولها ما أنزلها إلا الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِيتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوً﴾ [النمل: ١٤]؛ وقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَسْجُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، إلى غير من ذلك من الآيات، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَهُ﴾ أصله من رأى البصرية على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ﴾ [٥٧] ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لما أرى فرعون آياته على يد نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال: إن الآيات التي جاء بها موسى سحر، وأنه يريد بها إخراج فرعون وقومه من أرضهم.

أما دعواه هو وقومه أن موسى ساحر فقد ذكره الله - جلّ وعلا - في مواضع كثيرة من كتابه كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُفِرْتُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ... الآية [الزخرف: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ادعاؤهم أنه يريد إخراجهم من أرضهم بالسحر، فقد ذكره الله - جلّ وعلا - أيضاً في مواضع من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ﴾، وقوله في [الأعراف: ١٣٢]: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٣٢] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقوله في [الشعراء: ٢٩]: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٩] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ [الشعراء: ٣٥]، وقوله في [يونس: ٧٨]: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَةُ فِي الْأَرْضِ﴾ ... الآية [يونس: ٧٨]. وقال سحرة فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون - لعنه الله - لما رأى آيات الله ومعجزاته الباهرة، وادعى أنها سحر أقسم ليأتين

موسى بسحر مثل آيات الله التي يزعم هو أنها سحر. وقد بين في غير هذا الموضع أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملئهم على ذلك كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ (١٤٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١٤١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (١٤٢) [الأعراف]، وقوله في «الشعراء»: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٤٣) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ (١٤٤) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَنْتَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١٤٥) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (١٤٦) [الشعراء]، لأن قوله: ﴿فَمَآذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٥]، في الموضعين يدل على أن قول فرعون: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ وقع بعد مشاورة واتفاق الملأ منهم على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ خُشْعًا (٥٩). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون لما وعد موسى بأنه يأتي بسحر مثل ما جاء به موسى في زعمه قال لموسى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ والإخلاف: عدم إنجاز الوعد، وقرر أن يكون مكان الاجتماع للمناظرة والمغالبة في السحر في زعمه مكاناً سوى، وأصح الأقوال في قوله: ﴿سَوًى﴾ على قراءة الكسر والضم أنه مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه؛ لتوسطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا للجنوب من الشمال. وهذا هو معنى قول المفسرين ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ أي نصفاً وعدلاً ليتمكن جميع الناس أن يحضروا. وقوله: ﴿سَوًى﴾ أصله من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين لا تفاوت فيها بل هي مستوية. وقوله: ﴿سَوًى﴾ فيه ثلاث لغات: الضم، والكسر مع القصر، وفتح السين مع المد. والقراءة بالأولين دون الثالثة هنا، ومن القراءة بالثالثة ﴿إِلَّا كَلِمَةً سَوَاءً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ومن إطلاق العرب ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ على المكان المتوسط بين الفريقين قول موسى بن جابر الحنفي، وقد أنشده أبو عبيدة شاهداً لذلك:

وإن أبانا كان حل ببلدة سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

والفزر: سعد بن زيد مائة بن تميم؛ يعني حل ببلدة مستوية مسافتها بين قيس عيلان والفزر، وأن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أجاب فرعون إلى ما طلب منه من الموعد، وقرر أن يكون وقت ذلك يوم الزينة. وأقوال أهل العلم في يوم الزينة راجعة إلى أنه يوم معروف لهم، يجتمعون فيه ويتزيتون؛ سواء قلنا: إنه يوم عيد لهم، أو يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، أو يوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزيتون فيه بأنواع الزينة.

قال الزمخشري: إنما واعدهم موسى ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر؛ ليعلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والحضر، اهـ منه. والمصدر

المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾؛ في محل جر عطفاً على: ﴿الزَّيْنَةَ﴾؛ أي موعدكم يوم الزينة وحشر الناس، أو في محل رفع عطفاً على قوله: ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ على قراءة الجمهور بالرفع. والحشر: الجمع، والضحي: من أول النهار حين تشرق الشمس. والضحي يذكر ويؤنث؛ فمن أنه ذهب إلى أنه جمع ضحوة. ومن ذكره ذهب إلى أنه اسم مفرد جاء على فعل بضم ففتح كصرد وزفر، وهو منصرف إذا لم ترد ضحي يوم معين بلا خلاف. وإن أردت ضحي يومك المعين فقبل يمنع من الصرف كسحر، وقيل لا.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون المناظرة بين موسى والسحرة عين لوقتها يوم معلوم يجتمع الناس فيه؛ ليعرفوا الغالب من المغلوب أشير له في غير هذا الموضع كقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لَيَقْنَتَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَبِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنا نَبْعَثُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء].

فقوله تعالى: ﴿لَيَقْنَتَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨] اليوم المعلوم: هو يوم الزينة المذكور هنا. وميقاته وقت الضحي منه المذكور في قوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

تنبيه: اعلم أن في تفسير هذه الآية الكريمة أنواعاً من الإشكال معروفة عند العلماء، وسنذكر - إن شاء الله تعالى - أوجه الإشكال فيها، ونبين إزالة الإشكال عنها. اعلم أولاً أن الفعل الثلاثي إن كان مثلاً أعني واوي الفاء كوعد ووصل، فالقياس في مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه كلها المفعل - بفتح الميم وكسر العين - ما لم يكن معتل اللام؛ فإن كان معتلها فالقياس فيه المفعل - بفتح الميم والعين - كما هو معروف في فن الصرف.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ صالح بمقتضى القياس الصرفي؛ لأن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الوعد، وأن يكون اسم زمان يراد به وقت الوعد، وأن يكون اسم مكان يراد به مكان الوعد، ومن إطلاق الموعد في القرآن اسم زمان قوله تعالى: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، أي وقت وعدهم بالإهلاك الصبح، ومن إطلاقه في القرآن اسم مكان قوله تعالى: ﴿وَلِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٣﴾ [الحجر]، أي مكان وعدهم بالعذاب.

وأوجه الإشكال في هذا أن قوله: ﴿لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ يدل على أن الموعد مصدر؛ لأن الذي يقع عليه الإخلاف هو الوعد لا زمانه ولا مكانه.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ يدل على أن الموعد في الآية اسم مكان.

وقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ يدل على أن الموعد في الآية اسم زمان، فإن قلنا إن الموعد في الآية مصدراً أشكل على ذلك ذكر المكان في قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، والزمان في قوله: ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وإن قلنا: إن الموعد اسم مكان أشكل عليه قوله: ﴿لَا

تُخْلِفُهُ؛ لأن نفس المكان لا يخلف وإنما يخلف الوعد، وأشكل عليه أيضاً قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، وإن قلنا: إن الموعد اسم زمان أشكل عليه أيضاً قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾، وقوله: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ هذه هي أوجه الإشكال في هذه الآية الكريمة، وللعلماء عن هذا أجوبة منها ما ذكره الزمخشري في الكشاف قال: لا يخلو الموعد في قوله: ﴿فَاجْعَلْ يَتَيْنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدرًا؛ فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ مطابق له لزمك شيان: أن تجعل الزمان مخلفاً وأن يعضل عليك ناصب ﴿مَكَانًا﴾، وإن جعلته مكاناً لقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ لزمك أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان، ولا يطابق قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ إلى أن قال: فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى الوعد ويقدر مضاف محذوف، أي مكان الوعد، ويجعل الضمير في ﴿تُخْلِفُهُ﴾ للموعد و﴿مَكَانًا﴾ بدل من المكان المحذوف.

فإن قلت: كيف طابقه قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟

قلت: هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم؛ فبذكر الزمان علم المكان، انتهى محل الغرض منه. ولا يخفى ما في جوابه هذا من التعسف والحذف والإبدال من المحذوف.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر ما أجيب به عما ذكرنا من الإشكال عندي في هذه الآية الكريمة أن فرعون طلب من موسى تعيين مكان الموعد، وأنه يكون مكاناً سوى؛ أي وسطاً بين أطراف البلد كما بينا، وأن موسى وافق وعين زمان الوعد وأنه يوم الزينة ضحى؛ لأن الوعد لا بد له من مكان وزمان. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن الذي يترجح عندي المصير إليه هو قول من قال في قوله: ﴿فَاجْعَلْ يَتَيْنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ إنه اسم مكان أي مكان الوعد، وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ بدل من قوله موعداً؛ لأن الموعد إذا كان اسم مكان صار هو نفس المكان فاتضح كون ﴿مَكَانًا﴾ بدلاً. ولا إشكال في ضمير ﴿تُخْلِفُهُ﴾ على هذا، ووجه إزالة الإشكال عنه أن المعروف في فن الصرف أن اسم المكان مشتق من المصدر كاشتقاق الفعل منه، فاسم المكان ينحل عن مصدر ومكان، فالمنزل مثلاً مكان النزول، والمجلس مكان الجلوس، والموعد مكان الوعد، فإذا اتضح لك أن المصدر كامن في مفهوم اسم المكان فالضمير في قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في مفهوم اسم المكان، كرجوعه للمصدر الكامن في مفهوم الفعل في قوله: ﴿أَعِدُّوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]؛ فقوله: ﴿هُوَ﴾ أي العدل المفهوم من ﴿أَعِدُّوا﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ أي الوعد الكامن في مفهوم اسم المكان الذي هو الموعد؛ لأنه مكان الوعد، فمعناه مركب إضافي وآخر جزأه لفظ الوعد وهو مرجع الضمير في ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾.

فإذا عرفت معنى هذا الكلام الذي أخبر الله أن فرعون قاله لموسى، فاعلم أن قوله عن موسى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾؛ يدل على أنه وافق على طلب فرعون ضمناً، وزاد تعيين زمان الوعد بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾؛ ولا إشكال في ذلك، هذا هو الذي ظهر لنا صوابه. وأقرب الأوجه التي ذكرها العلماء بعد هذا عندي قول من قال: إن الموعد في الآية مصدر وعليه ﴿لَا تُخْلِفُهُمْ﴾ راجع للمصدر، و﴿مَكَانًا﴾ منصوب بفعل دل عليه الموعد؛ أي عدنا مكاناً سوى. ونصب المكان بأنه مفعول المصدر الذي هو ﴿مَوْعِدًا﴾ أو أحد مفعولي ﴿أَجْعَلْ﴾ غير صواب فيما يظهر لي والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأه ابن عامر وعاصم وحمة «سوى» بضم السين والباقون بكسرها، ومعنى القراءتين واحد كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ قال بعض العلماء: معناه فتولى فرعون، انصرف مدبراً من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة «النازعات» في القصة بعينها ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات] وقوله: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي جمع السحرة.

وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي أعرض عن الحق الذي جاء به موسى، ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ الظاهر أن المراد بـ«كيد» ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه. وعليه فالمراد بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران: أحدهما: تسمية السحر في القرآن كيداً كقوله: ﴿إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ﴾... الآية، وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ﴾ وكيدهم سحرهم. الثاني: أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالُوا أَتَجِدُ أَخَاهُ وَارِسًا فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في «الشعراء»: ﴿وَأَيَّتْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لَيْلَتَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء]، وقوله في «يونس»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [يونس].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي جاء فرعون بسحرته للميعاد ليغلب نبي الله موسى بسحره في زعمه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السحرة لما جمعهم فرعون واجتمعوا مع موسى للمغالبة قالوا له متأدبين معه: ﴿إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ وقد بين تعالى

مقاتلهم هذه في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِيمَانًا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَانًا أَنْ تُكُونَ نَحْنُ الْمُلْتَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقد قدمناه في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يحذف مفعول فعل في موضع، ثم يبين في موضع آخر، فإننا نبين ذلك، وقد حذف هنا في هذه الآية مفعول ﴿تُلْقَىٰ﴾، ومفعول أول من ﴿أَلْقَىٰ﴾ وقد بين تعالى في مواضع آخر أن مفعول إلقاء موسى هو عصاه وذلك في قوله في «الأعراف»: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٩] وقوله في «الشعراء»: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٩] وقوله هنا: ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا﴾ الآية، وما في يمينه هو عصاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَكُونُ يُمُوسَىٰ﴾ [١٧] قَالَ هِيَ عَصَايَ.

وقد بين تعالى أيضاً في موضع آخر أن مفعول إلقاءهم هو حبالهم وعصيتهم، وذلك في قوله في «الشعراء»: ﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً بقوله هنا: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِطِّ إِلَهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [١٦١]؛ لأن في الكلام حذفاً دل المقام عليه، والتقدير: قال بل ألقوا فآلقوا حبالهم وعصيتهم فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُلْقَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿أَنْ تُكُونَ﴾ فيه وجهان من الإعراب:

الأول: أنه في محل نصب بفعل محذوف دل المقام عليه، والتقدير: إما أن تختار أن تلقي أي تختار الإلقاء أولاً، أو تختار إلقاءنا أولاً، وتقدير المصدر الثاني: وإما أن تختار أن نكون أي كوننا أول من ألقى.

والثاني: أنه في محل رفع، وعليه ففعل: هو مبتدأ والتقدير إما إلقاءك أولاً، أو إلقاءنا أولاً. وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي إما الأمر إلقاءنا أو إلقاءك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما خيره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ﴿أَلْقُوا﴾ يعني ألقوا ما أنتم ملقون كما صرح به في «الشعراء» في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣]، وذلك هو المراد أيضاً بقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ ... الآية [الأعراف: ١١٦].

تنبيه: قول موسى للسحرة: ألقوا المذكور في «الأعراف» وطه، و«الشعراء» فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف قال هذا النبي الكريم للسحرة ألقوا؛ أي ألقوا حبالكم وعصيتكم، يعني اعملوا السحر وعارضوا به معجزة الله التي أيد بها رسوله، وهذا أمر بمنكر؟ والجواب: هو أن قصد موسى بذلك قصد حسن يستوجهه المقام؛ لأن إلقاءهم قبله يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم

ومجهودهم؛ فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقوا من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل، ولأجل هذا قال لهم: ألقوا، فلو ألقى قبلهم وألقوا بعده لم يحصل ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

قرأ هذا الحرف ابن ذكوان عن ابن عامر (تخيل) بالياء، أي تخيل هي أي الحبال والعصي أنها تسعى، والمصدر في ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾ بدل من ضمير الحبال والعصي الذي هو نائب فاعل «تخيل» بدل اشتغال، وقرأ الباقون بالياء التحتية. والمصدر في ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾ نائب فاعل «يخيل».

وفي هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه، والتقدير: قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيتهم، فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وبه تعلم أن الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ عاطفة على محذوف كما أشار لنحو ذلك ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

و«إذا» هي الفجائية، وقد قدمنا كلام العلماء فيها فأغنى ذلك عن إعادته هنا، والحبال: جمع جبل، وهو معروف. «والعصي» جمع عصا، وألف العصا منقلبة عن واو؛ ولذا ترد إلى أصلها في التثنية: ومنه قول غيلان ذي الرمة:

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصوبها سابري مشبرق

وأصل العصي عصوو على وزن فعول جمع عصا؛ فأعل بإبدال الواو التي في موضع اللام ياء فصار عصويا، فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الياء، فالياءان أصلهما واوان. وإلى جواز هذا النوع من الإعلال في واوي اللام مما جاء على فعول أشار في الخلاصة بقوله:

كذاك ذا وجهين جا الفعول من ذي الواو لام جمع أو فرد يعن

وضمة الصاد في «عصيتهم» أبدلت كسرة لمجانسة الياء، وضمة عين «عصيتهم» أبدلت كسرة لاتباع كسرة الصاد. والتخيل في قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؛ هو إيداء أمر لا حقيقة له، ومنه الخيال. وهو الطيف الطارق في النوم. قال الشاعر:

ألا يا لقومي للخيال المشوق وللدار تنأى بالحبيب ونلتقي

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؛ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخيل لا حقيقة له في نفس الأمر، وهذا الذي دلت عليه آية «طه» هذه دلت عليه آية «الأعراف» وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾... الآية [الأعراف: ١١٦]؛ لأن قوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، يدل على أنهم

خيلوا لأعين الناظرين أمراً لا حقيقة له، وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له.

والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخيل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته وقد عبر الله عنه بما الموصولة وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي، ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْهَاتِ فِي الْمَقَدِّ﴾ [الفلق]، يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفتن في عقدهن، فلولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه، وسيأتي - إن شاء الله - أن السحر أنواع: منها ما هو أمر له حقيقة، ومنها ما هو تخيل لا حقيقة له، وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أنه خيال.

فإن قيل: قوله في «طه»: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾... الآية، وقوله في «الأعراف»: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، الدالان على أن سحر سحرة فرعون خيال لا حقيقة له، يعارضهما قوله في «الأعراف»: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، لأن وصف سحرهم بالعظم يدل على أنه غير خيال، فالذي يظهر في الجواب - والله أعلم - أنهم أخذوا كثيراً من الحبال والعصي، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة. فظن الناظرون أن الأرض ملئت حيات تسعى، لكثرة ما ألقوا من الحبال والعصي فخافوا من كثرتها، وبتخيل سعى ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم. وهذا ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدُ سِحْرٍ﴾.

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي وقنبل عن ابن كثير، وهشام عن ابن عامر، وشعبة عن عاصم بناء مفتوحة مخففة بعدها لام مفتوحة ثم قاف مفتوحة مشددة بعدها فاء ساكنة، وهو مضارع تلقف وأصله تتلقف بناءين فحذفت إحداهما تخفيفاً، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وما بتاءين ابتد قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

والمضارع مجزوم؛ لأنه جزء الطلب في قوله: ﴿أَلْقَى﴾ وجمهور علماء العربية على أن الجزم في نحو ذلك بشرط مقدر دلت عليه صيغة الطلب، وتقديره هنا: إن تلق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، وقرأه البزي عن ابن كثير كالقراءة التي ذكرنا، إلا أنه يشدد تاء تلقف وصلاً. ووجه تشديد التاء هو إدغام إحدى التاءين في الأخرى، وهو جائز في كل فعل بدئ بتاءين كما هنا، وأشار إليه في الخلاصة بقوله:

وحياي افكك وادغم دون حذر كذاك نحو تتجلى واستتر
ومحل الشاهد منه قوله نحو «تتجلى» ومثاله في الماضي قوله:

تولى الضجيع إذا ما التذها خصرأ عذب المذاق إذا ما اتابع القبل
أصله تنابع، وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر كالقراءة المذكورة للجمهور إلا أنه
يضم الفاء، فالمضارع على قراءته مرفوع، ووجه رفعه أن جملة الفعل حال، أي ألق
بما في يمينك في حال كونها متلقفة ما صنعوا، أو مستأنفة، وعليه فهي خبر مبتدأ
محذوف، أي فهي تلقف ما صنعوا، وقرأ حفص عن عاصم ﴿تَلَقَّفْ﴾ بفتح التاء وسكون
اللام وفتح القاف مخففة مع الجزم، مضارع لقفه بالكسر يلقفه بالفتح ومعنى القراءتين
واحد؛ لأن معنى تلقفه لقفه إذا تناوله بسرعة، والمراد بقوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ على
جميع القراءات أنها تتلع كل ما زوروه واقتعلوه من الحبال والعصي التي خيلوا للناس
أنها تسعى وصنعهم في قوله تعالى: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ واقع في الحقيقة على تخيلهم إلى
الناس بسحرهم أن الحبال والعصي تسعى، لا على نفس الحبال والعصي لأنها من
صنع الله تعالى، ومن المعلوم أن كل شيء كائناً ما كان بمشيئته تعالى الكونية القدرية.

وهذا المعنى الذي ذكره - جلّ وعلا - هنا في هذه الآية الكريمة من كونه أمر نبيه
موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أن يلقي ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو
عصاه فإذا هي تتلع ما يافكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى أوضحه
في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ
تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٧٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١٧٩﴾﴾
[الأعراف]، وقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ إِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾
[الشعراء]، فذكر العصا في «الأعراف»، والشعراء» يوضح أن المراد بما في يمينه في «طه»
أنه عصاه كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]، أي يختلقونه
ويفترونه من الكذب، وهو زعمهم أن الحبال والعصي تسعى حقيقة، وأصله من قولهم:
أفكه عن الشيء يأفكه عنه (من باب ضرب): إذا صرفه عنه وقلبه. فأصل الأفك بالفتح
القلب والصرف عن الشيء. ومنه قيل لقرى قوم لوط (المؤتفكات)؛ لأن الله أفكها أي
قلبها؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ
مَنْ أَفَكَ﴾ [الذاريات]، أي يصرف عنه من صرف، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا لَتَافِكًا عَنْ
عَالَمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، أي لتصرفنا عن عبادتها، وقول عمرو بن أذينة:

إن تك عن أحسن المروءة مأفوكاً ففي آخرين قد أفكوا

وأكثر استعمال هذه المادة في الكذب؛ لأنه صرف وقلب للأمر عن حقيقة
بالكذب والافتراء، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلَّذِينَ آمَنُوا آيَاتِ﴾ [الجاثية]، وقال تعالى:
﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾؛ «ما» موصولة وهي اسم «إن»، و«كيد» خبرها، والعائد إلى الموصول محذوف؛ على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلي

في عائد متصل إن انتصب بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

والتقدير: إن الذي صنعوه كيد ساحر، وأما على قراءة من قرأ (كيد ساحر) بالنصب فـ «ما» كافة و«كيد» مفعول «صنعوا» وليست سبعة، وعلى قراءة حمزة والكسائي «كيد سحر» بكسر السين وسكون الحاء، فالظاهر أن الإضافة بيانية؛ لأن الكيد المضاف إلى السحر هو المراد بالسحر، وقد بسطنا الكلام في نحو ذلك في غير هذا الموضع. والكيد: هو المكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلُحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَّ﴾. قد قدمنا في سورة «بني إسرائيل» أن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم؛ لأنه ينحل عند بعض أهل العلم عن مصدر وزمان، وعند بعضهم عن مصدر وزمان ونسبة؛ فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، وهذا المصدر الكامن في مفهوم الفعل في حكم النكرة فيرجع ذلك إلى النكرة في سياق النفي وهي صيغة عموم عند الجمهور. فظهر أن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم، وكذلك الفعل في سياق الشرط؛ لأن النكرة في سياق الشرط أيضاً صيغة عموم، وأكثر أهل العلم على ما ذكرنا من أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم، خلافاً لبعضهم فيما إذا لم يؤكد الفعل المذكور بمصدر؛ فإن أكد به فهو صيغة عموم بلا خلاف، كما أشار إلى ذلك في (مراقي السعود) بقوله عاطفاً على صيغ العموم:

ونحو لا شربت أو إن شربا. واتفقوا إن مصدر قد جلبا

والتحقيق في هذه المسألة أنها لا تختص بالفعل المتعدي دون اللازم، خلافاً لمن زعم ذلك، وأنه لا فرق بين التأكيد بالمصدر وعدمه؛ لإجماع النحاة على أن ذكر المصدر بعد الفعل تأكيد للفعل، والتأكيد لا ينشأ به حكم، بل هو مطلق تقوية لشيء ثابت قبل ذلك كما هو معروف. وخلاف العلماء في عموم الفعل المذكور هل هو بدلالة المطابقة أو الالتزام معروف. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَفْلُحُ السَّاحِرُ﴾... الآية، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَقَّ﴾ وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفيّاً عاماً إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢]؛ فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ يدل على أنه لو كان ساحراً - وحاشاه من ذلك - لكان كافراً، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ صريح في كفر معلم السحر،

وقوله تعالى عن هاروت وماروت مقررأ له: ﴿وَمَا يُمَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقَّ يَقُولَا إِلَّا مَا نَحْنُ فِيْئَتُهُ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَيَنْتَعِلُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي من نصيب، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عياداً بالله تعالى، وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح، وذلك مما لا شك فيه.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ يراد بها الكافر كقوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْفَرِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا نَحْنُ إِيَّانَا مَرْجُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس]، وقوله في «يونس» أيضاً: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيٰتِيْهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة أن من جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح عن السحرة والكفرة غيرهم أنه ينال الفلاح، وهو كذلك، كما بينه - جل وعلا - في آيات كثيرة كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ الآية [المؤمنون: ١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُ﴾؛ مضارع أفلح بمعنى نال الفلاح. والفلاح يطلق في العربية على الفوز بالمطلوب؛ ومنه قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

فقوله: «ولقد أفلح من كان عقل» يعني أن من رزقه الله العقل فاز بأكبر مطلوب. ويطلق الفلاح أيضاً على البقاء والدوام في النعيم، ومنه قول لبيد:

لو أن حيا مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح

فقوله: «مدرك الفلاح» يعني البقاء. وقول الأضبط بن قريع السعدي، وقيل كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعه والمسي والصبح لا فلاح معه

يعني أنه ليس مع تعاقب الليل والنهار بقاء. وبكل واحد من المعنيين فسر بعض أهل العلم «حي على الفلاح» في الأذان والإقامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَيْثُ أَقْبَ﴾ حيث كلمة تدل على المكان، كما تدل حين على الزمان، ربما ضمنت معنى الشرط، فقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُ حَيْثُ

أَفَ؟ أي حيث توجه وسلك. وهذا أسلوب عربي معروف يقصد به التعميم؛ كقولهم: فلان متصف بكذا حيث سير، وأية سلك، وأينما كان؛ ومن هذا القبيل قول زهير: بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَ﴾؛ أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض. وقيل: حيث احتال. والمعنى في الآية هو ما بينا - والله تعالى أعلم -.

وهناك مسائل تتعلق بالسحر وأحكامه من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الأصل وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ فيها هو: أن التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل؛ فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة «البقرة» فإنه كفر بلا نزاع كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَ﴾؛ كما تقدم إيضاحه. وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر. هذا هو التحقيق - إن شاء الله تعالى - في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء. وخلاصة رأي الشيخ في قتل الساحر وعدمه:

أن السحر نوعان كما تقدم: منه ما هو كفر، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه الكفر، فإن كان الساحر استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفراً، لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». وأظهر القولين عندي في استتابته أنه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته. وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» أن أظهر القولين دليلاً أن الزنديق تقبل توبته؛ لأن الله لم يأمر نبيه ولا أمته ﷺ بالتنقيب عن قلوب الناس، بل بالاكْتِفَاءَ بالظاهر. وما يخفونه في سرائرهم أمره إلى الله تعالى، خلافاً للإمام مالك رحمه الله وأصحابه القائلين بأن الساحر له حكم الزنديق؛ لأنه مستسر بالكفر والزنديق لا تقبل توبته عنده إلا إذا جاء تائباً قبل الاطلاع عليه، وأظهر القولين عندي: أن المرأة الساحرة حكمها حكم الرجل الساحر وأنها إن كفرت بسحرها قتلت كما يقتل الرجل؛ لأن لفظة «من» في قوله: «من بدل دينه فاقتلوه» تشمل الأنثى على أظهر القولين وأصحهما إن شاء الله تعالى. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ الآية [النساء: ١٢٤]. فأدخل الأنثى في لفظة «من»، وقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءُ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾ ... الآية [الأحزاب: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْتَنَنَّ مِنْكُنَّ لِلَّهِ﴾ ... الآية [الأحزاب: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات. وإلى هذه المسألة التي هي شمول لفظة «من» في الكتاب والسنة للأنثى أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وما شمول من للإنشى جنف وفي شبهه المسلمين اختلّفوا

وأما إن كان الساحر عمل السحر الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر، فهذا هو محل الخلاف بين العلماء. فالذين قالوا يقتل ولو لم يكفر بسحره قال أكثرهم: يقتل حداً ولو قتل إنساناً بسحره، وانفرد الشافعي في هذه الصورة بأنه يقتل قصاصاً لا حداً.

والأظهر عندي أن الساحر الذي لم يبلغ به سحره الكفر ولم يقتل به إنساناً أنه لا يقتل؛ لدلالة النصوص القطعية، والإجماع على عصمة دماء المسلمين عامة إلا بدليل واضح. وقتل الساحر الذي لم يكفر بسحره لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ، والتجروء على دم مسلم من غير دليل صحيح من كتاب أو سنة مرفوعة غير ظاهر عندي. والعلم عند الله تعالى، مع أن القول بقتله مطلقاً قوي جداً لفعل الصحابة له من غير نكير.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ مُّجَدًّا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هُرُونَ وَمُوسَى ۖ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيتهم خروا سجداً لله تعالى قائلين: آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى. فهذا هو البرهان الإلهي، هذه الهداية العظيمة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ۖ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ۖ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۖ﴾ [الأعراف]، وقوله في «الشعراء»: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ۖ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۖ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَأَلْقَى﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه؛ كأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها. وذكر في قصتهم أنهم عاينوا منازلهم في الجنة في سجودهم. والظاهر أن ذلك من نوع الإسرائيليات، وأطلق عليهم اسم السحرة في حال سجودهم لله مؤمنين به نظراً إلى حالهم الماضية كقوله: ﴿وَأَتَاوَا الْيَتِيمَ أَتَوَاتَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، فأطلق عليهم اسم اليتيم بعد البلوغ نظراً إلى الحال الماضية كما هو معروف في محله.

والظاهر أن تقديم هارون على موسى في هذه الآية لمراعاة فواصل الآيات.

واعلم أن علم السحر مع خسته، وأن الله صرح بأنه يضر ولا ينفع، قد كان سبباً لإيمان سحرة فرعون؛ لأنهم لمعرفتهم بالسحر عرفوا أن معجزة العصا خارجة عن طور السحر، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك؛ فكان ذلك سبباً لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعه الوعيد والتهديد. ولو كانوا غير عالمين بالسحر جداً، لأمكن أن يظنوا أن مسألة العصا من جنس الشعوذة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لِمُ قَبْلَ أَن ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطْعَمُونَ أَيَّدِيكُمْ وَارْتَجَلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَتَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَابْقَى ۖ﴾. ذكر

- جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكرأ عليهم: ﴿ءَأَمِنْتُمْ لِي﴾ أي صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، وأمنتم بالله قبل أن أذن لكم، يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم؛ لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم. وقال لهم أيضاً: إن موسى هو كبيرهم؛ أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر. ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً؛ لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة؛ لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف، فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم. وأنه يصلبهم في جذوع النخل، وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر، والتصليب عليه أشد من التصليب على غيره من الجذوع كما هو معروف.

وما ذكره - جلّ وعلا - عنه هنا أوضحه في غير هذا الموضع أيضاً كقوله في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتَ لَمْ قَتَلْ أَنَّ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لِّذِي عَلَّمُكُمُ الْيَتَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء]. وذكر هذا أيضاً في سورة الأعراف وزاد فيها التصريح بفاعل قال. وادعاء فرعون أن موسى والسحرة تماثلوا على أن يظهروا أنه غلبهم مكرأ ليتعاونوا على إخراج فرعون وقومه من مصر وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف]. وقوله في طه: ﴿وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ يبين أن التصليب في جذوع النخل هو مراده بقوله في «الأعراف»، والشعراء: ﴿وَلَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي في جذوع النخل. وتعدية التصليب بـ«في» أسلوب عربي معروف، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

ومعلوم عند علماء البلاغة: أن في مثل هذه الآية استعارة تبعية في معنى الحرف كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - إيضاح كلامهم في ذلك ونحوه في سورة «القصص». وقد أوضحنا في كتابنا المسمى (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز). أن ما يسميه البلاغيون من أنواع المجاز مجازاً كلها أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها. وقد بينا وجه عدم جواز المجاز في القرآن وما يترتب على ذلك من المحذور.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَعَلَّامٌ آتِنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَعَلَّامٌ آتِنَا﴾: يعني أنا، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى. واقتصر على هذا القرطبي؛ وعليه ففرعون يدعي أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله؛ وهذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقال بعضهم:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ أنا، أم موسى أشد عذاباً وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهمكم بموسى لاستضعافه له، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعه؛ كقوله: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾... الآية [الزخرف: ٥٢]. والله - جلّ وعلا - أعلم.

واعلم أن العلماء اختلفوا: هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به، أو لم يفعله بهم؟ فقال قوم: قتلهم وصلبهم. وقوم أنكروا ذلك، وأظهرهما عندي: أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى؛ لأن الله يقول لموسى وهرون: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾.

قوله: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾؛ أي لن نختار اتباعك وكوننا من حزبك، وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات؛ كمعجزة العصا التي أتنا وتيقنا صحتها. والواو في قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عاطفة على «ما» من قوله: ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾؛ أي لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ ولا على ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾؛ أي خلقنا وأبرزنا من العدم إلى الوجود. وقيل: هي واو القسم والمقسم عليه محذوف دل عليه ما قبله؛ أي ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ لا نؤثرك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ أي اصنع ما أنت صانع. فلسنا راجعين عما نحن عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي إنما ينفذ أمرك فيها. «هذه» منصوب على الظرف على الأصح. أي وليس فيها شيء يهم لسرعة زوالها وانقضائها.

وما ذكره - جلّ وعلا - عنهم في هذا الموضع من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع كقوله في «الشعراء» عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُقْلِبُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الشعراء]. وقوله في «الأعراف»: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُقْلِبُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتُنَا رَبَّنَا أَنفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٣١﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ عائد الصلة محذوف، أي ما أنت قاضيه لأنه مخفوض بالوصف، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

كذلك حذف ما بوصف خفضاً كأنت قاض بعد أمر من قضى

ونظيره من كلام العرب قول سعد بن ناشب المازني:

ويصغر في عيني تلادي إذا انثنت يميني بإدراك الذي كنت طالباً

أي طالبه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّعْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٧٣﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا﴾؛ يعنون ذنوبهم

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ظاهره المتبادر منه أن المعنى خير من فرعون وأبقى منه؛ لأنه باق لا يزول ملكه، ولا يذل ولا يموت، ولا يعزل. كما أوضحنا هذا المعنى في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْيَمِينُ وَاصِبًا﴾... الآية [النحل: ٥٢]. أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى، بل يموت أو يعزل، أو يذل بعد العز. وأكثر المفسرين على أن المعنى: أن ثوابه خير مما وعدهم فرعون في قوله: ﴿إِنِّي لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [٤٦] قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ [٤٧] [الشعراء]. وأبقى: أي أدام؛ لأن ما وعدهم به فرعون زائل، وثواب الله باق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِدَّكُمْ يَفْعَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١١] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٧] [الأعلى]. وقال بعض العلماء: ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي أبقى عذاباً من عذابك، وأدام منه. وعليه فهو رد لقول فرعون ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ومعنى: ﴿وَأَبْقَى﴾ أكثر بقاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِن لَّمْ يَهْتَمُّ لَّا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [٧٤]. ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي الأمر والشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿جَحِيمًا﴾؛ أي مرتكباً الجريمة في الدنيا حتى مات على ذلك كالكافر عياداً بالله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَهْتَمُّ﴾ عند الله ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ﴿لَّا يَمُوتُ﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة فيها راحة.

وهذا الذي ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [٣١] [فاطر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمَ وَسَفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَكِيدٍ [١١] يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ [٧] [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَبَّهْتُمْ جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسَجْنَاهَا الْإِسْفَىٰ﴾ [١١] الَّتِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى [٧] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [١٣] [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيُقْضَىٰ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ مَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات، ونظير ذلك من كلام العرب قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة السبعة:

ألا من لنفس لا تموت فينقضني شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ [٧٥].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة «أن» ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي في الدنيا حتى مات على ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ والعلی: جمع عليا وهي تأنث الأعلى. وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ﴾ (٧٧)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: أن يسري بعباده، وهم بنو إسرائيل فيخرجهم من قبضة فرعون ليلاً، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر ييساً، أي يابساً لا ماء فيه ولا بلبل، وأنه لا يخاف دركاً من فرعون وراءه أن يناله بسوء. ولا يخشى من البحر أمامه أن يغرق قومه. وقد أوضح هذه القصة في غير هذا الموضع كقوله في سورة «الشعراء»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ۚ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۚ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشَرِذْمَةٌ قَلِيلُونَ ۚ وَلَهُمْ لَنَا لَافِطُونَ ۚ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ۚ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ۚ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۚ فَلَمَّا ذَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبِ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۚ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۚ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۚ﴾ [الشعراء]. فقوله في «الشعراء»: ﴿أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي فضربه فانفلق - يوضح معنى قوله: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقوله: ﴿قَالَ اصْحَبِ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۚ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۚ﴾... الآية [الشعراء]، يوضح معنى قوله: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾؛ وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله في «الدخان»: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۚ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ۚ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ دَهَوًا إِنَّهُمْ يَحْتَدُونَ ۚ﴾ [الدخان]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة «البقرة» والقصة معروفة واضحة من القرآن العظيم.

وقرأ نافع وابن كثير ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بهمزة وصل وكسر نون «أن» لالتقاء الساكنين، والباقون قرؤوا ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بهمزة قطع مفتوحة مع إسكان نون «أن». وقد قدمنا في سورة «هود» أن أسرى وسرى لغتان وبيننا شواهد ذلك العربية، وقرأ حمزة (لا تخف) بسكون الفاء بدون ألف بين الخاء والفاء، وهو مجزوم لأنه جزاء الطلب، أي فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً لا تخف. وقد قدمنا أن نحو ذلك من الجزم بشرط محذوف تدل عليه صيغة الطلب، أي أن تضرب لهم طريقاً في البحر ييساً لا تخف. وعلى قراءة الجمهور ﴿لَا تَخَفْ﴾ بالرفع، فلا إشكال في قوله: ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ لأنه فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف، معطوف على فعل مضارع مرفوع هو قوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾. وأما على قراءة حمزة ﴿لَا تَخَفْ﴾ بالجزم ففي قوله: ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ إشكال معروف، وهو أنه معطوف على مضارع مجزوم، وذلك يقتضي جزمه، ولو جزم لحذفت الألف من ﴿تَخْشَى﴾ على حد قوله في الخلاصة:

واحدف جازماً ثلاثهن تقض حكماً لازماً

والألف لم تحذف فوق الإشكال بسبب ذلك.

وأجيب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ مستأنف خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وأنت لا تخشى، أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى.

والثاني: أن الفعل مجزوم، والألف ليست هي الألف التي في موضع لام الكلمة، ولكنها زيدت للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله: ﴿فَاضْلُونا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

والثالث: أن إشباع الحركة بحرف مد يناسبها، أسلوب معروف من أساليب اللغة العربية، كقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخه عبشمية كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا
وقول الراجز:

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاهـا ولا تملق
وقول الآخر:

قلت وقد خرت على الكلكال يا ناقتي ما جلت من مجال
وقول عنترة في معلقته:

ينبـاع من ذفري غضوب جـسرة زيافة مثل الفنيق المـكدم

فالأصل في البيت الأول: كأن لم تر، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الثاني: ولا ترضها، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الثالث: على الكلكل يعني الصدر، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الرابع: ينبع يعني أن العرق ينبع من عظم الذفري من ناقتة على التحقيق، ولكن الفتحة أشبعت، وإشباع الفتحة بألف في هذه الأبيات وأمثالها مما لم نذكره ليس لضرورة الشعر لتصريح علماء العربية بأنه أسلوب عربي معروف. ويؤيد ذلك أنه مسموع في النثر، كقولهم في النثر: كلكال، وخاتام، وداناق، يعنون كلكلا، وخاتماً، ودانقاً. وقد أوضحنا هذه المسألة، وأكثرنا من شواهدا العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «البلد» في الكلام على قوله: ﴿لَا أَقِمْ هَذَا الْبَلَدَ ۝﴾ [البلد]، مع قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾ [التين]. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾ فاجعل لهم طريقاً، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب اللبن عمله، اهـ. والتحقيق أن ﴿يَبَساً﴾ صفة مشبهة جاءت على فعل بفتحين كبطل وحسن. وقال الزمخشري: اليبس مصدر وصف به؛ يقال: ييبس وييساً، ونحوهما العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث، فقيل: شاتنا ييبس، وناقتنا ييبس، إذا جف لبنها.

وقوله: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكاً﴾ الدرك: اسم مصدر بمعنى الإدراك، أي لا يدركك

فرعون وجنوده، ولا يلحقونك من ورائك، ولا تخشى من البحر أمامك. وعلى قراءة الجمهور ﴿لَا تَخَفْ﴾ فالجملة حال من الضمير في قوله: ﴿فَأَضْرِبْ﴾ [ص: ٤٤]؛ أي فاضرب لهم طريقاً في حال كونك غير خائف دركاً ولا خاش. وقد تقرر في علم النحو أن الفعل المضارع المنفي بلا إذا كانت جملته حالية وجب الربط فيها بالضمير وامتنع بالواو؛ كقوله هنا: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي في حال كونك لا تخاف دركاً، وقوله: ﴿مَا لَكَ لَا أَرَىٰ آلِهَتَهُدً﴾ [النمل: ٢٠] وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٤]، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

ولو أن قوماً لارتفاع قبيله دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

يعني دخلتها في حال كوني غير محجوب، وبذلك تعلم أن قوله في الخلاصة:

وذا بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

في مفهومه تفصيل كما هو معلوم في علم النحو.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ ۖ﴾. التحقيق أن أتبع واتبع بمعنى واحد؛ فقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ أي اتبعهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠]، وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية [الأعراف: ٧]. والمعنى: أن موسى لما أسرى بني إسرائيل ليلاً أتبعهم فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي أغرق الله فرعون وجنوده في البحر فهلكوا عن آخرهم. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن فرعون أتبع بني إسرائيل هو وجنوده، وأن الله أغرقهم في البحر - أوضحه في غير هذا الموضع. وقد بين تعالى أنهم اتبعوه في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في «الشعراء»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِلَيْنَا فَاتَّبَعُوا ۖ﴾ [الشعراء: ٥٦] يعني سيتبعكم فرعون وجنوده. ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ ۖ﴾ [٥٧] إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآطُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦١﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٣﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦٥﴾ قَالِ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٦﴾ [الشعراء: ٦٦].

وقوله في هذه الآية: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]، أي أول النهار عند إشراق الشمس، ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى في «يونس»: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠]، وقوله في «الدخان»: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِيٰ لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إتياعه لهم.

وأما غرقه هو وجميع قومه المشار إليه بقوله هنا: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز كقوله في «الشعراء»: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ [الشعراء: ٦٣] وَأَرْزَأْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ

﴿٧٤﴾ وَأَفْنَيْتَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ... الآية [الشعراء]، وقوله في «الأعراف»: ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣٦]، وقوله في «الزخرف»: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله في «البقرة»: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَجْنٰكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنۢشَرۡنَا نُحۡلُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]، وقوله في «يونس»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرۡقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنۢمَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وقوله في «الدخان»: ﴿وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهۡوًا إِنَّهُمۡ جُنۡدٌ مُّفْرِقُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان]، إلى غير ذلك من الآيات. والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، يدل على تعظيم الأمر وتفخيم شأنه، ونظيره في القرآن قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السَّيۡدَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَالْمُؤَنِّفَكَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٢﴾ فَغَشَّيَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَا أُوۡحِيَ ﴿٦٧﴾﴾ [النجم]. واليم: البحر، والمعنى: فأصابهم من البحر ما أصابهم وهو الغرق والهلاك المستأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوۡنَ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

يعني أن فرعون أضل قومه عن طريق الحق وما هداهم إليها، وهذه الآية الكريمة بين الله فيها كذب فرعون في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوۡنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَٰك فِرْعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِ فَالْتَبَسُوا أَمۡرَ فِرْعَوۡنَ وَمَا أَمۡرُ فِرْعَوۡنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقَدۡمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوۡدَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْوَرۡدُ الْمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]. والنكته البلاغية في حذف المفعول في قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ ولم يقل وما هداهم، هي مراعاة فواصل الآيات، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ ﴿٢﴾﴾ [الضحى].

قوله تعالى: ﴿بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنۢجَيْنَاكَ مِّنۢ عَدُوۡكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلۡوَىٰ ﴿٨٥﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدَّ هَوَىٰ﴾. وذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة امتنانه على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من عدوهم فرعون، وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، وأنه نزل عليهم المن والسلوى، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم؛ ولا تطغوا فيغضب عليكم ربكم. وما ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع؛ كقوله في امتنانه عليهم بإنجائهم من عدوهم فرعون في «سورة البقرة»: ﴿وَإِذْ أَنۢجَيْنَاكُم مِّنَ ءَالِ فِرْعَوۡنَ يَسۡمُوۡنَكُمۡ سَوَۥ الْعَذَابِ يَذۡبَحُونَ أُنۢبَاۥكُمۡ وَنَسۡتَحْيُونَ نِسَاۥكُمۡ وَفِي ذَٰلِكُمۡ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَإِذْ أَنۢجَيْنَاكُم مِّنَ ءَالِ فِرْعَوۡنَ يَسۡمُوۡنَكُمۡ سَوَۥ الْعَذَابِ يُقۡتُلُونَ أُنۢبَاۥكُمۡ وَنَسۡتَحْيُونَ نِسَاۥكُمۡ وَفِي ذَٰلِكُمۡ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف]، وقوله في «الدخان»: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٥﴾ مِّن فِرْعَوۡنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُرۡسِفِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان]، وقوله في سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ اذۡكُرُوا نِعۡمَةَ اللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنۢجَيْنَاكُم مِّنَ ءَالِ فِرْعَوۡنَ

يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُوكَ آبْنَاءَكَ وَمَسْتَخِيرُونَ نِسَاءَكَ فِي ذَلِكَ بِآلِكَ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٦١﴾ [إبراهيم]، وقوله في «الشعراء»: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٦٢﴾ [الشعراء]، وقوله في «الدخان»: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ [الدخان]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله في «القصص»: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿وَوَعَدْنَاهُ جَانِبَ الْفُرَجِ الْآئِينَ﴾؛ الأظهر أن ذلك الوعد هو المذكور في قوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ... الآية [البقرة: ٥١]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا﴾ وهو الوعد بإنزال التوراة، وقيل فيه غير ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَ﴾؛ قد أوضح امتنانه عليهم بذلك في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْفَ مَنَ وَالسَّلْوَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ أَلْفَ مَنَ وَالسَّلْوَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وأكثر العلماء على أن المن: الترنجيبين، وهو شيء ينزل من السماء كنزول الندى ثم يتجمد، وهو يشبه العسل الأبيض. والسلوى: طائر يشبه السمانى. وقيل هو السمانى. وهذا قول الجمهور في المن والسلوى. وقيل: السلوى العسل. وأنكر بعضهم إطلاق السلوى على العسل. والتحقيق أن «السلوى» يطلق على العسل لغة؛ ومنه قول خالد بن زهير الهذلي:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم؛ ألد من السلوى إذا ما نشورها

يعني ألد من العسل إذا ما نستخرجها؛ لأن النشور استخراج العسل. قال مؤرج بن عمر السدوسي: إطلاق السلوى على العسل لغة كنانة؛ سمي به لأنه يسلي؛ قاله القرطبي. إلا أن أكثر العلماء على أن ذلك ليس هو المراد في الآية. واختلفوا في السلوى؛ هل هو جمع أو مفرد؟ فقال بعضهم: هو جمع، واحده سلواة، وأنشد الخليل لذلك قول الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر

ويروى هذا البيت:

كما انتفض العصفور بلله القطر

وعليه فلا شاهد في البيت. وقال الكسائي: السلوى مفرد وجمعه سلاوى. وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته؛ كما قالوا: دفلى وسماني وشكاعي في الواحد والجمع. والدفلى كذكرى: شجر أخضر مر حسن المنظر، يكون في الأودية. والشكاعى كحبارى وقد تفتح: نوع من دقيق النبات صغير أخضر، دقيق العيدان يتداوى به. والسماني: طائر معروف.

قال مقيده - عفا الله عنه -: والأظهر عندي في المن: أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب، فيدخل فيه الترجييب الذي من الله به على بني إسرائيل في التيه، ويشمل غير ذلك مما يماثله. ويدل على هذا قوله ﷺ الثابت في الصحيحين: «الكماة من المن وماؤها شفاء للعين»..

والأظهر عندي في السلوى: أنه طائر، سواء قلنا إنه السماني، أو طائر يشبهه، لإطباق جمهور العلماء من السلف والخلف على ذلك. مع أن السلوى، يطلق لغة على العسل، كما بينا.

وقوله في آية «طه» هذه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي من المن والسلوى، والأمر فيه للإباحة والامتنان.

وقد ذكر ذلك أيضاً في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقوله: ﴿كُلُوا﴾ في هذه الآيات مقول قول محذوف، أي وقلنا لهم كلوا، والضمير المجرور في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ راجع إلى الموصول الذي هو «ما» أي كلوا من طيبات الذي رزقناكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم، ونهاهم عن الطغيان فيما رزقهم، وهو أن يتعدوا حدود الله فيه بأن يكفروا نعمته به، ويشغلهم الله والنعيم عن القيام بشكر نعمه، وأن ينفقوا رزقه الذي أنعم عليهم به في المعاصي، أو يستعينوا به على المعصية، أو يمنعوا الحقوق الواجبة عليهم فيه، ونحو ذلك.

وبين أن ذلك يسبب لهم أن يحل عليهم غضبه - جلّ وعلا -؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَيَحْلِلْ﴾ سببية، والفعل منصوب بأن مضمره بعدها؛ لأنه بعد النهي وهو طلب محض، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وبعد فاجواب نفي أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

وقرأ هذا الحرف الكسائي «فيحل» بضم الحاء (ومن يحلل) بضم اللام، والباقون قرؤوا «يحل» بكسر الحاء و«يحلل» بكسر اللام. وعلى قراءة الكسائي «فيحل» بالضم أي ينزل بكم غضبي. وعلى قراءة الجمهور فهو من حل يحل بالكسر: إذا وجب، ومنه حل دينه إذا وجب أدائه. ومنه ﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَى آلِ بَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]. وقوله: ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ أي هلك وصار إلى الهاوية، وأصله أن يسقط من جبل أو نحوه فيهوي إلى الأرض فيهلك، ومنه قول الشاعر:

هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمه، أي سقط سقوطاً لا نهوض بعده. ومنه قول كعب بن سعد

الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً وماذا يرد الليل حين يثوب

ونحو هذا هو أحد التفسيرات في قوله تعالى: ﴿قَامُمْ هَآؤِيَّةٌ﴾ [القارعة]، وعن شفي بن ماتع الأصبحي قال: إن في جهنم جبلاً يدعى صعوداً يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه؛ قال الله تعالى: ﴿سَازِهَقُّهُ صَعُوْدًا﴾ [المدثر]، وإن في جهنم قصراً يقال له هوى، يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ قاله القرطبي وابن كثير، والله تعالى أعلم.

واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه - جل وعلا - ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك. مع تنزيها التام له - جلّ وعلا - عن مشابهة المخلوقين ﷺ عن ذلك علواً كبيراً. كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة «الأعراف» وقرأ حمزة والكسائي في هذه الآية «قد أنجيتكم من عدوكم وواعدتكم» بناء المتكلم فيهما. وقرأه الباقون «وواعدناكم وأنجيناكم» بالنون الدالة على العظمة، فصيغة الجمع في قراءة الجمهور للتعظيم. وقرأ أبو عمرو «ووعدناكم» بلا ألف بعد الواو الثانية بصيغة الفعل المجرد، من الوعد لا من المواعدة مع نون التعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [٨٢]. ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه غفار؛ أي كثير المغفرة لمن تاب إليه من معاصيه وكفره، وآمن به وعمل صالحاً ثم اهتدى. وقد أوضح هذا المعنى في مواضع متعددة من كتابه، كقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥٢] وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُمْ [الزمر]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا معنى التوبة والعمل الصالح.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي استقام وثبت على ما ذكر من التوبة والإيمان والعمل الصالح ولم ينكث. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْزَعُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي الحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم». وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية [هود: ١١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ [٨٣] قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى [٨٤]. أشار - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة إلى قصة مواعده موسى أربعين ليلة وذهابه إلى الميقات، واستعجاله إليه قبل قومه. وذلك أنه لما واعده ربه وجعل له الميقات المذكور، وأوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه، استعجل إلى

الميقات فقال له ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ الآية.. وهذه القصة التي أجملها هنا أشار لها في غير هذا الموضع كقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمِثْرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّيَ أَزْبَعْتُ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٢ - ١٤٣].

وفي هذه الآية سؤال معروف: وهو أن جواب موسى ليس مطابقاً للسؤال الذي سأله ربه؛ لأن للسؤال عن السبب الذي أعجله عن قومه، والجواب لم يأت مطابقاً لذلك؛ لأنه أجاب بقوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ﴾.

وأجيب عن ذلك بأجوبة: منها أن قوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ يعني هم قريب وما تقدمتهم إلا بيسير يغتفر مثله، فكأنني لم أتقدمهم ولم أعجل عنهم لقرب ما بيني وبينهم. ومنها أن الله - جلّ وعلا - لما خاطبه بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾؛ داخله من الهيبة والإجلال والتعظيم لله - جلّ وعلا - ما أذهله عن الجواب المطابق. والله أعلم. وقوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ﴾ المد فيه لغة الحجازيين. وزججها ابن مالك في الخلاصة بقوله: والمد أولى...

ولغة التميميين «أولا» بالقصر، ويجوز دخول اللام على لغة التميميين في البعد، ومنه قول الشاعر:

أولا لك قومي لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا أولالكوا

وأما على لغة الحجازيين بالمد فلا يجوز دخول اللام عليها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٥﴾، الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل؛ فهي فتنة إضلال كقوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبيّنة في آيات متعددة كقوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله هنا: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمُ خُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أي اتخذوه إلهاً وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط فأضلهم بعبادته.

وقوله هنا: ﴿كَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَوْا ﴿٨٧﴾؛ والسامري: قيل اسمه هارون، وقيل اسمه موسى بن ظفر. وعن ابن عباس: أنه من قوم كانوا يعبدون البقر. وقيل: كان رجلاً من القبط؛ وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

والفتنة أصلها في اللغة: وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أم زائف. وقد أطلقت في القرآن إطلاقاً متعددة. منها: الوضع في النار كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقَنَّنُونَ﴾ [الذاريات]، أي يحرقون بها، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [البروج: ١٠]؛ أي أحرقوهم بنار الأخدود. ومنها: الاختبار وهو الأغلب في استعمال الفتنة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية [التغابن: ١٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]، ومنها: نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة. ومن هنا أطلقت الفتنة على الشرك، كقوله: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَئِذَا تَوَلَّوْا لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الآية [البقرة: ١٩٣]، وقوله هنا: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ... الآية، ومنها: الحجة، كقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] أي لم تكن حجتهم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أسند إضلالهم إليه؛ لأنه هو الذي تسبب فيه بصياغته لهم العجل من حلي القبط ورميه عليه التراب الذي مسه حافر الفرس التي جاء عليها جبريل، فجعله الله بسبب ذلك عجلاً جسداً له خوار، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [٨٧] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَمْ يَخُورْ، وقال في «الأعراف»: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عَجَلاً جَسَداً لَمْ يَخُورْ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٤٨]. والخوار: صوت البقر. قال بعض العلماء: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسداً من لحم ودم، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿عَجَلاً جَسَداً﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحماً ولا دماً، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل، والأول أقرب لظاهر الآية، والله تعالى قادر على أن يجعل الجماد لحماً ودماً، كما جعل آدم لحماً ودماً وكان طيناً.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسْفًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفاً على قومه من أجل عبادتهم العجل.

وقوله: ﴿أَسْفًا﴾ أي شديد الغضب، فالأسف هنا: شدة الغضب، وعلى هذا فقوله: ﴿غَضَبَيْنِ أَسْفًا﴾ أي غضبان شديد الغضب، ومن إطلاق الأسف على الغضب في القرآن قوله تعالى في «الزخرف»: ﴿قَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَقَمْنَا مِنْهُمُ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥٥] [الزخرف]، أي فلما أغضبونا بتماديتهم في الكفر مع توالي الآيات عليهم انتقمنا منهم. وقال بعض العلماء: الأسف هنا الحزن والجزع؛ أي رجع موسى في حال كونه غضبان حزيناً جزعاً لكفر قومه بعبادتهم للعجل. وقيل: أسفاً أي مغتاظاً: وقائل هذا يقول: الفرق بين الغضب والغيط: أن الله وصف نفسه بالغضب، ولم يجز وصفه بالغيط؛ حكاه الفخر الرازي. ولا يخفى عدم اتجاهه في تفسير هذه الآية؛ لأنه راجع إلى القول الأول، ولا حاجة في ذلك إلى التفصيل المذكور.

وقوله: ﴿عَظِبْنَا أَسِفًا﴾ حالان. وقد قدمنا فيما مضى أن التحقيق جواز تعدد الحال من صاحب واحد مع كون العامل واحداً؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والحال قد يجيء ذا تعدد لمفرد فاعلم وغير مفرد

وما ذكره - جل وعلا - في آية «طه» هذه من كون موسى رجع إلى قومه ﴿عَظِبْنَا أَسِفًا﴾ ذكره في غير هذا الموضع، وذكر أشياء من آثار غضبه المذكور، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾... الآية [الأعراف: ١٥٠]. وقد بين تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاء الألواح التي فيها التوراة، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، كما قال في «الأعراف»: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال في «طه» مشيراً لأخذه برأس أخيه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾. وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالبيان؛ لأن الله لما أخبر موسى بكفر قومه بعبادتهم العجل كما بينه في قوله: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، وهذا خبر من الله يقين لا شك فيه لم يلق الألواح، ولكنه لما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثراً لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك، فألقى الألواح حتى تكسرت، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمة الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسيره في سورة «الأعراف»: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعادين كالمنكرين، أخبره ربه ﷻ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح».

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَرُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾ ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكَةٍ.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما رجع إلى قومه، ووجدهم قد عبدوا العجل من بعده قال لهم: ﴿يَقْوَرُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾.

وأظهر الأقوال عندي في المراد بهذا الوعد الحسن؛ أنه وعدهم أن ينزل على نبينهم كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه من خير الدنيا والآخرة. وهذا الوعد الحسن المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاهُ جَانِبَ الْفُجْرِ الْيَمِينِ﴾ الآية، وفيه أقوال غير ذلك.

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؛ الاستفهام فيه للإنكار، يعني لم يطل العهد؛ كما يقال في المثل: (وما بالعهد من قدم)؛ لأن طول العهد مظنة النسيان، والعهد قريب لم يطل فكيف نسيتم؟

وقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ قال بعض العلماء: «أم» هنا هي المنقطعة، والمعنى بل أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، ومعنى إرادتهم حلول الغضب، أنهم فعلوا ما يستوجب غضب ربهم بإرادتهم؛ فكأنهم أرادوا الغضب لما أرادوا سببه، وهو الكفر بعبادة العجل.

وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾؛ كانوا وعدوه أن يتبعوه لما تقدمهم إلى الميقات، وأن يشبثوا على طاعة الله تعالى؛ فعبدوا العجل وعكفوا عليه ولم يتبعوا موسى؛ فأخلفوا موعده بالكفر وعدم الذهاب في أثره ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾؛ قرأه نافع وعاصم ﴿بِمَلِكِنَا﴾ بفتح الميم. وقرأه حمزة والكسائي «بملكنا» بضم الميم، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «بملكنا» بكسر الميم. والمعنى على جميع القراءات: ما أخلفنا موعده بأن ملكنا أمرنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعده. وهو اعتذار منهم بأنهم ما أخلفوا الموعد باختيارهم، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهة السامري وكيده. وهو اعتذار بارد ساقط كما ترى!! ولقد صدق من قال:

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر

وأما على قول من قال: إن الذين قالوا لموسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾؛ هم الذين لم يعبدوا العجل؛ لأنهم وعدوه أن يتبعوه، ولما وقع ما وقع من عبادة أكثرهم للعجل تأخروا عن اتباع موسى بسبب ذلك، ولم يتجرؤوا على مفارقتهم خوفاً من الفرقة - فالعذر له وجه في الجملة، كما يشير إليه قوله تعالى في القصة في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ يَهُودُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۚ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ﴾، والمصدر في قوله: ﴿بِمَلِكِنَا﴾ مضاف إلى فاعله ومفعوله محذوف، أي بملكنا أمرنا. وقال القرطبي: كأنه قال بملكنا الصواب بل أخطأنا؛ فهو اعتراف منهم بالخطأ. وقال الزمخشري: ﴿أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ أَلْعَهْدُ﴾ الزمان، يريد مدة مفارقتهم لهم.

تنبيه: كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ«لم» إذا تقدمتها همزة استفهام كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؛ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

الأول: أن مضارعة تنقلب ماضوية، ونفيه ينقلب إثباتاً فيصير قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ بمعنى وعدكم، وقوله: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١]، بمعنى شرحنا، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد]، بمعنى جعلنا له عينين. وهكذا. ووجه انقلاب المضارعة ماضوية ظاهر؛ لأن «لم» حرف قلب تنقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي كما هو معروف. ووجه انقلاب النفي إثباتاً أن الهمزة إنكارية، فهي مضمنة معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه، ونفي النفي إثبات، فيؤول إلى معنى الإثبات.

الوجه الثاني: أن الاستفهام في ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر

فيقول «بلى» وعليه فالمراد من قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؛ حملهم على أن يقرؤا بذلك فيقولوا: بلى هكذا. ونظير هذا من كلام العرب قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فإذا عرفت أن قوله هنا: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا﴾ إلى قوله: ﴿يَمْلِكُنَا﴾ قد بين الله فيه أن موسى لما رجع إليهم في شدة غضب مما فعلوا وعتابهم قال لهم في ذلك العتاب: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ...﴾ الآية، فاعلم أن بعض عتابه لهم لم يبينه هنا، وكذلك بعض فعله، ولكنه بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ تَمَنَّا خَلْقَتُنِي مِن بَدِيٍّ أَعْطَيْتُهُ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وبين بعض ما فعل بقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقد أشار إلى ذلك هنا في «طه» في قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا جُمْلًا أَوَّارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْرِ فَقَدَفْنَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَفَسَقَ ٨٨.

قرأ هذا الحرف أبو عمرو وشعبة عن عاصم، وحمزة والكسائي (حملنا) بفتح الحاء والميم المخففة مبيناً للفاعل مجرداً. وقرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿جُمْلًا﴾ بضم الحاء وكسر الميم المشددة مبيناً للمفعول. و«نا» على القراءة الأولى فاعل «حمل» وعلى الثانية نائب فاعل «حمل» بالتضعيف. والأوزار في قوله: ﴿أَوَّارًا﴾ قال بعض العلماء: معناها الأثقال، وقال بعض العلماء: معناها الآثام. ووجه القول الأول أنها أحمال من حلي القبط الذي استعاروه منهم. ووجه الثاني أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي؛ ولأن الغنائم لم تكن تحل لهم. والتعليل الأخير أقوى.

وقوله: ﴿مِّن زِينَةِ الْقَوْرِ﴾؛ المراد بالزينة الحلي، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِن بَدِيٍّ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أما قوله: ﴿فَقَدَفْنَهَا﴾ أي ألقيناها وطرحناها في النار التي أوقدها السامري في الحفرة، وأمرنا أن نطرح الحلي فيها. وأظهر الأقوال عندي في ذلك: هو أنهم جعلوا جميع الحلي في النار ليزوب فيصير قطعة واحدة؛ لأن ذلك أسهل لحفظه حتى يرى نبي الله موسى فيه رأيه. والسامري يريد تدبير خطة لم يطلعوا عليها. وذلك أنه لما جاء جبريل ليذهب بموسى إلى الميقات وكان على فرس، أخذ السامري تراباً مسه حافر تلك الفرس، ويزعمون في القصة أنه عاين موضع أثرها ينبت فيه النبات، ففترس أن الله جعل فيها خاصية الحياة، فأخذ تلك القبضة من التراب واحتفظ بها، فلما أرادوا أن يطرحوا الحلي في النار ليجعلوه قطعة واحدة أو لغير ذلك من الأسباب وجعلوه فيها، ألقى

السامري عليه تلك القبضة من التراب المذكورة، وقال له: كن عجلاً جسداً له خوار؛ فجعله الله عجلاً جسداً له خوار؛ فقال لهم: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ (٩٥) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦).

وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾؛ هو من بقية اعتذارهم الفاسد البارد، وهو يدل على أن ذلك الاعتذار من الذين عبدوا العجل لا من غيرهم، ولا يبعد معه احتمال أنه من غيرهم؛ لأنه ليس فيه ما يعين كون الاعتذار منهم تعيناً غير محتمل. ومعلوم أن هذا العذر عذر لا وجه له على كل حال.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي موسى إلهه هنا وذبح يطلبه في محل آخر؛ قاله ابن عباس في حديث الفتون. وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس أيضاً من طريق عكرمة ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي أن يذكرهم به. وعن ابن عباس أيضاً ﴿فَنَسِيَ﴾ أي السامري ما كان عليه من الإسلام، وصار كافراً بادعاء ألوهية العجل وعبادته.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٩٨).

بين الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأل، ولا يملك نفعاً لمن عبده، ولا ضرراً لمن عصاه. وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً عن النفع والضرر ورد الجواب. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ولا شك أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلاً إلهاً أنه من أظلم الظالمين. ونظير ذلك قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ يُعْبَدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٧) [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْعٍ﴾ (٧٢) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَا يُسْمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنِتْكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ (٧٤) [فاطر]. وقد قدمنا الكلام مستوفى في همزة الاستفهام التي بعدها أداة عطف كالفاء والواو، كقوله هنا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقرأ هذا الحرف جماهير القراء ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ بالرفع لأن «أن» مخففة من الثقيلة، والدليل على أنها مخففة من الثقيلة تصريحه تعالى بالثقل في قوله في المسألة بعينها في

«الأعراف»: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾... الآية [الأعراف: ١٤٨]، ورأى في آية «طه» والأعراف» علمية على التحقيق؛ لأنهم يعلمون علماً يقيناً أن ذلك العجل المصوغ من الحلي لا ينفع ولا يضر ولا يتكلم.

واعلم أن المقرر في علم النحو أن: «أن» لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخففة من الثقيلة قولاً واحداً، ولا يحتمل أن تكون «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع. وضابط هذه: أن تكون بعد فعل العلم وما جرى مجراه من الأفعال الدالة على اليقين كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجِيٌّ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتَهُمْ﴾ الآية [الجن: ٢٨]، ونحو ذلك من الآيات، وقول الشاعر:

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كل ما قدرا
وقول الآخر:

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل
وإذا جاء بعد هذه المخففة من الثقيلة فعل مضارع فإنه يرفع ولا ينصب كقوله:

علموا أن يؤملون فجادوا قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

و«أن» هذه المخففة من الثقيلة يكون اسمها مستكناً غالباً، والأغلب أن يكون ضمير الشأن. وقيل لا يكون إلا ضمير الشأن، وخبرها الجملة التي بعدها، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وإن تخفف «أن» فاسمها استكن والخبر اجعل جملة من بعد أن

وما سمع في شعر العرب من بروز اسمها في حال كونه غير ضمير الشأن فمن ضرورة الشعر؛ كقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب:

لقد علم الضيف والمرملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا
بأنك ربيع وغيث مربع وأنتك هناك تكون الشمالا

وقول الآخر:

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني طلاقك لم أبخل وأنت صديق

الحالة الثانية: أن تكون محتملة لكونها المصدرية الناصبة للمضارع، ومحتملة لأن تكون هي المخففة من الثقيلة، وإن جاء بعدها فعل مضارع جاز نصبه للاحتمال الأول، ورفع له للاحتمال الثاني، وعليه القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [المائدة: ٧١]، بنصب «تكون» ورفع، وضابط «أن» هذه أن تكون بعد فعل يقتضي الظن ونحوه من أفعال الرجحان. وإذا لم يفصل بينها وبين الفعل فاصل فالنصب أرجح، ولذا اتفق القراء على النصب في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾

الآية [العنكبوت: ٢]. وقيل: إن «أن» الواقعة بعد الشك ليس فيها إلا النصب؛ نقله الصبان في حاشيته عن أبي حيان بواسطة نقل السيوطي.

الحالة الثالثة: أن تكون «أن» ليست بعد ما يقتضي اليقين ولا الظن ولم يجر مجراها، فهي المصدرية الناصبة للفعل المضارع قولاً واحداً. وإلى الحالات الثلاث المذكورة أشار بقوله في الخلاصة:

ويلن انصبه وكي كذا بأن لا بعد علم والتي من بعد ظن
فانصب بها والرفع صحح واعتقد تخفيفها من أن فهو مطرد
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ٩٠ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ٩١ ﴿٩١﴾

بين - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي الله هارون - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وبين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها؛ أي كفر وضلال ارتكبهوا بذلك، وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء - جلّ وعلا -، وأن عجلاً مصطنعاً من حلي لا يعبد إلا مفتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى، والوفاء بموعد موسى - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأن يطيعوه في ذلك؛ فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى. وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ آتَيْنَا مُوسَىٰ
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُمُوكَاذُوا يَقُولُونَ فَلَا تُشْمِتْ فِيكَ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فقوله عنهم في خطابهم له: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ﴾؛ يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في «الأعراف» كما بينا، وقال أبو عبد الله القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآيات الكريمات ما نصه:

وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمته الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟
واعلم حرس الله مدته: أنه اجتمع جماعة من رجال فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟
أفتونا مأجورين. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخ كف عن الذنوب قبل التفريق والزلل
واعمل لنفسك صالحاً ما دام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى ومشيب رأسك قد نزل

وفي مثل هذا ونحوه الجواب يرحمك الله: مذهب الصوفية بطالة وجهالة

وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما الرقص والتواجد؛ فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حواليه، ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل. وأما القضيب: فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من حضور المساجد وغيرها. ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا أن يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق - انتهى منه بلفظه.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد قدمنا في سورة «مريم» ما يدل على أن بعض الصوفية على الحق؛ ولا شك أن منهم ما هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبذلك عالجوا أمراض قلوبهم وحرسوها، وراقبوها وعرفوا أحوالها، وتكلموا على أحوال القلوب كلاماً مفصلاً كما هو معلوم، كعبد الرحمن بن عطية، أو ابن أحمد بن عطية، أو ابن عسكر؛ أعني أبا سليمان الداراني، وكعون بن عبد الله الذي كان يقال له حكيم الأمة، وأضرابهما، وكسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، والجنيد بن محمد، ومن سار على منوالهم؛ لأنهم عالجوا أمراض أنفسهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يحيدون عن العمل بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، ولم تظهر منهم أشياء تخالف الشرع. فالحكم بالضلال على جميع الصوفية لا ينبغي ولا يصح على إطلاقه، والميزان الفارق بين الحق والباطل في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن كان منهم متبعاً لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وهديه وسمته، كمن ذكرنا وأمثالهم، فإنهم من جملة العلماء العاملين، ولا يجوز الحكم عليهم بالضلال. وأما من كان على خلاف ذلك فهو الضال.

نعم، صار المعروف في الآونة الأخيرة، وأزمة كثيرة قبلها بالاستقراء، أن عامة الذين يدعون التصوف في أقطار الدنيا إلا من شاء الله منهم دجاجة يتظاهرون بالدين ليضلوا العوام الجهلة وضعاف العقول من طلبة العلم، ليتخذوا بذلك أتباعاً وخداماً، وأموالاً وجاهاً، وهم بمعزل عن مذهب الصوفية الحق، لا يعملون بكتاب الله ولا بسنة نبيه، واستعمارهم لأفكار ضعاف العقول أشد من استعمار كل طوائف المستعمرين. فيجب التباعد عنهم، والاعتصام من ضلالتهم بكتاب الله وسنة نبيه، ولو ظهر على أيديهم بعض الخوارق، ولقد صدق من قال:

إذا رأيت رجلاً يطير وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج أو بدعي

والقول الفصل في ذلك هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۝﴾ [النساء]، فمن كان عمله مخالفاً للشرع كمتصوفة آخر الزمان فهو الضال، ومن كان عمله موافقاً لما جاء به نبينا - عليه الصلاة والسلام - فهو المهتدي. نرجو الله تعالى أن يهدينا وإخواننا المؤمنين، وألا يزيغنا ولا يضلنا عن العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ التي هي محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَا تَتَّبِعَنِ ۝﴾ قال بعض أهل العلم: «لا» في قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ زائدة للتوكيد، واستدل من قال ذلك بقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، قال لأن المراد، ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؛ بدليل قوله في القصة بعينها في سورة «ص»: ﴿قَالَ يَاقَاإِبْرَاهِيمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۝... الآية [ص: ٧٥]، فحذف لفظة «لا» في «ص» مع ثبوتها في «الأعراف» والمعنى واحد؛ فدل ذلك على أنها مزيدة للتوكيد.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: قد عرف في اللغة العربية أن زيادة لفظة «لا» في الكلام الذي فيه معنى الجحد لتوكيده مطردة؛ كقوله هنا: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَا تَتَّبِعَنِ ۝﴾؛ أي ما منعك أن تتبعني؛ وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، بدليل قوله في «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۝... الآية [ص: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۝... الآية [الحديد: ٢٩]؛ أي ليعلم أهل الكتاب، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، أي فوربك لا يؤمنون، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤]، أي والسيئة، وقوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ فَرْثِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٣٤]، على أحد القولين، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، على أحد القولين. وقوله: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا ۝... الآية [الأنعام: ١٥١]، على أحد الأقوال فيها. ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أنى أفر

يعني فوأبيك. وقول أبي النجم:

فما ألوم البيض ألا تسخرأ لما رأين الشمط القفنندرا

يعني أن تسخر، وقول الآخر:

ما كان يرضى رسول الله دينهم والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر. وقول الآخر:

وتلحينني في اللهو ألا أحبه وللهو داع دائب غير غافل
يعني أن أحبه، و«لا» مزيدة في جميع الأبيات لتوكيد الجحد فيها. وقال الفراء:
إنها لا تزداد إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد كالأمثلة المتقدمة. والمراد بالجحد
النفي وما يشبهه كالمنع في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ [الأعراف: ١٢] ونحو ذلك. والذي يظهر لنا
- والله تعالى أعلم -: أن زيادة لفظة «لا» لتوكيد الكلام وتقويته أسلوب من أساليب
اللغة العربية، وهو في الكلام الذي فيه معنى الجحد أغلب مع أن ذلك مسموع في
غيره. وأنشد الأصمعي لزيادة «لا» قول ساعدة الهذلي:

أفعنك لا برق كان وميضه غاب تسنمه ضرام مشقب
ويروى «أفمنك» بدل «أفعنك» و«تسيمه» بدل «تسنمه»، يعني أعنك برق و«لا»
زائدة للتوكيد والكلام ليس فيه معنى الجحد. ونظيره قول الآخر:

تذكرت ليلى فاعترتني صباة وكاد صميم القلب لا يتقطع
يعني كاد يتقطع. وأنشد الجوهري لزيادة «لا» قول العجاج:

في بئر لا حور سرى وما شعر بإفكه حتى رأى الصبح جشر
والحور الهلكة؛ يعني في بئر هلكة، و«لا» زائدة للتوكيد؛ قاله أبو عبيدة وغيره.
والكلام ليس فيه معنى الجحد. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام
الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «البلد».

قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، الظاهر أن أمره المذكور في هذه الآية هو المذكور
في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾
[الأعراف: ١٤٢]، وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب؛ لأنه أطلق اسم
المعصية على عدم امتثال الأمر، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة: كقوله تعالى:
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]،
وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾
[الأحزاب: ٣٦] فجعل أمره وأمر رسول الله ﷺ مانعاً من الاختيار، موجباً للامتثال. وقوله
تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فوبخه هذا التوبيخ الشديد على عدم
امتثال الأمر المدلول عليه بصيغة إفعال في قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].
وجماهير الأصوليين على أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب للأدلة التي
ذكرنا وغيرها مما هو مماثل لها؛ وإلى ذلك أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وافعل لدى الأكثر للوجوب وقيل للندب أو المطلوب إلخ
قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِالْحَقِّ وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هارون قال
لأخيه موسى ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِالْحَقِّ وَلَا بِرَأْسِي﴾ وذلك يدل على أنه لشدة غضبه أراد أن

يمسك برأسه ولحيته. وقد بين تعالى في «الأعراف» أنه أخذ برأسه يجره إليه؛ وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ من بقية كلام هارون؛ أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وأن تقول لي لم لم ترقب قولي! أي لم تعمل بوصيتي وتمثل أمري.

تنبيه: هذه الآية الكريمة بضميمة آية «الأنعام» إليها تدل على لزوم إعفاء اللحية، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾... الآية [الأنعام: ٨٤]، ثم إنه تعالى قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فدل ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاعتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمر لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه! كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة «المائدة». وقد قدمنا هناك أنه ثبت في صحيح البخاري: أن مجاهداً سأل ابن عباس من أين أخذت السجدة في «ص» قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاعتداء بهم في سورة «الأنعام»، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة، وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي﴾؛ لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته تبين لك من ذلك بإيضاح أن إعفاء اللحية من السمات التي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

والعجب من الذين مسخت ضمائرهم، واضمحل ذوقهم، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة، إلى خنوثة الأنوثة، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية. وقد كان ﷺ كثر اللحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها: ليس فيهم حائق. نرجو الله أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

أما الأحاديث النبوية الدالة على إعفاء اللحية، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك، وقصدنا هنا أن نبين دليل ذلك من القرآن. وإنما قال هرون لأخيه: ﴿يَبْنُومُ﴾ لأن قرابة الأم أشد عطفاً وحناناً من قرابة الأب. وأصله يا بنؤمي بالإضافة إلى ياء المتكلم، ويطرد حذف الياء وإبدالها ألفاً وحذف الألف المبدلة منها كما هنا، وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله:

وفتح أو كسر وحذف اليا استمر في يا بنؤم يا بن عم لا مفر
وأما ثبوت ياء المتكلم في قول حرملة بن المنذر:

يا بنؤمي ويا شقيق نفسي أنت خليتني لدهر شديد

فلغة قليلة. وقال بعضهم: هو لضرورة الشعر. وقوله: ﴿يَبْنُؤُمْ﴾ قرأه ابن عامر
وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي بكسر الميم. وقرأه الباقون بفتحها. وكذلك قوله في
«الأعراف»: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

بين - جلّ وعلا - في هذه الآية أن العجل الذي صنعه السامري من حلي القبط لا
يمكن أن يكون إلهاً؛ وذلك لأنه حصر الإله؛ أي المعبود بحق بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي أداة
حصر على التحقيق في خالق السموات والأرض، الذي لا إله إلا هو؛ أي لا معبود
بالحق إلا هو وحده جلّ وعلا، وهو الذي وسع كل شيء علماً. وقوله: ﴿عِلْمًا﴾ تمييز
محول عن الفاعل، أي وسع علمه كل شيء.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من أنه تعالى هو الإله المعبود بحق دون
غيره، وأنه وسع كل شيء علماً ذكره في آيات كثيرة من كتابه تعالى كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾... الآية
[محمد: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في إحاطة علمه بكل شيء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله تعالى:
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]،
والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾
في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي نقص عليك من أنباء ما سبق قصصاً
مثل ذلك القصص الحسن الحق الذي قصصنا عليك عن موسى وهارون، وعن موسى
وقومه والظاهر أن «من» في قوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعية، ويفهم
من ذلك أن بعضهم لم يقصص عليه خبره، ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى في سورة
«النساء»: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]،
وقوله في سورة «المؤمنين»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقوله في سورة «إبراهيم»: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩]. والأنباء: جمع نبأ؛ وهو الخبر الذي له شأن.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه قص على نبيه ﷺ أخبار الماضين؛ أي ليبين بذلك صدق نبوته؛ لأنه أُمي لا يكتب ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه، بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله في «آل عمران»: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتُمْ بِهِمْ يَكْفُلُ مَرِيضٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران]، أي فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به، وقوله تعالى في سورة «هود» ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُغْلِبِينَ﴾ [هود]، وقوله في «هود» أيضاً: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقوله تعالى في سورة «يوسف» ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكُفُّونَ﴾ [يوسف: ١٢١]، وقوله في «يوسف» أيضاً: ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله في «القصص» ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَاظِ الْفَرَقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله فيها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَاظِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَائِدَتَنَا﴾ [القصص: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات. يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع، فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته. وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي أخبار ما مضى من أحوال الأمم والرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَّيَّنَّاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

أي أعطيناك من عندنا ذكراً وهو هذا القرآن العظيم، وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَهُ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿صَّ ۝ وَالْقُرْآنَ ذِى الذِّكْرِ﴾ [ص: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه: أحدهما: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه تعالى، ففيه التذكير والمواعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

[الزخرف: ٤٤].

واعلم أن الله تعالى سمي كل كتبه ذكراً فقال: ﴿فَتَسْلُتُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]،

اهـ. المراد من كلام الرازي.

ويدل للوجه الثاني في كلامه قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِّذِكْرِهِمْ وَلِتُنْذِرَ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [٣١] **خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا** [٣٢]، ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صد وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال، ونحو ذلك، فإنه يحمل يوم القيامة وزراً، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة؛ سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: قد دلت آيات كثيرة من كتاب الله: على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم؛ أي أثقال ذنوبهم على ظهورهم؛ كقوله في سورة «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعَثَ قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَقْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقوله في «النحل»: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَحِينَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ [النحل: ٢٥]، وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله في «فاطر»: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تعلم أن معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾، وقوله: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾؛ أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها؛ سواء قلنا: إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها، أو غير ذلك كما تقدم إيضاحه. والعلم عند الله. وقد قدمنا عمل «ساء» التي بمعنى بش مراراً؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه، أي في جزائه، وجزاؤه جهنم.

تنبيه: إفراد الضمير في قوله: ﴿أَعْرَضَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ وقوله: ﴿يَحْمِلُ﴾ باعتبار لفظ «من». وأما جمع ﴿خَلِيدِينَ﴾ وضمير لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فباعتبار معنى من كقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يَلْجِزْهُ جَنَّتِي تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الطلاق: ١١]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: اللام في «لهم» ما هي؟ وبم تتعلق؟ قلت: هي للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٥﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم يسألونه عن الجبال، وأمره أن يقول لهم: إن ربه ينسفها نسفًا؛ وذلك بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتهائل الذي يسيل، وكالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا.

واعلم أنه - جلّ وعلا - بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبين أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكها دكًا؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ﴿١٦﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض؛ وذلك في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنْزِعُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَخِيرٍ ۖ ﴿١٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَأَنْفَنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴿١٨﴾﴾ [النمل]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ ﴿١٩﴾... الآية [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ ﴿٢١﴾﴾... [النبأ]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَمُورُ الْآسَمَةَ مَوْرًا ۖ ﴿٢٢﴾ وَسُيِّرُ الْجِبَالَ سَيْرًا ۖ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور].

ثم بين أنه يفتتنها ويدقها كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة]، أي فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة].

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهائل، وكالغن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مُهِيلًا ۖ ﴿٢٦﴾﴾ [المزمل]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۖ ﴿٢٧﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج]، في «المعارج»، والقارعة». والعهن: الصوف المصبوغ؛ ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿٢٤﴾﴾ فكانت هباءً مهبلاً ﴿٢٥﴾﴾ [الواقعة]، ثم بين أنها تصير سرابًا، وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ]، وقد بين في موضع آخر أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩] وبين أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٥﴾﴾.

تنبيه: جرت العادة في القرآن أن الله إذا قال لنبيه ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ قال له: ﴿قُلْ﴾ بغير فاء كقوله: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ قُلِ الرُّوحُ﴾... الآية [الإسراء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾... الآية [البقرة: ٢١٩]، وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ﴾ ... الآية [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية «طه» هذه فقال فيها: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا﴾ بالفاء.

وقد أجاب القرطبي رحمه الله عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾؛ أي عن حال الجبال يوم القيامة، فقل: جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن «قل» بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوكم عن الجبال فقل، فضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال. وتلك أسئلة تقدمت، سألوا عنها النبي ﷺ فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء. وهذا سؤال لم يسأله عنه بعد؛ ففهمه، انتهى منه. وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾.

الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنه راجع إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر. ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، فالضمير فيهما راجع إلى الأرض ولم يجر لها ذكر. وقد بينا شواهد ذلك من العربية والقرآن بإيضاح في سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وثانيهما: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها لأنها مفهومة من ذكر الجبال، والمعنى فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعاً صفصفاً. والقاع: المستوي من الأرض. وقيل: مستنقع الماء. والصفصف: المستوي الأملس الذي لا نبات فيه ولا بناء، فإنه على صف واحد في استوائه، وأنشد لذلك سيويه قول الأعشى:

وكم دون بيتك من صفصف وكذلك رمل وأعقادها
ومنه قول الآخر:

وملومة شهباء لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذا عاد صفصفا
وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾؛ أي لا اعوجاج فيها ولا أمت. والأمت: النتوء اليسير؛ أي ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية، ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد:

فاجر مزت ثم سارت وهي لاهية في كافر ما به أمت ولا شرف
وقول الآخر:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة في كافر ما به أمت ولا عوج
والكافر في البيتين: قيل الليل. وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج. فقالوا: العوج بالكسر في المعاني. والعوج بالفتح في الأعيان. والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقت على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله ﷻ ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقليل فيه: عوج بالكسر، والأمت: التواء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه، وقد قدمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِ يَبْعُوثُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قوله: ﴿يَوْمَذِ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي. والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام التخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه. ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾؛ أي لا يحدون عنه، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً. وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعاً. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ تُكْرِهُونَ﴾ ١ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَعْدَادِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ٢ ﴿مُطْعِمِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ ٣ [القمر]، والإهطاع: الإسراع. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ٤ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ ٥ [ق]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ﴾ ٦ [الإسراء: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾؛ أي خففت وخفتت، ومكنت هبة لله، وإجلالاً وخوفاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ في ذلك اليوم صوتاً عالياً، بل لا تسمع ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً من شدة الخوف. أو ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي إلا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر - والهمس يطلق في اللغة على الخفاء، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام؛ كصوت أخفاف الإبل في الأرض التي فيها يابس النبات، ومنه قول الراجز:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير نك لميسا

وما ذكره - جلّ وعلا - هنا أشار له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) ﴿[النبا]:

وقوله هنا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾... الآية، قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في «مريم» وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٣١).

قوله: ﴿وَعَنَتِ﴾ أي ذلت وخضعت؛ تقول العرب: عنا يعنو عنواً وعناء: إذا ذل وخضع وخشع؛ ومنه قيل للأسير عان؛ لذله وخضوعه لمن أسره. ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد
وقوله أيضاً:

وعنا له وجهي وخلقي كله في الساجدين لوجهه مشكورا

واعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد بالوجوه التي ذلت وخشعت للحي القيوم: وجوه العصاة خاصة وذلك يوم القيامة؛ وأسند الذل والخشوع لوجوههم؛ لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل والخشوع. ومما يدل على هذا المعنى من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية [الملك: ٢٧]، وقوله: ﴿وَوُجُوهُ يُومِئِدُ بَاسِرَةً﴾ (١٤) ﴿تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةً﴾ (١٥) [القيامة]، وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يُومِئِدُ خَشِعَةً﴾ (١) ﴿عَامِلَةً نَاصِبَةً﴾ (٢) ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) [الغاشية]، وعلى هذا القول اقتصر الزمخشري واستدل له ببعض الآيات المذكورة.

وقال بعض العلماء: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾: أي ذلت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا، وذلك بالسجود والركوع، وظاهر القرآن يدل على أن المراد الذل والخشوع لله يوم القيامة؛ لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذل والخشوع لله - جلّ وعلا -.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ فلا بعض العلماء: أي خسر من حمل شركاً، وتدل لهذا القول الآيات القرآنية الدالة على تسمية الشرك ظلماً كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦) [يونس]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات، والأظهر أن الظلم في قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ يعم الشرك وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من الظلم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ الحي: المتصف بالحياة الذي لا يموت أبداً، والقيوم صيغة مبالغة؛ لأنه - جلّ وعلا - هو القائم بتدبير شؤون جميع الخلق. وهو القائم على كل نفس بما كسبت. وقيل: القيوم الدائم الذي لا يزول.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بربه فإنه لا يخاف ظُلماً ولا هَضْماً. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرَجَةً وَإِنَّ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاقِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات، كما قدمنا ذلك.

وفرق بعض أهل العلم بين الظلم والهضم بأن الظلم المنع من الحق كله. والهضم: النقص والمنع من بعض الحق. فكل هضم ظلم، ولا ينعكس. ومن إطلاق الهضم على ما ذكر قول المتوكل الليثي:

إن الأذلة واللئام لمعشر مولا هم المنهضم المظلوم

فالمنهضم: اسم مفعول تهضمه إذا اهتضمه في بعض حقوقه وظلمه فيها، وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير «فلا يخاف» بضم الفاء وبألف بعد الخاء مرفوعاً ولا نافية؛ أي فهو لا يخاف، أو فإنه لا يخاف. وقرأه ابن كثير «فلا يخف» بالجزم من غير ألف بعد الخاء. وعليه «لا» ناهية جازمة للمضارع. وقول القرطبي في تفسيره: إنه على قراءة ابن كثير مجزوم؛ لأنه جواب لقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ - غلط منه ﷺ؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ مانعة من ذلك. والتحقيق هو ما ذكرنا من أن «لا» ناهية على قراءة ابن كثير، والجملة الطلبية جزاء الشرط، فيلزم اقترانها بالفاء؛ لأنها لا تصلح فعلاً للشرط كما قدمناه مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة «الكهف» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن؛ فأرشدته الله في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله ييسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله في «القيامة»: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١٢] فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْفَجَّ قُرْآنَهُ [١٣] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٤] [القيامة]، وقال البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا أبو عوانة قال: حدثنا موسى بن أبي

عائشة قال: حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحَاجِلَ بِهِ﴾ [القيامة]، قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفثيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفثيه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحَاجِلَ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١٢] [القيامة]، قال: جمعه لك في صدرك، ونقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَرْهُ قُرْآنَهُ﴾ [١٣] [القيامة]، قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١٤] [القيامة]، ثم علينا أن نقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع؛ فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَنسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [١٥]. قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾؛ أي أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة، وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله في سورة «البقرة»: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فقلوه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا. وقوله في «الأعراف»: ﴿وَبَكَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ فيه للعلماء وجهان معروفان: أحدهما: أن المراد بالنسيان الترك، فلا ينافي كون الترك عمداً. والعرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [١٧]، فالمراد في هذه الآية: الترك قصداً. وكقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿فَذَوْقُوا يَمًا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذَوْقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسُكُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ تَعْوِينٍ﴾ [الجاثية: ٢٦]. وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي ترك الوفاء بالعهد، وخالف ما أمره الله به من ترك الأكل من تلك الشجرة؛ لأن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده.

والوجه الثاني: هو أن المراد بالنسيان في الآية: النسيان الذي هو ضد الذكر؛ لأن إبليس لما أقسم له بالله أنه له ناصح فيما دعاه إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عنها، غره وخدعه بذلك، حتى أنساه العهد المذكور؛ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ [٢٨] فَذَلَّلْنَاهَا بِفُرُورٍ [٢٩] [الأعراف: ٢١ - ٢٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي. رواه عنه ابن أبي حاتم اهـ. ولقد قال بعض الشعراء:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

أما على القول الأول فلا إشكال في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وأما على الثاني ففيه إشكال معروف؛ لأن الناسي معذور فكيف يقال فيه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وأظهر أوجه الجواب عندي عن ذلك: أن آدم لم يكن معذوراً بالنسيان؛ وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الأدلة الدالة على أن العذر بالنسيان والخطأ والإكراه من خصائص هذه الأمة؛ كقوله هنا: ﴿فَنَسِيَ﴾ مع قوله: ﴿وَعَصَى﴾ فأسند إليه النسيان والعصيان؛ فدل على أنه غير معذور بالنسيان. ومما يدل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: نعم قد فعلت. فلو كان ذلك معفواً عن جميع الأمم لما كان لذكره على سبيل الامتنان وتعظيم المنة عظيم موقع. ويستأنس لذلك بقوله: ﴿كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويؤيد ذلك حديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». فقوله: «تجاوز لي عن أمتي» يدل على الاختصاص بأمته؛ وليس مفهوم لقب؛ لأن مناط التجاوز عن ذلك هو ما خصه الله به من التفضيل على غيره من الرسل. والحديث المذكور وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم، فله شواهد ثابتة في الكتاب والسنة. ولم يزل علماء الأمة قديماً وحديثاً يتلقونه بالقبول.

ومن الأدلة على ذلك حديث طارق بن شهاب المشهور في الذي دخل النار في ذباب قربه مع أنه مكره وصاحبه الذي امتنع من تقرب شيء للصنم ولو ذباباً قتلوه. فدل ذلك على أن الذي قربه مكره؛ لأنه لو لم يقرب لقتلوه كما قتلوا صاحبه، ومع هذا دخل النار فلم يكن إكراهه عذراً، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْدُوكُمْ فِي مَلِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ [الكهف: ٢٠]، فقوله: ﴿يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْدُوكُمْ فِي مَلِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٠]، دليل على الإكراه، وقوله: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ [الكهف: ٢٠]، دليل على عدم العذر بذلك الإكراه؛ كما أوضحنا ذلك في غير هذا الموضع.

واعلم أن في شرعنا ما يدل على نوع من التكليف بذلك في الجملة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرَّرَ رَبُّهُ﴾ ... الآية [النساء: ٩٢]. فتحرير الرقبة هنا كفارة لذلك القتل خطأ، والكفارة تشعر بوجود الذنب في الجملة؛ كما يشير إلى ذلك قوله في كفارة القتل خطأ: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢]، فجعل صوم الشهرين بدلاً من العتق عند العجز عنه. وقوله بعد ذلك: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]، يدل على أن هناك مؤاخظة في الجملة بذلك الخطأ، مع قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وما قدمنا من حديث مسلم: أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: نعم قد فعلت، فالمؤاخظة التي هي الإثم مرفوعة والكفارة

المذكورة؛ قال بعض أهل العلم: هي بسبب التقصير في التحفظ والحذر من وقوع الخطأ والنسيان، والله - جلّ وعلا - أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؛ هو ونحوه من الآيات مستند من قال من أهل الأصول بعدم عصمة الأنبياء من الصغائر التي لا تتعلق بالتبليغ؛ لأنهم يتداركونها بالتوبة والإنابة إلى الله حتى تصير كأنها لم تكن.

واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - في كل ما يتعلق بالتبليغ. واختلفوا في عصمتهم من الصغائر التي لا تعلق لها بالتبليغ اختلافاً مشهوراً معروفاً في الأصول، ولا شك أنهم صلوات الله عليهم وسلامه إن وقع منهم بعض الشيء فإنهم يتداركونه بصدق الإنابة إلى الله حتى يبلغوا بذلك درجة أعلى من درجة من لم يقع منه ذلك؛ كما قال هنا: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِزًّا﴾؛ يدل على أن أبانا آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس من الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَصْبَحَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: هم جميع الرسل. وعن ابن عباس وقتادة ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِزًّا﴾ أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ومواظبة على التزام الأمر. وأقوال العلماء راجعة إلى هذا، والوجود في قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ﴾ قال أبو حيان في البحر: يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومفعولاه: ﴿لَمْ عِزًّا﴾ وأن يكون نقيض العدم؛ كأنه قال: وعدمنا له عزماً اه منه. والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، أي أبى أن يسجد؛ فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار. وذكر عنه الإباء أيضاً في «الحجر» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]. وقوله في آية «طه» هذه التي هي قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤]، أي أبى أن يكون مع الساجدين، كما صرح به في «الحجر» وكما أشار إلى ذلك في «الأعراف» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وذكر عنه في سورة «ص» الاستكبار وحده في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ١٧]. وذكر عنه الإباء والاستكبار معاً في سورة «البقرة» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقد بينا في سورة «البقرة» سبب استكباره في زعمه وأدلة بطلان شبهته في زعمه المذكور. وقد بينا في سورة «الكهف» كلام العلماء فيه؛ هل أصله ملك من الملائكة أو لا؟

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ صرح في غير هذا الموضع أن السجود المذكور سجد الملائكة كلهم أجمعون لا بعضهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢٠) إِلَّا إِبْلِيسَ... الآية [الحجر: ٣٠، ٣١].

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَدَبَّرُونَ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَانِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩).

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَانِكَ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في «الكهف» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَشْفَى﴾ أي فتتعب في طلب المعيشة بالكد والاكْتِسَاب؛ لأنه لا يحصل لقمة العيش في الدنيا بعد الخروج من الجنة حتى يحرث الأرض، ثم يزرعها، ثم يقوم على الزرع حتى يدرك، ثم يدرسه، ثم ينقيه، ثم يطحنه، ثم يعجنه، ثم يخبزه، فهذا شقاؤه المذكور.

والدليل على أن المراد بالشقاء في هذه الآية: التعب في اكتساب المعيشة قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) يعني احذر من عدوك أن يخرجك من دار الراحة التي يضمن لك فيها الشبع والري، والكسوة والسكن. قال الزمخشري: وهذه الأربعة هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، فذكره استجماعاً له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا. وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظما والضحو؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذرته منها، حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها، اهـ.

فقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨)؛ قرينة واضحة على أن الشقاء المحذر منه تعب الدنيا في كد المعيشة ليدفع به الجوع والظما والعري والضحاء. والجوع معروف، والظما: العطش. والعري بالضم: خلاف اللبس.

وقوله: ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ أي لا تصير بارزاً للشمس، ليس لك ما تستكن فيه من حرها، تقول العرب: ضحى يضحى، كرضي يرضى. وضحى يضحى كسعى يسعى إذا كان بارزاً لحر الشمس ليس له ما يكتنه منه. ومن هذا المعنى قول عمر بن أبي ربيعة: رأت رجلاً أيماً إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخضر

وقول الآخر:

ضحيت له كي أستظل بظله إذا الظل أضحى في القيامة قالصا

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا نافعاً وشعبة عن عاصم ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ بفتح همزة «أن»، والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها معطوف على المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ﴾ أي وإن لك أنك لا تظماً فيها ولا تضحى. ويجوز في المصدر المعطوف المذكور النصب والرفع، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وجائز زفعلك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكمل

وإيضاح تقدير المصدرين المذكورين: إن لك عدم الجوع فيها، وعدم الظم.

تنبيه: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب نفقة الزوجة على زوجها؛ لأن الله لما قال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾؛ بخطاب شامل لآدم وحواء، ثم خص آدم بالشقاء دونها في قوله: ﴿فَتَشَقَّ﴾ دل ذلك على أنه هو المكلف بالكد عليها وتحصيل لوازم الحياة الضرورية لها: من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقى يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج. فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية. وأعلمنا في هذه الآية: أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن. فإذا أعطاهما هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور. فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها؛ لأن بها إقامة المهجة، اه منه.

وذكر في قصة آدم أنه لما أهبط إلى الأرض أهبط إليه ثور أحمر وحبات من الجنة، فكان يحرق على ذلك الثور ويمسح للعرق عن جبينه وذلك من الشقاء المذكور في الآية.

والظاهر أن الذي في هذه الآية الكريمة من البديع المعنوي في اصطلاح البلاغيين، هو ما يسمى «مراعاة النظير»، ويسمى «التناسب والائتلاف». والتوفيق والتلفيق؛ فهذه كلها أسماء لهذا النوع من البديع المعنوي. وضابطه: أنه جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد كقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن]، فإن الشمس والقمر متناسبان لا بالتضاد. وكقول البحري يصف الإبل الأنساء المهازيل، أو الرماح:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

وبين الأسهم والقسي المعطفات والأوتار مناسبة في الرقة وإن كان بعضها أرق من بعض، وهي مناسبة لا بالتضاد. وكقول ابن رشيق:

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويه السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

فقد ناسب بين الصحة والقوة، والسماع والخبر المأثور، والأحاديث والرواية، وكذا ناسب بين السيل والحيا وهو المطر، والبحر وكف الأمير تميم، وكقول أسيد بن عتقاء الفزاري:

كأن الثريا علقت في جبينه وفي خده الشعري وفي وجهه البدر

فقد ناسب بين الثريا والشعري والبدر، كما ناسب بين الجبين والوجنة والوجه، وأمثلة هذا النوع كثيرة معروفة في فن البلاغة.

وإذا علمت هذا فاعلم أنه - جل وعلا - ناسب في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ بين نفي الجوع المتضمن لنفي الحرارة الباطنية والألم الباطني الوجداني، وبين نفي العري المتضمن لنفي الألم الظاهري عن أذى الحر والبرد، وهي مناسبة لا بالتضاد، كما أنه تعالى ناسب في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾؛ بين نفي الظمأ المتضمن لنفي الألم الباطني الوجداني الذي يسببه الظمأ، وبين نفي الضحي المتضمن لنفي الألم الظاهري الذي يسببه حر الشمس ونحوه كما هو واضح.

بما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن في الآية المذكورة ما يسمى قطع النظر عن النظر، وأن الغرض من قطع النظر عن النظر المزعوم تحقيق تعداد هذه النعم وتكثيرها؛ لأنه لو قرن النظر بنظيره لأوهم أن المعدودات نعمة واحدة، ولهذا قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة، مع ما بين ذلك من التناسب. وقالوا: ومن قطع النظر المذكور قول امرئ القيس:

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسب الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد من قوله: «لخيلي كري كرة» وقطع «تبطن الكاعب» عن شرب «الزق الروي» مع التناسب في ذلك. وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، كله كلام لا حاجة له لظهور المناسبة بين المذكورات في الآية كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾، الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي. ويقال لهمس الصائد والكلاب، وصوت الحلي: وسواس. والوسوس بكسر الواو الأولى مصدر، وفتحها الاسم، وهو أيضاً من أسماء الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس] ويقال لحديث النفس: وسواس ووسوسة. ومن إطلاق الوسواس على صوت الحلي قول الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ومن إطلاقه على همس الصائد قول ذي الرمة:
فبات يشئزه ثأد ويسهره تذبذب الريح والوسواس والهضب
وقول رؤبة:

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق سرا وقد أون تأوين العقق
في الزرب لو يمضغ شرباً ما بصق

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي كلمه كلاماً خفياً فسمعه منه آدم وفهمه. والدليل على أن الوسوسة

المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الآية. فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة. وقد أوضح هذا في سورة «الأعراف» وبين أنه وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ اتَّصَحَّيْتُ ۖ فَذَلَّيْهُمَا يَبْغُرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠- ٢٢]؛ لأن تصريحه تعالى في آية «الأعراف» هذه بأن إبليس قاسمهما؛ أي حلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب دليل واضح على أن الوسوسة المذكورة كلام مسموع. واعلم أن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالاً معروفاً، وهو أن يقال: إبليس قد أخرج من الجنة صاغراً مذموماً مدحوراً، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم؟ والمفسرون يذكرون في ذلك قصة الحية، وأنه دخل فيها فأدخلته الجنة، والملائكة الموكلون بها لا يشعرون بذلك. وكل ذلك من الإسرائيليات. والواقع أنه لا إشكال في ذلك، لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريباً من طرفها بحيث يسمع آدم كلامه وهو في الجنة، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه، لا لكرامة إبليس. فلا محال عقلاً في شيء من ذلك. والقرآن قد جاء بأن إبليس كلم آدم، وحلف له حتى غره وزوجه بذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها يكون في زعمه الكاذب خالداً لا يموت ولا يزول، وكذلك يكون له في زعمه ملك لا يبلى أي لا يفنى ولا ينقطع. وقد قدمنا أن قوله هنا: ﴿وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾ يدل لمعنى قراءة من قرأ (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام. وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، هو معنى قوله في «طه»: ﴿هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾.

والحاصل أن إبليس لعنه الله كان من جملة ما وسوس به إلى آدم وحواء أنهما إن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها نالا الخلود والملك، وصارا ملكين، وحلف لهما أنه ناصح لهما في ذلك. يريد لهما الخلود والبقاء والملك فدلّاهما بغرور. وفي القصة: أن آدم لما سمعه يحلف بالله اعتقد من شدة تعظيمه لله أنه لا يمكن أن يحلف به أحد على الكذب، فأنساه ذلك العهد بالنهي عن الشجرة.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف عدى فعل الوسوسة في «طه» بالي في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ مع أنه عداه في «الأعراف» باللام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة: أحدها: أن حروف الجر يخلف بعضها بعضاً، فاللام تأتي بمعنى إلى كعكس ذلك.

قال الجوهري في صحاحه: وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ يريد إليهما، ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل، اهـ. وتبعه ابن منظور في اللسان. ومن

الأجوبة عن ذلك: إرادة التضمين، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: فإن قلت: كيف عدى «وسوس» تارة باللام في قوله: ﴿وَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وأخرى بـ«إلى»؟ قلت: وسوسة الشيطان كولوثة الثكلي، ووعوة الذئب، ووقوفة الدجاجة، في أنها حكايات للأصوات، وحكمها حكم صوت وأجرس؛ ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق

فإذا قلت: وسوس له؛ فمعناه لأجله، كقوله:

أجرس لها يا ابن أبي كباش فما لها الليلة من إنفاس
غير السرى وسائق نجاش

ومعنى: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ أنهى إليه الوسوسة، كقوله: حدث إليه وأسر إليه، اه منه. وهذا الذي أشرنا إليه هو معنى الخلاف المشهور بين البصريين والكوفيين في تعاقب حروف الجر؛ وإتيان بعضها مكان بعض هل هو بالنظر إلى التضمين، أو لأن الحروف يأتي بعضها بمعنى بعض؟ وسنذكر مثلاً واحداً من ذلك يتضح به المقصود؛ فقوله تعالى مثلاً: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾... الآية [الأنبياء: ٧٧]، على القول بالتضمين. فالحرف الذي هو «من» وارد في معناه لكن «نصر» هنا مضمنة معنى الإنجاء والتخليص، أي أنجينا وخلصناه من الذين كذبوا بآياتنا. والإنجاء مثلاً يتعدي بمن. وعلى القول الثاني ف«نصر» وارد في معناه، لكن «من» بمعنى على، أي نصرناه على القوم الذين كذبوا الآية، وهكذا في كل ما يشاكله.

وقد قدمنا في سورة «الكهف» أن اختلاف العلماء في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها اختلاف لا طائل تحته، لعدم الدليل على تعيينها، وعدم الفائدة في معرفة عينها. وبعضهم يقول: هي السنبلة. وبعضهم يقول: هي شجرة الكرم. وبعضهم يقول: هي شجرة التين، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، الفاء في قوله: ﴿فَأَكَلَا﴾ تدل على أن سبب أكلهما هو وسوسة الشيطان المذكورة قبله في قوله: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي فأكلا منها بسبب تلك الوسوسة. وكذلك الفاء في قوله: ﴿فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا﴾؛ تدل على أن سبب ذلك هو أكلهما من الشجرة المذكورة، فكانت وسوسة الشيطان سبباً للأكل من تلك الشجرة، وكان الأكل منها سبباً لبدو سوء أتهما. وقد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه) أن الفاء تدل على التعليل كقولهم: سها فسجد، أي لعله سهوه. وسرق فقطعت يده، أي لعله سرقته، كما قدمناه مراراً، وكذلك قوله هنا: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُ مِنْ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةٍ خُلِدٍ وَمِنْ لَيْلٍ لَا يَبْلُغُ﴾... ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾؛ أي بسبب تلك الوسوسة فبدت لهما

سوءاتهما، أي بسبب ذلك الأكل، ففي الآية ذكر السبب وما دلت عليه الفاء هنا كما بينا من أن وسوسة الشيطان هي سبب ما وقع من آدم وحواء جاء مبيناً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فصرح بأن الشيطان هو الذي أزلهما. وفي القراءة الأخرى «فأزالهما» وأنه هو الذي أخرجهما مما كانا فيه، أي من نعيم الجنة، وقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية «طه» هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله فيها أيضاً: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوءاتهما أي عوراتهما. وسميت العورة سوءاً؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصاروا يحاولون ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال هنا: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، وقال في «الأعراف»: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾... الآية [الأعراف: ٢٢].

وقوله: ﴿وَطُفِقَا﴾ أي شرعاً؛ فهي من أفعال الشروع، ولا يكون خبر أفعال الشروع إلا فعلاً مضارعاً غير مقترن بـ«أن» وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله:

وترك أن مع ذي الشروع وجبا

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق

فمعنى قوله: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي شرعاً يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليسترا به عوراتهما. والعرب تقول: خصف النعل يخصفها: إذا خرزها. وخصف الورق على بدنه: إذا ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة. وكثير من المفسرين يقولون: إن ورق الجنة التي طفق آدم وحواء يخصفان عليهما منه إنه ورق التين، والله تعالى أعلم.

واعلم أن الستر الذي كان على آدم وحواء، وانكشف عنهما لما ذاقا الشجرة اختلف العلماء في تعيينه.

فقال جماعة من أهل العلم: كان عليهما لباس من جنس الظفر؛ فلما أكلا من الشجرة أزاله الله عنهما إلا ما أبقي منه على رؤوس الأصابع. وقال بعض أهل العلم: كان لباسهما نوراً يستر الله به سوءاتهما. وقيل: لباس من ياقوت، إلى غير ذلك من

الأقوال. وهو من الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه كما قدمنا كثيراً من أمثلة ذلك في سورة «الكهف». وغاية ما دل عليه القرآن أنهما كان عليهما لباس يسترهما الله به؛ فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما. ويمكن أن يكون اللباس المذكور الظفر أو النور، أو لباس التقوى، أو غير ذلك من الأقوال المذكورة فيه.

وأسند - جلّ وعلا - إبداء ما وورى عنهما من سوءاتهما إلى الشيطان قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمَا مَا وُورِيَ عَنْكُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، كما أسند له نزع اللباس عنهما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، لأنه هو المتسبب في ذلك بوسوسته وتزيينه كما قدمناه قريباً، وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف جعل سبب الزلة في هذه الآية وهو وسوسة الشيطان مختصاً بآدم دون حواء في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ مع أنه ذكر أن تلك الوسوسة سببت الزلة لهما معاً كما أوضحناه.

والجواب ظاهر، وهو أنه بين في «الأعراف» أنه وسوس لحواء أيضاً مع آدم في القصة بعينها في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَكُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فبينت آية «الأعراف» ما لم تبينه آية «طه» كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

مسألة: أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة وجوب ستر العورة؛ لأن قوله: ﴿وَلَوْفَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، يدل على قبح انكشاف العورة، وأنه ينبغي بذل الجهد في سترها. قال القرطبي رحمته الله في تفسيره في سورة «الأعراف» ما نصه: وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣]. وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي: أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة، عليه التستر بها كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم، انتهى كلام القرطبي.

ووجوب ستر العورة في الصلاة مجمع عليه بين المسلمين. وقد دلت عليه نصوص من الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ ءَادَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكبعثه عليه السلام من ينادي عام حج أبي بكر بالناس عام تسع: «ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». وكذلك لا خلاف بين العلماء في منع كشف العورة أمام الناس، وسيأتي بعض ما يتعلق بهذا إن شاء الله في سورة «النور».

فإن قيل: لم جمع السوءات في قوله: ﴿سَوَاتِهِمَا﴾ مع أنهما سواتان فقط؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن آدم وحواء كل واحد منهما له سوءتان: القبل والدبر، فهي أربع، فكل منهما يرى قبل نفسه وقبل الآخر، ودبره، وعلى هذا فلا إشكال في الجمع.

الوجه الثاني: أن المثنى إذا أضيف إليه شيان هما جزاءه جاز في ذلك المضاف الذي هو شيان الجمع والتثنية، والإفراد، وأفصحها الجمع، فالإفراد، فالتثنية على الأصح، سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى. ومثال اللفظ: شويت رؤوس الكشين أو رأسهما أو رأسيهما، ومثال المعنى: قطعت من الكشين الرؤوس، أو الرأس، أو الرأسين. فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد، نحو: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الذي هو الأفصح قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ومثال الإفراد قول الشاعر:

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها
ومثال التثنية قول الراجز:

ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
وللضماير الراجعة إلى المضاف المذكور المجموع لفظاً وهو مثنى معنى يجوز فيها الجمع نظراً إلى اللفظ، والتثنية نظراً إلى المعنى، فمن الأول قوله:
خليلي لا تهلك نفوسكما أسي فإن لها فيما به دهيت أسي
ومن الثاني قوله:

قلوبكما يغشاهما الأمن عادة إذا منكما الأبطال يغشاهم الذعر
الوجه الثالث: ما ذهب إليه مالك بن أنس من أن أقل الجمع اثنان. قال في (مراقي السعود):

أقل معنى الجمع في المشتهر الاثنان في رأى الإمام الحميري
وأما إن كان الاثنان المضافان منفصلين عن المثنى المضاف إليه، أي كانا غير جزءيه فالقياس الجمع وفاقاً للفراء، كقولك: ما أخرجكما من بيوتكما، وإذا أوتما إلى مضاجعكما، وضرباه بأسياهما، وسألنا عن إنفاقهما على أزواجهما، ونحو ذلك.
قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

المعصية خلاف الطاعة. فقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ أي لم يطعه في اجتناب ما نهاه عنه من قربان تلك الشجرة.

وقوله: ﴿فَغَوَى﴾ الغي: الضلال، وهو الذهاب عن طريق الصواب، فمعنى الآية: لم يطع آدم ربه فأخطأ طريق الصواب بسبب عدم الطاعة، وهذا العصيان والغى بين الله - جلّ وعلا - في غير موضع من كتابه أن المراد به أن الله أباح له أن يأكل هو وامرأته من الجنة رغداً حيث شاءا، ونهاهما أن يقربا شجرة معينة من شجرها؛ فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ويحلف لهما بالله إنه لهما لناصح، وإنهما إن أكلا منها نالا الخلود والملك الذي لا يبلى، فخدعهما بذلك كما نصّ الله على ذلك في قوله:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ١٢١ ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٢] فأكلا منها، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا؛ وهو مروى عن عمر. وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي والحاكم: «المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم». وأنشد لذلك نبطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع

فأدم ١٢٢ ما صدرت منه الزلة إلا بسبب غرور إبليس له. وقد قدمنا قول بعض أهل العلم: إن آدم من شدة تعظيمه لله اعتقد أنه لا يمكن أن يحلف به أحد وهو كاذب، فأنساه حلف إبليس بالله العهد بالنهي عن الشجرة. وقول بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿فَفَوَّيْ﴾ أي فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا.

قالوا: والغي: الفساد، خلاف الظاهر وإن حكاه النقاش واختاره القشيري واستحسنه القرطبي. وكذلك قول من قال: ﴿فَفَوَّيْ﴾ أي بشم من كثرة الأكل. والبشم: التخمة، فهو قول باطل. وقال فيه الزمخشري في الكشاف: وهذا وإن صح على لغة من يقبل الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في فني وبقي، فنا وبقا، وهم بنو طيء، تفسير خبيث، أهر منه. وما أشار إليه الزمخشري من لغة طيء معروف؛ فهم يقولون للجارية: جارة، وللناصية ناصاة، ويقولون في بقي: بقي، كرمى. ومن هذه اللغة قول الشاعر:

لعمرك لا أخشى التصعلك ما بقي على الأرض قيسي يسوق الأباعرا

وهذه اللغة التي ذكرها الزمخشري لا حاجة لها في التفسير الباطل المذكور؛ لأن العرب تقول: غوى الفصيل كرضى وكرمى: إذا بشم من اللبن.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾ يدل على أن معنى «غوى» ضل عن طريق الصواب كما ذكرنا. وقد قدمنا أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن هي حجة من قال بأن الأنبياء غير معصومين من الصغائر. وعصمة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - مبحث أصولي لعلماء الأصول فيه كلام كثير واختلاف معروف، ومن أراد الوقوف على طرف منه يرجع إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيه:

أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لم يقع منهم ما يزرى بمراتبهم العلية، ومناصبهم السامية. ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصاً فيهم - صلوات الله وسلامه عليهم - ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة، والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك، ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَفَوَّيْ ثُمَّ لَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ١٢٣؛ فانظر أي أثر يبقى للعصيان والغي بعد توبة الله عليه، واجتباؤه أي اصطفاؤه إياه، وهدايته له، ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَاهُ رَيْثُ قَابٍ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ﴾. الاجتباء: الاصطفاء والاختيار؛ أي ثم بعد ما صدر من آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره قتاب عليه وهداه إلى ما يرضيه. ولم يبين هنا السبب لذلك، ولكنه بين في غير هذا الموضع أنه تلقى من ربه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه، وذلك في قوله: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ قَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء. وقد قدمنا في سورة «البقرة»: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَكُ تَقْوِيرٌ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. الظاهر أن ألف الاثنين في قوله ﴿أَهْبِطُوا﴾ راجعة إلى آدم وحواء المذكورين في قوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ نَفْسِهِمَا﴾... الآية، خلافاً لمن زعم أنها راجعة إلى إبليس وادم، وأمره إياهما بالهبوط من الجنة المذكور في آية «طه» هذه جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله في سورة «البقرة»: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٣٦]، وقوله فيها أيضاً: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف جيء بصيغة الجمع في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، في «البقرة» و«الأعراف» وبصيغة التثنية في «طه» في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ مع أنه أتبع صيغة التثنية في «طه» بصيغة الجمع في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، وأظهر الأجوبة عندي عن ذلك أن التثنية باعتبار آدم وحواء فقط، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما، خلافاً لمن زعم أن التثنية باعتبار آدم وإبليس، والجمع باعتبار ذريتهما معهما، وخلافاً لمن زعم أن الجمع في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ مراد به آدم وحواء وإبليس والحية، والدليل على أن الحية ليست مراده في ذلك هو أنها لا تدخل في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] لأنها غير مكلفة. وهناك جملة من أحكام قتل الحيات من أراد الوقوف عليها يرجع للأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، على ما ذكرنا أنه الأظهر، فالمعنى أن بعض بني آدم عدو لبعضهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَلِسْكُمْ شَيْعًا وَيُلْقِيَنَّ بَعْضُكُمْ بِأَسْ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ونحوها من الآيات. وعلى أن المراد بقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ آدم وإبليس، فالمعنى أن إبليس وذريته أعداء لآدم وذريته؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَسْخُدُونَهُ وَذَرَيْنَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

الظاهر أن الخطاب لبني آدم؛ أي فإن يأتكم مني هدى أي رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي من آمن برسلي وصدق بكلامي، وامثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على السنة رسلي؛ فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذكر في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿فَأَمَّا يَاثِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبونا من الجنة لا يرد إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالثكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به؛ كما تقدمت الإشارة إليه في سورة «البقرة».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾. قد قدمنا في سورة «الكهف» في الكلام على قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، الآيات الموضحة نتائج الإعراض عن ذكر الله تعالى الوخيمة؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقد قدمنا هناك أن منها المعيشة الضنك، واعلم أن الضنك في اللغة: الضيق؛ ومنه قول عنترة:

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل
وقوله أيضاً:

إن المنية لو تمثل مثلث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وأصل الضنك مصدر وصف به، فيستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع. وبه تعلم أن معنى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أي عيشاً ضيقاً والعياذ بالله تعالى.

واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً. وقد قدمنا مراراً أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة، ومن الأقوال في ذلك أن معنى ذلك أن الله ﷻ جعل مع الدين التسليم والقناعة، والتوكل على الله، والرضا بقسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسمح وسهولة، فيعيش عيشاً هنيئاً. ومما يدل على هذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً﴾ ... الآية [النحل: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ... الآية [هود: ٣]، كما تقدم إيضاح ذلك كله.

وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة. ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ

وَالْمَسْكَنَةُ وَيَبْأُو يُضَضِّبُ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [البقرة: ٦١]. وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله. وبين في مواضع آخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فطاعوه تعالى أن عيشهم بصير واسعاً ورغداً لا ضنكاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا أُزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وكقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَمِنْ وَجْهِ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَبَلٌ لَكُمْ أَنْهَارٌ ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١١﴾ لَتَفْنِينَ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن الحسن أن المعيشة الضنك: هي طعام الضريع والزقوم يوم القيامة، وذلك مذكور في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿١﴾﴾ [الغاشية]، وقوله: ﴿إِنَّ سَجَرَتِ الزَّقْوِمِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ لِلْإِيمَانِ ﴿٤٤﴾﴾ الآية [الدخان]، ونحو ذلك من الآيات. وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار: المعيشة الضنك: الكسب الحرام، والعمل السيئ. وعن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة: المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطته. وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: قد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر. وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية. ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا. وطعام الضريع والزقوم، فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة، والعياذ بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى، قال مجاهد وأبو صالح والسدي أعمى أي لا حجة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شيء إلا جهنم. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وقد ذكرنا أمثلة متعددة لذلك. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على خلاف قول مجاهد وأبي صالح والسدي وعكرمة، وأن المراد بقوله: ﴿أَعْمَى﴾ أي أعمى البصر لا يرى شيئاً، والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾؛ فصرح بأن عماء هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين؛ لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله، وقد زاد - جلّ وعلا - في

سورة «بني إسرائيل» أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَنَكَّمَٰ وَصُمًّا مَّاؤَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

تنبيه: في آية «طه» هذه وآية «الإسراء» المذكورتين إشكال معروف، وهو أن يقال: إنهما قد دلتا على أن الكافر يحشر يوم القيامة أعمى، وزادت آية «الإسراء» أنه يحشر أبكم أصم أيضاً، مع أنه دلت آيات من كتاب الله على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويسمعون ويتكلمون؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقة؛ ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره. وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه وسمعون ويبصرون منزلة العدم لعدم الانتفاع به؛ كما أوضحناه في غير هذا الموضع. ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه. ألا ترى أن الله يقول في المنافقين: ﴿مُتَّ بِكُمْ عُمَىٰ...﴾ الآية [البقرة: ١٨]، مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْحَافِرُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ويقول فيهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ويقول فيهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء؛ فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، ومن ذلك قول قعنب ابن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
وقول الآخر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد
وقول الآخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء
ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه، وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج - قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، وعلى هذا القول تكون الأحوال الخمسة مقدرة: أعني قوله في «طه»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، وقوله فيها: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾، وقوله في «الإسراء»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وأظهرها عندي الأول. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾؛ من النسيان بمعنى الترك عمداً كما قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المفسرفين ذلك الجزاء المذكور، وقد دل مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعله إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي، وبين في غير هذا الموضع أن جزاء الإسراف النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]، وبين في موضع آخر أن محل ذلك إذا لم ينبؤوا إلى الله ويتوبوا إليه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾... الآية [الزمر: ٥٣ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ وَأَلَمُّ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عذاب الآخرة أشد وأبقى؛ أي أشد ألماً وأدوم من عذاب الدنيا، ومن المعيشة الضنك التي هي عذاب القبر، وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾... الآية.

تقدم بعض الآيات الموضحة له في سورة «مريم» وسيأتي له بعد هذا - إن شاء الله - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾.

أظهر الأقوال عندي في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على عاداتهم في التعنت آية على النبوة كالعصا واليد من آيات موسى، وكناقة صالح، واقترحهم لذلك بحرف التحضيض الدال على شدة الحُض في طلب ذلك في قوله: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية كناقة صالح، وعصا موسى، أي نطلب ذلك منه بحض وحث. فأجابهم الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ وهي هذا القرآن العظيم؛ لأنه

آية هي أعظم الآيات وأدلها على الإعجاز. وإنما عبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بيّنة ما في الصحف الأولى؛ لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع الكتب المنزلة من الله تعالى، فهو بيّنة واضحة على صدقها وصحتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَيِّنٍ سِرِّيَّاتِ أَكْثَرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية على هذا التفسير الذي هو الأظهر أوضحه - جلّ وعلا - في سورة «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٥] أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٦] «العنكبوت».

فقوله في «العنكبوت»: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هو معنى قوله في «طه»: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾؛ كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى، ويزيد ذلك إيضاحاً الحديث المتفق عليه: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما آمن البشر على مثله، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وفي الآية أقوال آخر غير ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ عَائِلَتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَزِلَ وَنَخْرُجَ﴾ [١٣٦]. قد قدمنا في سورة «النساء» أن آية «طه» هذه تشير إلى معناها آية «القصص» التي هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ عَائِلَتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٧] «القصص»، وأن تلك الحجة التي يحتجون بها لو لم يأتهم نذير هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا﴾.

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عناداً وتعنتاً: كل منا ومنكم متربص، أي منتظر ما يحل بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة. وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربصه الكفار كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيُّدِيْنَا فَتَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [٥١] «التوبة»، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُفُوقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾... الآية [التوبة: ٩٨]، إلى غير ذلك من الآيات، والتربص: الانتظار.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار سيعلمون في ثاني حال من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى؛ أي وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك، وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار، والمعنى سيتضح لكم أنا مهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل. وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لما يرونه من نصر الله لنبيه ﷺ.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآيَةُ﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص]، إلى غير ذلك من الآيات والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح. والسوي: المستقيم، وهو الذي لا اعوجاج فيه؛ ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم
و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابٍ﴾ قال بعض العلماء: هي موصولة مفعول به لـ «يعلمون». وقال بعضهم: هي استفهامية معلقة لفعل العلم، كما قدمنا إيضاحه في «مریم» والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في أول سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم، قائلين: إن النبي ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم، فكيف يكون رسولا إليهم؟ والنجوى: الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم أن بشرا مثلهم لا يمكن أن يكون رسولا، وتكذيب الله لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيرا من ذلك كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفُّوا وَقُولُوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ...﴾ الآية [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِنَّا وَحَدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَقِيَ ضَلَّلِي وَسُعُرِي﴾ [القمر] وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخِثِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ

أَلْطَعَامَ وَيَتَشَى فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٧﴾ الآية [الفرقان: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ... الآية [إبراهيم: ١٠]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاح ذلك.

وقد رد الله عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ الآية [الرعد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ ﴿٨﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وجملة ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. قيل بدل من ﴿النَّجْوَى﴾؛ أي أسروا النجوى التي هي هذا الحديث الخفي الذي هو قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم. وصدر به الزمخشري، وقيل: مفعول به للنجوى؛ لأنها بمعنى القول الخفي؛ أي قالوا في خفية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وقيل: معمول قول محذوف؛ أي قالوا: هل هذا إلا بشر مثلكم، وهو أظهرها؛ لا طراد حذف القول مع بقاء مقوله، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب معروفة، وأظهرها عندي أنها بدل من الواو في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ بدل بعض من كل، وقد تقرر في الأصول أن بدل البعض من الكل من المخصصات المتصلة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حَيْثُ أَبَيَّتَ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. فقوله: ﴿مِنْ﴾ بدل من «الناس» بدل بعض من كل، وهي مخصصة لوجوب الحج بأنه لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً، كما قدمنا هذا في سورة «المائدة».

قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. إعراب هذه الجملة جار مجرى إعراب الجملة التي قبلها، التي هي ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، والمعنى: أنهم زعموا أن ما جاء به نبينا ﷺ سحر، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون. يعنون بذلك تصديق النبي ﷺ، أي لا يمكن أن نصدقك وتنبعك، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر. وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء به ﷺ سحر، كقوله عن بعضهم: (إن هذا إلا سحر يؤثر)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات]. وقد رد الله عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٢﴾﴾؛ يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم، المحيط علمه بكل شيء، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء، يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام، وسلامته من جميع العيوب والنقائص، وأنه ليس بسحر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ... الآية

[الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْنَا وَأَلَمْ نُحَمِّلِكُم بِهِ مِنْهُ خِفَةً﴾ [النساء: ١٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ بآلف بعد القاف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي، وقرأه الباقون «قُل» بضم القاف وإسكان اللام بصيغة الأمر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. الظاهر أن الإضراب في قوله هنا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ﴾، إضراب انتقالي لا إبطالي؛ لأنهم قالوا ذلك كله، وقال بعض العلماء: كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يشتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا؛ لأن المبطل لا يثبت على قول واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة: كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة «الحجر» في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد رد الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [١] وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ [٢] نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٣] وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ [٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [٥] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [٦] فَمَا يَنْبِكُمْ مِنَ اللَّهِ لَمَّا يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ [٧] خَازِنِينَ [٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ [٩] لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ [١٠]﴾ [يس: ١-١٠]، وقوله في رد دعواهم أنه افتراه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١١] أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٢]﴾ [يونس: ١-١٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٣]﴾ [هود: ١-١٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون: ﴿فَمَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَرُوحًا أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْدٍ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ [٢٢] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِجَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ [٢٣] [المؤمنون: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة إبطال كل ما ادعوه في النبي ﷺ والقرآن. وقوله: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمَ﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفد فد تفرق للشاري وأضغاث حالم

وعن البيهقي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله؛ نحو ناقة صالح، وعصا موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإبرائه الأكمه والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾؛ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات. فقولك: أرسل محمد ﷺ كقولك: أتى محمد ﷺ بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا، وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكهم الله بعذاب مستأصل؛ كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَالْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وأشار إلى ذلك هنا في قوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [١١]؛ يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا، فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم عتواً وعناداً؛ فلو جاءكم ما اقترحتم ما أنتم فهلكتم كما هلكوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التفرع والتوبيخ وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٠] أَوْ لَوْ يَكْفِهِمْ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُشَلِّ عَلَيْهِمْ [الأنعام: ٥٠ - ٥١]، وقد ذكرنا أن هذا المعنى يشير إليه قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأَوَّلِ﴾ [طه: ٣٣].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [١١]. بيّن - جلّ وعلا - في هذه الآيات أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم، وأنجى معهم ما شاء أن ينجيهم... والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١١] [يوسف]، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [٤٧] [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَاكُنَّ أَنْظِلِيلِينَ﴾ [١٢] وَلَنَسُجِّنَكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجِئَانَا الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ ١٧ ﴿وَلَهُ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ١٨ [الصفات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والظاهر أن «صدق» تتعدى بنفسها وبالحرف، تقول: صدقته الوعد، وصدقته في الوعد؛ كقوله هنا: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فقول الزمخشري ﴿صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، لا حاجة إليه، والله أعلم. والإسراف: مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١٩. «كم» هنا للإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾؛ أي قصمنا كثيراً من القرى التي كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في مواضع كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكفى بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾... الآية [الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلُهَا فَهَاسَبْنَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا﴾ ٢١ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ ٢٢ [الطلاق]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أصل القصم: أقطع الكسر لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم بالقاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية. والمراد بالقصم في الآية: الإهلاك الشديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ٢٣. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة «الحجر» فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وكذلك قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «بني إسرائيل»، وكذلك الآيات التي بعد هذا قد قدمنا في مواضع متعددة ما يبينها من كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ٢٤ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولداً، وقد بينا ذلك فيما مضى بياناً شافياً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ﷺ عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو ﴿بَلْ﴾ مبيناً أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده. ثم أتى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده، أشار إليه في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَمَسَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِئُونَ﴾ [البقرة]، وقوله في «النساء»: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ يَمَسَّ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الملك ينافي الولدية، ولا يمكن أن يوجد شيء سواه إلا وهو ملك له - جلّ وعلا -.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الثناء الحسن على ملائكته - عليهم صلوات الله وسلامه - بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُكَ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۖ يَصْلَحُونَ مَا تَجْعَلُونَ﴾ [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْصِرُونَ ۖ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] إلى غير ذلك من الآيات.

مسألة: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن الأب إذا ملك ابنه عتق عليه بالملك، ووجه ذلك واضح؛ لأن الكفار زعموا أن الملائكة بنات الله؛ فنفى الله تلك الدعوى بأنهم عباده وملكه. فدل ذلك على منافاة الملك للولدية، وأنهما لا يصح اجتماعهما. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْكَ تَجْرِيهِ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. الضمير في قوله: ﴿وَمَنْ﴾ عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ والمعنى أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركاً، وكان جزاؤه جهنم. ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ...﴾ الآية [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره - جلّ وعلا - هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضاً في شأن الرسل على الجميع - صلوات الله وسلامه - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَجْبُطَنَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر]، ولما ذكر - جلّ وعلا - من ذكر من الأنبياء في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، إلى آخر من ذكر منهم، قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْكَ تَجْرِيهِ جَهَنَّمُ﴾... الآية، دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا. ومما يوضح ذلك

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤَيِّدَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالشُّبُهَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى مخاطباً لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ يَتَّخِذَ الْكِتَابُ مَقَالًا إِلَى كُلِّ مَلَكٍ سَوَاءً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير ﴿أَوَلَمْ يَرِ﴾ بواو بعد الهمزة، وقرأه ابن كثير «ألم ير الذين كفروا» بدون واو، وكذلك هو في مصحف مكة. والاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه، ولا يقدر على شيء.

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ التثنية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، ونظيره قول عمر بن شبيب:

ألم يحزنك أن جبال قس وتغلب قد تباينتا انقطاعاً

والرتق مصدر رتقه رتقاً: إذا سده؛ ومنه الرتقاء. وهي التي انسدت فرجها، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفردته ولم يقل كانتا رتقين. والفتق: الفصل بين الشيئين المتصلين، فهو ضد الرتق. ومنه قول الشاعر:

يهون عليهم إذا يغضبوا ن سخط العداة وإرغامها
ورثق الفتوق وفتق الرتو ق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال، بعضها في غاية السقوط، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم:

الأول: أن معنى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض، فرفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقاً؛ أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقاً ففتقها، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض.

القول الثالث: أن معنى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

الرابع: أنهما ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾؛ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما الله بالنور، وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول، والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه: أن الرق يراد به العدم، والفتق يراد به الإيجاد؛ أي كانتا عدماً فأوجدناهما، وهذا القول كما ترى ظاهر السقوط.

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقاً بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئاً ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات، قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في «رأى» أنها بصرية، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها؛ فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله؛ أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْصُنْعِ ۝﴾ [الطارق]؛ لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَائِفَةٍ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝﴾ [عبس]. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أنها من رأى العلمية لا البصرية. وقالوا: وجه تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه، والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح؛ لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء؛ كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار، اه منه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الظاهر أن «جعل» هنا بمعنى خلق؛ لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والشمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها: لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء أنه كأنما خلقه عن الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه؛ كقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة «جعل» وما جاء منها في القرآن وما لم يجرى فيه في سورة «النحل».

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: لقائل أن يقول: كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان؟ وقد قال: ﴿وَلَمَّا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السُّمُورِ﴾ [الحجر: ١٥]، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال في حق آدم ﴿خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والجواب: اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود. وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وادم وقصة عيسى عليه السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك. اهـ منه.

ثم قال الرازي أيضاً: اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط. وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر؛ لأنه من الماء صار نامياً، وضار فيه الرطوبة والخضرة، والنور والشمس. وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حياً. حجة القول الأول: أن النبات لا يسمى حياً. قلنا: لا نسلم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] انتهى منه أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رُوسًا أَنْ يَمَيْدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾. تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله - جلّ وعلا - جعل السماء سقفاً؛ أي لأنها للأرض كالسقف للبيت.
الثانية: أنه جعل ذلك السقف محفوظاً.

الثالثة: أن الكفار معرضون عما فيها «أي السماء» من الآيات، لا يتعظون به ولا يتذكرون، وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضع.

أما كونه جعلها سقفاً فقد ذكره في سورة «الطور» أنه مرفوع وذلك في قوله: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ وكتب مسطور ﴿١﴾ في رق منشور ﴿٢﴾ والبيت المعمور ﴿٣﴾ والسقف المرفوع ﴿٤﴾ [الطور].

وأما كون ذلك السقف محفوظاً فقد بينه في مواضع من كتابه، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُودَا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٧]، على قول من قال: وما كنا عن الخلق غافلين؛ إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم. وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها كقوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ١]، أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع. وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم كقوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٥]، وقد بينا الآيات الدالة على حفظها من جميع الشياطين في سورة «الحجر».

وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾... الآية [القمر: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَقْنِي إِلَيْنَا إِلْتِدَارُهُمْ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته ﷺ ويقولون: هو شاعر يتربص به رب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك.

وقال بعض أهل العلم: لما نعي جبريل إلى النبي ﷺ نفسه قال: «فمن لأمتي؟» فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾؛ والأول أظهر؛ لأن السورة مكية. ومعنى الآية أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد؛ أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت. وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، والمعنى أنك إن مت

فهم لن يخلدوا بعدك، بل سيموتون؛ ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وما أشار إليه - جل وعلا - في هذه الآية من أنه ﷺ سيموت، وأنهم سيموتون، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَهُم مِّمَّنْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر]، وكقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [١٣] وَبَقِيَ وَرَثَةُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [١٧] [الرحمن]، وقوله في سورة «آل عمران»: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله في سورة «العنكبوت»: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِلُونِ﴾ [٥١] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رُجَعُونَ [٥٧] [العنكبوت]، وقوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّرَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا في سورة «الكهف» استدلال بعض أهل العلم بهذه الآية الكريمة على موت الخضر عليه السلام. وقال بعض أهل العلم في قوله: ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾: هو استفهام حذف أداته؛ أي أفهم الخالدون؟ وقد تقرر في علم النحو أن حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جائز، وهو قياسي عند الأخفش مع «أم» ودونها ذكر الجواب أم لا: فمن أمثله دون «أم» ودون ذكر الجواب قول الكمي:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

يعني: أو ذو الشيب يلعب. وقول أبي خراش الهذلي واسمه خويلد:

رفوني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يعني: أ هم هم على التحقيق. ومن أمثله دون «أم» مع ذكر الجواب قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصى والتراب

يعني: أتحبها على الصحيح. وهو مع «أم» كثير جداً، وأنشد له سيبويه قول الأسود يعفر التميمي:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً شعيت بن سهم أم شعيت بن منقر

يعني: أشعيت بن سهم، ومنه قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

بدا لي منها معصم يوم جمرت وكف خضيب زيتنت ببنان

فو الله ما أدري وإنني لحاسب بسبع رميت الجمر أم بثمان

يعني: أبسبع. وقول الأخطل:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

يعني: أكذبتك عينك. كما نص سيبويه في كتابه على جواز ذلك في بيت الأخطل هذا، وإن خالف في ذلك الخليل قائلًا: إن «كذبتك» صيغة خبرية ليس فيها استفهام محذوف، وإن «أم» بمعنى «بل»؛ ففي البيت على قول الخليل نوع من أنواع البديع

المعنوي يسمى «الرجوع». وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من شواهدا العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» وذكرنا أن قوله تعالى في آية «الأنبياء» هذه ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ من أمثلة ذلك، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَايُن مِتَّ﴾ قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي «مت» بكسر الميم. والباقون بضم الميم. وقد أوضحنا في سورة «مريم» وجه كسر الميم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَايُن مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ يفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته؛ لأنه هو ليس مخلداً بعده. وروي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد هذين البيتين مستشهداً بهما:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تهياً لأخرى مثلها فكأن قد
ونظير هذا قول الآخر:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. المعنى ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لـ «بللوكم» من غير لفظه.

وما ذكره - جلّ وعلا -: من أنه يتلى خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْهَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [١٧] فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٨] فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [١٩] فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقُومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَحِمَّ دَلِيلُ الْغُلَّيْنِ [٢٠] ﴿[الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [٢١] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَاءُ تَا الْأَفْرَاءِ وَالسَّرَّاءِ فَآخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٢] [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلايا، وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخير أبلى يبلي. وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْغَيْرِ﴾ قال: أي نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا رأوا النبي ﷺ ما يتخذونه إلا هزواً، أي مستهزأ به مستخفاً به، والهزؤ: السخرية، فهو مصدر وصف به. ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يعييبها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى، ويقول: إنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن، فالخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ﴾ للنبي ﷺ. و«إن» في قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ نافية. والاستفهام في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ قال فيه أبو حيان في البحر: إنه للإنكار والتعجب.

والذي يظهر لي أنهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنبي ﷺ، كما تدل عليه قرينة قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾. وقد تقرر في فن المعاني أن من الأغراض التي تؤدي بالاستفهام التحقير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن جواب «إذا» هو القول المحذوف، وتقديره: وإذا رآك الذين كفروا يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم. وقال: إن جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جملة معترضة بين ﴿إِذَا﴾ وجوابها. واختار أبو حيان في البحر أن جواب «إذا» هو جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ وقال: إن جواب «إذا» بجملة مصدرة بـ «إن» أو ما النافيتين لا يحتاج إلى الاقتران بالفاء. وقوله: ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يعييبها. ومن إطلاق الذكر بمعنى العيب قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يعييبهم. وقول عنترة:

لا تذكرني مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر

أي لا تعيبي مهري، قاله القرطبي.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة الذكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ انتهى محل الغرض منه. والجملة في قوله: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حالية. وقال بعض أهل العلم: معنى كفرهم بذكر الرحمن هو الموضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان]، وقولهم: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وقد بين ابن جرير الطبري وغيره: أن إنكارهم لمعرفتهم الرحمن تجاهل منهم ومعاندة مع أنهم يعرفون أن الرحمن من أسماء الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهلية الجاهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قطع الرحمن ربي يمينها
وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال: إنها لا تشفع ولا تقرب إلى الله، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به، فهم أحق بأن يتخذوا هزواً من النبي ﷺ الذي اتخذوه هزواً، فإنه محق وهم مبطلون.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضاً مبيناً في سورة «الفرقان» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٢١]، فتحقيرهم لعنهم الله له ﷺ المذكور في قوله في «الأنبياء»: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ هو المذكور في قوله في «الفرقان»: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. وذكره لآلهتهم بالسوء المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾؛ هو المذكور في «الفرقان» في قوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] أي لما يبين من معائبها، وعدم فائدتها، وعظم ضرر عبادتها.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول، فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما، أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته، فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة حميرية؛ كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية خلق الإنسان من طين كقوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾، فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف؛ كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلق فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾

[الروم: ٥٤]، على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾ [الإسراء]، أي ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر، قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد فنزل قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك، كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا؛ فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم، ثم وعدهم بأنه سيربهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ آدم، وعن سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وعن مجاهد والكلبي وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس. والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات، وأظهر الأقوال أن معنى الآية أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه ثم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقمي وحكمي، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون. انتهى منه.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجْهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٣٩]. جواب ﴿لَوْ﴾ في هذه الآية محذوف، وقد قدمنا أدلة ذلك وشواهد من «العربية» في سورة «البقرة»، وأشرنا إليه في سورة «إبراهيم» وسورة «يوسف». ومعنى الآية الكريمة لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدرון على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبيناً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى.

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم، فقد جاءت موضحة في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾... الآية [الأعراف: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ

النَّارَ وَمَنْ خَلَقَ ظُلُمَ اللَّيْلِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿سَرَّابُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَقَعَتْ وَجُوهُهُمْ النَّارَ ﴿٥٥﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿تَلَفَعُ وَجُوهُهُمْ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات، نرجو الله الكريم العظيم أن يعيدنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، إنه قريب مجيب. وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم، جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمْنَا مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [الطارق]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بَلْ هُمْ كَافِرُونَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات]، والآيات في ذلك كثيرة.

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزؤوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به - جاء مبيناً أيضاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٌ أَوْ تَنَارًا مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ يَعْلَمُ﴾ قال بعض أهل العلم: هو فعل متعد، والظاهر أنها عرفانية، فهي تتعدى إلى مفعول واحد؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

لعلم عرفان وظن تهمة تعدية لواحد ملتزمه

وعلى هذا فالمفعول هو قوله: ﴿حِينَ﴾؛ أي لو يعرفون حين وقوع العذاب بهم وما فيه من الفظائع لما استخفوا به واستعجلوه. وعلى هذا فالحين مفعول به لا مفعول فيه؛ لأن العلم الذي هو بمعنى المعرفة واقع على نفس الحين المذكور. وقال بعض أهل العلم: فعل العلم في هذه الآية منزل منزلة اللازم، فليس واقعاً على مفعول. وعليه فالمعنى لو كان لهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. وعلى هذا فالآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والمعنى لا يستوي من عنده علم ومن لا علم عنده. وقد تقرر في فن المعاني أنه إذا كان الغرض إثبات الفعل لفاعله في الكلام المثبت، أو نفيه عنه في الكلام المنفي مع قطع النظر عن اعتبار تعلق الفعل بمن وقع عليه، فإنه يجري مجرى اللازم، كقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأنه يراد منه أن من ثبتت له صفة العلم لا يستوي هو ومن انتفت عنه، ولم يعتبر هنا وقوع العلم على معلومات من اتصف بذلك العلم. وعلى هذا القول فقوله: ﴿حِينَ لَا يَكْفُورُ﴾ منصوب بمضمر؛ أي حين لا يكفون عن وجههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل. والأول هو الأظهر. واستظهر أبو حيان أن مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف، وأنه هو العامل في الظرف الذي هو ﴿حِينَ﴾، والتقدير: لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي استعجلوه حين لا يكفون لما كفروا واستعجلوا واستهزؤوا.

واعلم أنه لا إشكال في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ مع قوله: ﴿فَلَا

سَتَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ فلا يقال: كيف يقول: إن الإنسان خلق من العجل وجبل عليه، ثم ينهائهما عما خلق منه وجبل عليه؛ لأنه تكليف بمحال؟! لأننا نقول: نعم، هو جبل على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جبل على حب الشهوات مع أنه في استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٢﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾، في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن إخوانه من الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - استهزأ بهم الكفار، كما استهزأوا به ﷺ. يعني فاصبر كما صبروا، ولك العاقبة الحميدة، والنصر النهائي كما كان لهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا قُصُّوا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فَوَادِكْ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمْ نَصَرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الرُّسُلِ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ أي أحاط بهم. ومادة حاق يائية العين؛ بدليل قوله في المضارع: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة؛ فلا تقول: حاق به الخير بمعنى أحاط به. والأظهر في معنى الآية: أن المراد وحاك بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزئون به، وعلى هذا اقتصر ابن كثير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ودار ﴿بِالَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزءوا بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي جزاء استهزائهم. والأول أظهر، والعلم عند الله تعالى، والآية تدل على أن السخرية من الاستهزاء وهو معروف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ.....﴾

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَنْ يَكْلَأُكُمْ﴾؛ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ في حال نومكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ في حال تصرفكم في أموركم، والكلاءة بالكسر: الحفظ والحراسة؛ يقال: اذهب في كلاءة الله؛ أي في حفظه، واكتلأت منهم: احترست. ومنه قول ابن هرمة:

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزوها

وقول كعب بن زهير:

أنخت بعيرى واكتلات بعينه وأمرت نفسي أي أمرى أفعل

و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان:

أحدهما: - وعليه اقتصر ابن كثير: - أن «من» هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله:

﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدل الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق. وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى: ﴿أَرْضِيْتُمْ

بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلها. ونظير ذلك من كلام العرب قول

الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلماً ويكتب للأمير أفيلا

يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل.

والوجه الثاني: أن المعنى ﴿مَنْ يَكْلُوكُمْ﴾ أي يحفظكم ﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ أي من

عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَصْرِفْ

مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ﴾ [هود: ٦٣]، أي من ينصرنى منه فيدفع عني عذابه. والاستفهام في

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَكْلُوكُمْ﴾ قال أبو حيان في البحر: هو استفهام تقريع وتوبيخ. وهو

عندي يحتمل الإنكار والتقرير؛ فوجه كونه إنكارياً أن المعنى لا كالى لكم يحفظكم من

عذاب الله البتة إلا الله تعالى؛ أي فكيف تعبدون غيره. ووجه كونه تقريرياً أنهم إذا قيل

لهم: من يكلؤكم؟ اضطروا إلى أن يقرروا بأن الذي يكلؤهم هو الله؛ لأنهم يعلمون أنه

لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا

يدعون معه غيره، كما قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «الإسراء» وغيرها. فإذا

أقروا بذلك توجه إليهم التوبيخ والتقريع، كيف يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل

والنهار إلى ما لا ينفع ولا يضر.

وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع أحداً من

عذاب الله، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله، وأن الحافظ لكل شيء هو الله وحده جاء

مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِّنْ أَمْرِ

اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ الآية [الفتح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي

يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِثُّونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْكَ وَلَا نَصِيرًا

﴿٧﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ

الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ

يُحِثُّ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ تَتَنَعَّمُونَ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا

يُضْحَبُونَ ﴿٤٣﴾. قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، وهي بمعنى بل والهمزة، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا، ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسهم، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقوله: ﴿مِنْ دُونِهَا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه متعلق ﴿بِالْهَةِ﴾ أي ألهم آلهة ﴿مِنْ دُونِهَا﴾ أي سوانا ﴿تَمْنَعُهُمْ﴾ مما نريد أن نفعله بهم من العذاب! كلا! ليس الأمر كذلك. الوجه الثاني أنه متعلق: «تمنعهم» لقول العرب: منعت دونه، أي كفت أذاه. والأظهر عندي الأول. ونحوه كثير في القرآن كقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهٌ مِّنْ دُونِي﴾ الآية وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسهم فكيف تنفع غيرها، جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَبَشِّرْهُمَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَادِقُونَ ﴿١٨٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَيْنَاكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٤﴾ أَلَمْ يَأْتِ بَشِيرًا أَنَّهُمْ لَا يُدْعُونَ فَلَا تَغْزُبُوا الْإِصْرَ ﴿١٨٥﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٩٠﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ... الآية [فاطر: ١٣ - ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾... الآية [الأحقاف: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع البتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُضْحَبُونَ﴾؛ أي يجارون؛ أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا؛ لأن الله يجير ولا يجار عليه كما صرح بذلك في سورة «قد أفلح المؤمنون» في قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان؛ أي مجير لك منه. ومنه قول الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذاً ليصحب منا والرماح دواني

يعني ليجار ويغات منا. وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، كقول بعضهم «يُضْحَبُونَ» يمنعون. وقول بعضهم ينصرون. وقول بعضهم: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُضْحَبُونَ﴾ أي لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل الرحمة صاحباً لهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَعَنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.

الظاهر أن الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي، والإشارة في قوله ﴿هَؤُلَاءِ﴾، راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾... الآية، وهم كفار قريش، ومن اتخذ آلهة من دون الله. والمعنى أنه متع هؤلاء الكفار وآبائهم قبلهم بما رزقهم من نعيم الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة، وأن ذلك يزيدهم كفراً وضلالاً، جاء موضحاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُكُلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكُلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨٧] وَأَمْلٍ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [٨٧] [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْنَىٰ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا آلَ الْكُفْرِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [٨٨] [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [٩١] وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ [٩٢] [الفرقان]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعمر يطلق على مدة العيش.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة. وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق، ظاهر كما ترى، وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية، فهو أن معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردّها دار إسلام. والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريبهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور، ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَأِ الْذِينَ كَفَرُوا نُصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١]، على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريباً من دارهم. وممن يروى عنه هذا

القول: ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة «الرعد» أيضاً في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَنزِلُ حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ سَكِينٍ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية «الأنبياء» هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: ما ذكره ابن كثير رحمه الله صواب، واستقرأ القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله، والكفر بما جئت به ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ؛ لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده ﴿أَنَّهُمُ الْفَٰلِقُونَ﴾ والمعنى أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٢١]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ وَعَمُرُهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمُرُهَا﴾ [الروم: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جداً في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنة ابن كثير رحمه الله من تفسير آية «الأنبياء» هذه بآية «الأحقاف» المذكورة كما بينا.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؟ قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبية عليها ناقصة من أطرافها. (اه منه)، والله - جل وعلا - أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [٤٧].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة؛

فتوزن أعمالهم وزناً في غاية العدالة والإنصاف: فلا يظلم الله أحداً شيئاً، وأن عمله من الخير أو الشر، وإن كان في غاية القلة والدقة كمثل حبة من خردل، فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، وكفى به - جلّ وعلا - حاسباً؛ لإحاطة علمه بكل شيء.

وبين في غير هذا الموضع أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يثقل، وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا كقوله تعالى: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٨] وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَبْتَغِيْنَ بَظْلُمُونَ﴾ [١١] [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَلْزِمُونَ﴾ [١٢] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٣] وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [١٤] [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [١٥] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [١٦] وَأَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [١٧] فَأَمَّهُمْ هَكَوِيَةٌ﴾ [١٨] [القارة] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن موازين يوم القيامة موازين قسط، ذكره في «الأعراف» في قوله: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]؛ لأن الحق عدل وقسط. وما ذكره فيها: من أنه لا تظلم نفس شيئاً بينه في مواضع آخر كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة «الكهف».

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به - جلّ وعلا - أوضحه في غير هذا الموضع كقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِنَّكَ إِذَا مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [١١] [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] [الزلزلة] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان، وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص، لقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]، فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها. صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحادثات لعدله فلكل حادثة لها ميزان

والقاعدة المقررة في الأصول أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقد قدمنا في آخر سورة «الكهف» كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَقْسَطُ﴾ أي العدل، وهو مصدر وصف به؛ ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير
كما قدمنا مراراً، ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء: إنه للمبالغة. وبعضهم يقول: هو بنية المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل. وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط.

واللام في قوله: ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فيها أوجه معروفة عند العلماء:
منها: أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
ومنها: أنها لام كي، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

ومنها: أنها بمعنى في، أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.
والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقُسْطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي في يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْحَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي في وقتها. ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهداً لذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم كما قد مضى من قبل عاد وتبع
يعني مضوا في سبيلهم. وقول الآخر:
وكل أب وابن وإن عمراً معاً مقيمين مفقود لوقت وفاقد
أي في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يجوز أن يكون ﴿شَيْئاً﴾ هو المفعول الثاني لـ ﴿تُظْلَمُ﴾ ويجوز أن يكون ما ناب عن المطلق؛ أي شيئاً من الظلم لا قليلاً ولا كثيراً. ومثقال الشيء: وزنه. والخردل: حب في غاية الصغر والدقة. وبعض أهل العلم يقول: هو زريعة الجرجير. وأث الضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ وهو راجع إلى المضاف الذي هو ﴿مِثْقَالٌ﴾ وهو مذكر لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو: ﴿حَبَكُم مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ على حد قوله في الخلاصة:

وربما أكسب ثان أولاً تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلاً

ونظير ذلك من كلام العرب قول عترة في معلقته:

جاد عليه كل عين ثرة
وقول الراجز:

طول الليالي أسرع في نقضي
وقول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته
وقول الآخر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهن
أعاليها مر الرياح النواسم
فقد أنث في البيت الأول لفظة «كل» لإضافتها إلى «عين»، وأنث في البيت الثاني لفظة «طول» لإضافتها إلى «الليالي» وأنث في البيت الثالث «الصدر» لإضافته إلى «القناة» وأنث في البيت الرابع «مر» لإضافته إلى «الرياح». والمضافات المذكورة لو حذفت لبقى الكلام مستقيماً، كما قال في الخلاصة:

إن كان لحذف مؤهلاً

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْفَالاً حَبْكُوْا﴾ بنصب ﴿مِنْفَالاً﴾ على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ أي وإن كان العمل الذي يراد وزنه مثقال حبة من خردل. وقرأ نافع وحده (وإن كان مثقالاً) بالرفع فاعل ﴿كَانَ﴾ على أنها تامة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ﴾... الآية [البقرة: ٢٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوْنَ﴾ (٥٠). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي كثير البركات والخيرات؛ لأنه فيه خير الدنيا والآخرة، ثم وبخ من ينكرونه منكراً عليهم بقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوْنَ﴾. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه كقوله تعالى في «الأنعام»: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥)، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]؛ وقوله تعالى في «ص»: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَزِيدَا بَرَكَاتِ الْوَحْيِ وَلِيُنَظِّرُوا وَلَوْ أَلَّا بَيِّنَاتٍ﴾ (١٩)، إلى غير ذلك من الآيات، فنرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب: امتثالاً واجتناباً، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٧). قد قدمنا ما يوضح هذه الآيات إلى آخر القصة من القرآن في سورة «مريم»، فأعني ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوْهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧٨). ذكر - جل وعلا -

في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة، لجأوا إلى استعمال القوة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق، ولكنه تعالى ذكر في سورة «العنكبوت» أنهم ﴿قَالُوا أَتَقْتُلُونَهُ أَوْ حَرِّقُونَهُ﴾، وذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقْتُلُونَهُ أَوْ حَرِّقُونَهُ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٤].

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلِهَتكم نصراً مؤزرأ. فاختاروا له أقطع قتلة، وهي الإحراق بالنار. وإلا فقد فرطتم في نصرها.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾. في الكلام حذف دل المقام عليه، وتقديره: قالوا حرقوه فرموه في النار، فلما فعلوا ذلك قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً، وقد بين في «الصفات» أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنياناً ليلقوه فيه.

وفي القصة أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد)، وأن الله خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَبْنَاءُ لَمْ يُبْنِئَا فَأَلْقَوْهُ فِي الْحَيِّجِ ۖ﴾ [الصفات: ٩٧]. والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها، وكثرة حطبها شيئاً عظيماً هائلاً. وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجرداً ورموه إلى النار، قال له جبريل: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما الله فنعم! قال: لم لا تسأله؟ قال: علمه بحالي كاف عن سؤالي.

وما ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، يدل على أنه أنجاه من تلك النار؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ يدل على سلامته من حرها، وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه. وإنجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحاً به في «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾... الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۖ﴾ يوضحه ما قبله، فالكيد الذي أرادوه به؛ إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم، وجعله تعالى إياهم الأخسرين؛ أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة «الصفات» في قوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۖ﴾ [الصفات]، وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من

شرهم، وكونهم الأخسرين؛ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وفي القصة أن الله سلط عليهم خلقاً من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض. وفيها أيضاً أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة بالأمر بقتل الأوزاغ في سورة «الأنعام». وعن أبي العالية: لو لم يقل الله ﴿سَلَامًا﴾ [هود: ٦٩]، لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً إلى الأبد. وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما لو لم يقل ﴿وَسَلَامًا﴾ لمات إبراهيم من بردها. وعن السدي: لم تبق في ذلك اليوم نار إلا طفئت. وعن كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. وعن المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار. وعن شعيب الحماني: أنه ألقى في النار وهو ابن ست عشر سنة. وعن ابن جريج: ألقى فيها وهو ابن ست وعشرين. وعن الكلبي: بردت نيران الأرض جميعاً، فما أنضجت ذلك اليوم كراعاً. وذكروا في القصة أن نمرود أشرف على النار من الصرح فرأى إبراهيم جالساً على السرير يؤنسه ملك الظل، فقال: نعم الرب ربك، لأقربن له أربعة آلاف بقرة، وكف عنه. وكل هذا من الإسرائيليات. والمفسرون يذكرون كثيراً منها في هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء.

وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل»، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾، الضمير في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ عائد إلى إبراهيم، قال أبو حيان في البحر المحيط: وضمن قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ معنى أخرجناه بنجاتنا إلى الأرض؛ ولذلك تعدى «نجيناه» بإلى، ويحتمل أن يكون ﴿إِلَى﴾ متعلقاً بمحذوف؛ أي منتحباً إلى الأرض، فيكون في موضع الحال. ولا تضمين في ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ على هذا، والأرض التي خرجا منها هي كوثى من أرض العراق، والأرض التي خرجا إليها: هي أرض الشام، اه منه. وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فراراً بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع كقوله في «العنكبوت»: ﴿فَقَامَ لَهُمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الآية [العنكبوت: ٢٦]، وقوله في «الصفافات»: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [الصفافات]، على أظهر القولين؛ لأنه فار إلى ربه بدينه من

فلإن تك أنثى من معد كريمة علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة في الكرامة علينا، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين، وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهداً به؛ لأن النافلة الغنيمة غير صواب، بل هو غلط، مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة؛ لأنها زيادة تكريم أكرم الله بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته، أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا ثمن.

وقوله: ﴿نَافِلَةٌ﴾ فيه وجهان من الإعراب، فعلى قول من قال: النافلة العطية، فهو ما ناب عن المطلق من «وهنا» أي وهبنا له إسحاق ويعقوب هبة، وعليه فالنافلة مصدر جاء بصيغة اسم الفاعل كالعاقبة والعافية. وعلى أن النافلة بمعنى الزيادة فهو حال من «يعقوب»؛ أي وهبنا له يعقوب في حال كونه زيادة على إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾. الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطاً وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، وقوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة «البقرة» أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم؛ كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾، وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنْتَقِلَ إِبْرَاهِيمَ رَيْثُ أَبِيهِ فَأَتَمَّهُمْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير فأجابه الله بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة؛ على الأصوب، ومفهوم قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أن غيرهم يناله عهده بالإمامة، كما صرح به هنا. وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في «الصافات» بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة

الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام، وقد قدمنا مراراً النكتة البلاغية المسوغة للإطناب في عطف الخاص على العام، وعكسه في القرآن، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَدِيدِينَ﴾؛ أي مطيعين باجتناب النواهي وامتنثال الأوامر بإخلاص؛ فهم يفعلون ما يأمرهم الناس به، ويجتنبون ما ينهونهم عنه كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾... الآية [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿أَيَّمَةَ﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المقتدى به، ويطلق في الخير كما هنا، وفي الشر كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْتُكَارِ﴾... الآية [القصص: ٤١]، وما ظنه الزمخشري من الإشكال في هذه الآية ليس بواقع، كما نبه عليه أبو حيان. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ لم تعوض هنا تاء عن العين الساقطة بالاعتلال على القاعدة التصريفية المشهورة؛ لأن عدم تعويضها عنه جائز كما هنا، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وَأَلْفَ الْإِفْعَالِ وَاسْتَفْعَالِ

أزل لذا الإعلال والتأ الزم عوض وحذفها بالنقل ربما عرض

وقد أشار في أبنية المصادر إلى أن تعويض التاء المذكورة من العين هو الغالب بقوله:

واستعذ استعادة ثم أقم إقامة وغالباً ذا التالزم

وما ذكرناه من أن التاء المذكورة عوض عن العين أجود من قول من قال: إن العين باقية وهي الألف الباقية، وأن التاء عوض عن ألف الإفعال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغُرَيَّةِ إِلَيَّ كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَجْجِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُوءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسره آتيانه، كما قال في الخلاصة:

فالساق انصبه بفعل أضمر حتماً موافق لما قد أظهرنا

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الحكم: النبوة. والعلم: المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: علماً: فهماً، وقال الزمخشري: حكماً: حكمة، وهو ما يجب فعله، أو فضلاً بين الخصوم. وقيل: هو النبوة.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف، فمعنى الآيات أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعترها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله: منها: اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال:

﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِزْقًا مِنْ أَرْزَاقِهِمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء]. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديمهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرِينِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِشُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه أنه أهلكتهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعل السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿قَوْمَ سَوَءٍ﴾ أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم: وقوله: ﴿فَسَقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ﴾ يعني لوطاً: ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: «تحتاج النار والجنة». الحديث، وفيه: «فقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بها من أشياء من عبادي».

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بـ «اذكر» مقدراً، أي واذكر نوحاً حين نادى من قبل، أي من قبل إبراهيم ومن ذكر معه. ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلِئَعْلَمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٥٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات] وقد أوضح الله هذا النداء بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَرِيَّةً ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ مُكَذِّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَر ﴿١﴾ فَعَدَا رَبُّهُ أَنْيُّ مَعْلُوبٌ فَأَنْصَبْ ﴿١٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر]. والمراد بالكرب العظيم في الآية: الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام، كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات، والكرب: هو أقصى الغم، والأخذ بالفس.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ... الآية [هود: ٤٠]. ومن سبق عليه القول منهم ابنه المذكور في قوله: ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وامراته

المذكورة في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّاءَآئِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا، قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ﴾ منصوب بـ«اذكر» مقدراً. وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر نوحاً إذ نادى من قبل: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾... الآية، وقوله: ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة «مريم» وذكرنا بعض المناقشة فيه، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا: إن حكم داوود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحى: إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داوود.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده، وإصابته، وأن داوود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لوماً ولا ذماً بعدم إصابته؛ كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكَلَّاءَآئِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿إِذْ يَخْكُمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معاً، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف. ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داوود، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهماً إياها كما ترى. فقوله: ﴿إِذْ يَخْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهد، وأصاب فيه سليمان دون داوود بتفهم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾... الآية، يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع؛ لا أنه أنزل عليه فيها وحياً جديداً ناسخاً؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى. وهناك مسائل عديدة تتعلق بالآية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي القضية أو الحكومة المفهومة من قوله: ﴿إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وقوله: ﴿وَكَلَّاءَآئِنَّا﴾ أي أعطينا كلا من داوود وسليمان حكماً وعِلْماً، والتنوين في قوله: ﴿وَكَلَّاءَ﴾ عوض عن كلمة أي كل واحد منهما.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر الجبال أي ذللها، وسخر الطير تسبح مع داوود. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من تسخير الطير، والجبال تسبح مع

نبه داود بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]. وقوله: ﴿أَوِيٌّ مَعَهُ﴾ أي رجعي معه التسبيح. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي وناديننا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه، وقول من قال: ﴿أَوِيٌّ مَعَهُ﴾ أي سيري معه، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ [ص].

والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله - جل وعلا - يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمها كما قال: ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْجِبَالِ لَمَا يَكْفَجُرُ مِنهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْفِكُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْكَلْبُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقد ثبت في صحيح البخاري أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي في مكة» وأمثال هذا كثيرة، والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه، والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾؛ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يؤكد لقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾؛ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي قادرين على أن نفعل هذا، وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك. وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط؛ لأن تأويل ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بمعنى كنا قادرين؛ بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى. وقال أبو حيان: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا، اهـ، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾. الضمير في قوله: ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ راجع إلى داود. والمراد بصناعة اللبوس: صناعة الدروع ونسجها؛ والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم، كما هو معروف، وقد أوضح هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ ﴿٨١﴾ أَنِ اعْمَلْ سِيغَاتٍ وَقِدَرٍ فِي السَّرَدِ ﴿٨٢﴾ [سبأ: ١٠، ١١]،

قوله: ﴿أَنْ أَعْمَلَ مَصْنَعَتِي﴾؛ أي أن اصنع دروعاً سابغات من الحديد الذي ألناه لك، والسرد: نسج الدرع. ويقال فيه الزرد، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي:
وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع
ومن الثاني قول الآخر:

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد
ومراده بالزراد: ناسج الدرع. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾؛ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك للدرع بأقدار متناسبة؛ فلا تجعل المسمار دقيقاً لثلاً ينكسر، ولا يشد بعض الحلق ببعض، ولا تجعله غليظاً غليظاً زائداً فيفصم الحلقة. وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدروع فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدروع كما في الآية؛ ومنه قول الشاعر:

عليها أسود ضاويات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل
فقوله «سوابغ» أي دروع سوابغ، وقول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسراويل: الدروع. والعرب تطلق اللبوس أيضاً على جميع السلاح درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً، ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحاً:

ومعي لبوس للبيئيس كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل
وتطلق اللبوس أيضاً على كل ما يلبس؛ ومنه قول يهيس:

البس كل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدروع ليقبهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ﴾... الآية [النحل: ٨١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ أَتَمَّ شُكْرُونَ﴾؛ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ أي انتهوا؛ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي أسلموا، وقد تقرر في فن المعاني أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا. وقوله: ﴿شُكْرُونَ﴾ شكر العبد لربه، هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده هو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومادة «شكر» لا تتعدى غالباً إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة. ومنه قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى

وفي قوله: ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ ثلاث قراءات سبعة، قرأه عامة السبعة ما عدا ابن عامر وعاصماً (ليحصنكم) بالياء المثناة التحتية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل عائد إلى داود، أو إلى اللبوس؛ لأن تذكيرها باعتبار معنى ما يلبس من الدروع جائز، وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل راجع إلى اللبوس وهي مؤنثة، أو إلى الصنعة المذكورة في قوله: ﴿صَنَعَةُ لُبُوسٍ﴾، وقرأه شعبة عن عاصم (لنحصنكم) بالنون الدالة على العظمة، وعلى هذه القراءة فالأمر واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَسْلَيْمَنْ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾. قوله: ﴿وَلَسْلَيْمَنْ الرِّيحَ﴾ معطوف على معمول «سخرنا» في قوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ﴾؛ أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة؛ أي شديدة الهبوب. يقال عصفت الريح أي اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد (أعصفت) فهي معصف ومعصفة، وقد قدمنا بعض شواهد العربية في سورة (الإسراء).

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به، وما ذكره في هذه الآية من تسخير الريح لسليمان، وأنها تجري بأمره، بينه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿وَلَسْلَيْمَنْ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ١٣].

تنبيه: اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين:

الأول: أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة هنا في سورة «الأنبياء» بأنها عاصفة؛ أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء. والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني: هو أنه هنا في سورة «الأنبياء» خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة «ص» قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها على الريح، فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد؛ قاله مجاهد. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب؛ أي أراد الصواب وأخطأ الجواب. ومنه قول الشاعر:

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي. وعن رؤية أن رجلين من أهل اللغة تصداه ليسألاه عن معنى «أصاب»؛ فخرج إليهما فقال: أين تصبيان؟ فقالا: هذه طلبتنا؛ ورجعا.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين: الأول: أنها عاصفة في بعض

الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة؛ كأن تعصف ويشد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

الجواب الثاني: هو ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة سيرة، على ما قال: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم، اه محل الغرض منه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرَى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] في حالة الذهاب. وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ في حالة الإياب إلى محل السكنى، فانفكت الجهة فزال الإشكال. وقد قال نابغة ذبيان:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن إنني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وتدمر: بلد بالشام. وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكناه كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ (٨٢). الأظهر في قوله: ﴿مَنْ يَغْوُصُونَ﴾ أنه في محل نصب عطفاً على معمول ﴿سَخَرْنَا﴾ [ص: ١٨]؛ أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين. وقيل: «من» مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين؛ أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة؛ كاللؤلؤ، والمرجان. والغوص: النزول تحت الماء. والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أيضاً أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك؛ أي سوى ذلك الغوص المذكور؛ أي كبناء المدائن والقصور، وعمل المحارب والتمائيل، والجفان والقدرور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾؛ أي من أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، وهذه المسائل الثلاث

التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبينة في غير هذا الموضع، كقوله في الغوص والعمل سواء: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ يَوْمٍ يَكُونُ فِي غَوَاصٍ ۝١٧﴾... الآية [ص]، وقوله في العمل غير الغوص: ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنُ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثَّلَ وَحْشَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُّوا رَأْسَهُ﴾ [سبأ: ١٣]، وكقوله في حفظهم من أن يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝١٨﴾ [ص].

وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير، كل ذلك مذكور بكثرة في كتب للتفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ۝٨٤﴾. الظاهر أن قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ«ذكر» مقدراً، ويدل على ذلك قوله تعالى في «ص»: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٨٣﴾ [ص].

وقد أمر - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه - جلّ وعلا - به، وتذكيراً للعابدين أي الذين يعبدون الله لأنهم هم المتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الذي ذكر هنا ذكره أيضاً في سورة «ص» في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٨٣﴾، إلى قوله: ﴿لَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١ - ٤٣]، والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٨٤﴾ [ص].

وما ذكره في «الأنبياء» من أنه آتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى لمن يعبد - بينه في «ص» في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ۝٨٤﴾ [ص]، وقوله في «الأنبياء» ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مع قوله في «ص»: ﴿وَذَكَرْنَا لِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾، فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم: إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدّهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولوا الألباب؛ أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه: في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب

المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْفِيٌّ الضَّرُّ﴾؛ وفي «ص» في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْفِيٌّ الشَّيْطَانُ يَنْصِبُ وَعَذَابٌ﴾ [ص: ٤١]، يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، يدل على كمال صبره؟

والجواب: أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة، ولم يكن قوله: ﴿مَسْفِيٌّ الضَّرُّ﴾ جزعاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ بل كان ذلك دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلا الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلساً غاصاً بالفقهاء والأدباء في دار السلطان؛ فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاءً بيانه ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ﴾ والإجابة لتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال: عَرَفَهُ فَاقَهُ السُّؤَالُ لِيَمُنَّ عَلَيْهِ بِكَرَمِ النَّوَالِ، انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة «الأنبياء» من غير أن يسند مس الضر أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسْفِيٌّ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وذكره في سورة «ص» وأسند ذلك إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسْفِيٌّ الشَّيْطَانُ يَنْصِبُ وَعَذَابٌ﴾ [ص: ٤١]، والنصب على جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية «ص» هذه إشكال قوي معروف؛ لأن الله ذكر في آيات من كتابه أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢١]، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾ الآية [سبأ: ٢١]، وقوله تعالى عنه مقررأ له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري قال:

فإن قلت: لم نسبة إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه على أنبيائه ليقضي من إعتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من

النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى أنه كان يعود ثلاثه من المؤمنين، فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله، انتهى منه.

ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب؛ فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه (وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده وماله وأهله ممكن، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي؛ كمداهنة الملك المذكور، وعدم إغاثة الملهوف، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون. وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه، وقدر مدته (وكل ذلك من الإسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلاً.

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله ابتلى نبيه أيوب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضرر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذلك في «ص» إلى الشيطان. ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله؛ ابتلاء ليظهر صبره الجميل، وتكون له العافية الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله تعالى، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب؛ لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء؛ فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء، وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة «طه» وقول الله لنبيه أيوب في سورة «ص»: ﴿وَعُذِّ بِرَبِّكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِرَبِّهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]، قال المفسرون فيه: إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضعفًا فيضربها به ليخرج من يمينه، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك. والمعنى أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه. وقد قدمنا في سورة «الكهف» الاستدلال بآية: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]، على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد، إذ لو كان يفيد لقال الله لأيوب قل - إن شاء الله - ليكون ذلك استثناء في يمينك.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمْرِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾. أي واذكر ذا النون. والنون: الحوت. «وذا» بمعنى صاحب. فقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ معناه صاحب الحوت؛ كما صرح الله بذلك في «القلم» في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمَوْثِقِ... الآية [القلم: ٤٨]. وإنما أضافه إلى الحوت؛ لأنه التقمه كما قال تعالى: ﴿فَالْقَمْعُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصفات].

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأول: أن المعنى: ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق «قدر» بمعنى «ضيق» في القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي ويضيق الرزق علي من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لَيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾... الآية [الطلاق: ٧]. فقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني: أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء، «وقدر» بالتخفيف تأتي بمعنى «قدر» المضعفة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أي قدره الله. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهداً لذلك:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورك السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قدراً، كضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدره لك تقديرأ؛ ومنه على أصح القولين «ليلة القدر»؛ لأن الله يقدر فيها الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾﴾ [الدخان]، والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء، ومنه قول هذبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

أما قول من قال: إن ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة - فهو قول باطل بلا شك؛ لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغْضِبًا﴾ أي في حال كونه مغاضباً لقومه، ومعنى المفاعلة فيه أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج؛ قاله أبو حيان في البحر. وقال أيضاً: وقيل معنى ﴿مُغْضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً؛ نحو عاقبت اللص، وسافرت، اهـ.

واعلم أن قول من قال: ﴿مُغْضِبًا﴾؛ أي مغاضباً لربه كما روي عن ابن مسعود،

وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتيبي، واستحسنه المهدوي يجب حمله على معنى القول الأول؛ أي مغاضباً من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا؛ وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضباً من أجل ربه كما تقول: غضبت لك أي من أجلك. والمؤمن يغضب الله ﷻ، إذا عصي، انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضباً قومه من أجل ربه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصح في الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت. «وأن» في قوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ مفسرة، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى «أن لا إله»، ومعنى «سبحانك»، ومعنى الظلم، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾؛ أي أجبناه ونجينا من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت، وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات، هذا النداء العظيم، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضع.

وبين في بعض المواضع أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبت في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه. وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم.

وبين في بعضها أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق، وأنهم اقترحوا على من يلقي في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقي فيه.

وبين في بعضها أن الله تداركه برحمته؛ ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال كونه مذموماً، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم، قال تعالى في «الصفات»: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿٢٢﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٢٣﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٢٤﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٢٥﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَأَبَلَّتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٢٩﴾ فَآمَنُوا فَمَتْنَحْنُهُمْ إِلَىٰ حِينِ ﴿٣٠﴾ [الصفات]. فقوله في آيات «الصفات» المذكورة: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي حين أبق، وهو من قول العرب: عبد أبق؛ لأن يونس خرج قبل أن يأذن له ربه؛ ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] لأن المليم اسم فاعل ألام إذا فعل ما يستوجب الملام. وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة ليخرج سهم من يلقي في البحر. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المغلوبين في القرعة؛ لأنه خرج له السهم الذي يلقي صاحبه في البحر. ومن ذلك قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل، والعراء: الصحراء. وقول من قال: العراء؛ الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي أو وجه الأرض، راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها
ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي مريض لما أصابه من انتقام الحوت إياه. وقال تعالى في «القلم»: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ نُوَلِّاْ أَنْ تَدْرِكُمُ يَمَةً مِنْ رَبِّهِمْ لَا يُبَدِّلُ بِالْعَمَلِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٨ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٤٩﴾ [القلم]، فقوله في آية «القلم» هذه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غماً، كما قال تعالى: ﴿وَبَحَّيْنَاهُ مِنْ آلِ عَمْرٍاءَ﴾؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء كرباً. قال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في الأنفاس. وقيل: ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس؛ ومنه قولهم: كظم غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد، انتهى من القرطبي.

وآية «القلم» المذكورة تدل على أن نبي الله يونس - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطباً نبينا ﷺ فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ﴾ [القلم: ٤٨]. فإن أمره لنبينا ﷺ بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي. وقصة يونس، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير، وقد بين تعالى في سورة «يونس» أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا، وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: «لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم، والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى؛ لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاء المؤمنين. وقوله: ﴿نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى، وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بنونين أولهما مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مكسورة مخففة فياء ساكنة، وهو

مضارع أنجى الرباعي على صيغة أفعل، والنون الأولى دالة على العظمة، وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم: (وكذلك نُنجي المؤمنين) بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة. وهو على هذه القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من نجى المضعفة على وزن فعل بالتضعيف. وفي كلتا القراءتين إشكال معروف، أما قراءة الجمهور فهي من جهة القواعد العربية واضحة لا إشكال فيها، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى، وهي: أن هذا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة، فيقال: كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة؟ وأما على قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية؛ لأن نجى على قراءتهما بصيغة ماض مبني للمفعول، فالقياس رفع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعده على أنه نائب الفاعل، وكذلك القياس فتح ياء «نجى» لا إسكانها.

وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة، منها ما ذكره بعض الأئمة، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه: أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة «ننجي» بفتح النون الثانية مضارع نجى مضعفاً، فحذفت النون الثانية تخفيفاً. أو «ننجي» بسكونها مضارع أنجى وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف، كما أدغمت في «إجاصة وإجانة» بتشديد الجيم فيهما، والأصل «إنجاصة وإنجانة» فأدغمت النون فيهما. والإجاصة: واحدة الإجاص، قال في القاموس: الإجاص بالكسر مشدداً؛ ثمر معروف دخيل؛ لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة، الواحدة بهاء. ولا تقل إنجاص، أو لغية، اهـ. والإجانة. واحدة الأجاجين. قال في التصريح: وهي بفتح الهمزة وكسرها. قال صاحب الفصيح: قصرية يعجن فيها ويغسل فيها. ويقال: إنجانة كما يقال إنجاصة، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون اهـ، فهذان وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة، وعليهما فلفظة «المؤمنين» مفعول به لـ«ننجي».

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة أن «نجي» على قراءتهما فعل ماض مبني للمفعول، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر، أي نجى هو أي الإنجاء، وعلى هذا الوجه فالآية كقراءة من قرأ: (لِيُجْزَى قوماً) ... الآية، ببناء «يجزى» للمفعول والنائب ضمير المصدر، أي ليجزى هو أي الجزاء، ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعدياً للمفعول ترد بقلّة، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وقابل من ظرف أو من مصدر أو حرف جر بنيابة حري

ولا ينوب بعض هذا إن وجد في اللفظ مفعول به وقد يرد

ومحل الشاهد منه قوله: «وقد يرد». وممن قال بجواز ذلك الأخفش والكوفيون وأبو عبيد. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لَسب بذلك الجرو الكلابا

يعني لسب هو أي السب. وقول الراجز:

لم يعن بالعلياء إلا سيداً ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى

وأما إسكان ياء «نجي» على هذا القول فهو على لغة من يقول من العرب: رضى، وبقي بإسكان الياء تخفيفاً. ومنه قراءة الحسن (وذروا ما بقي من الربا) بإسكان ياء «بقي»، ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر:

خمر الشيب لمننى تخميرا وحدا بي إلى القبور البعيرا

ليت شعري إذا القيامة قامت ودعي بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور، فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة المصاحف لخفائها. أما قراءة الجمهور فوجها ظاهر ولا إشكال فيها، فغاية الأمر أنهم حذفوا حرفاً من الكلمة لمصلحة مع تواتر الرواية لفظاً بذكر الحرف المحذوف والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ ﴿٩٣﴾.

قد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن في سورة «هود»، والمراد بالأمة هنا: الشريعة والملة. والمعنى وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتنال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك على حسب ما شرعه لخلقه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾؛ أي وحدي، والمعنى دينكم واحد وربكم واحد، فلم تختلفوا أمركم بَيْنَهُمْ؛ أي تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً؛ فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن، إلى غير ذلك من الفرق المختلفة.

ثم بين بقوله: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ﴾؛ أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة، وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ المعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه؛ فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً شتى، اهـ.

وظاهر الآية أن «تقطع» متعدية إلى المفعول ومفعولها ﴿أَمْرَهُمْ﴾ ومعنى تقطعوه أنهم جعلوه قطعاً كما ذكرنا. وقال القرطبي: قال الأزهري: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي تفرقوا في أمرهم، فنصب «أمرهم» بحذف «في». ومن إطلاق الأمة بمعنى الشريعة والدين كما في هذه الآية: قوله تعالى في الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي على شريعة وملة ودين. ومن ذلك قول نابغة ذبيان:

حلفت فلم أترك في نفسك ريبة وهل يأثم ذو أمة وهو طائع

ومعنى قوله: «وهل يأمن ذو أمة... إلخ» أن صاحب الدين لا يرتكب الإثم طائعاً.

وما ذكره - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف، وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقاً أوضحه في سورة «قد أفلح المؤمنون»، وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ وَلَئِنْ هَدَيْتُمْ أُمَّتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرَهُمْ فِي غَفَرَتِهِمْ حَتَّى يَجِيئَ ٥٤﴾ [المؤمنون]، وقوله في هذه الآية: ﴿زُبْراً﴾ أي قطعاً كزبر الحديد والفضة، أي قطعها. وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين دينهم قطعاً فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه هو الحق.

وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن ما فرحوا به، واطمأنوا إليه باطل، كما قال تعالى في سورة «المؤمن»: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثْهُمْ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ٨٣﴾ [غافر]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ لَمَّا أَمَرَهُمُ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَتَّبِعُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٨٤﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ «هذه» اسم «إن» وخبرها ﴿أُمَّتُكُمْ﴾. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى، وأظهر الأقوال في الزفير: أنه كأول صوت الحمار، وأن الشهيق كآخره، وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع وزاد على ذلك الشهيق والخلود كقوله في «هود»: ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ٦٣﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لا يسمعون فيها. وبين في غير هذا الموضع أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في «الإسراء»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْماً وَصُمّاً...﴾ الآية [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمى﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ ٨٥﴾ [النمل]، مع أنه - جلّ وعلا - ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَتَمِيعَ بِهِمْ وَأَبْصِرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا...﴾ الآية [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا...﴾ الآية [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿وَرَبَّ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ...﴾ الآية [الكهف: ٥٣]. وقد بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في «طه» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين سبق لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار؛ وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (١٠٢) [الرحمن]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنُلَقِّنُھُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِیْ كُنْتُمْ تُوعِدُونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عباده المؤمنين الذين سبق لهم منه الحسنى ﴿وَنُلَقِّنُھُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ﴾؛ أي تستقبلهم بالبشارة، وتقول لهم: ﴿هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِیْ كُنْتُمْ تُوعِدُونَ﴾؛ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم، قيل: تستقبلهم على أبواب الجنة بذلك. وقيل: عند الخروج من القبور كما تقدم.

وما ذكره - جلّ وعلا - من استقبال الملائكة لهم بذلك - بينه في غير هذا الموضع كقوله في «فصلت»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِیْ كُنْتُمْ تُوعِدُونَ﴾ (٥١) ﴿تَحٰۤیۡۤا۟ اٰوٰیۤا۟كُمْ فِی الْحَیٰوةِ الدُّنْیَا وَفِی الْاٰخِرَةِ وَلَكُمْ فِیْهَا مَا تَشْتَهٰۤیۡۤا۟ۤنَ۟ۢ اَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِیْهَا مَا تَدْعُوْنَ﴾ (٥٢) ﴿وَلَاۤیۡۤا۟ مِنْ عَفْوَۜرٍ رِّجِیۡمٍ﴾ (٥٣) [فصلت]، وقوله في «النحل»: ﴿الَّذِينَ نَوَّهْنَاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ طٰیۢیۡۤیۡۤنٌ یَّقُولُۡنَ۟ۤا سَلٰمٌ عَلَیْكُمْ اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ (٥١) [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِی السَّمَآءَ كَطَیِّ السِّجْلِ لِلْكِتٰبِ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِی السَّمَآءَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ﴾، أو بقوله: ﴿وَنُلَقِّنُھُمُ﴾. وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب. وصرح في «الزمر» بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِیْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوٰیۡتٌۢ بِیَمِیۡنِهِۦۚ سُبْحٰنَهُۥ وَتَعَالٰی عَمَّا یُشْرِكُوۡنَ﴾ (٧٧) [الزمر]. وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ، وقد قدمنا مراراً أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة المخلوق. وأقوال العلماء في معنى قوله: ﴿كَطَی السِّجْلِ لِلْكِتٰبِ﴾ راجعة إلى أمرين:

الأول: أنَّ السجل الصحيفة: والمراد بالكتب: ما كتب فيها، واللام بمعنى على، أي كطي السجل على الكتب، أي كطي الصحيفة على ما كتب فيها، وعلى هذا فطي السجل مصدر مضاف إلى مفعوله؛ لأن السجل على هذا المعنى مفعول الطي.

الثاني: أن السجل ملك من الملائكة، وهو الذي يطوي كتب أعمال بني آدم إذا رفعت إليه، ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه الحفظة الموكلون بالخلق أعمال بني

آدم في كل خميس واثنين، وكان من أعوانه (فيما ذكروا) هاروت وماروت، وقيل: إنه لا يطوي الصحيفة حتى يموت صاحبها فيرفعها ويطويها إلى يوم القيامة، وقول من قال: إن السجل صحابي، كاتب للنبي ﷺ ظاهر السقوط كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «الكتاب» قرأه عامة السبعة غير حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «الكتاب» بكسر الكاف وفتح التاء بعدها ألف بصيغة الإفراد. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لِلْكِتَابِ) بضم الكاف والتاء بصيغة الجمع. ومعنى القراءتين واحد؛ لأن المراد بالكتاب على قراءة الإفراد جنس الكتاب، فيشمل كل الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥)، أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك، وأن المراد بالذكر أم الكتاب، وعليه فالمعنى ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب. وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة، وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية. ومن ذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾؛ فيه للعلماء وجهان:

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر]، وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة «مريم».

الثاني: أن المراد بالأرض أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا...﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٢] وَلَنَسَخِّنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة ﴿فِي الزَّبُورِ﴾ بفتح الزاي ومعناه الكتاب. وقرأ حمزة وحده (في الزبور) بضم الزاي. قال القرطبي: وعلى قراءة حمزة

فهو جمع زبر، والظاهر أنه يريد الزبر بالكسر بمعنى المزبور أي المكتوب. وعليه فمعنى قراءة حمزة: ولقد كتبنا في الكتب. وهي تؤيد أن المراد بالزبور على قراءة الفتح جنس الكتب لا خصوص زبور داود كما بينا. وقرأ حمزة أيضاً «يرثها عبادي» بإسكان الياء. والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاءِ لِقَوْمٍ عَكِيدٍ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم، الذي منه هذه السورة الكريمة، والبلاغ: الكفاية، وما تبلغ به البغية. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية للعابدين، وما يبلغون به بغيتهم، أي من خير الدنيا والآخرة، ذكره في غير هذا الموضع كقوله: ﴿هَذَا بَلَاءٌ لِلَّذِينَ وَلِيْتُمْ بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٦) [إبراهيم] وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المستفعدون به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول؛ فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل؛ فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرّمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (١٨) [إبراهيم]. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال، والأول أظهر.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه ما أرسله إلا رحمة للعاملين، يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [الفصص: ٨٦].

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة «الكهف» في موضعين منها، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة».

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما

أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي ليكن علمك وعلمهم بنبد العهود على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠٩]. وقوله: ﴿مَآذِنُكُمْ﴾ [الأذان: الإعلام]؛ ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ...﴾ الآية [التوبة: ٣]، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأَذِّنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٩]، أي أعلموا. ومنه قول الحرث بن حنظلة:

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَاوِيْمِلْ مِنْهُ الشَّوَاءُ

يعني أعلمتنا بينها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [١١٣].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتُمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٧]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، في الموضعين، وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْى عَلَّمَ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَخَنُّ أَوْقَفٌ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١١]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَخَفَى﴾ [طه: ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم (قُلْ ربّي) بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر، وقرأه حفص وحده ﴿قَالَ﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي، وقراءة الجمهور تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك. وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل. وما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ أي احكم كما تقدم.

وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]. وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئا غير ما أخبروه به؛ وذلك في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، والمستعان: المطلوب منه العون، والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوهَا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾. أمر - جل وعلا - في أول هذه السورة الكريمة الناس بتقواه - جل وعلا - بامتنال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل بسببه المراضع عن أولادهن، وتضع بسببه الحوامل أحمالها، من شدة الهول والفرع، وأن الناس يرون فيه كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم بسكارى من شرب الخمر، ولكن عذابه شديد.

وما ذكره تعالى هنا من الأمر بالتقوى، ذكره في مواضع كثيرة جداً من كتابه، كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوهَا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ③ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ④﴾... الآية [النساء: ١] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وما بينه هنا من شدة أهوال الساعة، وعظم زلزلتها، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ⑤ وَأَخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ⑥ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ⑦ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ⑧﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى: ﴿وَحُلَّتِ الْأَرْضُ أَلْبِيَالًا فَذُكَّتَا ⑨ وَجِدَّةٌ ⑩﴾ [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ⑪ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑫﴾ [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ ⑬ تَتَّبِعُنَا أَنْزَارُهُ ⑭ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑮ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ⑯﴾ [النازعات] وقوله تعالى: ﴿نُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْغَةً ⑰﴾ [الأعراف: ١٨٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظم هول الساعة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿آتِفُوهَا رَبَّكُمْ﴾ قد أوضحنا فيما مضى معنى التقوى بشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، والزلزلة: شدة التحريك والإزعاج، ومضاعفة زليل الشيء عن مقره ومركزه، أي تكرير انحرافه وترحزحه عن موضعه؛ لأن الأرض إذا حركت حركة شديدة تزلزل كل شيء عليها زلزلة قوية.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: منصوب بتذهل، والضمير عائد إلى الزلزلة. والرؤية: بصرية؛ لأنهم يرون زلزلة الأشياء بأبصارهم، وهذا هو الظاهر، وقيل: إنها من رأي العلمية.

وقوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؛ أي بسبب تلك الزلزلة، والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيله ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله
وقال قطرب: ذهل عن الأمر: اشتغل عنه. وقيل: ذهل عن الأمر: غفل عنه
لطرو شاغل، من همّ أو مرض، أو نحو ذلك، والمعنى واحد، وبقيّة الأقوال راجعة
إلى ما ذكرنا.

وقوله: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؛ أي كل أنثى ترضع ولدها، ووجه قوله: مرضعة،
ولم يقل: مرضع: هو ما تقرر في علم العربية، من أن الأوصاف المختصة بالإناث إن
أريد بها الفعل لحقها التاء، وإن أريد بها النسب جردت من التاء، فإن قلت: هي
مرضع تريد: أنها ذات رضاع، جردته من التاء كقول امرئ القيس:
فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضعاً فألهيتها عن ذي تمايم مغيل
وإن قلت: هي مرضعة بمعنى، أنها تفعل الرضاع: أي تلقم الولد الثدي، قلت:
هي مرضعة بالتاء ومنه قوله:

كمرضعة أولادَ أخرى وضِيعت بني بطنها هذا الضلال عن القصد
كما أشار له بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يُخص عن تاء استغنى لأن اللَّفْظ نص
وحيث معنى الفعل يعني التاء زد كذي غدت مرضعةً طفلاً ولّد

وما زعمه بعض النحاة الكوفيين من أن أم الصبي مرضعة بالتاء والمستأجرة
للإرضاع: مرضع بلا هاء باطل، قاله أبو حيان في البحر. واستدل عليه بقوله: كمرضعة
أولاد أخرى، البيت: فقد أثبت التاء لغير الأم، وقول الكوفيين أيضاً: إن الوصف
المختص بالأنثى لا يحتاج فيه إلى التاء؛ لأن المراد منها الفرق بين الذكر والأنثى:
والوصف المختص بالأنثى لا يحتاج إلى فرق لعدم مشاركة الذكر لها فيه مردود أيضاً،
قاله أبو حيان في البحر أيضاً مستدلاً بقول العرب: مرضعة، وحائضة، وطالقة:
والأظهر في ذلك هو ما قدمنا، من أنه إن أريد الفعل جيء بالتاء، وإن أريد النسبة جُرّد
من التاء، ومن مجيء التاء للمعنى المذكور قول الأعشى:

أجارتنا بِنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: لم قيل: مرضعة دون مرضع؟
قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي
شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، كيدلّ على
أن ذلك الهول، إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها: نزعته عن فيه، لما
يلحقها من الدهشة.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الظاهر أن ما موصولة، والعائد محذوف: أي
أرضعته على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير مُنْجَلِي

في عائدٍ مُتَّصِلٍ إِنْ انتصب بفعلٍ أو وصفٍ كمن نرجو يهب

وقال بعض العلماء: هي مصدرية؛ أي تذهل كل مرضعة عن إرضاعها.

قال أبو حيان في البحر: ويقوي كونها موصولة تعدي وضع إلى المفعول به في قوله: ﴿حَمَلَهَا﴾ لا إلى المصدر.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾؛ أي كل صاحبة حمل تضع جنينها، من شدة الفزع، والهول، والحمل بالفتح: ما كان في بطن من جنين، أو على رأس شجرة من ثمر ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ جمع سكران: أي يشبههم من رآهم بالسكر، من شدة الفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الشراب ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ والخوف منه هو الذي صير من رآهم يشبههم بالسكر، لذهاب عقولهم، من شدة الخوف، كما يذهب عقل السكران من الشراب. وقرأ حمزة والكسائي: «وترى الناس سكرى وما هم بسكرى» بفتح السين، وسكون الكاف في الحرفين على وزن فعلى بفتح فسكون. وقرأه الباقون ﴿سُكَارَى﴾ بضم السين، وفتح الكاف بعدها ألف في الحرفين أيضاً، وكلاهما جمع سكران على التحقيق. وقيل: إن سكرى بفتح فسكون: جمع سكر بفتح فكسر بمعنى: السكران، كما يجمع الزمن على الزمنى، قاله أبو علي الفارسي، كما نقله عنه أبو حيان في البحر. وقيل: إن سكرى مفرد، وهو غير صواب. واستدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن المعدوم يسمى شيئاً؛ لأنه وصف زلزلة الساعة، بأنها شيء في حال عدمها قبل وجودها. قد بينّا وجه رده في سورة مريم، فأغنى عن إعادته هنا.

مسألة: اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو هي عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من القبور؟

فقال جماعة من أهل العلم: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وممن قال بهذا القول: علقمة، والشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، وابن جريج. وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكنه لم يثبت ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه؛ وهو القول الآخر.

وحجة من قال بهذا القول حديث مرفوع، جاء بذلك، إلا أنه ضعيف لا يجوز الاحتجاج به.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره مبيناً دليل من قال: إن الزلزلة المذكورة في آخر الدنيا قبل يوم القيامة: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطى إسرأفيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى السماء ينظر متى يؤمر»، قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصُّور؟ قال: «قَرْن»، قال: وكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصَّعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله ﷻ إسرأفيل بالنفخة الأولى: أنفخ نفخة الفزع فتفرغ أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ويأمره الله فيديهما ويطولها فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص] فيسير الله الجبال فتكون سراباً، وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّايِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يُؤْمِرُ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر، تضربها الأمواج تكفاً بأهلها، أو كالقنديل المعلق بالعرش، ترججه الأرواح، فتميد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة، فتضرب وجوهها، ويولى الناس مُدْبِرِينَ، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿وَيَتَقَوَّمُ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُنْوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [غافر] فبينما هم على ذلك، إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً، وأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم خسفت شمسها، وخسف قمرها، وانتشرت نجومها، ثم كسخت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك»، فقال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ انتهى منه. ولا يخفى ضعف الإسناد المذكور كما ترى. وابن جرير رحمه الله قبل أن يسوق الإسناد المذكور قال ما نصه: وقد روي عن النبي ﷺ بنحو ما قال هؤلاء خبر في إسناده نظر، وذلك ما حدثنا أبو كريب إلى آخر الإسناد، كما سقناه عنه آنفاً.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصُّور، من رواية إسماعيل بن رافع، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ، ثم ساق الحديث نحو ما ذكرناه بطوله، ثم قال: هذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد مطولاً جداً.

والغرض منه أنه دلَّ على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم القيامة أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك والله أعلم، انتهى منه. وقد علمت ضعف الإسناد المذكور.

وأما حجة أهل القول الآخر القائلين بأن الزلزلة المذكورة كائنة يوم القيامة بعد البعث من القبور، فهي ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من تصريحه بذلك، وبذلك تعلم أن هذا القول هو الصواب كما لا يخفى.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه في التفسير في باب قوله: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أراه، قال: تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحمل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، وأنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبرنا ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة»، فكبرنا.

وقال أبو أسامة، عن الأعمش: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. وقال جرير، وعيسى بن يونس، وأبو معاوية: «سكرى وما هم بسكرى» انتهى من صحيح البخاري.

وفيه تصريح النبي ﷺ بأن الوقت الذي تضع فيه الحمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا.

وقال البخاري في صحيحه أيضاً في كتاب الرقاق، في باب: إن زلزلة الساعة شيء عظيم: حدثني يوسف بن موسى، حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: «يقول الله يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى، وما هم بسكرى؛ ولكن عذاب الله شديد». فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله آتينا ذلك الرجل؟ قال: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار»، انتهى منه. ودلالته على المقصود ظاهرة.

وقال البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب: بدء الخلق في أحاديث الأنبياء في باب

قول الله تعالى: ﴿وَمَسْأَلُكَ عَنْ ذِي الْقَرْبَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿سَبَّأً﴾ [الكهف: ٨٣ - ٨٩] حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك، وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» إلى آخر الحديث نحو ما تقدم.

وقال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه في آخر كتاب الإيمان بكسر الهمزة في باب: بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة: حدثنا عثمان بن أبي شيبة العبسي، حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يا آدم، فيقول: لبيك، وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد» إلى آخر الحديث نحو ما تقدم.

فحديث أبي سعيد هذا الذي اتفق عليه الشيخان كما رأيت، فيه التصريح من النبي ﷺ بأن الوقت الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، بعد القيام من القبور كما ترى، وذلك نص صحيح صريح في محل النزاع. فإن قيل: هذا النص فيه إشكال؛ لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث، حتى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع، حتى تذهل عما أرضعت. فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل. الوجه الثاني: أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] ومثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة.

تنبيه: اعلم أن هذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا بعضها يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: إذا كانت الزلزلة المذكورة بعد القيام من القبور، فما معناها؟ والجواب: أن معناها شدة الخوف، والهول، والفزع؛ لأن ذلك يسمى زلزلاً، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَطَئِنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿١٦﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٧﴾ [الأحزاب]؛ أي وهو زلزال فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول؛ بالعمل

الصالح، في دار الدنيا، قبل تعذر الإمكان لما قدمنا مراراً من أن إن المشددة المسكورة تدل على التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، ومسلك النص الظاهر: أي اتقوا الله؛ لأن أمامكم أهوالاً عظيمة، لا نجاة منها إلا بتقواه - جل وعلا - .

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من الناس بعضاً يجادل في الله بغير علم؛ أي يخاصم في الله بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله، كالذي يدعي له الأولاد والشركاء، ويقول: إن القرآن أساطير الأولين، ويقول: لا يمكن أن يحيي الله العظام الرميم، كالنضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل بن هشام وأمثالهم من كفار مكة الذين جادلوا في الله ذلك الجدل الباطل بغير مستند، من علم عقلي، ولا نقلي، ومع جدالهم في الله ذلك الجدل الباطل يتبعون كل شيطان مرید؛ أي عاتٍ طاغٍ من شياطين الإنس والجن ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾: أي كتب الله عليه كتابة قدر وقضاء ﴿أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ﴾؛ أي كل من صار ولياً له: أي للشيطان المرید المذكور، فإنه يضلّه عن طريق الجنة إلى النار، وعن طريق الإيمان إلى الكفر، ويهديه إلى عذاب السعير؛ أي النار الشديدة الوقود.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهال كالكفار يجادل في الله بغير علم؛ أي يخاصم فيه بغير مستند من علم بيّنه في غير هذا الموضع كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝﴾ ثانياً عَظَمَهُ لِضَلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وقوله تعالى في لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، كقوله في آية لقمان هذه: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، كقوله في الحج: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝﴾ وهذه الآية الكريمة التي هي من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، يدخل فيما تضمنته من الوعيد والذم: أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤساء الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء، بقدر ما فعلوا من ذلك؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومن الآيات الدالة على مجادلة الكفار في الله بغير علم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝﴾ [يس] وقوله في أول النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنسَنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [النحل] وقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ لَقْنًا﴾ [الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ

دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١١﴾ [الشورى] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَهُنَّ خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يَقُولُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وما ذكره الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه قدر وقضى أن من تولّى الشيطان، فإن الشيطان يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، بيّنه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم] وقوله تعالى: ﴿وَمِن يَبْغِ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم مخالفتها أن من يجادل بعلم على ضوء هذي كتاب منير، كهذا القرآن العظيم، ليحق الحق، ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة أن ذلك سائغ محمود؛ لأن مفهوم قوله: ﴿يَغْيِرْ عِلْمٌ﴾ أنه إن كان بعلم، فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال الفخر الرازي في تفسيره: هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقّة؛ لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨] والمجادلة الحقّة هي المراد من قوله: ﴿وَخَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، اهـ منه.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: يعني عذاب النار، فالسعير: النار أعاذنا الله، وإخواننا المسلمين منها. والظاهر أن أصل السعير: فعيل، بمعنى: مفعول من قول العرب: سَعَرَ النَّارَ، يسعرها كمنع يمنع إذا أوقدها، وكذلك سَعَرَهَا بالتضعيف، وعلى لغة التضعيف والتخفيف القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير] فقد قرأه من السبعة نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وعاصم في رواية حفص: سُعِّرَتْ بتشديد العين، وقرأه الباقر بتخفيف العين، ومما جرى من كلام العرب على نحو قراءة نافع، وابن ذكوان، وحفص قول بعض شعراء الحماسة:

قالت له عرسه يوماً لتُسمعني مهلاً فإن لنا في أمنا أربا
ولو رأتني في نار مُسَعِّرة ثم استطاعت لزادت فوقها خطبا

إذ لا يخفى أن قوله: مسعرة: اسم مفعول سُعِّرَتْ بالتضعيف، وبما ذكرنا يظهر أن أصل السعير؛ فعيل بمعنى اسم المفعول؛ أي النار المسعرة؛ أي الموقدة بإقداً

شديداً لأنها بشدة الإيقاد يزداد حرها عياداً بالله منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، وفي ذلك لغة ثالثة، إلا أنها ليست في القرآن: وهي أسعر النار بصيغة أفعال، بمعنى أوقدها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يدل على أن الهدى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضاً في الدلالة على الشر؛ لأنه قال: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَىٰ التَّكْوِينِ...﴾ الآية [القصاص: ٤١]؛ لأن الإمام هو من يقتدى به في هديه وإرشاده.

وإطلاق الهدى في الضلال كما ذكرنا أسلوب عربي معروف، وكلام البلاغيين في مثل ذلك بأن فيه استعارة عنادية، وتقسيمهم العنادية إلى تهكمية وتمليحية، معروف كما أشرنا إليه سابقاً، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ قد أوضحنا معنى الشيطان في سورة الحجر، والمريد والمارد في اللغة العربية: العاتي، تقول: مرد الرجل بالضم يمرد، فهو مارد، ومريد إذا كان عاتياً، والظاهر أن الشيطان في هذه الآية، يشمل كل عات يدعو إلى عذاب السعير، ويضل عن الهدى، سواء كان من شياطين الجن أو الإنس، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَّكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾. هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها، تدل على أن جدال الكفار المذكور في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يدخل فيه جدالهم في إنكار البعث، زاعمين أنه - جل وعلا - لا يقدر أن يحيي العظام الرميم، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ونحو ذلك من الآيات كما قدمنا الإشارة إليه قريباً.

ولأجل ذلك أقام تعالى البراهين العظيمة على بعث الناس من قبورهم أحياء إلى عرصات القيامة للحساب، والجزاء فقال - جل وعلا -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾ فمن أوجدكم الإيجاد الأول، وخلقكم من التراب لا شك أنه قادر على إيجادكم، وخلقكم مرة ثانية، بعد أن بليت عظامكم، واختلطت بالتراب؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من ابتداء الفعل، وهذا البرهان القاطع على القدرة على البعث الذي هو خلقه تعالى للخلائق المرة الأولى المذكور هنا، جاء

موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] الآية، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأَوَّلَ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ١٢] وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ نَفْثَةٌ مِنْ مَنِي بَيْتَى﴾ [الأنبياء: ٣٧] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْثَ﴾ [القيامة: ٤٠] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقد أوضحنا ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة، وسورة النحل وغيرهما، ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث بين - جلّ وعلا - أن من أنكر البعث فهو ناس للإيجاد الأول كقوله: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقُهُ...﴾ الآية [يس: ٧٨]، إذ لو تذكر الإيجاد الأول على الحقيقة، لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني، وكقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ١٦] أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿١٧﴾ [مریم] إذ لو تذكر ذلك تذكر حقيقةً لما أنكر الخلق الثاني.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ﴾: أي في شك من أن الله يبعث الأموات، فالريب في القرآن يراد به الشك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ قد قدمنا في سورة طه أن التحقيق في معنى خلقه للناس من تراب، أنه خلق أباهم آدم منها، ثم خلق منه زوجه، ثم خلقهم منهما عن طريق التناسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ...﴾ الآية [آل عمران: ٥٩]، فلما كان أصلهم الأول من تراب، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب؛ لأن الفروع تبع للأصل.

وقد بينّا في طه أيضاً أن قول من زعم أن معنى خلقه إياهم من تراب أنه خلقهم من النطف، والنطف من الأغذية، والأغذية راجعة إلى التراب غير صحيح، وقد بينّا هناك الآيات الدالة على بطلان هذا القول.

وقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أطوار خلق الإنسان، فبين أن ابتداء خلقه من تراب كما أوضحنا آنفاً، فالتراب هو الطور الأول.

والطور الثاني هو النطفة، والنطفة في اللغة: الماء القليل، ومنه قول الشاعر وهو رجل من بني كلاب:

وما عليك إذا أخبرتني دنفاً وغاب بعلمك يوماً أن تعوديني
وتجعلني نطفةً في القعب باردةً وتغمسي فالك فيها ثم تسقيني

فقوله: وتجعلني نطفة؛ أي ماء قليلاً في القعب، والمراد بالنطفة في هذه الآية الكريمة: نطفة المني، وقد قدمنا في سورة النحل أن النطفة مختلطة من ماء الرجل، وماء المرأة، خلافاً لمن زعم أنها من ماء الرجل وحده.

الطور الثالث: العلقه: وهي القطعة من العلق، وهو الدم الجامد فقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: أي قطعة دم جامدة، ومن إطلاق العلق على الدم المذكور قول زهير:

إليك أعملتها فتلا مرافقها شهرين يجهض من أرحامها العلق

الطور الرابع: المضغة: وهي القطعة الصغيرة من اللحم، على قدر ما يمضغه الآكل، ومنه قوله ﷺ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» الحديث.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ في معناه أوجه معروفة عند العلماء، سنذكرها هنا - إن شاء الله - ونبين ما يقتضي الدليل رجحانه.

منها: أن قوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة للنطفة وأن المخلقة: هي ما كان خلقاً سوياً، وغير المخلقة: هي ما دفعته الأرحام من النطف، وألقته قبل أن يكون خلقاً، وممن روي عنه هذا القول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نقله عنه ابن جرير وغيره، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن المخلقة وغير المخلقة من صفة المضغة، كما هو ظاهر.

ومنها أن معنى مخلقة: تامة، وغير مخلقة: أي غير تامة، والمراد بهذا القول عند قائله: أن الله - جل وعلا - يخلق المضغ متفاوتة، منها: ما هو كامل الخلقة، سالم من العيوب، ومنها: ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس، في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم.

وممن روي عنه هذا القول: قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره، وعزاه الرازي لقتادة والضحاك. ومنها أن معنى مخلقة مصورة إنساناً، وغير مخلقة: أي غير مصورة إنساناً كالسقط الذي هو مضغة، ولم يجعل له تخطيط وتشكيل، وممن نقل عنه هذا القول: مجاهد، والشعبي، وأبو العالية كما نقله عنهم ابن جرير الطبري. ومنها أن المخلقة: هي ما ولد حياً، وغير المخلقة: هي ما كان من سقط.

وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس رضي الله عنه. وقال صاحب الدر المنثور: إنه أخرجه عنه ابن أبي حاتم وصححه ونقله عنه القرطبي وأنشد لذلك قول الشاعر:

أفني غير المخلقة البكاء فأئين الحزم ويحك والحياء

وقال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله تعالى -: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: المخلقة: المصورة خلقاً تاماً. وغير المخلقة: السقط قبل تمام خلقه؛ لأن المخلقة، وغير المخلقة من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصبح خلقاً سوياً إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ خلقاً سوياً، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير، ولا ينفخ الروح، انتهى منه.

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير، اختاره أيضاً غير واحد من أهل العلم.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري

رحمه الله تعالى، لا يظهر صوابه، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك وهي قوله - جل وعلا - في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾؛ لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى ثم خلقناكم من مضغة مخلقة، وخلقناكم من مضغة غير مخلقة. وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة، فيه من التناقض كما ترى، فافهم.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة: السقط؛ لأن قوله: ﴿وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يفهم منه أن هناك قسماً آخر لا يقره الله في الأرحام، إلى ذلك الأجل المسمى، وهو السقط.

فالجواب أنه لا يتعين فهم السقط من الآية؛ لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر، وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء.

أما السقط: فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ...﴾ الآية؛ لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتاً، ولو بعد التشكيل والتخطيط، لم يخلق الله منه إنساناً واحداً من المخاطبين بقوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾... الآية. فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من المخلقة، وغير المخلقة: يخلق منه بعض المخاطبين في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾... الآية.

وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية، هو القول الذي لا تناقض فيه؛ لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضاً، لا ليتناقض بعضه مع بعض، وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشف ولم يحك غيره: وهو أن المخلقة: هي التامة، وغير المخلقة: هي غير التامة.

قال الزمخشري في الكشف: والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيوب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، إذا كانت ملساء، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب. ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم، انتهى منه.

وهذا المعنى الذي ذكره الزمخشري معروف في كلام العرب، تقول العرب: حجر أخلق، أي أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء، وصخرة خلقاء بينة الخلق: أي ليس فيها وسم، ولا كسر، ومنه قول الأعشى:

قد يترك الدهرُ في خلقاء راسيةً وهياً وينزل منها الأعصم الصّدا

والدهر في البيت: فاعل يترك، والمفعول به: وهياً. يعني أن صرف الدهر قد يؤثر في الحجارة الصم السالمة من الكسر والوصم، فيكسرها، ويوهيها، ويؤثر في العصم من الأوعال برؤوس الجبال، فينزلهما من معاقلها، ومن ذلك أيضاً قول ابن أحمر يصف فرساً، وقد أنشده صاحب اللسان للمعنى المذكور:

بمقلص درك الطريدة متنه كصفا الخليقة بالفضاء الملبّد

فقوله: كصفا الخليقة، يعني أن مثن الفرس المذكور كالصخرة الملساء التي لا كسر فيها، ولا وسم، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته. والسهم المخلوق: هو الأملس المستوي.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر لي لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض، والله - جل وعلا - أعلم. وقوله - جل وعلا - في الآية الكريمة: ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي لنبيّن لكم بهذا النقل من طور إلى طور، كمال قدرتنا على البعث بعد الموت، وعلى كل شيء؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، مع ما بين النطفة والتراب من المنافاة والمغايرة، وقدر على أن يجعل النطفة علقه، مع ما بينهما من التباين والتغاير، وقدر على أن يجعل العلقه مضغة، والمضغة عظاماً، فهو قادر بلا شك على إعادة ما بدأه من الخلق، كما هو واضح، وقوله: ﴿لَنُبَيِّنَ﴾ الظاهر أنه متعلق بخلقناكم، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾... الآية؛ أي خلقناكم خلقاً من بعد خلق على التدرج المذكور: لنبيّن لكم قدرتنا على البعث وغيره. وقال الزمخشري مبيناً نكتة حذف مفعول ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما نصه: وورود الفعل غير مُعدّى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبيّن بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنّيه الذكر، ولا يحيط به الوصف. انتهى منه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبْلَغُ مُسَمًّى﴾؛ أي نقّر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها، من الأحمال، والأجنة إلى أجل مسمى؛ أي معلوم معيّن في علمنا، وهو الوقت الذي قدره الله لوضع الجنين، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاءه الله - جل وعلا - فتارة تضعه أمه لسته أشهر، وتارة لتسعة، وتارة لأكثر من ذلك، وما لم يشأ الله إقراره من الحمل مجّته الأرحام وأسقطته، ووجه رفع: ونقرّ أن المعنى ونحن نقّر في الأرحام، ولم يعطف على قوله ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لأنه ليس علة لما قبله، فليس المراد خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، لنقرّ في الأرحام ما نشاء، وبذلك يظهر لك رفعه، وعدم نصبه، وقراءة من قرأ: ونقرّ بالنصب عطفاً على لنبيّن، على المعنى الذي نفينا على قراءة الرفع، ويؤيد معنى قراءة النصب قوله بعده: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾: أي وذلك بعد أن يخلق الله المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم ينشئ ذلك الجنين خلقاً آخر، فيخرجه من بطن أمه في الوقت المعين لوضعه في حال كونه طفلاً أي ولدأ بشراً سوياً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي لتبلغوا كمال قوتكم، وعقلكم، وتمييزكم بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم في غاية الضعف وعدم علم شيء.

وقد قدمنا أقوال العلماء في المراد بالأشد، وهل هو جمع أو مفرد مع بعض الشواهد العربية في سورة الأنعام، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوِي﴾؛ أي ومنكم أيها الناس من يتوفى من قبل؛ أي من قبل بلوغه أشده، ومنكم من ينسأ له في أجله، فيعمر حتى يهرم فيرد من بعد شبابه وبلوغه غاية أشده إلى أرذل العمر، وهو الهرم، حتى يعود كهيشته في حال صباه من الضعف، وعدم العلم.

وقد أوضحنا كلام العلماء في أرذل العمر ومعنى ﴿لَيْكُنْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ في سورة [النحل: ٧٠]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته، على بعث الناس بعد الموت، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه إلى آخر الأطوار المذكورة، ذكره - جل وعلا - في مواضع من كتابه مبيناً أنه من البراهين القطعية على قدرته، على البعث وغيره.

فمن الآيات التي ذكر فيها ذلك من غير تفصيل لتلك الأطوار قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [١٣] وقد خلقكم أطواراً [١٤] [نوح]: أي طوراً بعد طور كما بينا. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ١] وقوله في آية الزمر هذه في ظلمات ثلاث: أي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض وكساها اللحم، وجعل فيها العروق والعصب، وفتح مجاري البول والغائط، وفتح العيون والأذان والأفواه وفرق الأصابع وشد رؤوسها بالأظفار إلى غير ذلك من غرائب صنعه، وعجائبه وكل هذا في تلك الظلمات الثلاث، لم يحتاج إلى شق بطن أمه وإزالة تلك الظلمات.

سبحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، ولأجل هذه الغرائب والعجائب من صنعه تعالى قال بعد التنبيه عليها: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ٦]. ومن الآيات التي أوضح فيها تلك الأطوار على التفصيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلْسَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [١٢] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَقَارٍ مَكِينٍ [١٣] ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمُلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَاهُ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [١٤] ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ [١٥] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [١٦] [المؤمنون].

وقد ذكر تعالى تلك الأطوار مع حذف بعضها في قوله في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ رَّبِّ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوِّي مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ أُمُرٍ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾ [غافر] وقوله تعالى في الكهف: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ رَّبِّ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ رَجُلًا﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَّا خَلَقْتُمُ﴾ [طه: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بيّنت السّنة الصحيحة القدر الذي تمكنه النطفة قبل أن تصير علقه، والقدر الذي تمكنه العلقه، قبل أن تصير مضغة، والقدر الذي تمكنه المضغة قبل أن تصير مضغة.

قال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية ووكيع، وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني واللفظ له، حدثنا أبي وأبو معاوية، ووكيع قالوا: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» الحديث، ففي هذا الحديث الصحيح تصريحه ﷺ بأن الجنين يمكث أربعين يوماً نطفة، ثم يصير علقه، ويمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يصير مضغة، ويمكث كذلك أربعين يوماً، ثم ينفخ فيه الروح، فنفخ الروح إذاً في أول الشهر الخامس من أشهر الحمل.

وقال البخاري رحمته الله في صحيحه: حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا شعبة، أنبأني سليمان الأعمش، قال: سمعت زيد بن وهب، عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربعة: برزقه وأجله وشقي أو سعيد» الحديث. وهذه الرواية في البخاري ينقص منها ذكر العمل، وهو مذكور في روايات أخر صحيحة معروفة. وقد قدمنا وجه الدلالة المقصودة من الحديث المذكور، والله أعلم.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف: وهو أن يقال: ما وجه الإفراد في قوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ مع أن المعنى نخرجكم أطفالاً، وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة.

منها: ما ذكره ابن جرير الطبري قال: ووحد الطفل وهو صفة للجمع؛ لأنه مصدر مثل عذر وزور وتبعه غيره في ذلك.

ومنها: قول من قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾: أي نخرج كل واحد منكم طفلاً، ولا يخفى عدم اتجاه هذين الجوابين.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له - : الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن، هو أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس، يكثر إطلاقه مراداً به الجمع مع تنكيره كما في هذه الآية، وتعريفه بالألف واللام، وبالإضافة، فمن أمثله في القرآن مع التنكير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۖ﴾ [القمر: ٥٤] أي وأنهار بدليل قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ أي أئمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَعَ لَكُمْ عَنْ شَقِّهِ شِقَاقٌ﴾ [النساء: ٤]؛ أي أنفساً، وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَكَ مَنَاجِرُ﴾ [المؤمنون: ١٧] أي سامرين، وقوله تعالى: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] أي بينهم، وقوله تعالى: ﴿وَصَوْنٌ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أي رفقاء، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾ [المائدة: ٦] أي مجنبن أو أجنباً، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] أي مظاهرون. ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وكان بنو فزارة شرَّ عمِّ وكنْتُ لهم كشر بني الأخينا

يعني: شر أعمام. وقول قعنب ابن أم صاحب:

ما بال قوم صديق ثم ليس لهم دين وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

يعني: ما بال قوم أصدقاء. وقول جرير:

نصبني الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأعين أعداء وهنَّ صديق

يعني: صديقات. وقول الآخر:

لعمري لئن كنتم على النأى والنوى بكم مثل ما بي إنكم لصديق

وقول الآخر:

يا عاذلاتي لا تزدن ملامة إن العواذل ليس لي بأمر

أي: لسن لي بأمراء.

ومن أمثله في القرآن واللفظ مضاف قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِهُ أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ [النور: ٦١]؛ أي أصدقائكم، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]؛ أي أوامره، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ أي نِعَم الله، وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا﴾ ... الآية [الحجر: ٦٨]؛ أي أضيافي، ونظير ذلك من كلام العرب قول علقمة بن عبدة التميمي:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

أي: وأما جلودها فصلبية. وقول الآخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمنٌ خميص

أي بطونكم. وهذا البيت والذي قبله أنشدتهما سيبويه في كتابه مستشهداً بهما لما ذكرنا.
ومن أمثلة ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا أسلموا إننا أخوكم وقد سلّمت من الإخَنِ الصّدور
أي إنا إخوانكم. وقول جرير:

إذا أبأؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

أي إذا أبأؤنا وأبأوك عدوا، وهذا البيت، والذي قبله يحتمل أن يراد بهما جمع التصحيح للأب وللأخ، فيكون الأصل: أبون وأخون فحذت النون للإضافة، فصار كلفظ المفرد.

ومن أمثلة: جمع التصحيح في جمع الأخ بيت عقيل بن علفة المذكور آنفاً، حيث قال فيه: كشر بني الأخينا. ومن أمثلة تصحيح جمع الأب قول الآخر:

فلما تبَيَّن أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

ومن أمثلة ذلك في القرآن، واللفظ معرف بالألف واللام قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]؛ أي بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]؛ أي الغرف بدليل قوله: ﴿لَهُمْ عَرْقٌ مِّنْ فَوْقِهَا عَرْقٌ مَّيْنَةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] وقوله: ﴿وَهُمْ فِي الْعَرْفَتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٣٣] أي الملائكة بدليل قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] أي الأدبار بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]؛ أي الأطفال، وقوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَادُوْنَ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ أي الأعداء، ونحو هذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب: وهو في النعت بالمصدر مطرد، كما تقدم مراراً.

ومن أمثلة ذلك قول زهير:

متى يَشْتَجِرَ قومٌ يقل سرواتهم هم بيننا هم رضى وهم عدل

أي: عدول مرضيون. وهناك مسائل تتعلق بمعاني الآية يرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾، هذا برهان قاطع آخر على البعث، وقوله: ﴿وَتَرَى﴾: أي يا نبي الله؛ وقيل: وترى أيها الإنسان المخاطب: وهي رؤية بصرية تتعدى إلى مفعول واحد.

فقوله: ﴿هَامِدَةً﴾ حال من الأرض، لا مفعول ثان لترى. وقوله: هامة؛ أي يابسة قاحلة لا نبات فيها.

وقال بعض أهل العلم: هامة: أي دراسة الآثار من النبات، والزرع. قالوا: وأصل الهمود الدروس والدثور. ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وأرى ثيابك بالياتٍ هُمّداً

أي وأرى ثيابك باليات دارسات. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾؛ أي سواء كان من المطر، أو الأنهار أو العيون أو السواقي ﴿أَهْتَزَّتْ﴾؛ أي تحركت بالنبات. ولما كان النبات نابتاً فيها متصلاً بها، كان اهتزازه كأنه اهتزازها فأطلق عليها بهذا الاعتبار، أنها اهتزت بالنبات؛ وهذا أسلوب عربي معروف.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات، وقوله: ﴿وَرَبَّتْ﴾؛ أي زادت وارتفعت. وقال بعض أهل العلم: وربت: انتفخت لأجل خروج النبات. وقال ابن جرير الطبري: وربت؛ أي أضعفت النبات بمجيء الغيث.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أصل المادة التي منها ربت: الزيادة، والظاهر أن معنى الزيادة الحاصلة في الأرض هي أن النبات لما كان نابتاً فيها متصلاً بها صار كأنه زيادة حصلت في نفس الأرض.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت، إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع. اه منه. والاهتزاز أصله: شدة الحركة. ومنه قوله:

تَشْنِي إِذَا قَامَتْ وَتَهْتَزُّ إِنْ مَشَتْ كَمَا اهْتَزَّ غَضُنُّ الْبَانِ فِي وَرَقٍ خُضِرَ

وقوله: ﴿وَأَنْبَتَتْ﴾؛ أي أنبت الله فيها ﴿مِنْ كُلِّ نَوْعٍ﴾؛ أي صنف من أصناف النبات، والزرع، والثمار ﴿بِهَيْجٍ﴾: أي حسن، والبهجة: الحسن. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] تقول: بُهِج بالضم بهجة فهو بهيج، إذا كان حسناً. وقرأ عامة السبعة: وربت، وهو من قولهم: ربا يربو إذا نما وزاد. وقرأ من الثلاثة أبو جعفر يزيد بن القعقاع: وربأت بهمة مفتوحة بعد الباء: أي ارتفعت، كأنه من الربيئة أو الربيئي، وهو الرقيب الذي يعلو على شيء مشرف يحرس القوم ويحفظهم.

ومنه قول امرئ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبْلَ ذَاكَ مَخْمَلاً كَذَبَ الْعَصَا يَمْشِي الضَّرَاءَ وَيَتَّقِي

وما أشار إليه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن إحياء الأرض بعد موتها، برهان قاطع على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم؛ لأن الجميع

إحياء بعد موت، وإيجاد بعد عدم بينه في آيات كثيرة، وقد قدمنا في سورة البقرة والنحل، كثرة الاستدلال بهذا البرهان في القرآن على البعث، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَرَ نَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٦] [فصلت] وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]: أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ أي خروجكم من القبور أحياء بعد الموت وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِّ مَيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى ثَأْنِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٥٠] [الروم] وقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ﴾ [فاطر: ٩] وقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] ومن ذلك قوله هنا: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ بدليل قوله بعده: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [٧].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٨] ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَوْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ [٩].

قال بعض أهل العلم: الآية الأولى التي هي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [٣] نازلة في الأتباع الجهلة الذين يجادلون بغير علم، اتباعاً لرؤسائهم، من شياطين الإنس والجن، وهذه الآية الأخيرة في الرؤساء الدعاة إلى الضلال المتبوعين في ذلك، ويدل لهذا أنه قال في الأولى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ وقال في هذه: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فبين بذلك أنه مضل لغيره، متبوع في الكفر والضلال، على قراءة الجمهور بضم ياء يضل. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمر: بفتح الياء، فليس في الآية دليل على ذلك، وقد قدمنا معنى جدال الكفرة في الله بغير علم، فأعني عن إعادته هنا.

وقال بعض العلماء في قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي بدون علم ضروري، حاصل لهم بما يجادلون به ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي استدلال، ونظر عقلي، يهتدي به العقل للصواب ﴿وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي وحي نير واضح، يعلم به ما يجادل به، فليس عنده علم ضروري ولا علم مكتسب بالنظر الصحيح العقلي، ولا علم من وحي، فهو جاهل محض من جميع الجهات، وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ حال من ضمير الفاعل المستكن في: يجادل؛ أي يخاصم بالباطل في حال كونه ثاني عطفه؛ أي لاوي عنقه عن قبول الحق استكباراً وإعراضاً، فقوله: ثاني اسم فاعل ثنى الشيء إذا لواه، وأصل العطف الجانب، وعطفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركيه. تقول العرب: ثنى فلان عنك عطفه: تعني أعرض عنك؛ وإنما عبر العلماء هنا بالعنق فقالوا: ثاني عطفه:

لاوي عنقه، مع أن العطف يشمل العنق وغيرها؛ لأن أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان، يلويها، ويصرف وجهه عن الشيء بليها. والمفسرون يقولون: إن اللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونحوها من الآيات مما لم تظهر فيه العلة الغائبة، كقوله: ﴿فَاللَّفْطَةُ هَالَةٌ فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية [القصص: ٨]. ونحو ذلك لام العاقبة، والبلاغيون يزعمون أن في ذلك استعارة تبعية، في معنى الحرف. وقد وعدنا بإيضاح ذلك في سورة القصص.

ونقول هنا: إن الظاهر في ذلك أن الصواب فيه غير ما ذكروا، وأن اللام في الجميع لام التعليل، والمعنى واضح لا إشكال فيه كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمته الله في مواضع من تفسيره.

وإيضاح ذلك أن الله هو الذي قدر على الكافر في أزمه أن يجادل في الله بغير علم في حال كونه لاوي عنقه إعراضاً عن الحق، واستكباراً. وقد قدر عليه ذلك ليجعله ضالاً مضلاً وله الحكمة البالغة في ذلك كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]: أي لئلا يفقهوه وكذلك: ﴿فَاللَّفْطَةُ هَالَةٌ فَرَعُونَ﴾ [القصص: ٨]؛ أي قدر الله عليهم أن يلتقطوه لأجل أن يجعله لهم عدواً وحزناً؛ وهذا واضح لا إشكال فيه كما ترى.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من إعراض بعض الكفار عن الحق واستكبارهم أوضحه في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَكُنْ مُسْتَكْبِرًا كَانُوا لَا يَسْمَعُهَا﴾ [لقمان: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْنَ الْمُتَنِفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝١١﴾ [النساء] وقوله تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَلَا تَصَغِرْ هَذَكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]؛ أي لا تمل وجهك عنهم، استكباراً عليهم، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢٨ فَوَكَىٰ رَبُّكَ قَالَ سَجِدْ أَوْ حُجِّنْ ۝٢٩﴾ [الذاريات] فقوله: ﴿فَوَكَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى: ثنى عطفه؛ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَقْمَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَرْضًا وَنَا بِحَاجَتِهِ﴾... الآية [الإسراء: ٨٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَوْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي ذل وإهانة، وقد أذل الله الذين جادلوا في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير كأبي جهل بن هشام، والنضر بن الحارث بالقتل يوم بدر.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من ثنى عطفه استكباراً عن الحق وإعراضاً عنه عامله الله بنقيض قصده فأذله وأهانته؛ وذلك الذل والإهانة نقيض ما كان يؤمله من الكبر والعظمة.

وهذا المفهوم من هذه الآية دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِسَلَفِينَ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله في إبليس لما استكبر: ﴿فَأَقِمْ وَفَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار: الذل والهوان، عياداً

بالله من ذلك، كما قدمنا إيضاحه. وقوله: ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي نحرقه بالنار، ونذيقه ألم حرها يوم القيامة: وسمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه له - جل وعلا -، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ الْغَالِينَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلَمُ لِقَعِيدٍ ﴿١٦﴾﴾. المعنى أن الكافر إذا أذيق يوم القيامة عذاب الحريق، يقال له ذلك؛ أي هذا العذاب الذي نذيقه بسبب ما قدمت يداك؛ أي قدمته في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلَمُ لِقَعِيدٍ﴾ [آل عمران: ١٨٢] فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَتُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلَمُ لِقَعِيدٍ﴾ في محل خفض عطفاً على ما المجرورة بالباء.

والمعنى هذا العذاب الذي يذيقه الله حصل لك بسببين، وهما ما قدمته يداك، من عمل السوء من الكفر والمعاصي وعدالة من جازاك، ذلك الجزاء الوفاق، وعدم ظلمه. وقد أوضحنا فيما مضى إزالة الإشكال المعروف في نفي صيغة المبالغة، في قوله: ﴿لَيْسَ يَظْلَمُ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وفي هذه الآية الكريمة ثلاثة أسئلة:

الأول: هو ما ذكرنا آنفاً أنا أوضحنا الجواب عنه سابقاً، وهو أن المعروف في علم العربية أن النفي إذا دخل على صيغة المبالغة، لم يقتض نفي أصل الفعل.

قلو قلت: ليس زيد بظلام للناس، فمعناه المعروف: أنه غير مبالغ في الظلم، ولا ينافي ذلك حصول مطلق الظلم منه. وقد قدمنا إيضاح هذا.

والسؤال الثاني: أنه أسند كل ما قدم إلى يديه في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ وكفره الذي هو أعظم ذنوبه، ليس من فعل اليد، وإنما هو من فعل القلب واللسان، وإن كان بعض أنواع البطش باليد، يدل على الكفر، فهو في اللسان والقلب أظهر منه في اليد، وزناه لم يفعله بيده، بل بفرجه، ونحو ذلك من المعاصي التي تزاوّل بغير اليد.

والجواب عن هذا ظاهر وهو أن من أساليب اللغة العربية، التي نزل بها القرآن إسناد جميع الأعمال إلى اليد، نظراً إلى أنها الجارحة التي يزاوّل بها أكثر الأعمال فغلبت على غيرها، ولا إشكال في ذلك.

والسؤال الثالث: هو أن يقال ما وجه إشارة البعد في قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ مع أن العذاب المشار إليه قريب منه حاضر؟.

والجواب عن هذا أن من أساليب اللغة العربية وضع إشارة البعد موضع إشارة القرب. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الْمَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾... الآية [البقرة: ١، ٢]: أي هذا الكتاب.

ومن شواهد ذلك في اللغة العربية قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تَكْ خيلي قد أُصِيبَ صَمِيمُهَا فَعَمِدًا عَلَى عَيْنِي تَيَمَّمْتُ مَالِهَا
أَقُولُ لَهُ وَالرَّمْحُ يَأْطُرُ مَتْنُهُ تَأْمَلُ خِفَافًا إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَا

يعني أنا هذا، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكافر يقال له يوم القيامة: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ الآية. لا يخفى أنه توبيخ، وتفريع، وإهانة له. وأمثال ذلك القول في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿حُدُّوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَبِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٧﴾، ضمير الفاعل في قوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ راجع إلى الكافر المشار إليه في قوله: ﴿وَلَنْ أَصَابَهُ مِنْهُ فَقَدْ أَفْلَحَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛ أي يدعو ذلك الكافر المذكور من دون الله، ما لا يضره، إن ترك عبادته، وكفر به، وما لا ينفعه، إن عبده، وزعم أنه يشفع له.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الأوثان، لا تضر من كفر بها، ولا تنفع من عبدها بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقُلُّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٦ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٧ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٨﴾ [الشعراء].

إذ المعنى أنهم اعترفوا بأنهم لا يسمعون، ولا ينفعون ولا يضررون؛ ولكنهم عبدوهم تقليداً لأبائهم؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفيه تعالى النفع والضرر معاً، عن ذلك المعبود من دون الله في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ مع إثباتهما في قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾.

لأن صيغة التفضيل في قوله: أقرب دلت على أن هناك نفعاً، وضرراً، ولكن الضرر أقرب من النفع، فالجواب أن للعلماء أجوبة عن ذلك.

منها: ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: الضر والنفع منفيان عن الأصنام، مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم؛ وذلك أن الله تعالى سَفَّ الكافر، بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرراً، ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله، أنه يستنفع به،

حين يستشفع به، ثم قال يوم القيامة: يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى، ولبئس العشير؛ وكرر يدعو كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه. ثم قال لمن ضره بكونه معبوداً: أقرب من نفعه، بكونه شافعاً: لبئس المولى، ولبئس العشير، اه منه.

ولا يخفى أن جواب الزمخشري هذا غير مقنع؛ لأن المعبود من دون الله، ليس فيه نفع البتة، حتى يقال فيه: إن ضره أقرب من نفعه، وقد بين أبو حيان عدم اتجاه جوابه المذكور، ومنها: ما أجاب به أبو حيان في البحر.

وحاصله أن الآية الأولى في الذين يعبدون الأصنام، فالأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها؛ ولذا قال فيها: ما لا يضره وما لا ينفعه؛ والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام، هي التعبير بلفظة «ما» في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾؛ لأن لفظة «ما» تأتي لما لا يعقل، والأصنام لا تعقل.

أما الآية الأخرى فهي فيمن عبد بعض الطغاة المعبودين من دون الله كفرعون القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فإن فرعون ونحوه من الطغاة المعبودين قد يصدقون نعم الدنيا على عابديهم؛ ولذا قال له القوم الذين كانوا سحرة: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ❶ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِينَ ❷ [الشعراء] فهذا النفع الدنيوي بالنسبة إلى ما سيلاقونه، من العذاب، والخلود في النار كلا شيء، فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار، أقرب من نفعه، بعرض قليل زائل من حطام الدنيا، القرينة على أن المعبود في هذه الآية الأخيرة: بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء: هي التعبير بمن تأتي تأني لمن يعقل في قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ هذا هو خلاصة جواب أبي حيان وله اتجاه، والله تعالى أعلم.

واعلم أن اللام في ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فيها إشكال معروف، وللعلماء عن ذلك أجوبة، ذكر ابن جرير الطبري ❸ منها ثلاثة:

أحدها: أن اللام مترحلة عن محلها الأصلي، وأن ذلك من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، والأصل: يدعو من لضره أقرب من نفعه، وعلى هذا فمن الموصولة في محل نصب مفعول به ليدعوا، واللام موطئة للقسم، داخلة على المبتدأ، الذي هو وخبره صلة الموصول، وتأكيده المبتدأ في جملة الصلة باللام، وغيرها لا إشكال فيه.

قال ابن جرير: وحكي عن العرب سماعاً: منها عندي لما غيره خير منه؛ أي عندي ما لغيره خير منه، وأعطيتك لما غيره خير منه؛ أي ما لغيره خير منه.

والثاني: منها أن قوله: يدعوا تأكيد ليدعوا في الآية التي لما قبلها، وعليه فقوله: ﴿لَنْ ضَرُّهُ﴾ في محل رفع بالابتداء، وجملة ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ صلة الموصول الذي هو من والخبر هو جملة ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾... الآية. وهذا المعنى كقول العرب: لما فعلت لهو خير لك.

قال ابن جرير: لما ذكر هذا الوجه: واللام الثانية في ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ جواب اللام الأولى. قال: وهذا القول على مذهب أهل العربية أصح، والأول إلى مذهب أهل التأويل أقرب، اهـ.

والثالث: منها أن «من» في موضع نصب بيدعوا، وأن اللام دخلت على المفعول به، وقد عزا هذا لبعض البصريين مع نقله عن عزاه إليه أنه شاذ، وأقربها عندي الأول. وقال القرطبي رحمه الله: ولم ير منه نفعاً أصلاً، ولكنه قال: ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ترفيعاً للكلام كقوله: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَى هَذَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤] وباقي الأقوال في اللام المذكورة تركناه، لعدم اتجاهه في نظرنا، والعلم عند الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، المولى: هو كل ما انعقد بينك وبينه سبب، يواليك، وتواليه به. والعشير: هو المعاشر، وهو الصاحب والخليل.

والتحقيق: أن المراد بالمولى والعشير المذموم في هذه الآية الكريمة، هو المعبود الذي كانوا يدعونه من دون الله، كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَضَلُّلُ الْبَعِيدِ﴾؛ أي البعيد عن الحق والصواب.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥). في هذه الآية الكريمة أوجه من التفسير معروفة عند العلماء، وبعضها يشهد لمعناه قرآن.

الأول: أن المعنى من كان من الكفرة الحسدة له ﷺ، يظن أن لن ينصره الله؛ أي أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾: أي بحبل إلى السماء؛ أي سماء بيته، والمراد به السقف؛ لأن العرب تسمي كل ما علاك سماء كما قال:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

كما أوضحناه في سورة الحجر.

والمعنى فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؛ أي ليختنق بالحبل، فيشده في عنقه، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت، وإنما أطلق القطع على الاختناق؛ لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه؛ ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس: قطع، فلينظر إذا اختنق ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾: أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله نبيه ﷺ، في الدنيا والآخرة.

والمعنى: لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر الله لنبيه محمد ﷺ.

قال الزمخشري: وسمي فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكده محسوده، إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، اهـ منه.

وحاصل هذا القول أن الله يقول لحاسديه ﷺ، الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره، موتوا بغيطكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم، وممن قال بهذا القول: مجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير، وهو أظهرها عندي.

ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنْبَاءَ مِنَ الْقَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا يَغِيظَكُمُ﴾.

الوجه الثاني: أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، والحال أن النصر يأتيه ﷺ من السماء، فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي بذلك السبب، حتى يصعد إلى السماء، فيقطع نزول الوحي من السماء، فيمنع النصر عنه ﷺ.

والمعنى أنه وإن غاظه نصر الله لنبيه فليس له حيلة، ولا قدرة على منع النصر؛ لأنه لا يستطيع الارتقاء إلى السماء ومنع نزول النصر منها عليه ﷺ. وعلى هذا القول فصيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعْ﴾ للتعجيز، ثم لينظر ذلك الحاسد العاجز عن قطع النصر عنه ﷺ هل يذهب كيده إذا بلغ غاية جهده في كيد النبي ﷺ ما يغيظه من نصر الله لنبيه ﷺ.

والمعنى أنه إن أعمل كل ما في وسعه، من كيد النبي ﷺ ليمنع عنه نصر الله، فإنه لا يقدر على ذلك، ولا يذهب كيده ما يغيظه من نصر الله لنبيه ﷺ.

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْظُرُوا فِي الْأَنْبَاءِ ۚ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [ص] وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة الحجر.

ولبعض أهل العلم قول ثالث في معنى الآية الكريمة وهو أن الضمير في ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ عائد إلى من في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق، وأن المعنى من كان يظن أن لن ينصره الله؛ أي لن يرزقه، فليختنق، وليقتل نفسه، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه، أو فليختنق، وليمت غيظاً وغماً، فإن ذلك لا يغير شيئاً مما قضاه الله وقدره، والذين قالوا هذا القول قالوا: إن العرب تسمي الرزق نصراً، وعن أبي عبيدة قال: وقف علينا سائل من بني بكر، فقال: من ينصرني نصره الله، يعني: من يعطيني أعطاه الله، قالوا: ومن ذلك قول العرب: أرض منصورة: أي مطورة، ومنه قول رجل من بني فقعس:

وإنك لا تُعطي امرأً فوق حقِّه ولا تملك الشَّق الذي ألفتَ ناصره
أي: معطيه.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: وهذا القول الأخير ظاهر السقوط، كما ترى، والذين قالوا: إن الضمير في قوله: ﴿أَنْ لَّنْ نَصْرُهُ اللَّهُ﴾ راجع إلى الدين، أو الكتاب، لا يخالف قولهم قول من قال: إن الضمير للنبي ﷺ؛ لأن نصر الدين، والكتاب هو نصره ﷺ كما لا يخفى، ونصر الله له ﷺ في الدنيا، بإعلانه كلمته، وقهره أعداءه، وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه، ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾ [غافر] فإن قيل: قررتم أن الضمير في ينصره، عائد إليه ﷺ، وهو لم يجر له ذكر، فكيف قررتم رجوع الضمير إلى غير مذكور.

فالجواب: هو ما قاله غير واحد من أنه ﷺ، وإن لم يجر له ذكر، فالكلام دال عليه؛ لأن الإيمان في قوله في الآية التي قبلها تليها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ... الآية. هو الإيمان بالله، وبمحمد ﷺ، والانقلاب عن الدين المذكور في قوله: ﴿أَنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ انقلاب عما جاء به محمد ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعَ﴾ قرأه أبو عمرو، وابن عامر، وورش، عن نافع بكسر اللام على الأصل في لام الأمر، وقرأه الباقون بإسكان اللام تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقَعْلُ مَا يَشَاءُ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في مواضع من هذا الكتاب المبارك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ٤٩﴾ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٥٠﴾ وَلَهُمْ مَقَلِّعٌ مِنْ حَدِيدٍ ٥١﴾. ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أنواع عذاب أهل النار، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، جاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله، فقوله هنا: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾؛ أي قطع الله لهم من النار ثياباً، وألبسهم إياها تَتَّقِدُ عليهم كقوله فيهم: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والسراويل: هي الثياب التي هي القمص، كما قدمنا إيضاحه، وكقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] والغواشي: جمع غاشية: وهي غطاء كاللحاف، وذلك هو معنى قوله هنا: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ وقوله تعالى هنا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٥٢﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٥٣﴾ [الدخان] والحميم: الماء البالغ شدة الحرارة، وكقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَأَنَّهَمْ يَشَوْنَ الْمَوْجُوهَ﴾... الآية [الكهف: ٢٩]. وقوله

هنا: ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾: أي يذاب بذلك الحميم، إذا سقوه فوصل إلى بطونهم، كل ما في بطونهم من الشحم والأمعاء وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ والعرب تقول: صهرت الشيء فانصهر، فهو صهير: أي أذبتة فذاب، ومنه قول ابن أحمر يصف تغذية قطاة لفرخها في فلاة من الأرض:

تروي لقي أَلْقِي فِي صَفْصَفٍ تَصْهَرُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهَرُ

أي تذيبه الشمس، فيصبر على ذلك، ولا يذوب، وقوله: ﴿وَالْجُلُودُ﴾ الظاهر أنه معطوف على «ما» من قوله: ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ التي هي نائب فاعل يصهر، وعلى هذا، الظاهر المتبادر من الآية، فذلك الحميم يذيب جلودهم، كما يذيب ما في بطونهم؛ لشدة حرارته.

إذ المعنى: يصهر به ما في بطونهم، وتصهر به الجلود؛ أي جلودهم، فالألف واللام قامتا مقام الإضافة، وقال بعض أهل العلم: والجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على تصهر، وتقديره: وتحرق به الجلود، ونظير ذلك في تقدير العامل المحذوف الرفع الباقي معموله مرفوعاً بعد الواو قول لبيد في معلقته:

فعلا فروغ الأئيهقان وأطفلت بالجهلتيين ظباؤها ونعامها

يعني: وباض نعامها؛ لأن النعامة لا تلد الطفل، وإنما تبيض، بخلاف الطيبة فهي تلد الطفل، ومثاله في المنصوب قول الآخر:

إذا ما الغانياث برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا
تري منّا الأيور إذا رأوها قياماً راكعين وساجدين

يعني: زججن الحواجب، وأكحلن العيون وقوله:

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورُمحاً

أي: وحاملاً رمحاً؛ لأن الرمح لا يُتقلد، وقول الآخر:

تراه كأن الله يجدع أنفه وعينه إن مولاه ثاب له وفر

يعني: ويفقأ عينيه، ومن شواهد المشهورة قول الراجز:

علفتها تبناً وماء بارداً حتى شئت همالة عيناها

يعني: وسقيتها ماءً بارداً، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ... الآية [الحشر: ٩]: أي وأخلصوا الإيمان، أو ألفوا الإيمان، ومثال ذلك في المخفوض قولهم: ما كل بيضاء شحمة، ولا سوداء تمر؛ أي ولا كل سوداء تمر، وإلى هذه المسألة أشار في الخلاصة بقوله:

وهي انفردت

بعطف عامل مُزال قد بقي معموله دفعا لوهم اتقي

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ مَفْئِذٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٢٢) المقامع: جمع مقمعة بكسر الميم الأولى، وفتح الميم الأخيرة، ويقال: مقمعة بلا هاء، وهو في اللغة: حديدة كالمحجن يضرب بها على رأس الفيل: وهي في الآية مراذب عظيمة من حديد تضرب بها خزنة النار رؤوس أهل النار، وقال بعض أهل العلم: المقامع: سياط من نار، ولا شك أن المقامع المذكورة في الآية من الحديد لتصريحه تعالى بذلك.

وقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾، نزل في المبارزين يوم بدر، وهم: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وفي أقرانهم المبارزين من الكفار وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبه بن ربيعة، كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢٣).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن أهل النار كلما أرادوا الخروج منها، لما يصيبهم من الغم فيها عياداً بالله منها، أعيدوا فيها، ومنعوا من الخروج منها بيّنه في غير هذا الموضع، كقوله في المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٢٣) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (المائدة) وقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا... الآية، وقوله في آية الحج هذه: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ حذف فيه القول.

والمعنى أعيدوا فيها، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وهذا القول المحذوف في الحج صرح به في السجدة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] والمفسرون يقولون: إن لهب النار يرفعهم، حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم خزنة النار بمقامع الحديد، فتردهم في قعرها، نعوذ بالله منها، ومن كل ما يقرب إليها من قول وعمل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْكَرَّامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَكُفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٥).

اعلم أن خبر إن في قوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذوف كما ترى. والذي تدل عليه الآية أن التقدير إن الذين كفروا، ويصدون عن سبيل الله، نذيقهم من عذاب أليم. كما دل على هذا قوله في آخر الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

فإن قيل: ما وجه عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾؟ فالجواب من أربعة أوجه: واحد منها ظاهر السقوط.

الأول: هو ما ذكره بعض علماء العربية من أن المضارع، قد لا يلاحظ فيه زمان

معين من حال، أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، ومنه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] قاله أبو حيان وغيره.

الثاني: أن يصدون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: إن الذين كفروا، وهم يصدون، وعليه فالبجلة المعطوفة اسمية لا فعلية، وهذا القول استحسنة القرطبي.

الثالث: أن يصدون مضارع أريد به الماضي، أي كفروا، وصدوا وليس بظاهر.

الرابع: أن الواو زائدة، وجملة يصدون خبر إن؛ أي إن الذين كفروا يصدون.

وهذا هو الذي قدمنا أنه ظاهر السقوط، وهو كما ترى، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من أن من أعمال الكفار الصد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام بيّنه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿سَوَاءٌ أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قرأه عامة السبعة غير حفص عن عاصم: سواء، بضم الهمزة، وفي إعرابه على قراءة الجمهور هذه برفع سواء وجهان:

الأول: أن قوله ﴿أَلْعَكِفُ﴾ مبتدأ، والباد: معطوف عليه، وسواء خبر مقدم، وهو مصدر أطلق وأريد به الوصف.

فالمعنى: العاكف والبادي سواء؛ أي مستويان فيه، وهذا الإعراب أظهر الوجهين.

الثاني: أن سواء مبتدأ والعاكف فاعل سد مسد الخبر، والظاهر أن مسوغ الابتداء بالنكرة التي هي سواء، على هذا الوجه: هو عملها في المجرور الذي هو فيه، إذ المعنى سواء فيه العاكف والبادي، وجملة المبتدأ وخبره في محل المفعول الثاني: لجعلنا، وقرأ حفص عن عاصم: سواء بالنصب، وهو المفعول الثاني: لجعلنا التي بمعنى صيرنا. والعاكف فاعل سواء؛ أي مستوياً فيه العاكف والبادي. ومن كلام العرب: مررت برجل سواء هو والعدم. ومن قال: إن «جعل» في الآية تتعدى إلى مفعول واحد. قال: إن سواء حال من الهاء في جعلنا؛ أي وضعناه للناس في حال كونه سواء العاكف فيه والبادي كقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦]. وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالمسجد الحرام في هذه الآية الكريمة: يشمل جميع الحرم؛ ولذلك أخذ بعض العلماء من هذه الآية، أن رباة مكة لا تملك، وقد قدمنا الكلام مستوفى في هذه المسألة، وأقوال أهل العلم فيها، ومناقشة أدلتهم في سورة الأنفال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، والعاكف: هو المقيم في الحرم، والبادي: الطارئ عليه من البادية، وكذلك غيرها من أقطار الدنيا.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: «والبادي» قرأه أبو عمرو وورش، عن نافع بإثبات الياء، بعد الدال في الوصل، وإسقاطها في الوقف، وقرأه ابن كثير بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقرأه باقي السبعة بإسقاطها، وصلًا ووقفًا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» قد أوضحنا إزالة الإشكال عن دخول الباء على المفعول في قوله: بإلحاد، ونظائره في القرآن، وأكثرنا على ذلك من الشواهد العربية في الكلام على قوله تعالى: «وَهَزَى إِلَيْكَ يَمِينُكَ أَلْتَحَلَّةُ» [مريم: ٢٥] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

والإلحاد في اللغة أصله: الميل، والمراد بالإلحاد في الآية أن يميل، ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخول أولياء الكفر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه، وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمت الحرم. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان له فسطاطان: أحدهما: في طرف الحرم، والآخر: في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاتب أهله، أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم. قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر في هذه المسألة أن كل مخالفة بترك واجب، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته، أو عبده، فليس من الإلحاد، ولا من الظلم.

مسألة: قال بعض أهل العلم: من هم أن يعمل سيئة في مكة، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك، وإن لم يفعلها، بخلاف غير الحرم المكي من البقاع، فلا يعاقب فيه بالهم. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلاً أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم، وهذا ثابت عن ابن مسعود، ووقفه عليه أصح من رفعه، والذين قالوا هذا القول: استدلوا له بظاهر قوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»؛ لأنه تعالى رتب إذاعة العذاب الأليم، على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم: إن الباء في قوله: بإلحاد، لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم؛ أي ومن يهيم فيه بإلحاد، وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره.

فهذه الآية الكريمة مخصصة لعوم قوله ﷺ: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة» الحديث، وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ» العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله مكة وغيرها.

والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزمًا مصممًا عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فقولهم: ما بال المقتول: سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنه لم يفعل القتل، فبين النبي ﷺ بقوله: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» أن ذنبه الذي أدخله النار، هو عزمه المصمم وحرصه على قتل صاحبه المسلم. وقد قدمنا مراراً أن إن المكسورة المشددة تدل على التعليل كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه.

ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه، ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل، بسبب طير أباييل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل] لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم، فأهلكهم الله. بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما عزموا عليه، والعلم عند الله تعالى. والظاهر أن الضمير في قوله «فيه» راجع إلى المسجد الحرام، ولكن حكم الحرم كله في تغليظ الذنب المذكور كذلك. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. أي اذكر حين بؤأنا، تقول العرب: بؤأت له منزلاً، وبؤأته منزلاً، وبؤأته في منزل بمعنى واحد كلها بمعنى: هيأته له، ومكنت له فيه، وأنزلته فيه، فتبوأه: أي نزله، وتبؤأت له منزلاً أيضاً هيأته له، وأنزلته فيه فتبوأه المتعدي بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [المنكبات: ٥٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١]، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي مَاجِدٍ بَوَّأْتَهُ بِيَدِي لِحُدَا
أي: هيأته له، وأنزلته فيه، وبؤأت له كقوله هنا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، وبؤأته فيه، كقول الشاعر:

وَبُؤِّتَ فِي صَمِيمٍ مَعَشَرَهَا وَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مُبَوَّؤُهَا
أي نزلت من الكرم في صميم النسب، وتبؤأت له منزلاً كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا يَبْعَثُ مُبِؤَاتًا﴾ [يونس: ٨٧] وتبوأه كقوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْؤَاتٍ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩]. وأصل التبوء: من المباءة: وهي منزل القوم في كل موضع، فقوله: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ أي هيأناه له، وعرفناه إياه، ليبنيه بأمرنا على قواعده الأصلية المندرسة، حين أمرناه ببنائه، كما يهيا المكان لمن يريد النزول فيه.

والمفسرون يقولون: بؤأه له، وأراه إياه بسبب ريح تسمى الخجوج كنست ما فوق

الأساس، حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرساً، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه. وقيل: أرسل له مزنة فاستقرت فوقه، فكان ظلها على قدر مساحة البيت، فحفرا عن الأساس، فظهر لهما فبنايه عليه. وهم يقولون أيضاً: إنه كان مندرساً من زمن طوفان نوح، وأن محله كان مريض غنم لرجل من جرهم، والله تعالى أعلم.

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله بوأ مكانه لإبراهيم، فهيأه له، وعرفه إياه لبيته في محله، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله، وظاهر قوله: حين ترك إسماعيل، وهاجر في مكة ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] يدل على أنه كان مبنياً، واندرس، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ لأنه يدل على أن له مكاناً سابقاً، كان معروفاً. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾. متعلق بمحذوف، وقد دلت على تقدير المحذوف المذكور آية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فدلّت آية البقرة المذكورة على أن معنى آية الحج هذه ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ وعهدنا إليه؛ أي أوصيناه، أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين، وزادت آية البقرة أن إسماعيل مأمور بذلك أيضاً مع أبيه إبراهيم، وإذا عرفت أن المعنى وعهدنا إلى إبراهيم ألا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي، الآية، فاعلم أن في «أن» وجهين:

أحدهما: أنها هي المفسرة، وعليه فتطهير البيت من الشرك، وغيره هو تفسير العهد إلى إبراهيم؛ أي والعهد هو إيصاله بالتطهير المذكور.

وثانيهما: أنها مصدرية بناء على دخول «أن» المصدرية على الأفعال الطلبية.

فإن قيل: كيف تكون مفسرة للعهد إلى إبراهيم، وهو غير مذكور هنا؟

فالجواب أنه مذكور في سورة البقرة في المسألة بعينها، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فالمذكور هناك كأنه مذكور هنا؛ لأن كلام الله يصدق بعضه بعضاً، والتطهير هنا في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ يشمل التطهير المعنوي والحسي، فيطهره الطهارة الحسية من الأقدار، والمعنوية: من الشرك والمعاصي؛ ولذا قال: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وكانت قبيلة جرهم تضع عنده الأصنام تعبدونها من دون الله، وقد قدمنا في سورة الإسراء الكلام مستوفى فيما كان عند الكعبة من الأصنام عام الفتح، وطهرها رسول الله ﷺ من أنجاس الأوثان وأقدارها، كما أمر الله بذلك إبراهيم هنا وقال لنبينا ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، والمراد بالطائفين في هذه الآية: الذين يطوفون حول البيت، والمراد بالقائمين والركع السجود: المصلون؛ أي طهر بيتي للمتعبدين، بطواف، أو صلاة، والركع: جمع راكم، والسجود: جمع ساجد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ لفظة «شيئاً» مفعول

به: لِأَ تَشْرِكْ؛ أي لا تشرك بي شيئاً من الشركاء كائناً ما كان، ويحتمل أن تكون ما ناب عن المطلق، من لا تشرك: أي لا تشرك بي شيئاً من الشرك، لا قليلاً، ولا كثيراً. فالمعنى على هذا لا تشرك بي شركاً قليلاً، ولا كثيراً. وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص، وابن عامر في رواية هشام: بيتي بفتح الياء، وقرأ باقي السبعة بإسكانها. واعلم أن المؤرخين لهم كلام كثير في قصة بناء إبراهيم، وإسماعيل للبيت، ومن جملة ما يزعمون، أن البيت الحرام رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان، وأنه كان من ياقوتة حمراء، ودرج على ذلك ناظم عمود النسب فقال:

ودلت إبراهيم منزلة عليه فهي على قدر المساحة ثريه
وقيل دلته خجوج كنست ما حوله حتى بدا ما أسست
قبل الملائك من البناء قبل ارتفاعه إلى السماء

ومعلوم أن هذا ونحوه شبيهة بالإسرائيليات لا يصدق منه إلا ما قام دليل من كتاب، أو سنة على صدقه؛ ولذلك نقل من ذكر مثل ذلك في الغالب.

مسألة: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام قذر من الأقدار، ولا نجس من الأنجاس المعنوية، ولا الحسية، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضي الله، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات.

ولا شك أن دخول المصورين في المسجد الحرام حول بيت الله الحرام بآلات التصوير يصورون بها الطائفين والقائمين والركع السجود أن ذلك مناف لما أمر الله به من تطهير بيته الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود، فانتهاك حرمة بيت الله بارتكاب حرمة التصوير عنده لا يجوز؛ لأن تصوير الإنسان دلت الأحاديث الصحيحة على أنه حرام، وظاهرها العموم في كل أنواع التصوير؛ ولا شك أن ارتكاب أي شيء حرمه رسول الله ﷺ أنه من الأقدار، والأنجاس المعنوية التي يلزم تطهير بيت الله منها؛ وكذلك ما يقع في المسجد من الكلام المخبل بالدين والتوحيد لا يجوز إقرار شيء منه، ولا تركه. ونرجو الله لنا ولمن ولاه الله أمرنا، وإخواننا المسلمين التوفيق إلى ما يرضيه في حرمه، وسائر بلاده، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾. الأذان في اللغة: الإعلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وقول الحارث بن حنظلة:

أَذَّنَّا بِبَيْنِهَا أَسْمَاء رَبِّ ثَاوِي مَلْ مِنْهُ الثَّوَاء

والحج في اللغة: القصد، وكثرة الاختلاف، والتردد. تقول العرب: حج بنو فلان فلاناً: إذا قصدوه، وأطالوا الاختلاف إليه، والتردد عليه. ومنه قول المخبل السعدي:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ أَسْعَدَ أَنَّمَا تَخَاطَانِي رَبُّ الْمُنُونِ لِأَكْبَرَا
وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفِ حُلُولَا كَثِيرَةً يَحْجُونَ سِبَّ الزَّبْرِقَانِ الْمَزْغَفَرَا

قوله: يحجون يعني، يكثرون قصده، والاختلاف إليه، والتردد عليه. والسب بالكسر: العمامة، وعنى بكونهم يحجون عمامته أنهم يحجونه، فكنى عنه بالعمامة. والرجال في الآية: جمع راجل، وهو الماشي على رجله، والضامر: البعير ونحوه. المهزول: الذي أتعبه السفر. وقوله: «يأتين» يعني: الضوامر المعبر عنها بلفظ كل ضامر؛ لأنه في معنى وعلى ضوامر يأتين من كل فج عميق؛ لأن لفظة «كل» صيغة عموم، يشمل ضوامر كثيرة. والفج: الطريق، وجمعه: فجاج. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّاهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] والعميق: البعيد، ومنه قول الشاعر:

إِذَا الْحَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ يَمْدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَا حِجِبِ

وأكثر ما يستعمل العمق في البعد سفلًا. تقول: بئر عميقة؛ أي بعيدة القعر. والخطاب في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ لإبراهيم كما هو ظاهر من السياق. وهو قول الجمهور، خلافاً لمن زعم أن الخطاب لنبيينا - صلى الله عليه وعلى إبراهيم وسلم -، وممن قال بذلك: الحسن، ومال إليه القرطبي، فقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي وأمرنا إبراهيم أن أذن في الناس بالحج؛ أي أعلمهم، وناد فيهم بالحج: أي بأن الله أوجب عليهم حج بيته الحرام.

وذكر المفسرون أنه لما أمره ربه، أن يأذن في الناس بالحج قال: يا رب، كيف أبلغ الناس، وصوتي لا ينفذهم، فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه. وقيل: على الحجر. وقيل: على الصفا. وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت، حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أن يحج إلى يوم القيامة: لييك اللهم لييك.

قال ابن كثير رحمته الله بعد أن ذكر هذا الكلام: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة وغير واحد من السلف، والله أعلم، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة، انتهى منه.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مجزوم في جواب الطلب، وهو عند علماء العربية مجزوم بشرط مقدر، دلّ عليه الطلب على الأصح: أي إن تؤذن في الناس بالحج يأتوك، وإنما قال: «يأتوك»؛ لأن المدعو يتوجه نحو الداعي، وإن كان إتيانهم في الحقيقة للحج؛ لأن نداء إبراهيم للحج؛ أي يأتوك ملبيين دعوتك، حاجين بيت الله الحرام، كما ناديتهم لذلك، وعلى قول الحسن الذي ذكر عنه أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

ففي هذه الآية دليل على وجوب الحج، وعلى قول الجمهور، فوجوب الحج بها

على هذه الأمة، مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا، كما أوضحناه في سورة المائدة، مع أنه دلت آيات أخر، على أن الإيجاب المذكور على لسان إبراهيم وقع مثله أيضاً على لسان نبينا محمد ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾... الآية، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم. وقال وكيع، عن أبي العميس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما آسى على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته ﷺ، انتهى منه. وقد فصل الشيخ الكلام في الحج ومناسكه فليرجع من أراد الوقوف مع ما قال إلى الأصل.



قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾. اللام في قوله: ليشهدوا: هي لام التعليل، وهي متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي إن تؤذن فيهم يأتوك مشاة وركبانا، لأجل أن يشهدوا؛ أي يحضروا منافع لهم، والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم.

وقوله: ﴿مَنَافِعَ﴾ جمع منفعة، ولم يبين هنا هذه المنافع ما هي، وقد جاء بيان بعضها في بعض الآيات القرآنية، وأن منها ما هو دنيوي، وما هو أخروي، أما الدنيوي فكأرباح التجارة، إذا خرج الحاج بمال تجارة معه، فإنه يحصل له الربح غالباً، وذلك نفع دنيوي.

وقد أطبق علماء التفسير على أن معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أنه ليس على الحاج إثم ولا حرج، إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيام الحج، إن كان ذلك لا يشغله عن شيء، من أداء مناسكه كما قدمنا إيضاحه.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه بيان لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه وهذا نفع دنيوي.

ومن المنافع الدنيوية ما يصيبونه من البدن والذبائح كما يأتي تفصيله إن شاء الله قريباً كقوله في البدن: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ على أحد التفسيرين.

وقوله: ﴿تَكُلُّوا مِنْهَا﴾ في الموضوعين، وكل ذلك نفع دنيوي، وفي ذلك بيان أيضاً لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه.

وقد بينت آية البقرة على ما فسرناها جماعة من الصحابة ومن بعدهم، واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره، ووجه اختياره له، بكثرة الأحاديث الدالة عليه أن من المنافع المذكورة في آية الحج غفران ذنوب الحاج، حتى لا يبقى عليه إثم إن كان متقياً ربه في حجه بامثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وذلك أنه قال: إن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أن الحاج يرجع مغفوراً له، ولا يبقى عليه إثم سواء تعجل في يومين، أو تأخر إلى الثالث، ولكن غفران ذنوبه هذا مشروط بتقواه ربه في حجه، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ أي وهذا الغفران للذنوب، وحط الآثام إنما هو لخصوص من اتقى.

ومعلوم أن هذه الآية الكريمة فيها أوجه من التفسير غير هذا.

وممن نقل عنهم ابن جرير أن معناها أنه يغفر للحاج جميع ذنوبه، سواء تعجل في يومين أو تأخر، علي وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم، وعامر، ومعاوية بن قرة.

ولما ذكر أقوال أهل العلم فيها قال وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك، فمن تعجل من أيام منى الثلاثة، ففقر في اليوم الثاني، فلا إثم عليه، يحط الله ذنوبه إن كان قد اتقى في حجه، فاجتنب فيه ما أمر الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمر الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده، ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهم، فلم ينفر إلى النفر الثاني، حتى نفر من غد النفر الأول، فلا إثم عليه، لتكفير الله ما سلف من آثامه، وإجرامه إن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده.

وإنما قلنا: إن ذلك أولى تأويلاته: لتظاهر الأخبار، عن رسول الله ﷺ أنه قال «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وأنه قال «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة» وساق ابن جرير رحمه الله بأسانيده أحاديث دالة على ذلك ففي لفظ له أن النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة» وفي لفظ له، عن عمر يبلغ به النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإن المتابعة بينهما تنفي الفقر والذنوب كما ينفي الكير الخبث أو خبث الحديد» وفي لفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضيت حجك فانت مثل ما ولدتك أمك» وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول بذكر جميعها الكتاب مما ينبئ عن أن من حج، فقضاه بحدوده

على ما أمره الله، فهو خارج من ذنوبه كما قال جل ثناؤه: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] لمن اتقى الله في حجه فكان في ذلك من قول رسول الله ﷺ، ما يوضح أن معنى قوله جل وعز: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أنه خارج من ذنوبه، محطوبة عنه آثامه، مغفورة أجرامه إلى آخر كلامه الطويل في الموضوع.

وقد بين فيه أنه لا وجه لقول من قال: إن المعنى لا إثم عليه في تعجله ولا إثم عليه في تأخره؛ لأن التأخر إلى اليوم الثالث، لا يحتمل أن يكون فيه إثم، حتى يقال فيه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وأن قول من قال: إن سبب النزول أن بعضهم كان يقول: التعجل لا يجوز، وبعضهم يقول: التأخر لا يجوز.

فمعنى الآية النهي عن تخطئة المتأخر المتعجل كعكسه؛ أي لا يؤمن أحدهما الآخر أن هذا القول خطأ، لمخالفته لقول جميع أهل التأويل.

والحاصل أنه - أعني الطبري - بين كثيراً من الأدلة على أن معنى الآية هو ما ذكر من أن الحاج يخرج مغفوراً له، كيوم ولدته أمه، لا إثم عليه، سواء تعجل في يومين، أو تأخر، وقد يظهر للنظر أن ربط نفي الإثم في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتعجل والتأخر في الآية ربط الجزاء بشرطه يتبادر منه، أن نفي الإثم إنما هو في التعجل والتأخر، ولكن الأدلة التي أقامها أبو جعفر الطبري، على المعنى الذي اختار فيها فيه مقنع، وتشهد لها أحاديث كثيرة، وخير ما يفسر به القرآن بعد القرآن سنة النبي ﷺ.

فقوله في آية البقرة هذه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ هو معنى قوله ﷺ «رجع كيوم ولدته أمه» وقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣] هو معنى قوله ﷺ «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق» لأن من لم يرفث، ولم يفسق، هو الذي اتقى.

ومن كلام ابن جرير الطويل الذي أشرنا إليه أنه قال: ما نصه: فإن قال قائل ما الجالب للآم في قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ وما معناها؟.

قيل: الجالب لها معنى قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ لأن في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ معنى: حططنا ذنوبه، وكفرنا آثامه، فكان في ذلك معنى: جعلنا تكفير الذنوب لمن اتقى الله في حجه، وترك ذكر جعلنا تكفير الذنوب اكتفاء بدلالة قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه كأنه إذا ذكر هذه الرخصة، فقد أخبر عن أمر فقال: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي هذا لمن اتقى، وأنكر بعضهم ذلك من قوله: وقد زعم أن الصفة لا بد لها من شيء تعلق به؛ لأنها لا تقوم بنفسها، ولكنها فيما زعم من صلة قول متروك.

فكان معنى الكلام عنده ما قلنا: من أن من تأخر لا إثم عليه لمن اتقى، وقام قوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ مقام القول، انتهى محل الغرض من كلام ابن جرير.

وعلى تفسير هذه الآية الكريمة بأن معنى ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] في الموضعين أن الحاج يغفر جميع ذنوبه، فلا يبقى عليه إثم، فغفران جميع ذنوبه هذا

الذي دل عليه هذا التفسير من أكبر المنافع المذكورة في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وعليه فقد بينت آية البقرة هذه بعض ما دلت عليه آية الحج، وقد أوضحت السنة هذا البيان بالأحاديث الصحيحة التي ذكرنا كحديث «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» وحديث «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن حديث «إن الله يباهي بأهل عرفة أهل السماء» الحديث كما تقدم، ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن تيسر اجتماع المسلمين من أقطار الدنيا في أوقات معينة، في أماكن معينة ليشعروا بالوحدة الإسلامية، ولتتمكن الاستفادة بعضهم من بعض، فيما يهم الجميع من أمور الدنيا والدين، وبدون فريضة الحج، لا يمكن أن يتسنى لهم ذلك، فهو تشريع عظيم من حكيم خبير، والعلم عند الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قوله: ويذكروا منصوب بحذف النون؛ لأنه معطوف على المنصوب بأن المضمر بعد لام التعليل أعني قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

وإيضاح المعنى: وأذن في الناس بالحج يأتوك مشاة وركباناً، لأجل أن يشهدوا منافع لهم، ولأجل أن يتقربوا إليه بإرافة دماء ما رزقهم من بهيمة الأنعام، مع ذكرهم اسم الله عليها عند النحر والذبح، وظاهر القرآن يدل على أن هذا التقرب بالنحر في هذه الأيام المعلومات، إنما هو الهدايا لا الضحايا؛ لأن الضحايا لا يحتاج فيها إلى الأذان بالحج، حتى يأتي المضحون مشاة وركباناً، وإنما ذلك في الهدايا على ما يظهر، ومن هنا ذهب مالك، وأصحابه إلى أن الحاج بمنى لا تلزمه الأضحية ولا تسن له، وكل ما يذبح في ذلك المكان والزمان، فهو يجعله هدياً لا أضحية.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ أي على نحر وذبح ما رزقهم ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ليتقربوا إليه بدمائها؛ لأن ذلك تقوى منهم، فهو يصل إلى ربهم كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِئَالِهِ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ وقد بين في بعض المواضع أنه لا يجوز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه منها كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾... الآية [الأنعام: ١٢١]. وقوله ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل الحرم المكي منسكاً تراق فيه الدماء تقريباً إلى الله، ويذكر عليها عند تذكيته اسم الله، ولم يبين في هذه الآية، هل وقع مثل هذا لكل أمة أو لا، ولكنه بين في موضع آخر: أنه جعل مثل هذا لكل أمة من الأمم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

وهناك أمور ذات صلة بالآية الكريمة فليرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾.

الضمير في قوله: منها، راجع إلى بهيمة الأنعام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا الأكل الذي أمر به هنا منها وإطعام البائس الفقير منها، أمر بنحوه في خصوص البدن أيضاً في قوله تعالى ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، ففي الآية الأولى الأمر بالأكل من جميع بهيمة الأنعام الصادق بالبدن، وبغيرها، وقد بينت الآية الأخيرة أن البدن داخلة في عموم الآية الأولى.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يرد نص عام، ثم يرد نص آخر يصرح بدخول بعض أفرادها في عمومها، ومثلنا لذلك بعض الأمثلة وفي الآية العامة هنا أمر بالأكل، وإطعام البائس الفقير، وفي الآية الخاصة بالبدن: أمر بالأكل، وإطعام القانع والمعتز، وفي هاتين الآيتين الكريمتين مبحثان.

الأول: حكم الأكل المأمور به في الآيتين هل هو الوجوب لظاهر صيغة الأمر، أو الندب والاستحباب؟

المبحث الثاني: فيما يجوز الأكل منه لصاحبه؛ وما لا يجوز له الأكل منه، ومذاهب أهل العلم في ذلك.

أما المبحث الأول فجمهور أهل العلم على أن الأمر بالأكل في الآيتين: للاستحباب، والندب، لا للوجوب، والقرينة الصارفة عن الوجوب في صيغة الأمر: هي ما زعموا من أن المشركين، كانوا لا يأكلون هداياهم فرخص للمسلمين في ذلك.

وعليه فالمعنى فكلوا إن شئتم ولا تحرموا الأكل على أنفسكم كما يفعله المشركون، وقال ابن كثير في تفسيره: إن القول بوجوب الأكل غريب، وعزا للأكثرين أن الأمر للاستحباب قال: وهو اختيار ابن جرير في تفسيره، وقال القرطبي في تفسيره ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر معناه الندب عند الجمهور، ويستحب للرجل، أن يأكل من هديه وأضحيته، وأن يتصدق بالأكثر مع تجوزهم الصدقة بالكل، وأكل الكل وشذت طائفة، فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية، ولقوله ﷺ: ﴿فَكُلُوا وَادْخُرُوا وَتَصَدَّقُوا﴾، قال الكيا قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا﴾ يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه، ولا التصديق بجميعه. انتهى كلام القرطبي.

ومعلوم أن بيع جميعه لا وجه لعليته، بل ولا بيع بعضه، كما هو معلوم.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أقوى القولين دليلاً: وجوب الأكل والإطعام من الهدايا والضحايا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ في موضعين. وقد قدمنا أن الشرع واللغة دلا على أن صيغة أفعل تدل على الوجوب إلا لدليل صارف، عن الوجوب، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ

تُصِيبُهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التور: ٦٣]. وأوضحنا جميع أدلة ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، منها آية الحج التي ذكرنا عندها مسائل الحج.

ومما يؤيد أن الأمر في الآية يدل على وجوب الأكل وتأكيده: «أن النبي ﷺ نحر مائة من الإبل فأمر بقطعة لحم من كل واحدة منها، فأكل منها وشرب من مرقها». وهو دليل واضح على أنه أراد ألا تبقى واحدة، من تلك الإبل الكثيرة إلا وقد أكل منها أو شرب من مرقها، وهذا يدل على أن الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ليس لمجرد الاستحباب والتخيير، إذ لو كان كذلك لاكتفى بالأكل من بعضها، وشرب مرقه دون بعض، وكذلك الإطعام فالأظهر فيه الوجوب.

والحاصل أن المشهور عند الأصوليين أن صيغة افعل تدل على الوجوب إلا لصارف عنه، وقد أمر بالأكل من الذبائح مرتين، ولم يبق دليل يجب الرجوع إليه صارف عن الوجوب وكذلك الإطعام، هذا هو الظاهر بحسب الصناعة الأصولية، وقد دلت عليها أدلة الوحي، كما قدمنا إيضاحه.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: والظاهر وجوب الأكل والإطعام وقيل باستحبابهما. وقيل: باستحباب الأكل، ووجوب الإطعام. والأظهر أنه لا تحديد للقدر الذي يأكله والقدر الذي يتصدق به، فيأكل ما شاء ويتصدق بما شاء، وقد قال بعض أهل العلم: يتصدق بالنصف ويأكل النصف واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ قال: فجزأها نصفين نصف له، ونصف للفقراء، وقال بعضهم: يجعلها ثلاثة أجزاء، يأكل الثلث ويتصدق بالثلث، ويهدي الثلث، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فجزأها ثلاثة أجزاء، ثلث له، وثلث للقانع، وثلث للمعتر. هكذا قالوا وأظهرها الأول، والعلم عند الله تعالى، والبائس: هو الذي أصابه البؤس، وهو الشدة. قال الجوهري في صحاحه: وبئس الرجل يبأس بؤساً وبئساً: اشتدت حاجته، فهو بائس وأنشد أبو عمرو:

لبئضاء من أهل المدينة لم تذق بئساً ولم تتبع حمولة مجحد

وهو اسم وضع موضع المصدر، اه منه يعني أن البئس في البيت لفظه لفظ الوصف، ومعناه المصدر، والفقير معروف، والقاعدة عند علماء التفسير أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وعلى قولهم: فالفقير هنا يشمل المسكين؛ لأنه غير مذكور معه هنا، وذلك هو مرادهم، بأنهما إذا افترقا اجتمعا، ومعلوم خلاف العلماء في الفقير والمسكين في آية الصدقة أيهما أشد فقراً، وقد ذكرنا حجج الفريقين وناقشناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة البلد، ومما استدل به القائل: إن الفقير أحوج من المسكين، وأن المسكين من عنده شيء لا يقوم بكفايته قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾... الآية [الكهف: ٧٩]، قالوا: فسماهم مساكين، مع أن عندهم سفينة عاملة للإيجار.

ومما استدلل به القائلون بأن المسكين أحوج من الفقير: أن الله قال في المسكين: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتَرٍ﴾ [البلد] قالوا: ذا مترية: أي لا شيء عنده. حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب.

قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له. وقال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس، ولا غيره انتهى من القرطبي. وعضدوا هذا بأن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه، ومئة قول راعي نمير:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد
فسماه فقيراً مع أن له حلوبة قدر عياله. وهناك مسائل تتعلق بالآية يرجع للأصل من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَبَطَوْهُ أُفٍّ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. في المراد بالعتيق هنا للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المراد به القديم؛ لأنه أقدم مواضع التعبد.

الثاني: أن الله أعتقه من الجبابة.

الثالث: أن المراد بالعتق فيه الكرم، والعرب تسمى القديم عتيقاً وعاتقاً، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام
لأن مراده بالعاتق الخمر القديمة التي طال مكثها في دنها زمناً طويلاً، وتسمى الكرم عتيقاً ومنه قول كعب بن زهير:

قنواء في حرثيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل
فقوله: عتق مبين: أي كرم ظاهر، ومنه قول المتنبي:

* ويبين عتق الخيل في أصواتها *

أي كرمها، والعتق من الجبابة كالعتق من الرق، وهو معروف.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه قد دلت آية من كتاب الله، على أن العتيق في الآية بمعنى القديم الأول وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق، ولكن القرآن دل على ما ذكرنا، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

تنبيهان:

الأول: دلت هذه الآية الكريمة، على لزوم طواف الإفاضة وأنه لا صحة للحج بدونه.

الثاني: دلت هذه الآية أيضاً على لزوم الطواف من وراء الحجر الذي عليه الجدار القصير شمال البيت لأن أصله من البيت، فهو داخل في اسم البيت العتيق، كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية الأنعام، ولكنه بينه بقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَائِفَةٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثَّةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُمْ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهذا الذي ذكرنا هو الصواب، أما ما قاله جماعات من أهل التفسير من أن الآية التي بينت الإجمال في قوله تعالى هنا ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] أنها قوله تعالى في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآية فهو غلط؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن وآية الحج هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير، فلا يصح أن يحال البيان عليها في قوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ بل المبين لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا لأنها نازلة بمكة، فيصح أن تكون مبينة لآية الحج المذكورة كما نبه عليه غير واحد.

أما قوله تعالى في المائدة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فيصح بيانه بقوله في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. كما أوضحنا في أول المائدة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. «من» في هذه الآية بيانية.

والمعنى فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان؛ أي عبادتها والرجس القدر الذي تعافه النفوس، وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب عبادة الأوثان، ويدخل في حكمها، ومعناها عبادة كل معبود من دون الله كائناً من كان. وهذا الأمر باجتناب عبادة غير الله المذكور هنا، جاء مبيناً في آيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وبين تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأثنى الله على مجتنبى عبادة الطاغوت المنيبين لله، وبين أن لهم البشري، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]. وقد سأل إبراهيم ربه أن يزرقه اجتناب عبادة الطاغوت، في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبْ رَبِّي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] والأصنام، تدخل في الطاغوت دخولاً أولياً.

قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُفَاةَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. أمر في هذه الآية الكريمة باجتناب قول الزور، وهو الكذب والباطل كقولهم: إن الله حرم البحيرة والسائبة، ونحو ذلك، وكادعائهم له الأولاد والشركاء، وكل قول مائل عن الحق فهو زور؛ لأن أصل المادة التي هي الزور من الإزورار بمعنى الميل، والاعوجاج، كما أوضحناه في الكلام على قوله: ﴿تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧].

واعلم أننا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها، أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، وتقدمت لذلك أمثلة، وسيأتي بعض أمثله في الآيات القرية من سورة الحج هذه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: ﴿وَلَجَّئُنَاُ قَوْلَكَ الزُّورَ﴾ بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان] فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور، وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته أنت علي كظهر أمي ﴿وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المجادلة: ٢] فصرح بأن قولهم ذلك، منكر وزور، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت، اهـ وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿وَلَجَّئُنَاُ قَوْلَكَ الزُّورَ﴾ حَفَافَةً لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضاً في غير هذا الموضع كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] لأن قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] هو قول الزور. وقد أتى مقروناً بقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وكتكذيبه ﷺ فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله. نعوذ بالله من كل سوء.

ومعنى حفاف: قد قدمناه مراراً مع بعض الشواهد العربية، فأغنى عن إعادته هنا. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَنُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خر: أي سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقبها في مكان سحيق؛ أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة؛ لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقت الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضعاً في مواضع أخر كقوله ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. وكقوله: ﴿قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى

الْكُفْرِ ﴿[الأعراف: ٥٠] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] في الموضوعين من سورة النساء، والخطف: الأخذ بسرعة والسحيق البعيد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]؛ أي بعداً لهم.

وقد دلت آيات أخر على أن محل هذا الهلاك الذي لا خلاص منه بحال الواقع بمن يشرك بالله، إنما هو في حق من مات على ذلك الإشراك، ولم يتب منه قبل حضور الموت، أما من تاب من شركه قبل حضور الموت، فإن الله يغفر له؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

والآيات الدالة على ذلك متعددة كقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. وقوله في الذين: ﴿قَالُوا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ ثَلَاثَةٌ﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] وقوله ﴿وَإِنْ لَفَقَرْنَا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]. إلى غير ذلك من الآيات، وأما إن كانت توبته من شركه عند حضور الموت، فإنها لا تنفعه.

وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] فقد دلت الآية على التسوية بين الموت على الكفر والتوبة منه، عند حضور الموت وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وكقوله في فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [يونس] وقرأ هذا الحرف نافع فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أصله فتخطفه الطير بتاءين فحذفت إحداهما وقرأه غيره من السبعة فتخطفه الطير بإسكان الخاء وتخفيف الطاء مضارع خطفه بالكسر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٣٢﴾. قد ذكرنا قريباً أنا ذكرنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، فيكون ذلك الفرد قطعي الدخول لا يمكن إخراجه بمخصص، وواعدنا بذكر بعض أمثله في هذه الآيات. ومرادنا بذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ عام في جميع شعائر الله، وقد نص تعالى على أن البدن فرد من أفراد هذا العموم، داخل فيه قطعاً وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ في الآية تعظيم البدن واستسمانها واستحسانها كما قدمنا عن البخاري أنهم كانوا يسمنون الأضاحي، وكانوا يرون أن ذلك من تعظيم شعائر الله، وقد قدمنا أن الله صرح بأن الصفا والمروة

داخلان في هذا العموم بقوله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وأن تعظيمها المنصوص في هذه الآية: يدل على عدم التهاون بالسعي بين الصفا والمروة كما تقدم إيضاحه في مبحث السعي، وقوله في هذه الآية ذلك فيه ثلاثة أوجه من الإعراب.

الأول: أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف؛ أي ذلك حكم الله وأمره.

الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي اللازم ذلك أو الواجب ذلك..

الثالث: أن يكون في محل نصب بفعل محذوف؛ أي اتبعوا ذلك أو امثلوا ذلك، ومما يشبه هذه الإشارة في كلام العرب قول زهير:

هذا وليس كمن يعي بخطته وسط الندى إذا ما قائل نطقا

قاله القرطبي وأبو حيان والضمير المؤنث في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ قال القرطبي: هو عائد إلى الفعلة التي يتضمنها الكلام، ثم قال: وقيل إنه راجع إلى الشعائر بحذف مضاف؛ أي فإن تعظيمها أي الشعائر فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه فرجع الضمير إلى الشعائر، اه. وقال الزمخشري في الكشاف فإنها من تقوى القلوب؛ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها؛ لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به اه. منه.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٢٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ. ء.

أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ أن يبشر المخبتين؛ أي المتواضعين لله المطمئنين الذين من صفتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله، وجلت قلوبهم؛ أي خافت من الله - جل وعلا -، وأن يبشر الصابرين على ما أصابهم من الأذى، ومتعلق التبشير محذوف لدلالة المقام عليه أي بشرهم بثواب الله وجنته. وقد بين في موضع آخر أن الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم: هم المؤمنون حقاً وكونهم هم المؤمنون حقاً، يجعلهم جديرين بالبشارة المذكورة هنا. وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأفال: ٢]. وأمره في موضع آخر أن يبشر الصابرين على ما أصابهم مع بيان بعض ما بشروا به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ (١٥٧) [البقرة].

واعلم أن وجل القلوب عند ذكر الله؛ أي خوفها من الله عند سماع ذكره لا ينافي ما ذكره - جل وعلا - من أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٨) [الرعد] ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره - جل وعلا - مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، وهو أن الطمأنينة بذكر الله تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد، وصدق

ما جاء به الرسول ﷺ فطمأنينتهم بذلك قوية؛ لأنها لم تتطرقها الشكوك، ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيف عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى ﴿نَقْشَعُرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ﴾. قد قدمنا أنه تعالى أمر بالأكل من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بأنواعها الثمانية، وأمر بإطعام البائس الفقير منها. وأمر بالأكل من البدن وإطعام القانع والمعتر منها، وما كان من الإبل، فهو من البدن بلا خلاف.

واختلفوا في البقرة، هل هي بدنة، وقد قدمنا الحديث الصحيح أن البقرة من البدن، وقدمننا أيضاً ما يدل على أنها غير بدنة، وأظهرهما أنها من البدن، وللعلماء في تفسير القانع والمعتر أقوال متعددة متقاربة أظهرها عندي أن القانع هو الطامع الذي يسأل أن يعطى من اللحم ومنه قول الشماخ:

لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع

يعني أعف من سؤال الناس، والطمع فيهم، وأن المعتر هو الذي يعتري متبرصاً للإعطاء من غير سؤال وطلب، والله أعلم. وقد قدمنا حكم الأكل من أنواع الهدايا والضحايا، وأقوال أهل العلم في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله كذلك: نعت لمصدر؛ أي سَخَّرْنَاهَا أي البدن لكم تسخييراً كذلك؛ أي مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون: أي ذللناها لكم، وجعلناها منقاداً لكم تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم ألا ترى البعير، إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به. وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مراراً أن لعل تأتي في القرآن لمعان أقربها اثنان؛ أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع، وعلى هذا فالمراد بذلك خصوص الخلق؛ لأنهم هم الذين يترجى منهم شكر النعم من غير قطع، بأنهم يشكرونها أو لا ينكرونها لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور، وليس هذا المعنى في حق الله تعالى؛ لأنه عالم بما سيكون فلا يجوز في حقه - جل وعلا - إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب، وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [طه] أي على رجائكما وتوقعكما أنه يتذكر أو يخشى، مع أن الله عالم في سابق أزله فرعون لا يتذكر ولا يخشى، فمعنى لعل بالنسبة إلى الخلق، لا إلى الخالق - جل وعلا -.

المعنى الثاني: هو ما قدمنا من أن بعض أهل العلم، قال: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء ﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء] قال: فهي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان لفظة لعل للتعليل معروف في كلام العرب. وقد قدمناه موضعاً مراراً وقد قدمنا من شواهد العربية قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

يعني كفوا الحروب لأجل أن نكف، وإذا علمت أن هذه الآية الكريمة بين الله فيها أن تسخير الأنعام لبني آدم نعمة من إنعامه، تستوجب الشكر لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فاعلم أنه بين هذا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيئَانَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَكُوتٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَفَعَّمْ فِيهَا مَتَّعُ مَسَارِيبٍ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] وقوله في آية يس هذه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥] كقوله في آية الحج: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى قريباً: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، وقد قدمنا معنى شكر العبد لربه وشكر الرب لعبده، مراراً بما أغنى عن إعادته هنا والتسخير التذليل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يدفع السوء عن عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً، ويكفيهم شر أهل السوء، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوعًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورٌ قَوِيرٌ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله: ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمُ الْفَالِقُونَ﴾ [الصافات: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بفتح الباء والفاء بينهما دال ساكنة مضارع دفع المجرد، وعلى هذه القراءة، فالمفعول محذوف أي يدفع عن الذين آمنوا الشر والسوء؛ لأن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره. وقرأ الباقون: يدافع بضم الياء، وفتح الدال بعدها ألف. وكسر الفاء مضارع دافع المزيد فيه ألف بين الفاء والعين على وزن فاعل. وفي قراءة الجمهور هذه إشكال معروف، وهو أن المفاعلة تقتضي بحسب الوضع العربي اشتراك فاعلين في المصدر. والله - جل وعلا - يدفع كل ما شاء من غير أن يكون له مدافع يدفع شيئاً.

والجواب هو ما عرف من أن المفاعلة قد ترد بمعنى المجرد، نحو: جاوزت المكان بمعنى جزته، وعاقبت اللص، وسافرت، وعافاك الله، ونحو ذلك، فإن فاعل في

جميع ذلك بمعنى المجرد، وعليه فقوله: يدافع بمعنى: يدفع. كما دلت عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقال الزمخشري: ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه؛ لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ، اه منه، ولا يبعد عندي أن يكون وجه المفاعلة أن الكفار يستعملون كل ما في إمكانهم لإضرارهم بالمؤمنين، وإيذائهم، والله - جل وعلا - يدفع كيدهم عن المؤمنين، فكان دفعه - جل وعلا - لقوة عظيمة أهلها في طغيان شديد يحاولون إلحاق الضرر بالمؤمنين وبهذا الاعتبار كان التعبير بالمفاعلة، في قوله: يدافع، وإن كان - جل وعلا - قادراً على إهلاكهم، ودفع شرهم عن عباده المؤمنين، ومما يوضح هذا المعنى الذي أشرنا إليه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

والعلم عند الله تعالى، ومفعول يدافع محذوف فعلى القول بأنه بمعنى يدفع فقد ذكرنا تقديره، وعلى ما أشرنا إليه أخيراً فتقدير المفعول: يدافع عنهم أعدائهم، وخصوصهم فيرد كيدهم في نحورهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. صرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب كل خوان كفور، والخوان والكفور كلاهما صيغة مبالغة؛ لأن الفعل بالتضعيف والفعل بفتح الفاء من صيغ المبالغة، والمقرر في علم العربية أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل، فلو قلت: زيد ليس بقاتل للرجال فقد نفيت مبالغته في قتلهم، ولم يستلزم ذلك أنه لم يحصل منه قتل لبعضهم ولكنه لم يبالغ في القتل، وعلى هذه القاعدة العربية المعروفة، فإن الآية قد صرحت بأن الله لا يحب المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة، ولم تتعرض لمن يتصف بمطلق الخيانة ومطلق الكفر من غير مبالغة فيهما، ولا شك أن الله يبغض الخائن مطلقاً، والكافر مطلقاً، وقد أوضح - جل وعلا - ذلك في بعض المواضع، فقال في الخائن ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَاذْنَبْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال] وقال في الكافر: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

متعلق أذن محذوف في هذه الآية الكريمة: أي أذن لهم في القتال بدليل قوله: يقاتلون، وقد صرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أذن للذين يقاتلون وهم النبي ﷺ وأصحابه ودل قوله: يقاتلون: على أن المراد من يصلح للقتال منهم دون من لا يصلح له، كالأعمى والأعرج والمريض والضعيف والعاجز عن السفر للجهاد لفقره بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ [النور: ٦١]. وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْعِيِّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقوله:

﴿يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا﴾ الباء فيه سببية وهي من حروف التعليل، كما تقرر في مسلك النص الظاهر من مسالك العلة. وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه، ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن فهي مبينة عدم الاقتصار، على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية. وقد قالت جماعة من أهل العلم: إن الله - تبارك وتعالى - لعظم حكمته في التشريع، إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه له على سبيل التدرج؛ لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة، على الذين كلفوا به قالوا فمن ذلك الجهاد، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت؛ لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقد بين تعالى مشقة إيجاب الجهاد عليهم، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت، فإنه ينفق فيه المال أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ وَأُفْسِدُكُمْ﴾ [الصف: ١١] قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدرجاً، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا﴾. ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال: من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]. وهذا تدرج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِذَا أُنْزِلَ الْأَمْرُ الْأَمْرُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وقوله: ﴿نُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن لبعض أهل العلم في بعض الآيات التي ذكرنا أقوالاً غير ما ذكرنا، ولكن هذا التدرج الذي ذكرنا دل عليه استقراء القرآن في تشريع الأحكام الشاقة، ونظيره شرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده، فلما أراد الله أن يحرم الخمر حرمها تدرجاً، فذكر أولاً بعض معائبها كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم لما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إثماً أكثر مما فيها من النفع، حرمها عليهم في أوقات الصلاة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] فكانوا بعد نزولها، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة، وذلك بعد صلاة

العشاء وبعد صلاة الصبح؛ لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادة، وكذلك ما بين الصبح والظهر، وهذا تدرّيج من عيها إلى تحريمها في بعض الأوقات. فلما استأنست نفوسهم بتحريمها حرّمها عليهم تحريماً عاماً جازماً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنَرُ وَالْيَسِيرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] وكذلك الصوم، فإنه لما كان الإمساك عن شهوة الفرج والبطن شاقاً على النفوس، وأراد تعالى تشريعه شرعه تدرّجاً؛ فخير أولاً بين صوم اليوم وإطعام المسكين في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] فلما استأنست النفوس به في الجملة، أوجبه أيضاً إيجاباً عاماً جازماً بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال بعض أهل العلم: التدرّيج في تشريع الصوم على ثلاثة مراحل كما قبله قالوا: أوجب عليهم أولاً صوماً خفيفاً لا مشقة فيه وهو صوم يوم عاشوراء وثلاثة من كل شهر، ثم لما أراد فرض صوم رمضان شرعه تدرّجاً على المرحلتين اللتين ذكرناهما آنفاً، هكذا قالته جماعات من أهل العلم، وله اتجاه والعلم عند الله تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يشير إلى معينين.

أحدهما: أن فيه الإشارة إلى وعده للنبي وأصحابه، بالنصر على أعدائهم كما قال قبله قريباً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وثانيهما: أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على الكافرين من غير قتال لقدرته على إهلاكهم بما شاء، ونصرة المسلمين عليهم بإهلاكه إياهم، ولكنه شرع الجهاد لحكم منها اختبار الصادق في إيمانه، وغير الصادق فيه، ومنها تسهيل نيل فضل الشهادة في سبيل الله بقتل الكفار لشهداء المسلمين، ولولا ذلك لما حصل أحد فضل الشهادة في سبيل الله. كما أشار تعالى إلى حكمة اختبار الصادق في إيمانه وغيره بالجهاد في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَفْتُمْ وَلَكِنْ لَّيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وكقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَتَبْلُوَنَّ أَعْبَارَكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد] إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور وتسهيل الشهادة في سبيله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تَذَكُّرُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران] وقرأ هذا الحرف نافع، وأبو عمرو وعاصم: أذن بضم الهمزة وكسر

الذال مبنياً للمفعول، وقرأ الباقون: بفتح الهمزة مبنياً للفاعل؛ أي أذن الله للذين يقاتلون، وقرأ نافع وابن عامر وحفص، عن عاصم: يقاتلون بفتح التاء مبنياً للمفعول، وقرأ الباقون بكسر التاء مبنياً للفاعل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾.

تقدم ما يوضح هذه الآية من الآيات في سورة براءة في الكلام على قوله: ﴿وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النوبة: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أقسم لينصرن من ينصره، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته - جل وعلا - هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى. ثم إن الله - جل وعلا - بين صفات الذين وعدهم بنصره ليميزهم عن غيرهم فقال مبيناً من أقسم أنه ينصره؛ لأنه ينصر الله - جل وعلا -: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن من نصر الله نصره الله جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [محمد: ٧، ٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجِئَانَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَمُومِنُونَ ۝ وَلَئِنْ جُنَدُنَا لَمُومِنُونَ ۝ وَالصَّافَاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. إلى غير ذلك من الآيات وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأوليائه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثّل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء، كما قدمناه مراراً بشواهد العربية. وهذه الآيات تدل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن الله نصرهم على أعدائهم؛ لأنهم نصروه فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقد مكر لهم، واستخلفهم في الأرض كما قال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. والحق أن الآيات المذكورة تشمل أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۖ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٌ ۚ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٢﴾. في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام، وذلك يسليه ويخفف عليه كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّا تَقْصُصْ عَلَيْهِ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] وقوله ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] إلى غير ذلك من الآيات، وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها.

الأولى: قوم نوح في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ والآيات الدالة على تكذيب قوم نوح لا تكاد تحصى في القرآن، لكثرتها ولتقتصر على الأمثلة لكثرة الآيات الدالة على تكذيب هذه الأمم رسلها كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝٤٣﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدًا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۝٤٤﴾ [القمر] إلى غير ذلك من الآيات.

الثانية: عاد، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع في آيات كثيرة أنهم كذبوا رسولهم هوداً، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۝٤٥﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٤٦﴾ [هود].

الثالثة: ثمود وقد بين تعالى في غير هذا الموضع تكذيبهم لنبيهم صالح في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝٤٦﴾ [الشعراء] وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات.

الرابعة: قوم إبراهيم، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ ۝٢٤﴾ [العنكبوت: ٢٤] وقوله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٦٨]. وكقوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْفِي مَلَأْنَا ۝٢٦﴾ [مريم: ٤٦] إلى غير ذلك من الآيات.

الخامسة: قوم لوط وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝٢٧﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ ۚ قَالَ لُوطُ مِنْ قَرْنَيْتِكُمْ ۝٢٨﴾ [النمل: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

السادسة: أصحاب مدين، وقد بين تعالى أنهم كذبوا نبيهم شعيباً في غير هذا الموضع في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَن كَانَ بِبَيْتِ ثَمُودَ ۝٢٩﴾ [هود: ٩٥] وقوله: ﴿وَالِكُفْرَانِ أَتَمَنَّوْا أَنْ تُقَامَ عَلَيْكُمْ سُلُوكُ السَّبِيلِ ۝٣٠﴾ [هود: ٨٤] إلى قوله ﴿قَالُوا يَنْشُعْبُ أَصْلَانَا أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَ آلِهَتَكُمْ أَوْ أَنْ نَقْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۝٣١﴾ [هود: ٨٤] إلى قوله: ﴿قَالُوا يَنْشُعْبُ مَا تَفْعَلُ كَبِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ۝٣٢﴾ [هود: ٨٤] الآية [هود: ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

السابعة: من كذبوا موسى وهم فرعون وقومه، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أن فرعون وقومه كذبوا موسى في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرْبِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عَمَلِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُحْشِرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ تُرْ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ قد بين تعالى نوع العذاب الذي عذب به كل أمة من تلك الأمم، بعد الإيماء لها والإمهال، فبين أنه أهلك قوم نوح بالغرق في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ﴾ [القمر: ١٦] وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۖ﴾ [الشعراء: ١٢٥] إلى غير ذلك من الآيات. وبين في مواضع كثيرة أنه بعد الإيماء والإمهال لعاد أهلكهم بالريح العقيم كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ﴾ [الحاقة: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ﴾ [الذاريات: ٢٤] وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ﴾ [الذاريات: ٢٥] وقوله: ﴿تَذِيرٌ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات. وبين أنه أهلك ثمود بصيحة أهلكتهم جميعاً كقوله فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمَ ۖ﴾ [هود: ٦٧] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوم إبراهيم الذين كذبوه هم نمرود، وقومه، وقد ذكر المفسرون أن العذاب الدنيوي الذي أهلكهم الله به هو المذكور في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْىَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ [النحل: ١٦] وقد بين تعالى أنه أهلك قوم لوط بجعل عالي أرضهم سافلها، وأنه أرسل عليها مطراً من حجارة السجيل في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِنْ سِجَالٍ﴾ [هود: ٨٢] ونحو ذلك من الآيات. وقد بين تعالى أنه أهلك أصحاب مدين بالصيحة في مواضع كقوله فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمَ ۖ﴾ [٤٤] كان لَمْ يَقْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لَمَتَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ۖ﴾ [هود: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين في مواضع كثيرة أنه أهلك الذين كذبوا موسى، وهم فرعون وقومه بالغرق كقوله: ﴿وَأَتْرَكَ الْأَبْحَرُ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُذُءٌ مُغْرَقُونَ ۖ﴾ [الدخان: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَعَثُهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُجُودِهِمْ فَعَبَّيَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا عَبَّيَهُمْ ۖ﴾ [طه: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أن الآيات كثيرة في بيان ما أهلكت به هذه الأمم السبع المذكورة، وقد

ذكرنا قليلاً منها كالمثال لغيره، وكل ذلك يوضح معنى قوله تعالى بعد أن ذكر تكذيب الأمم السبع لأنبيائهم ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] أي بالعذاب، وهو ما ذكرنا بعض الآيات الدالة على تفاصيله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ النكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار أي كيف كان إنكارهم عليهم منكرهم، الذي هو كفرهم بي، وتكذيبهم رسلي، وهو ذلك العذاب المستأصل الذي بينا وبعده عذاب الآخرة الذي لا ينقطع نرجو الله لنا ولإخواننا المسلمين العافية من كل ما يسخط خالقنا، ويستوجب عقوبته. والجواب إنكارك عليهم بذلك العذاب واقع موقعه على أكمل وجه؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فجزاء العمل البالغ غاية القبح بالنكال العظيم جزاء وفاق واقع موقعه، فسبحان الحكيم الخبير الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه، وقرأ هذا الحرف ورش وحده عن نافع: (فكيف كان نكير) بياء المتكلم بعد الراء وصلأ فقط وقرأ الباقون بحذفها اكتفاء بالكسرة عن الياء.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَشِيدٍ﴾ (٤٥).

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرى في حال كونها ظالمة؛ أي بسبب ذلك الظلم، وهو الكفر بالله وتكذيب رسله، فصارت بسبب الإهلاك والتدمير ديارها متهدمة وآبارها معطلة، لا يسقى منها شيء لإهلاك أهلها الذين كانوا يستقون منها. وهذا المعنى الذي ذكره تعالى في هذه الآية: جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَنُصِبْنَا عَنْهَا حَدِيدًا وَعَذَبْنَا عَذَابًا تَتَنَزَّلُ﴾ (٨) فَنَاقَتْ وَيَالِ أَتْرَافِهَا وَكَانَ عِقَبُهَا أَتْرَافًا خُصْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿[الطلاق: ٨ - ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ العروش السقوف والخواوية الساقطة ومنه قول الخنساء:

كان أبو حسان عرشاً خوى مما بناه الدهر دان ظليل

والمعنى أن السقوف سقطت ثم سقطت عليها حيطانها على أظهر التفسيرات، والقصر المشيد المطلي بالشيد بكسر الشين، وهو الجص، وقيل المشيد الرفيع الحصين، كقوله تعالى: ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي حصون رفيعة منيعة. والظاهر أن قوله ﴿وَيَثْرِ مَعْطَلَةٍ﴾ معطوف على قرية: أي

وكأين من قرية أهلكناها، وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه من ساكنيه، وأهلكناهم لما كفروا وكذبوا الرسل. وفي هذه الآية وأمثالها: تهديد لكفار قريش الذين كذبوه ﷺ، وتحذير لهم من أن ينزل بهم ما نزل بتلك القرى من العذاب لما كذبت رسلها.

تنبيه: يظهر لطالب العلم في هذه الآية سؤال وهو أن قوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يدل على تهدم أبنية أهلها، وسقوطها وقوله: ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ يدل على بقاء أبنيتها قائمة مشيدة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر لي في جواب هذا السؤال أن قصور القرى التي أهلكها الله، وقت نزول هذه الآية، منها ما هو متهدم كما دل عليه قوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، ومنها ما هو قائم باق على بنائه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وإنما استظهرنا هذا الجمع؛ لأن القرآن دل عليه، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله - جل وعلا - في سورة هود: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْاَلْقَرَى نَقْصُومُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود] فصرح في هذه الآية بأن منها قائماً، ومنها حصيداً. وأظهر الأقوال وأجراها على ظاهر القرآن أن القائم هو الذي لم يتهدم. والحصيد هو الذي تهدم وتفرقت أنقاضه، ونظيره من كلام العرب قوله:

والناس في قسم المنية بينهم كالزراع منه قائم وحصيد

وفي معنى القائم والحصيد، أقوال آخر غير ما ذكرنا، ولكن ما ذكرنا هو أظهرها. وذكر الزمخشري ما يفهم منه وجه آخر للجمع، وهو أن معنى قوله: خاوية: خالية من أهلها من قوله: خوى المكان إذ خلا من أهله، وأن معنى: على عروشها أن الأبنية باقية أي هي خالية من أهلها مع بقاء عروشها قائمة على حيطانها. وما ذكرناه أولاً هو الصواب - إن شاء الله تعالى -.

وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن لفظ القرية يطلق تارة على نفس الأبنية، وتارة على أهلها الساكنين بها، فالإهلاك في قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، والظلم في قوله: ﴿وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾: يراد به أهلها الساكنون بها وقوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يراد به الأبنية كما قال في آية: ﴿وَسَلَّى اَلْقَرْيَةَ اَلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وقال في أخرى: ﴿حَتَّى إِذَا آتَى اَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطَعَمَا اَهْلُهَا﴾ [الكهف: ٧٧]. وقد بينا في رسالتنا المسماة منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز أن ما يسميه البلاغيون مجاز النقص، ومجاز الزيادة، ليس بمجاز حتى عند جمهور القائلين بالمجاز من الأصوليين، وأقمنا الدليل على ذلك.

وقرأ هذا الحرف ابن كثير: وكائن بآلف بعد الكاف، وبعد الألف همزة مكسورة، فنون ساكنة وقرأه الباقون: وكأين بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها ياء مكسورة مشددة

فنون ساكنة، ومعنى القراءتين واحد، فهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان. وأبو عمرو يقف على الياء، والباقون يقفون على النون، وقرأ أبو عمرو: أهلكها بقاء المتكلم المضمومة بعد الكاف من غير ألف، والباقون بنون مفتوحة بعد الكاف، وبعد النون ألف، والمراد بصيغة الجمع، على قراءة الجمهور التعظيم، كما هو واضح، وقرأ ورش والسوسي ويبر بإبدال الهمزة ياء والباقون بالهمزة الساكنة، وهناك مسألة تتعلق بالآية يرجع من أحب الوقوف عليها في الأصل.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة الذين كذبوا نبينا صلوات الله وسلامه عليه، ينبغي لهم أن يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؛ لأنهم إذا سافروا مروا بأماكن قوم صالح، وأماكن قوم لوط، وأماكن قوم هود، فوجدوا بلادهم خالية وآثارهم منطمسة لم يبق منهم داع ولا مجيب، لتكذيبهم رسلهم، وكفرهم بربهم، فيدركون بعقولهم: أن تكذيبهم نبيهم لا يؤمن أن يسبب لهم من سخط الله مثل ما حل بأولئك الذين مروا بمساكنهم خالية، قد عم أهلها الهلاك، وتكون لهم آذان يسمعون بها ما قص الله في كتابه على نبيه من أخبار تلك الأمم، وما أصابها من الإهلاك المستأصل والتدمير، فيحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠] ثم بين تهديده لكفار مكة بما فعل بالأمم الماضية في قوله: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَتَيْنَاهُمُ﴾ [محمد: ١٠] وكقوله في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكْفُرُ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ ۖ وَيَأْتِلْ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات] وكقوله فيهم: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَسْبِيلٌ مُّقْبِرٌ﴾ [الحجر: ٧٦]، وكقوله في قوم لوط وقوم شعيب: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ [الحجر: ٧٨]، ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَأْمُرُ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ٧٩]؛ لأن معنى الآيتين: أن ديارهم على ظهر الطريق الذي يمرون فيه المعبر عنه بالسبيل والإمام، والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا منها جملاً كافية في سورة المائدة وغيرها.

والآية تدل على أن محل العقل: في القلب، ومحل السمع: في الأذن، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل، كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكذلك قول من زعم أن العقل لا مركز له أصلاً في الإنسان؛ لأنه زمني فقط لا مكاني فهو في غاية السقوط والبطلان كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُ لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]. مع بعض الشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يطلبون من النبي ﷺ، تعجيل العذاب الذي يعدهم به طغياناً وعناداً. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص] وقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا سَتَعْلَمُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]؛ وفي يونس في الكلام على قوله: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ مَأْمَنُكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١] إلى غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الظاهر أن المراد بالوعد هنا هو ما أوعدهم به من العذاب الذي يستعجلون نزوله.

والمعنى هو منجز ما وعدهم به من العذاب، إذا جاء الوقت المحدد لذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ مَأْمَنُكُمْ بِهِ مَا لَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]. وبه تعلم أن الوعد يطلق في القرآن على الوعد بالشر.

ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرْتُمْ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ فإنه قال في هذه الآية في النار: وعدها الله بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد، ولم يقل أوعدها وما ذكر في هذه الآية، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة، وأنه لا يخلف وعده بذلك، جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة ق: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ [٢٨] ما يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ [ق: ٢٨، ٢٩]. والصحيح أن المراد بقوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أن ما أوعد الكفار به من العذاب، لا يبدل لديه، بل هو واقع لا محالة، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذِبٍ أُرْسِلَ بِحَقِّ وَبَعْدٍ﴾ [ق: ١٤] أي وجب وثبت فلا يمكن عدم وقوعه بحال. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص]، كما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب) في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وأوضحنا أنما أوعد به الكفار لا يخلف بحال، كما دلت عليه الآيات المذكورة. أما ما أوعد به عصاة المسلمين، فهو الذي يجوز ألا ينفذه وأن يعفو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وبالتحقيق الذي ذكرنا: تعلم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا، وإنما شاع

على ألسنة كثير من أهل التفسير، من أن الوعد لا يستعمل إلا في الوعد بخير وأنه هو الذي لا يخلفه الله، وأما إن كان المتوعد به شراً، فإنه وعيد وإيعاد. قالوا: إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً، وعن الإيعاد كرمًا، وذكروا عن الأصمعي أنه قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه عمرو بن عبيد فقال: يا أبا عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً وعن الإيعاد كرمًا، أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي ولا أنثني عن سطوة المتهدد
فإنني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز مواعيدي

فيه نظر من وجهين:

الأول: هو ما بيناه آنفاً من إطلاق الوعد في القرآن على التوعد بالنار، والعذاب كقوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ لأن ظاهر الآية الذي لا يجوز العدول عنه، ولن يخلف الله وعده في حلول العذاب الذي يستعجلونك به بهم؛ لأنه مقترن بقوله: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ﴾ فتعلقه به هو الظاهر.

الثاني: هو ما بينا أن ما أوعد الله به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال؛ لأن ادعاء جواز إخلافه؛ لأنه إيعاد وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرمًا يبطله أمران:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلاً؛ لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم، وهذا لا شك في بطلانه.

الثاني: ما ذكرنا من الآيات الدالة على أن الله لا يخلف ما أوعد به الكفار من العذاب كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ ﴿٢٨﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ [ق: ٢٨]، وقوله تعالى فيهم: ﴿حَقُّ وَعِيدٍ﴾ [ق: ١٤] وقوله فيهم: ﴿حَقُّ عِقَابٍ﴾ [ص: ١٤] ومعنى حق: وجب وثبت، فلا وجه لانتفائه بحال، كما أوضحناه هنا وفي غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن اليوم عنده - جل وعلا - كألف سنة مما يعده خلقه، وما ذكره هنا من كون اليوم عنده كألف سنة، أشار إليه في سورة السجدة بقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة]. وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة وذلك في قوله: ﴿تَرْجِعُ الْمَلِكَةَ وَالْأَرْوَاحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج]، فأية الحج، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى، وتماثلها في المعنى، وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفاً. وقد ذكرنا وجه الجمع بين هذه الآيات في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وسنذكره - إن شاء الله - هنا ملخصاً مختصراً، ونزيد عليه بعض ما تدعو الحاجة إليه.

فقد ذكرنا ما ملخصه أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس، وسعيد بن المسيب، سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقوله فيها، ويقول: لا أدري، ثم ذكرنا أن للجمع بينهما وجهين:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك، عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج: هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ويوم الألف في سورة السجدة، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الخمسين ألفاً، هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر؛ لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٦﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٧﴾﴾ [المدثر]، اهـ. ذكر هذين الوجهين صاحب الإتيان.

وذكرنا أيضاً في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] ما ملخصه أن آية الفرقان هذه تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار؛ لأن المقيّل القيلولة أو مكانها وهي الاستراحة نصف النهار في الحر، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وابن جبير لدلالة هذه الآية، على ذلك، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وفي تفسير الجلالين ما نصه: وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار، كما ورد في حديث انتهى منه، مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وهو يوم القيامة بلا خلاف في ذلك. والظاهر في الجواب أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿الَّذِينَ يَوْمِئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين: يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٦﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٧﴾﴾ [المدثر] يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث: أن سعيد الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم يتقلبون في رياض الجنة، حتى يفرغ من الناس وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] ونقله عنه ابن كثير في تفسيره، وأما على قول من فسر المقيّل في الآية بأنه المأوى والمنزل كقتادة رحمه الله،

فلا دلالة في الآية لشيء مما ذكرنا. ومعلوم أن من كان في سرور ونعمة، أنه يقصر عليه الزمن الطويل قصراً شديداً، بخلاف من كان في العذاب المهين والبلايا والكروب، فإن الزمن القصير يطول عليه جداً، وهذا أمر معروف، وهو كثير في كلام العرب. وقد ذكرنا في كتابنا المذكور بعض الشواهد الدالة عليه، كقول أبي سفيان بن الحارث رضي الله عنه يرثي رسول الله ﷺ:

أرقت فبات ليلي لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول
وقول الآخر:

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار
وقول الآخر:

ليلى وليلى نفى نومي اختلافهما في الطول والطول طوبى لي لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت بالطول ليلي وإن جادت به بخلا
ونحو هذا كثير جداً في كلام العرب، ومن أظرف ما قيل فيه ما روي عن يزيد بن معاوية أنه قال:

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت نامت وقد أسهرت عيني عيناها
فالليل أطول شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها
وقد ورد بعض الأحاديث بما يدل على ظاهر آية الحج، وآية السجدة.

وسنذكر هنا طرفاً منه بواسطة نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية من سورة الحج. قال ابن كثير: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً فقال: حدثني يعقوب، ثنا ابن علية، ثنا سعيد الجريري عن أبي نصر، عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء، بمقدار نصف يوم، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: «أوما تقرأ القرآن؟» قلت: بلى قال: «وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ». وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان عن شريح بن عبيد، عن سعيد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك عن عكرمة، عن ابن عباس «وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا

تَعْدُونَ ﴿٤٨﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. ورواه ابن جرير عن ابن بشار، عن ابن المهدي وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية. وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْعِجُ لِآيَتِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [السجدة]، اهـ محل الغرض من ابن كثير، وظواهر الأحاديث التي ساق يمكن الجمع بينها وبين ما ذكرنا من أن أصل اليوم كآلف سنة، ولكنه بالنسبة إلى المؤمنين يقصر ويخف، حتى يكون كصنف نهار، والله تعالى أعلم، وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وحزمة، والكسائي: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا يَعْدُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأه الباقر ﴿تَعْدُونَ﴾ بقاء الخطاب ومعنى القراءتين واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبٍ أَتَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّمَا أَخَذَتْهَا وَاِلَآئِىَّ الْمَصِيْرُ﴾ [٤٨]. تقدمت قريباً الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَصِرَ مَشِيْدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِيْنٌ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية أن يقول للناس ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِيْنٌ﴾؛ أي إني لست بربكم، ولا بيدي هدايتكم ولا على عقابكم يوم القيامة، ولكني مخوف لكم من عذاب الله وسخطه.

والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧] وقوله: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِيْنٌ﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيْظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ﴾ [سبا: ٤٦] وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْرًا﴾ [الفرقان] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وقوله في هذه الآية الكريمة مبين الظاهر أنه الوصف من أبان الرباعية اللازمة التي بمعنى بان، والعرب تقول: أبان فهو بين بمعنى بان، فهو بين من اللازم الذي ليس بمتعد إلى المفعول، ومنه قول كعب بن زهير:

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله عتق مبين؛ أي كرم ظاهر ومن أبان اللازمة قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدود

يعني لظهر وبان من آثارهن ورم ومنه قول جرير:

إذا أبأؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

أي ظهر وبان المقرفات من العراب، ويحتمل أن يكون قوله في هذه الآية: مبين: اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم؛ أي مبين لكم في إنذاري كل ما ينفعكم، وما يضركم لتجتلبوا النفع، وتجتنبوا الضر، والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥١﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين آمنوا به وبرسله، وكل ما يجب الإيمان به، وعملوا الفعلات الصالحات من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي لهم من الله مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم؛ أي حسن، وهو ما يرزقهم من أنواع النعيم في جناته، وأن الذين عملوا بخلاف ذلك فهم أصحاب الجحيم: أي النار الشديد حرها، وفي هذه الآية وعد لمن أطاعه ووعيد لمن عصاه. والآيات بمثل ذلك في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿تَبَوَّءَ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٨﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر] وقوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ٤٩﴾... الآية [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقد أوضحناها في غير هذا الموضع.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قال مجاهد: معاجزين يبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين. وقال ابن عباس: معاجزين أي مغالبيين ومشاقين، وعن الفراء معاجزين: معاندين. وعن الأخفش معاجزين: معاندين مسابقين، وعن الزجاج معاجزين: أي ظانين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم ظنوا ألا بعث، وأن الله لا يقدر عليهم.

واعلم أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين قرأه الجمهور معاجزين بألف بين العين والجيم بصيغة المفاعلة اسم فاعل عاجزه، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو معجزين بلا ألف مع تشديد الجيم المكسورة على صيغة اسم الفاعل من عاجزه. قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر بحسب الوضع العربي في قراءة الجمهور معاجزين: هو اقتضاء طرفين؛ لأن الظاهر لا يعدل عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه، والمفاعلة تقتضي الطرفين إلا لدليل يصرف عن ذلك، واقتضاء المفاعلة الطرفين في الآية من طريقين:

الأولى: هي ما قاله ابن عرفة من أن معنى معاجزين في الآية أنهم يعاجزون الأنبياء وأتباعهم، فيحاول كل واحد منهما إعجاز الآخر، فالأنبياء وأتباعهم يحاولون إعجاز الكفار وإخضاعهم لقبول ما جاء عن الله تعالى، والكفار يقاتلون الأنبياء وأتباعهم، ويمنعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله، وهذا الوجه ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] وعليه فمفعول معاجزين محذوف؛ أي معاجزين الأنبياء وأتباعهم، أي مغالبين لهم، ليعجزوهم عن إقامة الحق.

الطريقة الثانية: هي التي ذكرناها آنفاً عن الزجاج أن معنى معاجزين ظانين أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر عليهم لزعمهم أنه لا يقدر على بعثهم بعد الموت كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْمَدُوا﴾ [التغابن: ٧] وكما قال تعالى ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَشِيَ

خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ [يس] وقال تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] وعلى هذا القول فالكفار معاجزين الله في زعمهم الباطل وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن زعمهم هذا كاذب، وأنهم لا يعجزون ربهم بحال كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢] وقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَشَرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْبَرِّ﴾ [التوبة: ٣] وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ... الآية [العنكبوت: ٢٢] وقوله تعالى في الجن: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ﴿٧٩﴾ [الجن] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن مما يوضح هذا الوجه الأخير قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلب مغالب الغلاب

ومراده بسخينة قريش: يعني أنهم يحاولون غلبة ربهم، والله غالبهم بلا شك والوجه الأول أظهر. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: معجزين بكسر الجيم المشددة، بلا ألف، فالأظهر أن المعنى معجزين؛ أي مثبطين من أراد الدخول في الإيمان عن الدخول فيه، وقيل معجزين من اتبع النبي ﷺ، ومعنى ذلك أنهم ينسبونهم إلى العجز من قولهم: عجزه بالتضعيف إذا نسبته إلى العجز الذي هو ضد الحزم، يعنون أنهم يحسبون المسلمين سفهاء لا عقول لهم، حيث ارتكبوا أمراً غير الحزم والصواب، وهو اتباع دين الإسلام في زعمهم كما قال تعالى عن إخوانهم المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الْكَاذِبُونَ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْقَهَاءُ إِلَّا إِنْهُمْ هُمْ السَّافَهَاءُ﴾ ... الآية [البقرة: ١٣].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾. اعلم أولاً أن السعي يطلق على العمل في الأمر لإفساده وإصلاحه، ومن استعماله في الإفساد قوله تعالى هنا ﴿سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي سعوا في إبطالها وتكذيبها بقولهم: إنها سحر وشعر وكهانة وأساطير الأولين، ونحو ذلك. ومن إطلاق السعي في الفساد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٠٥] ومن إطلاق السعي في العمل للإصلاح قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٧٩﴾ [الإنسان] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ ﴿٨٠﴾ وهو يَحْشَى ﴿٨١﴾ ... الآية [عبس] إلى غير ذلك من الآيات. ومن إطلاق السعي على الخير والشر معاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ﴿٨٢﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يُعْطِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ﴿٨٣﴾ [الليل].

وهذه الآية التي ذكرها هنا في سورة الحج التي هي قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ابْنَتُكَ ءَامِنُوتُكَ وَأَصْحَابُ الْبَيْتِ﴾ جاء معناها واضحاً في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْبَيْتِ﴾ جاء معناها واضحاً في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ [سبأ] فـالـعذاب من الرجز الأليم المذكور في سبأ هو عذاب الجحيم المذكور في الحج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

معنى قوله تمنى في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان:

الأول: أن تمنى بمعنى قرأ وتلا ومنه قول حسان في عثمان بن عفان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر
وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمنى داود الزبور على رسل
فمعنى تمنى في البيتين قرأ وتلا.

وفي صحيح البخاري، عن ابن عباس أنه قال: إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، وكون تمنى بمعنى: قرأ وتلا. هو قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: أن تمنى في الآية من التمني المعروف وهو تمنيه إسلام أمته وطاعتهم لله والرسله، ومفعول ألقى محذوف فعلى أن تمنى بمعنى: أحب إيمان أمته، وعلق أمله بذلك، فمفعول ألقى يظهر أنه من جنس الوسواس، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي أو الرسول ما تمنى. ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه: أن الشيطان يلقي وسواسه وشبهه ليصد بها عما تمناه الرسول أو النبي، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصد عن تمامها والحيلولة دون ذلك. وعلى أن تمنى بمعنى: قرأ. ففي مفعول ألقى تقديران:

أحدهما: من جنس الأول: أي ألقى الشيطان في قراءة الرسول ﷺ أو النبي الشبه والوسواس ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه، ويتلوه الرسول أو النبي، وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

وأما التقدير الثاني: فهو ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته ما ليس منها ليظن الكفار أنه منها. وقوله ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يستأنس به لهذا التقدير.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرائق قالوا: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْكُتُبَ وَالْعُرَىٰ ﴿١٨﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم] ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون. وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النبي ﷺ، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم.

وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثلنا لذلك بأمثلة متعددة، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ، هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم: تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، يعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى، في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وليس من المعقول أن النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بخير المزعوم، إلا وغضبوا، ولم يسجدوا لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النبي ﷺ، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٦١) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٦٢) [النحل] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٢٤) [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ [سبا: ٢١] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأى سلطان له أكبر من ذلك.

ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْمَوْتِ﴾ (٢٠) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١٠١) [النجم] وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٣) ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٤) [الشعراء] قوله في القرآن العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩٦) [الحجر] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَكَتَّبَعُونَ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١٢١) [فصلت]، فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم.

مسألة: اعلم أن مسألة الغرائق مع استحالتها شرعاً، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب، والمفسرون يروون هذه القصة عن ابن عباس من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. ومعلوم أن الكلبي متروك، وقد بين البزار رحمه الله أنها لا تعرف من طريق يجوز ذكره إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، مع الشك الذي وقع في وصله، وقد اعترف الحافظ ابن حجر مع انتصاره، لثبوت هذه القصة بأن طرقها كلها إما منقطعة أو ضعيفة إلا طريق سعيد بن جبير.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن طريق سعيد بن جبير، لم يروها بها أحد متصلة إلا أمية بن خالد، وهو وإن كان ثقة فقد شك في وصلها.

فقد أخرج البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، ثم ساق حديث القصة المذكورة، وقال البزار: لا يرى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور، وقال البزار: وإنما يروى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. والكلبي متروك.

فتحصل أن قصة الغرائيق، لم ترد متصلة إلا من هذا الوجه الذي شك راويه في الوصل، ومعلوم أن ما كان كذلك لا يحتج به لظهور ضعفه، ولذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: إنه لم يرها مسندة من وجه صحيح.

وقال الشوكاني في هذه القصة: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ نَفَوَّلْ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَوَّلِينَ﴾ ... الآية [الحاقة] وقوله: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْمَوْتِ﴾ ... الآية [النجم]. وقوله ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتْنَا لَفَدَّتْ كَرْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء] فنفي المقاربة للركون فضلاً عن الركون، ثم ذكر الشوكاني عن البزار أنها لا تروى بإسناد متصل، وعن البيهقي أنه قال: هي غير ثابتة من جهة النقل، وذكر عن إمام الأئمة ابن خزيمة أن هذه القصة من وضع الزنادقة وأبطلها ابن العربي المالكي، والفخر الرازي وجماعات كثيرة، وقراءته ﷺ سورة النجم وسجود المشركين ثابت في الصحيح، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرائيق. وعلى هذا القول الصحيح وهو أنها باطلة فلا إشكال.

وأما على ثبوت القصة كما هو رأي الحافظ ابن حجر فإنه قال في فتح الباري: إن هذه القصة ثابتة بثلاثة أسانيد كلها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذلك من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض؛ لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلاً، فللعلماء عن ذلك أجوبة كثيرة أحسنها، وأقربها أن النبي ﷺ كان يرتل السورة ترتيلاً تتخلله سككات، فلما قرأ ﴿وَمَنْزُةَ الْفَالِئَةِ الْآخِرَةِ﴾ [النجم] قال الشيطان لعنه الله محاكياً لصوته: تلك الغرائيق العلى ... إلخ، فظن المشركون أن الصوت صوته ﷺ، وهو بريء من ذلك براءة الشمس من اللبس، وقد أوضحنا هذه المسألة في رحلتنا إيضاحاً وافياً، واختصرناها هنا، وفي كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب).

والحاصل أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ لما ذكر شرعاً، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان. فتبين أن نطق النبي ﷺ بذلك الكفر، ولو سهواً مستحيل شرعاً، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعاً على كل حال، والغرائيق: الطير البيض المعروفة واحدها: غرنوق كزنبور وفردوس، وفيه لغات غير ذلك، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض، فتشفع عنده لعابديها قبحهم الله ما أكفرهم، ونحن وإن ذكرنا أن قوله:

﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يستأنس به لقول من قال: إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره: ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها؛ لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان، ليس مما يقرؤه الرسول أو النبي، فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده.

والدليل على هذا المعنى أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق؛ لأنه قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ثم قال ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ فقلوه: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾... الآية، يدل على أن الشيطان يلقي عليهم أن الذي يقرأه النبي ليس بحق فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله تعالى. وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقي الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم.

ومعنى يحكم آيته يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقي في قراءة الرسول والنبي، فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرينهم.

بذلك الامتحان، جاء موضحاً في آيات كثيرة قدمناها مراراً كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفْتِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثِلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾ [المدر: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنِ يَتَّبِعُ الرُّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزَّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ أي لأنها فتنة، كما قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [٦١] إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾ [الصافات]؛ لأنه لما نزلت هذه الآية قالوا: ظهر كذب محمد ﷺ؛ لأن الشجر لا ينبت في الموضع اليابس، فكيف تنبت شجرة في أصل الجحيم إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدم إيضاحه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾... الآية الأظهر أنها متعلقة بألقى؛

أي ألقى الشيطان في أمانة الرسل والأنبياء، ليجعل الله ذلك الإلقاء فتنه للذين في قلوبهم مرض، خلافاً للحوافي القائل: إنها متعلقة بيحكم، وابن عطية القائل: إنها متعلقة بينسخ. ومعنى كونه: فتنه لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر، وقد أوضحنا معاني الفتنة في القرآن سابقاً، وبيننا أن أصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار، ليظهر بسبكه فيها أخالص هو أم زائف، وأنها في القرآن تطلق على معان متعددة منها: الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾ [الذاريات] أي يحرقون بها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ جَاءَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٠] أي أحرقوهم بنار الأخدود على أظهر التفسيرين، ومنها: الاختبار وهو أكثر استعمالاتها في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الأنعام: ١١] لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ [الجن: ١٦، ١٧] ومنها نتيجة الابتلاء إن كانت سيئة كالكفر والضلال كقوله: ﴿وَيَقِيلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي شرك بدليل قوله: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقوله في الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كُلُّهُمُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ومما يوضح هذا المعنى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» الحديث، فالغاية في الحديث مبينة للغاية في الآية؛ لأن خير ما يفسر به القرآن بعد القرآن السنة، ومنه بهذا المعنى قوله هنا ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وقد جاءت الفتنة في موضع بمعنى الحجة، وهو قوله تعالى في الأنعام ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] أي حجتهم كما هو الظاهر.

واعلم أن مرض القلب في القرآن يطلق على نوعين:

أحدهما: مرضه بالنفاق والشك والكفر، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ... الآية [البقرة: ١٠] وقوله هنا: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي كفر وشك.

وثانيهما: إطلاق مرض القلب على ميله للفاحشة والزنى، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي ميل إلى الزنى ونحوه، والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة: مرضاً وذلك معروف في لغتهم ومنه قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض

وقوله هنا: ﴿وَالْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قد بينا في سورة البقرة الآيات القرآنية الدالة على سبب قسوة القلوب في الكلام على قوله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وآية الحج هذه تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم، من أن النبي هو من أوحى إليه وحى، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحى

إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآية. يدل على أن كلا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبيا بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمنون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ الآية [المائدة: ٤٤] وقوله في هذه الآية: ﴿فَخِزَّتْ لَمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخشع وتخضع وتطمئن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥). ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار لا يزالون في مرية، أي شك وريب منه؛ أي من هذا القرآن العظيم كما هو الظاهر، واختاره ابن جرير وهو قول ابن جريج، كما نقله عنهم ابن كثير: وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: في ﴿مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي في شك مما ألقى الشيطان، وذكر تعالى في هذه الآية: أنهم لا يزالون كذلك، حتى تأتيهم الساعة؛ أي القيامة بغتة؛ أي فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قد روى مجاهد عن أبي بن كعب أن اليوم العقيم المذكور يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعد بن جبير وغير واحد: واختاره ابن جرير كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره ثم قال: وقال مجاهد وعكرمة في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، ثم قال: وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به اهـ. محل الغرض من ابن-كثير.

وقد ذكرنا مراراً أننا بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول. وذكرنا لذلك أمثلة كثيرة. وبه تعلم أن القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم: يوم القيامة، لا يوم بدر؛ وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم، بقوله ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾... الآية. وذلك يوم القيامة وقوله: يومئذ: أي يوم إذ تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذاب عقيم، وكل ذلك يوم القيامة، فظهر أن اليوم العقيم: يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عقيماً على الكفار؛ لأنهم لا خير لهم فيه، وقد أصابهم ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الملك يوم القيامة له، وإن كان الملك في الدنيا له أيضاً؛ لأن في الدنيا ملوكاً من المخلوقين، ويوم القيامة لا يكون فيه اسم الملك إلا الله - جل وعلا - وحده، وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الملك يوم القيامة له، ومعلوم أن الملك هو الذي له الحكم بين الخلق. بيّنه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿١٤﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ﴾... الآية [الفرقان: ٢٦] وقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [وآفا: ١٦] قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥٧)، إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة المذكور هنا وكون الكفار المكذبين بآيات الله لهم العذاب المهين: يتضمن تفصيل حكم الله بينهم في قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وما ذكره هنا من الوعد والوعيد قد بينا الآيات الدالة على معناه مراراً بكثرة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُمُ خَيْرُ الرِّزْقِ﴾ (٥٨).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن المؤمنين الذين هاجروا في سبيل الله، ثم قتلوا بأن قتلهم الكفار في الجهاد؛ لأن هذا هو الأغلب في قتل من قتل منهم، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفهم في غير جهاد، أنه تعالى أقسم ليرزقهم رزقاً حسناً وأنه خير الرازقين، وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا جاء مبيناً في غير هذا الموضع.

أما الذين قتلوا في سبيل الله، فقد بين الله - جل وعلا - أنه يرزقهم رزقاً حسناً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] ولا شك أن ذلك الذي يرزقهم رزق حسن، وأما الذين ماتوا في غير قتال المذكورين في قوله هنا: أو ماتوا، فقد قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] ولا شك أن من وقع أجره على الله أن الله يرزقه الرزق الحسن كما لا يخفى، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية طرفاً منها والعلم عند الله تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ قرأه ابن عامر بتشديد التاء والباقون بتخفيفها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١٢). ذكر غير واحد من المفسرين أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾... الآية؛ أي ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرته من شاء نصرته، ومن علامات قدرته الباهرة أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، أو بسبب أنه خالق الليل والنهار، ومضرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون؛ أي وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن الله هو

الحق؛ أي الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده، وأن كل ما يدعى إلهاً غيره باطل وكفر، ووبال على صاحبه، وأنه - جل وعلا - هو العلي الكبير، الذي هو أعلى من كل شيء وأعظم وأكبر سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا، بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾... الآية، وآخره بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾... الآية.

والأظهر عندي أن الإشارة في قوله ذلك: راجعة إلى ما هو أعم من نصرة المظلوم، وأنها ترجع لقوله: ﴿الْمَلِكُ يُؤَمِّرُ اللَّهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ﴾ إلى ما ذكره من نصرة المظلوم؛ أي ذلك المذكور من كون الملك له وحده، يوم القيامة، وأنه الحاكم وحده بين خلقه، وأنه المدخل الصالحين جنات النعيم والمعذب الذين كفروا العذاب المهين، والناصر من بغى عليه من عباده المؤمنين، بسبب أنه القادر على كل شيء، ومن أدلة ذلك أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا. وهذا الذي وصف به نفسه هنا من صفات الكمال والجلال ذكره في غير هذا الموضع كقوله في سورة لقمان، مبيناً أن من اتصف بهذه الصفات قادر على إحياء الموتى، وخلق الناس ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٌ وَجِدُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان].

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]. ذلك يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [لقمان]، فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، استدل بها على قدرته في الحج، وفي لقمان، وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان:

الأول: وهو قول الأكثر: هو أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر، إنما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف؛ لأنه أولج فيه شيء من الليل ويطول الليل في الشتاء؛ لأنه أولج فيه شيء من النهار، وهذا من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج، ويظلم بفقده، ذكر هذا الوجه الزمخشري، وكأنه يميل إليه والأول أظهر، وأكثر قائلًا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي: يدعون بالياء التحتية، وقرأه الباقون: بناء الخطاب الفوقية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]. الظاهر أن «تر» هنا من رأى بمعنى: علم؛ لأن إنزال المطر وإن كان مشاهداً بالبصر فكون الله هو الذي أنزله، إنما يدرك بالعلم لا بالبصر، فالرؤية هنا علمية على التحقيق.

فالمعنى ألم تعلم الله منزلاً من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة؛ أي ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبت الله فيها بسبب إنزاله الماء من السماء، وهذه آية من آياته وبراهين قدرته على البعث كما بيناه مراراً. وهذا المعنى المذكور هنا من كون إنبات نبات الأرض، بإنزال الماء من آياته الدالة، على كمال قدرته جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩] وكقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ [ق: ٩ - ١١]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿كَذَلِكَ الْمَرْجُوعُ﴾ [ق: ١١]؛ أي خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت كقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْمَرْجُوعُ﴾ [ق: ١١] ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] والآيات بمثل هذا كثيرة.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان:

الأول: هو ما حكمة عطف المضارع في قوله: فتصبح على الماضي الذي هو أنزل؟

السؤال الثاني: ما وجه الرفع في قوله: فتصبح مع أن قبلها استفهاماً؟

فالجواب عن الأول: أن النكتة في المضارع هي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا وكذا، فأروح وأغدو شاكرًا له، ولو قلت: فغدوت ورحت، لم يقع ذلك الموقع، هكذا أجاب به الزمخشري.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن التعبير بالمضارع يفيد استحضر الهيئة التي اتصفت بها الأرض: بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضارها؛ لأنه يفيد انقطاع الشيء، أما الرفع في قوله: فتصبح؛ فلأنه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام، وإنما هو مسبب الإنزال في قوله: أنزل، والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام، ومعلوم أن الفاء التي ينصب بعدها المضارع إن حذف جاز جعل مدخولها جزاء للشرط، ولا يمكن أن تقول هنا: إن تر أن الله أنزل من السماء ماء، تصبح الأرض مخضرة؛ لأن الرؤية لا أثر لها البتة في اخضرار الأرض، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله.

وقد قال الزمخشري في الكشف في الجواب عن هذا السؤال: فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام.

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض؛ لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار.

مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر، إن تنصبه فأنت ناف لشكره شاك تقريظه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله، انتهى منه. وذكر نحوه أبو حيان وفسره ظاناً أنه أوضحه، ولا يظهر لي كل الظهور، والعلم عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: فتصبح مع أن اخضرار الأرض، قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب: أنه على قول من قال: فتصبح الأرض مخضرة، أي تصير مخضرة فالأمر واضح، والعرب تقول: أصبح فلان غنياً مثلاً بمعنى صار، وذكر أبو حيان عن بعض أهل العلم أن بعض البلاد تصبح فيه الأرض مخضرة في نفس صبيحة المطر. ذكره عكرمة وابن عطية وعلى هذا فلا إشكال. وقال بعضهم: إن الفاء للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه كقوله: ﴿فَرَزَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مُمْضِكَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] مع أن بين ذلك أربعين يوماً كما في الحديث، قاله ابن كثير. وقوله: لطيف خبير؛ أي لطيف بعباده، ومن لطفه بهم إنزاله المطر وإنباته لهم به أقواتهم، خبير بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الله سخر لخلقه ما في الأرض، وسخر لهم السفن تجري في البحر بأمره، وهذا الذي ذكره هنا جاء موضعاً في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] وقد بينا معنى تسخير ما في السماء بإيضاح في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] وكقوله: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [٤١] وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة النحل وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ذكر - جل وعلا - في

هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض، فتهلك من فيها، وأنه لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فأهلك من عليها كما قال: ﴿إِنْ شَاءَ نَحْنُ يَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ ... الآية [سبا: ٩]. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ... الآية [فاطر: ٤١]، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [٧] [المؤمنون] على قول من فسرها بأنه غير غافل عن الخلق بل حافظ لهم من سقوط السموات المعبر عنها بالطرائق عليهم.

تنبيه: هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَمْرٍ

مِنْ بَعْدِهِ ﴿فَاطْر: ٤١﴾ وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩] وقوله: ﴿وَنَبِّئْنَا قَوْمَكَ سَبَآ شِدَادًا ۝﴾ [النبا]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات، يدل دلالة واضحة، على أن ما يزعمه ملاحدة الكفرة، ومن قلدتهم من مطموسي البصائر ممن يدعون الإسلام أن السماء فضاء لا جرم مبني، أنه كفر وإلحاد وزندقة، وتكذيب لنصوص القرآن العظيم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي ومن رأفته ورحمته بخلقه أنه أمسك السماء عنهم، ولم يسقطها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۝﴾. قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي بعد أن كنتم أمواتاً في بطون أمهاتكم قبل نفخ الروح فيكم فهما إحياءتان، وإماتتان كما بينه بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَلَمَّا آمَنَّا آتَيْنِي... الآية [غافر: ١١].

ونظير آية الحج المذكورة هذه قوله تعالى في الجاثية: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [الجاثية: ٢٦]، وكفر الإنسان المذكور في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ مع أن الله أحياه مرتين، وأماته مرتين، هو الذي دل القرآن على استعباده وإنكاره مع دلالة الإماتتين والإحياءتين على وجوب الإيمان بالمحيي المميت، وعدم الكفر به في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. الأظهر في معنى قوله: ﴿مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي متعبداً هم متعبدون فيه؛ لأن أصل النسك التعبّد وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى الله بالذبح، فهو فرد من أفراد النسك صرح القرآن بدخوله في عمومه؛ وذلك من أنواع البيان الذي تضمنها هذا الكتاب المبارك.

والآية التي بين الله فيها ذلك هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالْهَكْرِ إِلَهٌ وَحْدًا فَلَهُ أَسْلُمُوا﴾، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يدعو الناس إلى ربهم أي إلى طاعته، وطاعة رسوله، وأخبره فيها أنه على صراط مستقيم؛ أي طريق حق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي أمره أن يدعو الناس إليه وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمرين المذكورين، جاء واضحاً في مواضع أخر، كقوله في الأول منهما: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ

أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادَّعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [الشورى: ١٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿ادَّعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وأخبر - جل وعلا - أنه امثل الأمر بدعائهم إلى ربهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وكقوله في الأخير: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ ... الآية [الجاثية: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَن جَدُّلُوكَ فُقِّلَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أنه إن جادله الكفار؛ أي خاصموه بالباطل وكذبه، أن يقول لهم: الله أعلم بما تعملون.

وهذا القول الذي أمر به تهديد لهم فقد تضمنت هذه الآية أمرين:

أحدهما: أمر الرسول ﷺ أن يهددهم بقوله: الله أعلم بما تعملون؛ أي من الكفر، فمجازيكم عليه أشد الجزاء.

ثانيهما: الإعراض عنهم، وقد أشار تعالى للأمرين اللذين تضمنتهما هذه الآية في غير هذا الموضع.

أما إعراضه عنهم عند تكذيبهم له بالجدال الباطل فمن المواضع التي أشير له فيها قوله تعالى: ﴿وَأَن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيقُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [يونس].

وأما تهديدهم فقد أشار له في مواضع كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨] وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوَّامِ الْمُجِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٨٧] وقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ ... الآية فيه أشد الوعيد للمكذبين، كما قال: ﴿وَلِيُؤْمِرَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ [المرسلات] في مواضع متعددة، وهم إنما يكذبونه بالجدال، والخصام بالباطل، وقد أمره الله في غير هذا الموضع أن يجادلهم بالتي هي أحسن وذلك في قوله ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وبين له أنهم لا يأتونه بمثل ليحتجوا عليه به بالباطل، إلا جاءه الله بالحق الذي يدمغ ذلك الباطل، مع كونه أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحقائق وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. أي ما عظموه حق عظمتهم حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب، وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه، كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم، إن سلبها الذباب منه شيئاً لا تقدر على استنقاذه

منه، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته، ولم يعرفوه حق معرفته حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع، ولا دفع ضرر، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وكقوله في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾. بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يصطفى أي يختار رسلاً من الملائكة، ومن الناس فرسل الناس لإبلاغ الوحي، ورسل الملائكة لذلك أيضاً، وقد يرسلهم لغيره، وهذا الذي ذكره هنا من اصطفاؤه الرسل منهما جاء واضحاً في غير هذا الموضع، كقوله في رسل الملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ﴾ [فاطر: ١]. وقوله في جبريل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة]. ومن ذكره إرسال الملائكة بغير الوحي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وكقوله في رسل بني آدم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾. أي اصطفاكم، واختاركم يا أمة محمد.

ومعنى هذه الآية أوضحه بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾... الآية [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. الحرج: الضيق كما أوضحناه في أول سورة الأعراف.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ذكره - جل وعلا - في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٦٨]. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وابن عباس أن النبي ﷺ لما قرأ خواتم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال الله: قد فعلت» في رواية ابن عباس. وفي رواية أبي هريرة قال: «نعم». ومن رفع الحرج في هذه الشريعة الرخصة في قصر الصلاة في السفر والإفطار في رمضان فيه، وصلاة العاجز عن القيام قاعداً وإباحة المحظور للضرورة كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ» [الأنعام: ١١٩] إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج، والتخفيف في شريعة نبينا ﷺ، هو إحدى القواعد الخمس، التي بني عليها الفقه الإسلامي وهي هذه الخمس.

الأولى: الضرر يزال ومن أدلتها حديث: «لا ضرر ولا ضرار».

الثانية: المشقة تجلب التيسير: وهي التي دل عليها قوله هنا: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» وما ذكرنا في معناها من الآيات.

الثالثة: لا يرفع يقين بشك، ومن أدلتها حديث «من أحس بشيء في دبره في الصلاة وأنه لا يقطع الصلاة حتى يسمع صوتاً أو يشم ريحاً» لأن تلك الطهارة المحققة لم تنقض بتلك الريح المشكوك فيها.

الرابعة: تحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم، ونحو ذلك، واستدل لهذه بعضهم بقوله: «وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ»... الآية [الأعراف: ١٩٩].

الخامسة: الأمور تبع المقاصد، ودليل هذه حديث «إنما الأعمال بالنيات» الحديث. وقد أشار في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال إلى هذه الخمس المذكورات بقوله:

قد أسس الفقه على رفع الضرر	وأن ما يشق يجلب الوطر
ونفي رفع القطع بالشك وأن	يحكم العرف وزاد من فطن
كون الأمور تبع المقاصد	مع التكلف ببعض وارد

قوله تعالى: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ». قال بعضهم: هو منصوب بنزع الخافض، ومال إليه ابن جرير؛ أي ما جعل عليكم في دينكم من ضيق، كلمة إبراهيم، وأعربه بعضهم منصوباً بمحذوف؛ أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم، ولا يبعد أن يكون قوله: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» شاملاً لما ذكر قبله من الأوامر في قوله: «يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا آذَكُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْكُلُوا الْخَيْرَ لَكُمْ تَقْوَاهُ» ﴿٧٧﴾ وَاجْهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ. ويوضح هذا قوله تعالى: «قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» [الأنعام: ١٦١] والدين القيم الذي هو ملة إبراهيم شامل لما ذكر كله.

قوله تعالى: «هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا». اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ «هو» من قوله: «هُوَ سَمَنُكُمُ» فقال بعضهم: الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا، وهذا القول مروى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة. كما نقله عنهم ابن كثير. وقال بعضهم: هو أي إبراهيم سماكم المسلمين، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ» [البقرة: ١٢٨]، وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير. وقد قدمنا أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول

بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وجئنا بأمثلة كثيرة في الترجمة، وفيما مضى من الكتاب، وفي هذه الآيات قريتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب.

إحدهما: أن الله قال: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾؛ أي القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير.

القرينة الثانية: أن لأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم فقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي الله وما جعل عليكم في الدين من حرج؛ أي الله هو سماكم المسلمين؛ أي الله.

فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم. فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف؛ لأن قوله وفي هذا يعني القرآن، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو هو ﴿اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يناسبه أن يكون هو سماكم؛ أي الله المسلمين.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية بعد أن ذكر أن الذي سماهم المسلمين من قبل وفي هذا: هو الله، لا إبراهيم ما نصه:

قلت: وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ﷺ بأنه ملة إبراهيم أبيهم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها، والثناء عليها في سالف الدهر، وقديم الزمان في كتب الأنبياء، تتلى على الأحرار والرهبان فقال: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا القرآن.

وفي هذا روى النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام، أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جني جهنم»، قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وإن صلى؟ قال: «نعم وإن صام وإن صلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله» وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، اه من تفسير ابن كثير.

وقال ابن كثير في تفسير سورة البقرة: إن الحديث المذكور فيه أن الله هو الذي سماهم المسلمين المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. يعني إنما اجتباكم، وفضلكم ونوه بإسمكم المسلمين قبل نزول كتابكم، وزكاكم على السنة الرسل المتقدمين، فسماكم فيها المسلمين، وكذلك سماكم في هذا القرآن. وقد عرف بذلك أنكم أمة وسط عدول خيار مشهود بعدالتكم، لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، أن الرسل بلغتهم رسالات ربهم، حين ينكر الكفار ذلك يوم القيامة، ويكون الرسول عليكم شهيداً، أنه بلغكم، وقيل: شهيداً على صدقكم فيما شهدتم به للرسل على أمهم من التبليغ.

وهذا المعنى المذكور هنا ذكره الله - جل وعلا - في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال فيه ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾... الآية [الأحزاب: ٤٥]. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات التي ابتدأ بها أول هذه السورة علامات المؤمنين المفلحين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فازوا وظفروا بخير الدنيا والآخرة.

وفلاح المؤمنين مذكور ذكراً كثيراً في القرآن كقوله: ﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب] وقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أصل الخشوع: السكون، والطمأنينة، والانخفاض ومنه قول نابغة ذبيان:

رماد ككحل العين لاياً أبينه ونوى كجذم الحوض أثلم خاشع

وهو في الشرع: خشية من الله تكون في القلب، فتظهر آثارها على الجوارح.

وقد عد الله الخشوع من صفات الذين أعد لهم مغفرة وأجرًا عظيماً في قوله في الأحزاب: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد عد الخشوع في الصلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين، الذين يرثون الفردوس، وبين أن من لم يتصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصلاة في قوله: ﴿وَأَن تَأْتُوا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد استدل جماعة من أهل العلم بقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ على أن من خشوع المصلي أن يكون نظره في صلاته إلى موضع سجوده، قالوا: كان النبي ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فجعل رسول الله ﷺ ينظر حيث يسجد.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿٣﴾ فطأطأ رأسه»، اهـ منه.

وأكثر أهل العلم على أن المصلي ينظر إلى موضع سجوده، ولا يرفع بصره. وخالف المالكية الجمهور، فقالوا: إن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قالوا: فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء، وذلك ينافي كمال القيام. وظاهر قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ لأن المنحني بوجهه إلى موضع سجوده، ليس بمول وجهه شطر المسجد الحرام، والجمهور على خلافهم كما ذكرنا.

واعلم أن معنى أفلح: نال الفلاح، والفلاح يطلق في لغة العرب على معنيين:

الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر، ومنه قول لبيد:

فأعقلي إن كنت لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

أي فاز من رزق العقل بالمطلوب الأكبر.

والثاني: هو إطلاق الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، ومنه قول لبيد أيضاً

في رجز له:

لو أن حيّا مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح

يعني مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع:

لكل هم من الهموم سعه والمسي والصبح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه، ولا شك أن من اتصف بهذه الصفات التي ذكرها الله في أول هذه السورة الكريمة دخل الجنة كما هو مصرح به في الآيات المذكورة، وأن من دخل الجنة نال الفلاح بمعنييه المذكورين، والمعنيان اللذان ذكرنا للفلاح بكل واحد منهما، فسر بعض العلماء حديث الأذان والإقامة في لفظة: حي على الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية

الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين: إعراضهم عن اللغو، وأصل اللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فيدخل فيه اللعب واللهو والهزل، وما توجب المروءة تركه.

وقال ابن كثير ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله

بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، اهـ منه.

وما أثني الله به على المؤمنين المفلحين في هذه الآية، أشار له في غير هذا

الموضع كقوله: ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣] ومن مروهم به كراماً

إعراضهم عنه، وعدم مشاركتهم أصحابه فيه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلُواكَ الْغَنَىٰ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ ... الآية [القصص: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [١]. في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم.

أحدهما: أن المراد بها زكاة الأموال، وعزاه ابن كثير للأكثرين.

ثانيهما: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس أي تطهيرها من الشرك، والمعاصي بالإيمان بالله، وطاعته وطاعة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٢] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [٣] [الشمس] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [٤] ... الآية [الأعلى]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةٌ﴾ ... الآية [الكهف: ٨١]، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٥] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصلت: ٦، ٧] على أحد التفسيرين. وقد يستدل لهذا القول الأخير بثلاث قرائن:

الأولى: أن هذه السورة مكية، بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم. فدل على أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [١] نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة، فدل على أن المراد به غيرها.

القرينة الثانية: هي أن المعروف في زكاة الأموال: أن يعبر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله: ﴿وَأَتَاءَ الزَّكَاةَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ونحو ذلك. وهذه الزكاة المذكورة هنا لم يعبر عنها بالإيتاء بل قال تعالى فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [١] فدل على أن هذه الزكاة أفعال المؤمنين المفلحين، وذلك أولى بفعل الطاعات، وترك المعاصي من أداء مال.

الثالثة: أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة، من غير فصل بينهما كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وهذه الزكاة المذكورة هنا فصل بين ذكرها، وبين ذكر الصلاة بجملته ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [٢].

والذين قالوا المراد بها زكاة الأموال قالوا: إن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة، وأن الزكاة التي فرضت بالمدينة سنة اثنتين هي ذات النصب، والمقادير الخاصة.

وقد أوضحنا هذا القول في الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْأَمَتُهُمْ هَبْطًا﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقد يستدل؛ لأن المراد بالزكاة في هذه الآية غير الأعمال التي تزكى بها النفوس من دنس الشرك والمعاصي، بأننا لو حملنا معنى الزكاة على ذلك، كان شاملاً لجميع صفات المؤمنين المذكورة في أول هذه السورة، فيكون كالتكرار معها، والحمل على التأسيس والاستقلال أولى من غيره، كما تقرر في

الأصول، وقد أوضحناه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّاهُ حَيوةً طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧] والذين قالوا: هي زكاة الأموال قالوا: فاعلمون أي مؤدون، قالوا: وهي لغة معروفة فصيحة، ومنها قول أمية بن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الأزمنة والفاعلون للزكوات

وهو واضح بحمل الزكاة على المعنى المصدري بمعنى التزكية للمال؛ لأنها فعل المزمكي كما هو واضح. ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، ودفع زكاة المال كلاهما من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة.

وقد قال ابن كثير رحمته الله: وقد يحتمل أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة النفس من الشرك، والدنس إلى أن قال ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس، وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم، اهـ منه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۖ﴾ (٦). ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها حفظهم لفروجهم؛ أي من اللواط والزنى، ونحو ذلك، وبين أن حفظهم فروجهم، لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن بعقد الزواج أو بملك اليمين، والمراد به التمتع بالسراري، وبين أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه، وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه، وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين؛ أي المعتدين المتعدين حدود الله، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه.

وبين معنى العادين في هذه الآية قوله تعالى في قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۖ﴾ [الشعراء] وهذا الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة سأل سائل؛ لأنه قال فيها في الشاء على المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ (٦) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ﴾ (٦) [المعارج].

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: اعلم أن «ما» في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من صيغ العموم، والمراد بها «من» وهي من صيغ العموم، فآية قد أفلح المؤمنون وآية سأل سائل تدل بعمومها المدلول عليه بلفظة ما، في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ في الموضعين على جواز جمع الأختين بملك اليمين في التسري بهما معاً لدخولهما في عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وبهذا قال داود الظاهري، ومن تبعه، ولكن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] يدل بعمومه على منع جمع الأختين، بملك اليمين؛ لأن الألف واللام في الأختين صيغة عموم، تشمل كل أختين سواء كانتا بعقد

أو ملك يمين؛ ولذا قال عثمان رضي الله عنه، لما سئل عن جمع الأختين بملك اليمين: أحلتها آية، وحرمتها أخرى يعني الآية المحلة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ وبالمحرمة ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وسنذكر هنا - إن شاء الله - المهم مما ذكرنا فيه ونزيد ما تدعو الحاجة إلى زيادته.

وحاصل تحرير المقام في ذلك أن الآيتين المذكورتين بينهما عموم وخصوص، من وجه يظهر للنظر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها كما قال عثمان رضي الله عنه عنهما: أحلتها آية، وحرمتها أخرى وإيضاحه أن آية: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ تنفرد عن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الأختين المجموع بينهما، بعقد نكاح وتنفرد آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الأمة الواحدة، أو الأمتين اللتين ليستا بأختين، ويجتمعان في الجمع بين الأختين. فعموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ يقتضي تحريمه، وعموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يقتضي إباحته، وإذا تعارض الأعمان من وجه في الصورة التي يجتمعان فيها: وجب الترجيح بينهما، والراجح منهما، يقدم ويخصص به عموم الآخر، كما أشار له في (مراقي السعود) بقوله:

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتماً معتبر
وإذا علمت ذلك فاعلم أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ مرجح من خمسة أوجه على عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾:

الأول: منها أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ نص في محل المدرك المقصود بالذات؛ لأن السورة سورة النساء: وهي التي بين الله فيها من تحل منهن، ومن لا تحل وآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الموضوعين لم تذكر من أجل تحريم النساء، ولا تحليلهن بل ذكر الله صفات المؤمنين التي يدخلون بها الجنة، فذكر من جعلتها حفظ الفرج، فاستطرد أنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والسرية. وقد تقرر في الأصول أن أخذ الأحكام من مظانها أولى من أخذها، لا من مظانها.

الوجه الثاني: أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين؛ لأن الأخت من الرضاع لا تحل بملك اليمين، إجماعاً للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يخص عموم ﴿وَأَوْفُواكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]. ومطوأة الأب لا تحل بملك اليمين إجماعاً، للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يخصه عموم ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾... الآية [النساء: ٢٢]، والأصح عند الأصوليين في تعارض العام الذي دخله التخصيص، مع العام الذي لم يدخله التخصيص: هو تقديم الذي لم يدخله التخصيص، وهذا هو قول جمهور أهل الأصول، ولم أعلم أحداً خالف فيه، إلا صفي الدين الهندي، والسبكي.

وحجة الجمهور أن العام المخصص، اختلف في كونه حجة في الباقي، بعد التخصيص، والذين قالوا: هو حجة في الباقي، قال جماعة منهم: هو مجاز في الباقي، وما اتفق على أنه حجة، وأنه حقيقة، وهو الذي لم يدخله التخصيص أولى مما اختلف في حجته، وهل هو حقيقة، أو مجاز؟ وإن كان الصحيح أنه حجة في الباقي، وحقيقة فيه؛ لأن مطلق حصول الخلاف فيه يكفي في ترجيح غيره عليه، وأما حجة صفي الدين الهندي والسبكي، على تقديم الذي دخله التخصيص فهي أن الغالب في العام التخصيص، والحمل على الغالب أولى، وأن ما دخله التخصيص يبعد تخصيصه مرة أخرى، بخلاف الباقي على عمومه.

الوجه الثالث: أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ غير وارد في معرض مدح ولا ذم وعموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وارد في معرض مدح المتقين، والعام الوارد في معرض المدح أو الذم اختلف العلماء في اعتبار عمومه، فأكثر العلماء على أن عمومه معتبر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَبِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الانفطار] فإنه يعم كل بر مع أنه للمدح، وكل فاجر مع أنه للذم. قال في (مراقي السعود):

وما أتى للمدح أو للذم يعم عند جل أهل العلم

وخالف في ذلك بعض العلماء منهم: الإمام الشافعي رحمته الله قائلاً: إن العام الوارد في معرض المدح، أو الذم لا عموم له؛ لأن المقصود منه الحث في المدح والزجر في الذم؛ ولذا لم يأخذ الإمام الشافعي بعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] في الحلبي المباح؛ لأن الآية سيقت للذم، فلا تعم عنده الحلبي المباح.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن العام الذي لم يقترن بما يمنع اعتبار عمومه أولى من المقترن بما يمنع اعتبار عمومه، عند بعض العلماء.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا المعارضة بين الآيتين، فالأصل في الفروج التحريم، حتى يدل دليل لا معارض له على الإباحة.

الوجه الخامس: أن العموم المقتضي للتحريم أولى من المقتضي للإباحة؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام.

فهذه الأوجه الخمسة يرد بها استدلال داود الظاهري، ومن تبعه على إباحته جمع الأختين بملك اليمين، محتجاً بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ولكن داود يحتج بأية أخرى يعسر التخلص من الاحتجاج بها، بحسب المقرر في أصول الفقه المالكي والشافعي والحنبلي، وإيضاح ذلك أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين أنه إن ورد استثناء بعد جمل متعاطفة، أو مفردات متعاطفة، أن الاستثناء المذكور يرجع لجميعها خلافاً لأبي حنيفة القائل يرجع إلى الجملة الأخيرة فقط، قال في (مراقي السعود):

وكل ما يكون فيه العطف
دون دليل العقل أو ذي السمع
من قبل الاستثناء فكلاً يقفو
إلخ

وإذا علمت أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين رجوع الاستثناء لكل المتعاطفات، وأنه لو قال الواقف في صيغة وقفه: هو وقف على بني تميم وبني زهرة والفقراء إلا الفاسق منهم، أنه يخرج من الوقف فاسق الجميع لرجوع الاستثناء إلى الجميع، وأن أبا حنيفة وحده هو القائل برجوعه إلى الجملة الأخيرة فقط؛ ولذلك لم يقبل شهادة القاذف، ولو تاب وأصلح، وصار أعدل أهل زمانه؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤، ٥] يرجع عنده الاستثناء فيه للأخيرة فقط وهي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي فقد زال عنهم اسم الفسق، ولا يقبل رجوعه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ إلا الذين تابوا، فاقبلوا شهادتهم بل يقول: لا تقبلوا لهم شهادة أبداً مطلقاً بلا استثناء لاختصاص الاستثناء عنده بالجملة الأخيرة، ولم يخالف أبو حنيفة أصوله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية [الفرقان: ٧٠]، فإن هذا الاستثناء راجع لجميع الجمل المتعاطفة قبله عند أبي حنيفة، وغيره.

ولكن أبا حنيفة لم يخالف فيه أصله؛ لأن الجمل الثلاث المذكورة جمعت في الجملة الأخيرة، التي هي ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ لأن الإشارة في قوله: ذلك راجعة إلى الشرك، والقتل والزنى في الجمل المتعاطفة قبله فشملت الجملة الأخيرة معاني الجمل قبلها، فصار رجوع الاستثناء لها وحدها، عند أبي حنيفة، على أصله المقرر: مستلزماً لرجوعه للجميع.

وإذا حققت ذلك فاعلم أن داود يحتج لجواز جمع الأختين بملك اليمين أيضاً، برجوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] لقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] فيقول: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] يرجع لكل منهما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فيكون المعنى وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، إلا ما ملكت أيمانكم فلا يحرم عليكم فيه الجمع بينهما، وحرمت عليكم المحصنات من النساء، إلا ما ملكت أيمانكم، فلا يحرم عليكم.

وقد أوضحنا معنى الاستثناء من المحصنات في محله من هذا الكتاب المبارك، وبهذا تعلم أن احتجاج داود برجوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] جار على أصول المالكية والشافعية والحنابلة، فيصعب عليهم التخلص من احتجاج داود هذا.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي أن الجواب عن استدلال داود المذكور من وجهين:

الأول منهما أن في الآية نفسها قرينة مانعة من رجوع الاستثناء إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ لما قدمنا من أن قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي بالسبي خاصة مع الكفر، وأن المعنى والمحصلات من النساء؛ إلا ما ملكت أيمانكم؛ أي وحرمت عليكم المتزوجات من النساء؛ لأن المتزوجة لا تحل لغير زوجها إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي مع الكفر فإن السبي يرفع حكم الزوجية عن المسبية، وتحل لسابئها بعد الاستبراء كما قال الفرزدق:

وذا حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق

وإذا كان ملك اليمين في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ في السبي خاصة كما هو مذهب الجمهور كان ذلك مانعاً من رجوعه إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ لأن محل النزاع في ملك اليمين مطلقاً، وقد قدمنا في سورة النساء أن قول من قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مطلقاً، وأن بيع الأمة طلاقاً أنه خلاف التحقيق، وأوضحنا الأدلة على ذلك.

الوجه الثاني: هو أن استقراء القرآن يدل على أن الصواب في رجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله أو بعضها، يحتاج إلى دليل منفصل؛ لأن الدليل قد يدل على رجوعه للجميع أو لبعضها، دون بعض. وربما دل الدليل على عدم رجوعه للأخيرة التي تليه. وإذا كان الاستثناء ربما كان راجعاً لغير الجملة الأخيرة التي تليه، تبين أنه لا ينبغي الحكم برجوعه إلى الجميع إلا بعد النظر في الأدلة. ومعرفة ذلك منها، وهذا القول الذي هو الوقف عن رجوع الاستثناء إلى الجميع أو بعضها المعين، دون بعض، إلا بدليل مروى عن ابن الحاجب من المالكية، والغزالي من الشافعية، والآمدي من الحنابلة، واستقراء القرآن يدل على أن هذا القول هو الأصح؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وإذا رددنا هذه المسألة إلى الله، وجدنا القرآن دالاً على صحة هذا القول، وبه يندفع أيضاً استدلال داود.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢] فالاستثناء راجع للدية، فهي تسقط بتصدق مستحقها بها، ولا يرجع لتحرير الرقبة قولاً واحداً؛ لأن تصديق مستحق الدية بها لا يسقط كفارة القتل خطأ، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا. . . الآية [النور: ٤، ٥] فالاستثناء لا يرجع لقوله: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾؛ لأن القاذف إذا تاب لا تسقط توبته حد القذف.

وما يروى عن الشعبي من أنها تسقطه، خلاف التحقيق الذي هو مذهب جماهير

العلماء ومنها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحِّدُوا مِنْهُمْ وَلَا تَصْغُرُوا لَهُمْ﴾ [النساء: ٨٩، ٩٠].

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠] لا يرجع قولاً واحداً، إلى الجملة الأخيرة، التي تليه أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَحِّدُوا مِنْهُمْ وَلَا تَصْغُرُوا لَهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] لأنه لا يجوز اتخاذ ولي ولا نصير من الكفار أبداً، ولو وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، بل الاستثناء راجع للأخذ والقتل في قوله: ﴿فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] والمعنى فخذوهم بالأسر واقتلوهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فليس لكم أخذهم بأسر، ولا قتلهم؛ لأن الميثاق الكائن لمن وصلوا إليهم يمنع من أسرهم، وقتلهم كما اشترطه هلال بن عويمر الأسلمي في صلحه مع النبي ﷺ كما ذكروا أن هذه الآية نزلت فيه وفي سراقه بن مالك المدلجي، وفي بني جذيمة بن عامر وإذا كان الاستثناء ربما لم يرجع لأقرب الجمل إليه في القرآن العظيم الذي هو في الطرف الأعلى من الإعجاز تبين أنه ليس نصاً في الرجوع إلى غيرها.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] على ما قاله: جماعات من المفسرين؛ لأنه لولا فضل الله ورحمته لاتبعوا الشيطان، كلا بدون استثناء، قليل أو كثير كما ترى.

واختلفوا في مرجع هذا الاستثناء، ف قيل: راجع لقوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣] وقيل: راجع لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وإذا لم يرجع للجملة التي تليه، لم يكن نصاً في رجوعه لغيرها.

وقيل: إن هذا الاستثناء راجع للجملة التي تليه، وأن المعنى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال محمد ﷺ لاتبعتم الشيطان في الاستمرار، على ملة آبائكم من الكفر، وعبادة الأوثان إلا قليلاً كمن كان على ملة إبراهيم في الجاهلية، كزيد بن نفيل وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وأمثالهم.

وذكر ابن كثير أن عبد الرزاق روى عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: لاتبعتم الشيطان كلا، قال: والعرب تطلق القلة، وتريد بها العدم. واستدل قائل هذا القول بقول الطرماح بن حكيم يمدح يزيد بن المهلب:

أشم ندي كثير النوادي قليل المثالب والقادحة

يعني لا مثلبة فيه، ولا قادمة. وهذا القول ليس بظاهر كل الظهور، وإن كانت العرب تطلق القلة في لغتها، وتريد بها العدم كقولهم: مررت بأرض قليل بها الكراث والبصل، يعنون لا كراث فيها ولا بصل. ومنه قول ذي الرمة:

أنىخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها

يريد: أن تلك الفلاة لا صوت فيها غير بغام ناقته. وقول الآخر:

فما بأس لورث علينا تحية قليلاً لدى من يعرف الحق عابها

يعني لا عاب فيها؛ أي لا عيب فيها عند من يعرف الحق، وأمثال هذا كثير في كلام العرب، وبالآيات التي ذكرنا تعلم أن الوقف عن القطع برجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله إلا للدليل، هو الذي دل عليه القرآن في آيات متعددة، وبدلالاتها يرد استدلال داود المذكور أيضاً، والعلم عند الله تعالى.

المسألة الثانية: اعلم أن أهل العلم أجمعوا على أن حكم هذه الآية الكريمة في التمتع بملك اليمين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ حَقُوظُونَ﴾ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ خاص بالرجال دون النساء، فلا يحل للمرأة أن تتسرى عبدها، وتتمتع به بملك اليمين، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وهو يؤيد قول الأكثرين أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكورة الصحيحة إلا بدليل منفصل، كما أوضحنا أدلته في سورة الفاتحة، وذكر ابن جرير أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال له ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها، قال: فضرب العبد، وجز رأسه وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم، ثم قال ابن كثير: هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة، وهو ها هنا أليق وإنما حرّمها على الرجال، معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقال أبو عبد الله القرطبي: قد روى معمر بن قتادة قال: تسررت امرأة غلامها، فذكر ذلك لعمر فسألها ما حملك على ذلك؟ قالت: كنت أراه يحل لي بملك يميني، كما تحل للرجل المرأة بملك اليمين، فاستشار عمر في رجمها أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: تأولت كتاب الله ﷻ على غير تأويله لا رجم عليها، فقال عمر: لا جرم، والله لا أحلك لحر بعده عاقبها بذلك، ودرأ الحد عنها، وأمر العبد ألا يقربها.

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول: أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة بغلام لها وضيء، فقالت: إني استسررت، فمنعني بنو عمي عن ذلك، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها، فانه عني بني عمي فقال عمر: أتزوجت قبله؟ قالت: نعم. قال: أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها، اهـ. من القرطبي.

المسألة الثالثة: اعلم أنه لا شك في أن آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) هذه التي هي ﴿فَمَنْ ابْتَدَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَادُونَ﴾ (٧) تدل بعمومها على منع الاستمنا باليد المعروف، بجلد عميرة، ويقال له الخضخضة؛ لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منه بذلك، قد ابتغى وراء ما أحله الله، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا، وفي سورة سأل سائل، وقد ذكر ابن كثير أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية، على منع

الاستمناء باليد. وقال القرطبي: قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز، قال: سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة فتلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَفِظُونْ﴾ إلى قوله، ﴿الْعَادُونَ﴾.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة، على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة، وما روى عن الإمام أحمد مع علمه، وجلالته وورعه من إباحة جلد عميرة مستدلاً على ذلك بالقياس قائلاً: هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاز قياساً على الفصد والحجامة، كما قال في ذلك بعض الشعراء:

إذا حلت بواد لا أنيس به فاجلد عميرة لا عار ولا حرج

فهو خلاف الصواب، وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها؛ لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار، كما أوضحناه في هذا الكتاب المبارك مراراً وذكرنا فيه قول صاحب (مراقي السعود):

والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الاعتبار كل من وعى

فأله - جل وعلا - قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَفِظُونْ﴾ ولم يستثن من ذلك البتة إلا النوعين المذكورين، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وصرح برفع الملازمة في عدم حفظ الفرج، عن الزوجة، والمملوكة فقط ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين، دالة على المنع هي قوله: ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره، ناكح يده، وظاهر عموم القرآن، لا يجوز العدول عنه، إلا للدليل من كتاب أو سنة، يجب الرجوع إليه، أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار، كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية، بعد أن ذكر بعض من حرم جلد عميرة، واستدلوا لهم بالآية ما نصه: وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجزري، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل، والمفعول، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»، اهـ.

ثم قال ابن كثير: هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته، والله أعلم، انتهى منه ولكنه على ضعفه يشهد له في نكاح اليد ظاهر القرآن في الجملة، لدلالته على منع ذلك، وإنما قيل للاستمناء باليد: جلد عميرة؛ لأنهم يكونون بعميرة عن الذكر.

لطيفة: قد ذكر في نواذر المغفلين، أن مغفلاً كانت أمه تملك جارية تسمى عميرة فضربتها مرة، فصاحت الجارية، فسمع قوم صياحها، فجاءوا وقالوا ما هذا الصياح؟ فقال لهم ذلك المغفل: لا بأس تلك أُمي كانت تجلد عميرة.

المسألة الرابعة: اعلم أنا قدمنا في سورة النساء، أن هذه الآية التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ تدل بظاهرها على معنى نكاح المتعة؛ لأنه - جل وعلا - صرح فيها بما يعلم منه وجوب حفظ الفرج عن غير الزوجة والسرية، ثم صرح بأن المبتغي وراء ذلك من العادين بقوله: ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ وأن المرأة المستمتع بها في نكاح المتعة، ليست زوجة، ولا مملوكة، أما كونها غير مملوكة فواضح. وأما الدليل على كونها غير زوجة، فهو انتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث والعدة والطلاق والنفقة، ونحو ذلك، فلو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق، ووجب لها النفقة، فلما انتفت عنها لوازم الزوجية علمنا أنها ليست بزوجة؛ لأن نفي اللزوم يقتضي نفي الملزوم بإجماع العقلاء.

فتبين بذلك أن مبتغي نكاح المتعة من العادين المجاوزين ما أحل الله إلى ما حرم، وقد أوضحنا ذلك في سورة النساء بأدلة الكتاب والسنة، وأن نكاح المتعة ممنوع إلى يوم القيامة، وقد يخفى على طالب العلم معنى لفظة على في هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ... الآية لأن مادة الحفظ لا تتعدى إلى المعمول الثاني في هذا الموضوع بعلى فقليل: إن على بمعنى عن. والمعنى أنهم حافظون فزوجهم عن كل شيء، إلا عن أزواجهم، وحفظ قد تتعدى بعن.

وحاول الزمخشري الجواب عن الإتيان بعلى هنا فقال ما نصه: على أزواجهم في موضع الحال أي إلا والين، على أزواجهم، أو قوامين عليهن من قولك: كان فلان على فلانة، فمات عنها، فخلف عليها فلان، ونظيره: كان زياد على البصرة؛ أي والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً.

والمعنى أنهم لفزوجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في تزوجهم أو تسريحهم، أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه، أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ على عنان فرسي على تضمينه، معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت بمعنى: ما طلبت منك إلا فعلك، اه منه ولا يخفى ما فيه من عدم الظهور.

قال أبو حيان: وهذه الوجوه التي تكلفها الزمخشري ظاهر فيها العجمة، وهي

متكلفة، ثم استظهر أبو حيان أن يكون الكلام من باب التضمنين، ضمن حافظون معنى: فممسكون أو قاصرون، وكلاهما يتعدى بعلى كقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] والظاهر أن قوله هنا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مع أن المملوكات من جملة العقلاء، والعقلاء يعبر عنهم بمن لا بما هو أن الإماء لما كنّ يتصفن ببعض صفات غير العقلاء كبيعهن وشرائهن، ونحو ذلك، كان ذلك مسوغاً لإطلاق لفظة ما عليهن، والعلم عند الله تعالى.

وقال بعض أهل العلم: إن وراء ذلك، هو مفعول ابتغى؛ أي ابتغى سوى ذلك، وقال بعضهم: إن المفعول به محذوف، ووراء ظرف؛ أي فمن ابتغى مستمتعاً لفرجه وراء ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٨). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم؛ أي محافظون على الأمانات، والعهود. والأمانة تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس، والعهود أيضاً تشمل: كل ما أخذ عليك العهد بحفظه، من حقوق الله، وحقوق الناس.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من حفظ الأمانات والعهود جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ [الأنفال] وقوله تعالى في سأل سائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٨) وقوله في العهد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْخِرُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] وقد أوضحنا هذا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقوله: راعون: جمع تصحيح للراعي، وهو القائم على الشيء، بحفظ أو إصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، وفي الحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» الحديث، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وحده لأمانتهم بغير ألف بعد النون، على صيغة الأفراد. والباقون بألف بعد النون، على صيغة الجمع المؤنث السالم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس أنهم يحافظون على صلواتهم والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر تعالى بالمحافظة عليها في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَخْلَوْنَ ۖ﴾ [المعارج] وقال فيها أيضاً: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۖ﴾.

وذكر وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم]. وقد أوضحنا ذلك في سورة مريم، وقوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ﴾ [الماعون] الآية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ... الآية [النساء: ١٤٢]. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال «الصلاة على وقتها» الحديث.

وقد قدمناه والأحاديث في فضل الصلاة والمحافظة عليها كثيرة جداً، ولكن موضوع كتابنا بيان القرآن بالقرآن، ولا نذكر غالباً البيان من السنة، إلا إذا كان في القرآن بيان غير واف بالمقصود، فتتمم البيان من السنة كما قدمناه مراراً، وذكرناه في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الزَّائِرُونَ ۖ﴾ [الزَّائِرُونَ] ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين المتصفين بالصفات التي قدمناهم الوارثون، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الوارثون، للدلالة قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ عليه، والفردوس: أعلى الجنة، وأوسطها، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن - جل وعلا - وعبر تعالى عن نيل الفردوس هنا باسم الوراثة.

وقد أوضحنا معنى الوراثة والآيات الدالة على ذلك المعنى كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٦٣] وقوله: ﴿وَتُورِثُونَ أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا لِمَنْ كَسَبَ فَعَمَلُونِ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] في سورة مريم في الكلام على قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ﴾ [مريم] فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقرأ هذا الحرف: حمزة والكسائي على صلاتهم بغير واو، بصيغة الإفراد، وقرأ الباقون: على صلواتهم بالواو المفتوحة بصيغة الجمع المؤنث السالم والمعنى واحد؛ لأن المفرد الذي هو اسم جنس، إذا أضيف إلى معرفة، كان صيغة عموم كما هو معروف في الأصول. وقوله هنا: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي بلا انقطاع أبداً، كما قال تعالى: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي غير مقطوع. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ۖ﴾ [ص: ١٠] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] كما قدمناه مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ﴾ [طه: ١٢] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي رَاقٍ ۖ﴾ [طه: ١٣] ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عِلَاقَةً فَنَخْلُقُنَا أَلْفَافَةً مُضْغَةً ۖ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْوُجْهَ لَحْمًا ۖ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۖ﴾ [طه: ١٤].

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أطوار خلقه الإنسان ونقله له من حال إلى حال، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده - جل وعلا - وقد أوضحنا في أول سورة الحج معنى النطفة، والعلقه، والمضغة، وبيننا أقوال أهل العلم في المخلقة، وغير المخلقة، والصحيح من ذلك، وأوضحنا أحكام الحمل إذا سقط علقه أو مضغة هل تنقضي به عدة الحامل أو لا؟ وهل تكون الأمة به أم ولد إن كان من سيدها أو لا؟ إلى غير ذلك من أحكام الحمل الساقط، ومتى يرث، ويورث، ومتى يصلى عليه، وأقوال أهل العلم في ذلك في الكلام على قوله تعالى ﴿يَكْتُمُهَا النَّاسُ إِنْ كُتِمَ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾... الآية [الحج: ٥]. وسنذكر هنا ما لم نبينه هنالك مع ذكر الآيات التي لها تعلق بهذا المعنى، أما معنى السلالة: فهي الفعالة من سللت الشيء من الشيء، إذا استخرجته منه، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

خلق البرية من سلالة منتن وإلى السلالة كلها ستعود
والولد سلالة أبيه كأنه أنسل من ظهر أبيه. ومنه قول حسان رضي الله عنه:

فجاءت به غضب الأديم غَضَنْفَرًا سلالة فرج كان غير حصين

وبناء الاسم على الفعالة، يدل على القلة كقلامة الظفر، ونحاة الشيء المنحوت، وهي ما يتساقط منه عند النحت، والمراد بخلق الإنسان من سلالة الطين: خلق أبيهم آدم منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد أوضحنا فيما مضى أطوار ذلك التراب، وأنه لما بلّ بالماء صار طيناً ولما خمر صار طيناً لازباً يلصق باليد، وصار حمأ مسنوناً. قال بعضهم: طيناً أسود منتناً، وقال بعضهم: المسنون: المصور، كما تقدم إيضاحه في سورة الحجر، ثم لما خلقه من طين خلق منه زوجه حواء، كما قال في أول النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْهَا وَطَلَّقَهَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وقال في الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقال في الزمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] كما تقدم إيضاح ذلك كله، ثم لما خلق الرجل والمرأة، كان وجود جنس الإنسان منهما عن طريق التناسل، فأول أطواره: النطفة، ثم العلقه، إلخ.

وقد بينا أغلب ذلك في أول سورة الحج، وقوله هنا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) يعني بداه خلق نوع الإنسان بخلق آدم، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَطْفَةً﴾؛ أي بعد خلق آدم وحواء، فالضمير في قوله: ثم جعلناه لنوع الإنسان، الذي هو النسل لدلالة المقام عليه، كقولهم: عندي درهم ونصفه؛ أي نصف درهم آخر، كما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَبِيبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ

﴿٩﴾ [السجدة] وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم] وما ذكره هنا من أطوار خلقه الإنسان، أمر كل مكلف أن ينظر فيه. والأمر المطلق، يقتضي الوجوب إلا للدليل صارف عنه، كما أوضحناه مراراً. وذلك في قوله: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَاقِقٍ ﴿٦﴾ [الطلاق].

وقد أشار في آيات كثيرة إلى كمال قدرته بنقله الإنسان في خلقه من طور إلى طور، كما أوضحه هنا وكما في قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ⑫ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٧﴾ [نوح]. وبين أن انصراف خلقه عن التفكير في هذا والاعتبار به مما يستوجب التساؤل والعجب، وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة إلخ، مع أنه لم يشق بطن أمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات: وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين، وذلك في قوله - جل وعلا - ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] فتأمل معنى قوله: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي عن هذه العجائب والغرائب، التي فعلها فيكم ربكم ومعبودكم. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] وقال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، ثم ذكر الحكمة فقال: ﴿لِنَبِّئَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥] أي لنظهر لكم بذلك عظمتنا، وكمال قدرتنا، وانفرادنا بالآلهية واستحقاق العبادة، وقال في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبِّئَ أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِنَكُونُوا شُيُوعًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ⑬ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَّيِّ يَتَنَّى ﴿١٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿١٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الدَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿١٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ بَيِّعَ الْمَوْتَ ﴿٢٠﴾ [القيامة] والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد أبهم هذه الأطوار المذكورة في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ⑭ [المعارج] وذلك الإبهام يدل على ضعفهم وعظمة خالقهم - جل وعلا - فسبحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته، وما أظهر براهين توحيده، وقد بين في آية المؤمنون هذه أنه يخلق المضغة عظاماً، وبين في موضع آخر أنه يركب بعض تلك العظام مع بعض، تركيباً قوياً، ويشد بعضها مع بعض، على أكمل الوجوه وأبدعها، وذلك في قوله: ﴿تَخَنُّ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ ... الآية [الإنسان: ٢٨]، والأسر: شد العظام بعضها مع بعض، وتكسير السرج ومركب المرأة السيور التي يشد بها، ومنه قول حميد بن ثور:

وما دخلت في الخدب حتى تنقضت تأسير أعلى قده وتحطما

وفي صحاح الجوهري: أسر قبه يأسره أسراً شده بالأسار وهو القد، ومنه سمي

الأسير، وكانوا يشدونّه بالقد، فقول بعض المفسرين واللغويين أسرهم: أي خلقهم فيه قصور في التفسير؛ لأن الأسر هو الشد القوي بالأسار الذي هو القد، وهو السير المقطوع من جلد البعير ونحوه، الذي لم يدبغ والله - جل وعلا - يشد بعض العظام ببعض، شداً محكماً متماسكاً كما يشد الشيء بالقد، والشد قوي جداً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ القرار هنا: مكان الاستقرار، والمكين: المتمكن. وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه. قاله أبو حيان في البحر. وقال الزمخشري: القرار: المستقر، والمراد به: الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال الزمخشري: أي خلقاً مبانئاً للخلق الأول مبانئة ما أبعدها حيث جعله حيواناً، وكان جماداً وناطقاً، وكان أبكم وسميعاً، وكان أصم وبصيراً، وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره، بل كلّ عضو من أعضائه وجزء من أجزائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف، ولا بشرح الشارح، انتهى منه.

وقال القرطبي: اختلف في الخلق الآخر المذكور، فقال ابن عباس، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً. وعن ابن عباس: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة: عن فرقة نبات شعره. وقال الضحاك: خروج الأسنان، ونبات الشعر، وقال مجاهد: كمال شبابه. وروي عن ابن عمر والصحيح، أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك، وتحصيل المعقولات إلى أن يموت، اهـ منه. والظاهر أن جميع أقوال أهل العلم في قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ أنه صار بشراً سوياً بعد أن كان نطفة، ومضغة، وعلقة، وعظاماً كما هو واضح.

مسألة: وقد استدل بهذه الآية الإمام أبو حنيفة رحمته الله، على أن من غصب بيضة، فأفرخت عنده أنه يضمن البيضة، ولا يرد الفرخ؛ لأن الفرخ خلق آخر سوى البيضة، فهو غير ما غصب، وإنما يرد الغاصب ما غصب. وهذا الاستدلال له وجه من النظر، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقوله: ﴿مَبَارَكُ اللَّهُ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط: تبارك: فعل ماض لا ينصرف، ومعناه: تعالى وتقدس، اهـ منه. وقوله في هذه الآية: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي المقدرين والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير. ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

فقوله: يخلق ثم لا يفري؛ أي يقدر الأمر، ثم لا ينفذه لعجزه عنه كما هو معلوم. ومعلوم أن النحويين مختلفون في صيغة التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة، هل

إضافتها إضافة محضة، أو لفظية غير محضة، كما هو معروف في محله؟ فمن قال: هي محضة أعرب قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ نعتاً للفظ الجلالة، ومن قال: هي غير محضة أعربه بدلاً، وقيل: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو أحسن الخالقين. وقرأ هذين الحرفين ﴿فَخَلَقْنَا الْمُنْضِفَةَ عِظْمًا﴾ وقوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْمًا﴾ ابن عامر وشعبة عن عاصم عظمًا: بفتح العين، وإسكان الظاء من غير ألف بصيغة المفرد فيهما، وقرأه الباكون: عظاماً بكسر العين وفتح الظاء، وألف بعدها بصيغة الجمع، وعلى قراءة ابن عامر وشعبة. فالمراد بالعظم العظام.

وقد قدمنا بإيضاح في أول سورة الحج وغيرها أن المفرد إن كان اسم جنس، قد تطلقه العرب، وتريد به معنى الجمع، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وكلام العرب مع تعريفه وتنكيره وإضافته، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بِدَٰلِكَ لَمِتُّونَ ۝١٦ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُعْثُونَ ۝١٧﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم بعد أن أنشأهم خلقاً آخر، فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيراً، ثم يكون محتلاً، ثم يكون شاباً، ثم يكون كهلاً، ثم يكون شيخاً، ثم هرمًا أنهم كلهم صاثرون إلى الموت من عمر منهم ومن لم يعمر، ثم هم بعد الموت يبعثون أحياء، يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا الموت والحياة المذكوران هنا كل واحد منهما له نظير آخر؛ لأنهما إمامتان وإحياءتان ذكر من كل منهما واحدة هنا، وذكر الجميع في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَاثِنِ اثْنَيْنِ وَأُحْيِيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] كما قدمنا إيضاحه في سورة الحج والبقرة، وكل ذلك دليل على كمال قدرته، ولزوم الإيمان به، واستحقاقه للعبادة وحده سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾.

في قوله تعالى طرائق، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنها قيل لها طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض من قولهم: طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق، وركب بعضها على بعض، ومنه قوله ﷺ: «كَأَن جُوهَهُمُ الْمَجَانُ الْمَطْرُقَةُ» أي التراس التي جعلت لها طبقات بعضها فوق بعض، ومنه قول الشاعر يصف نعلًا له مطارقة:

وطراق من خلفهن طراق ساقطات تلوى بها الصحرا

يعني: نعال الإبل، ومنه قولهم: طائر طراق الريش ومطرقة؛ إذا ركب بعض ريشه بعضاً، ومنه قول زهير يصف بازياً:

أهوى لها أسفع الخدين مطرق ريش القوادم لم تنصب له الشبك

وقول ذي الرمة يصف بازياً أيضاً:

طراق الخوافي واقع فوق ريعه ندى ليلة في ريشه يتفرق
وقول الآخر يصف قطاة:

سكاء مخطومة في ريشها طرق سود قوادمها كدر خوافيها
فعلى هذا القول فقوله: ﴿سَمِعَ طَرَائِقَ﴾ يوضح معناه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ
خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ﴾... الآية [نوح] وهذا قول الأكثر.

الوجه الثاني: أنها قيل لها طرائق؛ لأنها طرق الملائكة في النزول والعروج،
وقيل: لأنها طرائق الكواكب في مسيرها، وأما قول من قال: قيل لها طرائق لأن لكل
سماة طريقة، وهيئة غير هيئة الأخرى وقول من قال: طرائق؟ أي مبسوطات فكلاهما
ظاهر البعد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ قد قدمنا أن معناه كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ
السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأن من يمسك السماء لو كان يغفل لسقطت
فأهلك الخلق كما تقدم إيضاحه وقال بعضهم: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ بل نحن
القائمون بإصلاح جميع شؤونهم، وتيسير كل ما يحتاجون إليه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني السموات برهان على قوله قبله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾
﴿١١﴾؛ لأن من قدر على خلق السموات، مع عظمها فلا شك أنه قادر على خلق
الإنسان كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله
تعالى: ﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ ﴿١٧﴾... الآية [النازعات]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] والآيات بمثل هذا متعددة.

وقد قدمنا براهين البعث التي هذا البرهان من جملتها، وأكثرنا من أمثلتها وهي
مذكورة هنا، ولم نوضحها هنا لأننا أوضحناها فيما سبق في النحل والبقرة. والعلم
عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ
لَقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل من السماء ماء معظماً
نفسه - جل وعلا - بصيغة الجمع المراد بها التعظيم وأن ذلك الماء الذي أنزله من
السماء أسكنه في الأرض لينتفع به الناس في الآبار، والعيون، ونحو ذلك، وأنه
- جل وعلا - قادر على إذهابه لو شاء أن يذهبه فيهلك جميع الخلق بسبب ذهاب الماء
من أصله جوعاً وعطشاً وبين أنه أنزله بقدر أي بمقدار معين عنده يحصل به نفع الخلق
ولا يكثره عليهم، حتى يكون كطوفان نوح لئلا يهلكهم فهو ينزله بالقدر الذي فيه
المصلحة، دون المفسدة سبحانه - جل وعلا - ما أعظمه وما أعظم لطفه بخلقه. وهذه
المسائل الثلاث التي ذكرها في هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في غير هذا الموضع.

الأولى: التي هي كونه أنزله بقدر أشار إليها في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر].

والثانية: التي هي إسكانه الماء المنزل من السماء في الأرض بينها في قوله - جل وعلا - : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُم مِّنَ الْآرِضِ﴾ [الزمر: ٢١] والينبوع: الماء الكثير وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُمْ وَمَا كُنَّا بِمُحْسِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] على ما قدمنا في الحجر.

والثالثة: التي هي قدرته على إذهابه أشار لها في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠] ويشبه معناها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥] لأنه إذا صار ملحاً أجاجاً لا يمكن الشرب منه، ولا الانتفاع به صار في حكم المعدم، وقد بين كيفية إنزاله الماء من السماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣] فصرح بأن الودق الذي هو المطر يخرج من خلال السحاب الذي هو المزن، وهو الوعاء الذي فيه الماء وبين أن السحابة تمتلئ من الماء حتى تكون ثقيلة لكثرة ما فيها من الماء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْقَلَتِ سَحَابًا نَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَاطِنِ الْكَأْفِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فقوله: ثقلاً جمع ثقيلة، وثقلها إنما هو بالماء الذي فيها وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ٦٢] جمع سحابة ثقيلة.

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله يجمع الماء في المزن، ثم يخرج من خلال السحاب، وخلال الشيء ثقوبه وفروجه التي هي غير مسدودة، وبين - جل وعلا - أنه هو الذي ينزله ويصرفه بين خلقه كيف يشاء، فيكثر المطر في بلاد قوم سنة، حتى يكثر فيها الخصب وتزايد فيها النعم، ليبثلي أهلها في شكر النعمة، وهل يعتبرون بعظم الآية في إنزال الماء، ويقل المطر عليهم في بعض السنين، فتهلك مواشيهم من الجذب ولا تنبت زروعهم، ولا تثمر أشجارهم، ليبثليهم بذلك، هل يتوبون إليه، ويرجعون إلى ما يرضيه.

وبين أنه مع الإنعام العام على الخلق بإنزال المطر بالقدر المصلح وإسكان مائه في الأرض ليشربوا منه هم وأنعامهم ويتفعلوا به، أبى أكثرهم إلا الكفر به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُم مِّمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسًا كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ١١] وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الفرقان: ٢٢].

ولا شك أن من جملة من أبى منهم إلا كفوراً الذين يزعمون أن المطر لم ينزله منزل هو فاعل مختار، وإنما نزل بطبيعته، فالمنزول له عندهم: هو الطبيعة، وأن طبيعة الماء التبخر، إذا تكاثرت عليه درجات الحرارة من الشمس أو الاحتكاك بالرياح، وأن ذلك البخار يرتفع بطبيعته؛ ثم يجتمع، ثم يتقاطر. وأن تقاطره ذلك أمر طبيعي لا فاعل له، وأنه هو المطر، فينكرون نعمة الله في إنزاله المطر وينكرون دلالة إنزاله على قدرة منزله، ووجوب الإيمان به واستحقاقه للعبادة وحده، فمثل هؤلاء داخلون في قوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾.

وقد صرح في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أنه تعالى، هو مصرف الماء، ومنزله حيث شاء كيف شاء، ومن قبيل هذا المعنى: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» هذا لفظ مسلم رحمته في صحيحه، ولا شك أن من قال: مطرنا بخار كذا مسنداً ذلك للطبيعة، أنه كافر بالله مؤمن بالطبيعة والبحار، والعرب كانوا يزعمون أن بعض المطر أصله من البحر، إلا أنهم يسندون فعل ذلك للفاعل المختار - جل وعلا - ومن أشعارهم في ذلك قول طرفة بن العبد:

لا تلمني إنها من نسوة رقد الصيف مقاليت نزر
كبنات البحر يماذن إذا أنبت الصيف عساليح الخضر
فقوله: بنات البحر يعني: المزن التي أصل مائها من البحر.

وقول أبي ذؤيب الهذلي:

سقى أم عمرو كل آخر ليلة حناتم غر ماؤهن ثجيج
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نشيج
ولا شك أن خالق السموات والأرض - جل وعلا - هو منزل المطر على القدر الذي يشاء كيف يشاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
قوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية الكريمة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ﴾... الآية [النحل: ٦٧] وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلَيْنِ﴾.

قوله: وشجرة: معطوف على جنات من عطف الخاص على العام. وقد قدمنا مسوَّغه مراراً؛ أي فأنشأنا لكم به جنات، وأنشأنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء وهي شجرة الزيتون، كما أشار له تعالى بقوله: ﴿يُؤْتِي مِّنْ شَجَرِهِ مَبْرَكَةً زَيْتُونَةٍ... الآية [النور: ٣٥]، والدهن الذي تنبت به: هو زيتها المذكور في قوله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ [النور: ٣٥] ومع الاستضاءة منها، فهي صبغ للأكلين: أي إدام يأتدمون به، وقرأ هذا الحرف: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: سيناء بكسر السين، وقرأ الباقر: بفتحها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: تنبت بضم التاء، وكسر الباء الموحدة مضارع أنبت الرباعي،

وقرأ الباقون: ثبت بفتح التاء وضم الباء مضارع: نبت الثلاثي، وعلى هذه القراءة، فلا إشكال في حرف الباء في قوله: بالدهن؛ أي نبت مصحوبة بالدهن الذي يستخرج من زيتونها، وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو، ففي الباء إشكال، وهو أن أنبت الرباعي يتعدى بنفسه، ولا يحتاج إلى الباء وقد قدمنا النكتة في الإتيان بمثل هذه الباء في القرآن، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب، في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّخْلَ﴾... الآية [مريم: ٢٥]، ولا يخفى أن أنبت الرباعي، على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو هنا: لازمة لا متعدية إلى المفعول، وأنبت تتعدى، وتلزم فمن تعديها قوله تعالى ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾... الآية [النحل: ١١] وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومن لزومها قراءة ابن كثير، وأبي عمرو المذكورة، ونظيرها من كلام العرب قول زهير:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

فقوله: أنبت البقل لازم بمعنى نبت، وهذا هو الصواب في قراءة: نبت بضم التاء. خلافاً لمن قال: إنها مضارع أنبت المتعدي: وأن المفعول محذوف؛ أي نبت زيتونها، وفيه الزيت. وقال ابن كثير: الطور: هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عن الشجر، سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال، التي فيها شجر الزيتون، اه محل الغرض من كلام ابن كثير.

وفي حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» رواه أحمد ورواه الترمذي وغيره عن عمر، والظاهر أنه لا يخلو من مقال، وقال فيه العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عمر وابن ماجه فقط عن أبي هريرة، وصححه الحاكيم على شرطهما ثم قال: وفي الباب عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، اه منه والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعْنَةٌ شُقَيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكِنْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١). قد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية، وما يستفاد منها من الأحكام الفقهية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعْنَةٌ شُقَيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ الآية مع بيان أوجه القراءة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢). الضمير في قوله: عليها راجع إلى الأنعام المذكورة في قوله: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ وقد بين تعالى في هذه الآية: أنه يحمل خلقه على الأنعام، والمراد بها هنا الإبل؛ لأن الحمل عليها هو الأغلب، وعلى الفلك: وهي السفن ولفظ الفلك، يطلق على الواحد والجمع من السفن، وما ذكره

تعالى في هذه الآية الكريمة من الامتنان على خلقه بما يسر لهم من الركوب والحمل، على الأنعام والسفن جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧١] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحْمَلُونَ﴾ [٨٥] [غافر] وقوله في الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ أَيْدِيًا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [٧١] وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [٧١] [يسر] وقوله فيها: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نِشْقَ الْأنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل] وقوله في الفلك والأنعام معاً: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [١١] لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُم مُّقْرِبِينَ﴾ [١٢] وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [١٣] [الزخرف] وقوله في السفن: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ [١٤] وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [١٥] [يسر] وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِجَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤] والآيات بمثل هذا كثيرة، وهذا من نعمه وآياته، وقرن الأنعام بالفلك في الآيات المذكورة؛ لأن الإبل سفائن البر، كما قال ذو الرمة:

ألا خيلت مني وقد نام صحبتي فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقا وجلب الرحل مشدودة بها سفينة بر تحت خدي زمامها

فتراه سمى ناقته سفينه بر وجلب الرحل بالضم والكسر عيدانه أو الرحل بما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾.

قد تقدمت الإشارة إلى ما فيه من الآيات، التي لها بيان في مواضع متعددة فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأْتَيْنَا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١]. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه بعد إرسال نوح والرسول المذكور بعده أرسل رسله تترى أي متواترين واحداً بعد واحد، وكل متتابع متتال تسميه العرب متواتراً، ومنه قول لبيد في معلقته:

يعلمو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها

يعني مطراً متتابعاً، أو غبار ريح متتابعاً، وتاء تترأ مبدلة من الواو، وأنه كلما أرسل رسولاً إلى أمة كذبوه فأهلكهم، وأتبع بعضهم بعضاً في الإهلاك المستأصل بسبب تكذيب الرسل، وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة. وقد بينت آية استثناء أمة واحدة من هذا الإهلاك المذكور.

أما الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية فهي كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبا] وقوله

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف] قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ... الآية [الأعراف] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

أما الآية التي بينت استثناء أمة واحدة من هذه الأمم فهي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنَاسِبُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ... الآية [يونس: ٩٨]، وظاهر آية الصافات أنهم آمنوا إيماناً حقاً، وأن الله عاملهم به معاملة المؤمنين، وذلك في قوله في يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ فَآمَنُوا فَفَعَلْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأحقاف]؛ لأن ظاهر إطلاق قوله: فآمَنُوا، يدل على ذلك. والعلم عند الله تعالى. ومن الأمم التي نص على أنه أهلكها وجعلها أحاديث سباً؛ لأنه تعالى قال فيهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقٍ﴾ ... الآية [سبأ: ١٩] وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً وقصصاً يسمر بها، ويتعجب منها، كما قال ابن دريد في مقصوده:

وإنما السمر حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو: تتراً بالتنوين: وهي لغة كنانة، والباقون بألف التأنيث المقصورة من غير تنوين: وهي لغة أكثر العرب، وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية من قوله: جاء أمة، وقرأها الباقون بالتحقيق، كما هو معلوم وقوله: ﴿بَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مصدر لا يظهر عامله، وقد بعد بعداً بفتحتين، وبعداً بضم فسكون: أي هلك فقوله: بعداً: أي هلاكاً مستأصلاً، كما قال تعالى ﴿أَلَا بَعْدُ لِمَنِينَ كَمَا بَدَتْ نَمُوذُ﴾ [هود: ٩٥] قال الشاعر:

قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا

وقد قال سيبويه: إن بعداً وسحقاً ودفراً أي تتناً من المصادر المنصوبة بأفعال لا تظهر، اهـ ومن هذا القبيل قولهم: سقياً ورعياً، كقول نابغة ذبيان:

نبئت نعماً على الهجران عاتية سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري

والأحاديث في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ في مفردة وجهان معروفان.

أحدهما: أنه جمع حديث كما تقول: هذه أحاديث رسول الله ﷺ، تريد بالأحاديث جمع حديث، وعلى هذا فهو من الجموع الجارية على غير القياس المشار لها بقول ابن مالك في الخلاصة:

وحائد عن القياس كل ما خالف في البابين حكماً رسماً

يعني بالبابين: التكسير والتصغير، كتكسير حديث على أحاديث وباطل على أباطيل، وكتصغير مغرب، على مغيربان، وعشية على عشيشية. وقال بعضهم: إنها اسم جمع للحديث.

ثانيهما: أن الأحاديث جمع أحداثه التي هي مثل: أضحوكة، وألعوبة، وأعجوبة بضم الأول، وإسكان الثاني: وهي ما يتحدث به الناس تلهياً، وتعجباً ومنه بهذا المعنى قول توبة بن الحمير:

من الخفرات البيض ود جلسها إذا ما انقضت أحداثه لو تعيدها
وهذا الوجه أنسب هنا لجريان الجمع فيه على القياس، وجزم به الزمخشري،
والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾.
أمر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة رسله - عليهم الصلاة والسلام - مع أن
الموجود منهم، وقت نزولها واحد، وهو نبينا ﷺ، بالأكل من الطيبات: وهي الحلال
الذي لا شبهة فيه على التحقيق، وأن يعملوا العمل الصالح؛ وذلك يدل على أن الأكل
من الحلال له أثر في العمل الصالح، وهو كذلك، وهذا الذي أمر به الرسل في هذه
الآية الكريمة، أمر به المؤمنين من هذه الأمة التي هي خير الأمم، وذلك في
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ۝٧٧﴾ [البقرة] والآية تدل على أن كل رسول أمر في زمنه بالأكل من الحلال،
والعمل الصالح، وتأثير الأكل من الحلال في الأعمال معروف. وفي حديث أبي
هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً
وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾
[البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام
وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب فأنتي يستجاب له.
وهو يدل دلالة واضحة أن دعاءه الذي هو من أعظم القرب لم ينفعه؛ لأنه لم يأكل من
الحلال ولم يشرب منه، ولم يركب منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢﴾ فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا
كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾. قد أوضحنا معنى هاتين الآيتين، وفسرنا ما يحتاج
منهما إلى تفسير وبيننا الآيات الموضحة لمعناها في سورة الأنبياء في الكلام على
قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٦﴾ وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ
كُلًّا إِنَّمَا رِزْقُكَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء] وبيننا المراد بالأمة مع بعض الشواهد العربية، وبيننا
جميع معاني الأمة في القرآن في أول سورة هود في الكلام على قوله ﴿وَلَكِنَّ آخَرًا عَلَيْهِمُ
الْعَذَابُ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ۝٨﴾ الآية [هود: ٨] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿فَذَرُّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾.

أمر - جلّ وعلا - نبيه ﷺ أن يذر الكفار أي يتركهم في غمرتهم إلى حين، أي

وقت معين عند الله، والظاهر أنه وقت انقضاء آجالهم بقتل أو موت، وصيرورتهم إلى ما هم صائرون إليه بعد الموت من العذاب البرزخي، والأخروي، وكون المراد بالحين المذكور: وقت قتلهم، أو موتهم ذكره الزمخشري عن علي عليه السلام بغير سند.

وأقوال أهل العلم في معنى غمرتهم راجعة إلى شيء واحد، كقول الكلبي: في غمرتهم؛ أي جهالتهم. وقول ابن بحر: في حيرتهم، وقول ابن سلام: في غفلتهم، وقول بعضهم: في ضلالتهم فمعنى كل هذه الأقوال واحد، وهو أنه، أمره أن يتركهم فيما هم فيه من الكفر والضلال والغبي والمعاصي. قال الزمخشري: الغمرة: الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم، وعمائتهم أو شبهوا باللاعبيين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل، قال ذو الرمة:

ليالي اللهو يطيبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

وصيغة الأمر في قوله ﴿ذَرُّهُمْ فِي غَمْرِهِمْ﴾ للتهديد، وقد تقرر في فن الأصول في مبحث الأمر وفي فن المعاني في مبحث الإنشاء أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعل التهديد، وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من تهديد الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، جاء موضحاً في مواضع أخرى، كقوله: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبَعُوا وَيَلْهَبُ أَمْلُ قَسَوفَ يَغْمُونَ﴾ [الحجر: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَبُّوا﴾ [الطارق: ١٧] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبَعُوا وَيَلْهَبُ أَمْلُ﴾ ... الآية [الحجر: ٣] وتكلمنا هناك على لفظ ذرهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ رَبِّينَ ۖ سَاعٍ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥١]. قد أوضحنا الكلام على الآيات الموضحة لهاتين الآيتين في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّهِ لَآجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ما تضمنته هذه الآية من التخفيف في هذه الحنيفية السمحة، التي جاء بها نبينا ﷺ قد ذكرنا طرفاً من الآيات الدالة عليه في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ﴾.

الحق أن المراد بهذا الكتاب كتاب الأعمال الذي يحصيها الله فيه، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَطْلُقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا المعنى في الكهف، في الكلام على قوله: ﴿وَرُضِعَ الْكِتَابَ فَزَيَّ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾... الآية [الكهف: ٤٩]، وفي سورة الإسراء في الكلام على قوله ﴿وَنُجِّجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

والظاهر أن معنى نطق الكتاب بالحق أن جميع المكتوب فيه حق، فمن قرأ المكتوب فيه، كأنه لا ينطق في قراءته له إلا بالحق، وربما أطلقت العرب اسم الكلام على الخط، كما روي عن عائشة أنها قالت: ما بين دفتي المصحف كلام الله، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾. حتى هنا في هذه الآية هي التي يبدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية، والعذاب الذي أخذهم ربهم به، قيل: هو عذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل: الجوع والقحط الشديد الذي أصابهم، لما دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابهم بسبب دعوته ﷺ من الجوع الشديد، عذاب أليم، وأظهرها عندي أنه أخذهم بالعذاب يوم القيامة، وقد بين تعالى في هاتين الآيتين أنه أخذ مترفهم بالعذاب، والمترفون هم أصحاب النعمة والرفاهية في دار الدنيا. وهذا المعنى أشار له بقوله: ﴿وَدَرَنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿٦٧﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٦٨﴾ [المزمل] فقوله: أُولَى النعمة يريد بهم: المترفين في الدنيا، وبين أنه سيعذبهم بعد التهديد بقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿٦٧﴾ [المزمل]، وقوله: يجأرون، الجوار: الصراخ باستغاثة، والعرب تقول: جأر الثور يجأر: صاح، فالجوار كالخوار وفي بعض القراءات (عجلا جسداً له جوار) بالجيم والهمزة: أي خوار، وجأر الرجل إلى الله: تضرع بالدعاء.

فمعنى الآية الكريمة أن المنعمين في الدنيا من الكفار، إذا أخذهم الله بالعذاب يوم القيامة، صاحوا مستصرخين مستغيثين، يطلبون الخلاص مما هم فيه، وصراخهم واستغاثتهم المشار له هنا، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] فقوله: يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، مستغيثين يريدون الخروج مما هم فيه، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فهذا الصراخ المذكور في هذه الآية العام للمترفين وغيرهم، هو الجوار المذكور عن المترفين هنا، ومن إطلاق العرب الجوار على الصراخ والدعاء للاستغاثة قول الأعشى:

يراوح من صلوات المليك فظوراً سجوداً وظوراً جواراً

والجوار المذكور: هو النداء في قوله: ﴿كُرْ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ

مَنَاصِ ﴿٢٩﴾ [ص] لَأَن نَّدَاءَهُمْ نَدَاءَ اسْتِغَاثَةٍ وَاسْتَصْرَاحٍ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ رَحْمَةً﴾... الآية [الزخرف: ٧٧]؛ لَأَن الْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالْمَوْتِ مِنْ دَوَامِ ذَلِكَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٣٠﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان] وذلك الدعاء بالشبور الذي هو أعظم الهلاك، والويل من أنواع جوارهم والعياذ بالله. وقوله تعالى في هذه الآية ﴿لَا تَحْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يدل على أنهم إن استغاثوا لم يغاثوا، وإن استرحموا لم يرحموا، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وإن يَسْتَعِثُّوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿فَذَكَّرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِبُوهَا﴾. لما بين أن المترفين من الكفار إذا أخذهم ربهم بالعذاب، ضجوا وصاحوا واستغاثوا، وبين أنهم لا يغاثون كما أوضحناه آنفاً بين سبب ذلك بقول: ﴿فَذَكَّرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي التي أرسلت بها رسلي ﴿تُنْكِبُ عَلَيْكُمْ﴾ تقرأ عليكم واضحة مفصلة، فكنتم على أعقابكم تنكصون: ترجعون عنها القهقري. والعقب: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع عن الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتَنَاتُ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ومنه قول الشاعر:

زعموا بأنهم على سبل النجاة ة وإنما نكص على الأعقاب

وهذا المعنى الذي ذكره هنا: أشار له في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آيَاتِنَا وَاحْيِنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنْ دُونِهَا قَاعِظِينَ يَدْعُونَ بِدُعَاءِ الْكَافِرِينَ فَإِنَّهُمْ فِي آيَاتِنَا لَخَالِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦] ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَٰكِنْ يَشْرِكُ بِهِ تَوْثُوقًا فَلَا حُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر] فكفرهم عند ذكر الله وحده، من نكوصهم على أعقابهم، وبين في موضع آخر أنهم إذا تنكبوها آياته، لم يقتصرُوا على النكوص عنها، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم، لشدة بغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] وهذا الذي ذكرنا أن العذاب عذاب يوم القيامة، أظهر عندنا من قول من قال: إنه يوم بدر أو الجوع، ومن قول من زعم أن الذين يجأرون: هم الذين لم يقتلوا يوم بدر وأن جوارهم من قبل إخوانهم، فكل ذلك خلاف الظاهر، وإن قاله من قاله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾. يتضمن حضهم، على تدبر هذا القول الذي هو القرآن العظيم؛ لأنهم إن تدبروه تدبراً صادقاً، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب وتصديق من جاء به لازم. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٨٨﴾﴾ [محمد] وقوله في هذه الآية

الكريمة: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال القرطبي: فأنكروه، وأعرضوا عنه، وقيل: أم بمعنى: بل جاءهم ما لا عهد لأبائهم به، فلذلك أنكروه، وتركوا التدبر له. وقال ابن عباس: وقيل المعنى: أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيء لم يأتي آباءهم الأولين، قال أبو حيان في تفسير هذه الآية: قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثم ثانياً بأن ما جاءهم جاء آباءهم الأولين؛ أي إرسال الرسل ليس بدعاً، ولا مستغرباً، بل أرسلت الرسل للأمة قبلهم، وعرفوا ذلك بالتواتر ونجاة من آمن، واستئصال من كذب، وآبأوهم إسماعيل وأعقابه إلى آخر كلامه. وهذا الوجه من التفسير له وجه من النظر وعليه فالآية كقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾... الآية [الأحقاف: ٩] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا﴾ ﴿٦٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ فَيَكْفُرُ عُمرٌ مِّن قَبْلِهِ﴾... الآية [يونس: ١٦] فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾.

أم المذكورة في هذه الآية هي المعروفة عند النحويين بأمر المنقطعة، وضابطها ألا تتقدم عليها همزة تسوية نحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾... الآية [البقرة: ٦] أو همزة مغنية، عن لفظة: أي كقولك أزيد عندك أم عمرو؟ أي أيهما عندك؟ فالمسبوقة بإحدى الهمزتين المذكورتين، هي المعروفة عندهم بأمر المتصلة، والتي لم تسبق بواحدة منهما هي المعروفة بالمنقطعة كما هنا، وأمر المنقطعة تأتي لثلاثة معان.

الأول: أن تكون بمعنى: بل الإضرابية.

الثاني: أن تكون بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثالث: أن تكون بمعناها معاً فتكون جامعة بين الإضراب والإنكار، وهذا الأخير هو الأكثر في معناها، خلافاً لابن مالك في الخلاصة في اقتصاره على أنها بمعنى: بل في قوله:

وبانقطاع وبمعنى بل وقت إن تك مما قيدت به خلت ومراده بخلوها مما قيدت به: ألا تسبقها إحدى الهمزتين المذكورتين، فإن سبقتها إحداها، فهي المتصلة كما تقدم قريباً، وعلى ما ذكرنا فيكون المعنى متضمناً للإضراب عما قبله إضراباً انتقالياً، مع معنى استفهام الإنكار، فتضمن الآية الإنكار على الكفار في دعواهم: أن نبينا ﷺ به جنة أي جنون يعنون أن هذا الحق الذي جاءهم به هذان مجنون، قبحهم الله ما أجحدهم للحق، وما أكفرهم ودعواهم عليه هذه أنه مجنون كذبها الله هنا بقوله: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ فالإضراب ببل إبطالي.

والمعنى ليس بمجنون بل هو رسول كريم جاءكم بالحق الواضح، المؤيد

بالمعجزات الذي يعرف كل عاقل، أنه حق، ولكن عاندتم وكفرتم لشدة كراهيتكم للحق، وما نفته هذه الآية الكريمة من دعواهم عليه الجنون صرح الله بنفيه في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۖ﴾ [التكوير] وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُعْتَرِكٍ ۖ﴾ [الطور: ٢٩] وهذا الجنون الذي افترى على آخر الأنبياء، افترى أيضاً على أولهم، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة عن قوم نوح أنهم قالوا فيه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَيْضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾ [٥٥] وقد بين في موضع آخر أن الله لم يرسل رسولا إلا قال قومه: إنه ساحر، أو مجنون، كأنهم اجتمعوا فتواصوا على ذلك لتواطئ أقوالهم لرسولهم عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ۖ﴾ [٥٥] اتواصوا به بل هم قوم طاغون [٥٦] [الذاريات] فبين أن سبب تواطئهم على ذلك ليس التواصي به، لاختلاف أزمته، وأمكتهم، ولكن الذي جمعهم على ذلك هو مشابهة بعضهم لبعض في الطغيان، وقد أوضح هذا المعنى في سورة البقرة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فهذه الآيات تدل على أن سبب تشابه مقالاتهم لرسولهم، هو تشابه قلوبهم في الكفر والطغيان، وكراهية الحق وقوله ﴿وَكَذَّبْتُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ ذكر نحو معناه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ [الزخرف] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وذلك المنكر الذي تعرفه في وجوههم، إنما هو لشدة كراهيتهم للحق، ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعه، كما قال تعالى في قصة أول الرسل الذين أرسلهم بتوحيده والنهي عن الإشراك به، وهو نوح ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ أَذَانَهُمْ وَاسْتَعْشَوْا يُبَٰئِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۖ﴾ [٧] وإنما جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم خوف أن يسمعوا ما يقوله لهم نبيهم نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - من الحق، والدعوة إليه. وقال تعالى في أمة آخر الأنبياء ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فترى بعضهم ينهى بعضاً عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلبوا الحق بالباطل.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف وهو أن يقال: قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ يفهم من مفهوم مخالفته أن قليلاً من الكفار، ليسوا كارهين للحق. وهذا السؤال وارد أيضاً على آية الزخرف التي ذكرنا آنفاً، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

والجواب عن هذا السؤال: هو ما أجاب به بعض أهل العلم بأن قليلاً من الكفار كانوا لا يكرهون الحق، وسبب امتناعهم عن الإيمان بالله ورسوله ليس هو كراهيتهم للحق، ولكن سببه الأنفة والاستكاف من توبيخ قومهم، وأن يقولوا صباوا وفارقوا دين

آبائهم، ومن أمثلة من وقع له هذا أبو طالب فإنه لا يكره الحق، الذي جاء به النبي ﷺ وقد كان يشد عضده في تبليغه رسالته كما قدمنا في شعره في قوله:

* اصدع بأمرك ما عليك غضاضة *

الآيات وقال فيها:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

وقال فيه ﷺ أيضاً:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

وقد بين أبو طالب في شعره أن السبب المانع له من اعتناق الإسلام ليس كراهية الحق، ولكنه الأنفة والخوف من ملامة قومه أو سبهم له كما في قوله:

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

اختلف العلماء في المراد بالحق في هذه الآية، فقال بعضهم: الحق: هو الله تعالى، ومعلوم أن الحق من أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وكون المراد بالحق في الآية هو الله عزاء القرطبي للأكثرين، وممن قال به: مجاهد وابن جريج، وأبو صالح، والسدي. وروي عن قتادة، وغيرهم.

وعلى هذا القول فالمعنى لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه وإرسال من اقترحوا إرساله، بأن جعل أمر التشريع وإرسال الرسل ونحو ذلك تابعاً لأهوائهم الفاسدة، لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض وذلك لفساد أهوائهم، واختلافها. فالأهواء الفاسدة المختلفة لا يمكن أن يقوم عليها نظام السماء والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع.

ومن الآيات الدالة على أن أهواءهم لا تصلح لأن تكون متبعة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٦] لأن القرآن لو أنزل على أحد الرجلين المذكورين، وهو كافر يعبد الأوثان فلا فساد أعظم من ذلك. وقد رد الله عليهم بقوله ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ... الآية [الزخرف: ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنشَاقِ وَكَانَ الْإِنشَاقُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٦] قال ابن كثير ﷺ: ففي هذا كله تبين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدييره لخلقه سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

ومما يوضح أن الحق لو اتبع الأهواء الفاسدة المختلفة لفسدت السموات والأرض ومن فيهن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

القول الثاني أن المراد بالحق في الآية: الحق الذي هو ضد الباطل المذكور في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ وهذا القول الأخير اختاره ابن عطية، وأنكر الأول.

وعلى هذا القول فالمعنى أنه لو فرض كون الحق متبعاً لأهوائهم، التي هي الشرك بالله، وادعاء الأولاد، والأنداد له ونحو ذلك: لفسد كل شيء؛ لأن هذا الفرض يصير به الحق، وهو أبطل الباطل، ولا يمكن أن يقوم نظام السماء والأرض على شيء، هو أبطل الباطل؛ لأن استقامة نظام هذا العالم لا تمكن إلا بقدرة وإرادة إله هو الحق منفرد بالتشريع، والأمر والنهي كما لا يخفى على عاقل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَلِيتَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾. اختلف العلماء في الذكر في الآية فمنهم من قال: ذكرهم: فخرهم، وشرفهم؛ لأن نزول هذا الكتاب على رجل منهم، فيه لهم أكبر الفخر والشرف، وعلى هذا، فالآية كقوله: ﴿وَأَنذَرْتُكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] على تفسير الذكر بالفخر والشرف، وقال بعضهم: الذكر في الآية: الوعظ والتوصية، وعليه فالآية كقوله: ﴿ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران] وقال بعضهم: الذكر هو ما كانوا يتمنونوه في قولهم: ﴿لَوْ أَنَّنَا عِنْدَكَ ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ] [الصافات] وعليه، فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِهْدَى الْأُنَمَى﴾ [فاطر: ٤٢] وعلى هذا القول فقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا﴾ [فاطر: ٤٢] الآية كقوله هنا ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ وكقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧] والآيات بمثل هذا على القول الأخير كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجُكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ [٧١]. المراد بالخرج والخراج هنا: الأجر والجزاء، والمعنى أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيري الدنيا والآخرة، أجرة ولا جعلاً، وأصل الخرج والخراج: هو ما تخرجه إلى كل عامل في مقابلة أجرة، أو جعل، وهذه الآية الكريمة تتضمن أنه ﷺ لا يسألهم أجراً، في مقابلة تبليغ الرسالة.

وقد أوضحنا الآيات القرآنية الدالة على أن الرسل لا يأخذون الأجرة على التبليغ في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى عن نوح: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. الآية [هود: ٢٩]. وبيننا وجه الجمع بين تلك الآيات، مع آية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] وبيننا هناك حكم أخذ الأجرة، على تعليم القرآن وغيره، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وقرأ هذين الحرفين ابن عامر: خرجا

فخرج ربك، بإسكان الراء فيهما معاً، وحذف الألف فيهما، وقرأ حمزة والكسائي: خراجاً فخراج ربك بفتح الراء بعدها ألف فيهما معاً، وقرأ الباكون: خرجاً فخراج ربك بإسكان الراء، وحذف الألف في الأول، وفتح الراء وإثبات الألف في الثاني، والتحقيق أن معنى الخرج والخراج واحد، وأنهما لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان، خلافاً لمن زعم أن بين معنهما فرقاً زاعماً أن الخرج ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه. ومعنى الآية لا يساعد على هذا الفرق كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ نظراً إلى أن بعض المخلوقين يرزق بعضهم كقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْشُوفُهُمْ﴾ [النساء: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُمْ رِزْقُهُمْ وَكَتُوبُهُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢٣٣]، ولا شك أن فضل رزق الله خلقه، على رزق بعض خلقه بعضهم، كفضل ذاته وسائر صفاته على ذوات خلقه، وصفاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لِنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣).

قد قدمنا الآيات الموضحة، لمعنى هذه الآية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلِكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحج: ٦٧] فأغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ﴾ (٧٤).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لإنكارهم البعث والجزاء، ناكبون عن الصراط، والمراد بالصراط، الذي هم ناكبون عنه: الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة المذكور في قوله قبله: ﴿وَلَيْكَ لِنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) ومن نكب عن هذا الصراط المستقيم، دخل النار بلا شك.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٧] ومعنى قوله: لناكبون: عادلون عنه، حائدون غير سالكين إياه وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نصيب:

خليلي من كعب ألما هديتما بزينب لا تفقدكما أبداً كعب
من اليوم زورها فإن ركبنا غداة غد عنها وعن أهلها نكب

جمع ناكبة، عنها؛ أي عادلة عنها متباعدة عنها، وعن أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥).

قد بينا الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية من أنه تعالى يعلم المعدم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، أن لو وجد كيف يكون، في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] فأغنى ذلك عن إعادته هنا: وقوله في هذه الآية: ﴿لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ اللجاج هنا: التماذي في الكفر والضلال. والطغيان: مجاوزة الحد، وهو كفرهم بالله، وادعائهم له الأولاد

والشركاء، وقوله: يعمهون: يترددون متحيرين لا يميزون حقاً، من باطل. وقال بعض أهل العلم: العمه: عمى القلب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّحْمَةِ وَمَا يَنْصُرُونَهُ﴾ (٧٦).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أخذ الكفار بالعذاب، والظاهر أنه هنا العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب، والأمراض والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّحْمَةِ﴾ أي ما خضعوا له، ولا ذلوا ﴿وَمَا يَنْصُرُونَهُ﴾ أي ما يتهلون إليه بالدعاء متضرعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب لشدة قسوة قلوبهم، وبعدهم من الانعاط، ولو كانوا متصفين بما يستوجب ذلك من إصابة عذاب الله لهم. وهذا المعنى الذي ذكره هنا جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَأَلْصَقْنَا لَعْنَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٤١) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٢) [الأنعام] وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَأَلْصَقْنَا لَعْنَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٤٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَاءُنا الْفَرَائِدَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُم بَغْنةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

قد ذكرنا الآيات التي فيها إيضاح لمعنى هذه الآية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وبيننا هناك وجه أفراد السمع مع الجمع للأبصار والأفئدة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩). ذرأكم معناه: خلقكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله في الأرض: أي خلقكم وبشكم في الأرض، عن طريق التناسل، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ [النساء: ١] وقال: ﴿إِذَا أَنشَأَ بِشَرٍّ نَسْتَشِيرُوكَ﴾ [الروم: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إليه وحده، تجمعون يوم القيامة أحياء بعد البعث للجزاء والحساب.

وما تضمنته هذه الآية من أنه خلقهم وبشهم في الأرض وأنه سيحشرهم إليه يوم القيامة، جاء معناه في آيات كثيرة كقوله في أول هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا رَجَعْنَاهُ إِلَىٰ طِينٍ لَّعَلَّهُ يَرْجِعَ﴾ (١٣) وذكر - جل وعلا - أيضاً هاتين الآيتين في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٣٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٣٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٥) [الملك] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. قد قدمنا الآيات الدالة على الإماتتين والإحياءتين، وأن ذلك من أكبر الدواعي للإيمان به - جل وعلا - في سورة الحج في

الكلام على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له اختلاف الليل والنهار، يعني: أن ذلك هو الفاعل له وهو الذي يذهب بالليل، ويأتي بالنهار، ثم يذهب بالنهار ويأتي بالليل، واختلاف الليل والنهار، من أعظم آياته الدالة على كمال قدرته، ومن أعظم منته على خلقه كما بين الأمرين في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٦١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُونُ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٦٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦٣) [القصص]. أي لتسكنوا في الليل وتطلبوا معاشكم بالنهار، والآيات الدالة على أن اختلاف الليل والنهار، من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله، واستحقاقه للعبادة وحده كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾... الآية [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿وَأَيُّ لُهمُ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ﴾ (٦٧) [يس] وقوله: ﴿يُعْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾. [الأعراف: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦١) [يونس] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقوله تعالى: أفلا تعقلون؛ أي تدركون بعقولكم أن الذي ينشئ السمع والأبصار والأفئدة، ويدرككم في الأرض وإليه تحشرون، وهو الذي يحيي ويميت ويخالف بين الليل والنهار، أنه الإله الحق المعبود وحده - جل وعلا -، الذي لا يصح أن يسوى به غيره سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢). لفظة بل هنا للإضراب الانتقالي.

والمعنى أن الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، قالوا مثل ما قالت الأمم قبلهم، من إنكار البعث؛ لأن الاستفهام في قوله ﴿أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ﴾ إنكار منهم للبعث.

والآيات الدالة على إنكارهم للبعث كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وكقوله عنهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] وقوله عنهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا فِخْرَةً﴾ (٨١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (٨٢) [النازعات]. والآيات بمثل هذا في إنكارهم البعث كثيرة، وقد بينا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢١]. وفي أول

سورة النحل، وغيرهما الآيات الدالة على البعث بعد الموت، وأوردنا منها كثيراً كقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ الآية [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥] الآيات. وأوضحنا أربعة براهين قرآنية دالة على البعث بعد الموت، وأكثرنا من ذكر الآيات الدالة على ذلك، فأغنى ذلك عن التطويل هنا. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَوَدَّا مِنَّا﴾ قرأ نافع والكسائي، بالاستفهام في: أئذا متنا، وحذف همزة الاستفهام، في أئنا لمبعوثون بل قرأ إنا لمبعوثون بصيغة الخبر لدلالة الاستفهام الأول، على الاستفهام الثاني المحذوف وقرأه ابن عامر بالعكس، فحذف همزة الاستفهام، من أئذا، وقرأ إذا بدون استفهام، وأثبت همزة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَدَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وقد دل الاستفهام الثاني المثبت في قراءة ابن عامر، على الاستفهام الأول المحذوف فيها، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة بالاستفهام فيهما معا ﴿أَوَدَّا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلَمَّا أَوَدَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهم على أصولهم في الهمزتين، فنافع وابن كثير وأبو عمرو يسهلون الثانية، والباقون يحققونها، وأدخل قالون، وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر ألفاً بين الهمزتين. وقرأ الباقر بالقصر دون الألف، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص، عن عاصم: متنا بكسر الميم، والباقر: بضم الميم. وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثُ قَبْلَ هَذَا﴾... الآية [مريم: ٢٣] وجه كسر الميم في إسناد الفعل الذي هو مات إلى تاء الفاعل، وبيننا أنه يخفى على كثير من طلبة العلم. وأوضحنا وجهه غاية مع بعض الشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَاوَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آبائهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآباؤهم كذب لا حقيقة له، وأنه ما هو إلا أساطير الأولين؛ أي ما سطره وكتبه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورة، وقيل: جمع أسطورة. وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر مثله في سورة النمل في قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَاوَدْنَا أَبْنَاءَ لَمَحْرُوجٍ﴾ ﴿٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَاوَدْنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ [النمل] ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله ﴿قُلْ لَّيِّنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ إلى قوله: ﴿فَأَن تَشْعُرُونَ﴾ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، لا شك أنه قادر على بعث الناس بعد الموت، كما أوضحنا فيما مر البراهين القرآنية القطعية، الدالة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ (٨٧) قُلْ مَنْ مِثْلُ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة، من كماله وجلاله وأوصافه ربوبيته المستلزمة لإخلاص العبادة له وحده، في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٦١﴾ [يونس] وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وأوضحنا دلالة توحيده في ربوبيته، على توحيده في عبادته وقد ذكرنا كثيراً من الآيات القرآنية الدالة على ذلك، مع الإيضاح، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذا الآية الكريمة: ﴿مَنْ مِثْلُ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت: فعلوت من الملك؛ أي من بيده ملك كل شيء، بمعنى: من هو مالك كل شيء كائناً ما كان: وقال بعض أهل العلم: زيادة الواو والتاء في نحو: الملكوت، والرحموت، والرهبوت بمعنى الملك والرحمة، والرهبة: تفيد المبالغة في ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي هو يمنع من شاء ممن شاء، ولا يمنع أحد منه أحداً شاء أن يهلكه أو يعذبه؛ لأنه هو القادر وحده، على كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. ومنه قول الشاعر:

أراك طفقت تظلم من أجبرنا وظلم الجار إذلال المجير

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي كيف تخدعون، وتصرفون عن توحيد ربكم، وطاعة مع ظهور براهينه القاطعة وأدلتها الساطعة، وقيل ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي كيف يخيل إليكم: أن تشركوا به ما لا يضُر، ولا ينفع، ولا يغني عنكم شيئاً بناء على أن السحر هو التخيل.

وقد قدمنا الكلام على السحر مستوفى في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] والظاهر أن معنى تسحرون هنا: تخدعون بالشبه الباطلة فيذهب بقولكم، عن الحق كما يفعل بالمسحور، والله تعالى أعلم.

وقوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصفات] قرأه حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي بتخفيف الذال بحذف إحدى التاءين، والباقون بالتشديد لإدغام إحدى التاءين في الذال.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ جاء في هذه الآيات ثلاث مرات.

الأول: سيقولون لله، قل أفلا تذكرون. وهذه اتفق جميع السبعة على قراءتها بلام الجر الداخلة على لفظ الجلالة؛ لأنها جواب المجرور بلام الجر، وهو قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ فجواب لمن لأرض، هو أن تقول: لله، وأما الثاني الذي هو

﴿سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكُمْ﴾ (٩٧) والثالث: الذي هو قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٩٨) فقد قرأهما أبو عمرو بحذف لام الجر ورفع الهاء من لفظ الجلالة.

والمعنى على قراءة أبي عمرو المذكورة واضح لا إشكال فيه؛ لأن الظاهر في جواب من رب السموات السبع، ورب العرش العظيم أن تقول: الله بالرفع أي رب ما ذكر هو الله، وكذلك جواب قوله ﴿مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، فالظاهر في جوابه أيضاً أن يقال: الله بالرفع: أي الذي بيده ملكوت كل شيء هو الله، فقراءة أبي عمرو جارية على الظاهر، الذي لا إشكال فيه. وقرأ الحرفين المذكورين غيره من السبعة، بحرف الجر وخفض الهاء من لفظ الجلالة كالأول.

وفي هذه القراءة التي هي قراءة الجمهور سؤال معروف وهو أن يقال: ما وجه الإتيان بلام الجر، مع أن السؤال لا يستوجب الجواب بها؛ لأن قول: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الظاهر أن يقال في جوابه: ربهما الله، وإذا يشكل وجه الإتيان بلام الجر. والجواب عن هذا السؤال معروف واضح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾... الآية، وقوله: ﴿مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه معنى من هو مالك السموات والأرض، والعرش وكل شيء، فيحسن الجواب بأن يقال: لله؛ أي كل ذلك ملك لله، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت لخالد

لأن قوله: من رب المزالف فيه معنى من هو مالكةا، فحسن الجواب باللام؛ أي هي لخالد. والمزالف: جمع مزلفة كمرحلة. قال في القاموس: هي كل قرية تكون بين البر والريف، وجمعها مزالف.

قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِمْلٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِمْلٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١). بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه لم يتخذ ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثانية: أنه لم يكن معه إله آخر سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثالثة: أنه أقام البرهان على استحالة تعدد الآلهة بقوله: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِمْلٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أما ادعائهم له الأولاد، فقد بينا الآيات الدالة على عظم فريتهم في ذلك، وظهور بطلان دعواهم، ورد الله عليهم في ذلك في مواضع متعددة، فقد أوضحناه في سورة النحل في الكلام، على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ... الآية [النحل: ٥٧، ٥٨]. وذكرنا طرفاً منه في أول الكهف في الكلام على قوله: ﴿وَنُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٢١) [الكهف] وفي مواضع غير ما ذكر، فأغنى ذلك عن إعادته.

وأما تفرده تعالى بالالوهية مع إقامة الدليل على ذلك فقد بيناه، وذكرنا ما يدل عليه من الآيات في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَتَّبَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] ولم نتعرض لما يسميه المتكلمون دليل التمانع، لكثرة المناقشات الواردة على أهل الكلام فيه، وإنما بينا الآيات بالقرآن على طريق الاستدلال القرآني بها فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤). أمر - جلا وعلا - نبيه في هاتين الآيتين الكريمتين أن يقول: رب إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ؟ أي إن تُرِيدُ ما توعدهم من العذاب بأن تنزله بهم، وأنا حاضر شاهد أرى نزوله بهم ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي لا تجعلني في جملة المعذبين الظالمين، بل أخرجني منهم، ونجني من عذابهم، وقد بين تعالى في مواضع أخر أنه لا ينزل بهم العذاب، وهو فيهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾... الآية [الأنفال: ٣٣]، وبين هنا أنه قادر على أن يُرِيَهُ العذاب، الذي وعدهم به في قوله: ﴿وَأَنَا عَلَيَّ أَنْ تُرِيدَ مَا وَعَدْتُمْ لِقَوْمٍ﴾ (٩٥) وبين في سورة الزخرف أنه إن ذهب به قبل تعذيبهم، فإنه معذب لهم ومنتقم منهم لا محالة، وأنه إن عذبهم، وهو حاضر فهو مقتدر عليهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٩٦) أَوْ تُرِيدَ أَلَدِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٩٧) [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٨) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٩) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٠٠).

هذا الذي تضمنته هذه الآيات الثلاث مما ينبغي أن يعامل به شياطين الإنس وشياطين الجن. قد قدمنا الآيات الدالة عليه بإيضاح في آخر سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٠١) وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزْعٌ... الآية [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]. وقوله في هذه الآية ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن الخصال، والسيئة مفعول ادفع ووزن السيئة، فيعلة أصلها: سيوئة وحروفها الأصلية السين والواو والهمزة، وقد زيدت الباء الساكنة بين الفاء والعين، فوجب إبدال الواو التي هي عين الكلمة بياء وإدغام بياء الفعلة الزائدة فيها على القاعدة التصريفية المشار لها بقول ابن مالك في الخلاصة:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطي غير ما قد رسما

كما قدمناه مراراً، والسيئة في اللغة: الخصلة من خصال السوء. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما تصفه ألسنتهم من الكذب في تكذيبهم لك، وادعائهم الأولاد والشركاء لله. وقد قدمنا في سورة المائدة أن اللين والصفح المطلوب في آيات

القرآن بعد نزول القتال إنما هو بالنسبة إلى المؤمنين، دون الكافرين في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ لَمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وبيننا الآيات الدالة على ذلك كقوله في النبي ﷺ وأصحابه ﴿أَشِدُّوا عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى آخر ما تقدم، وقوله في هذه الآية: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [٧٧] الهمزات: جمع همزة وهي المرة من فعل الهمز، وهو في اللغة: النخس والدفع، وهمزات الشياطين نخساتهم لبني آدم ليحثوهم، ويحضوهم على المعاصي، كما أوضحنا الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ أَذًا﴾ [مريم: ٨٣] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [١٦] وَلَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ... الآية [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

والظاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ [٧٨] أن المعنى أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائنًا ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أو عند حضور الموت أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [٩٩] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا، الظاهر عندي أن حتى في هذه الآية هي التي يبتدأ بعدها الكلام، ويقال لها: حرف ابتداء، كما قاله ابن عطية، خلافاً للزمخشري القائل: إنها غاية لقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ولأبي حيان القائل: إن الظاهر له أن قبلها جملة محذوفة هي غاية لها يدل عليها ما قبلها، وقدرة الجملة المذكورة بقوله فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم، حتى إذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعون. ونظير حذف هذه الجملة قول الشاعر وهو الفرزدق:

فواعجباً حتى كليب تسبني كأن أباهـا نهشل أو مجاشع

قال المعنى يسبني الناس حتى كليب، فدل ما بعد حتى على الجملة المحذوفة. وفي الآية دل ما قبلها عليها. انتهى الغرض من كلام أبي حيان، ولا يظهر عندي كل الظهور.

بل الأظهر عندي: هو ما قدمته وهو قول ابن عطية، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الكافر والمفريط في عمل الخير إذا حضر أحدهما الموت طلبا الرجعة إلى الحياة، ليعملا العمل الصالح الذي يدخلهما الجنة، ويتداركا به ما سلف منهما من الكفر والتفريط وأنهما لا يجابان لذلك، كما دل عليه حرف الزجر والردع الذي هو كلا جاء موضعاً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفِكَ آدَمُكُمُ الْمَوْتَ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَلْتَمِيتُ إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَاصْدَفَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٠] وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا... الآية [المنافقون: ١٠، ١١]. وقوله تعالى ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

الْعَذَابِ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ اأَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٩٩﴾ [إبراهيم] إلى غير ذلك من الآيات، وكما أنهم يطلبون الرجعة عند حضور الموت، ليصلحوا أعمالهم فإنهم يطلبون ذلك يوم القيامة ومعلوم أنهم لا يجابون إلى ذلك.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْنَارِ فَقَالُوا لَيْلِنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَيْنَا مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ اثْنَيْنِ وَأُحْيِيَتُنَا أَثْنَتَيْنِ فَاقْتَرَفَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٧﴾﴾ [غافر] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧﴾﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَادُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ... الآية [سبأ: ٥١ - ٥٣].

وقد تضمنت هذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت، ويوم النشور ووقت عرضهم على الله تعالى، ووقت عرضهم على النار.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف وهو أن يقال: ما وجه صيغة الجمع في قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ ولم يقل: رب ارجعني بالافراد.

وقد أوضحنا الجواب عن هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وبيننا أنه يجاب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أظهرها أن صيغة الجمع في قوله: ارجعون، لتعظيم المخاطب وذلك النادم السائل الرجعة يظهر في ذلك الوقت تعظيمه ربه، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر حسان بن ثابت أو غيره:

ألا فارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل
وقول الآخر يخاطب امرأة:

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا
والنقاخ: الماء البارد والبرد: النوم، وقيل: ضد الحر. والأول أظهر.

الوجه الثاني: قوله: رب استغاثة به تعالى، وقوله: ارجعون: خطاب للملائكة،

ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير، عن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى دار الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، فيقول: بل قدموني إلى الله وأما الكافر فيقولون له: نرجعك؟ فيقول: رب ارجعون».

الوجه الثالث: وهو قول المازني: إنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى. والعلم عند الله تعالى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ الظاهر أن لعل فيه للتعليل؛ أي ارجعون، لأجل أن أعمل صالحاً، وقيل: هي للترجي والتوقع؛ لأنه غير جازم، بأنه إذا رد للدنيا عمل صالحاً، والأول أظهر، والعمل الصالح يشمل جميع الأعمال من الشهادتين والحج الذي كان قد فرط فيه والصلوات والزكاة ونحو ذلك، والعلم عند الله تعالى. وقوله كلا: كلمة زجر: وهي دالة على أن الرجعة التي طلبها لا يعطاها كما هو واضح.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ (١٧)، في هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان يحتاجان إلى جواب مبين للمقصود مزيل للإشكال.

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه إذا نفخ في الصور، والظاهر أنها النفخة الثانية، أنهم لا أنساب بينهم يومئذ، فيقال: ما وجه نفي الأنساب بينهم، مع أنها باقية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ (٢٢) يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّؤُوفُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُخِيهِ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) [عس] ففي هذه الآية ثبوت الأنساب بينهم.

السؤال الثاني: أنه قال ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون، كقوله في سورة الطور ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ (٧) [الطور] وقوله في الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ (٥٠) [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ذكرنا الجواب عن هذين السؤالين في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب بما حاصله:

أن الجواب عن السؤال الأول هو أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها، التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا، من التفاخر بالآباء، والنفع والعواطف والصلوات. فكل ذلك ينقطع يوم القيامة، ويكون الإنسان لا يههم إلا نفسه، وليس المراد نفي حقيقة الأنساب، من أصلها بدليل قوله ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّؤُوفُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُخِيهِ (٢٥)﴾ [سبا] الآية.

وأن الجواب عن السؤال الثاني من ثلاثة أوجه:

الأول: هو قول من قال: إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معاً، وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر.

الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة، والجواز على الصراط وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسؤول أباً أو ابناً أو أمّاً أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتيان.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)، قد قدمنا الآيات الموضحة، لمعنى هاتين الآيتين في سورة الأعراف في الكلام على قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (الأعراف: ٨، ٩]. وقوله في سورة مريم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (الكهف: ١٠٥) وغير ذلك. فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار تلفح وجوههم النار؛ أي تحرقها إحراقاً شديداً، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ (الأحزاب: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ (النمل: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ (١٠٥). [إبراهيم]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاحِشَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (الزمر: ٢٤] وقوله: ﴿يَسْأَلُ الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ (الكهف: ٢٩]. إلى غير ذلك من الآيات وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ الكالِح: هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، والنار والعياذ بالله تحرق شفاههم، حتى تقلص عن أسنانهم، كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر، ومنه قول الأعشى:

وله المقدم لا مثل له ساعة الشدق عن الناب كلح

وعن ابن عباس: كالحنون: عابسون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَىٰ عَرْشِكَ فَاكْفُرْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن أهل النار يستلون يوم القيامة، فيقول لهم ربهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَىٰ عَرْشِكَ﴾ أي في دار الدنيا على ألسنة الرسل فكنتم بها تكذبون، وأنهم اعترفوا بذلك، وأنهم لم يجيبوا الرسل لما دعوهم إليه من الإيمان؛ لأن الله أراد بهم الشقاء وهم ميسرون لما خلقوا له، فلذلك كفروا، وكذبوا الرسل.

قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥) فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله هنا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) الظاهر أن معنى قولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أن الرسل بلغتهم، وأنذرتهم وتلت عليهم آيات

ربهم، ولكن ما سبق في علم الله من شقاوتهم الأزلية، غلب عليهم، فكذبوا الرسل، ليصيروا إلى ما سبق في علمه جل وعلا، من شقاوتهم، ونظير الآية على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٧٧﴾ [يونس] وقوله عن أهل النار: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٨﴾ [الزمر: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله ﷺ: «كُلُّ ميسر لما خلق له» وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ۗ﴾ [التغابن: ٢] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ ۖ ۝٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] على أصح التفسيرين وقوله عنهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ اعتراف منهم بضلالهم، حيث لا ينفع الاعتراف بالذنب ولا الندم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٧٩﴾ [الملك] ونحو ذلك من الآيات.

وهذا الذي فسرنا به الآية، هو الأظهر الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبه تعلم أن قول أبي عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية، وأحسن ما قيل في معناه: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾ [النساء: ١٠]؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار، اه تكلف مخالف للتحقيق.

ثم حكى القرطبي ما ذكرنا أنه الصواب بقيل ثم قال: وقيل: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق، اه.

ولا يخفى أن الصواب هو ما ذكرنا - إن شاء الله تعالى - وقوله هنا: ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي عن الإسلام إلى الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار، وقرأ هذا الحرف: حمزة، والكسائي: شقاوتنا بفتح الشين، والقاف وألف بعدها، وقرأه الباقون: بكسر الشين، وإسكان القاف وحذف الألف.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝٧٩﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ۝٨٠﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أهل النار يدعون ربهم فيها فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا إلى ما لا يرضيك بعد إخراجنا منها، فإننا ظالمون، وأن الله يجيبهم بقوله: ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ۖ﴾ أي امكثوا فيها خاسئين؛ أي أذلاء صاغرين حقيرين؛ لأن لفظة اخساً إنما تقال للحقير الدليل، كالكلب ونحوه، فقوله: ﴿أَخْسُوا فِيهَا﴾ أي ذلوا فيها ماكثين في الصغار والهوان.

وهذا الخروج من النار الذي طلبوه قد بين تعالى أنهم لا ينالونه كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٨١﴾ [المائدة] وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جاء في القرآن أجوبة متعددة لطلب أهل النار فهنا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فأجيبوا ﴿أَفْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾.

وفي السجدة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فأجيبوا ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. الآية [السجدة: ١٢ - ١٣].

وفي سورة المؤمن ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتِنَا أَفْتِنَا أَفْتِنَا فَأَعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١١﴾﴾ فأجيبوا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١١٢﴾﴾ [عافر].

وفي الزخرف ﴿وَوَادُوا يَمْنُكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فأجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧]. وفي سورة إبراهيم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِثْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وفي سورة فاطر ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَنْدَكِّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مثل هذه الأجوبة.

وعن ابن عباس أن بين كل طلب منها وجوابه ألف سنة والله أعلم. وقوله في هذه الآية ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾؛ أي في رفع العذاب عنكم، ولا إخراجكم من النار أعادنا الله، وإخواننا المسلمين منها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٣﴾﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَسْوَأْتُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قد تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل كقولك: عاقبه إنه مسيء؛ أي لأجل إساءته. وقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ الآيتين. يدل فيه لفظ إن المكسورة المشددة، على أن من الأسباب التي أدخلتهم النار هو استهزاؤهم، وسخريتهم من هذا الفريق المؤمن الذي يقول: ﴿رَبَّنَا ءَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، فالكفار يسخرون من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى ينسيهم ذلك ذكر الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار.

وما ذكره تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أشار له في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [المطففين] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾... الآية [الأنعام: ٥٣] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وإنكارهم أن الله يمن عليهم بخير، وكقبوله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾... الآية [الأعراف: ٤٩]. وقوله تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خِزْيًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وقوله: ﴿فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ﴾ والسخري بالضم والكسر: مصدر

سخر منه، إذ استهزء به على سبيل الاحتقار. قال الرمخشري في ياء النسب: زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، ومعناه أن الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم: ومبالغتهم في ذلك، وقرأ نافع وحزمة والكسائي: سخرياً بضم السين، والباقون بكسرها ومعنى القراءتين واحد، وهو سخرية الكفار واستهزاؤهم بضعفاء المؤمنين، كما بينا. وممن قال بأن معناهما واحد: الخليل وسيبويه، وهو الحق - إن شاء الله تعالى - وعن الكسائي والفاء أن السخري بكسر السين من قبيل ما ذكرنا من الاستهزاء، وأن السخري بضم السين من التسخير، الذي هو التذليل والعبودية.

والمعنى أن الكفار يسخرون ضعفاء المؤمنين، ويستعبدونهم كما كان يفعل أمية بن خلف ببلال، ولا يخفى أن الصواب هو ما ذكرنا - إن شاء الله تعالى - وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰ أَسْؤُكُمْ ذِكْرِي﴾ حرف غاية، لاتخاذهم إياهم سخرياً؛ أي لم يزلوا كذلك، حتى أنساهم ذلك ذكر الله والإيمان به، فكان مأواهم النار، والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جزي أولئك المؤمنين المستضعفين في الدنيا بالفوز بالجنة في الآخرة. وقوله ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي بسبب صبرهم في دار الدنيا، على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخرياً، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن أولئك المستضعفين الذين كان الكفار يستهزأون بهم، جزاهم الله يوم القيامة الفوز بجنته، ورضوانه، جاء مبيناً في مواضع أخر مع بيان أنهم يوم القيامة يهزؤون بالكفار، ويضحكون منهم، والكفار في النار والعياذ بالله، كقوله تعالى: ﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [٢١] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٢٣] [المطففين] وقوله تعالى: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [٢٤] [الأعراف] وقوله: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ حمزة والكسائي: إنهم هم الفائزون بكسر همزة إن، وعلى قراءتهما فمفعول جزيتهم: محذوف أي جزيتهم جنتي إنهم هم الفائزون، وعلى هذه القراءة فإن لاستئناف الكلام، وقرأ الباقر: أنهم هم الفائزون بفتح همزة أن، وعلى قراءة الجمهور هذه فالمصدر المنسبك، من أن وصلتها: مفعول به لجزيتهم: أي جزيتهم فوزهم كما لا يخفى. والفوز نيل المطلوب الأعظم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [٢٥] قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَامِينَ﴾ [٢٦]. في هذه الآية سؤال معروف وهو أنهم لما سئلوا يوم القيامة عن قدر مدة لبثهم في الأرض أجابوا بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، مع أنه قد دلت آيات أخر على أنهم أجابوا بغير هذا الجواب كقوله تعالى: ﴿يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْبُزْجُ عَنْ الْقُبُورِ﴾ [٢٧]

لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٦﴾ [طه] والعشر أكثر من يوم أو بعضه، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا إِلَّا عَشْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] والساعة: أقل من يوم أو بعضه، وقوله: ﴿كَانَتْ يَوْمَ يَرْؤُهَا رَبُّ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات] وقوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ نَهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد بينا الجواب عن هذا السؤال في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام على هذه الآية بما حاصله أن بعضهم يقول لبثنا يوماً أو بعض يوم، ويقول بعض آخر منهم: لبثنا ساعة ويقول بعض آخر منهم لبثنا عشراً.

والدليل على هذا الجواب من القرآن أنه تعالى بين أن أقوامهم إدراكاً، وأرجحهم عقلاً، وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [١١٦] مَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٧﴾ [طه]، فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَلَى الْعَاقِبِينَ﴾ أي الحاسبين، الذين يضبطون مدة لبثنا، وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة إلى السين، وحذف الهمزة، والباقون: فاسأل بغير نقل، وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي: قل كم لبثتم بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر، وقرأ الباقر: قال كم لبثتم بفتح القاف بعدها ألف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي.

وقال الزمخشري ما حاصله أنه على قراءة قال بصيغة الماضي فالفاعل ضمير يعود إلى الله، أو إلى من أمر بسؤالهم من الملائكة، وعلى قراءة قل بصيغة الأمر، فالضمير راجع إلى الملك المأمور بسؤالهم أو بعض رؤساء أهل النار هكذا قال. والله تعالى أعلم، وقد صدقهم الله - جل وعلا - في قلة لبثهم في الدنيا بقوله: ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١١٦] لأن مدة مكثهم في الدنيا قليلة جداً، بالنسبة إلى طول مدتهم خالدين في النار، والعياذ بالله. وقرأ حمزة والكسائي: قل إن لبثتم إلا قليلاً بصيغة الأمر والباقر بصيغة الماضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿١١٦﴾. الاستفهام في قوله: أفحسبتم للإنكار، والحسبان هنا معناه: الظن. يعني أظنتم أنا خلقناكم عبثاً لا لحكمة، وأنكم لا ترجعون إلينا يوم القيامة، فنجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم نزه - جل وعلا - نفسه، عن أن يكون خلقهم عبثاً، وأنهم لا يرجعون إليه للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ [١١٦] أي تعظم وتقدس، وتنزه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، ومنه خلقكم عبثاً سبحانه وتعالى، عن ذلك علواً كبيراً.

وما تضمنته هذه الآية من إنكار الظن المذكور جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ۖ﴾ [ص] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: ٣٨، ٣٩] وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ (٣٩) أَوْ بِكَ تُطْفَعُ مِنْ مَتْنٍ يُتَّقَى ۖ ثُمَّ كَانَ عَقْفَهُ فَخَلَقَ فُسُوءَى ۖ ﴿٣٨﴾ لِمَعَلِّ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الْأُخْرَى ۖ﴾ (٣٩) [القيامة] وقوله: سدى؛ أي مهملاً لا يحاسب ولا يجازي، وهو محل إنكار ظن ذلك في قوله ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ [القيامة] وقوله: ﴿عَبَثًا﴾: يجوز إعرابه حالاً؛ لأنه مصدر منكر أي إنما خلقناكم في حال كوننا عابثين، ويجوز أن يعرب مفعولاً من أجله؛ أي إنما خلقناكم، لأجل العبث لا لحكمة اقتضت خلقنا إياكم، وأعربه بعضهم مفعولاً مطلقاً، وليس بظاهر. قال القرطبي عبثاً: أي مهملين، والعبث في اللغة: اللعب، ويدل على تفسيره في الآية باللعب قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) [الدخان] وقوله: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ قال بعضهم أي الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه. وقال بعضهم: الملك الحق: الثابت الذي لا يزول ملكه، كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْيَتَامَىٰ وَاجِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وإنما وصف عرشه بالكرم لعظمته وكبر شأنه والظاهر أن قوله: ﴿وَأَنكُمْ إِنَّا لَا نَرْجِعُكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ خلافاً لمن قال: إنه معطوف على قوله: عبثاً؛ لأن الأول أظهر منه والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٧]. البرهان: الدليل الذي لا يترك في الحق لبساً، وقوله: لا برهان له به كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾... الآية [الحج: ٢١]. والسلطان: هو الحجة الواضحة وهو بمعنى: البرهان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قد بين أن حسابه الذي عند ربه، لا فلاح له فيه بقوله بعده ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وأعظم الكافرين كفراً هو من يدعو مع الله إلهاً آخر، لا برهان له به، ونفى الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار، وقد حذر الله من دعاء إله معه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥١] [الذاريات] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْمُعْزَرُ وَالْمُعْزَرُ وَل إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٣٨] [القصر] وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا﴾ [٣٢] [الإسراء] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لا مفهوم مخالفة له، فلا يصح لأحد أن يقول: أما من عبد معه إلهاً آخر له برهان به فلا مانع من ذلك، لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه، بل البراهين القطعية المتواترة، دالة على أنه هو المعبود وحده - جل وعلا - ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة، وقد تقرر

في فن الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة، كون تخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع فيرد النص ذاكراً لوصف الموافق للواقع ليطبق عليه الحكم، فتخصيصه بالذكر إذاً ليس لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق، بل لتخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع.

ومن أمثلته في القرآن هذه الآية لأن قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ﴾ وصف مطابق للواقع؛ لأنهم يدعون معه غيره بلا برهان، فذكر الوصف لموافقته الواقع، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق.

ومن أمثلته في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأنه نزل في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فقوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر لموافقته للواقع لا لإخراج المفهوم، عن حكم المنطوق. ومعلوم أن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، ممنوع على كل حال، وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) في ذكره موانع اعتبار مفهوم المخالفة بقوله:

أو امتنان أو وفاق الواقع والجهل والتأكيد عند السامع

وقوله تعالى في خاتمة هذه السورة الكريمة: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيه الدليل على أن ذلك الفريق الذين كانوا يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. موفقون في دعائهم ذلك؛ ولذا أثنى الله عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك، ومعمول اغفر وارحم حذف هنا، لدلالة ما تقدم عليه في قوله ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] والمغفرة: ستر الذنوب بعفو الله وحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، والرحمة صفة الله التي اشتق لنفسه منها اسمه الرحمن، واسمه الرحيم: وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم، وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ لأن المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضاً، ولا شك أن رحمة الله تتخالف رحمة خلقه، كمخالفة ذاته وسائر صفاته لذواتهم، وصفاتهم كما أوضحناه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْغُرِيِّ﴾ [الأعراف: ٥٤] والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل زانية وكل زان يجب جلد كل واحد منهما مائة جلدة؛ لأن الألف واللام في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ إن قلنا: إنهما موصول وصلتهما

الوصف الذي هو اسم الفاعل الذي هو الزانية والزاني، فالموصلات من صيغ العموم. وإن قلنا: إنهما للتعريف لتناسي الوصفية، وأن مرتكب تلك الفاحشة يطلق عليه اسم الزاني، كإطلاق أسماء الأجناس، فإن ذلك يفيد الاستغراق، فالعموم الشامل لكل زانية وكل زان، هو ظاهر الآية، على جميع الاحتمالات.

وظاهر هذا العموم شموله للعبد، والحر، والأمة، والحرّة، والبكر، والمحصن من الرجال والنساء.

وظاهره أيضاً أنه لا تغرب الزانية، ولا الزاني عاماً مع الجلد، ولكن بعض الآيات القرآنية دل على أن عموم الزانية يخص مرتين.

إحداهما: تخصيص حكم جلدها مائة بكونها حرة، أما إن كانت أمة، فإنها تجلد نصف المائة وهو خمسون، وذلك في قوله تعالى في الإماء: ﴿إِنْ أَتَيْتَ فَكَّاحَتَيْنِ فَكَّاحَتَيْنِ يَصُفُّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] والمراد بالمحصنات هنا: الحرائر، والعذاب الجلد، وهو بالنسبة إلى الحرّة الزانية: مائة جلدة والأمة عليها نصفه بنص آية النساء هذه، وهو خمسون، فأية ﴿فَكَّاحَتَيْنِ يَصُفُّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] مخصصة لعموم قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾... الآية، بالنسبة إلى الزانية الأثني.

وأما التخصيص المرة الثانية لعموم الزانية في آية النور هذه فهو بآية منسوخة التلاوة، باقية الحكم، تقتضي أن عموم الزانية هنا مخصص بكونها بكراً.

أما إن كانت محصنة، بمعنى أنها قد تزوجت من قبل الزنى، وجامعها زوجها في نكاح صحيح فإنها ترجم.

والآية التي خصصتها بهذا الحكم الذي ذكرنا أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم هي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكلاً من الله والله عزيز حكيم».

وهذا التخصيص إنما هو على قول من يقول: لا يجمع للزاني المحصن، بين الجلد والرجم، وإنما يرحم فقط بدون جلد.

أما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص، وإنما في آية الرجم زيادته على الجلد، فكلتا الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى، وسيأتي إيضاح هذا - إن شاء الله - غير بعيد وأقوال أهل العلم فيه ومناقشة أدلتهم.

أما الزاني الذكر فقد دلت الآية التي ذكرنا، أنها منسوخة التلاوة، باقية الحكم على تخصيص عمومها، وأن الذي يجلد المائة من الذكور، إنما هو الزاني البكر، وأما المحصن فإنه يرحم، وهذا التخصيص في الذكر أيضاً إنما هو على قول من لا يرى الجمع بين الجلد والرجم، كما أوضحناه قريباً في الأثني.

وأما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص، بل كل واحدة من الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى.

وعموم الزاني في آية النور هذه، مخصص عند الجمهور أيضاً مرة أخرى، بكون جلد المائة خاصاً بالزاني الحر، أما الزاني الذكر العبد فإنه يجلد نصف المائة وهو الخمسون.

ووجه هذا التخصيص إلحاق العبد بالأمة في تشطير حد الزنى بالرق؛ لأن مناط التشطير الرق بلا شك؛ لأن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى الحدود وصفان طرديان، لا يترتب عليهما حكم، فدل قوله تعالى في آية النساء في الإماماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] أن الرق مناط تشطير حد الزنى، إذ لا فرق بين الذكر والأنثى في الحدود، فالمخصص لعموم الزاني في الحقيقة: هو ما أفادته آية ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] وإن سماه الأصوليون تخصيصاً بالقياس، فهو في الحقيقة تخصيص آية بما فهم من آية أخرى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل:

قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢). قد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، ذكرنا هذا في ترجمة الكتاب وذكرنا فيما مضى من الكتاب أمثلة كثيرة لذلك، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن العلماء اختلفوا في المراد بالنكاح في هذه الآية، فقال جماعة: المراد بالنكاح في هذه الآية: الوطء الذي هو نفس الزنى، وقالت جماعة أخرى من أهل العلم: إن المراد بالنكاح في هذه الآية هو عقد النكاح. قالوا: فلا يجوز لعفيف أن يتزوج زانية كعكسه، وهذا القول الذي هو أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج لا الوطء في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته، وتلك القرينة هي ذكر المشرك والمشركة في الآية؛ لأن الزاني المسلم لا يحل له نكاح مشركة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ [المتحنة: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال. وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح في الآية التي نحن بصدد الوطء الذي هو الزنى؛ لا عقد النكاح، لعدم ملائمة عقد النكاح لذكر المشرك والمشركة، والقول بأن نكاح الزاني للمشركة والزانية للمشرك منسوخ؛ ظاهر السقوط؛ لأن سورة النور مدنية، ولا دليل على أن ذلك أحل بالمدينة، ثم نسخ. والنسخ لا بد له من دليل يجب الرجوع إليه.

وهناك مسائل تتعلق بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ فيها هو أن هذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقاً؛ لأن حمل النكاح فيها على التزويج، لا يلائم ذكر المشركة والمشرک، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا أعلم مخرجاً واضحاً من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين كما حرره أبو العباس بن تيمية رحمته الله في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنیه، أو معانيه، فيجوز أن تقول: عدا للصوص البارحة على عين زيد، وتعني بذلك أنهم عوروا عينه الباصرة وغوروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه أو فضته.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافاً لمن زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر، كما أشرنا له سابقاً، وإذا جاز حمل المشترك على معنیه، فيحمل النكاح في الآية على الوطء، وعلى التزويج معاً، ويكون ذكر المشركة والمشرک على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له، والعلم عند الله تعالى.

وأكثر أهل العلم على إباحة تزويج الزانية، والمانعون لذلك أقل وهناك فروع تتعلق بالآية يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ إلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝، قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَزْمُونَ﴾ معناه: يقدفون المحصنات بالزنا صريحاً أو ما يستلزم الزنا كنفى نسب ولد المحصنة عن أبيه؛ لأنه إن كان من غير أبيه كان من زنى، وهذا القذف هو الذي أوجب الله تعالى فيه ثلاثة أحكام:

الأول: جلد القاذف ثمانين جلدة.

والثاني: عدم قبول شهادته.

والثالث: الحكم عليه بالفسق.

فإن قيل: أين الدليل من القرآن على أن معنى «يرمون» المحصنات في هذه الآية: هو القذف بصريح الزنى، أو بما يستلزمه كنفى النسب؟

فالجواب: أنه دلت عليه قريتان من القرآن:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ بعد قوله: ﴿يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ومعلوم

أنه ليس شيء من القذف يتوقف إثباته على أربعة شهداء إلا الزنى. ومن قال: إن اللواط حكمه حكم الزنى أجرى أحكام هذه الآية على اللواط.

وقد قدمنا أحكام اللواط مستوفاة في سورة هود.

القرينة الثانية: هي ذكر المحصنات بعد ذكر الزواني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾... الآية. وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فذكر المحصنات بعد ذكر الزواني، يدل على إحصانهن أي عفتن عن الزنى، وأن الذين يرمونهن إنما يرمونهن بالزنى، وقد قدمنا جميع المعاني التي تراد بالمحصنات في القرآن، ومثلنا لها كلها من القرآن في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فذكرنا أن من المعاني التي تراد بالمحصنات كونهن عفاف غير زانيات، كقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرُ مُسَفِّحَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥] أي عفاف غير زانيات، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي العفاف، وإطلاق المحصنات على العفاف معروف في كلام العرب. ومنه قول جرير:

فلا تأمنن الحبي قيساً فإنهم بنو محصنات لم تدنس حجورها
وإطلاق الرمي على رمي الشخص لآخر بلسانه بالكلام القبيح معروف في كلام العرب. ومنه قول عمرو بن أحمر الباهلي:

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوى رمانى
فقوله رمانى بأمر: يعني أنه رماه بالكلام القبيح، وفي شعر امرئ القيس أو غيره:

* وجرح اللسان كمجرح اليد *

واعلم أن هذه الآية الكريمة مبينة في الجملة من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: هي القرينتان القرآنيتان الدالتان على أن المراد بالرمي في قوله: ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، هو الرمي بالزنى، أو ما يستلزمه كنفى النسب، كما أوضحناه قريباً.

الجهة الثانية: هي أن عموم هذه الآية ظاهر في شموله لزواج المرأة إذا رماها بالزنى، ولكن الله - جل وعلا - بين أن زوج المرأة إذا قذفها بالزنى خارج من عموم هذه الآية، وأنه إن لم يأت بالشهداء تلاعنا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾... الآية.

ومضمونها أن الزوج إذا قذف زوجته بالزنى ولم يكن له شاهد غير نفسه، والمعنى أنه لم يقدر على الإتيان ببينة تشهد له على الزنى الذي رماها به، فإنه يشهد أربع شهادات يقول في كل واحدة منها أشهد بالله إنني لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم يقول في الخامسة: عليّ لعنة الله إن كنت كاذباً عليها فيما رميتها به، ويرتفع عنه الجلد وعدم قبول الشهادة والفسق بهذه الشهادات. وتشهد هي أربع شهادات بالله تقول في كل واحدة منها أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول في الخامسة: غضب الله عليّ إن كان صادقاً فيما رمانى به من الزنى، كما هو واضح من نص الآية.

الجهة الثالثة: أن الله بين هنا حكم عقوبة من رمى المحصنات في الدنيا، ولم يبين ما أعد له في الآخرة، ولكنه بين في هذه السورة الكريمة ما أعد له في الدنيا

وَالْآخِرَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ يُؤَيِّدُ بِيُوفِيِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وقد زاد في هذه الآية الأخيرة كونهن مؤمنات غافلات لإيضاح صفاتها الكريمة.

ووصفه تعالى للمحصنات في هذه الآية بكونهن غافلات ثناء عليهن بأنهن سليمات الصدور نقيات القلوب لا تخطر الريبة في قلوبهن لحسن سرائرهن، ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور فلا يفتن لما تفتن له المجربات ذوات المكر والدهاء، وهذا النوع من سلامة الصدور وصفاتها من الريبة من أحسن الثناء، وتطلق العرب على المتصفات به اسم البله مدحاً لها لا ذماً، ومنه قول حسان عليه السلام:

نفج الحقيبة بوصها متنضد بلهاء غير وشيكة الإقسام
وقول الآخر:

ولقد لهوت بطفلة ميالة بلهاء تطلعني على أسرارها
وقول الآخر:

عهدت بها هنداً وهند غريرة عن الفحش بلهاء العشاء نؤوم
رداح الضحى ميالة بحترية لها منطق يصبي الحليم رخم

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ محلّه فيما إذا لم يتوبوا ويصلحوا، فإن تابوا وأصلحوا، لم ينلهم شيء من ذلك الوعيد، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾... الآية.

وعموماً نصوص الكتاب والسنة دالة على أن من تاب إلى الله من ذنبه توبة نصوحاً تقبلها منه، وكفر عنه ذنبه ولو من الكبائر، وبه تعلم أن قول جماعة من أجلاء المفسرين إن آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ التي جعل الله فيها التوبة بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عامة، وأن آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾... الآية. خاصة بالذين رموا عائشة عليها السلام أو غيرها من خصوص أزواجه عليهن السلام، وأن من رماهن لا توبة له خلاف التحقيق. والعلم عند الله تعالى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف إليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٨) قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾، معنى يدرأ: يدفع، والمراد بالعذاب هنا: الحد، والمصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: «أن تشهد» فاعل يدرأ؛ أي يدفع عنها الحد شهادتها أربع شهادات الآية.

والدليل على أن المراد بالعذاب في قوله: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ﴾، الحد من أوجه.
 الأول: منها سياق الآية، فهو يدل على أن العذاب الذي تدرؤه عنها شهاداتها هو الحد.
 والثاني: أنه أطلق اسم العذاب في مواضع آخر، على الحد مع دلالة السياق فيها على أن المراد بالعذاب فيها الحد، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقوله: ﴿وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا﴾؛ أي حدهما بلا نزاع.
 وكذلك قوله تعالى في الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي نصف ما على الحرائر من الجلد.

وهذه الآية تدل على أن الزوج إذا رمى زوجته وشهد شهاداته الخمس المبينة في الآية أن المرأة يتوجه عليها الحد بشهاداته، وأن ذلك الحد المتوجه إليها بشهادات الزوج تدفعه عنها شهاداتها هي الموضحة في الآية.

ومفهوم مخالفة الآية يدل على أنها لو نكلت عن شهاداتها، لزمها الحد بسبب نكلها مع شهادات الزوج، وهذا هو الظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه، فشهادات الزوج القاذف تدرأ عنه هو حد القذف، وتوجه إليها هي حد الزنى، وتدفعه عنها شهاداتها.

وظاهر القرآن أيضاً أنه لو قذف زوجته وامتنع من اللعان أنه يحد حد القذف، فكل من امتنع من الزوجين من الشهادات الخمس وجب عليه الحد، وهذا هو الظاهر من الآيات القرآنية؛ لأن الزوج القاذف داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، ولكن الله بين خروج الزوج من هذا العموم بشهاداته حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ① وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ② فلم يجعل له مخرجاً من جلد ثمانين، وعدم قبول الشهادة، والحكم بالفسق إلا بشهاداته التي قامت له مقام البيعة المبرئة له من الحد. فإن نكل عن شهاداته فالظاهر وجوب الحد عليه؛ لأنه لم تدرأ عنه أربعة عدول يشهدون بصدقه، ولا شهادات تنوب عن الشهود. فتعين أنه يحد لأنه قاذف، ولم يأت بما يدفع عنه حد القذف، وكذلك الزوجة إذا نكلت عن إيمانها فعليها الحد؛ لأن الله نص على أن الذي يدرأ عنها الحد هو شهاداتها في قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ﴾... الآية، وممن قال: إن الزوج يلزمه الحد إن نكل عن الشهادات الأثمة الثلاثة، خلافاً لأبي حنيفة القائل بأنه يحبس، حتى يلاعن، أو يكذب نفسه، فيقام عليه حد القذف، ومن قال: بأنها إن شهد هو، ونكلت هي أنها تحد بشهاداته ونكلها: مالك والشافعي والشعبي، ومكحول، وأبو عبيد، وأبو ثور. كما نقله عنهم صاحب المغني.

وهذا القول أصوب عندنا؛ لأنه ظاهر قوله: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ

بِاللَّهِ... الآية. ولا ينبغي العدول عن ظاهر القرآن إلا للدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. وقال أبو حنيفة وأحمد: لا حد عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضاً حتى تلاعن أو تقر فيقام عليها الحد.

قال في المغني: وبهذا قال الحسن، والأوزاعي، وأصحاب الرأي. وروي ذلك عن الحارث العكلي، وعطاء الخراساني، واحتج أهل هذا القول بحجج يرجع جميعها إلى أن المانع من حدها أن زناها لم يتحقق ثبوته؛ لأن شهادات الزوج ونكولها هي لا يتحقق بواحد منهما، ولا بهما مجتمعين ثبوت الزنى عليها.

وقول الشافعي ومالك ومن وافقهما في هذه المسألة أظهر عندنا؛ لأن مسألة اللعان أصل مستقل لا يدخله القياس على غيره، فلا يعدل فيه عن ظاهر النص إلى القياس على مسألة أخرى. والعلم عند الله تعالى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية أنه لولا فضله ورحمته، ما زكا أحد من خلقه ولكنه بفضله ورحمته يزكي من يشاء تركيته من خلقه.

ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحداً أن يزكي نفسه بحال من الأحوال، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ... الآية [النساء: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والزكاة في هذه الآية هي الطهارة من أنجاس الشرك، والمعاصي. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي يطهره من أدناس الكفر والمعاصي بتوفيقه وهدايته إلى الإيمان والتوبة النصوح، والأعمال الصالحة.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات المذكورة لا يعارضه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس] ولا قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّى﴾ [الأعلى] على القول بأن معنى تزكى تطهر من أدناس الكفر والمعاصي، لا على أن المراد بها خصوص زكاة الفطر، ووجه ذلك في قوله: من زكاها أنه لا يزكيها إلا بتوفيق الله وهدايته إياه للعمل الصالح، وقبوله منه، وكذلك الأمر في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّى﴾ [الأعلى] كما لا يخفى.

والأظهر أن قوله: ﴿مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ الآية: جواب لولا التي تليه، خلافاً لمن زعم أنه جواب لولا في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [٢١] وقد تكرر في الآيات التي قبل هذه الآية حذف جواب لولا، لدلالة القرائن عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْمُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَجِدُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾. نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر رضي الله عنه، ومسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب، وكان مسطح المذكور من المهاجرين، وهو فقير، وكانت أمه ابنة خالة أبي بكر رضي الله عنه، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقرباته وهجرته، وكان ممن تكلم في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، وهو ما رموها به من أنها فجرت مع صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه.

وقصة الإفك معروفة مشهورة ثابتة في عشر آيات من هذه السورة الكريمة، وفي الأحاديث الصحاح، فلما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في الآيات المذكورة، حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح، ولا ينفعه بنافعة بعد ما رمى عائشة بالإفك ظلماً وافتراء، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾؛ أي لا يحلف. فقوله: يأتل وزنه يفتعل من الألية وهي اليمين، تقول العرب آلى يؤلي وائتلى يأتلي إذا حلف، ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نَّسَابِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي يحلفون مضارع آلى يؤلي إذا حلف. ومنه قول امرئ القيس:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل
أي حلفت حلفة. وقول عائكة بنت زيد العدوية ترثي زوجها عبد الله ابن أبي بكر رضي الله عنه:

فآليت لا تنفك عيني حزينه عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
والألية اليمين، ومنه قول الآخر يمدح عمر بن عبد العزيز:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

أي لا يحلف أصحاب الفضل والسعة؛ أي الغنى كأبي بكر رضي الله عنه أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله كمسطح بن أثانة. وقوله: أن يؤتوا: أي لا يحلفوا عن أن يؤتوا، أو لا يحلفوا ألا يؤتوا وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وأن وصلتهما مطرد. وكذلك حذف لا النافية قبل المضارع بعد القسم، ولا يؤثر في ذلك هنا كون القسم منهياً عنه. ومفعول يؤتوا الثاني محذوف؛ أي أن يؤتوا أولي القربى الثقة والإحسان، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه.

وقال بعض أهل العلم: قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: أي لا يقصر أصحاب الفضل والسعة كأبي بكر في إيتاء أولى القربى كمسطح، وعلى هذا فقوله «يأتل» يفتعل من ألا يآلو في الأمر إذا قصر فيه وأبطأ.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾

[آل عمران: ١١٨] أي لا يقصرون في مضررتكم، ومنه بهذا المعنى قول الجعدي:

وأشمت عريان يلشد كتافه يلام على جهد القتال وما ائتلا
وقول الآخر:

وإن كنائني لنساء صدق فما آلى بني ولا أساءوا

فقوله: فما آلى بني: يعني ما قصرُوا، ولا أبطُوا، والأول هو الأصح؛ لأن حلف أبي بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة، ونزول الآية الكريمة في ذلك الحلف معروف. وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الحلف عن فعل البر من إيتاء أولي القربى والمساكين والمهاجرين، جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي لا تحلفوا بالله عن فعل الخير، فإذا قيل لكم: اتقوا وبروا، وأصلحوا بين الناس قلتم: حلفنا بالله لا نفعل ذلك، فتجعلوا الحلف بالله سبباً للامتناع من فعل الخير، على الأصح في تفسير الآية.

وقد قدمنا دلالة هاتين الآيتين على المعنى المذكور، وذكرنا ما يوضحه من الأحاديث الصحيحة في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْنِ فِي إِيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ فيه الأمر من الله للمؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا، وأصل العفو: من عفت الريح الأثر إذا طمسته.

والمعنى: فليطمسوا آثار الإساءة بحلمهم وتجاوزهم، والصفح، قال بعض أهل العلم: مشتق من صفحة العنق؛ أي أعرضوا عن مكافأة إساءتهم حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق، معرضين عنها، وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنِّتْ عُرْضَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢٢٢] الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرِّ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْعِطْ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [٢٢٣] [آل عمران] وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس، من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثاً على ذلك. ودلت أيضاً على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به. وكقوله تعالى: ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] وقد بين تعالى في هذه الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثاً عليه. وكقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥] وكقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دليل على أن العفو والصفح عن المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس

العمل؛ ولذا لما نزلت قال أبو بكر: بلى والله، نحب أن يغفر لنا ربنا، ورجع للإنفاق على مسطح، ومفعول «أن يغفر الله» محذوف للعلم به؛ أي يغفر لكم ذنوبكم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أُولَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي أصحاب القرابة، ولفظة أولي اسم جمع لا واحد له من لفظه يعرب إعراب الجمع المذكر السالم.

فائدة: في هذه الآية الكريمة دليل على أن كبائر الذنوب لا تحبط العمل الصالح؛ لأن هجرة مسطح بن أثاثه من عمله الصالح، وقذفه لعائشة من الكبائر ولم يبطل هجرته؛ لأن الله قال فيه بعد قذفه لها: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فدل ذلك على أن هجرته في سبيل الله، لم يحبطها قذفه لعائشة رضي الله عنها.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، اهـ.

وما ذكر من أن في الآية وصف مسطح بالإيمان لم يظهر من الآية، وإن كان معلوماً.

وقال القرطبي أيضاً: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. ثم قال بعد هذا: قال بعض العلماء، هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ. وقيل: أرجى آية في كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَشَرَّ الْمُؤْمِنِينَ يَأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب] وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢] فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك.

ومن آيات الرجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩] وقال بعضهم: أرجى آية في كتاب الله ﷻ: ﴿وَأَسْوَفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار. انتهى كلام القرطبي.

وقال بعض أهل العلم: أرجى آية في كتاب الله ﷻ، آية الدين: وهي أطول آية في القرآن العظيم، وقد أوضح الله - تبارك وتعالى - فيها الطرق الكفيلة بصيانة الدين من الضياع، ولو كان الدين حقيراً كما يدل عليه قوله تعالى فيها: ﴿وَلَا تَسْمُرُوا أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢]، قالوا: هذا من المحافظة في آية الدين على صيانة مال المسلم، وعدم ضياعه، ولو قليلاً يدل على العناية التامة بمصالح المسلم، وذلك يدل على أن اللطيف الخبير لا يضيعه يوم القيامة عند اشتداد الهول، وشدة حاجته إلى ربه.

قال مقيدة - عفا الله عنه وغفر له -: من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

أَوْرِثْنَا الْكَذِبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ بِذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٠﴾ [فاطر].

فقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إيرات هذه الأمة لهذا الكتاب، دليل على أن الله اصطفاهما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرِثْنَا الْكَذِبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وبين أنهم ثلاثة أقسام:

الأول: الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضاً، فهو الذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

والثاني: المقتصد وهو الذي يطيع الله، ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات.

والثالث: السابق بالخيرات: وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة، وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق، ثم إنه تعالى بين أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنت عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والواو في «يدخلونها» شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق؛ ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنت عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن، ولم يبق من المسلمين أحد خارج عن الأقسام الثلاثة، فالوعد الصادق بالجنة في الآية شامل لجميع المسلمين؛ ولذا قال بعدها متصلاً بها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦ - ٣٧].

واختلف أهل العلم في سبب تقديم الظالم في الوعد بالجنة على المقتصد والسابق، فقال بعضهم: قدم الظالم لثلاث يقنط، وآخر السابق بالخيرات لثلاث يعجب بعمله فيحبط. وقال بعضهم: قدم الظالم لنفسه؛ لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الذين لم تقع منهم معصية أقل من غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، أنهم ملعونون في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، وبين في غير هذا الموضع أن بعض

أجزاء الكافر تشهد عليه يوم القيامة غير اللسان كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لِمَ يُشْهَدُ عَلَيْنَا قُلُوبًا وَلَئِنَّا أَنْطَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ وَيَبْهَتُهُمُ الْحَقُّ﴾. المراد بالدين هنا الجزاء، ويدل على ذلك قوله: يؤفكهم؛ لأن التوفية تدل على الجزاء كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴿٢٩﴾﴾ [النجم] وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّمَا تُقَدِّمُوا أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله: ﴿تُؤْفِكُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: ١٦١] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: دينهم؛ أي جزاءهم الذي هو في غاية العدل والإنصاف، وقال الزمخشري: دينهم الحق؛ أي جزاءهم الواجب الذي هم أهله، والأول أصح؛ لأن الله يجازي عباده بإنصاف تام، وعدل كامل، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٧] وقوله: ﴿لَئِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِمَا حَسِبْتُمْ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. ومن إتيان الدين بمعنى الجزاء في القرآن قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٢﴾﴾ [الفاتحة].

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا يُومًا غَيْرَ يُؤْتِيَكُمْ حَقَّ تَسْتَأْذِينًا وَسَلَامًا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

اعلم أن هذه الآية الكريمة أشكلت على كثير من أهل العلم، وذلك من أجل التعبير عن الاستئذان بالاستئناس، مع أنهما مختلفان في المادة والمعنى. وقال ابن حجر في الفتح: وحكى الطحاوي أن الاستئناس في لغة اليمن: الاستئذان. وفي تفسير هذه الآية الكريمة بما يناسب لفظها وجهان، ولكل منهما شاهد من كتاب الله تعالى:

الوجه الأول: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو ضد الاستيحاش؛ لأن الذي يقرع باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس وزال عنه الاستيحاش، ولما كان الاستئناس لازماً للإذن أطلق اللزوم، وأريد ملزومه الذي هو الإذن، وإطلاق اللزوم، وإرادة الملزوم أسلوب عربي معروف، والقائلون بالمجاز يقولون: إن ذلك من المجاز المرسل، وعلى أن هذه الآية أطلق فيها اللزوم الذي هو الاستئناس وأريد ملزومه الذي هو الإذن يصير المعنى: حتى تستأذنوا،

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ، وقوله تعالى بعده: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ، وقال الزمخشري في هذا الوجه بعد أن ذكره: وهذا من قبيل الكناية، والإرداف؛ لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن فوضع موضع الإذن.

الوجه الثاني: في الآية هو أن يكون الاستئناس بمعنى الاستعلام، والاستكشاف. فهو استفعال من آنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً أو علمه.

والمعنى: حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يؤذن لكم أو لا؟ وتقول العرب: استئنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً، أي تعرفت واستعلمت، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ مَأْسَتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] أي علمتم رشدهم وظهر لكم. وقوله تعالى عن موسى: ﴿إِنِّي مَأْسَتُ نَارًا لَعَلِّي مَالِكُهَا مِنْهَا يَفْقِسُ﴾ [طه: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ الآية [القصص: ٢٩]. فمعنى آنس ناراً: رآها مكشوفة. ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان:

كَأَن رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا بِذِي الْجَلِيلِ عَلَى مَسْتَأْنَسٍ وَحْدَ
مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مَوْشَى أَكَارِعِهِ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ
فقوله على مستأنس يعني: حمار وحش شبه به ناقته، ومعنى كونه مستأنساً أنه يستكشف، ويستعلم القانصين بشمه ريحهم وحدة بصره في نظره إليهم. ومنه أيضاً قول الحارث بن حلزة الشكري يصف نعامه شبه بها ناقته:

آنست نبأه وأفزعها القنا ص عصراً وقد دنا الإمساء
فقوله: آنست نبأه؛ أي أحست بصوت خفي، وهذا الوجه الذي هو أن معنى تستأنسوا تستكشفوا وتستعلموا، هل يؤذن لكم وذلك الاستعلام والاستكشاف إنما يكون بالاستئذان أظهر عندي، وإن استظهر بعض أهل العلم الوجه الأول، وهناك وجه ثالث في تفسير الآية تركناه لعدم اتجاهه عندنا.

وبما ذكرنا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وغيره من أن أصل الآية: «حتى تستأذنوا»، وأن الكاتبين غلطوا في كتابتهم، فكتبوا «تستأنسوا» غلطاً بدل «تستأذنوا» لا يعول عليه، ولا يمكن أن يصح عن ابن عباس، وإن صحح سنده عنه بعض أهل العلم. ولو فرضنا صحته فهو من القراءات التي نسخت وتركت، ولعل القارئ بها لم يطلع على ذلك؛ لأن جميع الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على كتابة «تستأنسوا» في جميع نسخ المصحف العثماني، وعلى تلاوتها بلفظ: «تستأنسوا»، ومضى على ذلك إجماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مصاحفهم وتلاوتهم من غير نكير. والقرآن العظيم تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال فيه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٧﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٢٩﴾ [القيامة].

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ. أمر الله - جل وعلا - المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وحفظ الفرج، ويدخل في حفظ الفرج: حفظه من الزنى، واللواط، والمساحقة، وحفظه من الإبداء للناس والانكشاف لهم، وقد دلت آيات أخر على أن حفظه من المباشرة المدلول عليه بهذه الآية يلزم عن كل شيء إلا الزوجة والسرية، وذلك في قوله تعالى في سورة المؤمنون وسأل سائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿٣١﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٢﴾ [المعارج].

فقد بينت هذه الآية أن حفظ الفرج من الزنى، واللواط لازم، وأنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والموطوءة بالملك.

وقد بينا في سورة البقرة أن الرجل يجب عليه حفظ فرجه عن وطء زوجته في الدبر، وذكرنا لذلك أدلة كثيرة، وقد أوضحنا الكلام على آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿٥﴾ [المؤمنون] في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ [المؤمنون] وقد وعد الله تعالى من امتثل أمره في هذه الآية من الرجال والنساء بالمغفرة والأجر العظيم، إذا عمل معها الخصال المذكورة معها في سورة الأحزاب وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] وأوضح تأكيد حفظ الفرج عن الزنى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿٧٦﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهْكًا ﴿٧٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ... الآية [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات، وأوضح لزوم حفظ الفرج عن اللواط وبين أنه عدوان في آيات متعددة في قصة قوم لوط كقوله: ﴿اتَّخَذُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَّخَذْتُمْ أُلُفْجَشَةً مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَّخَذْتُمْ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا كلام أهل العلم وأدلتهم في عقوبة فاعل فاحشة اللواط في سورة هود وعقوبة الزاني في أول هذه السورة الكريمة.

واعلم أن الأمر بحفظ الفرج يتناول حفظه من انكشافه للناس، وقال ابن كثير رحمه الله

في تفسير هذه الآية: وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الآية [المؤمنون]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، اه منه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ﴾... الآيتين. قال الزمخشري في الكشاف: من للتبعض والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه، فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج؟ قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن، وصدورهن، وثديهن، وأعضادهن، وأسوقهن وأقدامهن، وكذلك الجواري المستعرضات، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه، ويجوز أن يراد مع حفظها من الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء.

وعن ابن زيد: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، اه كلام الزمخشري.

وما نقل عن ابن زيد من أن المراد بحفظ الفرج في هذه الآية الاستتار فيه نظر. بل يدخل فيه دخولاً أولياً حفظه من الزنى واللواط، ومن الأدلة على ذلك تقديمه الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج؛ لأن النظر بريد الزنى كما سيأتي إيضاحه قريباً - إن شاء الله تعالى -، وما ذكر جواز النظر إليه من المحارم لا يخلو بعضه من نظر. وسيأتي تحقيق ذلك - إن شاء الله تعالى - وتفصيله في سورة الأحزاب، كما وعدنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أنا نوضح مسألة الحجاب في سورة الأحزاب.

وقول الزمخشري: إن «من» في قوله: ﴿يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ﴾ للتبعض قاله غيره، وقواه القرطبي بالأحاديث الواردة في أن نظرة الفجاءة لا حرج فيها وعليه أن يغض بصره بعدها، ولا ينظر نظراً عمداً إلى ما لا يحل، وما ذكره الزمخشري عن الأخفش، وذكره القرطبي وغيرهما من أن «من» زائدة لا يعول عليه. وقال القرطبي وقيل: الغض: النقصان. يقال: غض فلان من فلان: أي وضع منه، فالبصر إذا لم يمكن من عمله، فهو موضوع منه ومنقوص، فمن صلة للغض، وليست للتبعض، ولا للزيادة، اه منه.

والأظهر عندنا أن مادة الغض تتعدى إلى المفعول بنفسها وتتعدى إليه أيضاً بالحرف الذي هو «من»، ومثل ذلك كثير في كلام العرب، ومن أمثلة تعدي الغض للمفعول بنفسه قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وقول عترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

وقول الآخر:

وما كان غض الطرف منا سجية ولكننا في مذحج غربان

لأن قوله: غض الطرف مصدر مضاف إلى مفعوله بدون حرف.

ومن أمثلة تعدي الغض بـ «من» قوله تعالى: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَنْبَصَرِهِمْ﴾، ﴿يَقْضُضْنَ مِنْ أَنْبَصَرِهِنَّ﴾ وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر قد جاء في آية أخرى تهديد من لم يمثله، ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

وقد قال البخاري رحمه الله: وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَنْبَصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ قال قتادة: عما لا يحل لهم ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَنْبَصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ خاتمة الأعين النظر إلى ما نهى عنه، اه محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحل، جاء موضحاً في أحاديث كثيرة.

منها ما ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس بالطرقات»، قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله ﷺ؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» انتهى هذا لفظ البخاري في صحيحه.

ومنها ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «أردف النبي ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيقاً فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيفة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسننها، فالتفت النبي ﷺ، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها» الحديث.

ومحل الشاهد منه أنه ﷺ صرف وجه الفضل عن النظر إليها، فدل ذلك على أن نظره إليها لا يجوز، واستدلال من يرى أن للمرأة الكشف عن وجهها بحضرة الرجال الأجانب بكشف الخثعمية وجهها في هذا الحديث، سيأتي - إن شاء الله - الجواب عنه في الكلام على مسألة الحجاب في سورة الأحزاب.

ومنها ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما من أن نظر العين إلى ما لا يحل لها

تكون به زانية، فقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين: النظر، وزنى اللسان: المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه». اهـ هذا لفظ البخاري، والحديث متفق عليه، وفي بعض رواياته زيادة على ما ذكرنا هنا.

ومحل الشاهد منه قوله ﷺ فزنى العين النظر، فإطلاق اسم الزنى على نظر العين إلى ما لا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه، والأحاديث بمثل هذا كثيرة معلومة. ومعلوم أن النظر سبب الزنى؛ فإن من أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلاً قد يتمكن بسببه حبها من قلبه تمكناً يكون سبب هلاكه، والعياذ بالله، فالنظر يريد الزنى. وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

كسبت لقلبي نظرة لتسره
ما مر بي شيء أشد من الهوى
عيني فكانت شقوة ووبالا
سبحان من خلق الهوى وتعالى
وقال آخر:

ألم تر أن العين للقلب رائد
وقال آخر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً
رأيت الذي لا كله أنت قادر
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر
وقال أبو الطيب المتنبّي:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
فمن المطالب والقتيل القاتل

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله في كتابه ذم الهوى فصلاً جيدة نافعة أوضح فيها الآفات التي يسببها النظر وحذر فيها منه، وذكر كثيراً من أشعار الشعراء، والحكم الثرية في ذلك وكله معلوم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. اعلم أولاً أن كلام العلماء في هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن الزينة هنا نفس شيء من بدن المرأة كوجهها وكفيها.

الثاني: أن الزينة هي ما يتزين به خارجاً عن بدنها.

وعلى هذا القول ففي الزينة المذكورة الخارجة عن بدن المرأة قولان:

أحدهما: أنها الزينة التي لا يتضمن إبدائها رؤية شيء من البدن كالملاء التي تلبسها المرأة فوق القميص والخمار والإزار.

وثانيهما: أنها الزينة التي يتضمن إبدائها رؤية شيء من البدن كالكلح في العين،

فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه، وكالخضاب والخاتم، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية اليد، وكالقرط والقلادة والسوار، فإن رؤية ذلك تستلزم رؤية محله من البدن كما لا يخفى.

وسنذكر بعض كلام أهل العلم في ذلك، ثم نبين ما يفهم من آيات القرآن رجحانه.

قال ابن كثير رحمته الله في تفسيره هذه الآية: وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلجل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه، وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهم، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة: القرط، والدملج، والخلخال، والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتتان، فزينة لا يراها إلى الزوج الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب، وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقربة من غير حسر، وأما عامة الناس، فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري رضي الله عنه ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الخاتم والخلخال. ويحتمل أن ابن عباس، ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها: بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه:

حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي، ومؤمل بن الفضل الحراني، قالا: حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دريك، عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. لكن قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم، اه كلام ابن كثير.

وقال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ واختلف الناس في قدر ذلك، فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة: هو الثياب. وزاد ابن جبير: الوجه. وقال سعيد بن جبير أيضاً، وعطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان والثياب. وقال ابن عباس، وقاتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو الكحل، والسوار والخضاب إلى نصف

الذراع والقرطة والفتخ ونحو هذا، فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس. وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ. وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى ما هنا وقبض على نصف الذراع».

قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

قلت: هذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما، يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، ثم ذكر القرطبي حديث عائشة المذكور الذي قدمناه قريباً، ثم قال: وقد قال ابن خوزير منداد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة، وخيف من وجهها وكفيها الفتنة، فعليها ستر ذلك، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها، اه محل الغرض من كلام القرطبي.

وقال الزمخشري: الزينة ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتحة والكحل والخضاب، فلا بأس به، وما خفي منها كالسوار والخلخال، والدملج، والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصون، والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والرأس، والصدر، والأذن، فنهي عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملاستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله، كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظر، ثابت القدم في الحرمة، شاهد على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها إلى آخر كلامه.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج عبد الرزاق والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: الزينة السوار، والدملج، والخلخال، والقرط، والقلادة ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الثياب والجلباب.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الزينة زينتان، زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فأما الزينة الظاهرة،

فالثياب، وأما الزينة الباطنة، فالكحل، والسوار والخاتم. ولفظ ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب. وما يخفى: فالخلخالان والقرطان والسواران.

وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم والقرط، والقلادة.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: هو خضاب الكف، والخاتم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها، وكفاها، والخاتم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: رقعة الوجه، وباطن الكف.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت: القلب والفتخ، وضمت طرف كمها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الوجه وشعرة النحر.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الوجه والكف.

وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكفان والوجه.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: المسكتان والخاتم والكحل.

قال قتادة: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إلا

إلى ها هنا» ويقبض نصف الذراع. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، عن المسور بن مخرمة في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: القلبين يعني السوار، والخاتم، والكحل.

وأخرج سعيد وابن جرير عن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الخاتم والمسكة، قال ابن جريج، وقالت

عائشة رضي الله عنها: القلب والفتحة. قالت عائشة: دخلت علي ابنة أخي لأمي، عبد الله بن

الطفيل مزينة، فدخلت على النبي ﷺ، وأعرض. فقالت عائشة رضي الله عنها: إنها ابنة أخي

وجارية فقال: إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا،

وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى. اه محل الغرض

من كلام صاحب الدر المنثور.

وقد رأيت في هذه النقول المذكورة عن السلف أقوال أهل العلم في الزينة المظاهرة والزينة الباطنة، وأن جميع ذلك راجع في الجملة إلى ثلاثة أقوال كما ذكرنا:

الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجاً عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها، كقول ابن مسعود ومن وافقه: إنها ظاهر الثياب؛ لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار كما ترى.

وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها؛ وأبعدها من الرية وأسباب الفتنة.

القول الثاني: أن المراد بالزينة ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضاً، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك الخضاب والكحل، ونحو ذلك، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن كما لا يخفى.

القول الثالث: أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها، كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه، والكفان، وما تقدم ذكره عن بعض أهل العلم.

وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، وقدمنا أيضاً في ترجمته أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون الغالب في القرآن إرادة معنى معين في اللفظ، مع تكرار ذلك اللفظ في القرآن، فكون ذلك المعنى هو المراد من اللفظ في الغالب، يدل على أنه هو المراد في محل النزاع؛ لدلالة غلبة إرادته في القرآن بذلك اللفظ، وذكرنا له بعض الأمثلة في الترجمة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان اللذين ذكرناهما في ترجمة هذا الكتاب المبارك، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود في هذه الآية التي نحن بصددتها.

أما الأول منهما، فبيانه أن قول من قال في معنى: ﴿وَلَا يَبْرِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن المراد بالزينة: الوجه والكفان مثلاً، توجد في الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلي، والحلل، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان، خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه.

وأما نوع البيان الثاني المذكور فإيضاحه أن لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مراداً به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك

الشيء المزين بها كقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ خُدُوًا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ [الكهف: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوثِّرُوا مِنْ شَيْءٍ فَفَتَنُكَ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا زِينَتُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا زِينَةُ الْكُوكُبِ﴾ [الصافات] وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلِيلَ وَالْغَالِ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبُومَا وَزِينَةً﴾ الآية [النحل: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ ... الآية [القصص: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ... الآية [الكهف: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ ... الآية [الحديد: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [طه: ٥٩] وقوله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترى، وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وهو المعروف في كلام العرب كقول الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين فيه نظر.

وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن ما يتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة، وأن من فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظواهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة، كالكحل، والخضاب، ونحو ذلك.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله عنه أن الزينة الظاهرة: هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي.

واعلم أن مسألة الحجاب وإيضاح كون الرجل لا يجوز له النظر إلى شيء من بدن الأجنبية، سواء كان الوجه والكفان أو غيرها قد وعدنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك وغيرها من المواضع، بأننا سنوضح ذلك في سورة الأحزاب في الكلام على آية الحجاب، وسنفي إن شاء الله تعالى بالوعد في ذلك بما يظهر به للمنصف ما ذكرنا.

واعلم أن الحديث الذي ذكرنا في كلام ابن كثير عند أبي داود، وهو حديث عائشة في دخول أسماء على النبي ﷺ، في ثياب رفاق، وأنه قال لها: «إن المرأة إذا

بلغت المحيضر لم يصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث كما قدمنا عن ابن كثير أنه قال فيه: قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، وخالد بن دريك، لم يسمع من عائشة، والأمر كما قال، وعلى كل حال فسنبين هذه المسألة - إن شاء الله - بياناً شافياً مع مناقشة أدلة الجميع في سورة الأحزاب ولذلك لم نطل الكلام فيها ها هنا. وهناك تنبيه يرجع من أراد الوقوف عليه للأصل، قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لما أمر الله تعالى بهذه الآداب المذكورة في الآيات المتقدمة، وكان التقصير في امتثال تلك الأوامر قد يحصل علم خلقه ما يتداركون به ما وقع منهم من التقصير في امتثال الأمر، واجتناب النهي، وبين لهم أن ذلك إنما يكون بالتوبة، وهي الرجوع عن الذنب والإنابة إلى الله بالاستغفار منه، وهي ثلاثة أركان:

الأول: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به.

والثاني: الندم على ما وقع منه من المعصية.

والثالث: النية ألا يعود إلى الذنب أبداً، والأمر في قوله في هذه الآية: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ الظاهر أنه للوجوب وهو كذلك، فالتوبة واجبة على كل مكلف، من كل ذنب اقترفه، وتأخيرها لا يجوز فتجب منه التوبة أيضاً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] قد قدمنا مراراً أن أشهر معاني «لعل» في

القرآن اثنان:

الأول: أنها على بابها من الترجى أي توبوا إلى الله، رجاء أن تفلحوا، وعلى هذا فالرجاء بالنسبة إلى العبد، أما الله - جل وعلا - فهو عالم بكل شيء، فلا يجوز في حقه إطلاق الرجاء، وعلى هذا فقوله تعالى لموسى وهارون في مخاطبة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّاهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه] وهو - جل وعلا - عالم بما سبق في الأزل من أنه لا يتذكر ولا يخشى.

معناه: فقولا له قولاً لينا رجاء منكمما بحسب عدم علمكما بالغيب أن يتذكر أو يخشى.

والثاني: هو ما قاله بعض أهل العلم بالتفسير من أن كل «لعل» في القرآن للتعليل، إلا التي في سورة الشعراء، وهي في قوله تعالى: ﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء] قالوا فهي بمعنى كأنكم، وقد قدمنا أن إطلاق «لعل» للتعليل معلوم في العربية، ومنه قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

أي كفوا الحروب، لأجل أن نكف كما تقدم.

وعلى هذا القول فالمعنى: وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون، لأجل أن

تفلحوا؛ أي تنالوا الفلاح، والفلاح في اللغة العربية: يطلق على معنيين:

الأول: الفوز بالمطلوب الأعظم، ومن هذا المعنى قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
أي فاز بالمطلوب الأعظم من رزقه الله العقل.

المعنى الثاني: هو البقاء الدائم في النعيم والسرور، ومنه قول الأضبط بن قريع،
وقيل: كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعه والمسي والصبح لا فلاح معه
يعني أنه لا بقاء لأحد في الدنيا مع تعاقب المساء والصباح عليه. وقول لبيد بن
ربيعة أيضاً:

لو أن حياً مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح
يعني لو كان أحد يدرك البقاء ولا يموت، لناله ملاعب الرماح، وهو عمه عامر بن
مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنة. وقد قال فيه الشاعر يمدحه، ويذم أخاه
الطفيل والد عامر بن الطفيل المشهور:

فررت وأسلمت ابن أمك عامراً يلعب أطراف الوشيح المززعزع

وبكل من المعنيين اللذين ذكرناهما في الفلاح فسر حديث الأذان والإقامة: حي
على الفلاح كما هو معروف. ومن تاب إلى الله كما أمره الله نال الفلاح بمعنييه، فإنه
يفوز بالمطلوب الأعظم وهو الجنة، ورضى الله تعالى، وكذلك ينال البقاء الأبدي في
النعيم والسرور. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره - جل وعلا -، لجميع
المسلمين بالتوبة مشيراً إلى أنها تؤدي إلى فلاحهم في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أوضحه
في غير هذا الموضع، وبين أن التوبة التي يمحو الله بها الذنوب، ويكفر بها السيئات،
أنها التوبة النصوح، وبين أنها يترتب عليها تكفير السيئات، ودخول الجنة، ولا سيما
عند من يقول من أهل العلم: إن «عسى» من الله واجبة، وله وجه من النظر؛ لأنه ﷺ
جواد كريم، رحيم غفور، فإذا أطمع عبده في شيء من فضله، فجوده وكرمه تعالى،
وسعة رحمته يجعل ذلك الإنسان الذي أطمعه ربه في ذلك الفضل يثق، بأنه ما أطمعه
فيه، إلا ليتفضل به عليه.

ومن الآيات التي بينت هذا المعنى المذكور هنا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
ثُوبًا إِلَى اللَّهِ ثُوبَةً نَّصُوحًا عَنِّي رَبِّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨] فقله في آية التحريم هذه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقله في آية
النور: ﴿أَيُّهُ الْوُثُوءُ﴾. وقوله في آية التحريم: ﴿عَنِّي رَبِّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كقله في آية النور: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ لأن من
كفرت عنه سيئاته وأدخل الجنة، فقد نال الفلاح بمعنييه، وقوله في آية التحريم: ﴿ثُوبًا
إِلَى اللَّهِ ثُوبَةً نَّصُوحًا﴾ موضح لقله في النور: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ونداؤه لهم بوصف

الإيمان في الآيتين فيه تهيج لهم، وحث على امتثال الأمر؛ لأن الاتصاف بصفة الإيمان بمعناه الصحيح، يقتضي المسارعة إلى امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، والرجاء المفهوم من لفظة «عسى» في آية التحريم، هو المفهوم من لفظة «لعل» في آية النور كما لا يخفى.

وهناك مسائل متعلقة بالآية الكرية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، الإنكاح هنا معناه: التزويج ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى﴾ أي زوجوهم، والأيامى: جمع أيم بفتح الهمزة، وتشديد الياء المكسورة، والأيم: هو من لا زوج له من الرجال والنساء، سواء كان قد تزوج قبل ذلك، أو لم يتزوج قط. يقال: رجل أيم، وامرأة أيم. وقد فسر الشماخ بن ضرار في شعره: الأيم الأنثى بأنها التي لم تتزوج في حالتها الراهنة، وذلك في قوله:

يقر بعيني أن أنبأ أنها وإن لم أنلها أيم لم تزوج

فقوله: لم تزوج تفسير لقوله: أنها أيم. ومن إطلاق الأيم على الذكر الذي لا زوج له قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

لله دربني على أيم منهم وناكح

ومن إطلاقه على الأنثى قول الشاعر:

أحب الأيامى إذ بثينة أيم وأحببت لما أن غنيت الغوانيا

والعرب تقول: أم الرجل يئيم، وآمت المرأة تئيم إذا صار الواحد منهما أيماً. وكذلك تقول: تأيم إذا كان أيماً.

ومثاله في الأول قول الشاعر:

لقد إمت حتى لامني كل صاحب رجاء بسلمى أن تأتئيم كما إمت

ومن الثاني قوله:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ومن الأول أيضاً قول يزيد بن الحكم الثقفي:

كل امرئ ستئيم منه العرس أو منها يئيم

وقول الآخر:

نجوت بقوف نفسك غير أني إخال بأن سييتم أو تئيم

يعني: يئتم ابنك وتيأم امرأتك.

فإذ علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى﴾ شامل للذكور والإناث. وقوله في هذه الآية ﴿مِّنكُمُ﴾ أي من المسلمين، ويفهم من دليل

الخطاب أي مفهوم المخالفة في قوله: «منكم»، أن الأيامي من غيركم؛ أي من غير المسلمين، وهم الكفار ليسوا كذلك.

وهذا المفهوم الذي فهم من هذه الآية جاء مصرحاً به في آيات أخر كقوله تعالى في أيامي الكفار الذكور: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]. وقوله في أيامي هم الإناث: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله فيهما جميعاً: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحة: ١٠].

وبهذه النصوص القرآنية الصريحة الموضحة لمفهوم هذه الآية، تعلم أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقاً، وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة، إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية المائدة، فأبانت أن المسلم يجوز له تزوج المحصنة الكتابية خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَطَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَعَطَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فقوله تعالى عاطفاً على ما يحل للمسلمين: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ صريح في إباحة تزوج المسلم للمحصنة الكتابية، والظاهر أنها الحرة العفيفة.

فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور، إلا صورة واحدة، وهي تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية كما رأيت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ دليل على لزوم تزويج الأيامي من المملوكين الصالحين، والإماء المملوكات، وظاهر هذا الأمر الوجوب لما تقرر في الأصول.

وقد بيناه مراراً من أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب، وبذلك تعلم أن الخالية من زوج إذا خطبها كفاء ورضيته، وجب على وليها تزويجها إياه، وأن ما يقوله بعض أهل العلم من المالكية ومن وافقهم من أن السيد له منع عبده وأمته من التزويج مطلقاً غير صواب لمخالفته لنص القرآن في هذه الآية الكريمة.

واعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: «وإمائكم»، بينت آية النساء أن الأمة لا تزوج للحر إلا بالشروط التي أشارت إليها الآية، فأية النساء المذكورة مخصصة بعموم آية النور هذه بالنسبة إلى الإماء وآية النساء المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيْسِتِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] فدللت آية النساء هذه على أن الحر لا يجوز له أن يتزوج المملوكة المؤمنة، إلا إذا كان غير مستطيع تزويج حرة لعدم الطول عنده وقد خاف الزنى، فله حينئذ تزوج الأمة بإذن أهلها المالكين لها، ويلزمه دفع مهرها، وهي مؤمنة عفيفة ليست من الزانيات ولا متخذات الأخدان، ومع

هذا كله فصبه عن تزويجها خير له، وإذا كان الصبر عن تزويجها مع ما ذكرنا من الاضطراب خيراً له فمع عدمه أولى بالمنع. وبما ذكرنا تعلم أن الصواب قول الجمهور من منع تزويج الحر الأمة، إلا بالشروط المذكورة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْغَنَى﴾؛ أي الزنى، إلى آخر ما ذكر في الآية خلافاً لأبي حنيفة القائل بجواز نكاحها مطلقاً، إلا إذا تزوجها على حرة.

والحاصل أن قوله تعالى في آية النور هذه: ﴿وَأَمَّا بَكُمْ﴾ خصصت عموم آية النساء كما أوضحناه آنفاً، والعلماء يقولون: إن علة منع تزويج الحر الأمة، أنها إن ولدت منه كان ولدها مملوكاً؛ لأن كل ذات رحم فولدها بمنزلتها، فيلزمه ألا يتسبب في رق أولاده ما استطاع، ووجه ظاهر كما ترى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيه وعد من الله للمتزوج الفقير من الأحرار، والعبيد بأن الله يغنيه، والله لا يخلف الميعاد، وقد وعد الله أصحاب رسول الله ﷺ الفقراء باليسر بعد ذلك العسر، وأنجز لهم ذلك، وذلكم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾؛ أي ضيق عليه رزقه، إلى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وهذا الوعد منه جل وعلا وعد به من اتقاه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾... الآية [الطلاق: ٢، ٣]. ووعد بالرزق أيضاً من يأمر أهله بالصلاة، ويصطرع عليها وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطِرِعْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا فَأَنْ تُزِفَكَ وَالْعُصْبَةُ لِلَّذِينَ﴾ [طه] وقد وعد المستغفرين بالرزق الكثير على لسان نبيه نوح في قوله تعالى عنه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ أَهْلًا لِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾... الآية [هود: ٥٢]. وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُغْنِيَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: ٣].

ومن الآيات الدالة على أن طاعة الله تعالى سبب للرزق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الأعراف: ٩٦]. ومن بركات السماء: المطر، ومن بركات الأرض: النبات مما يأكل الناس والأنعام، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ هُمُ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْفِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾... الآية [المائدة: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أي في الدنيا كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، وكما يدل عليه قوله بعده في جزائه في الآخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقد قدمنا أنه - جل وعلا - وعد بالغنى عند التزويج وعند الطلاق.

أما التزويج ففي قوله هنا: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأما الطلاق ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَفْرَقَهُ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾... الآية [النساء: ١٣٠]. والظاهر أن المتزوج الذي وعده الله بالغنى، هو الذي يريد بتزويجه الإعانة على طاعة الله بغض البصر، وحفظ الفرج كما بينه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج» الحديث، وإذا كان قصده بالتزويج طاعة الله، بغض البصر، وحفظ الفرج فالوعد بالغنى إنما هو على طاعة الله بذلك.

وقد رأيت ما ذكرنا من الآيات الدالة على وعد الله بالرزق من أطاعه، سبحانه - جل وعلا - ما أكرمه فإنه يجزي بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة، وما قاله أهل الظاهر من أن هذه الآية الكريمة تدل على أن العبد يملك ماله؛ لأن قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ﴾ يدل على وصف العبيد بالفقر والغنى، ولا يطلق الغنى إلا على من يملك المال الذي به صار غنياً، ووجهه قوي ولا ينافي أن لسيده أن ينتزع منه ذلك المال الذي هو ملك له. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَفِي الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. هذا الاستعفاف المأمور به في هذه الآية الكريمة، هو المذكور في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْبُسِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّفَى إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] ونحو ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: غفور لهن. وقيل: غفور لهن. وقيل: غفور لهن ولهن.

وأظهرها أن المعنى غفور لهن؛ لأن المكروه لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله له لعدوه بالإكراه كما يوضحه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [النحل: ١٠٦]، ويؤيده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم». ذكره عنه القرطبي، وذكره الزمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما جميعاً.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنا لا نبين القرآن بقراءة شاذة، وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهاداً بها لقراءة سبعة كما هنا، فزيادة لفظة لهن في قراءة ما ذكرنا استشهاد بقراءة شاذة لبيان بقراءة غير شاذة أن الموعود بالمغفرة والرحمة، هو المعذور بالإكراه دون المكروه؛ لأنه غير معذور في فعله القبيح، وذلك البيان المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن؛ لأن المكروه على الزنا، بخلاف المكروه عليه في أنها غير آثمة.

قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل، أو بما يخاف منه التلف، أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره، حتى يسلم من الإثم، وربما قصرت عن الحد الذي تُعذر فيه فتكون آثمة، انتهى منه.

والذي يظهر أنه لا حاجة إليه؛ لأن إسقاط المؤاخذه بالإكراه يصدق عليه أنه غفران ورحمة من الله بعبده، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل إلينا على لسان نبيه ﷺ آيات مبينات، ويدخل فيها دخولاً أولاً آيات التي بينت في هذه السورة الكريمة، وأوضح في معاني الأحكام والحدود، ودليل ما ذكر من القرآن قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَّبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ولا شك أن هذه الآيات المبينات المصرح بنزولها في هذه السورة الكريمة، داخلة في قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾... الآية.

وبذلك تعلم أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ معناه: أنزلناها إليكم لعلكم تذكرون: أي تتعظون بما فيها من الأوامر والنواهي والمواعظ، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَّبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ فقد صرح في هذه الآية الكريمة بأن من حكم إنزالها أن يتذكر الناس، ويتعظوا بما فيها، ويدل لذلك عموم قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِّيَذَكِّرَ الَّذِينَ يَكُونُوا الْآلِثِينَ﴾ [ص] وقوله تعالى: ﴿الْقَصِّ ۖ كُنْتُ أَزِيلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سُدُورِكَ حَصَرٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ معطوف على آيات: أي أنزلنا إليكم آيات؛ وأنزلنا إليكم مثلاً من الذين خلوا من قبلكم.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومثلاً» معطوف على آيات، فيحتمل أن يكون المعنى: ومثلاً من أمثال الذين من قبلكم؛ أي قصة غريبة من قصصهم كقصة يوسف، ومريم في براءتهما.

وقال الزمخشري: ومثلاً من أمثال من قبلكم؛ أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف، ومريم، يعني قصة عائشة رضي الله عنها، وما ذكرنا عن أبي حيان والزمخشري ذكره غيرهما.

وإيضاحه أن المعنى وأنزلنا إليكم مثلاً أي قصة عجيبة غريبة في هذه السورة الكريمة، وتلك القصة العجيبة من أمثال الذين خلوا من قبلكم: أي من جنس قصصهم العجيبة، وعلى هذا الذي ذكرنا فالمراد بالقصة العجيبة التي أنزلها إلينا، وعبر عنها بقوله: «ومثلاً» هي براءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك، وذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مِرَّةٌ مِّمَّا يَقُولُونَ﴾.

الآية. فقد بين في الآيات العشر المشار إليها أن أهل الإفك رموا عائشة، وأن الله برأها في كتابه مما رموها به، وعلى هذا:

فمن الآيات المبينة لبعض أمثال من قبلنا قوله تعالى في رمي امرأة العزيز يوسف بأنه أراد بها سوءاً تعني الفاحشة قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنتُمْ حَقِّي حِينَ ۖ﴾ [يوسف: ٢٥] لأنهم سجنوه بضع سنين، بدعوى أنه كان أراد الفاحشة من امرأة العزيز، وقد برأه الله من تلك الفرية التي افترت عليه بإقرار النسوة وامرأة العزيز نفسها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلَهُ مَا بِآلِ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [٥١] قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتَنَّهُ بِيُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْفٰلِغِينَ [٥١] [يوسف] وقال تعالى عن امرأة العزيز في كلامها مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فقصة يوسف هذه مثل من أمثال من قبلنا؛ لأنه رمي بإرادة الفاحشة وبرأه الله من ذلك، والمثل الذي أنزله إلينا في هذه السورة، شبيه بقصة يوسف؛ لأنه هو وعائشة كلاهما رمي بما لا يليق، وكلاهما برأه الله تعالى، وبراءة كل منهما نزل بها هذا القرآن العظيم، وإن كانت براءة يوسف وقعت قبل نزول القرآن بإقرار امرأة العزيز، والنسوة كما تقدم قريباً وبشهادة الشاهد من أهلها. ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِيسُمٌ فَقَدْ مِنْ قُبْلٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا رَمَا فَمِيسُمٌ فَقَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ ... الآية [يوسف: ٢٦ - ٢٨].

ومن الآيات المبينة لبعض أمثال الذين من قبلنا ما ذكره تعالى عن قوم مريم من أنهم رموها بالفاحشة، لما ولدت عيسى من غير زوج كقوله تعالى: ﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦] يعني فاحشة الزنى. وقوله تعالى: ﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٧] [مريم] يعنون الفاحشة، ثم بين الله تعالى براءتها مما رموها به في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الِأَمْتِ صَبِيًّا﴾ [١٩] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ءَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣] فكلام عيسى، وهو رضيع ببراءتها، يدل على أنها بريئة. وقد أوضح الله براءتها مع بيان سبب حملها بعيسى، من غير زوج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ [١١] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ فَتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئٍ وَلَنَجْعَلَ لَآيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿١٦﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١٧﴾ [مريم] إلى آخر الآيات.

ومن الآيات التي بين الله فيها براءتها قوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَأَلْقَى أَخَصَصْتَ فَرَجَهَا فَفَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَنبَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ١١﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى في التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْغَنِيِّينَ ١٢﴾ [التحريم]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فهذه الآيات التي ذكرنا التي دلت على كذب يوسف وبراءته، وكذب مريم وبراءتها من أمثال من قبلنا فهي مما يبين بعض ما دل عليه قوله: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾. والآيات التي دلت على كذب عائشة وبراءتها بينت المثل الذي أنزل إلينا وكونه من نوع أمثال من قبلنا واضح؛ لأن كلاً من عائشة، ومريم، ويوسف رمي بما لا يليق، وكل منهم برأه الله، وقصة كل منهم عجيبة؛ ولذا أطلق عليها اسم المثل في قوله: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. قال الزمخشري: وموعظة ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾، اه كلام الزمخشري، والظاهر أن وجه خصوص الموعظة بالمتقين دون غيرهم أنهم هم المتفعون بها.

ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا ١٥﴾ [النازعات] فخص الإنذار بمن ذكر في الآيات؛ لأنهم هم المنتفعون به مع أنه ﷺ في الحقيقة منذر لجميع الناس كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ١١﴾ [الفرقان]. ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ونحوها من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة عن عاصم: «مبينات» بفتح الياء المثناة التحتية المشددة بصيغة اسم المفعول. وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مبينات» بكسر الياء المشددة بصيغة اسم الفاعل، فعلى قراءة من قرأ بفتح الياء فلا إشكال في الآية؛ لأن الله بينها، وأوضحها، وعلى قراءة من قرأ «مبينات» بكسر الياء بصيغة اسم الفاعل، ففي معنى الآية وجهان معروفان:

أحدهما: أن قوله: «مبينات» اسم فاعل بين المتعدية، وعليه فالمفعول محذوف أي «مبينات الأحكام والحدود».

وثانيهما: أن قوله: «مبينات» وصف من بين اللازمة، وهو صفة مشبهة، وعليه فالمعنى آيات مبينات أي بينات واضحات، ويدل لهذا الوجه الأخير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾. وذكر الوجهين المذكورين الزمخشري، وأبو حيان وغيرهما، ومثلوا لبين اللازمة بالمثل المعروف، وهو قول العرب: قد بين الصبح لذي عينين.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: من المعروف في العربية أن بين مضعفاً، وأبان
كلتاها تأتي متعدية للمفعول ولازمة، فتعدي «بين» للمفعول مشهور واضح كقوله تعالى:
﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٨] وتعدي أبان للمفعول مشهور واضح أيضاً كقولهم:
أبان له الطريق: أي بينها له، وأوضحها، وأما ورود بين لازمة بمعنى تبين ووضح فمنه
المثل المذكور: قد بين الصبح لذي عينين. أي تبين وظهر، ومنه قول جرير:

وجوه مجاشع طليت بللؤم يبين في المقلد والعدار

فقوله: يبين بكسر الباء بمعنى: يظهر، ويتضح، وقول جرير أيضاً:

رأى الناس البصيرة فاستقاموا وبينت الأمراض من الصحاح

ومنه أيضاً قول قيس بن ذريح:

وللحب آيات تبين بالفتى شحوب وتعري من يديه الأشاجع

على الرواية المشهورة برفع شحوب.

والمعنى للحب علامات تبين بالكسر؛ أي تظهر وتتضح بالفتى، وهي شحوب
الخ، وأنشد ثعلب هذا البيت فقال: شحوباً بالنصب، وعليه فلا شاهد في البيت؛ لأن
شحوباً على هذا مفعول تبين، فهو على هذا من بين المتعدية، وأما ورود أبان لازمة
بمعنى بان وظهر، فهو كثير في كلام العرب أيضاً، ومنه قول جرير:

إذا آباؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

أي ظهرت المقرفات وتبينت، وقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي.

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدود

أي لظهر وبان من آثارهن حدود أي ورم، وقول كعب بن زهير:

قنواء في حريتها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله: مبين وصف من أبان اللازمة: أي عتق بين واضح؛ أي كرم ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأُقْدُو وَالْأَصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ

اللَّهِ... الآية. قرأ هذا الحرف جميع السبعة غير ابن عامر، وشعبة، عن عاصم:

«يسبح له» فيها بكسر الباء الموحدة المشددة، مبنياً للفاعل، وفاعله «رجال» والمعنى

واضح على هذه القراءة. وقرأ ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: «يسبح له فيها» بفتح

الباء الموحدة المشددة، مبنياً للمفعول، وعلى هذه القراءة فالفاعل المحذوف قد دلت

القراءة الأولى على أن تقديره: «رجال» فكأنه لما قال يسبح له فيها، قيل: ومن يسبح

له فيها؟ قال رجال: أي يسبح له فيها رجال.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ما لفظه، وقد التزمنا أنا لا نبين القرآن

إلا بقراءة سبعة، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها

إلى آخره، وإنما ذكرنا أن الآية يبين بعض القراءات فيها معنى بعض؛ لأن المقرر عند العلماء أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة الجمهور «يسبح» بكسر الباء وفاعله «رجال»، مبينة أن الفاعل المحذوف في قراءة ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: «يسبح» بفتح الباء مبنياً للمفعول لحذف الفاعل هو رجال كما لا يخفى، والآية على هذه القراءة حذف فيها الفاعل ليسبح، وحذف أيضاً الفعل الرفع للفاعل الذي هو رجال على حد قوله في الخلاصة:

ويرفع الفاعل فعل أضمرا كمثل زيد في جواب من قرا

ونظير ذلك من كلام العرب قول ضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد أو غيره:

لِيُبْكَ يَزِيدَ ضَارِعَ لَخْصُومَةٍ وَمَخْتَبَطَ مَا تَطِيحُ الطَّوَائِحُ

فقوله: ليبك يزيد بضم الياء المثناة التحتية، وفتح الكاف مبنياً للمفعول، فكأنه قيل: ومن يبيكه؟ فقال: يبيكه ضارع لخصومة إلخ. وقراءة ابن عامر، وشعبة هنا كقراءة ابن كثير: «كذلك يوحى» إليك بفتح الحاء مبنياً للمفعول فقوله: الله فاعل يوحى المحذوفة، ووصفه تعالى لهؤلاء الرجال الذين يسبحون له بالغدو والآصال، بكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على سبيل مدحهم، والثناء عليهم، يدل على أن تلك الصفات لا ينبغي التساهل فيها بحال؛ لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أن من أخل بها يستحق الذم الذي هو ضد الثناء، ويوضح ذلك أن الله نهى عن الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾ [المنافقون] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ٢٠﴾ ... الآية [الجمعة: ٩١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهناك مسائل متعلقة بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ٢١﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال، إلى آخر ما ذكر من صفاتهم أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهو يوم القيامة لشدة هوله، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من عظم هول ذلك اليوم، وتأثيره في القلوب والأبصار، جاء في آيات كثيرة من كتاب الله العظيم كقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ ٢٢ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ٢٣﴾ [النازعات] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ٢٤﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ٢٥﴾ ... الآية [غافر: ١٨]. ونحو ذلك من الآيات الدالة على عظم ذلك اليوم كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ٢٦ أَلَسَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ ٢٧﴾ الآية [المزمل: ١٧، ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّوهُ لِيُؤْمِنَ اللَّهُ لَا تُبْدِي مِنْكُمْ جَرَّةً

وَلَا شُكُّوا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَبُوسًا قَطْرِيرًا ﴿١٠﴾ [الإنسان] إلى غير ذلك من الآيات، وفي معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير، ذكرها القرطبي وغيره.

وأظهرها عندي أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨] وأن تقلب الأبصار هو زيغوغتها ودورانها بالنظر في جميع الجهات من شدة الخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْتَوَفُّ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾... الآية [الأحزاب: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] فالدوران والزيغوة المذكوران يعلم بهما معنى تقلب الأبصار، وإن كانا مذكورين في الخوف من المكروه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبِزَيْدِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، الظاهر أن اللام في قوله: ليجزيهم، متعلقة بقوله: يسبح: أي يسبحون له، ويخافون يوماً ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبِزَيْدِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، الظاهر أن هذه الزيادة من فضله تعالى، هي مضاعفة الحسنات، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ شَيْئًا ذَرًّا وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال بعض أهل العلم: الزيادة هنا كالزيادة في قوله: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] والأصح أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق].

وقد قدمنا قول بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ونحوها من الآيات يدل على أن المباح حسن؛ لأن قوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ صيغة تفضيل، وأحسن ما عملوا هو ما تقربوا به إلى الله من الواجبات والمستحبات، وصيغة التفضيل المذكورة تدل على أن من أعمالهم حسناً لم يجزوه وهو المباح. قال في (مراقي السعود):

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَامٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أعمال الكفار باطلة، وأنها لا شيء؛ لأنه قال في السراب الذي مثله به: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من بطلان أعمال الكفار، جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا أن عمل الكافر إذا كان على الوجه الصحيح أنه يجزى به في الدنيا كما أوضحناه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾... الآية [النحل: ٢٣].

وقد دلت آيات من كتاب الله على انتفاع الكافر بعمله في الدنيا دون الآخرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الشورى] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿٦١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَارُ وَحَكِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [هود] وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا دون الآخرة، ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أنس رضي الله عنه كما أوضحناه في الكلام على آية النحل المذكورة، وهو أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾... الآية، أي وفاء حسابه في الدنيا على هذا القول، وقد بين الله - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل أن ما دلت عليه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا، أنه مقيد بمشيئة الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ذكرناه وذكرنا الجواب عنه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وذلك في قولنا فيه: لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من أن الضمير في قوله: جاءه يدل على شيء موجود واقع عليه المجيء؛ لأن وقوع المجيء على العدم لا يعقل، ومعلوم أن الصفة الإضافية، لا تتقوم إلا بين متضائفين، فلا تدرك إلا بإدراكهما، فلا يعقل وقوع المجيء بالفعل، إلا بإدراك فاعل واقع منه المجيء، ومفعول به واقع عليه المجيء. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ يدل على عدم وجود شيء يقع عليه المجيء في قوله تعالى: ﴿جَاءَهُ﴾.

والجواب عن هذا من وجهين ذكرهما ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة.

قال: فإن قال قائل كيف قيل: ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فإن لم يكن السراب شيئاً فعلام دخلت الهاء في قوله: ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهُ﴾، قيل: إنه شيء يرى من بعيد كالضباب الذي يرى كثيفاً من بعيد، فإذا قرب منه رق وصار كالهواء، وقد يحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكفى بذكر السراب عن ذكر موضعه، انتهى منه.

والوجه الأول أظهر عندي، وعنده، بدليل قوله: وقد يحتمل أن يكون معناه إلخ. انتهى كلامنا في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وقد رأيت فيه جواب ابن جرير الطبري عن السؤال المذكور، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَقِيعَةً﴾، قيل: جمع

قاع كجار وجيرة. وقيل: القيعه والقاع بمعنى، وهو المنبسط المستوي المتسع من الأرض، وعلى هذا فالقاع واحد القيعان كجار وجيران.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١)، اعلم أن الضمير المحذوف الذي هو فاعل «علم» قال بعض أهل العلم: إنه راجع إلى الله في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾... الآية. وعلى هذا فالمعنى كل من المسيحين والمصلين قد علم الله صلاته وتسبيحه. وقال بعض أهل العلم: إن الضمير المذكور راجع إلى قوله: (كل) أي كل من المصلين والمسيحين، قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [النحل: ٩٧] كلام الأصوليين في اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حمل على التأسيس، وبيننا أمثلة متعددة لذلك من القرآن العظيم.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الأظهر على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين، أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ راجعاً إلى قوله: «كل» أي كل من المصلين قد علم صلاة نفسه، وكل من المسيحين قد علم تسبيح نفسه، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيس لا تأكيد، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله؛ أي قد علم الله صلاته يكون قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كال تكرار مع ذلك فيكون من قبيل التوكيد اللفظي.

وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد كما تقدم إيضاحه. والظاهر أن الطير تسبح وتصلي صلاة وتسبيحاً يعلمهما الله، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن الآيات الدالة على أن غير العقلاء من المخلوقات لها إدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، قوله تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْتَطِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فأثبت خشيته للحجارة، والخشية تكون بإدراك. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مِّنْ مَّصَدَرًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾... الآية [الأحزاب: ٧٢]. والإباء والإشفاق إنما يكونان بإدراك، والآيات والأحاديث واردة بذلك، وهو الحق. وظاهر الآية أن للطير صلاة وتسبيحاً، ولا مانع من الحمل على الظاهر. ونقل القرطبي عن سفيان: إن للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود، اهـ.

ومعلوم أن الصلاة في اللغة الدعاء، ومنه قول الأعشى:

تقول بنستي وقد قَرَبْتُ مرتحلاً يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

الْخَسِرِينَ ﴿٥٥﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾؛ قال الزمخشري تمكينه هو تثبيتته وتوطيده.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ سبب لرحمة الله تعالى سواء قلنا: إن لعل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حرف تعليل أو ترجح؛ لأنها إن قلنا: إنها حرف تعليل، فإقامة الصلاة وما عطف عليه سبب لرحمة الله؛ لأن العلل أسباب شرعية، وإن قلنا: إن لعل للترجي؛ أي أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة على رجائكم أن الله يرحمكم بذلك؛ لأن الله ما أطعمهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم لما هو معلوم من فضله وكرمه. وكون: «لعل» هنا للترجي إنما هو بحسب علم المخلوقين كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنهم إن أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الرسول رحمهم الله بذلك جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ٧١]. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، داخلان في عموم قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقد قدمنا مراراً أن عطف العام على الخاص وعكسه كلاهما من الإطناب المقبول إذا كان في الخاص مزية ليست في غيره من أفراد العام.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْصَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ﴾، نهى الله نبيه محمداً ﷺ أن يحسب أي يظن الذين كفروا معجزين في الأرض، ومفعول معجزين محذوف؛ أي لا يظنهم معجزين ربه، بل قادر على عذابهم لا يعجز عن فعل ما أراد بهم لأنه قادر على كل شيء.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَقِيْ إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ يَّسَاءُ وَيَرْهَمُ مِّنْ يَّسَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ... الآية [العنكبوت: ٢١، ٢٢]. وقوله في الشورى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الشورى] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَحْصَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأه ابن عامر وحزمة: «لا يحسبن» بالياء المثناة التحتية على الغيبة. وقرأه باقي السبعة: «لا تحسبن» بالتاء الفوقية. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة بفتح السين وباقي السبعة بكسرها.

والحاصل أن قراءة ابن عامر وحمزة بالياء التحتية وفتح السين، وقراءة عاصم بالتاء الفوقية وفتح السين، وقراءة الباقيين من السبعة بالتاء الفوقية وكسر السين، وعلى قراءة من قرأ بالتاء الفوقية فلا إشكال في الآية مع فتح السين وكسرها؛ لأن الخطاب بقوله: لا تحسبن للنبي ﷺ، وقوله: «الذين كفروا» هو المفعول الأول، وقوله: «معجزين» هو المفعول الثاني لتحسبن، وأما على قراءة: «ولا يحسبن» بالياء التحتية ففي الآية إشكال معروف وذكر القرطبي الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في محل رفع فاعل يحسبن، والمفعول الأول محذوف تقديره: أنفسهم. ومعجزين: مفعول ثان؛ أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض، وعزا هذا القول للزجاج، والمفعول المحذوف قد تدل عليه قراءة من قرأ بالتاء الفوقية كما لا يخفى، ومفعولا الفعل القلبي يجوز حذفهما أو حذف أحدهما إن قام عليه دليل كما أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله:

ولا تجز هنا بلا دليل سقوط مفعولين أو مفعول

ومثال حذف المفعولين معاً مع قيام الدليل عليهما قوله تعالى: ﴿أَن شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٢٢]؛ أي تزعمونهم شركائي. وقول الكميت:

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عاراً علي وتحسب

أي وتحسب حبهم عاراً علي، ومثال حذف أحد المفعولين قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

أي لا تظني غيره واقعاً.

الجواب الثاني: أن فاعل «يحسبن» النبي ﷺ؛ لأنه مذكور في قوله قبله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] أي لا يحسبن محمد ﷺ الذين كفروا معجزين. وعلى هذا فالذين كفروا مفعول أول، ومعجزين مفعول ثان. وعزا هذا القول للفراء، وأبي علي.

الجواب الثالث: أن المعنى لا يحسبن الكافر أن الذين كفروا معجزين في الأرض وعزا هذا القول لعلي بن سليمان، وهو كالذي قبله، إلا أن الفاعل في الأول النبي ﷺ، وفي الثاني الكافر. وقال الزمخشري: وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان.

والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض، حتى يطمعوا هم في مثل ذلك، وهذا معنى قوي جيد، وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] وأن يكون الأصل: لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول، وكأن الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث، اهـ.

وما ذكره النحاس وأبو حاتم وغيرهما من أن قراءة من قرأ: «لا يحسبن» بالياء التحتية خطأ أو لحن؛ كلام ساقط لا يلتفت إليه؛ لأنها قراءة سبعية ثابتة ثبوتاً لا يمكن الطعن فيه، وقرأ بها من السبعة: ابن عامر، وحمزة كما تقدم.

وأظهر الأجوبة عندي أن معجزين في الأرض هما المفعولان، فالمفعول الأول معجزين، والمفعول الثاني دل عليه قوله: في الأرض، أي لا تحسبن معجزين الله موجودين أو كائنين في الأرض، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

لأهل العلم في هذه الآية أقوال راجعة إلى قولين:

أحدهما: أن المصدر الذي هو دعاء مضاف إلى مفعوله، وهو الرسول ﷺ، وعلى هذا فالرسول مدعو.

ثانيهما: أن المصدر المذكور مضاف إلى فاعله، وهو الرسول ﷺ، وعلى هذا فالرسول داع.

وإيضاح معنى قول من قال: إن المصدر مضاف إلى مفعوله، أن المعنى لا تجعلوا دعاءكم الرسول إذا دعوتهم كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا له: يا محمد مصرّحين باسمه، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض، بل قولوا له: يا نبي الله، يا رسول الله مع خفض الصوت احتراماً له ﷺ.

وهذا القول هو الذي تشهد له آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِئَلَّيْهِمْ النَّقْوَى﴾... الآية [الحجرات: ٢، ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٤، ٥]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾... الآية [البقرة: ١٠٤]، وهذا القول في الآية مروي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. كما ذكره عنهم القرطبي، وذكره ابن كثير عن الضحاك، عن ابن عباس، وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير، ومجاهد، ومقاتل، ونقله أيضاً عن مالك عن زيد بن أسلم، ثم قال: إن هذا القول هو الظاهر واستدل له بالآيات التي ذكرنا.

وأما على القول الثاني: وهو أن المصدر مضاف إلى فاعله ففي المعنى وجهان:

الأول: ما ذكره الزمخشري في الكشاف، قال: إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي.

والوجه الثاني: هو ما ذكره ابن كثير في تفسيره قال، والقول الثاني في ذلك أن

المعنى في ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم، فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي، والله أعلم، انتهى كلام ابن كثير.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا الوجه الأخير ياباه ظاهر القرآن؛ لأن قوله تعالى: ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يدل على خلافه، ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال: لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض، فدعاء بعضهم بعضاً، ودعاء بعضهم على بعض متغايران كما لا يخفى. والظاهر أن قوله: «لا تجعلوا» من جعل التي بمعنى اعتقد، كما ذكرنا عن ابن كثير آنفاً.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الضمير في قوله: «عن أمره» راجع إلى الرسول، أو إلى الله والمعنى واحد؛ لأن الأمر من الله والرسول مبلغ عنه، والعرب تقول: خالف أمره وخالف عن أمره: وقال بعضهم: يخالفون: مضمن معنى يصدون، أي يصدون عن أمره.

وهذه الآية الكريمة قد استدلت بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأنه - جل وعلا - توعّد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر، وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، ما لم يصرف عنه صارف؛ لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [المرسلات] فإن قوله: اركعوا أمر مطلق، وذمه تعالى للذين لم يمثلوه بقوله: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ يدل على أن امتثاله واجب. وكقوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً له بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، يدل على أنه تارك واجباً. وأن امتثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق، وهو قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِلْإِدَمِ﴾ [البقرة: ٣٤] وكقوله تعالى عن موسى: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣] فسمى مخالفة الأمر معصية، وأمره المذكور مطلق، وهو قوله: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وكقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفه عاص، ولا يكون عاصياً إلا بترك واجب، أو ارتكاب محرم. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فإنه يدل على أن أمر الله، وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى، وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

واعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده: اسقني ماء مثلاً، ولم يمثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول عقابك لي ظلم؛ لأن صيغة الأمر في قولك: اسقني ماء لم توجب علي الامتثال، فقد عاقبتني على ترك ما لا يلزمي، بل يفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه، والفتنة في قوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قيل هي القتل، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: الزلازل والأهوال، وهو مروي عن عطاء: وقيل: السلطان الجائر، وهو مروي عن جعفر بن محمد. قال بعضهم: هي الطبع على القلوب بسبب شؤم مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، وقال بعض العلماء: فتنة: محنة في الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد دل استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان:

الأول: أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُقْتَنُونَ﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... الآية [البروج: ١٠]، أي أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

الثاني: وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الاختبار كقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾... الآية [الأنبياء: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالْوَّاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

والثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة كقوله تعالى: ﴿وَقَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾... الآية [الأنبياء: ٣٩]. فقلوه: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِتْنَةً﴾ لأن الدين لا يكون كله الله حتى لا يبقى شرك كما ترى، ويوضح ذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» كما لا يخفى.

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم. والأظهر عندي أن الفتنة في قوله هنا: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله؛ أي يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم، عن أمره وأمر رسوله ﷺ. وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله - جل وعلا -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الآية

[البقرة: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَيْكَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾... الآية [التوبة: ١٢٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما عليه خلقه أي من الطاعة والمعصية وغير ذلك.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية مع أنه معلوم بالضرورة من الدين، جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس] وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقوله تعالى: ﴿وَنُكَلِّ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحِيمِ﴾ [الزمر: ٧٧] الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ [٧٨] وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ [٧٩] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٨٠] [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّزُولِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود] وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات، وفي هذه الآيات وما في معناها أحسن وعد للمطيعين، وأشد وعيد للعصاة المجرمين، ولفظة «قد» في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ للتحقيق، وإتيان «قد» للتحقيق مع المضارع كثير جداً في القرآن العظيم. كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ مِنْكُمْ لِوَادًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾... الآية [الأحزاب: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ ظَلَمَ إِنَّهُ لِحَزْنِكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾... الآية [الأنعام: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾... الآية [البقرة: ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الظاهر أنه ليس بظرف، بل هو معطوف على المفعول به الذي هو ما، من قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي ويعلم يوم يرجعون إليه، وقد ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة ينبي الخلاق بكل ما عملوا؛ أي يخبرهم به ثم يجازيهم عليه.

وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من كونه - جل وعلا - يخبرهم يوم القيامة بما

عملوا جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿١٣﴾ [القيامة] وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرْوَدُنَا إِلَى بَيْتٍ كَانَ لِلَّهِ مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الكهف] والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه نزل الفرقان، وهو هذا القرآن العظيم على عبده، وهو محمد ﷺ، لأجل أن يكون للعالمين نذيراً، أي منذراً، وقد قدمنا مراراً أن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف وأن كل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، كما أوضحناه في أول سورة الأعراف.

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته ﷺ للأسود والأحمر والجن والإنس لدخول الجميع في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ ... الآية [سبا: ٢٨] أي أرسلناك للناس كافة؛ أي جميعاً، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ شِدَّةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنِ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿يَتَعَثَّرُ الْمُنِ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْهَمُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْهَمُوا لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [فأي آية ريكما تَكْذِبَانِ] [الرحمن] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [١٩] قَالُوا يَتَقَوَّمْنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [٢٠] يَتَقَوَّمْنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَعَابِئُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِلَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِهِمْ [٢١] وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ... الآية [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]. وفي معنى قوله تعالى تبارك أقوال لأهل العلم.

قال القرطبي: تبارك اختلف في معناه: فقال الفراء هو في العربية بمعنى: تقدس وهما للعظمة، وقال الزجاج، تبارك: تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير، وقيل: تبارك: تعالى، وقيل: تعالى عطاؤه؛ أي زاد وكثر. وقيل المعنى:

دام وثبت إنعامه. قال النحاس: وهذا أولها في اللغة والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ومنه برك الجمل والطير على الماء؛ أي دام وثبت، انتهى محل الغرض من كلام القرطبي. وقال أبو حيان في البحر المحيط: قال ابن عباس: تبارك لم يزل، ولا يزول. وقال الخليل: تمجد وقال الضحاك: تعظم، وحكى الأصمعي: تباركت عليكم من قول عربي صعد رابية فقال ذلك لأصحابه؛ أي تعاليت وارتفعت، ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات، وقال ابن عباس أيضاً، والحسن، والنخعي: هو من البركة، وهو التزايد في الخير من قبله. فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر، وعلى هذا يكون صفة فعل. انتهى محل الغرض من كلام أبي حيان.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري، وعليه فمعنى تبارك: تكاثرت البركات والخيرات من قبله، وذلك يستلزم عظمته وتقده من كل ما لا يليق بكماله وجلاله؛ لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفر مخلد في نار جهنم، وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [فادعوا الله مخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ] [غافر: ٦٠].

تنبيه: اعلم أن قوله «تبارك» فعل جامد لا يتصرف، فلا يأتي منه مضارع، ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك، وهو مما يختص به الله تعالى، فلا يقال لغيره تبارك خلافاً لما تقدم عن الأصمعي، وإسناده تبارك إلى قوله: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ يدل على أن إنزاله الفرقان على عبده من أعظم البركات والخيرات والنعمة التي أنعم بها على خلقه، كما أوضحناه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية [الكهف: ١]. وذكرنا الآيات الدالة على ذلك، وإطلاق العرب تبارك مسنداً إلى الله تعالى معروف في كلامهم ومنه قول الطرماح:

تباركت لا معطٍ لشيء منعه وليس لما أعطيت يا رب مانع

وقول الآخر:

فليست عشيات الحمى برواجع
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى
لنا أبداً ما أورك السلم النضر
تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وقد قدمنا الشاهد الأخير في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقوله: «الفرقان» يعني هذا القرآن العظيم، وهو مصدر زيدت فيه الألف والنون كالكفران والطغيان والرجحان، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل؛ لأن معنى كونه فرقاناً أنه فارق بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي، وقال بعض أهل العلم: المصدر الذي هو الفرقان بمعنى اسم المفعول؛ لأنه نزل مفرقاً، ولم ينزل جملة.

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَقَوْمًا فَرَّقْنَاهُ لِنَقَرَامُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ﴾... الآية [الإسراء: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة: نزل بالتضعيف يدل على كثرة نزوله أنجماً منجماً. قال بعض أهل العلم: ويدل على ذلك قوله في أول سورة آل عمران: ﴿نُزِّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾... الآية [آل عمران]. قالوا: عبر في نزول القرآن بنزل بالتضعيف لكثرة نزوله، وأما التوراة والإنجيل، فقد عبر في نزولهما بأنزل التي لا تدل على تكثير؛ لأنهما نزلا جملة في وقت واحد، وبعض الآيات لم يعتبر فيها كثرة نزول القرآن كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية [الكهف: ١]، وقوله في هذه الآية «على عبده». قال فيه بعض العلماء: ذكره صفة العبودية مع تنزيل الفرقان، يدل على أن العبودية لله هي أشرف الصفات، وقد بينا ذلك في أول سورة بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾. قوله: ﴿الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] يدل من الذي في قوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ﴾، وقال بعضهم: هو مرفوع على المدح، وقال بعضهم: هو منصوب على المدح. وقد أثنى على نفسه في هذه الآية الكريمة بخمسة أمور، هي أدلة قاطعة على عظمته، واستحقاقه وحده لإخلاص العبادة له:

الأول منها: أنه هو الذي له ملك السموات والأرض.

والثاني: أنه لم يتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثالث: أنه لا شريك له في ملكه.

والرابع: أنه هو خالق كل شيء.

والخامس: أنه قدر كل شيء خلقه تقديراً، وهذه الأمور الخمسة المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في آيات أخر.

أما الأول منها: وهو أنه له ملك السموات والأرض، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [المائدة: ٤٠]. وقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴿٢٤﴾ [النور]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ... الآية [فاطر: ١٣]. وجميع الآيات التي ذكر فيها جل وعلا أن له الملك، فالملك فيها شامل لملك السموات والأرض، وما بينهما وغير ذلك. كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ ... الآية [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ﴾ ... الآية [الملك: ١]. وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ... الآية [الأنعام: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة] والآيات الدالة على أن له ملك كل شيء كثيرة جداً معلومة.

وأما الأمر الثاني: وهو كونه تعالى لم يتخذ ولداً، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن] وقوله تعالى: ﴿يَبْقَى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَمْ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةً﴾ ... الآية [الأنعام: ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٢٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجَزَّ لُجْجَالٌ هَذَا ﴿٢٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٣١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٣٢﴾ [مریم] وقوله تعالى: ﴿وَنَذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [١] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٢﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَقَكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا أَنْتُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة وقد قدمنا ذلك في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة الكهف وغيرها.

وأما الأمر الثالث، وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك، فقد جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ الآية [الإسراء: ١١١]، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ] وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأن قوله: ﴿الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ يدل على تفرده بالملك، والقهر، واستحقاق إخلاص العبادة، كما لا يخفى، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الرابع وهو أنه تعالى خلق كل شيء، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَبْقَى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَمْ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةً وَمَلَائِكَةُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١١١] ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١١٢﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآيٌ تُؤْفَكُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾
[غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الخامس وهو أنه قَدَّر كل شيء خلقه تقديرًا، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ﴿٢١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعلى] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] إلى غير ذلك من الآيات، وقال ابن عطية: تقدير الأشياء هو حدها بالأمكانة، والأزمان، والمقادير، والمصلحة، والإتقان، انتهى بواسطة نقل أبي حيان في البحر.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: الخلق في اللغة العربية، معناه التقدير ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القنوم يخلق ثم لا يفري

قال بعضهم: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قال: أي أحسن المقدرين، وعلى هذا فيكون معنى الآية وخلق كل شيء؛ أي قدر كل شيء فقدره تقديرًا، وهذا تكرار كما ترى، وقد أجاب الزمخشري عن هذا السؤال، وذكر أبو حيان جوابه في البحر ولم يتعبه.

والجواب المذكور هو قوله: فإن قلت في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره.

قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثًا مراعي فيه التقدير والتسوية فقدره وهياه لما يصلح له.

مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الحيلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه، أو سمى إحداث الله خلقاً؛ لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير غير متفاوت، فإذا قيل: خلق الله كذا، فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتاً، وقيل: فجعل له غاية ومتهى، ومعناه: فقدره للبقاء إلى أمد معلوم. انتهى كلام صاحب الكشف وبعضه له اتجاه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شَوْراً ﴿٣﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه، متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع، أن عبادتها مع الله، لا وجه لها بحال، بل هي ظلم متناه، وجهل عظيم، وشرك يخلد به صاحبه في نار جهنم، وهذا

وأما الأمر الثالث منها وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فقد جاء مبيناً أيضاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُظَلَمُونَ﴾ [١٦١] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٦٢﴾ ومن لا ينصر نفسه فهو لا يملك لها ضرراً ولا نفعاً، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ﴾ [١٩٣] إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَفْنَالٍ كُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٣ - ١٩٥].

وفيها الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّكَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ ... الآية [الحج: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الرابع والخامس والسادس، من الأمور المذكورة أعني كونهم لا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً. فقد جاءت أيضاً مبينة في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤].

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور في الآية، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم، والموت المعبر عنه بقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، والنشور المعبر عنه بقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، وبين أنهم لا يملكون نشوراً بقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشوراً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ... الآية [يونس: ٣٤]، وبين أنه وحده الذي بيده الموت والحياة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْتُمْ مُوجِلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ ... الآية [المنافقون: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ ... الآية [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِ﴾ ... الآية [غافر: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وهذا الذي ذكرنا من بيان هذه الآيات بعضها لبعض معلوم بالضرورة من الدين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أظهر الأقوال فيه أن المعنى لا يملكون لأنفسهم دفع ضرر ولا جلب نفع، كما قاله القرطبي

وغيره. وغاية ما في هذا التفسير حذف مضاف دل المقام عليه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب. وقد أشار إليه في الخلاصة بقوله:

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفاً

وقيل المعنى: لا يقدرون أن يضرروا أنفسهم، أو ينفعوها بشيء. والأول هو الأظهر؛ أي وإذا عجزوا عن دفع ضرر عن أنفسهم وجلب نفع لها فهم عن الموت والحياة والنشور أعجز؛ لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله - جل وعلا -.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُشْوَكَ﴾ اعلم أن النشور يطلق في العربية إطلاقين:

الأول: أن يكون مصدر نشر الثلاثي المتعدي، تقول: نشر الله الميت ينشره نشرًا ونشورًا.

والثاني: أن يكون مصدر نشر الميت ينشر نشورًا لازماً، والميت فاعل نشر.

والحاصل أن في المادة ثلاث لغات؛ الأولى: أنشره رباعياً بالهمزة ينشره بضم الياء إنشاراً. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَشْرُهُ﴾ [عبس] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِفَتِهِمْ كَيْفَ نُثَرِّهُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بضم النون وبالراء المهملة في قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو. وهو مضارع أنشره. والثانية نشر الله الميت ينشره بصيغة الثلاثي المتعدي، والمصدر في هذه اللغة النشر والنشور، ومنه قوله هنا: ﴿وَلَا تُشْوَكَ﴾: أي لا يملكون أن ينشروا أحداً بفتح الياء، وضم الشين، والثالثة: نشر الميت بصيغة الثلاثي اللازم، ومعنى أنشره، ونشره متعدياً أحياء بعد الموت، ومعنى نشر الميت لازماً حيي الميت وعاش بعد موته، وإطلاق النشر والنشور على الإحياء بعد الموت، وإطلاق النشور على الحياة بعد الموت معروف في كلام العرب، ومن إطلاقهم نشر الميت لازماً فهو ناشر؛ أي عاش بعد الموت قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

ومن إطلاق النشور بمعنى الإحياء بعد الموت، مصدر الثلاثي المتعدي، قوله هنا: ﴿وَلَا تُشْوَكَ﴾: أي بعثاً بعد الموت، ومن إطلاقهم النشور بمعنى الحياة بعد الموت مصدر الثلاثي اللازم قول الآخر:

إذا قبلتها كرعت بفيها كروع العسجدية في الغدير
فياخذني العناق ويرد فيها بموت في عظامي أو فتور
فنجيا تارة ونموت أخرى ونخلط ما نموت بالنشور

فقد جعل الغيوبة من شدة اللذة موتاً، والإفاقة منها نشوراً، أي حياة بعد الموت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ حذف فيه أحد المفعولين؛ أي اتخذوا من دونه أصناماً آلهة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَدْرَأَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]. والآلهة جمع إله، فهو فعال مجموع على أفعله؛ لأن الألف التي بعد الهمزة مبدلة من همزة ساكنة هي فاء الكلمة كما قال في الخلاصة:

ومداً ابدل ثاني الهمزين من كلمة إن يسكن كآثر وأتمن

والآله المعبود فهو فعال بمعنى مفعول، وإتيان الفاعل بمعنى المفعول جاءت منه أمثلة في اللغة العربية كالآله بمعنى المألوه؛ أي المعبود، والكتاب بمعنى المكتوب، واللباس بمعنى: الملبوس، والإمام بمعنى المؤتم به. ومعلوم أن المعبود بحق واحد وغيره من المعبودات أسماء سماها الكفار، ما أنزل الله بها من سلطان ﴿وَمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ إِفْكِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين كفروا وكذبوا النبي ﷺ فقالوا في هذا القرآن العظيم، الذي أوحاه الله إليه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ إِفْكِهِ﴾: أي ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﷺ، وأعانه عليه على الإفك الذي افتراه قوم آخرون، قيل: اليهود، وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي، وأبو فكيهة الرومي، قال ذلك النضر بن الحراث العبدري.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار كذبوه وادعوا عليه أن القرآن كذب اختلقه، وأنه أعانه على ذلك قوم آخرون، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَنَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٣] وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنهم افتروا على النبي ﷺ أنه أعانه على افتراء القرآن قوم آخرون جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٢] أي يرويه محمد ﷺ عن غيره ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسَتْ﴾ [الأنعام: ١٠٥] كما تقدم إيضاحه في الأنعام، وقد كذبهم الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة فيما افتروا عليه من البهتان بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال الزمخشري ظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من الأعجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور هو أن بهتوه بنسبة ما

هو برئ منه إليه انتهى، وتكذيبه - جل وعلا - لهم في هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَكَبْتُ مُبِيتٌ﴾ [النحل: ١٠٣] كما تقدم إيضاحه في سورة النحل، وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [٢٤] إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٥٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ﴿٥٧﴾ ... الآية [المدثر]؛ لأن قوله: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ﴾ [٥٦] [المدثر] بعد ذكر افتراءه على القرآن العظيم يدل على عظم افتراءه وأنه سيصلى بسببه عذاب سقر، أعادنا الله وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل.

واعلم أن العرب تستعمل جاء وأتى بمعنى فعل، فقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا﴾ أي فعلوه، وقيل: بتقدير الباء؛ أي جاءوا بظلم، ومن إتيان أتى بمعنى فعل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ ... الآية [آل عمران: ١٨٨]؛ أي بما فعلوه. وقول زهير بن أبي سلمى:

فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل، والعرب تقول: أفكه بمعنى قلبه، ومنه قوله تعالى في قوم لوط ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَمْوِي﴾ [النجم: ٥٢] وإنما قيل لها مؤنفكات؛ لأن الملك أفكها أي قلبها كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿٦﴾.

ذكر - جل وعلا - في الأولى من هاتين الآيتين أن الكفار قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين أي مما كتبه وسطره الأولون، كأحاديث رستم واسفنديار، وأن النبي ﷺ جمعه، وأخذه من تلك الأساطير، وأنه اكتتب تلك الأساطير، قال الزمخشري: أي كتبها لنفسه وأخذها، كما تقول: استكتب الماء واصطبه إذا سكبها وصبه لنفسه وأخذها، وقوله: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي تلقى إليه، وتقرأ عليه عند إرادته كتابتها ليكتبها، والإملاء إلقاء الكلام على الكاتب ليكتبه، والهمزة مبدلة من اللام تخفيفاً، والأصل في الإملاء الإملا باللام ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾. الآية [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] البكرة: أول النهار، والأصيل: آخره.

وما ذكر - جل وعلا - في هذه الآية من أن الكفار قالوا: إن القرآن أساطير الأولين، وأن النبي ﷺ تعلمه من غيره وكتبه، جاء موضحاً في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ إِيْتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقد ذكرنا آنفاً الآيات الدالة على أنهم افتروا عليه أنه تعلم القرآن من غيره، وأوضحنا تعنتهم، وكذبهم في ذلك في سورة النحل، ودلالة الآيات على ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَسَأَتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْبَتِي﴾... الآية [النحل: ١٠٣]؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

ومن الآية الدالة على كذبهم في قوله: ﴿اَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلِكُ عَلَيْهِ﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَأْتَ أَلْمُطْلُونَ﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾؛ إلى قوله تعالى ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٧ - ١٥٨]، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وما ذكر - جل وعلا - في الآية الأخيرة من قوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية. جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [النحل: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾... الآية [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتُزِيلَ رُبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩٦] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ [٩٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [٩٤] لِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ [٩٥] [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لَيَجْعَلَنَّ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [٧] فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ [٨] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [٩] [القيامة] وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [٢٨] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ [٢٩] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [٣٠] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ [٤١] وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ [٤٢] نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٣] [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأَعْلَى﴾ [١] [طه] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي ومن يعلم السر فلا شك أنه يعلم الجهر.

ومن الآيات الدالة على ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه تعالى يعلم السر في السماوات والأرض قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه] وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٢٦] [الملك] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ﴾ [٧٨] [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٨٠] [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [١] [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٥٠] [النمل]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غُفُورًا رَحِيمًا﴾، قال فيه ابن كثير: هو دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهو لا مع كذبهم، وافتراءهم، وفجورهم، وبهتانهم، وكفرهم، وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه

إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا وَلَمْ يَأْمِنُوا قُلُوبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجودا قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة، انتهى كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى - وما ذكره واضح.

والآيات الدالة على مثله كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾ الآية [طه: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار قالوا في نبينا ﷺ ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾، يعنون ما لهذا الذي يدعي أنه رسول، وذلك كقول فرعون في موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] أي ماله يأكل الطعام كما نأكله، فهو محتاج إلى الأكل كاحتياجنا إليه، ويمشي في الأسواق؛ أي لاحتياجه إلى البيع والشراء، ليحصل بذلك قوته، يعنون أنه لو كان رسولاً من عند الله، لكان ملكاً من الملائكة لا يحتاج إلى الطعام، ولا إلى المشي في الأسواق، وادعاء الكفار أن الذي يأكل كما يأكل الناس، ويحتاج إلى المشي في الأسواق لقضاء حاجته منها، لا يمكن أن يكون رسولاً. وأن الله لا يرسل إلّا ملكاً لا يحتاج للطعام، ولا للمشي في الأسواق، جاء موضحاً في آيات كثيرة، وجاء في آيات أيضاً تكذيب الكفار في دعواهم هذه الباطلة.

فمن الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذكر عنهم في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتْرِفْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا...﴾ الآية [المؤمنون: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِمَّا وَحَدَّا نَجِيعٌ﴾... الآية [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفُّوا وَقُولُوا اسْتَغْنَى اللَّهُ﴾... الآية [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

ومن الآيات التي كذبهم الله بها في دعواهم هذه الباطلة، وبين فيها أن الرسل يأكلون ويمشون في الأسواق ويتزوجون ويولد لهم، وأنهم من جملة البشر، إلا أنه فضلهم بوحية ورسالته، وأنه لو أرسل للبشر ملكاً لجعله رجلاً، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل عليهم ملكاً رسولاً؛ لأن المرسل من جنس

المرسل إليهم، قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ طَعَامَهُمْ وَيَسْتَوُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ أي ولم نجعلهم ملائكة؛ لأن كونهم رجالاً وكونهم من أهل القرى، صريح في أنهم ليسوا ملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار: إنه بشر، وإنه رسول؛ وذلك لأن البشرية لا تنافي الرسالة في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَاسْتَعِذُّوا بِاللَّهِ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [فصلت: ١٠٦] وبين - جل وعلا - أن الرسل قالوا مثل ذلك في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَنْشَأُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُو مَطْمَئِينَ لَازَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ جمع سوق وهي مؤنثة، وقد تذكر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ٧ أو يُلْقِ إِلَيْنَا كَرًّا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

اعلم أولاً أن «لولا» في هذه الآية الكريمة حرف تحضيض على التحقيق، والتحضيض: هو الطلب بحث، وشدة، وإليه أشار في الخلاصة بقوله:

وبهما التحضيض مزوها لا ألا وأوليتها الفعل

وبه تعلم أن المضارع في قوله: ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ منصوب بأن مستتره وجوباً؛ لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وبعد فاجواب نفي أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

ونظير هذا من النصب بأن المستتر بعد الفاء التي هي جواب التحضيض، قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّي لَوْلَا آَخَرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، لأن قوله: ﴿لَوْلَا آَخَرْتَنِي﴾ طلب منه للتأخير بحث وشدة، كما دل عليه حرف التحضيض الذي هو «لولا»، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

لولا تعوجين يا سلمى على دنف فتخمدني نار وجد كاد يفنيه

فقوله تعالى في الآية الكريمة: «فأصدق» بالنصب، وقول الشاعر: فتخمدني! منصوب أيضاً بحذف النون؛ لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض.

وقال الزمخشري في تفسير آية الفرقان هذه: يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق كما نتردد، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك، حتى يتساعدا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا أيضاً فقالوا إن لم يكن مرفوداً بذلك، فليكن مرفوداً بكنز يلقي إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فاقنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه، ويرتزق كالدهاقين أو يأكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في دنياهم، ومعاشهم، انتهى منه. وكل تلك الاقتراحات لشدة تعنتهم، وعنادهم. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي «يأكل منها» بالمشاة التحتية، وقرأ حمزة والكسائي: «جنة نأكل منها» بالنون، وهذه القراءة هي مراد الزمخشري بقوله: أو يأكلون هم من ذلك البستان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الظالمين وهم الكفار قالوا للذين اتبعوا النبي ﷺ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ يعنون أنه أثر فيه السحر فاختلط عقله فالتبس عليه أمره، وقال مجاهد: مسحوراً أي مخدوعاً كقوله فأنى تسحرون: أي من أين تخدعون، وقال بعضهم: مسحوراً؛ أي له سحر أي رثة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو بشر مثلكم، وليس بملك، وقد قدمنا كلام أهل العلم في قوله: «مسحوراً» بشواهد العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] ولما ذكر الله هذا الذي قاله الكفار في نبيه ﷺ، من الإفك والبهتان خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾، وما قاله الكفار في هذه الآية أعني قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وما قاله الله لنبيه في ذلك، وهو قوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ الآية. جاء كله مصرحاً به في سورة بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْمُرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الإسراء].

قال الزمخشري: ضربوا لك الأمثال: قالوا فيك تلك الأقوال، واقترحوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك، وإلقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه، أو فضلوا عن الحق، فلا يجدون طريقاً إليه، اهـ.

والأظهر عندي في معنى الآية ما قاله غير واحد من أن معنى: ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أنهم تارة يقولون إنك ساحر، وتارة مسحور، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وتارة كاهن، وتارة كذاب، ومن ذلك ما ذكر الله عنهم من قوله هنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾... الآية، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِئُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن

تَنبِئُوكَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْجُورًا ﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَضْلُوا﴾ أي عن طريق الحق؛ لأن الأقوال التي قالوها، والأمثال التي ضربوها كلها كذب واقتراء، وكفر مخلد في نار جهنم، فالذين قالوها هم أضل الضالين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه أقوال كثيرة متقاربة.

وأظهرها أن معنى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي طريقاً إلى الحق والصواب، ونفى الاستطاعة المذكور هنا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف] وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وقد قدمنا أيضاً معنى الظلم والضلال وما فيهما من الإطلاقات في اللغة مع الشواهد العربية في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١٢﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار كذبوا بالساعة؛ أي أنكروا القيامة من أصلها لإنكارهم البعث بعد الموت والجزاء، وأنه - جل وعلا - اعتد أي هيا وأعد لمن كذب بالساعة، أي أنكروا يوم القيامة سعيراً؛ أي ناراً شديدة الحر يعذبه بها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم، كما سترى الآيات الدالة على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما تكذيبهم بالساعة، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير؛ جاءا موضحين في آيات أخر، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث، والجزاء بعد الموت، فقد جاء في آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُعْجِ أَلْعَظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار، فقد جاء في آيات كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ ﴿٢١﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٤] فقوله: ﴿وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾... الآية، يدل على أن قولهم: ما ندري ما الساعة هو سبب كون النار مأواهم، وقوله بعده: ﴿ذِكْرُكُمْ أَنتُمْ كَذَّبْتُمْ أَنَّ اللَّهَ هُزُؤٌ﴾ [الجاثية: ٣٥] لا ينافي ذلك؛ لأن من اتخاذهم آيات الله هزواً تكذيبهم بالساعة، وإنكارهم البعث كما لا يخفى.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَنَعْلَمُ بِحَدِيثِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْدَلُ فِي أَغْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٥﴾ [الرعد] فقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من سورة الرعد أن إنكارهم البعث،

الذي عبروا عنه باستفهام الإنكار في قوله تعالى عنهم: ﴿أَوَدَّا كُفَّا تَرَبَّا لَوْنَا لَفِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾ جامع بين أمرين:

الأول منهما أنه عجب من العجب لكثرة البراهين القطعية الواضحة الدالة على ما أنكروه.

والثاني منهما وهو محل الشاهد من الآية أن إنكارهم البعث المذكور كفر مستوجب للنار وأغلالها والخلود فيها، وذلك في قوله تعالى مشيراً إلى الذين أنكروا البعث ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥] ومعلوم أن إنكار البعث إنكار للساعة، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه] أي لا يصدنك من لا يؤمن بالساعة عن الإيمان بها، فتردى؛ أي تهلك لعدم إيمانك بها، والردى الهلاك، وهو هنا عذاب النار بسبب التكذيب بالساعة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل] وقوله تعالى في آية طه هذه: «فتردى»، يدل دلالة واضحة على أنه إن صده من لا يؤمن بالساعة عن التصديق بها أن ذلك يكون سبباً لرداه؛ أي هلاكه بعذاب النار كما لا يخفى، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم] فأية الروم هذه، تدل على أن الذين كذبوا بقاء الآخرة وهم الذين كذبوا بالساعة معدودون مع الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وأنهم في العذاب محضرون؛ وهو عذاب النار. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أظهر الأقوال فيه عندي أنه متصل بما يليه، وأن «بل» فيه للإضراب الانتقالي، وقد أوضحنا معنى السعير مع بعض الشواهد العربية في أول سورة الحج، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [٧].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة، إذا رأت الكفار من مكان بعيد؛ أي في عرصات المحشر اشتد غيظها على من كفر بربها، وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها، وسمعوا زفيرها.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بين بعضه في سورة الملك، فأوضح فيها شدة غيظها على من كفر بربها، وأنهم يسمعون لها أيضاً شهيقاً مع الزفير الذي ذكره في آية الفرقان هذه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [٧] تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: ٧ - ٨] أي يكاد بعضها يتفصل عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله تعالى.

وللعلماء أقوال في معنى الزفير والشهيق، وأقربها أنهما يمثلهما معاً صوت الحمار في نهيقه، فأوله زفير، وآخره الذي يردده في صدره شهيق.

والأظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾؛ أي سمعوا غليانها من شدة غيظها، ولما كان سبب الغليان التغيظ أطلقه عليه، وذلك أسلوب عربي معروف. وقال بعض أهل العلم: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾؛ أي أدركوه، والإدراك يشمل الرؤية والسمع، وعلى هذا فالسمع مضمن معنى الإدراك، وما ذكرنا أظهر.

وقال القرطبي: قيل المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم، ثم ذكر في آخر كلامه أن هذا القول هو الأصح.

مسألة: أعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة، كما صرح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدل على حدة بصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق] والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن الله - جل وعلا - صرح في هذه الآية، أنها تراهم وأن لها تغيظاً على الكفار، وأنها تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

وأعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم، من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاض. وأن ذلك كله من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها؛ كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا.

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة، لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، كما هو معلوم في محله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: إن القول بأن النار تراهم هو الأصح، ثم قال: لما روي مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله أو لها عينان؟ قال: «أو ما سمعتم الله - عز وجل - يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: وكلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلنقطه». وفي رواية: «يخرج عنق من النار فيلنقط الكفار لقط الطائر حب السمسم» ذكره رزين في كتابه، وصححه ابن العربي في قبه، وقال: أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة، كما يفصل الطائر حب السمسم عن التربة، وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق فيقول: إني وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين» وفي الباب عن أبي سعيد. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. انتهى محل الغرض من كلام القرطبي.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطبراني، وابن مردويه من طريق مكحول، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم». قالوا يا رسول الله: وهل لجهنم من عين؟ قال: «نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فهل تراهمن إلا بعينين» وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق خالد بن دريك، عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يقل علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله وهل لها من عينين؟ قال: «نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى آخر كلامه»، وفيه شدة هول النار، وأنها تزفر زفرة يخاف منها جميع الخلائق.

نرجو الله - جل وعلا - أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۖ﴾ [٣٦] لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۖ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار إذا ألقوا أي طرحوا في مكان ضيق من النار، في حال كونهم مقرنين، دعوا هنالك: أي في ذلك المكان الضيق ثبوراً، فيقال لهم: لا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً، فقوله: مكاناً منصوب على الظرف، كما قال أبو حيان في البحر المحيط.

وما ذكره هنا من أنهم يلقون في مكان ضيق من النار، جاء مذكوراً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ﴾ [٨] فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۖ﴾ [٩] [الهمزة] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ ۖ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ ۖ﴾ [١٠] ومعنى موصدة من الموصعين بهمز، وبغير همز: مطبقة أبوابها، مغلقة عليهم كما أوضحناه بشواهد العربية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ فِي سَلَسِلٍ ذُرَاقِهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] ومن كان في مكان مطبق مغلق عليه، فهو في مكان ضيق، والعياذ بالله، وقد ذكر أن الواحد منهم يجعل في محله من النار بشدة كما يدق التودد في الحائط، وعن ابن مسعود أن جهنم تضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح. والزج بالضم: الحديد التي في أسفل الرمح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «مقرنين»؛ أي في الأصفاد بدليل قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ﴾ [إبراهيم] والأصفاد: القيود، والأظهر أن معنى مقرنين أن الكفار يقرن بعضهم إلى بعض في الأصفاد والسلاسل، وقال بعض أهل العلم: كل كافر يقرن هو وشیطانه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّسَّ الْفَرِيقُ ۖ﴾ [الزخرف].

وهذا أظهر من قول من قال: مقرنين مكتفين، ومن قول من قال: مقرنين؛ أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، والثبور: الهلاك والويل والخسران.

وقال ابن كثير: والأظهر أن الثبور يجمع الخسار والهلاك والويل والدمار. كما قال موسى لفرعون: ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً، قال عبد الله بن الزبير السهمي:

إذا جارى الشيطان في سنن الغـى ومن مال ميله مثبور. اهـ.
وقال الجوهري في صحاحه: والثبور: الهلاك والخسران أيضاً، قال الكميت:
ورأت قضاة في الأيا من رأي مثبور وثابر
أي مخسور وخاسر يعني في انتسابها لليمن. اهـ منه.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ معنى دعائهم الثبور هو قولهم: واثبورا، يعنون: يا ويل، ويا هلاك، تعال، فهذا حينك وزمانك.

وقال الزمخشري: ومعنى ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور، لشدة وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، فلا غاية لهلاكهم، اهـ.

تنبيه: اعلم أنه تعالى في هذه الآية الكريمة قال: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وكذلك في الأنعام في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال في هود: ﴿وَصَافِقٌ يَوْمَ صَدْرِكَ﴾ [هود: ١٢] فما وجه التعبير في سورة هود، بقوله: «ضائق» على وزن فاعل، وفي الفرقان والأنعام بقوله: «ضيقاً» على وزن فيعل، مع أنه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيّق، فهو ضيق.

والجواب عن هذا هو أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً، كما أشار له ابن مالك في لاميته بقوله:

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ حدوث نحو غداذاً فارح جدلاً
وإن لم يقصد به الحدوث، والتجدد بقي على أصله.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ نَارِكُ بَقْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقٌ يَوْمَ صَدْرِكَ﴾ [هود: ١٢] أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر، ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كُزًّا أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] ولما كان كذلك، قيل فيه: «ضائق» بصيغة اسم الفاعل، أما قوله: «ضيقاً» في الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث، ولذلك بقي على أصله.

ومن أمثلة إتيان الفاعل على فاعل إن قصد به الحدوث قوله تعالى: ﴿وَصَافِقٌ يَوْمَ صَدْرِكَ﴾ [هود: ١٢] وقول قيس بن الخطيم الأنصاري:

أبلغ خداشاً أنني ميت كل امرئ ذي حسب مائت

فلما أراد حدوث الموت قال: مائت بوزن فاعل، وأصله ميت على وزن فيعل.
ومن أمثلته في فعل بفتح فكسر قول أبي عمرو أشجع بن عمرو السلمي يرثي
قتيبة بن مسلم:

فما أنا من رزء وإن جل جازع ولا بسرور بعد موتك فارح
فلما نفى أن يحدث له في المستقبل فرح ولا جزع قال جازع وفارح، والأصل:
جزع وفرح.

ومثاله في فعيل قول لبيد:

حسبت التقى والجود خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً

فلما أراد حدوث الثقل قال: ثاقلاً والأصل ثقل، وقول السمهري العكلي:

بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس باد شحوبها

فلما أراد حدوث السمن قال: فسامن والأصل سمين.

واعلم أن قراءة ابن كثير «ضيقة» بسكون الياء في الموضعين راجعة في المعنى إلى
قراءة الجمهور بتشديد الياء؛ لأن إسكان الياء تخفيف كهين ولين، في هين ولين.
والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً
وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً ۝﴾.

التحقيق أن الإشارة في قوله: «أذلك» راجعة إلى النار، وما يلقاه الكفار فيها من
أنواع العذاب كما ذكره - جل وعلا - بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إلى
قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، وغير هذا من الأقوال لا يعول عليه، كقول من
قال: إن الإشارة راجعة إلى الكنز والجنة في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ
تَكُونُ لَهُمُ جَنَّةٌ﴾ الآية، وكقول من قال: إنها راجعة إلى الجنات والقصور المعلقة على
المشيئة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝﴾ والتحقيق - إن شاء الله - أنه لما ذكر شدة عذاب النار
وظاعته قال: أذلك العذاب خير أم جنة الخلد، الآية.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء أيضاً في غير هذا الموضع،
كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ
الْعَامِلُونَ ۝ أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّمَا شَجَرَةُ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤَانٌ شَاطِئِينَ ۝ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ مِنْهَا
الْبُطُونَ ۝ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٠ - ٧٠] وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُثِقَلُ فِي النَّارِ
خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ... الآية [فصلت: ٤٠].

وفي هذه الآيات وأمثالها في القرآن إشكال معروف، وهو أن يقال: لفظة «خير» في الآيات المذكورة صيغة تفضيل كما قال في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

كما قدمناه موضحاً في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ... الآية [النحل: ٣٠].

والمعروف في علم العربية أن صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل، إلا أن المفضل أكثر فيه وأفضل من المفضل عليه، ومعلوم أن المفضل عليه في الآيات المذكورة الذي هو عذاب النار لا خير فيه البتة، وإذن فصيغة التفضيل فيها إشكال، والجواب عن هذا الإشكال من وجهين:

الأول: أن صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن، وفي اللغة مراداً بها مطلق الاتصاف، لا تفضيل شيء على شيء. وقدمناه مراراً وأكثرنا من شواهد العربية في سورة النور وغيرها.

الثاني: أن من أساليب اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل، يريدون بها خصوص ذلك الشيء بالفضل، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أتهجنوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وكقول العرب: الشقاء أحب إليك، أم السعادة؟ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ آلَسِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ... الآية [يوسف: ٢٣].

قال أبو حيان في البحر المحيط في قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ... الآية، و«خير» هنا ليست تدل على الأفضلية، بل هي على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة كقوله:

فشركما لخيركما الفداء

وكقول العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة، وكقوله: ﴿أَلَسِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٢٣] وهذا الاستفهام على سبيل التوقيف والتوبيخ. اه الغرض من كلام أبي حيان.

وعلى كل حال فعذاب النار شر محض لا يخالطه خير البتة كما لا يخفى، والوجهان المذكوران في الجواب متقاربان.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ العائد محذوف؛ أي وعدها المتقون، والآية تدل على أن الوعد الصادق بالجنة، يحصل بسبب التقوى.

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله

تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَمْجِزُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١] وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ العائد أيضاً محذوف كالذي قبله؛ أي ما يشاءونه، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير، كما قال في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلي في عائد متصل إن انتصب
بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وهذه الآية الكريمة، تدل على أن أهل الجنة يجدون كل ما يشاءونه من أنواع النعيم.

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٣١] والآيات المذكورة تدل على أن حصول كل ما يشاءه الإنسان لا يكون إلا في الجنة، وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً﴾ المصير مكان الصيرورة، وقد مدح الله جزاءهم ومحله كقوله تعالى: ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] لأن حسن المكان وجودته من أنواع النعيم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ فيه وجهان معروفان:

أحدهما أن معنى كونه مسئولا أن المؤمنين كانوا يسألونه، وكانت الملائكة أيضاً تسأله لهم، أما سؤال المسلمين له فقد ذكره تعالى بقوله عنهم: ﴿رَبَّنَا وَعَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران] وسؤال الملائكة لهم إياه ذكره تعالى أيضاً في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ ... الآية [غافر: ٨]، وقال بعض العلماء: مسئولا: أي واجبا لأن ما وعد الله به فهو واجب الوقوع؛ لأنه لا يخلف الميعاد، وهو - جل وعلا - يوجب على نفسه بوعده الصادق ما شاء لا معقب لحكمه ويستأنس لهذا القول بلفظة «على» في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال بعض أهل العلم: إن المسلمين يوم القيامة يقولون: قد فعلنا في دار الدنيا كل ما أمرتنا به فأنجز لنا ما وعدتنا، والقولان الأولان أقرب من هذا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا تَسْتَعِينُمْ بِعِبَادِكُمْ هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ صُلُوكُ السَّبِيلِ﴾ ٧ قالوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَاثَمَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ٨. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم: «نحشرهم»، بالنون الدالة على العظمة، وقرأ ابن كثير، وحفص، عن عاصم: «يحشرهم» بالياء المثناة التحتية، وقرأ عامة السبعة غير ابن عامر، «فيقول» بالياء المثناة التحتية، وقرأ ابن عامر «فيقول» بنون العظمة.

فتحصل أن ابن كثير وحفصاً يقرآن بالياء التحتية فيهما، وأن ابن عامر يقرأ بالنون فيهما، وأن باقي السبعة يقرؤون: «نحشرهم» بالنون، «فيقول» بالياء، وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يحشر الكفار يوم القيامة، وما كانوا يعبدون من دونه؛

أي يجمعهم جميعاً فيقول للمعبودين: أنتم أضللتم عبادي هؤلاء فزيتم لهم أن يعبدوكم من دوني، أم هم ضلوا السبيل؛ أي كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تزينوه لهم، وأن المعبودين يقولون: سبحانه أي تنزيهاً لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء: أي ليس للخلائق كلهم، أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا، ونحن برآء منهم، ومن عبادتهم. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَاثَرَهُمْ﴾ أي طال عليهم العمر، حتى نسوا الذكر أي نسوا ما أنزلته عليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك، لا شريك لك، وكانوا قوماً بوراً، قال ابن عباس: أي هلكى، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري؛ أي لا خير فيهم، اه. الغرض من كلام ابن كثير.

وقال أبو حيان في البحر: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم إلى آخر كلامه.

وإذا عرفت ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له، فاعلم أن العلماء اختلفوا في المعبودين. فقال بعضهم: المراد بهم الملائكة وعيسى وعزير. قالوا: هذا القول يشهد له القرآن؛ لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن عبادة من عبدهم، كما قال في الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١٧] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [١٨] وقال في عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبَ﴾ [١٩] [المائدة] وجواب الملائكة وجواب عيسى كلاهما شبيه بجواب المعبودين في آية الفرقان هذه؛ ولذلك اختار غير واحد من العلماء أن المعبودين الذين يسألهم الله في سورة الفرقان هذه هم خصوص العقلاء، دون الأصنام.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الأظهر عندي شمول المعبودين المذكورين للأصنام، مع الملائكة وعيسى وعزير؛ لأن ذلك تدل عليه قرأتان:

الأولى: أنه عبر عن المعبودين المذكورين بما التي هي لغير العاقل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية. فلفظة ما تدل على شمول غير العقلاء، وأنه غلب غير العاقل لكثرة.

القرينة الثانية: هي دلالة آيات من كتاب الله، على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم؛ أي لا يعلمون بها لكونهم غير عقلاء كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُونَ﴾ [٢٠] فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ

﴿١٧﴾ [يونس] وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون، وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم، نظراً إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكقوله تعالى في الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] فقد دل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ على أنهم لا يعقلون، ومع ذلك قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وكقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَبَلَغَتْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]. فصرح بأنهم أوثان، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضاً، وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقِّقْ سَوَاءَ الذِّكْرِ﴾ الظاهر أن معنى نسوا تركوا، والأظهر أن الذكر هو ما جاءت به الرسل من التوحيد، وقيل ذكر الله بشكر نعمه، والأصح أن قوله بوراً معناه هلكى، وأصله اسم مصدر يقع على الواحد وعلى الجماعة، فمن إطلاقه على الجماعة قوله هنا: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِكَ الْكُفْرُ أَكْثَرُ مِنْ أَلْوَنِهِ﴾ [الفتح: ١٢] ومن إطلاقه على المفرد قول عبد الله بن الزبير السهمي رضي الله عنه.

يا رسول الملوك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
ويطلق البور على الهلاك. وعن ابن عباس أنها لغة أهل عمان، وهم من أهل اليمن، ومنه قول الشاعر:

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم وكافوا به فالكفر بور لصانعه

واعلم أن ما ذكره الزمخشري في هذه الآية، وأطنب فيه من أن الله لا يضل أحداً؛ مذهب المعتزلة، وهو مذهب باطل وبطلانه في غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإياك أن تغتر به، وما ذكر عن الحسن البصري، ومالك، عن الزهري من أن معنى بوراً لا خير فيهم له وجه في اللغة العربية، ولكن التحقيق أنه ليس معنى الآية، وأن معنى «بوراً»: هلكى كما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن المعبودين كذبوا العابدين وذلك في قوله عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُلْبِقُ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تكذيب المعبودين للعبادين، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرُكَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا

مِنْ دُونِكَ فَالْقَوْلُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨١﴾ [النحل] وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَصَدُّونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

قال ابن كثير: ومن يظلم منكم أي يشرك بالله، وذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنه. وهذا التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ [يونس] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَلْسُوا بِمَقْتَلِهِمْ يُمْسِكُهُمْ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقال: أي بشرك كما قدمناه موضحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل بعض الناس فتنة لبعض، وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية ذكره في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٣].

وقال القرطبي في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير عليه أن يواسيه، ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني عليه أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معنى: «أتصبرون»؛ أي على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لَمْ نَعَا، والأعمى يقول لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء، وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافي، ويحقر المعافي المبتلى، والصبر أن يجبس كلاهما نفسه؛ هذا عن البطر، وذلك عن الضجر، انتهى محل الغرض من كلام القرطبي.

وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض؛ فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٣]. فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين، حيث احتقروهم وازدروهم، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم في زعمهم لفقيرهم، وورثاته حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم أنهم قالوا فيهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] إلى غير ذلك من الآيات، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ

الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٢١﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ هَلْ ثُوبٌ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين]
وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْشِرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]
وقوله تعالى: أنصبرون، أي على الحق أم لا تصبرون. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين لا يرجون لقاء الله قالوا: ﴿نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، و«لولا» في هذه الآية للتحضيض.

والمعنى أنهم طلبوا بحث وشدة أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم، وهذا التعنت الذي ذكره الله عنهم هنا من طلبهم إنزال الملائكة عليهم أو رؤيتهم ربهم، ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] وقولهم: ﴿نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ نُلَاقُكَ﴾ قيل: فتوحي إلينا كما أوحى إليك، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقيل: لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عياناً، وهذا يدل له قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا﴾؛ أي معاينة على القول بذلك، وقد قدمنا الأقوال في ذلك في سورة بني إسرائيل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «لا يرجون». قال بعض العلماء: لا يرجون أي لا يخافون لقاءنا لعدم إيمانهم بالبعث، والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع. قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿٧٣﴾ [نوح]: قال: أي لا تخافون لله عظمة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل

فقوله لم يرج لسعها؛ أي لم يخف لسعها، وقال بعض أهل العلم: إطلاق الرجاء على الخوف لغة تهامة، وقال بعض العلماء: لا يرجون لقاءنا: لا يأملون، وعزاه القرطبي لابن شجرة وقال: ومنه قول الشاعر:

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جده يوم الحساب

أي أتأمل أمة، إلخ. والذي لا يؤمن بالبعث لا يخاف لقاء الله؛ لأنه لا يصدق بالعذاب، ولا يأمل الخير من تلقائه؛ لأنه لا يؤمن بالثواب.

وقوله - جل وعلا -: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي أضمروا التكبر عن الحق في قلوبهم، واعتقدوه عناداً وكفراً، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِمَّا هُمْ بِكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان. يقال: عتا علينا فلان؛ أي تجاوز الحد في ظلمنا، ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر، يدل على أنه بالغ في إفراطه، وأنهم بلغوا غاية

الاستكبار، وأقصى العتو، وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات، ووضوح الحق، وعنادهم والتعنّت عليهم بطلب إنزال الملائكة أو رؤية الله، استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال، والتقريع، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنّت واستكبر عن قبول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ الآية [النساء: ١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] واستدلال المعتزلة بهذه الآية، وأمثالها على أن رؤية الله مستحيلة استدلال باطل ومذهبهم والعباد بالله من أكبر الضلال، وأعظم الباطل. وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية: إن الله لا يرى؛ قول باطل، وكلام فاسد.

والحق الذي لا شك فيه أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدق عليه السلام، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقاً ومفهوماً. كما أوضحناه في غير هذا الموضع.

وقد قدمنا في هذه السورة وفي سورة بني إسرائيل الآيات الدالة على أن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا نَحْجُوا﴾ (٢٢).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم؛ أي لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم، وتكون يوم القيامة، ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين.

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ أُنْفِلُوا فِي عَمَزَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ (٢٤) [محمد] وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضاً، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرْزَلْنَا مَلَكَ لَفِيقِ الْأَمْرِ ثُمَّ لَا يُظْهَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يدل بدليل

خطابه؛ أي مفهوم مخالفته، أن غير المجرمين يوم يرون الملائكة تكون لهم البشرى، وهذا المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْتَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُم فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أظهر القولين فيه عندي أنه من كلام الكفار يوم يرون الملائكة، لا من كلام الملائكة. وإيضاحه أن الكفار الذين اقترحوا إنزال الملائكة إذا رأوا الملائكة توقعوا العذاب من قبلهم، فيقولون حينئذ للملائكة: حجراً محجوراً؛ أي حراماً محرماً عليكم أن تمسونا بسوء؛ أي لأننا لم نرتكب ذنباً نستوجب به العذاب، كما أوضحه تعالى بقوله عنهم: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا أَلَمْ تَكُنَّا نَعْمَلْ مِنْ سُوِّ بَلَاءٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل] فقولهم: ما كنا نعمل من سوء: أي لم نستوجب عذاباً فتعذيبنا حرام محرم، وقد كذبهم الله في دعواهم هذه بقوله: ﴿بَلَاءٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وعادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، أنهم يقولون هذا الكلام؛ أي حجراً محجوراً عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك.

وقد ذكر سيبويه هذه الكلمة أعني: حجراً محجوراً، في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها نحو: معاذ الله، وعمرك الله، ونحو ذلك، وقوله: حجراً محجوراً، أصله من حجره بمعنى منعه، والحجر الحرام؛ لأنه ممنوع ومنه قوله: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَفْنَمٌ وَحَرَّكَ حَجْرٌ﴾؛ أي حرام ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨] ومنه قول المتلمس:

حت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

فقوله حرام تأكيد لقوله حجر لأن معناه حرام. وقول الآخر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أدنى حموتها حما

وقول الآخر:

قالت وفيها حيرة وذعر عوذ بربي منكم وحجر

وقوله: محجوراً تأكيد لمعنى الحجر. قال الزمخشري: كقول العرب: ذيل ذائل. والذيل: الهوان، وموت مائت، وأما على القول بأن حجراً محجوراً من قول الملائكة، فمعناه: أنهم يقولون للكفار حجراً محجوراً؛ أي حراماً محرماً أن تكون للكفار اليوم بشرى، أو أن يغفر لهم، أو يدخلون الجنة. وهذا القول اختاره ابن جرير، وابن كثير وغير واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال الزمخشري: يوم منصوب بأحد شيئين، إما بما دل عليه «لا بشرى»؛ أي يوم يرون الملائكة يمنعون

البشرى، أو يعدمونها، ويومئذٍ للتكرير، وإما بإضمار «اذكر»؛ أي اذكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: لا بشرى يومئذٍ للمجرمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٣). قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾... الآية [الإسراء: ١٩]. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧]. وغير ذلك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤)، استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهي في نصف نهار، ووجه ذلك أن قوله: مقيلاً؛ أي مكان قيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار، قالوا: وهذا الذي فهم من هذه الآية الكريمة، جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) [الانشقاق].

وفهم من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾... الآية أن أصحاب النار ليسوا كذلك وأن حسابهم غير يسير.

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى قريباً من هذه الآية: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقٌ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (١١) فقوله: على الكافرين يدل على أنه على المؤمنين غير عسير، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾... الآية [الأنبياء: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ يَّسِيرٌ (١٠) [المدثر] وقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٨) [القمر] وإذا علمت مما ذكرنا ما جاء من الآيات فيه بيان لقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤) فهذه أقوال بعض المفسرين في المعنى الذي ذكرنا في الآية.

قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وذلك مثل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) [الانشقاق] وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود. قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤) وقرأ: (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما هي ضحوة. فيقبل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر، وأبو نعيم في

الحلية، عن إبراهيم النخعي: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة، نصف النهار. فيقول أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ﴾.

وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة، حين يفرغ الناس من الحساب، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ﴾ إلى أن قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهلهم، للقلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ﴾ انتهى منه.

وذكر نحوه القرطبي مرفوعاً وقال: ذكره المهدوي. والظاهر أنه لا يصح مرفوعاً، وقال القرطبي أيضاً: وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة» وهو ضعيف أيضاً، وما ذكره عن ابن مسعود من أنه قرأ: (ثم إنَّ مَقِيلَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) معلوم أن ذلك شاذ لا تجوز القراءة به، وأن القراءة الحق ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات].

واعلم أن قول قتادة في هذه الآية معروف مشهور، وعليه فلا دليل في الآية لما ذكرنا، وقول قتادة هو أن معنى قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي منزلاً وماوى، وهذا التفسير لا دليل فيه على القيلولة في نصف النهار كما ترى.

وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين ما دل عليه قوله هنا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ من انقضاء الحساب في نصف نهار، وبين ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وذكرنا الآيات المشيرة إلى الجمع، وبعض الشواهد العربية.

واعلم أن المشهور في كلام العرب أن المقيّل القيلولة أو مكانها، وهي الاستراحة نصف النهار زمن الحر مثلاً، وإن لم يكن معها نوم، ومنه قوله:

جزى الله ربَّ الناس خيراً جزائه رفيقين قالاً خيمتي أم معبد

أي نزلا فيها وقت القائلة، كما قاله صاحب اللسان، وما فسر به قتادة الآية، من أن المقيّل المنزل والمأوى، معروف أيضاً في كلام العرب ومنه قول ابن رواحة:

اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله

فقوله: يزيل الهام عن مقيله، يعني: يزيل الرؤوس عن مواضعها من الأعناق، ومعلوم أن المقييل فيه المحل الذي تسكن فيه الرؤوس. والظاهر أن من هذا القبيل قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري:

وما تدري وإن أجمعت أمراً بأي الأرض يدركك المقييل

وعليه فالمعنى: بأي الأرض يدركك الثواء والإقامة بسبب الموت أو غيره من الأسباب، وصيغة التفضيل في قوله هنا ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَاحْسَنُ مَقِيلًا﴾ تكلّمتنا على مثلها قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمَ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعْيِ وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَبَيَّنَ بِالنَّارِ نَبَاتٌ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السماء تشقق يوم القيامة بالغمام، وأن الملائكة تنزل تنزيلاً. وقال القرطبي: تشقق السماء بالغمام أي عن الغمام. قال: والباء وعن يتعاقبان كقولك: رميت بالقوس، وعن القوس انتهى. ويستأنس لمعنى عن بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ ... الآية [ق: ٤٤].

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة من تشقق السماء يوم القيامة ووجود الغمام، وتنزيل الملائكة كلها جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما تشقق السماء يوم القيامة فقد بينه - جل وعلا - في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْوَاقِعَ﴾ [١٥] وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذُو نَبْءٍ وَهِيَ [١٦] [الحاقة] وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [١] ... الآية [الانشقاق]. وقوله تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ طُيَسَتْ﴾ [٨] وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ [٩] الآية [المرسلات: ٨ - ٩] فقوله: فرجت؛ أي شقت، فكان فيها فروج؛ أي شقوق كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [١٠] [الانفطار] وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [١١] [النبأ]، وأما الغمام ونزول الملائكة، فقد ذكرهما معاً في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٠]. وقد ذكر - جل وعلا - نزول الملائكة في آيات أخرى كقوله ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ ... الآية [الأنعام: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ﴾ [الحجر].

قال الزمخشري: والمعنى أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون، وفي أيديهم صحف أعمال العباد، انتهى منه.

وقرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر «تشقق» بتشديد الشين، والباقون بتخفيفها بحذف إحدى التائين، وقرأ ابن كثير: «ونزل الملائكة» بنونين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة مع تخفيف الزاي، وضم اللام، مضارع أنزل، والملائكة بالنصب مفعول به، والباقون بنون واحدة وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول،

والملائكة مرفوعاً نائب فاعل نزل، والأظهر أن يوم منصوب باذكر مقدراً، كما قاله القرطبي، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الملك الحق يوم القيامة له - جل وعلا - دون غيره، وأن يوم القيامة كان عسيراً على الكافرين.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله، أما كون الملك له يوم القيامة، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله جل وعلا: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝١﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿لَيْنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَعُ فِي الصُّورِ﴾... الآية [الأنعام: ٧٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما كون يوم القيامة عسيراً على الكافرين، فقد قدمنا الآيات الدالة عليه قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ يَوَلِّفُنِي لِمَ أَخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾. من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذي نزلت فيه هذه الآية، هو عقبة بن أبي معيط، وأن فلاناً الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، وذكر بعضهم أن في قراءة بعض الصحابة. ليتني لم أتخذ ألبياً خليلاً، وهو على تقدير ثبوته من قبيل التفسير، لا القراءة، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، فكل ظالم أطاع خليفه في الكفر، حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة جاء موضحاً في غيرها، فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ كناية عن شدة الندم والحسرة؛ لأن النادم ندماً شديداً، يعص على يديه، وندم الكافر يوم القيامة وحسرتة الذي دلت عليه هذه الآية، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنُوا بِئِنَّهُمْ بِالْقَسِطِ﴾ الآية [يونس: ٥٤]. وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَدَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [سبأ: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾... الآية [الأنعام: ٣١]. والحسرة أشد الندامة. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في دار الدنيا، واتخذ معه سبيلاً: أي طريقاً إلى الجنة في قوله هنا: ﴿يَلَيِّنُنِي مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا﴾ جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ... الآية [الأنفال: ٤٨]، وقوله تعالى في هذه الآية ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ الأظهر أن الذكر القرآن وقوله: ﴿لَوْ أَنِ اخْذَ فَلَانًا﴾ العرب تطلق لفظة فلان كناية عن العلم: أي لم أأخذ أياً أو أمية خليلاً، ويكونون عن علم الأنثى بفلانة، ومنه قول عروة بن حزام العذري:

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة أضحت خلة لفلان

وقوله: ﴿بَعْضُ الظَّالِمِ﴾ من بعض بكسر العين في الماضي، يعرض بفتحها في المضارع على القياس، ومنه قول الحارث بن ولة الذهلي:

الآن لما أبيض مسررتي وعضضت من نابي على جذم

فإن الرواية المشهورة في البيت عضضت بكسر الضاد الأولى وفيها لغة بفتح العين في الماضي، والكسر أشهر، وعض تتعدى بعلی كما في الآية وبيت الحارث بن ولة، المذكورين وربما عدت بالباء ومنه قول ابن أبي ربيعة:

فقاتلت وعضضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء، قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف، وقد بين - جل وعلا - في سورة الصافات أن رجلاً من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي يهلكه بعذاب النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۖ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاطْلَعْ فَلَوْ أَنَّهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ ۖ﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتَرِدُنِي ۖ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ۖ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠).

معنى هذه الآية الكريمة ظاهر، وهو أن نبينا ﷺ شكاً إلى ربه هجر قومه، وهم كفار قريش لهذا القرآن العظيم أي تركهم لتصديقه، والعمل به، وهذه شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواج والقصص والأمثال.

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية مسألة في الأصول يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١)، لما شكى النبي ﷺ إلى ربه في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا... الآية، تسلياً له ﷺ، أي كما جعلنا الكفار أعداء لك، يكذبونك، ويتخذون القرآن الذي أنزل إليك مهجوراً، كذلك الجعل جعلنا لكل نبي عدواً: أي جعلنا لك أعداء، كما جعلنا لكل نبي عدواً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا... الآية. قد قدمنا إيضاحه في الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ﴾... الآية [الأنعام: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ قد قدمنا الكلام مستوفى على «كفى» اللازمة، والمتعدية بشواهد العربية في سورة الإسراء في الكلام على قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَرَقًا فَلَيْسَ بَشَيْءٍ مِنْ شَأْنِ الَّذِينَ أَصَابَا﴾ [البقرة: ١٢٠] وقوله: ونصيراً: أي وكفى بربك نصيراً، جاء معناه أيضاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. تقدمت الآيات التي بمعناه في آخر سورة الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْنٍ... الآية [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أي كذلك الإنزال مفزحاً بحسب الوقائع أنزلناه لا جملة كما اقترحوا، وقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي أنزلناه مفزحاً، لنثبت فؤادك بإنزاله مفزحاً.

قال بعضهم: معناه لنقوي بتفريقه فؤادك على حفظه؛ لأن حفظه شيئاً فشيئاً أسهل من حفظه مرة واحدة، لو نزل جملة واحدة.

وقال بعضهم: ومما يؤكد ذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه أُمي لا يقرأ ولا يكتب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٢). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يحشرون على وجوههم إلى جهنم يوم القيامة، وأنهم شر مكاناً، وأضل سبيلاً؛ وبين في مواضع آخر أنهم تكب وجوههم في النار ويسحبون على وجوههم فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ يَأْسِرْتَهُ فُكِّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٣٣) [القمر] وبين - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل أنهم يحشرون على وجوههم، وزاد مع ذلك

أنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً، وذكر في سورة طه أن الكافر يحشر أعمى. قال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصْماً مَا وَفَّيْنَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا ﴿طه﴾.

وقد بينا وجه الجمع بين آية بني إسرائيل وآية طه المذكورتين مع الآيات الدالة على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون كقوله تعالى: ﴿أَتَمِيعَ يَوْمَ تَبْصِرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]. وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] وكذلك بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام على آية بني إسرائيل المذكورة.

وصيغة التفضيل في قوله: ﴿أَوَّلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ قد قدمنا الكلام في مثلها في الكلام على قوله: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ والمكان محل الكينونة، والظاهر أنه يكون حسياً، ومعنوياً؛ فالحسي ظاهر، والمعنوي كقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ ... الآية [يوسف: ٧٧]، والسبيل الطريق وتذكر وتوث كما تقدم، ومن تذكير السبيل قوله تعالى: ﴿وَلِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَكُونُوا سَبِيلَ الَّذِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] ومن تأنيثها قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ... الآية [يوسف: ١٠٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيراً ﴿٣٦﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَلِدْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٥١]. قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾.

قد قدمنا بعض الآيات الدالة على كيفية إغراقهم في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ ﴿٣٨﴾.

الأظهر عندي أن قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ﴾ ... الآية، وأن قوم نوح مفعول به لأغرقنا محذوفة دل عليها قوله بعده: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق انصبه بفعل أضمرنا حتماً موافق لما قد ذكرا

أي أهلكنا قوم نوح بالغرق، وأهلكنا عاداً وثموداً وأصحاب الرس، وقروناً بين ذلك كثيراً، أي وأهلكنا قروناً كثيرة بين ذلك المذكور من قوم نوح، وعاد، وثمود.

والأظهر أن القرون الكثيرة المذكورة بعد قوم نوح، وعاد، وثمود، وقبل أصحاب الرس وقد دلت آية من سورة إبراهيم على أن بعد عاد، وثمود، خلقاً كفروا وكذبوا الرسل، وأنهم لا يعلمهم إلا الله - جل وعلا -.

وتصريحه بأنهم بعد عاد وثمود، يوضح ما ذكرنا وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالَّذِينَ تُبْتَغُونَ مِنْهُ عِلْمٌ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ بَرُّهُمُ لَا يَلْمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم].

وقد قدمنا كلام أهل العلم في معنى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ والإشارة في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ﴾ راجعة إلى عاد، وثمود، وأصحاب الرس: أي بين ذلك المذكور ورجوع الإشارة، أو الضمير بالإفراد مع رجوعهما إلى متعدد باعتبار المذكور أسلوب عربي معروف ومنه في الإشارة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَاتٍ يَتَذَكَّرُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي ذلك المذكور من الفارض والبكر، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامٌ﴾ أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتل، وقول عبد الله بن الزبير السهمي.

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي وكلا ذلك المذكور من الخير والشر، ومنه في الضمير قول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

أي كأنه، أي ما ذكر من خطوط السواد والبلق، وقد قدمنا هذا البيت.

أما عاد وثمود فقد جاءت قصة كل منهما مفصلة في آيات متعددة، وأما أصحاب الرس فلم يأت في القرآن تفصيل قصتهم ولا اسم نبيهم، وللمفسرين فيهم أقوال كثيرة تركناها لأنها لا دليل على شيء منها.

والرس في لغة العرب البئر التي ليست بمطوية، وقال الجوهري في صحاحه: إنها البئر المطوية بالحجارة، ومن إطلاقها على البئر قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فيا ليتهم يحفرون الرساسا

وقول النابغة الجعدي:

سبقت إلى فرط ناهل تنابله يحفرون الرساسا

والرساس في البيتين جمع رس، وهي البئر، والرس واد في قول زهير في معلقته:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن لوادي الرس كاليد للقم

وقوله في هذه الآية: ﴿وَفُرُوتًا... كَثِيرًا﴾ جمع قرن، وهو هنا الجيل من الناس الذين اقترنوا في الوجود في زمان من الأزمنة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا صَرَرْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا نَبَرْنَا تَنْبِيرًا﴾ (٣٩).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كلا من الماضين المهلكين من قوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، والقرون الكثيرة بين ذلك: أنه ضرب لكل منهم الأمثال ليبين لهم الحق بضرب المثل؛ لأنه يصير به المعقول كالمحسوس، وأنه - جل وعلا - تبر كلاً منهم تنبيراً، أي أهلكهم جميعاً إهلاكاً مستأصلاً، والتنبير الإهلاك والتكسير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَنْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّمَاتٌ مِمَّا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي باطل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِلَّا لَظَلِمْنَ فِي هَٰذَا الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وهما أنه - جل وعلا - ضرب لكل منهم الأمثال، وأنه تبرهم كلهم تنبيراً جاء مذكورين في غير هذا الموضع.

أما ضربه الأمثال للكفار، فقد ذكره - جل وعلا - في غير هذا الموضع كقوله في سورة إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۚ وَسَكَحْتُمْ فِي مَسَٰكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٥٥) [إبراهيم].

وأما تنبيره جميع الأمم لتكذيبها رسلها، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٦٩) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٧٠) [الأعراف] وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثَرُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤) [سبأ] وقوله في الزخرف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثَرُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٣٣) [الزخرف] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ... الآية [المؤمنون: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع الأمم كذبوا رسلهم، وأن الله أهلكهم بسبب ذلك.

وقد بين - جل وعلا - في آية أخرى أن هذا العموم لم يخرج منه إلا قوم يونس دون غيرهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُفِثْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٦١) [يونس]. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بِلْقَاسِ آلِثَّاءٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٦٧) فَآمَنُوا فَنُفِثْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٦٨) [الصافات].

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه ضرب الأمثال لكل منهم، لم يبين فيه هنا هل ضرب الأمثال أيضاً لهذه الأمة الكريمة التي هي آخر الأمم في هذا القرآن، كما ضربها لغيرهم من الأمم، ولكنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه ضرب لهذه الأمة الأمثال في هذا القرآن العظيم، ليتفكروا بسببها، وبين أنها لا يعقلها إلا أهل

العلم، وأن الله يهدي بها قوماً، ويضل بها آخرين. وهذه الآيات الدالة على ذلك كله فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُون أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الحشر] وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴿٧٣﴾﴾ الآية [الحج: ٧٣]، الآية. والآيات الدالة على ذلك كثيرة معلومة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَفَكُم يَكُونُوا يَرْوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ ثَوْرًا ﴿٤٥﴾﴾. أقسم - جل وعلا - في هذه الآية أن الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء، وهو أن الله أمطر عليها حجارة من سجيل، وهي سدوم قرية قوم لوط، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما أن الله أمطر هذه القرية مطر السوء الذي هو حجارة السجيل، وأن الكفار أتوا عليها، ومروا بها جاء موضحاً في آيات أخرى.

أما كون الله أمطر عليها الحجارة المذكورة، فقد ذكره - جل وعلا - في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر]، وبين في سورة الذاريات أن السجيل المذكور نوع من الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٦٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٦٣﴾﴾ [الذاريات]، ولا شك أن هذا الطين وقع عليه ألم شديد مهلك. وكقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِنَمَسَّ مِنْهُمْ لُفْيَةً سَكِينَةً ﴿٧٦﴾﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٦﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾﴾ الآية [الحجر].

وأما كونهم قد أتوا على تلك القرية المذكورة فقد جاء موضحاً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ وَأَلَّا تَعْلَمُوا ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات] والمراد بأنهم مروا على قرية قوم لوط، وأن مرورهم عليها، ورؤيتهم لها خالية من أهلها ليس فيها داع، ولا مجيب؛ لأن الله أهلك أهلها جميعاً لكفرهم وتكذيبهم رسوله لوطاً فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر عن تكذيب نبينا محمد ﷺ، لئلا ينزل بالذين كذبوه مثل ما نزل بقوم لوط من العذاب والهلاك؛ ولذا وبخهم على عدم الاعتبار بما أنزل بها من العذاب كقوله في آية الصافات المذكورة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [القصص: ٦٠]، وكقوله تعالى في آية الفرقان هذه: ﴿أَفَكُلَّمْ يَكُونُوا يَرْوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ ثَوْرًا ﴿٦٠﴾﴾ فقلوه: أفلم يكونوا يرونها: توبيخ لهم على عدم الاعتبار كقوله في الآية الأخرى: أفلا تعقلون، ومعلوم أنهم يمرون عليها مصبحين، وبالليل وأنهم يرونها،

وكقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ [الحجر] يعني أن ديار قوم لوط بسبيل مقيم؛ أي بطريق مقيم، يمرون فيه عليها في سفرهم إلى الشام، وقوله تعالى: ﴿لَنْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْكَ﴾، أي لا يخافون بعثاً، ولا جزاء أو لا يرجون بعثاً وثواباً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخَذُوكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٧٦﴾ كَذَٰلِكَ لِيُضِلَّ عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۝٧٧﴾. تقدم إيضاحه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَخَذُوكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرِّجْنَ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧٨﴾ [الأنبياء]، وما قالوه هنا من أنهم صبروا على آلهتهم، بين في سورة ﴿ص﴾ أن بعضهم أمر به بعضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ ۝٧٩﴾ الآية [ص: ٦].

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٨٠﴾. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أَرَأَيْتَ من اتخذ إلهه هواه؛ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، إلى أن قال: قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، اه منه.

وذكر صاحب الدر المنثور: أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن ابن عباس أن عبادة الكافر للحجر الثاني، مكان الأول، هي سبب نزول هذه الآية، ثم قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن مردويه عن أبي رجاء العطاردي، قال: كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز ويعبدون الحجر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه، رموا به وعبدوا الآخر، فإذا فقدوا الآخر أمروا منادياً فنادى: أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ﴾، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ﴾ قال: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ﴾. قال: لا يهوى شيئاً إلا تبعه.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ﴾ قال: كلما هوى شيئاً ركب، وكلما انتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع، ولا تقوى.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قيل له: أفي أهل القبلة شرك؟ قال: نعم المنافق مشرك، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله، وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٨٠﴾.

وأخرج الطبراني، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء

من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»، انتهى محل الغرض من كلام صاحب الدر المنثور.

وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية أن الواجب الذي يلزم العمل به، هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالفه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح.

وإذا علمت هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله - جل وعلا - بينه في غير هذا الموضع في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَبَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّهُ بُخْلٌ مَنْ يَهْدِي مِنْ شَاءَ...﴾ الآية [فاطر: ٨]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾: استفهام إنكار فيه معنى النفي. والمعنى أن من أضله الله فاتخذ إلهه هواه، لا تكون أنت عليه وكيلاً؛ أي حفيظاً تهديه، وتصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه؛ لأن الهدى بيد الله وحده لا بيدك، والذي عليك إنما هو البلاغ، وقد بلغت.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ الآية [النحل: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ...﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ...﴾ الآية [يونس: ٩٩ - ١٠٠]، وقوله في آية فاطر المذكورة آنفاً: ﴿تُؤْمِنُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ الآية [يونس: ٩٩ - ١٠٠]، وقوله في آية فاطر المذكورة آنفاً: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً...﴾ الآية [فاطر: ٨]، وقوله تعالى في آية الجاثية المذكورة آنفاً أيضاً: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا...﴾. «أم» في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة، وأشهر معانيها أنها جامعة بين معنى بل الإضرابية، واستفهام الإنكار معاً، والإضراب المدلول عليه بها هنا إضراب انتقالي: والمعنى بل أنتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؛ أي لا تعتقد ذلك ولا تظنه، فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه: أي لا يدركونه بعقولهم إن هم إلا كالأنعام أي ما هم إلا كالأنعام، التي هي الإبل والبقر والغنم في عدم سماع الحق، وإدراكه، بل هم أضل من الأنعام؛ أي أبعد عن فهم الحق، وإدراكه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال الزمخشري: فإن

قلت: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟

قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا يتقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهلك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي، اه منه.

وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَنفٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ يَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عُنَىٰ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٧٦﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي جعل لخلقه الليل لباساً، والنوم سباتاً، وجعل لهم النهار نشوراً، أما جعله لهم الليل لباساً، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه، صار لباساً لهم، يستريحون به كما يستريحون في الليل، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل، واستتاره به حتى ينجو منهم، ونحو ذلك من الفوائد التي تحصل بسبب لباس الليل كما قال أبو الطيب المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتاً فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات: الراحة، من تعب العمل بالنهار؛ لأن النوم يقطع العمل النهاري، فينقطع به التعب، وتحصل الاستراحة، كما هو معروف.

وقال الجوهري في صحاحه: السبات: النوم وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٦٩﴾﴾ [النبا]، وقال الزمخشري في الكشاف: والسبات: الموت، والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة، وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٠]، فإن قلت: هلا فسرت بالراحة؟

قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد، وهو مرتق، اه محل الغرض منه.

وإيضاح كلامه أن النشور هو الحياة بعد الموت كما تقدم إيضاحه، وعليه فقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياة بعد الموت، وعليه فالموت هو المعبر عنه بالسبات في قوله: ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وإطلاق الموت على النوم معروف في القرآن العظيم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقوله:

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فهي دليل على ما ذكره الزمخشري؛ لأن كلا من البعث والنشور، يطلق على الحياة بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال الجوهري في صحاحه: والمسبوت الميت والمغشي عليه، اهـ.

والذين قالوا: إن السبات في الآية الراحة بسبب النوم من تعب العمل بالنهار، قالوا: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا﴾ أنهم ينشرون فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسبابهم، والظاهر أن هذا التفسير فيه حذف مضاف، أو هو من النعت بالمصدر، وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا] وقوله تعالى في القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار في السعي للمعاش.

وإذا علمت هذا فاعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [١] و﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [٢] و﴿جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوْ لَسَمُومَةٍ﴾ [٦] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٧] وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧٢] [القصص]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْحِسَابِ﴾ ... الآية [الإسراء: ١٢].

وقد أوضحنا هذا في الكلام على هذه الآية.

وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [١] وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى [٢] [الليل] وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ [٣] وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [٤] [الشمس] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الآيات المذكورة بيان أن الليل والنهار آيتان من آياته ونعمتان من نعمه - جلّ وعلا -.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. قد قدمنا الآية الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] على قراءة من قرأ بشراً بالباء.

وآية الأعراف وآية الفرقان المذكورتان تدلان على أن المطر رحمة من الله لخلقه.

وقد بين ذلك في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَبَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ... الآية [الشورى: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [٥٠].

التحقيق أن الضمير في قوله: ولقد صرفناه، راجع إلى ماء المطر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ كما روي عن أن عباس وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد، خلافاً لمن قال: إن الضمير المذكور راجع إلى القرآن كما روي عن عطاء الخراساني وصدر به القرطبي، وصدر الزمخشري بما يقرب منه.

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير في: صرفناه، عائد إلى ماء المطر.

فاعلم أن المعنى ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً في بعض السنين على بعض البلاد، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، فيكثر الخصب في بعضها، والجذب في بعضها الآخر. وقوله: ليذكروا؛ أي صرفناه بينهم، لأجل أن يتذكروا: أي يتذكر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر، نعمة الله عليهم، فيشكروا له، ويتذكر الذين أجذبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى الله - جل وعلا -، ليرحمهم ويسقيهم. وقوله: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ أي كفرأ لنعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم: مطرنا بنوء كذا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أشار له - جل وعلا - في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة] فقوله: رزقكم: أي المطر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بقولكم: مطرنا بنوء كذا، ويزيد هذا إيضاحاً الحديث الثابت في صحيح مسلم، وقد قدمناه بسنده ومثته مستوفى، وهو أنه ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وقد قدمنا أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يدخل فيه من قال مطرنا بنوء كذا. ومن قال مطرنا بالبخار، يعني أن البحر يتصاعد منه بخار الماء، ثم يتجمع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل، وأن المطر منه كما تقدم إيضاحه، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَحَنَاهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا (٥٢). المعنى: لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة، وبعثنا في كل قرية نذيراً يتولى مشقة إنذارها عنك؛ أي ولكننا اصطفيناك، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس، تعظيماً لشأنك، ورفعاً من منزلتك، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام في إبلاغ الرسالة ﴿وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من اصطفائه ﷺ بالرسالة لجميع الناس، جاء موضحاً، في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا ﴿[الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذَكَّرَ بِهِ وَمَنْ يَلُغْ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ... الآية [هود: ١٧].

وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ①.

وقوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ... الآية [الأحزاب: ١]. وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ عَائِشَةً أَوْ كُفْرًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ... الآية [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَالِفٍ مِّمَّيْنِ﴾ ② [القلم].

وقوله في هذه الآية الكريمة: وجاهدكم به؛ أي بالقرآن كما روي عن ابن عباس. والجهاد الكبير المذكور في هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾، من المعلوم أنه ﷺ لا يطيع الكافرين ولكنه يأمر، وينهى ليشرع لأُمَّته على لسانه كما أوضحناه في سورة بني إسرائيل. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ③، اعلم أن لفظة مرج تطلق في اللغة إطلاقين:

الأول: مرج بمعنى أرسل وخلي، من قولهم: مرج دابته إذا أرسلها إلى المرج، وهو الموضع الذي ترعى فيه الدواب، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

وعلى هذا فالمعنى أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر.

والإطلاق الثاني: مرج بمعنى: خلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرِ مَرْجٍ﴾ [ق: ٥] أي مختلط.

فعلى القول الأول: فالمراد بالبحرين الماء العذب في جميع الدنيا، والماء الملح في جميعها.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني به ماء الآبار، والأنهار والعيون في أقطار الدنيا.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي البحر الملح، كالبحر المحيط، وغيره من البحار التي هي ملح أجاج، وعلى هذا التفسير فلا إشكال.

وأما على القول الثاني بأن مرج بمعنى خلط، فالمعنى أنه يوجد في بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرى واحد، ولا يختلط أحدهما

بالآخر، بل يكون بينهما حاجز من قدرة الله تعالى، وهذا محقق الوجود في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجانب مدينة سانلويس، وقد زرت مدينة سانلويس عام ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية، واغتسلت مرة في نهر السنغال، ومرة في المحيط، ولم أت محل اختلاطهما، ولكن أخبرني بعض المرافقين الثقات أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جالس يغرف بإحدى يديه عذبا فراتا، وبالأخرى ملحا أجاجا، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر. فسبحانه - جل وعلا - ما أعظمه، وما أكمل قدرته.

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: أي لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور في سورة الفرقان وسورة الرحمن، قد بين تعالى في سورة النمل أنه حاجز حجز به بينهما، وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَافَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلْ لَهَا رَاسًا وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ نَعِ اللَّهَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ [النمل]. وهذا الحاجز هو ليس من الأرض، الفاصل بين الماء العذب، والماء المالح على التفسير الأول.

وأما على التفسير الثاني فهو حاجز من قدرة الله غير مرئي للبشر، وأكد شدة حجزه بينهما بقوله هنا ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾، والظاهر أن قوله هنا: حجرا أي منعاً، وحراماً قدرياً، وأن محجوراً تأكيد له أي منعاً شديداً للاختلاط بينهما، وقوله: ﴿هَذَا عَذْبٌ﴾ صفة مشبهة من قولهم: عذب الماء بالضم فهو عذب وقوله فرات صفة مشبهة أيضاً، من فرت الماء بالضم، فهو فرات، إذا كان شديد العذوبة. وقوله: وهذا ملح، صفة مشبهة أيضاً من قولهم: ملح الماء بالضم والفتح فهو ملح.

قال الجوهري في صحاحه: ولا يقال مالح إلا في لغة ردية، اهـ.

وقد أجاز ذلك بعضهم واستدل له بقول القائل:

ولو تفلت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقوله: أجاج: صفة مشبهة أيضاً من قولهم: أج الماء يؤج أجوجاً فهو أجاج؛ أي ملح مر، فالوصف بكونه أجاجاً يدل على زيادة المرارة على كونه ملحا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية الكريمة: فقسم البشر قسمين، ذوي نسب أي ذكورا ينسب إليهم فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان، وذوات صهر أي إنانا يصاهر بهن كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكر وأنثى، انتهى منه.

وهذا التفسير الذي فسر به الآية يدل له ما استدل عليه به وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْلُقُ مِنْ مَيْنٍ يَمْنَىٰ ۖ ثُمَّ كَانَ عَقْفُهُ فَعَلَّقَ فَرَسًا ۚ﴾ [٢٨] ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ﴾ [٢٩] [القيامة] وهو دليل على أن آية الفرقان هذه بينتها آية القيامة المذكورة، وفي هذه الآية الكريمة أقوال آخر غير ما ذكره الزمخشري.

منها ما ذكر ابن كثير قال: فجعله نسباً وصهرأ، فهو في ابتداء أمره ولد نسب ثم يتزوج فيصهر صهرأ، وانظر بقية الأقوال في الآية في تفسير القرطبي والدر المنثور للسيوطي.

مسألة: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن بنت الرجل من الزنى، لا يحرم عليه نكاحها. قال ابن العربي المالكي في هذه الآية: والنسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى، على وجه الشرع، فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً، ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] بنته من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا، وأصح القولين في الدين، وإذا لم يكن نسب شرعاً فلا صهر شرعاً، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال، لا يحرم من الحرام؛ لأن الله امتن بالنسب، والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام في الحل والحرم عليهما، فلا يلحق الباطل بهما، ولا يساويهما. انتهى منه بواسطة نقل القرطبي عنه.

وقال القرطبي: اختلف الفقهاء في نكاح الرجل ابنته من زنى، أو أخته أو بنت ابنه من زنى: فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم: عبد الملك بن الماجشون، وهو قول الشافعي، وقد مضى هذا في النساء مجوداً، انتهى منه.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الخلاف في هذه المسألة مشهور معروف، وأرجح القولين دليلاً فيما يظهر أن الزنى لا يحرم به حلال، فبنته من الزنى ليست بنتاً له شرعاً، وقد أجمع أهل العلم أنها لا تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] فالإجماع على أنها لا ترث، ولا تدخل في آيات الموارث، دليل صريح على أنها أجنبية منه، وليست بنتاً شرعاً، ولكن الذي يظهر لنا أنه لا ينبغي له أن يتزوجها بحال. وذلك لأمرين:

الأول: أن كونها مخلوقة من مائه، يجعلها شبيهة شبيهاً صورياً بابنته شرعاً وهذا الشبه القوي بينهما ينبغي أن يزعه عن تزويجها.

الأمر الثاني: أنه لا ينبغي له أن يتلذذ بشيء سبب وجوده معصيته لخالقه - جل وعلا -، فالتدم على فعل الذنب الذي هو ركن من أركان التوبة، لا يلائم التلذذ بما هو ناشئ عن نفس الذنب، وما ذكره عن الشافعي من أنه يقول: إن البنت من الزنى لا تحرم، هو مراد الزمخشري بقوله:

وإن شافعيّاً قلت قالوا بأنني أبيع نكاح البنت والبنت تحرم تنبيه: أعلم أنما ذكره صاحب الدر المنثور عن قتادة مما يقتضي أنه استنبط من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أن الصهر كالنسب في التحريم، وأن كل واحد منهما تحرم به سبع نساء، لم يظهر لي وجهه، ومما يزيده عدم ظهور ضعف دلالة الاقتران عند أهل الأصول، كما تقدم إيضاحه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾. تقدم إيضاحه في سورة الحج وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾. الظهير في اللغة: المعين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقَمْتُ عَلَىٰ فَلَئِنْ أَكُنْتُ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصاص].

ومعنى قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ على أظهر الأقوال، وكان الكافر معيناً للشيطان، وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسله، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء الله، الذين يقاتلون في سبيل الله، فالكافر يعين الشيطان وحزبه في سعيهم؛ لأن تكون كلمة الله ليست هي العليا، وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ الآية [النساء: ٧٦]، ومعلوم أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، المقاتلين في سبيل الله، أنه على ربه ظهير.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾ [٧٦] لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ [٧٥] [يس] على قول من قال: إن الجند المحضرون هم الكفار، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها، ومن قاتل عن الأصنام مدافعاً عن عبادتها، فهو على ربه ظهير، وكونه ظهيراً على ربه أي معيناً للشيطان، وحزبه على عداوة الله ورسله، ككونه عدواً له المذكور في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت] ومعلوم بالضرورة أن جميع الخلق لو تعاونوا على عداوة الله لا يمكن أن يضروه بشيء وإنما يضرون بذلك أنفسهم: ﴿يَكَايَأُ الْإِنسَانُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الأعراف وأول سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [٥٧]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِي لَآ يَمُوتُ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوبٌ عَبَادُهُ خَيْرًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوبٌ عَبَادُهُ خَيْرًا﴾.
قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

قد قدمنا الآية التي فيها تفصيل ذلك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٣٦﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن؛ أي قال لهم ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون، تجاهلوا الرحمن، وقالوا: وما الرحمن؛ وأنكروا السجود له تعالى، وزادهم ذلك نفوراً عن الإيمان والسجود للرحمن، وما ذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده - جل وعلا - جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاعِبُدُوا﴾ ﴿٣٧﴾ [النجم] وقد وبخهم تعالى على عدم امتثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الإنشقاق]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [المرسلات] وتجاهلهم للرحمن هنا أجابهم عنه تعالى بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقد قدمنا طرفاً من هذا الكلام على هذه الآية؛ وقد قدمنا أيضاً أنهم يعلمون أن الرحمن هو الله، وأن تجاهلهم له تجاهل عارف، وأدلة ذلك. وقوله هنا: وزادهم نفوراً، جاء معناه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤١﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾، قد قدمنا كلام أهل العلم في معنى تبارك في أول هذه السورة الكريمة، والبروج في اللغة: القصور العالية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآية، فقال بعضهم: هي الكواكب

العظام. قال ابن كثير: وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة، ثم قال: وقيل هي قصور في السماء للحرس. ويروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر اللهم إلا تكون الكواكب العظام، هي قصور للحرس فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، اهـ. محل الغرض من كلام ابن كثير.

وقال الزمخشري في الكشف: البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، الأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، سميت البروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها، واشتقاق البرج من التبرج لظهوره، اهـ منه.

وما ذكره - جل وعلا - هنا من أنه جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وهو الشمس، وقمرأ منيراً، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَفَاجًا﴾ [النبا: ١٢] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلْنَا الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلْنَا الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١١] وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: وجعل فيها «سراجاً» بكسر السين وفتح الراء بعدها ألف على الإفراد، وقرأه حمزة والكسائي: «سرجاً» بضم السين، والراء جمع سراج، فعلى قراءة الجمهور بإفراد السراج، فالمراد به الشمس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجمع، فالمراد بالسرج الشمس، والكواكب العظام.

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ظاهر القرآن أن القمر في السماء المبنية لا السماء التي هي مطلق ما علاك؛ لأن الله بين في سورة الحجر، أن السماء التي جعل فيها البروج هي المحفوظة، والمحمولة هي المبنية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقوله: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا﴾ [النبا: ١٢] وليست مطلق ما علاك، والبيان المذكور في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧]، فأية الحجر هذه دالة على أن «ذات البروج» هي المبنية، المحفوظة لا مطلق ما علاك.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه - جل وعلا - في آية الفرقان هذه، بين أن القمر في السماء التي جعل فيها البروج؛ لأنه قال هنا: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الحجر: ١٦] وذلك دليل على أنها ليست مطلق ما علاك، وهذا الظاهر لا ينبغي للمسلم العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، مما جاء به محمد ﷺ.

فإن قيل: يوجد في كلام بعض السلف، أن القمر في فضاء بعيد من السماء، وأن علم الهيئة دل على ذلك، وأن الأرصاد الحديثة بينت ذلك.

قلنا: ترك النظر في علم الهيئة عمل بهدي القرآن العظيم؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لما تأقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه ﷺ، وقالوا له: يا نبي الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بديراً؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وهذا الباب الذي أرشد القرآن العظيم إلى سده لما فتحه الكفرة كانت نتيجة فتحه الكفر، والإلحاد وتكذيب الله ورسوله من غير فائدة دنيوية، والذي أرشد الله إليه في كتابه هو النظر في غرائب صنعه، وعجائبه في السماوات والأرض ليستبدل بذلك على كمال قدرته تعالى، واستحقاقه للعبادة وحده، وهذا المقصد الأساسي لم يحصل للناظرين في الهيئة من الكفار.

وعلى كل حال فلا يجوز لأحد ترك ظاهر القرآن العظيم إلا لدليل مقنع يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله.

ولا شك أن الذين يحاولون الصعود إلى القمر بآلاتهم ويزعمون أنهم نزلوا على سطحه سينتهي أمرهم إلى ظهور حقارتهم، وضعفهم، وعجزهم، وذله أمام قدرة خالق السماوات والأرض - جل وعلا -.

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْظُرُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١٠) جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) [الحجر].

فإن قيل: الآيات التي استدلت بها على أن القمر في السماء المحفوظة فيها احتمال على أسلوب عربي معروف، يقتضي عدم دلالتها على ما ذكرت، وهو عود الضمير إلى اللفظ وحده دون المعنى.

وإيضاحه أن يقال في قوله: ﴿جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هي السماء المحفوظة؛ ولكن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ راجع إلى مطلق لفظ السماء الصادق بمطلق ما علاك في اللغة، وهذا أسلوب عربي معروف وهو المعبر عنه عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] أي ولا ينقص من عمر معمر آخر.

قلنا: نعم هذا محتمل، ولكنه لم يقم عليه عندنا دليل يجب الرجوع إليه، والعدول عن ظاهر القرآن العظيم لا يجوز إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وظاهر القرآن أولى بالاتباع والتصديق من أقوال الكفرة ومقلديهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [الآية [مريم: ٤٧]].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ٦٤، ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن عباده الصالحين، يبيتون لربهم سجداً وقياماً يعبدون الله، ويصلون له، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَاتَاءَ الْإِيلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] وقوله تعالى: ﴿نَسْجَاتٍ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَمَنِّينَ﴾ ٦٥ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْإِيلِ مَا يَهْتَمُّونَ﴾ ٦٦ ﴿وَبِالْأَسْخَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ٦٧ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت: إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم، قال زهير:

فبيتنا قياماً عند رأس جوادنا
يزاولنا عن نفسه ونزاوله
انتهى بواسطة نقل القرطبي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ٦٨.

الأظهر أن معنى قوله: كان غراماً؛ أي كان لازماً دائماً غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا أي لازم له، مولع به.

وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. وقوله: ﴿لَا يَقْرَءُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقوله: ﴿لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢] وقوله: ﴿وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك، قاله القرطبي. وقول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يع

يعني يكن عذابه دائماً لازماً. وكذلك قول بشر بن أبي حازم:

ويوم النصار ويوم الجفا

ر كانا عذاباً وكان غراماً

وذلك هو الأظهر أيضاً في قول الآخر:

وما أكلة إن نلتها بغنيمة

ولا جوعة إن جعتها بغرام

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْرَبُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ٦٩. قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر: «ولم يقتروا» بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء مضارع أقرت الرباعي، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: «ولم يقتروا» بفتح المثناة التحتية، وكسر المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كضرب، وقرأه عاصم وحزمة،

والكسائي، «ولم يقتروا» بفتح المثناة التحتية، وضم المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كنصر، والإقتار على قراءة نافع وابن عامر، والقتر على قراءة الباقيين معناهما واحد، وهو التضييق المخل بسد الخلّة اللازم، والإسراف في قوله تعالى: «لم يسرفوا»، مجاوزة الحد في النفقة.

واعلم أن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن الله مدح عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون أي لا يضيّقون فيخلون بإنفاق القدر اللازم.

وقال بعض أهل العلم: الإسراف في الآية: الإنفاق في الحرام والباطل، والإقتار منع الحق الواجب، وهذا المعنى وإن كان حقاً فالأظهر في الآية هو القول الأول.

قال ابن كثير رحمته الله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾... الآية:

أي ليسوا مبذرين في إنفاقهم، فيصرفوا فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقصرّوا في حقهم فلا يكفّوهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا، ولا هذا، انتهى محل الغرض منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر. قواماً؛ أي عدلاً وسطاً سالماً من عيب الإسراف والقتر.

وأظهر أوجه الإعراب عندي في الآية هو ما ذكره القرطبي، قال: وقواماً خير كان واسمها مقدر فيها أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً، ثم قال: قاله الفراء، وباقي أوجه الإعراب في الآية ليس بوجه عندي كقول من قال: إن لفظة «بين» هي اسم كان، وأنها لم ترفع لبنائها بسبب إضافتها إلى مبني، وقول من قال: إن «بين» هي خبر كان، وقواماً حال مؤكدة له، ومن قال إنهما خبران كل ذلك ليس بوجه عندي، والأظهر الأول، والظاهر أن التوسط في الإنفاق الذي مدحهم به شامل لإنفاقهم على أهلهم، وإنفاقهم المال في أوجه الخير.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فمن ذلك أن الله أوصى نبيه عليه السلام بالعمل بمقتضاه في قول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي ممسكة عن الإنفاق إمساكاً كلياً، يؤدي معنى قوله هنا «ولم يقتروا». وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، يؤدي معنى قوله هنا: «لم يسرفوا». وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَأَنذَرْنَا قُرُونًا أَهْلًا مَّسْكِينًا وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ أَمْفَؤُهُ﴾ [البقرة: ٢١٩]. على أصح التفسيرين.

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في أول سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

مسألة: هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾... الآية والآيات التي ذكرناها معها، قد بينت أحد ركني ما يسمى الآن بالاقتصاد.

وإيضاح ذلك أنه لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصليين لا ثالث لهما.

الأول منهما: اكتساب المال.

والثاني منهما: صرفه في مصارفه، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج، ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرج جاهل بأوجه صرفه، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً في صرف المال في مصارفه المنتجة إلا أنه أخرج جاهل بأوجه اكتسابه. فإنه لا ينفعه حسن نظره في الصرف مع أنه لم يقدر على تحصيل شيء يصرفه، والآيات المذكورة أرشدت الناس ونهتهم على الاقتصاد في الصرف.

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين، وأن الآيات المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما وهو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر دلت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة، كالتجارات وغيرها، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَأُخْرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، والمراد بفضل الله في الآيات المذكورة ربح التجارة، وكقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحْتَ حَرِّكَ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقد قدمنا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاكْبَحُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾... الآية [الكهف: ١٩]. أنواع الشركات، وأسماءها، وبيننا ما يجوز منها وما لا يجوز عند الأئمة الأربعة، وأوضحنا ما اتفقوا على منعه، وما اتفقوا على جوازه، وما اختلفوا فيه، وبه تعلم كثرة الطرق التي فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة.

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصليين هما اكتساب المال وصرفه في مصارفه، فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين، لا بد له من أمرين ضروريين له:

الأول منهما: معرفة حكم الله فيه؛ لأن الله - جل وعلا - لم يبيح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق، وحرم بعضها كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولم يبيح الله - جل وعلا - صرف المال في كل شيء، بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا﴾...

الآية [البقرة: ٢٦١]. وقال تعالى في الصرف الحرام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الآية [الأنفال: ٣٦]، فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه أمر ضروري لا بد منه؛ لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال المكتسب من وجه حرام، لا خير فيه البتة، وقد يصرف المال في وجه حرام، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه.

الأمر الثاني: هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان مثلاً أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعاً، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال من ذلك الوجه الشرعي، وكم من متصرف يريد الربح، فيعود عليه تصرفه بالخسران، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح. وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشيء الفلاني مباح، وفيه مصلحة، ولكنه لا يهتدي إلى معرفة الصرف المذكور، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة، فإن جواز الصرف فيها معلوم، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة، لا يعلمه كل الناس، وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة:

الأول: معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال، واجتناب الاكتساب به، إن كان محرماً شرعاً.

الثاني: حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض، وما لا يبيحه.

الثالث: معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال، واجتناب المحرم منها.

الرابع: حسن النظر في أوجه الصرف، واجتناب ما لا يفيد منها، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلاً بمصلحته، وكان مرضياً لله - جل وعلا -، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك؛ لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها الله - جل وعلا - فلا خير في ماله، ولا بركة كما قال تعالى: ﴿يَمَسُّهُ اللَّهُ أَزِيدًا وَيُزِيهِ الصَّدَقَتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ ... الآية [المائدة: ١٠٠].

وقد تكلمنا على مسائل الربا في آية الربا في سورة البقرة وتكلمنا على أنواع الشركات وأسمائها، وبيننا ما يجوز منها وما لا يجوز في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ... الآية [الكهف: ١٩].

ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعاً؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم؛ لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين،

فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئاً منها يجوز شرعاً؛ لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئاً منها سالماً من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبي ﷺ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات، من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك؛ ولأنه لا ليل معه، بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِالْغَوَا مَرُّوا كَرَامًا﴾، أي إذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم كراماً مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم في لغوهم، وهو كل كلام لا خير فيه كما تقدم.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحه - جل وعلا - بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ ۝٤٥﴾ [القصص]، وقد قدمنا الآيات الدالة على معاملة عباد الرحمن للجاهلين، في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْقِئُكَ لَكُمْ رَبِّكَ...﴾ الآية [مريم: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٤٦﴾. قال الزمخشري: لم يخرؤا عليها ليس بنفي للخروج، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً، هو نفي للسلام لا للقاء.

والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها، حرصاً على استماعها وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بأذان واعية مبصرون بعيون راعية. انتهى محل الغرض منه.

ولا يخفى أن لهذه الآية الكريمة دالتين: دلالة بالمنطوق، ودلالة بالمفهوم، فقد دلت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمن، أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا، لم يكبوا عليها في حال كونهم صمماً عن سماع ما فيها من الحق، وعُميَاناً عن إبطاره، بل هم يكونون عليها سامعين ما فيها من الحق مبصرين له.

وهذا المعنى دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَايَتُهُمْ ءَاتَتْهُمْ إِيمَانًا ۝٢٠...﴾ الآية [الأنفال: ٢٠]. ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا القرآن، فزادته إيماناً أنه لم يخر عليها أصم أعمى. وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّتَافِي نَفْسِهِ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۝٢٣﴾ [الزمر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت الآية المذكورة أيضاً بمفهومها أن الكفرة المخالفين لعباد الرحمن

الموصوفين في هذه الآيات، إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً؛ أي لا يسمعون ما فيها من الحق، ولا يبصرونه، حتى كأنهم لم يسمعوها أصلاً.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة بمفهومها جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِ عَائِلَتَاكَ لَكَ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّثْهُ بَعْدَآبِ إِلَيْهِ ۖ﴾ [لقمان] وقوله تعالى في الجاثية: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ ءَايَاتَ اللَّهِ تُنْذِرُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ۖ﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مِزْرًا أَوْ لَتَاحَ لَهَا أُذُنًا مِّنْ عَذَابِ مُّهِينٍ ۖ﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ ءَايَاتُنَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ﴾ [الزمر] وأما الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ۚ﴾ الآية [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]؛ إلى غير ذلك من الآيات.

والظاهر أن معنى خزور الكفار على الآيات، في حال كونهم صماً وعمياناً، هو إكبابهم على إنكارها، والتكذيب بها، خلافاً لما ذكره الزمخشري في الكشف، والصم. في الآية، جمع أصم: والعميان؛ جمع أعمى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا كَسَبُوا﴾، الظاهر أن المراد بالغرفة في هذه الآية الكريمة جنسها الصادق بغرف كثيرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْفُرْقَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... الآية [الزمر: ٢٠]، وقد أوضحنا هذا في أول سورة الحج وفي غيرها، قوله تعالى: ﴿وَالْقُورَىٰ فِيهَا خَبِيرَةٌ وَسَلَامٌ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾ [يونس: ١٠].

قوله تعالى: ﴿حَلِيلِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْمَ الْتَوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الزمر: ٢١]، العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، يقولون: ما عبأت بفلان أي ما باليت به، ولا اكرثت به؛ أي ما كان له عندي وزن، ولا قدر يستوجب الاكتراث والمبالاة به، وأصله من العبء وهو الثقل، ومنه قول أبي زيد يصف أسداً:

كَأَن بَنَحْرَهُ وَيَمْنَكْبِيهِ عَبِيرًا بَاتَ يَعْبُؤُهُ عَرُوسُ

وقوله: يعبؤه؛ أي يجعل بعضه فوق بعض لمبالاته به واكرثته به.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن كلام أهل التفسير في هذه الآية الكريمة، يدور على أربعة أقوال.

واعلم أولاً أن العلماء اختلفوا في المصدر في قوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، هل هو

مضاف إلى فاعله، أو إلى مفعوله، وعلى أنه مضاف إلى فاعله فالمخاطبون بالآية، داعون: لا مدعون؛ أي «ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم»؛ أي عبادتكم له. وأما على أن المصدر مضاف إلى مفعوله فالمخاطبون بالآية، مدعون، لا داعون؛ أي ما يعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم إلى توحيده، وعبادته على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

واعلم أيضاً أن ثلاثة من الأقوال الأربعة المذكورة في الآية مبنية على كون المصدر فيها مضافاً إلى فاعله. والرابع: مبني على كونه مضافاً إلى مفعوله.

أما الأقوال الثلاثة المبنية على كونه مضافاً إلى فاعله:

فالأول منها أن المعنى ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم: أي عبادتكم له وحده - جل وعلا -، وعلى هذا القول فالخطاب عام للكافرين والمؤمنين ثم أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾... الآية.

والثاني منها أن المعنى لولا دعاؤكم أيها الكفار له وحده عند الشدائد والكروب؛ أي ولو كنتم ترجعون إلى شرككم، إذا كشف الضر عنكم.

والثالث أن المعنى ما يعبؤ بكم ربي؛ أي ما يصنع بعذابكم، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى، ولا يخفى بعد هذا القول، وأن فيه تقدير ما لا دليل عليه، ولا حاجة إليه. أما القول الرابع المبني على أن المصدر في الآية مضاف إلى مفعوله، فهو ظاهر أي ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤه إياكم على السنة رسله.

وإذا عرفت هذه الأقوال فاعلم أن كل واحد منها قد دل عليه قرآن، وسنين هنا - إن شاء الله تعالى - دليل كل قول منها من القرآن مع ذكر ما يظهر لنا أنه أرجحها.

أما هذا القول الأخير المبني على أن المصدر في الآية مضاف إلى مفعوله، وأن المعنى: ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان به، وتوحيده، وعبادته على السنة رسله، فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقوله في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة في خلقه السماوات والأرض، وجميع ما على الأرض والموت والحياة، هي أن يدعوهم على السنة رسله، ويبتليهم، أي أن يختبرهم أيهم أحسن عملاً.

وهذه الآيات تبين معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾

[الذاريات].

وفي هذه الآيات إيضاح؛ لأن معنى قوله: لولا دعاؤكم: أي دعاؤه إياكم على السنة رسله، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملاً، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: «فقد كذبتهم»: أي ما يعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم؛ أي وقد دعاكم فكذبتهم، وهذا القول هو وحده الذي لا إشكال فيه. فهو قوي بدلالة الآيات المذكورة عليه.

وأما القول بأن معنى: «لولا دعاؤكم» أي إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشهادت والكروب، فقد دلت على معناه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿جَاءَهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهذا القول وإن دلت عليه آيات كثيرة، فلا يظهر كونه هو معنى آية الفرقان هذه.

وأما القول بأن المعنى: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى، فقد دل على معناه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٩٧].

والقول الأول الذي هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلًا، وهو أن المعنى: «لولا دعاؤكم»: أي عبادتكم له وحده، قد دل عليه جميع الآيات الدالة على ما يعطيه الله لمن أطاعه، وما أعده لمن عصاه، وكثرتها معلومة لا خفاء بها.

واعلم أن لفظة «ما»، في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُ بَكُرِّي﴾ قال بعض أهل العلم: هي استفهامية، وقال بعضهم: هي نافية، وكلاهما له وجه من النظر.

واعلم أن قول من قال: لولا دعاؤكم؛ أي دعاؤكم إياي لأغفر لكم، وأعطيتكم ما سألتهم راجع إلى القول الأول؛ لأن دعاء المسألة داخل في العبادة كما هو معلوم. وقوله: فقد كذبتهم؛ أي بما جاءكم به رسول الله ﷺ.

وقد قدمنا في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا﴾ أن معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي سوف يكون العذاب ملازمًا لهم غير مفارق، كما تقدم إيضاحه.

وقال جماعة من أهل العلم: إن المراد بالعذاب اللازم لهم المعبر عن لزومه لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أنه ما وقع من العذاب يوم بدر؛ لأنهم قتل منهم سبعون وأسر سبعون، والذين قتلوا منهم أصابهم عذاب القتل، واتصل به عذاب البرزخ والآخرة، فهو ملازم لا يفارقهم بحال، وكون اللزام المذكور في هذه الآية: العذاب الواقع يوم بدر. نقله ابن كثير عن عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم، ثم قال: وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي يوم القيامة، ولا منافاة بينهما، انتهى من ابن كثير، ونقله صاحب الدر المنثور عن أكثر المذكورين وغيرهم.

وقال جماعة من أهل العلم: إن يوم بدر ذكره الله تعالى في آيات من كتابه، قالوا: هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَنَذِيقُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى﴾ [السجدة: ٢١] أي يوم بدر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، أي يوم القيامة، وأنه هو المراد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، وأنه هو المراد بالبطش والانتقام، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان] وأنه هو الفرقان الفارق بين الحق والباطل في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وهو يوم بدر، وأنه هو الذي فيه النصر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٢٣]، وكون المراد بهذه الآيات المذكورة يوم بدر ثبت بعضه في الصحيح، عن ابن مسعود، وهو المراد بقول الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في الكلام على بدر: وقد أتى منوهاً في الذكر.

لأنه العذاب واللعن وأنه البطش والانتقام
وأنه الفرقان بين الكفر والحق والنصر سجين الدهر
ومعنى سجين الدهر؛ أي مدته.

وأظهر الأقوال في الآية عندي، هو القول بأن المصدر فيها مضاف إلى مفعوله لجريانه على اللغة الفصيحة من غير إشكال ولا تقدير، وممن قال به قتادة، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف] وفي آخر سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾. أشار - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة إلى أن كثرة ما أنبت في الأرض، من كل زوج كريم؛ أي صنف حسن من أصناف النبات، فيه آية دالة على كمال قدرته.

وقد أوضحنا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك أن إحياء الأرض بعد موتها، وإنبات النبات فيها بعد عدمه، من البراهين القاطعة على بعث الناس بعد الموت.

وقد أوضحنا دلالة الآيات القرآنية على ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١ - ٢٢٢] وفي أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠) يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿... الآية [النحل: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿...﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرَتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّتْهُ رَيْبًا﴾ (٥٢) [مريم].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي ﴿...﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي بسبب أنني قتلت منهم نفساً، وفررت منهم لما خفت أن يقتلوني بالقتل الذي قتلته منهم، ويوضح هذا المعنى الترتيب بالفاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٣) [القصاص]؛ لأن من يخاف القتل فهو يتوقع التكذيب، وقوله: ﴿وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي﴾؛ أي من أجل العقدة المذكورة في قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (١٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿...﴾ [طه] قدمنا في الكلام على آية طه هذه بعض الآيات الدالة على ما يتعلق بهذا المبحث.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٢) [مريم].

قوله تعالى عن نبيه موسى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤)، لم يبين هنا هذا الذنب الذي لهم عليه الذي يخاف منهم أن يقتلوه بسببه، وقد بين في غير هذا الموضع أن الذنب المذكور هو قتله لصاحبه القبطي، فقد صرح تعالى بالقتل المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصاص] فقلوه: ﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ مفسر لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾؛ ولذا رتب بالفاء على كل واحد منهما، قوله: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وقد أوضح تعالى قصة قتل موسى له بقوله في القصاص: ﴿وَدَخَلَ الدَّيْنَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصاص: ١٥] وقوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله، وذلك هو الذنب المذكور في آية الشعراء هذه.

وقد بين تعالى أنه غفر لنبيه موسى ذلك الذنب المذكور، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ ... الآية [القصاص: ١٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَبْنَيْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (١٥)، صيغة الجمع في قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ للتعظيم، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من رده على موسى خوفاً القتل من فرعون وقومه، بحرف الزجر الذي هو كلا، وأمره أن يذهب هو وأخوه بأبياته مبيناً لهما أن الله معهم؛ أي وهي معية خاصة بالنصر والتأييد، وأنه مستمع لكل ما يقول لهم فرعون، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) [طه]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُدُ لَكُمَا سُلْطَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَبْنَيْنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٢٥) [القصص].

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم وطه، وبيننا في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وجه تشبيه الرسول في طه، وإفراده هنا في الشعراء مع شواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، تربية فرعون لموسى هذه التي ذكرها له هي التي ذكر مبدؤها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ أَمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكْ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنِيَ أَوْ نَتَخِذُمْ لَكَ وَهْمًا لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١) [القصص] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابًا مَنِيٍّ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ... الآية [طه: ٣٩].

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧)، أبهم - جل وعلا - هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: «التي فعلت»، وقد أوضحها في آيات آخر، وبين أن الفعل المذكورة هي قتله نفساً منهم كقوله تعالى: ﴿فَوَكَّرْنَا مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ ... الآية [القصص: ٢٣]. وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث بموسى مرتين ﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

وأظهر الأقوال عندي في معنى قوله: وأنت من الكافرين: أن المراد به كفر النعمة، يعني أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيراً، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفساً منا، وبأقوال تركناه؛ لأن هذا أظهرها عندنا.

وقال بعض أهل العلم: رد موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعِمْتَ تَنْهَا عَلَى أَنْ عَبْدَتْ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) يعني تعبيدك لقومي، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إليّ لأنني رجل واحد منهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٣). أي قال موسى مجيباً لفرعون: فعلتها إذا؛ أي إذ فعلتها وأنا في ذلك الحين من الضالين؛ أي قبل أن يوحى الله إليّ، ويعني رسولاً، وهذا هو التحقيق إن شاء الله في معنى الآية.

وقول من قال من أهل العلم: وأنا من الضالين، أي من الجاهلين، راجع إلى ما ذكرنا؛ لأنه بالنسبة إلى ما علمه الله من الوحي يعتبر قبله جاهلاً؛ أي غير عالم بما أوحى الله إليه.

وقد بينا مراراً في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الإطلاق الأول: يطلق الضلال مراداً به الذهاب عن حقيقة الشيء. فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء: ضل عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين.

ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأنني في ذلك الوقت لم يوح إلي ومنه على التحقيق ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى] أي ذاهباً عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه] فقوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يذهب عنه علم شيء كائن ما كان، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا زَاطِلِينَ فَرَجَّلُ الْأَمْرَ الْأَكْبَرُ وَمَنْ تَرَضَّوْنِ مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٩٥] على التحقيق في ذلك كله. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة وفي القرآن، هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحق إلى الباطل، وعن طريق الجنة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضل الشيء؛ إذا غاب واضمحل، ومنه قولهم: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه واضمحل، ولأجل هذا سمت العرب الدفن في القبر إضلالاً؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية [السجدة: ١٠]، يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض، فضلوا فيها؛ أي غابوا فيها واضمحلوا.

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن، قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحرث بن أبي شمر الغساني:

فإن تحيى لا أملك حياتي وإن تمت
فأب مضلوه بعين جلية
وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم:

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها وفارسها في الدهر قيس بن عاصم
فقول الذبياني: فأب مضلوه: يعني فرجع دافنوه، وقول السعدي: أضلت أي دفنت.
ومن إطلاق الضلال أيضاً على الغيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكرد مزيد
قذف الأتي به فضل ضلالاً
وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن النحي المضلل أين ساروا
وزعم بعض أهل العلم: أن للضلال إطلاقاً زائلاً: قال: ويطلق أيضاً على المحبة
قال: ومنه قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ﴾ [يوسف] قال: أي في حبك
القديم ليوسف، قال ومنه قول الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا والعارضين ولم أكن متحققا
عجباً لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبيلها قد أخلقا
وزعم أيضاً أن منه قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ [الضحى: ٧] قال: أي محباً للهداية
فهذا، ولا يخفى سقوط هذا القول. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾. خوفه منهم هذا الذي ذكر
هنا أنه سبب لفراره منهم، قد أوضحه تعالى وبين سببه في قوله: ﴿وَجَاءَ رِجُلٌ مِنْ أَقْصَا
الْمَدْيَنَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِيُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [طه] فخرج
منها خائفاً يَرْقُبُ قَالَ رَبِّ يَخِشِي مِنَ الْفُورِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ [القصص] وبين خوفه المذكور بقوله
تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدْيَنَةِ خَائِفاً يَرْقُبُ﴾... الآية [القصص: ١٨].

قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة
لابتداء رسالته المذكورة هنا في سورة مريم وغيرها، وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ قال
بعضهم: الحكم هنا هو النبوة، ومن يروى عنه ذلك: السدي.

والأظهر عندي أن الحكم هو العلم النافع الذي علمه الله إياه بالوحي، والعلم
عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن
فرعون لا يعلم شيئاً عن رب العالمين، وكذلك قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ
يَمُوسَى﴾ [طه] وقوله: ﴿مَا ظَلَمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرٍ﴾ [القصص: ٣٨] وقوله: ﴿لَيْسَ
أَتَّخَذْتُ لِنَفْسِي غَيْرٍ لَأُخَلِّقَنَّكَ مِنَ التَّسْمِينِ﴾. ولكن الله - جل وعلا - بين أن سؤال فرعون

في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ زَكَّاهُ يَكُونُ﴾ تجاهل عارف أنه عبد مربوط لرب العالمين بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفُرُونَ مَشْهُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦] وقوله تعالى في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد أوضحنا هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ زَكَّاهُ يَكُونُ﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أُولُو حِشْيَتِكَ يَتْلُو فِيهِ﴾ [٢٥] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٢٦] فَأَتَى عَصَاهُ... إلى آخر القصة. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة طه، والأعراف. قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ تَبَاً إِزْهِيمَ﴾ [٢٩] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [٣٠] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَفْكَفِينَ [٣١] إلى قوله: ﴿إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِزْهِيمَ﴾... الآيات [مريم: ٤١].

قوله تعالى: ﴿فَكَبُكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَارُونَ﴾ [٤٤] وَجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [٤٥]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦] وفي الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥٦] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا جُزْءٌ مَقْسُومٌ [٥٧] [الحجر].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ [٩٦] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٩٧] إِذْ سُؤِيتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٩٨]. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن أهل النار يختصمون فيها جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [٥٦] قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩ - ٦٤].

وقد قدمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَاكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لَأُولِيهِمْ رِسَالًا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وفي سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا... الآية [البقرة: ١٦٦]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٧] إِذْ سُؤِيتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٩٨]، قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَرْعِينَ﴾ [١٠٠]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ... الآية [البقرة: ٤٨]. وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شَفَعَةٍ فَيُشَفِّعُوا لَنَا﴾... الآية [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. دلت هذه الآية الكريمة على

أمرين:

الأول منهما أن الكفار يوم القيامة، يتمنون الرد إلى الدنيا؛ لأن «لو» في قوله هنا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا﴾ للتمني، والكرة هنا: الرجعة إلى الدنيا. وأنهم زعموا أنهم إن ردوا إلى الدنيا كانوا من المؤمنين المصدقين للرسول فيما جاءت به، وهذان الأمران قد قدمنا الآيات الموضحة لكل واحد منهما.

أما تمنيهما الرجوع إلى الدنيا فقد أوضحناه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وأما زعمهم أنهم إن ردوا إلى الدنيا آمنوا، فقد بينا الآيات الموضحة له في الأعراف في الكلام على الآية المذكورة، وفي الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾. قد قدمنا الكلام عليها في سورة الحج، وفي غيرها، وتكلمنا على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب. وبيننا الآيات الموضحة لذلك في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود في الكلام على قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَا تَرْجُوكَ أَنَّ تَعْبَثَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلْثٍ﴾ [هود: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قد قدمنا ما يدل عليه من القرآن في سورة هود في الكلام على قوله تعالى عن نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِئُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠]. الآية [هود: ٢٩، ٣٠].

وأوضحناه بالآيات القرآنية في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَقَرَّدُ هُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾. فافتح بيني وبينهم فتحةً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾.

قوله تعالى هنا عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾. أوضحه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ وَاسْتَشْغَوْا شِيَابَهُمْ وَاصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقوله هنا: ﴿فَأَفْتَحْ يَبْنَ وَيَسْئَلُهُمْ فِتْحًا﴾ أي احكم بيني وبينهم حكماً، وهذا الحكم الذي سأل ربه إياه هو إهلاك الكفار، وإنجاؤه هو ومن آمن معه، كما أوضحه تعالى في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا عن نوح: ﴿وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد بين في آيات كثيرة أنه أجاب دعاءه هذا كقوله هنا ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [١١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ ... الآية [العنكبوت: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [٥٧] وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [٧٦] [الصفات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقوله هنا: ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ [١٢٢] جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الطُّوفَانَ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات، والمشحون: المملوء، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

شحننا أرضهم بالخييل حتى تركناهم أذل من الصراط

والفلك: يطلق على الواحد والجمع، فإن أطلق على الواحد جاز تذكيره كقوله هنا: ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ وإن جمع أنت، والمراد بالفلك هنا السفينة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ ... الآية [العنكبوت: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧٦]. قال أكثر أهل العلم: إن أصحاب الأيكة هم مدين. قال ابن كثير: وهو الصحيح، وعليه فتكون هذه الآية بينها الآيات الموضحة قصة شعيب مع مدين، ومما استدل به أهل هذا القول أنه قال هنا لأصحاب الأيكة: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [٧٦] وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ [٨٧] وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٨٧] وهذا الكلام ذكر الله عنه أنه قاله لمدين في مواضع متعددة كقوله في هود: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة الأعراف قولنا: فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر الله - جل وعلا - في الأعراف أنه رجفة، وذكر في هود أنه صيحة، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب ما قاله ابن كثير رحمته الله في تفسيره، قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله؛ أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمت فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، انتهى.

وعلى القول بأن شعيباً أرسل إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وأن مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة فلا إشكال. وقد جاء ذلك في حديث ضعيف عن عبد الله بن عمرو، وممن روي عنه هذا القول: قتادة، وعكرمة، وإسحاق بن بشر.

وقد قدمنا بعض الآيات الموضحة لهذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَنُظَاهِرِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْفَعْنَا مِنْهُمُ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]، وأوضحنا هنالك أن نافعاً، وابن عامر، وابن كثير قرأوا ليكة في سورة الشعراء، وسورة ﴿ص﴾ بلام مفتوحة أول الكلمة، وتاء مفتوحة آخرها من غير همز. ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف، وأن الباقيين قرأوا: «الأيكة» بالتعريف، والهمز وكسر التاء، وأن الجميع اتفقوا على ذلك في ق والحجر. وأوضحنا هنالك توجيه القراءتين في الشعراء و﴿ص﴾ ومعنى الأيكة في اللغة مع بعض الشواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ ﴿٧٨﴾. الجبللة الخلق ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاً كَثِيراً﴾ وقد استدل بآية ﴿يَس﴾ ﴿١﴾ [يس] المذكورة على آية الشعراء هذه: ابن زيد، نقله عنها ابن كثير. ومن ذلك قول الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبللة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٨٠﴾. أكد - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، وأنه نزل به الروح الأمين الذي هو جبريل على قلب نبينا - صلى الله عليه وسلم -، ليكون من المنذرين به، وأنه نزل عليه بلسان عربي مبين، وما ذكره - جل وعلا - هنا أوضحه في غير هذا الموضع. أما كون هذا القرآن تنزيل رب العالمين: فقد أوضحه - جل وعلا - في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْمٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ نَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿٤﴾ [طه] وقوله تعالى: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ [الزمر] وقوله: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ١ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿يَس﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ [يس] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٨﴾﴾ بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي نزل به عليك لأجل أن تكون من المنذرين به، جاء مبيناً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿الْمَصَّ

﴿ كُنْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، أي أنزل إليك لتنذر به، وقوله تعالى: ﴿ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [التنزيل: قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ] [يس: ٥، ٦]. وقوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [١٩٥] ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿ كُنْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [فصلت: ٣].

وقد بينا معنى اللسان العربي بشواهد في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقد أوضحنا معنى إنزال جبريل القرآن على قلبه ﷺ بالآيات القرآنية في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ [١٩٨] فَقَرَأُوا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١٩٩]. قد قدمنا هذه الآية الكريمة، مع ما يوضحها من الآيات في النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ... الآية [النحل: ١٠٣].

واعلم أن كل صوت غير عربي تسميه العرب أعجم، ولو من غير عاقل، ومنه قول حميد بن ثور يذكر صوت حمامة:

فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجما

قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [٢٠٠] لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٢٠١]، قوله: سلكناه؛ أي أدخلناه كما قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، والشواهد العربية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا أَمْجُلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ... الآية [هود: ٤٠]، والضمير في سلكناه قيل: للقرآن، وهو الأظهر، وقيل، للتكذيب والكفر المذكور في قوله: ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾، وهؤلاء الكفار الذين ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم: هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب، وسبق في علم الله: أنهم أشقياء كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢١١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٢١٢] [يونس] وقد أوضحنا شدة تعنت هؤلاء، وأنهم لا يؤمنون بالآيات في سورة الفرقان وفي سورة بني إسرائيل وغيرهما. وقوله: ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي كذلك السلك أي الإدخال. سلكناه: أي أدخلناه في قلوب المجرمين، وإيضاحه على أنه القرآن أن الله أنزله على رجل عربي فصيح بلسان عربي مبين، فسمعه وفهموه لأنه بلغتهم، ودخلت معانيه في قلوبهم، ولكنهم لم يؤمنوا به؛ لأن كلمة العذاب حقت عليهم، وعلى أن الضمير في سلكناه للكفر والتكذيب فقوله عنهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يدل على إدخال الكفر والتكذيب في قلوبهم، أي كذلك السلك سلكناه إلخ.

قوله تعالى: ﴿فَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (١٣٢). لفظة «هل» هنا يراد بها التمني، والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار؛ أي الإمهال، وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحاً، وأنهم لم يجابوا إلى ما طلبوا، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَلِيمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (١٣٤). [إبراهيم] وأوضح أنهم لا ينظرون في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَفَعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٣٦). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾... الآية [الرعد: ٦]، وذكرنا طرفاً منه في سورة «يونس» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنُكُم عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٣٦) أَمَّا إِذَا مَا وَعَقَّ آمَنُكُمْ بِهِ ءَاكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَاسِعِينَ﴾ (١٣٦) [يونس].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (١٣٧) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٣٧) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾ (١٣٧). قد قدمنا إيضاحه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُم لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍهُ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرَبَةٍ إِلَّا مَا مَنُذَرُونَ﴾ (١٣٨). قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٣٩).

قد قدمنا الآيات الدالة عليه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٤٠) [يونس: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَتَكُ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤١) [النساء] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ذكرى أعربه بعضهم مرفوعاً، على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي هذه ذكرى، وأعربه بعضهم منصوباً، وفي إعرابه على أنه منصوب أوجه:

منها أنه ما ناب عن المطلق من قوله: منذرون لأن أنذر وذكر متقاربان.

ومنها أنه مفعول من أجله؛ أي منذرون من أجل الذكرى بمعنى التذكرة.

ومنها أنها حال من الضمير في منذرون؛ أي يندرونهم في حال كونهم ذوي تذكرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (١٤٢).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١١) وَحَفِظْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٦، ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٢١٣). قد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٢) بالدليل القرآني أن النبي ﷺ يخاطب بمثل هذا الخطاب، والمراد التشريع لأُمَّته مع بعض الشهود العربية، وقوله هنا ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾... الآية. جاء معناه في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ (٢١٣) [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤). هذا الأمر في هذه الآية الكريمة بإنذاره خصوص عشيرته الأقربين، لا ينافي الأمر بالإنذار العام، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَتُنْذِرْ بِهِ قَوْمًا لَدَّا﴾ [مريم: ٩٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَيمَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقد وعدنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَابْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] بأننا نوضح معنى خفض الجناح، وإضافته إلى الذل في سورة الشعراء في هذا الموضع، وهذا وفاؤنا بذلك الوعد، وبكفيينا في الوفاء به أن ننقل كلامنا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز».

فقد قلنا فيها ما نصه: والجواب عن قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤] أن الجناح هنا مستعمل في حقيقة؛ لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه. قال تعالى: ﴿وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي، الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه، ومظهر الذل والتواضع يخفض جناحيه، فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما والتواضع لهما، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥)، وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع، ولين الجانب: أسلوب معروف، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح ح فلا تك في رفعه أجدا

وأما إضافة الجناح إلى الذل، فلا تستلزم المجاز كما يظنه كثير؛ لأن الإضافة فيه كالإضافة في قولك: حاتم الجود.

فيكون المعنى: واخفض لهما الجناح الذليل من الرحمة، أو الذلول على قراءة الذل بالكسر، وما يذكر عن أبي تمام من أنه لما قال:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل فقال له: صب لي في هذا الإناء شيئاً من ماء الملام، فقال له: إن أتيتني بريشة من جناح الذل صبت لك شيئاً من ماء الملام، فلا حجة فيه؛ لأن الآية لا يراد بها أن للذل جناحاً، وإنما يراد بها خفض الجناح المتصف بالذل للوالدين من الرحمة بهما، وغاية ما في ذلك إضافة الموصوف إلى صفته كحاتم الجود، ونظيره في القرآن الإضافة في قوله: ﴿مَطَرُ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠] ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي مطر حجارة السجيل الموصوف بسوء من وقع عليه، وعذاب أهل النار الموصوف بهون من وقع عليه. والمسوغ لإضافة خصوص الجناح إلى الذل مع أن الذل من صفة الإنسان لا من صفة خصوص الجناح، أن خفض الجناح كُني به عن ذل الإنسان، وتواضعه ولين جانبه لوالديه رحمة بهما، وإسناد صفات الذات لبعض أجزائها من أساليب اللغة العربية، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ﴾ [العلق: ١١]، وإسناد الخشوع والعمل والنصب إلى الوجوه في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن وفي كلام العرب. وهذا هو الظاهر في معنى الآية، ويدل عليه كلام السلف من المفسرين.

وقال العلامة ابن القيم رحمته الله في الصواعق: إن معنى إضافة الجناح إلى الذل أن للذل جناحاً معنوياً يناسبه لا جناح ريش. والله تعالى أعلم، انتهى. وفيه إيضاح معنى خفض الجناح.

والتحقيق أن إضافة الجناح إلى الذل من إضافة الموصوف إلى صفته كما أوضحنا. والعلم عند الله تعالى. وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَلْعَاكِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما قوله: ﴿لَيْنَ أَلْعَاكِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟.

قلت: فيه وجهان؛ أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين، لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألستهم وهم صنفان: صنف صدق واتبع رسول الله ﷺ فيما جاء به، وصنف لم يوجد منهم إلا التصديق فحسب، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق، لا يخفض لهما الجناح.

والمعنى: المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، أي أئذ قومك، فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فترأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره، انتهى منه.

والأظهر عندي في قوله: ﴿لَيْنَ أَلْعَاكِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه نوع من التوكيد يكثر مثله في القرآن العظيم كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٦٧]، ومعلوم أنهم

إنما يقولون بأفواههم. وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ومعلوم أنهم إنما يكتبونه بأيديهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (١٧) الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ (١٨) وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ (١٩). قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحته، وذكرنا أمثلة متعددة لذلك في الترجمة وفيما مضى من الكتاب.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله هنا: ﴿وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾ (١٨) قال فيه بعض أهل العلم: المعنى: وتقلب في أصلاب آباءك الساجدين؛ أي المؤمنين بالله كآدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل.

واستدل بعضهم لهذا القول فيمن بعد إبراهيم من آباءه بقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وممن روي عنه هذا القول ابن عباس. نقله عنه القرطبي، وفي الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول وهي قوله تعالى قبله مقترناً به: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (١٨) فإنه لم يقصد به أنه يقوم في أصلاب الآباء إجماعاً، وأول الآية مرتبط بآخرها؛ أي الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من فراشك، ومجلسك ﴿وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩) أي المصلين، على أظهر الأقوال؛ لأنه ﷺ يتقلب في المصلين قائماً وساجداً وراكعاً، وقال بعضهم: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (١٨) أي إلى الصلاة وحدك ﴿وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩) أي المصلين إذا صليت بالناس.

وقوله هنا: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (١٨) ... الآية. يدل على الاعتناء به ﷺ، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ... الآية [الطور: ٤٨].

وقوله: «وتوكل» قرأه عامة السبعة غير نافع وابن عامر: وتوكل بالواو، وقرأه نافع وابن عامر «فتوكل» بالفاء، وبعض نسخ المصحف العثماني فيها الواو وبعضها فيها الفاء، وقوله هنا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (١٧) قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفاتحة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وبسطنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع بيان معنى التوكل في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْعَرَاهُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٠)، الشعراء: جمع شاعر كجاهل وجهلاء، وعالم وعلماء، والغاؤون: جمع غاو وهو الضال، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يدل على أن اتباع الشعراء من اتباع الشيطان بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٢١] وقرأ هذا الحرف نافع وحده: «يتبعهم» بسكون التاء المثناة، وفتح الباء الموحدة، وقرأه الباقون «يتبعهم» بتشديد المثناة، وكسر الموحدة ومعناها واحد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يدل على تكذيب الكفار في دعواهم، أن النبي ﷺ شاعر؛ لأن الذين يتبعهم الغاؤون، لا يمكن أن يكون النبي ﷺ منهم.

ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات مبيناً أنهم ادعوا عليه ﷺ أنه شاعر وتكذيب الله لهم في ذلك، أما دعواهم أنه ﷺ شاعر، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلُّنَا أَهْلَكُم بِكُلِّ آفَاتِهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾... الآية [الأنبياء: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهِتَنَا لِنُشَاقِيَ تَحْتُونِ﴾ [الصافات: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٢٠] وأما تكذيب الله لهم في ذلك، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهِتَنَا لِنُشَاقِيَ تَحْتُونِ﴾ [الصافات: ٢٦] ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٢٧]؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ [الصافات: ٣٧]. تكذيب لهم في قولهم: (إنه شاعر مجنون).

وقد ساق المؤلف رحمه الله جملة أمور فيها ما يتعلق بحفظ الشعر وقوله فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

هذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون، بين في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده - جل وعلا -، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢] كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، والمقت في لغة العرب: البغض الشديد. فقول الإنسان ما لا يفعل كما ذكر عن الشعراء ييغضه الله، وإن كان قوله ما لا يفعل فيه تفاوت، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾... الآية [الكهف: ٢]. مع شواهد العربية.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أثنى الله تعالى في هذه الآية الكريمة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بذكرهم الله كثيراً، وهذا الذي أثنى عليهم به هنا من كثرة ذكر الله، أمر به في آيات أخرى وبين جزاءه. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [١] وَسَيُحَوِّ بِكْرًا وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٢] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. وقال تعالى: ﴿وَالذِّكْرَيْنِ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَيْنِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له كقوله

تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢] في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. المنقلب هنا المرجع والمصير، والأظهر أنه هنا مصدر ميمي، وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف كان كل من مصدره الميمي، واسم مكانه واسم زمانه على صيغة اسم المفعول.

والمعنى: وسيعلم الذين ظلموا أي مرجع يرجعون، وأي مصير يصيرون. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن الظالمين سيعلمون يوم القيامة المرجع الذي يرجعون؛ أي يعلمون العاقبة السيئة التي هي مآلهم، ومصيرهم ومرجعهم، جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر]، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَرُ لِمَ عُقِبِيَ الَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ بِإِلَهِهِمْ﴾ [الرعد: ٤٢] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقوله: ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ وليس مفعولاً به لقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾، قال القرطبي رحمه الله: وأي منصوب بـ: «ينقلبون»، وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بسيعلم؛ لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكره النحويون، قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر، فلو عمل فيه ما قبله، لدخل بعض المعاني في بعض، انتهى منه. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾. إلى آخر القصة. تقدم إيضاحه في مريم وطه والأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾.

قد قدمنا أنها وراثه علم ودين لا وراثه مال في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ﴾... الآية [مريم: ٥، ٦]، وبيننا هناك الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥). تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّونَ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرِئُونَ وَمَا يَظُنُّونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ (٢٦) [هود].

وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الْآيَةَ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٢٧) [النجم].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ قال بعض أهل العلم: الخبأ في السموات: المطر، والخبأ في الأرض: النبات، والمعادن، والكنوز، وهذا المعنى ملائم لقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ وقال بعض أهل العلم: الخبأ: السر والغيب أي يعلم ما غاب في السموات والأرض، كما يدل عليه قوله بعده: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وكقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا مِنْ عَلَیْهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢٥) وقوله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] كما أوضحناه في سورة هود.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير الكسائي: «ألا يسجدوا لله» بتشديد اللام في لفظة ألا، ولا خلاف على هذه القراءة أن «يسجدوا» فعل مضارع منصوب بأن المدغمة في لفظة لا، فالفعل المضارع على هذه القراءة، وأن المصدرية المدغمة في «لا» ينسبك منهما مصدر في محل نصب على الأظهر، وقيل: في محل جر، وفي إعرابه أوجه:

الأول: أنه منصوب على أنه مفعول من أجله؛ أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، من أجل ألا يسجدوا لله؛ أي من أجل عدم سجودهم لله، أو فصدهم عن السبيل، لأجل ألا يسجدوا لله، وبالأول قال الأخفش. وبالثاني قال الكسائي، وقال البيهقي وغيره: هو منصوب على أنه بدل من أعمالهم؛ أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، ألا يسجدوا أي عدم سجودهم، وعلى هذا فأعمالهم هي عدم سجودهم لله.

وهناك مسائل لغوية معلقة بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ قرأه حفص والكسائي بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأه الباقون: يخفون، ويعلنون بالتحية على الغيبة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾. جاء معناه موضحاً في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ عَذَابٍ كَرِيمٍ﴾.

جاء معناه موضحاً أيضاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَقُولُوا لَأَنصَنَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُ عِثٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنتَهُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَفِيُّ وَأَنتَهُ الْفُقَرَاءُ وَإِلَى اللَّهِ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٤٥]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحاً إلى ثمود، فإذا هم فريقان يختصمون. ولم يبين هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنكَ صَالِحًا تُرْسِلُ مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٧٦] [الأعراف] فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة: الخصومة في الكفر والإيمان.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ لَهُمُ اسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧]. قوله «اطيرنا بك»: أي تشاء منا بك، وكان قوم صالح إذا نزل بهم قحط أو بلاء أو مصائب قالوا: ما جاءنا هذا إلا من شؤم صالح، ومن آمن به. والتطير: التشاؤم، وأصل اشتقاقه من التشاؤم بزجر الطير. وقد بينا كيفية التشاؤم والتيامن بالطير في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال بعض أهل العلم؛ أي سبيكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، فالشر الذي أصابكم بذنوبكم لا بشؤم صالح ومن آمن به من قومه.

وقد قدمنا معنى طائر الإنسان في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَمَتَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تشاؤم الكفار بصالح، ومن معه من المؤمنين جاء مثله موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في تشاؤم فرعون وقومه بموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٣] [الأعراف] وقوله تعالى في تطير كفار قريش بنينا ﷺ: ﴿وَإِن تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] والحسنة في الآيتين النعمة كالرزق والخصب،

والعافية. والسيئة المصيبة بالجدب والقحط، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ أَمْ تَنْهَوْنَا لَتَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٨، ١٩]؛ أي بليتكم جاءكم من ذنوبكم، وكفركم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. قال بعض العلماء: تختبرون. وقال بعضهم: تعذبون كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٣٢) [الذاريات]. وقد قدمنا أن أصل الفتنة في اللغة، وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص؟ وأنها أطلقت في القرآن على أربعة معان:

الأول: إطلاقها على الإحراق بالنار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٣٢) [الذاريات] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين. وقد اختاره بعض المحققين.

المعنى الثاني: إطلاق الفتنة على الاختبار، وهذا هو أكثرها استعمالاً كقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (١١) لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ [الحج: ١٦ - ١٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

الثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال كقوله تعالى: ﴿وَقَبِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] أي حتى لا يبقى شرك، وهذا التفسير الصحيح، دل عليه الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد دل عليه في قوله بعده في البقرة: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] فإنه يوضح أن معنى لا تكون فتنة، أي لا يبقى شرك؛ لأن الدين لا يكون كله لله، ما دام في الأرض شرك كما ترى.

وأما السنة ففي قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله» الحديث. فقد جعل ﷺ الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس، هي شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ وهو واضح في أن معنى: لا تكون فتنة: لا يبقى شرك، فالآية والحديث كلاهما دال على الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفار هي ألا يبقى في الأرض شرك، إلا أنه تعالى في الآية عبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] وقد عبر ﷺ عنه بقوله: «حتى يشهدوا ألا إله إلا الله» فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى. كما ترى.

الرابع: هو إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) [الأنعام] أي لم تكن حجتهم، كما قاله غير واحد. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٢١)، قد دلت هذه الآية الكريمة على أن نبي الله صالحاً - عليه وعلى

نبينا الصلاة والسلام - نفعه الله بنصرة وليه؛ أي أوليائه؛ لأنه مضاف إلى معرفة، ووجه نصرتهم له، أن التسعة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَكَاثَ فِي الدِّينَةِ سَعَةً رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٥١) قَالُوا نَقَاسُمُوكَ أَي تَحَالَفُوا ﴿بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾؛ أي لنباغتنه بيئاتاً؛ أي ليلاً فنقتله ونقتل أهله معه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي أوليائه وعصبته: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي ولا مهلكه هو، وهذا يدل على أنهم لا يقدر أن يقتلوه علناً، لنصرة أوليائه له، وإنكارهم شهود مهلك أهله دليل على خوفهم من أوليائه. والظاهر أن هذه النصرة عصبية نسيبة لا تمت إلى الدين بصلة، وأن أوليائه ليسوا مسلمين.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْتَحِبُّ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾... الآية [هود: ٩١]. وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقوله تعالى في هذه الآية: «تقاسموا»: التحقيق أنه فعل أمر محكي بالقول. وأجاز الزمخشري، وابن عطية أن يكون ماضياً في موضع الحال، والأول هو الصواب إن شاء الله، ونسبه أبو حيان للجمهور، وقوله في هذه الآية: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: التحقيق فيه أنهم كاذبون في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ كما لا يخفى، وبه تعلم ما تكلفه الزمخشري في الكشف من كونهم صادقين لا وجه له كما نبه عليه أبو حيان، وأوضحه وقرأ عامة السبعة غير حمزة والكسائي «لنبيته» بالنون المضمومة بعد اللام، وفتح الفوقية المثناة التي بعد التحتية المثناة. وقرأ حمزة والكسائي: «لنبيته» بالتاء الفوقية المضمومة بعد اللام، وضم التاء الفوقية التي بعد الياء التحتية، وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائي: «ثم لنقولن» بالنون المفتوحة، موضع التاء، وفتح اللام الثانية، وقرأ حمزة والكسائي: «ثم لنقولن» بفتح التاء الفوقية بعد اللام الأولى، وضم اللام الثانية، وقرأ عاصم: «مهلك أهله» بفتح الميم، والباقون بضمها، وقرأ حفص عن عاصم: «مهلك» بكسر اللام والباقون بفتحها.

فحصل أن حفصاً عن عاصم قرأ «مهلك» بفتح الميم وكسر اللام، وأن أبا بكر أعني شعبة قرأ عن عاصم: «مهلك» بفتح الميم واللام، وأن غير عاصم قرأ «مهلك» أهله بضم الميم وفتح اللام، فعلى قراءة من قرأ «مهلك» بفتح الميم، فهو مصدر ميمي من هلك الثلاثي، ويحتمل أن يكون اسم زمان أو مكان. وعلى قراءة من قرأ «مهلك» بضم الميم، فهو مصدر ميمي من أهلك الرباعي، ويحتمل أن يكون أيضاً اسم مكان أو زمان.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ (٥٣). ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في

الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي وهم قوم صالح وئمود ﴿فَبَلَكَ بُيُوتَهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي خالية من السكان إهلاك جميع أهلها ﴿يَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم. وقال بعضهم: خاوية: أي ساقطاً أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه - جل وعلا - جعل إهلاكه قوم صالح آية: أي عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهم نبي الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها - جل وعلا - هنا جاءت موضحة في آيات أخر.

أما إنجاؤه نبيه صالحاً، ومن آمن به وإهلاكه ئمود، فقد أوضحه - جل وعلا - في مواضع من كتابه كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رَحِمَةً مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جثيم ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّا ئُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بُدَا لئُئْمُودَ﴾ [هود]. وآية هود هذه قد بينت أيضاً التدمير المجمل في آية النمل هذه، فالتدمير المذكور في قوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بينت آية هود أنه إهلاك بالصيحة، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثِيمَ﴾ [هود] أي وهم موتى، وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية، فقد أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى فيهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كانت أكثرهم مؤمنين ﴿وَلِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو. وابن عامر: إنا دمرناهم بكسر همزة «إنا» على الاستئناف، وقرأه الكوفيون وهم: عاصم وحمزة والكسائي: «أنا دمرناهم» بفتح همزة «أنا». وفي إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها على قراءة الكوفيين أوجه، منها أنه بدل من عاقبة مكرهم، ومنها أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره هي؛ أي عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم.

وهذان الوجهان، هما أقرب الأوجه عندي للصواب، ولذا تركنا غيرهما من الأوجه، والضمير في قوله: «مكرهم» وفي قوله: «دمرناهم» راجع إلى التسعة المذكورين، في قول تعالى: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ الآية. وقوله: ﴿خَاوِيَةً﴾ حال من بيوتهم، والعامل فيه الإشارة الكامنة في معنى «تلك».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود في الكلام على قصة لوط وقومه، وبيننا هناك كلام أهل العلم ومناقشة أدلهم في عقوبة فاعل فاحشة اللواط، وذكرنا الآيات المبينة لها أيضاً في سورة الحجر في الكلام على قصة لوط وقومه، وذكرنا بعض ذلك في سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿أَنَّمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حِدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾. قد أوضحنا ما تضمنته من البراهين على البعث في أول سورة البقرة، وأول سورة النحل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٥٩).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... الآية [الأنعام: ٥٩]، وفي مواضع أخرى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٠)، أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه الآية الكريمة أن المعنى «بل ادرك علمهم» أي تكامل علمهم في الآخرة، حين يعاينونها؛ أي يعلمون في الآخرة علماً كاملاً، ما كانوا يجهلون في الدنيا، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي في دار الدنيا، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علماً كاملاً لا يخالجه شك، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث، والجزاء.

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين في الآية؛ لأن القرآن دل عليه دلالة واضحة في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم] فقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذي كانوا ينكرونه يوم يأتوننا: أي يوم القيامة، وهذا يوضح معنى قوله: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي تكامل عملهم فيها لمبالغتهم في سماع الحق وإبصاره في ذلك الوقت، وقوله: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] يوضح معنى قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾؛ لأن ضلالهم المبين اليوم؛ أي في دار الدنيا، هو شكهم في الآخرة، وعماهم عنها. وكقوله تعالى: ﴿فَكَفَّكَ عَنْكَ عِظَاءَكَ فَفَرَّقَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] أي علمك اليوم بما كنت تنكره في الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد؛ أي قوي كامل.

وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الشورى، في الجواب عما يتوهم من التعارض بين قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] أن المراد بحدّة البصر في ذلك اليوم:

كمال العلم وقوة المعرفة. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة] فقلوه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أي يوم القيامة، يوضح معنى قوله هنا: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَيْكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَبْعَكَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف] فعرضهم على ربهم صفًا يتدارك به علمهم، لما كانوا ينكرونه. وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَبْعَكَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ صريح في أنهم في الدنيا كانوا في شك وعمى عن البعث والجزاء كما ترى، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن قوله: «بل ادرك» فيه اثنتا عشرة قراءة اثنتان منها فقط سبعيتان، فقد قرأه عامة السبعة، غير ابن كثير وأبي عمرو: «بل ادرك» بكسر اللام من بل وتشديد الدال بعدها ألف والألف التي قبل الدال همزة وصل، وأصله تدارك بوزن: تفاعل. وقد قدمنا وجه الإدغام، واستجلاب همزة الوصل في تفاعل وتفاعل وأمثلة ذلك في القرآن، وبعض شواهد العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: بل «أدرك بسكون» اللام من بل، وهمزة قطع مفتوحة، مع سكون الدال على وزن: أفعل.

والمعنى على قراءة الجمهور: «بل ادرك علمهم»؛ أي تدارك بمعنى: تكامل. كقوله: ﴿حَقَّ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾.

وعلى قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: بل أدرك قال البغوي: أي بلغ ولحق. كما يقال أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، والإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ إضراب انتقالي، والظاهر أن «من» في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ بمعنى عن، و«عمون» جمع عم، وهو الوصف من عمى يعمى فهو أعمى وعم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقول زهير في معلقته:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾ [٧٦]، ومن ذلك اختلافهم في عيسى، فقد قدمنا في سورة مريم ادعاءهم على أمه الفاحشة، مع أن طائفة منهم آمنت به، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصْأَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤] والطائفة التي آمنت قالت الحق في عيسى، والتي كفرت افترت عليه، وعلى أمه. كما تقدم إيضاحه في سورة مريم.

وقد قص الله عليهم في سورة مريم وسورة النساء وغيرهما حقيقة عيسى ابن مريم، وهي أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، ولما بين لهم حقيقة أمره مفصلة في سورة مريم، قال ذلك عيسى ابن مريم: ﴿قَوْلِكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ

يَمْرُؤُنَ ﴿مريم: ٣٤﴾. وذلك يبين بعض ما دل عليه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُرُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن، أن معنى قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لا يصح فيه من أقوال العلماء، إلا تفسيران:

الأول أن المعنى: إنك لا تسمع الموتى؛ أي لا تسمع الكفار، الذين أُمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فحتم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع: ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا أنه - جل وعلا - قال بعده: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى: إنك لا تسمع الموتى: أي الكفار الذين هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول للحق، ما تسمع ذلك الإسماع، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون، فمقابلته - جل وعلا - بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته فهو مسلم، دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية: موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الروح للبدن، ولو كان المراد بالموت في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ مفارقة الروح للبدن لما قابل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ بقوله: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾، بل لقابله بما يناسبه كأن يقال: إن تسمع إلا من لم يمت؛ أي يفارق روحه بدنه كما هو واضح.

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول.

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام]، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الكفار، ويدل له مقابلة الموتى في قوله: والموتى يبعثهم الله بالذين يسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] ويوضح ذلك قوله تعالى قبله: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي فافعل، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

الآية [الأنعام: ٣٥، ٣٦]، وهذا واضح فيما ذكرنا، ولو كان يراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء؛ أي الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم. وكقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ أي كافرًا، فأحييناه؛ أي بالإيمان والهدى. وهذا لا نزاع فيه، وفيه إطلاق الموت، وإرادة الكفر بلا خلاف. وكقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٧). وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] أي لا يستوي المؤمنون والكافرون.

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ الآية. وما في معناها من الآيات كلها، تسلية له ﷺ؛ لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ ... الآية [الأنعام: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٧٧) ... الآية [الحجر]. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ... الآية [الحجر: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الآية [فاطر: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَاثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦١) [الكهف] وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَبِخَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. ولما كان يحزنه كفرهم، وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له ﷺ بين له فيها أنه لا قدرة له ﷺ على هدى من أضله الله، فإن الهدى والإضلال بيده - جل وعلا - وحده، وأوضح له أنه نذير، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها، وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم.

ومن الآيات النازلة تسلية له ﷺ قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾؛ أي لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول، ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني ما تسمع إسماع هدى وقبول، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ... الآية [النحل: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلْفٍ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيَحْزَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية [القصص: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦١) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) [يونس] إلى غير ذلك من الآيات، ولو كان معنى الآية، وما

شابهها: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ أي الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلياً له ﷺ، كما ترى، واعلم أن آية النمل هذه جاءت آيتان أخريان بمعناها:

الأولى منهما: قوله تعالى في سورة الروم: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ولفظ آية الروم هذه كلفظ آية النمل التي نحن بصدها، فيكفي في بيان آية الروم ما ذكرنا في آية النمل.

والثانية منهما: قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٣] وآية فاطر هذه كآية النمل والروم المتقدمتين؛ لأن المراد بقوله فيها: ﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ الموتى، فلا فرق بين قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] لأن المراد بالموتى ومن في القبور واحد كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] أي يبعث جميع الموتى من قبر منهم ومن لم يقبر، وقد دلت قرائن قرآنية أيضاً على أن معنى آية فاطر هذه كمعنى آية الروم، منها قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية [فاطر: ١٨]؛ لأن معناها لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووقفه فصار ممن يخشى ربه بالغيب، ويقيم الصلاة ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾... أي الموتى؛ أي الكفار الذين سبق لهم الشقاء كما تقدم. ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٨٩﴾﴾ [فاطر] أي المؤمن والكافر. وقوله تعالى قبلها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَثَمَرُونَ﴾ [فاطر: ٢٢] أي المؤمنون والكفار. ومنها قوله تعالى بعده: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [فاطر] أي ليس الإضلال والهدى بيدك ما أنت إلا نذير؛ أي وقد بلغت.

التفسير الثاني: هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل، ولكن المراد بالسماع المنفي في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به، وأن هذا مثل ضرب للكفار، والكفار يسمعون الصوت، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١]، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفي عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا، وهذا التفسير الثاني جزم به واقتصر عليه العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله في هذا المبحث.

وهذا التفسير الأخير دلت عليه أيضاً آيات من كتاب الله جاء فيها التصريح بالكم والصمم والعمى مسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويصرون، والمراد بصممهم صممهم عن سماع ما ينفعهم، دون غيره، فهم يسمعون غيره، وكذلك في البصر والكلام، وذلك كقوله تعالى في المنافقين: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَجْمَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة]. فقد قال

فيهم صم بكم مع شدة فصاحتهم، وحلاوة ألسنتهم كما صرح به في قوله تعالى فيهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] أي لفصاحتهم وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] فهو لاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ هم الذين قال الله فيهم ﴿صُمُّ بِكُمْ عُنَى﴾ [البقرة: ١٨] وما ذلك إلا أن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شيء خاص، وهو ما ينتفع به من الحق، فهذا وحده هو الذي صموا عنه: فلم يسمعه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه، مع أنهم يسمعون غيره ويبصرونه وينطقون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَصْرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ... الآية [الأحقاف: ٢٦]، وهذا واضح كما ترى.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح مع شواهد العربية في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، في سورة البقرة في الكلام على وجه الجمع بين قوله في المنافقين: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُنَى﴾ [البقرة: ١٨] مع قوله فيهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله فيهم: ﴿سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقوله فيهم أيضاً: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقد أوضحنا هناك أن العرب تطلق الصمم وعدم السماع على السماع، الذي لا فائدة فيه، وذكرنا بعض الشواهد العربية على ذلك، وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣).

ظاهر هذه الآية الكريمة خصوص الحشر بهذه الأفواج المكذبة بآيات الله، ولكنه قد دلت آيات كثيرة على عموم الحشر لجميع الخلائق، كقوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿وَكُلُّ أُنْفُؤٍ دَخِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَلُفُّ مِنْ جَنْحِهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْفُؤُهُ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في آية النمل هذه في الكلام على وجه الجمع بين قوله تعالى فيها: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الآية. وبين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنْفُؤٍ دَخِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، وذكرنا قول الألوسي في تفسيره أن قوله: ﴿وَكُلُّ أُنْفُؤٍ دَخِرِينَ﴾ في الحشر العام لجميع الناس للحساب والجزاء. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ ... الآية. في الحشر الخاص بهذه الأفواج المكذبة، لأجل التوبيخ المنصوص عليه في قوله هنا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمَاءُ﴾ الآية. وهذا يدل عليه القرآن كما ترى. وقال بعضهم: هذه الأفواج التي تحشر حشراً خاصاً هي رؤساء أهل الضلال وقادتهم، وعليه فالآية كقوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لَّكَ لِحَشْرَتِهِمْ وَالشَّيْطَانِ ثَمَرٌ لِّحَشْرَتِهِمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ٨٤ ثُمَّ لَنَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٨٥﴾ [مريم] والفوج: الجماعة من الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُلُونُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يرد أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يدفعون جميعاً كما قاله غير واحد.

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٨٤.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة أي يسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، ومقصوده بسؤالهم عن اعتقادهم قوله تعالى: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾؛ لأن التصديق بآيات الله التي هي هذا القرآن؛ من عقائد الإيمان، التي لا بد منها كما هو معلوم في حديث جبريل وغيره، ومقصوده بسؤالهم عن أعمالهم قوله تعالى: ﴿أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والسؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع، فقد وبخهم تعالى فيه على فساد الاعتقاد، وفساد الأعمال، والتوبيخ عليهما معاً المذكور هنا جاء مثله في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَلَفَ وَلَا صَلَٰءَ﴾ ٨٥ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٨٦﴾ [القيامة] كما أشار له ابن كثير رحمته، فقوله تعالى: ﴿فَلَا صَلَفَ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ توبيخ على فساد الاعتقاد. وقوله: ﴿وَلَا صَلَٰءَ﴾: توبيخ على إضاعة العمل.

قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ٨٥، الظاهر أن القول الذي وقع عليهم هو كلمة العذاب، كما يوضحه قول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ٨٦ [السجدة] ونحو ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾، ظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ٨٥ وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فَعْدَرُونَ ﴿٨٦﴾ [المرسلات] وقوله تعالى: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَيَكْفَأُ وَصْمًا﴾ ... الآية [الإسراء: ٩٧]، مع أنه بينت آيات آخر من كتاب الله أنهم ينطقون يوم القيامة، ويعتذرون، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله تعالى عنهم: ﴿فَالْقَوْلُ السَّكَرُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ ... الآية [السجدة: ١٢]. وقوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ٨٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٨٧﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿وَوَادُّوا بَيْنَكَ﴾ الآية [الزخرف: ٧٧]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كلامهم يوم القيامة.

وقد بينا الجواب عن هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة المرسلات في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ٨٥ [المرسلات] وما ذكرنا من الآيات، فذكرنا أن من أوجه الجواب عن ذلك أن القيامة مواطن، ففي بعضها

ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون، فإثبات النطق لهم ونفيه عنهم كلاهما منزل حال ووقت، غير حال الآخر ووقته. ومنها أن نطقهم الميثب لهم خاص بما لا قائدة لهم فيه، والنطق المنفي عنهم خاص بما لهم فيه فائدة ومنها غير ذلك، وقد ذكر شيئاً من أجوبة ذلك في الفرقان، وطه والإسراء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَلَنَهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ وَلَنَهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِيلِ﴾ الآية [الإسراء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَى كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٧). قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضاً أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستلال على المعنى، بكونه هو الغالب في القرآن؛ لأن غلبته فيه، تدل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معاً آية النمل هذه.

وإيضاح ذلك: أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة: أي واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مر السحاب، ونحوه قول النابغة يصف جيشاً: بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبينان عدم صحة هذا القول.

أما الأول منهما: وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ﴾ معطوف على قوله: ففزع، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَنَّ فِي السَّمَوَاتِ﴾... الآية؛ أي ويوم ينفخ في الصور، فيفزع من في السماوات، وترى الجبال؛ فدللت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور لا الآن.

وأما الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح؛ لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (١) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا (٢) [الطور] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَادًا﴾ (٣) [النبا] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٤) [التكوير] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ جاء نحوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَتَابَرَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] وتسير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسيرها كل ذلك صنع متقن. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناها في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ سُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].
قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

اعلم أن الحسنة في هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات:

الأول حسنة، هي فعل خير من أفعال العبد، كالإنفاق في سبيل الله، وبذل النفس والمال في إعلاء كلمة الله، ونحو ذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات، أن الثواب مضاعف، فهو خير من نفس العمل؛ لأن من أنفق درهماً واحداً في سبيل الله فأعطاه الله ثواب سبعمائة درهم فله عند الله ثواب هو سبعمائة درهم مثلاً، خير من الحسنة التي قدمها التي هي إنفاق درهم واحد، وهذا لا إشكال فيه كما ترى.

وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها هي وحدها، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذِرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ... الآية [البقرة: ٢٦١].

وأما النوع الثاني من الحسنة: فكقول من قال من أهل العلم: إن المراد بالحسنة في هذه الآية: لا إله إلا الله، ولا يوجد شيء خير من لا إله إلا الله. بل هي أساس الخير كله، والذي يظهر على هذا المعنى أن لفظة «خير» ليست صيغة تفضيل.

وأن المعنى فله خير عظيم عند الله حاصل له منها: أي من قبلها ومن أجلها، وعليه فلفظة «من» في الآية كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] أي من أجل خطيئاتهم أغرقوا، فأدخلوا ناراً. وأما على الأول فخير صيغة تفضيل، ويحتمل عندي أن لفظة خير على الوجه الثاني صيغة تفضيل، أيضاً ولا يراد بها تفضيل شيء على لا إله إلا الله، بل المراد أن كلمة لا إله إلا الله تعبد بها العبد في دار الدنيا، وتعبد بها فعله المحض، وقد أثابه الله في الآخرة على تعبد به، وإثابة الله فعله - جل وعلا -، ولا شك أن فعل الله خير من فعل عبده، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾. دلت على معناه آية من كتاب الله كقوله تعالى في أمنهم من الفزع: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقوله تعالى في أمنهم: ﴿فَأُولَئِكَ مِمَّنْ جَزَاءُ الْفَيْتَةِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [فصلت: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ قرأه عاصم، وحمزة، والكسائي بتنوين فزع، وفتح ميم يومئذ، وقرأه الباقون بغير تنوين، بل بالإضافة إلى يومئذ، إلا أن نافعا

قرأ بفتح ميم يومئذ مع إضافة فرع إليه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بإضافة فرع إلى يومئذ مع كسر ميم يومئذ، وفتح الميم وكسرها من نحو يومئذ قد أوضحناه بلغاته وشواهد العربية مع بيان المختار من اللغات في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ الآية [مريم: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠)، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضي الله عنه، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهري، والسدي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك، وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين:

الأول: أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيدة كالشرك يكب وجهه في النار.

والثاني: أن السيدة إنما تجزى بمثلها من غير زيادة، وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأول منهما: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٦) [طه] وكقوله تعالى في الثاني منهما: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُخْرَجُ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُخْرَجُ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٩١) [النبا].

وإذا علمت أن السيئات لا تضاعف، فاعلم أن السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] أو حرمة الزمان كقوله تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَقْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد دلت آيات من كتاب الله أن العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ﴾ (٨٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٨٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٨٦) [الحاقة]، وكقوله تعالى في أزواجه ﷺ: ﴿يَلْبَسَاءُ النَّسَاءِ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ فَتَحْشَرْنَ مُبْنَسَةً يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٠]، وقد قدمنا طرفاً من الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] مع تفسير الآية، ومضاعفة السيئة المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عظم الذنب، حتى صار في عظمه كذنين، فلا إشكال، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة بأن السيئة لا تجزى إلا بمثلها، والجميع محتمل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّكَ هَكَذَا أَبْلَدَةً﴾. جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَلَكِنْ أَقْبِدْ عَلَى الَّذِي يَتَوَقَّعُكَ ۖ ﴿١٠٤﴾ الآية [يونس: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ﴿١٠٥﴾ [قريش] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۚ.

قد قدمنا الآيات التي فيها زيادة إيضاح لقوله: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾... الآية.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لقوله تعالى هنا: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾... الآية [الكهف: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَتَلَّ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

جاء معناه مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] وقوله تعالى: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْخُفُؤُ لِلَّهِ سِرِّيكُمْ ؕ إِلَيْهِمْ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، جاء معناه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿سَرِيرِهِمْ ؕ إِنِّيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿١٠٨﴾ [إبراهيم] إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: «عما تعملون» بناء الخطاب، وقرأ الباقون «عما يعملون» بياء الغيبة.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص

قوله تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾، قد قدمنا أن قوله هنا: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا﴾ هو الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَتَمَنَّ كَيْفَ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]، ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام، أي قادة في الخير، دعاء إليه على أظهر القولين.. ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه تعالى بين جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا نَارَنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٤﴾ [السجدة] فالصبر واليقين، هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرُوكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]. وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿فَالْقَلْعَةُ مَالٌ فَرِحُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

اعلم أن التحقيق - إن شاء الله -، أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته - جل وعلا -، إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته - جل وعلا -، إلى التقاطعهم موسى؛ ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطع بمشيئتنا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال كما ترى.

وقال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه: أن الله تعالى قبضهم لالتقاطه، ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، انتهى محل الغرض من كلامه، وهذا المعنى هو التحقيق في الآية إن شاء الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] كما بينا وجهه آنفًا. وقد أفاض الشيخ في الجوانب البيانية المتعلقة بالآية. فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَهَمَزَ هُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي مرتكبين الخطيئة التي هي الذنب العظيم كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَئِئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١].

ومن إطلاق الخاطي على المذنب العاصي. قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعْمَ إِلَّا مِنْ غِشْلِينَ ﴿٦٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿نَاصِبٍ كَذِبٍ خَاطِئٍ ﴿٦٦﴾﴾ [العلق]. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية

في سورة مريم.

واعلم أنا ربما تركنا كثيراً من الآيات التي تقدم إيضاحها من غير إحالة عليها لكثرة ما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ أَلَّذِينَ لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢﴾.

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من إتباعه اللعنة لفرعون وجنوده، بينه أيضاً في سورة هود بقوله فيهم: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ السَّيِّئُ مِنَ الَّذِينَ أَلْفَضُوا ٩٩﴾ [هود].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال الزمخشري أي من المطرودين المبعدين، ولا يخفى أن المقبوحين اسم مفعول قبحه إذا صيره قبيحاً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٥١﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ لا يهدي من أحب هدايته، ولكنه - جل وعلا - هو الذي يهدي من يشاء هداه، وهو أعلم بالمهتدين.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ٣٧﴾. الآية [النحل: ٣٧]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ٤١﴾ [المائدة: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ٣٠﴾ [النجم: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٧٧﴾ [الأنعام] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد أوضحنا سابقاً أن الهدى المنفي عنه ﷺ في قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هو هدى التوفيق؛ لأن التوفيق؛ بيد الله وحده، وأن الهدى المثبت له ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢] هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، ونزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب مشهور معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ١﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ إِلَى اللَّهِ أَلَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ١﴾ ... الآية [الكهف: ١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ٦٦﴾. كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٦٦﴾ و﴿يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٦٧﴾ [الرحمن]، والوجه من الصفات التي يجب الإيمان بها

مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق، كما أوضحناه في سورة الأعراف وفي غيرها.

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٦﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة

الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ ٢٦﴾ [الكهف: ٢٦]، وقد تركنا ذكر إحالات كثيرة في سورة القصص هذه.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿آلَهُ ۖ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ﴾.

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة مستوفى في أول سورة هود، والاستفهام في قوله: أحسب الناس للإنكار.

والمعنى أن الناس لا يتركون دون فتنة، أي ابتلاء واختبار؛ لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا؛ أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنا من غير الصادق.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ۖ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَ أَجْرَكُمْ ۖ﴾ [محمد] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَمَّةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ﴾ [التوبة]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ﴾.

وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان، كقوله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۖ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. يعني: أن من الناس من يقول: آمنا بالله بلسانه، فإذا أُوذِيَ في الله؛ أي آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس صارفة له عن الدين إلى الردة، والعياذ بالله، كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي. ومعنى فتنة الناس: الأذى الذي يصيبه من الكفار؟ وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد.

وعليه، فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾... الآية

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن المنافقين الذين يقولون: آمنا بالستهم ولم تؤمن قلوبهم، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى وهم معهم، جعلوا فتنة الناس؛ أي آذاهم، كعذاب الله، وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين، فنصرهم على الكفار، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم. قال أولئك المنافقون: ألم نكن معكم؟ يعنون أنهم مع المؤمنين، ومن جملتهم، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم.

وهذا المعنى، جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ فَكُلُوا مِمَّا نَكَلُ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ لَمَن يُؤْمِنُ فَإِنْ أَصَبْتُمْ نَفْسًا قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [٦]، وَلَيْنَ أَصَبْتُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيِّتُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورٌ قَوْرًا عَظِيمًا﴾ [٧] [النساء]. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة النساء.

وقد بين تعالى أنهم كاذبون في قولهم: إنا كنا معكم، وبين أنه عالم بما تخفي صدورهم من الكفر والنفاق بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا مَسَلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلْيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له، وزيادة إيضاحها من السنة الصحيحة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [١٥] [النحل].

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [١٦]، تقدم إيضاحه في هود وغيرها.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني سفينة نوح كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَّمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١٧]، وَجَعَلْنَاهَا لِمَن يُشَاهِدُ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [١٨] [يسر]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ [النحل]، وفي سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام، على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُحُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وفي سورة الفرقان وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، الضمير في قوله: «ذريته» راجع إلى إبراهيم.

والمعنى، أن الأنبياء والمرسلين الذين أنزلت عليهم الكتب، بعد إبراهيم كلهم من ذرية إبراهيم، وما ذكره هنا عن إبراهيم، ذكر في سورة الحديد: أن نوحاً مشترك معه فيه؛ وذلك واضح لأن إبراهيم من ذرية نوح مع أن بعض الأنبياء من ذرية نوح، دون إبراهيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِمِنْ الصَّالِحِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أتى إبراهيم أجره؛ أي جزاء عمله في الدنيا، وإنه في الآخرة أيضاً من الصالحين.

وقال بعض أهل العلم: المراد بأجره في الدنيا: الثناء الحسن عليه في دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم، إلى كفار ومؤمنين. والثناء الحسن المذكور، هو لسان الصدق في قوله: ﴿وَلَجَّلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، لا يخفى أن الصلاح في الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة، وسائر الطاعات، وأنه في الآخرة يظهر بالجزاء الحسن، وقد أثنى الله في هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وقد أثنى على إبراهيم أيضاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْنَدَ إِبْرَاهِيمَ رُؤُوسَهُ يَكُونُ فَاَتَهُنَّ قَالِ إِنِّي جَاعِلٌكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٧٧﴾ [النجم]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُخَبِّرُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، مع بعض الشواهد، في سورة هود في الكلام على قصة لوط، وفي سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿وَالِإِذَا مَدِينُ أَخَاهُمْ ثَمِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ﴾، تقدم إيضاحه في سورة الأعراف، في الكلام على قصته مع قومه، وفي الشعراء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونُ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْدُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾، الظاهر أن قوله: «وعاداً» مفعول به، لأهلكتنا مقدرة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، أي: أهلكتنا مدين بالرجفة، وأهلكتنا عاداً، ويدل للإهلاك المذكور، قوله بعده: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ﴾ أي هي خالية منهم لإهلاكهم. وقوله: بعده أيضاً ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾.

وقد أشار - جلّ وعلا - في هذه الآيات الكريمة، إلى إهلاك عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم صرح بأنه أخذ كلا منهم بذنبه، ثم فصل على سبيل ما يسمى في البديع باللف والنشر المرتب، أسباب إهلاكهم فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهي الريح يعني: عاداً، بدليل قوله: ﴿وَلَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة]. وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٨١﴾﴾ [الذاريات]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود؛ بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لِثَمُودَ ﴿٧٨﴾﴾ [هود]. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون؛ بدليل قوله تعالى فيه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني فرعون، وهامان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء]، ونحو ذلك من الآيات.

والأظهر في قوله في هذه الآية: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أن استبصارهم المذكور هنا بالنسبة إلى الحياة الدنيا خاصة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الروم]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٧٦﴾﴾ [الملك]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَدْعُونَ

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٢﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾... الآية [الأعراف: ١٧٦]. وفي مواضع آخر.

قوله تعالى: ﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾... الآية [الكهف: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْفَعُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية [البقرة: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

قد قدمنا إيضاحه، وتفسير ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثْ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْهُمْ أَتَانَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، وفي آخر سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣]، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾ سَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا سَتَجِدُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَتَمَرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَجِدُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾... الآية [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُوكَ ﴿٥٥﴾﴾.

نادى الله - جلّ وعلا - عباده المؤمنين، وأكد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دل عليه تقديم المعمول الذي هو إياي، كما بيناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥٥﴾﴾ [الفاتحة].

والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرון فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة، فليهاجروا إلى موضع منها يقدرון فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات آخر، كقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمْ تَكُنْ طَالِيَةً أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

جاء معناه موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

قد قدمنا معنى وعملوا الصالحات، موضحاً في أول سورة الكهف، وقدما معنى لنبوتهم في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ ... الآية [الحج: ٢٦]. وذكرنا الآيات التي ذكرت فيها الغرف في آخر الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ﴾ ... الآية [الفرقان: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن كثيراً من الدواب التي لا تحمل رزقها لضعفها، أنه هو - جلّ وعلا - يرزقها، وأوضح هذا المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [مود].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَرَّ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ إلى قوله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا جَنَحْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [١٥]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ إلى قوله ﴿يَبْعَا﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩]، وفي مواضع أخر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَسَخَّطُفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ... الآية

امتن الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، على قريش، بأنه جعل لهم حرماً آمناً؛ يعني حرم مكة، فهم آمنون فيه على أموالهم، ودمائهم، والناس الخارجون عن الحرم، يتخطفون قتلاً وأسراً.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى في القصص: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا

﴿إِمَّا﴾ ... الآية [القصص: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْآبِتَ الْكِرَامَ قِيمًا لِلنَّاسِ﴾ ... الآية [المائدة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الذين جاهدوا فيه، أنّه يهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وأقسم على ذلك بدليل اللام في قوله: «لنهديهم».

وهذا المعنى، جاء مبيناً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا رَأَوْا هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤]. كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قد قدمنا إيضاحه في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٦] يعلمون ظهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غفلون ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله قبله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيهِمْ سَكِبُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصِرُ اللَّهُ﴾ هو نفس الوعد كما لا يخفى، أي وعد الله ذلك وعداً.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربعة أمور:

الأول: أنه لا يخلف وعده.

والثاني: أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون.

والثالث: أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

والرابع: أنهم غافلون عن الآخرة. وهذه الأمور الأربعة جاءت موضحة في غير

هذا الموضع:

أما الأول منها: وهو كونه لا يخلف وعده، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. وقد بين تعالى أنّ وعيده للكفار لا يخلف أيضاً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْضِبُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ما يبدل القول لدى] [ق: ٢٨، ٢٩].

والتحقيق: أن القول الذي لا يبدل لديه، في هذه الآية الكريمة، هو وعيده للكفار.
 وكقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ رُسُلٌ هُوَ وَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤]. وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ رُسُلٌ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ [ص: ١٤]. فقوله: (حق) في هاتين الآيتين. أي وجب وثبت، فلا يمكن تخلفه بحال.

وأما الثاني منها: وهو أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، فقد بين تعالى، في آيات أن أكثر الناس هم الكافرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين - جلّ وعلا - أيضاً في آيات من كتابه أن الكفار لا يعلمون كقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عَنَّى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَفْقَهُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٦]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الثالث منها: وهو كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. أي في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن دِكْرِنَا وَلَا تَبْذُرْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [ذَلِكَ مَبْلُغُهُم مِّنَ الْعَالَمِ] ... الآية [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وأما الرابع منها: وهو كونهم غافلين عن الآخرة فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ [إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا] ... الآية [المؤمنون: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]. ﴿وَمَا تَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ١٦]. ﴿مَنْ يُخَيِّطُ الْعِلْمَ وَهِيَ رُيُوسٌ﴾ [يس: ٧٨]. والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من

المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش، وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولياً، فقد نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً عن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم، كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره. وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعينين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله؛ لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض - جلّ وعلا -، والعلم بأوامره ونواهيه، وبما يقرب عبده منه، وما يبعده منه، وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم، وعدم نبل غايته؛ لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الانقطاع والزوال، ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ أنه بدل من قوله قبله «لا يعلمون»، فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشاف، وقوله: «يعلمون» بدل من قوله: «لا يعلمون»، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسده؛ ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. وهم الثانية، يجوز أن يكون مبتدأ، وغافلون خبره، والجملة خبر «هم» الأولى، وأن يكون تكريراً للأولى، وغافلون: خبر الأولى، وأياً كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، ومقرها، ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع. انتهى كلام صاحب الكشاف.

وقال غيره: وفي تنكير قوله؛ ظاهراً لتقليل لمعلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه. اهـ. ووجهه ظاهر.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم]، وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار، إذا تعلمها المسلمون، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به، على لسان نبيه ﷺ؛ كانت من أشرف العلوم وأنفعها؛ لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته - جلّ وعلا -، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [٨].

لما بين - جلّ وعلا - أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم غافلون، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة، مع شدة وضوح أدلتها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾... الآية؛ والتفكير التأمل والنظر العقلي، وأصله إعمال الفكر، والمتأخرون يقولون: الفكر في الاصطلاح حركة النفس في المعقولات. وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح تخيل.

وقال الزمخشري في الكشاف: «في أنفسهم» يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكير في أنفسهم: أي في قلوبهم الفارغة من الفكر، والفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكير كقولك: تفكر في الأمر؛ أجال فيه فكره، و«ما خلق» متعلق بالقول المحذوف، معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح، وحكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون]، كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً، والباء في قوله: «إلا بالحق» مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه، تريد: اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منك عنهما، وكذلك المعنى: ما خلقها إلا وهي متلبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلت: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟

قلت: معناه أو لم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم، وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى. انتهى كلام صاحب الكشف في تفسير هذه الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن خلقه تعالى للسموات والأرض وما بينهما، لا يصح أن يكون باطلاً، ولا عبثاً بل ما خلقهما إلا بالحق؛ لأنه لو كان خلقهما عبثاً لكان ذلك العبث باطلاً ولعباً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق، ويكلفهم فيأمرهم وينهاهم ويوعدهم ويوعدهم، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق وجازاهم، فيظهر في المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، وتظهر في الكافرين صفات عظمتهم، وشدة بطشه، وعظم نكاله وشدة عدله وإنصافه، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله:

كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٢٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَفْتَنُهمُ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) [الدخان]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الآية. بعد قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يبين ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ [الحجر: ٨٥]. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يوضح ذلك. وقد أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَمْجِزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم].

وقد بين - جلّ وعلا - أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلاً لا لحكمة الكفار، وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧٧) [ص]، وبين - جلّ وعلا - أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم؛ لكان خلقه لهم أولاً عبثاً، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ (١٦٦) [المؤمنون].

فهذه الآيات القرآنية، تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق، وأنه لا بد

وأما على قراءة فتح التاء، فالمعنى: كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا، ومعناه واضح مما تقدم، وأن معنى قوله. «أن كذبوا» أي كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا. وهذا المعنى، تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه، وسوء عاقبته، والعياذ بالله. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا يَلُومُوا يَمَّا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وفي غير ذلك.

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن السوأى منصوب بأساءوا؛ أي اقترفوا الجريمة السوأى خلاف الصواب. وكذلك قول من قال: إن «أن» في قوله: «أن كذبوا» تفسيرية، فهو خلاف الصواب أيضاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في البقرة، والنحل، والحج، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ [البقرة: ٤٨]، وفي غير ذلك. قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [٧] ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [٨]. قد قدمنا في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي قوله هنا: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ﴾، الآيتين من الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس، وأوضحنا وجه ذلك مع إيضاح جميع الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في ذكرنا براهين البعث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾... الآية [النحل: ١١]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [النحل: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ لَكُمْ أَلْوَانُهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾ (٧٣).

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام، على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَاخْتَلَفَ لَكُمْ أَلْوَانُهَا﴾، قد أوضح تعالى في غير هذا الموضع: أن اختلاف ألوان آدميين، واختلاف ألوان الجبال، والثمار، والدواب، والأنعام، كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيبٌ مُوَدٌ (٧٧) مِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ﴾، واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر - جلّ وعلا -، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال.

وقد أوضح تعالى إبطال تأثير الطبيعة غاية الإيضاح بقوله في سورة الرعد: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ﴾، إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ [الرعد: ٤]. وقرأ هذا الحرف حفص وحده عن عاصم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾، بكسر اللام: جمع عالم الذي هو ضد الجاهل. وقرأه الباقون: للعالمين بفتح اللام كقوله: رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٧٤). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِ لُوطٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتِهِمْ فَضَلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾... الآية [الإسراء: ١٢]. وفي سورة الفرقان. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية.

قد قدمنا ما يوضحه من الآيات مع تفسير قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾... الآية [الرعد: ١٢]، وسنحذف هنا بعض الحالات لكثرتها.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾. قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُمْنُ اللَّهِ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾، أي يتفرون فريقين: أحدهما في الجنة، والثاني: في النار.

وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَنُذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ويدل لهذا قوله بعده ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَهْدُونُ﴾ (٤٤) لِيَحْزَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)، وقد أشار تعالى أيضاً للتفرق المذكور هنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ (٤٦) [الزلزلة].

قوله تعالى: ﴿إِنْ شِئْنَا لَآتَيْنَا لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾. قد بين تعالى الضعف الأول الذي خلقهم منه في آيات من كتابه، وبين الضعف الأخير في آيات أخر، قال في الأول ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (١٦) [المرسلات]. وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (١٤) [النحل]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الآية [يس: ٧٧]. وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (١١) [الطارق] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) [المعارج]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الضعف الثاني: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْمَمَرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨) [يس]، إلى غير ذلك من الآيات. وأشار إلى القوة بين الضعفين في آيات من كتابه كقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وإطلاقه نفس الضعف، على ما خلق الإنسان منه، قد أوضحنا وجهه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٧]. وقرأ عاصم وحمزة «من ضعف» في المواضع الثلاثة المخفوضين، والمنصوب بفتح الضاد في جميعها، وقرأ الباقون بالضم.

واختار حفص القراءة بالضم وفاقاً للجمهور. للحديث الوارد عن ابن عمر عن النبي ﷺ من طريق عطية العوفي أنه - أعني ابن عمر - قرأ عليه ﷺ: «من ضعف» بفتح الضاد، فرد عليه ﷺ، وأمره أن يقرأها بضم الضاد، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه غيرهما. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٥٦]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا بعثوا يوم القيامة، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ويدخل فيهم الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحون: والله لقد لبستم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في سورة يس على أصح التفسيرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والتحقيق: أن هذا قول الكفار عند البعث، والآية تدل دلالة لا لبس فيها، على أنهم ينامون نومة قبل البعث كما قاله غير واحد، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، أي هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عياناً، فقولوه في يس: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، قول الذين أوتوا العلم والإيمان، على التحقيق، وقد اختاره ابن جرير، وهو مطابق لمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ الآية.

والتحقيق أن قوله «هذا»: إشارة إلى ما وعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]، وقوله في كتاب الله: أي فيما كتبه وقدره وقضاه. وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ... الآية [يس: ٥٢] من قول الكفار، ويدل له قوله في الصفات: ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ [٥٧] هذا يوم الفصل ... الآية [الصفات: ٢٠، ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قد قدمنا ما فيه من اللغات، والشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤَذِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جِئْتُم بِشَاقِيقٍ يَلْقَوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَخْرُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا﴾ [الإسراء: ٩١]، وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ كَلِمَتٍ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] ... الآية [يونس]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قد قدمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، أن الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي ﷺ بخطاب لا يريد به نفس رسول الله ﷺ، وإنما يريد به التشريع.

وبيّنا أن من أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى مخاطباً له ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُنْثَىٰ﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾، بزمان طويل، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده. بل المراد تشريع بر الوالدين لأُمته، بخطابه ﷺ.

واعلم: أنَّ قول من يقول: إن الخطاب في قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لمن يصح خطابه من المكلفين، وأنه كقول طرفة بن العبد:

* ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *

خلاف الصواب.

والدليل على ذلك قوله بعد ذكر المعطوفات على قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُنْثَىٰ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾... الآية [الإسراء: ٣٩]. ومعلوم أن قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾، خطاب له ﷺ كما ترى، وذكرنا هناك بعض الشواهد العربية على خطاب الإنسان، مع أن المراد بالخطاب في الحقيقة غيره.

وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وقوله: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا آؤُ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، يراد به التشريع لأُمته؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهى عنه.

فائدة: روي من غير وجه: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ناداه رجل من الخوارج في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ١٥]، فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [١٠].

* * *

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ① هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ②. قد قدمنا الآيات الموضحة لقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ② في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ مَلائِكُنَا وَلَمْ يَسْمَعْهُمْ كَلِمًا فَذُنْهُ وَقَرَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ⑦. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنَّ الكافر إذا تتلى

عليه آيات الله، وهي هذا القرآن العظيم، ولي مستكبراً؛ أي متكبراً عن قبولها، كأنه لم يسمعها؛ كأن في أذنيه وقراً؛ أي صمماً وثقلاً مانعاً له من سماعها، ثم أمر نبيه ﷺ أن يشره بالعذاب الأليم.

وقد أوضح - جلّ وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُرُوءًا أَوَّلَبَكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَنْ وَرَأَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الجاثية]، وقد قال تعالى هنا: ﴿كَأَن فِيْ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، على سبيل التشبيه، وصرح في غير هذا الموضع أنه جعل في أذنيه الوقر بالفعل في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]. والظاهر أن الوقر المذكور على سبيل التشبيه الوقر الحسي؛ لأن الوقر المعنوي يشبه الوقر الحسي. والوقر المجعول على آذانهم بالفعل؛ هو الوقر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾... الآية [الرعد: ٢].

قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾... الآية [الرعد: ١٦]. وفي أول سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾، دلت هذه الآية الكريمة: على أن الشرك ظلم عظيم.

وقد بين تعالى ذلك في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، بأنه الشرك، وبين ذلك بقوله هنا ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقد أوضحنا هذا سابقاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾. معناه لا تتكبر على الناس، ففي الآية نهي عن التكبر على الناس، والصعر الميل، والمتكبر يميل وجهه عن الناس متكبراً عليهم، معرضاً عنهم، والصعر: الميل، وأصله: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، ويطلق على المتكبر يلوي عنقه، ويميل خده عن الناس تكبراً عليهم، ومنه قول عمرو بن جني التغلبي:

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوموا

وقول أبي طالب:

وكنا قديماً لا نقهر ظلامه إذا ما ثنوا صغر الرأس نقيمها

ومن إطلاق الصغر على الميل قول النمر بن تولب العكلي:

إنّا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضمراً فيها صعر

وإذا علمت أن معنى قوله: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، لا تتكبر عليهم.

فاعلم أنا قدمنا في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، الآيات القرآنية الدالة على التحذير من الكبر المبينة لكثرة عواقبه السيئة، وأوضحنا ذلك مع بعض الآيات الدالة على حسن التواضع، وثناء الله على المتواضعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

قد قدمنا إيضاحه وتفسير الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآية [الفرقان: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ①.

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة الحج.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قدمنا الآيات الموضحة له أيضاً في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُؤَلُّوا فَاتَمَّ نُصُْلُهُمْ وَيَهْدِيَهُ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ② [الحج: ١].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ③. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ الآية [الكهف: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسٍ وَاحِدًا﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُنْصِي اللَّهُ أَمْرًا وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ [البقرة: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ ... الآية [الإسراء: ٦٧]، وفي الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ... الآية [الأنعام]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ...

قد قدمنا في سورة الأنعام، أن هذه الخمسة المذكورة في خاتمة سورة لقمان: أنها هي مفاتيح الغيب المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وأن النبي ﷺ أوضح ذلك بالسنة الصحيحة.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿يَذِئْبُ الْتَأْتِرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُئُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَلُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ... ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة.

وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْثَرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد بين في سورة الحج أن اليوم عنده تعالى كالف سنة مما يعدّه الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد قال تعالى في سورة سائل: ﴿تَرْجُئُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ١].

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب الجمع بين هذه الآيات من وجهين:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم، من طريق سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَسِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر]. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر: ٨].

وقد أوضحنا هذا الوجه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان]، وقد ذكرنا في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها، ويقول: لا أدري.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بَنَوْنَكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور، وقد جاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل.

وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهُهُمْ وَأُذُنُهُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وإيضاح هذا عند أهل العلم أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد، هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك.

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور أن النبي ﷺ ذكر فيه «أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء، وقد بين فيه ﷺ ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن» وحديث البراء المذكور صحيحه غير واحد، وأوضح ابن القيم في كتاب الروح بطلان تضعيف ابن حزم له.

والحاصل: أن حديث البراء المذكور، دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح، حين يأخذها من بدن الميت. وأما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فلا إشكال فيه؛ لأن الملائكة لا يقدر أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته - جل وعلا - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فتحصل: أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا: ﴿قُلْ بَنَوْنَكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأن إسناده لملائكة في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية [محمد: ٢٧]. ونحوها من الآيات؛ لأن لملك

الموت أعواناً يعملون بأمره، وأن إسناده إلى الله في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، لأن كل شيء كائناً ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾... الآية [الأعراف: ٥٣]. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿اسْمِعْ يَوْمَ يُنَادُونَكَ يَا مَرْيَمُ الْآيَةَ [مريم: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿١٤﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان الآيات الدالة على العواقب السيئة الناشئة عن الإعراض، عن التذكير بآيات الله في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَايِهِ﴾ [الكهف: ٥٧]. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾. قد قدمنا بعض الآيات الموضحة له في آخر سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِئُهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْمُقَتُّهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَسَّالًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ ﴿١٥﴾﴾. وقد أوضحنا تفسير الأرض الجرز مع بعض الشواهد العربية في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾﴾. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُبْظَرُونَ ﴿١٦﴾. أظهر أقوال أهل العلم عندي هو أن الفتح في هذه الآية الكريمة، هو الحكم والقضاء، وقد قدمنا أن الفتح القاضي؛ وهي لغة حميرية قديمة. والفتاحة الحكم والقضاء، ومنه قوله:

ألا من مبلغ عمراً رسولاً
بأنني عن فتاحتكم غني
وقد جاءت آيات تدل على أن الفتح الحكم، كقوله تعالى عن نبيه شعيب: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي احكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين.

وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] الآية. أي احكم بيني وبينهم حكماً. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢١﴾﴾ [سبا]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، أي إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم، ومن النبي ﷺ فقد جاءكم الفتح: أي الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر، كما قاله غير واحد، وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر، جاء أبو جهل، وتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم إنا قطان بيتك نسقي الحجيح، ونفعل ونفعل، وإن محمداً قطع الرحم وفرق الجماعة، وعاب الدين، وشم الآلهة، وسفه أحلام الآباء، اللهم أهلك الظالم منا ومنه، فطلب الحكم على الظالم، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر، وصاروا إلى الخلود في النار... إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى قول من قال من أهل العلم: إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة فلا إشكال في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾، وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار. كما وقع يوم بدر، فالظاهر أن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾، أي إذا عاينوا الموت؛ وشاهدوا القتل بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِّئْتُ الْقَتْلَ﴾ الآية [النساء: ١٨]. وقوله تعالى في فرعون: ﴿وَجَوَّزْنَا بِسَبِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٦﴾ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]، ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم: إن الفتح في هذه الآية: فتح مكة أنه غير صواب بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾، ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرِئْتُ بِهِ رَبِّي أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ آيَاتٍ كَثِيرًا مِمَّا تَذَكَّرُ ﴿٢١﴾﴾ [الطور]، ومعلوم أن التبرص هو الانتظار. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ﴾ الآية [الإسراء: ٣٩]، وما دلت عليه آية الأحزاب هذه، من أن الخطاب الخاص لفظه بالنبي ﷺ يشمل حكمه جميع الأمة، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَقْتُلْ نَفْسًا﴾... الآية [المائدة: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ أَرْوَاجَكُمْ أَلْفًا تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُتَاهِيكُمْ﴾، في هذا الحرف أربع قراءات سبعة: قرأه عاصم وحده: «تُظَاهَرُونَ» بضم التاء وتخفيف الظاء بعدها ألف فهاء مكسورة مخففة. وقرأه حمزة والكسائي: «تَظَاهَرُونَ» بفتح التاء بعدها ظاء مفتوحة مخففة، فألف فهاء مفتوحة مخففة، وقرأه ابن عامر وحده كقراءة حمزة والكسائي؛ إلا أن ابن عامر يشدد الظاء [تَظَاهَرُونَ]، وهما يخففانها. وقرأه نافع وابن كثير، وأبو عمرو: تَظَاهَرُونَ بفتح التاء بعدها ظاء فهاء مفتوحة مشددة بدون ألف.

فقوله تعالى: «تظاهرون»، على قراءة عاصم مضارع ظاهر بوزن «فاعل»، وعلى قراءة حمزة والكسائي فهو مضارع تظاهر بوزن «تفاعل» حذفت فيه إحدى التاءين على حد قوله في الخلاصة:

وما بتاءين ابتدئ قد يقتصر فيه على تاء كتيبين العبر

فالأصل على قراءة الأخوين تظاهرون، فحذفت إحدى التاءين، وعلى قراءة ابن عامر، فهو مضارع تظاهر أيضاً، كقراءة حمزة والكسائي، إلا أن إحدى التاءين أدغمت في الظاء، ولم تحذف وماضيه أظَاهَر كادارك، واثاقلتم، واداراتم؛ بمعنى تدارك.

وعلى قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، فهو مضارع تظهر على وزن «تفعل»، وأصله تتظاهرون بتاءين، فأدغمت إحدى التاءين في الظاء، وماضيه: أظهر نحو: إظيرنا، وأزيت، بمعنى: تطيرنا، وتزينت، كما قدمنا إيضاحه في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فعلم مما ذكرنا أن قولهم ظاهر من امرأته، وتظاهر منها، وتظهر منها كلها بمعنى واحد، وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي، يعني أنها حرام عليه، وكانوا يطلقون بهذه الصيغة في الجاهلية.

وقد بين الله - جلّ وعلا - في قوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أن من قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي: لا تكون أماً له بذلك، ولم يزد هنا على ذلك، ولكنه - جلّ وعلا - أوضح هذا في سورة المجادلة، فبين أن أزواجهم التي ظاهروا منهن لسن أمهاتهم، وأن أمهاتهم هن النساء اللاتي ولدنهم خاصة دون غيرهن، وأن قولهم: أنت علي كظهر أمي، منكر من القول وزور.

وقد بين الكفارة اللازمة في ذلك عند العود وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِأَنَّكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة].

فقوله تعالى في آية الأحزاب هذه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، وقد رأيت ما في سورة المجادلة، من الزيادة والإيضاح لما تضمنته آية الأحزاب هذه.

وهناك جملة مسائل متعلقة بالأحكام المأخوذة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. قال ابن كثير: أي في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا يجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن، وأخواتهن بالإجماع. اهـ. محل الغرض منه، وما ذكر من أن المراد بكون أزواجه ﷺ، أمهات المؤمنين هو حرمتهم عليهم، كحرمة الأم، واحترامهم لهم، كاحترام الأم إلخ. واضح لا إشكال فيه، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ﴾؛ لأن الإنسان لا يسأل أمه الحقيقية من وراء حجاب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، ومعلوم أنهن رضي الله عنهن، لم يلدن جميع المؤمنين الذين هن أمهاتهم، ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، أنه هو ﷺ أب لهم. وقد روي عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرءا: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، وهذه الأبوة أبوة دينية، وهو ﷺ أرأف بأمته من الوالد الشفيق بأولاده، وقد قال - جلّ وعلا - في رأفته ورحمته بهم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وليست الأبوة أبوة نسب كما بينه تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، ويدل لذلك أيضاً حديث أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه» وكان يأمر بثلاثة أحجار

وينهى عن الروث والرمة فقوله ﷺ، في هذا الحديث: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد» يبين معنى أبوته المذكورة كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه وكلام أهل العلم، فيما يتعلق به من الأحكام في آخر الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أخذ من النبيين ميثاقهم ثم خص منهم بذلك خمسة: هم أولوا العزم من الرسل، وهم: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ولم يبين هنا الميثاق الذي أخذه عليهم، ولكنه - جلّ وعلا - بين ذلك في غير هذا الموضع، فبين الميثاق المأخوذ على جميع النبيين بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَآخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ قَوْلَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران]، وقد قدمنا الكلام على هذه الآية في سورة مريم، في الكلام على قصة الخضر، وقد بين - جلّ وعلا - الميثاق الذي أخذه على خصوص الخمسة الذين هم أولوا العزم من الرسل في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وبما ذكرنا تعلم: أن آية آل عمران وآية الشورى فيهما بيان لآية الأحزاب هذه.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾، من عطف الخاص على العام، وقد تكلمنا عليه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾. أمر الله - جلّ وعلا - المؤمنين في هذه الآية الكريمة: أن يذكروا نعمته عليهم حين جاءتهم جنود وهم جيش الأحزاب، فأرسل - جلّ وعلا - عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون، وهذه الجنود التي لم يروها التي امتن عليهم بها هنا في سورة الأحزاب، بين أنه من عليهم بها أيضاً في غزوة حنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، وهذه الجنود هي الملائكة، وقد بين - جلّ وعلا - ذلك في الأنفال في الكلام على غزوة بدر، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْتَاقَ وَكُفْرَهُمْ عَنْهُمْ كُلُّ يَوْمٍ ﴿١٢﴾ الآية [الأنفال]، وهذه الجنود التي لم يروها التي هي الملائكة، قد بين الله - جلّ وعلا - في براءة أنه أيد بها نبيه ﷺ وهو في الغار وذلك في قوله: ﴿إِلَّا نَصُورُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿١٣﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يعني جنود الكفار الذين جاؤوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم في غزوة الخندق قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، ولم يبين هنا الآية التي وعدهم إياها فيها، ولكنه بين ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّالَّةَ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٣٥﴾ [البقرة]، وممن قال إن آية البقرة المذكورة مينة لآية الأحزاب هذه: ابن عباس، وقتادة، وغير واحد، وهو ظاهر.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا﴾... الآية، صريح في أن الإيمان يزيد، وقد صرح الله بذلك في آيات من كتابه، فلا وجه للاختلاف فيه مع تصريح الله - جلّ وعلا - به في كتابه، في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه رد الذين كفروا بغیظهم، لم ينالوا خيراً، وأنه كفى المؤمنين القتال، وهم النبي ﷺ، وأصحابه. ولم يبين هنا السبب الذي رد به الذين كفروا وكفى به المؤمنين القتال، ولكنه - جلّ وعلا -، بين ذلك بقوله: ﴿فَإَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي وبسبب تلك الريح، وتلك الجنود ردهم بغیظهم وكفاحم القتال كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿بِسَاءَةِ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قد قدمنا الآية الموضحة له في آخر سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَالِهِ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [النمل]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا لَادَقْنَكَ الضُّعْفُ الْحَيَوَةُ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُفْزِلْهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ﴾. ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من قنت من نساء نبيه ﷺ لله ولرسوله،

وعمل عملاً صالحاً: أن الله - جلّ وعلا - يؤتها أجرها مرتين، والقنوت: الطاعة، وما وعد الله به - جلّ وعلا - من أطاع منهن بإيتائها أجرها مرتين في هذه الآية الكريمة جاء الوعد بنظيره لغيرهن، في غير هذا الموضع، فمن ذلك وعده لمن آمن من أهل الكتاب بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ بإيتائه أجره مرتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكَّنَّ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ... الآية [القصص: ٥١، ٥٤].

ومن ذلك وعده لجميع المطيعين من أمته ﷺ بإيتائهم كفلين من رحمته تعالى، وذلك في قوله - جلّ وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، الآية.

واعلم: أن ظاهر هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الآية [الحديد: ٢٨]. عام لجميع هذه الأمة. كما ترى، وليس في خصوص مؤمني أهل الكتاب، كما في آية القصص المذكورة آنفاً، وكونه عاماً هو التحقيق إن شاء الله، لظاهر القرآن المتبادر الذي لم يصرف عنه صارف، فما رواه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما من حمله آية الحديد هذه على خصوص أهل الكتاب كما في آية القصص، خلاف ظاهر القرآن، فلا يصح الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وإن وافق ابن عباس في ذلك الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما. واختاره ابن جرير الطبري.

والصواب في ذلك إن شاء الله هو ما ذكرنا؛ لأن المعروف عند أهل العلم: أن ظاهر القرآن المتبادر منه، لا يجوز العدول عنه، إلا للدليل يجب الرجوع إليه.

وقال ابن كثير: وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾، أي ضعفين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، وزادهم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، فضلهم بالنور والمغفرة. أه نقله عنه ابن جرير، وابن كثير. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في الترجمة، وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك.

ومما ذكرنا من أمثلة ذلك في الترجمة قولنا فيها: ومن أمثله قول بعض أهل العلم: إن أزواجه ﷺ لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن؛ لأن الله تعالى

قال: ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ﴾، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِلُ فِي يَوْمِكُنَّ﴾... الآية.

وقد أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فلا يصح إخراجها بمخصص، وزوي عن مالك أنها ظنية الدخول، وإليه أشار في (مراقي السعود) بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهم داخلات في الآية. اهـ من ترجمة هذا الكتاب المبارك.

والتحقيق إن شاء الله: أنهم داخلات في الآية، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت.

أما الدليل على دخولهن في الآية، فهو ما ذكرناه آنفاً من أن سياق الآية صريح في أنها نازلة فيهن.

والتحقيق: أن صورة سبب النزول قطعية الدخول كما هو مقرر في الأصول.

ونظير ذلك من دخول الزوجات في اسم أهل البيت. قوله تعالى في زوجة إبراهيم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية، فهو أحاديث جاءت عن النبي ﷺ أنه قال في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين ﷺ: «إنهم أهل البيت» ودعا لهم الله أن يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً. وقد روى ذلك جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، منهم أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، وأبو سعيد، وأنس، ووائل بن الأسقع، وأم المؤمنين عائشة، وغيرهم ﷺ.

وبما ذكرنا من دلالة القرآن والسنة: تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج

النبي ﷺ، ولعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين ﷺ، كلهم.

تنبيه: فإن قيل: إن الضمير في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، ضمير الذكور، فلو كان المراد نساء النبي ﷺ لقيل: ليذهب عنكن ويطهركن.

فالجواب من وجهين: الأول: هو ما ذكرنا من أن الآية الكريمة شاملة لهن، ولعلي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وقد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجموع ونحوها، كما هو معلوم في محله.

الوجه الثاني: هو أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن زوجة

الرجل يطلق عليها اسم الأهل، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر، ومنه قوله تعالى في موسى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُؤْا﴾ [طه: ١٠]. وقوله: ﴿سَتَأْتِكُمْ﴾

[النمل: ٧]. وقوله: ﴿لَعَلَّيْكُمْ﴾ [طه: ١٠]. والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن نساء النبي ﷺ لسن داخلات في الآية، يرد عليه صريح سياق القرآن، وأن من قال: إن فاطمة وعلياً والحسن والحسين ليسوا داخلين فيها، ترد عليه الأحاديث المشار إليها.

وقال بعض أهل العلم: إن أهل البيت في الآية هم من تحرم عليهم الصدقة. والعلم عند الله تعالى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾... الآية. يعني أنه يذهب الرجس عنهم، ويطهرهم بما يأمر به من طاعة الله، وينهى عنه من معصيته؛ لأن من أطاع الله أذهب عنه الرجس، وطهره من الذنوب تطهيراً.

وقال الزمخشري في الكشف: ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لثلاث يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما الحسنات فالعرض منها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده، ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما يرضاه لهم، وأمرهم به. وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

تنبيه: اعلم أنه يكثر في القرآن العظيم، وفي اللغة إتيان اللام المكسورة منصوباً بعدها المضارع بعد فعل الإرادة كقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾... الآية. وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفَأُوا نُورَ اللَّهِ﴾ الآية [الصف: ٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وكقول الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

وللعلماء في اللام المذكورة أقوال: منها أنها مصدرية بمعنى أن، وهو قول غريب. ومنها: أنها لام كي، ومفعول الإرادة محذوف والتقدير: إنما يريد الله أن يأمركم وينهاكم؛ لأجل أن يذهب عنكم الرجس: والرجس كل مستقذر تعافه النفوس، ومن أقدر المستقذرات معصية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام في صلة موصول، وذكرنا أن من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ لأن جملة: الله مبديه صلة الموصول الذي هو ما. وقد قلنا في الترجمة المذكورة: فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه ﷺ

زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث أوحى إليه ذلك، وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن، وهو اللائق بجنابه رضي الله عنه.

وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين من أن ما أخفاه في نفسه رضي الله عنه وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبه لها، وهي تحت زيد، وأنها سمعته قال: سبحان مقلب القلوب إلى آخر القصة، كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً، مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى محل الغرض من كلامنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

وقال القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية: واختلف الناس في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين منهم: الطبري، وغيره: إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فيتزوجها هو إلى أن قال: وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف يعني قوله: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. اهـ. ولا شك أن هذا القول غير صحيح، وأنه غير لائق به صلى الله عليه وسلم.

ونقل القرطبي نحوه عن مقاتل، وابن عباس أيضاً، وذكر القرطبي عن علي بن الحسين أن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زينب، وأن الله يزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن علم هذا بالوحي قال لزيد: أمسك عليك زوجك. وأن الذي أخفاه في نفسه: هو أن الله سيزوجه زينب رضي الله عنها، ثم قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول: قال علماؤنا - رحمة الله عليهم -: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية. وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين، والعلماء الراسخين؛ كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، إلى أن قال: فأما ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا أو مستخف بحرمة.

قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول، وأسند إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرأ من الجواهر ودرأ من الدرر أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه، أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه. انتهى محل الغرض منه.

وقال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها، فلا نوردها، إلى آخر كلامه. وفيه كلام علي بن الحسين الذي ذكرنا آنفاً.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة: هو ما ذكرنا أن القرآن دل عليه، وهو أن الله أعلم نبيه ﷺ بأن زيدا يطلق زينب، وأنه يزوجه إياه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكها زيدا إليه ﷺ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، فعاتبه الله على قوله: أمسك عليك زوجك بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ وخشي مقالة الناس أن يقولوا: لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد. والدليل على هذا أمران:

الأول: هو ما قدمنا من أن الله - جلّ وعلا - قال: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهذا الذي أبداه الله - جلّ وعلا -، هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، ولم يبد - جلّ وعلا - شيئاً مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى.

الأمر الثاني: أن الله - جلّ وعلا - صرح بأنه هو الذي زوجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾... الآية، فقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التي كانت سبباً في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ الآية؛ لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمر بالإكثار من الذكر، جاء معناه في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَالَلَّكَ كَثِيرًا وَذَكَرْتَ﴾ الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَيُشِرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ فَضْلًا كَثِيرًا﴾. لم يبين هنا المراد بالفضل الكبير في هذه الآية الكريمة، ولكنه بينه في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها، أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وذكرنا له أمثلة في الترجمة، وأمثلة كثيرة في الكتاب لم تذكر في الترجمة، ومن أمثلته التي ذكرنا في الترجمة هذه الآية الكريمة؛ فقد قلنا في ترجمة هذا الكتاب

المبارك، ومن أمثلته قول كثير من الناس: إن آية الحجاب أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، خاصة بأزواج النبي ﷺ، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الرية في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين، إن غير أزواج النبي ﷺ لا حاجة إلى أظهيرية قلوبهن وقلوب الرجال من الرية منهن. وقد تقرر في الأصول: أن العلة قد تعم معلولها، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد تخصص وقد تعمم لأصلها لكنها لا تخرم

انتهى محل الغرض من كلامنا في الترجمة المذكورة.

وبما ذكرنا تعلم أن في هذه الآية الكريمة، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء، لا خاص بأزواجه ﷺ، وإن كان أصل اللفظ خاصاً بهن؛ لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه.. وقد بسط الشيخ القول في مسألة الحجاب فليرجع من أراد الوقوف على ما ذكر إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿سَأَلَكِ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس الذين يسألونه عن الساعة ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، ومعلوم أن «إنما» صيغة حصر.

فمعنى الآية: أن الساعة لا يعلمها إلا الله وحده.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء واضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقد بين ﷺ أن الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. هي المراد بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْثِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وكقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ قُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ قُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وفي الحديث: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الساعة التي هي القيامة لعلها تكون قريباً، وذكر نحوه في قوله في الشورى: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وقد أوضح - جلّ وعلا - اقترابها في آيات أخر كقوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾. الآية [القم: ١]. وقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَمُرْ اللَّهَ فَلَا تَسْعَاجِدُوهُ﴾. الآية [النحل: ١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَّا كَبُرَ﴾.

تقدمت الآيات الموضحة له مراراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۖ﴾ (٧١). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه عرض الأمانة، وهي التكليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب، على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها؛ أي خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكاً بعلمه هو - جلّ وعلا -، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت؛ أي خافت.

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، فمن الآيات الدالة على إدراك الجمادات المذكور قوله تعالى في سورة البقرة في الحجارة ﴿وَلَئِنْ مِنْهَا لَمَّا يَرْحُطَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فصرح بأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وهذه الخشية التي نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو تعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿سُحِبَ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأُتُتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَئِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيسُحِبَ بِهِنَّ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾... الآية [الأنبياء: ٧٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل بالخطبة إلى المنبر، وهي في صحيح البخاري وغيره.

ومنها: ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ في مكة» وأمثال هذا كثيرة، فكل المذكور في الكتاب والسنة، إنما يكون بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه. كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو كان المراد بتسبيح الجمادات، دلالتها على خالقها لكننا نفقهه كما هو معلوم، وقد دلت عليه آيات كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، راجع للفظ الإنسان مجرداً عن إرادة المذكور منه الذي هو آدم.

والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة كان ظلوماً جهولاً: أي كثير الظلم والجهل، والدليل على هذا أمران:

أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذب ومرحوم في قوله تعالى بعده متصلاً به: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾ (٧١)، فدل هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان، هو المعذب والعياذ بالله، وهم المنافقون،

والمنافقات، والمشركون، والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات. واللام في قوله: «ليعذب»: لام التعليل وهي متعلقة بقوله: «وحملها الإنسان».

الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَمَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ﴾، راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي كما هو ظاهر، وقد أوضحناه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا سِرًّا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وبيننا هناك أن هذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة عندي درهم ونصفه: أي نصف درهم آخر كما ترى. وبعض من قال من أهل العلم إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظُلُمًا جَهُولًا﴾، عائد إلى آدم، قال المعنى: أنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً: أي غراً بعواقب الأمور، وما يتبع الأمانة من الصعوبات، والأظهر هو ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبا

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، قد ذكرنا ما هو بمعناه من الآيات في أول سورة الفاتحة، في الكلام على قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].
قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سورة سبا: ١].

بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم ما يلج في الأرض، أي ما يدخل فيها كالماء النازل من السماء، الذي يلج في الأرض، كما أوضحه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [الزمر: ٢١].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [المؤمنون: ١٨]، فهو - جلّ وعلا -، يعلم عدد القطر النازل من السماء إلى الأرض، وكيف لا يعلمه من خلقه؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١]. ويعلم أيضاً ما يلج في الأرض من الموتى الذين يدفنون فيها، كما قال - جلّ وعلا - : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا ﴿٥٦﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٥٦]، والكفات: الكفت: وهو الضم؛ لأنها تضمهم أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، ويعلم أيضاً ما يلج في الأرض من البذر كما قال تعالى: ﴿وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا فِي كِتَابِ تُبَيِّنُ ﴿[الأنعام: ٥٩]﴾. وكذلك ما في بطنها من المعادن وغير ذلك. قوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي من الأرض كالنبات، والحبوب، والمعادن، والكنوز، والدفائن وغير ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من المطر، والثلج، والبرد، والرزق وغير ذلك، وما يعرج: أي يصعد فيها أي السماء كالأعمال الصالحة، كما بينه بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكأرواح المؤمنين وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿[المعارج]﴾... الآية [المعارج].

وقال تعالى: ﴿يَذُرُّ الْأَمْثَرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿[السجدة]﴾، وما ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه يعلم جميع ما ذكره؛ ذكره في سورة الحديد في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على كمال إحاطة علم الله بكل شيء في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ الآية [هود: ٥]، وفي مواضع آخر متعددة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الكفار أنكروا البعث، وقالوا: لا تأتينا الساعة؛ أي القيامة، وأنه - جلّ وعلا - أمر نبيه أن يقسم لهم بربه العظيم أن الساعة سوف تأتيتهم مؤكداً ذلك توكيداً متعددًا.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿[يس]﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلْإِنْسَانِ أَوَدَا مَا مِثُّ لِسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ ﴿[مریم]﴾. وقوله تعالى عنهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وما ذكره - جلّ وعلا - من أنه أمر نبيه بالإقسام لهم على أنهم يبعثون، جاء موضحاً في مواضع آخر.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابعة لهن مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكروه من أنكروه من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَسَيُنْزِلُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿[يونس]﴾، والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الثالثة: في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾... الآية [التغابن: ٧].

وقد قدّمنا البراهين الدالة على البعث بعد الموت من القرآن في سورة البقرة، وسورة النحل وغيرهما.

وقد قدّمنا الآيات الدالة على إنكار الكفار البعث، وما أعد الله لمنكري البعث من العذاب في الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالْآيَاتِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١] وفي مواضع أخرى. وقوله: «قل بلى» لفظة بلى قد قدّمنا معانيها في اللغة العربية بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ قَوْلاً اسْتَكْرَماً كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى﴾ ... الآية [النحل: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿عَلِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، جاء موضحاً في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «لا يعزب»: أي لا يغيب عنه مثقال ذرة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

أخي كان أما حلمه فمروح عليه وأما جهله فعزيب

يعني: أن الجهل غائب عنه ليس متصفاً به. وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر: «عالم الغيب» بألف بعد العين، وتخفيف اللام المكسورة، وضم الميم على وزن فاعل. وقرأ حمزة والكسائي: «عَلَامُ الغيب» بتشديد اللام وألف بعد اللام المشددة وخفض الميم على وزن فاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «عالم الغيب» كقراءة نافع وابن عامر؛ إلا أنهم يخفضون الميم. وعلى قراءة نافع، وابن عامر: بضم الميم من قوله: عالم الغيب، فهو مبتدأ خبره جملة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ ... الآية. أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب.

وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم: «عالم الغيب» بخفض الميم فهو نعت لقوله ربي: أي قل بلى وربّي عالم الغيب لتأنيبكم، وكذلك على قراءة حمزة، والكسائي: «عَلَامُ الغيب». وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير الكسائي: «لا يعزب عنه» بضم الزاي من يعزب، وقرأه الكسائي بكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ٥﴾.

لم يبين هنا نوع هذا العذاب، ولكنه بينه بقوله في الحج: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥﴾ [الحج]. وقوله: معاجزين: أي مغالبيين، ومسابقين يظنون أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر على بعثهم وعذابهم، والرجز: العذاب كما قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ الآية [البقرة: ٥٩]، وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو: «معجزين» بلا ألف بعد العين مع تشديد الجيم المكسورة. وقرأه الباقون بألف بعد العين، وتخفيف الجيم، ومعنى قراءة التشديد أنهم يحسبون أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر على بعثهم وعقابهم.

وقال بعضهم: أن معنى «معجزين» بالتشديد: أي مثبطين الناس عن الإيمان. وقرأ ابن كثير، وحفص «من رجز أليم»: بضم الميم من قوله: أليم على أنه نعت لقوله: عذاب. وقرأ الباقون: «أليم» بالخفض على أنه نعت لقوله: رجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكَّرُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلُّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾ إلى قوله: ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٧ - ٨﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار البعث، وتكذيب الله لهم في ذلك قدم موضعاً في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، في البقرة والنحل وغيرهما.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِذَا مُرِفْتُمْ كُلُّ مَرْقٍ﴾، أي تمزقت أجسادكم وتفرقت وبلبت عظامكم، واختلطت بالأرض، وتلاشت فيها. وقوله عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي البعث بعد الموت وهو مصب إنكارهم قبحهم الله، وهو - جلّ وعلا - يعلم ما تلاشى في الأرض من أجسادهم، وعظامهم كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَافِظٌ ١١﴾ [ق].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ١٢﴾.

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من توبيخ الكفار، وتقريعهم على عدم تفكيرهم ونظرهم إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض؛ ليستدلوا بذلك على كمال قدرة الله على البعث، وعلى كل شيء، وأنه هو المعبود وحده، جاء موضعاً في مواضع آخر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ١٣﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ١٤ تَبَصَّرُوا وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ١٥﴾ [ق]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ ١٦﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَشُوْرُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٧﴾ [يوسف]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق،

عن معمر عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ خَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ شَقِطَ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أنه إن شاء خسف الأرض بالكفار خسفها بهم لقدرته على ذلك.

والثاني: أنه إن شاء أن يسقط عليهم كسفاً من السماء فعل ذلك أيضاً لقدرته عليه.

أما الأول الذي هو أنه لو شاء أن يخسف بهم الأرض لفعل، فقد ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَمِنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١١] [الملك]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ...﴾ الآية [الإسراء: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: ٨٢]. وقوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٥].

وقوله هنا: ﴿أَوْ شَقِطَ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قد بينا في سورة بني إسرائيل، أنه هو المراد بقوله تعالى عن الكفار: ﴿أَوْ شَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا...﴾ الآية [الإسراء: ٩٢]. وقرأ حمزة والكسائي: «إن يشأ يخسف بهم الأرض، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء» بالياء المثناة التحتية في الأفعال الثلاثة. أعني يشأ. ويخسف. ويسقط، وعلى هذه القراءة فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى؛ أي إن يشأ هو؛ أي الله، يخسف بهم الأرض، وقرأ الباقون بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أي إن نشأ نحن إلخ. وقرأ حفص عن عاصم: «كسفاً» بفتح السين، والباقون بسكونها. والكسف بفتح السين القطع، والكسف بسكون السين واحدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أتى داود منه فضلاً تفضّل به عليه، وبين هذا الفضل الذي تفضل به على داود في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبِيدِ إِنَّهُمْ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ [ص: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ أَلَيْسَ فُضْلُنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾. قد بينا الآيات الموضحة له مع إيضاح معنى «أوبى معه» في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ «أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقَّرَ فِي السَّرْدِ». قد قدمنا الآيات التي فيها إيضاحه، مع بعض الشواهد وتفسير قوله: ﴿وَفَقَّرَ فِي السَّرْدِ﴾، في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وفي النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوًّا شَرُّ رَوَّاحِهَا شَرُّهُ﴾. قد بينا الآيات التي فيها إيضاحه له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ٨١]. مع الأجوبة عن بعض الأسئلة الواردة، على الآيات المذكورة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْذِنُ رَبِّي﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَقُدُّوهُ رَأْسَيْنِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْشَّيْطَانِ مَنْ يَقُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفَظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى عنه: ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾... الآية [الحجر: ٢٩]، وفي سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾، قرأه عاصم، وحزمة والكسائي بتشديد الدال والباقون بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ الآية.

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ [البقرة: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾. أمر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، نبيه محمداً ﷺ أن يقول للكفار: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي يرزقكم من السماوات بإنزال المطر مثلاً، والأرض بإنبات الزروع والثمار ونحو ذلك. ثم أمره أن يقول: الله: أي الذي يرزقكم من السماوات والأرض هو الله، وأمره تعالى له ﷺ بأن يجيب بأن رازقهم هو الله يفهم منه أنهم مقرون بذلك، وأنه ليس محل نزاع.

وقد صرح تعالى بذلك، في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ الآية [يونس: ٣١]، وإقرارهم بربوبيته تعالى يلزمه الاعتراف بعبادته وحده، والعمل بذلك.

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ يَهْدِي إِلَيْهِمْ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْتَلْ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ ١٥. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار: إِنَّهُ وَإِيَاهُمْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَسْئُولاً عَمَّا يَعْمَلُ الْآخَرُ، بل كل منهم مؤاخذ بعمله، والآخر بريء منه.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ كَفَرْنَا بِهِ عَمَلٌ أَبْدَلْنَا مِنْهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ وَلَئِنْ كُنَّا بِعَمَلِهِمْ لَشَاكِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا رِسَالَاتِي هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ مُبْتَلًى وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَطَعْنُوا عَنْهُ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ إِلَهُ بَعْضُهُمْ أَوْسَطُ مِنْ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وفي معنى ذلك في الجملة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٥]. وكقوله تعالى عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [هود: ٦٦]، فَيَكْفُرُوا بِجَمِيعِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ دُونِهِ. [هود: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ اللَّهِ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ ٢٧. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول لعبدة الأوثان: أروني أوثانكم التي ألحقتموها بالله شركاء له في عبادته كفرأ منكم، وشركأ وافترأ. وقوله: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾؛ لأنهم إن أروه إياها تبين برؤيتها أنها جماد لا ينفع ولا يضر، واتضح بعدها عن صفات الألوهية. فظهر لكل عاقل برؤيتها بطلان عبادة ما لا ينفع ولا يضر، فأحضرها والكلام فيها، وهي مشاهدة أبلغ من الكلام فيها غائبة، مع أنه ﷺ يعرفها، وكما أنه في هذه الآية الكريمة أمرهم أن يروه إياها ليتبين بذلك بطلان عبادتها، فقد أمرهم في آية أخرى أن يسموها بأسمائها؛ لأن تسميتها بأسمائها يظهر بها بعدها عن صفات الألوهية، وبطلان عبادتها لأنها أسماء إناث حقيرة كالكالات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثَاءً﴾ [النساء: ١١٧]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

والأظهر في قوله: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ﴾، في هذه الآية: هو ما ذكرنا من أن الرؤية بصرية وعليه فقوله: شركاء: حال، وقال بعض أهل العلم: إنها من رأى العلمية،

وعليه فشركاء: مفعول ثالث لأروني. قال القرطبي: يكون أروني هنا من رؤية القلب فيكون شركاء مفعولاً ثالثاً أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله ﷻ، وهل شاركت في خلق شيء، فبينوا ما هو وإلا فلم تعبدونها. اه محل الغرض منه. واختار هذا أبو حيان في البحر المحيط. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «كلا» ردع لهم، وزجر عن إلحاق الشركاء به. وقوله: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي والمتصف بذلك هو المستحق للعبادة، وقد قدّمنا معنى العزيز الحكيم بشواهد مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، استشهد به بعض علماء العربية على جواز تقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف كما أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وسبق حال ما بحرف جر قد أبوا ولا أمنعه فقد ورد
قالوا: لأن المعنى: وما أرسلناك إلا للناس كافة: أي جميعاً، أي أرسلناك للناس، في حال كونهم مجتمعين في رسالتك، وممن أجاز ذلك أبو علي الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، ولذلك شواهد في شعر العرب، كقول طليحة بن خويلد الأسدي:
فلن تك أذواد أصبن ونسوة
فلن يذهبوا فرغاً بقتل حبال
وكقول كثير:

لئن كان برد الماء هيمان صاديا
إلي حبيباً إنها لحبيب
وقول الآخر:

تسليت طراً عنكم بعد بينكم
بذكركم حتى كأنكم عندي
وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمر
ء فيدعى ولات حين إباء
وقوله:

مشغوفة بك قد شغفت وإنما
حم الفراق فما إليك سبيل
وقوله:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً
فمطلبها كهلاً عليه شديد

فقوله في البيت الأول فرغاً: أي هدرأ حال وصاحبه المجرور بالباء الذي هو بقتل، وحبال اسم رجل. وقوله في البيت الثاني: هيمان صادياً: حالان من ياء المتكلم المجرورة بإلي في قوله: إلي حبيباً. وقوله في البيت الثالث: طراً: حال من الضمير المجرور بعن في قوله: عنكم، وهكذا. . وتقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف منه أغلب النحويين.

وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم، فإنها قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم.

وقال الزجاج: المعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف، وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كناء الراوية، والعلامة، ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ؛ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني. فلا بد له من ارتكاب الخطأين. اهـ منه.

وقال الشيخ الصبان في حاشيته على الأشموني: جعل الزمخشري «كافة» صفة لمصدر محذوف أي رسالة كافة للناس، ولكن اعترض بأن كافة مختصة بمن يعقل وبالنصب على الحال كطراً، وقاطبة. انتهى محل الغرض منه. وما ذكره الصبان في «كافة» هو المشهور المتداول في كلام العرب، وأوضح ذلك أبو حيان في البحر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَن تُلَاقِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُعْذِرُوكَ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. إلى قوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾. ذكرنا بعض الآيات التي فيها بيان له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وبيناه في مواضع آخر من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَعْدَلَ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلَ﴾ [غافر: ٧١] وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْدَلَ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿٢٩﴾ [الحاقة]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وأوضحنا ذلك في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ❶.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا زُودَ إِلَىٰ رَبِّهِ لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكِ أَهْزَلَهُ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَهُ ❷﴾ قَالُوا

سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ❸. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَيَقُولُ أَأُنْتُمْ أَضَلُّنَّ عَبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ❹﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغِي لَنَا أَنْ

تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ ... الآية [الفرقان: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَسَخَ عَلَيْهمَ آيَاتِنَا يَنْتَبِهُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ

مَا تَأْتِيكُمْ ❺﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ❻﴾ [الإسراء: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ❼﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناها في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَلَفُوا مِيعَارًا مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكذبوا رُسُلِي فَكَيْفَ

كَانَ نَكِيرِي ❶﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أهلك الأمم

الماضية لما كذبت رسله، وأن الأمم الماضية أقوى، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأن كفار

مكة عليهم أن يخافوا من إهلاك الله لهم بسبب تكذيب رسوله ﷺ، كما أهلك الأمم

التي هي أقوى منهم، ولم يؤتوا: أي كفار مكة معشار ما أتى الله الأمم التي أهلكها من

قبل من القوة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً

وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الروم، في

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ ❷﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المؤمنون، في الكلام على قوله

تعالى: ﴿أَمَرُ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ❸﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ ❹﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَنْفَقُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ

اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ۝٤١﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتَ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ ۝٤٢﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناها في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، في معرض بيان حجج الظاهرية في دعواهم منع الاجتهاد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٧﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون بالله، وأن ذلك الإيمان لا ينفعهم لفوات وقت نفعه، الذي هو مدة دار الدنيا جاء موضحاً في آيات كثيرة.

وقد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَسَبُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].

وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٦٨﴾ [مريم]، وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، «أنى» تدل على كمال الاستبعاد هنا، والتناوش: التناول، وقال بعضهم: هو خصوص التناول السهل للشيء القريب.

والمعنى: أنه يستبعد كل الاستبعاد ويبعد كل البعد، أن يتناول الكفار الإيمان النافع في الآخرة بعد ما ضيعوا ذلك وقت إمكانه في دار الدنيا، وقيل الاستبعاد لردهم إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا، والأول أظهر، ويدل عليه قوله قبله: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ لا يمكنه ذلك. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَتَّبَعُونَ مَثَلٌ ۝١﴾. الألف واللام في قوله: «الحمد لله» للاستغراق: أي جميع المحامد ثابت لله - جلّ وعلا -، وقد أنشئ - جلّ وعلا - على نفسه بهذا الحمد العظيم، معلماً خلقه في كتابه: أن يشنوا عليه بذلك، مقترناً بكونه فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً، وذلك يدل على أن خلقه للسموات والأرض، وما ذكر معه يدل على عظمته، وكمال قدرته، واستحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته مع ما في خلق

يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائناً من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحهم رحمة المطر، كما قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ... الآية [الشورى: ٢٨]، ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، كما تقدم إيضاحه في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ ... الآية [الكهف: ٦٥].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ... الآية [الفتح: ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ الآية [الأحزاب: ١٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٧] [الأنعام]، و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يُمِيسُكَ﴾ شرطية، وفتح الشيء التمكين منه وإزالة الحواجز دونه والإمساك بخلاف ذلك. قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ إنكاري، فهو مضمن معنى النفي.

والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة وحده.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، يدل على أنه تعالى هو الرازق وحده، وأن الخلق في غاية الاضطرار إليه تعالى.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: ٢١]. وقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَن يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ١. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسلية ﷺ، بأن ما لاقاه من قومه من التكذيب لاقاه الرسل الكرام من قومهم قبله - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنلَهُمْ صَبْرًا﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. قد قدمنا الآيات التي بمعناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك كقوله تعالى في الكهف: ﴿فَنَنْخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ يَمُوزُّكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وفي الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَائِدِهِمُ الْآيَةَ﴾ [الكهف: ٦]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ مَعَابَا فَسَقَنَّهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ ٢. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن إحياءه تعالى الأرض بعد موتها المشاهد في دار الدنيا برهان قاطع على قدرته على البعث، قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في مواضع كثيرة في سورة البقرة، والنحل، والأنبياء، وغير ذلك، وقد تقدمت الإحالة عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْيُ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن من كان يريد العزة فإنها جميعها لله وحده، فليطلبها منه وليتسبب لنيلها بطاعته - جلّ وعلا -، فإن من أطاعه أعطاه العزة في الدنيا والآخرة، أما الذين يعبدون الأصنام لينالوا العزة بعبادتها، والذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة، فإنهم في ضلال وعمى عن الحق؛ لأنهم يطلبون العزة من محل الذل.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ٣. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ٤. [مریم]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئَظَنُوتُ عِنْدَهُمُ الْغَزَا فَإِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٥. [يونس].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾... الآية [المنافقون: ٨]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات] والعزة: الغلبة والقوة، ومنه قول الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حَمِي يَخْتَشَى إِذَ النَّاسِ إِذَ ذَاكَ مَنْ عَزَبَرًا
أَي من غلب استلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أَي غلبني وقوي علي في الخصومة.

وقول من قال من أهل العلم: إن معنى الآية: من كان يريد العزة أي يريد أن يعلم لمن العزة؛ أصوب منه ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. قد تقدم بعض الكلام عليه في سورة النحل، مع إعراب السيئات.

وقد قدمنا في مواضع آخر أن من مكروهم السيئات كفرهم بالله وأمرهم أتباعهم به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]. وكقوله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [النحل: ٢٣] وقالوا لَا نَذَرُ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا [نوح: ٢٣]. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يُقَيِّضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. مع بيان الأحكام المتعلقة بالآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُقْضَى مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾. قد قدمنا بعض الكلام عليه في آخر سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُ فِيهَا سَرَجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

تقدم إيضاحه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ نَاقِلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسْتَحْيِيهِمْ لِنَبْسُوهُمْ﴾. قد تقدم الكلام عليه مع يسط أحكام فقهية تتعلق بذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسْتَحْيِيهِمْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

وتقدم في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمَعَسَرُ لَمِغْنٌ وَالْإِنْسِ أَلَهُ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

أن قوله في آية فاطر هذه: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَفْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، دليل قرآني واضح على بطلان دعوى من ادعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ١٧]، وفي غيره من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥].

بين جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه غني عن خلقه، وأن خلقه مفتقر إليه: أي فهو يأمرهم وينهاهم لا ليتنفع بطاعتهم، ولا ليدفع الضرر بمعصيتهم، بل النفع في ذلك كله لهم، وهو - جل - وعلا - الغني لذاته، الغني المطلق.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة مع كونه معلوماً من الدين بالضرورة، جاء في مواضع كثيرة، من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ فَوْقَكُمْ غَيْرِكُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَلَوْ أَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ عَنْ حَيْدٍ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ كَفَرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وبذلك تعلم عظم افتراء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وقد هددهم الله على ذلك بقوله: ﴿سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَلْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [١٧]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ بَدَلٍ﴾ [النساء: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الجواب عن بعض الأسئلة الواردة على الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَدَعُ ثِقْلَهُ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ووجه الجمع بين أمثال هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِيرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن إنذاره ﷺ محصور في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، وهذا الحصر الإضافي؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار، كأنه هو والذي لم يندر سواء بجامع عدم النفع في كل منهما.

وهذا المعنى، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) ﴿إِنَّمَا نُذِيرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ الآية [يس: ١٠، ١١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) [النازعات]، ويشبه معنى ذلك في الجملة قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقد قدمنا معنى الإنذار وأنواعه موضحاً في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشَيْءٍ بِهِ، وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (٨). قد قدمنا إيضاحه بالآيات في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾. الأحياء هنا المؤمنون، والأموات الكفار، فالحياة هنا حياة إيمان والموت موت كفر.

وهذا المعنى، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فقوله: أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا: أي موت كفر فأحييناه حياة إيمان، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) [يس]، فيفهم من قوله: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾، أي وهي حياة إيمان أن الكافرين الذين حق عليهم القول ليسوا كذلك، وقد أطبق العلماء على أن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] أن المعنى: والكفار يبعثهم الله.

وقد قدمنا هذا موضحاً بالآيات القرآنية في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْقَتْلَ﴾ ... الآية [النمل: ٨٠]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما جاء في سماع الموتى في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ الآية [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ (٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّينَ وَالْوَيْكَرِ﴾ الآية [الروم: ٢٢]، وبيننا هناك دلالة الآيات على أنه - جلّ وعلا - هو المؤثر وحده، وأن الطبائع لا تأثير لها إلا بمشيئته تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، إلى قوله ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

قد قدمنا الكلام على هذه الآية، مع نظائرها من آيات الرجاء استطراداً، وذكرنا معنى الظالم والمقتصد والسابق، ووجه تقديم الظالم عليهما بالوعد في الجنات في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْأَفْضَلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾... الآية [النور: ٢٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، قد قدمناه مع الآيات المماثلة والمشابهة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَسْتَخْرِجُهُ مِنْهُ جِلْبَةً فَلَبِسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ شَوُّهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ يَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾... الآية [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قد

قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الرعد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة

الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِهْدَىٰ

الْأُمَمِ﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له وشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾... الآية [النحل: ٦١].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

قوله تعالى: ﴿يَسْ﴾. التحقيق أنه من جملة الحروف المقطعة في أوائل

السور، والياء المذكورة فيه ذكرت في فاتحة سورة مريم في قوله تعالى: ﴿كَهَيِّصَ

﴾. والسين المذكورة فيه ذكرت في أول الشعراء والقصص في قوله:

﴿طَسَّرَ﴾، وفي أول النمل في قوله: ﴿طَسَّرَ﴾، وفي أول الشورى في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ وَسَقَى ﴿٢﴾﴾ [الشورى].

وقد قدّمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾. قد بيّنا أنّ موجب التوكيد لكونه من المرسلين، هو إنكار الكفار لذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿لَنُنَزِّلَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١١﴾﴾. لفظة «ما» في قوله تعالى: ﴿مَّا أَتَذَرُ أَبَاؤُهُمْ﴾، قيل نافية وهو الصحيح، وقيل: موصولة، وعليه فهو المفعول الثاني لتنذر. وقيل: مصدرية.

وقد قدّمنا دلالة الآيات على أنها نافية، وأن مما يدل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾؛ لأن كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار لا الإنذار، وهذا هو الظاهر مع آيات أخر دالة على ذلك كما أوضحنا ذلك كله في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

الظاهر أن القول في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الآية [فصلت: ٢٥]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ الآية [القصص: ٦٣]. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمُ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات على قراءة: «حقت عليهم كلمات ربك» بصيغة الجمع، هو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلت على ذلك آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى في آخر سورة هود: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى في السجدة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [السجدة].

وقوله تعالى في أخريات ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿١٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ [ص].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرُهم﴾، يدل على أن أكثر الناس من أهل جهنم، كما دلت على ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية.

وبيّنا بالسنة الصحيحة في أول سورة الحج: أن نصيب النار من الألف تسعة وتسعون وتسعمائة، وأن نصيب الجنة منها واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ [٨] وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٩].

الأغلال: جمع غل وهو الذي يجمع الأيدي إلى الأعناق، والأذقان: جمع ذقن وهو ملتقى اللحيين، والمقمح بصيغة اسم المفعول، هو الرافع رأسه. والسد بالفتح والضم: هو الحاجز الذي يسد طريق الوصول إلى ما وراءه.

وقوله: ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ﴾، أي جعلنا على أبصارهم الغشاوة، وهي الغطاء الذي يكون على العين يمنعها من الإبصار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غُشُوءٌ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقول الشاعر وهو الحارث بن خالد بن العاص:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألزمتها

والمراد بالآية الكريمة: أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علم الله المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرُهم لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٧]، صرفهم الله عن الإيمان صرفاً عظيماً مانعاً من وصوله إليهم؛ لأن من جعل في عنقه غل، وصار الغل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعاً لا يقدر أن يطاقطه، وجعل أمامه سد، وخلفه سد، وجعل على بصره الغشاوة لا حيلة له في التصرف، ولا في جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضرر عنها، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية من كونه - جلّ وعلا - يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ [البقرة: ٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَى عِلْرٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غُشُوءٌ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَلَا هَادِيَ لَمْ يَكُنْ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدّمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب وكذلك الأغلال في الأعناق، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم، أن جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب أن الله إنما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم الله على ذلك بطمس البصائر والختم على القلوب والطبع عليها، والغشاوة على الأبصار؛ لأن من شؤم السيئات أن الله - جلّ وعلا - يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشر، والحيلولة بينه وبين الخير جزاءه الله بذلك على كفره جزاءً وفاقاً.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالباء سببية، وفي الآية: تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، ومعلوم أن الفاء من حروف التعليل: أي فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقد دللت هذه الآيات على أن شؤم السيئات يجر صاحبه إلى التماذي في السيئات، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك، أن فعل الخير يؤدي إلى التماذي في فعل الخير، وهو كذلك كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَآثَرَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم: أن قول من قال من أهل العلم: إن معنى قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْطَالًا﴾، أن المراد بذلك الأغلال التي يعذبون بها في الآخرة كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْيُنِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [٧] في التعمير ثم في النَّارِ يُسْجَرُونَ [٧] [غافر]، خلاف التحقيق، بل المراد بجعل الأغلال في أعناقهم وما

ذكر معه في الآية هو صرفهم عن الإيمان والهدى في دار الدنيا كما أوضحنا. وقرأ هذه الحرف حمزة، والكسائي، وحفص، عن عاصم: «سداً» بالفتح في الموضعين، وقرأه الباقون بضم السين، ومعناهما واحد على الصواب. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِيرُ مَنْ أَتَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾. تقدم إيضاحه مع نظائره من الآيات في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِيرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَكُتِبَ مَا قَدَّمُوا وَمَأْتِرُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (١٧). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربعة أشياء.

الأول: أنه يحيي الموتى مؤكداً ذلك متكلماً عن نفسه بصيغة التعظيم.

الثاني: أنه يكتب ما قدموا في دار الدنيا.

الثالث: أنه يكتب آثارهم.

الرابع: أنه أحصى كل شيء في إمام مبين. أي في كتاب بين واضح، وهذه الأشياء الأربعة جاءت موضحة في غير هذا الوضع.

أما الأول منها: وهو كونه يحيي الموتى بالبعث فقد جاء في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى. كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَ﴾ [التغابن: ٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدّمناها بكثرة في سورة البقرة، وسورة النحل، في الكلام على براهين البعث، وقدّمنا الإحالة على ذلك مراراً.

وأما الثاني منها: وهو كونه يكتب ما قدموا في دار الدنيا فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٥) [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [الجاثية]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَهْدِهِ وَنُخْرِجُهُ لَوْمَةَ الْفَيْمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٧) [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ... الآية [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨) [ق].

وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الكهف.

وأما الثالث منها: وهو كونهم تكتب آثارهم فقد ذكر في بعض الآيات أيضاً.

واعلم: أن قوله: «وآثارهم» فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

الأول منهما: أن معنى ما قدموا ما باشروا فعله في حياتهم، وأن معنى آثارهم: هو ما سنّوه في الإسلام من سنة حسنة أو سيئة، فهو من آثارهم التي يعمل بها بعدهم.

الثاني: أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها من فعل الخير، وكذلك خطاهم إلى الشر، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم» يعني خطاكم من بيوتكم إلى مسجده ﷺ.

أما على القول الأول فالله - جلّ وعلا - قد نص على أنهم يحملون أوزار من أضلوهم وسنّوا لهم السنن السيئة كما في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقد أوضحنا ذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]، وذكرنا حديث جرير، وأبي هريرة في صحيح مسلم في إيضاح ذلك.

ومن الآيات الدالة على مؤاخذه الإنسان بما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلالة؛ قوله تعالى: ﴿يَبْنُوا لِلْإِنسَانِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة]، بناء على أن المعنى بما قدم مباشرة له، وآخر مما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلال. وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار]، على القول بذلك.

وأما على التفسير الثاني: وهو أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها، فقد جاء بعض الآيات دالاً على ذلك المعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَإِدْيَا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١]، لأن ذلك يستلزم أن تكتب لهم خطاهم التي قطعوا بها الوادي في غزوهم.

وأما الرابع: وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، فقد تدل عليه الآيات الدالة على الأمر الثاني، وهو كتابة جميع الأعمال التي قدموها بناء على أن المراد بذلك خصوص الأعمال.

وأما على فرض كونه عاماً فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿مَّا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. بناء على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وهو أصح القولين. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِذَا تَكَلَّمْتُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بتي إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن الكفار ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِذَا تَكَلَّمْتُمْ﴾.

تَكْذِبُونَ ﴿٨﴾، قد بين أنهم قد قالوا ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ نَارًا فَجَاءَتْهُمْ خَزَائِرُ أَلْهٍ يَآتِيهِمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقد بين تعالى أن الذين أنكروا إنزال الله الوحي كهؤلاء أنهم لم يقدره حق قدره: أي لن يعظموه حق عظمتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴿٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّرَنَاهَا لَرَجْمٌ كَرِيمٌ ﴿١٠﴾ وَلَيْمَسَنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ ﴿١٢﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمِثْلِهِ مِمَّن مَّعَهُمْ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣١]، وذكرنا بعض الكلام عليه في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴿١٤﴾... الآية [النمل: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ مَن لَّا يَسْأَلُكَ أَجْرًا ﴿١٥﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَلْقَوُاْ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا لِي أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴿١٦﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾. قوله: فطرني معناه: خلقتني وابتدعني، كما تقدم إيضاحه في أول سورة فاطر.

والمعنى: أي شيء ثبت لي يمنعني من أن أعبد الذي خلقتني، وابتدعني، وأبرزني من العدم إلى الوجود، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الذي يخلق هو وحده الذي يستحق أن يعبد وحده، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله.

وقد قدمنا إيضاح ذلك في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٦﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴿٢٧﴾ الآية [الرعد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿ءَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرْدُنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْقِدُونَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾. الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَاتَّخَذُوا﴾: للإنكار، وهو مضمن معنى النفي: أي لا أعبد من دون الله معبودات، إن أَرَادَنِي الله بضر لا تقدر على دفعه عني، ولا تقدر أن تنقذني من كرب.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم فائدة المعبودات من دون الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٠﴾ [الزمر: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٣١﴾ [الإسراء: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٣٢﴾ [سبا: ٢٢]. وقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ شَيْئًا وَتَعْلَمُونَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [يونس: ١٩]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿لَا تَعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾، أي لا شفاعة لهم أصلاً حتى تغني شيئاً، ونحو هذا أسلوب عربي معروف، ومنه قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

فقوله: لا يهتدى بمناره: أي لا منار له أصلاً حتى يهتدى به، وقول الآخر:

لا تفرع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجر

أي لا أرنب فيها، حتى تفرعها أهوالها، ولا ضب فيها حتى ينجر: أي يتخذ حجراً.

وهذا المعنى، هو المعروف عند المنطقيين بقولهم: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع. كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يونس: ٢٠].

بين - جلّ وعلا - أن العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون غير مكتفين بتكذيبه، بل جامعين معه الاستهزاء.

وقوله تعالى في هذه الآية: الكريمة ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾، نص صريح في تكذيب الأمم لجميع الرسل لما تقرر في الأصول، من أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها من فهي نص صريح في عموم النفي، كما هو معروف في محله.

وهذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر، وجاء في بعض الآيات إخراج أمة واحدة عن حكم هذا العموم بمخصص متصل، وهو الاستثناء.

فمن الآيات الموضحة لهذا العموم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ مُقَدِّمُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاوِ وَالضَّرَائِلِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ بِقَبْلَةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥].

وقد قدّمنا الكلام على هذا في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَهُمْ أَنَّهُ رُسُلُهُمْ كَذِبٌ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٤٤].

وقدّمنا طرفاً من الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ ... الآية [الأنعام: ١٢٣].

وأما الأمة التي أخرجت من هذا العموم فهي أمة يونس، والآية التي بينت ذلك هي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

عَذَابَ الْعِزِّي فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَمَقْعَتُهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٣٣﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى ثَمَّاءَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ فَأَمَّا نُوا فَتَعْنَتُهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٣٥﴾ [الصفات]، والحسرة أشد الندامة، وهو منصوب على أنه منادى عامل في المجرور بعده، فأشبهه المنادى المضاف.

والمعنى: يا حسرة على العباد تعالى واحضري فإن الاستهزاء بالرسول هو أعظم الموجبات لحضورك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُ لَمْ يَأْخُذْ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ﴾ - إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

قد قدمنا أن إحياء الأرض المذكور في هذه الآية، برهان قاطع على البعث في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النمل]، وفي غير ذلك من المواضع. وأوضحنا في المواضع المذكورة، بقية براهين البعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُ لَمْ يَأْخُذْ أَنْ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٣٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٣٧﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ... الآية [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٣٨﴾.

ذم - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة الكفار بإعراضهم عن آيات الله.

وهذا المعنى، الذي تضمنته هذه الآية جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في أول سورة الأنعام: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤، ٥]. وقوله تعالى في آخر يوسف: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَاشْتَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ وَإِنْ بَرَوْا آيَةَ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ ﴿٢﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ﴿٤﴾ [الصفات]، وأصل الإعراض مشتق من العرض بالضم، وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يولي به جانب عنقه صاداً عنه.

قوله تعالى: ﴿وَرُفِعَ فِي الصُّورِ إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة النفخة الأخيرة، والصور قرن من نور ينفخ فيه الملك نفخة البعث، وهي النفخة الأخيرة، وإذا نفخها قام جميع أهل القبور من قبورهم، أحياء إلى الحساب والجزاء.

وقوله: ﴿وَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، جمع جدث بفتحيتين، وهو القبر، وقوله: يَنْسِلُونَ: أي يسرعون في المشي من القبور إلى المحشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يِرَاقًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ [المعارج]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ الآية [ق: ٤٤]. وكقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادًا مُتَشِيرًا﴾ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ

إِلَى الدَّاعِ ﴿القمر: ٧، ٨﴾ الآية. وقوله: ﴿تُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾، أي مسرعين مادي أعناقهم على أشهر التفسيرين. ومن إطلاق نسل بمعنى أسرع.
قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾
[الأنبياء] وقول لبيد:

عسلان الذئب أمسى قارباً برد الليل عليه فنسل

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أهل القبور يقومون أحياء عند النفخة الثانية، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٢﴾﴾، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْعَوْنَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٩٦﴾﴾ [ق]، أي الخروج من القبور. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٢﴾﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٣﴾﴾ [النازعات]، والزجرة: هي النفخة الثانية. والساهرة: وجه الأرض والفلاة الواسعة، ومنه قول أبي كبير الهذلي:

يرتدن ساهرة كأن جميمها وعميمها أسداف ليل مظلم

وقول الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحى السراب مجللاً لأقطارها قد حببتها مثلثماً

وكقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم]، وهذه الدعوة بالنفخة الثانية، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾... الآية [الإسراء: ٥٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْفِدٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٦﴾﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وأوضحنا فيه التفصيل بين النظم الوضعية، وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: جبلاً كثيراً. أي خلقاً كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾ [الشعراء]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الشيطان أضل خلقاً كثيراً من بني آدم جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا

يَمَعَّشَرَ الْإِنْسَ قَدْ أَسْكَنْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي قد استكثرتم أيها الشياطين، من إضلال الإنس، وقد قال إبليس: ﴿لَئِن أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقد بين تعالى أن هذا الظن الذي ظنه بهم من أنه يضلهم جميعاً إلا القليل صدقه عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ]، كما تقدم إيضاحه. وقرأ هذا الحرف نافع وعاصم: «جبلًا» بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي: «جبلًا» بضم الجيم، والباء وتخفيف اللام، وقرأه أبو عمرو وابن عامر: «جبلًا» بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام، وجميع القراءات بمعنى واحد؛ أي خلقاً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَاتٍ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من شهادة بعض جوارح الكفار عليهم يوم القيامة، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور]. وقوله تعالى في فصلت: ﴿حَقِّقْ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]. وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾ [النساء: ٤٢].

وبينا هناك: أن آية يس هذه توضح الجمع بين الآيات كقوله تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَيَاتًا﴾ [النساء: ٤٢]. مع قوله عنهم: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٨]. قوله تعالى: ننكسه في الخلق؛ أي نقلبه فيه، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال، ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق، فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، وأصل معنى التنكيس: جعل أعلى الشيء أسفله.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الآية: الروم: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [٤] ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ [الآية: التين]. على أحد التفسيرين، وقوله تعالى في الحج: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى في النحل: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧]. وقوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوعًا﴾ [غافر: ٦٧].

- وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة النحل. وقرأ هذا الحرف عاصم، وحمزة:

«ننكسه» بضم النون الأولى، وفتح الثانية وتشديد الكاف المكسورة من التنكيس: وقرأه الباقون بفتح النون الأولى، وإسكان الثانية، وضم الكاف مخففة مضارع نكسه المجرد وهما بمعنى واحد. وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر: «أفلا تعقلون» بتاء الخطاب، وقرأه الباقون: «أفلا يعقلون» بياء الغيبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنَ ۚ﴾ [الشعراء]، وذكرنا الأحكام المتعلقة بذلك هناك.

قوله تعالى: ﴿إِنذِرْ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الْأَلْمُةَ﴾ الآية [النمل: ٨٠]. وفي سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَنْجَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ - إلى قوله - ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. قد بينا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، والنحل، مع بيان براهين البعث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ﴾ [النحل]. وبيننا هناك أن الآيات المذكورة لا تنافي مذهب أهل السنة في إطلاق اسم الشيء على الموجود دون المعدوم، وقد قدمنا القراءتين وتوجيههما في قوله: «كن فيكون» هناك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالَّذِينَ جَزَعْنَا ۖ فَالَّذِينَ ذَكَرْنَا ۖ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَعِزٌّ ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۖ﴾.

أكثر أهل العلم على أن المراد بالصافات هنا، والزاجرات، والتاليات: جماعات الملائكة، وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَا نَحْنُ الصَّافُونَ ۖ﴾ [١٦] ولَا نَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [١٧]، ومعنى كونهم صافين: أن يكونوا صفوفاً

متراصين بعضهم جنب بعض في طاعة الله تعالى، من صلاة وغيرها. وقيل: لأنهم يصفون أجنحتهم في السماء، ينتظرون أمر الله، ويؤيد القول الأول حديث حذيفة الذي قدمنا في أول سورة المائدة في صحيح مسلم: وهو قوله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء»، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفون كصفوف المصلين في صلاتهم، وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على أنهم يلقون الذكر على الأنبياء؛ لأجل الإعذار والإنذار به كقوله تعالى: ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتُ ذِكْرًا﴾ ﴿عَذْرًا أَوْ تَذَرًا﴾ ﴿المرسلات﴾، فقوله: ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتُ ذِكْرًا﴾. كقوله هنا: ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتُ ذِكْرًا﴾؛ لأن الذكر الذي تتلوه تلقية إلى الأنبياء كما كان جبريل ينزل بالوحي على نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه على الجميع، وقوله: ﴿عَذْرًا أَوْ تَذَرًا﴾: أي لأجل الإعذار والإنذار، أي بذلك الذكر الذي تتلوه وتلقيه، والإعذار: قطع العذر بالتبليغ.

والإنذار قد قدمنا إيضاحه. وبيننا أنواعه في أول سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْمَعَصُ﴾ ﴿كِتَابُ أَنْزَلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف]. وقوله في هذه الآية: ﴿فَالْزَّاجِرَاتُ زَجْرًا﴾، الملائكة تزجر السحاب، وقيل تزجر الخلائق عن معاص الله بالذكر الذي تتلوه، وتلقيه إلى الأنبياء.

وممن قال بأن الصفات والزاجرات والتاليات في أول هذه السورة الكريمة هي جماعات الملائكة: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة؛ كما قاله القرطبي وابن كثير وغيرهما، وزاد ابن كثير وغيره ممن قال به: مسروقاً والسدي والربيع بن أنس، وقد قدمنا أنه قول أكثر أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: الصفات في الآية الطير تصف أجنحتها في الهواء. واستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْفَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْفِضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الآية [الملك: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾... الآية [النور: ٤١].

وقال بعض العلماء: المراد بالصفات جماعات المسلمين يصفون في مساجدهم للصلاة، ويصفون في غزوهم عند لقاء العدو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتُنُّ مَرْضُوضٍ﴾ [الصف].

وقال بعض العلماء أيضاً: المراد بالزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً: جماعات العلماء العاملين يلقون آيات الله على الناس، ويزجرون عن معاص الله بآياته، ومواعظه التي أنزلها على رسله.

وقال بعضهم: المراد بالزاجرات زجراً: جماعات الغزاة يزجرون الخيل لتسرع إلى الأعداء، والقول الأول أظهر وأكثر قائلًا، ووجه توكيده تعالى قوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ

لَوْجِدُ ﴿١﴾، بهذه الأقسام، وبأن واللام هو أن الكفار أنكروا كون الإله واحداً إنكاراً شديداً وتعجبوا من ذلك تعجباً شديداً، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ [ص]، ولما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَجِدُ﴾ ﴿٢﴾، أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ﴿٣﴾، فكونه خالق السماوات والأرض الذي جعل فيها المشارق والمغارب، برهان قاطع على أنه المعبود وحده.

وهذا البرهان القاطع الذي أقامه هنا على أنه هو الإله المعبود وحده، أقامه على ذلك أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلِلَّهِ الْإِلَٰهَ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ ﴿٢٢٩﴾ [البقرة]، فقد أقام البرهان على ذلك بقوله بعده متصلاً به: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَکِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهٖ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٣٠﴾ [البقرة].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يا لهف زياة للحارث الـ صابح فالغانم فالأئب

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فأب، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات.

فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟

قلت: إن وُحِّدَ الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل، وإن ثلثته فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه.

بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة، وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل، إما أن يكون الفضل للصف، ثم للزجر ثم للتلاوة. وإما على العكس، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على آخر، فد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل؛ أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصفات الطير، وبالزاجرات كل ما يزجر عن معصية، وبالتاليات كل نفس تلو الذكر، فإن الموصوفات مختلفة. انتهى كلام الزمخشري في الكشف.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: كلام صاحب الكشف هذا نقله عنه أبو حيان، والقرطبي وغيرهما، ولم يتعقبوه، والظاهر أنه كلام لا تحقيق فيه، ويوضح ذلك

اعتراف الزمخشري نفسه بأنه لا يدري ما ذكره: هل هو كذا أو على العكس، وذلك صريح في أنه ليس على علم مما يقوله؛ لأن من جزم بشيء ثم جوز فيه النقيضين دل ذلك على أنه ليس على علم مما جزم به.

والأظهر الذي لا يلزمه إشكال أن الترتيب بالفاء لمجرد الترتيب الذكري، والإتيان بأداة الترتيب لمجرد الترتيب الذكري فقط دون إرادة ترتيب الصفات أو الموصوفات أسلوب عربي معروف جاء في القرآن في مواضع، وهو كثير في كلام العرب.

ومن أمثلته في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْقَبَّةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَبَّةَ ۝ فَكَ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَبْسُمًا ذَا مَقَرَبَةٍ ۝ أَوْ وَسَكِنًا ذَا مَتَرَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝﴾ الآية [البلاذ، فلا يخفى أن ثم حرف ترتيب وأن المرتب به الذي هو كونه من الذين آمنوا لا ترتب له على ما قبله إلا مطلق الترتيب الذكري، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ... الآية [الأنعام: ١٥٣، ١٥٤]، كما لا يخفى أن الترتيب فيه ذكري.

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ [البقرة: ٦٩٩]. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قوله: إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، لم يذكر في هذه الآية إلا المشارق وحدها، ولم يذكر فيها المغارب.

وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: وجه اختلاف ألفاظ الآيات في ذلك. فقلنا فيه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، ما لفظه: أفرد في هذه الآية الكريمة المشرق والمغرب، وثناهما في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن]، وجمعهما في سورة سأل سائل في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وجمع المشارق في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾.

والجواب: أن قوله هنا: والله المشرق والمغرب المراد به جنس المشرق والمغرب، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك كما روي عن ابن عباس وغيره.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: وإنما معنى ذلك: والله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم.

فتأويله إذا كان ذلك معناه: والله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب إذا كان

شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذي بعده، وكذلك غروبها: انتهى منه بلفظه.

وقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [٧] ﴿الرحمن﴾، يعني مشرق الشتاء، ومشرق الصيف، ومغربهما كما عليه الجمهور، وقيل: مشرق الشمس والقمر ومغربهما.
وقوله: ﴿رَبِّ الْاَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي مشارق الشمس ومغاربها كما تقدم. وقيل: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا لِّلْاَلَمَاءِ الدُّنْيَا زَيْنَةً لِّلْكَوْكِبِ﴾ [١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧]. وقرأ هذا الحرف السبعة غير عاصم وحمزة، بإضافة زينة إلى الكواكب أي بلا تنوين في زينة، مع خفض الباء في الكواكب. وقرأه حمزة وحفص عن عاصم: بتنوين زينة، وخفض الكواكب على أنه بدل من زينة. وقرأه أبو بكر عن عاصم: «بزينة الكواكب» بتنوين زينة، ونصب الكواكب، وأعرب أبو حيان الكواكب على قراءة النصب إعرابين:

أحدهما: أنَّ الكواكب بدل من السماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا لِّلْاَلَمَاءِ﴾.

والثاني: أنه مفعول به لزينة بناء على أنه مصدر منكر، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْمَئِنِّي يَوْمَ ذِي مَسْجَبٍ﴾ [٢] ﴿يَلَمَّا﴾ ... الآية [البلد: ١٤، ١٥].

والأظهر عندي: أنه مفعول فعل محذوف تقديره أعني الكواكب، على حد قوله في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزما

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [٧] - إلى قوله - ﴿شِهَابًا ثَاقِبًا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [٨] ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ ... الآية [الحجر: ١٧، ١٨]. في سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [٩].

ذكر في هذه الآية الكريمة برهانيين من براهين البعث، التي قدمنا أنها يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث.

الأول: هو المراد بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾، لأن معنى فاستفتهم: استخبرهم، والأصل في معناه: اطلب منهم الفتوى: وهي الإخبار بالواقع فيما تسألهم عنه؛ أهم أشد خلقاً أي أصعب إيجاداً واختراعاً، أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر منهم، وهي ما تقدم ذكره من الملائكة المعبر عن جماعاتهم بالصفات، والنزاجرات، والتاليات، والسموات والأرض، والشمس

والقمر، ومردة الشياطين كما ذكر ذلك كله في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا رَبُّكَ السَّمَاءُ الدُّنْيَا بَيْنَهُمَا الْكُوكَبُ ۝ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝﴾، وجواب الاستفتاء المذكور الذي لا جواب له غيره هو أن يقال: من خلقت يا ربنا من الملائكة، ومردة الجن والسموات، والأرض، والمشارك، والمغرب، والكواكب، أشد خلقاً منا؛ لأنها مخلوقات عظام، أكبر وأعظم منا فيتضح بذلك البرهان القاطع على قدرته جل علا على البعث بعد الموت؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر كالسموات والأرض، وما ذكر معهما قادر على أن يخلق الأصغر الأقل كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، كخلق الإنسان خلقاً جديداً بعد الموت. وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [يسر]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدَلًا شَيْئًا يَخْلُقُهُمْ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْجِئَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الحقاف]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩]. وقال تعالى في النزاعات موضعاً الاستفتاء المذكور في آية الصفات هذه: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ أَسْمَاءُ بَنَاتٍ ۝ رَفَعَ سَمَكُهَا فَنَوَّهَهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ۝﴾ [النزعات].

وقد علمت أن وجه العبارة بمن التي هي للعالم في قوله تعالى: ﴿أَمْ مِّنْ خَلْقٍ﴾، عن السموات والأرض والكواكب هو تغليب ما ذكر معها من العالم كالملائكة على غير العالم، وذلك أسلوب عربي معروف.

وأما البرهان الثاني: فهو في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾، لأن من خلقهم أولاً من طين، وأصله التراب المبلول بالماء لا يشك عاقل في قدرته على خلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا تراباً؛ لأن الإعادة لا يعقل أن تكون أصعب من البدء. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۝ الْآيَةُ [يس: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عِلَّيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذين البرهانين وغيرهما من براهين البعث في سورة البقرة، والنحل، والحج، وغير ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ اللازب: هو ما يلزق باليد مثلاً إذا لاقته، وعبارات المفسرين فيه تدور حول ما ذكرنا، والعرب تطلق اللازب واللاتب واللازم، بمعنى واحد، ومنه في اللازب قول علي عليه السلام:

تعلّم فإن الله زادك بسطة وأخلاق خير كلها لك لازب
وقول نابغة ذبيان:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
فقوله: ضربة لازب: أي شيئاً ملازماً لا يفارق، ومنه في اللاتب قوله:

فإن يك هذا من نبذ شربته فإني من شرب النبيذ لتائب
صداع وتوصيم العظام وفترة وغم مع الإشراق في الجوف لاتب

والبرهانان المذكوران على البعث يلزمان الكفار حجراً في إنكارهم البعث
المذكور بعدهما قريباً منهما في قوله تعالى: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَايَا وَعَظَمْنَا أَوَدَا لَمَبُثُونٌ ۝١٦ أَوْ
مَأْبُوثَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٧﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير
حمزة والكسائي: عجبت بالتاء المفتوحة وهي تاء الخطاب، المخاطب بها النبي ﷺ.
وقرأ حمزة والكسائي: «بل عجبت» بضم التاء وهي تاء المتكلم، وهو الله - جلّ وعلا -.

وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما
بحكم الآيتين.

وبذلك تعلم أنّ هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العجب لله
تعالى، فهي إذاً من آيات الصفات على هذه القراءة.

وقد أوضحنا طريق الحق التي هي مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها،
في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]،
فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَبُولُوا هَذَا يَوْمَ ٱلَّذِينَ ۝٥٥ هَذَا يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُتِبَ بِهِ
تُكْذِبُونَ ۝٥٦﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الروم، في الكلام على قوله
تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَى يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ
ٱلْبَعْثِ ۝٥٦﴾... الآية [الروم: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ٱمْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱزْجَعِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٥٧ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ ۝٥٨﴾. المراد بالذين ظلموا الكفار كما يدل عليه قوله بعده ﴿وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ۝٥٩﴾.

وقد قدّمنا إطلاق الظلم على الشرك في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۝١١٦﴾ [يونس].
وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنّه فسر الظلم بالشرك في قوله تعالى:

﴿وَلَهُ يَلْبِسُوا إِبْنَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، جمهور أهل العلم منهم: عمر وابن عباس، على أن المراد به أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، وهكذا. وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن، وفي كلام العرب كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الآية [الزخرف: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ مِّنْ نَّبَاتٍ شَقًى﴾ [طه: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فقوله تعالى: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أي أجمعوا الظالمين وأشباههم ونظراءهم، فاهدوهم إلى النار ليدخلها جميعهم، وبذلك تعلم أن قول من قال: المراد بأزواجهم نساؤهم اللاتي على دينهم خلاف الصواب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٣٦] مِّن دُونِ اللَّهِ، أي احشروا مع الكفار الشركاء التي كانوا يعبدونها من دون الله ليدخل العابدون والمعبودات جميعاً النار كما أوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [٩٨] لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آِلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٩٩]، وقد بين تعالى أن الذين عبدوا من دون الله من الأنبياء، والملائكة، والصالحين كعيسى وعزير خارجون عن هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٠١]. إلى قوله: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [٥٨] إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلْوَسِيلَةً أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ... الآية [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾. من الهدى العام: أي دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الحليم؛ أي طريق النار ليسلكوها إليها، والضمير في قوله تعالى «فاهدوهم»: راجع إلى الثلاثة: أعني الذين ظلموا، وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله.

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر، ونظير ذلك في القرآن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ بِضُلْمٍ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ١٧]، ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْتُمُونَ إِلَىٰ الْكُفَّارِ﴾ ... الآية [القصص: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَّسْئُولُونَ﴾ [٢٤] مَا لَكُمْ لَا نَنْصُرُونَ﴾ [٢٥].

قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وبيننا هناك وجه الجمع بين الآيات في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الفصص: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَأْذِنُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٧] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٩٦] [الحجر: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦٦] الآية. وقوله هنا ﴿وَقَفُوهُمْ فِيهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ [٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [٢٧]. قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له مع التعرض لإزالة إشكالين في بعض الآيات المتعلقة بذلك، في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [١١١] فَأَعْوَيْنَهُمْ إِنَّا كَمَا عَدَّيْنَهُمْ [١١٢]. قد قَدَّمْنَا الآيات المبينة للمراد بالقول الذي حق عليهم في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ الآية [يس: ٧]، وما ذكره - جلّ وعلا - عنهم من أنهم قالوا: إنه لما حق عليهم القول الذي هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فكانوا غاوين أغووا أتباعهم؛ لأن متبع الغاوي في غيه، لا بد أن يكون غاوياً مثله، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا عَدَّيْنَاهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [١١٣].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية أن الضالين والمضلين، مشتركون في العذاب يوم القيامة، وبين في سورة الزخرف أن ذلك الاشتراك ليس بنافعهم شيئاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُن يَتَّبِعُهُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنتُمْ أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وبين في مواضع آخر أن الأتباع يسألون الله أن يعذب المتبوعين عذاباً مضاعفاً لإضلالهم إياهم، كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَضَاعَفْ عَذَابُهُمْ ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ ... الآية [الأعراف: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [٧] رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [٨].

وقد قَدَّمْنَا الكلام على تخاصم أهل النار وسيأتي - إن شاء الله - له زيادة إيضاح في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٨] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [٢٩]. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن ذلك العذاب الذي فعله بهؤلاء المعذبين المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾، أي العذاب الأليم. وقوله

تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٦﴾، أنه يفعل مثله من التعذيب والتنكيل بالمجرمين، والمجرمون جمع مجرم، وهو مرتكب الجريمة: وهي الذنب الذي يستحق صاحبه عليه التنكيل الشديد، ثم بين العلة لذلك التعذيب؛ لأنها هي امتناعهم من كلمة التوحيد التي هي لا إله إلا الله إذا طلب منهم الأنبياء وأتباعهم أن يقولوا ذلك في دار الدنيا. فلفظة «إن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٧﴾، من حروف التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه.

وعليه فالمعنى: كذلك نفعل بالمجرمين لأجل أنهم كانوا في دار الدنيا إذا قيل لهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي يتكبرون عن قبولها ولا يرضون أن يكونوا أتباعاً للرسل.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون ذلك هو سبب تعذيبهم بالنار، دلت عليه آيات كقوله تعالى مبيناً دخولهم النار: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝٣٧﴾ [عافر: ١٢]. وقوله تعالى في ذكر صفات الكفار وهم أهل النار: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَينَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ۝٣٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝١٢٤﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا عِوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْزَفُونَ ۝٤٧﴾.

قد قدمنا تفسيره مع ذكر الآيات الدالة على معناه في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]. وبيننا هنا كلام أهل العلم في نجاسة عين خمر الدنيا دون خمر الآخرة، وأن ذلك يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَبًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ عَيْنٌ ۝٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ ۝٤٩﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة.

الأولى: أَنَّهُنَّ قاصرات الطرف، وهو العين؛ أي عيونهن قاصرات على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أَنَّهُنَّ عِين، والعين جمع عينا، وهي واسعة دار العين، وهي النجلاء.

الثالثة: أَنَّ أَلوانهن بيض بياضاً مشرباً بصفرة؛ لأن ذلك هو لون بيض النعام الذي شبههن به، ومنه قول امرئ القيس في نحو ذلك:

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

لأن معنى قوله: كبكر المقانات البياض بصفرة، أن لون المرأة المذكورة كلون البيضة

البكر المخالط بياضها بصفرة، وهذه الصفات الثلاث المذكورة هنا، جاءت موضحة في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتها الجميلة، فبين كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى في ص: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص]، وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب مُحَوِّلٌ من الذر فوق الأتب منها لأثرا
وذكر كونهن عينا في قوله تعالى فيهن: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة]، وذكر صفاء ألوانهن وبياضها في قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾ [الواقعة]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ الْياقُوتَ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن]. وصفاتها كثيرة معروفة في الآيات القرآنية.

واعلم: أن الله أثنى عليهن بنوعين من أنواع القصر:

أحدهما: أنهن قاصرات الطرف، والطرف العين، وهو لا يجمع ولا يشنى لأن أصله مصدر، ولم يأت في القرآن إلا مفرداً كقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]: ومعنى كونهن قاصرات الطرف هو ما قدّمنا من أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن بخلاف نساء الدنيا.

والثاني من نوعي القصر: كونهن مقصورات في خيامهن لا يخرجن منها، كما قال تعالى لأزواج نبيه ﷺ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، كذلك في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن]، وكون المرأة مقصورة في بيتها لا تخرج منه من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب ومنه قوله:

من كان حرباً للنساء	ء فإني سلم لهنه
فإذا عثرن دعونني	وإذا عرت دعوتهنه
وإذا برزن لمحففل	فقاصرهن ملاحهنه

فقوله: قاصرهن يعني المقصورات منهن في بيوتهن اللاتي لا يخرجن إلا نادراً، كما أوضح ذلك كثير عزة في قوله:

وأنت التي حبت كل قصيرة	إلي وما تدري بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد	قصار الخطا شر النساء البحاطر

والحجال: جمع حجلة: وهي البيت الذي يزين للعروس، فمعنى قصيرات الحجال: المقصورات في حجالهن. وذكر بعضهم أن رجلاً سمع آخر، قال: لقد أجاد الأعشى في قوله:

غراء فرعاء مصقول عوارضها	تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيت جاريتها	مر السحابة لا ريث ولا عجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها	ولا تراها لسر الجار تختل

فقال له: قاتلك الله، تستحسن غير الحسن هذه الموصوفة خراجة ولاجة، والخراجة الولاجة لا خير فيها ولا ملاحه لها، فهل لا قال كما قال أبو قيس بن الأسلت: وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتل من إتيانهن فتعذر قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٦] ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٧]. قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبْيَا الَّتِي أَرَبْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ وَنِهَا الْبَطُونُ﴾ [١٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [١٩]. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار في النار يأكلون من شجرة الزقوم، فيملؤون منها بطونهم، ويجمعون معها شوباً من حميم. أي خلطاً من الماء البالغ غاية الحرارة، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنِهَا لَأَصْأَلُونَ الْمَكِيدُونَ﴾ [٢٠] ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُؤْمٍ﴾ [٢١] ﴿فَمَا لَوْ وَنِهَا الْبَطُونُ﴾ [٢٢] ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ﴾ [٢٣] ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَبِيمِ﴾ [٢٤] [الواقعة]، وقوله: ﴿شَرِبَ الْهَبِيمِ﴾، الهيم: جمع أهيم وهيماء، وهي الناقة مثلاً التي أصابها الهيام، وهو شدة العطش بحيث لا يرويهما كثرة شراب الماء فهي تشرب كثيراً من الماء، ولا تزال مع ذلك في شدة العطش. ومنه قول غيلان ذي الرمة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيامها

وقوله تعالى في الواقعة: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ﴾ [٢٣] ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَبِيمِ﴾ [٢٤] [الواقعة] يدل على أن الشوب أي الخلط من الحميم المخلوط لهم بشجرة الزقوم المذكور هنا في الصافات، أنه شوب كثير من الحميم لا قليل.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾. الشوب: الخلط، والشوب والشوب لغتان، كالفقر والفقر، والفتح أشهر. قال الفراء: شاب طعامه وشرا به إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة. انتهى منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَبَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ [٢٥] ﴿فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ [٢٦].

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار الذين أرسل إليهم نبينا ﷺ، أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ: أي وجدوهم على الكفر، وعبادة الأوثان، فهم على آثارهم يهرعون: أي يتبعونهم في ذلك الضلال والكفر، مسرعين فيه، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا آلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله عنهم: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ

أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقوله عنهم: ﴿إِن أُنْتَدِ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن نُّصَدُّوَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠].

ورد الله عليهم في الآيات القرآنية معروف كقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جَحَّشَكُم بِهِدًى مِّمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾، أي فهم على اتباعهم، والافتداء بهم في الكفر والضلال، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: يهرعون، قد قدمنا في سورة هود، أن معنى يهرعون: يسرعون ويهرولون، وأن منه قول مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧١﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧﴾ [يس]. وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ... الآية [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية، وتفسيره في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ ... الآية [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَيْفَاكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ يَتَابَعُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿١٢١﴾ ... الآية [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٠٧﴾.

اعلم أولاً: أن العلماء اختلفوا في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم في المنام بذبحه، ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم لما باشر عمل ذبحه امتثالاً للأمر، فداه الله بذبح عظيم، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ وقد وعدنا في سورة الحجر، بأننا نوضح ذلك بالقرآن في سورة الصافات، وهذا وقت إنجاز الوعد.

اعلم - وفقني الله وإياك - أن القرآن العظيم قد دل في موضعين على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أحدهما في الصافات، والثاني في هود.

أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهي واضحة جداً من سياق الآيات، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (١١٣) رَبِّي هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ (١١٤) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١١٥) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آيَاتٍ أَذْكُرُكَ فَافْتَظَرِ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتَى أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١١٦) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْحَبِثِ (١١٧) وَلَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمْ (١١٨) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْبَاقِ (١٢٠) وَلَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٢١) وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٢) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٢٣) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢٤). قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٥)، فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً: وبشرناه بإسحاق، فهو تكرار لا فائدة فيه ينزه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدي بالذبح العظيم، هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك.

وقد أوضحنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ... الآية [النحل: ٩٧]. أن المقرر في الأصول أن النص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذا احتمل التأسيس والتأكيد معاً، وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه.

ومعلوم في اللغة العربية، أن العطف يقتضي المغايرة، فأية الصافات هذه دليل واضح للمنتصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة هود، فهو قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا لَهُمْ فَأَيُّهُمْ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (١٢٦) [هود]؛ لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب.

فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ما ذكرنا، فلا ينبغي للمنتصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك. والعلم عند الله تعالى.

وقد ذكر الشيخ الحكمة من التكليف فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١١٤). ذكر - جلّ وعلا - منته عليهما في غير هذا الموضع، كقوله في طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ (١٣١) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣٧) [طه]، لأن من سؤله الذي أوتيته إجابة دعوته في رسالة أخيه هارون معه، ومعلوم أن الرسالة من أعظم المنن.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١١٥). قوله: وقومهما يعني بني إسرائيل.

والمعنى: أنه نجى موسى، وهارون، وقومهما من الكرب العظيم، وهو ما كان يسومهم فرعون وقومه من العذاب، كذب الذكور من أبنائهم وإهانة الإناث، وكيفية إنجائه لهم مبينة في انفلاق البحر لهم، حتى خاضوه سالمين، وإغراق فرعون وقومه وهم ينظرون.

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْلَأْنَاهُمُ الْغُرَقَاءَ وَأَلْفَرَقْنَا أَلَّ فِرْعَوْنَ وَأَشَرُّ نَظَرُونَ﴾ (٥١) [البقرة]، وقدّمنا تفسير الكرب العظيم في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى في قصة نوح: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٦). بين - جلّ وعلا - أنه نصر موسى وهارون وقومهما على فرعون وجنوده، فكانوا هم الغالبين؛ أي وفرعون وجنوده هم المغلوبون، وذلك بأن الله أهلكهم جميعاً بالغرق، وأنجى موسى وهارون وقومهما من ذلك الهلاك، وفي ذلك نصر عظيم لهم عليهم. وقد بين - جلّ وعلا - ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَشُعُّ عَصَدُكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِئْتِنَا أُنْثَىٰ وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَٰلِغُونَ﴾ (١٢٥) [القصص] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ﴾ (١١٧). الكتاب هو التوراة كما ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢٣) [السجدة]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١١٨) [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١١٩) [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا بعض الكلام على ذلك في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الآية [البقرة: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لِمَنُورٍ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (١٢٠) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢١).

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِيهَا لِيْسَبِيلٌ مُّقْبِعٌ﴾ [الحجر]، وفي سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى:

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسِيحِينَ﴾ (١٧٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٧٤﴾.

تسبيح يونس هذا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، المذكور في الصفات، جاء موضحاً في الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَرَجْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء].

وقد قدّمنا تفسير هذه الآية وإيضاحها في سورة الأنبياء، قوله تعالى: ﴿فَنَامُوا فَتَمَتَّنَهُمْ إِلَى يَوْمِ﴾ (١٧٨).

ما ذكره في هذه الآية الكريمة من إيمان قوم يونس وأن الله متعمهم إلى حين، ذكره أيضاً في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٠٩) [يونس].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٦). إلى قوله ﴿مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٤٦). قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧). إلى قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۖ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾. قد قدّمنا الكلام على ما في معناه من الآيات في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ ... [الأنعام: ١٥٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفُّنَا لِعِبَادَتِ الْفَرَسَيْنِ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْقَلْبُونَ ﴿١٧٣﴾. هذه الآية الكريمة تدل على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائماً على الأعداء بالحجة والبيان، ومن أمر منهم بالجهاد منصور أيضاً بالسيف والسنان، والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) [غافر]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٢) وَلَنَسَخَنَّهُمُ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٣﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقد قدّمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦]. وسيأتي له - إن شاء الله - زيادة إيضاح في آخر سورة المجادلة.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَدَّيْنَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦]، وذكرنا بعض

الكلام على ذلك في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنْتَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِؤُوءِ﴾ الآية [يونس: ٥١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٧١]، ختم هذه السورة الكريمة بالسلام على عباده المرسلين، ولا شك أنهم من عباده الذين اصطفى مع ثنائه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، معلماً خلقه أن يشنوا عليه بذلك، وما ذكره هنا من حمده هذا الحمد العظيم، والسلام على رسله الكرام، ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ الآية [النمل: ٥٩]. ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعَوْنَهُمْ أَنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، قرأه الجمهور: ﴿صَّ﴾ بالسكون منهم القراء السبعة، والتحقيق أن ﴿صَّ﴾، من الحروف المقطعة في أوائل السورة كص في قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿كَهَيِّصَ﴾ [مريم].

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وقد تطرق الشيخ إلى توجيه القراءات غير المتواترة في «ص» فليرجع من أراد الوقوف إلى كلامه إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر، زيد فيه الألف والنون؛ كما زيدتا في الطغيان، والرجحان، والكفران، والخسران، وأن هذا المصدر أريد به الوصف.

وأكثر أهل العلم، يقولون: إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول. وعليه فالقرآن بمعنى المقروء، من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين؛ إذا أظهرته وأبرزته من بطنها، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحين
ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
على إحدى الروايتين في البيت.

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ، ويرزه من فيه، بعباراته الواضحة.
وقال بعض أهل العلم: إنَّ الوصف المعبر عنه بالمصدر، هو اسم الفاعل.
وعليه فالقرآن بمعنى القارئ، وهو اسم فاعل قرأت، بمعنى جمعت.
ومنه قول العرب: قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه.

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارئ؛ أي الجامع؛ لأن الله جمع فيه جميع ما في الكتب المنزلة.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:
أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر؛ أي شرف.
ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمْ لِّذِكْرِكَ لَكَ وَلَقَوْلِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف لكم على أحد القولين.

الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير؛ لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور، واختاره ابن جرير.

تنبيه: اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، فقال بعضهم: إن المقسم عليه مذكور، والذين قالوا إنه مذكور، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط.
فمنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ❶.
ومنهم من قال: هو قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَكْ﴾ ❷.

ومنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أَرْسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ❸.
كقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ❹ و﴿أَذِّنْكَ مَا أَلْطَارِقُ﴾ ❺ أَلْتَجَمَّ النَّاقِبُ ❻ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ❼ [الطارق].

ومنهم من قال: هو قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الشعراء: ٩٧]، ومن قال هذا قال: إن الأصل لكم أهلكتنا ولما طال الكلام، حذفت لام القسم، فقال: كم أهلكتنا، بدون لام.

قالوا: ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَشْمَسِ وَحُحَّهَا﴾ [الشمس]، لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه، الذي هو قد أفلح من زكاهها، حذفت منه لام القسم.
ومنهم من قال: إن المقسم عليه من قوله: ﴿صَّ﴾ قالوا معنى: ﴿صَّ﴾ صدق رسول الله ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾. وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه ﷺ.

ومنهم من قال المعنى: هذه ﴿صَّ﴾ أي السورة التي أعجزت العرب، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها.

وقال بعض العلماء إنَّ المقسم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره، فقال الزمخشري في الكشاف، التقدير ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنه لمعجز، وقدره ابن عطية وغيره فقال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، إلى غير ذلك من الأقوال.

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن: أن جواب القسم محذوف وأنَّ تقديره ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، وأنَّ قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة.

الأول: منها أن النبي ﷺ مرسل من الله حقاً وأنَّ الأمر ليس كما يقول الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

والثاني: أن الإله المعبود - جلَّ وعلا - واحد، وأنَّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ①.

والثالث: أن الله - جلَّ وعلا - يبعث من يموت، وأنَّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبا: ٣].

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾ ②؛ لأنَّ الإضراب بقوله بل، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف. أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا، بل الذين كفروا في عزة، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق، وشقاق، أي مخالفة ومعاندة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أنَّ المنفي المحذوف شامل للأمور الثلاثة المذكورة، فللدلالة آيات كثيرة: أما صحة رسالة الرسول ﷺ، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له؛ فقد أشار لهما هنا.

أما كون الرسول مرسلًا حقاً ففي قوله تعالى هنا: ﴿وَيَحْيُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ③. يعني: أي لا وجه للعجب المذكور لأنَّ يجيء المنذر الكائن منهم، لا شك في أنَّه يارسال من الله حقاً.

وقولهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾. إنما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً لهم، فعرف بذلك أن في ضمن المعنى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم، وزعموا أنك ساحر كذاب، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه، وزعموا أن خاتم الرسل وأكرمهم على الله ساحر كذاب.

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له، ففي قوله هنا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾

إِنَّ هَذَا لَنَقُوءُ عَجَابٌ ﴿٥﴾؛ لأن الهمزة في قوله: ﴿أَجْعَلْ﴾. للإنكار المشتغل على معنى النفي، فهي تدل على نفي سبب تعجبهم من قوله ﷺ: إن الإله المعبود واحد.

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسماً على أن الرسول مرسل حقاً: ﴿يَسْ﴾ ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس]، فهي توضح معنى: صَ والقرآن ذي الذكر إنك لمن المرسلين.

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَوٰهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة]، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له، فقد أقسم تعالى عليه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا﴾ ﴿فَالزَّجَرِ زَجْرًا﴾ ﴿فَالْتَلَيْتَ ذِكْرًا﴾ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصفات] ونحو ذلك من الآيات. فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي والقرآن ذي الذكر، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ﴾ الآية.

وأما كون البعث حقاً، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَ﴾ [التغابن: ٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣]، أي الساعة. وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي هو الاثنان المذكوران، وهي كون الرسول مرسلًا، والبعث حقاً، وأشار إلى ذلك إشارة واضحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿بَلْ يُحِبُّونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق]، فانتضح بذلك أن المعنى ق والقرآن المجيد، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبتم من مجيئه لكم منذراً، رسول منذر لكم من الله حقاً، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار، والاستبعاد، في قوله تعالى عنكم: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق]، أي ذلك الرجوع الذي هو البعث؛ رجوع بعيد في زعمكم واقع لا محالة، وإنه حق لا شك فيه، كما أشار له في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَافِظٌ﴾ [ق]، إذ المعنى أن ما أكلته الأرض من لحومهم، ومزقته من أجسامهم وعظامهم، يعلمه - جلّ وعلا -، لا يخفى عليه منه شيء؛ فهو قادر على رده كما كان.

وإحياء تلك الأجساد البالية، والشعور المتمزقة، والعظام النخرة، كما قدّمنا موضحاً بالآيات القرآنية، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس]، وكونه ﷺ مرسل من الله حقاً، يستلزم استلزاماً لا شك فيه، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

ولذلك أقسم تعالى، في مواضع كثيرة، على أن القرآن أيضاً منزل من الله؛ كقوله تعالى في أول سورة الدخان: ﴿حَمِّمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ۝﴾ الآية [الدخان: ١ - ٣]، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف: ﴿حَمِّمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا لَعَلَّيْكُمْ حَكِيمٌ ۝﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ۝﴾. قد قدّمنا الكلام قريباً على الإضراب بيل في هذه الآية.

وقوله تعالى هنا ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾، أي في حمية واستكبار عن قبول الحق، وقد بين - جلّ وعلا - في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم، وذلك في قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبيتون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ ۝﴾ [البقرة].

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار: أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب، القاهر، وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ الآية [المنافقون: ٨]، والعرب يقولون: من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى
إذ الناس إذ ذاك من عز بز
وقوله تعالى في الخصم الذين تسوروا على داود: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْحُطَّابِ ۝﴾، أي غلبني وقهرني في الخصومة.

والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ ۝﴾ الآية. وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۝﴾ الآية [البقرة: ٢٠٦]، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [المنافقون: ٨].

ولذلك فسرها علماء التفسير، بأنها هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق. والشقاق: هي المخالفة والمعاندة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَوْلَا فَئِمَّا هُمْ فِي شِقَاقِي ۝﴾ الآية [البقرة: ١٣٧]. قال بعض العلماء: وأصله من الشق الذي هو الجانب؛ لأن المخالف المعاند، يكون في الشق؛ أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند. وقال بعض أهل العلم: أصل الشقاق من المشقة؛ لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند.

وقال بعضهم: أصل الشقاق من شق العصا؛ وهو الخلاف والتفرق.

قوله تعالى: ﴿كَرَّ أَهْلُكُم مِّن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَّا ۖ﴾.

﴿كر﴾، هنا هي الخبرية، ومعناها الإخبار عن عدد كثير، وهي في محل نصب، على أنها مفعول به لأهلكنا وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، مميزة لكم، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر وتكذيب الرسل، فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد ﷺ والكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكنا به القرون الكثيرة الماضية.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية، يهدد كفار مكة بذلك.

الثانية: أنهم نادوا؛ أي عند معاناة أوائل الهلاك.

الثالثة: أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاناة العذاب ليس وقت نداء؛ أي فهو وقت لا ملجأ فيه، ولا مفر من الهلاك بعد معانيته.

وقد ذكر - جلّ وعلا - هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا، موضحة في آيات كثيرة من كتابه.

أما المسألة الأولى: وهي كونه أهلك كثيراً من الأمم، فقد ذكرها في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قُرُونٍ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِن قَرِينِهِ أَهْلِكُنَّهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾... الآية [الحج: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءًا بِالَّذِينَ مِّن قَبْلِكُم قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾... الآية [إبراهيم: ٩]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسله كقوله في هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التي صرح بأنهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقد قدمنا في الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم، أقوال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، وبيننا دلالة القرآن على بعضها، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِن قَرِينٍ عَنِّي أَمْرٌ رَبِّهَا وَوَسِيلَةٌ فَمَسَّيْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ۖ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقْدُهُ آمُرًا خَيْرًا ۖ﴾ [الطلاق: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۖ﴾ [٢٨] وَكُلًّا صَرَّفْنَا لَهُ الْآمْتَلَّ وَكُلًّا نَّبَرْنَا تَبْخِيرًا ۖ﴾ [الفرقان: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ۖ﴾. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه ﷺ.

ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ ﴾ [محمد: ١٠]، تهديد عظيم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا جِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُورٍ ۖ ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ۖ ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ۖ ﴾ فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم، كقوله في قوم لوط: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَتَرَوْهُنَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۖ ﴾ [الصافات: ١٢٨]، ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى آلِ قَارِئَةَ آتَى أَمْطَرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا بِرُؤُسِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۖ ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقوله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله فيهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لِمُتَعَمِّرٍ ۖ ﴾ [الحجر: ٧٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما المسألة الثانية: وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب؛ فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء:

أحدهما: نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥].

الثاني: من نوعي النداء المذكور؛ نداؤهم بالإيمان بالله مستغيثين من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ﴿ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام، لدلالة قوله: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۖ ﴾ عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۖ ﴾ الذي هو المسألة الثالثة، معناه: ليس الحين الذي نادوا فيه، وهو وقت معاناة العذاب، حين مناص، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوه.

فقوله: ﴿ وَلَاتَ ۖ ﴾ هي لا النافية زيدة بعدها تاء التأنيث اللفظية كما زيدت في ﴿ ثُمَّ ۖ ﴾، ففيل فيها «ثمت»، وفي ﴿ رَبِّ ۖ ﴾، ففيل فيها «ربت».

وأشهر أقوال النحويين فيها، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب، وربما عكس، وهذا قول سيويه، وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

في النكرات أعملت كليس «لا» وقد تلي «لات» و«إن» ذا العملا
وما للات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعول من النوص، والعرب تقول: ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه، ويطلق المناص على التأخر؛ لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص.

والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد، والعرب تقول: استناص إذا طلب المناص، أي السلامة والمفر مما يخافه، ومنه قول حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد؛ لأن المناص مصدر ميمي معناه المنطبق على جزئياته، أن يكون صاحبه في كرب وضيق، فيعمل عملاً يكون به خلاصه ونجاته من ذلك.

فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريده بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك.

والعرب تطلق النوص على التأخر. والبوص بالباء الموحدة التحتية على التقدم، ومنه قول امرئ القيس:

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في «لات» أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها.

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة، أن التاء ليست موصولة بحين، فالوقف على «لات» بالتاء عند جميعهم، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء.

أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاها شاذة لا تجوز القراءة بها، وكذلك قراءة كسر النون من حين، فهي شاذة لا تجوز، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل.

وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه، ورده عليه أبو حيان في البحر المحيط، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَادُوا﴾ أصل النداء: رفع الصوت؛ والعرب تقول: فلان أندى صوتاً من فلان، أي أرفع، ومنه قوله:

فقلت ادعي وأدعو إن أندأ لصوت أن ينادي داعيان
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاينة
العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء، إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا مناص. ذكره
في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا
كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿الآية [غافر: ٨٤، ٨٥]. وقوله
تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (٧) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَقْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَنَلَّوْنَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَمِيدًا ﴿١٥﴾ [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه كقوله تعالى:
﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِقِيَامِ الْيَوْمِ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّعَرُ
وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَفْنِ الْقَمَرِ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَرَدَ ﴿١١﴾ [القيامة]، والوزر: الملجأ، ومنه
قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

والناس إل علينا فيك ليس لنا إلا الرماح وأطراف القنا وزر
وكقوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨]، والموئل؛
اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:
وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يئل
أي ثم ما ينجو.

قوله تعالى: ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة
أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، وما ذكره - جلّ وعلا - في
هذه الآية الكريمة، من عجبهم المذكور، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم،
وأوضح تعالى سببه ورده عليهم في آيات أخر، فقال في عجبهم المذكور: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ
الْفَجِيدِ﴾ (١) بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴿ق: ١ - ٢﴾.

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس ﴿الرَّ تِلْكَ مَآيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴿يونس: ١، ٢﴾، وذكر مثل عجبهم المذكور
في سورة الأعراف، عن قوم، نوح وقوم هود، فقال عن نوح مخاطباً لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣) [الأعراف].

وقال عن هود مخاطباً لعاد: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ
لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (١٣) [الأعراف: ٦٩]، وبين أن سبب
عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من
جنسهم. وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكاً؛ لأنه ليس بشراً مثلهم
وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق.

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿٢٠﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿أَتُؤْمِنُ لِلْبَشَرِ وَيُنْكِرُ إِلَهُنَا وَلَوْ أَنزَلْنَا إِلَهُنَا بِاللَّيْلِ لَرَأَوْهُ وَقَدْ آتَاكَ نَارُ الْفَجْرِ فَتَذَكَّرُ ۖ﴾ ﴿٢١﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَاتَّخَفْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكُلِ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۖ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَإِذَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ بِالْأَنْسَابِ ۖ﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا... الآية [التغابن: ٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ۖ﴾ ﴿٣٢﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَجِدًا نَقِيعُهُ ۖ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَيلٍ وَشُعْرٍ ۖ﴾ ﴿٣٣﴾ [القمر]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ۖ﴾ الآية [إبراهيم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ فَهُمْ لَا يُمْضُونَ ۖ﴾ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۖ﴾ ﴿٩﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغْفَةً مِثْلَ صِغْفَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۖ﴾ ﴿١٠﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ خَلْقِهِمْ وَمِنْ خَلْقِهِمْ إِلَّا تَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ﴾ ﴿١١﴾ [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ ﴿١٢﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۖ﴾ ﴿١٣﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ ﴿١٤﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۖ﴾ ﴿١٥﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ۖ﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۖ﴾ ﴿١٦﴾ بَعَثَ يَوْمَ الْمَلَائِكَةِ لَا بَشَرًا يَوْمِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ۖ﴾ الآية [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وقوله تعالى عن فرعون مع موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ۖ﴾ ﴿٥٣﴾ [الزخرف].

وقد ردَّ الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسَاقِ ۖ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۖ﴾ [الرعد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۖ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۖ﴾ ﴿٨﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾ [إبراهيم: ١١]. أي بالرسالة والوحي ولو كان بشراً مثلكم. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقُ الْكَلَامَ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ ۖ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه

في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لِبُضْلُنَا عَنِ إِلَهَيْنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِنَّ﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء في آيات أخر، مع الرد على الكفار في إنكارهم خصوصه ﷺ بالوحي، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، يعنون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة، وغررة بن مسعود في الطائف، زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه. وقد رد - جلّ وعلا - ذلك عليهم في قوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٢٢] لأنّ الهمزة في قوله: أهم يقسمون، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبِطُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأشار إلى رد ذلك عليهم في آية ص هذه في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ۖ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۖ أَمْ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ... الآية؛ لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، ويخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة، وله ملك السموات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾، قد بين في موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبي الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿لَهُنَّ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ﴾ [٢٥] وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشَرِّ﴾ [القمص: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. قد قدمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَكَادَ يُفْرِغُونَ دُونَ الْآثَانِ ۖ وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [٢٣] إن كل إلاً كَذَبَ أُرْسِلَ فَحَقَّ عِقَابُ ۖ. [٢٤].

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآية [الحج: ٤٢]. وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا فِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [٢١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ الآية [يونس: ٥١]. وفي سورة الرعد

في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيْئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية [الرعد: ٦]. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. [الحج: ٤٧].

وقد قدّمنا أن القط: النصيب من الشيء، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به. وأن أصل القط كتاب الجائزة؛ لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان، وجمعه ققوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان حين لقيته
بغبطته يعطي الققوط ويأفق

وقوله: ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في الققوط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَوَّابٌ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دَاوُدُ إِنَّمَا فَلَئِنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ﴿٢١﴾ فَعَفَوْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

قد قدّمنا الكلام على مثل هذه الآية، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبيننا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي ﷺ لا يصح منه شيء.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، قد بينا الحكم الذي دل عليه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ الآية [البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قد أمر نبيه داود فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتبع الهوى علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، تدل على العلية.

وقد تقرر في الأصول، في مسلك الإيماء والتنبيه، أن الفاء من حروف التعليل كقوله: سها فسجد، وسرق فطعنت يده، أي لعله السهو في الأول، ولعله السرقه في الثاني، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى، فأضله ربنا عن سبيل الله في قوله تعالى بعده يليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

ومعلوم أن نبي الله داود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم؛ ليشرع لأممهم. ولذلك أمر نبينا ﷺ، بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك في آيات من

كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ أَهْلَهُمْ أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ... الآية [الكهف: ٢٨].

وقد قدّمنا الكلام على هذا، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَدَّمَ مَذْمُومًا مَحْدُومًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وبيّنا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي ﷺ يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً؛ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومن المعلوم أن أباه ﷺ توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما ولا كلاهما؛ لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان.

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٣٣]، وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ الآية [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. إنما يراد به التشريع على لسانه لأمته، ولا يراد به هو نفسه ﷺ، وقد قدّمنا هناك أن من أمثال العرب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن لأم الطائي وهو قوله:

يا أخت خير البدو والحضارة

كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره

إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المرأة.

وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ... الآية [الإسراء: ٢٣]، هو الخطاب بصيغة المفرد، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه. كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك، وعلى هذا فلا دليل في الآية: غير صحيح، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، وعليه فلا استدلال بالآية استدلال قرآني صحيح، والقرينة القرآنية المذكورة، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر والنواهي التي خاطب بها رسوله ﷺ،

التي أولها: ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَنًا إِذَا يُلَاقُونَ عِنْدَ الْكَبَرِ﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]. ما هو صريح في أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، لا عموم كل من يصح منه الخطاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلَاقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وفي آخر سورة قد أفلح المؤمنون. في الكلام على قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾. الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا، والنفي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾، منصب على الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا؛ لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما: ليس خلقه للسماوات والأرض، بل هو ثابت، وإنما المنفي بها، هو كونه باطلاً، فهي حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة؛ لأن النفي منصب عليها هي خاصة، والكلام لا يصح دونها. والكلام في هذا معلوم في محله، ونفي كونه خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزاه عنه عباده الصالحون؛ لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى. أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ثم نزه نفسه عن كونه خلقهم عبثاً، بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. أي تعالى وتقدس ونزاه عن كونه خلقهم عبثاً. وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْبَاءِ الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَالْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ لِحُكْمٍ عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ [آل عمران: ١٩١]. فقولته تعالى عنهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلاً. فقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، تنزيه له، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾... الآية [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به - جلّ وعلا -، فله النار.

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين، وجعل النار مثواه. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْبَرًا وَمَا هُمْ بِمُعْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أردنكم فأصبحتكم من الخاسرين [١٢٢] فإن يصبروا فالتار منوى لهم... الآية [فصلت: ٢٢ - ٢٤].

وقولنا في أول هذا المبحث الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ قد قَدَّمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وبيننا هناك أن الفعل نوعان، أحدهما الفعل الحقيقي، والثاني الفعل الصناعي، أما الفعل الحقيقي، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر. وأما الفعل الصناعي، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، على القول بأنه مستقل عن المضارع.

ومعلوم أن الفعل الصناعي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كَأَمِنَ من أَمِنَ .
وعند جماعات من البلاغيين، أنه ينحل عن مصدر، وزمن، ونسبة، وهو الأقرب، كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم في أن المصدر، والزمن كامنان في الفعل الصناعي، فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين في الفعل الصناعي.

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل، قوله هنا: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية، فإن المصدر الذي هو الخلق، كامن في الفعل الصناعي، الذي هو الماضي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ﴾، أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا، ظن الذين كفروا.

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي، قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ [ق]، أي ذلك الزمن الكامن في الفعل هو يوم الوعد. ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. فقوله: هو، أي العدل الكامن في مفهوم اعدلوا، كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨]. في قوله: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. وقوله: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. كلاهما، منقطعة وأم المنقطعة، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب:

الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية.

والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معا، وهو الذي اختاره بعض المحققين.

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي، ووجه الإنكار بها عليهم واضح؛ لأن من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح المصلح، والمفسد الفاجر، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار.

وقد بين - جلّ وعلا - هذا المعنى في غير هذا الموضع، وذم حكم من يحكم به، وذلك في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَعَادُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قوله تعالى: ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذَرُوهَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَأُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. قوله تعالى: ﴿كُنْتُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظماً نفسه - جلّ وعلا - بصيغة الجمع، وأنه كتاب مبارك، وأن من حكم إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الأبواب؛ أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال. وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات أخر.

أما كونه - جلّ وعلا - هو الذي أنزل هذا القرآن، فقد ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. والمبارك: كثير البركات من خير الدنيا والآخرة.

ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك، أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة. وأن يعم جميع إخواننا المسلمين الذين يأتُمرون بأوامره، بالبركات والخيرات، في الدنيا والآخرة إنه قريب مجيب.

وأما كون تدبر آياته من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون].

وأما كون تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضع، مقترناً ببعض الحكم الأخرى التي لم تذكر في آية ص هذه، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيَذْكُرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم]. فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، مبيناً

منها حكمتين آخرين من حكم إنزاله، وهما إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الألباب من حكم إنزاله، ذكره في قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ ۝ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١، ٢]، لأن اللام في قوله لتنذر متعلقة بقوله: أنزل، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب.

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ وَمَنْ يُلَٰغِ ۝﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلَ الْفَرِّيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُ ۝ أَبَاؤُهُمُ ۝ الآية [يس: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ۝... الآية [يس: ٧٠].

وذكر في آيات أخر أن من حكم إنزاله: الإنذار والتبشير معاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۝ قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ۝... الآية [الكهف: ١، ٢].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله أن يبين ﷺ للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٤].

وقد قدّمنا مراراً كون «لعل» من حروف التعليل، وذكر حكمة التبين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [النحل].

وبين أن من حكم إنزاله، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل].

وبين أنّ من حكم إنزاله إلى النبي ﷺ، أن يحكم بين الناس بما أراه الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۝﴾ [النساء: ١٠٥].

والظاهر أنّ معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ۝ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾ [يوسف].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك في قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۝﴾ [إبراهيم: ١].

وَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ حِكْمِ إِنْزَالِهِ التَّذْكَرَةَ لِمَنْ يَخْشَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طه﴾ ١ مَّا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ٣ ﴿طه﴾؛ أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى. وهذا القصر على التذكرة إضافي، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الآية [النحل: ٦٤]، بدليل الحِجْمِ الأخرى التي ذكرناها.

وَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ حِكْمِ إِنْزَالِهِ قِرَاءَةً عَرَبِيًّا وَتَصْرِيفَ اللَّهِ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ: أَنْ يَتَّقِيَ النَّاسُ اللَّهَ، أَوْ يَحْدِثَ لَهُمْ هَذَا الْكِتَابَ ذِكْرًا؛ أي موعظة وتذكراً، يهديهم إلى الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ٤ ﴿طه﴾. والعلم عند الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه وهب سليمان لداوود، وقد بين في سورة النمل، أن الموهوب ورث الموهوب له، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦].

وقد بيّنا في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ٥ يَرْثِي وَيَرْثِي مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ ٦ الآية [مريم: ٥، ٦]، أنها وراثة علم ودين لا وراثة مال. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قد قدّمنا الكلام على هذه الآية، وعلى ما يذكره المفسرون فيها من الروايات التي لا يخفى سقوطها، وأنها لا تليق بمنصب النبوة، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ٧ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٨ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. وما روي عنه من السلف من جملة تلك الروايات، أن الشيطان أخذ خاتم سليمان، وجلس على كرسيه وطرده سليمان إلى آخره، يوضح بطلانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَسْعَاكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ٩ [الحجر] واعتراف الشيطان بذلك في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ﴾ ١٠ [الحجر].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ١١. قد قدّمنا الكلام عليه موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ... الآية [الأنبياء: ٨١].

وفسرنا هناك قوله هنا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ وذكرنا هناك أوجه الجمع بين قوله هنا: ﴿رُحَاءً﴾ وقوله هناك: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]، ووجه الجمع أيضاً بين عموم الجهات المفهوم من قوله هنا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي حيث أراد، وبين خصوص الأرض المباركة المذكور هناك في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأنبياء: ٨١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ١٢ قد قدّمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوكَ لَهُمْ وَيَسْمُوكَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ ١٣ [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يَعْصِبُ وَعَدَابِ﴾ ﴿٨١﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُزِلُّ الْأَكْبَابَ﴾. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من الإشكال في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يذكر عبده إبراهيم، ولم يقيد ذلك الذكر بكونه في الكتاب، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾... الآية [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل، وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ الآية [مريم: ٥٤]، وفي ذلك إشارة إلى أنه ﷺ مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين في الكتاب؛ ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن العظيم كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصَصُ الْأَرْبَاءِ﴾ ﴿٥١﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصَصُ الْأَرْبَاءِ عِشْرِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ﴿٥٢﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة لا نفاذ له، أي لا انقطاع له ولا زوال، ذكره - جلّ وعلا - في آيات أخر كقوله تعالى فيه: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَحْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿٦١﴾. قد قدمنا ما يوضحه من الآيات القرآنية في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك، ذكرنا بعضها في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾... الآية [البقرة: ١٦٦]، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَاكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾... الآية [الأعراف: ٣٨]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّا خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُمُ مِنْ طِينٍ﴾. قد تقدم إيضاحه مع بعض المباحث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ الشَّيْطَانِ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ﴿٨١﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَئِنْ آجَرْتَنِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٨٨﴾. الحين المذكور هنا، قال بعض العلماء: المراد به بعد الموت، ويدل له ما قدمنا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩٩﴾ [الحجر].

وقال بعض العلماء: الحين المذكور هنا، هو يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال.

واللام في ﴿وَلَعَلَّنَ﴾ موطئة للقسم، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبأ القرآن؛ أي صدقه وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسم، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبأه بعد حين، قد أشار إليه تعالى في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [٣٦] لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [٣٧] [الأنعام].

قال غير واحد من العلماء: ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٣٧]، أي لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [١]. قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله - جلّ وعلا - إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا.

ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه - جلّ وعلا -، وذكر اسمه الله، واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة البجائية، في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ [١] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [٢] إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ [٣] [البجائية]، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ [١] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [٢] مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [٣] [الأحقاف: ١ - ٣].

وقد تكرر كثيراً في القرآن ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة غافر: ﴿حَمْدٌ﴾ [١] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٢] غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَاقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ [٣] [غافر]، وقوله تعالى في أول فصلت: ﴿حَمْدٌ﴾ [١] تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [٢] [فصلت]. وقوله تعالى في أول هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْعَمْتَ بِإِثْنِ ثَمِّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [١] [هود]، وقوله في فصلت: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [١] [فصلت]. وقوله تعالى في صدر يس: ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [١] لِنُنذِرَ قَوْمًا

مَا أَنْزَرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]... الآية [الشعراء: ١٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَكَّرْنَا بِعَصِ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ١٨].

ولا يخفى أن ذكره - جلّ وعلا - هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم، يدل بليضاء على عظمة القرآن العظيم، وجلالة شأنه وأهميته نزوله. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [آل الله الَّذِينَ الْخَالِصُ]. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يعبد في حال كونه مخلصاً له الدين، أي مخلصاً له في عبادته، من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها، كما هو واضح من لفظ الآية. والإخلاص: إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الإخلاص في العبادة لله وحده لا بد منه، جاء في آيات متعددة، وقد بين - جلّ وعلا -، أنه ما أمر بعبادة، إلا عبادة يخلص له العابد فيها.

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [آل الله الَّذِينَ الْخَالِصُ] وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ [آل الله الَّذِينَ الْخَالِصُ] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [آل الله الَّذِينَ الْخَالِصُ] فاعبدوا ما شئتم من دونه. وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح، وأنه لا بد فيه من الإخلاص في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: ٢].

قوله تعالى: ﴿آلَ اللَّهِ الَّذِينَ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

أي التوحيد الصافي من شوائب الشرك، أي هو المستحق لذلك وحده، وهو الذي أمر به.

وقول من قال من العلماء: إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله؛ موافق لما ذكرناه. والعلم عند الله تعالى.

ثم لما ذكر - جلّ وعلا - إخلاص العبادة له وحده، بين شبهة الكفار التي احتجوا بها للإشراك به تعالى، في قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى، والزلفى القرابة، فقوله: زلفى، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا؛ أي ليقربونا إليه.

قراءة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم؛ ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وقد قدّمنا في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا آلِيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط؛ من أصول كفر الكفار.

وقد صرح تعالى بذلك في سورة يونس؛ في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوتُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٧].

فصرح تعالى بأن هذا النوع، من ادعاء الشفعاء شرك بالله، ونزه نفسه الكريمة عنه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وأشار إلى ذلك في آية الزمر هذه؛ لأنه - جلّ وعلا - لما قال عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وقوله: كفار، صيغة مبالغة، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك، بين الكذب والمبالغة في الكفر بقولهم ذلك، وسيأتي إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح في سورة الناس.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [١]. قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ١٧]. قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه خلق بني آدم من نفس واحدة هي أبوهم آدم، ثم جعل من تلك النفس زوجها يعني حواء. أي وبث جميع بني آدم منها، وأوضح هذا في مواضع آخر من كتابه، كقوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله في الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٨٩]، وتأنيت الوصف، بقوله: واحدة، مع أن الموصوف به مذكر، وهو آدم نظراً إلى تأنيت لفظ النفس، وإن كان المراد بها مذكراً، ونظير ذلك من كلام العرب قوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِينَةً أَزْوَاجَ﴾.

قد قدّمنا إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم، في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهُتِكُمْ خَلَقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَٰعِثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، وبيننا هناك المراد بالظلمات الثلاث المذكورة هنا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾.

قد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه غني عن خلقه الغنى المطلق، وأنه لا يضره كفرهم به، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم]. وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الآية [يس: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقد أوضحنا هذا بالآيات في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾. قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال، والجواب عن الأسئلة الواردة على تلك الآيات في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأوضحنا ذلك، مع إزالة الإشكال في بعض الآيات، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ... الآية [النحل: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾. الظاهر أن معنى الآية، أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً يمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿بِيعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي

فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [العنكبوت]، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. على قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، دليل واضح على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ لَخَيْرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له من أوجه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحَنُّنِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٩]، وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَبْدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من تحقيق معنى لا إله إلا الله، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. أظهر الأقوال في الآية الكريمة، أن المراد بالقول، ما جاء به النبي ﷺ، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾ الآية [المؤمنون: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَمْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يقدمون الأحسن، الذي هو أشد حسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن. ويدل لهذا آيات من كتاب الله.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع، ما أنزل عليه ﷺ من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة: ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه.

واعلم أولاً: أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، قدموا فعل الخير الواجب، على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير، على مطلق الحسن الذي هو الجائز؛ ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ كما قدّمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل]، وبيننا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقي:

ما رينا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل]، فالأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن. فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله يبين أن العفو والصبر خير منه وأحسن في قوله: ﴿وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام: ﴿وَلَكِنْ أُنصِرْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى]، مع أنه يبين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله بعده: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْ وَعَفَّرْ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزِيزِ الْأَمْرِ﴾ [الشورى]، وكقوله في جواز الانتقام: ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته - جلّ وعلا - مع كمال قدرته، وذلك في قوله بعده: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء].

وكقوله - جلّ وعلا - مثنياً على من تصدق، فأبدى صدقته: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثم يبين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم، في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُوْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وكقوله في نصف الصداق اللازم للزوجة بالطلاق قبل الدخول: ﴿فَصِفْ مَا قُرِضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن؛ لأن الله شرعه في كتابه في قوله: ﴿فَصِفْ مَا قُرِضْتُمْ﴾، مع أنه رغب كل واحد منهما أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده: ﴿وَأَن تَعَفُّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقد قال تعالى: ﴿وَحَزْرًا سَيَعَفُّ سَيَتُهُ وَمِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثم أرشد إلى الأحسن بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ فَيَصَاصُ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

واعلم: أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا.

منها ما روي عن ابن عباس، في معنى ﴿يَسْتَعْفِفُونَ أَحْسَنَهُ﴾. قال: «هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به».

وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن.

وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول ﷺ كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾. أظهر القولين في الآية الكريمة، أنهما جملتان مستقلتان، فقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، جملة مستقلة، لكن فيها حذفاً، وحذف ما دل المقام عليه واضح، لا إشكال فيه.

والتقدير: أفمن حق عليه كلمة العذاب، تخلصه أنت منه. والاستفهام مضمن معنى النفي، أي لا تخلص أنت يا نبي الله أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله هنا: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾.

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية، كما قال الزمخشري: أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه؛ جملة شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة، فإنه لا يظهر كل الظهور.

واعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ الآية [يس: ٧]، وبيننا دلالة الآيات... على المراد بكلمة العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا زُرَّارًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية، ذكره - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْفَافًا بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ]. وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ الآية [التوبة: ٧٢]. وقوله تعالى في سورة الصف: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف]؛ لأن المساكين الطيبة المذكورة في التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة في الزمر وسبأ، وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾... الآية [الفرقان: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾. ينبوع: جمع ينبوع، وهو الماء الكثير.

وقوله: فسلكه؛ أي أدخله، كما قدّمنا إيضاحه بشواهد العربية والآيات القرآنية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر، قد أوضحناه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾... الآية [سبأ: ٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾. قد قدّمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنَيْهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَنَاسِكُمْ وَالْمَوَاسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، وأحلنا عليه في سورة فاطر، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. قوله: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾: أي ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخضرته ييبس، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً قد زالت خضرته ونضارته، ثم يجعله حطاماً أي فتاتاً متكسراً، هشيماً، تذروه الرياح، إن في ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع المختلف الألوان لذكرى؛ أي عبرة وموعظة وتذكيراً لأولي الألباب؛ أي لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال.

فقد ذكر - جلّ وعلا - مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير، وبين في موضع آخر، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيه أيضاً بالدنيا. فوعظ به في موضع وشبه به حالة الدنيا في موضع آخر، وذلك في قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوُ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]. وبين في سورة الروم أن من أسباب اصفراره المذكور إرسال الريح عليه، وذلك في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ الآية [النحل: ٣٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ لَكُمْ عِوَجًا﴾... الآية

[الكهف: ١، ٢]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قُرْءَانًا﴾ انتصب على الحال وهي حال مؤكدة، والحال في الحقيقة هو عربياً، وقرآنًا توطئة له، وقيل: انتصب على المدح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: عربياً؛ أي لأنه بلسان عربي كما قال تعالى: ﴿لَسَاتِ الْآلِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقال تعالى في أول سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١]. وقال في أول الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. وقال في طه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٤]. وقال تعالى في فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَافُالَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى في الشعراء: ﴿وَلَئِنَّ لَلْزَيْلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٢]. وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أُوحِيَ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وقال تعالى في الرعد: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَامٍ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وِزْرٍ وَلَا وَاكِ﴾ [الرعد: ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمتها، دلالة لا ينكرها إلا مكابر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ أوضح - جلّ وعلا -، أن الذي في هذه الآية بمعنى الذين، بدليل قوله بعده ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [٣٣] لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين [٣٤].

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن «الذي» تأتي بمعنى «الذين» في القرآن وفي كلام العرب، فمن أمثلة ذلك في القرآن، قوله تعالى في آية الزمر هذه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾... الآية. وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، أي الذين استوقدوا بدليل قوله بعده: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقوله فيها أيضاً: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً أُنَاسٍ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي كالذين ينفقون، بدليل قوله بعده: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقوله تعالى في التوبة: ﴿وَحُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. على القول بأن الذي موصولة لا مصدرية، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عدیل بن الفرخ العجلي:

فبت أساقی القوم إخوتي الذي غوايتهم غي ورشدهم رشد

وقول الراجز:

يا رب عيس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا فيمن قعد

إلا الذي قاموا بأطراف المسد

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ... الآية [النحل: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَيُزَيِّرُ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٦) [الأنفال]، وعلى قراءة الجمهور «بكاف عبده»، بفتح العين وسكون الباء، بإفراد العبد، والمراد به، النبي ﷺ. كقوله: ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ ... الآية [الأنفال: ٦٤].

وأما على قراءة حمزة والكسائي «عباده» بكسر العين وفتح الباء بعدها ألف على أنه جمع عبد، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين من الأنبياء وأتباعهم.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن الكفار عبدة الأوثان، يخوفون النبي ﷺ بالأوثان التي يعبدونها من دون الله؛ لأنهم يقولون له: إنها ستضره وتخلبه، وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها ستضرهم وتصل إليهم بالسوء.

ومعلوم أن أنبياء الله - عليهم صلوات الله وسلامه - لا يخافون غير الله ولا سيما الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؛ ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوّفه بها: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ ... الآية [الأنعام: ٨١].

وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه في ذلك: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعَنَتَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسُوُّ قَالَ إِنَّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥١) من دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٢) إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥١) [هود].

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة مخاطباً نبينا ﷺ بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْصَرِّغَتٌ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٧٨). ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله.

وقد بين - جلّ وعلا - في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه، من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

والأظهر أن قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، حذف فيه المفعول الأول، أي يخوفكم أوليائه، بدليل قوله بعده: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾... الآية [آل عمران: ١٧٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَقْرَبُكُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِن أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ تُمْسِكُكُمْ رَحْمَةً﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أن المعبودات من دونه، لا تقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقْبَلُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [٧٦] أو يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [٧٦] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [٧٦] [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لِمَن يَدْعُوهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِيدَ بِكَ بَخْسًا فَلَا رَادَّ لِلضَّلِيلِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٤٥].

قد قلّمنا الآيات الموضحة له في سورة الصفات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [١٢] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [٤٥] [الصفات].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار لو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لفدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي عاينوه يوم القيامة، وبين هذا المعنى في مواضع آخر وصرح فيها بأنه لا فداء البتة يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يُمْسَكَ مِنْ أَجْلِهِمْ مِلَّةٌ وَلَا يَرْضَى اللَّهُ لَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ أَولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يُؤَدُّونَ أَن يَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿قَالِيزِمٌ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَفَسَّ اللَّهُ الْمَصِيدَ﴾ [الحديد: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَدَّلْ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُوْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الانعام: ٧٠]. فقوله: ﴿وَإِن

تَقْدِلُ كُلَّ عَدْلٍ، أي وإن تفند كل فداء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾... الآية [البقرة: ١٢٣]، والعدل الفداء وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْهَادِثِينَ﴾ [الرعد: ١٨].

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَن يُغْنِيَنَّكَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾. قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا؛ أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها.

ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب، على جزاء العقاب، في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَفَهُ اللَّهُ﴾... الآية [الحج: ٦٠].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنهم يبدو لهم يوم القيامة، حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا، جاء موضحاً في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [٣٣] وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [٥٥] [الانفطار]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَرْثِلُنَا مَالٌ هَٰذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ الآية [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَهُ لَطْفُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [٣٣] أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ أَيَّامَكَ حَسِيبًا [٤٤] [الإسراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ الآية [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ [٧] الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وقدّمنا طرفاً منه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لِي كَرَّةٍ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٨]. قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيَسْقُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

قد قَدَّمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من الآيات في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية، مع بيان جملة من آثار الكبر السيئة، في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقد ذكرنا في سورة المائدة، الآية المتضمنة للقيد الذي لم يذكر في هذه الآيات على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ ... الآية [المائدة: ٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا بِظُغَرٍ﴾، قد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾. قد قَدَّمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَزَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾. اختلف العلماء في المراد بالشهداء في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: هم الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم في الدنيا، واستدل من قال هذا بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق].

وقال بعض العلماء: الشهداء أمة محمد ﷺ يشهدون على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأظهر الأقوال في الآية عندي، أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى الأمم؛ لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها، كما صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]. فصرح - جل وعلا - بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف]، وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١١﴾ [النساء]؛ لَأَن كونه ﷺ هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها.

وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة، فدل على أنه ليس من الملائكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]، والرسول من أنفس الأمم، كما قال تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

والمسوغ للايجاز بحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ هو أنه من المعلوم الذي لا نزاع فيه، أنه لا يقدر على المجيء بهم إلا الله وحده - جلّ وعلا - .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائي وهشام عن ابن عامر: «وجيء» بكسر الجيم كسرة خالصة، وقرأ الكسائي وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم.

وإنما كان الإشمام هنا جائزاً، والكسر جائزاً؛ لأنه لا يحصل في الآية البتة لبس بين المبني للفاعل، والمبني للمفعول، إذ من المعلوم أن قوله هنا: «وجيء» مبني للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

واكسر أو اشمم «فا» ثلاثي أعل عينا وضم جاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل، فإن ذلك قد يؤدي إلى اللبس فيشتبه المبني للمفعول، بالمبني للفاعل، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذي يوجب اللبس، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وإن بشكل خيف لبس يجتنب

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر، وقد أنشده صاحب اللسان:

وإني على المولى وإن قل نفعه دفوع إذا ما صمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول؛ فيجب الإشمام أو الضم؛ لأن الكسر الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل كبعت وسرت. وقول جرير يرثي المزارع بن عبد الرحمن بن أبي بكر:

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزار

للدافنين أبا المكارم والندا لله ما ضمننت بك الأحجار

أصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام؛ لأن الضم الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل، كقلنا وقمنا.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾. الزمر الأفواج المتفرقة،

واحدة زمرة، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر، وعبر عنها في الملك بالأفواج في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾... الآية [الملك: ٨]، وعبر عنها في الأعراف بالأمم في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لِأُولَئِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ٣٨].

وقال في فصلت: ﴿وَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ ﴿٥١﴾ [ص].

ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله:

وترى الناس إلى منزله زمراً تنتابه بعد زمر
وقول الراجز:

إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمراً بعد زمر

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا﴾. لم يبين - جلّ وعلا - هنا عدد أبوابها المذكورة، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله: ﴿وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٣٧﴾ [الحجر].

وقوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، قرأه نافع وابن كثير أبو عمرو وابن عامر: (فُتِحَتْ) بتشديد التاء دلالة على التكثير. وقرأه عاصم وحمره والكسائي: ﴿فُتِحَتْ﴾ بتخفيف التاء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعابنوا ما فيها من النعيم، حمدوا ربهم وأثنوا عليه، ونوهوا بصدق وعده لهم، وذكر هذا المعنى في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ يُخْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوْا أَنْ يَتْلِيَنَّكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ تُشْمِتُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ الآية [الأعراف: ٤٤].

وبيّن تعالى في موضع آخر أنّ من أنواع جدال الكفار، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وآمنوا به وبرسوله؛ ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وبين بطلان حجة هؤلاء، وتوعدهم بغضبه عليهم، وعذابه الشديد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْهُ بَعْدَ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُمْ فَهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَعْزُرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾. نهى الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، ليشرح لأمته عن أن يغره تقلب الذين كفروا في بلاد الله بالتجارات والأرباح، والعافية وسعة الرزق، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش]، أي إلى اليمن والشام، وهم مع ذلك كفرة فجرة، يكذبون نبي الله ويعادونه.

والمعنى: لا تغتر بإنعام الله عليهم وتقلّبهم في بلاده في إنعام وعافية، فإن الله - جلّ وعلا - يستدرجهم بذلك الإنعام، فيمتعهم به قليلاً، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُرُكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ (١٦٦) ﴿مَتَّعْ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٧٧) [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُرُكَ كُفْرُهُ؛ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿تُؤْتِيهِمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (١٤) [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٦) ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) [يوسف]، إلى غير ذلك من الآيات.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَعْزُرُكَ﴾، سببية أي لا يكن تقلّبهم في بلاد الله؛ متنعمين بالأموال والأرزاق، سبباً لا غترارك بهم فتظن بهم ظناً حسناً؛ لأن ذلك التمتع، تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٦٦).

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كلمات) بصيغة الجمع المؤنث السالم، وقرأه الباقون ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالافراد.

وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) [يس].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾. لم يبيّن هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. ولكنه - جلّ وعلا - أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُهُمْ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَمْ يُغْنِ الدَّارَ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٨﴾ ... الآية [الرعد].
قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأُحْيِيْنَا اثْنَيْنِ﴾.

التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية الكريمة، الإمامة الأولى، التي هي كونهم في بطون أماتهم نطفاً وعلقاً ومضغاً قبل نفخ الروح فيهم، فهم قبل نفخ الروح فيهم لا حياة لهم، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت. والإمامة الثانية هي إماتهم وصيورتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم في دار الدنيا. وأن المراد بالإحياءتين، الإحياء الأولى في دار الدنيا، والإحياء الثانية، التي هي البعث من القبور إلى الحساب والجزاء والخلود الأبدي، والذي لا موت فيه، إما في الجنة وإما في النار.

والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق، أن الله صرح به واضحاً في قوله - جلّ وعلا -: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [البقرة]، وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال في الآية لا معول عليه.

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على العلقه والمضغة مثلاً، في بطون الأمهات، أن عين ذلك الشيء، الذي هو نفس العلقه والمضغة، له أطوار كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ ﴿٧٤﴾ [نوح]، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، ولما كان ذلك الشيء تكون فيه الحياة في بعض تلك الأطوار، وفي بعضها لا حياة له، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى، وقد ذكر له الزمخشري مسوغاً غير هذا، فأنظره إن شئت.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾. قد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع، أن الاعتراف بالذنب في ذلك الوقت لا ينفع، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١١﴾ [الملك]. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا﴾ ... الآية. قد تقدم الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْبَاطِلِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].
قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه - جلّ وعلا - هو الذي يري خلقه آياته؛ أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده. ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾... الآية [فصلت: ٣٧].

. ومنها السماوات والأرضون وما فيهما، والنجوم، والرياح، والسحاب، والبحار، والأنهار، والعيون، والجبال والأشجار، وأثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ [٢] وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ [٣] وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَلْحَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَقْرِيفٍ الرَّبِّحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٤] [الجاثية: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١] [يونس: ١].

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية المؤمن هذه، من أنه هو الذي يري خلقه آياته بينه وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضع، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد ﷺ حق، كما قال تعالى: ﴿سَرِّبْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والآفاق جمع أفق وهو الناحية، والله - جلّ وعلا - قد بين من غرائب صنعته، وعجائبه، في نواحي سماواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار، إلى غير ذلك.

وبين أيضاً أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخيرها لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها، وزبدها وسمنها وأقطها، ويلبسوا من جلودها، وأصوافها ولؤبأرها وأشعارها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [٧٩] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ الْفَلَاحِ تَحْمِلُونَ [٨٠] وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ [٨١]﴾.

وبين في بعض المواضع، أن من آياته التي يريها بعض خلقه، معجزات رسله؛ لأن المعجزات آيات، أي دلالات، وعلامات على صدق الرسل، كما قال تعالى في فرعون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ [٨١]﴾ [طه]، وبين في موضع آخر، أن من آياته التي يريها خلقه، عقوبته المكذبين رسله، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٢٥]﴾ [العنكبوت].

وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل... إلخ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ مَائِدَتِ مِفْصَلَتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٣].
قوله تعالى: ﴿وَيُزَيِّنُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾.

أطلق - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة الرزق وأراد المطر؛ لأن المطر سبب الرزق، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملازمة بينهما، أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب وإرادة المسبب كقوله:

أكلت دماً إن لم أرُعك بضرةً بعيدة مهوى القرط طيبة النشر
فأطلق الدم وأراد الدية؛ لأنه سببها.

وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعدد والإعجاز» أن أمثال هذا أساليب عربية، نطقت بها العرب في لغتها، ونزل بها القرآن، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية، لا داعي إليه، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في أول سورة الجاثية: ﴿وَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، فأوضح بقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، أن مراده بالرزق المطر؛ لأن المطر هو الذي يحيى الله به الأرض بعد موتها.

وقد أوضح - جلّ وعلا -، أنه إنما سمى المطر رزقاً؛ لأن المطر سبب الرزق، في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢]، والباء في قوله ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ سببية كما ترى.

وكقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٢]. وقوله تعالى في سورة ق: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩ - ١١].

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور، شامل لما يأكله الناس، وما تأكله الأنعام؛ لأن ما تأكله الأنعام، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها، وجلودها وألبانها، وأصوافها وأوبارها، وأشعارها، كما تقدم كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٧]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

فقوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن

تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم إيضاحه بشواهد العربية، في سورة النحل وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلًّا وَارِعًا لَّانْعَمَكُمُ﴾ الآية [طه: ٥٣، ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَنَزَعْنَا مِنْهَا لَبًا لَّكُمُ وَلَآئِكُمُ﴾ [النازعات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن الناس ما يتذكر منهم؛ أي ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّن السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [آي من رزقه الله الإنابة إليه].

والإنابة: الرجوع عن الكفر والمعاصي، إلى الإيمان والطاعة.

وهؤلاء المنيبون، المتذكرون، المتعظون، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، المذكورون في قوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَلَعَلَّوْا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت آية المؤمن هذه، وما في معناها من الآيات، على أن غير أولي الألباب المتذكرين المذكورين آنفاً، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات، بل يعرض عنها أشد الإعراض. وقد جاء هذا المعنى موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرَّتْ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَأَ ءَايَةَ يُعْرَضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر]. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس]. وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام]، في الأنعام ويس إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. قد قدمنا الكلام على نحوه من الآيات في أول سورة الزمر، في الكلام على قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [آل الله الذين أحلّوا] [الزمر: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [يوم هم يبرزون]. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ أَن يُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل].

وقوله تعالى في آية المؤمن هذه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ جاء مثله في آيات كثيرة، كقوله في بروزهم ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَن الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم]. وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾... الآية [إبراهيم: ٢١].

وكقوله في كونهم لا يخفى على الله منهم شيء ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يُعَذِّبُ الْمُعْرِضُونَ لَا يَخْفَى مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بينها في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾... الآية [هود: ٥]، وذكرنا طرفاً من ذلك، في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ الْغَیْبُ لَا يَعْرِبُ عَنْهُ مُتَقَالٌ ذَرٌّ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [سبأ: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾. الإنذار: الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً. وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه في أول سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَتَبُ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ﴾... الآية [الأعراف: ٢]. والظاهر أن قوله هنا: ﴿يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له؛ لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة، واقع في دار الدنيا.

والأَرْزَقَةُ: القيامة. أي أُنذَرَهُمْ يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة. وإنما عبر عن القيامة بالأَرْزَقَةِ لأجل أزوفها أي قربها، والعرب تقول: أَرْزَفَ الترحل بكسر الزاي، يَأْرِزِفُ بفتحها، أَرْزَفًا بفتحتين، على القياس، وأَرْزُفًا فهو أَرْزَفٌ، على غير قياس في المصدر الأخير، والوصف بمعنى قرب وقته وحان وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان: أَرْزَفَ الترحل غير أن ركابنا لما نزل برحالنا وكأن قد ويروى أفد الترحل، ومعناها واحد.

والمعنى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ﴾ أي يوم القيامة القريب مجيئها ووقوعها. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿أَرْزَقَتِ الْأَرْزَقَةَ ۖ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾... الآية [القمر: ١]. وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ١]. وقوله تعالى في الأحزاب: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقوله تعالى في الشورى: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وقد قَدَّمْنَا هذا في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾، الظاهر فيه، أن «إذ»، بدل من «يوم»، وعليه فهو من قبيل المفعول به، لا المفعول فيه، كما بينا آنفاً. والقلوب: جمع قلب وهو معروف. ولدى: ظرف بمعنى عند. والحناجر: جمع حنجرة وهي معروفة.

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان: أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن قلوبهم يومئذ، ترتفع من أماكنها في الصدور حتى تلتصق بالحلق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن. والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب لدى الحناجر، بيان شدة الهول، وفضاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصُورُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب]، وهو زلزال خوف وفرع لا زلزال حركة الأرض.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَظِيمٍ﴾ معناه مكرويين ممثلين خوفاً وغماً وحزناً. والكظم: تردد الخوف والغيط والحزن في القلب حتى يمتلئ منه، ويضيق به. والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه.

وقول بعضهم كاظمين؛ أي ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرون عليه، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج:

وَرَبَّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كَظَّمٍ عَنِ اللِّغَا وَرَفِثِ التَّكَلُّمِ

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين؛ أي لا يتكلمون إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وقوله: ﴿كَظِيمٍ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى، والتقدير: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾؛ أي إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين، أي ممثلين خوفاً وغماً وحزناً، ولا يبعد أن يكون حالاً من نفس القلوب، لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها.

ونظير ذلك في القرآن: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَلَنُلَاقَهُنَّ لَمَّا خَضِعِينَ ۝﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَأَلَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيٍّ وَلَا سَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَاسِئَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩). قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود، وفي غيرها، وأحلنا عليه أيضاً مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٠) **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَفَرُّوهُ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (٢١).** ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه، وزعموا أنه ساحر.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّكَ لَكَاذِبٌ كَذِبٌ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٢). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عاذ بربه؛ أي اعتصم به، وتمنع من كل متكبر؛ أي متصف بالكبر، لا يؤمن بيوم الحساب؛ أي لا يصدق بالبعث والجزاء.

وسبب عياد موسى بربه المذكور، أن فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (٢٣) **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢٤).**

فعياد موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون؛ لأن فرعون لا شك أنه متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً، وهو المقصود بالكلام.

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية المؤمن هذه، في عياد موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون، وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: ﴿وَلْيَا عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٥) **الآية [الدخان].**

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَفَقَتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (٢٦). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن رجلاً مؤمناً في آل فرعون يكتُم إيمانه، أي يخفي عنهم أنه مؤمن، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي الله موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (٢٣) **الآية.** مع أنه لا ذنب له يستحق به القتل، إلا أنه يقول: ربي الله.

وقد بيّن في آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود، الذين حرقوا المؤمنين: ﴿قِيلَ أَضَعَبَ الْأَعْدُوذُ﴾ (٢٧) **أَتَارِ ذَاتِ الْأَوْفُودِ﴾ (٢٨) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ (٢٩) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (٣٠) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ (٣١).**

بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ ﴿٢٩﴾ [البروج]. وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ] [الحج: ٣٩، ٤٠]. وقوله تعالى عن الذين كانوا سحرة لفرعون، وصاروا من خيار المؤمنين، لما هددهم فرعون قائلاً: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْحَكَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف]، أنهم أجابوه، بما ذكره الله عنهم في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنَّا بِإِيمَانٍ بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا] [الأعراف: ١٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿مَنْ هَالِكٌ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩].

فدعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديم وتأخيراً، وأن من آل فرعون متعلق ببيعتهم؛ أي وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون؛ أي يخفي إيمانه عن فرعون وقومه، خلاف التحقيق كما لا يخفى.

وقيل: إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى: ﴿إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ﴾ [القصص: ٢٠]. وقيل غيره.

واختلف العلماء في اسمه اختلافاً كثيراً ف قيل: اسمه حبيب، وقيل: اسمه شمعان، وقيل: اسمه حزقيل، وقيل غير ذلك. ولا دليل على شيء من ذلك. والظاهر في إعراب المصدر المنسب من أن وصلتها في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، أنه مفعول من أجله.

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير قال: حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: «أقتلوا رجلاً أن يقول ربي الله؟»، وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

الظاهر أن أرى في هذه الآية الكريمة علمية، عرفانية، تتعدى لمفعول واحد، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنِّ تَهْمِهِ تَعْدِيَةً لِوَاحِدٍ مِلْتَزَمِهِ

وعليه فالمعنى: قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم، من حقيقة موسى وأنه ينبغي أن يقتل، خوف أن يبدل دينكم، ويظهر الفساد في أرضكم؛ إلا ما أرى؛ أي أعلم وأعرف أنه الحق والصواب، فما أخفي عنكم خلاف ما أظهره لكم، وما أهديكم بهذا إلا سبيل الرشاد؛ أي طريق السداد والصواب.

وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بين في آيات أخرى أن فرعون كاذب في كل واحد منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه، وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاء بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جحدما هو ومن استيقنتها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم، كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شِئْءٍ مَا إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ﴾ (١٧) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨) ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٩) [النمل].

فقوله تعالى: في هذه الآية ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٩]، دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰفِرْعَوْنُ مُنْجَبِرًا﴾ (١٧٢) [الإسراء]. فقول نبي الله موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٧٢]، مؤكداً إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسم، وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

وكان غرض فرعون بهذا الكذب التدليس والتضويق؛ ليظن جهلة قومه أن معه الحق، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (٤١) [الزخرف].

وأما الأمر الثاني وهو قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (٧١) [طه].

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾؛ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي من قتل موسى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِنِهَا﴾. هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات الدالة على أن السيئات لا تضاعف، ولا تجزى إلا بمثلها، بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات ربما ضوعفت في بعض الأحوال، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿إِذَا لَاقَوكُمْ ضَعْفَ الْحِيَرَةِ وَضَعْفَ الْمَمَآتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]. وقوله تعالى في نسائه رضي الله عنهن: ﴿بِلِيسَاءِ النَّكِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، إشكال معروف. وقد قدمنا الجواب عنه موضحاً في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) [النمل].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. قد أوضحنا معنى هذه الآية الكريمة، وبيننا العمل الصالح بالآيات القرآنية، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة، في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الصَّالِحَاتِ أَن لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿١﴾ مَنكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾ [الكهف].

قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿١١﴾ تَدْعُوْنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ. الظاهر أن جملة قوله: ﴿تَدْعُوْنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾، بدل من قوله: ﴿وَتَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾؛ لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار، بيّنه تعالى في آيات كثيرة من كتابه كقوله: ﴿إِنَّمَا مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقد قدّمنا ما فيه كفاية من ذلك في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾... الآية [الحج: ١٣١].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُصُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾. التحقيق الذي لا شك فيه، أن هذا الكلام، من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه، وليس لموسى فيه دخل.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ﴾، يعني أنهم يوم القيامة يعلمون صيغة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لِّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَجَمٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نِتْمَآءَ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿١٨﴾. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ [النبا]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَفَؤُصُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾، دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، كقولهم سها فسجد؛ أي سجد لعلة سهوّه، وسرق فقطعت يده؛ أي لعلة سرقته، كما قلّبناه مراراً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ، والوقاية من السوء، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأُخْرِجُوا مِنْهَا أَمْيَةً. [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة، في أول سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الإسراء: ٢].

والظاهر أن «ما» في قوله: ﴿سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٌ﴾ مصدرية؛ أي فوقاه الله سيئات مكروهم؛ أي أضرار مكروهم وشدائده، والمكر: الكيد.

فقد دلت هذه الآية الكريمة، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه، أي حفظه ونجاه، من أضرار مكروهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتقويضه أمره إليه.

وبعض العلماء يقول: نجاه الله منهم مع موسى وقومه، وبعضهم يقول: صعد جبلاً فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم، وكل هذا لا دليل عليه، وغاية ما دل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكروهم؛ أي حفظه ونجاه منها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾؛ معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن، وقاه الله مكروهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكروهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجياً في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين، في الدنيا والآخرة والبرزخ.

فقال في هلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَفْرَقْنَا بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [البقرة: ٥٠]، وأمثالها من الآيات.

وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وقال في عذابهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من حيق المكر السيئ بالماكر، أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً، إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة.

يقال حاق به السوء والمكروه، ولا يقال حاق به الخير، فمادة الحيق من الأجوف الذي هو يائي العين، والوصف منه حائق على القياس، ومنه قول الشاعر:

فأوطأ جُرد الخيل عقر ديارهم وحاَقَ بهم من يأس ضبَّة حائق

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفي، «فيعلة» من السوء فأدغمت ياء الفيعلة الزائدة في الواو، التي هي عين الكلمة، بعد إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطى غير ما قد رسما

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ ﴿٤٨﴾. قوله تعالى: ﴿يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ أصله يتفعلون؛ من الحجة أي يختصمون، ويحتج بعضهم على بعض، وما تضمنته هذا الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ﴾ (٤٩) [ص]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٠) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتِكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٥١﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَمَنْتَ أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لِأُولِنَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَقَالَتْ أُولُنَّهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٥٤) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَبْرَأُ مِنَ اللَّهِ فَلَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتُهُ مِنَّا فَلا تُغْنِي عَنْكُمْ كُفْرًا وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ كُفْرًا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٥﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُم سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِيزٍ﴾ (٥٦) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴿٥٧﴾ [إبراهيم: ٢١، ٢٢]، والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا الكلام عليها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٥٨). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار.

وقد بين في سورة الزخرف أنهم نادوا مالكا خاصة، من خزنة أهل النار، ليقضي الله عليهم، أي ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار.

وقد أوضح - جلّ وعلا - في آيات من كتابه، أنهم لا يجابون في واحد من الأمرين.
فلا يخفف عنهم العذاب، الذي سألوا تخفيفه، في سورة المؤمن هذه.

ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف. فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٥٠﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُتُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْكَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال تعالى في عدم موتهم في النار: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقال تعالى: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِذَنبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٦﴾ [طه]. وقال تعالى: ﴿وَنَجْجِبُهَا الْأَشْقَى ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، أجابهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد قدمنا الكلام عليه مع الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْزِّينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦]، وذكرنا طرفاً من ذلك في الصفات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِإِعَادَاتِ الْمُرْسَلِينَ ۝٧٦﴾ [إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصْرُورُونَ ۝٧٧] [الصفات]، وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله في سورة المجادلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِحَبْلِ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۝٥٢﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٣. اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ موطئة للقسم، وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم.

والمراد بالهدى ما تضمنه التوراه من الهدى في العقائد والأعمال: ﴿وَأَوْثَقْنَا بِحَبْلِ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة، وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٣﴾ مفعول من أجله؛ أي لأجل الهدى والتذكير.

وقال بعضهم: هدى حال، وورود المصدر المنكر حالاً معروف، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال القرطبي: هدى بدل من الكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الله أنزل التوراة على موسى وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٩١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾ الآية [السجدة]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ۝﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ [القصص: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ۝﴾ الآية [الأعراف: ١٤٥]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ ۝﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَهْطِ لَهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ۝﴾ [الأعراف: ١٣]، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ۝﴾، قد قدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث، وأوضحنا كل البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة في سورة البقرة، وسورة النحل، وأحلنا على مواضع ذلك مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَافِقُ ۝﴾ قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، وما يستوي الأعمى والبصير، قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعُ ۝﴾ الآية [هود: ٢٤].

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَافِقُ ۝﴾، قد قدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية، في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝﴾ [ص: ١٨]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾ قال بعض العلماء: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: اعبدوني أتبكم من عبادتكم، ويدل لهذا قوله بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿أَذْعُوِيْ اَسْتَجِبْ لَكَ﴾، أي اسألوني أعطكم. ولا منافاة بين القولين؛ لأن دعاء الله من أنواع عبادته.

وقد أوضحنا هذا المعنى، وبيننا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، مع قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [١١]. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن رُّبَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّخْرَجٍكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ مِّن قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٧]. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِّن رُّبَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤١]. وبيننا أوجه القراءة في قوله: «فيكون» هناك.

قوله تعالى: ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيَنسَ مَتَوَى التَّنَكُّرِينَ﴾ لم يبين هنا - جلّ وعلا - عدد أبواب جهنم، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْجِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤١] لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم [٤٢] [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقُصِّصْ عَلَيْكَ﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - تبارك وتعالى - قص على نبيه ﷺ أنباء بعض الرسل؛ أي كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين، بينه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلٍ وَرُسُلًا لَّمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [١٢٩] [النساء]، وأشار إلى ذلك في سورة إبراهيم في قوله: ﴿الَّذِي يَأْتِيكُمْ بُرًوَا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ تُوجُّ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٩]. وفي سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قوله هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي قامت القيامة، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ يُؤْتِيهِ اللَّهُ مَا يَشَاءُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] أي فإذا قامت القيامة، قضى بين الناس بالحق الذي لا يخالطه حيف ولا جور، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالْيَتِيمِ وَالشَّهِيدِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ ... الآية [الزمر: ٣٩].
وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَلِكَةَ حَاقِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥].

والحق المذكور في هذه الآيات: هو المراد بالقسط المذكور في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهَا قُبِلَتْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧].
وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبتلون، أوضحه - جلّ وعلا - في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُ بِخَسْرِ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٧] [الجاثية] والمبتطل هو: من مات مصراً على الباطل.
وخسران المبتطلين المذكور هنا، قد قدمنا بيانه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَبِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٦] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ [٨] . قد قدمنا أن لفظه «جعل»، تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها في القرآن:

الأول: إتيان جعل بمعنى اعتقد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً﴾ [الزخرف: ٤١٩]، أي اعتقدوهم إناثاً، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر.
الثاني: جعل بمعنى صيّر، كقوله: ﴿حَقَّقَ جَعَلَتْهُمْ حَصِيدًا خُلْيُودِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً.

الثالث: جعل بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، أي خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور.
والظاهر، أن منه قوله هنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾، أي خلق لكم الأنعام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ ... الآية [يس: ٧١].

والرابع: وهو الذي ليس في القرآن: جعل بمعنى شرع، ومنه قوله:

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ثوبي فأنهض نهض الشارب السكير

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة التي أنعم عليهم بها، بسبب خلقه لهم الأنعام وهي الذكور والإناث، من الإبل والبقر والضأن والمعز، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، بينه أيضاً في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٥] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ

كتاب خير مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب، والكتاب، فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب. وإنما قيل له كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٧٧﴾﴾ [البروج].

ومكتوب أيضاً في صحف عند الملائكة كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا نَذْكُرُهُ ﴿٧٨﴾ فَتَنَّا شَعْنَهُ ﴿٧٩﴾ فِي صُفِّ مَكْرَمٍ ﴿٨٠﴾ تَرْوَعُهُ مَطَهَّرٌ ﴿٨١﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٨٢﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٨٣﴾﴾ [عبس]. وقال تعالى في قراءة النبي ﷺ لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٨٤﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٨٥﴾﴾ [البينة].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾. التفصيل ضد الإجمال؛ أي فصل الله آيات هذا القرآن، أي بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق، من أمور دينهم ودنياهم. والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن، لا يكون إلا من الله وحده.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موضحاً في آيات آخر، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذي فصله حكيم خبير، وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم، وأن تفصيله شامل لكل شيء، وأنه لا شك أنه منزل من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ مُّهِينٍ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُتِيحَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿أَفَصَرَ اللَّهُ أَتْبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾﴾. قوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي بمعناه في القرآن في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾... الآية [الزمر: ٢٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي فصلت آياته، في حال كونه قرآنًا عربيًّا لقوم يعملون.

وإنما خصهم بذلك؛ لأنهم هم المنتفعون بتفصيله، كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعِدٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا وجه تخصيص المتنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر] وبيننا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم في آية فاطر هذه، وفي قوله تعالى في يس: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]. وقوله في النازعات: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ تَخْشَاهَا﴾ [النازعات]. وقوله في الأنعام: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الآية [الأنعام: ٥١]، مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

وإنما خص المذكورين بالإنذار؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ لأن من لم ينتفع بالإنذار، ومن لم ينذر أصلاً، سواء في عدم الانتفاع، كما قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقوله تعالى، في هذه الآية الكريمة: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال بعد حال. وقد قدمنا الكلام عليه وبعض شواهد العربية، في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ... الآية [الكهف: ٢]. وبسطنا الكلام عليه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صُدُوكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاعْرُضْ أَكْثَرَهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس]، وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع.

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ ... الآية [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ إِذَانِنَا وَقَدْ أَرْسَلْنَا وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ﴾. ذكر الله جلا وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار صرحوا للنبي ﷺ، بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به، فقالوا له: قلوبنا التي نعقل بها ونفهم، في أكنة؛ أي أغطية.

والأكنة، جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه. ويعنون أن تلك الأغطية مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ، وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقرأ أي: ثقلاً وهو الصمم. وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن

يستمعوا من النبي ﷺ شيئاً مما يقول، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وأن من بينهم وبينه حجاباً مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق؛ لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر، ويحول بينهم وبين رؤية ما يديه ﷺ من الحق.

والله - جلّ وعلا -، ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وجعل بينهم وبين رسوله حجاباً عند قراءته القرآن، قال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝١٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۝١٦﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ مَاءٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٢٥]. وقال تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهراً؛ لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم؟

فيقال: فكيف يذمون على قول شيء، هو حق في نفس الأمر.

والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مراراً، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر، وتكذيب الرسل طائعين مختارين، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم، طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاءً وفاقاً. فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم مجازاة لكفرهم الأول. ومن جزاء السيئة، تمادي صاحبها في الضلال، والله الحكمة البالغة في ذلك.

والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥].

فقول اليهود في هذه الآية: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. كقول كفار مكة: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ لأن الغلف جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر.

وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التي هي للإضراب الإبطالي، في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

فالباء في قوله: «بكفرهم» سببية، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد.

وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ ءَامِنًا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون]، والفاء في قوله: «طع» سببية أي ثم كفروا، «طع» على قلوبهم بسبب ذلك الكفر. وقد قدّمنا مراراً أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي.

وكذلك الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. فهي سببية أيضاً؛ أي طعنا على قلوبهم، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون؛ أي لا يفهمون من براهين الله وحججه شيئاً. وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم؛ لأنه قال في الطبع: ﴿فَطَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. وقال في الأكنة: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أي كراهة أن يفقهوه، أو لأجل ألا يفقهوه، كما قدّمنا إيضاحه.

وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فبين أن زيغهم الأول، كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب. وكقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادْنَاهُمْ رِجْسًا إِنْ رِجْسِهِمْ﴾ ... الآية [التوبة: ١٢٥].

وإيضاح هذا الجواب: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَادَانَا وَقَدْ وُفِّيْنَا وَبَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ يقصدون بذلك إخباره ﷺ بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة، والذنب الذي كان سبباً في الأكنة، والوقر والحجاب.

فدعواهم كاذبة؛ لأن الله جعل لهم قلوباً يفهمون بها، وآذاناً يسمعون بها، خلافاً لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ.

وهذا المعنى، أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰهَا بَكْفَرِهِمْ [النساء: ١٥٥].

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة، الجواب على الإشكال المذكور فقال: فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم، فقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقرة: ٨٨]، ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقرير والإثبات في سورة الأنعام، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَادَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك، إنما الذي ذمهم عليه، أنهم قالوا إنا إذا كنا كذلك، لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا، وهذا الثاني باطل.

أما الأول: فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه. اهـ منه. والأظهر: هو ما ذكرنا.

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾.

فإن قلت: هل لزيادة: «من» في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

وأما بزيادة «من» فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك.

فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب، لا فراغ فيها. انتهى منه.

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازي وتعبه ابن المنير على الزمخشري، فأوضح سقوطه والحق معه في تعقبه عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾، وقد قدمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾. أمر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾.

والقصر في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾، إضافي؛ أي لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر.

وقوله: ﴿مُثَلَّكُ﴾، في الصفات البشرية، ولكن الله فضلني بما أوحى إليّ من توحيده.

كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي كما منّ علينا بالوحي والرسالة.

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، ذكره في آخر سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية [الكهف: ١١٠].

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحى إليه ﷺ في مضمون لا إله إلا الله، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء]، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وبينا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من

البشر، وأنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية، أوضحنا ذلك في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ أَتَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝﴾.

قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ورجح بعضهم القول الأخير؛ لأن سورة فصلت هذه من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قلّمناه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَّاصِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعلى كل حال، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام؛ أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر، ويعذبون على المعاصي، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى عنهم مقررأ له: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝ قَالَُوا لَنْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ۝ وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْخَافِضِينَ ۝ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ ۝﴾ [المدثر].

فصرح تعالى عنهم مقررأ له أنّ من الأسباب التي سلكتهم في سقر؛ أي أدخلتم النار، عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝﴾ [الحاقة]، ثم بين سبب ذلك فقال: الآية ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ۝﴾ [الحاقة] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾. الأجر

جزاء العمل، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات هو نعيم الجنة، وذلك الجزء غير ممنون؛ أي غير مقطوع، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

لمعفر قهد تنازع شلوه غبس كواسب ما يمن طعامها

فقوله: ما يمن طعامها؛ أي ما يقطع. وقول ذي الأصبع:

إني لعمرك ما بابي بذى غلق على الصديق ولا خيري بممنون

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أجرهم غير ممنون، نص الله تعالى عليه في آيات أخر من كتابه، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٥٥). وقوله تعالى في سورة التين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١١). وقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ (١٣).

فقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ أي غير مقطوع، وبه تعلم أن غير مجذوذ وغير ممنون، معناهما واحد.

وقوله تعالى في ص: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَكُم مِّن نَّفَادٍ﴾ (٥٤) [ص]، أي ماله من انتهاء ولا انقطاع. وقوله في النحل: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافاً لمن قال: إن معنى غير ممنون؛ غير ممنون عليهم به.

وعليه، فالمن في الآية من جنس المن المذكور في قوله تعالى: ﴿لَا يُطْلَوُا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ومن قال: إن معنى غير ممنون، غير منقوص، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص، قالوا: ومنه قول زهير:

فضل الحيات على الخيل البطاء فلا يعطي بذلك مَمْنُوناً ولا نَزَقاً
فقوله ممنوناً؛ أي منقوصاً.

وهذا وإن صح لغة، فالأظهر أنه ليس معنى الآية. بل معناها: هو ما قدّمناه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

الظاهر أن معنى قوله هنا: «في أربعة أيام»: أي في تتمة أربعة أيام. وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ أَتُنْكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، أي في تتمة أربعة أيام.

ثم قال: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما، ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال؛ لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٤) [الفرقان]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ... الآية [السجدة: ٤]. وقوله تعالى في ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق]. وقوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، بأن معناه في تنمة أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ إذا فسر بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين الذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، واليومين الذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لكان المجموع ثمانية أيام وذلك لم يقل به أحد من المسلمين. والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا، وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾، قد قدّمنا الكلام على أمثاله من الآيات، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾... الآية [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَرْكَ فِيهَا﴾ أي أكثر فيها البركات، والبركة الخير، وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾. التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد.

والأقوات جمع قوت، والمراد بالأقوات: أرزاق أهل الأرض ومعاشهم وما يصلحهم. وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب: أن آية فصلت هذه، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم رتب على ذلك بشم، قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض، كقوله تعالى في النزاعات: ﴿مَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقُوا السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [النزاعات: ٢٠]، إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النزاعات: ٢١].

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الآية، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظه «ثم» التي هي للترتيب والانفصال.

وكذلك آية حم السجدة، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾... الآية.

مع أن آية النازعات تدل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَمَلَّةٌ بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات].

اعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك. فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء.

ويدل لهذا أنه قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات]، ولم يقل خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَرَزَقْنَا مِنْهَا﴾ [النازعات]، وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه.

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء.

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد مكثت زمناً طويلاً أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم.

وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كل منهما تدل عليه آية من القرآن.

الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمى التقدير خلقاً. ومنه قول زهير:

ولأنت تَفْري ما خلقت وبعض القوم يخلُق ثم لا يَفْري

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير، أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت. حيث قال: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن موجوداً بالفعل، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية [الأعراف: ١١]، فقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات]، أي مع ذلك، فلفظة بعد بمعنى مع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ [القلم]، وعليه فلا إشكال في الآية.

ويستأنس بهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد: «والأرض مع ذلك دحاها».

وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة؛ لأنها مبنية على أن خلق السماء قبل الأرض، وهو خلاف التحقيق. منها أن ثم: بمعنى الواو. ومنها: أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾... الآية [البلد: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾. المصابيح: النجوم، وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾... الآية [الأنعام: ٩٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحِفْظًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِجْبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾. الصرصر: وزنه بالميزان الصرفي فعفل، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب، التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرّة، التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ كَأَمْرَاتِهِ فِي صَرْقٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]، أي في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي صوتهما.

الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾... الآية [آل عمران: ١١٧]؛ أي فيها برد شديد محرق، ومنه قول حاتم الطائي:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صر
علّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

فقوله: ريح صرّ، أي باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد.

وما ذكره - جلّ وعلا - من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر، في تلك الأيام النحسات، أي المشؤمات النكدات؛ لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله.

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِمْ ۖ ﴿١٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿١٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١٩﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَبِ ۖ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٢١﴾ نَزَغَ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ مُنْفَعِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴿٢٤﴾﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَندَرْتُكُمْ صَبِغَةً مِثْلَ صَبِغَةِ عَادٍ﴾.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمر: «نَحْسَات»، بسكون الحاء، وعليه فالنحس، وصف أو مصدر، نزل منزلة الوصف.

وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «نَحْسَات» بكسر الحاء، ووجهه ظاهر، وقد قدمنا أن معنى النحسات: المشثومات النكدات.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩]. قال: النحس، البلاء والشدة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول:

سواء عليه أي يوم أتيته أساعة نحس تتقى أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى؛ لأن الشؤم بلاء وشدة. ومقابلة زهير النحس بالأسعد في بيته يوضح ذلك، وهو معلوم.

ويزعم بعض أهل العلم، أنها من آخر شوال، وأن أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك.

وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقاً، حتى إن بعض المتنبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر، حتى إنهم لا يقدمون على السفر، والتزوج ونحو ذلك فيه، ظانين أنه يوم نحس وشؤم، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه من عنده علم؛ لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه. فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له.

أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد؛ لأنه ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزِدْ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها من ظن استمرار نحس ذلك اليوم، لنبين أنها لا معول عليها.

قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبیش ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. قال: «يوم الأربعاء».

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: اقض باليمين مع الشاهد. وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن علي قال: «نزل جبريل على النبي ﷺ باليمين مع الشاهد والحجامة ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «يوم نحس يوم الأربعاء».

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأيام، وسئل عن يوم الأربعاء؟ قال: يوم نحس، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أغرق فيه الله فرعون وقومه، وأهلك عاداً وثمود».

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه؛ لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها، فالمراد بنحسه: شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم.

فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشأه وسببه الكفر والمعاصي.

أما من كان متقياً لله مطيعاً له في يوم الأربعاء المذكور فلا نحس ولا شؤم فيه عليه. فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد، والبلاء والشقاء على الحقيقة، فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله وعدم امتثال أمره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾؛ المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء.

والدليل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾؛ لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروه عليه، وتعرضوه منه.

وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣]. فقوله في آية التوبة هذه: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣]، موافق في المعنى لقوله هنا: فاستحبوا العمى على الهدى.

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية [إبراهيم: ٣].

فلفظة استحب في القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى؛ لأنها في معنى اختار وأثر.

وقد قدّمنا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغْنَى﴾ [هود: ٢٤]. أن العمى الكفر، وأن المراد بالأعمى في آيات عديدة الكافر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع على الهدى الخاص الذي هو التوفيق، والاصطفاء، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾، أي بيّنا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ﴿فَاسْتَجَبُوا أَمْرِي عَلَى الْهُدَى﴾، أي اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم.

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: ﴿وَأِنَّمَا كَفُورًا﴾.

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧].

وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني: وهو أنه تعالى أثبت الهدى لنبيينا ﷺ في آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ونفاه عنه في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

فيعلم مما ذكرنا: أن الهدى المثبت له ﷺ، هو الهدى العام الذي هو البيان والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك ﷺ فيبين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

والهدى المنفي عنه في آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق؛ لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [المائدة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥]، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية، وخصوص المتقين في قوله

تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]؛ لأنّ الهدى العام للناس هو الهدى العام، والهدى الخاص بالمتقين هو الهدى الخاص كما لا يخفى.

وقد بينا هذا في غير هذا الموضع. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَوعَةٌ الْعَذَابِ أَهْوَنَ﴾. الفاء في قوله: «فأخذتهم» سببية، أي فاستحبوا العمی على الهدى، وبسبب ذلك، أخذتهم صاعقة العذاب الهون.

واعلم: أنّ الله - جلّ وعلا - عبر عن الهلاك الذي أهلك به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَوعَةٌ الْعَذَابِ أَهْوَنَ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْ أَنتَرَكُمُ صَوعَةٌ مِّثْلَ صَوعَةٍ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

وعبر عنه أيضاً بالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَقَّ جِئِن ﴿٤٢﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات].

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في سورة هود، في إهلاكه ثمود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٧٧﴾ كَانَ لَمْ يَقْنُوا فِيهَا آلَا إِنَّا نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بَعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٧٨﴾﴾ [هود]. وقوله تعالى في الحجر: ﴿وَكَاثُرًا يَتَخَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَآءٍ إِنَّهُنَّ يَأْمِينُ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر]. وقوله تعالى في القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُخَضِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر]. وقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، يعني به ثموداً المذكورين في قوله قبله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَكَّاهُمْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ الآية [العنكبوت].

وعبر عنه بالرجفة، في سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَفْنَانَا بِمَا قَدَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ... الآية [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمُ أَجْمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل].

وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلَكُوا بِطَاغِيَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة].

وعبر عنه بالدمدمة في الشمس، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿٤١﴾﴾ [الشمس].

وعبر عنه بالعذاب، في سورة الشعراء، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿٦٦﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ الآية [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨].

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك.

والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معاً، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم؛ أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميراً واضح. وقيل لها طاغية؛ لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك.

والطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ الآية [الحاقة: ١١]. أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

واعلم أن التحقيق، أن المراد بالطاغية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُفْلِكُوا بِطَآغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة]، أنها الصيحة التي أهلكهم الله بها، كما يوضحه قوله بعده: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُفْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦﴾ [الحاقة].

خلافاً لمن زعم أنَّ الطاغية، مصدر كالعاقبة، والعافية، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم؛ أي بكفرهم وتكذيبهم نبيهم، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ١١﴾ [الشمس].

وخلافاً لمن زعم أن الطاغية هي أشقاهم الذي انبعث فعقر الناقة، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة، وكل هذا خلاف التحقيق.

والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا. والسياق يدل عليه واختاره غير واحد.

وأما قوله تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، فإنه لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن معنى ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه؛ بسبب ذنوبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة، إذا ألبسها الشحم.

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿صَلَعَةُ الْعَذَابِ أَهْوَنُ﴾، من النعت بالمصدر؛ لأن الهون مصدر بمعنى الهوان، والنعت بالمصدر أسلوب عربي معروف، أشار إليه في الخلاصة بقوله:

ونعتوا بمصدر كثير

فالتزموا الأفراد والتذكيرا

وهو موجه بأحد أمرين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف. أي العذاب ذي الهون.

والثاني: أنه على سبيل المبالغة، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه، صار كأنه نفس الهوان، كما هو معروف في مجله.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، كالتوكيد في المعنى لقوله: ﴿فَاسْتَحَبُّوا أَلَمَى

عَلَى الْمُدَى؛ لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم، فالفاء في قوله: «فأخذتهم» سببية، والباء في قوله: «بما كانوا» سببية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أهلك ثمود بالصاعقة، ونجى من ذلك الإهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِخْمًا مِّنْكَا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١١) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ الآية [هود: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى في النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئَكَنٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤) [النمل]. إلى قوله تعالى في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٦) وَأَنبَيَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦) [النمل] أي وهم صالح ومن آمن معه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩).

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع «يُحْشَرُ» بضم الياء وفتح الشين مبيناً للفعول «أَعْدَاءُ اللَّهِ» بالرفع على أنه نائب الفاعل.

وقرأه نافع وحزمة، من السبعة (نحشر أعداء الله) بالنون المفتوحة الدالة على العظمة، وضم الشين مبيناً للفاعل، (أعداء الله) بالنصب على أنه مفعول به، أي واذكر (يوم نحشر أعداء الله) أي يجمعون إلى النار.

وما دلت عليه الآية، من أن الله أعداء، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار. جاء مذكوراً في آيات أخر.

فبين في بعضها أن له أعداء وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين، وأن جزاءهم النار كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨) [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ... الآية [الممتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْغِهِ الِيمُ بِالسَّاعِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكُمْ﴾ [طه: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ ءَاتَوْا هُمْ فِيهَا دَارَ الْخُلْدِ﴾ الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. أي يرد أولهم إلى آخرهم، ويلحق آخرهم بأولهم، حتى يجتمعوا جميعاً، ثم يدفعون في النار، وهو من قول العرب: وزعت الجيش، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع.

وأصل الوزع الكف، تقول العرب وزعه، يزعه وزعاً، فهو وازع له، إذا كفه عن الأمر، ومنه قول نابغة ذبيان:

إلى شيء واحد، وهو أن الله - تبارك وتعالى - هياً للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى، ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم.

والقرناء: جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق.

وقوله: ﴿فَرَزَقْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة:

﴿وَمَا خَلَفَهُمْ﴾ أي من أمر الآخرة، فدعاهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين،

يضلونهم عن الهدى، بينه في مواضع آخر من كتابه.

وزاد في بعضها سبب تقييضمهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم، يظنون أنهم

مehتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم،

وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَلَمَّسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف].

فترتيبه قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾، على قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾

[الزخرف: ٣٦]، ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضمه له، هو غفلته عن

ذكر الرحمن.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الناس]؛ لأنَّ

الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن

إضلال الناس، من قولهم: خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر.

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت

عليه آية الزخرف المذكورة، ودل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُم سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[النحل]؛ لأنَّ الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، غافلون عن ذكر الرحمن؛ وبسبب

ذلك قيضه الله لهم فأضلهم.

ومن الآيات الدالة على تقييضم الشياطين للكفار ليضلوهم، قوله تعالى: ﴿أَنَّا

أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُّمٌ آذًا﴾ [مريم: ٨٣]، وقد أوضحنا الآيات الدالة على ذلك

في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية

[مريم: ٨٣]. وبيننا هناك أقوال أهل العلم في معنى ﴿تَوَهُّمٌ آذًا﴾ [مريم: ٨٣].

وبينا أيضاً هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا

يَمْعَشَرُ إِلَيْنَ فَيَسْتَكْثَرُونَ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي استكثرتم من إضلال الإنس في

دار الدنيا، وقوله: ﴿وَلَاخُوتُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ إلى

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ بَعْضُكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

وقد دل قوله في آية الزخرف: ﴿فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت، وآية الزخرف وغيرهما، جديرين بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]؛ لأن قوله: ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾، بمعنى: ﴿فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾؛ لأن كلاً من «سَاء» و«بئس» فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله:

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا
واعلم: أن الله تعالى بين أن الكفار الذين أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال، أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الأنعام: ١١٠] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٠﴾ [الكهف].

وقوله تعالى في آية الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، من قولهم عشا بالفتح عن الشيء يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه؛ لأن الكافر أعمى القلب فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن، وبسبب ذلك يقبض الله له قرناء الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ الآية [يس: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْتُكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَّلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢٤] نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ [٢٥] تَرْلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [٢٦]. ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ذكره الله تعالى في الجملة في قوله في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٣] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤] [الأحقاف]، لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق، بالخلود في الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه، يستلزم جميع ما ذكر في هذه الآية الكريمة، من سورة فصلت.

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٢٥] وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [٢٥] وَإِنَّمَا يَرُغِّبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٢٦]. قد أوضحناه مع الآيات التي بمعناها في آخر

سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُذِ الزَّمَانَ وَامْرِ بِالْعَرْفِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ الآية [الإسراء: ١٢]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ﴾ (٣٨). قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي فإن تكبر الكفار عن توحيد الله، والسجود له وحده، وإخلاص العبادة له، فالذين عند ربك وهم الملائكة يسبحون له بالليل؛ أي يعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً وهم لا يسأمون؛ أي لا يملون من عبادة ربهم؛ لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم، مع خوفهم منه - جلّ وعلا - كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين.

أحدهما: أن الله - جلّ وعلا - إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلازمون طاعته دائماً بالليل والنهار.

والثاني منهما: أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائماً لا يفترون عن ذلك.

وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة، قد جاء كل منهما موضحاً في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: فقد ذكر - جلّ وعلا - في قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وأما الثاني منهما: فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (٨) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٩) [الأنبياء]. وقوله تعالى في آخر الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ (١٢١) [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ﴾ أي لا يملون.

والسامة الملل ومنه قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً، لا أباً لك، يسأم

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾^(١) هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها، مع ما في معناها من الآيات، وبيننا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت، وذكرنا معها الآيات التي يكثر الاستدلال بها في القرآن على البعث بعد الموت، وهي أربعة براهين قرآنية. ذكرنا ذلك في سورة البقرة وفي سورة النحل وغيرهما وأحلنا عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿أَفَنُتْلَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

قد قدمنا الكلام عليه مع ما يماثله من الآيات، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ﴾ الآية [الفرقان: ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُورَانِ مَاءٌ هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وفي سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد، ذكره في مواضع أخر، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٨٢، ١٨٣]. وقوله في الأنفال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٣) كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [الأنفال: ٥١، ٥٢]. وقوله في الحج: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ الآية [الحج: ١٠، ١١]. وقوله في سورة ق: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٥) [ق: ١].

وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة. ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله.

فقولك مثلاً: زيد ليس بقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال. ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة، في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله، والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه:

الأول: أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة، قد بينت آيات كثيرة، أن المراد به نفي الظلم من أصله. ونفي صيغة المبالغة، إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ... الآية [الأنبياء: ٤٧]. إلى غير ذلك من الآيات كما قدّمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء.

الوجه الثاني: أن الله - جلّ وعلا - نفى ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة. والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلاً، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، كما ترى.

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة، وأن المراد بذلك نفى أصل الظلم عن كل عبد من أولئك العبيد الذين هم في غاية الكثرة، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً، كما بيّنته الآيات القرآنية المذكورة.

وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» ... الحديث.

الوجه الثالث: أن المسوخ لصيغة المبالغة، أن عذابه تعالى بالغ من العظم والشدة، أنه لولا استحقاق المعذنين لذلك العذاب بكفرهم ومعاصيهم، لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال.

الوجه الرابع: ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين، من أن المراد بالنفي في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾، نفى نسبة الظلم إليه؛ لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة فتعني عن ياء النسب كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومع فاعل وفعل فاعل في نسب أغنى عن اليا فاعل

ومعنى البيت المذكور، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي فاعل كظالم، وفعل كظلام، وفعل كفرح، كل منها قد تستعمل مراداً بها النسبة، فيستغنى بها عن ياء النسب، ومثاله في فاعل قول الحطيئة في هجوه الزرقان بن بدر التميمي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بقوله الطاعم الكاسي النسبة، أي ذو طعام وكسوة. وقول الآخر وهو من

شواهد سيويه:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الصيف تامر

أي ذو لبن وذو تمر، وقول نابغة ذبيان:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقوله: ناصب أي ذو نصب، ومثاله في فعال قول امرئ القيس:

وليس بذني رمح فيطعنني به وليس بذني سيف وليس بنبال

فقوله: وليس بنبال؛ أي ليس بذني نبل، ويدل عليه قوله قبله:

وليس بذني رمح وليس بذني سيف

وقال الأشموني بعد الاستشهاد بالبيت المذكور: قال المصنف؛ يعني ابن مالك:

وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. أي بذني ظلم اهـ.

وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين، ومثاله في فعل

قول الراجز وهو من شواهد سيبويه:

لست بليلي ولكني نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقوله نهر بمعنى نهاري.

وقد قدمنا إيضاح معنى الظلم بشواهد العربية، في مواضع متعددة من هذا

الكتاب المبارك. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. تقدم الكلام على نحوه في سورة الأعراف،

في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٨]،

وفي الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في

سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ

الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَطَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَيٍّ﴾. الظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الكفار يوم

القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من

محيص؛ أي ليس لهم مفر ولا ملجأ.

والظاهر أن المحيص مصدر ميمي، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب.

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم، هو التحقيق إن

شاء الله؛ لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم

في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم، إنهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾

[مريم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ خَبِيرٌ﴾ [ق: ٢٢]. وقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقد قدمنا

الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي

الْآخِرَةِ﴾ الآية [النمل: ٦٦].

ومعلوم أنّ الظن يطلق في لغة العرب، التي نزل بها القرآن على معينين:

أحدهما: الشك كقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، وقوله تعالى عن الكفار: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

والثاني: هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿وَنُظُنُّوهُمَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾ أي أيقنوا، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص؛ أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّاءُ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي أيقنوا ذلك وعلموه، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِحِسَابٍ فَبِأَنفُسِهِ يَفُوقُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابَةَ﴾ [١٦] إِيَّيْ طَنَنْتُ أَيْ مَلَكِي حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ [التحاقة]، فالظن في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين.

ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق:

بأن تفتروا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيباً مرجماً

والظن في البيتين المذكورين بمعنى اليقين، والفعل القلبي في الآية المذكورة التي هي قوله: ﴿وَنُظُنُّوهُمَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾. معلق عن العمل في المفعولين بسبب النفي بلفظة «ما» في قوله: ﴿مَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾. كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والتزم التعليق قبل نفي «ما»

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَتَمَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضْنَا وَنَا بِحَايِبِهِ. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ﴾ [٥١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وبعض الأحاديث الصحيحة الموافقة لها في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّمُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَلْبًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهُنَّ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِنَّ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ الآية [غافر: ١٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، المرية: الشك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار في البعث والجزاء، قد قدمنا الآيات الموضحة له، ولما يترتب عليه من الخلود في النار في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَى

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود.

وقول الرّمخسري في تفسير هذه الآية: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب، يوحى إليك وإلى الرسل من قبلك الله.

يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك مثله، في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللفظ العظيم، لعباده من الأولين والآخرين. اه منه.

وظاهر كلامه، أن التشبيه في قوله: كذلك يوحى؛ بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول. والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، لم يصرح هنا بشيء من أسماء الذين من قبله الذين أوحى إليهم، كما أوحى إليه، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق، في دار الدنيا وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا﴾ [النساء] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ذكر - جلّ وعلا - فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه، كما قال في آية النساء المذكورة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، بعد ذكره إيحاؤه إلى رسله.

وقد قدّمنا في أول سورة الزمر أن استقراء القرآن، قد دل على أن الله - جلّ وعلا - إذا ذكر تنزيهه لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير: ﴿يُوحَى﴾، بكسر الحاء بالبناء للفاعل، وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فاعل يوحى.

وقرأه ابن كثير (يُوحَى إِلَيْكَ)، بفتح الحاء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة، فقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدّمنا إيضاحه في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾. الآية [النور: ٣٦، ٣٧].

وقد قدّمنا معاني الوحي مع الشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. وصف نفسه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، بالعلو والعظمة، وهما من الصفات الجامعة كما قدّمناه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسَوَّى عَلَى الْمَرِّثِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤَدُّ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الجاثية: ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائي ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء الفوقية؛ لأن السماوات مؤنثة، وقرأه نافع والكسائي ﴿يَكَادُ﴾ بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقي.

وقرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، وشعبة عن عاصم ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ بقاء مثناة فوقية مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع: تَفْطَرُ أي تشق.

وقرأه أبو عمرو وشعبة عن عاصم ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء المخففة، مضارع انفطرت كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، أي انشقت.

وقوله: تكاد مضارع كاد، التي هي فعل مقاربة، ومعلوم أنها تعمل في المبتدأ والخبر، ومعنى كونها فعل مقاربة، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ بالخبر.

وإذا، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالانفطار على القراءة الأولى، والانفطار على القراءة الثانية.

واعلم أن سبب مقاربة السماوات للانفطار، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن:

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرون خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تنفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، مناسبتة لما قبله واضحة.

لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال؛ خوفاً منه وهيبة وإجلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٥٠﴾ [النحل].

فهم لشدة خوفهم من الله وإجلالهم له، يسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض؛ ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]. فقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يوضح المراد من قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾.

ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]؛ لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ﴾، من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض - جلّ وعلا -، من كونه اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ نَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرَ لَلْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ [مريم]، كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِ﴾، فيه للعلماء أوجه.

قيل: يتفطرن، أي السماوات من فوقهن أي الأرضين، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى.

وقال بعضهم: «من فوقهن» أي كل سماء تتفطر فوق التي تليها.

وقال الزمخشري في الكشف: فإن قلت لم قال: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات، وهي العرش والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾، أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية.

أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة.

ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة فوق. كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، دع الجهة التي تحتهن.

ونظيره في المبالغة قوله ﷺ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]، فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة. اهـ. محل الغرض منه. وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨].

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة، وعليه فمناسبة قوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَوْنَ ۗ﴾ [فصلت: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، كما قدمنا إيضاحه في آخر سورة فصلت.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. أكد - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه هو الغفور الرحيم، وبيّن فيها أنه هو وحده المختص بذلك.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما اختصاصه هو - جلّ وعلا - بغفران الذنوب، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله، وفي الحديث: «رب إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت» الحديث. وفي حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني»... الحديث. وفيه «وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، يدل على ذلك كما هو معلوم في محله، وأما الأمر الثاني، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم، فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو ألا، وحرف التوكيد الذي هو إن. وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾... الآية [طه: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]. وقوله في الكفار: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٦]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فرجو الله - جلّ وعلا - الكريم الرؤوف الغفور الرحيم، أن يغفر لنا جميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا، ويدخلنا جنته على ما كان منا، ويغفر لإخواننا المسلمين، إنه غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [١]. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الظَّالِمُونَ يُغَيِّرُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ خِلَافٍ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أوليائه. وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ الآية [النساء: ٧٦].

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله: ﴿أَفَتَعْتَبُدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد أمر - جلّ وعلا - باتباع هذا القرآن العظيم، ناهياً عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى، في أول سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان:

الأول منهما: الشياطين، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم من الكفر والمعاصي، فشرکهم به شرك طاعة، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى

المذكور كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَهْدِ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية [يس: ٦٠]. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾... الآية [مريم: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١٧]. أي وما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِشَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُخَوِّنَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْبِلَهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، إلى غير ذلك من الآيات.

والنوع الثاني: هو الأوثان، كما بين ذلك تعالى بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ الآية [الزمر: ٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي، وفي أوله اتخاذهم الأولياء، يعبدونهم من دون الله، وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي لست يا محمد، بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت.

والوكيل عليهم هو الله الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٩] وما كان لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [يونس: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ يَنَاءً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [١٩٢] بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [١٩٥] [الشعراء]، وفي الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، خص الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية الكريمة إنذاره ﷺ بأم القرى ومن حولها، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله.

ولكنه أوضح في آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقيلين كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرْ لِنَاسٍ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفَرَقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾... الآية [سبأ: ٢٨]، كما أوضحنا ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]، في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، فقلنا فيه: والجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره، عن ابن عباس.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً، أن قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة - حرسها الله -، كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر، نصت على العموم كقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وذكر بعض أفراد العام بحكم العام، لا يخصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور.

وقد قدّمنا ذلك واضحاً بأدلته في سورة المائدة، فالآية على هذا القول كقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء] فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم، كما هو واضح. والعلم عند الله تعالى. اه منه.

قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن من حكم إيحائه تعالى، إلى نبينا ﷺ هذا القرآن العربي، إنذار يوم الجمع، فقوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿لَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؛ أي لأجل أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع، فحذف في الأول أحد المفعولين وحذف في الثاني أحدهما، فكان ما أثبت في كل منهما دليلاً على ما حذف في الثاني، ففي الأول حذف المفعول الثاني، والتقدير «لتنذر أم القرى» أي أهل مكة ومن حولها عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا، وفي الثاني حذف المفعول الأول؛ أي وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة؛ أي تخوفهم مما فيه من الأهوال والأوجال؛ ليستعدوا لذلك في دار الدنيا.

والثاني: أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه، أي لا شك في وقوعه، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، جاءا موضحين في آيات آخر.

أما تخويفه الناس يوم القيامة، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾... الآية [غافر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿كَفَيْكَ تَقْوَىٰ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَبْطِئُ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ١].

وأما الثاني منهما؛ وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه، فقد جاء في مواضع آخر، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ الآية [الحج: ٣٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَجَمْعُوْنَ إِلَىٰ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [المرسلات]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَانِ﴾ [التغابن: ٩]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَابِقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَّا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق، وجعل منهم فريقاً سعداء، وهم أهل الجنة، وفريقاً أشقياء وهم أصحاب السعير، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، أي ولذلك الاختلاف، إلى مؤمن وكافر وشقي وسعيد، خلقتهم على الصحيح، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جداً.

وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، وجه الجمع بين قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، على التفسير المذكور، وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات]، وسنذكر ذلك - إن شاء الله - في سورة الذاريات.

وقد قدمنا معنى السعير بشواهد العربية في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، والجنة في لغة العرب البستان. ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ مِنْ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةَ سَحَقُلٍ
فقوله: جنة سحَقُلًا؛ يعني بستاناً طویل النخل، وفي اصطلاح الشرع هي دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه يوم القيامة.

والفريق: الطائفة من الناس، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين، ومنه قول نصيب:

فَقَالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ لَا، وَفَرِيقُهُمْ نَعَمْ وَفَرِيقٌ قَالِ وَيْحَكَ مَا نَدْرِي

والمسوغ للابتداء بالنكرة في قوله: فريق في الجنة، أنه في معرض التفصيل.

ونظيره من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلما دنوت تسديتها فثوب نسيت وثوب أجر

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات كثيرة.

فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر من السبعة (ولا تُشْرِكْ في حكمه أحداً) بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله.

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لا نزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة، على أنه لا حكم لغير الله، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ الآية [يوسف: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٧٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدمنا إيضاحها في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور؛ كفر فهي كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمْهُمْ لَأَنكُم مِّنْهُم مِّشْرُكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ آخُذْ بِالَّذِينَ يَبْتَغِي بَنِيَّ إِدْرَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيَاطِينَ﴾ الآية [يس: ٦٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاحه في الكهف. وقد أفاض في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله فليرجع من أراد الوقوف على كلامه في المسألة إلى الأصل.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟﴾ فقد سمي تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]، وهو واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾. قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ تقدم تفسيره في أول سورة فاطر.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾. أي خلق لكم أزواجاً من أنفسكم كما قدّمنا الكلام عليه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ نَبِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وبيننا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الآية [الروم: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ الآية [النجم: ٤١] وقوله: ﴿جَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ الآية [القيامة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ الآية [الليل: ١] وقوله في آدم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية [النساء: ١] وقوله تعالى فيه أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩]. وقوله تعالى فيه أيضاً: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾. هي الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وفي قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]. وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها، كما قدّمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾ الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله: «يذروكم» شامل للآدميين والأنعام، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله: «يذروكم» واضح لا إشكال فيه.

والتحقيق إن شاء الله أن الضمير في قوله: «فيه» راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ سواء قلنا إلى المعنى: أنه جعل للآدميين إناثاً من أنفسهم أي من جنسهم، وجعل للأنعام أيضاً إناثاً كذلك، أو قلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معاً.

وكونه - جلّ وعلا - ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، أي مفاتيحهما كناية عن كونه - جلّ وعلا - هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض؛ لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.

وقد ذكر - جلّ وعلا - مثل هذا في سورة الزمر، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٧٦﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٢، ٦٣].

وما دلت عليه آية الشورى هذه، وآية الزمر المذكورتان من أنه - جلّ وعلا - هو مالك خزائن السماوات والأرض، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْغَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥].

وبين في مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره، كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّهَابِ﴾ ﴿٦١﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٣٠﴾ [الإسراء].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [سبأ]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَرَحْوًا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [الرعد: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]. وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْزِعْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ الآية [الطلاق: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي ضيق عليه رزقه لقلته.

وكذلك قوله: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ في الآيات المذكورة؛ أي ييسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر، أي يضيق الرزق على من يشاء تضيقه عليه، كما أوضحناه في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَطَلَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقد بين - جلّ وعلا - في بعض الآيات حكمة تضيقه للرزق على من ضيقه عليه.

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان، قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٧﴾. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ ﴿١٠١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَقَى﴾ ﴿٧٧﴾ [العلق].

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَقُوا فِيهِ﴾. الضمير في قوله: «فيه»، راجع إلى الدين في قوله: ﴿أَنْ أَفِيُوا الَّذِينَ﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام].

وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ لِمَآءٍ أُمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام]؛ لأن قوله: ﴿لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٥٢] فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ [٥٣] فَذَرَهُمْ فِي غَرَيبِهِمْ حَتَّى يَجِيءَ [٥٤] [المؤمنون].

فقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد، وربكم واحد فلا تتفرقوا في الدين.

وقوله - جلّ وعلا - : ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]، دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَرَيبِهِمْ حَتَّى يَجِيءَ﴾ [المؤمنون]، فيه تهديد لهم ووعد عظيم على ذلك. ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٩٢] وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ رَجْعُوتٌ [٩٣] [الأنبياء]، فقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهَةٍ رَجْعُوتٌ﴾؛ فيه أيضاً تهديد لهم ووعد على ذلك. وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات في آخر سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الآية.

وقد جاء في الحديث المشهور: «افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتراق النصراني إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن الناجية منها واحدة، وهي التي كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه».

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَٰهَهُ﴾.

بين - جلّ وعلا - أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه ﷺ من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ ولعظم ذلك ومشقته عليهم، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجتهدون في عدم سماعه لشدة كراحتهم له، بل يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراحتهم لها.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله ، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ .

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم نوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِن كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِن شَاءَ رَبِّي فَأَعَزُّ لِي وَنَحْوِهِ﴾ . . . الآية (يونس: ٧١).

وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِيَّ إِذَا يَأْتِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِشَابِهِمْ وَاسْأَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا﴾ ﴿٧﴾ [نوح].

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ وَاسْتَغْنَوْا يَا بَنِيَّ﴾؛ يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكرهاتهم لما يدعوهم إليه نوح، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به.

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً ﷺ في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَزُّلٍ تُعَرِّفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]، فقوله تعالى: ﴿تُعَرِّفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الآية. يدل دلالة واضحة، على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات.

وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ...﴾ الآية [فصلت: ٢٦]. وقوله تعالى في الزخرف: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٨) [الزخرف]، وقوله تعالى في قد أفلح المؤمنون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٩) [المؤمنون]. وقوله تعالى في القتال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْنَاقَهُمْ﴾ (٨٠) [محمد]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوْنَهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨١) [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ عَائِشَةُ اللَّهُ تَنْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُعْرِ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨٢) [الحجرات]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ عَائِشَةُ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨٣) [القمان]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي عَادَاتِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ الآية [فصلت: ٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

واعلم: أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتُورَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ بَصَرِيَّتٍ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٢٨) [محمد].

فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر كل الحذر، من أن يقول للذين كفروا، الذين يكرهون ما أنزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر؛ لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله في الآيات المذكورة، ويكفيه زجراً وردعاً عن ذلك قول ربه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتْهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾؛ إلى قوله: ﴿فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾. الاجتناء في اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء، وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه.

وقد بين في مواضع آخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾؛ إلى قوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢].

وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه]. وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّا إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ إلى قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِيهِ اجْتَبَاهُ﴾... الآية [النحل: ١٢٠ - ١٢١]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾؛ أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله؛ أي يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾.

تقدمت الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى ﴿وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أُنَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبساً بالحق الذي هو ضد الباطل، وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾؛ اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية.

وقد أوضحنا في سورة الحج، أن المفرد الذي هو اسم جنس يطلق مراداً به الجمع، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾؛ يعني أن الله - جلّ وعلا - هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف.

وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة.

وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه؛ لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ﴾ [الرحمن].

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم -: أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين. وأن الميزان في سورة الرحمن، هو الميزان المعروف؛ أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات.

ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى، وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه، وقال في سورة الشورى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾. وقال في الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأما في سورة الرحمن، فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۚ﴾ [الرحمن]، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة، وذلك في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ﴾ [الرحمن]؛ لأن الميزان الذي نهوا عن إفساده هو أخو المكيال، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨١]، ﴿وَرَبُّهُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَيَلِّ اللِّمُطَفِّينَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨١]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٨١]، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٢]، وقال تعالى عن نبيه شعيب: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ [هود: ٨٤]. وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿فَدَّ بَاءَ نَكَمٍ بِكِتَابٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الَّذِي كَفَرْتُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الَّذِي كَفَرْتُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فإن قيل: قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى وسورة الحديد، هو العدل والإنصاف، وأن المراد بالميزان في سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية، وعلى هذا الذي اخترتم يشكل الفرق بين الكتاب والميزان؛ لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف، فالجواب من وجهين:

الأول منهما: هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفيتين

مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ سُبُوحًا ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝﴾ [الأعلى]، فالموصوف واحد والصفات مختلفة، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات. ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

إلى الملك القمر وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

وأما الوجه الثاني: فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمته الله في إعلام الموقعين، من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان.

وبإيضاح ذلك: أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية.

وأما الميزان: فيصدق بالعدل والإنصاف الذي لم يصرح به في الكتب السماوية،

ولكنه معلوم مما صرح به فيها.

فالتأفيف في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنَّا أُنْزِلَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عليه بالنهي على التأفيف من الميزان، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسله.

وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْقَ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، من الكتاب الذي أنزله الله؛ لأنه مصرح به فيه.

وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، من الكتاب.

وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه، المعروف من ذلك من الميزان، الذي أنزله الله مع رسله.

وجلد القاذف الذكر، للمحصنة الأنثى، ثمانين جلدة ورد شهادته، والحكم بفسقه المنصوص في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَلَا تَحْلِلُوهُنَّ لَمَّا زُنَّيْنَ جَلْدًا﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ الآية [النور: ٤]، من الكتاب الذي أنزله الله.

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة في القرآن من الميزان المذكور.

وحلية المرأة التي كانت مبتوتة، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، أي فإن طلقها الزوج الثاني، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما؛ أي لا جناح على المرأة التي كانت مبتوتة والزوج الذي كانت حراماً عليه، أن يتراجعا بعد نكاح الثاني وطلاقه لها، من الكتاب الذي أنزل الله.

وأما إن مات الزوج الثاني بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها، فحلتها للأول الذي كانت حراماً عليه، من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وقد أشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور، وأكثرنا من الأمثلة لذلك في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَءَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الآية [النحل: ١]. وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وفي سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ الآية [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة يستعجلون بها؛ أي يطلبون تعجيلها عليهم؛ لشدة إنكارهم لها.

والثانية: أن المؤمنين مشفقون منها، أي خائفون منها.

والثالثة: أنهم يعلمون أنها الحق، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه.

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

وأما المسألة الثانية، التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة، فقد ذكره في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [٤١] [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [٧] [الإنسان].

وأما المسألة الثالثة: وهي علمهم أن الساعة حق، فقد دلت عليه الآيات المصراحة بأنها لا ريب فيها؛ لأنها تتضمن نفي الريب فيها عن المؤمنين.

والريب: الشك، كقوله تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿رَبِّمَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ إِلَى يَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرِ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ لَمُتُّ وَأَنْتُمْ حَيُّ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝١٩﴾ [الحج]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُمَارُونَ﴾؛ مضارع ماري يماري وراء ومماراة؛ إذا خاصم وجادل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ [الكهف: ٢٢]. وقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي بعيد عن الحق والصواب.

وقد قدّمنا معاني الضلال في القرآن واللغة العربية، مع الشواهد في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢١﴾ [الشعراء]، وفي مواضع أخرى من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. قد بيّنا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩]. أن جميع الرسل - عليهم الصلوات والسلام - لا يأخذون أجراً على التبليغ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين تلك الآيات، وآية الشورى هذه فقلنا فيه: اعلم أولاً أن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره، أن معنى الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان ﷺ له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكل أحد؛ لأن كل أحد يوده أهل قرابته ويتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجراً على التبليغ لأنه لم يؤمن.

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتابائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير، وعليه فلا إشكال.

الثاني: أن معنى الآية ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي

واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضاً؛ لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأخرى قرابة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي الحديث: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» والأحاديث في مثل هذا كثيرة جداً.

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال.

فمعناه على القول الأول: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لكن أذكركم قرابتي فيكم.

وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم.

القول الثالث: وبه قال الحسن: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال؛ لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ.

القول الرابع: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، أي إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم. ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم، وعليه أيضاً فلا إشكال؛ لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ منسوخ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبا: ٤٧]، فهو ضعيف، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية.

مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ إلا أن تودوني في أهل قرابتي.

وممن ظن ذلك محمد السجاد حيث قال لقاتله يوم الجمل: أذكرك حم؛ يعني سورة الشورى هذه، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله ﷺ فيلزم حفظه فيهم؛ لأن الله تعالى قال في حم هذه: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ فهو يريد المعنى المذكور، يظنه هو المراد بالآية؛ ولذا قال قاتله في ذلك:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهل لا تلا حاميم قبل التقدم

وقد ذكرنا هذا البيت والآيات التي قبله في أول سورة هود، وذكرنا أن البخاري ذكر البيت المذكور في سورة المؤمن، وذكرنا الخلاف في قائل الآيات الذي قتل محمداً السجاد بن طلحة بن عبيد الله يوم الجمل، هل هو شريح بن أبي أوفى العبسي

كما قال البخاري، أو الأشتر النخعي، أو عصام بن مقشعر، أو مدلج بن كعب السعدي، أو كعب بن مدلج.

وممن ظن أن معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور: الكمية في قوله في أهل قرابة رسول الله ﷺ:

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقى ومعرب

والتحقيق - إن شاء الله - أن معنى الآية هو القول الأول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما هو شأن أهل القربات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾. الاقتراف معناه الاكتساب، أي من يعمل حسنة من الحسنات، ويكتسبها نزيد له فيها حسناً، أي نضاعفها له.

فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسننها، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً فَيُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْثَالًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، فكونه خيراً وأعظم أجراً زيادة في حسنه كما لا يخفى، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْمَلُ عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾. يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات. وقد جاء ذلك موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿يَتَابَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمُرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما في أركانها من الإشكال، في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ بَقْدَرٍ مَّا بَنَاءً﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه ينزل ما يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر، أي بمقدار معلوم عنده - جلّ وعلا -، وهو - جلّ وعلا - أعلم بالحكمة والمصلحة في مقدار كل ما ينزله. وقد أوضح هذا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [٣٣]. قوله: ومن آياته؛ أي من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة وحده، الجواري وهي السفن واحدها جارية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ الْفُلُوفُ﴾ [الحاقة: ١١]، يعني سفينة نوح؛ وسميت جارية لأنها تجري في البحر.

وقوله: ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾؛ أي كالجبال، شبه السفن بالجبال لعظمتها.

وعن مجاهد: أن الأعلام القصور، وعن الخليل: أن كل مرتفع تسميه العرب علماً، وجمع العلم أعلام.

وهذا الذي ذكره الخليل معروف في اللغة، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخرأ:

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن في البحر من آياته تعالى الدالة على كمال قدرته، جاء موضعاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [٨١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [٨٢] وَإِنْ شَأْنًا يُفْقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ [٨٣] إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ [٨٤] [يسر]. وقوله تعالى: ﴿فَأُجِثَّتْهُ وَأَصْحَابُ السَّيْفِ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنسَانِ فِي الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِجَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤]. وقوله في فاطر: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِجَ لِّتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ١٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو: «الجواري» بياء ساكنة بعد الراء في الوصل فقط، دون الوقف. وقرأه ابن كثير بالياء المذكور في الوصل والوقف معاً، وقرأه الباقون: «الجوار» بحذف الياء في الوصل والوقف معاً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾. قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي (كبير الإثم)، بكسر الباء بعدها ياء ساكنة وراء على صيغة الإفراد.

وقرأه الباقون بفتح الباء بعدها ألف فهزمة مكسورة قبل الراء على صيغة الجمع.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾: في محل جر عطفاً على قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَيْبٍ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي وخير وأبقى أيضاً للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.

والفواحش جمع فاحشة. والتحقيق - إن شاء الله - أن الفواحش من جملة الكبائر.

والأظهر أنها من أشنعها؛ لأن الفاحشة في اللغة: وهي الخصلة المتناهية في القبح، وكل متشدد في شيء مبالغ فيه فهو فاحش فيه.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله: الفاحش؛ أي المبالغ في البخل المتناهي فيه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبين تعالى في سورة النساء، أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء]، وبين في سورة النجم، أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش، يصدق عليهم اسم المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسن.

والأظهر أنها الجنة، ويدل له حديث «الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، كما قدمناه.

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَيَمْزِيَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنِ﴾ [النجم: ٣١]، ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَعْرِفَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وأظهر الأقوال في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾، أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١]. فدللت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن.

ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصحيح: قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ منقطع؛ لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش، وقد قدمنا تحقيق المقام في الاستثناء المنقطع. في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقَوْا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقالت جماعة من أهل العلم: الاستثناء متصل، قالوا: وعليه، فمعنى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا أن يلزم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك.

واستدلوا لذلك بقول الراجز:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذي وغيرهما مرفوعاً. وفي صحته مرفوعاً نظراً.

وقال بعض العلماء. المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي قبل الدخول في الإسلام. ولا يخفى بعده.

وأظهر الأقوال هو ما قدّمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه، وحديث ابن عباس المتفق عليه.

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهلكات لعظمها، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة: «أنها الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي ﷺ في تعيين بعض الكبائر: «كعقوق الوالدين، واستحلال حرمة بيت الله الحرام، والرجوع إلى البادية بعد الهجرة، وشرب الخمر، واليمين الغموس، والسرقة، ومنع فضل الماء، ومنع فضل الكلاء، وشهادة الزور».

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود: «أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذي خلق الخلق، ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه، ثم زناه بحليلة جاره». وفي بعضها أيضاً: «أن من الكبائر تسبب الرجل في سبّ والديه»، وفي بعضها أيضاً: «أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وذلك يدل على أنهما من الكبائر.

وفي بعض الروايات: «أن من الكبائر الوقوع في عرض المسلم، والسبتين بالسبة».

وفي بعض الروايات: «أن منها جمع الصلاتين من غير عذر».

وفي بعضها: «أن منها البأس من روح الله، والأمن من مكر الله» ويدل عليهما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وفي بعضها: «أن منها سوء الظن بالله»؛ ويدل له قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ظَالِمَاتِ اللَّهِ طَرَفَ لُتَّى أَلَسُوهُنَّ عَلِيمَاتٌ مَا لَهُنَّ الْسُوءُ عَظِيمٌ وَاللَّهُ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح]، وفي بعضها: «أن منها الإضرار في الوصية».

وفي بعضها أن منها الغلول، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. وقدّمنا معنى الغلول في سورة الأنفال، وذكرنا حكم الغال.

وفي بعضها: «أن من أهل الكبائر الذي يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً». ويدل له قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧]، ولم نذكر أسانيد هذه

الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة، من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ. واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة.

فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله، وقال بعضهم: هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب، واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين.

وعن ابن عباس: أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع، وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعائة منها إلى سبع.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق أنها لا تنحصر في سبع، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضي انحصارها في ذلك العدد؛ لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم، وهو مفهوم لقب، والحق عدم اعتباره.

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً؛ لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق.

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع، والمنطوق مقدم على المفهوم، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم.

والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية؛ سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده.

مع أن بعض أهل العلم قال: إن كل ذنب كبيرة. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾... الآية [النساء: ٣١]. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٢٢]، يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر، وبعضها صفائر، والمعروف عند أهل العلم: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ عَاقِبَتُ قَوْمٍ مِثْلُ مَا عُوِقِبَتْ بِهِ﴾ الآية [النحل: ١٢٦]. وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۝﴾ الآية [الزمر: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْصَرَ بَدَ ظَلَمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، وفي الآية النحل، وآية الزمر، المذكورتين آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الْفَٰلِغِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. قد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية [النحل: ٢].

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن شَاءَ مِن عِبَادِنَا﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؛ يبين الله - جلّ وعلا - فيه مِثْته على هذا النبي الكريم، بأن علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك.

قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾: أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، حتى علمته، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمته.

ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد.

وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها: حديث وفد عبد القيس المشهور، ومنها حديث: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً» الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وفي بعض رواياته: «بضع وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق».

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة، ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في شعب الإيمان، فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان، وما يجوز فيها وما لا يجوز، ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب الله، جاء في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾... الآية [النساء: ١١٣]. وقوله - جلّ وعلا -: ﴿تَحْنُ نَفْسٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فقوله في آية يوسف هذه: ﴿وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. كقوله هنا: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. على أصح التفسيرات، كما قدّمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الْغَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن شَاءَ﴾؛ الضمير في قوله: «جعلناه» راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. وقوله:

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾؛ أي ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

وسمى القرآن نوراً؛ لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك.
وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى:
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].
وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].
وقوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً؛ يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل، ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقيح.

فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويمثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله.
والسنة كلها داخله في العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ قَدُورًا وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَتَوْهُ﴾ [الحشر: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الصراط المستقيم، قد بينه تعالى في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾... الآية، قد بينا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَتَمَوَّدُ فَعَدَيْتَهُمْ﴾ الآية [فصلت: ١٧]، وبيننا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير.

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله؛ أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ رُجْعُ الْأُمُورِ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].
وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [١٦] كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٠٩، ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا... الآية.

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود.

وقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْنَذِيرِينَ ۝١٤٥﴾ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝١٤٦﴾ [الشعراء]، وفي سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ الآية [الزمر: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾، الضمير في قوله «منهم» عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: ﴿أَفَضَّرَبْتُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وقوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾؛ مفعول به لأهلكنا، وأصله نعت لمحذوف، والتقدير: فأهلكنا قوماً أشد منهم بَطْشًا، على حد قوله في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِلَ يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقوله «بَطْشًا»: تمييز محول من الفاعل على حد قوله في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصب بـأَفْعَلًا مفضلاً كانت أعلا منزلاً

والبطش: أصله الأخذ بعنف وشدة.

والمعنى: فأهلكنا قوماً أشد بَطْشًا من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تكذيبهم رسلهم، فليحذر الكفار الذين كذبوك أن يهلكهم بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بَطْشًا؛ أي أكثر منهم عَدَدًا وَعُدْدًا وَجَلْدًا.

فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي صفتهم التي هي إهلاكهم المستأصل، بسبب تكذيبهم الرسل.

وقول من قال: ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي عقوبتهم وستهم راجع في المعنى إلى ذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا... الآية [الروم: ٩].
 وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا فِي الْأَرْضِ... الآية [غافر: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَّكَوْا وَرَأَيْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَازًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَدْوَاهِهِمْ... الآية [الأنعام: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعِشَارَ مَا نَبَيِّنُهُمْ فَاذْكُرُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥٥﴾ [سبا]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٥٦﴾ [فاطر].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً ﷺ، بصفة إهلاكهم وسنته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا فُجُورًا ﴿٨١﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْ إِنْشَاءُ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلْ إِنْشَاءُ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٨٢﴾ [فاطر].
 وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثُمْ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَفْعَلُهُمْ إِنِّي لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا مُنْتُ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الكهف: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الزخرف].

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ... الآية [المائدة: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩١﴾. وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٩٢﴾. قرأ هذا الحرف، عاصم وحمره والكسائي ﴿مَهْدًا﴾؛ بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة ﴿مِهْدًا﴾؛ بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف، ومعناها واحد وهو الفراش.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه جعل الأرض لبني آدم مهدياً أي فراشاً، وأنه جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل

الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق لينفذوا من قطر إلى قطر، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١١ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝١٢﴾ [نوح]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء].

وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرْشَتَهَا فَنِعَمَ الْمَبْدُودُ ۝١٤﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۝١٥﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝١٦﴾ [غافر: ٦٤].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٧﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٨﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت، في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٨﴾؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدّمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۝١٥﴾ [البقرة: ٢٢]، مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٩﴾ [النحل]، وفي غير ذلك من المواضع، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك.

وقد قدّمنا في سورة الفرقان، معنى الإنشاء والنشور، وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة. ﴿بِقَدَرٍ﴾. قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء. وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَهُمْ فِي الْبُحْرَيْنِ﴾ [الحجر: ٢١ - ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۝٢٢﴾. والأزواج: الأصناف، والزوج تطلقه العرب على الصنف.

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٣﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِمَّنْ نَبَاتِ شَيْءٍ ۝٢٤﴾ [طه: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَخْرَجَتْ وَرِيَّتٌ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلْسَمَاءٍ مَاءً فَأَبْيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].
ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَوْجُحٌ﴾ [ص: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وقد قدّمنا طرفاً من ذلك في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَخْرَجُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ الآية [غافر: ٧٩]. وضمير المفرد المذكر الغائب في قوله: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، وقوله: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ راجع إلى لفظ «ما» في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ﴾... يعني - جلّ وعلا - أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ليستولوا أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره، ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ﴾.

وقوله: «سبحان» قد قدّمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه بياضاح، وأنه يدل على تنزيه الله - جلّ وعلا - أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. والإشارة في قوله ﴿هَذَا﴾ راجعة إلى لفظ «ما» من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وجمع الظهور نظراً إلى معنى «ما»؛ لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها.

وقوله: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾؛ أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن؛ لأن الأنعام لو لم يذلّها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذله ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ﴾؛ أي مطيقين. والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفواً للقيام به، من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في جبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها فتجرها؛ لأن الضعيف إذا لزم في القرن، أي الجبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير:

وابن السبيون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
وهذا المعنى: معروف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن معد يكرّب وقد أنشدّه
قطرب لهذا المعنى:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنين
وقول ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر
وقول الآخر:

ركبت صعبتي أشراً وحيفاً ولستم للصعاب بمقرنين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذللّه الله لما أقرونا له ولما أطاقوه جاء مبيناً في آيات أخر. قال تعالى في ركوب الفلك: ﴿وَمَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوا فِي الْفُلِ وَالْأَرْضِ سَخَرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ الآية [النحل: ١٤]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَسْغُرَ فِيهِ الْفُلُ الْجَانِبِ﴾ الآية [الحج: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَحْكُمُونَ فِي الْبَحْرِ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية [الحج: ٦٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَجَعْتَ جُوفُهَا فُكَلَتْ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [ن: ١٦]. لَنْ يَبَالُ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِنَالِهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهَا مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾. قال بعض العلماء: ﴿جُزْءاً﴾ أي عدلاً ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله، وقال بعض العلماء: ﴿جُزْءاً﴾ أي ولدأ، وقال بعض العلماء: ﴿جُزْءاً﴾ يعني الينات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الجزء النصيب، واستشهد على ذلك بآية الأنعام. أعني قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. الآية.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا ككلامه غير صواب في الآية؛ لأن المَجْعُولَ لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث

والأنعام، والمجعول له في آية الزخرف هذه، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام. وبين الأمرين فرق واضح كما ترى.

وأنّ قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً؛ لأنّ إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب.

أما كون المراد بالجزء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية. وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين:

أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات، ويقولون: أجزأت المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا: ومنه قول الشاعر:

إنّ ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكر أحياناً
وقول الآخر:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج التلذذ في أبياتها زجل
وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب.

قال في الكشف في الكلام على هذه الآية الكريمة: ومن يدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً.

إنّ ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة
وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾. قال أبو إسحاق: يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افترؤا، قال: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع؟

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب

والمعنى في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾؛ أي جعلوا نصيب الله من الولد الإناث، قال: ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزأت المرأة: ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة

انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان، وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم: أجزأت المرأة؛ إذا ولدت الإناث معروف؛ ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له.

والوجه الثاني: وهو التحقيق - إن شاء الله -؛ أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء؛ لأن الفرع كأنه جزء من أصله، والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة؛ لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريباً شديداً في قوله تعالى بعده ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً. إلى قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾.

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم: ﴿جُرْءَاءُ﴾ بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦). «أم» هنا بمعنى استفهام الإنكار، فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات الله، أنكر الله عليهم أشد الإنكار، موبخاً لهم أشد التوبيخ، حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى، كما قال هنا: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾؛ وهي النصيب الأدنى من الأولاد، وأصفاكم أنتم، أي خصكم وآترككم بالبنيين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد.

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾؛ يعني الأنثى، كما أوضحه بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) [النحل]، يعني: فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً؛ يعني من الكآبة وهو كظيم؛ أي ممتلئ حزناً وغماً، وكقوله تعالى هنا: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْجَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ (١٧)؛ ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افتراءهم عليه - جلّ وعلا - الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي، ينشأ في الحلية من الحلي والحلل وأنواع الزينة، من صغره إلى كبره ليَجبر بتلك الزينة نقصه الخلقي الطبيعي، وهو في الخصام غير مبين؛ لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٧٧) [النحل]. وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَنَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً﴾ (٥٨) [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (١٦) [النحل]. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْفَيْنَهُمْ رَبُّكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمْ الْأَبْنُوتُ﴾ (١٦) [النحل]. أم خلقنا الملائكة إنثاً وهم شهدوت (١٥) آلا إنهم من إفكهم ليقولوت (١٦)

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ لَقَلَّأ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنَّا يُكَذِّبُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ [الصفافات].

وقد قدّمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [النحل].

وجه التعبير عن الأثني بما ضرب مثلاً لله في قوله: ﴿وَإِذَا يُنْزَرُ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا...﴾ الآية، ظاهر؛ لأن البنات المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه؛ لأن الوالد والولد من جنس واحد، وكلاهما يشبه الآخر في صفاته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾؛ بسكون النون وفتح الدال ظرف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ [الأعراف: ٢٠٦]، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ﴿الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ﴾ بكسر العين وباء موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؛ قرأه عامة السبعة غير نافع «أشهدوا» بهمزة واحدة مع فتح الشين، وقرأه نافع «أشهد»: بهمزتين الأولى مفتوحة محققة، والثانية مضمومة مسهلة بين بين، وقالون: يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افترضوا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ يعني هل حضروا خلق الله لهم فعابنوهم إناثاً.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِثِيكُمْ بِالْبَنِينَ وَآخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيماً﴾ [الإسراء: ٣٢]. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ نِسَاءً الْأَثْنُ﴾ [٣٧]... الآية [النجم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْبِكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُشُورُ﴾ [٣٨] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا... الآية [الصفافات: ١٤٩، ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتفريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا أنهم خلقوا إناثاً، فقد ذكرها في قوله تعالى:

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الصفات]؛ وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحِطَابَيْنِ ﴿١٥﴾ كِرَامًا كَتِيبَيْنِ ﴿١٦﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن رُّسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمَكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُفِخَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣، ١٤]. وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

وأما المسألة الرابعة وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَّنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِفَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّمْ لِّدُكْرِكَ وَلَقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُ لَنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، وهو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِئِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ١٣].

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل. وأما آية الأنعام فهي قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما في آية النحل، فهي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ ... الآية [النحل: ٣٥].

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

فاعلم أن وجه الإشكال أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: ﴿يَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي يكذبون، وقال في آية الأنعام: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُّوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال في آية النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُسِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾؛ وقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم.

قالوا: لأنه لو لم يكن راضياً به، لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به، والله - جلّ وعلا - يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدريّة، تستلزم الرضا وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه في الآيات المذكورة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية الزخرف: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ يَوْمَ يُسْمَكُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراباً يبطال مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرِ﴾ أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿وَرِثْنَا عَلَىٰ مَا تَرَكِهِمْ فَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب؛ لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال. فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً - إن شاء الله -.

وقال تعالى في آية النحل، بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولاً، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت، أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه.

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة؛ أي ثبت عليه الكفر والشقاء.

- وقال تعالى في آية الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٤).
- [الأنعام]، فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة؛ لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل.

وحاصل هذا أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأيدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك.

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء، فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين، ولا مهوورين ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٤) [الأنعام].

وقد رد الشيخ مذهب الجبرية عند هذه الآية فليرجع من أراد الوقوف عليه للأصل.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كَتَبًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُ بِهِ يُسْتَمْسَكُونَ﴾ (٦٦). «أم» هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار؛ يعني - جلّ وعلا - أن هذا الذي يزعم الكفار من أنهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم الملائكة بنات الله، لا دليل لهم عليه، ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب المذكور، مع التوبيخ والتقريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله، ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ ... الآية [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرَوْا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١) [الأحقاف].

وقوله تعالى في الروم: ﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُونَهُ﴾ (٢٥) [الروم].

وقوله تعالى في الصافات: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ (٥٦) فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٥٧) [الصافات].

وقوله تعالى في النمل: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقوله تعالى في الحج ولقمان: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣] قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ. .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ﴾ . . . الآية [المؤمنون: ٤٤].

وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾، قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي وشعبة عن عاصم: «قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر.

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ﴾؛ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بأبائكم في الكفر والضلال، ولو جئتمكم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن آباءهم لا شيء عندهم من الهداية أصلاً.

وعلى قراءة ابن عامر وحفص، فالمعنى قال هو: أي رسول الله ﷺ.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَأْتِ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئاً وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وكقوله تعالى في المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَأْتِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المائدة: ١٧٢].

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مِائَاتًا أَوَّلَوْ كُنَّا الشَّيْطَانُ بِدْعُوهُمْ إِنْ عَذَابُ السَّعِيرِ ﴿٦١﴾ [لقمان]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ الْقَوَّاءُ بَاءٌ مَرَّ صَالِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ فَمَنْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَرْشُدُونَ ﴿٦٣﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ [الأنبياء]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ [الشعراء]. وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [الأنعام].

وزاد - جلّ وعلا - في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْغَدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ سَيَهْدِينِ﴾؛ ذكر نحوه في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٩٩﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَّ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي؛ أي خلقتني، يدل على أنه لا يستحق العبادة، إلا الخالق وحده - جلّ وعلا -.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ ﴿١٨٨﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْفَلَقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ الآية [النحل: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُحِمَتْ قَدِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) بَلْ مَنَعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقَّقَ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

الضمير المنصوب في «جعلها» على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله: ﴿إِنِّي بَرَكَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٣١) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي؛ لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِنِّي بَرَكَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

ومعنى الإثبات منها هو أفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على السنة رسله. وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُمْ سَيُهَيِّدُونَ﴾ (٣٢). وضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم، وهو ظاهر السياق. وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.

فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه؛ أي ولده وولد ولده. وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين:

أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ... الآية [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وثانيهما: هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنَبِّئُ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة، وقوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. وقوله عنه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله عنه هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً ﷺ؛ ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم».

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾... الآية [الحديد: ٢٦].

وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال.

وقد بين تعالى في آية الزخرف هذه؛ أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه؛ لأن كفار مكة الذين كذبوا بنينا ﷺ من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه ﷺ وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد ﷺ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾.

وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي الظالمين من ذرية إبراهيم. وقوله تعالى في الصافات: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الصافات].

فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك. وقوله تعالى في النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ [النساء].

وقد بين تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الحديد]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق ما دام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم؛ لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضلال.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، أي قال لهم، يتوبون عن عبادة غير الله، اه منه.

وإيضاح كلامه أن المعنى أن إبراهيم قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ على هذا راجع إلى أبيه وقومه. وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه؛ لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب، فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه، وهذا القول هو ظاهر السياق، والعلم عند الله تعالى. وهناك مسائل تتعلق بدخول أبناء البنات في العقب يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّتَسْخِذَ بِهِمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحَّمَتْ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۚ﴾. وقالوا: أي قال كفار مكة، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين، أي من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف، عظيم يعنون بعظمه كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي ﷺ، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وعظيم الطائف: هو عروة بن مسعود. وقيل: حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين.

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجباً لاستحقاق النبوة؛ وتنزيل الوحي؛ ولذا زعموا أن محمداً ﷺ ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه، لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك: النبوة وإنزال الوحي.

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۖ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾... الآية [الدخان: ٥، ٦]، وقوله في آخر القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾... الآية [القصص: ٨٦]، وقوله في آخر الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد قدمنا الآيات الدالة، على إطلاق الرحمة والعلم على النبوة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقدّمنا معاني إطلاق الرحمة في القرآن في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْجَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾... الآية [فاطر: ٢].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معيشتهم وحظوظهم في الدنيا، بل تولى هو - جلّ وعلا - قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا رفيعاً، وهذا وضيعاً، وهذا خادماً، وهذا مخدوماً، ونحو ذلك.

فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها. بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ التحقيق - إن شاء الله - أنه من التسخير.

ومعنى تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته - جلّ وعلا -، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فيستفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتتظم المعيشة لكل منهما، وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها الله - جلّ وعلا - في هذه السورة الكريمة، جاءت كلها موضحة في آيات آخر من كتاب الله.

أما زعمهم أن محمداً ﷺ أنقص شرفاً وقدرًا من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره الله عنهم في سورة (ص)، في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾... الآية [ص: ٨].

فقول كفار مكة: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، معناه إنكارهم أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم.

وقد قال قوم صالح مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ﴾ [القم: ٢٥].

فقلوب الكفار متشابهة؛ فكانت أعمالهم متشابهة.

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٩].

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تعالى في المدثر: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥١]. أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قاله مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن، وفي الآية قول آخر معروف.

وأما إنكاره تعالى عليهم اقتراح إنزال الوحي على غير محمد ﷺ الذي دلت عليه

همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ إِذَا كَانَتْ عَظِيمًا﴾، فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ وَتُؤْتِكُنَا آيَةً﴾ أتبع ذلك بقوله رداً عليهم، وإنكاراً لمقالته: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ثم أوعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق، والحفظ والقوة والضعف، ونحو ذلك، بقوله هنا: ﴿لَسَنَخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، كما تقدم.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ يعني أن النبوة، والاهتداء بهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى، في غير هذا الموضع، كقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]. وقد أشار الشيخ إلى بعض ما يتعلق بالآية فليرجع من أراد الوقوف عليه إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [١٣٣] وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ [١٣٤] وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٥]، قوله «لبُيُوتِهِمْ»، في الموضعين، قرأه ورش، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، بضم الباء على الأصل.

وقرأه قالون عن نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم «لبُيُوتِهِمْ» بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء.

وقوله «سُقْفًا»: قرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، «سُقْفًا» بضمين على الجمع.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو «سُقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: قرأه نافع وابن كثير، وابن عامر،

في رواية ابن ذكوان، وإحدى الروایتين عن هشام وأبو عمرو والكسائي: «لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» بتخفيف الميم من «لما».

وقراه عاصم، وحزمة، وهشام، عن ابن عامر، في إحدى الروایتين: «لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا»؛ بتشديد الميم من «لما».

ومعنى الآية الكريمة أن الله لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: «وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ». أتبع ذلك بيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة بين المؤمنين والكافرين، وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين، دون الكافرين، وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر، في نعيم الدنيا بقوله: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً»؛ أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وجبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين - جلّ وعلا - اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: «وَأَنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»؛ أي خالصة لهم دون غيرهم.

وهذا المعنى جاء - موضحاً في غير هذا الموضع - كقوله تعالى في الأعراف: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [الأعراف: ٣٢].

فقوله: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا»، أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة؛ أي خاصة بهم، دون الكفار، يوم القيامة، إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية الأعراف هذه: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا» [الأعراف: ٣٢] صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا.

وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف الامتناع، للوجود الذي هو «لولا»، في قوله هنا: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

وخصوص طيبات الآخرة بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله: «خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [الأعراف: ٣٢]، هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله: «وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»، وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ «المتقين»؛ لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى

عَذَابِ النَّارِ» [البقرة: ١٢٦]. وقوله: ﴿نَمَتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِعَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۖ﴾ [يونس: ٦٦] مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ﴾ [يونس: ٦٧]. والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى: ﴿قَدْ رَفِيَ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبَرِ سَنَسْتَدْرِجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَأَنْتَ لَهُمْ إِدَّ كِيدِي مَبِينٌ ۖ﴾ [القلم]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۖ﴾ [فلقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ٦٥] [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۖ﴾ [مریم: ٧٥]، على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تَمْلِكُ لَهُمْ حَيْرٌ لَا أَنْفُسَهُمْ إِنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ يَرْدَادُوا إِنَّهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۖ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الحج: ٤٤].

ودعوى الكفار أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة، قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّآ نُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ﴾ [سأرجع لهم في الخيرة بل لا يشعرون ٥١] [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾ [المسد]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۖ﴾ [الليل]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتُمْ ذُرِّيَّاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لَآجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة، فقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي صيرنا، وقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾، بدل اشتغال مع إعادة العامل، من قوله: ﴿لِمَنْ يَكْفُرْ﴾، وعلى قراءة «سُقفاً» بضميتين، فهو جمع سقف، وسقف البيت معروف. وعلى قراءة سقفاً بفتح السين، وسكون القاف فهو مفرد أريد به الجمع.

وقد قدمنا في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، أن المفرد إذا كان اسم جنس، يجوز إطلاقه مراداً به الجمع، وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن، ومن الشواهد العربية على ذلك.

وقوله ﴿وَمَعَارِجَ﴾ الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء، والمعرج والمعراج بمعنى واحد؛ وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها إلى العلو.

وقوله: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي يصعدون ويرتفعون، حتى يصيروا على ظهور البيوت، ومن ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبَأْ﴾ [الكهف]. والسرر جمع سرير، والاتكاء معروف، والأبواب جمع باب وهو معروف، والزخرف الذهب.

قال الزمخشري: إن المعارج التي هي المصاعد، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك، وعلى هذا المعنى فقوله: «زخرفاً» مفعول، عامله محذوف، والتقدير: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً.

وقال بعض العلماء: إن جميع ذلك بعضه من فضة، وبعضه من زخرف، أي ذهب. وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله: «وزخرفاً» على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنى من فضة، ومن زخرف، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً. وأكثر علماء النحو على أن النصب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه.

وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله: وإن حذف فالنصب للمنجر نقلاً. إلخ. وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير، يرى إطراده في كل شيء أمن فيه اللبس. كما أشار في الكافية بقوله:

وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما، فإن هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة:

وخففت إن فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل
وما مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحزمة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام «لما» بتشديد الميم فإن نافية، ولما حرف إثبات بمعنى إلا. والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وذكر بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق]، لغة بني هذيل ابن مدركة. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٦] وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ [٣٧] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَسْرِ قَرِينٌ فَيَسْأَلُ الْقَرِينُ [٣٨].

وقد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْءَانَهُ﴾... الآية [فصلت: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩)، قد قَدَّمنا الكلام عليه في الصفات، في الكلام على قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصفات: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠). قد قَدَّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْأَعْمَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤١).

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم، ويبين له أنه على صراط مستقيم؛ أي طريق واضح، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم الذي أوحى إليه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، قد جاء موضحاً في آيات آخر، من كتاب الله.

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم، فقد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَقُلِّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

وأما إخباره ﷺ بأنه على صراط مستقيم، فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨) [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥١) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُن فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي لَتَدْعُهُمَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) وَلَئِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ ﴿٧٦﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاْدَعٌ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُذًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٨) [النمل] إلى غير ذلك من الآيات.

وآية الزخرف هذه تدل على أن المتمسك بهذا القرآن على هدى من الله، وهذا معلوم بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥)، ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٤٥) [الأنبياء]، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوِّمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوِّمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ... الآية [الأعراف: ٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. قد قدّمنا الكلام على قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف، وسورة طه.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لم يبين هنا نوع العذاب الذي أخذهم به، ولكنه أوضحه في الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٣]، فَرَأْسُنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَاللِّمَّ أَيْنِ مَفْصَلَتِ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّينِ وَقَطَعْنَا مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُ السَّاحِرُ آدَمَ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ [١٣١]، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ [١٣٢]، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أوضحه في الأعراف، بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنْ الرِّجْزِ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [١٣٣]، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ يَبْلُغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ [١٣٤] [الأعراف].

والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه.

قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ بَيْنُيْ﴾، قد تقدم الكلام عليه في طه، في الكلام على قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [٥٢]، قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ الآية [الفرقان: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنَا أَنْتَفَعْنَا مِنْهُمْ﴾، «أسفونا» معناه أغضبونا، وأسخطونا، وكون المراد بالأسف الغضب، يدل عليه إطلاق الأسف على أشد الغضب في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] على أصحاب التفسيرين.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [٥١]، قد قدّمنا الكلام عليه في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧]، وَقَالُوا ءِإِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [٥٨].

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي (يَصْدُونَ) بضم الصاد.
 وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة (يَصِيدُونَ) بكسر الصاد.
 فعلى قراءة الكسر فمعنى «يصدون» يضحجون ويصيحون، وقيل يضحكون، وقيل
 معنى القراءتين واحد. كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون.
 وعلى قراءة الضم فهو من الصدود.
 والفاعل المحذوف في قوله: ﴿ضَرَبَ﴾. قال جمهور المفسرين: هو عبد الله بن
 الزبعرى السهمي قبل إسلامه.

أي ولما ضرب ابن الزبعرى المذكور عيسى ابن مريم مثلاً فاجأك قومك بالضجيج
 والصياح والضحك، فرحاً منهم وزعماً منهم أن ابن الزبعرى خصمك، أو فاجأك
 صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل.

والظاهر أن لفظة «من» هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني
 من السببية، ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوهُمُ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، أي بسبب
 خطيئاتهم أغرقوا.

ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم بالله لمن ضربه مات.
 وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، أن الله لما أنزل قوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢٥]،
 قال ابن الزبعرى: إن محمداً ﷺ يقول: إن كل معبود من دون الله في النار وأنا
 وأصنامنا جميعاً في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان
 ابن مريم مع النصارى الذين عبده في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه.
 وقالوا مثل ذلك في عزيز والملائكة؛ لأن عزيزاً عبده اليهود، والملائكة عبدهم
 بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً ﷺ قاله، من أن
 كل معبود وعابده في النار، يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم، في كون الجميع
 في النار، مع أن النبي ﷺ يشي على عيسى الشاء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله
 ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبعرى أن كلام النبي ﷺ لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في
 دخول النار مع أنه ﷺ يعترف بأن عيسى رسول الله ﷺ وأنه ليس في النار، دل ذلك
 على بطلان كلامه عنده.

وعند ذلك أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَيِّثُهَا هُمْ فِي مَا اسْتَهْتُمْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل.

وقيل: «إن جدلاً» حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير، وقد أوضحنا توجيهه مراراً، والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق.

قال جماعة من العلماء: والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تذرعوها بها إلى الجدل، لا تدل البتة على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات.

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة «ما» التي هي في الوضع العربي لغير العقلاء لأنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ولم يقل «وَمَنْ» تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيزاً ولا ملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً، إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعرى يرجع إلى أمرين:

أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، أن ورقاء بن زهير، ضرب بسيف بني عبس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضربة ولم يقطع.

والشاعر يهجو بني عبس بذلك، والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله.

وثانيهما: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمثلين عليه.

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وبين صيغة الأفراد في قوله: ﴿فَنَادَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ١٩].

وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ هو عامة قريش.

والذين قالوا: إن كفار قريش لما سمعوا النبي ﷺ يذكر عيسى، وسمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقُوهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا للنبي ﷺ: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى. وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي ﷺ في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى.

وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَنَّوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبَضَ إِلَا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية [آل عمران: ٦٤]. وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي ﷺ كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا شك أن كفار قريش متيقنون، في جميع المدة التي أقامها ﷺ في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فادعائهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون في ذلك. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَهْتُمْ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟﴾ التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ راجع إلى عيسى، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى. قيل: لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى. وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم، والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وعيسى عبده النصارى من دون الله، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله، من أنا وآلهتنا في النار ليس بحق أيضاً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي لدهم مبالغون في الخصومة بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، أي شديدي الخصومة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصُ﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ لأن الفعل بفتح فكسر كخصم، من صيغ المبالغة، كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، إنما بينته الآيات التي ذكرنا بيان سببه. ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها ببيان سببها.

فعلى القول الأول، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم، في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لأنها لما نزلت قالوا: إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء، وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد ﷺ في أن عيسى قد عبد، وأنه ﷺ يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل.

وأما الآيات التي بينت قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ فبيانها له واضح على كلا القولين، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، والتحقيق أن الضمير في قوله: «هو» عائد إلى عيسى أيضاً، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

وقوله هنا: ﴿عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في المائدة، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي آل عمران، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. إلى قوله ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّامٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَازُتُ بِهِآ﴾، التحقيق أن الضمير في قوله: «وإنه» راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿لَعِلَّامٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان حياً، علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراتها الدالة على قربها.

وهناك مسائل تتعلق بنزول عيسى ﷺ آخر الزمان فليرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمَتَّرْتِ بِهَا﴾؛ أي لا تشكن في قيام الساعة؛ فإنه لا شك فيه.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]. وقوله: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْبَعْثِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] وقوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٦٦]. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾، قوله هنا: ﴿ظَلَمُوا﴾؛ أي كفروا، بدليل قوله في مريم في القصة بعينها: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وقوله: ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوضحه قوله هنا: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾.

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا بِإِيمَانِهِمْ يَظُنُّوهُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي بشرك، كما فسره به النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح البخاري.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٦٦].

الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي، وينظرون بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة، أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي في حال كونها مباغتة لهم، أي مفاجئة لهم، وهم لا يستغفرون؛ أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها.

والظاهر أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ في محل نصب، على أنه بدل اشتمال من الساعة، وكون ينظرون، بمعنى ينتظرون، معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿تَنَقَّلْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْةُ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالى في القتال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٦٨) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، فالمراد بالصيحة: القيامة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٦٨) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة، وعدم شعور بآياتها، إلى غير ذلك من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة. فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام، وذكر بعضاً منها في غير هذا الموضع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِلَّا إِنْ أَوَّلَيْتَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٠١) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٠٢) [يونس].

ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا الله، وذلك في قوله في فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾ الآية [فصلت: ٣٠]: وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢٤) [الأحقاف]، إلى غير ذلك من الآيات.

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل، والحزن: الغم من أمر ماض. وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف.

قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. قال معناه: إلا أن يعلموا، ومنه قول أبي محجن الثقفي:

فإن مت فادفني إلى جنب كرمه تروي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف: أي لا أعلم؛ لأنه لا يشك في أنه لا يشربها بعد موته.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩)، ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٥) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِيهَا عَرَبٌ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٦٦) [الذاريات].

ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل، كما ثبت في الصحيح، في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومن أصرحها في ذلك قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون». وفي بعض الروايات

الثابتة في الصحيح: «وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»، فقد سمي ﷺ «إمطة الأذى عن الطريق» إيماناً.

وقد أطال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان، في ذكر الأعمال التي جاء الكتاب والسنة بتسميتها إيماناً، فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناهما واحد.

وقد يطلق الإيمان إطلاقاً آخر على خصوص ركنه الأكبر الذي هو الإيمان بالقلب، كما في حديث جبريل الثابت في الصحيح.

والقلب مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله فغيره تابع له، وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام، فالإيمان، على هذا الإطلاق اعتقاد، والإسلام شامل للعمل.

واعلم: أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِرُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

قال بعض العلماء: المراد بالإيمان هنا، معناه الشرعي، والمراد بالإسلام معناه اللغوي؛ لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً.

وقال بعض العلماء: المراد بكل منهما معناه الشرعي، ولكن نفي الإيمان في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾، يراد به عند من قال هذا، نفي كمال الإيمان لا نفي أصله، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على هذا؛ لأن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ [الحجرات: ١٤]، فعل في سياق النفي وهو صيغة عموم على التحقيق، وإن لم يؤكد بمصدر، ووجهه واضح جداً، كما قدّمناه مراراً.

وهو أن الفعل الصناعي ينحل عن مصدر وزمن عند التحويين، وعن مصدر وزمن ونسبة عند البلاغيين، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية، وهو أصوب.

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً، وهو نكرة لم تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي.

وقد أشار صاحب (مراقي السعود) إلى أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم بقوله:

ونسحو لا شربت أو وإن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

وجه إهمال «لا» في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ أن لا الثانية التي هي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] بعدها معرفة وهي الضمير، وهي لا تعمل في المعارف، بل في النكرات، فلما وجب إهمال الثانية، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً.

قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؛ فيه لعلماء التفسير وجهان:

أحدهما: أن المراد بأزواجهم، نظرائهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله. واقتصر على هذا القول ابن كثير.

وثانيهما: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة؛ لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول؛ ولذا يكثر في القرآن، ذكر إكرام أهل الجنة بكونهم مع نساءهم دون الامتنان عليهم بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتَاهُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْزَاقِ مُتَكَفِّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال كثير من أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية، هو افتضااض الأبقار. وقال تعالى: ﴿وَوُجِّعَتْهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٧٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْطَّرْفِ عِينٌ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْطَّرْفِ أَرْزَاقٌ ﴿٥٦﴾﴾ [ص]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء، وأن ذلك لا أصل له في اللغة. والحق أن ذلك لغة عربية، ومنه قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها
وقول الحماسي:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليّ ثم تصدع
وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفة: «إنها زوجتي».

وقوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء واحد، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها.

قوله تعالى: ﴿يَطَّافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، وجميع الآيات التي فيها الإنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة، والتحلي بهما، ولبس الحرير، ومنه السندس والإستبرق، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، أي تلذذ به الأعين أي برويته لحسنه، كما قال تعالى: ﴿صَفَرَاءُ فَاغِقَ لَوْنُهَا تُسْرُ الْتَطْرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]. وأسند اللذة إلى العين، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب

العين، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية، وهي مقدم شعر الرأس في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِيبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾ [العلق]، وكإسناد الخشوع، والعمل وال نصب، إلى الوجوه، في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ [٢١] عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ [٢٢] ... الآية [الغاشية].

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية، كما أن الخشوع والعمل والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة فيها كل مشتهى، وكل مستلذ، جاء مبسوطاً موضحة أنواعه في آيات كثيرة من كتاب الله، وجاء مجملاً أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم.

أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧١] [السجدة: ١٧].

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن أن من ذلك النعيم المذكور في الآية، المشارب، والمآكل، والمناكح، والفرش، والسرر، والأواني، وأنواع الحلي والملابس والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المآكل فقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٣]، وقال: ﴿وَلَهُنَّ فِيهَا مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ [٧١] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا لَا يَمُوتُ وَلَا يَنْتَبِعُ وَلَا يَصْلَحُ فِيهَا ثَمَرٌ إِلَّا جَاءَهُ رِزْقٌ جَدِيدٌ﴾ [٧٣] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [٥٠] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [١٠] [الإنسان]. وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَمًّا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [٧١] عَيْنًا فِيهَا نَسِيمٌ سَلِيمٌ﴾ [٧٣] ... الآية [الإنسان]، وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [٧١] يَأْكُلُونَ وَأَبْرِقُونَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [٧٣] لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [٧٣] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [٥٠] بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [٥١] لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ﴾ [٧١] [الصافات]: وقال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [٧٢] [الحاقة]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدّمنا الكلام عليها مستوفى في سورة النحل. وأما المناكح فقد قدّمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً، وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويكفي ما قدّمنا من ذلك قريباً.

وأما ما يتكثرون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ

عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَكِّفُونَ ﴿٥١﴾ [يسر]. وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ﴿٥٢﴾ مُتَكِّفِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الواقعة]. والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِخْرَجْنَا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿سُرُرٌ مَّرْثُومَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مُتَكِّفِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقْرِي حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى في سورة الإنسان، في صفة هؤلاء الغلمان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَيْثُ بُعِثُوا لَوْثًا مُشْوَرًا﴾ [الإنسان: ١٩]، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: ﴿وَلَا رَأَيْتُمْ أَنَّ كَبَارًا فَكُلًّا سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ نَهَارًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان].

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا خَلِيدُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة؛ لأنّ خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَكُم مِّن تَعَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصَلْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة، ونحوها من الآيات الدالة على أنّ العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَن يَنَالَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِن عِبَادِنَا مَن كَانَ يَتَّقِي﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [السجد].

وبيّنا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل. وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله الله، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَا يَمُوكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَتَكُوثٌ ﴿٧٨﴾﴾. اللام في قوله ﴿لِيَقْضَ﴾؛ لام الدعاء، والظاهر أن المعنى أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن يدعو الله لهم بالموت، والدليل على ذلك أمران:

الأول: أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا: يا مالك، ولما خاطبوه في قولهم: (ربك).

والثاني: أن الله بين في سورة المؤمن، أن أهل النار يطلبون من خزنة النار أن يدعوا الله لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ [غافر]. وقوله: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَوَكِّرْهُ مُؤْمِنًا فَفَضَّلْنَاهُ﴾ [القصص: ١٥]، أي أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ﴾؛ دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت، بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية.

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت، ولا تنفى هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ﴾؛ فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهَا الْأَشْفَىٰ﴾ [الذي يَصِلُ النَّارَ الْكَثْرَىٰ] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ [١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحْسُوتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وأما كون النار لا تنفى عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنهم فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَّرِيدَ لَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَرُ عَنْهُمْ﴾ ... الآية. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون؛ منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله تعالى في المائدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّثِيمٌ﴾ [المائدة]. وقوله تعالى في الحج: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ... الآية [الحج: ٢٢]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وقوله تعالى في الجاثية: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ

فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة النبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيِّتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ﴿٢٣﴾ [النبأ]، وسنوضحه أيضاً - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبأ المذكورة، ونوضح هناك - إن شاء الله - إزالة إشكال يورده الملاحظون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ ﴿٧٨﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ﴾... الآية [مريم: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾. اختلف العلماء في معنى ﴿إِنْ﴾ في هذه الآية.

فقال جماعة من أهل العلم: إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا إنها شرطية اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾.

فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد.

وقالت جماعة آخرون: إن لفظة ﴿إِنْ﴾ في الآية نافية. والمعنى: ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أقربها أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله، وجلاله.

والثاني: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له. والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس، وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

فقوله: وأعبد، يعني أنف وأستكف. ومنه أيضاً قول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت،

فولدت لسته أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. ويقول - جلّ وعلا -: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، فلم يبق عن الفصل من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان عليه السلام أن بعث إليها، لترد ولا ترجم.

ومحل الشاهد من القصة، فوالله: (ما عبد عثمان) أي ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْغَايِبِينَ﴾؛ أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. قال مقيد عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن وإن قال به جماعة من إجلاء العلماء.

وهناك مسائل عزز بها الشيخ رأيه يرجع من آراء الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢).

قد قدمنا معنى لفظة سبحان، وما تدل عليه من تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وإعراب لفظة سبحان مع بعض الشواهد العربية في أول سورة بني إسرائيل.

ولما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ...﴾ الآية. نزه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض، ورب العرش، جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء مثله موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٩٤) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٩٥) [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ حَتَّى يَلْعَبُوا وَلْيَعْبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٩٧).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَلْعَبُوا﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾... الآية [الأنعام: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. قد بينا الآيات الموضحة في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩].

وفي الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِيِّهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾... الآية.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾... الآية [البقرة: ٤٨]. وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْ يَقُولُوا﴾ (٨٧) ﴿﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ﴿﴾.

قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء، وقرأه عاصم وحزمة: ﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ بكسر اللام والهاء.

قال بعض العلماء: إعرابه بأنه عطف محل على الساعة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ مصدر مضاف إلى مفعوله.

فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة، منصوب محلاً بالمفعولية، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل، والخفض نظراً إلى اللفظ، كما قال في الخلاصة:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

وقال في نظيره في الوصف:

واخفض أو نصب تابع الذي انخفض كمبتغي جاء ومالاً من نهض

وقال بعضهم: هو معطوف على (سره).

وعليه فالمعنى: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقيله يا رب، الآية.

وقال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول مطلق.

أي، وقال: «قيله» وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة، قالوا: ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير:

تمشي الوشاة جنابيهما وقيلهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون: قيلهم..

وقال بعضهم: هو منصوب بـ يعلم محذوفة؛ لأن العطف الذي ذكرنا على قوله: سرهم، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه، كما قال في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً
وأما على قراءة الخفض، فهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة،
وعلم قيله يا رب.

واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان.
والتحقيق أن الضمير في قيله للنبي ﷺ.
والدليل على ذلك أن قوله بعد: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ خطاب له ﷺ بلا نزاع،
فادعاء أن الضمير في قيله لعيسى، لا دليل عليه ولا وجه له.

وملأ تضمنته هذه الآية الكريمة، من شكواه ﷺ إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء
موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْفُرْقَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان]، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: ﴿فَدَعَا
رَبَّهُ أَنْ هَاتُوا قَوْمٌ يَجْمَعُونَ﴾ [الدخان]، وعن نوح في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ
قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح]، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩]. قرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو
عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] بياء الغيبة. وقرأ نافع
وابن عامر: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بقاء الخطاب، وهذه الآية الكريمة تضمنت، ثلاثة أمور:

الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من
عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع: كقوله تعالى في
الأول: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ ۚ بَلِّغْ لِلنَّاسِ الظُّلُمَاتِ الَّتِي لَا تَنُورُ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا
تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

والصفح: الإعراض عن المؤاخاة بالذنب، قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو.

قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العتق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه
معرضاً عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين.
ومعلوم أنه ﷺ سيدهم كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾ [القصص]. وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: ﴿لَيْنَ لَمَ تَنَنَّهُ لَازِحَتُكَ وَأَهْجَرَتِ مِلَّتُكَ﴾ [مريم: ٤٦] قال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧].

ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسافهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملونا.
وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة، قد جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاءُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٢] ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [١] وقوله تعالى: ﴿لَتَكْفُرْنَ الْكَافِرِينَ﴾ [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [٤] ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٥]. وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [١] ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [٧] [التكاثر]، إلى غير ذلك من الآيات.
وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ.
والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾.

أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [١] [القدر: ١]، وبين كونها ﴿مُبَرَكَةٍ﴾ المذكورة هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [٣] [القدر]، إلى آخر السورة.
فقوله: ﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾؛ أي كثيرة البركات والخيرات. ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها في سورة القدر، كثيرة البركات والخيرات جداً.

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح، ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل. والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين. فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾.

معنى قوله: يفرق؛ أي يفصل ويبين، ويكتب في الليلة المباركة التي هي ليلة القدر، كل أمر حكيم، أي ذي حكمة بالغة؛ لأن كل ما يفعله الله، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة. وقال بعضهم: حكيم، أي محكم، لا تغيير فيه، ولا تبديل. وكلا الأمرين حق؛ لأن ما سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل؛ ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة؛ وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها. وإيضاح معنى الآية أن الله - تبارك وتعالى - في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم، بالتفصيل والإيضاح، جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجذب والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان. قال الرمخشري في الكشف: ومعنى يفرق: يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم فيها إلى الأخرى القابلة، إلى أن قال: فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل، والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. اه محل الغرض منه بلفظه.

ومرادنا بيان معنى الآية، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين؛ لأننا لم نعلم له مستنداً.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر فهو بيان قرآني آخر.

وإيضاح ذلك أن معنى قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ [القدر]، أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة، ومرض وصحة، وخصب وجذب، وغير ذلك من جميع أمور السنة.

قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة.

وعلى هذا التفسير الصحيح ليلية القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾.

وقد قدّمنا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أن قدر بفتح الدال مخففاً يقدر ويقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً بمعنى قدر تقديرًا، وأن ثعلباً أنشد لذلك قول الشاعر:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورك السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وبيّننا هناك، أن ذلك هو معنى ليلة القدر؛ لأن الله يقدر فيها وقائع السنة.

وبيّننا أن ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾؛ وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه: ومنه قول هذبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

واعلم: أنّ قول من قال: إنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها على غيرها من الليالي من قولهم: فلان ذو قدر؛ أي ذو شرف ومكانة رفيعة، لا ينافي القول الأول لاتصافها بالأميرين معاً، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً.

واختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾، قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال؛ أي أنزلناه في حال كوننا أمرين به. ومن قال بهذا الأخفش.

وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ وجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى: إنزالاً. ومن قال به المبرد.

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق، فجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى فرقا أو فرق بمعنى أمراً. ومن قال بهذا الفراء والزجاج.

وقال بعضهم هو حال من «أمر»؛ أي ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾؛ في حال كونه أمراً من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي «أمر» وصفت بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ كما لا يخفى.

وقال بعضهم: ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به لقوله: ﴿مُنْذِرِينَ﴾ وقيل غير ذلك.

واختار الزمخشري أنه منصوب بالاختصاص، فقال: جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وأكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. وهذا الوجه أيضاً ممكن، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له

في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ ... الآية [الكهف: ٦٥]. وفي سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ الآية [فاطر: ٢].

قوله تعالى: ﴿يُمْ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُمَلِّمْهُمْ جَنُودُ﴾. هذا الذي أدعوه على النبي ﷺ افتراء، من أنه معلم، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر، وأنه ﷺ مجنون، قد بينا الآيات الموضحة لإبطاله.

أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وفي سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْقَرْتُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾. إلى قوله: ﴿فَبِهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤ - ٥].

وبينا الآيات الموضحة لافتراءهم وتعتهم في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانٌ عَكِثٌ مُبِيتٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. وفي الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَهُ ظُلُمَاتُ وَرُودًا﴾ الآية [الفرقان: ٤، ٥].

وأما دعواهم أنه مجنون، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها. وإبطالها في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ الآية [٧] أن أدوا إلى عباد الله، الرسول الكريم هو موسى، والآيات الدالة على أن موسى هو الذي أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة.

وقوله: ﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾ أي سلموا إلي عباد الله يعني بني إسرائيل، وأرسلوهم معي. فقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به لقوله: ﴿أَدُّوا﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في آيات أخرى، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبِئْهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَنبِئْهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية [الشعراء: ٧].

والتحقيق أن أن في قوله: ﴿أَن أَدُّوا﴾ هي المفسرة؛ لأن مجيء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقلية، وأن قوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه وآية الشعراء لا منادى مضاف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ سَمْعُكُمْ﴾ ... الآية.

قد قَدَّمْنَا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [٢٧] ﴿[عافر].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [٢٨] . لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين أورثهم ما ذكره هنا، ولكنه بين في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [٢٩] [الشعراء]، كما تقدم في الترجمة، وفي الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمِهِينَ﴾ [٣٠] ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٣١] . ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المهيّن الذي كان يعذبهم به فرعون وقومه، جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ بَجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٣٢] [البقرة]. إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩ - ٥٠]. وقوله في الأعراف: ﴿وَإِذْ أَمْحَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٤١]. وقوله تعالى في المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الآية [عافر: ٢٥]. وقوله تعالى في إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَمْحَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٦]. وقوله في الشعراء: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنْهَا عَلَى أَنْ عَذَّتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء]. فتعيده إياهم من أنواع عذابه لهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن فرعون كان عالياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. وقوله تعالى في أول القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [٥٨] . قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية الإطالة بكثرة الإحالة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥٨] . قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة في سورة مريم، في الكلام على قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية [مريم: ٩٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ واختلف اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾. ذكر - جلّ وعلا -، في هذه الآيات الكريمة من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض. الثاني: خلقه الناس. الثالث: خلقه الدواب. الرابع: اختلاف الليل والنهار. الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به. السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم؛ ولذا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم.

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾؛ فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ بِظُحْرٍ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيِّنَتُهَا وَرَبَّتْهَا وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٢﴾ بَصَرَةً وَذَكَّرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّنبِّ ۝٣﴾ [لق]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝٤﴾ الآية [سبأ: ٩]. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥﴾ [يونس]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٧﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝٨﴾ الآية [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝٩﴾ [غافر: ٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝١٠﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَنهَدُونَ ۝١١﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝١٢﴾ - إلى قوله - ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٣﴾ [النبا]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة.

وأما الثاني منها: وهو خلقه الناس المذكور في قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم]. وقوله: ﴿بَنَّا الْإِنْسَانَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٢١]. وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [الشعراء: ٢٢]. وقد خلقكم أطواراً [نوح]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ ذَاتِي﴾؛ فقد جاء أيضاً موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى]. وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَالَتْهَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ...﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ فَمِنْهَا أَرْبَعٌ﴾ [الزمر: ٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، معلومة.

وأما الرابع منها: وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَذَرُ لِقَوْمٍ يُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَلْبَسَ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى في فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...﴾ الآية [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمُ اللَّيْلِ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. الآية [يس: ٣٧، ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿يَقُلِ اللَّهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ أَلْبَسَ﴾ [النور]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بِضْبَاءً أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [النور: ٦١]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بَلَاءٌ تَسْكُوتُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [النور: ٦٢]. وَمِنْ تَحْمِيدهُ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الفصr: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما الخامس منها: وهو إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَالَتْهَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فقد جاء

موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. إلى قوله: ﴿لَا يَذَرِي لِقَوْمٍ يُفْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لَنَنْظُرَ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٦) ﴿أَنَا صَبَّأُ اللَّيْلَةَ صَبَّأً﴾ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿فَالْبُنْتُ فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) ﴿وَعَبًّا﴾. إلى قوله: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمْ﴾ (٢٨) [عبر].

وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى: ﴿لَنَنْظُرَ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٦)؛ أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سبباً لنباته، هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشاً صغيراً، حتى تروى به الأرض تدريجياً، من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؟ الجواب: لا.

ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً، وأنزل في الأرض، على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها مسمار النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أن النبات خرج من الأرض وانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أن السنبل خرج من النبات، فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت؟ الجواب: لا.

وقد قال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَوَبَّءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُنْجَاً﴾ (٦) ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (٧) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١١) [النبا]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) [يس]، والآيات يمثل ذلك كثيرة معلومة.

واعلم: أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ ... الآية [غافر: ١٣].

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾؛ فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات من كتاب الله كقوله في البقرة: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَوَّغِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَذَرِي لِقَوْمٍ يُفْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيْحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوْفِيعٍ﴾ [الحجر: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم: أنّ هذه البراهين العظيمة المذكورة في أول سورة الجاثية هذه، ثلاثة منها من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث، كثرة مستفيضة.

وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة، وسورة النحل، وغيرهما، وأحلنا عليها مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك، وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها - إن شاء الله تعالى -.

والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض المذكور هنا في سورة الجاثية هذه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)؛ لأنّ خلقه - جلّ وعلا - للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ لأنّ من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر.

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) [يس]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْ عَلَىٰ أَنْ يَخْتِىَ أَلَمْ يَخْلُقْ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣] [الأحزاب]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ...﴾ الآية [الإسراء: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٧) ﴿رَفَعَ سَكَتَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٨) ﴿وَأَقَطَّ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (١٠) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (١١) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (١٢) ﴿مِنَّا لَكُمْ وَلاَ تَنْفِكُ﴾ (١٣) [النازعات].

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى في أول الصفات: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا...﴾ الآية [الصفات: ١١]، لأنّ قوله: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ [الصفات: ١١] يشير به إلى خلق السماوات والأرض، وما ذكر معهما المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ (٥)، إلى قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا شَهَابًا ثَاقِبًا﴾ [الصفات: ٥ - ١٠].

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى؛ لأنّ من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في قدرته على إعادة خلقهم مرة أخرى كما لا يخفى.

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، إلى آخر الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلْإِنسَانِ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنَّا لَكُمْ سِوَىٰ أَوْلِيَآءَ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٧٧) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مریم: ٦٦ - ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

مِرَّةً ﴿[الإسراء: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿أَفَعِثْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٥٦﴾ [ق]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [الواقعة]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقْتُمُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ﴿٥٨﴾ مِنْ تُطَعْمُوهُ إِذَا تَمَتَّنَ ﴿٥٩﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ ﴿٦٠﴾ [النجم]. وقوله تعالى: ﴿يُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٦١﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْعَمُ مِنْ مَتْنٍ يَمْنَىٰ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُفْطَقًا فَنَسَوْنِي ﴿٦٣﴾ فَعَمِلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٦٤﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ لِلْوَدَّ ﴿٦٥﴾ [القيامة]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّوْجَيْنِ ﴿٦٦﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٦٧﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٦٩﴾. إلى قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٧٠﴾﴾ [التين]، يعني أي شيء يحملك على التكذيب بالدين أي بالبعث والجزاء، وقد علمت أنني خلقتك الخلق الأول في أحسن تقويم، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول لا شك في قدرته على إعادته مرة أخرى، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما البرهان الثالث منها: وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية هذه: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فإنه يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث في القرآن العظيم؛ لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم؛ لأن الجميع إحياء بعد موت.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَتْنِي الْمَوْتُ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦٩﴾ [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٧٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج]. وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَتْنِي الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الروم]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا فَقَالَا سَفْنَاهُ لِمَلِكٍ مَنِئْ بِقَوْلِنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ [الأعراف].

فقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ﴾؛ أي نبعثهم من قبورهم أحياء كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ ﴿٧٥﴾ [الروم]، يعني تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

أشار - جلّ وعلا - لنبيه ﷺ إلى آيات هذا القرآن العظيم، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية الجاثية هذه، ذكره في آيات آخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [البقرة: ٢٥٢]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتِغَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٥٨]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه.

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: ﴿ذَلِكَ أَلْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]، بمعنى هذا الكتاب، كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهد قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
أقول له والرمح ياطر متنه تأمل خفافاً إنني أنا ذالكا
يعني أنا هذا.

وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوهَا﴾ أي نقرؤها عليك، وأسند - جلّ وعلا - تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه - جلّ وعلا -.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١٧] فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْهُ وَقُرْآنَهُ [١٨] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٩] [القيامة].

فقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾، أي قرأه عليك الملك المرسل به من قبلنا مبلغاً عنا، وسمعت منه ﴿فَأَنبَحْهُ قُرْآنَهُ﴾؛ أي فاتبع قراءته وقرأه كما سمعته يقرؤه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

وسمعه ﷺ القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩٢] نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ [٩٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [٩٤] بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ [٩٥] [الشعراء]. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني آياته الشرعية الدينية.

واعلم: أن لفظ الآية يطلق في اللغة العربية إطلاقين، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً، أما إطلاقه في اللغة العربية:

فالأول منهما: وهو المشهور في كلام العرب، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده:

رماد ككحل العين لآياً أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بأيهم أي بجماعتهم، ومنه قول برج بن مسهر:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقوله: بآياتنا، يعني بجماعتنا، وأما إطلاقه في القرآن العظيم:

فالأول منهما: إطلاق الآية على الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ... الآية.

وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

أما الآية الكونية القدرية فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة؛ لأن الآيات الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده.

وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء: إنها أيضاً من الآية التي هي العلامة؛ لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق من جاء بها، لما تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأنّ فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها.

وقال بعض العلماء: إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه.

واختار غير واحد أنّ أصل الآية آية بفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها، فاجتمع في الياءين موجبا إعلال؛ لأن كلا منهما متحركة حركة أصلية بعد فتح متصل. كما أشار له في الخلاصة بقوله:

من واو أو ياء بتحرك أصل ألفاً أبذل بعد فتح متصل

إن حرك التالي ... إلخ.

والمعروف في علم التصريف أنّه إن اجتمع موجبا إعلال في كلمة واحدة فالأكثر في اللغة العربية تصحيح الأول منهما، وإعلال الثاني بإبداله ألفاً كالهوى والنوى والطوى والشوى، وربما صحح الثاني وأعل الأول كغاية، وراية، وآية على الأصح، من أقوال عديدة، ومعلوم أن إعلالهما لا يصح، ولهذا أشار في الخلاصة بقوله:

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق

قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِيهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَكَبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً يَعْذَابُ آلِيمٍ ٨﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله وآياته، أنه يستبعد أن يؤمن بشيء آخر؛ لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل، وأنه أفَّاك أثيم.

والأفَّاك: كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن، بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد إيمانهم بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وذلك بقوله في آخر المرسلات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَكْفُوا لَا يَرْكُؤْنَ ٤٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات]. فقوله تعالى: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٥١﴾ [المرسلات] كقوله هنا: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾.

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم، وقوله في آخر المرسلات: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]. كقوله هنا في الجاثية: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِيهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾.

ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح، يستلزم الإيمان بآياته، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَسْمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَكَبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً يَعْذَابُ آلِيمٍ ٨﴾؛ يدل على أن من يسمع القرآن يتلى ثم يصر على الكفر والمعاصي في حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق الذي تضمنته آيات القرآن، كأنه لم يسمع آيات الله، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشِيرَةً يَعْذَابُ ٧﴾. وقوله تعالى في الحج: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفِرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ هُوَ الْمَصِيرُ ٦٦﴾ [الحج]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَأَقَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ٦٦﴾ [محمد]، فقوله تعالى عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ أَفَأَقَا﴾، يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي ﷺ من الآيات والهدى.

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَرَسَ لَا يَسْمَعُونَ ١١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَاذَانِنَا وَقَدْ رَمَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ ١٢﴾ ... الآية [فصلت: ٤، ٥].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ خففت فيه لفظة (كان)، ومعلوم أن (كان) إذا خففت كان اسمها مقدراً وهو ضمير الشأن، والجملة خبرها كما قال في الخلاصة:

وخففت كأن أيضاً فنوى منصوبها وثابتاً أيضاً روى

وقد قدّمنا في أول سورة الكهف: أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفي كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً. وأوضحنا ذلك بشواهد العربية.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَلَّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٌ ۖ﴾. قال بعض العلماء: ﴿وَيَلَّ﴾ واد في جهنم.

والأظهر أن لفظة ﴿وَيَلَّ﴾ كلمة عذاب وهلاك، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله، وأن المسوخ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وحفص، عن عاصم: «يؤمنون» بياء الغيبة، وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم: «تؤمنون» بئاء الخطاب، وقرأه ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: «يؤمنون» بإبدال الهمزة واواً وصلأً وقفأً، وقرأه حمزة بإبدال الهمزة واواً في الوقف دون الوصل، والباقون بتحقيق الهمزة مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۖ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة توعد الأفَّاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم.

وقد قدّمنا قريباً أنّ من صفاته، أنّه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبراً كأن لم يسمعها.. وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً أي مهزواً بها، مستخفاً بها، ثم توعد على ذلك بالعذاب المهين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة، قد بيّنه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر الكهف: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۖ﴾ [الكهف: ٢٦]. وقوله تعالى في الكهف أيضاً: ﴿وَيَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أَنذَرُوا هُزُوًا ۖ﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ ۖ﴾ ... الآية [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى في سورة الجاثية هذه: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا نَسْفًا لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا يُنَكَّرُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ۚ﴾ [٢٤] ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم تَأْخُذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۖ.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم: «هزواً» بضم الزاي بعدها همزة محققة، وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً، وقرأه حمزة: «هزءاً» بسكون الزاي بعدها همزة محققة في حالة الوصل.

وأما في حالة الوقف، فعن حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاي فتكون الزاي مفتوحة بعدها ألف، وعنه إبدالها واواً محركة بحركة الهمزة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ أي لأنّ عذاب الكفار الذين كانوا يستهزئون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم وشدة إيلاهم بأنواع العذاب. وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا فسيصرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب.

فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة بل ليؤولوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة. قوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمٌ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠)، قوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمٌ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الشواهد العربية في سورة إبراهيم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (١٥) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمٌ [إبراهيم: ١٥، ١٦]، وبيننا هناك أنّ أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام.

فمعنى ﴿مَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمٌ﴾، أي أمامه جهنم يصلها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي أمامهم ملك. وذكرنا هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام، وبيننا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية، وكذلك آية الجاثية هذه، فقوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمٌ﴾؛ أي أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أوضح فيه أن ما كسبه الكفار في دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغني عنهم شيئاً يوم القيامة؛ أي لا ينفعهم بشيء فلا يجلب لهم بسببه نفع ولا يدفع عنهم بسببه ضرر، وإنما اتخذوه من الأولياء في دار الدنيا من دون الله، كالمعبودات التي كانوا يعبدونها، ويزعمون أنّها شركاء لله؛ لا ينفعهم يوم القيامة أيضاً بشيء. وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد أوضحهما الله في آيات كثيرة من كتابه.

أما الأولى منهما: وهي كونهم لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً فقد أوضحها في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ﴾ [المسد]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۚ﴾ [الليل]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ﴾ [٦] كَلَّا لَيُنَادُّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ﴾ [١] الآية [الهمزة]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ﴾ [الزمر]. وقوله تعالى: ﴿بَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۚ﴾ [٧] مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۚ﴾ [٨] الآية [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۚ﴾. وقوله تعالى عن

إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُعْتَوْنَ ۝٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ ... الآية [الشعراء].
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ الآية [سبا: ٣٧]. وقوله
 تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ
 النَّارِ ۝٨٩﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٩٠﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى
 في المجادلة: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩١﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ... الآية [المجادلة: ١٦، ١٧].

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد قدّمنا كثيراً منها في مواضع متعددة من هذا
 الكتاب المبارك.

وأما الثانية منهما: وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات التي اتخذوها أولياء من
 دون الله، فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هود: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ
 وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
 وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعٌ ۝٩١﴾ [هود]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَضْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٩٢﴾ [الأحقاف]. وقوله
 تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝٩٣﴾
 [القصص]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ۝٩٤﴾ [الكهف]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا
 يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝٩٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ...
 الآية [الأحقاف: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ يَبْتَلِيكُمْ لَعَلَّكُمْ أَتَقُونَ ۝٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ۝٩٧﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا
 لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝٩٨﴾ [فاطر]. وقوله تعالى:
 ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٩٩﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا
 ۝١٠٠﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝١٠١﴾ [العنكبوت].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾، الأولياء:
 جمع ولي.

والمراد بالأولياء هنا، المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله، و(ما) في قوله:
 ﴿مَا كَسَبُوا؟﴾ «مَا اتَّخَذُوا» موصولة وهي في محل رفع في الموضعين؛ لأن (ما) الأولى
 فاعل (يغني)؟ (وما) الثانية معطوفة عليها. وزيادة لا قبل المعطوف على منفي معروفة.
 وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ أي لا ينفع. والظاهر أن أصله من الغناء - بالفتح والمد - وهو النفع.

ومنه قول الشاعر:

وقلّ غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد
فقلوه: قل غناء؛ أي قل نفعاً. وقول الآخر:

قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا
فقلوه: الغناء؛ أي النفع.

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام؛ لأن قوله: قول
الأحبة، فاعل قوله الغناء، وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة.

وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر.

وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة، من قولهم غني بالمكان بكسر النون يغني
بفتحها غنى بفتحيتين إذا أقام به.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ تَفْعَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ
يَفْعُوا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كأنهم لم يقيموا فيها.

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهي ما يستغنى به الإنسان.

وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه في العربية.

وهذه اللغات التي ذكرنا في مادة غنى كنت تلقيتها في أول شبابي في درس من
دروس الفقه لفتيها شيخني الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني، وذكر لي بيتي
رجز في ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله:

وضد فقر كإلى وكسحاب النفع والمطرب أيضاً ككتاب
وكفتى إقامة وكهنا جمع لغنية لما به الغنى

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّحْمَةِ أَلِيمٍ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾، راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله في
قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾... الآية. وقوله: ﴿يَسْمَعُ
آيَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له
العذاب الأليم، جاء موضحاً في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى، فقد ذكره تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ
بِكِتَابٍ فَصَلَّنَا عَلَىٰ عَلَيْهِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله
تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ
الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿الْمَ ۖ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَآلَتُهُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا ءَآيَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٢﴾ [الكهف]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، وغير ذلك من المواضع أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقاً عاماً، بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق كقوله: ﴿وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله هنا: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ وأنه يطلق أيضاً في القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَتَدُهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في سورة فصلت، أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب الله.

والهدى مصدر هذاه على غير قياس، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر، وبيننا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف؛ إما على حذف مضاف، وإما على المبالغة. وعلى الأول فالمعنى: هذا القرآن ذو هدى أي يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وعلى الثاني فالمعنى: أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿هُمَّ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾، أصح القولين فيه أن المراد بالرجز: العذاب، ولا تكرار في الآية؛ لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى: لهم عذاب من جنس العذاب الأليم، والأليم معناه المؤلم؛ أي الموصوف بشدة الألم وفظاعته. والتحقيق - إن شاء الله - أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعول، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه؛ لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعول معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، أي مؤلم، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي مبدعهما، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [سبا: ٤٦]، أي منذر لكم.

ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع يورقني وأصحابي هجوع
فقوله الداعي السميع؛ يعني الداعي المسمع، وقوله أيضاً:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
أي موجع. وقول غيلان بن عقبة:

ويرفع من صدور شمردلات يصك وجوهها وهج أليم
أي مؤلم.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم: «من رجز أليم» بخفض أليم على أنه نعت لرجز.

وقرأه ابن كثير وحفص عن عاصم «من رجز أليم»، برفع أليم على أنه نعت لعذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِ رَبِّكُمْ وَلِتُبْنِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُشْكُرُونَ ۝١٢﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ۝١٤﴾... الآية [النحل: ١٤]، وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۝١٣﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلَعَلَّهَا ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ ۖ لَأَنفُسِكُمْ ۝٧﴾ الآية [الإسراء: ٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين.

وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٤٧﴾ [البقرة]، في الموضعين، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٧٧﴾ [الدخان]، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [الأعراف].

ولكن الله - جلّ وعلا - بين أن أمة محمد ﷺ، خير من بني إسرائيل وأكرم على الله، كما صرح بذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ۝١١٠﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]، ف«خير» صيغة تفضيل، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال

في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»: وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث مشهور.

وقال ابن كثير: حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه.

قال مقيله - عفا الله عنه وغفر له -: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور ﷺ؛ لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَسَطًا﴾ أي خياراً عدولاً.

واعلم: أن ما ذكرنا من كون أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة، لا يعارض الآيات المذكورات آنفاً في تفضيل بني إسرائيل؛ لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ. والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه.

ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد ﷺ صرح بأنها خير الأمم، وهذا واضح؛ لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة؛ لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق، لا في وقت نزول القرآن.

ومعلوم أن أمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل، وأنها بعد وجودها، صرح الله بأنها خير الأمم، كما أوضحنا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، نهى الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَ فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا تَحْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، أنه - جلّ وعلا - يأمر نبيه محمداً ﷺ وينهاه، ليشرع بذلك الأمر والنهي لأمرته كقوله هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمرته، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطَّعْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفْرًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطَّعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَطَّعْ كُلَّ حَلَاحٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَا

يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿الإسراء: ٣٩﴾. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه ﷺ يخاطب، والمراد به التشريع لأُمَّته في آية بني إسرائيل المذكورة.

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥]. وقوله تعالى في الأنعام: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقوله تعالى في القصص: ﴿إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد بين تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾؛ أَنَّ الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والأهواء: جمع هوى بفتحتين وأصله مصدر، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. قد قدّمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً أَنَّ الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه، وأن أعظم أنواعه الشرك بالله؛ لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق؛ هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه.

ولذا كثر في القرآن العظيم، إطلاق الظلم بمعنى الشرك، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧٧]. وقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنَى لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد ثبت في صحيح البخاري أَنَّ النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك».

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ ... الآية [النساء: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكُمْ﴾ الآية [النمل: ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ولي المتقين، وهم الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه.

وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه؛ فهو وليهم وهم أولياؤه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يوالِيهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس].

ثم بين المراد بأوليائه في قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس]، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ كقوله في آية الجاثية هذه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ... الآية [المائدة: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ... الآية [محمد: ١١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى في الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ الآية [سبأ: ٤١]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه بأبسط من هذا.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٢٠]. الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم. والبصائر جمع بصيرة؛ والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي على علم ودليل واضح.

والمعنى: أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَلَإِيَّائِي وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدِّ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٢٨].

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضوع، أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً.

وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَالِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ إِلَهَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]. وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]. وفي الزخرف في الكلام على قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ... الآية [الزخرف: ٣٢]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَوْمٍ يُفْقِتُونَ﴾، أي لأنهم هم المستفعدون به. وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف.

وهو أن المبتدأ الذي هو قوله: ﴿هَذَا﴾ اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو «بصائر» جمع مكسر مؤنث.

فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكور؟.

والجواب أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة (ص)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾. قد أوضحنا معناه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَقَلْبَهُمْ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ عِشْرَةَ غَشُوَةٍ﴾. قد أوضحنا معناه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان]. وقوله: ﴿يَعِدُّكُمْ أَنتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ رُءُوبًا وَعِظَّمْنَا نَكْمًا تَخْرُجُونَ﴾ [٢٥] هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ [٢٦] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [٢٧] [المؤمنون]. وقوله تعالى عنهم: ﴿أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا رُءُوبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. وقوله تعالى عنهم: ﴿أَوَنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ﴾ [١٦] أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا خِجْرَةً [١٧] قَالُوا يَلَالَىٰ إِذَا كَرَّ خَاسِرَةٌ [١٧] [النازعات]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدّمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم في إنكارهم البعث، وبيننا دلائلها على أن البعث واقع لا محالة، في سورة البقرة، وسورة النحل، وسورة الحج، وأول سورة الجاثية هذه، وأحلنا على ذلك مراراً.

وبيننا في سورة الفرقان، الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التي فيها وعيد منكري البعث بالنار في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ بِخَسْرِ الْمُبْطِلُونَ﴾، قد قدّمنا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُجِئَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُنْثَىٰ دُئِيَ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾. قد قدّمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].
قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطْلَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝﴾ [مريم]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ كَمَا نَسِفْنَا لَقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَفِىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ﴾، قد أوضحنا معنى قوله: ﴿يُسْتَعْبَدُونَ﴾ في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ۝﴾ [النحل].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَادَا بِمَلِكٍ لِّيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مُلْكُوتٌ ۝﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ لَعْنَةُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾.

أتبع الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، حمده - جلّ وعلا - بوصفه بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين، وفي ذلك دلالة على أن رب السماوات والأرض، ورب العالمين مستحق لكل حمد ولكل ثناء جميل.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة]. وقوله تعالى في آخر الزمر: ﴿وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾. وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى في أول الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وقوله تعالى في أول سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ]، وقوله في أول فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ... الآية [فاطر: ١].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له الكبرياء في السماوات والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة، والكمال والجلال والسلطان، في السماوات والأرض؛ لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده، والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٤، ٨٥].

فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، معناه أنه هو وحده الذي يعظم ويعبد في السماوات والأرض ويكبر ويخضع له ويدل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، معناه أن له الوصف الأكمل، الذي هو أعظم الأوصاف، وأكملها وأجلها في السماوات والأرض.

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: الْعِظْمَةُ إِزَارِي وَالْكِبَرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَسَكَّنْتَهُ نَارِي».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود، وقدّمنا الكلام على قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ في أول سورة الزمر.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، صيغة الجمع في قوله: «خلقنا» للتعظيم، وقوله: «إلا بالحق» أي إلا خلقاً متلبساً بالحق.

والحق ضد الباطل، ومعنى كون خلقه للسماوات والأرض متلبساً بالحق أنه

خلقهما لحكم باهرة، ولم يخلقهما باطلاً، ولا عبثاً، ولا لعباً، فمن الحق الذي كان خلقهما متلبساً به، إقامة البرهان، على أنه هو الواحد المعبود وحده - جلّ وعلا -، كما أوضح ذلك في آيات كثيرة لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم:

كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَحْدَهُ لَا شَاطِرَ لَهُ ۚ إِلَهُ الْغُيُوبِ﴾ (٢٢٩)، ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآيَاتٍ لِّمَنِ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢٩)، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثِّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢٩) [البقرة].

فتلبس خلقه للسموات والأرض بالحق واضح جداً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَحْدَهُ لَا شَاطِرَ لَهُ ۚ إِلَهُ الْغُيُوبِ﴾؛ لأن إقامة البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق.

وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۚ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢١) [البقرة]؛ لأنّ قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يتضمن معنى النفي منها على أكمل وجه وأتمه.

وقد أقام الله - جلّ وعلا - البرهان القاطع، على صحة معنى لا إله إلا الله، نفياً وإثباتاً، بخلقه للسموات والأرض، وما بينهما في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً... الآية.

وبذلك تعلم أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بأعظم الحق، الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيده - جلّ وعلا -.

ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور، على توحيده - جلّ وعلا -، علم من استقرأ القرآن، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقاً لغيره، فمن كان خالقاً لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال.

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً كقوله تعالى في آية البقرة المذكورة آنفاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾... الآية.

فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، يدل على أن المعبود هو الخالق وحده، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الرعد: ١٦]؛ يعني وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وقد أوضح تعالى هذا في سورة النحل؛ لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة

على توحيده - جلّ وعلا -، في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)، إلى قوله: ﴿وَعَلَّمَنِي وَإِلَتَجِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١١)، أتبع ذلك بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) [النحل].

وذلك واضح جداً في أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئاً لا يصح أن يعبد.

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٠) [النحل].

وقال تعالى في الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٨١) [الأعراف]، وقال تعالى في الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مِثْلِ فَاسْتَجِيعُوا لَهُ إِنِكَ اللَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ أي ومن لا يقدر أن يخلق شيئاً لا يصح أن يكون معبوداً بحال. وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [البقرة] الذي خلق فسوّى... الآية [الأعلى].

ولما بيّن تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك، قال في صفات من يستحق العبادة: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْخِذُ وَلَكَدَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ (١) [الفرقان]. وقال في صفات من لا يصح أن يعبد: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾... الآية [الفرقان: ٣].

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

وقد بين - جلّ وعلا - أنّ من الحق الذي خلق السماوات والأرض وبينهما خلقاً متلبساً به، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٧) [الطلاق].

فلام التعليل في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، متعلقة بقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾... الآية [الطلاق: ١٢]، وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع، والأرضين السبع، وجعل الأمر يتنزل بينهن، إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به، هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فلام التعليل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، متعلقة بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وبه تعلم أنه ما خلقهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ونظير ذلك قوله تعالى في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ [الكهف]. وقوله تعالى في أول الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق، قوله تعالى في آخر الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ﴾ [الذاريات: ٥٧].

سواء قلنا: إن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي لأمهم بعبادتي فيعبدني السعداء منهم؛ لأن عبادتهم يحصل بها تعظيم الله وطاعته، والخضوع له كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْكَبُوا فَإِلَينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۗ﴾ [فصلت: ٢٨].

أو قلنا: إن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي إلا ليقروا لي بالعبودية، ويخضعوا ويدعوا لعظمتي؛ لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يدعون لقهرة وسلطانة تعالى كرهاً.

ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال.

وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض خلقاً متلبساً به، جزاء الناس بأعمالهم، كقوله تعالى في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۚ﴾ [النجم: ٣١].

فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي هو خالقها ومن فيهما ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾... الآية [النجم: ٣١].

ويوضح ذلك قوله تعالى في يونس: ﴿إِنَّهُمْ يَدَّؤُنَّ الْمُلْكَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هدهم بالويل من النار، بسبب ذلك الظن السيئ، في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۚ﴾ [ص: ١٧].

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظنه، في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۚ﴾ [فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ] [المؤمنون: ١٧].

فقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾، أي تنزهه وتعظيمه، وتقديسه، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث، وحساب وجزاء.

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه، نزهه عنه أولوا الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١٩١﴾، إلى قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، فقوله عنهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت هذا الخلق، باطلاً لا لحكمة تكليف، وبعث وحساب وجزاء.

وقوله - جلّ وعلا - في آية الأحقاف هذه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً، ولا لعباً ولا عبثاً.

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ [٣٨]، ما خلقتهم إلا بِالْحَقِّ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وبتقدير أجل مسمى، أي وقت معين محدد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة.

كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، فقوله في الحجر: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾. بعد قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ يوضح معنى قوله في الأحقاف: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الآية [المزمل: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وقوله في يس: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشيء الصدود عنه؛ وعدم الإقبال إليه، قال بعض العلماء: وأصله من العرض بالضم؛ وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يوليه بجانب عنقه؛ صاداً عنه.

والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً، وقد أوضحنا معاني الإنذار في أول سورة الأعراف.

و «ما» في قوله: ﴿عَمَّا أَنْذَرُوا﴾؛ قال بعض العلماء: هي موصولة؛ والعائد محذوف؛ أي الذين كفروا معرضون عن الذي أنذروه؛ أي خوفه من عذاب يوم القيامة؛ وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم. وقال بعض العلماء: هي مصدرية؛ أي والذين كفروا معرضون عن الإنذار، ولكليهما وجه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

قد ذكرنا قريباً أن قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله؛ وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق؛ وبين غيره هي كونه خالقاً؛ وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً؛ لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق؛ وذكر من المعبودات الأخرى التي عبادتها كفر مخلد في النار؛ أنها لا تخلق شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض.

فقوله: «أروني» يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئاً؛ وعلى أن ﴿مَا﴾ استفهامية ﴿وَذَا﴾ موصولة.

فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض؛ وعلى أن ﴿مَا﴾ و ﴿ذَا﴾ بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام، فالمعنى: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً في الأرض ولم يكن له شرك في السماوات؛ لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله في لقمان: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. وقوله في سبأ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْوْا السَّمَكَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهير ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمنا طرفاً منها قريباً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّبُونِي يَكْتَسِبْ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْمِكُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ

عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ ﴿٦﴾ قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمَوْضُوحَةَ لَهُ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [الجاثية: ١٠]، وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ مَا كُنَّا بِمُتَّبِعِينَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افتراءهم على القرآن أنه سحر وعلى النبي ﷺ أنه ساحر جاء موضحاً في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى في سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]. وقوله تعالى في الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَّعُوهُ وَهُمْ يَقْبَحُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْخُفْرَ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَقْبُولُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. «أم» هذه هي المنقطعة، وقد قَدَّمْنَا أنها تأتي بمعنى الإضراب.

وتأتي بمعنى همزة الإنكار، وتأتي بمعناها معاً وهو الظاهر في هذه الآية الكريمة.

فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً، فهو بمعنى دع هذا، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه، أن محمداً افترى هذا القرآن، وقد كذبهم الله في هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾... الآية [يونس: ٣٨]. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾... الآية [يونس: ٣٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض.

والتقدير: عاجلني الله بعقوبته الشديدة، وأنتم لا تملكون لي منه شيئاً؛ أي لا تقدرون أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء.

فكيف أفتره لكم، وأنتم لا تقدرون على دفع عذاب الله عني؟

وهذا المعنى: الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿١٢﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمْرِ عَنَّا حَنِجْرٍ ﴿١٧﴾ [الحاقة].

فَقُولُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْحَاقَةِ هَذِهِ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ كَقَوْلِهِ فِي آيَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَقْتُمْ﴾.

وقوله في الحاقّة: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾ يوضح معنى قوله: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ لأن معنى قوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾، أنهم لا يقدرّون على أن يحجزوا عنه؛ أي يدفعوا عنه عقاب الله له بالقتل، لو تقول عليه بعض الأقاويل. وذلك هو معنى قوله: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي لا تقدرّون على دفع عذابه عني.

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقّة المبيّنة لها من أنه لو افترى على الله أو تقول عليه عاجله بالعذاب، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه، جاء معناه في بعض الآيات. كقوله تعالى في يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْهَاهُ أَنْ يُخَرِّجَ هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌ مَا يَكُونُ لَهُ أَنْ أُنْذِرَ نَفْسَهُ تِلْقَايَ نَفْسِهِ إِنْ تَنْتَهِ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيْكَ إِنَّ خَافَ لِمَنِ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره؛ عذاب يوم عظيم.

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح: ﴿قَالَ يَنْفُورُ آدَمُ بَشَرًا إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣]. وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَيَنْفُورُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ﴾ [هود: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾. الأظهر في قوله: ﴿بِدْعًا﴾ أنه فعل بمعنى المفعول فهو بمعنى مبتدع، والمبتدع هو الذي أبدع على غير مثال سابق.

ومعنى الآية: قل لهم يا نبي الله: ما كنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها؛ لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة.

وهذا المعنى: الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾... الآية [الروم: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾... الآية [النساء: ١٦٣]. وقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ إِلَيْكَ وَلَكِ الْآيَاتُ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾... الآية [فصلت: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾... الآية [آل

عمران: ١٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ قَصْرًا﴾... الآية [الأنعام: ٣٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾. التحقيق - إن شاء الله - أن معنى الآية الكريمة ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء، وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة.

وما أدري ما يفعل بكم؟ أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء؟ ونحو ذلك، وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَيْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾... الآية [الأعراف: ١٨٨]. وقوله تعالى آمراً له ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد، ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ أي في الآخرة فهو خلاف التحقيق، كما سترى إيضاحه - إن شاء الله -.. فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن في أحد قوله؛ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله، من عند نفسه، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به.

فنزلت: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فنسخت هذه الآية. وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، لقد بين لك الله ما يفعل بك، فليت شعراً ما هو فاعل بنا.

فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... الآية [الفتح: ٥]، ونزلت: ﴿وَنُفِثَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي ﷺ لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته - صلوات الله وسلامه عليه - وقد قال له الله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ حَرٍّ لَّكَ مِن الْأُولَىٰ ۖ وَسَوْفَ يُطِيعُكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. وأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ في أمور الدنيا كما قدّمنا، فإن قيل: قد صح عن النبي ﷺ من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي﴾؛ أي في الآخرة فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن مظعون ﷺ عندهم، ودخول رسول الله ﷺ فيه، أنها قالت: رحمة الله عليك، أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ تعني عثمان بن مظعون، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» الحديث.

والشاهد في الآية هو عبد الله بن سلام ﷺ كما قال الجمهور، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية.

وقيل: إن الشاهد موسى بن عمران - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة، أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين، وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير.

وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير لزعمتهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.

وهذا المعنى: الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال والأولاد والجاه في الدنيا، دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَالِحٌ لَّهُمْ فِي الْغَيَبِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ... الآية [مريم]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبا]. مع قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ... الآية [سبا: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْوَ فَلَنُنَاقِلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وأما احتقار الكفار للضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند الله، من أن يصيبهم بخير، وأن ما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى والجاه والولد من الكفار، فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

فهزمة الإنكار في قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير.

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٤) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِحَاثِبَتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ... الآية [الأنعام: ٥٣، ٥٤]. وقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ أَذْهَبَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِضُهُمْ لِجِسْمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَغْفَرُونَ﴾ (٥٨) أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٥٩) [الأعراف]. وقوله تعالى في ص: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢) أَتُخَذُّنَّهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَأَيْتَ الْأَبْصَرُ﴾ (٦٣) [ص].

فقد قال غير واحد: إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم الله بخير ويدل له قوله: ﴿أَتُخَذُّنَّهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [ص: ٦٣]، وسيسخر ضعفاء المسلمين في الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٦١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾ (٦٠). إلى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٦٢) عَلَى الْأَرْبَابِ نَظَرُونَ﴾ (٦٥) هَلْ تُوْبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٦٦) [المطففين]. وقوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ... الآية [البقرة: ٢١٢].

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٦٥) [الشعراء]، وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾... الآية [الزمر: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنَشِّئِ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار في القرآن في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِیُنذِرَ بِهِ﴾... الآية [الأعراف: ٢]. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية [الكهف: ٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٧) قد قدمنا الكلام عليه في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾... الآية [فصلت: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾، قرأ هذا الحرف، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (حُسْنًا) بضم الحاء وسكون السين، وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأه عاصم وحزمة والكسائي: (إحسانًا) بهمة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد

السين.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال أبو حيان في البحر:

قيل: ضمن ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، معنى ألزمتنا فيتعدي لاثنتين فانصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا.

وقيل: التقدير إيضاء ذا حسن أو ذا إحسان، ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له، أي ووصيناه بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى.

وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسننا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً اهـ منه، وكلها له وجه.

قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر: (كُرْهًا) بفتح الكاف في الموضعين، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي، وابن ذكوان، عن ابن عامر: (كُرْهًا) بضم الكاف في الموضعين. وهما لغتان كالضَّعْف والضَّعْف.

ومعنى حملته (كُرْهًا) أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة. ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل من المشقة والضعف، إذا أثقلت وكبر الجنين في بطنها. ومعنى «وضعته كُرْهًا»: أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم الطلق وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم.

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيتها الحامل، دلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، أي تهن به وهناً على وهن؛ أي ضعفاً على ضعف، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفاً على ضعف.

وقوله في آية الأحقاف هذه «كُرْهًا» في الموضعين مصدر منكر وهو حال؛ أي حملته ذات كره ووضعته ذات كره، وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال بعضهم: «كُرْهًا» في الموضعين نعت لمصدر، أي حملته حملاً ذا كره، ووضعته وضعاً ذا كره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ هذه الآية الكريمة؛ ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد

الحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً، ثلاثون شهراً.

وقوله تعالى في لقمان: ﴿وَفَصَّلْهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله في البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمداً للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة.

وقد أوضحنا الكلام عليها، في مباحث الحج في سورة الحج، في مبحث أقوال أهل العلم، في حكم المبيت بمزدلفة، وأشرنا لهذا النوع من البيان في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَإِنَّكَ وَبِكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.

والتحقيق - إن شاء الله - أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ﴾ بمعنى الذين، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبعث.

والدليل من القرآن على أن «الذي»، بمعنى «الذين»، وأن المراد به العموم، أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.

والإخبار عن لفظة الذي في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ القول بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بالذي العموم لا الأفراد؛ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة إنها نازلة في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ليس بصحيح، كما جازمت عائشة رضي الله عنها بطلانه.

وفي نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة رضي الله عنه.

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق «الذي» وإرادة «الذين»، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب؛ لأن لفظ «الذي» مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم، كما أشار له في (مراقي السعود) بقوله:

صيغته كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق الذي وإرادة الذين في القرآن، هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾... الآية [البقرة: ١٧]. أي كمثل الذين استوفدوا، بدليل قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَزَكَّاهُمْ﴾، والواو في ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى في البقرة أيضاً: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، أي كالذين ينفقون بدليل قوله: ﴿لَا يَفْقِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقوله في الزمر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ١٢٣]. وقوله في التوبة: ﴿وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، أي كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لا مصدرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة:

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
وقول عدیل بن الفرخ العجلي:

وبت أساقي القوم إخواني الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي
وقول الراجز:

يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد
إلا الذي قاموا بإطراف المسد

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفِي لَكُمَّا﴾، كلمة تضجر، وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنب نهى الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يَلْفَنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَمْرٌ﴾... الآية [الأنعام: ٢٣]. وقوله: ﴿أَتُؤَدِّبُنِي﴾: فعل مضارع وعد، وحذف واوه في المضارع مطرد، كما ذكره في الخلاصة بقوله:

فأمر أو مضارع من كوعد احذف وفسي كعدة ذاك اطررد

والنون الأولى نون الرفع، والثانية نون الوقاية كما لا يخفى.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي: «أتعداني» بنونين مكسورتين مخففتين وباء ساكنة، وقرأ هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وباء ساكنة، وقرأ نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخففتين وباء مفتوحة، والهمزة للإنكار.

وقوله: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أبعث من قبري حياً بعد الموت.

والمصدر المنسب من «أن» وصلتها هو المفعول الثاني لتعداني؛ يعني أتعداني الخروج من قبري حياً بعد الموت، والخال قد مضت القرون أي هلكت الأمم الأولى، ولم يحي منهم أحد، ولم يرجع بعد أن مات.

وهما أي والداه يستغيثان الله أي يطلبانه أن يغنيهما بأن يهدي ولدتهما إلى الحق والإقرار بالبعث، ويقولان لولدتهما: ويلك آمن؛ أي بالله وبالبعث بعد الموت.

والمراد بقولهما ويلك: حثه على الإيمان إن وعد الله حق، أي وعده بالبعث بعد الموت حق لا شك فيه، فيقول ذلك الولد العاق المنكر للبعث: ﴿مَا هَذَا﴾ إن الذي تعداني إياه من البعث بعد الموت ﴿إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والأساطير جمع أسطورة. وقيل: جمع إسطورة، ومراده بها ما سطره الأولون، أي كتبوه من الأشياء التي لا حقيقة لها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ ترجع الإشارة فيه إلى العاقين المكذبين بالبعث المذكورين في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمَّا﴾ ... الآية.

وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس].

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكري البعث يحق عليهم القول لكفرهم، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْيَكُمُ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [٥٠].

معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: ﴿أَدْهَبْتُمْ طِبْيَكُمُ﴾.

فقوله «يعرضون على النار»: قال بعض العلماء: معناه يباشرون حرها كقول العرب: عرضهم على السيف إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؛ وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [٤٥] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [غافر: ٤٥، ٤٦] لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ﴾ ... الآية [الكهف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ يُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروى عن ابن عباس وغيره، قالوا: والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا. قالوا: وهو كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. يعنون عرضت الحوض على الناقة، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف].

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا النوع الذي ذكره من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولاً، والمفعول فاعلاً ونحو ذلك، اختلف فيه علماء العربية، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب.

وأجازه كثير من علماء العربية، والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه، ومن أمثله في التشبيه قول الراجز: ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه أي كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح
لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح، فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.

قالوا ومن أمثله في القرآن: ﴿وَأَنبَأْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاصِحَهُ لَنُورٌ يَأْمُضُكَ أَوَّلِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ لأن العصبه من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح؛ أي تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها، وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ [القصص: ٦٦]، أي عموا عنها. ومن أمثله في كلام العرب قول كعب بن زهير:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقد تلفع بالقور العساقيل
لأن معنى قوله: تلفع لبس اللفاع وهو اللحاف، والقور الحجارة العظام، والعساقيل: السراب. والكلام مقلوب، لأن القور هي التي تلتحق بالعساقيل لا العكس، كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله:

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي واجتاب أودية السراب إكامها
فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت؛ أي ليست أودية السراب.

والأودية جمع رداء، وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه؛ لأنه خلاف الظاهر، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وظاهر الآية جار على الأسلوب العربي الفصيح، كما أوضحه أبو حيان في البحر المحيط.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، قرأه ابن كثير وابن عامر (أذهبتهم) بهمزيين وهما على أصولهما في ذلك.

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين. وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال. وابن ذكوان يحققها من غير إدخال.

وقراه نافع وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام.

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً في هذه الآية قائلين: إنها تدل على أنه ينبغي التشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك.

وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾... الآية. والمفسرون يذكرون هنا أثاراً كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾... الآية [النساء: ٥٩].

أما كون الآية في الكفار فقد صرح الله تعالى به في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ﴾... الآية. والقرآن والسنة الصحيحة، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم ويقرى الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يبتغي بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية ونحو ذلك، ولا نصيب له في الآخرة. فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [هود]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي لفظ له عن رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته»، اهـ.

فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، وبمقتضى ذلك يتعين تعييناً لا محيص عنه، أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر؛ لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، فلم يذهب طيباته في الدنيا؛ لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن الله تعالى يشبه بها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثواباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله - جلّ وعلا - أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتمتع بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم.

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا؛ لأنه يجزى في الدنيا فقط كالآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي عذاب الهوان وهو الذل والصغار.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ فَتْسُقُونَ﴾، الباء في قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ﴾ سببية، و«ما» مصدرية؛ أي تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله

تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ﴾ الآية [السجدة: ٢٠].

وقد قدّمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿يَغْتَرِ الْحَقُّ﴾؛ مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، ونحو ذلك من الآيات، وهو أسلوب عربي نزل به القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾.

أبهم - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه، ولكنه بين في آيات أخرى أنه هود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كقوله تعالى: ﴿وَلِإِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، في سورة الأعراف، وسورة هود، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن النبي هوداً نهى قومه أن يعبدوا غير الله، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب الله، إن تمادوا في شركهم به، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات أخرى.

أما الأول منهما: ففي قوله تعالى: ﴿وَلِإِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، في سورة الأعراف، وسورة هود، ونحو ذلك من الآيات.

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في الشعراء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلَّذِينَ آمَنْتُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْذَكُ بَاتِعٍ وَبَيْنَ ﴿٦٧﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿٦٨﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء] وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكَ عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾. ومعنى قوله تعالى: ﴿لِنَتَأَفَّكَ عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، أي لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: إنكار عاد على هود أنه جاءهم، لتركوا عبادة الأوثان ويعبدوا الله وحده.

وثانيهما: أنهم قالوا له: ائتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقاً فيما تقول، عناداً منهم وعتواً.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَأُتْلِفَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾. ذكر - جلا وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه: إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ أُتْلِفُكُمْ رَسُولِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾، لفظة (إن) في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه؛ يدل استقرار القرآن على أن واحداً منها هو الحق، دون الاثنين الآخرين، قال بعض العلماء: «إن» شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير: إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم.

وقال بعضهم: «إن» زائدة بعد «ما» الموصولة حملاً لـ «ما» الموصولة على «ما» النافية؛ لأن ما النافية تزداد بعدها لفظة «إن» كما هو معلوم.

كقول قتيلة بنت الحرث بن النضر العبديّة:

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق
وقول دريد بن الصمة في الخنساء:

ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום طالي أينق جرب
ف«إن» زائدة بعد «ما» النافية في البيتين وهو كثير، وقد حملوا على ذلك ما الموصولة فقالوا: تزداد بعدها «إن» كآية الأحقاف هذه. وأنشد لذلك الأخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

أي يرجى المرء الشيء الذي لا يراه، وإن زائدة، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما؛ لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير. والثاني منهما فيه زيادة كلمة، وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله، فهو أن لفظة «إن» نافية بعد «ما» الموصولة؛ أي ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من القوة في الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد والعدد.

وإنما قلنا: إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه، فإن الله - جل وعلا - في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة،

وأكثر منهم عدداً، وأموالاً، وأولاداً، فلما كذبوا الرسل، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبي ﷺ أن يهلكهم الله بسببه، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم، كقوله تعالى في المؤمن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

وقوله فيها أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَالْحَقُّمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ... الآية [غافر: ٢١]. وقوله تعالى في الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ وَعَصْرُهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَصَرُهَا﴾ ... الآية [الروم: ٩].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٠﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، أنه صرف إلى النبي ﷺ ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، والنفر دون العشرة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ وأنهم لما حضروه، قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ أي اسكتوا مستمعين، وأنه لما قضي؛ أي انتهى النبي ﷺ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ أي رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾؛ أي مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا داعيه محمداً ﷺ، وأخبروا قومهم، أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى، المنزل من بعد موسى ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، وهو ضد الباطل، ﴿وَالَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي لا اعوجاج فيه.

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي ﷺ، حتى أوحى الله ذلك إليه، كما قال تعالى في القصة بعينها، مع بيانها وبسطها، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن بعد استماعهم القرآن العظيم: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا مَّجْبَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٣٤﴾﴾ [الجن]، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكَم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾. منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمداً ﷺ وآمن به، وبما

جاء به من الحق غفر الله له ذنوبه؛ وأجاره من العذاب الأليم، ومفهومها، أعني مفهوم مخالفتها، المعروف بدليل الخطاب، أن من لم يجب داعي الله من الجن ولم يؤمن به لم يغفر له ولم يجره من عذاب أليم، بل يعذبه ويدخله النار، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَتَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَكَبِئْرًا فِيهَا هُمُ وَالْعَاوُنُ﴾ [٤٦] ﴿وَيَحْذَرُ الْإِنسُ أَجْمَعُونَ﴾ [٤٥] [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات.

أما دخول المؤمنين، المجيبين داعي الله من الجن الجنة، فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، وهي قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءِلَآئِكَ نَكْتُبُهُنَّ فِي الْكِتَابِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم، قائلين إنه يفهم من هذه الآية، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعي الله، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط، كما هو نص الآية، كله خلاف التحقيق.

وقد أفاض الشيخ في الحديث عن هذه المسألة فليرجع من اراد الوقوف على كلامه فيها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّيَاقِينٌ يَّقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّطَ الْمَوْتَ بِلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة لهذه الآية، وأنها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل والجمادات، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً، والباء في قوله: ﴿يَّقْدِرُ﴾؛ يسوغه أن النفي متناول لـ«أن» فما بعدها، فهو في معنى أليس الله بقادر؟ ويوضح ذلك قوله بعد: بلى. مقررًا لقدرته على البعث وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيراً، وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدّمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو ﷺ خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وأن لفظة «من»، في قوله: «من الرسل» بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُتُونِ﴾... الآية [القلم: ٤٨]، فأمر الله - جلّ وعلا - نبيه في آية القلم هذه بالصبر، ونهاه عن أن

يكون مثل يونس؛ لأنه هو صاحب الحوت وبقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١٥﴾ [طه] فآية القلم، وآية طه المذكورتان كلتاها تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾. نهى الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يستعجل العذاب لقومه، أي يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فمفعول «تستعجل» محذوف تقديره العذاب، كما قاله القرطبي، وهو الظاهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَافِرِينَ أَزِلْهُمُ مِنَ النَّعْمَةِ ۖ وَسَهِّلْهُمُ فَلْيَلَا ۝١١﴾ [المزمل]. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهْلَهُمْ رُؤْيَا ۝١٧﴾ [الطارق].

فإن قوله: ﴿وَسَهِّلْهُمُ فَلْيَلَا﴾ [المزمل: ١١]، وقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهْلَهُمْ رُؤْيَا ۝١٧﴾ [الطارق]، موضح لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

والمراد بالآيات نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم؛ لأنهم معذبون لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝١٨﴾ [مریم]. وقوله تعالى: ﴿نُفِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [القمان]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ الْآيَةُ الْبَقَرَةُ ۝١٢٦﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۝١٣١﴾ متع قليل ثم مأونهم جهنم وبئس المهاد ۝١٣٧﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ متع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ۝٢٠﴾ [يونس] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وفي سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَاقِبِينَ ۝١٣٧﴾ [المؤمنين].

وبينا في الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف في الآيات المذكورة.

قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ﴾. التحقيق - إن شاء الله - أن أصوب القولين في قوله: ﴿بَلِّغْ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ، أي هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلِّغُ لِلنَّاسِ لِشَيْءٍ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله في الأنبياء: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَصِيدِينَ ۝١٦١﴾ [الأنبياء]، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية، أن الفاعل يأتي كثيراً بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً، أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكليماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل؛ لأنَّ فَعَّل مضعفة العين غير معتلة اللام ولا مهموزة قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله. أما القول بأنَّ المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُورَةُ الْقِتَالِ وَهِيَ سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال بعضهم: هو من الصدود؛ لأنَّ صد في الآية لازمة، وقال بعضهم: هو من الصد؛ لأنَّ صد في الآية متعدية، وعليه: فالمفعول محذوف؛ أي صدوا غيرهم عن سبيل الله، أي عن الدخول في الإسلام.

وهذا القول الأخير هو الصواب؛ لأنه على القول بأنَّ صد لازمة، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله: ﴿كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله.

وأما على القول: بأنَّ صدّ متعدية فلا تكرار؛ لأنَّ المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم بصددهم إياهم عن سبيل الله، وقد قدّمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّكُمْ حَيَوْهُ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾؛ أي أبطل ثوابها، فما عمله الكافر من حسن في الدنيا، كقرى الضيف، وبر الوالدين، وحمى الجار، وصلة الرحم، والتنفيس عن المكروب، يبطل يوم القيامة، ويضمحل ويكون لا أثر له، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَنْ مَاعِزٍ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَلًا مَثْوًى﴾ [الفرقان]، وهذا هو الصواب في معنى الآية.

وقيل: أضل أعمالهم؛ أي أبطل كيدهم الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه، وما ذكره - جلّ وعلا - هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أنه يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَبَّسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَنْثَارَ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٧﴾ [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ ﴿٢١﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ﴿٢٢﴾ [الفرقان].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ ﴿٦١﴾ [الإسراء]. وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ... الآية [النحل: ٩٧]، وذكرنا طرفاً منه في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ ... الآية [الأحقاف: ٢٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال، لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وقد قدّمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ فَعَلْنَا إِذَا وَانَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ [الشعراء]، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ قد قدّمنا إيضاحه في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ ... الآية [الإسراء: ٩]، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ... الآية [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنَا يُرِيدُ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾. قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، اهـ منه. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَصْرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥١﴾ وَلَقَدْ لَعَنَّ الْيَقِينَ ۝٥٢﴾ [الحاقة]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿يَتَّيْبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل، والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق. ويسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، ومتبع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْيَقِينَ كَالْكَافِرِينَ ۝٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٢٦﴾ [القلم]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝١٨﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْجَمُهُمْ وَمَعَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١١﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين، اهـ. منه، وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَرَقُوهُ فَشْدُوا الثَّوَانَ فِيمَا مَنَ بَعْدَ وَلَمَّا فِرَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ لِمَرْبٍ أَوْزَارَهُمْ﴾. قوله تعالى: فضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع:

وهي فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾... الآية [الإسراء: ٧٨].

واسم فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١٠٥].

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَقَنَّهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾... الآية [الحج: ٢٩].

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي فاضربوا رقابهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَرَقُوهُ﴾، أي أوجعتم فيهم قتلاً.

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض.
وقوله: ﴿فَتُدُّوا أَوْتَاقَ﴾ أي فأسروهم، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك بأسروهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَاغْتُلُّوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. [التوبة: ٥]. وقوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا تَشَفَّفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧].
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا مَتَّأ بَعْدَ وِمَا فِدَاءٌ﴾ أي فإذا تمنون عليهم مناً، أو تفادونهم فداء.

ومعلوم أنّ المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في الخلاصة:
وما لتفصيل كلما منا عامله يحذف حيث عنا
ومنه قول الشاعر:

لأجهدن فيما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها، ومن يروى عنه هذا القول، ابن عباس، والسدي وقتادة، والضحاك، وابن جريج. وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده.

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رحمته الله فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء؛ لأنّ الآية منسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق.

ومعلوم أنّ آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه.

وأكثر أهل العلم يقولون: إنّ الآية ليست منسوخة، وأنّ جميع الآيات المذكورة، محكمة، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من من وفداء وقتل واسترقاق. وحول هذه المسألة أقوال للعلماء ذكرها الشيخ تفصيلاً فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧).

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، ويبيّن في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]،

ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝﴾ [الحج: ٤٧]. وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [غافر: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبَادِنَا الرُّسُلَ ۚ إِنَّهُمْ لَهُمُ الصَّابِرُونَ ۝ وَلَئِنْ جُنَدَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ ۝﴾ [الصافات: ١٧٦]. إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ۝...﴾ الآية [الحج: ٤١]، يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة. فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا، مغررون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عبادته بما أنزل على رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ۝﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ ۝...﴾ الآية [الروم: ٩]؛ وأوضحناها في الزخرف، في الكلام على قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ۝...﴾ الآية [الزخرف: ٨]. وفي الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ۝...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْكَ الَّتِي أَخْرَجْنَا أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ ۝﴾ والآيات التي توضح معنى هذه الآية، هي المشار إليها في نفس الآية، التي ذكرنا قبلها، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۝﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين - جلّ وعلا - أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال

تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْتِيَكُمُ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المنحنة: ١]؛ أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تَقُولُونَ قَوْمًا نَزَّكُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ﴾ ... الآية [التوبة: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وباء مشددة مكسورة ونون ساكنة، وقرأه ابن كثير: «وكائن»، بآلف بعد الكاف، وهمزة مكسورة، وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة، كحال الصلة، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الباء. وقد قدمنا أوجه القراءة في «كأين» ومعناها، وما فيها من اللغات، مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [الحج: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنَ الْمَاءِ، وَأَنْهَارُ الْخَمْرِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ بَعْضِ صِفَاتِهَا فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾ [الواقعة: ٢٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]. وَقَوْلِهِ: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٢٨]. وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِ خَمْرِ الْجَنَّةِ أَنَّهَا لَا تَسْكُرُ شَارِبِهَا، وَلَا تَسَبُّ لَهَا الصَّدَاعُ الَّذِي هُوَ وَجَعُ الرَّأْسِ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ٢٩]. وَقَوْلِهِ: ﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [الصافات: ٣٠].

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُفْرُ وَالْكَبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذَلُّمُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ... الآية [المائدة: ٩٠]. وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ أي غير متغير اللون ولا الطعم. والآسن والآجن معناهما واحد، ومنه قول ذي الرمة:

ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا
وقول الراجز:

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت
سقيت منها القوم واستقيت

وبما ذكرنا تعلم أن قوله: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾، كقوله: ﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، قد بين تعالى في سورة البقرة، أن الثمار التي يزرعها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة، والحسن، والكمال، ليس فيها شيء رديء، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، التحقيق - إن شاء الله تعالى - في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله: ﴿ذِكْرُهُمْ﴾؛ مبتدأ خبره ﴿فَأَنَّ لَهُمْ﴾؛ أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في ﴿جَاءَتْهُمْ﴾؛ عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى: الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ [سبا]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْضَتُ يَوْمِئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿٥٣﴾ [الفجر].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾. إلى قوله: ﴿أَوْ تَرُدُّ فَنَقَلِ الْغَيِّ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فظهر أن قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾؛ على حذف مضاف، أي أنى لهم نفع ذكراهم. والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَةَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك كون الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه؛ لأنه في سياق الموت، لأنّ نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره.

وهذا إنّما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح - جلّ وعلا - بأنّ ذلك من الخوف المذكور في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد، وذمهم الله على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ أَمُرُوا بِاللَّهِ وَجَهَادِ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [التوبة].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾. الهمزة في قوله: «أفلا يتدبرون» للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ «أم» فيه منقطعة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَكًا لِيَذَّبَ وَتَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٢﴾ [ص].

وقد ذم - جلّ وعلا - المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ... الآية [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فُزَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ﴿٢٧﴾ [السمعة: ٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكك النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الفرقان].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ كُتْمًا تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة الميمنة له؛ من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل.

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمتركبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله، كما ستري إيضاحه - إن شاء الله تعالى -.

وهناك مسائل عديدة متعلقة بهذا المعنى تناولها الشيخ باستفاضة فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمِّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ٢٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ٢٧ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتْبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ٢٨﴾.

الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى قوم كفروا بعد إيمانهم. وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة]، لأن قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مبين معنى قوله: ﴿مِّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ مبين معنى قوله: ﴿ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾. وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين.

وقد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة ذلك: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم؛ أي مد لهم في الأمر ووعدهم طول العمر.

قال الزمخشري: سول: سهل لهم ركوب العظائم من السؤل، وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً، وأملى لهم؛ ومد لهم في الآمال والأمانى، انتهى.

وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك؛ أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار؛ لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.

وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، «وَأَمْلَى لَهُمْ» بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان.

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مِتُّنَ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرَ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ ... الآية [آل عمران: ١٧٨].

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾؛ إلى قوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾؛ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله - جل وعلا - أملى لهم؛ أي أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله في تزوين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لِيُفَسِّحُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَفَرَّقَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرَ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَاءٍ أُوقُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُثْلَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الْأُفْرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]. وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُثَمِّلُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ بَيْنَ يَدَيْ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة: «وَأْمَلِي لَهُمْ» بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني للمجهول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفاً في فاعل، «وَأْمَلِي لَهُمْ» على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢]. وقوله في إملاء الله لهم: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مِتُّنَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله

تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾.

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته وموازرتة له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ۖ﴾ (١٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ (١٨).

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبيّنا في سورة الشورى، أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة، عن عاصم: «أَسْرَارُهُمْ» بفتح الهمزة جمع سر.

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩]. وقد قالوا لهم ذلك سرّاً فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ۖ﴾ (١٧)؛ أي فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة؟ أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأذبارهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأذبارهم جاء موضحاً في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقوله في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُنْزِلُوا فِي عَمَزَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقوله: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي بالضرب المذكور.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾؛ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ أعني قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ أي ذلك الضرب وقت الموت واقع بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾؛ أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزل.

والإسقاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا، وقوله: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله؛ لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه.

وقوله: ﴿فَأَخَاطُ أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي أبطلها؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ٨١]. وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧].

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين، وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي ﷺ والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك. وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي ﷺ لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به ﷺ.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة: اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأخرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر؛ كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم؛ وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم، فاحذر كل الحذر من الدخول في الدين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَمَارَتُكُمْ ۝﴾

اللام في قوله: «لنبلونكم» موطئة لقسم محذوف، وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم، ونعلم، ونبلو، وقرأه شعبة عن عاصم بالمشاة التحتية.

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - جلّ وعلا - يبلو الناس؛ أي يختبرهم بالتكاليف كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليطيرون بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم، جاء موضحاً في آيات أخر.

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۝﴾ [البقرة: ٢١٤] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ۝﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ تَقُولُوا لَا يَنْصُرُنَا اللَّهُ وَهِيَ الْفِتْنَةُ ۝﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَىٰ الظُّلُمِ ۝﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ ۝﴾ ... الآية، قد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۝﴾ ... الآية [البقرة: ١٤٣].

فقلنا في ذلك ما نصه: ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون.

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَجِّصَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمُ يَدَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمُ يَدَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾؛ بعد قوله: «ليبتلي»، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العلم بذات الصدور غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه.

ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس؛ أما عالم السرى والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى، اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، ونبلو أخباركم نخبرها ونظهرها» انتهى محل الغرض منه.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «ولنبلونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب»، انتهى محل الغرض منه بلفظه.

وما ذكره من أن المراد بقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾... الآية، حتى يعلم حزبنا وأوليائنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه، وقد يرشد له قوله تعالى: ﴿وَنَبَلُّوا أَعْيُنَكُمْ﴾؛ أي نظهرها ونبرزها للناس.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس.

ولذا قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبيث وطيب، والقول الأول وجيه أيضاً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٣٢). الظاهر أن «صدوا» في هذه الآية متعدية، والمفعول محذوف، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون.

وقد قدمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّاهُ حَيَوَهُ طَيْبَةً وَنَجْعِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]. أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول. وصدوا هنا، إن قدرت لازمة؛ فمعنى الصدود الكفر، فتكون كالتوكيد لقوله «كفروا».

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً؛ لأن قوله: كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم. وقوله: «وصدوا» على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر و«صدوهم» عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾؛ أي خالفوا محمداً ﷺ مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين: أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه ﷺ لن يضرهم الله بكفرهم شيئاً؛ لأنه غني لذاته الغني المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَلَوْلَا وَاسْتَعَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَ الْفَقْرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني؛ وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي إبطالها به: قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ... الآية [إبراهيم: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرِيمٍ يَفِيعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَئِنْ بَدَاهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ... الآية.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥١] وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ [٥٢] [النور: ٥١] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ ... الآية [التوبة: ٧١].

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل به. فتخصيص تلك النصوص كلها، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند

متأخري الأصوليين، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه. ولا دليل على ذلك البتة، بل أدلة الكتاب والسنة، دالة على وجوب تدبير الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه علماً صحيحاً قليلاً كان أو كثيراً.

قد قلّمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنّ من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا رِجْماً وَهُمْ لَكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا تُمْ يَنْظُرُونَ ۝﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَسْتَوُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَبَرِّدُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَسْتَوْفَى كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَلُكُمْ ۝﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم: «إلى السَّلَام» بفتح السين، وقرأ حمزة وشعبة: «إلى السَّلَم» بكسر السين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا أَي لَا تَضَعُفُوا وَتَذَلُّوا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الأنفال] أي مضعف كيدهم، وقول زهير بن أبي سلمى:

وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ جملة حالية؛ أي فلا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوا إلى السلم، أي تبدعوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون؛ أي والحال أنكم أنتم الأعلون أي الأقهرون الأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.

وهذا التفسير في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ هو الصواب، وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب.

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح والمهادنة.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَتَتْلُوهُمْ يَعِدُّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَى إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾... الآية [النساء: ١٠٤]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب، وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ أي بالنصر والإعانة والثواب.

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال: إن إحداهما ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى.

فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ﴾؛ إنما هو عن الابتداء بطلب السلم.

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِبْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [الأنفال: ٦١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٧٨]، وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرنا به ابن كثير رحمته.

وهو أن المعنى لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلى؛ أي في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي، وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ أصله من الوتر، وهو الفرد، فأصل قوله: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ لن يفردكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكُم إياها.
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْزِرُكُمْ أَجُورُكُمْ﴾.

هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَهْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [الحديد]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾. في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير، منها أن المعنى ولا يسألكم النبي ﷺ أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَتَّقُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لََّ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَشَدُّ أَلْفُقَرَاءً﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَنَالُوا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ لأنه فتح عظيم.

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا

بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام ويبنوا لهم محاسنه. فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي ﷺ في ذي العقدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمئة.

ولما أراد النبي ﷺ غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان. وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم.

وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا ذلك؛ لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا؛ ولأن ظاهر القرآن يدل عليه؛ لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه ﷺ راجعاً إلى المدينة.

ولفظ الماضي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ يدل على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب ستين خلاف الظاهر.

والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال لا على الماضي، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ [النصر].

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب معنى اللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد؛ دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلِثْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد أوضحناه مراراً.

والحق الذي لا شك فيه؛ أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له جنود السماوات والأرض، وبين في المدثر أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَلَبُ السَّوءِ. أظهر الأقوال وأصحها في الآية أن السلام في قوله: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وايضاح المعنى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾؛ أي السكون والطمأنينة إلى الحق، في قلوب المؤمنين، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق، وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار.

ومفهوم المخالفة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك؛ ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوءِ﴾.

وايضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة، وازدياد الإيمان، وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوقفهم بذلك ليجازى كلا بمقتضى عمله.

وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر الأحزاب: ﴿وَجَلَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۝ [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه، ولعنته، ونار جهنم.

وقد بين في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة، كقوله في الغضب: ﴿وَمَنْ يَجْلِئْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. وقوله في اللعنة: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنَ نَجَدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]. وقوله في نار جهنم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ...﴾ الآية [آل عمران: ١٩٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ۝ [٨]. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمداً ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد بين تعالى أنه يبعثه ﷺ يوم القيامة شاهداً على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

فآية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته نبيان آية الفتح هذه.

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَنْزَغَنَّ يُلَاسَاتُكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا﴾ ۝ [مريم].

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الكهف، وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، ذكره وزيادة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ۝ [٥] وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ [الأحزاب: ٤٦].

وقوله هنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾؛ حال مقدرة، وقوله: مبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به؛ فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضرأه ولا منع نفعأه.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى في آخر يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾... الآية [يونس: ١٠٧].

وقوله في الأنعام: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في النساء: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله تعالى في فاطر: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُمْ﴾... الآية [فاطر: ٢].

وقوله تعالى في الملك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك].

وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا في أول سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾... الآية، وفي سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف: ٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس.

وقد ذكر - جلّ وعلا - إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في براءة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾... الآية [التوبة: ٤٠].

وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين في قوله: ﴿تَلَمَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾. وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ذكره في سورة التوبة، وسورة الصف، وزاد فيهما أنه فاعل ذلك، ولو كان المشركون يكرهونه، فقال في الموضعين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُجِبْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَ أَخْرَجَ شَطَنُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَقَلَقَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر: «شَطَا» بفتح الطاء، والباقون من السبعة بسكون الطاء، وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان: «فَازَرَهُ» بآلف بعد الهمزة، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: «فَازَرَهُ» بلا آلف بعد الهمزة مجرداً. وقرأ عامة السبعة غير قبل: «على سُوقِهِ» بواو ساكنة بعد السين. وقرأ قبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلاً من الواو، وعنه ضم الهمزة بعد السين بعدها واو ساكنة.

وهذه الآية الكريمة قد بيّن الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم كالزروع يظهر في أول نباته رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكَذَلِكَ النبي ﷺ وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف ثم لم يزلوا يكثرُونَ ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا.

وقوله تعالى: ﴿كَرَجَ أَخْرَجَ شَطَنُهُ﴾؛ أي فراخه فنبت في جوانبه. وقوله: ﴿فَتَازَرَهُ﴾ على قراءة الجمهور من المؤازرة، بمعنى المعاونة والتقوية، وقال بعض العلماء: ﴿فَتَازَرَهُ﴾ أي ساواه في الطول، ويكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس:

بمحنية قد آزر الضال نبتها
مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان (فأزره) بلا آلف، فالمعنى شدة أزره؛ أي قواه.

ومنه قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَرِثَةً مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿١٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدُّ بِهِ زَرِي ﴿٢١﴾ الآية [طه]. وقوله: ﴿فَاسْتَقَلَقَ﴾ أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً، وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي استتم وتكامل على سوقه أي على قصبه.

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَارِكُمْ وَيَذْهَبُوا بِصُورِكُمْ﴾... الآية [الأنفال: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ خَشْيَةً فَاخْشَوْهُمْ وَخَشَوْهُمْ﴾ [المائدة: ٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «لا تقدموا» فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه:

الأول منها: وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم. ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم. ويدل على هذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة: «لَا تَقْدُمُوا» بفتح التاء والدال المشددة وأصله «لا تتقدموا» فحذفت إحدى التائين. الوجه الثاني: أنه مضارع قدم المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم؛ أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله.

الوجه الثالث: أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللازم، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها؛ لأنَّ المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨]، أي هو المتصف بالإحياء والإماتة، ولا يراد في ذلك وقوعهما على مفعول.

وكقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأنَّ المراد أن المتصفين بالعلم لا يستوون مع غير المتصفين به.

ولا يراد هنا وقوع العلم على مفعول، وكذلك على هذا القول: «لا تقدموا»، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم.

وقد قدمنا في كلامنا الطويل على آية: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ﴾ [محمد: ٢٤]، أن لفظة بين يديه معناها أمامه، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله، فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولاً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا جلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله. وقد أوضحنا هذا بالآيات القرآنية بكثرة في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وفي سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي بامتنال أمره واجتناب نهيه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيره، عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١]. سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه لما قدم على النبي ﷺ، وقد تميم، أشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرار بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس بن عقال.

فقال له أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، ذكره البخاري في صحيحه وغيره. وهذه الآية الكريمة علم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ ويحترموا ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي ينادونه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضهم بعضاً. وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؛ أي لا تعلمون بذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي ﷺ وتعظيمه واحترامه جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْفِقُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، على القول بأن الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، كما تقدم، وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٥٧]. وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي لا تنادوه باسمه: يا محمد.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]. و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]. و﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ﴾ [المزمل: ١]. و﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ [المدثر]، مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقوله: ﴿وَنَذِيرُهُ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ﴾ [الصفات]. وقوله: ﴿قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. قيل: ﴿يَنْفُخُ أَهْبَطَ سَلَكٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨]. وقوله: ﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وقوله: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]. وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه: وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها، انتهى محل الغرض منه.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وقد قال القرطبي: إنه لا يحبط عمله بغير شعوره. وظاهر الآية يرد عليه.

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، ما نصه: وقوله ﷺ: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَلْقَىٰ لَهَا بَالاً يَكْتُبُ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَلْقَىٰ لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمة في أيام حياته، وبه تعلم أن ما

جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر. وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: لو كتنا من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

مسألان:

الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله.

وقد قال تعالى في الذين استهزأوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَمَا يُبْدِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

المسألة الثانية: وهي من أهم المسائل، اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي ﷺ ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب بالله التي لا يقدر على كشفها إلا الله.

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده؛ لأنه من خصائص الربوبية؛ فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومراضاته وطاعة رسوله ﷺ ومراضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والافتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده - جل وعلا -.

وقد بين - جلّ وعلا - في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى.

ومن أصرح ذلك الآيات التي في سورة النمل، أعنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾؛ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

فإنه - جلّ وعلا - قال في هذه الآيات الكريمات العظيمات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾.

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ دَانٍ بَهْجَةً مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله، من خصائص ربوبية الله؛ ولذا قال تعالى بعدها: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

فهذه المذكورات أيضاً، التي هي جعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبية - جلّ وعلا -، ولذا قال بعد ذكرها: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ والجواب لا.

فالاعتراف لله - جلّ وعلا - بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبية - جلّ وعلا - هو الحق، وهو من طاعة الله ورسوله، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالاقتداء به ﷺ في تعظيم الله.

ثم قال تعالى وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء وجعل الناس خلفاء في الأرض؛ من خصائص ربوبية - جلّ وعلا - ولذا قال بعدها: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

فتأمل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ مع قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟﴾ تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجأوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء وإنبات النبات، ونصب الجبال وإجراء الأنهار؛ لأنه - جلّ وعلا - ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾.

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في ضمن قوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾؛ فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾﴾.

فهذه المذكورات التي هي هدى الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح بشراً، أي مبشرات بين يدي رحمته التي هي المطر، من خصائص ربوبية - جلّ وعلا -؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ ثم نزه - جلّ وعلا - نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر، فقال - جلّ وعلا -: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النبات، من خصائص ربوبيته - جلّ وعلا -، ولذا قال بعدها: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾. ثم عَجَزَ - جلّ وعلا - كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله، فقال أمراً نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية؛ أن إجابة المضطرين الداعين، وكشف السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين، إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل، جاء موضحاً في آيات أخرى:

كقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيلَ لَهُ... الآية [فاطر: ٢].

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ معظمين لله ولرسوله؛ لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله ﷺ هو اتباعه والافتداء به في إخلاص العبادة لله - جلّ وعلا - وحده.

فإخلاص العبادة له - جلّ وعلا - وحده هو الذي كان يفعله ﷺ ويأمر به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾. إلى قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [١٤]، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١١ - ١٥].

واعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب من خصائص الربوبية، وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر في وقت العواصف، يخلصون الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه، فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك.

وقد بين الله - جلّ وعلا - هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بَحْرٍ مِجْشَافٍ وَنَبْشُوا بِيَهَا جَاهَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٢٣]، ﴿فَلَمَّا أَجْنَحُوا إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّبُكُم مِّن ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَجْنَبًا مِّن هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّبُكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ بَلْ إِلَٰهُهُمُ اللَّهُ فَمَا تَدْعُونَ إِلَٰهَ إِلَّا شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهُهُ فَلَمَّا يَجْحَدُوا إِلَى اللَّهِ لَمَذُومًا وَأَنَّهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَحْرِ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا ﴿٢١﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذِلًّا نَّيَمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَاطِلٌ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصٌ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وقد قدّمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، أنّ سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنّه لما فتح النبي ﷺ مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجّها إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف.

فقال القوم بعضهم لبعض: إنّهُ لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلا جدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، انتهى.

وقد قدّمنا هناك أنّ بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من هؤلاء الكفار المذكورين؛ لأنهم في وقت الشدائد يلجأون لغير الله طالبيين منه ما يطلب المؤمنون من الله، وبما ذكر تعلم أنّ ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكرب والشدائد إلى غير الله - جلّ وعلا - كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي ﷺ وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح؛ زاعمين أنّ ذلك من دين الله ومحبة الرسول ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرّمات الله وحرّمات رسوله.

لأنّ صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي ﷺ وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنّه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿مَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِ آلِهَةً وَلَا الْيَهُودُ أَنْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَكُتُوبًا يُذَكِّرُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

رَبِّتَيْنِ يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾ [آل عمران].

بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديناً في زعمه مدعياً حب النبي ﷺ وتعظيمه
وهو يعظم النبي ﷺ ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من
السماء وأثبت به الحقائق ذات البهجة، وأنه ﷺ هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل
خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، إلى آخر ما تضمنته الآيات
المتقدمة، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله
ورسوله المتعدين لحدود الله.

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين
وكشف السوء من المكرويين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل وأن نعظم ربنا بامثال أمره
واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والافتداء به في تعظيم الله
والإخلاص له والافتداء به في كل ما جاء به.

وَأَلَّا نَخَالِفَ ﷺ وَلَا نَعْصِيَهُ، وَأَلَّا نَفْعَلَ شَيْئًا يَشْعُرُ بِعَدَمِ التَّعْظِيمِ وَالاحْتِرَامِ، كَرَفْعِ
الْأَصْوَاتِ قَرَبَ قَبْرِهِ ﷺ، وَقَصْدِنَا النَّصِيحَةَ وَالشَّفِيقَةَ لِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ لِيَعْمَلُوا
بكِتَابِ اللَّهِ، وَيُعْظِمُوا نَبِيَهُ ﷺ تَعْظِيمَ الْمَوَافِقِ لِمَا جَاءَ بِهِ ﷺ وَيَتْرَكُوا مَا يَسْمِيهِ الْجَهْلَةُ
مَحَبَّةً وَتَعْظِيماً وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات الله، ورسوله ﷺ:
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٣٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فَعِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء].

واعلم أيضاً - رحمك الله -: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف
السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله، كالحصول
على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير.

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته - جلّ وعلا - كما
قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذُوا بِعَدَدِ
اللَّهِ الرَّزْقِ وَأَعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿يَهَبْ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا
وَيَهَبْ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ ... الآية [الشورى: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿جَعَلْ لَّكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحْضَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]. وقال
تعالى: ﴿وَسَلُّوا عَلَى اللَّهِ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله». وقد أثنى الله - جلّ وعلا - على نبيه ﷺ وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله: ﴿إِذْ قَسَتْغِيثُكُمْ رِيحَكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. فبينما ﷺ كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجأوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء، فعلينا أن نتبع ولا نبتدع.

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات، فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائنًا ما كان.

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة، فلا ينبغي للمسلم عليه ﷺ أن يضع يده اليمنى على اليسرى كههيئة المصلي؛ لأن هيئة الصلاة داخلة في جملتها فينبغي أن تكون خالصة لله، كما كان ﷺ هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ فَتُصْحَرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [١]. نزلت هذه الآية الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقد أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتيه بصدقات أموالهم، فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي الله ﷺ وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله، فقدم وفد منهم إلى النبي ﷺ فأخبروه بكذب الوليد فأنزل الله هذه الآية وهي تدل على عدم تصديق الفاسق في خبره.

وصرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، ولا خلاف بين العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره، وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين:

الأول منهما: أن الفاسق إن جاء نبأً ممكن معرفة حقيقته، وهل ما قاله فيه الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه الثبوت.

والثاني: هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يدل بدليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن الجاني نبأً إن كان غير فاسق بل عدلاً لا يلزم التبين في نبئه على قراءة: «فتبينوا». ولا الثبوت على قراءة: «فتثبتوا»، وهو كذلك.

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور المذكورة آنفاً، وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا﴾؛ أي لئلا تصيبوا قوماً، أو كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة؛ أي لظنكم النبأ الذي جاء به الفاسق حقاً فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب الفاسق فيما أنبأ به عنهم؛ لأنهم لو لم يتبينوا في نبأ الوليد عن بني المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين؟ ولو فعلوا ذلك لندموا.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بالباء التحتية الموحدة بعدها مشاة تحتية مشددة ثم نون. وقرأه حمزة والكسائي: «فتبتوا» بالثاء المثلثة بعدها باء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مشاة فوقية، والأول من التبيين، والثاني من الثبوت، ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾. [الإسراء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [٧] ﴿فَلَمَّهَا جُورُهَا وَتَقَوَّاهَا﴾ [٨] [الشمس]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. هذه الأخوة التي أثبت الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي أخوة الدين لا النسب.

وقد بين تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَتَكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ... الآية [الأحزاب: ٥].

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أن الأخوة الدينية أعظم وأقوى من الأخوة النسبية، وبيننا أدلة ذلك من الكتاب والسنة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ﴾؛ أي لا يستخفوا ولا يستهزئوا بهم، والعرب تقول: سخر منه بكسر الخاء، يسخر بفتح الخاء على القياس، إذا استهزأ به واستخف.

وقد نهى الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر.

ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيا بالأكرم الأفضل، واستهزاؤه به، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية، جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ هَلْ تُوِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [المطففين].

فلا ينبغي لمن رأى مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي لا يلمز أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد أوعده الله - جلّ وعلا - الذين يلمزون الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والهمزة: كثير الهمز للناس، واللمزة: كثير اللمز.

قال بعض العلماء: الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراءً، واللمز باللسان، وتدخل فيه الغيبة.

وقد صرح الله تعالى بالنهي عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ ونفر عنه غاية التنفير في قوله تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتاب الله.

فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب، وقد بين الأطوار التي مر بها ذلك التراب، كصيرورته طيناً لازباً وحملاً مسنوناً وصلصلاً كالفخار.

وبين أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم، فقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقال تعالى في الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال تعالى في الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة:

الأول منها: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر؛ وهو آدم ﷺ.

والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى؛ وهو حواء.

والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر؛ وهو عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - .
 الرابع: خلقه من ذكر وأنثى؛ وهو سائر الآدميين، وهذا يدل على كمال قدرته -
 جلّ وعلا -، وهناك مسائل مستنبطة من الآية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.
قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ لما كان قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾؛ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأنّ أباهم واحد وأمهم واحدة وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا؛ أي يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه.
 وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنّما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾؛ فاتضح من هذا أنّ الفضل والكرم إنّما هو بتقوى الله لا بغيره من الانساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب
 وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية، تدل على أن دين الإسلام دين سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جلا وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم الله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب.
 والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمار، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل.

خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعب منها، اهـ.

ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث: الشعوب، والقبائل كما في هذه الآية، والفصيلة في المعارج في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ﴾ [المعارج: ١٢]، وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات موضحاً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

واعلم: أنّ العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر:

وإن كلاباً هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
كما قدمنا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾
[البقرة: ٢٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا آمنا، وأن الله - جلّ وعلا - أمر نبيه أن يقول لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم.
وذلك يستلزم، أن الإيمان أخص من الإسلام؛ لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقد قدمنا مراراً أن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل، فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٢٥].

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة؛ لأن الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام؛ ولذلك وجهان معروفان عند العلماء، أظهرهما عندي: أن الإيمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب.

وإنما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح؛ لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر. وأن توكل السرائر إلى الله. فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفى به شرعاً، وإن كان القلب منطقياً على الكفر.

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر لإسلام لغوي مكفى به شرعاً عن التتقيب عن القلوب.
وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي مسلم الجاهلية:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرأ ثقالا
دحاها فلما استوت شدها	جميعاً وأرسي عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة	أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الريح تصرف حالاً فحالا

فالمراد بالإسلام في هذه الآيات: الاستسلام والانقياد، وإذا حمل الإسلام في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ انقدنا واستسلمنا بالأسنة والجوارح، فلا إشكال في الآية. وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون؛ لأنهم مسلمون في الظاهر، وهم كفار في الباطن.

والوجه الثاني: أن المراد بنفي الإيمان في قوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنُوا﴾؛ نفي كمال الإيمان، لا نفيه من أصله.

وعليه فلا إشكال أيضاً؛ لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص.

وإنما استظهرنا الوجه الأول، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوي دون الشرعي، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر؛ لأن قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ يدل على ذلك دلالة كما ترى؛ لأن قوله: ﴿يَدْخُلُ﴾ فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً، وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود):

ونحو لا شربت أو إن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ في معنى لا دخول للإيمان في قلوبكم.

والذين قالوا بالثاني قالوا: إن المراد بنفي دخوله نفي كماله، والأول أظهر كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾: المراد به بعض الأعراب، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ﴾ [التوبة: ٩٨]، وإنما قلنا: إن المراد بعض الأعراب في هذه الآية؛ لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيّدِظُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لما قال هؤلاء الأعراب: آمنا، وأمر الله نبيه أن يكذبهم في قوله: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أمر نبيه أن يقول لهم بصيغة الإنكار: ﴿أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله لا يخفى عليه شيء من حالكم، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما في السموات والأرض وعالم بكل شيء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقييد تركية النفس بالكذب جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَكْثَرُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ آجِنَةٌ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ .
 قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى:
 ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ ضُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
 إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الضُّدُورِ﴾ ﴿٥﴾ [هود].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿١﴾ . المقسم عليه في الآية محذوف، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة ص، وقد أوضحناه في الكلام عليها.
 وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿١﴾ أَوْذَا
 مِنَّا وَكَأَنَّا نُرَايَا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٢﴾ .

قد قدمنا في سورة (ص)، أن من المقسم عليه أن النبي ﷺ صادق وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في (ص): ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقد دل على ذلك قوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، وقد قدمنا في (ص)، أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث، ويدل عليه قوله هنا: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿١﴾ أَوْذَا مِنَّا وَكَأَنَّا نُرَايَا﴾، والحاصل أن المقسم عليه في (ص)، بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وفي (ق) بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ محذوف وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي ﷺ وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحداً، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك في سورة (ص)، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة (ق) هذه المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبي ﷺ بدليل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ وتكذيبهم في إنكارهم للبعث بدليل قوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ وبيننا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿١﴾ .

الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه، كما قدمنا مراراً أنه أظهر الوجهين، وأنه أشار إليه في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

والتقدير: أأعرضوا عن آيات الله فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج؛ أي ليس فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفتقر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه لها وكونها لا تصدع

ولا شقوق فيها جاء كله موضحاً في آيات أخر: كقوله - جلّ وعلا - في بنائه للسماء: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ﴾ [النازعات]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَافِيكُورًا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۖ﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ﴾ [النبا]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۖ﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ۖ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۖ﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى في أول الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله تعالى في لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [لقمان: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله تعالى في تزيينه للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ۖ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ﴾ [الملك: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۖ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ۖ﴾ [الحجر]، وكقوله تعالى في حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج أي شقوق: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۖ﴾ [الملك: ٣]، والفطور والفروج بمعنى واحد، وهو الشقوق والصدوع. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٣١]، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تشقق وتتفطر، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَنَمِ ۖ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً ۖ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ [الحاقة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحْشَتٌ ۖ﴾ [الانشقاق]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۖ﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ﴾ [السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۖ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ﴾ [٨] وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ [٩] [المرسلات].

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ﴾ [٧] تبصرةً وَذَكَرْنَاهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ﴾ [٨]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتَهَرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۖ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۖ﴾ [الرعد: ٣]، وكقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَرَىٰ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۖ﴾ [١٠] هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۖ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ﴾ أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: ﴿تَبَصُّرَةً ۖ﴾ أي قدرنا الأرض وألقينا فيها الرواسي وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمِينًا بِهِ بَلَدَةٌ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، معناه أن الله تبارك وتعالى يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم تراباً وعظاماً، فقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، وقد قدمنا الآية الموضحة لذلك في صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ لِحَقٍّ وَعِيدٌ﴾: هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب؛ أي يتحتم ويثبت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لا يصح بحال؛ لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ لِحَقٍّ وَعِيدٌ﴾، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله: سها فسجد، أي لعله سهوه، وسرق فقطعت يده أي لعله سرقته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخرى، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ ﴿١٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ... الآية، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم. وقوله تعالى في سورة (ص): ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أُرْسِلَ لِحَقٍّ عِقَابٍ﴾ ﴿١٧﴾ [ص].

وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ خَلَقْنَا فِيهَا إِبْرَاهِيمَ وَآلَهُ وَمَنْ فِيهَا نُوحًا وَهُدَّيْنَاهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَيِّتًا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾. هذه الآية الكريمة من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون

أصعب من البدء، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، كخلق الناس أولاً، وخلق السماوات والأرض وما فيهما، وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في البقرة والنحل والحج والجنّة وغير ذلك، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوْهُ بِهِ فَسَسَّٰهُ﴾. وقد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُمْ يَبْعَثُ مَا يُبْرِئُكَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا أَنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّدُورِ ۝﴾ [هود: ٥١].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝﴾. مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ۝﴾. قوله «إذ»: منصوب بقوله: «أقرب»، أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال؛ لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه بقوله: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝﴾ [١٦] أقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ يَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝﴾ [الإسراء: ١٦]، ومفعول التلقي في الفعل الذي هو يتلقى، والوصف الذي هو المتلقيان محذوف تقديره؛ إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه.

قال الزمخشري: والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة، اهـ منه، والمعنى واضح؛ لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله.

والقعيد: قال بعضهم: معناه القاعد، والأظهر أن معناه المقاعد، وقد يكثر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل، كالجلوس بمعنى المجالس، والأكيل بمعنى المؤاكل، والتديم بمعنى المنادم، وقال بعضهم: القعيد هنا هو الملازم، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكسي قرح الفؤاد فيسجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهو أسلوب عربي معروف، وأنشد له سيبويه في كتابه قول عمرو بن أحمز الباهلي:

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريثاً ومن أجل الطوى رمانى
وقول قيس بن الخطيم الأنصاري:
نحن بما عندنا أنت بما عندك راض والرأي مختلف
وقول ضائب بن الحارث البرجمي:
فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنني وقيار بها لغريب

فقول ابن أحمر: كنت منه ووالدى بريثاً؛ أي كنت بريثاً منه وكان والدى بريثاً منه.
وقوله ابن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض: أي نحن راضون وأنت راض.
وقول ضائب بن الحارث: فإني وقيار بها لغريب: يعني إني لغريب وقيار غريب،
وهذا أسلوب عربي معروف. ودعوى أن قوله في الآية: قعيد هي الأولى أخرت
وحذفت الثانية لدالتها عليها؛ لا دليل عليه، ولا حاجة إليه كما ترى؛ لأن المحذوف
إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول، ولا
دليل عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾؛ أي ما ينطق بنطق
ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي إلا والحال أن عنده رقيباً؛ أي ملكاً مراقباً لأعماله
حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شيء. عتيد؛ أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما
يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من
الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٥ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١٦ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [الانفطار]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي كُلُّ أَتَقَىٰ جَانِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٨ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ
بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٩﴾ [الجاثية].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى:
﴿كَأَلَّا سَكَتُ مَا يَقُولُ﴾... الآية [مريم: ٧٩].

وفي سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾
[الزخرف: ١٩]، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذي هو عن اليمين يكتب
الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وأن صاحب الحسنات أمين على
صاحب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال
صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر؟ وبعضهم
يقول: يمهله سبع ساعات، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه: اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائر الذي لا ثواب ولا عقاب
عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أم لا؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأثمين في
المرض، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝٧٨﴾. لأن قوله:
«من قول» نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة «من»، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب، فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع، متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحي. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾... الآية [الرعد: ٣٩].

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتاً محذوفاً سوَّغ حذفه العلم به؛ لأن كل الناس يعلمون أن الجائر لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء. وقد قدّمنا أن حذف النعت إذا دل عليه دليل أسلوب عربي معروف، وقدّمنا أن منه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي كل سفينة صحيحة لا عيب فيها، بدليل قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾... الآية [الإسراء: ٥٨]؛ أي قرية ظالمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وأن من شواهد قول المرقش الأكبر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد
أي لها فرع فاحم وجيد طويل. وقول عبيد بن الأبرص:

من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل
أي قول فصل، وفعل جميل، ونائل جزل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع وشعبة عن عاصم: «يوم نقول» بالنون الدالة على العظمة، وقرأه نافع وشعبة «يوم يقول» بالياء، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله، واعلم أن الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ فيه للعلماء قولان معروفان؛ الأول: أن الاستفهام إنكاري كقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]؛ أي ما يهلك إلا القوم الظالمون، وعلى هذا فمعنى ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَوَسَّتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. قال: فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين، وقد قدّمنا

الآيات الموضحة لهذا في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾... الآية [يس: ٧]؛ لأن إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في لأملأن على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلئ؛ ولذا قالوا: إن معنى ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ لا مزيد، لأنني قد امتلأت فليس في محل للمزيد، وأما القول الآخر، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ؟﴾ هو طلبها للزيادة، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط أي كفاني قد امتلأت، وهذا الأخير هو الأصح، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَزَالُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ الصَّاحِحِينَ وَغَيْرَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَزَالُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ»؛ لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط قط، أي كفاني قد امتلأت، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة، وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات، وقد قَدَّمْنَا الكلام عليها مستوفى في سورة الأعراف والقتال، واعلم أن قول النار في هذه الآية: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾، قول حقيقي ينطقها الله به، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلاً الحوض فقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها خلاف التحقيق، وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَفِئْرًا ۝١٧﴾ [الفرقان]. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝١٨﴾. قوله: أزلفت أي قربت. وقوله غير بعيد: فيه معنى التوكيد لقوله: أزلفت، سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝١٧ وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلَفَتْ ۝١٨﴾ [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٩ وَرَزَّتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء].

قال البخوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: غير بعيد ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٢٥﴾.

قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. قال بعض العلماء: المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ لأنَّ الحسنَى الجنة، والزيادة النظر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مِثْلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٨﴾.

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وبيننا هناك أن الله أوضح ذلك في فصلت في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ بَالِدُ الْوَالِدِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]، وأوضحنا ذلك. واللغوب: التعب والإعياء من العمل.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبه ﷺ بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده - جلّ وعلا - أطراف النهار، قد ذكره الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أخريات طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝٤٠﴾ [طه]، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر بالمأمور به، والصلاة داخله في التسبيح المذكور كما قدمنا إيضاح ذلك، وذكرنا فيه حديث نعيم بن همار في آخر الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَرْنَا أَفْئُوكَ بَيْنَ يَدَيْكَ يَمَّا يَقُولُونَ ۝٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝٨﴾ [الحجر]، وبيننا هناك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾... الآية [البقرة: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤١﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُفْخِقُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾... [يس].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٢﴾ قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر: «تشقق» بتشديد الشين بإدغام إحدى التائين فيها، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التائين. وقوله تعالى: «سراعا»: جمع سريع، وهو حال من الضمير المجرور في قوله: «عنهم» أي تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي وهو الملك الذي ينفخ في الصور، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج]، وقوله تعالى: ﴿وَيُفْخِقُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس]. وقوله: «ينسلون»؛ أي يسرعون، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر: ٧، ٨]، فقوله «مهطعين»؛ أي مسرعين مادي أعناقهم على الأصح.

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس، في الكلام على قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٍ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ... الآية [فاطر: ١٨].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوًا ۝١ فَالْمُخَلَّاتِ وَقَرًا ۝٢ فَالْمُجْرِيَاتِ سُرًّا ۝٣ فَالْمُقْسَمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا نُوَدُّنَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الْبَيْنَ لَوُفْعٌ ۝٦﴾.

أكثر أهل العلم على أن المراد بالذاريات الرياح. وهو الحق - إن شاء الله - ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِحْ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، ومعنى تذرؤه: ترفعه وتفرقه، فهي تذرئ التراب والمطر وغيرهما، ومنه قول ذي الرمة:

ومنهل أجبن قفر محاضره تذرئ الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال: إن الذاريات النساء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْمُخَلَّاتِ وَقَرًا﴾، وقرأ أكثر أهل العلم على أن المراد بالحاملات وقرأ: السحاب؛ أي المزن تحمل وقرأ ثقلًا من الماء.

ويدل على هذا القول تصريح الله - جلّ وعلا - بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة؛ وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى: ﴿يُسَيِّئُ السَّحَابُ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْعِبَادِ يُغْنِيهِمْ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال بعضهم: المراد بالحاملات وقرأ: السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم، ولو قال قائل: إن الحاملات وقرأ الرياح أيضاً لكان وجهه ظاهراً.

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة؛ لأن الله تعالى صرح بأنّ الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل السحاب إلى حيث شاء الله،

فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ... الآية [الأعراف: ٥٧].

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثِقَالاً، فالإقلال الحمل، وهو مسند إلى الريح، ودلالة هذا على أنَّ الحملات وقرأ هي الرياح ظاهرة كما ترى، ويصح شمول الآية لجميع ذلك.

وقد قدّمنا مراراً أنه هو الأجود في مثل ذلك، وبيننا كلام أهل الأصول فيه، وكلامهم في حمل المشترك على معنيه أو معانيه، في أول سورة النور وغيرها.

والقول بأن الحملات وقرأ: هي حوامل الأجنة من الإناث، ظاهر السقوط، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْبَرْقِيتِ بُشْرًا﴾ [٢٤]؛ أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسراً: السفن تجري في البحر يسراً أي جرياً ذا يسر؛ أي سهولة.

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدّمنا نحوه مراراً؛ أي فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْمَجَارِي فِي الْبَحْرِ﴾ ... الآية [الشورى: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ [١١] [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات، وقيل: الجاريات الرياح، وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمَقْسَدِتِ أَمْرًا﴾ [١]؛ هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة؛ ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَالْمَقْدِرَاتِ أَمْرًا﴾ [٥] [النازعات]، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح. والتحقيق أن قوله: «أمرًا» مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع.

وقد أوضحنا أمثلة ذلك في القرآن العظيم وفي كلام العرب من تنكير المفرد كما هنا، وتعريفه وإضافته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله: ﴿إِنَّمَا تَعُدُّونَ لِمَا دُونَ ۖ وَإِنَّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ۖ﴾ [١]، والموجب لهذا هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء.

وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ [٢]؛ «ما»، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف، والوصف بمعنى المصدر، أي إن الذي توعده من الجزاء والحساب لصدق لا كذب فيه. وقال بعض العلماء: «ما»، مصدرية، أي إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق.

وقال بعضهم: إن صيغة اسم الفاعل في «لصادق» بمعنى اسم المفعول، أي إن

الوعد أو الموعد به لمصدق فيه لا مكذوب به، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فِي عِشَةِ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي مرضية.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿إِنَّكَ مَا تُوعِدُ كَلَّاتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والمراد بالدين هنا الجزاء، أي وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي جزاءهم بالعدل والإنصاف، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَعِيءٌ سَوْفَ يُرَى﴾ [٤٠] ثُمَّ يُجْزَى الْجَزَاءُ الْآوَفُ [٤١] [النجم].

وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء، وبين أن ذلك ظن الكفار، وهداهم على ذلك الظن السيئ بالويل من النار، قال تعالى منكرًا على من ظن عدم البعث والجزاء، ومنزهًا نفسه عن أنه خلقهم عبثًا لا لبعث وجزاء: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٥] فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [١٦] [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [٧] [ص]، في قوله في آية ص هذه: باطلاً أي عبثًا لا لبعث وجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْمُبَارَكِ﴾ [٧] إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُتَحَلِّفٍ [٨] يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ [٩].

قوله تعالى: ﴿ذَاتَ الْمُبَارَكِ﴾؛ فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، فذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك، وعليه فالمعنى ذات الحبك أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك، ومن هذا المعنى قول زهير:

مكمل بأصول النجم تنسجه ريح خريق بضاحي مائه حبك

وقول الراجز:

كأنما جيللها الحواك طنفسة في وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول: الكلبي والضحاك.

وقال بعض أهل العلم: «ذات الحبك» أي ذات الخلق الحسن المحكم، وممن قال به: ابن عباس وعكرمة وقتادة.

وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ [٢] ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [٣] [الملك] إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول فالحبك مصدر؛ لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكاً بالفتح على القياس، والحبك بضمين بمعناه.
وقال بعض العلماء: ذات الحبك؛ أي الزينة.

وممن روي عنه هذا: سعيد بن جبير والحسن، وعلى هذا القول، فالآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذُّنْبَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٥]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لذلك في ق في الكلام على قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾... الآية [ق: ٦].
وقال بعض العلماء: «ذات الحبك» أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ].

والعرب تسمي شدة الخلق حبكاً، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوبك.
ومنه قول امرئ القيس:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوبك ممر

والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق. والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَعَنَى قَوْلِي مُخْتَلَفٍ﴾ (٨)؛ أي إنكم أيها الكفار لفي قول مختلف في شأن النبي ﷺ وشأن القرآن؛ لأن بعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: سحر، وبعضهم يقول: كهانة، وبعضهم يقول: أساطير الأولين، وقول من قال: «في قول مختلف»؛ أي لأن بعضهم مصدق، وبعضهم مكذب؛ خلاف التحقيق.

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين. قوله تعالى في سورة (ق): ﴿كَلَّ كَذِبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٥) [ق]؛ أي مختلط. وقال بعضهم: مختلف، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (٦)؛ أظهر الأقوال فيه عندي ولا ينبغي العدول عنه في نظري، أن لفظة «عن» في الآية سببية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، أي بسبب قولك، ومن أجله، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف، والمعنى: يؤفك أي يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه، أي عن ذلك القول المختلف؛ أي بسببه من أفك أي من سبقت له الشقاوة في الأزل، فحرم الهدى وأفك عنه؛ لأن هذا القول المختلف يكذب بعضه بعضاً ويناقضه.

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لا يخفى، فهذا القول المختلف الذي يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام، الذي يقول فيه بعضهم: إن الرسول ساحر، وبعضهم يقول: شاعر، وبعضهم يقول: كذاب، ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض، فلا يصرف عن الإسلام بسببه إلا من صرف، أي صرفه الله عن الحق لشقاوته في الأزل، فمن لم يكتب عليه في سابق علم الله الشقاوة والكفر لا يصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَتْنٍ ۖ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات].

ومعنى هذه الآية أن دين الكفار، الذي هو الشرك بالله وعبادة الأوثان، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ما هم بفاتنين، أي ليسوا بمضلين عليه أحداً لظهور فسادهم وبطلانهم إلا من هو صال الجحيم، أي إلا من قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار في سابق علمه، هذا هو الظاهر لنا في معنى هذه الآية الكريمة.

وأكثر المفسرين على أن الضمير في قوله: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ﴾ راجع إلى النبي ﷺ أو القرآن؛ أي يصرف عن الإيمان بالنبي أو القرآن، من أفك أي صرف عن الحق، وحرم الهدى لشدة ظهور الحق في صدق النبي ﷺ، وأن القرآن منزل من الله، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى.

وقول من قال: يؤفك عنه؛ أي يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك؛ أي من صرف عن الباطل إلى الحق، لا يخفى بعده وسقوطه.

والذين قالوا هذا القول، يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الباطل إلى الحق، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه الإفك مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ [١٥]. لا يخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعي هو العلة على الأصح، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٥] وفي أنفسكم آياتٌ تَبَصُّرُونَ [١٦]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الجاثية.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [١٦]. اختلف العلماء في المراد بكون رزق الناس في السماء، فذهبت جماعة من أهل العلم أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها من المطر وهو أنزل من السماء، ويكثر في القرآن إطلاق اسم الرزق على المطر، لهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ ... الآية [الجاثية: ٥]. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة المؤمن.

وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته الدالة على عظمته وأنه المعبود وحده، ومن أعظم نعمه على خلقه في الدنيا؛ ولذلك كثر الامتنان به في القرآن على الخلق.

وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أَنَّ أَرْزَاقَكُمْ مقدرة مكتوبة، والله - جلّ وعلا - يدبر أمر الأرض من السماء، كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾... الآية [السجدة: ٥]. قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوْعَدُونَ﴾ (ما) في محل رفع عطف على قوله: ﴿رِزْقُكُمْ﴾، والمراد بما يوعدون، قال بعض أهل العلم: الجنة؛ لأن الجنة فوق السماوات، فإطلاق كونها في السماء إطلاق عربي صحيح؛ لأن العرب تطلق السماء على كل ما علاك كما قيل:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدي شعره المشهور، قال فيه:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنما لنرجو فوق ذلك مظهرها

قال له ﷺ: «إلى أين يا أبي ليلي؟» قال: إلى الجنة، قال: «نعم إن شاء الله».

وقال بعض أهل العلم: وما توعدون من الخير والشر كله مقدر في السماء، كما بيناه في القول الثاني في المراد بالرزق في الآية، وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثاني في معنى الرزق.

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع، فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثوري أنه قال: قرأ وأصل الأحذب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خبرة يمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب، وكان له أخ أحسن منه نية، فدخل معه فصارتا دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت.

ومن ذلك أيضاً: ما ذكره الزمخشري في تفسير هذه الآية قال: وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي، فتلوت: ﴿وَالَّذِينَ﴾؛ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل أصغر فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿قُرْبَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾؛ فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين، قائلاً ثلاثاً، وخرجت معها نفسه، انتهى.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَبِّ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ ﴿٢٦﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، إلى

آخر القصة، قد قدّمنا إيضاحه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ ضَلَفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الحجر]، الآيات. وفي سورة هود في القصة المذكورة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧)، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنهَا لَيْسَ لِسَبِيلِ مُقِيمٍ﴾ (٣٨) [الحجر]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١)، قد قدّمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٢)، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمُ صَیْقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧). قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ الآية [ق: ٦]. تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم؛ لأن قوله بأيدي ليس جمع يد: وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بأيدي فعل، ووزن الأيدي أفعال، فالهمزة في قوله: بأيدي في مكان الفاء والياء في مكان العين، والدال في مكان اللام. ولو كان قوله تعالى: بأيدي جمع يد لكان وزنه أفعلا، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هي اللام.

والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، ورجل أيد قوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط غلطاً فاحشاً، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٥٢) ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قوماً إلا قالوا ساحر أو مجنون، ثم قال: أتواصوا به، ثم أضرب عن توصيهم بذلك إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي الموجب الذي جمعهم على اتفاقهم جميعاً على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والمجنون هو اتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر.

وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا؛ لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ﴾، نفيه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة للوم عن نبيه ﷺ يدل على أنه أدى الأمانة ونصح للأمة.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأُتِمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنّ من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع، فإننا نذكر بقية حكمه، والآيات الدالة عليها، وقد قدمنا أمثلة ذلك.

ومن ذلك القليل هذه الآية الكريمة، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء انتفاع المذكر به؛ لأنه تعالى قال هنا: ﴿فَذَكِّرْ﴾ [ق: ٤٥]، ورتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله: ﴿قَالُوا مَعِذَةَ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ يَنْفَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومن حكم ذلك أيضاً النياحة عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد بين هذه الحجة في آخر طه، في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِيعَ إِلَيْنِكَ﴾ ... الآية [طه: ١٣٤].

وأشار لها في القصص في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِيعَ إِلَيْنِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وقد قدمنا هذه الحكم في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۖ﴾، اختلف العلماء في معنى قوله: «ليعبدون»، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَا يَسُوءُ بَآءُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان.

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم.

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي: «فإن قتلوكم فاقتلوهم»، من القتل لا من القتال، وقد بينا هذا في مواضع متعددة، وذكرنا أن من شواهد العربية قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا من يدِّي ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نبا بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلابي، هو ورقاء يعني ابن زهير العبيسي.

وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ الآية [الحجرات: ١٤]. بدليل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً؛ لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾... الآية [الرعد: ١٥]، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله - جلّ وعلا -، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعاً وبعضهم يفعله كرهاً.

وعن مجاهد أنه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليعرفوني، واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات، وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرتة فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال بعض أهل العلم: وهو مروي عن مجاهد أيضاً، معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا لأمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول، فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: «ليعبدون»، إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية؛ لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفُرُونَ ۖ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا لأمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتيهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴿هود: ٧﴾، ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧].
وقال تعالى في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]... الآية [الكهف].

فتصريحه - جلّ وعلا - في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أنّ نتيجة العمل المقصودة منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وقوله في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانته وظنه أنّه يترك سدى، أي مهملاً، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنّه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا لبيعته بعد الموت؛ أي ويجازيه على عمله، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣١] أَلَمْ يَكُنْ لَكَ قُطْعَةٌ مِّن مَّوَدِّعٍ ﴿٣٧﴾. إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْشِيَ الْمَوْتَ﴾ [٣٧] [القيامة].

والبراهين على البعث دالة على الجزاء، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم، منكرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٥] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٥٠﴾ [المؤمنون].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَدَّدٍ﴾ [الأحقاف: ٣].

تنبيه: اعلم: أنّ الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً، والواقع خلاف ذلك؛ لأنّ كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، وإيضاح ذلك أنّ الله - تبارك وتعالى - ذكر في بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنّه محيط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْزُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [٧٢] [الطلاق].

وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنّه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود

وحده، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَلْقُونَ رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١].

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جداً في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءْيُ قَدِيرًا﴾ [١]، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ الآية [الفرقان: ٢، ٣]، وفي سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الآية [الرعد: ١٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليستلي الناس، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ ... الآية [يونس: ٤]، وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها؛ لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله؛ لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم؛ ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض.

وقد بينا معنى إلا ليعبدون في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، وبيننا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ﴾، أي ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، إرادة كونية قدرية، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿وَلَا يَعْبدُونَ﴾، إرادة دينية شرعية.

وبيّننا هناك أيضاً الأحاديث الدالة على أن الله خلق الخلق منقسماً إلى شقي وسعيد، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ١٢]، وقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ١٧].

والحاصل أن الله دعا جميع الناس على السنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك، وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية، ثم إن الله - جلّ وعلا - يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية، فيصيرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَةٍ﴾ (٥٦)، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية، وهي ملازمة للأمر والرضا، وقد تكون كونية قدرية وليست ملازمة لهما؛ لأن الله يأمر الجميع بالأفعال المرادة منهم ديناً، ويريد ذلك كوناً وقدرراً من بعضهم دون بعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾؛ أي فيما جاء به من عندنا؛ لأنه مطلوب مراد من المكلفين شرعاً وديناً، وقوله: بِإِذْنِ اللَّهِ، يدل على أنه لا يقع من ذلك إلا ما أَرَادَهُ اللهُ كوناً وقدرراً، والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٥) [يونس]، والنبي ﷺ يقول: «كُلُّ ميسر لما خلق له». والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رَّفَقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُوا﴾ (٥٧)، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ (٥٨).

أصل الذنوب في لغة العرب الدلو، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب بالدلو، فيأخذ هذا منه ملء دلو، ويأخذ الآخر كذلك، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب، التي هي الدلو على النصيب. قال الراجز في اقتسامهم الماء بالدلو:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القلب

ويروى:

إننا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبي كان لنا القلب

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة التيمي.

وقيل عبيد:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نذاك ذنوب

وقول أبي ذؤيب:

والأظهر أنّ الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر الله من الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَأَلَكْتُبِ ٱلْمِينِ ۝٢﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿يَسَّ ۝١﴾ [المزمل] و﴿ٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يس]، وقيل: هو كتاب الأعمال، وقيل غير ذلك، والسقف المرفوع: هو السماء، وقد أقسم الله بها في كتابه في آيات متعددة كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات]. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَٰهَا ۝٥﴾ [الشمس]، والرق بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل هو الجلد المرقق ليكتب فيه. وقوله: منشور أي مبسوط، ومنه قوله: ﴿كَتَبْنَا يَلْقَٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَنَّةً ۝٥٢﴾ [المدثر]. والبيت المعمور: هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضرّاح بضم الضاد، وقيل فيه معمر، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين، فقد جاء الحديث: «أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه بعدها».

وقوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلسُّجُورِ ۝١﴾؛ فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما: أن المسجور هو الموقد ناراً، قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة ناراً، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

والوجه الثاني: هو أنّ المسجور بمعنى المملوء؛ لأنه مملوء ماء، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاورا قلامها

فقوله: مسجورة: أي عينا مملوءة ماء، وقول النمر بن تولب العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبَحَارُ سُجِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير]، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها، فهي قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٢٩﴾ [الحاقة]؛ لأن الإقسام في هذه الآية عام في كل شيء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَفَّعُ ۝٧﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول الذاريات، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝١٢﴾ هَذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٣﴾، الدع في لغة العرب: الدفع بقوة وعنف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يَدْعُ ٱلْيَتِيمَ ۝١﴾ [الماعون]، أي يدفعه عن حقه بقوة وعنف، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أنّ الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة.

وثانيهما: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا

تُكَذِّبُونَ ۝١٣﴾.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات أخر،
أما الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٦)؛ قد
ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]: وقوله في سبأ:
﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَكُّ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ نَّعْمًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ﴾ (٢١) [سبأ]: وقوله تعالى في المرسلات: ﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٢)
﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٢٣) لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِيبِ ﴿٢٤﴾ إِنَّهَا تَرْمَى بِشَرِّ
كَالْقَصْرِ ﴿٢٥﴾ ... الآية [المرسلات]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما - وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة، فقد ذكره الله - جلّ وعلا - في
آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ١٧]؛ أي جروه بقوة
وعنف إلى وسط النار، والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق:

ليس الكرام بنا حليك أباهم حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ يَسْمِعُهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْلَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]؛ أي تجمع
الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة.

وقد بين - جلّ وعلا - أنهم أيضاً يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه
كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٠) إِذِ الْأَطْفَالُ فِيَ أَعْنَاقِهِمْ وَالْأَسْلَسِلُ
يُسْحَبُونَ ﴿٥١﴾ فِي الْخَيْسِ ثَمَرٌ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٥٢﴾ [غافر]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ
يَدْعُونَ﴾، بدل من قوله: يومئذ، في قوله تعالى قبله: ﴿قَوْلًا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٥١).

قوله تعالى: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ (٥٢)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا
محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح
هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ
مَحْصِنٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بيّن تعالى في آيات أخر أن
أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
رَهِينَةٌ﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٣٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ [المدرثر].

ومن المعلوم أن التخصيص بيان، كما تقرر في الأصول.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِذِكْهِهِ وَالْخَيْرِ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٣٢)، لم يذكر هنا شيء من
صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون، وقد بيّن صفات هذه الفاكهة

في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَفَكَهَمَ كَثِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ۚ﴾ [الواقعة]، وبين أنها أنواع في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَمْ يَمَّا مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ [محمد: ١٥] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۚ﴾... الآية [البقرة: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْا رِزْقَ مَعْلُومٍ ۖ فَوَكَهَهُمْ ۚ﴾ [مؤمن: ٢٢] [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره، وذلك في قوله: ﴿وَفَكَهَمَ مِمَّا يَخْتَارُونَ ۖ وَلَمْ يَطْرُقْ مِمَّا يَنْتَهُونَ ۚ﴾ [الواقعة].

قوله تعالى: ﴿يَنْتَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾، قرأه ابن كثير وأبو عمرو: «لَا لَغْوٌ» بالبناء على الفتح، «وَلَا تَأْتِيهِمْ» كذلك؛ لأنها «لا» التي لنفي الجنس فبنيت معها، وهي إن كانت كذلك نص في العموم، وقرأه الباقون من السبعة، «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ»؛ بالرفع والتنوين؛ لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها، والقراءتان في الآية فيهما المثال للوجهين، وإعمالها كثير، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية، وقول الشاعر:

وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله: ﴿يَنْتَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ۚ﴾ أي يتعاطون، ويتناول بعضهم من بعض كأساً أي خمرًا، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول، فكل قوم يعطي بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام، وهذا المعنى معروف في كلام العرب. ومنه في الشراب قول الأخطل:

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله: نازعته طيب الراح: أي ناولته كؤوس الخمر وناولنيها، ومنه في الكلام قول امرئ القيس:

ولمّا تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا على الإناء المملوء، وهي مؤنثة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾ يعني أنّ خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون، فيها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا؛ فخمر الآخرة لا لغو فيها، واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه، فخمر الآخرة لا تحمل شاربها على الكلام الخبيث والهذيان؛ لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خمر الدنيا، فإنهم إن شربوها سكرُوا وطاشت عقولهم، فتكلموا بالكلام الخبيث والهذيان، وكل ذلك من اللغو. والتأنيث: هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم، فخمر الآخرة لا يأثم شاربها بشربها؛ لأنها مباحة له، فينعم بلذتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]

ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثماً بخلاف خمر الدنيا، فشاربها يأثم بشربها ويحملة السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمر الدنيا، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَعِينٍ ١٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ١٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ١٧﴾ [الصفات]. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ ١٨؛ أي ليس فيها غول يغتال العقول، فيذهبها كخمر الدنيا، ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ١٩؛ أي لا يسكرون، وكقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ٢٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُلِّ مَعِينٍ ٢١﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ٢٢﴾ [الواقعة]. وقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ ٢٣؛ أي لا يصيبهم الصداق الذي هو وجع الرأس بسببها.

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمر الآخرة، وبيننا أنها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا. وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... الآية [المائدة: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ٢٤﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام؛ أي خدم لهم، وقد قدّمنا إطلاقات الغلام وشواهدا العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ٢٥﴾ [الحجر].

ولم يبيّن هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ٢٦﴾ في أصداقه؛ لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي مخزون لنفاسه؛ لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ٢٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُلِّ مَعِينٍ ٢٨﴾ [الواقعة]. وزاد في هذه الآية كونهم مخلصين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ٢٩﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّنْ فِضْوٍ وَكُؤُوبٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ٣٠﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضْوٍ قَدَرُهَا قَدِيرًا ٣١﴾ [الإنسان].

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ ٣٢﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا ٣٣﴾ [الإنسان].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٣٤﴾ فَسَبَّحْنَاهُ لَعْنَةً وَوَفَّقْنَا عَدَابَ السُّوءِ ٣٥﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً، وأن المسؤول منهم يقول للسائل: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ، أي في دار الدنيا في أهلنا مشفقين أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء فمن الله علينا أي أكرمنا،

وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا، ووقفنا في الدنيا ووقانا في الآخرة عذاب السموم، والسموم النار ولفحها ووهجها، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام، والجمع سمائم. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

أنامل لم تضرب على البهم بالضحى بهن ووجه لم تلحه السمائم
وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد، ومنه قول الراجز:

اليوم يوم بارد سموه من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء في قوله: ﴿فَمَرَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، تدل على أن علة ذلك هي الخوف من الله في دار الدنيا، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا، سبب للسلامة في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كَيْفَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ۖ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلى سَعِيرًا ۖ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ۖ ﴿١٣﴾... الآية [الانشقاق].

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن «إن» المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿١٢﴾﴾؛ علة لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ ﴿١٠﴾ وَيَصْلى سَعِيرًا ۖ ﴿١١﴾﴾. والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ۖ ﴿١٣﴾﴾؛ لأن معناه ظن أن يرجع إلى الله حياً يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب؛ لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع؛ معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

أليلتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي فلا ترجعي.

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

أي يرجع رماداً، وقيل: يصير، والمعنى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ ﴿١٤﴾ فِي سُمُومٍ وَجَمِيمٍ ۖ ﴿١٥﴾ وَظَلَّ مِنْ يَمِينِهِمْ ۖ ﴿١٦﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ۖ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ ﴿١٨﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿١٩﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَبِئْسَ مَا لَكُمُورٌ ۖ ﴿٢٠﴾... الآية [الواقعة]؛ لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله: ﴿مُتْرَفِينَ ۖ ﴿١٨﴾﴾، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ﴿٢٠﴾﴾... الآية [الواقعة: ٤٧]. دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في سموم وحميم.

وقد قدمنا قريباً أنّ «إن» المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٢٩) ... الآية [الواقعة]. علة لقوله: ﴿فِي سَمُورٍ وَجَمِيرٍ﴾ (٣٠) ... الآية [الواقعة].

وقد ذكر - جلّ وعلا - أنّ الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (١٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿١٨﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٥) [المعارج]، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْغَيْرَتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ﴾ (٦١) [المؤمنون]، وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ [الواقعة].

وقوله في آية الواقعة المذكورة: ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤١) [الواقعة]، أي يديمون ويعزمون على الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل: المراد بالحنث: حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (١٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُونٍ ﴿٢٠﴾. نفى الله - جلّ وعلا - عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه ﷺ رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنّه كاهن أو مجنون، فقد نفاه صريحاً بحرف النفي الذي هو «ما» في قوله: فما أنت، وأكد النفي بالباء في قوله: بكاهن، وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأَم المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾؛ لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢) [القلم]. وقوله في التكويد: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٣٢) [التكوير]. وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين؛ أعني الكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٨) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٩﴾ [الحاقة]، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الشعراء، وغيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُونٍ﴾؛ أي ننتظر به حوادث الدهر، حتى يحدث له منها الموت، فالمنون: الدهر، وريبه: حوادثه التي يطرأ فيها الهلاك والتغيير، والتحقيق أن الدهر هو المراد في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله: وريبه يدل على أن المنون الدهر، ومن ذلك أيضاً قول الآخر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها
وقال بعض العلماء: المنون في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت
معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي الغول الطهوي:

هم منعوا حمى الوقي بضرب يؤلف بين أشات المنون
لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا، جاءوا من جهات مختلفة، فجمع
الموت بينهم في محل واحد، ولو ماتوا في بلادهم لكانت مناياهم في بلاد شتى.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤)، قد قدمنا أن الله
تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة، في قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... الآية [البقرة: ٢٣]. وفي سورة يونس، في قوله تعالى:
﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... الآية [يونس: ٣٨].

وتحداهم في سورة هود، بعشر سور مثله في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
مُفَرَّغَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... الآية [هود: ١٣].
وتحداهم في سورة الطور، هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ... الآية.

وبين في سورة بني إسرائيل، أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك في قوله: ﴿قُلْ لَئِنْ
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ... الآية [الإسراء: ٨٨].

وقد أطلق - جلّ وعلا - اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِثْلِهِ﴾؛ كما أطلق عليه ذلك في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا... الآية
[الزمر: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ... الآية [يوسف: ١١١].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حُفِرُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾ (٣٥)، قد قدمنا الكلام عليه
وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ
أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٣٦) [مريم: ...].

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ سَاهٍ يَسْتَعْمُونَ فِيهِ﴾ (٣٦) قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة
له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا
لِلنَّظِيرِ﴾ (٣٧) الآية [الحجر: ١٦، ١٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَتْ وَلَكُمْ الْبُنُونَ﴾ (٣٨)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في
سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾
(٣٩) [النحل: ...]، وفي مواضع أخر متعددة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ سَتُلْقَوْنَ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَقَرِّمْ مُنْقَلَبُونَ﴾ (٤٠)، قد قدمنا الآيات الموضحة
له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَقُورَ لَآ
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ... الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٥١﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾... الآية [الأنعام: ٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئاً في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ٢٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكَ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٢٩﴾ [المرسلات].

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضاً كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ٤٦﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ٥٥﴾ وَكَيْدٌ كَيْدًا ٥٦﴾... الآية [الطارق]، وقوله: ﴿مَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٨٧﴾ وَأُمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٨٨﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾. الظاهر أن قوله: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره، لما دل على ذلك قوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك؛ لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ مَا سَلَ صَاحِبُهُ وَمَا عَوَى ٢﴾ وَمَا يُطِئُ عَنِ الْمَوَىٰ ٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾، اختلف العلماء في المراد بهذا النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد به النجم إذا رجمت به الشياطين، وقال بعضهم: إن المراد به الثريا، وهو مروي عن ابن عباس وغيره، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجرداً إلاّ عليها، ومنه قول نابغة ذبيان:

أقول والنجم قد مالت أواخره إلى المغيب تشبث نظرة حار

فقوله والنجم: يعني الثريا، وقوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي سقط مع الصبح، وهذا اختيار ابن جرير. وقيل النجم: الزهرة، وقيل المراد بالنجم نجوم السماء، وعليه فهو

من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله: ﴿وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، يعني الأدبار، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلِكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٧] أي والملائكة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] أي الغرف.

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن، وفي كلام العرب في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، وإطلاق النجم مراداً به النجوم معروفة في اللغة، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب
وقول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكليين جمودها

وعلى هذا القول، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتشارها يوم القيامة. وقيل: النجم النبات الذي لا ساق له، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن، فإنه نزل على النبي ﷺ أنجماً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق عليها اسم النجم صدقاً عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة، وللكتابة المنجمة على العبد المكاتب.

وعلى هذا فقوله: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي نزل به الملك من السماء إلى النبي ﷺ، وقوله: هوى يهوى هُويًا إذا اخترق الهوى نازلاً من أعلى إلى أسفل.

اعلم أولاً أنّ القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها، وإن اختاره ابن جرير وروى عن ابن عباس وغير واحد، ليس بوجيه عندي.

والأظهر أنّ النجم يراد به النجوم، وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح، والدليل على ذلك جمعه تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]؛ لأنّ الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا، كالمراد بمواقع النجوم في الواقعة.

وقد اختلف العلماء أيضاً في المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم: هي مساقطها إذا غابت، وقال بعضهم: انتشارها يوم القيامة. وقال بعضهم: منازلها في السماء؛ لأنّ النازل في محل واقع فيه. وقال بعضهم: هي مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبي ﷺ.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، وبمواقع النجوم في الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجماً فتجماً، وذلك لأمرين:

أحدهما: أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي ﷺ على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم، وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْمٌ كَرِيمٌ﴾ [٧٧] في كِتَابٍ مَّكُونٍ [الواقعة: ٧٨]. إلى قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨١] [الواقعة].

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي ﷺ وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) ﴿يسر﴾. وقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ (٦) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٧) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٨) وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ لَعَلَّيْ حَكِيمٌ (٩) ﴿الزخرف﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وثانیهما: أن كون المقسم به المعبر عنه بالنجوم، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (١٠) [الواقعة]؛ لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة.

ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا صَلَ صَاحِبُهُ وَمَا عَوَّى﴾ (١١)، قال بعض العلماء: الضلال يقع من الجهل بالحق، والغي هو العدول عن الحق مع معرفته؛ أي ما جهل الحق وما عدل عنه، بل هو عالم متبع له.

وقد قدّمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدا العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَلَمَّا إِذَا مَا مِنَ الْأَشْيَاءِ﴾ (١٢) [الشعراء]، وفي سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِ أَعْمَلًا﴾ (١٣) [الكهف].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه ﷺ على هدى مستقيم، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (١٤) [النمل]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَتَذَكَّرُ فِي الْأَمْرِ وَادَّعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّيْ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٥) [الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦) [الزخرف]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١٧) [النجم]، استدلل به علماء الأصول على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا: إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ ... الآية [التوبة: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ﴾ ... الآية [الأنفال: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ... الآية [التوبة: ١١٣].

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ ... الآية [التوبة: ٤٣]. ولما قال: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧]، ولا منافاة بين الآيات؛ لأن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١٧)، معناه أن النبي ﷺ لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر

أو كهانة، أو أساطير الأولين، هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين من غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحى خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥)، المراد ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾؛ في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام والمعنى أنه ﷺ علمه هذا الوحي ملك شديد القوى هو جبريل، وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي ﷺ بأمر من الله.

وثانيهما: أن جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ... الآية [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ بِرَبِّ الْعَالِينَ﴾ (١٢٦) نَزَّلَهُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٧﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِكَ بِهِ لِسَانَكَ لَتَجْعَلْ بِهِ﴾ (١٢٨) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢٩﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبَعِثْ فَرُّهُمْ ﴿١٣٠﴾ [القيامة]؛ أي إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منا مبلغاً له عنا فاتبع قرآنه، أي اقرأ كما سمعته يقرأ.

وأما الأمر الثاني، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٣١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٣٢﴾ [التكوير]. وقول في آية التكوير هذه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ [الحاقة: ١٩]؛ أي لقوله المبلغ له عن الله، فقرينة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئاً أرسل به، فالكلام كلام الله بألفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له؛ لأن النبي ﷺ ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله الله؛ وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قرينة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة - إن شاء الله - في سورة التكوير، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٧). قد قدمنا بعض الكلام عليه في أول سورة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَهُ الْأُنْفَى﴾ (٨) تِلْكَ إِذْ فَسَمَّتْ مُصْرَى ﴿٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧]، وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (١٥).

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبين

هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ [الليل]، وبين في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْءٌ﴾ [النمل: ٩١]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْقِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ ﴿١٤﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ ... الآية [البقرة: ٤٨]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَةً الْأُنثَىٰ﴾ ﴿١٥﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا وَعِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ ... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ [الذاريات].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْشَأَ رَبُّكَ الْأَرْضَ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾ أَعْدَدُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٢٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ﴿٢٦﴾ وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٢٧﴾ أَلَّا نَزِدَّ بِرِزْقٍ وَزَرْءٍ أَثَرًا ﴿٢٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٢٩﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ يُجْرِيهِ الْكَرَّاءَ الْآوَقَىٰ ﴿٣١﴾.

قوله: تولى؛ أي رجع وأدبر عن الحق. وقوله: أعطى قليلاً، قال بعضهم قليلاً من المال. وقال بعضهم: أعطى قليلاً من الكلام الطيب. وقوله: وأكدى أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه، وأصله من أكدى صاحب الحفر؛ إذا انتهى في حفره إلى صخرة لا يقدر على الحفر فيها، وأصله من الكدية وهي الحجارة تعترض حافر البشر ونحوه فتمنعه الحفر، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدى، اختلف فيه العلماء، فقليل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي ﷺ فعيّره بعض المشركين، فقال: أتركت دين الأشياء وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى

شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه ثمانية، فأنزل الله عز وجل الآية.

وعلى هذا فقوله: تولى؛ أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب، وأعطى قليلاً من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه. وأكدى؛ أي بخل عليه بالباقي، وقيل: أعطى قليلاً من الكلام الطيب كمدحه للقرآن واعترافه بصدق النبي ﷺ، وأكدى أي انقطع عن ذلك ورجع عنه. وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، وكان ربما وافق النبي ﷺ في بعض الأمور، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك، وهو معنى إكذائه، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعده: ﴿أَعْنَدُ عِلْمَ الْغَيْبِ﴾

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل، قال: والله ما يأمرنا محمد ﷺ إلا بمكارم الأخلاق، وذلك معنى إعطائه قليلاً، وقطعه لذلك معروف.

واقتصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان ؓ قال: روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنباً وخطايا، وإنني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها، وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية. ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل، انتهى منه.

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور:

الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله: ﴿أَعْنَدُ عِلْمَ الْغَيْبِ﴾ والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صحفاً لم ينبأ بما فيها هذا الكافر.

الثالث: أن إبراهيم وفقى؛ أي أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها.

الرابع: أن في تلك الصحف، أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

الخامس: أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

السادس: أن سعيه سوف يرى.

السابع: أنه يجزاه الجزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم.

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأول منها: وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَمَا يَكْتُوبُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الطور]. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ عِنْدَ الرِّحَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ [مریم]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقوله

تعالى: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۝... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] والآيات يمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولي المعطي قليلاً المكدي عالماً بها، ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝﴾ [الأعلى].

والثالث: منها وهو إبراهيم وفي تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۝﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلي بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝﴾ [العنكبوت]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلَةٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۝﴾ [فاطر: ١٨].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝﴾ [الإسراء: ١٥]، وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ ۝﴾ [النحل: ٢٥].

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝... الآية [الإسراء: ٧]. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ۖ... الآية [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَتَهَدُونَ ۖ﴾، والآيات يمثل هذا كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ۝﴾؛ يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات؛ لأن قوله: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ۝﴾، قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً له ولا مستحقاً له. وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۝﴾ [الطور: ٢١].

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ۝﴾ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ۝﴾ [الطور: ٢١]، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة النجم، وقلنا فيه ما نصه: والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أَنَّ الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: وَأَنَّ لَنْ يَنْتَفِعَ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِمَا سَعَى، وَإِنَّمَا قَالَ: وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه.

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له واليحيى عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أَنَّ إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك، فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفرداً، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعي فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَبْغَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانِهِ﴾ [الطور: ٢١].

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٢٧]، ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم.

فالآية تصديق الأخرى ولا تنافيها؛ لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحدود العيين، والخلق الذين ينشئهم للجنة. والعلم عند الله تعالى، اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزأه الجزاء الأوفى، فقد جاء موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ... الآية [الأعراف: ٨، ٩]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الأنبياء: ١٧] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء: ٧]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ يَرَى﴾؛ أي يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أَنَّ سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى؛ لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه يفعل ذلك، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ أي لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة بني إسرائيل، وأنه لا يملك الإنسان ولا

يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.

وقال أبو حيان في البحر: «أفرايت» بمعنى أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته، والمفعول الثاني هو جملة ﴿أَعِنْدُ عَلُو الْعَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ (٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (٣٥) **من تُطْفَعُ إِذَا تَمَتَّ** (٣٦). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين؛ أي النوعين الذكر والأنثى من نطفة، وهي نطفة المني، إذا تمنى أي تصب وتراق في الرحم، على أصح القولين.

ويدل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٣٨) **أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُوقُونَ** (٣٩) [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ﴾ (٣٧) [القيامة]. والعرب تقول: أمني الرجل ومني إذا أراق المني وصفه.

وقال بعض العلماء: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَتَّ﴾ (٣٦)؛ أي تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل، ومن قول العرب: مني الماني إذا قدر، ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي، وقيل سويد بن عامر المصطلق:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم
واسلك سبيلك فيها غير محتشم
إن المنايا تتوافي كل إنسان
حتى تلاقي ما يمني لك الماني

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفى من جهات في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ... الآية [النحل: ٤]. وفي سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]، وفي كل من الموضوعين زيادة ليست في الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين؛ أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضعاً في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) **أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ** (٣٧) **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَطَلَقَ فَسَوَى** (٣٨) **فَعَمَلٍ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** (٣٩) **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ لِلْكَوْنِ** (٤٠) [القيامة]، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرأ على من ظن ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) [القيامة]، أي مهملاً من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلْنَاهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (٣١) [الفرقان].
قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخَرَى﴾ (٤٧). قد قدمنا الآيات الموضحة له، وأحلنا عليها مراراً كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (٤٨) **وَنُوحًا مِمَّا أَقْبَى** (٤٩). وقد قدمنا الآيات

الموضحة لما أهلك به عاداً، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾... الآية [فصلت: ١٦]، وقوله في شأن ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ (٥١).

قوله: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥١)؛ أي وأهلك قوم نوح، ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ الآية [الفرقان: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٢) [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [هود: ٣٧]؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم، قد بيّنه تعالى في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبًّا وَهَكَذَا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٧﴾ مَا ذَانِهِمْ وَأَسْتَعْسَفُوا فِيآبِهِمْ وَاسْمُرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾﴾ [نوح].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنْهُمْ مَالَهُمْ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح] إلى قوله ﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح]. وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْإِنْفَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ (٥٣). المؤتفكة، مفتعلة من الإفك، وهو القلب والصرف، والمراد بها قرى قوم لوط بدليل قوله في غير هذا الموضع: (والمؤتفكات). بالجمع؛ فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مراراً، وإنما قيل لها: مؤتفكة؛ لأن جبريل أفكها فأتفكت، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها أسفلها، وجعل عاليها أسفلها، وهو اتفأكها وإفكها.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا﴾... الآية [هود: ٨٢].

وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر].

وقد بينا قصة لوط في هود والحجر، وقوله في هذه الآية الكريمة: أهوى. تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أسفل، وأهواه غيره: إذا ألقاه من العلو إلى السفل؛ لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها؛ أي ألقاها تهوي إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها.

قوله تعالى: ﴿أَفَتِ الْآرِزَةُ ﴿٥٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١]، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْآرِزَةِ﴾... الآية [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَ هَذَا الْكُذِّبِ تَعَجُّونَ ﴿٥٩﴾﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾... الآية [الطور: ٣٤].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

قوله تعالى: ﴿أَفَتَرَى السَّاعَةَ ﴿١﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا ﴿٢﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٧].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴿٣﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وفي سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] وفي سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٥﴾﴾. ففتحنا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿٦﴾ وَفَجَّرْنَا

الْأَرْضَ عِيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾. قرأ هذا الحرف ابن عامر، «فَفَشَّحْنَا» بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلاً: إن قومه غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم؛ فأهلكهم بالغرق؛ لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً.

وقوله: عيوناً، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون الأرض، والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، وأل في قوله: التقى الماء للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُدِرَ؛ أي قدره الله وقضاه.

وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه - جلّ وعلا -، أن ينتصر له من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى في الصافات ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات].

وقد بين - جلّ وعلا - أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: «فانتصر» وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا إِلَى الْبَارِئِ أَكْفَارًا ﴿٦٢﴾﴾ [نوح]، وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ نُوْحٍ إِنَّ نُوْحَ بْنَ نُوْحٍ لَمِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦١﴾﴾ [نوح]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿عِيُونًا﴾، قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «عيونا» بكسر العين لمجانسة الياء.

وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام، وعاصم في رواية حفص «عِيُونًا» بضم العين على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾﴾. لم يبين هنا ذات الألواح والدرس، ولكنه بين في مواضع آخر أن المراد: وحملناه على سفينة ذات ألواح؛ أي من الخشب ودرس: أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.
وقال بعض العلماء: الدسور جؤجؤ السفينة؛ أي صدرها ومقدمها الذي تدر به
الماء؛ أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة. قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَفَا
الْمَاءُ حَمَلْنَاكَ فِي الْجَارِيَةِ ۖ﴾ [الحاقة: ١١]، أي السفينة كما أوضحناه في سورة الشورى في
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَآئِنِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۖ﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ
أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۖ﴾ [يس]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ﴾. الضمير في قوله تعالى:
«تركناها»، قال بعض العلماء: إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح.

والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم؛ لينزجروا
ويكفوا عن تكذيب الرسل، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح، وكون هذه الفعلة آية
نص عليه تعالى بقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا مَّاءِ﴾
[الفرقان: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۖ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

وقال بعض العلماء: الضمير في تركناها عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية
بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ۖ﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا مَّاءِ﴾
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ﴾. قد قدمنا إيضاحه في
سورة القتال، في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَفْأَلِهَآ ۖ﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ﴾. قد قدمنا إيضاحه في
سورة القتال، في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَفْأَلِهَآ ۖ﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسَمَّرٍ ۖ﴾. قد قدمنا الآيات
الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام
على قوله تعالى: ﴿فَلَوْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّا وَجَدْنَا نَبَعُهُ ۖ﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْ بَيْنِنَا ۖ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لهما في
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِجْبًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقوله تعالى: الآية
﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّافَةَ فَنَنَّةَ لَهُمْ ۖ﴾. قوله: ﴿مَرْسَلْنَا النَّافَةَ﴾؛ أي مخرجوها من

الهضبة، ﴿فِنَّةً لَهُمْ﴾؛ أي ابتلاء واختباراً، وهو مفعول من أجله؛ لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفنته لهم؛ أي ابتلاء واختباراً، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه.

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة، بسوء أهلكهم، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله تعالى في سورة هود، عن صالح: ﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ ۝١٦﴾ [هود: ١٦]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِّمَّا شَرِبْتَ وَلَكِنَّ يَوْمَ يَخْلَعُ ۝١٦٠ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٦١﴾ [الشعراء: ١٦١].

وقد بين تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةُ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] - إلى قوله - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ۝٧٨﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۝١٥٧﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ... الآية [الشمس: ١٤].

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَنبِئُهُمُ أَنَّ الْمَاءَ فَنَسَاءٌ يَّيْتُهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ۝١٧٨﴾. أي أخبر يا صالح ثمود أن الماء - وهو ماء البئر التي كانت تشرب منها الناقة - قسمة بينهم، فيوم للناقة ويوم لثمود، فقوله: «بينهم»: أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾؛ أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِّمَّا شَرِبْتَ وَلَكِنَّ يَوْمَ يَخْلَعُ ۝١٦٠﴾ [الشعراء: ١٦٠]، وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقَيْنَهَا ۝١٦٣﴾ [الشمس: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ (٢٩). قوله: ﴿فَتَعَاطَى﴾، قال أبو حيان في البحر: فتعاطى هو مطاوع عاظم، وكان هذه الفعلية تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده، انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: «فمقر» أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم؛ وذلك في قوله: ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ أَشَقَّتْهَا﴾ (٣٠) [الشمس].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة؛ لأنه قال: ﴿فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾، بالإنفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٧]، وقوله تعالى في هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّقُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله في الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ (١٥٧) [الشعراء]، وقوله في الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ (٢٩) يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع؛ لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: ﴿فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ على نداءهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وقد قدمنا في سورة الحجرات، أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: (فإن قتلوكم فاقتلوهم) بصيغة المجرد في الفعلين؛ لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع:

فإن تقتلونا عند حرة واقم فإننا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا. وأن منه أيضاً: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآئِمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤]، لأن هذا في بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ إلى قوله ﴿سَيَذَلِّهِمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
وقوله تعالى: ﴿تَقَرَّرْ﴾؛ أي قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح
ومنه قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يامراً القيس فانزل
ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقرى الضيف قول جرير:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّغَةً وَاحِدَةً﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في
سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَيِّغَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ يَمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾، قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى آلِ الْقُرْيَةِ أَلْحَىٰ أَمْطَرْنَا مَطَرًا أَسْوَأَ﴾ [الفرقان: ٤٠]، قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ
نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة.

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود، وسورة الحجر، في الكلام
على القصة المذكورة في السورتين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾. تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله؛ أما
الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه.
واعلم أولاً أن قوله: ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول.
وقيل: هو مصدر بمعنى الإنذار فعلى أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون،
وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة
إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبِئْهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِبرَهُمْ فَذَحِّنْكَ بِشَايِهِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى﴾ [طه]، ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن الله

تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١١]، وهنا جمع النذر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُ آلُ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ [١١]، وللعلماء عن هذا أجوبة؛ أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو مقرر في أصول مالك بن أنس رحمته الله، وعقده صاحب مراقي السعود بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر اثنان في رأي الإمام الحمير قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، ولهما قلبان فقط. وقوله: ﴿إِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُنُ﴾ [النساء: ١١]، والمراد بالإخوة اثنان فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله ﴿وَأَطْرَافُ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق في الجواب، أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [١٥] [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥].

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْنٌ يَبْعُضُ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢].

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء، أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠]. ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِئُكُمْ مِنَ الْغَمِّ﴾ [١٦١]، إلى قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذِبُونٌ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٢]، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِئُكُمْ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الشعراء: ١٦٢]، ونحو ذلك. في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ يَوْمِينَكَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ كُتُوبًا فَكَذَّبَ وَأَنَّ﴾ [طه: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكَافِرِينَ﴾ [٧٠] فَكَذَّبَ وَعَصَى [٧١] [النازعات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَدًّا مِثْلَ الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [١٧] فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا أَنْتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [١٣] وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [١٤] [النمل: ١٤].

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى: ﴿فَلَاخِذْكُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٌ﴾، فقد جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [٢٨] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَلَاخِذْتَهُ وَجُودُهُ فَبَدَّ لَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُجُودِهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٌ﴾؛ يوضحه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٧].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية [هود: ١٠٢]، والعزير: الغالب، والمقتدر: شديد القدرة عظيمها. قوله تعالى: ﴿أَكْفَاؤُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨]، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهمْ ذُقُوا مِنْ سَفَرٍ﴾ [٤٨]، قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤٩].

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف، في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [٥١] وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [٥٢].

الصحيح في معنى الآية: أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر؛ التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر؛ أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَلَّنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَصَّرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر: معناه المسطور؛ أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلنَّفِثِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ﴾. أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد وإرادة الجمع، كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، وفي غير ذلك من المواضع. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾. قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن - جلّ وعلا - كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، كما تقدم في الفرقان.

وقد قدّمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾. أي علم نبيه ﷺ القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ يُوَفِّرُ ۝﴾ [المدثر]، أي يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۝﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ۝ [الفرقان: ٥].

فقوله تعالى هنا: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾؛ أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن - جلّ وعلا - هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ابْتِغَاءُ مَن لَّدُنْ حَكِيمٌ خَيْرٌ ۝﴾

[هودا]، وقوله تعالى: ﴿حَدَّثْنَا نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ١ - ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ٥٣﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾ [القيامة]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ٢﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم.

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وتعليمه - جلّ وعلا - هذا القرآن العظيم، قد بين في مواضع آخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمدوه على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ١﴾ [الكهف]، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه - جلّ وعلا - في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصاص: ٨٦]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٥، ٦]، وقد بينا الآيات الموضحة لذلك في الكهف والزخرف.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ١٦﴾ حذف فيه أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي القرآن وقيل جبريل، وقيل الإنسان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٣﴾. اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله، في أول النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٤﴾ [النحل]، وقوله في آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٥﴾ [يس].

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام، مع

أن الله خلقه من نطفة وجعله خصباً مبيناً آية من آياته - جلّ وعلا - دالة على أنه المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؛ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في الفلاح: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ١٣٠ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ مَكِينٍ ١٣١ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْطَةَ عَلاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلاقَةَ مِضْجَةً فَخَلَقْنَا الْمِضْجَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٣٢ [المؤمنون]. والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة.

وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ رَبِّ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، وبيننا هناك معنى النطفة والعلاقة والمضغة في اللغة.

وقوله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ١٣٣؛ التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ﴾ [النحل: ٤]، في سورة النحل، ويسر، وقوله: ﴿مُتِينٌ﴾ [النحل: ٤]، على أنه اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم، أي مبين كل ما يريد بيانه، وإظهاره بلسانه مما في ضميره، وذلك لأنّ ربه علمه البيان، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة، وأنّ المعنى: فإذا هو خصيم مبين أي بين الخصومة ظاهرها، فكذاك أيضاً؛ لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان.

وقد امتن الله - جلّ وعلا - على الإنسان بأنّه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ١٣٤ [البلد].

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ١٣٥. الحسبان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى بحسبان أي بحساب وتقدير من العزيز العليم. وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بني آدم؛ لأنّهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعدن بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ١٣٦ [يونس].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَحَوَّاءَ آيَةً وَأَيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١١٢].

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية، فقال بعض العلماء: النجم هو ما لا ساق له من النبات كالبقول، والشجر هو ما له ساق، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم نجوم السماء.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله - جلّ وعلا - في سورة الحج، صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه، ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾... الآية [الحج: ١٨].

فدلّت هذه الآية أن الساجد مع الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم النجوم، وقد قدّمنا الكلام عليه في أول سورة النجم، وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجوم قول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكليّن جمودها
وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:

أبرزها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة: يسجدان، قد قدّمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا﴾ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾ [الرعد].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾. قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾؛ قد بينّا الآيات الموضحة له في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾... الآية [ق: ٦]. وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ فَنَسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وذكرنا بعضه في سورة الشورى.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْثَارِ﴾ فِيهَا فَنَكِمَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٦﴾ وَالْعَصْفُ ذُو الْأَعْنَافِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنعام وهو الخلق؛ لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع

الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع. من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم؛ ولذا قال تعالى بعده: ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه - جلّ وعلا - على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾... الآية [الرعد ٣]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الآية [الملك: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢٥) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا ﴿٢٧﴾ مَتْنًا لَكُمْ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ ﴿٢٨﴾ [النازعات]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾... الآية [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿٧﴾ بَصِيرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾... الآية [ق: ٧ - ٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾؛ أي فواكه كثيرة، وقد قدّمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب. وقوله: ﴿وَالْتَحُلْ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾؛ ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير شموله للأمرين. وقوله: ﴿وَالْعَصْفُ﴾ كالقمح ونحوه، وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾، وقال أكثر العلماء: العصف ورق الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ﴿٥﴾ [الفيل] وقيل العصف: التبن. وقوله: ﴿وَالرِّيحَانُ﴾: اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل العلم: هو كل ما طاب ريحه من النبات وصار يشم للتمتع بريحه. وقال بعض العلماء الريحان: الرزق، ومنه قول التمر ابن توبل العكلي:

فروح الإله وريحانه ورحمته وسما در
غمام ينزل رزق العباد فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الريحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي، وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأمرين المذكورين.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَالْعَصْفُ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيحَانُ﴾ ﴿٧﴾؛ بضم الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وهو عطف على فاكهة أي فيها فاكهة، وفيها الحب... إلخ، وقرأه ابن عامر:

«والحبُّ ذا العصف والريحان»، بفتح الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وفي رسم المصحف الشامي ذا العصف بألف بعد الذال، مكان الواو، والمعنى على قراءته: وخلق الحب ذا العصف والريحان، وعلى هاتين القراءتين، فالريحان محتمل لكلا المعنيين المذكورين.

وقراءة حمزة والكسائي بضم الباء في الحب وضم الذال في ذو العصف وكسر نون الريحان عطفاً على العصف، وعلى هذا فالريحان لا يحتمل المشموم؛ لأن الحب الذي هو القمح ونحوه صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب الريح.

فيتعين على هذه القراءة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من ورق وتبن، والمراد بالريحان، ما يأكله الناس من نفس الحب، فالآية على هذا المعنى كقوله: ﴿مِنَّا لَكُمْ وَلَاتَقْمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٠] يُثَبِّتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ... الآية [النحل: ١٠، ١١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهَا فَكِهَةٌ﴾، ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الفلاح: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْكُهُ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا وَأَبَّاءُ﴾ [عبس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَبِيدِ﴾ [ق: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [وعدنا: ٣٧] وقوله [عبس: ٢٧، ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾... الآية [الأنعام: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنخل، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدُهُ﴾ [زقاً لِلْعِبَادِ] [ق: ١٠، ١١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي، جاء موضحاً في آيات كثيرة أيضاً كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

مسألة: أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع؛ لأن الله امتن على الأنعام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومعلوم أنه - جلّ وعلا - لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضاً بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وفي هذه المسألة قولان آخران:

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله - جلّ وعلا -، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاث مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل؛ لأنّ الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها.

الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة.

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ [البقرة: ٢٩].

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث: «لا ضرر ولا

ضراراً»، ولأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز؛ لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة، كما أشار له في مراقبي السعود بقوله:

والغ إن يك الفساد أبعداً

أو رجح الإصلاح كالأسارى تفدى بما ينفع للنصارى
وانظر تدلي دوالى العنب في كل مشرق وكل مغرب

ومراده: تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة، أو البعيدة ممثلاً له بمثالين:

الأول منهما: أن تخلص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة، التي هي انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى. الثاني: أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه؛ لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة، وهذا التفصيل الذي اخترنا، قد أشار له صاحب مراقبي السعود بقوله:

والحكم ما به يجيء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه: اعلم أن علماء الأصول يقولون: إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية، وهي استصحاب العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه.

ونحن نقول: إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٩]، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه، إذ لا تحريم إلا ببيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَكَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقوله: ﴿مَا سَكَفَ﴾ أي ما مضى قبل نزول التحريم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ منقطع؛ أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم، فهو عفو؛ لأنه على البراءة الأصلية.

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، لأن النبي ﷺ لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته على الشرك، واستغفر المسلمون لموتاهم المشركين عاتبهم الله في

قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلشَّيْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]. ندموا على الاستغفار لهم، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذة به؛ لأنه وقع قبل بيان منعه، وهذا صريح فيما ذكرنا.

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضاً في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وبيننا هناك كلام أهل العلم في ذلك، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ﴾ ❶ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۖ ❷. الصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة؛ أي صوت إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال المتنن، والفخار الطين المطبوخ، وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تنتشرون﴾ ❸ [الروم]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وقد بينا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]. أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها؛ لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ❹ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِّن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ثم خمر هذا الطين فصار حمأً مسنوناً، أي طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ❺... الآية [الحجر]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]. وقال عن إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ❻ [الحجر]، والمسنون قيل: المتغير، وقيل: المصور، وقيل: الأملس، ثم ييس هذا الطين فصار صلصالاً، كما قال هنا: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ❼. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ❽ [الحجر]. فالآيات يصدق بعضها بعضاً، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى.

قوله: ﴿وَالْجَانَّ﴾؛ أي وخلق الجان وهو أبو الجن، وقيل هو إبليس، وقيل: هو الواحد من الجن.

وعليه فالألف واللام للجنس، والمارج: اللهب الذي لا دخان فيه، وقوله من نار: بيان لمارج؛ أي من لهب صاف كائن من النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢١) ﴿وَلَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) [ص].

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ﴾ (٧). قد أوضحنا الكلام عليه في أول الصفات في الكلام على قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ (٥) [الصفات].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (٨) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (١٠). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٢) [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١٢). قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو، «يُخْرِجُ» بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج. وقرأه باقي السبعة: «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج.

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية، مع كثرتهم وجلالته لا شك في بطلانه؛ لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فالتنوين في قوله: «من كل» تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لَحْمًا طَرِيًّا وتستخرجون حلية تلبسونها؛ وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه.

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْحَيْنُ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]. واللؤلؤ: الدر، والمرجان: الخرز الأحمر، وقال بعضهم: المرجان: صغار الدر، واللؤلؤ: كباره.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (١٤). قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢١) [الشورى].

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْهَا فَايٌ﴾ (١٦) ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٧). ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه - جلّ وعلا - المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجَهَنَّمَ [القصاص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِيٍّ لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].
وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، وفي سورة القتال. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَمَعَّرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [١٣٢]. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] [الحجر]، وتكلمنا أيضاً هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [٢٧].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: وردة: أي حمراء كلون الورد، وقوله كالدهان: فيه قولان معروفان للعلماء:

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد؛ لأنّ العرب تسمى ما يدهن به دهاناً، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس:

كأنهما مزادتا متعجل
فريان لما تُدْهَنِي بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله قد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير

هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ۝٨﴾ [المعارج]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا: إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف، أنّ المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف: ٢٩].

والقول بأن الوردة تشبيه بالفرس الكميّ وهو الأحمر؛ لأن حمرة تتلون باختلاف الفصول، فتشد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل.

وأنّ المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١٦﴾... الآية [الطور]، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١٦﴾ [الانشقاق]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُمَيِّزُ وَفَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ الْفَتَقَ ۝١٦﴾... الآية [الفرقان: ٢٥]. وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١٦﴾ [الانفطار]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١٦﴾ [ق: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ۝٢٩﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنّه يوم القيامة لا يسأل إنساً ولا جاناً عن ذنبه، ويبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص: ٧٨].

وقد ذكر - جلّ وعلا - في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝١٦﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [الحج].

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أنّ بينها اختلافاً، اعلم أولاً أنّ للسؤال المنفي في قوله هنا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ۝٢٩﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾، أخص من السؤال المثبت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [الحجر]؛ لأنّ هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أنّ السؤال نوعان: أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، سؤال استخبار واستعلام؛ لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿قَالُوا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ لِيَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [٢٢] مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ [الصفافات]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [٢٢] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا... الآية [الطور: ١٣ - ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

أما سؤال المؤودة في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير]، فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب؛ لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه؛ لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن، وقد بينا بقيتها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في أول سورة الأعراف.

وقد قدمنا طرقات من هذا في هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزْمِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذَنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ يَسْمِعُهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [٨١]. قوله بسميهم: أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾... الآية [آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ ذُلًّا مَّا كُنْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشَيْتِمْ وُجُوهُهُمْ قَطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا قَرَّةٌ﴾ [٨١] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ [عبس]؛ لأن معنى قوله: ﴿تَرْفَعُهَا قَرَّةٌ﴾ [٨١] أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَيَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ [طه: ١٠٢]، ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون؛ ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوأ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال:

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود
ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا
قَدَرٌ﴾ [عبس]، فإن ذلك يزيده قبحاً على قبح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَبُذِّخُوا بِالْأَقْدَامِ﴾، قد قدّمنا تفسيره
والآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى
نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٤٣] ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَّانٍ﴾ [٤٤].
أما قوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٤٣]، فقد قدّمنا الآيات الموضحة له
في سورة الطور، أيضاً في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا
تُكَذِّبُونَ﴾ [٤٧].

وأما قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيمٍ مَّانٍ﴾ [٤٤]؛ فقد قدّمنا الآيات الموضحة له
في سورة الحج، في الكلام على قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ﴾ ... الآية [الحج: ١٩، ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [٤٥]. قد بيّنا في ترجمة هذا الكتاب
المبارك، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن، فنذكر ذلك
كله مبينين أنه كله حق، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك
هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما
يشهد له قرآن:

أحدهما: أن المراد بقوله: مقام ربه: أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم مصدر
بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه
بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٤٥]
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات]، فإن قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٥]:
قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهى نفسه عن هواها.

والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هو الله تعالى: أي
خاف هذا العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات
الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي قَامَ الْقِيَوْمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
تُقِضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن:

﴿يَقُولُونَ لِمَ آتَيْنَا بِكَ آيَاتٍ كَذِبًا﴾، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿مُكَيِّدِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾. قد بينا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَسْتَخْرِجُهُا مِنْهُ حَلِيَةً تَلَّسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبيننا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الأمة في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضُ الْوَعْدِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُفُفِ عَيْنٌ﴾ [الصافات: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. قد قدمنا معنى القصر في الخيام، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُفُفِ عَيْنٌ﴾ [الصافات]، وقدّمنا الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات. وغير ذلك.



باسم الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [١] لَيْسَ لَوْفَعِنَا كَذِبَةٌ [٢].

الذي يظهر لي صوابه أن «إذا» هنا هي الظرفية المضمنة معنى الشرط، وأن قوله الآتي: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [٣]؛ بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [١]؛ وأن جواب «إذا» هو قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا هو اختيار أبي حيان خلافاً لمن زعم أنها مسلووبة معنى الشرط هنا، وأنها منصوبة بذكر مقدرة أو أنها مبتدأ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها.

والمعروف عند جمهور النحويين أن «إذا» ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه، وعليه فالمعنى: إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [١]؛ أي قامت القيامة، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والأزفة والقارعة.

وقد بين - جلّ وعلا - أن الواقعة هي القيامة في قوله: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَجِدَّةٌ ۝١٣﴾ وَجِلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكُّا ذَكَّةً وَجِدَّةٌ ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ لِقَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ۝١٦﴾؛ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق، وبعضها يشهد له قرآن:

الوجه الأول: أن قوله «كاذبة» مصدر جاء بصفة اسم الفاعل، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة، والعاقبة بمعنى العقبى، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلماء: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ۝١١﴾ [الغاشية]، قالوا معناه لا تسمع فيها لغواً، وعلى هذا القول، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة. ومن هذا المعنى، قولهم: حمل الفارس على قرنه فما كذب، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن.

ومنه قول زهير:

ليث بعثَر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ۝١٨٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ۝٧﴾ [الحج: ٧]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝٩﴾ [آل عمران: ٩]، وقد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة لهذا في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

الوجه الثاني: أن اللام في قوله: «لوقعتها» ظرفية، و«كاذبة» اسم فاعل صفة لمحذوف أي: ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة، بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاعتراف بالقيامة مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها.

وهذا المعنى تشهد له في الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝١٦﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رَيْبٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: ٥٥].

وقد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ۝١١﴾ [النحل]، وباقى الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لا يخلو من بعد عندي، ولذا لم أذكره، وأقربها عندي الأول.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٢﴾. خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة، ومفعول كل من الوصفين محذوف.

قال بعض العلماء: تقديره هي خافضة أقواماً في دركات النار، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ (٧٥) جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا، رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٧٦) وَإِذَا مَرُؤًا بِهِمْ يَقَامُونَ (٧٧) [المطففين]. إلى قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٧٤) عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ (٧٥) [المطففين]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: تقديره، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوْكَبُ انْثَرَّتْ﴾ (١١) [الانفطار] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (١١) [التكوير].

رافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، فقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقد قدّمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن. وقد صرح تعالى بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضاً يوم القيامة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَتَحَ فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ... الآية [الحاقة: ١٣، ١٤].

وعلى هذا القول: فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب؛ ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً، وقد قدّمنا مراراً أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ (٤) وَتُسَرُّ الْجِبَالُ بِسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦).

قد قدّمنا أن الأظهر عندنا أن قوله: «إذا رجّت» بدل من قوله: «إذا وقعت الواقعة»، والرج: التحريك الشديد، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكاً شديداً جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا﴾ (١) [الزلزلة]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقوله تعالى: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً وكلها حق، وكلها يشهد له قرآن. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنّ الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية.

الوجه الأول: قال أكثر المفسرين: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي فتت تفتتاً حتى صارت كالبيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً، وهو البيسة:

١ - لا تخبزوا خبزاً وبسا بساً ٢ - ولا تطيلاً بمناخ حبساً

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، فقلوه: ﴿كَغِيًّا مَهِيلاً﴾؛ أي رملاً متهايلاً، ومنه قول امرئ القيس:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل
ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل؛ واضحة، فقلوه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٥] مطابق في المعنى لتفسير ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق، والرمل المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهاً في بعض الآيات بالصوف المنفوش الذي هو العهن، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ [المعارج]، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف؛ لأنه الصوف المصبوغ خاصة؛ ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحممر ومختلف ألوانها وغرايب سود، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباءً منبثاً بالفاء على قوله: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾، لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها: ﴿مُنْبَثًّا﴾ أي متفرقاً، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لكون اليس بمعنى التفتت والطحن.

الوجه الثاني: أنّ معنى قوله: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام، والعراق ييسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ...﴾ الآية [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَنُسِرُّ الْجِبَالَ سِرًّا﴾ [الطور: ١٧].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله: ﴿وَنَزَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدَةً وَهُمْ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿وَنُسِرَّتِ الْجِبَالَ سِرًّا﴾؛ نزعته من أماكنها وقلعت. وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة، وأطوارها، بالآيات القرآنية وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾. كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا]، والهباء إذا انبث، أي تفرق، واضمحل وصار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَرٌّ يَجِدُهُ سَيِّئًا﴾ [النور: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾. أي صرتم أزواجاً ثلاثة، والعرب تطلق كان بمعنى صار، ومنه ﴿وَلَا نَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكُنَّا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] أي فتصيرا من الظالمين.

ومنه قول الشاعر:

بتيهَاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

وقوله: أزواجاً: أي أصنافاً ثلاثة، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله: ﴿فَأَصْحَبُ الْيَمِينَةِ مِمَّا أَصْحَبُ الْيَمِينَةِ ۖ وَأَصْحَبُ الشَّقَّةِ مِمَّا أَصْحَبُ الشَّقَّةِ ۖ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمَقْرُونُونَ﴾ [١١] في جَنَّتِ النَّبِيرِ [١٢]؛ أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مِمَّا أَصْحَبُ الْيَمِينِ﴾ [١٣] في سِدْرِ خَضُودٍ [١٤]... الآيات، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿أَصْحَبُ الشِّمَالِ فِي سَمُورٍ وَحِمِيرٍ﴾ [١٥]... الآيات.

قال بعض العلماء: قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة. وقيل: لأنهم عن يمين أبيهم آدم، كما رآهم النبي ﷺ كذلك ليلة الإسراء. وقيل: سمو أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين، أي مباركون على أنفسهم؛ لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن: البركة.

وسمي الآخرون أصحاب الشمال، قيل: لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي الشمال شؤماً، كما تسمي اليمين يُمناً، ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم: فعصوا الله فأدخلهم النار، والمشائيم ضد الميامين، ومنه قول الشاعر:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بسين غرابها

وبين - جلّ وعلا - أن السابقين هم المقربون، وذلك في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** (١١)، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هي وجزاؤها في أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضاً في آخرها، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١٨) **فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَيْبٍ** (١٩) **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٢٠) **فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٢١) **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ** (٢٢) **فَنَزُلُ مِنْ حِمِيرٍ** (٢٣) **وَنَصْلَةٍ حَمِيرٍ** (٢٤). والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال.

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة في سورة البلد في قوله تعالى: ﴿فَكَ رَقَبٍ﴾ (١٣) **أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ** (١٤) **يَسْمًا ذَا مَقَرٍّ** (١٥). إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (١٨) **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَلَتْنَاهُمْ أَصْحَابُ الشَّشَمَةِ** (١٩) **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ** (٢٠) [البلد].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾، وقوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الشَّشَمَةِ﴾، استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة، وشأن هؤلاء في الشقاوة، والجملة فيهما مبتدأ وخبر، وهي خبر المبتدأ قبله، وهو «أصحاب الميمنة» في الأول و«أصحاب المشأمة» في الثاني.

وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) **مَا الْحَاقَّةُ** (٢) [الحاقة]، و﴿الْقَارِعَةُ﴾ (١) **مَا الْقَارِعَةُ** (٢) [القارعة]. والرباط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر كما لا يخفى، وقوله: والسابقون لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين.

والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف، ومنه قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري لله دري ما أجبن صُدري

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه.

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) **وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ** (١٤).

وقوله: ثلة: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير، هم ثلة، والثلة الجماعة من الناس، وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل، وهو الكسر.

وقال الزمخشري: والثلة من الثل، وهو الكسر، كما أن الأمة من الأم وهو الشبح، كأنها جماعة كسرت من الناس، وقطعت منهم. اهـ منه.

واعلم: أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة، ومنه قول الشاعر:

فجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزبد

لأن قوله: تيار من السيل: يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالثلة.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلاثة من الأولين، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلاثين المذكورتين في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤). فقال بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة.

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» الحديث. والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد بالقليل، وثلاثة من الآخرين، وهم من يعد ذلك إلى قيام الساعة. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة، والمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: ظاهر القرآن في هذا المقام: أن الأولين في الموضعين في الأمم الماضية، والآخرين فيهما من هذه الأمة، وأن قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)؛ في السابقين خاصة، وأن قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)؛ في أصحاب اليمين خاصة.

وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم، وكون قليل من الآخرين في خصوص السابقين، وكون ثلاثة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة؛ لأن قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١)؛ إلى قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ (١١)؛ لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة، وأن الجميع مستوون في الأهوال والحساب والجزاء.

فدل ذلك على أن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧)؛ عام في جميع أهل المحشر، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة، ومنهم من هو من هذه الأمة. وعلى هذا، فظاهر القرآن أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة؛ لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة، بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤)؛ وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة: ﴿وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤).

ولا غرابة في هذا؛ لأن الأمم الماضية أمم كثيرة. وفيها أنبياء كثيرة ورسول، فلا مانع من أن يجتمع من سابقها من لدن آدم إلى محمد ﷺ أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها.

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم؛ لأن الثلاثة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العديدين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أنهما كلاهما كثير.

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة.

فأما كون قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين، فلأن الله قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)، ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤). وأما كون قوله: ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا هُمْ يَحْصَوْنَ﴾ (١٥)؛ في خصوص أصحاب اليمين، فلأن الله تعالى قال: ﴿لَجَعَلْنَهُمْ أَكْبَارًا﴾ (١٦) عَرَبًا أَزْوَاجًا (١٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٢٨) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٢٩) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٣٠)، والمعنى هم أي أصحاب اليمين: ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وهذا واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ (٣١) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ (٣٢). السرر جمع سرير، وقد بين تعالى أن سررهم مرفوعة في قوله في الغاشية: ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾؛ منسوجة بالذهب، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت، وكل نسج أحكم ودخل بعضه في بعض، تسميه العرب وضناً، وتسمي المنسوج به موضوناً ووضيئاً، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم نسجها ودخل بعض حلقاتها في بعض.

ومنه قول الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيراً فعييراً
وقوله أيضاً:

وبيضاء كالنهي موضونة لها قونس فوق جيب البدن
ومن هذا القيل تسمية البطان الذي ينسج من السيور، مع إدخال بعضها في بعض وضياً.
ومنه قول الراجز:

إليك تعدو قلقاً وضيئها معترضاً في بطنها جنيئها
مخالفاً دين النصارى دينها

وهذه السرر المزينة، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣١]. وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ (٥١) [يسر]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾؛ حال من الضمير في قوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾؛ والتقدير: استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليها.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى في الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) [الحجر]. وقوله في الصافات: ﴿أُولَئِكَ هُم رَرَقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤١) فَوَكَهَهُمْ فَاكْرُمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) [الصافات].

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٨﴾﴾ [الطور].
قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ ﴿٩﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الطور]، وفي المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... الآية [المائدة: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَتَخِفُّونَ ﴿١٢﴾ وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٣﴾﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهْمٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿٢٤﴾... الآية [النساء: ٥٧]، وفي الصفات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتِ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الصفات]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْنِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٦﴾﴾. قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم]، وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهد من القرآن وكلام العرب، وبيننا كلام أهل العلم في حكمه شرعاً.

قوله تعالى: ﴿وَطَلٍ مُّتَدَوِّرٍ ﴿٢٦﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢٧﴾ وَفَكَهْمٍ كَثِيرٍ ﴿٢٨﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٩﴾﴾. أما قوله: ﴿وَطَلٍ مُّتَدَوِّرٍ ﴿٢٦﴾﴾، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]. وأما قوله: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢٧﴾﴾؛ فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥]. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر]. وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة، والمفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أ حدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الإنسان]. وأما قوله: ﴿وَفَكَهْمٍ كَثِيرٍ ﴿٢٨﴾﴾... الآية. فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهْمٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ لِّعَلَّاهُمْ أَتْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْيَا أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾. الضمير في «أنشأناهم». قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى المذكور، وقال بعض العلماء: هو راجع إلى غير المذكور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال إنه راجع إلى مذكور، قال هو راجع إلى قوله: ﴿وَفُتِي مَرْفُوعَةً﴾ (٣٤)؛ قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً وفراشاً ونعلاً، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله: ﴿مَرْفُوعَةً﴾ [عبس: ١٤]، رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن؛ لأنهن يتكنن عليها مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ (٣٥) لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: إن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمطاً رمصاً، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه ﷺ، وعلى هذا القول: فمعنى أنشأناهن إنشاءً أي خلقناهن خلقاً جديداً.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ﴾؛ أي فصيرناهن أبكاراً، وهو جمع بكر، وهو ضد الثيب. وقوله: ﴿عُرْبًا﴾؛ قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم: «عُرْبًا» بضم العين والراء، وقرأه حمزة وشعبة «عُرْبًا» بسكون الراء، وهي لغة تميم، ومعنى القراءتين واحد، وهو جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعيل، وهذا هو قول الجمهور. وهو الصواب إن شاء الله.

ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾؛ جمع ترب بكسر التاء، والترب اللدة. وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد، ومعناه في الآية: أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز، ولكنهن كلهن على سن واحدة في غاية الشباب.

وبعض العلماء يقول: إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي ﷺ، وكون الأتراب بمعنى المستويات في السن مشهور في كلام العرب.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أبرزوها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة، جاءت موضحة في آيات أخر.

أما كونهن يوم القيامة أبكاراً، فقد أوضحه في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْمِزْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، في الموضعين لأن قوله: ﴿لَمْ يَلْمِزْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، نص في عدم زوال بكارتهن، وأما كونهن عرباً أي

متحبات إلى أزواجهن، فقد دل عليه قوله في الصفات: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ﴾ [الصفات]، لأن معناه أنهم قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهم لهم واقتناعهم بهم، كما قدّمنا إيضاحه، ولا شك أن المرأة التي لا تنظر إلى غير زوجها متحبة إليه حسنة التبعل معه.

وقوله في ص: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الظَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ [ص]، وقوله في الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَصْرِتُ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن]، وأما كونهن أتراباً فقد بينه تعالى في قوله في آية ص هذه: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الظَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ [ص]، وفي سورة النبأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [النبأ].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾؛ يتعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿جَنَّاتُنْهُمْ﴾ أي: أنشأناهم وصيرناهم أكراماً لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَجَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾. قد قدّمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة، وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٢٧].

وقد قدّمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُدُّهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وبيننا هناك أن صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا: ﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٢﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾؛ وقوله في المرسلات: ﴿أَنفُلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلَكِّ شَعْبٍ ﴿٢٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٢١﴾﴾.

وقوله: ﴿مِّنْ يَحْمُومٍ﴾؛ أي من دخان أسود شديد السواد، ووزن اليعموم يفعول، وأصله من الحمم وهو الفحم، وقيل: من الحم، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَيْسَتِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا مُتَشَفِّينَ ﴿٣١﴾ فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾... الآية [الطور: ٢٦، ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما ذكر - جلّ وعلا - ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين أي متنعمين، وقد قدّمنا أن القرآن دل على أن الإتراف والتنعّم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة؛ لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق]، وقد أوضحنا هذا في الكلام على آية الطور المذكورة آنفاً.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار؛ لأن قوله

تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا﴾... الآية [الصفات: ٥٣]. جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَنَ قَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَ خَلْقٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الرعد].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالْآيَاتِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله: ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الصفات]، وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٨﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَيَّ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّمْلُومٍ ﴿٩﴾﴾؛ جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبيننا فيه أنّ البعث الذي أنكروا، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في الصفات: ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَسَمٌ وَمَا نَسَمٌ دَرَجُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصفات]. وقوله: ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٧﴾﴾، قرأه عامة القراء السبعة، غير ابن عامر وقالون عن نافع: «أَوْ ءَابَاؤُنَا» بفتح الواو على الاستفهام والعطف، وقد قدمنا مراراً أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء وثم نحو «أَوْ ءَابَاؤُنَا»، «أفأمن أهل القرى»، «أثم إذا ما وقع»، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين.

الأول: منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف، ولكنها قدمت عليه لفظاً لا معنى؛ لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله.

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين، بأداة الإنكار التي هي الهمزة المقدمة عن محلها لفظاً لا رتبة، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب، وهو الذي صرنا نميل إليه أخيراً بعد أن كنا نميل إلى غيره.

الوجه الثاني: هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي، وأنها متعلقة بجملة محذوفة، والجملة المصدرة بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذي بعد الهمزة، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشفه، وربما مال إلى غيره.

وعلى هذا القول، فالتقدير: أمبعوثون نحن وءاباؤنا الأولون؟! وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله: «وءاباؤنا، معطوف على واو الرفع في قوله: لمبعوثون. وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما.

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر: «أَوْ أَبَاؤُنَا» بسكون الواو، والذي يظهر لي على قراءتهما «أو» بمعنى الواو العاطفة، وأن قوله: «أَبَاؤُنَا»، معطوف على محل المنصوب الذي هو اسم إن؛ لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز بلا نزاع؛ لأن اسمها وإن كان منصوباً فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

وجائز رفعك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكملاً

وإنما قلنا إن «أو» بمعنى الواو؛ لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن: ﴿فَالْمُفْقِتِ ذِكْرًا ۝ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝﴾ [المرسلات]، لأن الذكر الملقى للعذر، والنذر معاً لا لأحدهما؛ لأن المعنى أنها ألقت الذكر إذاراً وإنذاراً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفِغْ مِنْهُمْ أَيْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي ولا كفوراً، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ما بين ملجم مهره أو سافع

فالمعنى ما بين الملجم مهره وسافع: أي أخذ بناصيته ليلجمه، وقول نابغة ذبيان:

قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت ستاً وستين لم تنقص ولم تزد

فقوله: أو نصفه؛ بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى اليتين المذكورين؛ لأن مرادها أنها تمت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لها مع حمامتها التي معها، ليكون الجميع مائة حمامة، فوجدوه ستاً وستين ونصفها ثلاث وثلاثون، فيكون المجموع تسعاً وتسعين، والمروى في ذلك عنها أنها قالت:

ليت الحمام لي إلى حمامتيه

ونصفه قدييه تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى: ﴿إِنِّدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكَا وَعَظَمْنَا أَوَّانَا لَمَبْعُوثُونَ﴾؛ أجمع عامة القراء على إثبات همزة الاستفهام في قوله: إذا متنا، وأثبتها أيضاً عامة السبعة غير نافع والكسائي في قوله: أنا، وقرأه نافع والكسائي إنا لمبعوثون، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر، كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع بقوله:

فصل والاستفهام إن تكررا فصير الثاني منه خبراً

واعكسه في النمل وفوق الروم إلخ

والقراءات في الهمزتين في «إذا» و«أنا» معروفة، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين. ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة.

ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان، ورواية ورش عن نافع هي تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف. وهذه هي قراءة ابن كثير وورش؛ فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان.

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين، وبينهما ألف الإدخال.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال، هذه هي القراءات الصحيحة، في مثل إذا وأنا، ونحو ذلك في القرآن.

تنبيه: اعلم: وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الإفريقية من إبدال الأخيرة من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر وأعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم وتعد لحدود الله، ولا يعذر فيه إلا الجاهل الذي لا يدري، الذي يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة، وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله ﷺ، ولم ينزل عليه به جبريل البتة، ولم يرو عن صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء، ولا يجوز بحال من الأحوال، فالتجرؤ على الله بزيادة حرف في كتابه، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء البتة، هو كما ترى، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف في كتابه لم يأذن بإدخاله الله ولا رسوله.

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها؛ لأن جريان العمل بالباطل باطل، ولا أسوة في الباطل بإجماع المسلمين، وإنما الأسوة في الحق، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله ﷺ، وهذا لا خلاف فيه.

وقوله تعالى: ﴿مِثْنَا﴾، قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم متنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم «مِثْنَا» بكسر الميم، وقد قَدَّمْنَا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلَّغْنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ مِيقَاتٍ يَوْمَ تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾. لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين في الآية المتقدمة، أمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم خبراً مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافُي﴾ [التغابن: ٩]،

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَا وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات] وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقد قدمنا هذا موضحاً في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْأَصْلَاحُ الْمَكْذُوبُونَ﴾ ٥١ ﴿لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ﴾ ٥٢ ﴿قَالُوا وَمِنَ الْبُطُونِ﴾ ٥٣ ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمِيمِ﴾ ٥٤ ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْعَمِيمِ﴾ ٥٥. قد قدمنا إيضاح هذا وتفسيره في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزْلُكُمْ يَوْمَ الْآلِينَ﴾ ٥١. النزول بضمين: هو رزق الضيف الذي يقدم له عند نزوله إكراماً له، ومنه قوله: ﴿إِنَّ الْآلِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف]، وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا في عذابهم المذكور في قولهم: ﴿لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ﴾ ٥٢؛ إلى قوله: ﴿شَرِبَ الْعَمِيمِ﴾ ٥٥. هذا نُزْلُكُمْ؛ أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقيقير الذليل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿هَٰذَا نُزْلُكُمْ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ٥٣. وقوله تعالى في آخر الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لَكَافٍ نُزُلًا﴾ [الكهف: ٦٠٢]، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقوله: ﴿يَوْمَ الْآلِينَ﴾ أي يوم الجزاء كما تقدم مراراً.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ ٥٧. لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال: نحن خلقناكم هذا الخلق الأول فلولا تصدقون، أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني؛ لأن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى.

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحاً في آيات كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾

[الزوم: ٢٧]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة، والنحل، والحج، والجاثية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، «لولا» حرف تحضيض، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾. قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم في همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف، وذكرنا قبل هذا مراراً، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، يعني أفرأيت ما تصبونه من المني في أرحام النساء، فلفظة «ما» موصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد إلى الصفة محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، والتقدير: أفرأيت ما تمنونه، والعرب تقول: أمني النطفة بصيغة الرباعي، يمنيها بضم حرف المضارعة، إذا أراقها في رحم المرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤١﴾﴾ [النجم]، ومنى يمني بصيغة الثلاثي لغة صحيحة. إلا أن القراءة بها شاذة.

وممن قرأ: «تُمْنُونَ» بفتح التاء مضارع في الثلاثي المجرد، أبو السمال وابن السميعة، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، استفهام تقرير، فإنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، فيقال لهم: إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحم، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من الابتداء، والضمير المنصوب في «تخلقونه» عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطفة علماً، ثم مضاعفاً إلى آخر أطواره.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره، وعلى أنه المعبود وحده، ببيان أطوار خلق الإنسان، جاء موضحاً في آيات أخر، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفى بالآيات القرآنية، وبيننا ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥].

وذكرنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضاً، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]، وفي غير ذلك من المواضع. وبيننا الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلاً في الحج.

تنبيه: هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نقطة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه؛ لأن الله - جلّ وعلا - وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا للدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ﴾... الآية [الطارق: ٥، ٦]، وقد قدّمنا شرحها في أول سورة النحل. وقرأ هذا الحرف نافع، «أفرايتم» بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين.

والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها.

وقرأه الكسائي: «أفرايتم» بحذف الهمزة، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿أَشْرَفُ﴾؛ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروایتين بتسهيل الهمزة الثانية، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفاً مشبّعاً مدها لسكون النون بعدها، وقرأه عاصم وحزمة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين، وقالون، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ قَدَرْنَا يَنْكَرُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ﴾ [١١] عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْتَلَكُمْ وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ [١٢]. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير، «قَدَرْنَا» بتشديد الدال، وقرأه ابن كثير بتخفيفها. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أَنَّ الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحاً، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن في قوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ وجهين من التفسير وفيما تتعلق به ﴿عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ﴾؛ وجهان أيضاً، فقال بعض العلماء، وهو اختيار ابن جرير أن قوله: ﴿قَدَرْنَا يَنْكَرُ الْمَوْتَ﴾؛ أي قدرنا لموتكم أجلاً مختلفاً وأعماراً متفاوتة؛ فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُبَدِّلُ إِلَى آدِلٍ الْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ مِنْ قَبْلٍ وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه؛ أي وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم، فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً أخرناه ولا يؤخر أجلاً قدّمناه.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ الآية [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾؛ ليس متعلقاً بمسبوقين بل بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم؛ أي نبدل من الذين ماتوا أمثلاً لهم نوجدتهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذي ماتوا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة «قَدَرْنَا» بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة «بينكم».

الوجه الثاني: أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وعلى هذا القول فقوله: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ﴾: متعلق بمسبوقين أي ما نحن بمغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦] ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقد قدمنا هذا في سورة النساء. في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

وقال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون. إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) مَأْتَرٌ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾. تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣)، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أنتم تزرعون، أي تجعلونه زرعاً، ثم تنمونوه إلى أن يصير مدركاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم. وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَبَرَّتْ إِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَمْوَاتَ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى مَأْتَرٍ رَحِمَتْ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ آيَاتِهِ الْقَوِيَّةِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٥) [الروم]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا مِثْقَالًا سُفْقَتْهُ لِيلٌ مِثَّتِ فَاَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الاعراف: ٥٧].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجمعة، وغير ذلك من المواضع، وأحلنا عليها مراراً.

تنبيه: اعلم: أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الله - جلّ وعلا - وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَاً وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلًّا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبَّا ﴿٣١﴾ مَثَلًا لِّكَ وَلِأَعْمَرَ ﴿٣٢﴾ [عبس].

والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقي به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض، من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل؟ ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَعْجَبْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ٩٩]، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه؛ أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الإنعام، ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فاللزام أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: ﴿أَنَا صَيِّتُ الْمَاءَ صَيًّا ۖ ثُمَّ نَسْفَتْنَا الْأَرْضَ﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦]، أي عن النبات شقاً إلى آخر ما بيناه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾؛ يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً؛ أي فتاتاً وهشيماً، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط، وتقديره كما ذكرنا.

وقوله: ﴿فَطَلَّثْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾. قال بعض العلماء: المعنى فظلتهم تعجبون من تحطيم زرعكم. وقال بعض العلماء: تفكهون بمعنى تندمون على ما خسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يَبْغِيكَ كَذِبُهُ عَلَىٰ مَا أُنْفِقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال بعض العلماء: تندمون على معصية الله التي كانت سبباً لتحطيم زرعكم، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأخير.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۚ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۚ ۞﴾.

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك أيضاً آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرايتم الماء الذي تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة، ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً في أقرب وقت: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۚ ۞﴾؟.

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ جاء في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا لَّهُمْ فِيهِ سُبْحَاتٌ ۚ ۞﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۚ ۞﴾ [النحل: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۚ ۞﴾ [التحوى: ١٨]، ﴿لِنُخَسِّ بِهٖ بَلَدَهُ مَبِيتًا وَنُسْقِئَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا ۚ ۞﴾ [الفرقان: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقِئَكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۚ ۞﴾ [النحل: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾؛ أي لو نشاء جعله أجاجاً لفعلنا، ولكن جعلناه عذباً فراتاً سائغاً شرابه، وقد قدمنا في سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى لو شاء لجعل الماء غير صالح للشرب، جاء معناه في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] لأنّ الذهاب بالماء وجعله غوراً لم يصل إليه وجعله أجاجاً، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن الله أسكنه في الأرض وخزنه فيها لخلقه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقد قدمنا هذا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزًا وَمَا أَنْشَرْنَاهُمْ إِلَّا بِمِزْرِ نَجْدٍ﴾ [الحجر: ٢٢]، وفي سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ ... الآية [سبأ: ٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا شَكَرْتُمْ﴾؛ «فلولا» بمعنى هلاً، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض، والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم: أنّ الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده.

فشكر العبد لربه ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا إلى ما يرضي من خلقها وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا: ﴿فَلَوْلَا شَكَرْتُمْ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه لغوي: اعلم: أنّ مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة، وإلى المنعم أخرى، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْعَيْتْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ ... الآية [النمل: ١٥٢]، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك: نحمد الله ونشكر له، ولم تأت في القرآن

معدة إلا باللام، كقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاهُ تَسْبُوتَ﴾ [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿فَاقْبَلُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه هي اللغة الفصحى، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن، ومن ذلك قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر جبل من اتقى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وقول جميل بن معمر:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما على عذبة الأنياب طيبة النشر
فإنكما إن عجتما لي ساعة شكرتكما حتى أغيب في قبري

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام، وعدم اقترانه بها كلاهما سافح؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾؛ باللام ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُلْحًا﴾ بدونها.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۖ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۖ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَثًا لِلْفَاقِينَ ۖ ۞﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي تُورُونَ﴾؛ أي توقدونها من قولهم: أورى النار إذا قدها وأوقدها، والمعنى: أفرأيت النار التي توقدونها من الشجر أنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها، أي أوجدتموها من العدم؟

والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا قدرة لنا بذلك، فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟! وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، جاء موضحاً في يس في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۖ ۞﴾ [يس]. فقوله في آخر يس: ﴿تُوقَدُونَ﴾؛ هو معنى قوله في الواقعة: ﴿تُورُونَ﴾؛ وقوله في آية يس: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾؛ بعد قوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث.

وقوله هنا: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾؛ أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب: في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار؛ لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار منهما، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار. ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب.

وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً﴾؛ أي نذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا شدة

حرارتها؛ نار الآخرة التي هي أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه ﷺ: أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة، فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾؛ أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض؛ وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون؛ لأنهم يتتفعون بالنار انتفاعاً عظيماً في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد.

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً للامتنان. وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين؛ لأنه جيء به للامتنان أي وهي متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران، وكل شيء خلا من الناس يقال له أقوى، فالرجل إذا كان في الخلا قليل له: أقوى. والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت.

ومنه قول نابغة ذبيان:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقول عنترة:

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وقيل: للمقوين: أي للجائعين، وقيل غير ذلك، والذي عليه الجمهور هو ما ذكرنا.
قوله تعالى: ﴿فَلَا أَسْأَلُ بِمَوْقِعِ الْجُورِ ۖ وَإِنَّهُمْ لَفَسَّوْا نَافِثَاتٍ لِّئَلَّا يَعْلَمُوا عَظِيمَ﴾ (٧٦).
قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦).

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله - جلّ وعلا - في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن: ﴿وَلَهُمْ لَحْزَرُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾ وَلَهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ [الحاقة]، والحق هو اليقين.

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠٩]، والدار هي الآخرة، وقوله: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ [فاطر: ٤٣]، والمكر هو السوء بدليل قوله بعده: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقوله: ﴿بَيْنَ حَبْلٍ أَلْوَيْدٍ﴾ [ق: ١٦]، والحبل هو الوريد، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والشهر هو رمضان.

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل
والبكر هي المقانات.

وقول عترة:

ومشك سابعة هتكت فزوجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله: هتكت فزوجها؛ يعني الدرع، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع؛ لأن السير لا تمكن إرادته في بيت عترة هذا خلافاً لما ظنه صاحب تاج العروس، بل مراد عترة بالمشك الدرع، وأضافه إلى السابعة التي هي الدرع كما ذكرنا، وإلى هذا يشير ما ذكره في باب العلم: وعقده في الخلاصة بقوله:

وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أن قوله في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهماً إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية.

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز؛ لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوباً أظهر.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)؛ التسبيح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والظاهر أن الباء في قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ داخلية على المفعول، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه، كقوله: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، والمعنى: وهزي جذع النخلة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ﴾ [الحج: ٢٥]، أي إلحاداً، إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة، وعليه، فالمعنى: سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى].

وقال القرطبي: الاسم هنا بمعنى المسمى؛ أي سبح ربك، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم؛
لأن أسماء الله أحد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها
بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك
في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿أَيُّ مَا نَدْعُوهُ فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى
أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قد قدّمنا مراراً أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وأصله
في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم سبّح: إذا صار بعيداً، ومنه قيل للفرس: سابح؛
لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة في معلقته:

إذ لا أزال على رحالة سابح نهّد تعاوره الكماة مكلم
وقول عباس بن مرداس السلمي:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سوابح كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبّح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الأنعام: ١٠٩].
[الإنسان]، وقد يتعدى باللام كقوله هنا: سبّح لله، وعلى هذا فسبحه وسبّح له لغتان
كنصحه ونصح له. وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر، وهو أن
المعنى: سبّح ما في السماوات والأرض، أي أحدث التسبيح لأجل الله أي ابتغاء
وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: سبّح لله أي صلى له. وقد قدّمنا أن
التسبيح يطلق على الصلاة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل السماوات والأرض يسبحون لله؛ أي
ينزهونه عما لا يليق، بينه الله - جلّ وعلا - في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في

سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر].
 وقوله في الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف].
 أيضاً، وقوله في الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَّا يُسَبِّحَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة]، وقوله في التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ
 الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن].

وزاد في سورة بني إسرائيل، أنَّ السماوات السبع والأرض يسبحن الله مع ما فيهما
 من الخلق وأن تسبح السماوات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا
 نفهمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
 بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على
 أن تسبح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾
 [الأنبياء: ٧٩]، ونحو ذلك تسبح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبح
 الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها؛ لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها
 يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي لِقَومٍ
 يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدّمنا إيضاح هذا في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالنَّارِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد]، وفي سورة الكهف،
 في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَّقَضَ﴾ الآية [الكهف: ٧٧]، وفي
 سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وكذلك هو
 في الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: يسبح، بصيغة المضارع.
 قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك
 التسبح لله، هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل،
 ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ قد قدّمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز، هو الغالب
 الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾
 [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْحُطَابِ﴾ [ص: ٢٣]: أي غلبني في الخصام، ومن
 أمثال العرب من عزّ بَزَّ، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حَمِي يَخْتَشِي إِذِ النَّاسِ إِذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَا

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، غلب فيه غير العاقل. وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل، في نحو ما في السماوات وما في الأرض لكثرتهم. وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى في البقرة: ﴿بَلْ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَبْلُ الْفَتْحِ﴾ [البقرة: ١١٦]، فغلب غير العاقل في قوله: ما في السماوات، وغلب العاقل في قوله: قانتون.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِ﴾.

قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَنَاطٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وفي سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِ بَعَثَ الْإِسْمَاطِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاةَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٦﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾. قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ ﴿٢١﴾ [سبأ]. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

قد قدمنا إيضاحه وبيننا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة، والمعية الخاصة، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات؛ أي واضحات، وهي هذا القرآن العظيم؛ ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات؛ أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْخُذِ الْآلِيبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٠﴾ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١]، وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في

الحديد: ﴿يُخْرِجُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: ﴿يُخْرِجُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الآية.

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [يهدى به الله من أتبع رضوانكم سبيل السكينة ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم] [المائدة]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ .. [الشورى: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَبْرُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ... الآية [مريم: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٢]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهو جمع يمين، وأنهم يقال لهم: ﴿بُشْرُكُمْ أَيْمٌ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحاً في آيات آخر، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فقد بينه تعالى في سورة التحريم، وزاد فيها بيان دعائهم الذي يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَكَ نُورَنَا﴾ الآية [التحريم: ٨].

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع آخر، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضاً يبشرهم كقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [١٣] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [١٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢٠]؛ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾ [٢١] [فصلت]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يُبَادُوهُمْ آتَمَ كُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَمَتُمْ وَغَرَّكُمْ

الْأَمَانُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٠٠﴾. الضمير المرفوع في «ينادونهم» راجع؛ المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم: ﴿أَنْظُرُوا نَفْسٍ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾، وقيل لهم جواباً لذلك: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى؛ أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبيننا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا، أي ﴿فَنَتَّبِعْ أَفْسَكُمْ﴾: أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَرَبَّصْتُمْ﴾؛ التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر؛ أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾؛ أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْزِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّكَمُ الْأَمَانُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، الأمان جمع أمنية، وهي ما يمنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الآية [البقرة: ١٣]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ بَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقوله: ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، والأظهر أنه الموت؛ لأنه ينقطع به العمل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾؛ هو الشيطان، وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي الفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أن الشيطان الكثير الغرور غرهم بالله، جاء موضعاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر القمان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله في أول فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّابٌ فَاعْبُدُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله تعالى في آية السجدة وآية فاطر المذكورتين: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ وَدِيَّةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَعْدِهِمْ وَلِلَّهِ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [١١].

قد قدّمنا مراراً أنّ كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان:

الأول منهما: هو أنّ قلب مضارعة ماضوية، ونفيه إثباتاً، فيكون بمعنى الماضي المثبت؛ لأنّ لم حرف قلب مضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه. ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت. وعليه فالمعنى، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي أنّ للذين آمنوا.

والوجه الثاني: أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأتي إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

ولقد أنى لك أن تناهي طائعاً أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعاً، أي جاء الإناء الذي هو الوقت الذي تناهى فيه طائعاً، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: أن يئين كباع يبيع، وأنى يأتي كرمى يرمي، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:

ألمّا يئن لي أن تجلي عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنّه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ المصدر المنسبك من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان: رماد ككحل العين لاياً أبينه ونؤي كنجد الحوض أنلم خاشع
فقوله: خاشع أي منخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف.
وقوله: ﴿لِيُذَكِّرَ اللَّهُ﴾، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظتين، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] أَلَيْ هَلْ خَلَقَ مُوسَى [٢] وَاللَّي قَدَرُ فَهَذَى [٣] [الأعلى]، كما أوضحناه مراراً.
وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَيَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ قد قدمنا في سورة البقرة، في الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٧٤]، بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَثَلٌ غِيثٍ آعَجَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَهَيِّجُ قَرْنَهُ مُمْصَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾.
قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ قَرْنَهُ مُمْصَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾، وبيننا هناك الآية الدالة على سبب اصفاره.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٣١].

ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالقحط والجذب والجوائح في الزراعة والثمار، وفي الأنفس من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: ﴿مِنْ

قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا ۖ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة في ضمن قوله: ﴿وَقَدْ أَفْسَدْنَاكُمْ﴾؛ أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له - جلّ وعلا - قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم؛ لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: والأنفس، مما أصاب من مصيبة في الأنفس.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [٢٣]؛ وقوله في آية الحديد هذه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ أي بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم؛ لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم؛ لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: تأسوا، مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسمى بفتحتين على القياس؛ بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وقوله: «من مصيبة» مجرور في محل رفع؛ لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيده لتوكيد النفي، وما نافية.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقدّمنا هناك كلام أهل العلم في معناه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

بين الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق، وبيّن الحجة وإيضاح الأمر والنهي والشواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله - تبارك وتعالى - أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ توضّحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمْزِرُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ وَأَمْزِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]،

والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله: ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [الرعد: ١٧]؛ لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد. قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ... الآية [الزخرف: ٢٨، ٢٩]. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨).

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) - إلى قوله - ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾... الآية [الفصص: ٥٢ - ٥٤].

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إتياء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ﴾، وزادهم بقوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرِذْلَكَ يُخَيِّرْ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ فِي نَسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ إلى قوله: ﴿فَإِطَاعٌ سِتْرَيْنِ مِشْكِينًا﴾. قد قدمنا الكلام عليه موضحاً في سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وبيننا هناك كلام أهل العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة، والمعية العامة، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى بالخير، والنجوى بالإثم والعدوان، في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾. قال بعض أهل العلم: معنى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾؛ ألم ينته علمك إلى الذين تولوا. وقد قدمنا الرد على من قال: إن لفظة «ألم تر» لا تعدى إلا بحرف الجر الذي هو إلى، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول، وبيننا أن ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة.

ومن شواهد ذلك قول امرئ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار. وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، وقد صرح الله بالنهي عن ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٣].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؛ إلى قوله تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جُنَّةً، والأيمان جمع يمين؛ وهي الحلف، والجُنَّة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح، والمعنى أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر، ترساً لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف؛ أي فصَدُوا غيرهم ممن أطاعهم؛ لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد، كما أوضحناه مراراً.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة لتكون لهم جنة، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاء موضحين في آيات آخر من كتاب الله، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله - جلّ وعلا - في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ...﴾ الآية [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَدَّعُكُمْ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [التوبة: ٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُبْلِغُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿أَتُخَذُوا آمِنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون].

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بيّنه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَلُتُ﴾ [النساء: ٧٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي لأجل نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾ الآية [النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وفي معناه قول فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُ﴾ [الكهف: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم. وقوله: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي يعادون ويحالفون ويشاقون، وأصله مخالفة حدود الله التي حداها.

وقوله: ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾؛ أي الذين هم أعظم الناس ذلاً. والذل: الصغار والهوان والحقارة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله،

بَيْنَهُ - جَلَّ وَعَلَا - في غير هذا الموضع، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزي والهوان، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [ذلك بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ] [الحشر: ٤]. وقوله تعالى: ﴿فَأَضَرُّوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضَرُّوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [ذلك بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرَبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ] [الأنفال: ١٣]. **ذَلِكَ فَذُوقُوا وَآتِ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ** [١٤] إلى غير ذلك من آيات.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [١٥]. قد دلت هذه الآية الكريمة على أَنَّ رسل الله غالبون لكل من غالبهم، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به.

وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٦] **إِنَّهُمْ لَمُذْمُومُونَ** [١٧] **وَلَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** [١٨] [الصافات: ١٦]، أنه لن يقتل نبي في جهاد قط؛ لأن المقتول ليس بغالب؛ لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يُقْتَلْ﴾ الآية [النساء: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآية [غافر: ٥١]. وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفياً باتاً في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصُرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وبهذا تعلم أَنَّ الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَٰذَى قُلْتُمْ قَاتِلُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ليسوا مقتولين في جهاد، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَكَايَن مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ريثون لا ضمير النبي.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايَن مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وذكرنا بعضه في الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليغ، والزجر العظيم عن موالات أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأؤكد من إيراده بلفظ الإنشاء، كما هو معلوم في محله، ومعنى قوله: ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ الآية [التوبة: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلاً: إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أحد، وقيل: نزلت في ابن عبد الله بن أبي المنافق المشهور، وزعم من قال: إن عبد الله استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه، وقيل: نزلت في أبي بكر، وزعم من قال: إن أباه أبا قحافة سب النبي ﷺ قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط.

وقوله: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدر.

وقوله: ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير، قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأمره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾؛ قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم؛ لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾؛ أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فضلاً من الله وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات].

إلى هنا انتهى تفسير الشيخ وقد اكتفينا بتفسير الشيخ دون التتمة للشيخ عطية حفاظاً على النسق المميز لكلام الشيخ رحمه الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة مختصر الكتاب	٥
مقدمة المؤلف	٧
مقدمة في تعريف الإجمال والبيان في اصطلاح أصل الأصول	٢٦
سورة الفاتحة	٣١
سورة البقرة	٣٥
سورة آل عمران	٧٩
سورة النساء	١٠٠
سورة المائدة	١٣٠
سورة الأنعام	١٥٩
سورة الأعراف	١٨٢
سورة الأنفال	٢٠٧
سورة التوبة	٢١٧
سورة يونس	٢٢٥
سورة هود	٢٣٦
سورة يوسف	٢٥٩
سورة الرعد	٢٧٠
سورة إبراهيم	٢٧٨
سورة الحجر	٢٨٦
سورة النحل	٣٢٢
سورة الإسراء	٤١٣
سورة الكهف	٥٠٦
سورة مريم	٦١٣
سورة طه	٧٠٠
سورة الأنبياء	٧٨٢
سورة الحج	٨٣٠
سورة المؤمنون	٩٠٨
سورة النور	٩٥٦

الموضوع	الصفحة
سورة الفرقان	١٠٠٠
سورة الشعراء	١٠٦٠
سورة النمل	١٠٧٥
سورة القصص	١٠٩١
سورة العنكبوت	١٠٩٤
سورة الروم	١١٠٠
سورة لقمان	١١١٠
سورة السجدة	١١١٣
سورة الأحزاب	١١١٧
سورة سبأ	١١٢٨
سورة فاطر	١١٣٨
سورة يس	١١٤٥
سورة الصافات	١١٥٦
سورة ص	١١٧٢
سورة الزمر	١١٩١
سورة غافر	١٢٠٦
سورة فصلت	١٢٢٤
سورة الشورى	١٢٤٩
سورة الزخرف	١٢٧٦
سورة الدخان	١٣١٤
سورة الجاثية	١٣١٩
سورة الأحقاف	١٣٣٨
سورة محمد	١٣٦٢
سورة الفتح	١٣٧٩
سورة الحجرات	١٣٨٤
سورة الذاريات	١٤٠٦
سورة الطور	١٤١٨
سورة النجم	١٤٢٦
سورة القمر	١٤٣٦
سورة الرحمن	١٤٤٤
سورة الواقعة	١٤٥٨
سورة الحديد	١٤٨٢
سورة المجادلة	١٤٩٠
فهرس الموضوعات	١٤٩٥